مَجمَعُ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَة

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

المُجَلَّدُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22

نُخبةٌ مِنْ عُلماء مَجمَعِ القُرآنِ الكريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعُ

سُورَةُ الأَنفَالِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحذيرٌ ونهيٌ عن الخيانةِ بعدَ النِّعمِ وحصولِ شكرِها

في مناسبةِ هذهِ الآيةِ لما قبلَها وجهانِ:

الأوَّلُ: لمّا ذكرَ اللّهُ بعضَ أسبابِ النَّصرِ؛ ذكرَ سببًا من أسبابِ الهزيمةِ، وهو الخيانةُ، فحذَّرَ المؤمنينَ من أن يُظهِروا الطّاعةَ والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم، ويُبطِنوا المعصيةَ والخلافَ في باطنِه.

الآخر: لما ختمَ الآيةَ السّابقةَ، وهو في غايةِ النَّصيحةِ منه تعالى لهم من الإيواءِ والنَّصرِ والرِّزقِ الطَّيِّبِ المشارِ بهِ إلى الامتنانِ بإحلالِ المنعمِ، وختمَ ذلك بالحثِّ على الشُّكرِ؛ نهى في هذهِ الآيةِ عن تضييعِ الشُّكرِ في ذلك بالخيانةِ في أوامرِه بالغلولِ أو غيرِه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تذكيرًا بما ألزموا بهِ أنفسَهم من الوفاءِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخُونُواْ﴾: الخاءُ والواوُ والنّونُ: أصلٌ واحد، وهو التَّنقُّصُ، يقال: تخوَّنني فلانٌ حقّي، أي: تنقَّصني[2].

و"الخيانةُ والنِّفاقُ واحدٌ؛ إلا أنَّ الخيانةَ تقالُ اعتبارًا بالعهدِ والأمانةِ، والنِّفاق يقالُ اعتبارًا بالدّين، ثمَّ يتداخلانِ، فالخيانةُ: مخالفةُ الحقِّ بنقضِ العهدِ في السِّرِّ، ونقيضُ الخيانةِ: الأمانةُ"[3].

والخيانةُ ضدُّ الوفاءِ، فأصلُ معنى الخونِ النَّقصُ، كما أنَّ أصلَ الوفاءِ التَّمامُ، واستُعْمِلَ الخونُ في ضدِّ الوفاءِ؛ لأنَّك إذا خُنْتَ الرَّجلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/261.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خون).
(3) الراغب، المفردات: (خون).

في شيءٍ؛ فقد أدخلْتَ عليهِ النُّقصانَ - في زعمك -، واستُعمل الوفاءُ في الإتمامِ بالعهدِ؛ لأنَّ من أنجزَ بما عاهدَ عليهِ؛ فقد أتمَّ عهدَهُ(1).

ومعنى ﴿لَا تَخُونُواْ﴾: لا تنقضوا الأمانةَ، وما كُلِّفتُم به، بل أدّوا التكاليفَ بأسرِها على سبيل التّمامِ والكمالِ من غيرِ نقصٍ ولا إخلالٍ، والخيانةُ تشملُ كلَّ معصيةٍ خفيَّةٍ(2).

2) ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: الهمزةُ والميمُ والنّونُ: أصلانِ متقاربانِ، أحدُهما: الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانةِ، والآخرُ: التَّصديقُ، والأمانة: الوديعةُ الَّتي تودَعُ عند من يحفظُها كأنَّ معنى اسمِها: الَّتي ينبغي أن تحفظَ في حرزٍ أوثقَ الحفظِ، ومؤتمَنُ القوم: الَّذي يثقونَ بهِ، ويتَّخذونَهُ أمينًا حافظًا، فالأمانةُ تقعُ على الطّاعةِ والعبادةِ والوديعةِ والثِّقةِ والأمانِ(3).

ومعنى ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: أداءُ كلِّ حقٍّ ماديٍّ أو معنويٍّ إلى أهلهِ، ومن الأمانةِ أداءُ ما ائتُمِنوا عَليهِ من الطّاعةِ والامتثالِ وعدمِ الخيانةِ(4).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخيانةُ خُلُقٌ كاسرٌ وطريقٌ خاسرٌ وسلوكٌ حاسرٌ

يخاطبُ اللّهُ الَّذين من شأنِهم أن يتقبَّلوا ما سيؤمرونَ بهِ، فقد صدَّقوا اللّه ورسوله، مكرَّرًا فيهم النِّداء بقصدِ الوعي والاعتناءِ والاهتمام، فنهاهُم عن معصيةٍ خفيَّةٍ تنقضُ عهدَ الإيمانِ بينَ المؤمنِ وربِّه، وهي خيانةُ العظيمِ سبحانه بتعطيلِ فرائضِه والاعتداءِ على حدودِه وانتهاكِ محارمِه التي بيَّنها في كتابِه، ومنها الغلولُ في الغنائمِ، وكذلك نهاهُم عن خيانةِ رسولهِ ﷺ فيرغبون عن بيانه للقرآنِ إلى بيانهِ بأهوائِهم، أو ترك سنَّتهِ، أو إفشاءِ سرِّه للمشركين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/475، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324، والمراغي، تفسير المراغي: 9/192.

وأعداءِ الدّين، وكذلك نهاهم عن خيانةٍ من نوعٍ آخرَ، وهي نقضُ الوفاءِ بأداءِ ما ائتمنوا عليه، وخيانةِ بعضِهم بعضًا، فمن يخونُ غيرَهُ في أمانةٍ له إنَّما يخونُ أمَّتَهُ التي هو جزءٌ منها؛ لأنَّ للأمانةِ شأنًا عظيمًا في استقامةِ أحوالِ المسلمين[1].

ويختمُ اللّهُ نداءَهُ، وتحذيرهُ ببيانِ أمرٍ مُهمٍّ، وهو أنَّ إقدامَ الإنسانِ على الخيانةِ، وقد علمَ بفطرته أهميَّة الأمانةِ، وعلمَ بشرعِ اللّهِ عِظمها وقبح خيانتها، أو كان من أهلِ العلم والمعرفة، هو أمرٌ قبيحٌ شنيع، وفي هذا البيانِ دعوةٌ إلى الامتناعِ عن التَّفريطِ بالأمانةِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

التَّحذيرُ من الخيانةِ منهجٌ تربويٌّ لا اتِّهامٌ ضمنيٌّ

الاستئنافُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يحقّقُ اتِّساقَ النَّظمِ القرآنيِّ، فإنَّهُ وإن انقطعت الصِّلةُ الإعرابيَّةُ بين هذهِ الجملةِ المستأنفةِ والجملةِ الَّتي قبلَها، إلّا أنَّهُ لم تنقطعِ الصِّلةُ المعنويَّةُ بينهما، فبعدَ أن أمرَ المؤمنينَ بالطّاعةِ والاستجابةِ للّهِ ولرسولهِ ﷺ يهجسُ في النَّفسِ طلبُ معرفةِ حكمِ من يُظهرونَ الطّاعةَ والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم ويبطنونَ المعصيةَ، فنهتِ الآيةُ نهيًا مقصودًا منه التَّحذيرُ؛ إذ لم تسبق من المخاطبينَ خيانةٌ[2].

نكتةُ تَكرارِ النِّداءِ:

نعتُ الإيمانِ لا يجتمعُ مع خيانةٍ ولا يقترنُ بجنايةٍ

الآيتانِ السّابقتانِ لم يتصدَّرْهما نداءُ المؤمنين اكتفاءً بما وردَ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، أمّا هذه الآيةُ؛ فقد تكرَّر فيها النِّداءُ، ولم يكتفِ النَّظمُ بالمتقدِّم؛ لنكتةٍ، وهي الاعتناءُ بمضمونِ الآيةِ، والاهتمامُ بما سيُلقى على المخاطبين،

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 3/183، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/279.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/321.

قصدًا لتنبيههم على خطيرِ أمرِ الخيانةِ، وأنَّ المؤمنَ الَّذي نودي بنعتِ الإيمانِ لا تكونُ منه خيانةٌ.

فائدةُ نِداءِ المؤمنين بالاسمِ الموصولِ:

تعريفُ المؤمنينَ بالموصوليَّةِ يؤذِنُ باستعدادِهم لامتثالِ ما يأمرُهم اللهُ به

نادى اللهُ المؤمنينَ بالاسم الموصولِ (الذين) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الموصوفين بهذهِ الصِّلةِ من شأنهم أن يتقبَّلوا ما سيؤمرونَ به، يقولُ ابن عاشور: "وجعلَ طريقَ تعريفِ المنادى طريقَ الموصوليَّة لما تؤذنُ بهِ الصِّلة من الاستعدادِ لامتثال ما يأمرُهم به اللهُ تعالى؛ لأنَّ ذلك أخصُّ صفاتِهم تلقاءَ أوامرِ اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ [النور: 51]"[1].

بلاغةُ ترتُّبِ النَّهي على النِّداءِ:

عِظمُ شأنِ المنهيِّ عنه وخطورتُهُ استدعتِ المبالغةَ والتَّأكيدَ بصيغةِ النِّداءِ

رَتَّبَ القرآنُ النَّهيَ عن خيانةِ اللهِ ورسوله والأماناتِ على النَّداء، أي: لم يأتِ النَّهيُ عن هذه المعصيةِ مباشرةً؛ لأنَّ المقامَ في الآيةِ هو المبالغةُ والتَّأكيد؛ فالنَّهي هو من اللهِ العظيم، والمخاطبونَ هم المؤمنونَ الَّذين صدقوا اللهَ ورسولَهُ، فمقامهم عظيمٌ، والفعلُ المنهيُّ عنه في هذا السّياقِ - وهو خيانةُ اللهِ ورسوله والأمَّة - شأنُهُ عظيمٌ، والنَّهيُ بذلك كان عظيمًا؛ ولذلك سُبِقَ هذا النَّهيُ بالنِّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾؛ لأنَّ فيها أوجهًا من التَّأكيدِ وأسبابًا من المبالغةِ، يحتاجها المقامُ، منها: ما في (يا) من التَّأكيد والتَّنبيه، وما في (ها) من التَّنبيهِ، وما في (أي) من التَّدرُّجِ من الإبهامِ إلى التَّوضيحِ.

ثُمَّ كان هذا النِّداءُ للَّذين آمنوا بما يحملُهُ من التَّأكيدِ والمبالغةِ، لتعظيمِ النَّهي الَّذي نُهوا عنه، ولاستثارةِ بواطنِهم وتحريكِ مشاعرِهم للامتناعِ عمّا نُهوا عنه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/29.

غرضُ النَّهي:

الغرضُ البلاغيُّ للنَّهي في قولِه تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ هو التَّحذيرُ، والتَّشنيع، والتَّبشيع أن تقعَ خيانةٌ للّهِ ورسوله ﷺ كما يومِئُ النَّهيُ إلى التَّوبيخِ والتَّأنيبِ لكلِّ من خانَ الأمانةَ، وخاصَّةً أنَّهم يعلمونَ مدى عِظَمِها عند اللّهِ، وامتناع السَّموات والأرض والجبال وإشفاقها من حملِها، ثم بعد ذلك يخونها، ولذا ختمَ الآية بقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، قال ابنُ عاشور: "حذَّرهم من أن يُظهروا الطّاعة والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم، ويُبطنوا المعصيةَ والخلافَ في باطنِه، ومناسبتُهُ لما قبلَهُ ظاهرةٌ، وإن لم تسبق من المسلمين خيانةٌ، وإنَّما هو تحذيرٌ"[1].

التَّحذيرُ من خيانةِ اللهِ ورسولِه والأمَّةِ بجميعِ صورِها

كما أنَّ النَّهي هنا يفيدُ العمومَ؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النَّهي يعمُّ، فكلُّ خيانةٍ وأيُّ معصيةٍ خفيَّة فهي مرادُ هذا النَّهي[2]، وقد ذكر علماءُ التَّفسيرِ صورًا كثيرةً للخيانةِ إلّا أنَّ سياقَ هذهِ الآية وتناسقَها الموضوعيَّ مع بقيَّةِ موضوعاتِ السّورةِ تشيرُ إلى أنَّ المرادَ الأوَّل لمعنى الخيانةِ هنا هو الخيانةُ في الجهاد في سبيل اللّه، فالخيانةُ فيه من أعظم الخياناتِ، وكذا الخيانةُ بعدمِ طاعةِ وليِّ الأمرِ، وما يحصلُ من خيانةٍ في الغنائمِ وقسمتِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الخيانةِ:

الخيانةُ معصيةٌ خفيَّةٌ تجرُّ إلى عظيمِ الخطايا

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بمفردةِ الخيانةِ دونَ غيرِها؛ لأنَّ معناها إبطالٌ، ونقض ما وقع عليه تعاقدٌ من دونِ إعلانٍ بذلك النَّقضِ، وهي ضدُّ الوفاءِ، ولمّا كان الإيمانُ والطّاعةُ للّهِ ورسوله عهدًا بين المؤمنِ وبينَ اللّهِ ورسولهِ؛ ناسبَ أن يستخدمَ مفردةَ الخيانةِ لنقضِ هذا العهدِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/321.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.

كما أنَّ في اختيارِ مفردةِ الخيانةِ تحقيقًا لإيجازِ القصرِ؛ إذ إنَّ الخيانةَ على قلَّةِ مبانيها تدلُّ على كثرة معانيها، فتشملُ كلَّ معصيةٍ خفيَّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]، ومنها ما وردَ في تفسير الآية من إفشاءِ أسرارِ المسلمين للكفّارِ، كما وردَ في سبب النُّزولِ، وقد فسَّر ابنُ عبّاسٍ خيانةَ اللّه: بتركِ فرائضِه، وارتكاب معاصيه، والأمانةَ: بكلِّ ما ائتمنَ اللّهُ عليه العبادَ بألّا ينقصوها [1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ:

الخائِنُ ناقصٌ في تصوُّرِه وسلوكِه وهـو في غـايةِ الذَّمِّ القَبيحِ

في قولهِ تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ﴾ استعارةٌ؛ لأنَّ معنى الخون: النَّقصُ، كما أنَّ معنى الوفاءِ التَّمامُ، ومنه تخوَّنه؛ إذا تنقَّصَهُ، ثم استُعمل في ضدِّ الأمانةِ والوفاء، فصارت نقصًا خاصًّا؛ لأنَّ من خان في شيءٍ؛ فقد أدخلَ عليه النُّقصانَ فيه، فالخائنُ ينقصُ المخونَ شيئًا ممّا خانَهُ فيه[2]، فقد شبَّهَ سلوكَ عدمِ الوفاءِ بالحقوقِ بالخوْنِ، وهو النَّقْصُ، وصرَّحَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، على الاستعمال الشّائعِ الَّذي أصبحَ حقيقةً عرفيَّةً، فتحقَّقَ في هذه الاستعارةِ المعنى اللُّغويُّ، وهو النَّقصُ والقُبحُ العرفيُّ في استعمال هذا اللَّفظِ لما هو على الضِّدِّ من معنى الوفاءِ والتَّمام، فالخائنُ ناقصٌ في تصوُّرِه وسلوكه، وليس بعد ذلك الذَّمِّ من ذَمٍّ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ:

مَن عظَّمَ اللهَ في قلبه؛ رعـاهُ في سائرِ أعمالِه

عبَّر بالاسمِ الجليل في قولِه: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ دونَ غيرِه من أسمائهِ الحسنى؛ لتربيةِ مهابتِه وعظمته في النُّفوس التي ما خانتْ إلّا لضعفِ هذه العظمةِ في قلوبها، ولزيادةِ تبشيع هذا الفعلِ، فإنَّ الخيانةَ هي خيانةٌ لحقوقِ اللّهِ تعالى ابتداءً وانتهاءً، فمن شأنِ ذكرِ

(1) رضا، تفسير المنار: 9/534.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/355، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/475، والبقاعي، نظم الدرر: 3/206.

الاسمِ الجليلِ، ارعواء المؤمن عنِ الإقدامِ على ما يُغضبُهُ، فإنَّ الخيانَةَ مجلبةُ السُّخطِ والغضبِ.

نكتةُ العَطْفِ:

أفادَ العطفُ بالواوِ ثلاثةَ معانٍ، وهي:

خيانةُ الرَّسولِ ﷺ هي خيانةٌ لله سبحانَهُ

الأوَّل: وجودُ تغايرٍ بينَ خيانةِ اللّهِ وخيانة الرَّسول ﷺ أي: فللهِ أمانةٌ فيما نصَّ عليها القرآنُ، لا تجوز خيانتُها، وللرَّسول أمانةٌ فيما لم ينصَّ عليه القرآنُ إلّا بتفويضٍ للرَّسول بأن يشرعَ، فإن أطعت الرَّسولَ، فقد أطعتَ اللّه(1).

الثّاني: وجودُ معنًى يجمعُ بينهما، وهو أنَّ طاعةَ اللّهِ هي طاعةٌ لرسولِه، وطاعةُ الرَّسولِ هي طاعةٌ للّهِ سبحانه.

الثّالث: ذِكْرُ الرَّسولِ بعد اللّهِ تعالى؛ لتعظيم شأنه وإظهارِ شرفِهِ والإيذانِ بأنَّ خيانتَهُ ﷺ خيانةُ اللّهِ تعالى، وقال غيرُ واحدٍ: إنَّ الجمْعَ بينَ اللّهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ أوَّلًا؛ لأنَّ اختصاصَ اللّهِ تعالى بالأمرِ، والرَّسولِ ﷺ بالامتثالِ(2).

سرُّ التَّعريفِ بـ (ال) لا بالإضافَةِ:

مخالفةُ الشَّرائعِ المنسوخةِ ليستْ خيانةً للهِ تعالى

عرَّفَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (رسول) بألِ التَّعريف لا بالإضافة، فلم يقل: (ورسوله)، والحكمةُ من ذلك إفادةُ أنَّ المقصودَ من الرَّسولِ هو سيِّدنا محمَّد ﷺ لأنَّ لام التَّعريف هنا لامُ عهديَّةٌ، والمعهودُ مفردٌ فلا يقصدُ بِهِ العمومُ، بخلافِ (رسوله) فهو معرَّفٌ بالإضافة، وهي من صيغ العموم، وبالتّالي فالمعنى: أنَّ للرسول محمَّد ﷺ أمانةً فيما لم ينصَّ عليه القرآنُ إلّا بتفويض قائلِ القرآنِ للرَّسول بأن يشرِّعَ الشَّريعةَ النّاسخة والخاتمة لكلِّ الشَّرائع، فلا طاعةَ لشرعٍ يخالفها، وخاصَّة أنَّ الخطابَ للمؤمنين أتباعِ النَّبيِّ الخاتمِ ﷺ.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4665.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/154.

دلالةُ تَكرار الألفاظ:

أعادَ ذكرَ الفعلِ ﴿تَخُونُوٓاْ﴾، ولم يكتفِ بحرفِ العطفِ، الصّالح للنّيابة عن العاملِ في المعطوفِ؛ للتَّنبيهِ على نوعٍ آخرَ من الخيانة، فإنَّ خيانتهم اللّه ورسولَهُ نقضُ الوفاءِ لهما بالطّاعةِ والامتثال، وخيانةُ الأمانةِ نقضُ الوفاء بأداء ما ائتمِنوا عليهِ من أماناتِ النّاس، أي: الأمَّةُ كلُّها، فمن يخونُ غيرهُ في أمانة له إنّما يخونُ في المآل أمَّتَهُ التي هو جزءٌ منها[1]، فترجعُ الخيانةُ عليه، فكان تَكرارُ فعلِ الخيانة من باب العنايةِ الخاصة، باعتبار أنَّ الناسَ يتهاونونَ فيها في كثيرٍ من الأحوالِ، ولا ينزلونها منزلةَ خيانةِ اللّهِ تعالى، حتَّى إنَّك لتجدَ بعضَهم ينفي عن نفسِه خيانَةَ اللّهِ عند خيانةِ النّاسِ.

تهاونُ النّاسِ بخيانةِ النّاسِ يستدعي تنبيهًا خاصًّا دافعًا لهُ

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ:

الأماناتُ لا تُخانُ، وإنّما الذي يُخان أصحابُها، ولكنَّ البيانَ الإلهيَّ في قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ عدل عن ذكر المفعول الأصلي إلى ذكرِ المفعولِ المتَّسع فيه وهو (الأماناتُ)، فلم يقل: (وتخونوا النّاسَ في أماناتهم)؛ لقصد تبشيعِ الخيانة بأنَّها نقضٌ للأمانة، فإنَّ الأمانةَ وصفٌ محمودٌ مشهورٌ بالحسنِ بين النّاس، فما يكون نقضًا له يكون قبيحًا فظيعًا[2]، والنّاس يستبشعونَ خيانةَ الأمانةِ، فأتى باللَّفظِ الصَّريحِ عليها، دون ذكرِ النّاسِ؛ لتسامحِ النّاسِ في ظلم بعضِهم بعضًا.

للأمانةِ هيبةٌ في نفوسِ النّاسِ وحلاوةٌ في أسماعِهم

فائدةُ إضافةِ الجمعِ إلى مجموعِ المخاطَبينَ:

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الجمع (الأمانات) إلى مجموعِ المخاطبين الذي دلَّ عليه كافُ الخطاب وميمُ الجماعة؛ مبالغةً في تفظيع الخيانةِ، بأنَّها نقضٌ لأمانةٍ منسوبةٍ إلى ناقضِها، وهي نظيرُ قوله:

خيانةُ الفردِ خيانةٌ للأمَّةِ وخيانةُ الأمَّةِ خيانةٌ للنَّفسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: 29]، فلم يقل: (ولا تقتلوا النفس)، أي: فمن يخونُ غيرَهُ في أمانةٍ له؛ إنَّما يخونُ أمَّته الَّتي هو جزءٌ منها؛ لأنَّ للأمانةِ شأنًا عظيمًا في استقامةِ أحوالِ المسلمين ما ثبتوا عليها وتخلَّقوا بها، وهي دليلُ نزاهةِ النَّفس واعتدال أعمالها، وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ من إضاعتِها والتَّهاونِ بها، وأشارَ إلى أنَّ في إضاعتها انحلالَ أمرِ المسلمين، وقد جعلها النبي ﷺ من الإيمان، وحسبك من رفع شأنِ الأمانةِ أن كانَ صاحبُها حقيقًا بولايةِ أمرِ المسلمينَ؛ لأنَّ ولايةَ أمرِ المسلمين أمانةٌ لهم ونصحٌ[1].

ونلحظُ ملمحًا بلاغيًّا آخر: وهو أنَّ الخطابَ هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأماناتُ أيضًا جماعةً، لإفادةِ أنَّ لكل إنسانٍ تكليفًا محدودًا، وهو ألّا يخونَ أمانتَهُ، مثلما يقولُ الأستاذُ للتَّلاميذ: أخرجوا أقلامَكم، فهذا أمرٌ لجماعةِ التَّلاميذ بأن يخرجَ كلُّ واحدٍ قلمَهُ[2].

بلاغةُ الجملةِ الحاليَّة:

ممّا يزيدُ قبحَ الخيانةِ وحرمتَها العلمُ بها

جملةُ ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، وضميرِ ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾، وهي حالٌ كاشفةٌ، المقصودُ منها تشديدُ النَّهي، وتشنيعُ المنهيِّ عنهُ؛ لأنَّ النَّهيَ عن القبيحِ في حال معرفةِ المنهي أنَّهُ قبيحٌ يكونُ أشدَّ، ولأنَّ القبيحَ في حالِ علم فاعلِه بقبحِه يكونُ أشنعَ، فالحالُ هنا بمنزلة الصِّفة الكاشفةِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: 22] وليس المرادُ تقييدَ النَّهي عنِ الخيانةِ بحالةِ العلمِ بها؛ لأنَّ ذلك قليلُ الجدوى، فإنَّ كلَّ تكليفٍ مشروطٌ بالعلمِ، وكونُ الخيانةِ قبيحةً أمرٌ معلومٌ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4669.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.

فائدةُ تقويةِ الحُكْمِ الإسناديِّ:

تأكيدُ ذمِّ الخيانةِ في حالِ العلمِ على سائرِ الأحوالِ

معلومٌ أنَّ تقويةَ الحكمِ الإسناديِّ في الجملةِ يزيدُهُ إيضاحًا وتخصيصًا، فتكونُ فائدتُهُ أتمَّ وأكمل وأقوى عند السّامع، وقد تقوَّى الحكمُ الإسناديُّ في قولِه: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، حيثُ قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعلي، وفائدةُ ذلك تأكيدُ ذمِّ الخيانةِ في هذهِ الحالِ على سائرِ الأحوال.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارِع:

الخيانةُ مذمومةٌ لذاتِها، وللعلمِ بها، ولاستحضارِ العلمِ بها

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ بصيغةِ المضارع؛ للإشارةِ إلى أنَّ علمَهم بعظم الأمانة وقبحِ خيانتها حاضرٌ عند الخيانةِ، فالذَّمُّ للخيانةِ يزدادُ بالعلم، ويزدادُ أكثرَ، فأكثر عند استحضارِ العلم أثناءَ الخيانة، فجمعتِ الآيةُ ذمَّ الخيانة، وذمَّها عند العلم بها، وذمَّها عند استحضارِ العلم بها، فهي ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ، من دخلَها منطمسًا فيها؛ لم يُبصر نورَ الأمانةِ، ولا ضياءَ الطّاعة.

غرضُ حَذْفِ المفعولِ:

شمولُ العلمِ أشكالَ الخيانةِ وأحوالَ الجنايةِ

حذْفُ المفعولِ في قوله: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ يؤذنُ بالعموم، ولو ذُكر؛ لأوهمَ الاقتصارَ على مفعولٍ واحدٍ، وللعلماءِ في مفعولِ (تعلمون) قولان:

الأوَّلُ: مفعولُ (تعلمون) مقدَّرٌ مَنْويٌّ بقرينةِ السّياق، وهو أنَّكم تخونونَ، وأنتم تعلمونَ تبعةَ ذلك، أي: تعلمونَ قبحَها، فإنَّ المسلمين قد تقرَّرَ عندهم في آدابِ دينِهم تقبيحُ الخيانةِ، بل هو أمرٌ معلومٌ للنّاس حتَّى في الجاهليَّة.

الآخر: مفعولُ (تعلمون) غيرُ منويٍّ بمنزلة اللّازم[1]، فيكونُ معناهُ (وأنتم ذوو علم) أي: معرفةُ حقائقِ الأشياء، أي: وأنتم

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 7/79.

علماءُ، لا تجهلون الفرقَ بين المحاسنِ والقبائح، فيكونُ كقولِه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: 22].

وفي كلا الحالين أفادَ حذفُ المفعولِ العمومَ، أي: وأنتم تعلمونَ قبحَ فعلِكم، أو تعلمون أنَّ المنهيَّ عنه قبيحٌ، أو تعلمون عظمَ الأمانةِ ومخاطرَ خيانتِها، أو أنتم أهلُ علم ومعرفةٍ لا تجهلونَ قبحَ الخيانةِ أو غير ذلك ممّا يقتضيهِ السّياقُ.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

العلمُ بعظيمِ الخيانةِ مانعٌ من إتيانِها

أفادتِ الفاصلةُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾: إحكامَ اللَّفظِ وإحكامَ المعنى.

أمّا إحكامُ اللَّفظِ؛ فلكونِها مع الفاصلةِ الَّتي قبلها ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فاصلة مُطَرَّفة، أي: متخالفتان في الوزنِ متَّفقتانِ في الحرفِ الأخيرِ.

وأمّا إحكامُ المعنى؛ فقد جاءتِ الفاصلةُ مناسبةً للمعنى الَّذي مهَّدَ لها، بل كانت جزءًا منهُ، فقد خُتِمَتِ الآيةُ بالعلمِ للإشارةِ لعظمِ تلك الأمانةِ وقبحِ التَّفريطِ بها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العلمُ والمعرفةُ:

العلمُ أعلى درجةً من المعرفةِ، فالمعرفةُ يسبقُها جهلٌ، والعلمُ نقيضُ الجهلِ

العلمُ والمعرفةُ يشتركانِ في معنى الإدراك، وقد يستعملُ أحدُهما مكانَ الآخرِ؛ إذا كانَ العلم يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، حيثُ عرَّفَ بعضُهم العلمَ، فقال: "علِمَهُ يعلمُهُ علمًا: عرَفَهُ حقَّ المعرفةِ"[1].

وإذا تعدَّى العلمُ إلى مفعولين؛ فإنَّهُ يتميَّزُ عن المعرفةِ في أنَّهُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتهِ ودليلِه، أي: العلمُ بحقائقِ الأشياءِ، ولا بدَّ في العلمِ من الدَّليلِ.

بينما المعرفةُ: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِه، أي: معرفة ذواتِ الأشياءِ والظّاهرِ منها، ولا تحتاجُ إلى دليلٍ، كما أنَّ المعرفة ضدُّها الإنكارُ.

(1) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/88.

فالعلمُ أعلى درجةً من المعرفةِ؛ إذ تستعملُ المعرفةُ في العلمِ القاصرِ المتوصَّل بهِ بتفكُّرٍ، ويسبقها الجهلُ بالمضمونِ، أمّا العلمُ؛ فلا يسبقُهُ جهلٌ، فهو مرحلةٌ بعدَ المعرفةِ بحقِّ المخلوقينَ، وبالنِّسبةِ للّهِ تعالى، فلا يُقالُ: اللّهُ عالمٌ، ولا يقالُ: اللّهُ عارفٌ، كما أنَّ المعرفةَ ضدُّها الإنكارُ، والعلمُ لا يضادُّهُ الإنكارُ[1].

(1) الراغب، المفردات، ص: 561، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 343 - 344، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 129.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [الأنفال: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أعظمُ أسبابِ الخيانةِ من يُخانُ لأجلِهم

لمّا ذكرَ اللّهُ الخيانةَ، وأنّها من أعظم أسبابِ الهزيمةِ والخذلانِ؛ عقَّبَ على ذلك ببيانِ أهمِّ الدواعي المؤدّية إلى الخيانةِ، ولما كان الغالبُ فيها هو حبُّ الأموالِ والأولادِ؛ نبَّهَ تعالى إلى أنَّهُ يجبُ على العاقلِ أن يحترزَ عن المضارِّ المتولِّدةِ من ذلك الحبِّ، فقال: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّها تشغلُ القلبَ بالدُّنيا، وتصيرُ حجابًا عن خدمةِ المولى(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: الفاءُ والتّاءُ والنّونُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ، تقول: فتنتُ الذَّهبَ بالنّارِ؛ إذا امتحنْتَهُ، أي: أذبتَه بالنّارِ للتَّصفيةِ أو للصَّوغِ، واستعملَهُ القرآنُ الكريمُ بمعنى الإحراقِ أو الإذابةِ المادّيَّةِ، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، وما ليس بمعنى الإحراقِ أو الإذابةِ المادية ممّا استعمله القرآنُ يدورُ معناهُ بين الابتلاءِ إيقاعًا أو تعريضًا للبلاءِ المحمولِ عن حالٍ أو موقفٍ وبين التَّحوُّلِ نفسِه(2).

المَعنى الإجْماليُّ:

ما عندَ اللهِ مِنَ الأجْرِ العظيمِ يقي مِنَ الوزرِ العظيمِ لمن فقِهَ وتدَبَّرَ

ينبِّهُ اللّهُ عبادَهُ المؤمنينَ لحقيقةٍ لا بدَّ أن يعلموها، ولا يغفلوا عنها، وهي مواطنُ الضَّعفِ في كينونتهم البشريَّةِ من الحرصِ على الأموالِ وعلى الأولادِ الَّتي وهبَها اللّهُ للنّاسِ ليبلوَهم بها، ويفتنَهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/475.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن)، والراغب، المفردات، ص: 482، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فتن).

فيها، ليرى فيها صنيعَ العبدِ، وتصرُّفَهُ أيشكرُ عليها، ويؤدّي حقَّ النِّعمةِ فيها؟ أم يشتغلُ بها حتَّى يغفلَ عن أداءِ حقِّ اللّهِ فيها؟ فإذا انتبهَ القلبُ إلى موضعِ الامتحان، كان ذلك عونًا له على اليقظةِ والاحتياطِ أن يستغرقَ، وينسى، ويخفقَ في الامتحانِ والفتنة.

ثم لا يدعُهُ اللّهُ بلا عونٍ منه ولا عِوض، فقد يضعفُ عن الأداءِ بعد الانتباهِ، لثقلِ التَّضحيةِ وضخامة التَّكليفِ في أعمقِ مواطنِ الضَّعفِ، وهي الأموالُ والأولاد! بل يلوِّحُ له بما هو خيرٌ وأبقى، فيُعظمُ له الأجرَ، ويعجِّلُ له المسرَّةَ بتقديم ﴿عِندَهُۥٓ﴾، ويفضي إلى روح العظمةِ والمهابةِ والمحبَّةِ بذكر الاسم الجليل، ليستعينَ العبدُ بذلك كلِّه على فتنةِ المالِ والولد، فلا يحتجبُ بمحبَّتهما عن محبَّته، فالَّذي وهبَ المالَ والولدَ عنده وراءَهما أجرٌ عظيم لمن يستعلي على فتنةِ المالِ والولد.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّوسُّطِ بين الكمالَين:

كمالُ التَّحذيرِ مـن الخيانةِ بالتَّنبيهِ على دواعيها

اتَّفقتِ الجملتانِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ وجملة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ في الإنشاءِ لفظًا ومعنًى، ويوجد بينهما جامعٌ في المعنى، وهو التَّحذيرُ من الخيانةِ، وأهم الدواعي المؤدّية لها من الافتتانِ بحبِّ المالِ والولد، فكانتا بذلك متناسبتين، وبينهما رابطةٌ قويَّةٌ، وتوسَّطتا بذلكَ بين كمالِ الانقطاعِ وكمالِ الاتِّصالِ، ووجبَ بذلك الوصل بالواوِ، ليُجلّي المعنى المذكور.

براعةُ تشابهِ الأطرافِ:

من علِمَ حُرْمةَ الخيانةِ؛ فعليهِ أن يعلمَ أسبابَها

تحقَّقت في الآيتين بلاغةُ تشابهِ الأطرافِ من خلالِ جَعْلِ آخرِ جملةٍ صَدْرَ تاليَتِها، أي: انتهت الآيةُ الأولى بـ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، وبدأت الَّتي بعدَها بـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، وهذا أعطى الكلامَ تحسينًا وجمالًا من حيثُ اللَّفظُ، أي: الأثرُ الصَّوتيُّ له، ومن حيثُ المعنى، وهو تأكيدُ

أهمّيَّةِ العلمِ وبيان أثرهِ في نجاةِ الإنسانِ إن عملَ بهِ، أو هلاكهِ إن لم يعملْ بهِ، أي: إن كنتُم تعلمونَ حرمةَ الخيانةِ؛ فاعلموا أسبابَها.

غرضُ الأمرِ:

التّنبيهُ على السّببِ معينٌ على الحذرِ

الغرضُ البلاغيُّ للأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ هو الاهتمامُ والتَّحذيرُ من الافتتانِ بالمالِ والولدِ، قال ابن عاشور: "وهذا تنبيهٌ على الحذرِ من الخيانةِ الَّتي يحملُ عَليها المرءَ حبُّ المال"[1]، والشَّغفِ بالولدِ.

بلاغةُ القَصْرِ الادّعائيّ:

التّحذيرُ من أعمقِ مواطنِ الضّعفِ في الكينونةِ البشريّةِ

أداةُ القصرِ هي ﴿أَنَّمَآ﴾، والمقصور ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ وهو الموصوفُ، والمقصورُ عليهِ ﴿فِتۡنَةٞ﴾، خبرٌ يحملُ صفةً تدلُّ على معنى قائم فيهِ، وهي صفةُ التَّسبُّب بالفتنِ والمحنِ، والمقصور عنه (كلُّ الصِّفاتِ ما عدا صفةَ التَّسبُّبِ بالفتنِ).

ونوعُ هذا القصرِ: قصرُ موصوفٍ على صفةٍ؛ فقد قُصرَت أموالُهم وأولادهم على كونهم مسبِّبين للفتنِ والمحنِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ لكثرةِ ملازمةِ هذهِ الصِّفةِ للموصوفِ؛ إذ من النّادرِ أن يخلو أفراد هذين النَّوعين، وهما أموالُ المسلمين وأولادهم عن الاتِّصافِ بالفتنةِ لمن يتلبَّسُ بهما، قال ابنُ عاشورٍ: "جيءَ في الإخبارِ عن كونِ الأموالِ والأولادِ فتنةً بطريقِ القصرِ قصرًا ادِّعائيًّا؛ لقصد المبالغةِ في إثباتِ أنَّهم فتنةٌ"[2]، وهذا التَّقريرُ والمبالغةُ في التَّحذيرِ من تلكَ الأحوالِ وما ينشأُ عنها، فكأنَّ وجودَ الأموالِ والأولادِ نفسُ الفتنة؛ لأنَّ الأموالَ والأولادَ في معظم أحوالِ الحياةِ الدُّنيا هما سببُ فتنةٍ، وهذه حقيقةٌ لا يعيها أغلبُ النّاس، لذلك جعلَ اللّهُ ﷻ هذا الأمرَ المجهولَ كأنَّهُ معلومٌ، ليظلَّ حاضرًا في ذهنِ المخاطبين، ولا تصرفهم أموالهم وأولادهم عمّا هو أعظمُ، ألا وهو العمل من أجلِ دارِ الخلود"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.

المالُ وسيلةٌ في الادّعاءِ الباهر غايةٌ في السُّلوكِ الظّاهرِ

نُكْتةُ تَقْديمِ الأمْوالِ على الأولادِ:

قدَّمتِ الآيةُ الأمْوالَ على الأولادِ في قوله: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ للأسبابِ الآتية:

أوّلاً: الأموالُ مظنَّةُ الحملِ على الخيانةِ أكثر، فإنَّ غرضَ جمهورِ النّاسِ في جمعِ الأموالِ أن يتركوها لأبنائهم من بعدِهم(1)، كما "أنَّ الأموالَ لا تكادُ تفارقُها الفتنةُ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: 6- 7]، وليس الأولادُ في استلزامِ الفتنةِ مثلَها، فكان تقديمُها أولى"(2)، كما أنَّهُ ليس لكلِّ واحدٍ أولادٌ، وإنّما لهُ مالٌ، ولو لم يكن إلّا ملبسه، ثم إنَّ الأبناءَ يأتونَ من الزَّواجِ، والزَّواجُ يحتاج إلى المالِ، ولذلك قدَّمَهُ في قولهِ تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، ولا يعترض بقولهِ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14]، لأنَّها هنا تعني: الرَّغبةَ في المبالغةِ في الغنى، لا مجرَّدَ امتلاكِ المالِ(3).

ثانيًا: سلطةُ الإنسانِ على مالِه أكثرُ من سلطتهِ على ولدِه، فامتحانُهُ بمالِه يكونُ آكدَ من ولدِه.

ثالثًا: مناسبةُ مقامِ الحالِ، أي: حالُ المخاطبينَ بالآياتِ، بأن يحذَروا من الخيانةِ الَّتي يحمل عليها حبُّ المالِ، وهي خيانةُ الغلولِ في الغنائِمِ وغيرِها(4)، وأيضًا في حبِّ الأولادِ تكاسلٌ في أداءِ حقِّ الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ، ولذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «الولدُ مجبنةٌ مبخلةٌ»(5).

والحقيقةُ أنَّ المالَ مقدَّمٌ عند غالبِ النّاسِ على الأولادِ، وإن زعموا خلافَ ذلك، وادَّعوا أنَّهم يعملون لأجلِ أبنائِهم، فعندَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/46.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4671.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(5) رواه أبو يعلى في مسنده برقم: (1032).

التَّحقيقِ والتَّدقيقِ فإنَّ غالبَ النّاسِ ترمي أبناءَها لأجلِ أموالِها، وما مظاهرُ الإهمالِ والغفلة عن الأبناء إلّا بسببِ جمعِ المال، فإنَّ المالَ يتحوَّلُ إلى غايةٍ حقيقيَّةٍ، بعد أن كان وسيلةً ادعائيَّةً.

سرُّ اختيارِ مُفرَدَةِ ﴿فِتۡنَةٞ﴾:

الفـتـنـةُ أشـدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، ولا يُفتَتَنُ المرءُ كـافـتـتـانِـه في أموالِه وأولادِه

اختيرَتْ مفردةُ (الفتنة) دونَ غيرِها كالاختبارِ والابتلاء؛ إذ إنَّ "الفتنةَ أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ"[1]، والفتنةُ وإن كانت ترادِفُ الابتلاءَ في كونِهما يقتضيانِ استخراجَ ما عند المفتتِنِ والمبتلى من الطّاعَةِ والمعصية، بخلافِ الاختبارِ الَّذي لا يكونُ لتغييرِ الحالِ في الخيرِ والشَّرِّ، إلّا أنَّها هنا أبلغُ من الابتلاء في كونِها مادَّةَ الابتلاءِ والاختبارِ، وليست هي ذاتُ الابتلاءِ والاختبارِ، كما أنَّها أوسعُ معنًى، فقد استعملَها القرآنُ في اثني عشرَ وجهًا[2].

إضافةً إلى ذلك فإنَّ مصطلحَ الفتنةِ جاءَ متناسبًا مع مادَّةِ الفتنةِ الَّتي وردَ ذكرُها في هذه السّورةِ أربعَ مرّاتٍ.

فائدةُ العَطْفِ بالواوِ:

ما عـنـدَ الـلـهِ خيرٌ وأبقى فما عندَكم يَنفَدُ وما عندَ الله باقٍ

عطفَ المولى قولَهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ على قولِه: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ بالواوِ للإشارةِ إلى اشتراكِهما في إعطاءِ معنًى عامٍّ، وهو أنَّ ما عندَ اللّهِ من الأجرِ على كفِّ النَّفس عن المنهيّاتِ هو خيرٌ من المنافعِ الحاصلةِ عن اقتحامِ المناهي لأجلِ الأموالِ والأولادِ[3].

سرُّ ذكرِ الاسمِ الجليلِ:

مَـنْ وهـبَ المالَ والـولـدَ؛ رغَّـبَ بالأجرِ العظيمِ الذي عندَهُ

ذكرَ البيانُ الإلهيُّ المسندَ إليه بالاسمِ الجليل (اللّه)؛ لزيادةِ تأكيدِ عظمةِ الفضلِ الَّذي أعدَّهُ اللّهُ لمن لا يخونُ اللّهَ ورسولَهُ بسببِ

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 1/217.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.

مالٍ أو ولدٍ؛ إذ إنَّ ذكرَ اسمِ اللّهِ يضفي على المقامِ الهيبةَ والعظمةَ، ولتربيةِ المهابةِ والعظمةِ في قلوب المؤمنين، ولما في ذكرِه من التَّبرُّك باسمِهِ الشَّريف، مع ما يحملهُ السّياقُ من التَّرغيبِ والتَّرهيبِ من التَّصريحِ باسمهِ سبحانهِ؛ ترغيبٌ للمؤمنين بزيادةِ الفضلِ وترهيبٌ للكافرين بتأكُّدِ الحرمانِ.

نكتةُ تقديمِ الخبرِ على المبتدأِ:

من عِظَمِ الأجرِ أن يكونَ عندَ اللهِ لا عندَ غيرِه

قدَّم البيانُ الإلهيُّ المسندَ ﴿عِندَهُۥٓ﴾ على المسندِ إليه ﴿أَجۡرٌ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ، وليوحي بمدى عِظَمِ ذلك الأجرِ، لتعلُّقِهِ باللّهِ سبحانه، فهو عندَهُ لا عندَ غيرِه، كما أنَّ هذا التَّقديمَ فيهِ من تعجيلِ المسرَّةِ ما لا يعلمُهُ إلّا اللّهُ.

بلاغةُ الوصفِ ودقَّة انتقائه:

وصفتِ الآيةُ الأجرَ بأنَّه عظيمٌ لأمورٍ:

الأجرُ العظيمُ أوسعُ دلالةً، فالعظيمُ كبيرٌ ولا بدَّ

أوّلاً: المناسبةُ لسياقِ الآياتِ؛ إذ إنَّ سببَ خيانتِهم هو ضعفُ مهابةِ اللّهِ وعظمتِه في قلوبِهم، ممّا جعلَهم يعظِّمونَ المالَ والولدَ، فاحتجبوا بمحبَّتِهما عن محبَّتِه سبحانه، وخانوا بسببِ ذلك اللّهَ ورسولَهُ، كما أنَّهم لما عظَّموا المالَ والولدَ على حسابِ دينِهم طلبًا لأجرٍ زائلٍ؛ بيَّنَ لهم بأنَّ الباقياتِ الصّالحاتِ خيرٌ عند ربِّهم وأعظمُ أجرًا، ونبَّهَهم على أنَّ سعاداتِ الآخرةِ خيرٌ من سعاداتِ الدُّنيا؛ لأنَّها أعظمُ في الشَّرفِ، وأعظمُ في الفوزِ، وأعظمُ في المدَّةِ؛ لأنَّها تبقى بقاءً لا نهايةَ لَهُ، فهذا هو المرادُ من وصفِ اللّهِ الأجرَ الَّذي عندهُ بالعِظَمِ[1].

ثانيًا: الإشارةُ إلى ثِقَلِ التَّضحيةِ وضخامةِ التَّكليفِ في موطنِ الضَّعفِ في الأموالِ والأولادِ، فلا يدعهُ اللّهُ ﷻ بلا عونٍ ولا مددٍ، بل يلوحُ له بعظمِ الأجرِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/476.

ثالثًا: المناسبةُ لفاصلةِ الآيةِ الَّتي بعدَها (والله ذو الفضل العظيم) مناسبةُ إحكامِ لفظٍ، وإحكام معنى، فمَن عندَهُ أجرٌ عظيمٌ هو ذو فضلٍ عظيم.

أمّا لفظُ كبيرٍ؛ فلا يعطي هذه المعاني؛ لأنَّهُ لا يشترطُ أن يكونَ الكبيرُ عظيمًا، أمّا العظيمُ لا بدَّ أن يكونَ كبيرًا ولو بمنزلتِه وشرفِه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنةُ والابتلاءُ:

الابتلاءُ اختبارٌ وامتحانٌ، والفتنةُ هي مادَّةُ الابتلاءِ

تتقاربُ معاني الفتنةِ والابتلاء في اللُّغةِ؛ فالفتنةُ: هي ابتلاءٌ واختبارٌ، والابتلاءُ: هو الاختبارُ والتَّجريبُ والامتحانُ[1]، ولهذا ساوى بعضُ علماءِ اللُّغةِ بينهما، يقولُ الرّاغبُ: "وجُعلت الفتنةُ كالبلاءِ في أنَّهما يُستعملانِ فيما يُدفع إليهِ الإنسانُ من شدَّةٍ ورخاءٍ، وهما في الشِّدَّةِ أظهرُ معنى وأكثر استعمالًا"[2].

إلا أنَّ هناكَ بعضَ الملامحِ الدِّلاليَّة الَّتي تميِّز اللَّفظين، وهي أنَّ الابتلاءَ: هو اختبارُ الإنسان بالشِّدَّةِ والضَّرّاء ليُرى أيصبرُ أم يجزعُ؟ واختبارهُ بالسَّرّاء والنعم ليُرى أيشكرُ أم يبطرُ، ولهذا استُعْمِلَ البلاءُ في الخيرِ والشَّرِّ، وإن كان في الشَّرِّ أكثر.

أمّا الفتنةُ؛ فهي مادَّةُ الابتلاءِ، أي: هي إيقاعُ الإنسانِ في الشِّدَّةِ من أجل اختبارِه بها.

وأيضًا: لفظُ الفتنةِ وردَ في الاستعمالِ القرآنيِّ على وجوهٍ عدَّةٍ إضافة لمعنى الابتلاءِ والاختبار، منها: (العذابُ، والشِّركُ، والكفرُ، والتَّعذيبُ والتَّحريقُ، والحيرةُ والضَّلالُ) فدلالاتُ الفتنةِ أوسعُ من دلالاتِ الابتلاءِ[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلو).

(2) الراغب، المفردات، ص: 481.

(3) الراغب، المفردات، ص: 482، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 48، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 201.

الأجرُ والثَّوابُ:

الأجرُ: جزاءُ العملِ النّافع، والثَّوابُ: رجوعٌ على المرءِ بما فعل خيرًا أو شرًّا

الأجرُ والثَّوابُ متقاربان دلاليًّا، حيثُ يشتركانِ في معنى المكافأةِ، وفي أنَّهما قد يكونانِ في الدُّنيا أو في الآخرةِ، فمعنى الأجرِ: الكراءُ على العملِ، وجزاءُ ما بذلَهُ من كدٍّ وجهدٍ[1]، ومعنى الثَّوابِ: العودُ والرُّجوعُ، أي: رجوعُ أثرِ العملِ على فاعلِه[2]، إلا أنَّ لكلٍّ منهما ملامحَ دلاليةً تميِّزُهُ، فالأجرُ: يكونُ على عملٍ وجهدٍ وبذلٍ، سواءٌ أكانَ الأجرُ دنيويًّا أو في الآخرةِ، ويكونُ من اللّهِ، كما قد يكونُ من النّاس، ولا يكون إلّا بالخيرِ، أي: النَّفعُ دونَ الضُّرِّ، وقد يكونُ قبلَ الفعلِ المأجورِ عليه، والشّاهد أنَّكَ تقولُ: ما أعملُ حتَّى آخذَ أجري.

بينما اختصَّ الثَّوابُ في أنَّهُ:

قد يكون بالخيرِ، وقد يكونُ بالشَّرِّ؛ لأنَّ الثَّوابَ مشتقٌّ من الرُّجوعِ، والثَّوابُ رجوعٌ على المرءِ بما فعل، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ إلا أنَّه بالخيرِ أخصُّ، وغلَبَ في ثوابِ العمل الصّالح، وفي الجزاءِ على الحسنات، ولا يكونُ إلّا مِنَ اللّهِ تعالى، ويقعُ من جهةِ المكافأةِ، ولا يكونُ إلّا بعد العملِ[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أجر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ثوب)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/131.

(3) علي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 162، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 48.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

[الأنفال: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّرغيبُ بالتَّقوى ونتائجِها بعدَ التَّحذيرِ من الخيانةِ وأسبابِها، مُكنةٌ نفسيَّةٌ وإقناعٌ خطابيٌّ

لما حُذِّر المؤمنونَ من المخالفةِ والخيانة في قولِه تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ ومن فتنةِ الأموالِ والأولاد في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ ناسبَ أن يأتيَ التَّرغيبُ بالتَّقوى وفضلِها وثوابِها في مقابل ذلك، فقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾.

كما يظهرُ حسنُ المناسبةِ بين الآيةِ وما قبلَها من خلالِ أنَّها رتَّبت على المنهيّاتِ تحذيراتٍ من شرورٍ وأضرارٍ من قوله: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ﴾ [الأنفال: 22] وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنفال: 25]، ورتَّبَ على التقوى: الوعدَ بالنَّصرِ ومغفرةَ الذُّنوب وسعةَ الفضل(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُرۡقَانٗا﴾: الفاءُ والرّاءُ والقافُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بينَ شيئين، والفرقُ: فصلُ بعض شيءٍ أو أشياءَ من بعضِها الآخرِ فصلًا واصلًا إلى العمقِ، ومنه: فرقتُ بين الشَّيئين وفرَّقتُ، والفُرقانُ بالضَّمِّ مصدرٌ كالغفرانِ والشُّكرانِ، ومن معانيه أيضًا: الحجَّةُ والقضاءُ والفصلُ والحكمُ والفتحُ والنَّصرُ والمخرجُ والفرقانُ في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: 1]، هو القرآنُ؛ لأنَّهُ يفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ ويبيِّن كلَّ شيءٍ، والتَّبيينُ فصلٌ وتمييزٌ، وسمّي يومُ بدرٍ الفرقانَ؛ لأنَّهُ فصَّل، وميَّزَ المحقَّ من المبطلِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325 - 326.

وفرقانًا: خروجًا من الشَّكِّ والشُّبهاتِ، ونورًا قلبيًّا يخرجُ بِهِ المتَّقي من ظلماتِ الضَّلالاتِ[1].

ومعنى ﴿فُرۡقَانٗا﴾: نصرًا أو بيانًا وظهورًا أو مزيَّةً لهم في الدُّنيا والآخرةِ أو مخرجًا من الشُّبهاتِ وتوفيقًا وشرحًا للصُّدور، وكلُّ ما فيهِ نجاةٌ واستقامةُ أحوالِ حياتِهم[2].

2) ﴿وَيُكَفِّرۡ﴾: الكافُ والفاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مَعْنى واحدٍ، وهو السَّترُ والتَّغطيةُ، وكلُّ ما غطَّى شيئًا، وكلُّ من سترَ شيئًا، فقدَ كفرَهُ، ويقالُ للزّارعِ: كافرٌ؛ لأنَّهُ يكفِّرُ البذرَ، أي: يغطّيهِ ويسترُهُ بالتُّرابِ، والكُفرُ: ضدُّ الإيمانِ، فهو تغطيةٌ للحقِّ، وتكفيرُ السَّيِّئات: سترُها وتغطيتُها، فلا تُرى، ولا يُؤاخذ عليها[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّقوى ملاكُ استقامةِ الأممِ وزادُ المغفرةِ وتكفيرُ الخطايا

كرَّرَ اللهُ الخطابَ بنداءٍ حملَ معنى الاهتمامِ، والوصفُ بالإيمان حرَّكَ فيهم مشاعرَ العملِ، يأمرُهم بالتَّقوى زادِ المؤمن الذي تحيا به القلوبُ، وتستعينُ بِهِ على حملِ الأعباءِ الثِّقال، ومواجهةِ وساوسِ الشَّيطان، وعبَّر عن الأمرِ بها بأسلوبِ الشَّرط الذي يفيدُ الدَّوامَ ترغيبًا بها وبيانًا لحسنِ حالِ عاقبتها، ووعدًا بدوام النَّصرِ واستقامةِ الأحوالِ؛ إن هم داوموا عليها، وبذلكَ يبيِّنُ حقيقةً مهمَّةً، هي أنَّ التَّقوى تجعلُ في القلبِ فرقانًا، أي: نورًا ينيرُ البصيرةَ، ويرفعُ اللَّبس، ويكشفُ ظلماتِ الطَّريق، حتى يكونوا مطمئنّي البالِ منشرحي الخاطرِ، وذلك يستدعي أن يكونوا منصورينَ، غالبينَ، بصراءَ بالأمورِ، سائرينَ في طريقِ الحقِّ والرُّشدِ، وذلك هو ملاكُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فرق)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/83.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كفر).

استقامةِ الأمم[1]، ثمَّ يجعلُ سبحانه التَّقوى زادَ المغفرةِ للخطايا، الزّادَ المطمئنَّ الذي يسكبُ الهدوءَ والقرار.. ويذيِّلُ الآيةَ بزادِ الأملِ في فضلِ اللهِ العظيم يومَ تنفدُ الأزوادُ، وتقصرُ الأعمال.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاسْتِئْنافِ بجملةِ النِّداءِ:

الخطابُ بوصفِ الإيمانِ تذكيرٌ بعهدِ الإيمانِ وما يلزمُ عنهُ مِنَ التَّقوى

الاستئنافُ في الآيةِ هو استئنافٌ ابتدائيٌّ متَّصلٌ بالآياتِ السّابقةِ ابتداءً من قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال: 20] وما بعدهُ من الآياتِ إلى هنا[2]، افتتحهُ اللّهُ بالنِّداء اهتمامًا بحال المؤمنين، مخاطبًا إيّاهم بوصفِ الإيمان تذكيرًا لهم بعهدِ الإيمان وما يقتضيهِ[3].

علَّةُ تَكرارِ جملةِ النِّداءِ:

تَكرارُ النِّداءِ تأكيدٌ وتنبيهٌ لمكانةِ التَّقوى الَّتي ينبغي للمؤمنِ أن يلتزمَها

كرَّر الخطابَ والوصفَ بالإيمانِ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بما بعدَهُ، وهو الأمرُ بالتَّقوى الَّتي هي ملاكُ استقامةِ الأفرادِ والأمم، وذلك لما تحملُهُ معاني النِّداءِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ من الاهتمامِ والتَّأكيدِ والتَّنبيهِ والتَّدرُّجِ من الإبهامِ في (أي) إلى التَّوضيحِ، والتَّعظيمِ للمنادى، بل تعظيمِ الأمرِ الَّذي نودوا بهِ، وللإيذانِ بأنَّهُ ممّا يقتضي الإيمانُ مراعاتَهُ والمحافظةَ عليه، مع ما في هذا الوصفِ بالإيمانِ من استثارةِ بواطنِهم وتحريكِ مشاعرِهم وتهيئتِها لتقبُّلِ ما نودوا بهِ[4].

غرضُ الأمرِ بالتَّقوى بجملةِ الشَّرطِ:

وجودُ الفرقانِ وزادُ المغفرةِ والفضلِ العظيمِ متعلِّقةٌ بالدَّوامِ على التَّقوى

عبَّرَ عن الأمرِ بالتَّقوى بجملةِ الشَّرطِ ترغيبًا بالتَّقوى، وبيانًا لحسنِ حالِ عاقبتِها، ووعدًا بدوامِ النَّصرِ واستقامةِ الأحوالِ إن هم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/263، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.

داموا عليها؛ ذلك لأنَّ من أغراضِ فعلِ الشَّرطِ أن يُرادَ بِهِ الدَّوامُ[1]، وكذا لإفادةِ أنَّ جوابَ الشَّرطِ، وهو الفرقانُ الَّذي يهدي إلى الحقِّ، وتكفيرِ السَّيِّئاتِ ومغفرةِ الذُّنوب لا يمكنُ أن يحصلَ إلّا بحصولِ فعلِ الشَّرطِ، وهو الاتِّصافُ بالتَّقوى؛ لأنَّهُ مبنيٌّ عليهِ، وفي هذا إفادةٌ بأنَّ ذلكَ سنَّةٌ إلهيَّةٌ لا تتخلَّفُ.

فائدةُ ذكرِ المفعول:

ذُكِرَ الاسمُ الجليلُ؛ لتربيةِ المهابةِ والتَّعظيمِ في قلوبِ المؤمنينَ، ولإدخالِ الأُنسِ بسماعِ اسمهِ، ولمراعاةِ مقامِ التَّعظيمِ الَّذي دلَّ عليهِ أسلوبُ النِّداء، والعطاءِ العظيمِ الَّذي يعدُّهُ اللّهُ لمن يتَّقيه من الفرقانِ الهادي، وزادِ تكفيرِ الخطايا ومغفرةِ الذُّنوب، وزادِ الأملِ بالفضلِ العظيم.

التَّصريحُ بالاسمِ الجليلِ يحقِّقُ الأنسَ والمهابةَ والثِّقةَ بوعدِهِ

فائدةُ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿يَجۡعَل﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿يَجۡعَل﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من فعَلَ، وصَنَعَ، وسائر أخواتها، ولذا فالجعلُ في اللُّغةِ فيه معنى التَّهيئةِ والتَّضمينِ والتَّبعيَّة، وإحداثِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينِهِ منه[2]، وهذا فيه إشارةٌ إلى أنَّ إيجادَ النَّصرِ والنَّجاة والهدايةِ والتَّوفيقِ والنّورِ الَّتي أكرمَهم اللّه بها كانَ نتيجةَ وجودِ التَّقوى والالتزام بأوامرِ اللّهِ وعهوده، أي: إنَّ استخدامَ هذا الفعلِ ناسبَ أسلوبَ الشَّرطِ في الآيةِ، بخلافِ بقيَّةِ الألفاظِ مثلَ (خلق وصنع وفعل وغيرها)، فإنَّها لا تناسبُ المعنى المراد بدقَّةِ هذا اللَّفظِ، قال أبو السُّعودِ: "﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ بسببِ ذلك"[3].

(يجعلُ) لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وتتحقَّقُ فيه موافقةُ المبنى للمعنى

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرور ﴿لَّكُمۡ﴾ على المفعولِ به ﴿فُرۡقَانٗا﴾؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.

(2) الراغب، المفردات، ص: 196.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.

تعجيلُ المسرَّة مطلبٌ نفسيٌّ وترغيبٌ رحمانيٌّ

لإفادةِ الحصرِ والقصرِ، أي: يجعلُ لكم - أيُّها المؤمنون - لا لغيركم فرقانًا، اهتمامًا وعنايةً بشأنِهم، وتنبيهًا على علوِّ قدرِهم، وتعريضًا بما يقابلُهم من الكافرين بأن ليس لهم من ذلك شيءٌ.

وفي هذا التَّقديم كذلك تعجيلُ المسرَّةِ والبشرى بالتَّوفيق والنَّصر منه سبحانه، وإشارةٌ لما يحملُه الفرقانُ من نفعٍ وخيرٍ وهدايةٍ وسرعةِ تحقُّقٍ، يقول ابن عاشور: "قد أشعرَ قولُهُ لكم: إنَّ الفرقانَ شيءٌ نافعٌ لهم"(1).

سرُّ اختيارِ الألفاظِ:

الفرقانُ لفظٌ عامٌّ يدخلُ فيه خيرُ الدُّنيا والآخرةِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿فُرۡقَانٗا﴾ على لفظِ (نصرًا)؛ وذلك لاتِّساعِ دلالةِ مفردةِ الفرقانِ في المعنى ما لا تتَّسعُ له دلالةُ لفظِ النَّصر، بل إنَّ الفرقانَ في الآيةِ يشملُ النَّصرَ وزيادة، وهذا من تمام الفصاحةِ، قال ابنُ عاشور: "ولعلَّ اختيارَهُ هنا لقصدِ شمولِه ما يصلحُ للمقامِ من معانيه، فقد فُسِّرَ بالنَّصرِ وبالمخرج وبالغلبةِ، وبالعزَّةِ وبالتَّمييزِ بينهم وبين الكفّارِ في الأحوال الَّتي يستحبُّ فيها التَّمايز في أحوالِ الدُّنيا الظّاهرة، كما يشملُ أحوالَ الدُّنيا القلبيَّةَ المستترةَ، أي: أحوالُ النَّفسِ من الهداية، والمعرفةِ، والرِّضا، وانشراحِ القلبِ، وإزالةِ الحقدِ والغلِّ والحسدِ بينهم، والمكرِ والخداع وذميم الأخلاق(2)، ويشمل كذلك أحوالَ الآخرةِ فرقانًا بالنَّعيم المقيم، والثواب العظيم لأهل الإيمان، والعذابِ الشَّديد والمقتِ الكبيرِ لأهلِ الكفر(3)، وممّا يدلُّ كذلك على عمومِه أنَّ من أسماءِ القرآن الفرقانَ؛ لأنَّهُ يفرِّقُ بين الحقِّ والباطل.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4675.

براعةُ الإطْنابِ:

آثرتِ الآيةُ أسلوبَ الإطنابِ للإشارة إلى مزيدِ العطاءِ الذي تشيرُ إليهِ كلُّ لفظةٍ من ألفاظِ التَّركيبِ سواءٌ بصيغتِها أم بمادَّتِها من (يجعل) و(لكم) و(فرقانًا)، كما أنَّهُ يتناسبُ مع مقام كثرةِ العطاءتِ الَّتي قصدَها نظمُ الآيةِ ومضمونها؛ فقدِ اشتملت على الفرقانِ والتَّكفيرِ والمغفرةِ وعطاءات أخرى تشيرُ إليها خاتمةُ الآيةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

في مقامِ كثرةِ العطاءاتِ تحسُنُ كثرةُ الإطنابات

نكتةُ ذكرِ المفعولِ:

ذُكِر مفعولُ ﴿وَيُكَفِّرۡ﴾ وهو ﴿سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، ولم يُذْكَرْ مفعولُ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾؛ وذلك للاحتمالاتِ الآتيةِ:

مغفرةُ الذُّنوبِ أكثرُ جريًا في الطَّلبِ والوعدِ

الأوَّل: إمّا تفضُّلًا ورأفةً ورحمةً بالمخاطبينَ؛ ذلك أنَّ السَّيِّئةَ هي الشَّيءُ الذي يسوؤكَ، ويسيء إليك، وقد يكونُ طارئًا، أمّا الذَّنبُ؛ ففيهِ معنى الالتصاقِ، ومنه أُخِذَ ذنبُ الحيوانِ لالتصاقِه به، فالسَّيِّئةُ سريعةُ المحو، أمّا الذَّنبُ؛ فيلتصقُ، ولذا كان الغفرانُ فيه معنى القطعِ، وهو أقوى من التَّكفيرِ، حتَّى في جذرِه (كفر) و(غفر)؛ إذ نلحظُ أنَّهما يختلفان في كونِ الغينِ أقوى من الكافِ، كما أنَّ الذَّنب أشدُّ من السَّيِّئة؛ فالسَّيِّئاتُ تُكفَّرُ؛ إذا اجتُنِبَتِ الكبائرُ، فلمّا كانتِ السَّيِّئةُ طارئةً، وأخفَّ من الذَّنبِ الملتصقِ، وسريعةَ المحوِ؛ ناسبَ أن يذكرَها، ولا يذكر الذَّنب رحمةً بعصاةِ المؤمنين.

الثاني: إمّا لكونِ السَّيِّئات -وهي الصَّغائرُ واللَّمم على قولٍ[1]- أكثرَ من الذُّنوبِ، وكثيرة الوقوعِ من النّاس، بخلافِ الكبائرِ، فالوقوعُ فيها نادرٌ، فذكرَ السَّيِّئاتِ حتَّى لا يُستهانَ بها، فتتحوَّلَ إلى كبائِرَ، ولأنَّ الإنسانَ لا يدري ما الَّذي يُدخلُه النّارَ[2].

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/89.

(2) السامرائي، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم: 5/155.

الثّالث: لأنَّ تكفيرَ السَّيِّئات أقلُّ دورانًا من مغفرةِ الذُّنوب، وما كان كذلك كان التَّنبيهُ عليه أولى من التَّنبيهِ على ما هو كثيرُ الدَّورانِ في الكتابِ وعلى ألسنةِ العبادِ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَنكُمۡ﴾ على المفعولِ به ﴿وَيُكَفِّرۡ﴾ إشارةً إلى سرعةِ تكفيرِ السَّيِّئات، والتَّعجيلِ بهذهِ البشرى والمسرَّة، وبيانًا للاهتمامِ والعناية بهم، وأنَّه خصَّهم بهذا الأمر، وإظهارًا لمدى حبِّه لعبادِه وتلطُّفِه بهم، وإن أذنبوا، فمن رحمتِه أنَّه يتفضَّلُ بالمغفرةِ وإبدال السَّيِّئاتِ حسناتٍ.

التَّعجيلُ بالبُشرى دليلُ حبٍّ وأمارةُ رحمةٍ

بلاغةُ ترتيبِ المعطوفاتِ:

الانتقالُ من الأدنى والأكثرِ إلى الأشدِّ والأقلِّ، فالمغفرةُ أقوى من التَّكفير، والذَّنبُ أشدُّ من السَّيِّئة، وهذا التَّدرُّج يناسبُ حالَ الإنسان، فالصَّغائرُ منه أكثرُ، والتخلُّص منها أسهل، وهي طريقُ الوقوعِ في الكبائر، والتخلُّص منها طريقُ الحفظِ والوقاية من الكبائر.

معظمُ النّارِ من مُستصغرِ الشَّررِ

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

عطفَ البيانُ القرآنيُّ الجملتين: ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ﴾ و﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ على جملة ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ﴾، وهي جملٌ خبريَّةٌ بحرف العطف الواو؛ لأنَّها جملٌ متغايرةٌ لفظًا، مترابطةٌ معنًى؛ إذ الجامعُ بينها أنَّها كلَّها من ثمراتِ تقوى اللّهِ تعالى، قد جاءت جوابًا لفعل الشَّرطِ، فلا يستغني أحدُها عن الآخرِ، ولا يقومُ أحدُها مقامَ الآخرِ وبدلًا عنهُ، كما يجمعُ بينها أنَّ أفعالَ الجملِ الثَّلاثِ بصيغة المضارع، وقد اتَّحدت في المسندِ إليه، وهو الاسمُ الجليلُ.

عطاءاتٌ لا يُغني أحدُها عن الآخرِ؛ إذْ كلُّها جوابٌ لشرطِ التَّقوى

بلاغةُ الاكتفاءِ بحَذْفِ المفعول:

تتنوَّعُ نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾ وفقَ معنى التَّكفيرِ والمغفرة، فإن كان مفعولُ التَّكفيرِ والمغفرةِ واحدًا، أي: أُريد بالتَّكفيرِ السَّترُ في الدُّنيا،

الإشارةُ بالمذكورِ مغنيةٌ عن المحذوفِ عند تحقُّقِ العلمِ به

وبالغفرانِ عدمُ المؤاخذة بها[1]، كانت نكتةُ الحذفِ هنا الاختصارَ؛ إذ ما سبقَ من كلامٍ يدلُّ عليهِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، فهي محمولةٌ على الاكتفاءِ، فإذا ذُكر مفعولُ ﴿وَيُكَفِّرۡ﴾؛ اكتُفي به عن مفعولِ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾ للعلمِ بأنَّ الغفرانَ يكونُ للذُّنوب.

وإن اختلفَ مفعولُ التَّكفيرِ عن المغفرةِ، بأن كان المقصودُ بتكفيرِ السَّيِّئات تكفيرَ الكبائر وبمغفرة الذُّنوب الصَّغائر[2]، كما هي عادةُ القرآنِ في جعلِ المغفرة للذُّنوب، فإنَّ النُّكتةَ هنا كذلك الاكتفاء، إذ ذكرُ تكفيرِ الكبائرِ يدلُّ على ما يقابلُها، وهو مغفرةُ الصَّغائرِ.

وإن كان المقصودُ من السَّيِّئاتِ الصَّغائرَ، ومن المحذوف الكبائرَ؛ فإنَّ حكمةَ الحذفِ هنا هي الإعظامُ المستفادُ من الإبهامِ، أي: أبهمها لخطورةِ أثرِها.

بلاغةُ التَّذييلِ بالفاصلةِ:

العطاءُ العميمُ هو الَّذي لا يعطيهِ إلّا الرَّبُّ الكريمُ ذو الفضلِ العظيمِ

ذيَّلَ البيانُ الإلهيُّ بهذهِ الجملةِ لأغراضٍ عدَّةٍ، منها: تكميلُ المعنى؛ إذ إنَّ هذا التَّذييلَ "كنايةٌ عن حصولِ منافعَ أخرى لهم من جرّاءِ التَّقوى"[3].

وكذلك للاختصارِ؛ إذ لا يحدُّ عطاءَهُ كلماتٌ، فذيَّل بما يدلُّ على كثرةِ العطاءِ لأهلِ التَّقوى، بذكر الاسم الجليلِ الَّذي يدلُّ على العظمةِ، وبوصفِ فضلِه وعطائهِ بالعظمةِ، وبالتَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، فإذا كان المعطي هو اللّهُ، وإذا وُصف عطاؤهُ بالعظمةِ؛ فأنّى لكلماتٍ أن تتَّسعَ لعطائهِ؟

والتَّعليل لما قبلَهُ، والتَّنبيه على أنَّ ما وعدَهُ اللّهُ تعالى لهم على

(1) قال ابن عاشور: "قيل: التكفير الستر في الدنيا، والغفران عدم المؤاخذة بها "، يُنظر: التّحرير والتّنوير: 9/326.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

التَّقوى تفضُّلٌ منه وإحسانٌ، لا أنَّه ممّا توجبهُ التَّقوى، كما إذا وعدَ السَّيِّدُ عبدَهُ إنعامًا على عملٍ[1]، بل إنَّهُ تفضَّلَ بهِ عليهم بدونِ واسطةٍ وبدونِ التماسِ عِوضٍ[2].

والإشارةُ إلى تفضُّلِه سبحانه بما رزقَ أهلَ الإسلامِ من علوِّ المنزلةِ وانتشارِ الهيبةِ وفخامةِ الأمرِ في قلوبِ المخالفين، كما هو مشاهدٌ رغمَ ما كانَ فيهم من نقصٍ[3].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

إظهارُ الاسمِ العظيمِ يبعثُ في النُّفوسِ الأملَ بالفضلِ العظيمِ

أتتِ الآيةُ بالاسمِ الظّاهرِ ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وليبعثَ في النُّفوسِ الأملَ بفضلِ الإلهِ العظيمِ، ولأنَّ لفظَ الجلالةِ (اللّه) جامعٌ لكلِّ صفاتِ الكمالِ الَّتي تشتملُ على كلِّ أنواعِ العطاءِ والفضلِ، من عطاءِ الرَّحمةِ وعطاءِ المغفرةِ وعطاءِ السَّترِ وغيرِها.

سرُّ الإيثارِ اللَّفظي:

عطاءُ اللهِ بالفضلِ لا بالعدلِ وبالإحسانِ لا بالميزانِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ على (الأجر) لِلَطائفَ عديدةٍ، منها: الفضلُ أوسعُ دلالةً، فالفضلُ يشملُ الأجرَ وزيادةً، فهو في اللُّغةِ زيادةٌ من مادَّةِ الشَّيءِ متميِّزةٌ عنهُ، كما أنَّ الأجرَ يكونُ بمنزلةِ تعويضٍ يتلقّاهُ العاملُ جزاءَ ما بذلَهُ من كدٍّ وجهدٍ، أمّا الفضْلُ؛ فقد لا يسبقُهُ عملٌ، وإنَّما يكون تفضُّلًا وإحسانًا من اللّهِ سبحانه.

والفضلُ أنسبُ للسّياقِ، فهو وصفٌ للّهِ تعالى المعطي الكريم، كما أنَّهُ جاءَ في سياقِ العطاءِ الكثيرِ الَّذي لا ينتظرُ مقابلًا، بل يكونُ رغمَ وجودِ التَّقصيرِ، فيكونُ تكفيرُ الخطايا ومغفرةُ الذُّنوب من عطاءاته.

ومن اللّطائف أيضًا التَّفنُّنُ في الكلامِ؛ إذ سبقَ ذكرُ الأجرِ العظيمِ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/14.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 9/197.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/209.

بلاغةُ النَّعتِ بالعظيمِ دونَ الكبيرِ:

اتِّساعُ دلالةِ مفردةِ (العظيم) في المعنى ما لا تتَّسعُ له دلالةُ (الكبير)؛ فالعظيمُ في اللُّغة: صفةٌ مشبَّهةٌ لمن اتَّصفَ بالعظمة، والعظمةُ: معناها الكبرُ والاتِّساعُ وعلوُّ الشَّأنِ والارتفاع، يقال: عَظُمَ أي: كَبُرَ واتَّسعَ وعلا شأنُهُ وارتفعَ، وكلُّ هذهِ معانٍ تراعى في اسمهِ تعالى "العظيم"، وفي معنى التَّعظيم يأتي اسمُهُ تعالى الكبيرُ، وكذا اسمُهُ الواسعُ، وكذا يأتي معنى التَّبجيلِ للّهِ سبحانه وتعالى.

الاتِّساقُ السِّياقيُّ يقتضي الوصفَ بالعظيمِ

مناسبةُ سياقِ الآياتِ الَّتي تتحدَّثُ عن عظمةِ اللّهِ وعظمة عطائه، ومناسبةُ فاصلةِ الآيةِ الَّتي قبلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، فمَن عندَه الأجرُ العظيمُ هو ذو الفضلِ العظيمِ سبحانه.

لمّا تعدَّدَ الفضلُ، وذكرَ منه سبحانه: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾، وأُسنِدَ مباشرةً إلى اللّهِ تعالى؛ استعملَ كلمةَ العظيمِ.

ورد قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في القرآنِ ستَّ مرّاتٍ، ولم يردْ بلفظِ الكبيرِ.

بلاغةُ الفاصلتينِ:

الفاصلةُ متوازيةٌ، حيثُ إنَّ اللَّفظتين اتَّفقتا في الوزنِ والحرفِ الأخيرِ، وخُتِمتِ الآيتانِ بنفسِ الكلمةِ، ودلَّتا على غايةِ العظمة، لكن في الأولى جاءتْ نكرةً؛ لعظمةِ ذلك الأجرِ الَّذي لا يدركُ كنْهَه إلّا مُعطيهِ، وجاءتِ الكلمةُ في الثّانية معرفةً، ليدلَّ على أنَّ تلك العظمةَ قد بلغتْ عظمةً ليس بعدها عِظَم، إذ العظيمُ لا يُعظِّمُ إلّا عظيمًا.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذهِ الآيةِ لما قبلَها ثلاثةُ أوجهٍ:

تذكيرٌ بتمامِ نعمِ اللهِ على النَّبيِّ ﷺ وأمَّتِه

الأوَّلُ: لمّا ذكَّرَ اللّهُ المؤمنين نعمَهُ عليهم بقولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ [الأنفال: 26]؛ ذكَّرَ رسولَهُ نعمَهَ عليه، وهو دفعُ كيدِ المشركين ومكرِ الماكرين عنْهُ(1)، أي: "مسوقٌ لتذكيرِ النِّعمةِ الخاصَّةِ به ﷺ بعد تذكيرِ النِّعمةِ العامَّةِ للكلِّ"(2).

الثاني: لمّا وعدَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ المؤمنينَ بالفضلِ العظيم؛ ذكَّرهم من أحوالِ داعيهم وقائدِهم وهاديهم ﷺ بما يدعوهُم إلى ملازمةِ أسبابِه في سياقِ المخاطبةِ لهُ ﷺ تذكيرًا بنعمتِه، وإشارةً إلى دوامِ نصرتِه(3).

الثّالث: لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ اللّهَ يجعلُ للمتَّقي فرقانًا يمنعُ من الاجتراءِ على أهلِه ومالِه وعرضِه ظاهرًا، أتبعتْ بأنَّ اللّهَ يحفظُ رسولَهُ من مكرِ مَنْ مَكَرَ بهِ، بل يمكرُ لَهُ على ماكرِه، فحفظُ اللّهِ لنبيِّه هو حفظٌ لأمَّتِه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡكُرُ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ كلمتانِ متباينتانِ: إحداهما: الاحتيالُ والخداعُ، والأخرى: خدالةُ السّاق، ومادَّةُ الكلمةِ فيها معنى الاختزانِ الرَّقيقِ أو اللَّطيفِ الَّذي لا يبرزُ متميِّزًا، فالمكرُ: هو تدبيرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/477.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/210.

يُخفَى، ويُختَزَن لأحداثٍ أو أُمور لتقعَ في المستقبل على نحوٍ ما، والمكرُ: احتيالٌ في خفيةٍ[1]، وعرَّفَهُ الرّاغبُ بأنَّهُ: "صرفُ الآخرين عمّا يقصِدُهُ بحيلةٍ"، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ: وذلك أن يتحرَّى بذلكَ فعلًا جميلًا، ومكرٌ مذمومٌ: وهو أن يتحرَّى به فعلًا قبيحًا[2].

ومعنى ﴿يَمۡكُرُ بِكَ﴾: يوقعونَ الضُّرَّ بكَ خفيةً، ويدبِّرون لك في الخفاء[3].

2) ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾: الثّاءُ والباءُ والتّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، وهي دوامُ الشَّيءِ، والثَّباتُ: ضدُّ الزَّوالِ، وثبتَ فلانٌ في المكانِ: أقامَ فيه، وثبَّتَهُ عنِ الأمرِ: ثَبَّطَهُ، ويستعملُ في الثَّباتِ النَّفسي بمعنى تسكينِ القلبِ، كقولِه تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: 32][4].

ومعنى ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾: يُقيِّدوك بحبسٍ أو إيثاقٍ ونحوه، أو يثبِّطوكَ، ويحيِّروك، أو يجرحوكَ جراحةً لا تقومُ، ولا تتحرَّكُ معها[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مكرُ الكافرينَ باطلٌ مأفونٌ ومكرُ اللهِ حقٌّ مكنونٌ

واذكرْ - يا محمَّد ﷺ - نعمتي عليك حينَ تمالأَ عليكَ كفّارُ قريشٍ، واتَّفقت كلمتُهم على الكيدِ بكَ في خفاءٍ، وإيقاعِ الأذى بإحدى خِلالٍ ثلاثٍ: إمّا الحبسُ الَّذي يمنعُكَ من لقاءِ النّاس ودعوتِهم إلى الإسلام، وهو أشدُّهُ عليك، وإمّا القتلُ بطريقٍ لا يكونُ ضررُها عظيمًا عليهِم، وإمّا الإخراجُ والنَّفي من مكَّةَ، وقد اختاروا قتْلَكَ بأن يأخذوا من كلِّ قبيلةٍ رجلًا حتَّى يتفرَّقَ دمُكَ في القبائلِ كلِّها، وهذا دأبُهم معَك، ومع من اتَّبعكَ مِنَ المؤمنينَ تدبيرُ الأذى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر).
(2) الراغب، المفردات، ص: 772.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/518، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثبت).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 5/309، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

لكم، أي: مكرُهُم مستمرٌّ وكثيرٌ ومتنوِّعٌ، واللّهُ محيطٌ بما دبَّروا، ويدبِّرون، فقد أخرجكَ من بينِهم إلى دارِ الهجرةِ، ووطن السُّلطان والقوَّةِ، واللّهُ خيرُ الماكرين؛ لأنَّ مكرَهُ نصرٌ للحقِّ، وإعزازٌ لأهلِه، وخذلانٌ للباطلِ وحزبِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ العطفِ بالواوِ:

إمّا من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، وإمّا من عطفِ المفردِ على المفردِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عاطفةٌ[1]، واختُلِفَ في نوعِ العطفِ، فاحتُمل أن يكون العطفُ من بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ من قصصِ تأييدِ اللّهِ رسولَهُ ﷺ والمؤمنين، فيكون (إذْ) متعلِّقًا بفعلٍ محذوفٍ تقديره: (واذكر إذ يمكرُ بكَ الَّذين كفروا)، على طريقةِ نظائرِه الكثيرةِ في القرآنِ.

واحتُمِلَ أن يكونَ من قبيلِ عطفِ المفردِ على المفردِ على قولِه: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنفال: 26] فهو متعلِّقٌ بفعلِ (اذكروا)، فإنَّ المكرَ بالرَّسولِ ﷺ مكرٌ بالمسلمين، ويكون ما بينهما اعتراضٌ، فهذا تعدادٌ لنعمِ النَّصرِ الَّتي أنعمَ اللّهُ بها على رسولِهِ ﷺ والمؤمنين، وهذهِ نعمةٌ خاصَّةٌ بالنَّبيِّ ﷺ والإنعامُ بحياتِه وسلامتِه نعمةٌ تشملُ المسلمين كلَّهم، فسلامتُهُ ﷺ سلامةٌ لأمَّتِه[2].

نكتةُ الإضمارِ في موضعِ الإظهارِ:

مقامُهُ الشَّريفُ ﷺ ليس كأيِّ مقامٍ

لم يأتِ بمادَّةِ الذِّكرِ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ فلم يقلْ لهُ: (واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا)؛ بخلافِ خطابِهِ المتقدِّمِ للمسلمين، رغم أنَّ هاتين الآيتينِ وما بعدَهما تذكيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بما كانَ من حالِه وحالِ قومِه معَهُ في مكَّةَ[3]، ونكتةُ ذلك: أنَّ خطابَ النَّبيِّ ﷺ وأمرَهُ بالذِّكرِ في القرآنِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/540.

لم يرد إلّا في معنيين: الأوّل: ذكرُ الأنبياءِ السّابقينَ، الآخر: الذِّكرُ بمعنى العبادةِ كالتَّسبيحِ والتَّحميدِ، وهنا لم يُذكرِ الذِّكرُ، لأمرين: كي لا يتساوى ﷺ مع عموم المؤمنين، فإنَّ له منزلةً خاصَّةً، والثّاني: أنَّ الحذفَ أبلغُ مِنَ الذِّكرِ، فإنَّ ذكرَ مكرِ الماكرين يُرادُ به بيانُ مسلكِهم، وأخلاقِهم معهُ ﷺ وأنَّهم مستمرّون في ذلك، لا مجرَّدَ تذكُّرِ ذلك الصَّنيعِ منهم، بل الاعتبارُ لما سيؤولُ إليه الحالُ في لاحقِ الأيّامِ، بما ستكونُ عليه عاقبتهم.

غرضُ الإضافةِ:

التَّـعـريـفُ بالحدثِ الَّذي وقـعَ في دارِ النَّدوةِ

أفادتْ إضافةُ إذْ للجملةِ ﴿يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعريفَ المضافِ إليهِ (إذ) أي: التَّعريفُ بالوقتِ الَّذي اجتمعَ فيه كفّارُ قريشٍ في دارِ النَّدوةِ ليوثِّقوا النَّبيَّ ﷺ ويحبسوهُ، أو يقتلوهُ كلُّهم قتلةَ رجلٍ واحدٍ، أو يخرجوهُ، فهو استحضارٌ لذلك الزَّمنِ المعروفِ، وليس المقصودُ الزَّمنَ لذاته، بل الحدثُ الَّذي وقعَ في ذلكَ الزَّمانِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

تـصـويـرُ مـكـرِ المشركينَ برسولِ اللهِ ﷺ

عبَّرَ القرآنُ بالمضارعِ ﴿يَمۡكُرُ﴾ في موضعِ الماضي الَّذي هو الغالبُ مع (إذ) استحضارًا للحال الَّتي دبَّر فيها المشركونَ المكرَ[1]، فالفعلُ المضارعُ يصوِّرُ هذا الحدثَ صورةً تُلمسُ في كلمةِ ﴿يَمۡكُرُ﴾ صيغةً ومادَّةً، فتثيرُ في المخيِّلةِ صورةً للتَّدبيرِ الخفي الذي يقومُ على الاحتيالِ دونَ الممكورِ بهِ، التَّدبير الذي قامَ به المشركونَ من اجتماعِهم في دارِ النَّدوةِ، ثُمَّ اجتماعِهم على قتلِ النَّبيِّ ﷺ وفْقَ خُطَّةٍ خبيثةٍ، تنجيهم من تبعاتِ فعلتِهم.

واستحضارُ الحالِ أو ما يعرفُ كذلك بحكايةِ الحالِ الماضيةِ إنَّما يكونُ في الأمرِ العظيمِ، وأيُّ أمرٍ أعظم من أن يُمكرَ برسولِ اللّهِ ﷺ ويفيدُ كذلك استمرارَ هذا المكرِ وعدم انقطاعِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

سرُّ التَّعبيرِ بالمكرِ لا بالخديعةِ:

النَّبيُّ ﷺ قد يقعُ عليهِ المكرُ لكنَّهُ لا يُخدعُ

استعمل القرآنُ مادَّة المكرِ في قوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ﴾ دونَ (يخدعك)، فلم يقل: (وإذ يخدعك) الذين كفروا، لتميَّز المكرُ بمعانٍ ودلالاتٍ لا تؤدّيها مادَّةُ الخداعِ، ولا تتناسبُ مع موضوعِ الآياتِ وسياقها، ولا بالَّذي حدثَ في واقعِ الأمرِ تاريخيًّا، فالمكرُ في أصلِ معناهُ التَّدبيرُ، وقد يكونُ محمودًا أو مذمومًا، بخلافِ الخداعِ الَّذي لا يكونُ إلّا مذمومًا، ولذا استعملَ المكرَ؛ ليصحَّ نسبتُهُ للّٰهِ سبحانه ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾، دونَ حاجةٍ للقولِ بالمشاكلةِ.

وفي الخداعِ معنى الغفلةِ وعدمِ التَّنبُّهِ والاحتياطِ من المخدوعِ، وهذا لا يناسبُ حالَ النَّبيِّ ﷺ ومقامَهُ، وكذا لا يقتضي الخداعُ وجودَ تدبيرٍ بخفاءٍ بخلافِ المكرِ، فلا يكونُ بدون تدبيرٍ بخفاءٍ، وهو أصلُ معناهُ، ولذا كان المكرُ هنا أنسبَ لمقامِ حالِ المشركين الَّذين كما تذكرُ الرِّواياتُ اجتمعوا خفيةً، وتشاوروا، ودبَّروا، وأخفَوا تدبيرَهم.

معاني الباءِ ودلالاتها:

مَكْرُ المُشركين لصيقُ الوقوعِ بهِ ﷺ

الباءُ في قولهِ تعالى: ﴿بِكَ﴾ تحملُ معنى الإلصاقِ، أي: يدبِّرون كيدًا ومكرًا يلتصقُ بك، ولا ينفكُّ عنك؛ فإمّا أن يثخنوك بالجراحِ بحيثُ لا تتحرَّكُ أو يقتلوك أو يخرجوكَ من مكَّةَ، أو يدبِّرونَ مكرًا، وهم ملتصقونَ بكَ، وهم أعلمُ النّاسُ بصدقِكَ وأمانتِكَ، فقد كنتَ فيهم الصّادقَ الأمينَ، وعلى كلا المعنيين، ففي التَّصويرِ لحالِهم شتمٌ وإهانةٌ بهم، فمن يلتصقُ برسولِ اللّٰهِ، ويعلمُ صدقَهُ، وينكرُ رسالتَهُ، مستحقٌّ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ.

ويحتملُ أن تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ، والمعنى: "هذا المكرُ هو بسببكَ - يا محمَّدُ - هم جعلوك سببًا لمكرِهم ﴿لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ

﴿يُخۡرِجُوكَۚ﴾"[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى حقدِهم وحسدِهم لرسولِ اللّهِ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨﴾ [الملك: 28].

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعلِ:

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِكَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ﴾؛ لنكاتٍ عدَّةٍ، منها: لفتُ انتباهِ النَّبيِّ ﷺ وتنبيهُهُ إلى ما حيكَ ويُحاكُ لهُ من مكرٍ، وبيانُ شدَّةِ تعلُّقِ مكرِهم بالنَّبيِّ ﷺ، والوقوفُ على مدى الخُبثِ والمكرِ والكراهيةِ الَّتي يحملُها المشركونَ تجاهَ النَّبيِّ ﷺ، وبيانُ شدَّةِ الحسدِ لهُ ﷺ فهم يمكرونَ بكَ أنتَ على وجهِ الخصوصِ.

بلغَ الحسدُ بالمشركينَ مبلغًا لم يستطيعوا معهُ إلّا المكرَ والغدرَ

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

عُرِّفَ المسندُ إليهِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لقصدِ الإبهامِ الَّذي من أسرارِه: تسليطُ الضَّوءِ على فعلِ المكرِ لا على شخوصِهم، فهي صفةٌ ملازمةٌ للكافرين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

توجيهُ الأذهانِ إلى مكرِ الكافرينَ لا إلى شخوصِهم وأسمائهم

وتحقيرُهم بالوصفِ النّاقصِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

والتَّنبيهُ على التَّعميمِ، فصفةُ المكرِ غيرُ خاصَّةٍ بفئةٍ معيَّنةٍ، وخاصَّةً أنَّ (الذين) من ألفاظِ العمومِ، أي: إنَّها تشملُ أدنى ماكرٍ برسولِ اللّهِ ﷺ وليس بالضَّرورةِ أن يكونَ راسخًا في المكرِ الَّذي يفيدُهُ التَّعبيرُ بـ(الكافرون).

ولفتُ الانتباهِ في الإبهامِ؛ ليقعَ بعدَهُ التَّفصيلُ، فيتمكَّنُ معناهُ مِنَ الذِّهنِ.

نكتةُ جمعِ الاسمِ الموصولِ:

في إيرادِ الاسمِ الموصولِ جمعًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتمعَ، وتآزرَ على المكرِ بالنَّبيِّ ﷺ

الَّذين كفروا: فريقٌ اجتمعَ على المكرِ، وتآزرَ على الغدرِ

(1) السامرائي، لمسات بيانية: 5/156.

وبالمؤمنينَ، والمكرُ وإن كانَ من ساداتِهم وكبرائِهم، إلا أنَّ عمومَ الكافرينَ لمّا وافقوهم، أو رضوا بفعلِهم، أو سكتوا عنهُ نُسِبَ لهم جميعًا، يقولُ ابن عاشورٍ: "وإنّما أُسنِدَ إلى جميعِ الكافرينَ؛ لأنَّ البقيَّةَ كانوا أتباعًا للزُّعماءِ يأتمرونَ بأمرِهم"(1)، ويؤكِّدُ ذلك مجيءُ أفعالِ مكرِهم بصيغةِ الجمعِ (ليثبتوك) (يقتلوك) (يخرجوك).

معنَى اللّامِ الدّاخلةِ على الأفعالِ:

علّةُ المكرِ إنهاءُ خطرِ الإسلامِ على الكفرِ

اللّامُ الدّاخلةُ على الأفعالِ: ﴿لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ هي حرفُ جرٍّ لفظًا، وحرفُ تعليلٍ، أي: ما بعدها مسبَّبٌ عمّا قبلَها، يقول البقاعيُّ: "ثم بيَّن غايةَ مكرِهم، فقال: ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾"(2)، أي: مكروا بكَ لكي يحبسوكَ أو يقتلوكَ أو يخرجوكَ.

بلاغةُ ترتيبِ الأفعالِ:

المنعُ من الدّعوةِ أشدُّ من القتلِ، والقتلُ أشدُّ من النّفي

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ أوّلًا مراعاةً لما كان أشدَّ على النَّبيِّ ﷺ وهو أن يحبسوهُ في دارِه، فلا يتمكّنُ من لقاءِ النّاسِ ومن دعوتِهم إلى الدّينِ الحقِّ، فقد كان هذا أشدَّ على النَّبيِّ ﷺ من الموتِ في سبيلِ اللّهِ، كيف لا؟ واللّهُ حثَّ على الشّهادةِ في سبيلِ اللّهِ لأجلِ نشرِ الحقِّ وتبليغِه، ثم يأتي آخرًا الإخراجُ من مكّةَ الّتي نشأ بها، وأحبَّها؛ لأنّها بلدُ اللّهِ الحرامُ وفيها قبلةُ المسلمينَ.

وممّا يؤكِّدُ هذا أنَّ النَّظْمَ اقتصرَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة: 13] على الأدنى، وهو الهمُّ بالإخراجِ، ليعلمَ غيرَهُ بالطّريقِ الأولى؛ إذِ الإخراجُ أهونُ من القتلِ والحبسِ(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/210.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/222.

دلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿أَوۡ﴾:

استعملتِ الآيةُ حرفَ العطفِ (أو) الّذي يفيدُ التَّخييرَ بين شَيئينِ أو أشياءَ، للدَّلالةِ على التَّردُّدِ الَّذي كانَ منهم بين الحبسِ والقتلِ والإخراجِ، والَّذي كانَ بيانًا لما كانوا يمكرونَهُ من مَكرٍ.

الباطلُ وإن استعلى باتِّحادِه؛ يبقى متردِّدًا في اتِّخاذِ قرارِه

وهذا التَّردُّدُ يدلُّ على أنَّهُ كان منهم تشاورٌ في أمرِ النَّبيِّ - صلى اللّه عليه وآله وسلم - وما كانَ يهمُّهم، ويهتمّونَ بِهِ من إطفاءِ نورِ دعوتِه، وبذلكَ يتأيَّدُ ما وردَ من قصَّةِ دارِ النَّدوةِ.

معاني الواوِ ودلالاتها:

تحتملُ الواوُ في قولِه: ﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾ وجهين:

إمّا أن تكونَ حاليَّةً أو اعتراضيَّةً ومكرُهم على المعنَيَيْن يُقابلُهُ مكرُ اللهِ

أحدُهما: أن تكونَ واوَ الحالِ، والجملةُ حالٌ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهي حالٌ مؤسِّسَةٌ غيرُ مؤكِّدة، باعتبارِ ما اتَّصلَ بها من الجملة المعطوفة عليها، وهي جملةُ: ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ فقولهُ: ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ هو مناطُ الفائدةِ من الحالِ، وما قبلَهُ تمهيدٌ له، وتنصيصٌ على أنَّ مكرَهم يقابلُه مكرُ اللّهِ، ويكونُ المضارعُ في ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾؛ لاستحضارِ حالةِ المكرِ.

وثانيهما: أن تكونَ واوَ الاعتراضِ، أي: العطفُ الصّوريُّ، ويكونَ المرادُ بالفعل المعطوفِ الدَّوامَ، أي: هم مكروا بكَ ليثبتوكَ، أو يقتلوكَ، أو يخرجوكَ، وهم لا يزالونَ يمكرونَ، فتكونُ جملةُ: ﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾ معترضةً، وتكونُ جملةُ: ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِع:

مكرُ الكافرينَ بأهلِ الحقِّ مستمرٌّ؛ فلا بدَّ من استشعارِ الخطرِ المستمرِّ

إذا كانت الواوُ حاليَّةً؛ فالغرضُ الأوَّلُ: هو تصويرُ المكرِ في المخيِّلَةِ ليبقى النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون يستشعرونَ خطورتَهُ، فيحذرون منه، ويدفعونَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.

وأمّا إذا كانتِ الواوُ اعتراضيَّةً، أي: العطفُ الصّوريُّ، وكان المرادُ بالفعلِ المعطوفِ بعدَها ﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾ الدَّوامَ، فإنَّها تفيدُ في المقامِ الأوَّلِ: الاستقبالَ والاستمرارَ[1]، وكذلك الكثرة، قال أبو حيان: "إخبارًا باستمرارِ مكرِهم وكثرته"[2]، أي: إنَّ مكرَ الكافرين وأهلَ الباطل بالنَّبيِّ ﷺ وبالمؤمنين كثيرٌ ومستمرٌّ لا يتوقَّفُ، ولا ينقطعُ، وأنَّهم يجتمعونَ على هذا المكرِ، سواءٌ في مكَّةَ قبلَ الهجرةِ أو بعدَ الانتقالِ إلى المدينةِ والتَّحالفِ مع القبائلِ ومضايقةِ المسلمين وقتالِهم[3].

وفي كلا المعنيين للواو يفيدُ التَّعبيرُ بالمضارعِ استثارةَ المؤمنينَ ليحذروا من مكرِ الكافرينَ، وليدفعوهُ بالحيطةِ والتَّدبيرِ في كلِّ وقتٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

المكرُ بالأمَّةِ حالةٌ مستمرَّةٌ تَبَعًا لحالةِ المكرِ بنبيِّها

عبَّر القرآنُ عن مكرِهم بصيغةِ المضارعِ في (ليثبتوك، ويقتلوك، ويخرجوك)؛ "لأنَّ تلكَ الأفعالَ مستقبلةٌ بالنِّسبة لفعل المكرِ؛ إذ غاية مكرِهم تحصيلُ واحدٍ من هذه الأفعال"[4]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالمضارع يثيرُ في المخيِّلة صورةً لهذه الأفعال القبيحةِ من توثيقِ النَّبيِّ ﷺ وحبسِه حتَّى الموت، ومنعهِ بذلك من أن يدعوَ إلى الحقِّ، أو الاجتماعِ على قتلهِ، أو إخراجهِ من وطنهِ منفيًّا مطرودًا، بما يوجبُ الحذرَ منهم في كلِّ زمانٍ.

كما يفيدُ التَّعبيرُ بصيغة المضارع معنى الاستمرارِ وعدم التَّوقُّف والانقطاع في محاولةِ إيذائهِ ﷺ، وإثخانه بالجراحِ أو قتلِه، أو إخراجِه من أيِّ مكانٍ يريدُ أن يستقرَّ فيه.

كما أنَّه يُفيدُ أنَّ هذهِ الأفعالَ مستمرَّةٌ في الأمَّةِ من قبلِ الأعداءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/309.
(3) السامرائي، لمسات بيانية: 5/157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

الَّذين يتربَّصونَ بها، سواء أعداء الدّاخلِ أم الخارج، فهم ما بين حابسٍ لأهلِ الحقِّ، أو قاتلٍ، أو نافٍ نفيًا فعليًّا أو اضطراريًّا.

توجيه معنى الواوِ:

الواوُ: حرفُ عطفٍ، وهناك احتمالانِ في المعطوفِ عَليهِ، بما يعطي ثراءً في المعنى، فإمّا أن يكونَ العطفُ على الجملةِ الَّتي قبلَها مباشرة ﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾، ويكونَ بين الجملتين ازدواجٌ، أي: مكرُهم يقارنهُ مكرُ اللّهِ بهم، وإما أن يكونَ العطفُ على جملة: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِع:

مكرُ اللهِ المقترنُ بمكرِ الماكرينَ تسليةٌ للمؤمنينَ على مرِّ الأيامِ

يفيدُ التَّعبيرُ بالمضارعِ استحضارَ حالةِ مكرِ اللّهِ بهم في وقتِ مكرِهم[2]، وبالتّالي يفيدُ تهديدَ الكافرينَ بأنَّ اللّه لهم بالمرصادِ على الدَّوامِ، ليُبطِلَ مكرَهم، ويحبطَ ما دبَّروا، ويدبِّرون من كيدٍ للنَّبيِّ ﷺ كما يفيدُ في الوقتِ ذاتِه بشارةً للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين بأنَّ معيَّتَه ونصرَهُ لا ينقطِعُ، فهي تسليةٌ لهُ ﷺ وللمؤمنين.

بلاغةُ الإطنابِ:

عندَ تكاثرِ صورِ المكرِ تتكرَّرُ ألفاظُهُ الدّالَّةُ على خطورته

آثرتِ الآيةُ تكرارَ (المكر) صيغةً ومادَّةً في قولهِ تعالى: ﴿يَمۡكُرُ بِكَ﴾ و﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾ و﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ و﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾؛ لبيانِ خطورةِ مكرِ الكافرين وتأكيدِ وقوعهِ وكثرتِه وتنوُّعِه بصورٍ متعدِّدةٍ، حيثُ صرَّحتِ الآياتُ ببعضٍ منها: (ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجزك)، وأثرهِ السَّلبيِّ على حياة المؤمنين أفرادًا وجماعاتٍ، وبالتالي وجوبُ الحذرِ الدّائم منهُ ومواجهتهُ، وبالمقابلِ بيانُ لطفِ اللّهِ ومعيَّتِه للمؤمنين بهذا التَّنبيهِ والتَّحذيرِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.

فنُّ المشاكلَةِ:

مكرُ اللهِ مكرُ جزاءٍ لا مكرُ ابتداءٍ

تنوَّعتْ آراءُ المفسِّرين في قولِه تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ بما يدلُّ على بلاغةِ نظمِها، فمنهم من عدَّها من بابِ المشاكلةِ في الكلامِ، بتسميةِ خيبةِ المسعى في مكرِهم أو مجازاتهم عليه باسم: المكرِ[1]، على سبيل المجازِ المرسلِ، والعلاقةِ السَّببيَّةِ.

ومنهم من عدَّها استعارةً تبعيَّةً من إطلاقِ المكرِ على الرَّدِّ؛ لأنَّهُ لمّا كانَ معنى المكرِ حيلةً يجلبُ بها مضرَّةً إلى الآخرين، وهو ما لا يجوزُ في حقِّه تعالى؛ كان المرادُ بمكرِ اللّهِ ردَّ مكرِهم، أي: عاقبتُه ووخامتُه عليهم.

ومنهم من يرى أنَّ في الكلامِ استعارةً تمثيليَّةً، بتشبيهِ حالةِ تعليلِ المسلمين في أعينهم الحاملةِ لهم على هلاكِهم بمعاملةِ الماكرِ المحتالِ الَّذي يظهرُ خلافَ ما يبطنُ[2].

نكتةُ إظْهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

لاسمِ الأعظمِ وقعُ مَهابةٍ وجرْسُ فخامةٍ

أظهرَ النَّظمُ لفظَ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾، ولم يقل: (وهو خير الماكرين)؛ إشارةً إلى أنَّ اللّهَ الَّذي يجمعُ صفاتِ الكمالِ كلَّها لا يخفى عليه مكرُ الماكرينَ، ولا يعجزُهُ تدبيرُ المناوئينَ، وأنَّ تدبيرَهُ فوقَ كلِّ تدبيرٍ، فلاسمِ الجلالةِ وقعُ مَهابةٍ، وجرْسُ فخامةٍ.

نكتةُ اختيارِ المفرداتِ:

كلُّ مكرٍ يَبْطلُ، ويبورُ في مقابلةِ تدبيرِ اللهِ الَّذي لا يُغالَبُ

عبَّرتِ الآيةُ بكلمةِ (خير) وهي من أسماءِ التَّفضيلِ، رغم أنَّهُ لا خيرَ في مكرِهم، لينبِّهَ على أنَّ كلَّ مكرٍ يبطلُ في مقابلةِ تدبيرِ اللّهِ تعالى؛ إذ المقصودُ بخيرِ الماكرين هنا أقوى الماكرين، فوضع خير موضع أقوى وأشد[3]، وأنفذ وأبلغ، وهذا معنى الخيريَّةِ والتَّفضيلِ في

(1) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 10/430.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/567.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/478.

النَّظم، فالإضافةُ للتَّفضيلِ على المضافِ؛ لأنَّ لمكرِ الآخرين أيضًا نفوذًا وتأثيرًا في الجملةِ، وهذا معنى أصلِ فعلِ الخيرِ، فتحصلُ المشاركةُ فيهِ(1)، والمعنى: أنَّ مكرَهُم يبورُ، أي: يكسدُ، ويفسدُ دونَ مكرِ اللّهِ بهم حين أخرجَهم من مكَّةَ، وقتلَهم، وأثبتهم في قليبِ بدرٍ، فجمعَ عليهم مكراتِهم جميعًا، وحقّق فيهم قولَهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾(2).

دلالةُ التَّعريفِ والجمعِ:

التَّعريفُ والجمعُ يفيدانِ العمومَ

التَّعريفُ في قولهِ: ﴿ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ هو جمعٌ معرَّفٌ بـ (أل) الجنسيَّةِ الاستغراقيَّة، وهو جمعٌ مضافٌ، ودلالتهُ في الآية: العمومُ، فيشملُ كلَّ ماكرٍ يمكرُ بدينِ الإسلامِ من الجنِّ والإنسِ ومن العربِ والفرس والرّوم، وممَّن في زمانِه أو بعدَ حياتِه إلى قيامِ السّاعة، ولا يدخلُ من يمكرُ في سبيلِ الحقِّ، فإنَّ المكرَ بقصدِ الخيرِ، وردِّ مكرِ الماكرين، مطلوبٌ شرعًا، فهو من تدبيرِ الحقِّ وأهله، واللّهُ يُعين على فعلِ الخيرِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المكرُ والخداعُ:

المكرُ: تدبيرٌ بخفاءٍ، والخداعُ: إيهامُ المخدوعِ لغفلتهِ وعدمِ احتياطهِ

المكرُ والخداعُ متقاربانِ دلاليًّا، إذ يُعرَّفُ كلٌّ منهما بالآخرِ في اللُّغةِ، فالمكرُ: الاحتيالُ والخداعُ، والخداعُ: إظهارُ المرءِ خلافَ ما يخفي، وهو فعلٌ ماكرٌ يريدُ به فاعلُهُ أن يوهمَ غيرَهُ، فيظهرُ له حسنًا، ويخفي قبيحًا(3)، إلّا أنَّ هناك بعضَ الملامحِ الَّتي تُميِّزُ كلًّا منهما:

فالمكرُ يتميَّزُ في أنَّهُ: احتيالٌ من الماكرِ الَّذي يريدُ إيقاعَ الأذى بالمكورِ بهِ الَّذي هو آمنٌ في نفسِه، ولا يعلمُ بما يخبِّئُهُ له الماكرُ الَّذي ينجحُ في مكرهِ؛ إذا فجَأَ المكورُ بهِ.

(1) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 4/269.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/603.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خدع).

بينما يتميَّزُ الخداعُ في أنَّ الخادعَ يوهمُ صاحبَهُ خلاف ما يريدُ به من المكروه، فيسترُ عنه وجه الصَّوابِ، فيوقعُهُ في مكروهٍ، وقد يعلم المخدوعُ بسوءِ طويَّةِ الخادعِ وعدائِه، ولكنَّهُ يُخْدَعُ؛ إذا أتاه السّوءُ من حيثُ لا يحتسبُ لهُ، فالخداعُ يعتمدُ على ذكاءِ الخادعِ الَّذي ينجحُ في خداعهِ إذا فجأ عدوَّهُ من حيثُ لم يكن محتاطًا ولا متهيَّأً.

إذًا: المكرُ لا يبدي الماكرُ فيهِ للممكورِ بهِ شيئًا، وإنَّما يدبِّرُ بالخفاءِ، بينما الخداعُ يحاولُ فيه الخادعُ أن يوهمَ المخدوعَ بخلافِ الحقيقةِ ليوقعَهُ في المكروهِ، فالخداعُ لا يقتضي أن يكونَ بعدَ تدبيرٍ ونظرٍ كما المكرُ، كما أنَّ المكرَ لا يقتضي عدمَ حذرٍ واحتياطِ الممكورِ بهِ، بينما الخداعُ قد يعتمدُ على غفلةِ المخدوعِ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 260، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 159 - 160، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 205.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ [الأنفال: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

الانتقالُ من المكرِ بالرَّسولِ إلى المكرِ بالرِّسالةِ

لمّا ذكرَ ﷻ مكرَ الكفّارِ في ذاتِ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾؛ ذكرَ في قولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ مكرَهم أيضًا بما أرسلَ بهِ، وهو القرآنُ، فتصدَّوا للطَّعنِ بهِ، والتَّشغيبِ عليهِ، وهذا غايةُ المكابرةِ والتَّعنُّتِ(1).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تُتۡلَىٰ﴾: التّاءُ واللّامِ والواوُ: أصلٌ واحدٌ، وهو الاتِّباعُ، واتِّباعُ الشَّيءِ: ما يسبقُهُ لحوقًا بهِ من خلفِه، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ [الشمس: 2]: تبعها، والتِّلاوةُ: القراءةُ، ولعلَّ أصلَهُ من تتبُّعِ الكلامِ المكتوبِ عند القراءةِ، أي: اتِّباعه كلمةً كلمةً، أو من التَّلاحقِ: تلاحقِ المتلوِّ، أي: (هذا يتبع هذا)، ثم أطلقتِ التِّلاوةُ على تلاوةِ القرآنِ؛ لما فيهِ من تتابعِ الآياتِ بشكلٍ منتظم، والتِّلاوةُ: القراءةُ من مكتوبٍ، ثم عُمِّم في القراءةِ عن ظهرِ قلبٍ، أي: من غيرِ المكتوبِ(2).

والمقصودُ هنا: هو تلاوةُ آياتِ القرآنِ الكريمِ.

2) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: جمعُ أسطورةٍ، من سطرَ: السّينُ والطّاءُ والرّاءُ: فيها دلالةٌ على اصطفافِ الشَّيءِ، كالكتابِ والشَّجرِ، وكلُّ شيءٍ اصطفَّ بانضباط، والسَّطرُ: الخطُّ والكتابةُ، وقوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/398، والبقاعي، نظم الدرر: 3/210، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).

﴿مَّسۡطُورٖ ٢﴾ [الطور: 2] أي: مكتوبٌ مسطَّرٌ، فتوالي كلماتِ الصَّفِّ على استقامتِها يجعلُها سطرًا كسطر الشَّجر، وأمّا الأساطيرُ: فهي الكتابةُ المسطورةُ، ولما كانت أخبارًا مكتوبةً عن الأقدمينَ غابتْ شواهدُها الواقعةُ، وخفيتْ حقائقُها على الحاضرين، وتَشكَّكوا فيها، فلَصِق بمعنى اللَّفظِ معنى الارتيابِ، وقالوا: (الأساطيرُ: الأباطيلُ)، فكأنَّها أشياءُ كُتِبَت من الباطلِ، فصارَ ذلك اسمًا لها، مخصوصًا بها، يقالُ: سطَّر فلانٌ علينا تسطيرًا، إذا جاء بأحاديثَ تشبهُ الباطلَ، فهو يؤلِّفُ ما لا أصلَ له[1].

والأساطيرُ: ما سطَّرهُ الأوَّلونَ، وكتبوهُ من أخبارِ الأممِ وقصصهِم وأحاديثِهم وكذبِهم[2].

3) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: جمعُ أوَّلٍ، وهو ضدُّ الآخر، وقيل: أصلهُ (وول)، فقُلِبَتِ الواوُ الأولى همزةً، وأُدغِمَت إحدى الواوين في الأخرى، فقيلَ: أوَّلٌ، ومعناهُ: كونُ الشَّيءِ ابتداءً وسبْقًا في أمرٍ لجميع جنسهِ، فيكونُ كلُّ ما يماثلهُ فيه تاليًا لهُ، أي: كائنًا بعدهُ، والأوَّل: يكون كذلك بانضمام ثانٍ وثالثٍ إلخ إليه بعدَهُ، والأوَّل: الأسبقُ كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾ [آل عمران: 96][3]، والأوَّلون: هم بنو آدمَ مِنَ الأممِ السّابقةِ.

المَعنى الإجْماليُّ:

إعلامُ المفلسِ تافهٌ في مضمونه متعالٍ في منطوقهِ

وإذا تُتلى - على هؤلاءِ الذين كفروا - آياتُ كتابِ اللّهِ الواضحةُ التي لا ريبَ في دلالتِها على أنَّها من عندِ اللّهِ، والَّتي تكشفُ بإعجازِها ما يريدُهُ اللّهُ منهم، المرَّة تلوَ المرَّةِ؛ لجّوا، وهوَّنوا أمرَها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سطر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/503، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ووّل).

وأزروا بالرِّسالةِ وبصاحِبها ﷺ وقالوا قولًا يغرّونَ بهِ أنفسَهم، ومن اتَّبعهم على باطِلِهم؛ تمرُّدًا وعنادًا منهم للحقِّ.

وقد قيلَ: إنَّ القائلَ هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، ولكن أُسْنِدَ القولُ إلى جماعةِ المشركينَ مِن حيثُ إنَّهم كانوا يؤيِّدونه، ويحكونهُ، ويحاكونهُ، وقالوا: قد سمعنا، ولو نشاءُ؛ لقلنا مثل هذا الَّذي تُلي علينا غير أنّا لا نعتني بهِ، ولا نهتمُّ، فما هو إلّا ما سطَّرهُ الأوَّلونَ، وكتبوهُ من أخبارِ الأممِ! وأرادوا بقولِهم هذا الإيهامَ بأنَّهم ترفَّعوا عن معارضتِه، وأنَّهم لو شاؤوا؛ لنقلوا من أساطيرِ الأوَّلين إلى العربيَّةِ ما يوازي قصصَ القرآنِ، وهذه وقاحةٌ، وقول بلا فعل، وإلّا فما منعَهم أن يشاؤوا معارضةَ من تحدّاهم غير ما مرَّةٍ، وقرَّعهم بالعجزِ، مع تحيُّزهم وتآمرهم في إيجادِ معذرةٍ يعتذرونَ بها عنِ القرآنِ وإعجازهِ إيّاهم وتحدّيه لهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معاني الواوِ وتوجيهها:

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾:

إمّا عاطفةٌ؛ عطفتْ جملةَ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾ على جملةِ ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ﴾، والمعنى: واذكرْ نعمتي عندَك، بمكري بمن حاولَ المكرَ بذاتِكَ، واذكر مكرَهُم بآياتِ كتابِ اللّهِ عنادًا وغرورًا.

أو استئنافيَّةٌ، فأتت هذهِ الآيةُ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾ لتكملَ أخبارَ الكافرين وأحوالهم، ولتبيِّنَ بهتانًا آخر من حجاجِهم وتعنُّتِهم، وهو طعنُهم بآياتِ اللّهِ.

الواوُ إمّا عاطِفَةٌ أو استئنافيَّةٌ، وفي كلا الوجهين تُصَوِّرُ عنادَ المشركينَ ومكرَهُم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/44، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/520، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

نكتةُ استعمالِ الظَّرف:

مَوْقِفُ الكفّارِ عندَ سَماعِ الآياتِ معلومٌ مقطوعٌ بِهِ

استعملَ النَّظمُ ﴿وَإِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾؛ لأنَّها تستعملُ اسمًا للزَّمن المستقبلِ، وتختصُّ بالجملةِ الفعليَّةِ، ومعناها الشَّرطُ، وتحتاجُ إلى جوابٍ، ومن شرطِها أن يكونَ التَّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعه، بخلاف (إن)، فإنَّها لا يكونُ التَّعليقُ بها إلّا في مُبهمٍ مشكوكٍ فيه[1]، والحديثُ هنا عن حالةِ الكفّارِ الذين إذا تُتلى عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان جوابُهم أمرًا معلومًا مقطوعًا به، وهو الجحودُ والاستكبارُ، ولهذا أتى جوابُ إذا بالماضي ﴿قَالُواْ﴾؛ للدَّلالة على الوقوع والحصولِ منهم قطعًا، وهذا المعنى المرادُ لا تؤدّيه أيُّ أداةٍ أخرى غير (إذا).

نكتةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِع:

حِرصُ النَّبيِّ على هدايةِ قومِه قابلهُ نكرانُهم وجحودُهم

جاءَ التَّعبيرُ بالمضارع ﴿تُتۡلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ دون الماضي (تُليت)؛ لأنَّ صيغةَ المضارع تدلُّ على تجدُّدِ التِّلاوةِ عليهم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ وزمنًا بعد زمنٍ، وتصويرِ حالِهم وتجدُّدِها آنًا بعد آنٍ، أيْ: كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان هذا حالَهم من الجحودِ والتعنُّت والافتراء، وأمّا الفعلُ الماضي (تُليَت) فلا يؤدّي هذا المعنى.

براعةُ المناسبةِ:

التِّلاوةُ على الكفّارِ واقعٌ متجدِّدٌ، وجوابُهم معلومٌ متبدِّدٌ

ناسبَ استعمالُ ﴿وَإِذَا﴾ استعمالَ الفعلِ المضارعِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ بعدَها؛ لأنَّ (إذا) أداةُ شرطٍ وفيها معنى الظَّرفيَّة، وهي تستعملُ بحسب أصلِها في كلِّ ما يقطعُ المتكلِّمُ بوقوعِه في المستقبل، وهذا يناسبُهُ المضارعُ، ليؤدّي معنى تكرارِ الفعلِ، وأنَّ هذا حالهم، كلَّما تُليت عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان هذا جوابَهم.

---

(1) ابن نور الدين، مصابيح المعاني في حروف المعاني، ص: 84، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/309.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ لأمرين:

الأوَّلُ: إفادةُ العمومِ، وذلك لأنَّ الفعلَ المبنيَّ للمفعولِ في سياقِ الشَّرط يفيدُ العمومَ، قال البقاعيُّ: "من أي تالٍ فُرِض"[1]، فلو أتى بالمبنيِّ للمعلوم لقيَّدَهُ بتالٍ واحد فقط، وهو رسولُ اللّه ﷺ.

الآخر: صرفُ الحدثِ عمدًا عن مُحدِثه، فلم يُسندهُ إليه، تركيزًا للانتباه على الحدث ذاته، أي: المفعولُ وهو تلاوةُ الآيات، وحصرَ الوعي فيه، فلا يتوزَّعُ في غيرِه، لعدمِ تعلُّقِ غرض الآيات بشخصِ التّالي.

رفضُ قبولِ الحقِّ بقطعِ النَّظرِ عن تاليهِ موقفٌ جاليٌّ وسلوكٌ دنيٌّ

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على نائبِ الفاعلِ:

قدّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ للاهتمام بهم، وأنَّهم المعنيّون بالتّلاوة عليهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه رغمَ الاهتمامِ بهم والحرصِ على هدايتِهم بتلاوةِ الآياتِ عليهم، إلا أنَّهم استكبروا عن سماعِها سماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ، وكفروا بها، فيكونُ هذا أبلغَ في إقامةِ الحجَّةِ عليهم، ودلالة على تعنُّتهم وجحودهم.

مَهما بلغَ حرصُ التّالي؛ فإنَّ حقيقةَ الاستكبارِ متغلغلةٌ في القلوبِ

نكتةُ استعمالِ القيدِ:

استعملتِ الآيةُ قيدَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ تلاوةَ الآياتِ كانت موجَّهةً للكفّارِ دونَ غيرِهم، فيكونُ هذا أبلغَ في إقامةِ الحجَّةِ عليهم، وللتَّأكيدِ على أنَّ الآياتِ كانت تتلى على مسمعٍ منهم، ومن حالِ قوَّةٍ وعلوٍّ وفخامةٍ لا ضعفٍ وذلٍّ ودونٍ، لأجل أن يتدبَّروها، ويؤمنوا بها، إذ التِّلاوةُ في اللُّغة:

تالي القرآنِ يتلوهُ بعزَّةِ الإسلامِ وعلوِّ الإيمانِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/268.

القراءةُ بصوتٍ، وعندما أتى بحرف الجر ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ كان في ذلك زيادةُ تأكيدٍ على أنَّ التِّلاوةَ كانت بصوتٍ، وسمعها الكفّار، كما أنَّ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دالٌّ على الاستعلاء، ويفيدُ مكانةَ المتلوِّ وعلوَّهُ وشرفَهُ وأنَّهُ حقيقٌ بأن يُسمعَ.

نُكتةُ ذِكْرِ المتلوِّ عليهم بالإضْمارِ لا الإظْهارِ:

معرفةُ المقصود تُغني عن ذكرِه

أضمرَ القرآنُ ذكرَ المتلوِّ عليهم - وهم الكفّار - في قوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يظهرهُ؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ وموضوعَها مشعرٌ بتعيينِهم؛ فهي تتحدَّث عن صفاتِ الكفّارِ ومكرِهم وافترائِهم، فعندما ذُكِرَ في هذه الآيةِ ردودُ فعلٍ جاحدةٌ ومستكبرةٌ وخارجةٌ عن سنَنِ الاستقامةِ؛ انصرفَ الذِّهنُ إليهم، إذ لا يصدرُ إلّا عنهم، فلا حاجةَ إلى إظهارِ ذكرِهم إهانةً لهم وتحقيرًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالآياتِ دون الكتابِ:

الاتِّساقُ الدِّلاليُّ يقضي بإيثارِ ذكرِ الآياتِ على الكتابِ

عبَّرتِ الآيةُ بقولِه: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ دونَ لفظِ (الكتاب)؛ لأمرين:

الأوَّلُ: الإشارةُ إلى إعجازِ الآياتِ، فالآيةُ في اللُّغةِ: العلامةُ، ومن معانيها: البرهانُ والمعجزةُ، والسّياقُ سياقُ تحدٍّ.

الآخر: المناسبةُ بينَ لفظِ (الآيات)، وبين فعلِ (تتلى)، فالتِّلاوةُ هي التَّتابعُ، وهذا يُناسِبُ تتابعَ الآياتِ، ويدلُّ على أنَّهُ تُليت عليهم مجموعةُ آياتٍ متتابعة يحصل بها إعجازٌ وتحدٍّ.

نكتةُ الإسنادِ للجميعِ والمرادُ بعضُهم:

ملَّةُ الكفرِ واحدةٌ وإنِ اختلفت وسائلُها؛ فهي متَّفقةٌ في غاياتِها

إسنادُ القول للجميعِ في قولِه: ﴿قَالُواْ﴾ مع أنَّ القائلَ بعضُهم (زعماؤهم) أو واحدٌ منهم؛ وذلك إمّا لرضا الباقينَ بهذا القولِ، أو لأنَّ القائلَ كبيرٌ متبَّعٌ يقودُهم إلى الباطلِ وإلى طريقِ الغوايةِ، فاتَّبعَهُ قائلون كثيرون، أو لكثرةِ من سيصدرُ منهم هذا القولُ كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللهِ، فلمّا صدرَ القولُ من بعضِهم، فلا مانعَ من أن

يصدرَ أمثالُ هذا القولِ من بقيَّتهم؛ لأنَّهم متَّفقون على الكفرِ والتعنُّت والاستكبار[1]، والعبرةُ بمضمونِ الأقوالِ لا عمَّن صدرت عنهم.

دلالةُ جملةِ جوابِ الشَّرطِ:

طبائعُ الكفّارِ وقلوبُهم وردودُهم واحدةٌ في كلِّ زمانٍ

دلَّت جملةُ جوابِ الشرط ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ على وقوعِ هذا القولِ من الكفّارِ قطعًا، وهو إقرارُ السَّماعِ والفهم، فعندما أتى الفعلُ الماضي ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ وهو جوابُ الشَّرط بعد الفعلِ المضارعِ (وإذا تُتْلَى)، وهو فعل الشَّرطِ؛ دلَّ على تحقُّقِ الوقوع، أي: دلَّ على أنَّهم كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللّه؛ سيقعُ منهم هذا القولُ حتمًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ طبائعَ الكفّارِ وقلوبهم وردودهم واحدةٌ في كلِّ زمانٍ.

فائدةُ استعمالِ أداةِ التَّحقيق:

من طبائعِ المعاندين المعاجلةُ بالإجابةِ الجازمةِ دونَ تأمُّلٍ أو تفكُّرٍ

استعملَ النَّظمُ أداةَ ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾؛ لتأكيدِ تحقُّقِ سماعِهم للآياتِ، فحرفُ (قد) إذا سبقَ الفعلَ الماضي؛ أفادَ التَّحقيقَ، فقولهم: ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ أفادَ أنَّهم ليسوا بحاجةٍ إلى استمرار سماعِهِ، وهذا يدلُّ على أنهم لا يجيبونَ بالتَّأمُّلِ والتَّفكيرِ والتَّدبُّرِ فيما يتلى، بل يعاجلون القارئَ، كأنَّهم يطلبونَ أن يسكتَ، ولا يقرأ، قائلين: سمعنا، كما تقولُ لمتكلِّمٍ لا تريدُ منه الاستمرارَ: سمعنا سمعنا، أي: أقْصِر، وكأنَّهم يتأفَّفون، وهذا لشدَّةِ تعنُّتِهم واستكبارِهم واستخفافٍ منهم بالقرآنِ وإعراضٍ عن سماعِهِ سماعَ متدبِّرٍ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

إباءُ الكافرينَ عن سماعِ التِّلاوةِ انطماسٌ للأسماعِ في الغواية

عبَّرتِ الآيةُ بصيغةِ الماضي ﴿سَمِعۡنَا﴾ للإشارةِ إلى عنادِهم واستهزائهم؛ إذ إنَّ قولَهم: ﴿سَمِعۡنَا﴾ بصيغة الماضي بعد ﴿قَدۡ﴾ يفيدُ تأكيدَ تحقُّقِ الحدثِ، وهو أنَّهم سمعوا الآياتِ، وانتهى الأمرُ، ولا إرادة عندهم للسَّماعِ مرَّةً أخرى، بخلافِ ما لو استُعمل الفعلُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/283.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3114.

المضارعُ، فقال: (قد نسمع)، فإنَّهُ يفيدُ توقُّعَ السَّماعِ منهم في المستقبلِ، وفي هذا إشارةٌ إلى استخفافِهم وإعراضِهم عن تدبُّرِ القرآنِ وكِبَرِهم عن قبولِ الحقِّ.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ:

ذكرُ السَّببِ وإرادةُ المسبَّبِ كنايةٌ عن كبرِهم وغرورِهم

أطلقَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿سَمِعۡنَا﴾، وأراد الفهمَ بدليلِ قولهِ بعده: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾؛ إذ لا يمكنُ أن يقولوا مثل ما سمعوا إلّا إذا فهموهُ، فإطلاقُ السَّمعِ وإرادةُ الفهم مجازٌ مرسلٌ، والعلاقةُ سببيَّةٌ؛ فالسَّببُ هو السَّمعُ، والمسَبَّبُ هو الفهمُ؛ لأنَّ السَّمعَ طريقٌ إلى الفهم، وفي هذا كنايةٌ عن كبرِهم وغرورِهم، وأنَّهُ يكفيهم أن يسمعوا الآياتِ ليفهموها، وفي هذا أيضًا إيجازٌ يشيرُ إلى معاجلتِهم القارئَ، وكأنَّهم يطلبونَ أن يسكتَ، ولا يقرأ؛ لأنَّهم فهموا ما يقولُ.

فنُّ تغايُرِ المذهبين:

فنُّ التغايرِ يبرزُ الحيرةَ والاضطرابَ في الأقوالِ

غايرَ قولُ الكافرينَ هنا - في سورةِ الأنفالِ ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾، وهي سورةٌ مدنيَّةٌ، ورقمُها في النُّزول: (88) - قولَهم في سورةِ ص: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: 7- 8]، وهي سورةٌ مكيَّةٌ، ورقمُها في النُّزول: (38)، وقد أنكرَ فيها المشركونَ سماعَهم للقرآنِ إنكارًا منهم لغرابةِ أسلوبِهِ وما بهرَهُم من فصاحتِه، ويلزمُ هذا الكلامَ إقرارُهم بالعجزِ عن محاكاتِه.

وبلاغةُ فنِّ التَّغايرِ أنَّ القولين وقعا في زمنينِ مختلفينِ ووقتينِ متباينينِ، ولو كان القولانِ في وقتٍ واحدٍ؛ لكانَ ذلك تناقضًا وهو عيبٌ، ولم يُعدَّ في المحاسن، ولذلك سمّي تغايرًا لا تناقضًا في كتابِ اللّه تعالى[1].

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/209.

فنُّ الاحتباكِ:

خالفَ النَّظمُ بين شرط ﴿لَوۡ﴾ وجوابِها؛ إذ جعل شرطَها مضارعًا والجزاء ماضيًا، أي: عدلَ عن الفعلِ الماضي (شئنا) إلى المضارعِ ﴿نَشَآءُ﴾، فالتَّقديرُ: لو شِئْنا؛ لقلْنا، ويرى ابن عاشور أنَّهُ لا يبعدُ أن يكونَ احتباكًا قائمًا مقامَ شرطين وجزاءين، فإحدى الجملتين مستقبلةٌ والأخرى ماضيةٌ، فالتَّقديرُ لو نشاءُ أن نقولَ؛ نقولُ، ولو شئنا القولَ في الماضي؛ لقلْنا فيهِ، فذلك أوعبُ للأزمانِ، فهُم لمّا قالوا: (لو نشاءُ؛ لقلنا مثل هذا)؛ ادَّعوا القدرةَ على قولِ مثلهِ في الماضي وفي المستقبلِ إغراقًا في النَّفاجة والوقاحةِ[1].

إنَّـمـا تُـعـرَفُ وقاحةُ الكذّابِ بـوضـوحِ كذبهِ وجرأةِ زعْمِه

نكتةُ انتقاءِ الألفاظِ:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بلفظِ ﴿لَقُلۡنَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾، ولم يقل: (لتلونا)؛ ليُعلمَ الفرقُ في التَّقابلِ السياقي بين المقولِ والمتلوِّ؛ إذ إنَّ بين اللَّفظتينِ توافقًا في بعضِ الوجوهِ، فكلاهما كلامٌ يعبِّرُ عمّا في النَّفس، ولكنَّ السّياق هو الَّذي يحدِّدُ اللَّفظةَ المناسبةَ لمكانِ ورودِها، فلفظةُ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ دلَّت على التَّتابُعِ، فالتِّلاوةُ لا تكونُ في الكلمةِ الواحدة، بخلافِ القولِ فلا يقتضي المتابعةَ؛ إذ يمكنُ أن يكونَ بكلمةٍ واحدةٍ، فلا تقولُ: تلا اسمَهُ، وتقول: قالَ اسمَهُ.

التَّقابلُ السّياقيُّ بين المقولِ والمتلوِّ يُعلَمُ بالسِّماتِ والـــدِّلالاتِ المختلفةِ لكلٍّ منها

كما أنَّ التِّلاوةَ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءةَ المتتابعةَ بتغنٍّ، وتعني: المتابعةَ بالعلمِ والعملِ، وهذه المعاني هي المناسبةُ للقرآنِ الكريم، فلذلكَ عبَّرَ بـ ﴿تُتۡلَىٰ﴾.

أمّا القولُ فإضافةً إلى السِّماتِ السّابقةِ من أنَّهُ لا يقتضي المتابعةَ، ويمكنُ أن يكونَ بكلمةٍ واحدةٍ، فإنَّهُ لا يعودُ في الأغلبِ إلى مصدرٍ معيَّنٍ، وغالبًا لا يدلُّ في أصلهِ على اليقينِ، أي: يكونُ فيما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/329.

يحتاجُ إلى تثبُّتٍ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤﴾ [الحاقة: 44]، ولذلك ناسبَ أن يكونَ التَّعبيرُ عن قولِهم الَّذي هو كذبٌ وافتراءٌ وادِّعاءٌ بقدرتِهم على أن يفعلوا ما لم يفعلوهُ، إيهامًا على النّاس وإيهامًا، ناسبَ أن يكونَ لفظ ﴿لَقُلۡنَا﴾، وفي هذا دليلٌ على أنَّهم نطقوا بما في نفوسِهم من انهزامٍ واستسلامٍ نفسيٍّ أمامَ عظمةِ القرآنِ، كما أنَّ لفظَ ﴿لَقُلۡنَا﴾ يُناسبُ اعتقادَهم بأنَّ القرآنَ مجرَّدُ أقوالٍ كأساطيرِ الأوَّلينَ.

بلاغةُ وصفِ المفعولِ المطلقِ المحذوفِ:

أبتْ ألسنتُهم إلّا أن تفضحَ ما في نفوسِهم من الاستسلامِ النَّفسيِّ للقرآنِ

المفعولُ المطلقُ المحذوفُ هو (قولًا)، و﴿مِثۡلَ﴾ وصفٌ له، والتَّقدير: (لو نشاءُ لقلنا قولًا مثلَ هذا)، وهذا دليلٌ على أنَّ قدرتَهم في الادِّعاءِ الكاذبِ لا تتجاوزُ إلا أن تكونَ مثل القرآن، ولم يجرؤوا أن يقولوا: (لقلنا خيرًا منه)، وفيه كشفٌ لما يدورُ في نفوسِهم من الاستسلامِ النَّفسي لهذا القرآنِ، كيف لا؟ وأنتَ ترى كيفَ أنَّهم بعد قولِهم: (لقلنا قولا مثل هذا) يصفونَ القرآنَ بعبارةٍ يصعدُ منها دخانُ الانهزامِ النَّفسي عندَهُم، فهم يرمونَ القرآنَ بما يسترونَ بهِ مقامَهم بفعالِهم؛ إذ أساطيرُ الأوَّلين ما أتى بها إلّا رؤساءُ الكفرِ في مكَّةَ، وهم لا يحسنونَ سواها، فرموا القرآنَ بما يستصغرونَ بِهِ أنفسَهم من حيثُ لا يشعرونَ، وهذا شأنُ المتكبِّرِ البليدِ، يقع في بلادةِ شعورِه، وشعورِ نقصِه وعجزِه.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ:

الإشارةُ بالقريبِ للتَّنبيهِ على تسفُّلِهِم واستغراقِهم في الكبرِ والغرورِ

أخبرَ اللّٰهُ عن حالِ المشركينَ ومقالتِهم ردًّا على سماعِ آياتِ اللّٰهِ، ووصفَ لنا تعبيرَهُم، وهُم يتحدَّثونَ عن آياتِ القرآنِ من خلالِ استخدامِهم إحدى أدواتِ التَّعريفِ، وهي اسمُ الإشارةِ للقريبِ الذي أرادوا من خلالِه الاستخفافَ والاستهزاءَ والتَّقليلَ من عظمةِ كلامِ اللّٰهِ سبحانه، ممّا يدلُّ على مدى استكبارِهم وإصرارِهم

على الباطلِ وعدمِ سماعِ الحقِّ، وهو دأبُهم وعادتُهم مع كلِّ الأنبياء والرُّسلِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ [الفرقان: 41]، ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾ [النمل: 68]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25]، وحتَّى التَّعبير بهذا دونَ (هذه) أو دون مثلِها فيه دلالةٌ على إهانتِهم لآياتِ اللهِ وازدرائِهم بمقامِ الرِّسالةِ.

بلاغةُ القصْرِ:

القصْرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هو قصرٌ بالنَّفي والاستثناءِ، والغرضُ البلاغيُّ منه حصرُ كونِ الآياتِ ليست إلّا أساطيرَ الأوَّلين، ونفيُ أن تكونَ غيرَ ذلك، وجاء بـ (إن) مع (إلا) الَّتي تفيدُ توكيدَ التَّوكيدِ، وهذا الموقفُ يبيِّن مدى العنادِ والتَّكبُّرِ والجحودِ الَّذي وصلَ إليهِ المشركونَ في إنكارِ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ يقولُ أبو زهرةَ: "أفبعد هذا التَّحدّي الشّامخِ والسُّكوتِ الخانعِ والعجزِ الخاضعِ يقول قائلُهم: لو شئنا؛ لقلنا مثل هذا، تلك غطرسةٌ كاذبةٌ، ونفخة جوفاء، ويردفونَ كذبَهم بكذبةٍ أخرى، فيقولون: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾"[1].

استعمالُهم للقصرِ يبيِّنُ مدى العنادِ والتَّكبُّرِ الذي وصلوا إليهِ في إنكارِ الرِّسالة

نكتةُ تكرارِ اسمِ الإشارةِ:

سبقَ أن استخدمَ المشركونَ اسمَ الإشارةِ للقريبِ، وهم يتحدَّثون عن آياتِ القرآنِ، استخفافًا واستهزاءً، يقولُ سبحانه: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾، ولقد أعادوا استخدامَ هذا الاسم، وهم في سياقِ الاستمرارِ في التَّكبُّرِ والإعراضِ والاستخفافِ، بادِّعائِهم أنَّ القرآنَ ليس إلّا أساطيرَ الأوَّلينَ، فقالوا كما حكى القرآنُ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ولم يقولوا: (إن هو).

تكرارُ الألفاظِ تابعٌ للرّاسخِ من معاني الاستخفافِ والتَّقليلِ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3114.

وفي هذه الإعادةِ دلالةُ تأكيدهم للغرض ذاته، وهو الاستخفافُ والتَّكبرُ.

بلاغةُ النَّظمِ في التَّنبيهِ على غايات الخصم:

وَصفُ القرآنِ بأساطيرِ الأوَّلينَ تشبيهٌ سلبيٌّ لصرفِ النّاسِ عنهُ

وصفُ المشركين لكلامِ اللّهِ المعجزِ بأنَّهُ أساطيرُ الأوَّلينَ: هو تشبيهٌ سلبيٌّ لصرفِ النّاسِ عن القرآنِ، وقد ذكرَهُ القرآنُ ليشيرَ إلى غايةِ المكابرةِ ونهايةِ العنادِ الَّتي كانوا عليها، كيف لا؟ ولو استطاعوا شيئًا من ذلك، فما الَّذي كان يمنعُهم من المشيئةِ، وقد تُحدّوا عشرَ سنينَ، وقُرِّعوا على العجزِ، وذاقوا من ذلكَ الأمرَّينِ، ثمَّ قورعوا بالسَّيفِ، فلم يعارضوا بما سواهُ مع أنفتِهم وفرطِ استنكافِهم أن يغلبوا لاسيَّما في بابِ البيانِ[1]، وهذا من عجيبِ بهتانِهم، ومع هذا كلِّه يعتذرونَ بأنَّ ما في القرآنِ أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّهم قادرونَ على الإتيانِ"[2].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التِّلاوةُ والقراءةُ:

التِّلاوةُ لا تكونُ إلّا بالتَّتابُعِ وبصوتٍ بينَما القراءةُ لا يُشترطُ فيها التَّتابعُ والصَّوتُ

التِّلاوةُ والقراءةُ مُتقاربتانِ في المعنى إلّا أنَّ بينهما ملامحَ دلاليَّةً فارقةً منها:

الأوَّلُ: أصلُ التِّلاوةِ في اللُّغةِ مِنَ الاتِّباع، بينما أصلُ القراءةِ هو جمعُ الشَّيءِ، وضمُّ بعضِه إلى بعضٍ، فقراءةُ الكلامِ تعني: ضَمَّ حروفِه إلى بعضِها والتَّلفُّظَ بها مجموعةً.

الثّاني: القراءةُ أعمُّ من التِّلاوةِ، فالتِّلاوةُ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءةَ المتتابعةَ بتغنٍّ، وتعني: المتابعةَ بالعلمِ والعملِ، وأمّا القراءةُ؛ فلا تقتضي المتابعةَ، يقال: قرأْتُ الرِّسالةَ، ولا يقالُ: تلوْتُ الرِّسالةَ، فالقراءةُ عامَّةٌ والتِّلاوةُ خاصَّةٌ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/329.

الثّالثُ: التِّلاوةُ لا تكونُ في الكلمةِ الواحدةِ، والقراءةُ تكونُ فيها، تقولُ: قرأ فلانٌ اسمَهُ، ولا تقول: تلا اسمَهُ؛ لأنَّ أصلَ التِّلاوةِ: الاتِّباعُ، فإذا لم تكنِ الكلمةُ تتبع أختَها لم تُستَعملْ فيها التِّلاوةُ، وتُستَعمل فيها القراءةُ.

الرّابع: (تلا) تُستعملُ للقراءةِ من مكتوبٍ بصوتٍ، ويتسامح فيها، فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ لكن بصوتٍ، و(قرأ) تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوتٍ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27، والراغب، المفردات، ص: 75، والنزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 27، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 159 - 160.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

طلبُهم العذابَ انتقالٌ إلى مرحلةِ الإفلاسِ في القدرةِ على تحقيقِ ما وعدوا به

لمّا قالوا في الآيةِ السّابقةِ استهزاءً بالآياتِ الّتي تُليت عليهم: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وإيهامًا للنّاس بأنّهم ترفّعوا عن معارضةِ القرآنِ، انتقلوا في هذه الآيةِ إلى مرحلةٍ أبلغَ في الجحودِ والإيهامِ من القولِ الأوّلِ، وهو طلبُهم العذابُ تعليقًا على كونِ القرآنِ حقًّا، وأنّهم على القطعِ من أنّ ما جاءَ بهِ النّبيُّ ﷺ باطلٌ، فقالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: نداءٌ، والمرادُ بهِ - يا الله - فحُذِفَ حرفُ النِّداءِ، وعوِّضَ الميمُ في آخرِه، وقيل: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ بمعنى: يا مَن هو إلهي، وقال فريقٌ من العلماءِ: إنَّ الاسمَ الجليل (الله) ليس من الأسماءِ الّتي يجوزُ اشتقاقُ فعلٍ منها، وقال فريقٌ آخرُ: إنَّ أصلَهُ: (الإلاهُ) وحُذِفَتِ الهمزةُ، وأُدْغِمَتِ اللّامُ في اللّامِ، والإلهُ: المعبودُ(1).

2) ﴿فَأَمْطِرْ﴾: الميمُ والطّاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيحٌ فيهِ معنيان: أحدُهما: الغيثُ النّازلُ من السّماءِ، والآخرُ جنسٌ من العدوِّ، والّذي جاءَ مِنَ التّركيبِ في القرآنِ هو المعنى الأوّلُ، أي: الماءُ المنسكبُ من السّحابِ، وقيل: إنَّ (مطر) يقالُ في الخيرِ، و(أمطر) في العذابِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أله).

وجعل العذابَ تشبيهًا بالمطرِ في التَّصوُّب من أعلى، ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74][1].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

غايةُ المكابرة وتمامُ المفاخرة في أن طلبوا العذابَ لأنفسِهم!

يذكرُ اللهُ لنبيِّه ﷺ وللمؤمنينَ صورةً أخرى من عنادِ الكافرينَ، وهي قصدُهم التَّخييلَ إلى النّاس أنَّهم على القطعِ من أنَّ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ باطلٌ، وإلّا لما دعوا بدعاءٍ جارٍ مجرى القسم، أي: يقسمونَ بطريقةِ الدُّعاءِ على أنفسِهم، فتوجَّهوا فيه لمن لهُ تمامُ المُلكِ وعمومُهُ، متهكِّمين برسولِ اللهِ، قائلينَ: اللهمَّ إن كان هذا الأمرُ هو الحقُّ من عندِك، لا شكَّ فيهِ ولا مريةَ، فعاقبنا على الكفرِ به، بحجارةٍ مخلوقةٍ من السَّماءِ لمن تصيبهُ، كثيرةٍ مثل المطرِ، كما عاقبت أصحابَ الفيلَ، ومرادُهم إنكارُ كونِه حقًّا منزَّلًا من عندِ اللهِ، كأنَّهم قالوا: إن كانَ الباطلُ حقًّا فائتنا بعذابٍ أليمٍ، فعلَّقوا نزولَ العذابِ على محالٍ في ظنِّهم، وحسبوا فيه معذرةً لهم عن العجزِ الذي تلبَّسوا بهِ في معارضةِ القرآنِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تعيينُ المعطوفِ عليهِ:

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ عاطفةٌ، ويحتمل أن يكون المعطوفُ عليه ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 30]، ويحتمل أن يكونَ ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ [الأنفال: 31][2].

براعةُ المناسبةِ:

قولُهم الثّاني أبطلَ قولَهم الأوَّلَ، وأظهرَ غايةَ عجزِهم وحمقِهم

بين المفردتينِ رابطٌ بديعٌ، كاشفٌ عن حقيقتِهم الَّتي يستطيعونَها، ففي الأولى ادَّعَوا قدرتَهم على القولِ، ولكنَّهم امتنعوا عنه ترفُّعًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مطر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/331.

فلو كان ادِّعاؤُهم صحيحًا؛ لاكتفوا بالقولِ الأوَّلِ (لقلنا) الَّذي جاءَ جوابَ شرطٍ، ومعنا كما سبقَ (لو نشاءُ أن نقولَ؛ نقولُ، ولو شئنا القولَ في الماضي؛ لقلنا فيه)، أي: ادَّعوا القدرةَ على قولِ مثلِه في الماضي وفي المستقبلِ.

ولكنَّهم لمّا قالوا القولَ الثّاني، وأتوا به دعاءً على أنفسِهم وقومِهم بإمطارِ الحجارةِ والعذابِ الأليمِ، أي: بهلاكِ الاستئصالِ، فكشفَ هذا الطلبُ عن غايةِ عجزِهم وعنادِهم وحمقِهم؛ لأنَّهم أبطلوا قولَهم الأوَّلَ، وعلَّقوا الإقرارَ بصدقِ القرآنِ بإنزالِ العذابِ عليهم، ولو امتلكوا القدرةَ؛ لأتوا بما زعموا، ولما لجؤوا للدُّعاءِ على أنفسِهم.

وهذا يدلُّ على الاستسلامِ النَّفسيِّ والعجزِ الدّاخليِّ الَّذي كان في داخلِهم، والذي أرادوا أن يستروهُ بأقوالِهم، ففضحتْهُم أقوالُهم.

سرُّ التَّعبيرِ عن المفردِ بالجمعِ:

الكافرونَ فريقٌ واحدٌ اتَّفقَ على إنكارِ الحقِّ بكلمةِ رجلٍ واحدٍ

وردَ أنَّ القائلَ هو الحارثُ بنُ النضرِ بنِ الحارثِ، فيكونُ القرآنُ قد عبَّرَ عن المفردِ بالجمعِ؛ وذلك لأنَّ النَّضرَ كان في قومِه موسومًا بالنُّبلِ والفهمِ، مسكونًا إلى قولِه، فكانَ إذا قالَ قولًا؛ تبِعَه عليه كثيرٌ، واتَّبعوهُ عليهِ حسبما يفعلُه النّاسُ أبدًا بعلمائِهم وفقهائِهم[1]، أو هو قولُ الذين ائتمروا في شأنِه[2]، وعلى كلا القولين، فهناك إشارةٌ إلى اتِّفاقِهم على الباطلِ، وأنَّهم كانوا يؤيِّدونَهُ، ويحكونَهُ، ويحاكونَهُ، فإن كانَ الَّذي ابتكرَهُ هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، فليس يمتنعُ أن تصدرَ أمثالُ هذا القولِ من أمثالِه وأتباعِه[3].

بلاغةُ ألفاظِ الدُّعاءِ:

عبَّرَ القرآنُ بـ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، وهو دعاءٌ على لسانِ غيرِ المؤمنين، ولم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/520.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/326.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

المتكبِّرونَ المعاندونَ يُلمس استهزاؤهم حتَّى في دعائِهم

يردُ في القرآنِ الدُّعاءُ به إلّا وهو مقترنٌ باسمٍ آخرَ من أسماءِ اللّهِ عدا هذهِ الآيةَ، فجاءَ في سياقِ استهزاءِ المشركينَ بكلامِ الرَّسولِ ﷺ ولم يكن في سياقِ العبوديَّةِ، بخلافِ المواضعِ الأخرى، ومنها ما جاءَ في دُعاءِ عيسى عليه السلام[1].

حُذِفَت أداةُ النِّداء؛ إذ أصلُ هذا الدُّعاءِ: يا اللّهُ، وذلك إيهامٌ بأنَّهُ سبحانه قريبٌ منهم، لا يحتاجونَ إلى ندائه، وأنَّ الحقَّ معهم، وهذا زيادةٌ في السُّخريةِ والاستهزاءِ بالنَّبيِّ ﷺ.

سياقُ الآياتِ سياقُ قوَّةٍ وبطشٍ، قال بعدها سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾، وهذا التَّعبيرُ لم يرِدْ في القرآنِ إلّا في مواضعِ القوَّةِ والبطشِ.

الإشارةُ إلى اعترافِهم باللّهِ الَّذي يتوجَّهونَ إليه، وأنَّ للّهِ ﷻ عنديَّةً، وفيها حقٌّ، ورغم ذلك ينصرفونَ عن الامتثالِ لمنهجِه وعبادتِه، ممّا يدلُّ على أنَّهم نموذجٌ للصَّلف والمكابرة[2].

توجيهُ استعمالِ ﴿إِن﴾ دونَ (إذا):

الكشفُ عن زَعْزَعةِ المشركين وتشكُّكِهم بعدمِ وقوعِ العذابِ

عبَّرَ القرآنُ بحرفِ الشَّرط ﴿إِن﴾ دونَ (إذا)؛ لأنَّ الأصلَ عدمُ قطعِ المتكلِّم بوقوعِ الشَّرطِ في المستقبلِ مع (إنْ)، بخلافِ (إذا) فتُستعمَلُ بحسبِ أصلِها في كلِّ ما يقطعُ المتكلِّمُ بوقوعِه في المستقبل، ومن أجلِ هذا لا تُستعمل إلّا في الأحوالِ الكثيرةِ الوقوعِ، واستعمالُ ﴿إِن﴾ يناسبُ حالهم، فهم غيرُ جازمينَ بأنَّ القرآنَ حقٌّ ومنزَّلٌ من اللّهِ، بل هم موقنونَ بأنَّهُ غيرُ حقٍّ، وهذا يكشفُ زعزعةَ المشركين،

---

(1) ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114] فقد جاء لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ بعد ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ في دعاء عيسى عليه السلام، السامرائي، لمسات بيانية: 5/164.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3665.

ولذلك أتى بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ الذي يقتضي تقوّي الخبر، أي: إن كان هذا حقًّا ومن عندك بلا شكٍّ[1].

نكتةُ تَكرارِ ﴿هَٰذَا﴾ ثلاثَ مرّاتٍ في سياقٍ واحدٍ:

استمرارُ الاستخفافِ بالقرآنِ دليلُ عدمِ الصِّدقِ في طلبِ الحقِّ

أعادَ القرآنُ كلمةَ ﴿هَٰذَا﴾ - وهي اسمُ الإشارةِ الَّذي يُستعمل للقريب - مرَّةً ثالثةً؛ إذْ سبقَ ذكرُها في الآيةِ السّابقةِ، لإفادةِ التَّأكيدِ، أي: أكَّد القرآنُ وجودَ استخفافِ الكافرين واستهزائِهم بالقرآنِ، واستمرارهِ منهم، بما يدلُّ على عدمِ صدقِهم في دعائِهم.

دلالةُ اجتماعِ المؤكِّدات:

قولُ الحقِّ ينسلُّ من لسانِ أهلِ الباطلِ فيفضحُهم وهم غافلونَ

ضميرُ الفصلِ (هو) لا محلَّ لهُ من الإعرابِ، يفيدُ التَّأكيدَ على ثبوتِ اتِّصافِ المبتدأ، وهو القرآنُ بالخبرِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ وتقويتِه وأحقيَّته بِه، وتعريفُ المسندِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بلامِ الجنسِ، كما يرى ابنُ عاشور يقتضي الحصرَ، أي: إنَّهُ الحقُّ الكامل في أعلى درجاتِه وأقصى غاياتِه، وبالتّالي اجتمعَ في التَّركيبِ تقوٍّ وحصرٌ، وذلك تعبيرُهم يحكونَ بهِ أقوالَ القرآنِ المنوَّهةَ بصدقِه، أي: وإن كفرت قلوبُهم إلّا أنَّ ألسنتَهم أبتْ إلّا أن تفضحَهم؛ إذ كان يكفيهم أن يقولوا: (إن كان هذا حقًّا)، ولكنَّهم اعترفوا بقوَّةِ حَقّيَّةِ القرآنِ من خلال ضميرِ الفصلِ، وبانحصارِ الحقيقةِ فيهِ من خلالِ تعريفِ المسندِ إليهِ[2].

وهناك من المفسِّرين من يرى أنَّ فائدةَ التَّأكيدِ بضميرِ الفصلِ وتعريفِ المُسندِ هو بيانُ تهكُّم المشركينَ بالنَّبيِّ ﷺ يقولونه من باب السُّخرية والاستهزاءِ، أي: إنَّ القرآنَ حُقَّ بالوجهِ الذي يدَّعيه النَّبيُّ ﷺ من أنَّهُ منزَّلٌ من عندِ اللّهِ، لا الحقُّ مطلقًا[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/58، والآلوسي، روح المعاني: 5/187، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/284.

لامُ التَّعريفِ بين العهديَّةِ الَّتي تفيدُ التَّهكُّمَ، والجنسيَّةِ الَّتي تفضحُهم

معنى التَّعريفِ في لفظِ: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

(أل) التَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ فيها رأيانِ[1]: أوّلهما أنّ (أل) عهديَّةٌ: والعهدُ فيها حضوريٌّ، ومعنى العهدِ في أنَّه الحقُّ الَّذي ادَّعاهُ النَّبيُّ ﷺ وهو أنَّه كلامُ اللّهِ تعالى المنزَّل على النّبيّ ﷺ على النَّمط المخصوصِ[2]، أي: إنَّ القولَ هو تهكُّمٌ من المشركين.

وثانيهما: أنّ (أل) للجنس، وهي تقتضي الحصرَ، أي: إنَّهُ الحقُّ الكاملُ في أعلى درجاتِهِ وأقصى غاياتِه، وعلى هذا يكونُ هذ القولُ من المشركين ليس تهكُّمًا، وإنَّما اعترافٌ لم يقصدوهُ[3].

بلاغةُ تقديرِ المحذوفِ بالقيدِ:

قَيَّدتِ الآيةُ المحذوفَ، وهو الحالُ (منزَّلًا) بالقيدِ ﴿مِنۡ عِندِكَ﴾ والتَّقدير: منزَّلًا من عندك؛ للإشارة إلى أنَّهم يطعنونَ في كونه حقًّا، وفي كونه منزَّلًا من عندِ اللّهِ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ:

الاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ غرضُها تهكميٌّ

في الآيةِ استعارةٌ، حيثُ شبَّهتِ الآيةُ نزولَ العذابِ بنزولِ المطرِ، فطوى ذكرَ المُشَبَّه، وصرَّحَ بذكرِ المشبَّه بهِ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ ليجيءَ المعنى في صورةٍ واضحةٍ قريبةٍ من الأذهان، وسهلةِ التَّحقُّق، كنزولِ المطرِ الذي لا يستبعدهُ أحدٌ، وهذا إفراطٌ في معاندتِهم وتحدّيهم وسخريَّتِهم، وخداعِهم للبسطاءِ وادِّعائِهم بأنَّ العذابَ لن يقعَ، وكشفتِ الآيةُ عن تهكُّمِهم بقيلهم ذلك، ومدى تجاسرِهم في الدُّعاءِ، ورحمة اللّه بهم.

بلاغةُ فعلِ الأمرِ:

استُعمِلَت صيغةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَأَمۡطِرۡ﴾ و﴿ٱئۡتِنَا﴾ إشارةً إلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/187.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 5/284.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

طلبُ العذابِ دونَ الهدايةِ أمارةُ العجزِ والاستكبارِ

غايةِ تهكُّمِهم وسخريَّتِهم بالنَّبيِّ ﷺ وتحدّيهم؛ إذ إنَّ فعلَ الأمرِ يدلُّ على التَّهكُّم إذا تضمَّن سخريَّةً، ويدلُّ على التَّعجيزِ إذا كان في سياق التَّحدّي، لبيانِ عجزِ المأمورِ، وكان المأمورُ بهِ مستحيلًا في زعمِهم، وفي هذا عنادٌ منهم، وإبهامٌ على النّاسِ أنَّهم على بصيرةٍ[1]، وإلّا فالعقلُ يستدعي أن يكونَ الطَّلبُ هو طلبُ الهدايةِ، ولكن عدلوا عنهُ إلى ما ذكروا لفرطِ استكبارِهم وحمقِهم.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

طلبُ تخصيصِهم بالعذابِ تحدٍّ واضحٌ واستكبارٌ فاضحٌ

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡنَا﴾ على المفعول ﴿حِجَارَةً﴾، وهو من تقديمِ أحدِ المُتعلِّقاتِ على بعض مخالَفةً للتَّرتيبِ الأصلي؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: سألوا أن يخصَّهم اللّهُ بهذه الحجارةِ دون غيرِهم، وذلك إشارةٌ إلى فرطِ تحدّيهم للنَّبيِّ ﷺ وفرطِ استكبارِهم واستهزائِهم واستخفافِهم بهِ، وإلى قصدِهم من إيهامِ النّاسِ أنَّهم على القطعِ من أنَّ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ باطلٌ، وإلّا لما دعوا بدعاءٍ خصّوا فيه أنفسَهم دونَ غيرِهم.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

الإشارةُ إلى عذابِ أبرهةَ لبيانِ ثقتِهم بتكذيبِهم الوحيَ وللتَّلبيس على النّاس

أفردَ الكفّارُ طلبَ إمطارِ الحجارةِ من بينِ أفرادِ العذابِ الأليمِ بالذِّكرِ، لكونِ الرَّضْخِ بالحجارةِ ممّا يجتمعُ فيه عذابُ الجسمِ بما فيهِ من تألُّمِ البدنِ، وعذابُ الرّوحِ بما فيهِ من الذِّلَّةِ والإهانةِ، وهذا فيه إشارةٌ إلى زيادةِ تهكُّمِهم واستكبارِهم، إضافةً إلى أنَّ فيهِ إيماءً إلى عذابٍ عهدوهُ قريبًا، وهو ما نزل بأبرهةَ من حجارةِ السِّجّيل، وكان له أثرٌ كبيرٌ على النّاس، حتَّى جعلوهُ تأريخًا لهم، وفي هذا زيادةُ تلبيسٍ على النّاس؛ إذ لا يشكُّ أحدٌ منهم أنَّ عذابَ الحجارةِ حينها جاءَ من عندِ اللّهِ ليبطلَ باطلَ أبرهةَ.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/398.

التَّهكُّم بالتَّلميحِ إلى الوحيِ النّازلِ من السَّماءِ

سرُّ ذكرِ القيدِ المعلومِ بداهةً:

تمثَّلَ سرُّ ذكرِ قيدِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ -والإمطارُ لا يكونُ إلّا منها- بأمورٍ:

الأوَّلُ: التَّهكُّمُ والسُّخريةُ برسولِ اللّهِ ﷺ بأنَّهُ كما تدَّعي مجيءَ الوحيِ من السَّماءِ بأمرٍ خارقٍ، فنحنُ ننتظرُ إن كنتَ صادقًا بدلًا عنه عذابَ الحجارةِ، كالَّتي أتت أصحاب الفيلِ صونًا من اللّهِ لبيتِه[1].

الثّاني: التَّأكيدُ، كما تقولُ: نظرتُ بعيني، والنَّظرُ لا يكونُ إلّا بالعينِ.

الثالث: إزالةُ وهمِ من يتوهَّم أنَّ الإمطارَ مجازٌ عن مطلقِ الرَّجمِ، وأنَّه إنَّما ذُكِرَ لبيانِ أنَّ الحجارةَ المرجومَ بها في الكثرةِ مثل المطرِ، أي: لإفادةِ أنَّ المرادَ طلبُ تنزُّلِ الحجارةِ من السَّماءِ على الحقيقةِ، وليس المرادُ حجارةً كثيرةً فقط.

الرّابع: الدِّلالةُ على كونِه بنحوِ الآيةِ السَّماويَّةِ والإهلاكِ الإلهي المحضِ، فإمطارُ الحجارةِ من السَّماءِ أحدُ أنواعِ العذابِ الَّذي نزلَ على بعضِ الأممِ.

طلبُ الحجارة السَّماويَّةِ هو في حقيقتِه طلبُ معجزةٍ حسيَّةٍ

بلاغةُ تقديرِ المحذوفِ بالقيدِ:

قُيِّدَتِ الحجارةُ بقيدِ الوصفِ، وهو ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للإشارةِ إلى تقديرٍ محذوفٍ، أي: حجارةٍ مخلوقةٍ من السَّماءِ لعذابِ من تصيبُهُ؛ لأنَّ الشَّأنَ أنَّ مطرَ السَّماءِ لا يكون بحجارة[2]، وهذا الطَّلبُ - وهو أن تكونَ حجارةً مخلوقةً من السَّماءِ مخصَّصةً بمن تصيبهُ - فيه من التَّهكُّمِ ما فيه، وطلبهُم هذا يدلُّ على أنَّهم يطلبونَ معجزةً حسيَّةً؛ لأنَّ الحجارةَ السَّماويَّةَ ستكونُ مختلفةً عن الحجارةِ الأرضيَّةِ.

طلبُ تنويعِ العذابِ

دلالةُ حرفِ ﴿أَوِ﴾:

دلَّ حرفُ العَطفِ ﴿أَوِ﴾ في الآيةِ على التَّنويعِ، أي: (ائْتِنا بعَذابٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/270.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

أليمٍ سوى الإمطارِ المذكورِ)، أي: بنوعٍ آخرَ من العذابِ أشدَّ من ذلك وأشقَّ منهُ علينا[1].

عطفُ العامِّ على الخاصِّ أرادوا به التَّعميمَ

ذكرَ كُفّارُ قريشٍ عذابًا خاصًّا، وهو مطرُ الحجارةِ، ثُمَّ عَمَّموا، فقالوا: ﴿أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، أي: (ائْتِنا بعَذابٍ أليمٍ يتضمَّنُ الإمطارَ المذكورَ)[2]، ودلالةُ هذا العطفِ أمرانِ:

الأوَّلُ: التَّعميمُ، أي: طلبُ كلِّ أفرادِ العذابِ الأليمِ من عذابِ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالآخرةِ[3]، وهذا إفراطٌ منهم في التَّحدّي.

الآخرُ: أفردَ الأوَّلَ، وهو عذابُ الحجارةِ بالذِّكْرِ اهتمامًا بشأنِه؛ لأنَّهُ كانَ آيةً سماويَّةً خارقةً عهدَها النّاسُ ورأوها، وتتعلَّقُ بالبلدِ الحرامِ وببيتِ اللّهِ العتيقِ، ولذا خصّوها بالذِّكرِ تلبيسًا على النّاس وإيهامًا لهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ على باطلٍ، وهم على حقٍّ.

نكتةُ التَّفصيلِ في عذابِ الإمطارِ والإجمالِ في العذابِ الأليمِ:

طلبُ العذابِ تفصيلًا وإجمالًا يدلُّ على لجاجةِ لسانٍ، وبجاحة بيانٍ

فصَّلَ النَّظْمُ في عذابِ الإمطارِ: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، بقصدِ المبالغةِ في إظهارِ التَّحدّي والاستهزاءِ والتَّهكُّمِ والمعاندةِ، وهذه المبالغةُ الَّتي ظهرت من خلالِ المفرادتِ الَّتي احتوتها الآيةُ مادَّةً وصياغةً، ومن خلالِ النَّظمِ من التَّقديمِ والتَّأخيرِ والحذفِ، وغيرِ ذلك ممّا سبقَ ذكرُهُ.

بينما في قولِه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فقد أجملَ؛ لما في التَّنكيرِ من معانٍ توضِّحُ كبرَهُم ومعاندتَهم تغني عن التَّفصيلِ؛ ذلك أنَّ التَّنكيرَ في ﴿بِعَذَابٍ﴾ و﴿أَلِيمٖ﴾ يفيدُ التَّفخيمَ، أي: عذابٌ أليمٌ، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقدَرُ قدرُهُ، لا تعرفهُ، ولا تألفهُ، فأنَّى لك أن تقفَ على كنهِه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/479.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/484.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

وهو هولٌ لا تستطيعُ أن تدركَهُ، أي: طلبوا هذا العذابَ؛ لأنَّهم يرون بِكِبْرِهِم أنَّه لن يقعَ بهم.

فهم جمعوا بين ما يعرفونَهُ من أقربِ معهودٍ لهم، وهو إمطارُ أبرهةَ بالحجارةِ، ثم أرادوا الاستطالةَ في الطَّلبِ، فطلبوا عذابًا أليمًا على وجهِ الإجمالِ، للتَّخييرِ وبيانِ مدى ثقتِهم بأنَّهم على حقٍّ، وهذهِ الاستطالةُ في طلبِ العذابِ تدلُّ على لجاجةٍ، وبجاحةٍ، لا تُغني الفقيرَ المُتربَ، ولا تعافي المريضَ المبتر.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تشبيهُ العذابِ بـدابّـةٍ تُـساقُ لإنـزالِ عـذابِ الاستئصالِ

لم يقلِ القرآنُ: (عذِّبنا عذابًا أليمًا)، وإنَّما أتى بأسلوبِ الاستعارةِ؛ إذ شبَّهَ العذابَ بشيءٍ يُساقُ (دابة)، وحذفَ المشبَّهَ به، وهو الشَّيءُ المساقُ، وأبقى بعضَ لوازمِه، وهو الإتيانُ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وهي استعارةٌ تخييليَّةٌ، إذ صوَّرتِ العذابَ بأنَّه يُساقُ إليهم سَوْقًا، وغرضُ ذلك إبرازُ الأثرِ النَّفسيِّ لهذا العذابِ، وهو الإذلالُ والإهانةُ بقصدِ التَّنفيرِ والاستياءِ منهُ، فيصفُ القرآنُ بهذه الاستعارةِ حالَ الكفّار، وهم يُظهرون للنّاس استعدادَهم لقبولِ هذا العذابِ المليءِ بالإهانةِ والإذلالِ مع ما يحملُه مِن ألمٍ جسديٍّ؛ لتيقُّنهم أنَّه لن يقعَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالألفاظِ المنتقاة:

العـذابُ أشـدُّ وقـعًـا مـن العـقـابِ والمـشـركـونَ طـلبـوا الأفظعَ لفظاعةِ قلوبِهِم

عبَّر النَّظمُ بمفردةِ ﴿بِعَذَابٍ﴾ دونَ (عقاب)؛ لاتِّساعِ دلالةِ (عذاب)؛ ولا يُشترَطُ أن يكونَ العقابُ شديدًا أو أليمًا أو مهينًا، فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذَّنبِ، فإذا عَظُم الذَّنْبُ؛ عظُمت العقوبةُ، وإذا صَغُر؛ كان العقابُ على قدرِه، بخلافِ العذابِ؛ فإنَّهُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الإيلامِ والإيجاعِ الشَّديدِ، حتَّى وإنْ لم يوصَفْ بالشَّديدِ أو الأليمِ ونحوِ ذلكَ.

وبالتّالي يكونُ في التَّعبيرِ بمفردةِ العذابِ إشارةٌ إلى عتوٍّ

الكافرين، وكِبرهم، وتهكُّمِهم برسولِ اللّهِ ﷺ وزيادةِ خداع النّاس بألفاظِ دعائِهم؛ وكأنَّهم يقولونَ: (ائْتِنا بعذابٍ لا تنفكُّ الشِّدَّة عنهُ، وهو أليمٌ، سواءٌ أكنّا مذنبين أم غير مذنبين).

سرُّ اختيارِ وصْفِ العذابِ:

النَّظْمُ دقيقٌ الوصفِ كاشفٌ عن مقاصدِ التَّعبيرِ عن خفايا النُّفوس

وَصَفَتِ الآيةُ العذابَ بالأليم دونَ أوصافٍ أخرى كالشَّديد مثلًا مراعاةً للحيثيَّة الَّتي تعلَّق بها الوصفُ، وهي حيثيَّةُ أثرِ العذابِ على نفس المعذَّبِ، وهو كونُهُ عذابًا أليمًا له؛ لأنَّ الألمَ يرتبط بالحسِّ والشُّعور، بخلافِ الوصفِ بالشَّديد؛ فإنَّه يتعلَّقُ بنفسِ العذابِ الصّادرِ من جهةِ التَّعذيب وصفته، ولمّا كان العذابُ بأصلِ مادَّته يتضمَّنُ الشِّدَّةَ والإيجاعَ؛ ناسبَ هنا أن يوصفَ بالأليم ليصوِّرَ مدى تعنُّتِهم؛ إذ إنَّهم طَلبوا أن يكونَ العذابُ مع شدَّته أليمًا موجعًا لأنفسِهم، وفي ذلك زيادةٌ في إيهامِ النّاس بتحققِ يقينِهم بأنَّ المحلوفَ عليهِ بهذا الدُّعاء ليس منزَّلًا من عندِ اللّهِ، فلذلك عرَّضوا أنفسَهم لخطرٍ عظيمٍ على تقديرِ أن يكونَ القرآنُ حقًّا منزَّلًا من عندِ اللّهِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المطرُ والغيثُ:

غالبُ استعمالِ القرآنِ للغيثِ في النَّفعِ، والمطرِ في مواضعِ الشِّدَّةِ

اللُّغةُ تسوّي في الاستعمال بين الغيثِ والمطرِ، فقد عُرِّفَ المطرُ بأنَّهُ: الغيثُ النّازلُ من السَّماءِ، وعُرِّفَ الغيثُ بأنَّه: المطرُ[1]، فالغيثُ والمطرُ: يشتركانِ فيما يسقطُ من السَّماءِ.

إلا أنَّ كلًّا منهما يتميَّز بملمحٍ دلاليٍّ في أصلِ مادَّته، فالمطرُ: هو الماءُ المنسكبُ بشدَّةٍ وغزارةٍ من السَّماءِ، فيشعرُ بالقوَّةِ المهلكةِ، بينما الغيثُ: من الغوثِ، وفيه معنى الإنقاذِ والنُّصرةِ والفرجِ عند الشِّدَّة، وهذا يشعرُ بالرِّفق والرَّحمة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مطر)، وابن منظور، لسان العرب: (غوث)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غيث).

كما أنَّ المتأمِّلَ للسّياقاتِ القرآنيَّةِ للكلمتين يلحظُ أنَّ القرآنَ الكريمَ استخدمَ المطرَ في سياق الانتقام والهلاكِ والعقابِ الإلهيِّ للطّاغين والمفسدين، وأيضًا في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: 102]، استخدمَ المطرَ؛ لأنَّه في موضعِ تأذّي المؤمنينَ بهِ في أرضِ المعركةِ.

بينما استخدمَ كلمةَ الغيثِ دائمًا في معنى: المطرِ النّافعِ المخصبِ للأرضِ والنَّبتِ[1].

(1) الراغب، المفردات، ص: 617، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 354.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: 33]

عدمُ إجابةِ دعائِهم إكرامٌ للنّبيِّ كونَهُ فيهم وإهانةٌ لهم لعدمِ استحقاقِهم الاستجابة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لما علَّقوا إمطارَ الحجارةِ أو الإتيانَ بعذابٍ أليمٍ على تقديرِ كينونةِ ما جاءَ بِه الرَّسولُ ﷺ حقًّا في الآيةِ السّابقة، أتت هذه الآيةُ جوابًا لكلمتِهم الشنعاءِ، وبيانًا للموجبِ لإمهالِهم والتَّوقُّفِ في إجابةِ دعائِهم، فأخبرَ تعالى أنَّهم مستحقّون للعذابِ، لكنَّه لا يعذِّبُهم عذابَ استئصالٍ، والنَّبيُّ ﷺ فيهم إكرامًا له، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾: العذابُ هو الإيجاعُ الشَّديدُ والنَّكالُ والعقوبةُ، وقيل: أصلُ العذابِ: الضَّربُ، ثم استُعيرَ ذلك في كلِّ شدَّةٍ، ويكون بإهلاكٍ وإفناءٍ للقوَّةِ والغلَظ والحَيَويَّة المنبثَّة في البدنِ، أي: تجريدٌ منها بإيقاعِ الآلامِ المؤدّية إلى ذلكَ، كالضَّربِ المبرِّح بصوَرِه والجَلْدِ والكيِّ بالنّارِ وقَطْعِ الأعضاءِ إلخ، وأيضًا بالإجاعةِ والإعطاشِ ونحوهما، وكذلكَ يصدقُ بإيقاعِ الإهانةِ والإذلالِ لذوي الكبرِ والاعتزازِ، فهو يتفاوتُ في الأنواعِ والشِّدَّةِ والأثرِ(2).

ومعنى ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾: عذابَ الإفناءِ والاستئصالِ، كما استأصلَ الأممَ السّابقةَ الكافرةَ(3).

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/483، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/19.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عذب).

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وجـودُ الـنَّـبـيِّ يـمـثِّـلُ حـالـةَ الإمـهـالِ، والاسـتـغـفـارُ يـمـثِّـلُ حـالـةَ الإقبالِ

أجمعَ المتأوِّلونَ على أنَّ اللّهَ ﷻ لم يعذِّب قطُّ أمَّةً عذابَ استئصالٍ، ونبيُّها بين أظهرِها، فاللّهُ تعالى مع عظمتهِ وجلالهِ وكمالهِ وعلمِهِ وقدرتهِ سبحانه ما كان ليعذِّبَ الكفّارَ عذابَ استئصالٍ مع استحقاقِهم له، والنَّبيُّ ﷺ مقيمٌ بين أظهرِهم؛ وذلك إظهارٌ لمكانةِ النَّبيِّ ﷺ وفضلهِ على العالمينَ؛ فهو الرَّحمةُ المهداةُ والأمانُ للعالمينَ.

ولمّا كان وجودُهُ ﷺ بين أظهرِهم غيرَ دائمٍ، اقتضت رحمتُهُ الَّتي وسعتْ كلَّ شيءٍ أن يجعلَ لهم أمانًا آخرَ، فنفى عنهم عذابَ الاستئصالِ طالما أنَّهم يستغفرونَ، أي: جعلَ الاستغفارَ مانعًا ثابتًا من وقوعِ العذابِ - ولو لم يكنْ هذا الاستغفارُ صفةً ثابتةً فيهم - وذلك ترغيبٌ وتذكيرٌ وحضٌّ على التَّوبةِ من الشِّرك، وتخويفٌ في الوقت ذاتهِ من أنَّ العذابَ يوشكُ أن يقعَ إن انعدمَ الاستغفارُ، وأشارَ إلى أنَّ هذا الاستغفارَ يشملُ كلَّ الذنوبِ التي تتعلَّقُ بحياةِ الأمَّةِ أفرادًا وجماعاتٍ، بدءًا من المجالِ العقدي ثُمَّ التَّشريعي ثم الأخلاقي.. حتَّى يصلَ الاستغفارُ إلى أدقِّ شؤونِ الإنسانِ ممّا لَهُ اتِّصال بما يحفظُ كيانَ الأمَّةِ كلِّها من الاستئصالِ.

واختلف المفسِّرونَ في المقصودِ بـ ﴿وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ على معانٍ منها: ما كانَ اللّهُ ليعذِّبَ الكفّارَ، والمؤمنونَ بينهم يستغفرونَ، أو ما كان اللّهُ معذِّبَهم، وفي أصلابِهم من سبقَ لَهُ في علمِ اللّهِ أنَّه يؤمنُ، ويستغفر، أو ما كان اللّهُ معذِّبَ الكافرينَ، وهم بحالِ توبةٍ واستغفارٍ من كفرِهم لو وقع ذلك منهم[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/521 - 522، والقرطبي، أحكام القرآن: 7/399.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ:

الواوُ: استئنافيَّةٌ، والكلامُ مسوقٌ جوابًا وبيانًا لموجبِ إمهالِهم، والتَّوقُّف في إجابة دعائِهم، لمّا طلبوا إمطارَ الحجارةِ أو الإتيانَ بعذابٍ أليمٍ إن كانَ ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ حقًّا.

بلاغةُ الكنايةِ:

المنكرونَ يستحقّونَ العذابَ لكنَّ وجودَ الرَّحمةِ فيهم دافعٌ لنزولِه

إن كانتِ الآيةُ ليست نصًّا في استحقاقِهم العذابَ إلّا أنَّ عدمَ استجابتِه سبحانه لطلبهم في نزولِ العذابِ، وتقييدِ نفي العذابِ بكونِ الرَّسولِ معهم، فيهِ كنايةٌ عن ما يلي:

أوَّلًا: استحقاقُهم العذابَ، وأنَّ تأخيرَ عذابِهم سببُه وجودُ النَّبيِّ ﷺ ويؤكِّد استحقاقَهُم للعذاب أنَّهُ أُتبعَ بقولهِ سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

ثانيًا: إعلامٌ بكرامةِ رسولهِ ﷺ عنده، وتعظيمٌ لقدرِه أن يعذِّبَ قومًا هو بينهم تعظيمًا لحرمتِه؛ لأنَّهُ جعلَ وجودَهُ بين ظهراني المشركينَ معَ استحقاقِهم العقابَ سببًا في تأخيرِ العذابِ عنهم، فالمعنى الظّاهرُ هو وجودُ الرَّسول بين هؤلاءِ، أمّا المعنى المكنَّى عنهُ في النَّصِّ الكريم، فهو الكرامةُ والتَّشريفُ الذي يسبغهُ الباري على حبيبهِ المصطفى ﷺ.

ثالثًا: إعلامٌ بأنَّ "إرسالَهُ فيهم رحمةٌ لهم ونعمةٌ عليهم، فلم يجز أن يعذِّبَهم وهو فيهم حتى يستحقّوا سلبَ النِّعمةِ بإخراجِه عنهم"[2].

رابعًا: أنَّ العذابَ يترصَّدهم، وأنَّهم معذَّبون لا محالةَ بدليلِ قولهِ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ على معنى: وأيُّ شيءٍ ثابت لهم حتَّى ينتفي عنهم العذابُ، فهم معذَّبون لا محالةَ!؟[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/314.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/91، والحجازي، التفسير الواضح: 1/825.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

اسمُ الجلالةِ يوحي بصفةِ الرَّحمةِ والحكمةِ والعلمِ

عبَّرتِ الآيةُ بالاسمِ الجليلِ (اللّه) إظهارًا لما لَهُ سبحانه من "صفّاتِ الكمالِ والعظمةِ والجلالِ"[1]، فهذا الاسمُ دالٌّ على الذّاتِ الجامعةِ لصفاتِ الإلهيَّة كلِّها، بينما سائرُ الأسماءِ لا يدلُّ آحادُها إلّا على آحادِ المعاني من علم وقدرةٍ، أو فعلٍ أو غيرِه، أي مع عظمتهِ وجلالهِ وكمالهِ وعلمهِ وقدرتهِ سبحانه لن يعذِّبَهم، وأنت بين أظهرِهم، ولن يعذِّبَهم، وهم يستغفرونَ، وذلك لرحمته بعبادِه، وحكمته لما فيه مصلحتُهُم، وحكمتهُ في اختيارِ الأصلحِ، ولما فيها من المناسبةِ بين اسم الجلالةِ ودعائِهم بـ﴿ٱللَّهُمَّ﴾.

بلاغةُ أسلوبِ النَّفي:

دفعُ العذابِ عنِ المشركينَ بسببِه ﷺ أرفعُ شأنًا من استغفارِهم

تظهرُ بلاغةُ النَّفي في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ في أمرين:

الأوَّلُ: تأكيدُ النَّفي باللّامِ المؤكِّدةِ الَّتي يسمّيها النَّحاةُ بلامِ الجحودِ، وهي لامٌ دخلت على الفعلِ ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾، وسُبِقَت بالفعل النّاقصِ ﴿كَانَ﴾؛ لتقويتها النَّفي الَّذي يسبقُها وتوكيده، وهذا على رأي البصريّين الَّذين يعدّونَ اللّام زائدةً.

الآخرُ: نفيُ إرادةِ العذاب، بجعلِ خبرِ كان المقدَّرِ هو الإرادةُ المنفيَّةُ على رأي الكوفيّين الذين يعدّون اللّام غيرَ زائدةٍ، أي: (وما كان اللّهُ مريدًا لتعذيبهم)، وانتفاءُ الإرادةِ للعذابِ أبلغُ من انتفاءِ العذابِ[2].

وعلى كلا الرَّأيين يكونُ استغفارُهم دونَ تلك الكينونةِ الشَّريفة، إمّا بتأكيدِ النَّفي باللّام أو بتقديرِ نفي إرادةِ العذابِ دونَ نفي العذابِ؛ لأنَّ نفيَ الإرادةِ أبلغُ، فشتّانَ ما بينَ استغفارِهم وكينونته ﷺ فيهم[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/271.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/312.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/312.

المرادُ المتعيّنُ من العذابِ هو عذابُ الاستئصالِ، وأنَّ القرينةَ عليهِ هي تأكيدُ النَّفي الَّذي يصرفُهُ إلى أشدِّه وأفظعِه، فعذابُ غيرِ الاستئصالِ كالقحطِ؛ إذ وقعَ عليهم، والنبيُّ ﷺ بين أظهرِهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ:

الاستمرارُ في تأخيرِ العذابِ عنهم موقوتٌ ببقاءِ النَّبيِّ ﷺ فيهم

أتى بالفعلِ المضارعِ بعد لامِ الجحودِ، في قولهِ: ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾؛ لأنَّ المضارعَ يدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ والاستمرارِ والتَّوقيتِ، فأفادت صيغةُ المضارعِ أنَّ العذابَ موقوتٌ ببقاءِ الرَّسولِ بينَهم، وبقاؤهُ ﷺ ليس ثابتًا بل لا بدَّ أن يزولَ.

موقعُ جملةِ الحالِ:

جملةُ ﴿وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ حاليَّةٌ، والحالُ قيدٌ، والنَّفيُ في الكلامِ راجعٌ إلى القيدِ، أي: وما كان اللّهُ ليعذِّبَهم حالَ كونك فيهم، وفي هذا دلالةٌ على فضلهِ على العالمينَ؛ إذ إنَّهُ سببُ عدمِ استئصالِ الكافرينَ بالعذابِ، ما دامَ فيهم ﷺ.

بلاغةُ التَّعريفِ بالضَّميرِ:

تكريمُ النَّبيِّ ﷺ وتشريفُهُ بنوعِ اختصاصٍ في الخطابِ

ذكرَ الضَّميرَ (أنت) - وهو ضميرُ المخاطبِ - تشريفًا وتكرمةً للنَّبيِّ ﷺ وبيانًا لمكانتهِ عند ربِّه، أي: أنت دونَ غيرِك، قال ابن عاشورٍ: "وفي توجيهِ الخطابِ بهذا إلى النَّبيِّ ﷺ واجتلاب ضميرِ خطابهِ بقولهِ: (وأنت فيهم) لطيفةٌ من التَّكرمةِ؛ إذ لم يقل: (وما كان اللّه ليعذبهم وفيهم رسوله)"[2].

وكذلك كانَ في توجيهِ الخطابِ لهُ ﷺ ردٌّ على تحدّيهم وسخريَّتهم بالنَّبيِّ ﷺ.

دلالةُ استعمالِ الظَّرفيَّةِ:

دلَّ حرفُ الظَّرفيَّةِ (في) في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ على

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي: 9/72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.

مؤدّى الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ واحدٌ وهو انتفاءُ الاستئصالِ ببقائِه ﷺ

الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ، أمّا الزَّمانيَّةُ؛ فهي تشملُ مدَّةَ حياتِه ﷺ وقد ذكرَها النَّبيُّ ﷺ فيما رواهُ الترمذيُّ عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أنزلَ اللهُ عليَّ أمانين لأمَّتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفارَ إلى يومِ القيامةِ»[1]، ورويَ عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ قال: (كانَ فيكم أمانان مضتْ إحداهُما، وبقيتِ الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾)[2].

وأمّا الظَّرفيَّةُ المكانيَّةُ؛ فإن كانَ المقصودُ وجودَهُ في مكَّةَ، فيكونُ على رأيِ من فسَّرَ العذابَ بغيرِ عذابِ الاستئصالِ، وأنَّهُ قد وقعَ بهم بعد هجرتِه ﷺ في غزوةِ بدرٍ وفتحِ مكَّةَ وغيرِهما من مواطنِ نصرتِه عليهم، وإن كانَ المقصودُ بالظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ أيَّ مكانٍ أقامَ بِه النَّبيُّ ﷺ فيكونُ على رأيِ من فسَّرَ العذابَ بعذابِ الاستئصالِ، وعلى هذا القولِ يكونُ مؤدَّى الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ واحدًا.

بلاغةُ عَطفِ الجملِ:

فتحُ بابِ الأمانِ من العذابِ قيمةٌ داعيةٌ إلى الهدايةِ بعدَ الغوايةِ

لمّا كانَ قيدُ نفيِ العذابِ عنهم في الجملةِ الأولى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ هو وجودُ النَّبيِّ ﷺ فيهم وهذا ليس مما يستمرُّ بل يزولُ البتَّةَ، فيحدثُ التَّعذيبُ؛ أتى العطفُ بالجملةِ الثانيةِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ الَّتي تفيدُ نفيَ العذابِ عنهم طالما أنَّهم يستغفرونَ، أي: جعلَ الاستغفارَ مانعًا ثابتًا من وقوعِ العذابِ، وفي هذا ترغيبٌ وتذكيرٌ بالتَّوبةِ من الشِّركِ بطلبِ المغفرةِ من ربِّهم بأن يؤمنوا بأنَّهُ واحدٌ، ويصدِّقوا رسولَهُ، فهو وعدٌ بأنَّ الاستغفارَ يدفعُ عنهم العذابَ، فيكونونَ في مأمنٍ منه طالما يستغفرونَ، وفيه

(1) سنن الترمذي، باب ومن سورة الأنفال، رقم: 3082.

(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم: 2014.

ندبٌ لهم إلى الاستغفارِ، وتعليم لما يدفعُ العذابَ عنهم، وهذا زيادةٌ في الإعذارِ لهم[1].

سرُّ اختلافِ التَّعبيرِ بينَ المتقابلات:

الجناسُ يعطي جماليَّةً في السَّمعِ، ويلفتُ الانتباهَ إلى سِرٍّ في النَّظمِ

بين اللَّفظين: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ وقولِه: ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ جناسٌ ناقصٌ مضارعٌ اختلفا في نوعِ حرفٍ واحدٍ منهما، وأعطى جماليَّةً في السَّمع، ولفتَ الانتباهَ إلى سرِّ هذا الاختلافِ في النَّظم، وهو اختلافُ التَّركيبِ في استعمالِ الصِّيغةِ الاسميَّةِ والفعليَّةِ الذي أحدثَ أثرًا أسلوبيًّا، فالفعلُ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ مقيَّدٌ بزمنٍ معيَّنٍ، واسمُ الفاعلِ ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ ثابتٌ غيرُ محدودٍ بزمنٍ.

موقعُ جملةِ الحالِ:

الجملةُ حاليَّةٌ واختلفَ معناها بسببِ تعيينِ مرجعِ الضَّميرِ

جملةُ ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ حالٌ من الهاءِ في ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ وهم المشركونَ، ولكنَّ المفسِّرينَ اختلفوا في تفسيرِ الآيةِ بناءً على اختلافِهم في عودِ ضميرِ (هم) في قولِه: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]، فمنهم من جعلَهُ عائدًا إلى مفهوم من الكلام، يدلُّ عليهِ يستغفرونَ؛ فإنَّهُ لا يستغفرُ اللّهَ إلّا المسلمونَ[3]، ويكونُ المعنى: (وما كان اللّهُ ليعذِّبَ الكفّارَ حالَ كونِ المؤمنين بينهم يستغفرونَ).

ومنهم من جعلَهُ عائدًا على المشركينَ، فإمّا أن يكونَ المعنى: (وما كان اللّهُ معذِّبَهم وفي أصلابِهم من سبق له في علم اللّهِ أنَّه يؤمنُ ويستغفرُ)، أو (وما كان اللّهُ معذِّبَ الكافرين، وهم بحالِ توبةٍ واستغفارٍ من كفرِهم لو وقع ذلك منهم، أي: لو استغفروا)، وهذا يرجِّحُهُ ابن عاشورٍ، إذ يقول: "حالٌ مقدَّرةٌ، أي: إذا استغفروا اللّه من الشِّركِ، وهذه حَسُنَ موقعُها هنا أنَّها جاءت قيدًا لعاملٍ منفيٍّ، فالمعنى: وما كان اللّهُ معذِّبَهم لو استغفروا"[4].

(1) الخفاجي، حاشيته على البيضاوي: 4/271، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/521 - 522، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/399.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.

استغفارُ عموم الأمّةِ دافعٌ لعذابٍ واقعٍ على عمومِها

بلاغةُ التّعريفِ بالضّميرِ:

أُسنِدَ الاستغفارُ إلى ضميرِ الجميعِ (هم)؛ لوقوعهِ فيما بينَهم، ولجعلِ ما صدرَ عنِ البعضِ كما قيلَ بمنزلةِ الصّادرِ عن الكلِّ[1].

كما أنّ هذا الضّميرَ لتأكيدِ أهميّةِ الاستغفارِ في حياةِ الأفرادِ والجماعاتِ، وأنّه من أسبابِ أمانِ هذه الأمّةِ من عذابِ اللهِ سبحانه.

الاستغفارُ سببٌ مستمرٌّ في دفعِ العذابِ، أمّا بقاءُ النّبيِّ ﷺ فمؤقّتٌ

سرُّ تغايُرِ التّعبيرِ بالاسميّةِ والفعليّةِ:

التّركيبُ المتمثِّلُ بتغايرِ التّعبيرِ بالاسميّةِ والفعليّةِ في الآيةِ أحدثَ أثرًا أسلوبيًّا في استعمالِ الصّيغةِ الاسميّةِ والفعليّةِ، فجعلَ لكلٍّ منهما وظيفةً جماليّةً تختلفُ عنِ الأخرى، فعبَّرَ بالفعلِ ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾، وهو مقيَّدٌ بزمنٍ معيَّنٍ، والقيدُ الواردُ عليهِ هو حالُ وجودِ النّبيِّ ﷺ فيهم، وعبَّرَ باسم الفاعلِ ﴿مُعَذِّبَهُمۡ﴾، وهو ثابتٌ غير محدودٍ بزمنٍ، والقيدُ الواردُ عليهِ هو قيدُ الاستغفارِ، فذكرَ الحالة الثّابتةَ بالصيغةِ الاسميّةِ والحالة الموقوتةَ بالصّيغةِ الفعليّةِ، فكانَ الاستغفارُ مانعًا ثابتًا من العذابِ بخلافِ بقاءِ الرّسولِ بينهم، فإنَّ العذابَ موقوتٌ ببقاءِ النّبيِّ بينهم، وهذا هو السِّرُّ في تخالُفِ النّظم بينَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ وبين قولِه سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾، وهذا من كرمِ اللهِ ورحمتِه الّتي وسعت كلَّ شيءٍ؛ إذ يدفعُ ربُّنا العذابَ عنهم، ولو لم يكنِ الاستغفارُ صفةً ثابتةً فيهم، ولا يهلكُهم حتى يكونَ الظُّلمُ صفةً ثابتةً فيهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: 59][2].

نكتةُ حذفِ مفعولٍ:

حذفَ النّظمُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾؛ لإفادةِ العمومِ، أي: ليذهبَ الذِّهنُ كلَّ مذهبٍ يمكنُ أن يصلَ إليه، فيشملُ الاستغفارَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/187.

(2) السامرائي، لمسات بيانية: 5/164.

الاستغفارُ سلوكٌ عامٌّ في كلِّ شؤونِ حياةِ الأمَّةِ غيرُ خاصٍّ بالذِّكرِ اللِّسانيِّ

من كلِّ الذُّنوب الَّتي تتعلَّق بحياةِ الأمَّةِ أفرادًا وجماعاتٍ، بدءًا من المجالِ العقديِّ ثمَّ التَّشريعيِّ ثمَّ الأخلاقيِّ ثمَّ التربويِّ والتَّعليميِّ والاقتصاديِّ والاجتماعيِّ والسّياسيِّ، حتى يصلَ الاستغفارُ إلى أدقِّ شؤونِ الإنسانِ ممّا لَهُ اتِّصالٌ بما يحفظُ كيانَ الأمَّةِ كلِّها من الاستئصالِ والزَّوالِ الكامل.

بلاغةُ الكنايةِ:

التَّرهيبُ بتصوُّرِ وقوعِ العذابِ والتَّرغيبُ بدفعِ أسبابهِ بالاستغفارِ

نصَّ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ على عدمِ استجابتِهِ سبحانه لطلبِهِم في نزولِ العذابِ، وتقييد نفي العذابِ بحالِ كونِهم يستغفرونَ على اختلافِ معانيها كنايةٌ عن أنَّ العذابَ يوشكُ أن يقعَ عليهم؛ إن لم يستغفروا، ويتوبوا، ويرجعوا عن كفرِهم، ويدخلوا الإسلامَ، وهي كنايةٌ عرضيَّةٌ كما يسمّيها ابنُ عاشورٍ، أي: في الآية تعريضٌ بهذا العذابِ[1].

وكنايةٌ عن رحمتهِ ﷻ، فكأنَّهُ يحضُّهم على التَّوبةِ، ويرغِّبُهم بها حتَّى لا ينزلَ بهم العذابُ، فهو وعدٌ بأن التَّوبةَ من الشِّرك تدفعُ عنهم العذابَ، وتكونُ لهم أمنًا، وذلك هو المرادُ بالاستغفارِ؛ إذ منَ البَيِّن أنَّه ليس المرادُ بقولِه: ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أنَّهم يقولونَ: غفرانَكَ اللهمَّ ونحوه؛ إذ لا عبرةَ بالاستغفارِ بالقولِ، والعملُ يخالفُهُ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ تحريضًا - وذلك في الاستغفارِ - وتلقينًا للتَّوبةِ زيادةً في الإعذارِ لهم على معنى قولِه تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء: 147][2].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاستغفارُ والتَّوبةُ:

الفرقُ بينهما من وجهين:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.

التَّوبةُ: ندمٌ ورجوعٌ عن الذَّنبِ، والاستغفارُ: طلبُ المغفرةِ بالدُّعاءِ وتركِ المعاصي

أحدُهما لفظيٌّ، وهو أنَّ مادَّةَ الاستغفارِ في اللُّغةِ: من الغَفْرِ: إلباسُ الشَّيءِ ما يصونُه عنِ الدَّنسِ، وأصلُهُ مِنَ التَّغطيةِ والسَّتْرِ[1].

وأمّا التَّوبةُ في اللُّغةِ: مِنَ التَّوبِ وهو الرُّجوعُ، وخصَّهُ بعضهم بالرُّجوعِ عنِ المعصيةِ إلى الطّاعةِ، و(تاب إلى) معناهُ: رجوعُ العبدِ عن ذنبهِ إلى طاعةِ اللّهِ[2].

والآخرُ: معنويٌّ، وهو أنَّ الاستغفارَ: طلبُ المغفرةِ مِنَ اللّهِ تعالى بالدُّعاءِ والتَّوبةِ أو بغيرِهما من الطّاعة، أي: طلبُ تغطيةِ ذنوبه وسترِها والعفوِ عنها، وأن يصونَهُ من أن يمسَّهُ عذابٌ، وأمّا التَّوبةُ، فهي النَّدمُ على الخطيئةِ مع العزمِ على تركِ المعاودةِ إلى الذَّنب الَّذي تابَ عنْهُ.

إذًا: فالتَّوبةُ: نوعٌ مِنَ الاستغفارِ، وهي مقدِّمةُ الاستغفارِ؛ إذ لا بدَّ من النَّدمِ مع الاستغفارِ؛ لأنَّهُ لا يجوزُ الاستغفارُ مع الإصرارِ على الذَّنبِ، وكأنَّ التَّوبةَ طلبُ وقايةِ شرِّ ما يُستقبلُ، والاستغفارُ: وقايةُ ما مضى[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر)، والراغب، المفردات، ص: 609، وابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (توب)، والراغب، المفردات، ص: 169، وابن منظور، لسان العرب: (توب).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 93، والنزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 28.

﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ [الأنفال: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط انتفاء العذاب لوجود الرّسول والاستغفار بكونه لا يمتنع عن المفسدين والكفّار

لمّا بيّن النّظمُ الكريمُ أنّ مانعَ نزولِ العذابِ عليهم، بقولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ بيّن أنّهم مُستحقّون العذابَ، "لأنّ المانعَ ليس من قِبَلِهم، أي: وما لهم ممّا يمنعُ تعذيبَهم متى زالَ ذلك"(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصُدُّونَ﴾: (صدّ) أصلٌ يدلُّ على إعْراضٍ وعُدولٍ، فالصَّدُّ: الإعْراضُ، صَدَّ عنه يَصِدُّ صُدوداً: أعرضَ، وصدَّه عن الامر صدًّا: مَنَعَهُ وصَرَفَه عنه. والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عنِ الشّيءِ وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: 61]، وقد يكونُ صَرْفًا ومَنْعًا نحو: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 25](2).

2) ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾: (ولي) أصلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ. المَوْلَى، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ؛ كُلُّ هَؤُلاءِ مِنَ الوَلْيِ وهو القُرْبُ. وكُلُّ مَنْ ولِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وليُّه، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ(3).

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبر اللّهُ تعالى عن انتفاءِ موانعِ العذابِ عنِ الكافرين لذاتِهم،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20، والمراغي، تفسير المراغي: 9/203.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدّ - صدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي).

فأيُّ "شيءٍ لهم في انتفاء العذابِ عنهم، يعني: لاحظَّ لهم في ذلك وهم معذَّبون لا محالة. وكيف لا يعذَّبون، وحالُهم أنهم يَصدّون عنِ المسجدِ الحرام كما صدّوا رسولَ اللّه ﷺ عامَ الحديبية"[1]، فلا شيءَ يمنعُ تعذيبَ اللّه إيّاهم؛ لأنّهم مُستحقّون للعذابِ، وكيف لا يُعذَّبون وهُم من شدّةِ عُتوّهم وعنادِهم يَصُدّونَ المؤمنين عَنِ المَسْجِدِ الحَرام والطّوافِ حول البيت مدَّعين ولايتَه؟ والحالُ ليس لهم صلاحيّةُ الولايةِ في بيت اللّه لخباثةِ كُفرِهم وفسقِهم وعدم لياقتِهم، بل ما يصلحُ لولايتِه وخدمتِه إلّا الذين يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحشَ ويتطهّرون عنِ المعاصي والآثامِ مُطلقًا، ولكنَّهم لا يَعۡلَمونَ عدمَ استحقاقِهم ولايتَه[2].

لا يَمتنعُ نزولُ العذاب على الفجرة، لتوفُّرِ أسبابِه من الشّرك والصّدِّ والأثرة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطْفِ ومُؤدّاهُ في سياق الآيةِ الحكيمة:

عطف قولَه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾؛ لأنّه في بيان أسبابِ عذابِهم ومنْعِ العذابِ عنهم، فهو "ارتقاءٌ في بيان أنّهم أحقّاءُ بتعذيبِ اللّه إيّاهم، بيانًا بالصّراحةِ"[3].

استحقاقُ العذابِ بانتفاءِ أسبابِ منْعِه، عدل من الله ووفاء بوعده

الغرضُ منْ أسلوبِ الاستفهامِ، في السّياق الكريم:

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أدخل (ما) على الجملة، وجمهورُ المفسرين على أنّها استفهاميّةٌ، والاستفهامُ للتّقرير، أي: كيف لا يُعذَّبونَ وهم مُتَّصفون بهذه الحال؟[4]، أو أنّ الاستفهام جاء للإنكار، والتّقديرُ: "ما الذي ثبت لهم لأن ينتفي عنهم عذابُ اللّه، فكلمة (ما) اسمُ استفهامٍ إنكاريٌّ، والمعنى: لم يثبت لهم شيء"[5]

لا شيءَ يمنعُ من عذابِ الكفارِ، وقد كفروا بالله وكذّبوا رسولَه

(1) الزّمخشري، الكشاف: 2/217.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/287.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.
(4) السمين، الدر المصون، ص: 599.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.

وقد جاء الاستفهام لنفي المانع من تعذيبِهم بإثبات ارتكابِهم ما يستحقُّه، فكيف لا يُعَذَّبون ولم يثبت لهم شيءٌ يمنعُه[1]، والمعنى: "أيُّ شيءٍ لهم في انتفاء العذابِ عنهم، يعنى: لاحظَّ لهم في ذلك وهم معذَّبون لا محالة"[2]. وإضافةً إلى ذلك فإنّ: "الاستفهامَ للتّعجبِ من مناقضةِ حالهم لما يجبُ لحَرَم اللهِ الآمِن، والمعنى أيُّ أمرٍ ثبت لهم حتّى يُقيموا في الحرمِ ولا يعذّبُهم، يمنعُهم منه، وهم يحاربون شعائرَه، وذلك بصدّهم عن سبيل اللّه، وعنِ المسجد نفسِه، فهم يمنعون النّبيّ ﷺ من أن يؤدّيَ المناسكَ، ويمنعون ضِعافَ المؤمنين بإيذائِهم، ويَصدّون النّاسَ معنويًا بوضعِ الأصنام على الكعبةِ بناءِ إبراهيمَ، وينتهكون المحارمَ، بحمْلِ النّاسِ على الطّوافِ عرايا رجالًا ونساءً، حتى إنّهن ليَسترْنَ سوءاتِهن بأكفِّهنَّ، هذا كلُّه صدٌّ عنِ البيت؛ فكيف لا يُعذّبُهم اللّه بمغالبتِهم على الاستيلاءِ على البيت، والحالُ أنّهم لا يقومون على حُرماتِ البيتِ"[3].

سرُّ إيرادِ عذابِهم بالاستفهامِ دونَ الإخبارِ في السّياق:

إثباتُ العذابِ بالاستفهامِ الإنكاريِّ أبلغُ منَ الإخبارِ

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أثبتَ تحقّقَ العذابِ لهم بالاستفهامِ الإنكاريِّ لنفيِ المانعِ عن عذابِهم، ولم يعبّرْ عنِ العذاب بصيغةِ الإخبارِ المباشرِ فلم يقلْ: (لا مانعَ من عذابِ اللّه لهم)؛ لأنّ النّفيَ بالاستفهامِ أبلغُ منَ النّفيِ بالخبرِ؛ لأنّه "أبلغُ في معنى الإيجابِ، أيْ: لا جوابَ لمن سألَ عن مثلِ هذا يصحُّ في نفْيِ العذابِ عنهم، والمعنى: لِمَ لا يعذّبُهم اللّه وهذا فعلُهم"[4].

غرَضُ الخبرِ في الآيةِ، على القولِ بأنّ (ما) نافيةٌ:

وذلك على أنّ (ما) نافيةٌ، والتّقديرُ: وما عدمُ التّعذيبِ كائنًا

(1) العليمي، فتح الرحمن: 3/11.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 2/217، والخازن، لباب التأويل: 2/310.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3119.
(4) الواحدي، البسيط: 10/128.

لهم مع صدِّهم عنِ المسجد الحرام[1] وقد أفاد الخبرُ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ "بيانَ أنّ من كانت هذه حالُه لم يكن وليًّا للمسجدِ الحرام، فهم إذن أهلٌ لأن يُقتلوا بالسّيف ويُحارَبوا، فقتَلَهم اللّهُ يومَ بدرٍ، وأعزّ الإسلامَ بذلك"[2]. فالخبرُ جاء لنفي الأسبابِ المانعةِ من عذابِهم، ونفي استحقاقِهم ولايةَ المسجدِ الحرام وإنِ ادّعوا ذلك.

الـفـضـائـلُ لا تـتـحـقّـقُ بالدّعاوى، ولا بالأماني الكاذبة

دلالة حرف اللّام في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

في قولِه جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عبّرَ عن كونِ العذابِ مُستحقًّا لهم بلام الجرِّ الدّالّةِ على التّمليكِ والاستحقاقِ، وهي هنا "للاستحقاقِ، والتّقديرُ: ما الذي ثبت لهم لأن ينتفيَ عنهم عذابُ اللّه"[3].

عذابُ الكافرين مُستحقٌّ لهم وواقعٌ، ويقين ليس له دافعٌ

بلاغةُ الكنايةِ في التّعبيرِ عنِ استحقاقِهمُ العذاب:

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دخل الاستفهامُ على فعلِ العذابِ المنفيِّ (لا يعذّبهم) للدّلالةِ على انتفاءِ مانعِ تعذيبِهم، والمقصودُ "الكنايةُ عنِ استحقاقِهمُ العذابَ وحلولِه بهم، أو توقّعِ حلولِه بهم، تقول العربُ: مالك ألّا تُكرمَ، أي: أنت حقيقٌ بأن تُكرمَ، ولا يمنعُك منَ الإكرامِ شيءٌ، فاللّفظُ نفيٌ لمانعِ الفعلِ، والمقصودُ أنَّ الفعلَ توفّرت أسبابُه، ثم انتفت موانعُه، فلم يبقَ ما يحولُ بينك وبينه"[4].

نـفـيُ مـوانـعِ الـعـذابِ دلـيـلٌ عـلى استحقاقِهم له

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في السّياق:

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أسندَ العذابَ إلى لفظِ الجلالةِ تهويلًا لشأنِ العذابِ، فذكرُ اللّه تعالى في سياقِ الحديثِ عن شيءٍ يخلعُ عليه التّعظيمَ، فقولُه تعالى: ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾

لـفـظُ الجـلالـةِ يـورثُ المهابةَ في مقامِ الثّوابِ أوِ العقابِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.

"أي: الذي له كمالُ العزّ والعظمةِ على الظّالم، والإكرامِ والرّفقِ بالطّائعِ عاجلًا"[1].

دلالة الواوِ الحالية، ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ﴾ وموقعُ الجملةِ بعدَها:

استحقاقُ العذابِ على قدْرِ الجريمةِ

افتتحَ قولَه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ بالواو الحاليّة، والجملةُ حاليّةٌ، أي: "وكيف لا يعذَّبون ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: وحالُهم ذلك، ومِن صدِّهم عند إلجاءِ رسولِ اللّه ﷺ إلى الهجرةِ، وإحصارُهم عامَ الحديبيةِ"[2]؛ وإنّما استحقّوا العذابَ في هذه الحالِ؛ لأنّ ما قاموا به مِنَ الصّدِّ عنِ المسجد الحرام يُعدّ "جريمةً عظيمةً يستحقُّ فاعلوه عذابَ الدّنيا قُبَيلَ عذابِ الآخرةِ؛ لأنه يؤولُ إلى الصّدِّ عنِ التّوحيدِ"[3].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿يَصُدُّونَ﴾:

استمراءُ المشركين الصّدَّ عن بيتِ الله الحرامِ، ومنْعَ دخولِه

في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ عبّر عن صدِّهم بالفعلِ المضارعِ للدّلالةِ على أنّه عادةٌ ثابتةٌ لهم؛ لأنَّ من "شأنِهم فعلَ حقيقةِ الصّدّ في الماضي والحالِ والمآلِ، لا ينفكّون عن ذلك، كما كانوا يمنعون مَن شاءوا مِن دخول البيت ويقولون: نحن ولاتُه، نفعلُ ما نشاء، ويَصدّون المؤمنين عنِ الطّواف به بالتّعذيبِ والفتنةِ، وصَدّوا رسولَ اللّه ﷺ ومَن معه بالإخراجِ، ثمّ صدّوهم عامَ الحديبيّةِ عنِ الوصول إلى البيت، وعامَ عمرةِ القضيّة عنِ الإقامة بعد الثّلاثةِ الأيّام"[4]، فضلًا عمّا يقدّمه الفعلُ المضارعُ منَ التّصوير الفنّي لمشهدِ الصّدِّ واستحضار صورته القبيحةِ.

نُكتةُ حذفِ مفعول ﴿يَصُدُّونَ﴾:

الفعلُ (صدّ) فعلٌ متعدٍّ يحتاجُ إلى مفعولٍ به، ولكنّه في قولِه جل

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/272 - 273.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/336.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273.

حذفُ المفعول به أبلغُ في الدّلالةِ، على دَوامِ صَدِّهم وتجدُّدِه

شأنُه: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ جاء المفعولُ به محذوفًا، والمعنى: وهم يَصدّون عنِ المسجد الحرام أولياءَه، ومن أرادَ تعظيمَه بالصّلاةِ فيه[1]، وإنّما ساغ الحذفُ لما دلّ السّياقُ على المفعولِ به في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[2]، وفي هذا الحذفِ إيجازٌ بليغٌ، والغرضُ منه تعميمُ كلِّ صدٍّ قاموا به، إذ هم لم يقوموا بصدٍّ واحدٍ، كما أشعر الفعلُ المضارعُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ على دوام الصّدِّ وتجدّدِه بحيث إنّه عادةٌ لهم، فكان الصّدُّ متنوّعًا لا يتعلّقُ بفعل واحد، فكان الإطلاقُ أبلغَ في التّعبيرِ عن ذلك.

دلالة (أل) العهديّة، في لفظ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾:

الصّدّ كان مُتعلّقًا بالمسجدِ الحرامِ بعينِه، لا بكلِّ مسجدٍ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ جاء المسجدُ معرّفًا بالألف واللّام الدّالّةِ على العهدِ؛ فالمرادُ به المسجدُ الحرامُ بعينِه لا جنسُ المساجدِ، فخصَّه بالذّكرِ إظهارًا لفُحشِ ذلك الصّدِّ، فإنّ المسجدَ الحرامَ أحقُّ المساجدِ بأن لا يُصدَّ عبادُ اللّه عنه.

فائدةُ وصفِ المسجدِ بلفظ ﴿ٱلۡحَرَامِ﴾:

انتهاكُ حُرمةِ المسجدِ بالصّدِّ تأكيدٌ على استحقاقِهمُ العذابَ

وُصفَ المسجدُ في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ بأنّه الحرامُ، "أي العظيمُ حرمتُه عند كلِّ أحدٍ؛ فلا اختصاصَ به لشخصٍ دون آخرَ"[3]. فأفادَ هذا الوصفُ بأنّه المسجدُ الذي وُضعَ للنّاس، وهذا يُسفرُ عن قباحةِ جُرمِهم بالصّدّ عنه؛ إذ إنّه مسجدٌ لا يختصُّ بهم، فكان هذا الصّدُّ لا يحقُّ لهم بوجهٍ منَ الوجوه، ووَصْفُه بالحرام يدلُّ على حُرمةِ الظّلم فيه؛ لأنّه وُضعَ حَرمًا آمنًا للنّاس، فانتهاكُ عُمومِ حُرمتِه جريمةٌ عظيمةٌ تُؤكّدُ استحقاقَهمُ العذابَ،

(1) الواحدي، البسيط: 10/129 - 130، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/273.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/336.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273.

والجملةُ مُساقةٌ تدليلًا على ذلك الاستحقاقِ، فأفادَ الوصفُ بالحُرمةِ تأكيدَ ذلك الاستحقاقِ.

غرضُ وصْفِ المسجدِ بألفاظ (الحرام) و(المحرّم) و(الحرَم):

صفةُ الحُرمةِ ثابتةٌ راسخةٌ في حقِّ هذا المسجدِ

جاء وصفُ البيتِ بكونِه محرّمًا بأكثرَ من صيغةٍ، فوُصفَ بأنّه حرامٌ، ومحرّمٌ، وحَرَمٌ؛ إذ قال جلّ شأنُه: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، فوصفَه بالمصدرِ الدّالِّ على أنّ الحُرمةَ هي وصفُه الثّابتُ مبالغةً في التّشنيع عليهم لفعلتِهم بالصّدِّ عنه، وقال: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ على لسانِ إبراهيمَ عليه السلام في دعائِه لأهلِه بالأمنِ في هذا الوادي القَفرِ، فناسبَه أن يذكرَ البيتَ بهذا البناءِ الصّرفيِّ الدّالِّ على أنّه مُحرّمٌ على أحدٍ أن يتعرّض لساكنِه لأنّه مُحرّمٌ عليه ذلك، وقال عنه: ﴿حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾؛ وذلك تأكيدٌ على هذه الصّفةِ له دونَ غيرِه من البيوتِ؛ فجاءت في معرضِ الامتنانِ عليهم بأن جعلَ هذا البيتَ حَرمًا وآمنًا دون غيرِه، فذكر بيتَه بأكثرَ من صيغةٍ لبيانِ رسوخِها في حقِّ هذا المسجدِ على تنوُّعِ مُراداتِها، فيُرادُ ترسيخُها في أذهانِ النّاسِ كذلك.

دلالة الواو على الحاليّة وجملتها في الآية القرآنيّة:

نفيُ ولايتِهم بغرضِ إظهارِ اعتدائِهم بذلك الصّدّ عنه

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ الواوُ حاليّةٌ، والجملةُ "حالٌ من ضمير ﴿يَصُدُّونَ﴾ مفيدةٌ لكمال قُبحِ ما صنعوا منَ الصّدّ؛ فإنّ مباشرتَهم للصّدِّ عنه مع عدمِ استحقاقِهم لولاية أمرِه في غايةِ القُبحِ، وهو ردٌّ لما كانوا يقولون: نحنُ ولاةُ البيتِ والحرمِ فنصدُّ من نشاءُ ونُدخِلُ من نشاءُ"[1]. وفائدةُ الحالِ بيانُ أنّه لم يكنِ الصّدُّ حقًّا لهم؛ لأنّهم ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾، فنفَى عنهم ولايتَه، إذ لو كانوا أهلًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20، والشّوكاني، فتح القدير: 2/349، والآلوسي، روح المعاني: 5/189.

لولايتِه فلربّما وقعَ الصّدُّ منهم موقعَه[1]، وهذا يُظهرُ " اعتداءَهم في صدِّهم عنِ المسجدِ الحرام؛ فإنّ مَن صدَّ عمّا هو له من الخير كان ظالمًا، ومن صدَّ عمّا ليس من حقّه كان أشدَّ ظلمًا، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: 114] أي: لا أظلمَ منه أحدٌ لأنّه منعَ شيئًا عن مُستحقّه"[2].

نُكتةُ دخولِ ﴿وَمَا﴾ على (كان) واسمِها وخبرِها:

نفيُ استحقاقِ الولايةِ، إيغالٌ في نفيِ كونِهم أولياءه

في قولِه جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ (كان) بين (ما) ومعمولَيْها، وأصلُ الكلام: (وما هم أولياءه)؛ لأنّه لم يردْ نفيُ كونِهم أولياءَه وحسبُ، بل نفيُ استحقاقِهم أن يكونوا كذلك منَ الأصل، أي: ما كانوا "مُستحقّين ولاية أمرِه مع شِركِهم"[3]، فأدخلَ النّفيَ على كان للدّلالةِ على أصالة انتفاءِ استحقاقِهم لولايةِ البيتِ، فالمنفيُّ هو الاستحقاقُ، فالمعنَى: "وما استحقّوا مع إشراكِهم وعداوتِهم للدّين أن يكونوا وُلاة أمرِ الحرم"[4].

بلاغة المجاز المرسل وعلاقتُه اللّزوميّةُ في السّياق:

نفيُ ولايةِ المسجدِ الحرام عنهم يستلزمُ نفي استحقاقِها

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ نفَى أن يكونَ المشركون أولياءَ المسجدِ الحرام، وهم أولياؤُه في الواقع، فالمرادُ من ذلك النّفي نفيُ استحقاقِ الولايةِ لا نفسِها، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقتُه اللّزوميّةُ، حيث أطلقَ اللّازمَ وأراد الملزومَ والقرينةُ كونُهم مُتولّين وقتَ نزولِها، إذ نفيُ الولايةِ مستلزِمٌ لنفيِ استحقاقِها لُزومًا عربيًّا[5].

فائدةُ إضافةِ الأولياءِ إلى الضّميرِ العائدِ على المسجدِ الحرام:

أضافَ الأولياءَ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ إلى

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/337.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/260.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/643.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/74.

النّفيُ يسلبُ عنهم دعواهُم ولايةَ البيْتِ

الضّميرِ العائدِ إلى البيتِ ردًّا لدعواهُم بكونِهم ولاةَ البيتِ؛ حيث "كان المشركون يقولون: نحنُ أولياءُ المسجدِ الحرام، فردَّ اللّه عليهم بقولِه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أي: أولياءَ البيتِ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي: ليس أولياءُ البيتِ ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾"[1].

والضّميران لا يصحُّ أن يكونا عائدَيْن على لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ "لأنّ الضّميرَ إذا دار بين الأقربِ والأبعدِ فلِلأقربِ، وأيضًا في الاحتمال الأوّل ردٌّ لقولِهم: نحن ولاةُ البيتِ، وأيضًا انتفاءُ ولايةِ اللّه تعالى عنهم ظاهرةٌ واضحةٌ، فلا فائدةَ فيها معتدًّا بها في نفْيِ ذلك"[2].

دلالة الاستئناف البيانيّ في تعيين أولياء المسجد الحرام:

التّعليلُ يُكسبُ القناعةَ ويُقوّي الحُجّةَ

قولُه ﷻ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا أو تعليليًّا[3]؛ فالجملةُ: "تعيينٌ لأوليائه الحقِّ، وتقريرٌ لمضمونِ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ مع زيادةِ ما أفاده القصْرُ من تعيينِ أوليائه، فهي بمنزلة الدّليلِ على نفْيِ ولايةِ المشركين، ولذلك فُصِلَتْ"[4]، وقد جاءتْ لبيانِ أهلِ الولايةِ على البيتِ بعد أن نفاها عنِ المشركين[5]، وهي للتّعليلِ، وللتّدليلِ على نفْيِ ولايتِهم على البيت، "وإنّما لم يَكتفِ بجملةِ القصْرِ مع اقتضائِه أنّ غيرَ المتّقين ليسوا أولياءَ المسجدِ الحرامِ، لقصْدِ التّصريحِ بظلمِ المشركين في صدِّهم المسلمين عنِ المسجدِ الحرام بأنّهم لا ولايةَ لهم عليه، فكانت جملةُ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أشدَّ تعلّقًا بجملةِ: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ من جملةِ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ وكانت

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/509.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/74.
(3) محمود صافي، الجدول: 5/213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/337.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273.

جملةُ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ كالدّليلِ، فانتظمَ الاستدلالُ أبدعَ انتظام، ولِما في إناطةِ ولايةِ المسجدِ الحرام بالمتّقين منَ الإشارة إلى أنَّ المشركين الذين سُلِبت عنهم ولايتُه ليسوا منَ المتّقين، فهو مذمّةٌ لهم وتحقيقٌ للنّفيِ بحجّةٍ"[1].

دلالة ﴿إِنۡ﴾ على القصر في السّياق:

افتتح قولَه جلّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ بحرف النّفي (إن)، ولم يأتِ النّفيُ بـ (ما)؛ لأنّ النّفيَ بـ (إن) أكثرُ تأكيدًا ومبالغةً، ولذا كانت في الاستعمالِ القرآنيِّ غالبًا ما تأتي مع (إلّا) والقصْرِ، لما فيه تأكيدٌ للمعنى، أمّا (ما) فتأتي مع الحصْرِ لكن ليس هو الغالبُ عليها، كما يُلاحظُ أنّ بين (إن) و(إلّا) جناسًا لفظيًّا بالافتتاح بالهمزة المكسورة، وهذا التّشابهُ في بداية اللّفظين فيه مزيدٌ منَ القوّة في التّعبير بهما معًا؛ فيكونُ قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ يدلُّ على قوّة النّفْيِ الذي يُضيفُ تأكيدًا للتّأكيدِ المرادِ بالقصْرِ.

الاستثناءُ المنفيّ، فيه دلالةٌ على تأكيد التّأكيد

بلاغةُ القصْرِ ونوعُه ودلالتُه في الآية:

في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ جاء القصْرُ بالنّفي والاستثناءِ للدّلالة على تعيينِ أولياءِ المسجد[2]، وحصْرِ ولايتِه بهم، فليس لهذا المسجدِ أولياءُ على وجه الاستحقاقِ غيرُ المتّقين، فجاء الإخبارُ عن ذلك بأسلوب القصْرِ للدّلالةِ على تأكيدِ ذلك، وهو قصْرُ قلْبٍ؛ لأنّه عكسُ الحُكمِ الذي كانوا يظنّونه بأنّهم هم ولاتُه، وهو قصْرُ موصوفٍ على صفةٍ.

لا يستحقُّ الولايةَ على المسجدِ الحرامِ إلّا المؤمنون المتّقون

سِرُّ اصطفاءِ النّفيِ والاستثناءِ طريقًا للقصْرِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ جاء القصْرُ بطريق النّفْيِ والاستثناءِ؛ لأنّه جاء لبيانِ حُكمٍ يُنكره المشركون، وهذا من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/337.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/337.

مناسبة إنكارِهم استـحـقـاقَ التّقوَى للولايةِ على وجْهِ الحصْرِ

وجوهِ استعمالِ القصرِ بهذه الطّريقةِ، أمّا القصرُ بـ (إنّما) فإنّه يُستعملُ في "حُكم من شأنِه ألّا يجهلَه المخاطبُ ولا يُنكِرَه"(1)، وعليه فإنّ استحقاقَ ولايةِ البيتِ للمتّقين كان حُكمًا يُنكِرُه المشركون، ولا يُقرّون به فجاء القصرُ بأسلوب النّفْيِ والاستثناءِ الدّالِّ على ذلك.

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُتَّقُونَ﴾:

كلُّ مَن اتّصفَ بالتّقوَى فهو أهلٌ لولايةِ هذا البيتِ الحرام

في قولِه ﷻ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ عرّفَ المتّقين بالألف واللّام الدّالّةِ على الجنسِ، فتشملُ جميعَ الأتقياءِ في كلِّ زمان، فقولُه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ "يعني المؤمنين الذين يتّقون الشّركَ، ويَحترزون عنِ المنكراتِ، كالذي كانوا يفعلونَه عندَ البيت"(2).

سِرُّ التّعبيرِ بالمتّقين دونَ المؤمنين أو المسلمين:

ولايةُ الله تعالى منزلةٌ رفيعةٌ، لا تُنالُ إلّا بالبرِّ والتّقوَى

في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ جعل ولايتَه منحصرةً بالمتّقين دونَ المسلمين؛ إذ ليس "كلُّ مسلم أيضاً ممّن يصلحُ لأنْ يليَ أمرَه، إنّما يستأهلُ ولايتَه من كان برًّا تقيًّا، فكيفَ بالكفرة عبدةِ الأصنام"(3)، فذكرُ المتّقين دون المسلمين إشارةٌ إلى عُلوِّ منزلةِ ولايةِ اللّه تعالى وقد وصَفَ أنّه وليُّ المؤمنين في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيغالًا ومبالغةً في كونِ مجرّدِ الإسلامِ لا يكفي في نَيل تلك الولايةِ(4).

غرضُ حذْفِ مُتعلّقِ لفظ ﴿ٱلۡمُتَّقُونَ﴾:

الاهتمامُ بصفة التّقوى لذاتها، وشمولها لكلِّ ما يُتّقَى

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ جاء لفظُ المتّقين بلا مُتعلّقٍ للاهتمامِ بهذا الوصفِ، "أي: العريقون في هذا الوصفِ بما يجعلون بينَهم وبين سخَطِ اللّه من وقاياتِ الطّاعاتِ"(5)، فأطلقَ

(1) الجناجيُ، البلاغة الصافية، ص: 175.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/509.
(3) الزمخشريّ، الكشاف: 2/217.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/92.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273 - 274.

التّقوَى عنِ المتعلّقِ فلم يقلْ: (يتّقون الله)؛ اهتمامًا بصفةِ التّقوَى من حيث هي، لا من حيثُ المتعلّقُ بها، كما أفادَ الإطلاقُ الشّمولَ، فيشملُ كلَّ ما يندرجُ تحت هذا الفعلِ.

معنى الواو في جملة ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ العاطفة، ومعنى الجملةِ بعدَها:

نـفْـيُ الـولايـةِ ونـفْـيُ الـعـلـمِ قرينانِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الواو) عاطفةٌ، والجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قولِه: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[1]، فالجملة الأولى نفتِ الولايةَ عنهم، وأثبتتْها للمتّقين، والثّانيةُ نفتِ العلمَ عن أكثرِهم، وأثبتت لهمُ الجهلَ، ويُمكنُ أن تكونَ الواوُ حاليّةً، والجملةُ بعدَها في محلٍّ نصبٍ على أنّها حالٌ.

معنى (لكنّ) الاستدراكيّة في السياق:

منَ الدّعاوَى ما يكونُ مَنشؤها الجهلَ بحقائقِ الأمورِ

في قولِه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاء حرفُ الاستدراك (لكنّ) تعقيبًا على النّفْيِ السّابقِ في الجُملتين في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فلمّا نفَى ذلك عنهم فإنّه "يثيرُ فرضَ سائلٍ يسألُ عنِ الموجبِ الذي أقحمَهم في الصّدِّ عنِ المسجدِ الحرامِ، ويَحسبون أنّهم حقيقون بولايتِه"[2]، فجاء الاستدراكُ تعليلًا لادّعائِهم بعد نفْيِ استحقاقِهم.

سِرُّ نفْيِ العلْمِ عنِ الأكثريّةِ دونَ الجميعِ:

نفيُ العلمِ عنِ الأكثريّةِ يُشيرُ إلى علْمِ الأقليّةِ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفَى العلْمَ عن أكثرِهم، ولم يقل: (ولكنّهم لا يعلمون)؛ لأنّ فيهم مَن لا يصدقُ عليه الوصفُ بكونِه لا يعلمُ، فأرادَ بذلك "أنْ يُعْلِمَ ويُشعرَ أنّ بينهم وفي خلالِهم قومًا قد جنحوا إلى الإيمان، ووقع لهم عِلمٌ، وإن كان ظاهرَهم الكفرُ، فاستثناهُم منَ الجميع بقولِه:

(1) محمود صافي، الجدول: 5/212 - 213.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/338.

﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾، وكذلك كانت حالُ مكّة وأهلِها، فقد كان فيهمُ العبّاسُ وأمُّ الفضل وغيرُها"[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارِعيّةِ في الفعل ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

المشركون غارقون في الجهل مُستمرّون فيه

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عبّر عن انتفاء علمِهم بالفعل المضارع، للدّلالةِ على استمرار النّفْيِ، فإنّهم لا يعلمون على الدّوامِ، فلا انقطاعَ لجهلِهم عن كونِ استحقاقِ الولايةِ منحصرًا بالمتّقين، وهذا إخبارٌ عن كونِهم لن يدركوا تلك الحقيقةَ؛ لأنّ الجهلَ عادةٌ متأصّلةٌ فيهم.

بلاغةُ حذْفِ مفعولِ: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

ادّعاءُ ما ليس بحقٍّ دليلُ الجهلِ، وانتفاءِ العلمِ

جاء العلمُ المنفيُّ عنهم مطلقًا بلا مفعولٍ به في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فلم يُبيّنْ أيَّ شيءٍ لا يعلمونَه؛ وذلك لدلالةِ السّياقِ عليه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، فالمعنى: "لا يعلمون أنّهم ليسوا بأوليائه بل يظنّون أنّهم أولياؤه"[2]. وقد يكونُ أنّه أرادَ نفْيَ مُطلقِ العلْمِ عنهم، بلا نظرَ إلى مُتعلّقٍ، ويدخلُ فيه عدمُ معرفتِهم بمُستحقِّ الولايةِ دُخولًا أوّليًّا، فيكونُ انتفاءُ مُطلقِ العلمِ عنهم هو السّببُ بادّعائِهم ذلك، أي: فلِكوْنِهم لا يعلمون "ادَّعَوْا لأنفسِهم أمرًا غيرُهم أولَى به"[3].

فائدةُ توسُّطِ النّفْيِ بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ:

عجزُ المشركين عنِ العلْمِ والفهْمِ ثابتٌ ومُستمرٌّ ومتجدّدٌ

في قولِه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفَى العلمَ عنهم بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على تأكيدِ مضمونِها وثباتِ المعنى فيها، وجاء المسنَدُ فعلًا منفيًّا للدّلالةِ على ثبوتِ هذا النّفْيِ وتجدُّدِه، تقويةً

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/522، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/338.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/522.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 320.

للحُكم المنفيِّ، والمعنى "ليس لهم علمٌ بالأمورِ ليميّزوا بين الحقِّ والباطلِ والمتّقي والفاسقِ وحُسنِ العواقب وسيّئِها"[1]، فهذه القدرةُ منتفيةٌ عنهم على وجهِ الدّوامِ والثّبوتِ والتّأكيدِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصدُّ والمنعُ:

الصّدُّ أخصُّ منَ المنعِ فهو منعٌ عن بلوغِ المقصَدِ، "الصّدُّ هو المَنْعُ عَن قصْدِ الشّيءِ خاصَّة؛ ولهذا قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: يمْنَعونَ النّاس عَن قَصْدِه، والمنعُ يكونُ في ذَلِك وغَيره؛ ألا ترى أنّه يُقال: منع الحائِط عَنِ الميل، ولا يُقال: صدَّه عنِ الميل؛ لأنّ الحائطَ لا قصْدَ لَهُ"[2]. وفي الآيةِ الكريمةِ عبّرَ بالصّدِّ دون المنعِ؛ لأنّهم كانوا يمنعون النّاسَ أن يقصدوا ويبلغوا بيتَ اللّه تعالى.

الصّدُّ أخصُّ مِنَ المنعِ، فهو منعٌ عن بلوغِ المقصَدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/274.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين استحقاقهم للعذاب، ونفيُ ولايتهم على المسجد الحرام، لجرائمهم العظام

لمّا ذكر جلّ شأنُه "أنّ الكفّارَ ليسوا بأولياءِ البيتِ الحرام ذَكرَ عقِبَهُ السّببَ في ذلك، وهو أنّ صلاتَهم عنده كانت مُكاءً وتصديةً"[1]، فولايةُ المسجدِ الحرامِ منزلةٌ رفيعةٌ لا ينالُها من يُشرك بعبادةِ اللّه تعالى، فلمّا "كانوا يفعلون عندَ البيتِ ما يُنزَّهُ البيتُ عنه ممّا هو غايةٌ في الجهل، قال مُبيّنًا لجهلِهم واستحقاقِهم للنّكالِ وبُعدِهم عنِ استحقاقِ ولايتِه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُكَآءً﴾: (مَكا) أَصْلٌ يَدُلُّ على شَيْءٍ مِنَ الأَصْواتِ، مكا الطّيرُ يمكو مُكاءً: صَفَرَ، المُكاءُ: الصَّفيرُ، مَكا الإنسان: صَفَرَ بفيه، وهو أن يَجمع بين أصابع يَدَيْهِ، ثُمَّ يُدخِلَها في فيهِ ثُمَّ يَصْفِرَ فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ تنبيهًا أن ذلك منهم جارٍ مجرى مُكاءِ الطّيرِ في قلّةِ الغناءِ، والمُكّاء: طائرٌ[3]، فما كانت صلاتُهم إلّا صفيرًا بالأفواه[4].

2) ﴿وَتَصْدِيَةً﴾: (صدّ، صدى) والتَّصْديدُ: التَّصْفيقُ، وتُبْدَلُ الدالُ ياءً فيقالُ: التَّصَدّي والتَّصْدِيَة، وهي: التَّصْفيقُ باليَدَيْنِ[5].

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/310، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/509.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/274.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مكا).
(4) العليمي، فتح الرحمن: 3/111.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (صدّ - صدى).

فقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾، يعني إلّا "تصفيقًا بإحدى اليدَيْن على الأخرى"[1]، وهي على وزن " (تَفْعِلَة) من الصّدّى، أو مِن صدَّ يصُدّ"[2]؛ وذلك أنّهم كانوا يطوفون بالبيت عُراةً مُشبكون بين أصابعِهم يُصفّرون فيها ويُصفّقون، وكانوا يفعلون نحوَ ذلك إذا قرأ رسول اللّه ﷺ في صلاته يَخلطون عليه"[3].

3) ﴿فَذُوقُواْ﴾: (ذوق) أصلٌ وهو اختبارُ الشّيء من جهة تَطَعُّم، ثم يُشتقّ منه مجازًا فيقال: ذُقتُ المأكولَ، الذّوقُ: وجودُ الطّعمِ بالفم، وأصلُه فيما يقلُّ تناولُه دون ما يَكثر، فإنّ ما يكثرُ منه يقال له: الأَكْلُ، واختيرَ في القرآن لفظُ الذّوق في العذابِ كثيرًا، نحوَ: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾، ويَكونُ بالفَم وبغَيْرِ الفَم، وكلُّ ما نزلَ بإنسانٍ من مكروهٍ فقد ذاقَهُ، قال تعالى: ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ أي خبَرتْ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

البُرهانُ على نفْيِ استحقاقِهم ولايةَ البيتِ الحرامِ، لشركهم وسوء فعالهم

يُخبرُ اللّه تعالى عن ضلالِهم في صلاتِهم وطوافِهم، فما كانت صلاتُهم إلّا صفيرًا وتصفيقًا في المسجدِ الحرام المعدِّ للتّوجهِ والتّقرّبِ للّه تعالى على وجهِ الخضوعِ والانكسارِ والتّذلّلِ والافتقارِ، وما ذلك إلّا من أماراتِ الاستهانةِ والاستخفافِ الدّالِّ على الكُفرِ، وهذا يَستوجبُ العذابَ لا الولايةَ على المسجدِ الحرام[5]. والمعنَى: أنّ "اللّه تعالى إنّما جعلَ بيتَه الحرامَ ليُقامَ فيه دينُه، وتُخْلص له فيه العبادةُ، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمرِ، وأمّا هؤلاء المشركون الذين يَصدّون عنه، فما كان صلاتُهم فيه التي هي أكبرُ أنواعِ

(1) العليمي، فتح الرحمن: 3/111.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 2/218، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/510.
(3) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/643 - 644.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/287.

العباداتِ: ﴿إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ أي: صفيرًا وتصفيقًا، فِعلَ الجهَلةِ الأغبياءِ، الذين ليس في قلوبهم تعظيمٌ لربِّهم، ولا معرفةٌ بحقوقِه، ولا احترامٌ لأفضلِ البقاعِ وأشرفِها، فإذا كانت هذه صلاتَهم فيه، فكيف ببقيّةِ العباداتِ؟"(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواوِ ودلالةُ الجملةِ بعدَها:

استحقاقُهمُ العذابَ مسبَّبٌ بكثيرٍ منَ الأسبابِ

الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾؛ لأنّها تقريرٌ لاستحقاقِهم العذابَ، أو هي معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ فتكونُ تقريرًا لعدمِ استحقاقِهم ولايةَ المسجدِ الحرامِ(2)، فالجملةُ "كالدّليلِ المقرّرِ لانتفاءِ ولايتِهم للمسجدِ الحرامِ؛ لأَنّ من كان يفعلُ مثلَ هذا عند مسجدِ اللّه لم يكن منَ المتّقين، فكان حقيقًا بسلْبِ ولايةِ المسجدِ عنه، فعُطفتِ الجملةُ باعتبارِها سببًا للعذابِ"(3).

نُكتةُ دخولِ النّفْيِ على ﴿كَانَ﴾ وجُملتِها:

أصلُ وجودِ صلاتِهم كان على هذا الوصْفِ المذكورِ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ دخلَ النّفيُ على كان ولم يدخلْ على الفعل مباشرةً، فلم يقلْ: (لم يصلّوا عند البيت إلّا مُكاءً وتصدية)؛ لأنّه أراد أن يُثبتَ كونَ صلاتِهم على هذه الصّفةِ مبالغةً وتأكيدًا؛ إذ إنّ تسليطَ النّفْيِ على فعلِ الكوْنِ يدلُّ على انتفاءِ الفعلِ منَ الأصل، فنفَى وجودَ صلاتِهم على أيِّ هيئةٍ وصفةٍ إلّا من وجودِها على الهيئةِ والصّفةِ المذكورةِ، إثباتًا لكونِه على ذا الوصْفِ منذ يومِ وجودِها.

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 320.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 5/287، والطّيبي، فتوح الغيب: 7/93 - 94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/338.

صلاةُ المشركين لا يُرادُ بها معناها الشَّرعيُّ، بل معناها العرفيّ

فائدةُ تذكيرِ الفعْلِ ﴿كَانَ﴾ مع الصّلاةِ:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ جاء الفعلُ خاليًا من علامةِ التّأنيث؛ لأنّ "العربَ تعلّقُ الفعلَ لا علامةَ فيه بالمؤّنث، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، وقولُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾، وقولُه: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ونحو هذا ممّا أُسندَ فيه الفعلُ دون علامةٍ إلى المؤنثِ"(1)، ولعلّ المرادَ من ذلك التّنبيهُ على الفعلِ عمومًا لا على الفاعلِ، فالمرادُ نفْيُ كونِ الصّلاةِ لا الصّلاةَ المفردةَ، والتّفكّرِ في وجود العاقبةِ لا العاقبةَ بحدّ ذاتِها، وفي قولِه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ لعلّ المرادَ الإخبارُ عن هول الأَخْذِ، أمّا الصّيحةُ فهي وسيلةٌ، فالاعتبارُ للأَخْذِ بالمقامِ الأوّلِ، وقد يكونُ التّذكيرُ في الضّميرِ على معنى أنّ المرادَ منَ الصلاةِ الدّعاءُ.

سُمّي فعلُهم ذلك صلاةً على طريقةِ المشاكلةِ التّقديريّةِ

الغرضُ منَ الاستعارةِ في لفظ ﴿صَلَاتُهُمۡ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ عبّر عنِ الصّلاة بالمكاءِ والتّصديةِ، وهما ليسا منَ الصّلاةِ في شيءٍ، فالمرادُ "بالصّلاةِ ليس نفسَها بالمعنى اللّغويِّ أو الشّرعيِّ، بلِ الأمرُ الذي يضعُ الكفّارُ موضعَ الصّلاةِ، ويفعلون ذلك الأمرَ بدلَ الصّلاة، فالصّلاةُ مجازٌ عن ذلك الأمرِ ومُستعارٌ له للتّهكّمِ على حدّ: تَحيّةٌ بَيْنِهم ضَرْبٌ وجيعٌ"(2).

وذهبَ بعضُ أئمّةِ التّفسيرِ إلى أنّ ذلك مشاكلةٌ؛ إذ لا تعرفُ لهم صلاةٌ "فتسميةُ مكائِهم وتصديتِهم صلاةً مشاكلةٌ تقديريّةٌ؛ لأنّهم لمّا صدّوا المسلمين عنِ الصّلاة وقراءةِ القرآن في المسجدِ الحرامِ عندَ البيت، كان من جملةِ طرائقِ صدِّهم إيّاهم تشغيبُهم عليهم وسُخريتُهم بهم يُحاكون قراءةَ المسلمين وصلاتَهم بالمكاءِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/523.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/74، والطّيبي، فتوح الغيب: 7/94 - 95.

والتّصديةِ، قال مجاهدٌ: "فعلَ ذلك نفرٌ من بني عبدِ الدّار يخلِطون على محمّدٍ صلاتَه"، وبنو عبدِ الدّارِ هم سدنةُ الكعبةِ وأهلُ عمارةِ المسجدِ الحرامِ، فلمّا فعلوا ذلك للاستسْخارِ منَ الصّلاة سُمّي فعلُهم ذلك صلاةً على طريقة المشاكلةِ التّقديريّةِ، والمشاكلةُ ترجعُ إلى استعارةِ علاقتِها المشاكلةِ اللّفظيةِ أوِ التّقديريةِ؛ فلم تكن للمشركين صلاةٌ بالمكاءِ والتّصديةِ، وهذا الذي نحاه حُذّاقُ المفسّرين: مجاهدٍ، وابنِ جُبير، وقتادةَ، ويُؤيّدُ هذا قولُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ لأنّ شأنَ التّفريع أن يكونَ جزاءً على العمل المحكيِّ قبلَه، والمكاءُ والتّصديةُ لا يُعدّانِ كفرًا إلّا إذا كانا صادرَيْنِ للسّخريةِ بالنّبيِّ ﷺ وبالدّين، وأمّا لو أريدَ مجرَّدُ لهوٍ عملوهُ في المسجدِ الحرامِ فليس بمقتضٍ كونَه كُفرًا"[1].

نُكتةُ تقييدِ الصّلاةِ بالظّرفِ المضافِ: ﴿عِندَ ٱلۡبَيۡتِ﴾:

قبائحُ المشركين وجرائِمُهم، في مواطنِ الخُشوعِ والهيبةِ والجلالِ

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ قيّدَ كونَ الصّلاةِ بهذه الكيفيّةِ المذمومةِ كائنةً عند بيتِ اللّه تعالى المُستوجبِ للهيبةِ والتّعظيم، والحالُ أنّ الصّلاةَ فيه ينبغي أن تكونَ مبنيّةً على الخشوعِ، في قيْدِ الصّلاة بكونِها عندَ المسجدِ الحرامِ زيادةٌ في التّبشيعِ عليهم[2].

سرّ إيثارِ التّعبيرِ بالبيتِ دونَ المسجدِ في الآيةِ:

التّعبيرُ بالبيتِ هيبةٌ وجلالٌ، وأبلغُ في التّقريعِ على المشركين

عبّرَ عنِ المسجدِ الحرامِ المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ بـ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ ولم يقلْ: (عند المسجد الحرام)؛ "للاختصارِ مع الإشارةِ إلى أنّه بيتُ اللّه تعالى؛ فينبغي أن يُعظَّمَ بالعبادةِ، وهم لم يفعلوا"[3]، فـ(أل) في (البيت) للعهدِ، وفي ذلك زيادةٌ في التّشنيعِ على قبيحِ فعلِهم، فإنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/339.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/274.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/190.

لفظَ (المسجد الحرام) يستدعي الصّلاةَ والحجَّ والعمرةَ والطّوافَ وسائرَ المناسكِ، أمّا التّعبيرُ بالبيتِ فإنّه يستدعي كونَه بيتَ اللّه المعظّمَ، وهذا أبلغُ في سياقِ التّقريعِ عليهم بشناعةِ فعْلِهم.

بلاغةُ القصْرِ ودلالتُه ونوعُه:

ليسَ في أعمالِ المشركين ما يُؤهِّلُهم لاستحقاقِ ولايةِ بيتِ الله

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قصَرَ صلاتَهم على المُكاء والتّصدية، مبالغةً وتأكيدًا لنفْي فضائلِ الأعمالِ التي تجعلُهم أهلًا لولايةِ المسجد، فلمّا قصَرَ ولايةَ المسجدِ على المتّقين، أعقبَه بنفْي كوْنِ صلاةِ المشركين من أعمالِ التّقوى، فإنّها ليست منَ العبادةِ في شيءٍ، فعبّرَ عن ذلك بالقصْرِ لتأكيدِ المضمونِ وتقويةِ الحُكم، وجاء القصْرُ بطريق النّفْي والاستثناء؛ لأنّهم يُنكرون أن تكونَ صلاتُهم كذلك، وهو قصْرٌ موصوفٌ على صفةٍ، فقصْرُ الصّلاةِ على الصّفةِ المذكورة، وهو قصْرُ قلْبٍ؛ إذ ظنّ المشركون أنّ فعْلَهم ذلك من جنْسِ الصّلاةِ، فجاء القصْرُ لعكسِ الحُكم، وهو قصْرٌ إضافيٌّ لاشتمالِ صلاتِهم على ما هو أكثرُ منَ المُكاء والتّصدية.

فائدةُ تنكيرِ لفظي ﴿مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ في الآية:

ما يُستحَى من فِعْلِه يُحقَّرُ ولا يُعظّمُ

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ عبّرَ عنِ المُكاء والتّصديةِ بالتّنكيرِ تحقيرًا لهذين الفعلَيْن المتّخذَيْن وسيلةً للعبادةِ على حسبِ ظنِّهم، فسلبَ عنهما أيّةَ منزلةٍ من منازلِ الاعتدادِ، حتّى لو كان ذلك بمجرّدِ التّعريف.

وجهُ استثناءِ المُكاءِ والتّصديةِ منَ الصّلاةِ، وليسا منها:

المبالغةُ في سوءِ فعْلِهم والتّهكُّم بصَلاتِهم العابثة

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ استثنَى المُكاءَ والتّصديةَ منَ الصّلاةِ، وهما ليسا من جنسِها، وفي هذه الحالةِ لا يصحُّ الاستثناءُ إلّا لغرضٍ بلاغيٍّ، فجاء ذلك في الآيةِ هنا "تقريعاً للمُشركين بتركِهم ما أُمروا به في المسجدِ الحرامِ، فإنّ

ما لا يدخلُ تحت الشّيءِ قد يُستثنَى منه لمصلحةٍ وغرضٍ كقصْدِ المدحِ والذّمِّ؛ فعلى هذا يكونُ التّقديرُ: وما كان موضعُ صلاتِهم أي عوضُها إلّا مُكاءً وتصديةً"[1]، ففي ذلك مبالغةٌ في ذمّ فعْلِهم إذ وضعوا ما ليس من جنْسِ الصّلاة فيها وزعموا أنّه قُربةٌ للّه تعالى، ويحتملُ أنّه أرادَ التّهكّمَ بهم، كما قالوا: تحيّةُ بينِهم ضربٌ وجيعٌ، فجعل الضّرب تحيّةً على سبيلِ التّهكّم[2].

معنَى الفاءِ في: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

العذابُ مسبَّبٌ عن فعْلِهم، ينالونَه في العاجلةِ قبْلَ الآجلةِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ افتتحَ الجملةَ بالفاءِ الدّالّةِ على السّببيّةِ[3]، أي بسببِ ما قُمتُم به ذوقوا جزاءَه في الدّنيا، كما أنّ الفاءَ دلّت على التّعقيبِ وإنّما يُعبّرُ بها "إذا كان ذلك العذابُ المسبَّبُ بما ذكرَه مُعجّلًا"[4]، وهذا يقطعُ بكوْنِ العذابِ المذكورِ هو ما نالوه في بدْرٍ.

نوعُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ في السّياق:

نـزول العذاب الّذي طلبوه بهم

في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ دخلتِ الألفُ واللّامُ لتعريفِ العذابِ تعريفَ العهدِ؛ إذِ المرادُ به القتلُ والأسرُ يومَ بدْرٍ، وهو ما توعّدَهم اللّه تعالى به، وما طلبوه بقولِهم: ﴿أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[5]، وقد يُرادُ به جنسُ العذابِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ذوق العذاب:

شبّهَ شدّةَ مسّ العذابِ لهم بشيءٍ محسوسٍ من شأنِه أن يُتذوّق

في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ التّعبيرُ عنِ العذابِ بالفعلِ (ذوقوا) وهو "مجازٌ عن نزولِه بهم بحيث يمسُّ إحساسَهم، وكأنّه يُذاقُ مذاقًا مُؤلمًا، ولا يخلو ذلك من تهكّمٍ

---

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/170.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/94 - 95.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/276.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/262، والآلوسي، روح المعاني: 5/190 - 191.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/58، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20.

بهم، كما يقولُ اللّه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾"[1]، ويُضافُ إلى ذلك أنّه قد يكونُ من بابِ الاستعارةِ المكنيّةِ، فشبّهَ الذي ينالُ العذابَ بمَن يتذوّقُ الطّعامَ، بجامعِ أنّه واجدٌ أثرَ ذلك التّذوّق، فحذفَ المشبَّه به وأبقى قرينةَ التّذوّقِ للدّلالةِ عليه، والغرضُ من ذلك التّهكّمُ بهم.

فائدةُ الأمرِ ودلالتُه في: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

ارتباطُ التّذوّقِ بالعذابِ فيه مَزيدُ توبيخٍ

فعْلُ الأمرِ (ذوقوا) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ يدلُّ على التّوبيخِ والتّغليظِ[2]، فالأمرُ مجازيٌّ لا يُرادُ منه وجوبُ ما يلزمُه تذوّقُ العذابِ، إذ إنّ ذلك ممّا لا يُتصوّرُ الأمرُ به، فدلَّ على أنّ المرادَ التّوبيخُ والتّغليظُ والتّهكّمُ بهم.

بلاغة الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى المخاطَبِ في الآية:

مواجهةُ المذنب بعقابِه أشدُّ رهبةً له، وأكثر إخافة

قولُه عزّ ذكرُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ جاء بصيغةِ المخاطَبِ بعد أن خاطبَهم بالغيبةِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ﴾، وهذا التفاتٌ، وموقعُه غايةُ الحسنِ والبلاغةِ؛ لأنّ توجيهَ الخطابِ بالعذابِ إلى السّامعِ أكثرُ مبالغةً في التّهديدِ وإدخالِ الرَّوعِ في قلوبِهم، فوجّهَ الخطابَ إليهم "لأنّ مخاطبَتَهم بالعقابِ يجعلُه أوقعَ في النّفوسِ، وأدعَى للرّهبةِ"[3].

معنَى الباءِ في الدّلالة على السّببيّة في السّياق:

ذوقُ العذابِ للمُشركين جزاءٌ وفاقٌ لكُفرِهم بالله ورسوله

في قولِه ﷻ: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ تدلُّ الباءُ على السّببيّةِ، وجيءَ بها "للتّأكيدِ؛ إذ سببيّةُ الكفرِ مفهومةٌ من لفظةِ الفاءِ"[4]، فقولُه ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ دلَّ على أنّ العذابَ حاصلٌ بسببِ كفرِهم،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/339.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3121، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/170.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/76، والخازن، لباب التأويل: 2/311، والشّربينيّ، السراج المنير: 1/569.

"أي إنكم قد صِرتُم بهذا الفعل أهلًا لذَوْقِه بما تَستُرون ممّا دلّتْكُم عليه عقولُكم من هذا الحقِّ الواضحِ"[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

الكفرُ في هؤلاء المشركين دائمٌ ومُتجدّدٌ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ دخلتِ الباءُ السّببيّةُ على (ما) المصدريّة[2] التي يَنْسبِكُ منها ومن فعلِها مصدرٌ، والتّقديرُ: بسببِ كونِكم تكفرون، فدلَّ المصدرُ المؤوّلُ على ثبوتِ الكُفرِ فيهم وتجدُّدِه. ولم يقلْ: (بأنّكم كافرون) وهذا أيضًا مصدرٌ مؤوّلٌ؛ ولكنّه يخلو منَ الفعْلِ المتضمِّن الدّلالةَ الزّمنيّةَ التي تقتضي الدّوامَ والتّجدّدَ والمزاولَةَ.

سرّ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿تَكۡفُرُونَ﴾:

تجدّدُ الكفرِ سببٌ في ذَوقِ العذابِ

في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ عبّرَ عن كُفرِهم بالفعلِ المضارعِ الذي "يفيدُ تصويرَ حالِ كُفرِهم المتجدّدِ المستمرِّ، فكلُّ ساعةٍ تمرُّ وهم كافرون تجديدٌ للكفرِ، وحيث يتجدّدُ الكفرُ يتجدّدُ سببُ العذابِ"[3]، "وأنّ هذا الاستمرارَ هو السّببُ في ضلالِهم"[4] ولمّا كان كُفرُهم غيرَ مُنقطعٍ وقتَ نزولِ الآيةِ كان الأنسبَ والأبلغَ أن يُعبّرَ عنه بما يدلُّ على الواقعِ المستمرِّ، وذلك بالتّعبيرِ عنه بالفعلِ المضارعِ.

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ:

اختلافُ أسبابِ العذابِ باختلافِ المخاطَبين وأحوالِهم

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ يُشابهُ قولَه عزّ ذِكرُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39]، وقولَه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [السجدة: 14]، فعبّرَ هنا بـ﴿تَكۡفُرُونَ﴾، وفي الأعراف بـ﴿تَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39]، وفي

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/276.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3122.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3122.

السّجدة بـ﴿تَعْمَلُونَ ١٤﴾ [السجدة: 14]؛ لأنّ العذابَ هنا كائنٌ بسببِ الكُفرِ، وأمّا في الأعراف فلأجْلِ الكُفرِ والإضلالِ وما يجرُّه الإضلالُ منَ الكِبرياءِ؛ فلمّا تعدّدت الأعمالُ عبّرَ عنها بالكسبِ؛ لأنّهم قصَدوها، وفي السّجدةِ كان الخطابُ عامّا مع النّاسِ فجاء بالعملِ الذي هو أعمُّ منَ الكسبِ؛ لأنّ السّياقَ كان في عمومِ النّاس غيرِ المؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

المناسبة بين المكاء والتّصدية، والإنفاق في الصّدّ

ما أخبر الله تعالى في الآيةِ السّابقةِ عن عبادةِ الكفّارِ البدنيّةِ، وهي المُكاءُ والتّصديةُ، ذكر عَقِبَه عبادتَهم الماليّةَ التي لا جدوَى لها في الآخرة بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾: (سبل) أصلٌ يَدُلُّ على امْتِدادِ شَيْءٍ. والمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بذلك لامْتِدادِه، وهو الطّريقُ الذي فيه سُهولةٌ، وما وضَحَ منه، يُذكَّر ويُؤنَّثُ. ويُستعملُ السَّبيلُ لكلّ ما يُتوصّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125]، وسَبيلُ اللّه: طَريقُ الهُدَى الَّذي دَعا إليه[2].

2) ﴿حَسْرَةً﴾: (حسر) أصْلٌ، وهو من كشفِ الشّيءِ، والحَسْرةُ: أشدُّ التّلهّفِ على الشّيءِ الفائتِ، وذلك انكشافُ أمرِه في جزعِه وقلّةِ صبرِه، وهي الغمُّ على ما فاتَه والنّدمُ عليه، كأنّه انحسرَ عنه الجهلُ الذي حملَه على ما ارتكبَه، قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْۗ﴾ [آل عمران: 156][3].

(1) الشّربينيّ، السراج المنير: 1/569، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/481، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/513.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حسر).

3) ﴿يُغۡلَبُونَۗ﴾: (غلب) أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ وقهرٍ وشدّةٍ، والغَلَبَةُ القهرُ، وتَغَلَّبَ على بَلَدِ كَذا: اسْتَوْلَى عليه قَهْرًا[1]، ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ أي: لا يَظفرون بما يُؤمّلون[2].

4) ﴿يُحۡشَرُونَ﴾: (حشر) أصلٌ يدلُّ على جمعٍ مع السَّوقِ والبعثِ والانبعاثِ، أَحْشُرُهُم حَشْرًا: جمعتُهم، ومنه يومُ الحشْر. والحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها[3]، وقولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ يعني يُساقون إلى النّارِ[4].

5) ﴿لِيَمِيزَ﴾: (ميز) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَزَيُّلِ شَيْءٍ مِن شَيْءٍ. مَيَّزْتُهُ تَمْيِيزًا ومِزْتُهُ مَيْزًا. وامْتازوا: تَمَيَّزَ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ، وانْمازَ الشَّيْءُ: انْفَصَلَ عَنِ الشَّيْءِ، ومِزْتُ الشيءَ: عَزَلْتُهُ وفَرَزْتُه[5]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ "يعني: ليفرّقَ اللّه بين فريقِ الكفّارِ وهمُ الفريقُ الخبيثُ وبين فريق المؤمنين وهمُ الفريقُ الطيّبُ"[6].

6) ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾: (خبث) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خلافِ الطَّيِّبِ مِنَ الرِّزْقِ والولدِ والنّاسِ، الخُبْثُ والخَبيثُ: ما يُكره رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصلُه الرّديءُ الدّخلةِ[7]، الجاري مجرَى خَبَثِ الحديدِ، هو خبيثٌ، أي رديءٌ[8]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ﴾ يعني الكفّارَ، وهمُ الفريقُ الخبيثُ[9].

7) ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الخبيث، وأصلُ الطَّيِّب: ما تَستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النّفسُ، يقال: أرضٌ طيّبةٌ للتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طيّبةٌ إذا كانت حلالًا؛ وامرأةٌ طيّبةٌ إذا كانت حَصانًا عفيفةً[10]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ يعني: فريقَ المؤمنين، وهمُ الفريقُ الطيّبُ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (غلب).
(2) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حشر).
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ميز).
(6) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(7) تَقولُ: إنّه لَعَفيف الدُّخْلة وإنّه لَخَبيث الدُّخْلة أي باطِنُ أمره، داخِلَةُ الرّجلِ: باطنُ أمره. ينظر: الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دخل).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خبث).
(9) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(11) الخازن، لباب التأويل: 2/311.

8) ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾: (ركم) أصْلٌ يَدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ. والرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: 43]، الرَّكْمُ: جَمْعُكَ شَيْئًا فوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعله رُكامًا كالرَّمْلِ والسَّحابِ، ونَحْوِ ذلك مِنَ الشَّيْءِ المُرْتكِم بَعْضُهُ على بَعْضٍ. وهو إلقاءُ بَعْضِ الشَّيْءِ على بَعْضٍ وتَنْضيدُه[1]، وقولُه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يجعلُ بعضَهم على بعض[2].

9) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: (خسر) أصْلٌ يَدُلُّ على النَّقْصِ. فمِن ذلك الخُسْرُ والخُسْرانُ، خَسَرْتُ الميزانَ: نَقَصْتُه، الخُسْرُ والخُسْرانُ: انتقاصُ رأسِ المال، ويُستعملُ في المقتَنَياتِ، كالمالِ والجاهِ في الدّنيا وهو الأكثرُ، وفي المقتَنَياتِ النّفسيّةِ كالصّحّةِ والسّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثّواب، وهو الذي جعلَه اللّه تعالى الخسرانَ المبينَ، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر: 15]، وكلُّ خُسرانٍ ذكره اللّه تعالى في القرآنِ فهو على هذا المعنَى الأخيرِ، دون الخسرانِ المتعلّقِ بالمقتَنَياتِ الدّنيويّةِ والتّجاراتِ البشريّةِ. خَسِرَتْ تجارَتُهُ أي خَسِرَ فيها، ورَبِحَتْ أي رَبِحَ فيها. وصَفْقَةٌ خاسِرَةٌ: غَيْرُ رابحة[3]، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يعني "الذين كفروا وأنفقوا أموالَهم في طاعة الشّيطانِ هم الذين غُبنتْ صفقتُهم وخسرتْ تجارتُهم أنهم اشتروا بأموالهم عذابَ اللّه في الآخرةِ"[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى عن عداءِ المشركين للّه ورسولِه والمؤمنين

سَعيُ الكفّارِ في عداءِ الإسلامِ لا يُكْسِبهُم غيرَ البوارِ والخُسْران

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركم).
(2) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 129.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الواحدي، البسيط: 10/147.

ببيانِ الغرضِ من إنفاقِهم الأموالَ، فغرَضُهم "في إنفاقِ أموالِهم هو الصّدُّ عن سبيلِ الحقِّ بمحاربةِ رسولِ اللّه ﷺ، وجمعُ الجيوشِ لذلك، وإنفاقُ أموالِهم عليها، وذلك كما وقعَ مِن كفّارِ قريشٍ يومَ بدرٍ، ويومَ أحد، ويومَ الأحزابِ، فإنّ الرّؤساءَ كانوا ينفقون أموالَهم على الجيشِ، ثُمّ أخبرَ اللّه سبحانه عنِ الغيبِ على وجه الإعجازِ، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: سيقعُ منهم هذا الإنفاقُ، ثم تكونُ عاقبةُ ذلك أن يكونَ إنفاقُهم حسرةً عليهم"[1]، ثمّ يُبيّنُ ﷻ من حشْرِهم إلى النّارِ، والمعنى: "أنّ اللّه يحشرُ الكافرين إلى جهنّمَ ليَميزَ الكافرين منَ المؤمنين بأنْ يجمعَ الكافرين جميعًا فيُلقيَهم في جهنّم، ثمّ أخبرَ عنهم أنّهم همُ الخاسرون، أي: الذين خابت سِعايتُهم وتبّتْ أيديهِم وصاروا إلى النّارِ"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الاستئنافُ ودلالتُه في السّياق:

بُغضُ الكفّارِ لدينِ اللهِ متأصّلٌ فيهم لا ينفكّون عنه

جاءتِ الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ مستأنفةً غيرَ معطوفةٍ لبيانِ نوعٍ آخرَ من أنواعِ صدِّهم، فلمّا ذكرَ أنّهم ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أعقبَه بذكْرِ صدِّهم عن سبيلِ اللّه تعالى بإنفاقِ الأموالِ، وفي ذلك تأكيدٌ على ضلالِ سَعيهم وذمِّ صدِّهم عنِ المسجد الحرامِ، وعن سبيلِ اللّه.

بلاغةُ الالتفاتِ في الضّمائرِ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ:

حسرةُ المنافقين على خُسرانِ أموالِهم عامّةً لكلِّ مُنفقٍ صادٍّ عن سبيلِ الله

في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ التفاتٌ منَ الخطابِ الذي كان في قولِه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ إلى الغيبةِ تعميمًا للحُكمِ، فلو قال: (إنّكم تنفقون) لكان المقصودُ منَ النّصّ نفقتَهم على الخصوصِ، فلمّا عدلَ عنِ الخطابِ إلى

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/526.

الغيبةِ صلُحَ النّصُّ لكلِّ أحدٍ ينفقُ مالَه بهذا المقصدِ والغرَضِ، كما أنّ الالتفاتَ عنهم فيه تحقيرٌ لهم.

فائدةُ تتابُعِ المؤكّداتِ في صدرِ الآيةِ:

التّوكيدِ يبعثُ الطّمأنينةَ في المؤمنين والخوفَ في نفوسِ الكافرين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ خبرٌ منَ اللهِ - تعالى - مؤكَّدٌ بـ(إنّ) والجملةِ الاسميّةِ، وذكرِ المسندِ إليه مرّتيْن، فإنّ اللّه تعالى يؤكّدُ أنّهم ينفقونَ الأموالَ ليصدّوا عن سبيل اللّه فلا يتحقّقُ لهم قصْدُهم(1)، وإنّما أكّدَ الإخبارَ؛ لأنّه إخبارٌ عن فعلٍ وما سيؤولُ إليه في المستقبل، فكان جديرًا بأن يؤكَّدَ ليقعَ موقعَه في نفوسِ السّامعين، وفي التّأكيدِ تقويةٌ لمضمونِ الخبرِ، فإنّهم يُنفقون تلك الأموالَ قصدًا منهم أن يحاربوا اللّه تعالى ويَصدّون عن سبيلِه، وهذا يدعو للعجَبِ والإنكارِ، وهذا يقتضي التّأكيدَ.

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكفرُ أقبحُ ما يوصفُ به الإنسانُ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ عنهم بالاسمِ الموصولِ لذمِّهم، فهُم "يُنفقون أموالَهم يقصُدون بذلك الصّدَّ عن سبيلِ اللّه، والدّفعَ في صدْرِ الإسلام"(2)، فليس كلُّ المشركين أنفقوا، بل أنفقَ فئةٌ منهم.

فائدةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

تجدّدُ الحسرةِ كلّما تجدّدَ الإنفاقُ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ بالفعلِ المضارعِ عن إنفاقِهم "إشارةً إلى أنّ ذلك دأبُهم، وأنَّ الإنفاقَ مستمرٌّ لإعدادِ العُددِ لغزوِ المسلمين، فإنفاقُهم حصلَ في الماضي ويحصلُ في الحالِ والاستقبالِ"(3)، كما أنّ التّعبيرَ بذلك يدلُّ على

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3123.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/525.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.

إصرارِهم على الإنفاقِ، وأنّه إنفاقٌ قد تكرّرَ كثيرًا، وحصيلةُ ذلك أنّه إنفاقٌ كثيرٌ، مع استحضارِ صورتِهم البشعةِ في عملِهم.

نُكتةُ جمعِ لفظ الأموالِ، وإضافتِها إليهم:

الكفّارُ متعلّقون بالأموالِ الكثيرةِ، وهي مُنتهَى أمانيهم

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ عمّا أنفقوه بلفظِ المالِ، والمالُ يُطلَقُ على كلّ ما يملكُه الإنسانُ، والتّعبيرُ به في الآيةِ مجموعًا يدلُّ على أنّهم أنفقوا أنواعًا كثيرةً منها، كالنّقودِ والمركوبِ والسّلاحِ وغيرِها، وإضافةُ الأموالِ إلى ضميرِهم لشدّةِ تعلّقِهم بها، وليدلَّ على العُمومِ "فكأنّه قيل: ينفقون أموالهم كلَّها مبالغةً، وإلّا فإنّهم ينفقون بعضَ أموالِهم"[1].

معنى اللّامِ في لفظ ﴿لِيَصُدُّواْ﴾:

الكشفُ عنِ الأغراضِ الحقيقيّةِ تبشيعٌ للتّقبيحِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عبّرَ عن علّةِ إنفاقِهم بإدخالِ اللّامِ التّعليليّةِ على الفعلِ، لبيانِ أنّ "غرضَهم الصّدُّ عنِ السّبيلِ بحسبِ الواقعِ وإنْ لم يكن كذلك في اعتقادِهم"[2]، فهم لم يؤمنوا أنّه سبيلُ اللّه، وذكرُ العلّةِ مع الفعلِ يدلُّ على قوّةِ عزمِهم وثباتِ نيّتِهم على صدِّهم ومحاربتِهم دينَ اللّه.

نُكتةُ التّعبيرِ عن علّةِ إنفاقِهم، بالفعلِ المضارعِ:

علّةُ الإنفاقِ مستمرّةٌ لرسوخِ الكُفرِ في نفوسِهم

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عبّرَ عنِ الغايةِ من إنفاقِهم بإدخالِ اللّامِ التّعليليّةِ على الفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدّدِ، فأفادَ ذلك أنّ "الإنفاقَ مستمرٌّ؛ لأنّه مَنوطٌ بعلّةٍ ملازمةٍ لنفوسِهم، وهي بغضُ الإسلامِ وصدُّهمُ النّاسَ عنه"[3].

فائدةُ إضافةِ (السّبيل) إلى لفظِ الجلالةِ:

أضافَ السّبيلَ في قولِه تعالى: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/191، والزّمخشري، الكشاف: 2/219، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.

سبيلُ الله عظيمُ الشّأن، فيه نجاةُ العبْدِ في الدّنيا والآخرة

لفظِ الجلالةِ تعظيمًا لأمرِ السّبيلِ وتفخيمًا له، فهو سبيلٌ "لا يُداني عظمتَه عظمةٌ، مع اتّساعِه ووضوحِه وسهولتِه"[1]، فخلعتِ الإضافةُ إلى لفظِ الجلالةِ على المضافِ إليه كلَّ أوصافِ الحُسنِ والفخامةِ؛ لأنّ السّبيلَ المنسوبَ إلى اللّه تعالى لا بدَّ أنّه يتّصفُ بالعظمةِ، كما أنّه يتّصفُ بصلاحِه لعبادِ اللّه تعالى. والمرادُ من ذلك إظهارُ بشاعةِ فعْلِهم، وسوءِ مسلكِهم؛ إذ إنّهم يصدّون عنِ السّبيلِ العظيمِ الذي رضيَه اللّه تعالى أن يكون منهاجًا لعبادِه.

معنَى الفاءِ في لفظ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ من الآية الكريمة:

التّفريعُ والتّعقيبُ السّريعُ من متطلّبات الخطاب

افتتحَ الجملةَ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ بالفاءِ للتّفريعِ "على العلّة؛ لأنّهم لمّا كان الإنفاقُ دأبَهم لتلك العلّةِ المذكورةِ، كان ممّا يتفرّعُ على ذلك تكرّرُ هذا الإنفاقِ في المستقبلِ، أي: ستكونُ لهم شدائدُ من بأسِ المسلمين تضطرُّهم إلى تكريرِ الإنفاقِ على الجيوشِ لدفْعِ قوّةِ المسلمين"[2]. كما أنّ الفاءَ دلّتْ على قُربِ زمانِ الإنفاقِ، فالمرادُ من ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاقُ في غزوةِ بدْرٍ، والمرادُ من ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: بعدَ ذلك في غزوة أُحدٍ، فالمرادُ بيانُ قُربِ زمانِ الإنفاقِ[3]، والضّميرُ المنصوبُ في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ "راجعٌ إلى الأموالِ لا بقيدِ كونِها المُنْفَقَةَ، بلِ الأموالُ الباقيةُ، أو بما يكتسبونَه"[4].

الغرَضُ من تكرارِ فعْلِ الإنفاقِ، في السّياق:

حِرصُ المشركين على إنفاقِ أموالِهم وبذْلِها للصدِّ عن سبيلِ الله

كرّرَ النّظمُ الكريمُ لفظَ (الإنفاق) في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ﴾، ولم يقل: (ينفقون أموالَهم ليصدّوا عن سبيل اللّه ثمّ تكونُ)؛ لأنّ هذا

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/276.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(3) الإيجي، جامع البيان: 2/21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.

التّكرارَ يدلُّ على تأكيدِ حدوثِه، كما أنّ "في تكريرِ الإنفاقِ في الشّرطِ والجزاءِ الدّلالةَ على كمالِ سوءِ الإنفاقِ"[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾، الدّالِّ على الاستقبالِ:

إصرارُ المشركين على الإنفاقِ، تترتّبُ عليه الحسرةُ والهزيمةُ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ أخبرَ عن إنفاقِهم الذي لم يقعْ بعدُ[2] بالفعلِ المضارعِ المقترنِ بحرفِ الاستقبالِ للدّلالةِ على تكرارِ وقوعِ الإنفاقِ منهم وتجدُّدِه، كما دلَّ حرفُ السّينِ على تأكيدِ حدوثِ ذلك وما يعقبُه مِنَ الحسرةِ والخُسرانِ، فهو إخبارٌ بوقوعِ مضمونِ الخبرِ على وجهِ الحتْمِ "أي: بحُكمٍ قاهرٍ لهم، لا يَقدِرون على الانفكاكِ عنه"[3].

براعةُ التّعبيرِ بالضّمائرِ في: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾:

جولةُ الباطلِ ساعةٌ، ثمّ تكونُ الحسرةُ والنّدامةُ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ جاء التّعبيرُ في الجُملتَيْن مُتباينًا، فلم يقلْ: (ثمّ إنّهم سينفقون أموالهم)، كما لم يقل: (فسيتحسّرون)؛ لأنّ التّركيبَ بجمْعِ (الفاءِ، وفعلِ الإنفاقِ، وضميرِ الفاعلِ، وضميرِ الأموالِ) في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ يدلُّ على الإيجازِ، فأخبرَ عن ذلك بطريقةِ العُجالةِ بالتّقليلِ منَ الألفاظِ إشعارًا بأنّ زمانَ الاستعدادِ والانتشاءِ به سريعُ الانقضاءِ، ثمّ لمّا عبّرَ عن ما بعد الإنفاقِ ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ جاء التّركيبُ مُستطيلًا مُشعرًا بطولِ الزّمانِ إيماءً إلى شدّةِ تحسّرِهم، ولم يقل: (فسيتحسّرون).

معنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها هنا:

رُتبةُ الحسرةِ في الألمِ أعلى من رُتبةِ الإنفاقِ

أخبرَ عن مآلِ إنفاقِهم في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ فآثرَ التّعبيرَ بحرفِ العطفِ (ثُمّ) الدّالِّ على التّراخي،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/97.
(2) الإيجي، جامع البيان: 2/21 - 22.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.

فمدلولُها "إمّا التّراخي في الزّمان؛ لما بين الإنفاقِ المذكورِ وبين ظهورِ دولةِ الإسلامِ منَ الامتدادِ، وإمّا التّراخي في الرُّتبة؛ لما بين بذْلِ الأموالِ وعدمِ حُصولِ المقصودِ منَ المباينة"(1)، فمعنى التّراخي الزّمانيِّ أنّ الأموالَ تكونُ حسرةً بعد إنفاقِها بمدّةٍ(2)، وأمّا التّراخي في الرُّتبةِ فمعناه "غايةُ بُعد ما بين غرضِهم في الإنفاق، وبين ما يحصلُ منه، ويقعُ بعدَه"(3)، فما كان في أوهامِهم هو استئصالُ شأفةِ المسلمين، ولكنّ ما نالوه هو الخُسرانُ والخيبةُ، وما أبعدَ ما بين الرُّتبتَيْن!

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الحسرةِ إلى الأموال:

حينما يكونُ إنفاقُ المالِ سببًا للحسرةِ والنّدامةِ

في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ أسندَ الحسرةَ إلى الأموالِ على سبيلِ المجازِ المرسلِ؛ لأنّ العلاقةَ بين الأموالِ والحسرةِ علاقةُ المسبِّبِ والمسبَّبِ، فإنفاقُ الأموالِ هو سببُ الحسرةِ(4)، "أي: أنَّ هذا الإنفاقَ يكونُ عاقبتُه حسرةً؛ لأنَّه يذهبُ المالُ ولا يحصلُ المقصودُ، بل يُغلبون في آخرِ الأمرِ"(5).

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارعيّةِ في: ﴿تَكُونُ﴾:

بيان أنّ الأموالَ حسرةٌ دائمةٌ ومُستمرّةٌ على المدى

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ عبّرَ عن وجودِ الحسرةِ بالفعلِ (يكون) بعد حرفِ العطفِ (ثمّ) للدّلالةِ أنّ كونَ تلك الحسرةِ متجدّدٌ، وليس التّحسّرُ هو المتجدّدُ، فلم يقل: (ثمّ هم يتحسّرون)؛ لأنّ المرادَ ليس تجدّدَ الحسرةِ، بل تجدّدُ وجودِ الحسرةِ، وهذا يدلُّ على أنّ استمرارَهم بالإنفاقِ سيصاحبُه استمرارٌ بوجودِ الحسرةِ وتكوُّنِها.

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/171.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277، والآلوسي، روح المعاني: 5/191.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513، والآلوسي، روح المعاني: 5/191.

غرضُ تقديمِ شبْهِ الجُملةِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ على الخبرِ، فلم يقلْ: (ثم تكونُ حسرة عليهم)؛ للدّلالةِ على اختصاصِ الحسرة بهم، فهي حسرةٌ خاصّةٌ بالمُنفقين، لا على جميعِ الكافرين الذين سيُغلبون، فالحسرةُ كائنةٌ على الوجهِ الأخصِّ على الذين أنفقوا أموالَهم، ويمكنُ أن يكونَ غرضُ التّقديم، لأنّ العنايةَ منصبّةٌ هنا على مآلِهم وما حلَّ بهم.

حسرةُ هؤلاءِ المشركين المنفقين لا تُشبهُ حسرةَ غيرِهم

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ في شبه الجملة: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ بحرف الاستعلاءِ لبيانِ تمكّنِ الحسرةِ منهم، وفي ذلك مبالغةٌ في شدّة النّدَمِ والتّحسّرِ على ما فاتَهم بفقدِ الأموالِ وخُسرانِ القتالِ، فالحسرةُ كائنةٌ لهم كونًا يعلوهم، فاستقرّتْ فوقَهم فهيَ في مكانٍ مكينٍ.

الحسرةُ متمكّنةٌ منهم موجودةٌ وجودًا استقرَّ فوقَهم

بلاغةُ الإخبارِ بالمصدرِ بلفظ ﴿حَسۡرَةٗ﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ أخبرَ عنِ الأموالِ بأنّها حسرةٌ، فجعلَ الأموالَ نفسَها حسرةً، على سبيلِ التّشبيهِ البليغِ، فحذفَ أداةَ التّشبيهِ ووجْهَ الشّبهِ، وإنّما الحسرةُ هو عاقبةُ إنفاقِها وضياعِها بلا تحقيقِ المقصودِ منها، فالإخبارُ "عنها بنفسِ الحسرةِ مبالغةٌ، مثلَ الإخبارِ بالمصادرِ؛ لأنّ الأموالَ سببُ التّحسّرِ لا سببَ الحسرةِ نفسِها"[1].

عندما تُصبحُ الأموالُ المنفَقةُ حَسرةً على أصحابِها

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿حَسۡرَةٗ﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ جاء لفظُ الحسرةِ نكرةً؛ تهويلًا لشأنِ ما نالَهم منَ الحسرةِ والغمِّ، فهو تحسّرٌ كبيرٌ لما فاتَهم من إهدارِ أموالِهم من غيرِ تحقيقِ المقصودِ؛ "لأنَّ أموالَهم تذهبُ ويُغلبون ولا يَظفرون بما يُؤمّلونَ"[2].

أعظمُ الحسْرةِ بذلُ الأموالِ دونَ تحقيقِ المقصودِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341، والزمخشريّ، الكشاف: 2/219، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.

(2) الخازن، لباب التأويل: 2/311.

مآلُ الكفّارِ إلى الخُسرانِ مهما طالَ الزّمنُ

معنى (ثمّ) العاطفة، وأثرها في السّياق:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ آثرَ العطفَ بـ(ثمّ)، وهي مثلُ التي قبلَها تدلُّ في هذا الموضعِ على التّراخي الزّمانيِّ الحقيقيِّ، والتّراخي في الرُّتبةِ[1]، فالتّراخي في الزّمانِ يدلُّ على طولِ الحربِ بينهم وأنّهم سيخسَرون "آخرَ الأمرِ وإن كان الحربُ بينهم سجالًا قبلَ ذلك"[2]، وأمّا التّراخي في الرُّتبة، فهو التّباينُ بين إنفاقِ الأموالِ لغايةٍ ما، وعدمِ حصولِ المقصودِ من ذلك الإنفاقِ، بل تحقّقَ خلافُ ما كانوا يأملون[3]. وهذا إخبارٌ بالغيب، وقد تحقّقَ كما قال، فيكونُ من دلائلِ النّبوّةِ؛ لأنّه أخبرَ عنه قبلَ وقوعِه[4].

لله تعالى جُنودُه التي يُحقّقُ بها قدرَه الغالبَ

سِرُّ بناءِ الفعلِ: ﴿يُغۡلَبُونَۗ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه:

آثرَ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ أن يُعبّرَ بالفعلِ المبنيّ لما لم يُسمَّ فاعلُه "لكونِ فاعلِ الفعلِ معلومًا بالسّياقِ؛ فإنّ أهلَ مكّةَ ما كانوا يقاتلون غيرَ المسلمين"[5]، ويُضافُ إلى ذلك أنّ الغرَضَ من الخبرِ هنا الاهتمامُ بعدمِ تحقُّقِ غايتِهم وأنّهم سيقعُ عليهم الغَلَبُ، لا بالنّظرِ لكونِه من مُعيّن، فليس من مرادِ السّياقِ أن يُخبر عن مَن سيغلبُهم، بلِ الغرضُ هو عدمُ تحقّقِ المقصودِ من ذلك الإنفاقِ، كما أنّ الغَلبَ إنّما يكونُ بإذن اللّه تعالى وتوفيقِه، فالفاعلُ قد يكونُ حقيقيًّا وهو اللّه تعالى، أو مجازيًّا وهو المسلمون، فجاء الفعلُ مبنيًّا لغيرِ الفاعلِ ليشملَ كلا الفاعلَين، كما أنّ فيه إيجازًا في التّعبيرِ.

ضياعُ الأموالِ أخفُّ على النّفسِ من الانهزامِ

سِرُّ تقديمِ الحسرةِ على الغَلَبِ في سياقِ الآية:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ قدّم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/481، والشّوكاني، فتح القدير: 2/350، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/171.

(4) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/644، وابن جزي، التسهيل: 1/326.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341 - 342.

ذكرَ الحسرة وأخّرَ ذكرَ الغَلَب؛ لأنّ الحسرةَ بضياع الأموال أقلُّ شأنًا منَ الانهزام، فقدّمَ وأخّرَ "ارتقاءً في الإنذار بخيبتِهم وخذلانِهم، فإنّهم بعد أنْ لم يحصلوا من إنفاقِهم على طائلٍ توعِّدوا بأنّهم سيغلبُهم المسلمون بعد أن غلبوهم أيضًا يومَ بدْرٍ"(1).

فائدة الخبرِ في السّياق:

جاء الخبرُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ المتضمّنُ إخبارَهم بما سيؤولُ إليه إنفاقُهم إنذارًا لهم "بأنّهم لا يحصلون من إنفاقِهم على طائلٍ فيما أنفقوا لأجلِه؛ لأنّ المنفقَ إنّما يتحسّرُ ويندمُ إذا لم يحْصُل له المقصودُ من إنفاقِه، ومعنى ذلك أنّهم يُنفقون ليغلِبوا فلا يَغْلِبونَ"(2).

الله لطيفٌ بعباده يُنذرُهم بمآلِ أفعالِهم، لعلَّ ذلك يُحدِثُ لهم ذكرًا

وهو خبرٌ عنِ انتفاءِ تحقيقِ أهدافِهم زجرًا لهم عنِ الاستمرارِ في الإنفاقِ، فالمقصودُ "من هذا الكلامِ أنّهم لا يَستفيدون من بذْلِهم أموالَهم في تلك الإنفاقاتِ إلّا الحسرةَ والخيبةَ في الدّنيا، والعذابَ الشّديدَ في الآخرة، وذلك يوجبُ الزّجرَ العظيمَ عن ذلك الإنفاقِ"(3).

دلالةُ العطْفِ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في الآية:

الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ معطوفةٌ على قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ إشراكًا لهم في العاقبةِ، فهم سيُغْلبون جميعًا(4)، فدلّ العطفُ على أنّه حُكمٌ عليهم بالغَلَبِ وبالحشْرِ إلى النّارِ.

حُكمُ الله على المشركين في الدّنيا بالهزيمةِ وفي الآخرةِ بالنّارِ الأليمة

غرَضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ جاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 7/99.

التّعريفُ بالموصولِ يُظهرُ علّةَ الحُكمِ عليهم بالحشْرِ إلى جهنّمَ

المسنَدُ إليه معرَّفًا بالموصوليّةِ للدّلالةِ على ذمِّهم لإصرارِهم على كفرِهم وعنادِهم "أي: استمرّوا على الكفرِ؛ لأنّ مِن هؤلاء الكفّارِ المذكورين سابقًا مَن أسلمَ وحسُن إسلامُه"[1]، كما أنّ التّعبيرَ عنهم بالموصولِ يُظهرُ علّةَ إناطةِ الحُكم بهم بما في حيّزِ صلةِ الموصولِ؛ فإنّما سيقوا إلى جهنّمَ بسببِ كُفرِهم، فهو "إيماءٌ إلى أنّ علّةَ استحقاقِهم الأمريْن في الدّنيا والآخرة، هو وصفُ الكفرِ، فيُعلَمُ أنّ هذا يحصُلُ لِمَن لم يُقلعوا عن هذا الوصْفِ قبل حلولِ الأمريْن بهم"[2].

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، في الآية:

في التّصريحِ بالكفرِ تشنيعٌ عليهم، وإخراجٌ لِمَنْ آمنَ منهم

وضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾، فلم يقل: (وإلى جهنّم يُحشرون)؛ "لأنّه كان فيهم مَن أسلمَ، بل ذكرَ أنّ الذين بقَوا على الكفر يكونون كذلك"[3]، فهو قد خصَّ الكفّارَ منهم؛ لأنّ فيهم من تركَ الكفرَ، فلو عبّر عنهم بالضّميرِ لكان شاملًا لهم جميعًا، والحالُ ليس كذلك، كما أنّه يُفصحُ "عنِ التّشنيع بهم في هذا الإنذارِ حتّى يُعادَ استحضارُ وصْفِهم بالكفر بأصرحِ عبارةٍ"[4].

سرّ التّخصيص بتقديم شبهِ الجُملة: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾:

ليس للمشركين مكانٌ يُحشرون إليه إلّا النّارُ، وبئس القرار

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ للدّلالةِ على تخصيصِ جهةِ مسيرِهم وسَوْقِهم، فهم يُساقون إلى النّارِ لا إلى غيرِها[5]، فليس ثَمَّ مكانٌ يُحشرون إليه غيرُ جهنّمَ، وفي هذا التّخصيصِ تغليظٌ عليهم بقطعِ كلِّ أملٍ بالنّجاة، فحصرَ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والمراغي، تفسير المراغي: 9/205.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، والواحدي، البسيط: 10/144.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.

مصيرَهم بغايةٍ واحدةٍ لا فرارَ منها، وفائدةُ هذا التّقديمِ "دَفعُ وَهْمِ القَرارِ في مَجمعٍ آخرَ"(1).

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿يُحۡشَرُونَ﴾، من حيث المادّةُ اللّغويّةُ والصّيغةُ:

الذُّلُّ والهوانُ في الحشْرِ إلى جهنّم، حيث المصير السّاحق

عبّر النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ عن جمْعِ الكافرين إلى جهنّمَ بالفعلِ ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ إيماءً إلى "كثرة أهلِ جهنّمَ، وإلى أنّهم يكونون في ضيقٍ محشورون"(2)، فدلَّ هذا الفعلُ على أنّهم يُساقون مُكتظّين مُتزاحمين بمشهدٍ مَهينٍ. وجاء التّعبيرُ عن ذلك بالفعلِ المبنيِّ للمفعول؛ لأنّ الأهمَّ هو الحَشْرُ، لا كونُه مِن مُعيّن(3)، والتّعبيرُ بالمضارع لتصويرِ ذلك المشهدِ واستحضارِه في الذّهن، كما أنّه يدلُّ على أنّه حشْرٌ ممتدٌّ طويلُ الزّمن.

معنى اللّامِ في: ﴿لِيَمِيزَ﴾ ودلالتُها هنا:

غايةُ الحشْرِ أن يفصلَ الله بين الطّيّبِ والخبيثِ

اللّامُ في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ دالّةٌ على التّعليلِ، متعلّقةٌ بقولِه: ﴿يُحۡشَرُونَ﴾، والغرضُ من ذلك "بيانُ أنّ مِن حِكمةِ حشْرِهم إلى جهنّمَ أن يتميّزَ الفريقُ الخبيثُ مِنَ النّاس منَ الفريقِ الطّيّبِ في يومِ الحشْرِ؛ لأنّ العلّةَ غيرَ المؤثّرةِ تكونُ متعدّدةً، فتمْييزُ الخبيثِ منَ الطّيّب من جُملة الحِكمِ لحشْرِ الكافرين إلى جهنّمَ"(4).

بلاغةُ القراءاتِ القرآنيّةِ المتواترةِ في: ﴿لِيَمِيزَ﴾:

الفصلُ بين النّاسِ على وفقِ صفاتِهم مُتحقّقٌ ثابتٌ

قُرئَ الفعلُ ﴿لِيَمِيزَ﴾ في روايةِ جمهورِ القرّاء: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، مِنَ الفعلِ (ماز، يميزُ) بمعنى: فرزَ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (ليُميِّزَ) بضمّ الياء والتّشديد، من الفعلِ (ميّز يميِّزُ)، بمعنى: محّصَ الفرزَ، وعليه جاء قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3124.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342، البقاعيّ، نظم الدرر: 8/278.

[الملك: 8]، وكونُ الفعلِ مُسندًا إلى اللّه تعالى في كلتا القراءتَين فإنّهما مُستويتان[1]، غيرَ أنّ هذا الاستواءَ كائنٌ في الإسنادِ، لكنْ في الدّلالة فإنّ القراءةَ بالتّشديدِ تدلُّ على المبالغة[2]؛ لأنّ متعلّقَه كثيرٌ، إذ إنّ هذا التّمييزَ يشملُ كلَّ النّاس يومَ الحسابِ، فالكثرةُ هنا اقتضتِ المبالغةَ.

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في السّياق:

تعظيمُ الشّأنِ بذكرِ ذي الجلالِ، وتربيّةُ المهابةِ في النّفوس

في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أسندَ فعلَ التّمييز إلى لفظِ الجلالةِ، استحضارًا بأنّ الذي سيميّزُهم هو الذي له صفاتُ الكمالِ والجلالِ[3]، فيكونُ تمييزًا على الشّكلِ الأكملِ، فذكرُ لفظِ الجلالة يخلعُ العظمةَ والهيبةَ على مضمون سياقِه، فاللّه ذو الجلالِ هو الذي يميزُ الكافرين، فإنّ الشّأنَ عظيمٌ وإنّه لنبأٌ جليلٌ.

الدّلالاتُ الحقيقيّةُ والمجازيّةُ للفظي ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

تشبيهُ المعنويِّ بالحسّيِّ أبلغُ في الإفهامِ، وأدلُّ على علّةِ التّمييز

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ عبّرَ عنِ المؤمنين والكافرين بصفتَي (الطّيّبِ، والخبيثِ) وهما وصْفان حِسّيّان للأشياء، فأُطلقا في الآية على موصوفٍ معنويٍّ؛ فالخبيثُ هو "الشّيءُ الموصوفُ بالخبثِ والخباثةِ، وحقيقةُ ذلك أنّه حالةٌ حسّيّةٌ لشيءٍ تجعلُه مكروهًا، مثلَ القذرِ، والوسخِ، ويُطلقُ الخُبثُ مجازًا على الحالةِ المعنويّةِ من نحوِ ما ذكرنا تشبيهًا للمعقولِ بالمحسوسِ، وهي استعارةٌ تصريحيّةٌ حُذف فيها المشَبّهان، والمرادُ به هنا خِسّةُ النّفوسِ الصادرةِ عنها مفاسدُ الأعمالِ، والطّيّبُ الموصوفُ بالطّيّب ضدُّ الخبث بإطلاقَيْه؛ فالكفرُ خبثٌ لأنّ أساسَه الاعتقادُ الفاسدُ، فنفسُ صاحبِه تتصوّرُ الأشياءَ على خلافِ حقائقِها فلا جرمَ أن

(1) الفارسي، الحجّة: 3/104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/278.

يأتيَ صاحبُها بالأفعال على خلافِ وجهِها، ثم إنَّ شرائعَ أهلِ الكفرِ تأمرُ بالمفاسدِ والضّلالاتِ وتَصرِفُ عنِ المصالحِ والهدايةِ بسببِ السّلوكِ في طرائقِ الجهلِ وتقليبِ حقائقِ الأمور، وما من ضلالةٍ إلا وهي تُفضي بصاحبِها إلى أُخرى مثلِها، والإيمانُ بخلافِ ذلك"[1].

دلالة (أل) في: ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

الإيمانُ والكفرُ أساسُ التّمايُزِ بين النّاسِ يومَ القيامةِ

عُرِّفَ (الخبيث والطّيّب) في قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ تعريفَ الجنسِ، فالألف واللّام دالّتان على الجنسِ، فالمرادُ منَ الوصفين الجنسُ في الخبيث والطّيب[2]، "والمعنى: ليميزَ اللّه الفريقَ الخبيثَ منَ الكُفّارِ منَ الفريقِ الطَّيّبِ منَ المؤمنين، فيجعلَ الفريقَ الخبيثَ بعضَه على بعضٍ"[3]، فليس المرادُ أن يفصلَ اللّه تعالى بين فردَيْن أحدُهما متّصفٌ بكونِه خبيثًا والآخرُ متّصفٌ بكونِه طيّبًا، بلِ الفصلُ بين كلِّ النّاسِ على وفْقِ صفتَيِ الطّيبِ والخبثِ الدّالّتين مجازًا على المؤمنين والكافرين.

بلاغةُ طباقِ الإيجابِ بين: ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

الجمعُ بين المتضادَّين يدلُّ على معيارِ التّمييزِ

في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ طباقُ إيجابٍ؛ إذ جمعَ بين لفظين متضادّين مُثبتَين ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾، وأفادَ الطّباقُ هنا تنبيهَ السّامعِ إلى ما بين طرفَيِ الطّباقِ من فرقٍ؛ فهو يشيرُ إلى أنّ التّمييزَ كائنٌ بين الفريقين لِما بينهما من تضادٍّ في اتّصافِهما بالطّيب والخُبث؛ إذ بضدِّها تتمايزُ الأشياءُ، كما أفادَ جمعُ الصّفتين معًا التّنبيهَ على أنّ المرادَ بهما المدحُ والذّمُّ، فلو قال: (ليميز الكافرين من المؤمنين) لما أفادَ وصفَ المدحَ والذّمِّ الذي أفادتْه الصّفتانِ المذكورتانِ معًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/78.

فصلُ الضّدّ عن ضدّه، لينتظم المعنى، وترسى الدّلالة

معنى الحرف (من) في شبه الجملة: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾:

(مِن) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ للفصلِ والتّمييزِ؛ لأنّها داخلةٌ بين متضادَّين، وهي كما في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: 179]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: 220]، وهو معنى أثبتَه لها ابنُ مالك: "وأشرتُ بذكرِ الفَصْلِ إلى دخولِها على ثاني المتضادَّين"[1]. وقد خرّجهُ ابنُ هشام على معنى الابتداءِ أو أنّه بمعنى (عن) للتّجاوزِ، وقالَ في نقْدِ قولِ ابنِ مالك: "وَفيه نظرٌ؛ لِأنّ الفَصْلَ مُسْتَفادٌ منَ العاملِ فإنّ (ماز وميز) بمَعْنى فصلَ، والعلمُ صفةٌ توجبُ التَّمْييزَ، والظّاهِرُ أنّ (مِن) في الآيتين للابتداءِ أو بمَعْنى (عَن)"[2]. وقدِ استحسن معنَى الفصلِ العلّامةُ ابنُ عاشور: "وهو معنى رشيقٌ لا غنى عن إثباته، وهو معنًى متوسّطٌ بين معنى مِن الابتداء ومعنى البدليّة حين لا يصلحُ متعلّقُ المجرورِ لمعنى الابتدائيةِ المحضِ، ولا لمعنى البدليّةِ المحضِ فحدَثَ معنًى وسطٌ"[3].

ما كان ألصقَ بالسّياقِ كان أحقَّ بالتّقديمِ

نكتةُ تقديمِ الخبيثِ على الطّيّبِ في الذّكرِ:

قدّمَ صفةَ الخبيثِ على الطّيّب في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾؛ لأنّ السّياقَ في الحديثِ عنِ الكافرين وحشْرِهم إلى النّار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، فإنّ الكافرين هم المقصودون بالتّمييزِ والفصلِ عنِ المؤمنين، نكايةً بهم.

لا يليقُ الخبيثُ إلا بالخبيثِ مثْلِه

فائدةُ عطْفِ جملة ﴿وَيَجۡعَلَ﴾ على ما تقدَّمَها:

عطفَ قولَه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ بالواو إشراكًا للجعْلِ

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/137.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 424 - 425.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/358.

بكونِه غايةً ثانيةً للحشْرِ إلى جهنّم، فجعلُ "الخبيثِ بعضِه على بعض علّةٌ أخرى لحشْرِ الكافرين إلى جهنّم، ولذلك عطفَ بالواو، فالمقصودُ جمعُ الخبيث وإن اختلفت أصنافُه في مجمعٍ واحد، لزيادة تمييزِه عنِ الطّيّب"(1).

نُكتةُ تكرارِ الخبيث في: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ﴾:

تأكيدُ صفةِ الخبثِ بتكرارِها

في قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ تكرّرَ لفظُ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ لبيان المقصودِ بالجعْلِ، وفيه تصريحٌ بعلّةِ ذلك الجعْلِ على تلك الهيئةِ، فلكونِه خبُثَ وفقدَ أيَّ اعتبارٍ للتّكريم، فآلَ به أن يكون مركومًا بعضَه على بعض.

موقعُ عبارة ﴿بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ ودلالتُه:

تنوّعُ الموقعِ ثراءٌ للمعنى

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يُعربُ قولُه: ﴿بَعۡضَهُۥ﴾ بدلًا منَ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾، بدلَ بعضٍ من كلٍّ، وقولُه: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ في موضعِ المفعولِ الثّاني(2)، ويجوزُ في قولِه: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أن يكونَ في موضع الحالِ، والتّقديرُ: ويجعلُ الخبيثَ بعضَه عاليًا على بعضٍ، أي: بعضَه فوق بعضٍ(3). "وفي جمْعِه بهذه الكيفيّةِ تذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يجعلُ بعضَهم على بعضٍ حتّى يصيروا رُكامًا"(4)، وهذا التّركيبُ يفيدُ أنّ الفعلَ متشاركٌ بين الأبعاضِ؛ فإنّ بعضَهم كائنٌ فوقَ بعضِهم الآخرِ، كما أنّ بعضَهم تحت بعضٍ في الوقتِ ذاتِه، فهو للدّلالةِ على التّشاركِ في الفعلِ والتّشاركِ في الفوقيةِ والتّحتيةِ في الوقتِ ذاتِه.

معنَى الفاءِ في: ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ﴾:

تأكيدُ هلاكِ الخبيثِ قانون إلهيّ للهلاك والعقاب

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾(5)، وهو "عطفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514، والعليمي، فتح الرحمن: 3/113.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(5) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

تفسيرٍ يؤكّدُ الذي قبْلَه في إرادةِ الحقيقةِ مع إفهامِ شدّةِ الاتّصال حتّى يصيرَ الكلُّ كالشّيءِ الواحدِ، كالسّحابِ المركوم"[1]، فعطفُ الرّكم على جعْلِ الخبيثِ بعضَه فوق بعضٍ يدلُّ على أنّه جعلَ كذلك على وجهِ الحقيقةِ، ويشيرُ إلى أنّ كونَ بعضِه على بعض كائنٌ على طريقةِ التّراكمِ الدّالّةِ على الإهمالِ وقلّةِ المبالاة بهذا المركوم؛ إذ إنّه رُكِمَ لأنّه خِلوٌ من قيم الاعتبارِ.

سِرُّ إفرادِ الضّميرِ في لفظ ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾:

المركوم هو الخبثُ كلّه

الضّمائرُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ﴾ عائدةٌ على الخبيثِ، وجاء الضّميرُ بالإفراد مع أنّه أريدَ بالخبيثِ الكافرون اعتبارًا بلفظِه، فالمركوم هو الخبيثُ كلُّه.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل: (يَرْكُمَهُ) مُضارِعًا:

امتهانُ الخبثِ وازدراؤه، ممّا يؤكّد مفسدته وهوانه

في قولِه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ﴾ عبّرَ عن جمعِ الخبيثِ في جهنّمَ على وجهِ التّراكمِ بيانًا لشدّةِ التّزاحُم بحيث إنّه كائنٌ كالشّيءِ المتراصِّ المتلاصقِ امتهانًا له وازدراءً به. ويدلُّ الفعلُ المضارعُ على استمرارِ الفعلِ مُشعرًا بطولِ المدّةِ الزّمانيّةِ تعبيرًا عن كثرةِ ذلك الخبيثِ، كما أنّه يستحضرُ ذلك التّراكمَ باستجلابِ صورتِه بالفعلِ المضارعِ، فهو مشهدٌ تصويريٌّ لركْمِ ذلك الخبيثِ المستمرِّ.

بلاغة جملة ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾، بين الحقيقةِ والمجازِ:

تجسيدُ الخبثِ مَدعاةٌ للنّفورِ منه، والانْصرافِ عنه

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ﴾ عبّرَ عن جمعِهم بالتّراكمِ تعبيرًا عن فرطِ ازدحامِهم، فهو جمعٌ وضمٌّ حتّى يتراكمَ بعضُه فوقَ بعضٍ[2]؛ فالخبيثُ أمرٌ معنويٌّ لا يُتصوّر فيه التّراكمُ، فهو استعارةٌ في تشبيهِ جمْعِ الخبيثِ كأنّه شيءٌ من شأنِه

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482.

أن يتراكمَ إذ "جعلَ الكفّارَ في الانضمامِ والازدحامِ، والاجتماعِ في النّارِ شيئًا مركومًا، كحطبٍ مرتكبٍ بعضُه على بعض، مجموعٍ ملقىً في جهنّمَ مبالغةً"[1].

نُكتةُ التّوكيدِ بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾:

الحكمُ شاملٌ لكلِ فردٍ من أفرادِ الخبيث

في قولِه ﷻ: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ يجوزُ في قولِه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أن يكونَ حالًا، ويجوزُ أن يكونَ توكيدًا[2]، فالحالُ باعتبار أنّه بيانٌ لكيفيةِ التّراكُم، بمعنى إنّه يتراكمُ في حالةِ كونِ المركومِ جميعَ الخبيثِ، والتّأكيدُ لنفْيِ احتمالِ عدمِ شمولِ جميعِ الخبيثِ بالتّراكُم، فلمّا قال ﴿جَمِيعًا﴾ دلَّ على أنّ الحُكمَ شاملٌ لكلِّ فردٍ من أفرادِ الخبيثِ.

معنى حَرفِ الفاءِ في لفظ: ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾ ودلالتُه:

سرعةُ الحشرِ إلى جهنّمَ، وصف للمصير، عند العادل القدير

في قولِه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عطفَ الفعلَ (يركمُه) على الفعلِ (يجعلُ) بحرف العطفِ الفاءِ للدّلالةِ على سُرعةِ الرّكم؛ إذ إنّه لا يلبثُ أن يكونَ مركومًا بعد الجمْعِ، وأنّ الرّكْمَ مسبّبٌ عن ذلك الجعْلِ ومترتّبٌ عليه. وكلُّ ذلك يشيرُ إلى سرعة حشْرِهم إلى جهنّم بحيثُ إنّهم لا يُؤخَّرون عنها بشيءٍ ولا يفصلُ بينهم وبين الدّخولِ فيها على وجه التّراكمِ حائلٌ.

دلالةُ لفظ (الجعْلِ) في جهنّمَ:

التّعجيلُ بعذابِ الكفّارِ وإدخالِهم النّارَ جزاءً وِفاقًا

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عبّرَ عن مُكثِهم ودخولِهم النّار بقولِه: ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾، ولم يقل: (فيدخلَه جهنّم) لأنّه حَكمَ عليهم بذلك فالجعلُ بمعنى الحُكم بالشّيءِ على الشّيءِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

[القصص: 7](1)، فتراكمُ الخبيثِ في النّار إنّما كان بحُكم الله تعالى، وفي ذلك تأكيدٌ على لُبثِهم فيها، فكأنّ الخبيثَ يومَ القيامةِ يُجعلُ في النّار جعلًا، بيانًا لسرعةِ إدخالِهم وإنجازِ العذاب لهم، كما أشارت الفاءُ العاطفةُ إلى تلك السّرعةِ.

دخـولُ هـؤلاء المحكـومين إلى الـنّـارِ هو الخُسرانُ المبينُ

دلالةُ الختْمِ بالجملةِ الاستئنافيةِ في الآية:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، الجملةُ فيها استئنافيّةٌ بيانيّةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ عن حالِهم، لبيانِ أنّ الذين حَكمَ عليهم بأن يُحشروا إلى النّارِ على الوجه الموصوفِ بالتّراكم بعضِهم فوق بعض مزدحمين مُهانين في غايةِ الخُسران، فلمّا كان ذلك في غايةِ الخسرانِ استأنفَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ جامعًا تصريحًا بالعمومِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾(2).

لـيـس بـعـد خَسارةِ الجنّة ورِضْوانِ الله تعالى خسارةٌ

الغرَضُ من أسلوبِ القصْرِ، في فاصلةِ الآية:

في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قصْرٌ طريقُه تعريفُ الطّرفين، وأكّدَ بضمير الفصْلِ للمبالغةِ في خُسرانِهم، فلا خُسرانَ موجودٌ غيرُ خُسرانِهم، فهمُ "الكاملون في الخُسران لأنّهم خسِروا أنفسَهم وأموالَهم"(3)، وهو قصْرٌ إضافيٌّ ادّعائيٌّ، فهو مبالغةٌ في اتّصافِهم بالخُسران(4)، وإنّما حصرَهم بالخسران؛ لأنّهم اشترَوْا بأموالِهم النّارَ والهلاكَ(5)، وهو قصْرُ موصوفٍ على صفةٍ.

اسمُ الإشارةِ يُحيلُ إلى الصّفاتِ الّتي هي علّةُ إسنادِ الخُسران إليهم

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ، والجمْعِ:

في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ عبّرَ عنهم باسمِ الإشارة دونَ الضّمير، فلم يقل: (هم الخاسرون، أو: إنّهم هم الخاسرون)؛

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/79، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.

فآثرَ اسمَ الإشارة "للتّنبيه على أنّ استحقاقَهم الخبرَ الواقعَ عن اسمِ الإشارةِ كان بسببِ الصّفاتِ التي ذُكرت قبلَ اسمِ الإشارةِ، فإنّ مَن كانت تلك حالَه كان حقيقًا بأنّه قد خَسِرَ أعظمَ الخُسرانِ؛ لأنّه خَسِر منافعَ الدّنيا ومنافعَ الآخرة"(1)، فاسمُ الإشارة يحيلُ إلى الصّفاتِ المذكورةِ آنفًا، فيتضمّنُ علّةَ إسنادِ الخُسرانِ إليهم، وقد جاء اسمُ الإشارةِ بصيغةِ البُعدِ، إذ إنّ "ما فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ ببُعدِ درجتِهم في الخُبثِ"(2)، فلمّا كان الخُسرانُ مُنحصرًا بهم على وجه المبالغةِ، فكان اسمُ الإشارةِ الدّالُّ على البُعدِ يشيرُ إلى أنّهم بلغوا النّهايةَ في الخبثِ، كما جاء التّعبيرُ عنِ (الخبيث والطّيب) باسمِ الإشارةِ بصيغةِ الجمعِ، ولم يقل: (ذلك)؛ لأنّه أحالَ الكلامَ على قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾، وفيه تصريحٌ بأنّ ذلك الحكمَ عامٌّ للأفرادِ المتّصفين بذلك، ولو قال: (ذلك هو الخسران المبين) لم يكن في ذلك تصريحٌ بشمولِ الأفرادِ بهذا الحُكمِ، فجاء اسمُ الإشارة جمعًا إشارةً للأفرادِ.

معنَى (ال) في لفظ: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ ودلالتُه:

في قوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أدخلَ الألفَ واللّام الدالّةَ على تعريفِ الجنسِ في قولِه: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تحقيقًا للقصْرِ، فجنسُ الخاسرين مُنحصرٌ بهم، فهم "الكاملون في الخُسرانِ؛ لأنّهم خسروا أنفسَهم وأموالَهم"(3)، فلا خاسرَ غيرُهم.

أخسرُ الخاسِرين مَن خَسِرَ نفسَه ومالَه، وانتهَى أمرُه إلى الجحيمِ في مآله

الفروقُ المُعجَميَّة:

الرَّكْمُ والجمْعُ والقَرْءُ:

الجَمْعُ: ضمُّ الشّيءِ بتقريب بعضِه من بعض، يقال: جَمَعْتُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/59.

الجمعُ عامّ، والرّكمُ جمعٌ بإلقاءِ شيءٍ فوق شيءٍ، والقرءُ جمعٌ باحتواءٍ

فاجْتَمَعَ[1]، فهو جمعٌ عامٌّ مطلقٌ. أمّا الرّكم والقَرءُ: فهما أخصُّ من الجمْع، فيدلّان على جمعٍ بكيفيّة ما؛ أمّا القَرء: فهو من (قَرِيَ) أَصْلٌ يَدُلُّ على جُمَعٍ واجْتِماعٍ. مِن ذلك القَرْيَةُ، سُمّيَتْ قَرْيَةً لاجْتِماعِ النّاسِ فيها. ومنه القرآنُ، كَأَنَّهُ سُمّيَ بذلك لِجَمْعِه ما فيهِ مِنَ الأَحْكامِ والقِصَصِ وغَيْرِ ذلك. وأَقْرَأَتِ المَرْأَةُ كَأَنَّها قد جَمعَتْ دَمَها في جَوْفِها فلَم تُرْخِه. فهو تجمُّعُ ما شأنُه الحركةُ بكثافةٍ في حَيّزٍ محدّدٍ، كتجمّع الماءِ في مجتمَعِه، والنّاسِ والنّملِ في القاريةِ والقَرْيةِ[2].

الرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ [النور: 43]، وهو جَمْعُكَ شَيْئًا فوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعلَه رُكامًا كالرَّمْلِ والسَّحابِ ونَحْوِ ذلك. وهو إلقاءُ بَعْضِ الشَّيْءِ على بَعْضٍ وتَنْضيدُه[3]، فالرّكم جمعٌ بتراكمٍ فوقيٍّ، والقَرءُ جمعٌ خاصٌّ كذلك، ولكنّه جمعٌ باحتواءٍ.

وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾ جاء في سياقِ تقريعِ الكافرين بخُسرانِهم في الدّنيا والآخرةِ، وأنّه سيجمعُهم في النّار يومَ القيامة، ولكنّه جمعٌ بطريقةٍ مهينةٍ كالشّيءِ الذي يُلقَى بعضُه فوق بعض، فانتزع عنهم صفةَ التّكريم بإنسانيّتِهم ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الإسراء: 70] فجعلَهم أشياءَ لا قيمةَ لها. وهذا المعنَى يتحقّقُ بالرّكمِ، لا بالجمعِ، لذا آثرَ التّعبيرَ بالرّكمِ.

الحشر والجمْع:

"الحشْرُ: هو الجمعُ مع السّوْقِ، والشّاهدُ قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ

(1) الرّاغب، المفردات: (جمع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قري).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركم).

الحشرُ أخصُّ مِنَ الجمعِ؛ فهو جمعٌ مع سَوْقٍ

﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36]، أي: ابعثْ من يجمعُ السّحرةَ ويسوقُهم إليك، ومنه يومُ الحشْرِ؛ لأنّ الخلقَ يُجمعون فيه ويُساقون إلى الموقفِ"[1]. وفي هذه الآيةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ عبّرَ بالحشرِ دون الجمعِ؛ لأنّه في مقامِ التّهكّمِ، فالحشرُ أظهرُ للنّكايةِ بهم، ودخولُهم النّارَ إنّما يكونُ بصورةِ مُدانين يُساقون إلى سوءِ مصيرِهم بما اقترفت أيديهم، لذا اصطفاه النّظمُ الكريمُ هنا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيّن السّياق ضلال المشركين، أعقبَه بإرشادِهم إلى الغفران، تفاديا لمصير الهالكين

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقةِ "ضلالَهم في عبادتِهم البدنيّةِ والماليّةِ، وكان في كثيرٍ منَ العباراتِ السّالفةِ القطعُ للذين كفروا بلفظِ الماضي بالشّقاءِ، كان ذلك موهِمًا لأنْ يُرادَ مَن أوقعَ الكفرَ في الزّمن الماضي وإنْ تابَ، فيكونُ مُؤيَّسًا منَ التّوبة فيكونُ موجبًا للثّباتِ على الكفرِ"[1]، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلَفَ﴾: (سلف) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ، السَّلَفُ: المتقدِّم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: 56]، أي: مُعتبَرًا متقدّمًا، وقال تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275]، أي: يُتجافى عمّا تقدّمَ مِن ذنْبه، والسَّلَفُ أيضًا كلُّ عملٍ قدَّمه العبدُ[2]، وقولُه تعالى: ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ "يعني ما قد مضى مِن كُفرِهم وذنوبِهم قبل الإسلام"[3].

2) ﴿سُنَّتُ﴾: (سنّ وسنن) أصلٌ وهو جريانُ الشّيءِ واطّرادُه في سهولةٍ، والأصلُ قولُهم: سنَنْتُ الماءَ على وجهي أَسُنُّهُ سَنًّا، إذا أرسلتَه إرسالًا. ثمّ اشتُقّ منه السُّنّةُ، وهي السّيرةُ؛ وإنّما سُمّيت بذلك لأنّها تجري جريًا، ومن ذلك قولهم: امضِ على سَنَنِك وسُنَنِك، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سلف).

(3) الخازن، لباب التأويل: 2/312.

وجهك، فالسُّنَنُ: جمع سُنَّةٍ، وسُنَّةُ الوجه: طريقتُه، وسُنَّةُ النّبيّ ﷺ طريقتُه التي كان يتحرّاها، وسُنَّةُ اللّه تعالى قد تقال لطريقة حِكمتِه، وطريقةِ طاعته، نحوَ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ [الفتح: 23](1).

3) ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: (أول وآل) أَصْلٌ وهو ابْتِداءُ الأمْرِ، فالأوّلُ مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، وهو أفعلُ التّفضيلِ بمعنى نقيضِ الآخِر، وهو الذي يترتّب عليه غيرُه، ويكونُ بمعنى أسبقَ، ويُستعملُ بمعنى المتقدّمِ بالزّمان كقولك: عبد الملك أوّلًا ثُمّ المنصور(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

ترغيبٌ بالتّوبة والاستغفار، ووعيدٌ على الإصرارِ، كما مضت سنّة هلاك الكفّار

يُخبرُ اللّه تعالى عن رحمتِه بالكفّارِ المعاندين فيتلطّفُ بهم بأن يفتحَ لهم بابَ التّوبةِ، ومعنَى الآيةِ " إنّ هؤلاء الكفّارَ إنِ انتهوا عن الكفرِ، ودخلوا في دينِ الإسلام والتزموا شرائعَه غفرَ اللّه لهم ما قد سلفَ من كفرهم وشِركِهم، وإن عادوا إلى الكفرِ، وأصرّوا عليه، فقد مضت سنّةُ الأوّلين بإهلاكِ أعدائِه، ونصرِ أنبيائِه وأوليائِه، وأجمعَ العلماءُ على أنّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبلَه، وإذا أسلمَ الكافرُ لم يلزمْه شيءٌ من قضاءِ العباداتِ البدنيّةِ والماليّةِ، وهو ساعةَ إسلامِه كيومِ ولدتْه أمُّه، يعني بذلك أنّه ليس عليه ذنبٌ"(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا سبقَها:

بابُ التّوبةِ مفتوحٌ ما لم يُغَرْغِرِ العبدُ

في قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يصحُّ أن يكونَ فَصلَ لكمالِ الانقطاعِ؛ إذِ الكلامُ السّابقُ إخبارٌ وهذا أمرٌ. ويصحُّ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ "لأنّ ما تقدّمَ بين يديه منَ الوعيدِ وقلّةِ الاكتراث بشأنِهم، وذكرِ خيبةِ مساعيهم، ممّا يثيرُ في أنفُسِ بعضِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سنّ/سنن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، السمين عمدة الحفاظ: (أوَل/آل).
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/312.

والسّامِعين أن يتساءلوا عمّا إذا بقيَ لهم مخلصٌ يُنْجيهم من ورطتِهمُ التي ارتبقوا (أي: وضعوا أنفسَهم في ربقةٍ كأنَهم قُيّدوا من أعناقهم) فيها، فأُمرَ الرّسولُ بأن يقولَ لهم هذا المقالَ ليُريَهم أنّ بابَ التّوبةِ مفتوحٌ، والإقلاعَ في مُكْنتِهم"[1].

الغَرَضُ منَ التّعبيرِ بالأمرِ بـ﴿قُل﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ افتتحَ الآيَةَ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾، فآثرَ إخبارَهم بهذا الأسلوبِ دون أن يقولَ: (إنّ الذين كفروا إن ينتهوا) اهتمامًا بالمقول، وإلطافًا بالمقولِ له، كما أنّ فيه بيانًا لمكانةِ النّبيّ ﷺ بالتّأكيدِ على كونِه ﷺ وسيطًا بين اللّه تعالى وبينَهم في أمرِ التّوبةِ وعتقِهم من ذنوبهم، ويضافُ إلى ذلك أنّ ما يُبدأُ به بفعلِ الأمرِ (قلْ) يدلُّ على الاهتمامِ بمضمونِه؛ إذ إنّه سيتكرّرُ ذكرُه مرّتين؛ مرّةً بتلاوةِ الآيةِ كما نزلت مُصدّرةً بفعْلِ القولِ، ومرّةً بامتثال النّبيّ ﷺ لهذا الأمرِ فيَشرعُ بخطابِ الكافرين قائلًا لهم مضمونَ هذا المقولِ، وعندها يسمعُ الكافرون هذا الخطابَ مرّتين، مرّةً منَ اللّه تعالى، ومرّةً منَ النّبيّ ﷺ فينتبِهون إلى الاهتمامِ بهم منَ اللّه تعالى.

افتتاحُ الخطابِ بفعْلِ القولِ يُنبّهُ على أهميّةِ المقالِ

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ الكافرين بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ عنِ الكافرين بالاسمِ الموصولِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾؛ لأنّهم قومٌ مقصودون بأعيانِهم، فيدلُّ على العهدِ، أي: المعهودين وهم أبو سفيانَ وأصحابُه[2]، فذكْرُهم بالاسمِ الموصولِ ذمٌّ لهم، ويجوزُ أن يُرادَ به كلُّ مَن تحقّقَ به مضمونُ الصّلةِ، فتكونَ شاملةً لكلِّ

كلّ كافر ينتهي عن كفره المنحرف، يغفر له ما قد سلف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/192.

الكافرين، والتّعريفُ فيه للجنس، ويدخلُ هؤلاء دخولًا أوليًّا[1]؛ لأنّ المغفرةَ بحالِ الانتهاء عنِ الكفرِ لا تتعلّقُ بالمذكورين دون غيرِهم، فكلُّ كافرٍ إنِ انتهى عن كفرِه، فإنّ اللّه تعالى يغفرُ له.

معنَى اللّامِ في: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ في الآية:

وجوب إيصال مقول القول إليهم، لأنّه حكم لأجلهم

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ تعلّقَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِّلَّذِينَ﴾ بفعلِ القولِ، وذكرَ أئمّةُ التّفسيرِ أنّ اللّام هنا تدلُّ على معنيَيْن: "الأول: أنّها للتّبليغ، أُمرَ أن يُبلِّغَهُم معنى هذه الجملةِ المحكيّةِ بالقولِ، وسواءً أوردها بهذا اللّفظ أم بلفظٍ آخرَ مُؤدٍّ لمعناها. والثّاني: أنّها للتّعليل"[2]، فالتّعليلُ بمعنى: قلْ لأجلِهم هذا القولَ، والتّبليغُ لتأكيدِ إيصالِ القولِ إليهم، كما أنّ فيه دلالةً على تخصيصِهم بهذا المقولِ.

نُكتةُ إسنادِ القولِ للغائبين:

إجراء القول بمعناه لا بلفظِه من الإفصاح المبين

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ جرى ذكْرُ خطابِ الكافرين بصيغةِ الغائبِ، فلم يقل: (إن تنتهوا)؛ لأنّه أرادَ أن يُبلّغَهم بمضمونِ القولِ بالمعنى دونَ اللّفظِ، فهو "أمرٌ منَ اللّه ﷻ لنبيّه ﷺ أن يقولَ للكفّارِ هذا المعنى الذي تضمّنتْه ألفاظُ قولِه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾، وسواءٌ قالَه النّبيّ ﷺ في هذه العبارةِ أو غيرِها، ولو كان الكلامُ كما ذكرَ الكسائيُّ أنّه في مصحفِ ابنِ مسعود: (قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم) لما تأدّتِ الرّسالةُ إلّا بتلك الألفاظِ بعيْنِها"[3].

وفي ذلك بيانٌ لعُلُوِّ مكانته ﷺ؛ فإنّ الخطابَ يتضمّنُ "تنبيهًا على أنّه ليس حظُّه مجرّدَ تبليغِ مقالةٍ، فجعلَ حظَّه حظَّ المخبرِ

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 5/292.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/514، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/192.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والواحدي، البسيط: 10/149.

بالقضيّة، الذي يُرادُ تقرّرُها لديه قبل تبليغِها، وهو إذا بلّغ إليهم يُبلّغُ إليهم ما أُعلمَ به وبُلِّغ إليه، فيكونُ مُخبرًا بخبرٍ، وليس مجرَّدَ حاملٍ لرسالةٍ"[1].

دلالة وضْعِ الظّاهرِ موضعَ المضمَرِ، في السّياق:

صِلةُ الموصولِ تُبيّنُ علّةَ المقولِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ وضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ، فاستعملَ الاسمَ الموصولَ بدلًا عنِ الضّميرِ، فلم يقل: (قل لهم)؛ للدّلالةِ على أنّ مقولَ القوْلِ إنّما جاء لكونِهم اتّصفوا بالكفرِ، فهو خاصٌّ بهم، وفيه دلالةٌ على أنّهم استمرّوا بالكفرِ، وإمّا أن يُرادَ به العهدُ، وهم كفّارُ مكّةَ، أو أن يُرادَ به العمومُ، فهو شاملٌ لكلِّ كافرٍ في كلِّ وقتٍ؛ ترغيبًا لهم في الدّخولِ في الإيمان وحثًّا عليه[2].

التّعبيرُ بـ(إنْ) ودلالتُه:

لا أمـلَ محقّقٌ في رجوعِ هؤلاءِ الكافرين عن كُفرِهم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ دون (إذا) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾؛ لِما بينهما من فرقٍ؛ فمدخولُ (إذا) محقّقُ الوقوعِ، وأنّه متيقَّنٌ، ووقوعُه كثيرٌ، بخلافِ (إن) فمدخولُها مشكوكٌ في وقوعِه، أو يُرادُ له أن يكونَ نادرَ الوقوعِ، فالكافرون أصرّوا على كفرِهم حتّى دخلوا الحروبَ، فانتهاؤُهم غيرُ محقّقِ الوقوعِ في القريبِ.

فائدةُ الجملةِ الشَّرطيّةِ:

ليس بين الكفّارِ ومَغفرةِ الله إلّا رجوعُهم عنِ الكفر

صاغَ النّظمُ الكريمُ الوعدَ بمغفرتِه تعالى بصيغةِ الشّرطِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ فعلّق مغفرتَه بانتهائِهم عنِ الكفرِ، وكأنّه عقدٌ، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِ المغفرةِ حالَ وقوعِ الانتهاءِ، إشارةً إلى سَعة مغفرتِه وسرعةِ إيفائِه بما وعدَ ﷻ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/100.

غرَضُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَنتَهُواْ﴾ و﴿يُغۡفَرۡ﴾:

دوامُ المغفرة مرهونٌ بحصولِ التّوبةِ ودوامِها

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ جاء التّعبيرُ عن فعلِ الشّرطِ وجوابه بالفعلِ المضارعِ "أي يتجدّدُ لهم وقتًا ما الانتهاءُ عن مُغالبتِهم بالانتهاءِ عن كفرِهم، فيذلّوا للّه ويخضعوا لأوامرِه"[1]؛ كما أنّ الخطابَ جاء للجميعِ، ولا يُتصوّرُ أن ينتهيَ الجميعُ عن كفرهم دفعةً واحدةً، بل سيكونُ انتهاءً ممتدًّا يستغرقُ زمانًا طويلًا، فعبّرَ بالفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدّدِ والاستمرارِ، كما أنّ الانتهاءَ للفردِ الواحدِ يتطلّبُ وقتًا لِما يجري في فكرِه من تأمّلٍ ومراجعةٍ، فالانتهاءُ لا يقعُ إلّا بمغالبةٍ وتدرّجٍ، كما أنّ الفعلَ المضارعَ المعبّرَ عنِ الانتهاءِ في سياقِ التّوبةِ والمغفرةِ يُشعرُ بشرطِ المداومةِ على الانتهاءِ والثّباتِ عليه، ويقابلُ ذلك كلَّه تجديدُ مغفرتِه تعالى لتجديدِهم الانتهاءَ.

سِرُّ إطلاقِ الانتهاءِ ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾، في السّياق:

لا يُعتبرُ الانتهاءُ إلّا بتحقيقِ الإيمانِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ﴾، جاء فيه الانتهاءُ غيرَ مُبيّنٍ عن أيِّ شيءٍ، فهو انتهاءٌ مطلقٌ، والمرادُ به الكفرُ "والحاملُ على ذلك جوابُ الشّرطِ بـ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾، ومغفرةُ ما قد سلفَ لا تكونُ إلّا لِمُنْتَهٍ عنِ الكفرِ"[2]، وقد يشملُ الانتهاءُ عن كلِّ ما كانوا يفعلون منَ القتالِ والإنفاقِ ومعاداةِ النّبيِّ ﷺ، وذلك لا يصدقُ إلّا بالإيمانِ ودخولِ الإسلامِ[3].

نُكتةُ إسنادِ المغفرةِ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

المعلومُ بالضّرورةِ غيرُ مَحوجٍ للتّعبيرِ

عبّرَ في قولِه تعالى: ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ عنِ المغفرةِ بالفعلِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ؛ اهتمامًا بالغايةِ المرجوّةِ، وهي المغفرةُ الموضوعةُ إزاءَ الانتهاءِ، فهي مقصودةٌ لذاتِها لا بكونِها من مُعيّنٍ؛ "لأنّ النّافعَ نفسُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.

الغفرانِ، وهو مَحْوُ الذّنبِ"[1]، كما أنّ في ذلك منَ الإيجازِ ما لا يخفَى؛ إذ منَ المعلوم بالضّرورةِ أن من يغفرُ الذّنوبَ إنّما هو اللّه تعالى.

معنَى اللّامِ في (لهم) ودلالتُها:

الإيــفــاءُ بالشّرطِ يمنحُ الاستحقاقَ

في قولِه ﷻ: ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ اللّام لامُ الاستحقاق، فلمّا وضعَ المغفرةَ في أحدِ طرفَي العَقدِ بينَه تعالى وبينَهم إذا حقّقوا الانتهاءَ، فعبّرَ باللّامِ عنِ استحقاقِهم المغفرةَ، ولم يقل: (تُغفر ذنوبهم) تأكيدًا على استحقاقِهم المغفرةَ حالَ إيفائِهم بالشّرطِ، وفيه طمأنةٌ لهم وحثٌّ على الانتهاءِ.

غرَضُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ: ﴿لَهُم﴾ على نائبِ الفاعلِ:

في التّقديمِ إشارةٌ إلى مَزيدِ العنايةِ والاهتمامِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ قدّمَ شبْهَ الجُملةِ على نائبِ الفاعلِ الأجدرِ بالتّقديم، فلم يقل: (يُغفر ما قد سلف لهم)؛ اهتمامًا بهم؛ لأنّ سياقَ الحديثِ في الإلطافِ بهم ودعوتِهم إلى التّوبةِ، فقدّمَ ذكرَهم تعجيلًا بإنجازِ المغفرةِ لهم؛ لأنّ الأهمَّ هنا تحقّقُ المغفرةِ لهم قبل بيانِ ماسيُغْفَرُ.

معنى (ما) في: ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ في الآية:

أثرُ عمومِ المغفرةِ في تحقيقِ عُمومِ التّوبةِ منَ الذّنوبِ والآثامِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ عبّرَ عن سالفِ معاصيهم بـ(ما) الدّالّة على العمومِ؛ تعميمًا لكلّ "ما اجترحوه كائنًا ما كان فيُمحَى عينًا وأثرًا، فلا عقابَ عليه ولا عتابَ"[2]، وهي هنا اسمٌ موصولٌ، وفي ذلك بيانٌ لعظيم رحمتِه وسَعةِ مغفرته ﷻ، فلو قال: (تُغفر لهم ذنوبهم) لاحتمل الكبيرَ منها وحسبُ، فجاء لفظُ العموم قدعًا لكلِّ احتمالٍ.

بلاغةُ أسلوبِ الاتّزانِ في آيةِ الوعدِ بالغفران:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ جاءت ثلاثةُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279 - 280.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

تراكيبَ متّزنةٌ وهي: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ فكلُّ هذه العباراتِ على زنةٍ واحدةٍ، فهي "محسّنٌ بديعيٌّ وهو الاتّزانُ؛ لأنّه في ميزانِ الرّجَزِ"[1]، فمجيءُ العبارات على نظام الاتّزانِ القارِّ في أذنِ العربِ يَلفتُ عنايةَ السّامعِ لمضمونِ العباراتِ.

لـفـتُ عـنـايـةِ السّامعِ يُحقّقُ الغرضَ

نُكتةُ دُخولِ (قد) على الفعلِ الماضي:

في قولِه ﷻ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ دخلتْ (قد) على الفعلِ الماضي، فدلَّتْ على التّحقيقِ، ومعنى التّحقيقِ أنّ مدلولَ الكلمةِ قد تحقّقَ وقوعُه على وجهِ التّأكيدِ، وهذا يفيدُ تأكيدَ تعلّقِ المغفرةِ بالسّابقِ من أعمالِهم.

مغفرةُ ما تحقّقَ وقوعُه إلهابٌ على الانتهاءِ

دلالةُ العطْفِ بالواوِ في الآية:

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ فهما مشتركان بالتّضادِّ[2]، فتكرارُ الكفرِ وقتالُ المؤمنين ضدُّ الانتهاء، فالعطفُ جمعٌ بين النّقيضَيْن.

بـابُ المـغـفـرةِ مفتوحٌ، ولكنّ سُـنّـةَ الـلـه في الكفّارِ ماضيةٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ) الشّرطيّة:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، عبّرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ في جملةِ الشّرطِ الثّانيةِ، فلمّا كان انتهاؤُهم في جملةِ الشّرطِ الأولى غيرَ محقّقٍ، ومشكوكًا فيه، بنى العودةَ في جملةِ الشّرطِ الثّانيةِ على الافتراضِ غيرِ اليقينيّ، تنبيهًا على أنه لاينبغي أن يكونَ إلا افتراضًا، وذلك باستعمال (إن) الشّرطيةِ دون (إذا) للدّلالةِ على أنّ تحقُّقَه لا يُقطَعُ به.

عودتهم إلى ما كانوا لاينبغي أن يكون إلّا افتراضًا

بلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشرطيّةِ برمّتها:

في قولِه ﷻ: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عبّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/345.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/80.

تهديدٌ بوقوعِ العذابِ، بمقتضَى وقوعِ الإعراضِ

بالجملةِ الشّرطيّةِ وعيدًا لهم وتهديدًا، فالجملةُ في الآية "تجمعُ الوعيدَ والتّهديدَ والتّمثيلَ بمَن هلك مِنَ الأمم في سالفِ الدّهر بعذابِ اللّه"[1]، وجعلَ الوعيدَ قائمًا على تعليقِ أحدِ الطّرفين بالآخرِ، إن وقعَ أحدُهما، فإنّ الآخرَ واقعٌ على وجه الضّرورةِ لتعليقِه به، فإن أوقعوا عودتَهم فجزاؤُهم وقوعُ سُنّةِ الأممِ الماضيةِ، وفي ذلك تأكيدٌ لتحقُّقِ العذابِ.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعُودُواْ﴾، في السّياق:

تكرارُ القتالِ وتجدُّده لن يغيّرَ مصيرَ الكافرين بالخُسرانِ

عبّر النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالفعلِ المضارعِ للدّلالةِ على ثباتِ تحقُّقِ جوابِ الشّرطِ مهما تكرّرَ فعلُ الشّرطِ، فتجدُّدُ عَودِهم إلى قتال المسلمين لن يغيّرَ المحصّلةَ والمآلَ الذي عبّرَ عنه ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهو انطباقُ سُنّةِ الأوّلين عليهم بانهزامِهم أمامَ جندِ اللّه الغالبين.

سِرُّ إطلاقِ العودةِ ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾، في السّياق:

العودةُ تتحقّقُ بالرّجوعِ إلى الحالةِ التّي كان عليها

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جاءتِ العودةُ مطلقةً، ولم يُبيّن عن أيِّ شيءٍ يعودون إليه، فهي عودةٌ مطلقةٌ منَ القيد، والمرادُ العودةُ "إلى القتالِ؛ لأنّ لفظةَ (عاد يعود) إذا جاءت مُطلقةً، فإنّما تتضمّنُ الرّجوعَ إلى حالة قد كان الإنسانُ عليها ثُمّ تنقّل عنها، ولسنا نجدُ في هذه الآية لهؤلاء الكفّارِ حالةً تُشبه ما ذكرنا إلّا القتالَ، ولا يصحُّ أن يُتأوّل (وَإِنْ يَعودوا إلى الكفر)؛ لأنّهم لم ينفصلوا عنه"[2].

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشّرطِ في الآية:

التّهديد والوعيد بالشّرطِ بلا جوابٍ أبلغُ في الرّدْعِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ ابتدأتْ بحرفِ الشّرطِ (إن) وفعلِ الشّرطِ ﴿يَعُودُواْ﴾،

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/404.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/403.

أمّا جوابُ الشّرطِ فهو محذوفٌ، والتّقديرُ: ننتقمُ منهم بالعقابِ والعذابِ، فليتوقّعوا الإهلاكَ والتّدميرَ[1]، أمّا الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فهي دليلُ الجوابِ، وليست هي الجوابَ، والتّقديرُ: إن يعودوا انتقمْنا منهم فقد مضت سنّةُ الأوّلين[2]، وإنّما لم تكن هي جوابًا؛ لأنّ مُضيَّ سنّةِ الأوّلين لا يتعلّقُ بعودِهم إلى الكفرِ والقتالِ؛ لأنّها سنّةٌ ثابتةٌ، ولكنْ يتعلّقُ بهم لازمُها وهو العذابُ.

وذهب العلّامةُ ابنُ عاشورٍ إلى أنّ الجملةَ ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هي جوابُ الشّرطِ: "وهذا الخبرُ تعريضٌ بالوعيدِ بأنّهم سيلْقَون ما لَقيَه الأوّلون، والقرينةُ على إرادةِ التّعريضِ بالوعيدِ أنّ ظاهرَ الإخبارِ بمُضيِّ سُنّةِ الأوّلين، وهو منَ الإخبار بشيءٍ معلومٍ للمُخْبَرين به، وبهذا الاعتبارِ حسُن تأكيدُه بـ(قد)؛ إذِ المرادُ تأكيدُ المعنَى التّعريضيِّ. وبهذا الاعتبارِ صحَّ وقوعُ قولِه: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جزاءً للشّرط. ولولا ذلك لما كان بين الشّرطِ وجوابِه مُلازمةٌ في شيءٍ"[3].

دلالة الفاء على التّعليل في لفظ (فقد):

عِلّةُ تحقّقِ خُسرانِهم ثباتُ سنّةِ نصرِ الله لعبادِه المؤمنين

دلّتِ الفاءُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على التّعليلِ، فهي تعليلٌ لجوابِ الشّرطِ المحذوفِ[4]، وليست هي الفاءَ الرّابطةَ لجوابِ الشّرطِ؛ إذ إنّ قولَه تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لا يصلحُ أن يكون جوابًا للشّرطِ على الرّاجحِ، فالجملةُ مدخولُ الفاء "تعليلٌ للجواب أُقيم مقامَه، والتّقديرُ: وإن يعودوا انتقمْنا منهم، وأهلكناهُم، فقد مضت سنّةُ الأوّلين في أنّا انتقمْنا منهم وأهلكْناهم بتكذيب أنبيائِهم عليهم السلام"[5].

(1) القونوي، حاشي على البيضاويّ: 9/80، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/174.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/192 - 193، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/265 - 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/174.
(5) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/265 - 266، وينظر: القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/80.

نُكتةُ دخولِ (قد) للمرّةِ الثّانيةِ:

ما يَعِدُ اللهُ به فهو مُؤكّدُ الوقوعِ

كرّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إدخالَ (قد) على الفعلِ الماضي تأكيدًا لتحقّقِ جوابِ الشّرطِ، وبيانًا لثباتِ هذه السّنّة، وإنّما أكّدَ هذه السّنّةَ تقويةً لمضمون الخبرِ، "وهذا الخبرُ تعريضٌ بالوعيدِ بأنّهم سيلْقَون ما لَقيَه الأوّلون، والقرينةُ على إرادةِ التّعريضِ بالوعيدِ أنَّ ظاهرَ الإخبارِ بمُضيّ سُنّةِ الأوّلين، وهو منَ الإخبار بشيءٍ معلوم للمُخبَرين به، وبهذا الاعتبارِ حسُنَ تأكيدُه بقد، إذِ المرادُ تأكيدُ المعنَى التّعريضيِّ"(1).

دلالةُ التّعبيرِ بالفعْلِ الماضي ﴿مَضَتۡ﴾ في السّياق:

زوالُ الباطلِ سُنّةٌ قاهرة، وفي التّاريخ شواهدُ ظاهرة

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عبّرَ عن جريانِ سُنّة اللّه تعالى في نُصرة أنبيائِه وعبادِه المؤمنين بالفعْلِ الماضي فقال ﴿مَضَتۡ﴾ للدّلالةِ على رسوخِها وأنّها مقطوعٌ بها وقد عَلمَها النّاسُ، "أي: وُجِدتْ وانقضتْ ونفذَت فلا مردَّ لها، بدليلِ ما سُمعَ من أخبارِ الماضينَ وشوهدَ من حالِ أهلِ بدرٍ ممّا أوجبَ القطْعَ بأنّ اللّه مع المؤمنين وعلى الكافرين"(2).

سِرُّ إضافةِ السُّنّةِ للأوّلين:

سُنّةُ النّصرِ تتعلّقُ بالرُّسلِ الغالبين، وبأقوامِهم المغلوبينَ

في قولِه ﷻ: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أضافَ السُّنّةَ إلى الأوّلين؛ لأنّ العذابَ لمّا كان يتكرّرُ وقوعُه بالمعرضين عن أنبيائِهم صارَ كأنّه سُنّةٌ لهم، وهي سُنّةُ اللّه تعالى "أي عادةُ اللّه تعالى الجاريةُ في الذين تحزّبوا على الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ من نَصرِ المؤمنين عليهم وخُذلانِهم وتدميرِهم. وأُضيفتِ السّنّةُ إليهم لما بينَهما منَ الملابسةِ الظّاهرةِ، ونظيرُ ذلك قولُه سبحانَه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ [الإسراء: 77]، فأضافَ السُّنّةَ إلى المرسَلين مع أنّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

سنّتُه تعالى لقولِه سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: 77] باعتبارِ جريانِها على أيديهم"[1]، فإضافةُ السُّنّةِ للأوّلين المرادُ بهم كلُّ الأقوامِ الذين تحزّبوا ضدَّ الأنبياءِ، وأضافَ السُّنّةَ للأنبياءِ ولله تعالى، والمرادُ تحقّقُ نصرِ الله تعالى لعبادِه وخُسرانِ الكافرين مِصداقًا لقولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21].

معنَى (اللّامِ) في: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الإحالةُ على المعلومِ دلالةٌ على الرُّسوخِ في الأذهانِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يجوزُ في الألف واللّام أن تكونَ للجنسِ، فمعنى الأوّلين الأُممُ التي سبقتْ، وعَرَفوا أخبارَهم أنّهم كذّبوا رُسُلَ الله فلقَوا عذابَ الاستئصالِ، مثلَ عادٍ وثمود[2]، ويجوزُ أن تكونَ للعهد، والمرادُ بالأولين أهلُ مكّةَ الذين استأصَلَهمُ السّيفُ يومَ بدرٍ، وفي كلٍّ منهما عِبرةٌ للحاضرين، وتهديدٌ لهم بأن يصيروا مصيرَهم[3]، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِ العذابِ بجعْلِه مَقيسًا بعذابٍ قد وقعَ وتحقّقَ مِرارًا حتّى بات سُنّةً مطّردةً، فما يمنعُ أن يأتيَهم؟

الفُروقُ المُعجَميَّة:

(سلَفَ) و(مضَى):

السّلفُ يدلُّ على السّبقِ والتّقدّمِ، والمضيُّ يدلُّ على الذّهابِ والمرورِ

السّلفُ: أصلٌ يَدُلُّ على تَقدُّمٍ وسَبْقٍ، والسَّلَفُ: المتقدِّمُ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: 56]، أي: معتبرًا متقدّمًا[4]، فيُلاحظُ فيه التّقدّمُ والسّبقُ. أمّا المضيُّ: فهو أصلٌ يَدُلُّ على نَفاذٍ ومُرورٍ، المُضيُّ والمَضاءُ: النّفاذُ، ويقال ذلك في الأعيانِ والأحداثِ. قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾ [الزخرف: 8]، ﴿فَقَدۡ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/192، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، والإيجي، جامع البيان: 2/23.
(2) الواحدي، البسيط: 10/150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سلف).

﴿مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38]. ويقال: مضى الزّمانُ، مضى الشّيءُ مُضيًّا: ذهبَ، ومضَى في الأمر مُضاءً: نفذَ، قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر: 65] أي اذهبوا بسرعةٍ[1]، و"المُضيّ خلافُ الاسْتِقْبال، ولذا يُقال: ماضٍ ومستقبلٌ"[2]، فالمضيُّ يدلُّ على الذّهاب والمرورِ، أمّا السّلف فيدلّ على التّقدّمِ، فلذا يقال للآباء والأجدادِ سلفٌ ولا يقال لهم ماضٍ، ويقال للمتقدّمين سلفٌ، كالصّحابةِ رضي الله عنهم، وفي الآية الغرضُ بيانُ أنّ اللّه تعالى يغفرُ لهم ما تقدّمَ وسبَقَ من ذنوبِهم، فكان التّعبيرُ عن ذلك بالسّلفِ الدّالِّ على التّقدّمِ.

(السُّنّةُ) و(الدّأْبُ):

السُّنّةُ جريانٌ على مثالٍ سبَقَ، والعادةُ ما اعتادَه الإنسانُ، والدَّأبُ ما أصَرَّ عليه

الدّأبُ: لا يكونُ إلّا اختيارًا؛ ألا ترى أنّ العادةَ في الأكلِ والشُّربِ المُقيمَينِ للبدَنِ لا تُسمّى دَأبًا، وأمّا السّنةُ فإنّها تكونُ على مِثال سبَقَ[3].

فالدّأبُ أصلٌ يَدُلُّ على مُلازَمَةٍ ودَوام، وهو العادَةُ والشَّأنُ، ودَأبَ الرَّجُلُ في عَمَلِه، إذا جَدَّ[4]، فهو فعلٌ اختياريٌّ يدلُّ على المداومةِ بجدٍّ واجتهادٍ وإصرارٍ وملازمةِ العملِ، أمّا السُّنّةُ فهي تكرارُ الأمرِ وثباتُه، وهي طريقةٌ جاريةٌ؛ ولذا كان التّعبيرُ على الأمرِ المعتادِ بنزولِ العذابِ على الكافرين بالسّنّة؛ لأنّه كالقانونِ السّاري الثّابتِ، وليس لأنّه فعلٌ ملازمٌ يدلُّ على الحرْصِ، فإنّ اللّه تعالى وضعَ للكون نظامًا وسَنّ له سُننًا، ومن تلك السُّنن التي بيّنها في كتابه نزولُ العذابِ بالمكذّبين، فقال جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مضى - مضي).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 306.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 226.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دأب).

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: 39 - 40]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

عدمُ الانتهاءِ عنِ مُعاداة المؤمنين، بالإنفاقِ المريب، مُـؤْذنٌ بالفتنة والقتالِ الرّهيب

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ "أنّ هؤلاء الكفّارَ إنِ انتهَوا عن كفرِهم حصلَ لهمُ الغفرانُ، وإن عادوا فهم مُتوعَّدون بسُنّةِ الأوّلين، أتْبعه بأنْ أمرَ بقتالِهم إذا أصرّوا فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: (فتن) أصلٌ يَدُلُّ على ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ. الفَتْنُ: الإحْراقُ. وشَيْءٌ فتينٌ: أيْ مُحْرَقٌ. ويُقالُ لِلْحَرَّةِ: فتينٌ، كَأَنَّ حِجارَتَها مُحْرَقَةٌ. من ذلك الفِتْنَةُ. يُقالُ: فَتَنْتُ أفْتِنُ فتْنًا. أصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذّهب النّارَ لتظهرَ جودتُه من رداءتِه، واستُعملَ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذاريات: 14]، أي: عذابكم، وجُعلتِ الفتنةُ كالبلاءِ في أنّهما يُستعملان فيما يُدفعُ إليه الإنسانُ من شدّةٍ ورخاءٍ، وهما في الشّدّةِ أظهرُ معنًى وأكثرُ استعمالًا، وقد قال فيهما: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35](2)، وقولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ "معناها حتّى لا يُفتَنَ أحدٌ عن دينه كما كانت قريشٌ تفعلُ بمكّةَ بمن أسلَمَ كبلالٍ وغيرِه"(3).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/515، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (فتن).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والخازن، لباب التأويل: 2/312.

2) ﴿بَصِيرٌ﴾: (بصر) أصلٌ وهو العِلْمُ بالشَّيْءِ؛ يُقالُ: هو بَصيرٌ به. ومِن هذه البَصيرَةُ، والبَصيرةُ: البُرْهانُ. وأصْلُ ذلك كُلِّه وُضوحُ الشَّيْءِ. البَصَرُ يقالُ للجارحةِ النّاظرةِ، نحوَ قولِه تعالى: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: 77]، ويقالُ لقوّةِ القلبِ المدرِكةِ: بَصيرَةٌ وبَصَرٌ. ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيْءِ: إذا صِرْتَ به بَصيرًا عالِمًا، والبَصيرُ: العالِمُ[1].

3) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: (ولي) أصلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، و(تَولَّى) إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنَى الإعراضِ وتركِ قُربِه، كقولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63]، والتَّولّي قد يكونُ بالجسمِ، وقد يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتمارِ، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال: 20][2].

4) ﴿نِعۡمَ﴾: (نعم) أصلٌ يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، و(نِعْمَ) فعلُ ماضٍ لا يتصرَّفُ، وهو كلمةٌ تُستَعْمَلُ في المَدْحِ بإزاءِ بِئْسَ في الذَّمّ، قال تعالى: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤﴾ [ص: 44]، ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تقول: إن فعَلْتَ كذا فبِها ونِعْمَتْ. أي: نِعْمَتِ الخَصْلَةُ هيَ، وغَسَلْتُهُ غَسْلًا نِعِمّا، يقال: فعَلَ كذا وأنْعَمَ، أي: زادَ، وأصلُه من الإنْعامِ[3].

5) ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾: (ولي) أصلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. والمولى يُطلقُ بإزاءِ معانٍ: فالمولى: النّاصرُ والمنعمُ وابنُ العمّ والحليفُ، قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١﴾ [محمد ﷺ: 11]. فالمولى هو النّاصرُ، والقائمُ بأمرِهم. وكلّ مَن تولّى أمرَك فهو مولاك. والولاءُ يحصلُ لما فيه من معنَى القُربِ من حيث النّسبُ ومن حيث الدّينُ ومن حيث الصداقةُ والنّصرةُ والاعتقادُ، والوليُّ والمولى يُستعملان في كلِّ ذلك[4].

6) ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾: (نصر) أصلٌ يَدُلُّ على إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه. النَّصرُ: إعانةُ المَظْلوم، ونَصَرَ اللّه المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عدوِّهم، قال تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصَّف: 13]، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝١١٦﴾ [التوبة: 116]، ونُصْرَةُ اللّه للعبدِ ظاهرةٌ، ونُصْرَةُ العبدِ للّه هي نصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حدودِه، ورعايةِ عهودِه،

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ولي).
(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نعم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، والفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي).

واعتناقِ أحكامِه، واجتنابِ نهْيِه، والنَّصيرُ: النّاصِرُ؛ قالَ اللّه تَعالَى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تشريعُ القتالِ لغايةٍ ساميةٍ؛ حتّى لا يُفتَنَ أحدٌ عن دينِه، واللّه يتولّى من أعرض وانحرف

يخاطبُ اللّه تعالى المؤمنين آمرًا إيّاهم بقتال المشركين "حتّى لا يكونَ شِرْكٌ وصدٌّ عن سبيل اللّه؛ ولا يُعْبَدَ إلّا اللّه وحدَه لا شريكَ له، فيرتفعَ البلاءُ عن عبادِ اللّه في الأرض، وحتّى يكونَ الدّينُ والطّاعةُ والعبادةُ كلُّها للّه خالصةً دون غيرِه، فإنِ انزجروا عن فتنة المؤمنين وعنِ الشّركِ باللّه، وصاروا إلى الدّين الحقّ معكم، فإنّ اللّه لا يخفى عليه ما يعملون مِن تركِ الكفرِ والدّخولِ في الإسلام، وإن أعرضَ هؤلاء المشركون عمّا دعوتموهم إليه - أيّها المؤمنون - منَ الإيمان باللّه ورسولِه وتركِ قتالِكم، وأبَوْا إلّا الإصرارَ على الكفرِ وقتالِكم، فأيقِنوا أنّ اللّه معينُكم وناصرُكم عليهم. نِعْمَ المعينُ والنّاصرُ لكم ولأوليائِه على أعدائِكم"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطْفِ الآيةِ على ما سبَقَ:

تحقيقُ الوعيدِ ردعٌ للكافرين

الجملةُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ وقد جاء الخطابُ عامًّا في الجملةِ المعطوفةِ ترغيبًا للمؤمنين في القتالِ، وتحقيقًا للوعيدِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[3]؛ فعطفَ الجمعَ على المفردِ؛ لأنّ الغرَضَ منَ الجملةِ المعطوفِ عليها التّلطّفُ بالكافرين، وهو وظيفةُ النّبيّ وحدَه، فجاء الخطابُ بالإفراد، ولمّا كان الغرَضُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).

(2) مجموعة من المؤلفين، التفسير الميسر: 1/181.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والآلوسي، روح المعاني: 5/194.

منَ الجملةِ المعطوفةِ تحريضَ المؤمنين على القتالِ، جاء بالجمعِ، فخوطبوا جميعًا[1].

سرُّ التّعبيرِ بالأمرِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾، ومعنى عوْدِ الضّمائرِ:

القتالُ واجبٌ عند الاعتداء، لدفع صولة الأعداء

في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ جاء فعلُ الأمرِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ للدّلالةِ على فرضِ القتالِ على المؤمنين، فهو أمرٌ للوجوبِ، والمرادُ بالضّميرِ المشركون من أهلِ مكّةَ[2].

دلالة (حتّى) على التّعليل، في السّياق:

تشريعُ القتالِ، لغايةٍ ساميةٍ وهدَفٍ نبيلٍ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ عبّرَ عن غايةِ القتالِ بالحرف (حتّى) الدّالِّ على التّعليلِ، فإنّه "تعالى أمرَ بقتالهم ثمّ بيّنَ العلّةَ التي بها أوجبَ قتالَهم، فقال: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ ويخلصَ الدّينُ الذي هو دينُ اللّه من سائرِ الأديانِ، وإنّما يحصلُ هذا المقصودُ إذا زال الكفرُ بالكليّةِ"[3]، فالغايةُ منَ القتال إزالةُ أسبابِ الميلِ عنِ الدّين منَ الأصل، وذلك بإزالةِ الشّركِ على وجهِ التّمامِ[4].

غرَضُ التّعبيرِ بـ﴿تَكُونَ﴾ من حيثُ المادّةُ والصّيغةُ:

لا يسلمُ العبادُ إلّا باستئصالِ الباطلِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ عبّرَ عن إزالةِ الفتنةِ بفعلِ الكونِ ﴿لَا تَكُونَ﴾، ولم يقل: (وقاتلوهم حتّى لا يفتِنوا المؤمنين)؛ ليدلَّ على انتفاءِ وجودِ الفتنةِ بانتفاءِ وجودِ أصلِها، وهذا أبلغُ ممّا لو تسلّطَ النّفيُ على الفتنةِ. وجاءَ التّعبيرُ بفعل الكوْنِ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ للدّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ وجودِ هذه الفتنةِ، وهذا يدلُّ على استمرارِ القتالِ ضرورةً حتّى تُزالَ كلُّ أسبابِ الفتنةِ.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/429.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/645، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/280.

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿فِتۡنَةٞ﴾، في السّياق:

من غاياتِ القتالِ ردُّ الفتنِ عنِ المسلمين، قلّت أو كثُرت

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ جاء لفظُ الفتنةِ بصيغةِ التّنكيرِ للتّعميمِ استقصاءً لكلِّ فتنةٍ، فيجبُ القتالُ حتّى لا يبقَى من شيءٍ من فتنةِ الكافرين للمؤمنين، حيث "كان المؤمنون في مبدأِ الدّعوةِ يُفْتَنون عن دينِ اللّه، فافْتُتِن منَ المسلمين بعضُهم، وأمرَ رسولُ اللّه ﷺ المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة، وفتنةٌ ثانيةٌ وهو أنّه لمّا بايعتِ الأنصارُ رسولَ اللّه ﷺ بيعةَ العقبة، تآمرت قريشٌ أن يفتنوا المؤمنين بمكّةَ عن دينِهم، فأصاب المؤمنين جَهدٌ شديدٌ، فهذا هو المرادُ منَ الفتنة، فأمر اللّه تعالى بقتالِهم حتّى تزولَ هذه الفتنةُ"(1)، فذكرَ الفتنةَ بالتّنكيرِ تعميمًا لكلِّ فتنةٍ من تلك الفتنِ خفيفةً كانت أو شديدةً، وقد يفيدُ التّنكيرُ التّعظيمَ، أي: فتنةٌ عظيمةٌ.

دلالةُ العطْفِ في جملة ﴿وَيَكُونَ﴾:

الدّين كلُّه لله، وهو وحدَه المعبودُ، بحقٍّ في هذا الوجود

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ لاشتراكِهما في الغايةِ منَ القتالِ، فشُرعَ القتالُ لدفعِ الفتنِ عن عبادِ اللّه التي تُكرِهُهم على تغييرِ اعتقادِهم، وشُرعَ ليكونَ الدّينُ للّه تعالى وحدَه حيث لا إكراهَ لأحدٍ فيما يَدينُ للّه تعالى به.

معنَى (ال) الجنسيّة في لفظ ﴿ٱلدِّينُ﴾ ودلالتُها:

أصلُ الدّين واحدٌ، وكلُّه لله تعالى

في قولِه ﷻ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ عرّفَ الدّينَ تعريفَ الجنسِ(2)، أي: ليكونَ جنسُ الدّين للّه تعالى، وليس دينًا معهودًا واحدًا بعينِه.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/347.

لا دينَ حقٌّ إلا ما كان في الأساس خالصًا لله من دون النّاس

غرَضُ التّوكيدِ المعنويِّ بلفظ ﴿كُلُّهُۥ﴾:

أكّدَ النّظمُ الكريمُ أن يكونَ كلُّ الدّين لله تعالى في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فلا يبقَى غيرُ الدّين الحقِّ، "وتضمحِلَّ الأديانُ الباطلةُ إمّا بإهلاكِ أهلِها جميعا، أو برجوعِهم عنها خَشيةَ القتلِ"[1]، فدلّ التّأكيدُ في ﴿كُلُّهُۥ﴾ على وجوبِ استمرارِ القتالِ حتّى تزولَ سائرُ الأديانِ المنافيةِ للتّوحيدِ، فهو تصريحٌ بمدى القتالِ الزّمنيِّ والغائيِّ.

لا مندوحة من إخلاصِ الدّين لله العظيم جل جلاله

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في السّياق:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ آثرَ التّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ في بيانِ الغايةِ بجعلِ الدّين خالصًا له؛ للدّلالةِ على تعظيمِ الإخلاص في الدّين الذي يُجعلُ لله تعالى، فالدّينُ كائنٌ له بما له منَ الجلالِ فهو الملكُ الأعظمُ[2].

لله تعالى الدّينُ الخالِصُ، وكلّ ما سواه ضلالة

معنى اللّامِ في لفظ الجلالة (للّه):

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ عبّرَ عن وجوبِ أن يكونَ الدّينُ خالصًا من كلِّ ما يشوبُه من شِركٍ أو باطلٍ أو خوفٍ[3]، وذلك بإدخالِ لامِ الجرِّ الدّالّةِ على المِلْكِ والاختصاصِ، فهو تعبيرٌ عن تخصيصِ الدّينِ بأنّه كائنٌ لله تعالى وحدَه مُخلَّصًا من كلّ دين وفكرةٍ تخالفُ التّوحيدَ.

تأكيدُ المعنى في أوّل نصٍّ يُغني عن تأكيدِ ما جاء لاحِقًا

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ بين آية الأنفال: (39)، وآيةِ البقرة: (193):

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ تشابهٌ لفظيٌّ مع قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: 193]، غيرَ أنّه قد أضافَ التّأكيدَ بقولِه: ﴿كُلُّهُۥ﴾ في سورة الأنفال؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/21.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

"وذلك لأنّ هذه الآيةَ أسبقُ نزولًا من آية البقرةِ فاحتيجَ فيها إلى تأكيدِ مُفادِ صيغةِ اختصاصِ جنْسِ الدّينِ بأنّه للّه تعالى، لئلّا يُتوَهَّمَ الاقتناعُ بإسلام غالبِ المشركين، فلمّا تقرّرَ معنى العُموم وصارَ نصًّا من هذه الآية عدلَ عن إعادتِه في آية البقرة تطلّبًا للإيجاز"[1].

معنَى الفاءِ في جملة: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾:

حُكمُ من انتهَى بعدَ حُكمِ من لم ينتَهِ

لمّا أمرَ بقتالهم أعقبَه بقولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فالفاءُ للتّعقيبِ[2]، فلمّا كان حالُهم بعدَ الأمرِ بقتالِهم ودعوتِهم إلى الانتهاء يقعُ بين حالين؛ إمّا الإسلامُ، وإمّا الدّوامُ على الكفرِ، أعقبَه بحُكم من انتهى عنِ الكفرِ والقتالِ[3].

بلاغةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الشَّرطيّةِ، المصدّرة بالأداة (إنْ):

ومَـنْ أوفَـى بعهْدِه من الله، فالله لا يخلف الميعاد

صيغَ حالُهم بفرضِ إجابتِهم وانتهائِهم عنِ الكفر في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ بصيغةِ التّعليق، فأجْراها مجرَى العَقدِ بين طرفَين؛ تأكيدًا لوقوعِ الجزاءِ حالَ وقوعِ الشّرطِ، فمنِ انتهى عنِ الكفرِ فإنّ جزاءَه ثابتٌ عند اللّه تعالى؛ لأنّ اللّه تعالى بصيرٌ بما يعملون، فلا يخفَى عليه استحقاقُهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ(إن) الشّرطيّةِ في سيّاق الآية:

السّبْقُ ببناءِ الأحكامِ، على ما سيقعُ افتراضًا، من مقاصد آيِ القرآن

في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ(إن) الشّرطيّة دون (إذا)؛ لأنّ الغرضَ منَ الشّرطِ إجراءُ الأحكام على الحالاتِ المفترَضةِ، من غيرِ إشعارٍ بيقينِ وقوعِها أو التّشكيكِ به، فصاغَ تلك الحالاتِ بالجُملِ الشّرطيّةِ لبيانِ تعلّقِ ما يفعلون وما يؤولُ عنه. وقد أجراه مجرى العقدِ الدّالِّ على وجوبِ الإيفاء وتأكيدِ تحقّقِ الجزاءِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/347.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/281.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في السّياق:

يُجازي اللهُ عبادَه؛ لأنّه يعلمُ ما يفعلون

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ابتدأ بالفاءِ التّعليليّةِ العاطفةِ على جوابِ الشّرطِ المحذوفِ؛ فالجملةُ تعليلٌ لجواب الشّرطِ المحذوفِ، فإنّ اللّه تعالى يُجازي أولئك الكافّين عنِ الكفرِ؛ لأنّه ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، أي "إنَّ اللّه عالمٌ لا يخفَى عليه شيءٌ يوصلُ إليهم ثوابَهم"[1].

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

تعظيمُ علمِ اللهِ بذكرِ لفظِ الجلالة، وتربيةُ مهابتِه في النّفوسِ

في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ إسنادُ صفةِ البصيرِ إلى اللّه تعالى، وقد عبّرَ بلفظِ الجلالةِ في إسنادِ صفةِ البصيرِ، تعظيمًا لعلْمِه "أي المحيطُ عِلماً وقُدرة"[2]، فالتّعبيرُ بلفظِ الجلالة يدلُّ على كمال ما جيء لبيانه، فالذي يُبصرُ ويعلمُ ما تعلمون هو الذي له صفاتُ الكمالِ والجلالِ، فيكونُ علمُه كاملًا تامًّا.

الغرَضُ منَ التَّعبيرِ بالإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

حيثُما ذُكرَ الله، فثمَّ التّعظيمُ والتّفخيمُ والجلالُ

كرّرَ لفظَ الجلالةِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ولم يقل: (فإنّه بما يعملون بصير)، فوضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ؛ تفخيمًا لمضمونِ الخبرِ بإظهارِ لفظِ الجلالة الدّالِّ على تعظيم الحيّزِ المذكورِ فيه، وفي ذلك تفخيمٌ وتعظيمٌ للجزاءِ المعلّقِ بانتهائِهم، أي إنّ اللّه العظيمَ ذا الجلالِ يعلمُ ما يفعلون فهو بجلالِه مُجازيهم عليه. كما أنّ "في إظهارِ الاسم الجليلِ تربيةً للمهابةِ"[3].

الغرَضُ من تتابُعِ المؤكّداتِ:

الجزاءُ محقّقٌ لعلمِ الله المؤكّدِ لكلِّ أعمالِ عبادِه

الجملةُ في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ اسميّةٌ مفيدةٌ لتأكيدِ مضمونِها، مع أنّها مؤكّدَةٌ بـ (إنّ)، وبتضمُّنِها لفظَ الجلالة،

---

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/516.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/281.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/542.

وبتقديم ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ على الخبرِ، فكلُّ ذلك التّأكيدِ بغرَضِ تأكيدِ علْمِه تعالى، وبيانِ تمامِ إحاطتِه بما يعملون، ويؤولُ ذلك أخيرًا إلى تأكيدِ وقوعِ الجزاءِ المعبّرِ عنه بجُملةِ الشّرطِ.

معنَى الباءِ في: (بِما) في السّياق:

علمُ اللهِ تعالى مـحـيـطٌ بـكـلِّ أفعالِ العبادِ

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ بالباءِ الدّالّةِ على الملابسةِ، للدّلالةِ على ملابسةِ علْمِه تعالى لكلّ ما يعملون، فلا يعملون شيئًا يغيبُ عن علْمِه، فقولُه: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ متعلّقٌ بقولِه: ﴿بَصِيرٞ﴾ الدّالِّ على العلْمِ، فكلُّ أفعالِهم متعلّقةٌ بعلْمِه لأنّه مُلابسٌ لها.

معنى (ما) في: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من الآية:

تـأتي (مـا) هنا مـوصـولـة أو مـصـدريّـة، وكلاهما مفيدة في المعنى

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ عبّرَ عن أعمالِهم بالاسمِ الموصولِ (ما) الدّالِّ على العمومِ، أي: إنّ اللّه تعالى بصيرٌ "بعمومِ ما تعملون وتأملون، خبيرٌ يُجازيكم عليه بلا فوتِ شيءٍ منه"[1]. فهو تعالى عالمٌ بالأعمالِ كلِّها كبيرِها وصغيرِها، دِقِّها وجلِّها، وفي ذلك تأكيدٌ لتحقيقِ الجزاءِ الشّاملِ لكلِّ عملٍ. ويصحُّ أن تكونَ (ما) مصدريّةً، فإنّه - تعالى يعلمُ عملَهم بالجملة، فيكونُ عملُهم معلومًا له ﷻ، أمّا على اعتبارِ أنّها موصولةٌ فالمعنى أنّه يعلمُ بما يعملون على وجه الإفرادِ، فكلُّ عمل يعملونَه، فإنّ اللّه تعالى يُبصرُه، ولا تناقُضَ بين الدّلالتَيْنِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

كلُّ عملٍ متجدّدٍ يـلـزمُـه تـهـديـدٌ متجدِّدٌ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ عبّرَ عن أفعالِهم بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنّ العَمَلَ: كلُّ فعلٍ يكونُ منَ الحيوانِ بقصْدٍ[2]، فهو أخصُّ منَ الفعْلِ لما فيه من دلالةٍ على القصْدِ، كما يدلُّ العملُ على

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/280، والشّربينيّ، السراج المنير: 2/82.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

إيجادِ الأثرِ في الشّيءِ، فعقّبَ على انتهائِهم عنِ الكفرِ بالعملِ؛ لأنّهم قصدوا ذلك، والانتهاءُ عملٌ؛ لأنّه أحدثَ الأثرَ في تركِهم الكفرَ، وعبّرَ عن ذلك بصيغةِ المضارعِ؛ لأنّ هذا العملَ يدومُ ويتجدّدُ.

تَنوُّعُ القراءاتِ القرآنيّةِ في: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

في المواجهةِ زيادةُ تهديدٍ، وفي الغيبةِ شدّةُ غضبٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ قُرئ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لصيغة الغائبِ، وقُرئ (تعملون) بصيغةِ الخطابِ، فصيغةُ الغائب من تمام الحديثِ عنِ الكفّار في حالة انتهائِهم عن كفرهم، وقراءةُ مَن قرأ بتاء الخطابِ يكونُ خطابًا للمسلمين، والمعنى فإنّ اللّه بما تعملون منَ الجهاد في سبيله، والدّعوةِ إلى دينه، والإخراج من ظلمةِ الكفرِ إلى نورِ الإسلام بَصيرٌ يُجازيكم عليه أحسَنَ الجزاءِ[1].

وعلى القراءةِ الثّانيةِ بصيغةِ الخطابِ يكونُ في الآية التفاتٌ، فإنّ الفعلين: (تفعلون)، ﴿ٱنتَهَوۡاْ﴾ مُختلِفانِ بالخطابِ والغيبة، وهذا التفاتٌ، والغرضُ منه التّغليبُ، "أي: إنّه بصير بعملِكم وعملِهم، فيُنبّئُكم جميعًا، ويُجازي كلًّا، بحسبِ عملِه"[2].

دلالةُ القراءة بصيغة الخطاب ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

الأجْرُ على النّيّة كالأجْرِ على الفعْلِ

القراءةُ بصيغةِ الخطابِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يتعلّقُ بفعل الشّرطِ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ "للدّلالةِ على أنّهم يُثابون بالسّببيّةِ كما يُثابُ المباشِرون بالمباشرةِ"[3]، فكونُ ثباتِ المؤمنين في القتال هو أحدُ أسبابِ انتهاءِ الكافرين عنِ القتال، فإنّ اشتراكَهم بهذا السّببِ يضمنُ لهمُ الأجرَ عندَ اللّه تعالى، فهو بصيرٌ بما يعملون.

الغرَضُ من تقديم شبْهِ الجملة: ﴿بِمَا﴾ على المسند:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ

(1) الزّمخشري، الكشاف: 2/220، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/528، وابن الجزري، النّشر، 2/276.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/266.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/21.

على المسنَدِ، فأصلُ الكلامِ: (بصير بما يعملون)؛ لأنّه أخرجَه مخرجَ التّخصيص، إذ تخصيصُ العلمِ بما يعملون، وهو لا يختصُّ بذلك دليلٌ على إرادةِ المبالغةِ في كوْنِ ما يعملونَه لا يخفَى منه شيءٌ، وأنّ اللّه عليمٌ به كعِلْم مَنْ تفرّغَ لشيءٍ لا يُلاحظُ شيئًا غيرَه، فإنّه لن تضيعَ عنه شاردةٌ، أو واردةٌ دونَه، فيكونُ علمُه به علمًا دقيقًا.

علمُ الله تعالى محيطٌ بكلّ شيءٍ، إحاطَةَ من لا يعزب عن علمه شيء

بلاغةُ اختيارِ اسمِ ﴿بَصِيرٌ﴾ لفاصلةِ الآيةِ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه ﷻ: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أن يعبّرَ عن علْمِه تعالى بما يعملون بلفظ البصيرِ دون العلْم، مبالغةً في ذلك العلْمِ؛ فعبّرَ عن علْمِه بالإبصارِ مع أنّ مِن أعمالِهم ما لا يُبْصَرُ، كأعمالِ القلوبِ[1]، وذلك تأكيدٌ للمبالغةِ المتحصِّلةِ بتقديم شبْه الجملة؛ فأكّدَ تلك المبالغةَ؛ "حيث جعلَ جميعَ ما يعملون مُبْصَرًا له تعالى، فعبّرَ عن علْمِه تعالى بالبصرِ مع أنّ قليلًا مِمّا يعملون مِنَ المُبْصراتِ"[2].

الرّؤيةُ أبلغُ منَ العلْمِ في التّعبير عنِ الإحاطةِ بالأعمالِ

التّعبير بصيغةِ المبالغةِ مُنكَّرةً في: ﴿بَصِيرٌ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبّرَ عن علْمِه بلفظِ ﴿بَصِيرٌ﴾ بصيغةِ المبالغةِ على وزنِ (فعيل) مبالغةً في هذا العلْمِ، و"إشارةً إلى العلْمِ بما يكونُ من ذلك خالصًا أو مَشوبًا، ففيه مزيدُ حثٍّ على الإخلاصِ"[3]؛ فشدّةُ العلْمِ تدلُّ على انكشافِ كلِّ شيءٍ، وورودُ هذه الصّفةِ في سياقِ معرفةِ الأعمالِ يفيدُ أنّ كلَّ عملٍ هو مُبصرٌ معلومٌ به، فيقعُ التّرغيبُ والتّرهيبُ على أتمِّ وجْهٍ، وقد آثرَ التّعبيرَ بصيغةِ التّنكيرِ تعظيمًا لعلْمِه وتفخيمًا لشأنِ ذلك العلْمِ، وليس المرادُ حصْرَ صفةِ البصيرِ به ﷻ، إذ لو قال: (إنّ اللّه البصير

التّرهيبُ والتّعظيمُ يُناسبان سياقَ التّحذيرِ

(1) الشهاب، عناية القاضي: 2/222.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/357.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.

بما يعملون) لكان دالًّا على الحصْرِ، وليس ذلك المرادَ، بل أراد تعظيمَ هذه الصّفةِ فجاء بها نَكرةً.

دلالةُ العطْفِ في: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

الكفّارُ أمامَ التّوجيه الرّبّانيّ، إمّا مُنتَهٍ مستجيبٌ، وإمّا معانِدٌ مكابرٌ

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾؛ إذ لمّا أمرَ بقتالِهم بقولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ وأعقبَه بقولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لبيانِ حالِ من انتهى عن كفرِه وقتالِ المسلمين، عطفَ عليه حالَ مَن لم ينتَهِ فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ لكونِه أحدَ حالَيِ الكفّارِ بعد دعوتِهم للكفِّ عنِ الكفرِ والقتالِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ(إنْ) الشّرطيّة:

لا يُستبعدُ إصرارُ الكفّارِ على الكفرِ، ومحاربةِ المؤمنين في كلّ عصر

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾، عبّرَ فيه عن ثاني أحوالِهم على سبيل الافتراضِ بالجملةِ الشّرطيّةِ، تأكيدًا لوقوعِ الجزاءِ حالَ وقوعِ الشّرط، وآثرَ التّعبيرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ لأنّ انتهاءَهم في الجملةِ الأولى سيقَ على سبيلِ الافتراضِ، فأجرَى في تولّيهم على السّبيلِ ذاتِه، وذلك باستعمال (إن) الشّرطيةِ الدّالّةِ على عدمِ اليقينِ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الشّرطيّةِ:

إعراضُ الكافرين عنِ الإيمان لن يضرَّ مَن كان الله وليَّه

في قولِه جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ صيغَ التّولّي وما تعلّقَ به من ولايةِ اللّه تعالى للمؤمنين ونصرِه إيّاهم صيغةَ العَقدِ بين طرفَين؛ دلالةً على تحقُّقِ غلبةِ المؤمنين وخُسرانِ الكافرين، وفي ذلك تبشيرٌ للمسلمين بحُسنِ مآلِهم.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ التّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ عن تولّيهم للدّلالةِ على أنّ تولّيَهم

عادةٌ لهم، وأنّهم مُصرّون عليه، فهم ماضون في قتال المؤمنين تمسّكًا بدينِهم وضلالِهم[1].

معنى الفاء في لفظ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ ربطَ فعلَ الشّرطِ بجوابه بالفاءِ الرّابطةِ؛ لأنّ الجوابَ جملةٌ طلبيّةٌ[2]، وفي ذلك تنبيهٌ للمؤمنين باستحضارِ كونِهم تحت ولايةِ اللّه تعالى حالَ تولّي الكافرين، فافتتاحُ "جملةِ جوابِ الشّرط بـ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لقصْدِ الاهتمامِ بهذا الخبرِ وتحقيقِه، أي: لا تغفلوا عن ذلك"[3].

الغرَضُ منَ الأمرِ بالعلْم: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾، بنَى جوابَ الشّرطِ على الأمْرِ بالعلْم، "وافتتاحِ جملةِ جوابِ الشّرطِ بـ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لقصْدِ الاهتمامِ بهذا الخبرِ وتحقيقِه، أي: لا تغفلوا عن ذلك"[4]. فالعلمُ بأنَّ اللّه تعالى وليُّكم يجبُ أن يكونَ حاضرًا في الأذهانِ مُحقّقًا في النفوسِ، وفي ذلك مبالغةٌ في الأمرِ بالإيمانِ والثّقةِ بنصْرِ اللّه تعالى، فتكونُ تلك الثّقةُ معلومةً ثابتةً ثُبوتَ العلْمِ غيرَ قابلةٍ للشّكِ والتّذبذُبِ.

دلالة الموقعِ النّحويّ للمصدَرِ السّادِّ مسدَّ مفعولَيْن:

أوقعَ فعلَ العلْمِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ على كوْنِ اللّه تعالى وليّكم، فالجملةُ "في تأويلِ مصدَرٍ سادٍّ مسدَّ مفعولَيْ (اعلموا) تقديرُه: فاعلموا، وأيقنوا كوْنَ اللّه تعالى مولاكم، وناصرَكم"[5]. فالولايةُ معمولُ الفعلِ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فكَوْنُ اللّه تعالى

الفعلُ المضارعُ يدلُّ على الإصرارِ والمداومَةِ

استحضارُ ولايةِ اللّه في الأذهانِ واجبٌ حالَ العدوانِ

تحقيقُ اليقينِ بنصْرِ اللّه تعالى أمر لا شكّ فيه ولا ريب

الإيمانُ بوعْدِ اللّهِ والثّقةُ بنصْرِه ضمان وأمان

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/312.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/429 - 430.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 9/348.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/430، والخازن، لباب التّأويل: 2/312.

وليَّكم يجبُ أن يكونَ معلومًا لكم حاضرًا في أذهانِكم لأنّه من الإيمان وواجبِ الاعتقاد.

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

ولايةُ الله أعظمُ الـولايـاتِ على الإطلاقِ

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾، آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يُعبّرَ بلفظِ الجلالةِ في بيانِ ولايته تعالى للمؤمنين، فالتّعبيرُ بالاسمِ الدّالِّ على الملكِ الأعظم ﷻ أبلغُ في سياقِ الكلام عن ولايتِه لعبادِه، "أي: الذي له الإحاطةُ الكاملةُ بكلِّ شيءٍ"[1]، فلا وليَّ أعظمُ منه تعالى، والغايةُ تثبيتُ قلوبِ المؤمنين.

دلالةُ تتابُعِ المؤكّداتِ في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾:

ولايـــةُ الـلـه ضمانةٌ للعبد، وحمايةٌ له

جاء النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ في غايةِ التّأكيد، فجاءَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على تأكيدِ مضمونِها، وكونِها مؤكّدةً بـ (إنّ)، وكونِ المسنَدِ إليه لفظَ الجلالةِ المفيدَ تعظيمَ مضمونِ سياقِه، وكلُّ ذلك تأكيدٌ لولاية اللّه تعالى للمؤمنين وتقويةٌ لما تتضمّنُه مِن حُكمٍ، وفائدةُ ذلك تثبيتُ مضمونِ الجملةِ في أذهانِ المسلمين.

فائدةُ إضافةِ المولَى إلى الضّميرِ في لفظ ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾:

مـن كـان الـلـه مـولاهُ فلا غالبَ له

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ أضافَ لفظَ المولَى لهم تثبيتًا لهم وتقويةً لقلوبِهم، أي: فاعلموا أنّ اللّه تعالى "ناصرُكم، فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتِهم"[2]، كما أنّ في هذه الإضافةِ تكريمًا لهم بكونِهم في كنَفِ اللّه تعالى وحفظِه.

دلالة جملة الاستئناف على معنى التّذييل للآية:

مـــدحُ الـحـقِّ نـفـسَـه تثبيتٌ لقلوبِ العبادِ

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ مستأنفةٌ، فلمّا أخبرَهم أنّه هو مولاهُم "استأنف مادحًا نفسَه بما هو أهلُه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/59.

تعريفًا بقدرِه وحثًّا للمؤمنين على التّمسّكِ بوَلايته[1]، فهو "نعمَ النّاصرُ على الأعداء، فلا يُغلبُ من نصرَه، وكلُّ مَن كان في حمايةِ اللّه تعالى كان آمنًا منَ الآفاتِ، مصونًا عن المخلوقاتِ، وهذا ثناءٌ منَ اللّه تعالى على نفسِه، فهو حمدٌ قديم لقديم"[2]، فلمّا أمرَهم بوجوبِ العلْم بكونِه وليَّهم، أعقبَهُ بالثّناءِ على حُسنِ ولايتِه، فهي "بمنزلةِ التّذييل"[3] لجملةِ جوابِ الشّرطِ.

بلاغةُ الحذْفِ في صيغة المدح المصدّرة بلفظ ﴿نِعۡمَ﴾:

إبْـرازُ المعنَى في صـورةِ الظّاهرِ المعروفِ أوفَى في التّعبيرِ عنه

قولُه ﷻ: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ مدحٌ وثناءٌ منَ اللّه تعالى على نفسِه ﷻ، جاء بصيغةِ المدحِ بالفعلِ (نِعْم)، وهذه الصّيغةُ عبارةٌ عن جملةٍ فعليّةٍ من فعلٍ وفاعلٍ تُعربُ خبرًا عن مبتدأ محذوفٍ تقديرُه (هو)، وهذا المبتدأُ هو الذي صيغَ المدحُ له، ويُسمَّى المخصوصَ بالمدح، وهو محذوفٌ وُجوبًا[4]، وإنّما حُذفَ اعتمادًا على ظهورِ المعنَى وطلبًا للإيجازِ، كما أنّ الحذْفَ هنا فيه فائدةٌ تتمثّلُ بالاهتمامِ بصفةِ المدح، وما وقعَ فيه الثّناءُ، فيتركّزُ انتباهُ السّامعِ على ذلك، فإنّما صيغَ المدحُ؛ لأنّ مذكورًا قد سبقَ ذكرُه في السّياقِ، فلمّا عُلِمَ اكْتُفيَ بإظهارِ وجهِ المدحِ عليه.

بلاغةُ عطْفِ: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ في السّياقِ الحكيم:

مــدحُ الـنُّـصـرةِ تأكيدٌ للولايةِ، الضّامنة للحفظ والوقاية

قولُه تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ معطوفٌ على قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ لِما في لفظةِ ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ من معنَى النّصرِ الذي يوافقُ لفظَ ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾[5]. فأفادَ هذا العطفُ التّأكيدَ، إذ إنّ المولَى لا يقتضي أن يكون نصيرًا، فذكرَ النُّصرةَ معطوفةً على الولايةِ تأكيدًا لشُمولِ الولايةِ للنّصرةِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/422.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/645، والهرري، حدائق الروح والريحان: 10/430.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.

معنَى (اللّام) في ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ ودلالتُها:

الولايةُ والنّصرةُ راسـخـتـانِ في الـمـمدوحِ أصالة وعظمة

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ عرّفَ (المولَى والنّصيرَ) بالألفِ واللّامِ الدّالّةِ على العهدِ الصّريح؛ والمعهودُ قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾، وأفادَ هذا التّعريفُ أنّ الصّفةَ المصاغةَ للمدح، وهي الولايةُ والنّصرةُ معروفةٌ راسخةٌ في الممدوحِ، وأنّ المدحَ جاءَ تنبيهًا وتنويهًا بهذه الصّفاتِ.

فائدةُ التَّعبيرِ عن نصْرِ الله بصيغةِ المبالغةِ:

مـنْ نـصـرَه الله فلا غالِبَ له

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ عبّرَ عنِ الثّناء على نصْرِه بإيراد النّصرِ على صيغةِ المبالغةِ بيانًا إلى أنّه لا يُغلَبُ مَن نَصرَه[1]، فإنّ أفعالَ اللّه تعالى لا تتأثّرُ بالمبالغة، فتدلُّ صيغةُ المبالغةِ فيها على أثرِ المتعلّق، فالمبالغةُ في النّصرةِ متعلّقةٌ بتأكيدِ انتفاءِ تحقُّقِ الغَلَبِ على من أراد اللّه تعالى أن ينصرَه.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالأسلوبِ الإنشائيِّ غيرِ الطّلبيِّ:

تـأكـيـدُ الـمـدحِ والثّناءِ طُمأنينةٌ للعبادِ

قولُه عزّ ذكرُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جملةٌ إنشائيّةٌ مستأنفةٌ؛ لأنها إنشاءُ ثناءٍ على اللّه تعالى وهي بمنزلةِ التّذييلِ جاءت لتأكيدِ قولِه: (فاعلموا أن اللّه مولاكم) فصيغَ المدحُ والذّمُّ منَ الإنشاءِ غيرِ الطّلبيِّ؛ لأنّه لا يستدعي مطلوبًا وقتَ الكلام، فهو يتحقّقُ وقتَ اللّفظ، فلا وجودَ خارجيَّ له. وهو أسلوبٌ يُعبّرُ عنِ الثّناء والإعجابِ بالشّيءِ بألفاظٍ معيّنةٍ.

علّةُ سقوطِ الفاء السّببيّة، مقارنة بورودها في موقع آخر:

لا تتوقّفُ ولاية الله تعالى على علّةِ كونِه نعْمَ المولَى فقط

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جاء الفعلُ ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ بلا فاء، وقد جاء بالفاء في موضعٍ آخرَ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59.

﴿٧٨﴾ [الحج: 78]، فلم "يُدخلْ فاءَ السّببِ هنا؛ لأنّ المأمورَ به العِلمُ، واعتقادُ كونِه مولىً واجبٌ لذاتِه لا لشيءٍ آخرَ، بخلاف ما في آخر الحجّ، فإنّ المأمورَ هناك الاعتصامُ"[1]، فالعلمُ بالولايةِ أتبعَه ثناءً على ولايته، فليس هنا علاقةٌ سببيّةٌ؛ إذ لا تتوقّفُ ولايتُه على علّةِ كونِه نعْمَ المولَى، أمّا في سورة الحجّ فأمرَهم بالاعتصامِ؛ لأنّ مَن تعتصمون به جديرٌ بهذا الاعتصام ففيه بيانُ العلّةِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(الفتنة) و(البلاءُ) و(الامتحانُ):

الفِتنةُ ما يتَبَيَّن بها حالُ الإنْسانِ منَ الخَيْرِ والشَّر، وهي الّتي آثرها السّياق

الابْتِلاء: في الأصْل: التّكليفُ بالأمرِ الشّاقِّ، ولا يكونُ إلّا بتحميلِ المكارهِ[2]، والفتنةُ ما يتَبَيَّن بها حالُ الإنْسان منَ الخَيْرِ والشَّر، يُقال: فتنتَ الذَّهَبَ بالنّار، لتعلمَ أنّه خالصٌ أو مُشوبٌ، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنَّها مشتقّة منَ الحرق بالنّار[3]، والمِحْنَةُ: واحدةُ المِحَنِ التي يُمْتَحَنُ بها الإنسانُ من بليَّةٍ. ومَحَنْتُهُ وامْتَحَنْتُهُ، أي اختبرتُه، والاسمُ المِحْنَةُ. مَحَنَهُ سَوْطًا: ضَرَبَهُ[4]، وإنّما آثرَ أن يعبّرَ بالفتنةِ في هذا الموضع؛ لأنّه في سياقِ فتنةِ المؤمنين بالتّعذيبِ.

التّولّي والإعراضُ:

التّولّي يقتضي الابتعادَ بعْدَ قُربٍ، والإعراضُ يدلُّ على الصّدودِ والانصرافِ

(وَلَيَ) أصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، و(تَوَلَّى) إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنَى الإعراض وتركِ قُربه، كقولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[5]. أمّا أعْرَضَ فمعناه: أظهر عَرْضَهُ. أي: ناحيتَه. وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ. قال: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ [السّجدة:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 216، والكفويّ، الكليّات، ص: 34.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217، والكفوي، الكليات، ص: 692.
(4) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (محن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ولي).

[22][1]. التّولّي مشتقٌّ منَ الولْيِ بمعنى القُربِ، فيكونُ التّولّي عن شيءٍ يدلُّ على الابتعادِ عنه؛ لأنّه أعرضَ عنِ القُربِ منه. أمّا الإعراضُ فهو الصّدُّ والامتناعُ، وهذا يدلُّ على أنّ التّولّيَ أغلظُ منَ الإعراض؛ لأنّه كان قريبًا ثمّ تولّى وابتعدَ. والآيةُ في سياقِ القتال وعرْضِ الانتهاءِ عليهم، فإمّا أن يدخلوا الإسلامَ، أو يتولّوا ويتوغّلوا في عداوةِ الإسلام.

الولايةُ والنّصرةُ:

الولايةُ أدلُّ على المودّةِ، والنُّصرةُ أدلُّ على الإعانةِ

بين الولايةِ والنُّصرةِ فرقٌ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجه، فليس كلُّ وليٍّ ناصرًا، وليس كلُّ ناصرٍ وليًّا، وقد يجتمعان، فيكونُ الوليّ ناصرًا؛ فإنّ "الولايَة قد تكونُ بإخلاص المَوَدَّة، والنّصرةُ تكونُ بالمعونةِ والتّقويةِ، وقد لا تُمكنُ النُّصْرَةُ معَ حُصول الولايَةِ، فالفرقُ بَينهما بَيّنٌ"[2]، وقد جمعَ بينهما في قولِه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تحقيقًا للمعنيَيْن، الولايةِ والنُّصرةِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عرض).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 189.

الجُزْءُ العَاشِرُ

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ ﴾ [الأنفال: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط نصر المؤمنين على الأعداء، بقسم ما تحصّل من الغنائم

لمّا أمرَ اللّهُ تعالى بالمقاتلةِ في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾، وكان منَ المعلوم أنَّ القتالَ قد تكونُ فيه مكاسبُ، وقد تحصلُ عند المقاتلةِ الغنيمةُ، لا جرمَ ذكرَ اللّهُ تعالى حكمَ الغنيمة[1]. وأيضًا، لمّا كان التَّقديرُ: فإذا أعانكم مولاكم عليهم، وغلبتُموهم وغنِمْتُم فيه، فلا تَنْسُبوا إلى أنفسِكم فِعلًا، بلِ اعلموا أنَّه هو الفاعلُ وحدَه؛ لأنَّ الملك للّه وحدَه، فلا تتنازعوا في المغنَم تنازعَ مَن أخذَهُ بقوَّته، وحازَه بقدرتِه - عَطَفَ عليه قولَه: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾[2]، وأيضًا لَمّا أجْمَلَ مِن حُكْمِ الأنفالِ مُفتَتَحَ السّورةِ انتقلَ لبيانِ حكمِ الغنيمةِ، وناسبَ الانتقالُ إليه ما جرى منَ الأمرِ بقتالِ المشركينَ، إن عادوا إلى قتالِ المسلمين[3].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿غَنِمۡتُم﴾: أصلُ مادّة (غنم)، يعودُ إلى معنًى حسّيٍّ هو (الغَنَم)؛ أي: جنس الحيوان المعروف، فإنَّ الظفرَ بهِ يُسَمَّى غُنْمًا، والأصلُ في الغُنْم هو الفوزُ بالشّيء من غير مشقّةٍ، ثمّ اتُّسِع في ذلك، فسُمّي كلُّ ما يُظفَرُ به مِنَ العدوِّ، سواءً أكان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/484، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/353.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282 - 283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/5.

بمشقّةٍ أو بدون مشقّةٍ؛ غُنْمًا ومَغْنَمًا وغَنيمةً، ثُمَّ اختصَّ به ما أُخِذَ مَن مالِ المُشرِكينَ بقَهرٍ وغَلبةٍ[1].

ويُقال: "غَنِمْتُ أغْنَمُ غَنْمًا وغَنيمَةً، والغنائمُ جمعُها، والمغانم: جمعُ مَغْنَم، والغُنْمُ بالضّمّ الاسمُ، وبالفتح المصدر، والغانم: آخِذُ الغنيمةَ. والجمع: الغانمون. ويُقال: فلانٌ يتغنَّمُ الأمرَ؛ أي: يَحْرِصُ عليه، كما يَحرِصُ على الغنيمة"[2].

2) ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: يدورُ معنى اليُتْم على انفراد الشَّيءِ عن مُجانسِه، مُستقلًّا بذاته، ومنه الدّرّةُ اليتيمةُ المتفرِّدةُ بقيمتِها أو صفتِها، لاتَشْرَكُها أخرى في هذه القيمة، وكلُّ منفردٍ يتيمٌ. واليُتْمُ هنا هو انقطاعُ الصّبيّ عن أبيه قبلَ بلوغِه، وكلُّ ما في القرآن من لفظ اليتيمِ مفردُهُ ومثنّاهُ وجمعُهُ هو بهذا المعنى[3]. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 2]، سمّاهم يتامى بعدَ بلوغِهم وإيناسِ رُشْدِهم؛ لِلزومِ اليُتْمِ إيّاهم، كما قالوا للنّبيّ ﷺ بعدَ كِبَرِه: يتيم أبي طالب؛ لأنّه ربّاه. وقال الأصمعيّ: اليتيمة: الرّملةُ المنفردةُ، قال: وكلُّ منفردٍ ومنفردةٍ عند العرب يتيمٌ ويتيمةٌ[4].

3) ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾: يدورُ معنى (سكن) على استقرارٍ في جوفِ حيِّز أو باطن: كالقوت في الجوف، وكَهُمودِ ما يُذبَحُ بالسّكّين في مكانه، ومنه المسكين، وهو القارُّ الصّابرُ على ما هو فيه، لا يجاهدُ للتّخلُّص منه، إمّا للتّسليم لصاحب الأمرِ سبحانه، أو لسببٍ عنده. و﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ في الآية جمعُ مِسْكينٍ، وهو الّذي لا يملكُ ما يَسُدُّ حاجتَه؛ لعجزِه واستكانتِه وتسليمِه، واختُلِفَ في أيّهما أشدُّ حاجةً الفقير أو المسكين[5].

4) ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المسافرُ البعيدُ عن منزله، وقد نُسِبَ إلى السّبيل وهي الطّريقُ السّهلُ؛ وذلك لِتَلَبُّسِه به، أو لممارستِه إيّاه، حتّى أصبح بعيدًا عن منزله، أو لملازَمَتِه الطّريقَ في السّفر، أو لأنَّ الطّريقَ تُبرزه، فكأنّها ولدَتْه[6].

---

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غنم).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (غنم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يتم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تيم).
(5) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (سكن).
(6) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (سبل)، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/443.

وقال ابنُ الأثير: "وأمّا ابنُ السّبيلِ فهو المسافرُ الكثيرُ السّفرِ، سُمّيَ ابنًا لها لمُلازَمَته إيّاها. وفيه: «حريمُ البئرِ أربعون ذراعًا من حواليها لأعطانِ الإبلِ والغنَم، وابنُ السّبيلِ أوّلُ شاربٍ منها»[1]؛ أي: عابرُ السّبيلِ المجتازُ بالبئرِ أو الماءِ أحقُّ به منَ المُقيم عليه، يُمَكَّنُ مِنَ الوِرْدِ والشُّربِ"[2]. وقالَ الشّافعيُّ: "ابنُ السَّبيلِ من أهلِ الصَّدقةِ الّذي يُريد بلدًا غيرَ بلدِه لأمرٍ يَلزَمُه. قال: ويُعْطى ابنُ السَّبيلِ قدرَ مايُبَلِّغُه البلدَ الّذي يريدُه في نَفَقَتِه وحَمولَتِه"[3].

5) ﴿ٱلْفُرْقَانِ﴾: تدلُّ مادَّةُ (فرق) على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئين، والفُرقان أبلغُ منَ الفرْقِ؛ لأنَّهُ يُستَعملُ في الفرْقِ بين الحقِّ والباطِل، والفَرْقُ يُستَعملُ في ذَلِك وفي غَيره. والمرادُ بـ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ في هذه الآية يومُ بدرٍ الّذي فرَقَ اللّهُ فيه بين الحقّ والباطل[4]. "والفُرقانُ: البُرهانُ، وهذا مُسْتَقْصًى في كتاب لغات القرآنِ، ورجل فروقَة، وكذلك المرأة، أُخرِجَ مخرجَ نسّابة وعلّامة وبصيرة وما أشبه ذلك"[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعظيمُ شأنِ يومِ بدرٍ، بما وهبه اللّهُ منَ النّصرِ والغنائمِ والآياتِ

واعْلَموا، أيُّها المؤمنون، أنَّ ماظفِرتُم به مِن مالٍ مِنَ الكفّارِ بغَلَبةٍ وقَهْرٍ، وإن كانَ شيئًا قليلًا، فأربعةُ أخماسِه للمقاتِلينَ الّذين حضروا المعركة، والخُمُسُ الباقي يجزَّأُ خمسةَ أقسامٍ: الأوَّلُ للّهِ وللرَّسولِ، فيُجعلُ في مصالحِ المسلمينَ العامَّة، والثّاني لذوي قرابةِ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ وهم بنو هاشمٍ وبنو المطَّلب، جُعِلَ لهم الخُمُسُ مكانَ الصَّدقةِ، فإنَّها لا تحلُّ لهم، والثّالث لليتامى؛ وهم أطفالُ المسلمينَ الّذين فقدوا آباءَهم، والرّابعُ للمساكينِ الّذين لا يملكون ما يكفيهم ويسدُّ

(1) حديث مرفوع عن أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه أحمد في المسند، رقم: (10416)، وإسناده صحيح.
(2) ابن الأثير، النّهاية: (سبل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سبل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (رفق).

حاجتَهم، والخامسُ للمسافرِ الّذي انقطعَت به النَّفقةُ، إن كنتم مقرّينَ بتوحيدِ اللّهِ، مطيعين له، مؤمنين بما أنزلَ على عبدِه محمَّدٍ ﷺ منَ الآياتِ والمَدَدِ والنَّصرِ، يومَ فرَق بينَ الحقّ والباطل ببدرٍ؛ حينما التقى جَمعُ المؤمنينَ وجَمعُ المشركينَ، واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواو في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الغنيمةُ مَلمَحٌ للانتصار بعد الاستبشار:

لَمّا أمرَ اللّهُ المؤمنين بالقتال، في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: 39]، ناسبَ الوصلَ بالواو؛ لمشاركةِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه في الطَّلبِ، ولمناسبةِ الجهةِ الجامعةِ بينهما، فالأوّلُ هو أمرٌ بقتالِ المشركين، والثّاني هو أمرٌ بتعلُّم قسمةِ الغنائمِ المحصَّلةِ من قتالِ المشركين، ولمّا أعقَب تقسيمَ الغنائم بعد الأمرِ بالقتال؛ كان بمثابةِ البشارةِ بالنّصرِ، فإنَّ الغنائمَ لا تكون إلّا عندَ الغلبة(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

لا عُذرَ في انتفاء العلمِ بما يُذكَرُ بعد لفظ (واعلموا)

لَمّا كانَت قسمةُ الغنيمةِ وما يتعلَّقُ بها منَ المهمّات الّتي يحتاجُها النّاسُ، ولكي لا يقعَ تنازعٌ بينَهم، افتُتِحَ قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ المفيدِ وجوبَ الامتثالِ بتحصيله.

ومنَ الفوائد اللّغويّة للتّعبير به: أوّلًا: الإيذانُ بأنَّ ما سَيُذكَرُ ممّا لا عُذرَ للمؤمنين في انتفاءِ العلمِ به. وثانيًا: ليبذل المؤمنون المخاطَبون الجُهْدَ في تفريغِ أذهانهم؛ لوعيه وتنزيله منازلَهُ ورَعيه. وثالثًا: للاهتمام بما يتضمَّنُه مُتعلِّقُ الفعلِ؛ لِحثِّ المخاطَبين على التّأمُّل فيما بعدَه. ورابعًا: لِلَفتِ أذهانِ المخاطَبين إلى ما يُغفَلُ عنه

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/553 - 560، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 182.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 251.

غالبًا من أمرٍ مهمٍّ، ينبغي العلمُ به لما فيه من أثرٍ في حياتِهم. كما أفادَ الأمرُ بـ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ تعليمَ اللّه تعالى المؤمنين قَسْمَ غنائمِهم إذا غَنِموها[1].

المقصدُ الأسنى ظهورُ ثمرةِ العلمِ بالعمل:

بلاغةُ التّعبيرِ بـ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ بينَ الكنايةِ والمجازِ المُرسَلِ:

يَحْتَمِلُ الأمرُ بـ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أن يكونَ كنايةً، يُرادُ بها صريحُ العلمِ ولازمُه[2]؛ والمعنى: طلبُ تعلُّمِ المؤمنين قسمةَ الغنيمة، وطلبُ العملِ بها، لِما يترتّبُ على العلمِ منَ الانقيادِ لأمرِ اللّه، والعملِ بشريعتِه، فتكون الكنايةُ هنا على إرادة المعنيين معًا. ويَحتمِلُ أن يكونَ اللَّفظُ على معنى المجازِ المُرسَلِ، فإنَّ العلمَ العمليَّ إذا أُمِر به لم يُرَدْ منه العلمُ المجرَّدُ؛ لأنَّه مقصودٌ بالعَرَضِ، والمقصودُ بالذّاتِ هو العملُ بقرينةِ السّياقِ، والعلاقةُ هي اللُّزومُ؛ بمعنى: ذَكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ، فالمرادُ هو العلمُ المُضمَّنُ بالعمل، والانقيادُ لأمرِ اللّه تعالى في تقسيمِ الغنيمةِ؛ لأنّ العلمَ بقسمةِ الغنيمةِ يستوي فيه المؤمنُ والكافرُ[3].

الحثُّ على الامتثالِ بالإجمالِ بتحصينِ المعنى منَ الاحتمالِ

دلالةُ المصدرِ المؤوَّلِ في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾:

وردَ المصدرُ المؤوَّلُ في موضعينِ في الآيةِ في قولِه: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾، وقولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾؛ لاقتضاء المقام تحصينَ المعنى منَ الإشكالِ والاحتمالِ الّذي يقترنُ بالمصدرِ الصَّريح، وتخليصَه من شوائبِ الإجمالِ، وللإيذانِ بأنَّ المرادَ حقيقةُ الغُنْم، وحقيقةُ استحقاقِ اللّه، وما عُطِفَ عليه الخُمُسُ من غيرِ أيِّ وصفٍ، أو هيئةٍ، أو كيفيّةٍ مصاحبةٍ للغُنْم أو لاستحقاقِ الخُمسِ، أي: سواءً أكانَ الغُنْمُ بجُهدٍ كثيرٍ أو قليلٍ، أو بضررٍ كبيرٍ أو صغيرٍ؛ حثًّا على الامتثالِ بالإجمالِ المقصودِ في الأذهانِ[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/283، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/314.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/5.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/211، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60.
(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/92 - 93.

نكتةُ مجيءِ المفعولِ مصدرًا مُؤوَّلًا في قولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾:

تأكيدُ وجوبِ العملِ بقسمةِ الغنيمةِ، منَ الأحكامِ الحكيمةِ

لمّا كانَ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ سدَّ مسدَّ مفعولَي ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، وسُلِك فيه تكرارُ الإسنادِ في موضعَي المصدرِ المؤوَّلِ؛ أفادَ ذلكَ تقوّيَ الحكمِ وتقريرَه، فهو على معنى تأكيدِ وجوبِ العملِ به[1]. ولفظُ (ما) في قوله تعالى هي اسمٌ موصولٌ بمعنى (الّذي)، والمصدرُ المنسبِكُ من أنّ وما بعدها مفعولٌ لـ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: "اعلموا كونَ الّذي غَنِمتُموه: خُمسه لله ولرسوله، إلى آخر النّصِّ الكريم"[2].

دلالةُ تَكرار ﴿أَنَّمَا﴾ التّوكيديّة:

تأكيدُ المعنى وتقريرُه في نفوسِ المخاطَبين من مألوف السّياقِ القرآنيّ

أفادَت ﴿أَنَّمَا﴾ - في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ - تأكيدَ الإسنادِ وتقريرَه؛ لتقويةِ المعنى وتثبيتِه في نفوسِ المخاطَبين، والقاعدةُ أنْ "توصلَ (ما) مع (أنّ)، إذا كانت كافّةً عنِ العمل، وتُفصلَ كما هنا إذا كانت عاملةً، وجملة ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ صلةٌ، والعائدُ محذوفٌ، والتّقديرُ: أنّ الّذي غنمتُموه ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ مُطلَقُ شيءٍ بدليل التّنوين: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾"[3]، وكذلك للمُستحقّين كما هو ترتيبُهم في الآية.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول﴿أَنَّمَا﴾:

الغنيمةُ توجِبُ استحقاقَ الأصنافِ الخمسةِ الخُمُسَ

الظّاهرُ أنّ ﴿أَنَّمَا﴾ في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ موصولةٌ بمعنى الّذي[4]، ومناسبةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول بيانُ وجهِ بناءِ الخبرِ عليه؛ أي: لأنَّكم غنمتم، فاستحقّ الأصنافُ المذكورة الخمُسَ، وفيه إشعارٌ بتوجيهِ أذهانِ المخاطَبينَ إلى ما سيخبِرُ به من قسمةِ الغنيمةِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/83.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3130.
(3) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 5/292.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/605.

لينتظروا ورودَه إليهم، حتَّى يأخذَ منهم مكانَه إذا ورد[1]، ومعلومٌ "أنّ المسلمين قد اختلفوا في شأن هذه الأنفال، فكان أنِ انتزعَها اللّهُ من أيديهم، ووضعها في يد الرّسول، ليضعَها حيث يرى"[2].

نكتةُ التَّعبير بـ(ما):

لفظ (ما) أعمُّ من لفظ (الّذي) في استعماله في السّياق

عَبَّرَ بـ(ما) دونَ (الّذي) في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ (ما) أعمُّ منَ الّذي، والسّياقُ يقتضي العمومَ؛ ليتناولَ كلَّ ما يكونُ مَغْنمًا، وإن كانَ قليلًا كما سيأتي، والعِبرةُ ليسَت في قلّة الغنائمِ أو كثرتِها، بل في نصر اللّهِ وتأييده لعباده المؤمنين من جهة، وفي براءة ذمّةِ المنتصرين منَ الغُلول الماحقِ والتّنازعِ السّاحقِ من جهة أخرى، إذ ماحصّلوه من غنيمةٍ مهما كان، فهو متاعُ الحياةِ الدّنيا الزّائل، وما عند اللّه خيرٌ للأبرار.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿غَنِمۡتُم﴾:

الغنيمةُ مِنّةٌ لله تعالى على المؤمنين؛ تتويجًا للنّصر المبين

عَبَّرَ بـ﴿غَنِمۡتُم﴾ في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ دونَ (ظَفِرتُم) مثلًا؛ للإشعار بأنَّ القسمةَ المذكورةَ مختصَّةٌ بما ظُفِرَ به من مالِ المشركين بغلبةٍ أو قهرٍ، وبأنَّه من توابعِ النَّصرِ؛ لإفادة أنَّ الغنيمةَ منَّةٌ للّه تعالى على المؤمنين، و"(غَنِمَ) يدلُّ على إفادة شيءٍ لم يُملكْ من قبل، ثمّ يختصُّ به ما أُخِذَ من مال المشركين بقهرٍ وغلبةٍ"[3].

سببُ إيثارِ حذفِ العائدِ في قوله: ﴿غَنِمۡتُم﴾:

غرضُ حذفِ العائدِ الإيجازُ، وهو من صميم الكلامِ البليغِ

حُذِفَ العائدُ للإيجاز، وهو منَ البيان في موضعِه، ولو ذُكِرَ فقيل: (غنمتموه) لاستطالتِ الكلمةُ من غيرِ فائدةٍ، ولتخصَّصَ المَغنمُ، مع أنَّ المقامَ مقامُ تعميم كما تقدّم، وكلُّ ما وضعَ عليه المنتصرون أيديهم، مهما غَلا وعَلا، فهو محسوبٌ مِنَ الغنيمة،

---

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 182.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/612.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غنم).

وعدمُ تخصيصِه هو فتحٌ لمجال الحصرِ للغنيمة، وعدمُ تقييدٍ له بأشياء دون أشياء، علمًا بأنّ الغنيمةَ كثيرًا ما تهفو لها قلوبُ القادةِ والجندِ، مع أنّها ليست غايةً في الجهاد، ولا مُدرَجةً في النّوايا، ولا واردةً في المقاصد، ولكنّها نتيجةٌ لا غايةٌ، ووسيلةٌ لا هدفٌ.

كلُّ ما يُحصَّلُ من غنيمةٍ، هو فيوضاتُ عطاءٍ كريمةٌ

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿شَيۡءٖ﴾:

لمّا كانَ لفظُ شيءٍ في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ مِن ألفاظِ المعاني الّتي تُطلَقُ على كلِّ ما يُطلَقُ عليه اسمُ شيءٍ، أو على كلِّ ما يصِحُّ الإخبارُ عنه مِنَ المخلوقاتِ في هذا السّياقِ، وكان (ما) فيه معنى الشّرطِ ورائِحَتُه، دلَّ التّعبيرُ على عموم ما يُطلَقُ عليه شيءٌ؛ ليشملَ الحقيرَ والجليلَ، والصّغيرَ والكبيرَ؛ لئَلّا يُتوهَّمَ أنَّ المقصودَ غنيمةٌ معيَّنةٌ خاصَّةٌ[1].

تقسيمُ الغنائمِ شرعٌ مُؤسَّسٌ يذهبُ بسَخائمِ الأنفُسِ

دلالةُ الحالِ في الجارّ والمجرورِ ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾:

لمّا كان الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنَ الضَّميرِ المحذوفِ، في قوله: ﴿غَنِمۡتُم﴾[2]، بتقدير: غنمتُموه، دلَّ على معنى: كائنًا ما كان ذلك الشَّيءُ قليلًا أو كثيرًا، وفي ذلك ترشيدٌ لأهواء النّفوسِ، وكَفْكَفةٌ للمطامعِ والمطامحِ المعهودةِ، وذلك لونٌ مِنَ الجهادِ الأكبرِ، وهو جهادُ النّفسِ، حتّى لا تدخل الأنفسُ في مماحكاتٍ دنيئةٍ، ومشاكساتٍ وضيعةٍ، تعصفُ بالأجورِ، وتُحبطُ الأعمالَ، وتُسهمُ في تَذْكيةِ الصّراعِ الماديِّ المسعورِ، ممّا تشهدُه الانتصاراتُ عادةً، في كلّ زمانٍ، وفي كلّ مكانٍ.

توسّعُ المعنى لتكثيرِ الفائدة من بلاغة القرآنِ الرّائدةِ

نكتةُ مجيءِ الفاء في ﴿فَأَنَّ﴾:

أفادَ مجيءُ الفاءِ في حَيِّزِ الخبرِ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ تأكيدَ تضمينِ الاسمِ الموصول (ما) معنى الاشتراطِ؛

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/211، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/219، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/7.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 5/606، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/3.

ليكونَ الخبرُ على معنى المجازاةِ، والتَّقديرُ: إنْ غنمتُم فحَقٌّ للّهِ خُمُسُه، فيكون الكلامُ مُضمَّنًا معنيين: أحدُهما الإخبارُ؛ ليفيدَ الثّبوتَ، والثّاني: الاشتراطُ؛ ليفيدَ أنَّ الحصولَ على الغنيمة سببٌ للقسمةِ، وللإشعارِ باقترانِ مفهومِ القسمةِ بالحصولِ على الغنيمةِ، لِما يفيدُه معنى الشّرط[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾:

اختصاصُ الخُمُسِ بالأصنافِ المذكورة، وفقًا لأحكامِها الفقهيّة المأثورة

تفيدُ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الاستحقاقَ، وهو الظّاهرُ، والمعنى أنَّ الخُمسَ مُستحقٌّ للّه، ويُشعِرُ الاستحقاقُ بمعنى الاختصاص، فإنَّ مَنِ استحقَّ شيئًا فقد حصلَ له بِهِ نوعُ اختصاص[2]، وهذا منَ المعاني الّتي كانت سببًا في إفرادِ الاسم الجليلِ وتقديمِه، وأجازَ بعضُ المفسّرينَ أن تكونَ للمُلك[3]. و"أكثر المُفَسّرين على أنّ قَولَه: ﴿لِلَّهِ﴾ افتِتاحُ كلامٍ، وليسَ للّه سهمٌ مُنفَردٌ؛ بل سهمُ اللّه وسَهمُ الرَّسول واحِدٌ. وفيه قَولٌ آخر: أنّ للّه سَهمًا يُصرَفُ إلى الكَعبَة، وقد رويَ أنّ الحسنَ بن مُحَمَّد بن الحَنَفيَّة سُئِلَ عَن هذه الآيَة فقال: قَولُه ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ افتِتاحُ كلامٍ، للّه الدُّنيا والآخِرَة"[4].

مناسبةُ إفرادِ اسمِ اللهِ في المعاطيف:

رَضيَ منَ المؤمنين بالخُمُسِ فسمّاه لنفسِه، وردَّهُ عليهم

أفردَ النَّظْمُ الكريمُ اسمَ اللّهِ تعالى، في قولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، ولم يقلْ: (للّهِ ولِلرَّسولِ خُمُسَهُ)؛ بل قال: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ لتعظيمِ الأمرِ وتفخيمِه، وللإيذانِ بأنَّ الاستحقاقَ للّهِ أوّلًا وبالذّاتِ، وأنَّ الدّنيا كلّها للّه، وللإشعارِ بمنَّةِ اللّه على المؤمنين، إذ رضي منكم بالخُمُسِ فسمّاه لنفسِه، وردَّه عليكم[5]، وهو ما يُلمَحُ في

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/605، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/7.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 96.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/8.
(4) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/265.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/238.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ﴾ [النّور: 33]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: 7].

سرُّ عطفِ الرّسولِ الأكرمِ على الاسمِ الأعظمِ:

الامتثالُ للرّسولِ المُجتبَى امتثالٌ لأمرِ الله الأعلى

لمّا تقرّرَ أنَّ الخُمُسَ للرّسول ﷺ كانَ عطفُ الرَّسولِ على الاسم الجليل في قوله: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ ما يكون للرَّسول فهو للّهِ، فإنَّ قِسْمَ اللّهِ وقسمَ الرَّسولِ واحِدٌ؛ تحضيضًا للامتثال لأمرِ الرَّسولِ المبلِّغ عنِ اللّه، ومثله قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التّوبة: 62][1]، وقولُه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، وارتباطُ طاعةِ اللّه وحقوقِه بطاعةِ الرّسولِ وحقوقِه محضُ تكريمٍ وتفخيمٍ لمقام النّبوّة السّامي.

بلاغةُ حذفِ الخبرِ في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾:

لا سبيلَ إلى الإخلالِ بالخُمُسِ والتّفريطِ فيه، مهما كانتِ الأسباب

المصدرُ المؤوَّل: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ؛ لتقوية معنى الوجوبِ، واستحقاقِه للّه تعالى، وبيانُه أنَّه لمّا كانَ المرادُ تثبيتَ معنى أحقّيَّةِ الخُمُسِ للّه تعالى ووجوبِه؛ لم يكتفِ باقترانِ الاسمِ الجليلِ بلامِ الاستحقاقِ، فكانَ الإتيانُ بـ﴿فَأَنَّ﴾ على معنى تكريرِ الإسنادِ؛ تأكيدًا للمعنى. كما أنَّ الخبرَ إذا حُذِفَ واحْتَمَلَ غيرَ واحدٍ منَ التّقديرات، ممّا هو في المعنى نفسِه، مثلَ: ثابت أو واجب أو حقّ أو لازم، وما أشبه ذلك، كان أقوى؛ لإيجابه منَ النّصِّ على واحدٍ، فلمّا حُذِفَ الخبرُ، واقتضى المقامُ أن لا يقدّرَ إلّا ما يفيدُ الوجوبَ بعباراتٍ مُتعدّدةٍ، دلَّ على التّعميم الّذي يفيدُ تأكيدَ الوجوبِ، وتفخيمَ شأنِ القسمةِ، وتهويلَ تركِ الامتثالِ بها. وتقديرُ الكلامِ: فحقٌّ أو فواجبٌ أنَّ للّه خُمُسًا؛ أي: فلا بدَّ من ثباتِ الخُمسِ فيه، لا سبيلَ إلى الإخلال به والتّفريط فيه[2].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/323، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/238.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/221، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/103، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/82، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/8.

مناسبةُ البَدْءِ بالاسم الجليلِ في سياقِ القِسمة:

غرضُ توكيلِ صرفِ الخُمُسِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ

لمّا قال اللّهُ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ آذنَ بأنَّ الابتداءَ باسمِ اللّهِ تعالى؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك الخمسَ حقُّ اللّه، يصرفُه حيثُ يشاءُ، وقد شاءَ فوكَلَ صَرْفَهُ إلى رسولِه ﷺ[1]، كان له خمسُ الخُمس يصنعُ فيه ما يشاء، واليوم يُصرَفُ إلى مصالح المسلمين[2].

ولا شكّ أنّ المؤتَمنَ على صرف الخُمسِ إلى مصارفه الشّرعيّة، وقسمتِه على مستحقّيه؛ هو النّبيُّ الأمينُ، باعتباره المبلِّغَ عنِ اللّه، وحامي حمى الشّريعةِ، والقائمَ للّه بأمره، وفي ذلك دلالةٌ على حساسيّة هذه المهمّة وأهميّتها.

سرُّ التَّعبيرِ في آية الخُمس:

براعةُ نظمِ القرآن وحسنُ تأليفِه من صميم بلاغته الرّاقية

من براعة نظم الآيةِ، أنّ قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ هو بمثابة جملةٍ واحدةٍ، تعلّقَ أوّلُها بآخرِها، مع تكرُّرِ الإسنادِ وتعلّقِ الشَّرطِ في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ بما قبله، في تآلفٍ في النّظمِ عجيب.

نكتةُ تتابُعِ التَّأكيداتِ في آية الخُمس:

تَتابُعُ التّأكيداتِ لتجنُّبِ التّنازعِ على الغنيمة، بحسم الأمر ابتداءً

توالت تأكيداتٌ عدَّةٌ في قوله: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، ومن شأنِها أن تبعثَ في النّفوسِ تقوى اللّهِ تعالى في أمرِ المكاسبِ الدُّنيويّة، فقد أمرَت بالعلم، ودلَّت على فائدة الخبرِ ولازمِها، وجاءَت على أسلوب الجملة الاسميّةِ بما تفيدُه من ثبوتِ المعنى، وتكرّرت (أنّ) الّتي تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملة، وكان الشّرطُ على معنى التّكرير؛ لتقدُّمِ ما يدلُّ على الجواب عليه، كما

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/8.

أفادَ تقدّمُ المسنَدِ على المسنَدِ إليه في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ تأكيدًا آخرَ، فتتابعتِ المؤكّداتُ كي لا تبقى في النّفوس أيُّ رغبةٍ في التّدافُعِ نحوَ الغنيمةِ والتّنازع.

رُسّيَت أحكامُ الغنائمِ على أمانةِ الرّسولِ وقدوتِه

دلالةُ (أل) في لفظ (الرَّسول):

(أل) في قوله: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ عهديَّةٌ؛ أي: الرَّسولُ الّذي تعرفونه، فأشْعَرَ مجيءُ (أل) العهديّة بقُربِه منهم؛ حثًّا على الامتثالِ ورعايةً لِحقِّ الرّسالةِ، وقد كان ذلك التّخصيصُ تكريمًا لمقام النّبوّة المستَحِقَّة، لما تقتضيه أعباءُ البلاغِ في بيئةٍ نافرةٍ منكِرَةٍ، ومُتَطَلَّباتٍ لتأسيسِ مجتمعِ الأنصارِ والمهاجرة، وعليه حُدِّدَ سهمُ الرّسول ﷺ، "فقد كان له الخُمسُ من خُمُسِ الغنيمةِ، فيصرِفُهُ في كفايةِ أولادهِ ونسائِه، ويَدَّخِرُ من ذلك قوتَ سنةٍ، وما يَفضُلُ يصرفُه إلى الكُراعِ والسّلاحِ وغيرِ ذلك منَ المصالح، وقال الشّعبيّ: ما كان رسولُ اللّه ﷺ يطلبُ منَ الغنائم لنفسه شيئًا قطّ إلّا الصَّفيَّ منَ المَغنَم، وهو ما كان يتناولُه من عبدٍ أو أمَةٍ أو فرسٍ"(1).

تأكيدُ العنايةِ بذي قُربى رسول الله ﷺ

سرُّ إعادةِ اللّام دون عطفِها في قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

لمّا كانت اللّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاقِ كما تقدّم، ومثلُها في ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾، أفادَ إعادةُ اللّام في ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ دونَ غيرِهم منَ الأصنافِ الباقيةِ، دفْعَ توهُّمِ اشتراكِهم في سهمِ النّبيِّ ﷺ؛ لمزيدِ اتِّصالِهم به، ولِلاهتمامِ والعنايةِ بهم(2).

إكـــرامُ ذوي القربى لأجلِ قرابتِهم من رسولِ الله ﷺ

دلالة (أل) في قوله: ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

لمّا كانَت لامُ الاستحقاقِ مفيدةً اتّصالَ ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بالرّسولِ كانت (أل) في القُربى عِوضًا عن مضافٍ إليه مقرّرٍ للاتّصال، والتّقدير: لذي قربى المُؤتي المالَ، وهو الرَّسولُ المذكورُ قبلَه، والمعنى:

(1) الكيا الهرّاسيّ، أحكام القرآن: 3/158.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/4.

ولذوي قربى الرَّسول؛ أي: قرابته، ففيه إيذانٌ بأنَّ إكرامَهم لأجلِ صلةِ القرابةِ برسولِ اللّهِ ﷺ، ولأنَّ اللّه حرَّمَ عليهم أخذَ الصَّدقاتِ والزَّكاةِ، فلا جَرَمَ أنَّهُ أغناهم من مالِ اللّهِ[1].

وقال القرطبيُّ: إنّ اللّامَ لبيان المصرفِ والمحلِّ[2]، وإكرامُهم بسبب القربى من رسول اللّه واردٌ بجلاءٍ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشّورى: 23]، وفي الحديث: «لا يُحبُّهُم إلّا مُؤمنٌ، ولا يُبغضُهُم إلّا منافقٌ، مَن أحبَّهم أحبَّه اللّه، ومَن أبغضَهم أبغضَه اللّه»[3]، وقد أُثِرَ عنِ الصّدّيق رضي الله عنه أنّه قال: (والَّذي نَفسي بيَدِه لَقَرابَةُ رَسولِ اللّه ﷺ أحَبُّ إليَّ أن أصِلَ مِن قَرابَتي)[4]. وقد أجمعَ العلماءُ على أنّه من تمام محبّةِ النّبيِّ ﷺ محبّةُ آله، ومعلومٌ أنّ القرآنَ يحثُّ على إكرام القرابة عمومًا، وهم أولو الأرحام، وصلةُ رحمِ النّبيِّ أولى بالإكرام، وفي هذا المضمار يقول الشّافعيّ[5]:

يا آلَ بَيتِ رَسولِ اللّهِ حُبُّكُمُ *** فرضٌ مِنَ اللّهِ في القُرآنِ أنزَلَهُ

يَكفيكُمُ من عَظيمِ الفَخرِ أنَّكُمُ *** مَن لَم يُصَلِّ عليكُم لا صَلاةَ لَهُ

الغنيمةُ كلُّها للّه، وتقسيمُها مِنَّةٌ من الله على المؤمنين

بلاغةُ التَّراكيبِ في آية الخُمس:

جاء قولُه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ في تأليفٍ بديعٍ ونظمٍ بليغٍ عجيبٍ، وبيانُه أنّه أفردَ كينونةَ الخُمُسِ للّهِ، وفَصَلَ بينَ اسمه تعالى وبين المعاطيف، بقوله: ﴿خُمُسَهُۥ﴾؛ ليَظْهَرَ استئثاره تعالى بكَينونَةِ الخُمسِ له، ثمّ أشرَكَ المعاطيفَ معه على سبيلِ التّبعيّةِ له؛ للإشعارِ بأنَّ الأمرَ كلَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/9.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/11.
(3) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (3572).
(4) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (3508).
(5) حسين بن محمّد المهديّ، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال: 1/438.

للّهِ، فالمعاطيفُ من جهةِ أنَّها توابعُ يكون موضعُها التَّقديمَ؛ لتقدُّم المعطوفِ عليه؛ ليفيدَ التّقديمُ التّخصيصَ والاهتمامَ بالقسمةِ، ومن جهة فصلِها بـ﴿خُمُسَهُۥ﴾ يكون موضعُها التّأخيرَ؛ للإشعارِ بأنّ الغنائمَ كلَّها للّهِ، ولهذا لم يأتِ التَّركيبُ على ما هو مقتضى الظّاهر، بأن يُقال: (فأنّ للّهِ وللرَّسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابنِ السَّبيل خمُسَه)[1].

دلالةُ (أل) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾:

اليتامى والمساكين محلُّ الشَّفقة، ومناطُ العنايةِ والمؤازرة

(أل) في اللَّفظين جنسيَّةٌ؛ للإشعارِ بأنَّ النَّصيبَ المذكورَ ليس لأفرادٍ معيّنين بل لكلِّ مَن له وصفٌ من حقيقةِ اللَّفظين المذكورَين؛ لإفادةِ العموم، وهؤلاء هم أجدرُ النّاسِ بالعطاء، وقد حثّ اللّهُ على القسمة لهم وإغنائهم، لما يحتاجون إليه من دعم وإعانةٍ، على اعتبار أنّهم جزءٌ منَ المجتمع، وأنّ الدّولةَ تُخصّصُ لهم من مداخيلها ما يُغنيهم عن ذلّ السّؤالِ، ما داموا في ظلّ الإسلام، أخذًا بمبدأ التّكافلِ العامِّ، وحِفظًا لكرامة الإنسانِ في مجتمع الإيمان.

نكتةُ مجيءِ ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ بصيغةِ الجمعِ:

كثرةُ اليتامى والمساكين توجبُ إعطاءَهُم قِسمَتَهم منَ الخُمُسِ

جاءَ اللَّفظانِ بصيغة الجمع؛ لِما في الجمعِ من معنى الكثرةِ؛ لِتهتزَّ قلوبُ المؤمنين لهم، ويرغبوا في إعطائِهم، فيكونوا ممتثلين لأمرِ اللّه بإعطائهم قسمتَهم منَ الغنيمةِ عن رضًا ورغبةٍ، والاستحقاقُ كان لهاته الفئات لما يعانون من غَبْنٍ وخَصاصَةٍ، وقد تكفّلَ الشّرعُ بتقسيم الغنائم تفاديًا للصّراع المادّيِّ المسعورِ، ممّا يقعُ عادةً عند انتصارِ الجيوشِ، وصراع القادةِ والجندِ؛ لتحصيل المنافع الدّنيويّةِ المغْرِيَةِ، وهو أمرٌ حَسَمَه السّياقُ القرآنيُّ بحزمٍ ودقّةٍ، مُلتفِتًا إلى الفئاتِ المسحوقة منَ اليتامى المغبونين، والمساكينِ المعوزين؛ لضمان الكفايةِ، والتّخفيفِ من ضغط الحياةِ، ولأْواءِ العَوَزِ.

(1) أبوحيّان، البحر المحيط: 5/326.

بلاغةُ ترتيب المستحقين في آية الخُمس:

لمّا كانَتِ القرابةُ مُقدَّمةً شرعًا وعُرفًا، وكان اقترانُ ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بلفظ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ فيه بيانُ اتّصالِهم برسول الله، قُدِّمَ لفظُ ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ على غيرِه، ولمّا كان اليتيمُ أشدَّ عَوَزًا منَ المسكين غالبًا، والقلوبُ بفطرتِها تميلُ إلى إعطائه، قُدِّمَ على المسكين، وكلُّهم يُقدَّمُ على ابن السّبيل.

ولهذا التّرتيبِ نظائرُ في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: 7]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ [البقرة: 177]، وقوله: ﴿وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّساء: 36].

اليتامى أشدُّ عَوَزًا منَ المساكين؛ لزيادة فقْدِ العائل، وانكسارِهم باليُتْم

نكتةُ الإفرادِ في ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

لم يُذكرِ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ في القرآنِ الكريم إلّا بحالةِ الإفراد دونَ الجمعِ، فلم يقُلْ: (أبناء السّبيل)، مع أنّه في أكثر المواضع كان يُعطَفُ على الجمعِ، وكأنَّ إفرادَه لانفراده عن أحبابه ووطنه وأصحابِه، فهو أبدًا يتوقُ إلى الجمعِ، ويشتاقُ إلى الرَّبعِ، والكريمُ يحِنُّ إلى وطنه حنينَ الشّارف إلى عَطَنِه. أو لأنَّه لمّا لم يكنْ بين أبناءِ السَّبيلِ والمعطي تعارفٌ غالبًا، يُهوِّنُ أمرَ الإعطاء، ويرغِّبُ فيه، أفردَهم؛ ليهونَ أمرُ إعطائِهم، وليشيرَ إلى أنَّهم - وإنْ كانوا جمعًا - ينبغي أن يُعتبَروا كنفسٍ واحدةٍ، فلا يَضْجَرُ من إعطائِهم لِعدمِ معرفتِهم وبُعْدِ منفَعَتِهم[1].

أُفرِدَ ابنُ السَّبيلِ؛ لانفرادِه عن أحبابِه ووطنِه وأصحابِه

سرُّ جمعِ اليتامى والمساكين، وإفرادِ ابن السَّبيل:

لمّا كان اليتامى والمساكين أكثرَ منِ ابنِ السَّبيل باعتبارِ الوجودِ

الاهتمامُ بترتيبِ القسمةِ مِن عدلِ القرآنِ والحكمةِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/70 - 71.

الخارجيِّ؛ قُدِّمَ الكثيرُ على القليل في القسمةِ، وللإشعارِ بأهمّيّة ترتيبِ القسمةِ بينهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة:

تقسيمُ الغنيمةِ دالٌّ على كمالِ الإيمانِ، وتنفيذِ أحكامِ الرّحمن

لمّا كانَت (إنْ) تُسْلَكُ فيما يُشكُّ فيه؛ لندرةِ وقوعِه أو لصعوبتِه، كان الإتيانُ بـ﴿إِن﴾ هنا في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ المخاطَبين مؤمنون، ومناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر، هو الإشعارُ بثقلِ تحقُّقِ الجزاءِ وصعوبتِه على النّفس، لِما فيه منَ التّخلّي عنِ المالِ - الّذي يتحصَّلُ بمشقَّةٍ وكربٍ - للّه ولرسولِه، فلمّا كانت (إن) تُستعمَلُ لِما يندرُ وقوعُه؛ أفاد الإتيانُ بها تعظيمَ شأنِ إيمانِهم، عندَ امتثالِهم للّه ولرسولِه ﷺ، كما يَحتمِلُ أن يكون المعنى: (إنْ كنتم مؤمنين حقًّا)؛ ليكونَ تقسيمُ الغنيمةِ دالًّا على كمالِ الإيمانِ.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشّرطِ:

حذفُ جوابِ الشّرطِ لتأكيدِ الامتثالِ لقسمةِ الغنيمةِ

جاء النَّظمُ الكريمُ في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ على هيئة الجملةِ الشّرطيّةِ الّتي حُذِفَ جوابُها؛ ليفيدَ تأكيدَ المعنى وتقريرَه، وكأنّ جوابَ الشّرطِ قد تكرَّر؛ لتعلُّقِ الشّرطِ بجوابٍ محذوفٍ يدلُّ عليه ﴿۞وَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ والمعنى: "إنْ كنتم آمنتم باللّه وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقانِ، يومَ التقى الجمعانِ، فاعلموا أنّه تعالى جَعَلَ الخُمُسَ لهؤلاء، فيجبُ التّقرّبُ به، فانقادوا وسلِّموا لأمرِ اللّه فيما أعلمكم به من حال قسمةِ الغنيمةِ، وسلِّموا الخُمُسَ إليهم، واقتَنِعوا بالأخماس الأربعة الباقية"[2]. وأفادَ هذا الأسلوبُ تحفيزَ السّامعين وتنشيطَهم لِلمبادرة إلى الامتثالِ، فيما يُتصوَّرُ فيه مشقَّةٌ على النّفس.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/211، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/531، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60.

تعظيمُ شأنِ الآياتِ المنزّلةِ يومَ الفرقانِ مَلمحٌ في البيان

مناسبةُ التَّعبيرِ بـ(ما) وصلته:

لمّا كان الاسمُ الموصول (ما) أعمَّ منَ (الّذي) دلَّ التَّعبيرُ به في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ على تعظيمِ النَّصرِ الّذي أنزله اللّهُ يومَ بدرٍ على نبيِّه ﷺ وأصحابِه وظهورِه، فالمنزَّلُ يومَ بدرٍ آياتٌ عظيمةٌ باهرةٌ، ولتأكيدِ هذا العموم وتفخيمِه حُذِفَت صلةُ الموصولِ، والتّقدير: إن كنتم آمنتُم باللّه وبما أنزلناه[1]. والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؛ "أي: وآمنتُم بما أنزلنا على عبدنا محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، من آياتِ التّثبيتِ والمَدَدِ، يَومَ الفُرقانِ الّذي فرَقْنا فيه بين الكفر والإيمان"[2].

على قدر عظمة المُـنـزِل تكون عظمةُ المُنَزَل

بلاغةُ أسلوبِ الالتفاتِ:

في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ التفاتٌ، فلم يَقُل: (وما أنزل على عبدِه) بعد قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، فعَدَلَ عن ضمير الغَيْبةِ إلى (نا) الّتي تفيدُ تعظيمَ المتكلِّم، ولوَّنَ الخطابَ للإشعارِ بتعظيم الآياتِ المنزَّلةِ، فالعظيمُ لا ينزِّلُ إلّا آياتٍ عظيمةً.

كما أنَّ في الالتفاتِ عنايةً بالمُنَزَّلِ والمُنَزَّلِ عليه، واستدرارًا لإصغاء السّامعين لِعظَم شأنِ الخبرِ.

علّةُ نزولِ الآياتِ يومَ بدرٍ بسرعةٍ وتدفّقٍ عجيبٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾ أنَّ نزولَ الآياتِ يومَ بدرٍ كان دفعةً واحدةً، وكان إنزالًا سريعًا لأجلِ التَّفريجِ عنكم منَ القرآنِ، والجنودِ، والسَّكينةِ في قلوبِكم، وغيرِ ذلك، وأشعرَ اللّفظُ برفعةِ المنزَّلِ؛ لأنَّ الإنزالَ منَ السّماءِ. وقولُه: "﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ عطفٌ على الاسم الجليل؛ أي: إن كنتم آمنتم باللّه وبما أنزلناه"[3]؛ "أي: إن كان إيمانُكم باللّه،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/531، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/23.
(2) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/562.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/23.

وبالحقّ الّذي أنزله اللّهُ على رسوله يومَ الفرقان، الّذي حصلَ فيه منَ الآيات والبراهين، ما دلّ على أنّ ما جاء به هو الحقّ"(1).

دلالةُ الحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾:

غـرضُ السّـياق تـشريفُ رسـولِ الـلّـه ﷺ وتكريمُه

أفادَ التّعبيرُ بحرفِ الاستعلاء في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ تمكُّنَ الآياتِ المنزّلةِ من رسولِ اللّهِ ﷺ، وكأنّها أظلّته استيعابًا، تشريفًا له ﷺ وتكريمًا، وفيه التّنويهُ بالرّسول المنزَّلِ عليه القرآن، ومختلف معجزات التّأييدِ والنّصرِ له في غزوة بدرٍ؛ للتّذكير بأنّ "ما أسداهُ إليكم يومَ بدرٍ، لم يكن جاريًا على مُتعارَفِ الأسبابِ المُعتادَةِ، فقُدرةُ اللّه قلبَتِ الأحوالَ، وأنشأتِ الأشياءَ من غيرِ مَجاريها. ولا يَبعُدُ أن يكونَ من سببِ تَسميَةِ ذلكَ اليوم يومَ الفرقانِ، أنّه أُضيفَ إلى الفرقانِ الّذي هو لَقَبُ القرآنِ، فإنّ المشهورَ أنّ ابتداءَ نزولِ القرآنِ كان يومَ سبعةَ عشَرَ من رمضانَ، فيكونُ من استعمالِ المُشترَكِ في مَعنَيَيه"(2).

بلاغةُ التّعبيرِ في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾:

إبـــرازُ مـقـامِ الـرّسـولِ الأعظمِ، بوصفِ العبوديّةِ الأكرمِ

في وصفِ رسولِ اللّه بكونه عبدًا للّه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ تشريفٌ لمقامه ﷺ، فهو أعلى مقامٍ يمكن أن يصلَ إليه بشرٌ، ولم يوصَف به رسولُ اللّهِ ﷺ في القرآن إلّا في سياقِ الخصوصيّة، فدَلَّ على أنَّ إنزالَ الآياتِ لخصوصيّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، كما أنَّ إضافتَه إلى ضميرِ العظمةِ زيادةٌ في تشريفِه ورفعةِ مقامِه. ولمّا خصَّ الإنزالَ على رسولِه، ولم يقُل: (وما أنزلنا عليكم) أفادَ أنَّ سببَ إنزالِ الآياتِ وحصولِ الغُنْم والنّصرِ أمران: إيمانُهم باللّه ووجودُ رسولِ اللّه بينهم؛ تكريمًا له ﷺ، وتشريفًا، وبيانًا لمقامه العظيمِ عند اللّه تعالى.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/15.

مناسبةُ العطفِ في الشّرط:

الإيذانُ بتحقُّقِ الإيمان، بالامتثالِ في قسمةِ الغنيمةِ لأمر الله

أشعرَ العطفُ في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أنَّ التّقديرَ: (إنْ كُنتُم آمنتُم باللّهِ، وآمَنتُم بما أنزلنا على عَبدنا)، فالمعطوفُ عليه وهو الإيمانُ باللّه سببٌ لتحقُّقِ المعطوف وهو الإيمانُ بما أنزلَ اللّهُ على رسولِه؛ للإيذانِ أنَّه لا يتصوَّرُ وجودُ المعطوفِ دونَ المعطوف عليه، وأنَّ المعطوفَ بسببٍ منَ المعطوف عليه، وليكون مجموعُ قوله: ﴿كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ شرطًا، كما أنَّ في العطفِ ما لا يخفى منَ التَّشريف والتَّعظيم[1]؛ لتعلُّقِ الإيمانِ بالآياتِ المنزَّلةِ يومَ بدرٍ على رسولِ اللّه ﷺ، مع أنَّ الإيمانَ برسولِ اللّه كافٍ للإيمانِ بها، ولِما يفيدُه الاقترانُ بالإيمانِ باللّه تعالى منَ المعنى المذكور؛ والمعنى: الإيذانُ بتحقُّقِ الإيمان بمجموعِ الشّرطِ بالامتثالِ في قسْمةِ الغنيمةِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿كُنتُمۡ﴾:

قسمةُ الغنيمةِ زيادةٌ في الإيمانِ، وتحقيقٌ للعبوديّة للدّيّان

أفادَ مجيءُ الفعلِ الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ إثباتَ إيمانِ المخاطَبينَ، بمعنى تحقُّقِ وقوعِ إيمانِهم[2]، وهكذا في كلِّ شرطٍ يقترنُ به الفعلُ (كان)، ولو قال: (إنْ آمنتم باللّه) لكان المعنى على الاستقبال. كما أفادَ انتفاءَ إيمانِهم؛ لدلالةِ الشّرطِ على الاستقبال، فلمّا قال: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، ولم يدلَّ الفعلُ (كان) على انقطاعٍ طارئٍ، كان المعنى: إنْ كنتم آمنتُم باللّه حقًّا، وداومتُم على إيمانكم، فيُشعِرُ اللّفظُ أنَّ العملَ بقسمةِ الغنيمةِ زيادةٌ في الإيمانِ وتحقيقٌ له.

دلالةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾، فيه إطلاقُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/8.

(2) الرّضيّ، شرح كافيَة ابن الحاجب: 2/293، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/64.

الإنزالِ على حصوله استعارة، تشبيهًا له بالواصل إليهم من علوّ، تشريفًا له، كقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: 26][1]، والحاصلُ: أنّ ذلك التّنزُّلَ "هو أوّلُ مشهدٍ شهدَه رسولُ اللّه ﷺ، واللّهُ على كلّ شيءٍ قديرٌ، فكان ممّا شهدتُم من تصريف قدرته بقضائه وقدره مع تأييد رسولِه، وإنجازِ وعده له، أن نصركم على قلّتِكم وجوعِكم وضعفِكم، على ثلاثة أضعافِ عددِكم أو أكثر منَ الأقوياء"[2].

عندما ينصرُ اللهُ نبيَّه، فلا غالبَ لبأسه، ولا قاهرَ لبطشه

مناسبةُ تقييدِ الإنزالِ بظرف الزّمانِ:

دلَّ تعلُّقُ ظرفِ الزّمانِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ بالفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾، على تعظيم زمانِ الإنزالِ وتفخيمِه؛ لِما ظهر فيه منَ الآياتِ البيّناتِ ونصرِ المؤمنين على الكافرين، فأشعرَ بتعظيم الظّرفِ لشرفِ ما أنزلَ فيه من وحيٍ وملائكةٍ، وعظمِ ما تحقّقَ فيه من نصرٍ وتأييدٍ، وتلك سنّةُ اللّه في نصر عبادِه المرسلين، ودَحْرِ أعدائه منَ الكافرين والمناوئين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾ [المجادلة: 20 - 21].

تشريفُ الظّرفِ الزّمانيِّ لِشرفِ مظروفه

مناسبةُ تخصيصِ الإنزالِ:

تخصيصُ إنزالِ الآياتِ الباهراتِ بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾، فيه مَلمحٌ عجيبٌ، ولطيفةٌ ماتعةٌ؛ فالفرقانُ هو اسمٌ للقرآنِ، حيثُ فرّق اللّهُ فيه بين الحقّ والباطلِ، والفرقانُ هو اليومُ الّذي نزلَ القرآنُ فيه على الرّسولِ ﷺ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: 185]، وكلا الأمرين: نزولُ الفرقانِ ويومُ الفرقانِ في بدرٍ كانا في رمضانَ.

نزولُ الفرقانِ ويومُ الفرقانِ، كلاهما كان في شهرِ رمضانَ الأبرك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/14.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/17.

مَن ينصره الله فلا غالبَ له سواه

دلالة (ألْ) في لفظَي ﴿ٱلْفُرْقَانِ﴾ و﴿ٱلْجَمْعَانِۗ﴾:

التّعريفُ بـ(أل) في ﴿ٱلْفُرْقَانِ﴾ و﴿ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ للعهد؛ للإيذانِ بحضورِ يوم بدرٍ في أذهان المخاطَبين؛ لأهميّة هذا اليوم، "حيث كان يومًا فارقًا بين الحقّ والباطل، بين الإيمان والكفر، ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ جَمْعُ المسلمين، وجمعُ الكافرين، فقد شهدَ المسلمون في هذا اليوم، كيف كانت أمدادُ السّماءِ تتنزّلُ عليهم، وكيف كانت آثارُ هذه الأمداد في عدوّهم، وفي دحره وهزيمته"[1].

التقاءُ الفريقينَ يومَ الفرقانِ، بمحضِ تدبيرِ اللّه ذي الإحسان

دلالةُ ﴿يَوۡمَ﴾ بين البدليَّة وعطفِ البيان:

لمّا كان ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ هو نفسه يومَ الفرقانِ، وكان على معنى تمامِ البيانِ والإيضاحِ، دلَّ على أنَّه بدلٌ من ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ أو عطفُ بيانٍ، فهو على معنى التّتميم، وجاء البدلُ أو عطفُ البيانِ مُضافًا إلى الجملة الفعليّة؛ للإشعارِ بعظمِ تدبيرِ اللّهِ في هذا الالتقاء؛ لِما يفيدُه لفظُ ﴿ٱلۡتَقَى﴾، من كونِه عن غير قصدٍ من جمعِ المؤمنين، ولا من جمعِ الكافرين، بل بمحضِ تدبيرِ اللّهِ، ولتصويرِ حالةِ التقاءِ الجمعين؛ إذ فرّق اللّهُ به بين قوى الحقِّ وقوى الباطلِ، كما فرّق بقرآنه بين الحقّ والباطل، ولو قيل: (يوم بدر)، لم يُفِد هذه الفوائدَ[2].

غلبةُ المؤمنين، تحقّقَت بما أنزلَ اللّهُ من أسبابِ النُّصرةِ الإلهيّة

مناسبةُ إضافةِ الظّرفِ إلى الفعل في قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾:

أُضيف ظرفُ الزَّمانِ إلى الجملةِ الفعليَّةِ ﴿ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾؛ لِتصويرِ تلك الحالةِ الدّالَّة على ضعفِ أحدِ الفريقين وقوَّةِ الآخر، بما تقدَّمَ من ذكرِ أحوالِ الفريقين، وللإشعارِ بغلَبَةِ الضَّعيف على القويِّ، بما أنزلَ اللّهُ من أسباب الفتحِ والنُّصرةِ، ولو قيلَ: (يومَ بدر)، لم يُفِدْ هذا المعنى[3].

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/619.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/284.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/109.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلۡجَمۡعَانِۖ﴾:

التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡجَمۡعَانِۖ﴾ دون (الفئتان) أو (الجيشان) مثلًا؛ لِما فيه من قوّة الجمعِ والاحتشادِ، فعدوُّكم قد تجمّعَ يريدُ قتلَكم، وأنتم تجمّعتُم تريدون إزهاقَ الباطلِ، فلا ينبغي مع هذا التّجمّع أن تتفرّقوا بسببِ الغنائم، وأن تتقاتلوا على مكاسبِ الدّنيا؛ ففي استعمال هذه اللّفظة شحذٌ لِلهمم نحوَ الاجتماع، ونبذِ الفرقةِ بينَ الصُّفوفِ؛ لأنّ الاتّحادَ رحمةٌ، والفرقةَ عذابٌ، وفي عدم الجمع، ضعفُ القوّةِ، ووهنُ المقاومةِ، واشتدادُ شوكةِ العدوِّ، وميلانُ كفّةِ الغلبةِ، وذهابُ الرّيحِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: 46]، وقوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: 103].

غرضُ نبذِ الفرقةِ بينَ المؤمنين، الضّمانُ للنّصر والتّمكين

دلالةُ الواو بين الحاليّة والاستئناف:

تحتملُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، أن تكون حاليّةً على معنى: والحالُ في هذا كلّه، أنّ اللّهَ قديرٌ على هذا وغيره، من نصرةِ المؤمنين، وتكليفهم بما يحفظُ عليهم دينَهم ودنياهم، كما تحتملُ أن تكونَ استئنافيّةً لتقريرِ حكمٍ كلّيٍّ، يدخلُ فيه ما تقدّمه.

قدرةُ الله لا يُعْجِزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء

سرُّ التّقديمِ والتّأخير:

لمّا كان تقديمُ متعلّقات الخبر يفيدُ الاهتمامَ بها، والعنايةَ بشأنها، مع تأكيدِ المعنى وتقريره، أفادَ تقديمُ شبه الجملة الجارّ والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على خبر المبتدأ ﴿قَدِيرٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ إظهارَ قدرته ﷻ، في كلّ ذرَّةٍ من ذرّاتِ الكون، وتقريرَها عندَ المخاطَبين، حتّى لا يتبادرَ لذهنِ أحدٍ أنّ هذهِ القدرة قد يفوتُها بعضُ الأشياء، "فقد شهدَ المسلمون في هذا اليوم، كيف

كمالُ قدرة الله وعمومُ مُتعلَّقِها

كانَت أمدادُ السّماءِ تتنزّلُ عليهم، وكيف كانَت آثارُ هذه الأمداد في عدوِّهم، وفي دحره وهزيمته"[1].

الإعلامُ بعمومِ قدرةِ الله وإحاطتِها بكلِّ شيءٍ، مرقاةٌ إلى اليقين

نكتةُ التَّعبيرِ بألفاظ العمومِ في ﴿كُلِّ﴾ و﴿شَيۡءٖ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿كُلِّ﴾ من ألفاظ العموم الّتي تستغرقُ كلَّ أفرادِ ما أُضيفَ اللَّفظُ إليه، وكان ﴿شَيۡءٖ﴾ أعمَّ لفظٍ من ألفاظ المعاني؛ لدلالتِه على كلِّ ما يصحُّ الإخبارُ عنه منَ المخلوقاتِ في هذا السّياق، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، فالتّركيبُ منَ العامِّ الّذي يأتي على الجملة لا يغادرُ منها شيئًا[2]، فلمّا كان كذلك أفادَ التّعبيرُ بهذا التّركيبِ عمومَ قدرةِ اللّه تعالى وإحاطتَها بكلِّ شيءٍ.

إفادةُ التّقديم حصرَ المعنى وتأكيدَه، لمزيدٍ منَ التّحقُّق بفحواه

مناسبةُ تقديمِ المُتعلَّقِ على المتعلَّقِ به:

قُدِّمَ مُتعلَّقُ المسندِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المسندِ في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لتخصيصِ الأمر بقدرة اللّهِ وحدَه، ولتأكيدِه، وتقريرِه، فالمعنى على الحصرِ، "وفي هذا إشارةٌ إلى اللّه تعالى القادر على كلّ شيءٍ، هو الّذي نصركم، وهو الّذي قهرَ عدوَّكم، مع كثرة العَدد والعُدَد، وهو الّذي بدَّلَ من ذُلّكم عزًّا، ومن عزّهم خذلانًا، وهو الّذي دمغَ الباطلَ فأزهقه، وهو الّذي حقَّ الحقَّ بكلماته، وأُبطِلَ المُجرمون، فإذا كان نصرُكم بتأييد اللّه، وتؤمنون به حقَّ إيمانكم فلا تستكثروا حقَّ اللّه والضّعفاء في الغنائم، إن كنتم مؤمنين"[3]، فإن قدرتُم بالنّصر والتّمكين، فلا تنسوا قدرةَ اللّه ربِّ العالمين.

تنوّعُ الدّلالات وتكثيرُها بلفظٍ واحدٍ؛ لمناسبة المقام

مناسبةُ إيثارِ لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾:

إيثارُ الاسمِ الجليلِ بوصفِه بـ﴿قَدِيرٌ﴾، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لتُختمَ به هذه الآيةُ، فيه دلالاتٌ لغويَّةٌ بلاغيَّةٌ مناسبةٌ لمقامِ الكلامِ وسياقِه، وهي: أوّلها: لمّا كان لفظُ ﴿قَدِيرٌ﴾ صفةً مشبَّهةً

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/619.

(2) ابن فارس، الصّاحبي في فقه اللّغة، ص: 159.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3138.

على معنى المبالغة في الوصفِ، دلَّ على دوامِ اتّصافِ اللّهِ تعالى بالقدرة وثبوتِها؛ ليؤذنَ باستمرارِ أثرِها في كلِّ شيءٍ. وثانيها: فيه تعريضٌ بالوعيدِ، لِمَن يتنكّبُ عن تشريعات اللّه وأحكامه الّتي تقدّمَت. وثالثها: فيه إشارةٌ إلى أنّ هذه المغانمَ ما كانَت لتكون لولا قدرتُه تعالى. ورابعها: فيه تذكيرٌ بنصره تعالى للمؤمنين ببدرٍ، وبقدرتِه على أن يفعلَ هذا دومًا، فاللّهُ تعالى قادرٌ على أن ينصرَ القليلَ على الكثيرِ، والذَّليلَ على العزيزِ، كما فعلَ بكم ذلك اليوم، فلا يُعجزُ اللّه شيءٌ، ولا يخرجُ عن قدرتِه شيءٌ.

حسنُ التّذييل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

تنوّعُ فوائدِ جملةِ التّذييل لعمومِ معناها، وعمقِ دلالتها

في الإتيانِ بجملةِ التّذييلِ فوائدُ، هي: أنّ الآيةَ الكريمةَ ذُيِّلَت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لِتفيدَ معنى العمومِ والكلّيّةِ، وأنّها لمّا كانَت على معنى العمومِ كانَت كالمَثَلِ في جريانِها في الكلامِ؛ لصحّةِ التّمثيلِ بها في بيانِ إحاطةِ قدرةِ اللّهِ بكلِّ شيءٍ، وأنَّه لا يفوته شأنٌ ولايعجزه أمرٌ. وأنّ جملةَ التَّذييلِ، كما تفيدُ تأكيدَ مفهومِ الآيةِ، فإنّه يدخلُ في عمومِها قدرةُ اللّه على نصرِ المؤمنين، وهم قليلون بالأولويّة لمناسبةِ السّياق، وأنّ الإيذانَ بالتّعجيب من أمرِ اللّه، وعظيمِ قدرتِه؛ لانعكاس الأمرِ في النَّصرِ، إذ نصرَ القليلَ على الكثيرِ؛ للإشعارِ بأنَّ ما فعل هو الجاري على سننِه المطّردة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأنفال والغنيمة والفيء:

اختلافُ التّعبيرِ عنِ المعنى الواحد؛ لاختلافِ الاعتبارات

وردَ في سورة الأنفال استعمالُ النَّفَلِ والغَنيمَة، ووردَ في القرآن - أيضًا - لفظُ ﴿أَفَآءَ﴾ [الحشر: 7]، والفرقُ بينها: أنَّه إذا اعتُبِر بكون المالِ مَظْفورًا به بقوّةٍ وشوكةٍ؛ يُقالُ له: غَنيمَةٌ، وإذا حصلَ من غيرِ قتالٍ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/284، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/612.

يُقالُ له: الفَيْء، وإذا اعتُبِرَ بكونه مِنحَةً منَ اللّه ابتداءً من غير وجوبٍ؛ يُقالُ له: نَفَلٌ، أو أن يكونَ قبلَ القِسْمةِ من جملةِ الغنيمة. وذهبَ بعضُ اللّغويّين إلى أنَّ الفرقَ بينَ الغنيمةِ والفيءِ هو أنَّ الغنيمةَ اسمٌ لما أُخِذَ من أموال المشركين بقتالٍ، والفيءَ ما أُخِذَ من أموالهم بقتالٍ وغير قتالٍ إذا كان سببُ أخذه الكفرَ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 391، والرّاغب، المفردات: (فيأ).

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢﴾ [الأنفال: 42]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

الرّبطُ بين أحكام غنائم بدرٍ، وبين قضاء الله بالحرب والتّمحيص والنّصر

بعد تفصيلِ أحكامِ الغنائمِ والتقاءِ الجَمْعَيْن، ذكرَ لهم يومَ ملتقاهم، وحالتَهم الّتي كانوا عليها، من اعترافٍ بالعجزِ؛ تذكيرًا لهم بحالتِهم الحَرِجَةِ الّتي كانوا فيها، وتنبيهًا إلى لطفِ اللّهِ بهم؛ ليكونَ ردعًا عن المنازعةِ وردًّا إلى المطاوعة، فقال مبدلًا من ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾، ما سمّاه ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[1]، وكيف قضى ما قدّر، ونصر مَن آمنَ وكبّر.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ﴾: "قالَ القُتَبيُّ: العُدْوة: الشَّفير، شَفير الوادي، وقال أبو عَوسَجَةَ: العُدوة: ناحيةُ الوادي الّتي تليهم، وقال: إنّما سمّيَت الدّنيا؛ لأنّها دنَت منك، والآخرة؛ لأنّها استأخرت"[2]. و(العُدوَةُ) بضمّ العين أو كسرها لغتان من لغات العرب، قُرِئَ بهما[3]. ويدورُ معنى العَدْوِ على تجاوزٍ في الشَّيءِ وتقدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتصَر عليه، ومن ذلك العَدْوُ، والعُدوةُ: البقعةُ الصّلبةُ المرتفعةُ شيئًا على غيرِها من حافَّةِ الوادي وجانبِه؛ وسُمّيَت بذلك لتجاوزِها وارتفاعِها على غيرِها ممّا يجاورها[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/15 - 16.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/224.
(3) قرأ ابن كثير والبَصريّان ﴿بِٱلۡعِدۡوَةِ﴾ بكسر العين، وقرأ الباقون بالضّمّ. يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 4/2337.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).

2) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: من "(دنا) منه من باب سما وسميت، و(الدّنيا) لدنوِّها، والجمع (الدّنا) مثل الكُبْرى والكُبَر، وأصلُه دنو، فحذفتِ الواو لاجتماع السّاكنين، والنّسبةُ إليها (دنياويّ)، وقيل: (دنيويّ) و(دنيي). ودانى بينَ الأمرين قارَبَ، وبينهما (دناوة)؛ أي: قرابة أو قُرب"[1]. والدُّنوُّ: القُربُ بالذّات أو بالحكم، ويُستعمَلُ في المكانِ والزّمانِ والمنزلةِ، وهو هنا باعتبار الذّاتِ، واستُعمِلَ في المكان الأقرب في مقابل القُصوى، والدّنيا تأنيثُ الأدنى. والعُدْوةُ الدُّنيا ممّا يَلي المَدينَةَ[2].

3) ﴿ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾: القَصْو في اللّغة البُعد، يُقال: قَصَوتُ عنه وأقصَيتُ؛ بمعنى: أبعَدتُ، وبِلادٌ قاصيَةٌ بعيدةٌ، وهو بالمكان الأقصى والنّاحية القُصوى؛ أي: الأبعد، والقصوى تأنيث الأقصى. والعدوةُ القُصوى ممّا يلي مكّةَ[3].

4) ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾: الرَّكب: راكبو الإبل أو الخيلِ، وهو اسمُ جمعٍ أو جمعٌ، ويُطلَقُ على العشرة فما فوق[4]، الرُّكبانُ والرَّكْبُ: أصحاب الإبل في السّفر، وهو اسمُ جمعٍ لا واحدَ له. وهي في الآية: رُكبان قريش المقبِلين منَ الشّام، الّذين سلكوا طريقَ السّاحل، فلمّا سمعَ بهم النّبيّ ﷺ نَدَبَ أصحابَه؛ لاسترجاع بعض ما حُجِزَ منه ومن أصحابه بمكّة، ولكنّ اللّه شاءَ أن تكونَ حربُ بدرٍ عِوَضًا ونصرًا وتمكينًا[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

حربُ بدرٍ المظفّرة كانت نصرًا لأولياء الله، وذخرًا لأعدائه

لمّا أخبرَ اللّهُ عن يوم الفرقانِ بيّن الحالةَ التّي كانوا عليها في ذلكَ اليوم؛ أي: إذ أنتم أيُّها المؤمنونَ حينئذٍ بحافّةِ الوادي الأقربِ

(1) الفخر الرّازي، مختار الصّحاح: (دنا).
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (دنو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (قصو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ركب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/398.

إلى المدينةِ، أو المعنى: واذكروا حينما كنتُم بحافّةِ الوادي الأقرب إلى المدينة، وعدوُّكم منَ المشركين بالوادي الأقصى ممّا يلي مكّة، والعيرُ فيه أبو سفيان وأصحابُه في موضعٍ أسفلَ منكم إلى ساحلِ البحرِ الأحمرِ، ولو تواعدتم أنتم وعدوّكم منَ المشركينَ من أهلِ مكَّةَ على موعدٍ تلتقونَ فيه للقتال، لاختلفتُم في الميعادِ المضروبِ بينكم، ولكنَّ اللّه جمعَكم هنالك؛ ليقضيَ ما أرادَ بقدرتِه، بنصرِ أوليائِه، وخِذلانِ أعدائِه، وإنَّ اللّه لَسميعٌ لأقوالِ الفريقينِ، عليمٌ بما تنطوي عليه قلوبُهم وضمائرُهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ تصديرِ الآية بـ﴿إِذۡ﴾:

كانَت غزوةُ بدرٍ تمحيصًا للإيمان، واختبارًا للعقيدة:

قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فيه أنّه لمّا أجملَ الكلامَ على يومِ الفرقانِ في الآية السّابقةِ؛ بيّن الحالةَ الّتي كانوا عليها بالإتيانِ بلفظ ﴿إِذۡ﴾، للإشعار بعِظَم الأمرِ، لِما يفيدهُ تصديرُ الكلام بـ﴿إِذۡ﴾ من عِظَم شأنِ الظّرف الّذي يفيدُ تعظيمَ الحدَثِ الواقعِ فيه.

دلالةُ ظرفِ الزّمان ﴿إِذۡ﴾:

تنوّعُ المعنى وتوسّعُه بتنوّعِ التّوجيهِ في السّياق

يحتملُ الظّرفُ، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أن يكونَ بدلًا من ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾؛ ليفيدَ مجموعُ البدلِ والمبدَل منه زيادةً في إيضاحِ صورةِ ضعفِ أحدِ الفريقين وقوة الآخر، وبيانِ الحالةِ الغريبةِ من غلبة الضَّعيف على القويِّ، بما أنزلَ اللّهُ من أسبابِ نصرِ المؤمنين، وهزيمةِ الكافرين، وفيه معنى الامتنان[2]. كما يَحتملُ أن يكونَ ظرفًا لفعلٍ مُقدَّرٍ تقديره: (واذكروا إذْ)؛ لتذكير المخاطَبين بنعم اللّهِ العظيمةِ والآياتِ الّتي أنزلَها في ذلك الوقتِ. كما تَحتملُ أن تكونَ ظرفًا لِما تقدّمها منَ الكلام؛ أي: (واللّه على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/56، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 182.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/109.

كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، إذ نصرَكم في حالةٍ كنتُم في موضعٍ وهيئةٍ ما كان لكم أن تنتصروا فيها)؛ لِتكون ﴿إِذۡ﴾ بمثابة التّعليل؛ فيكون الكلامُ على معنى الاستدلالِ والحِجاجِ، على منّة اللّه على المؤمنين بالنّصرِ، ولطفِه بهم.

براعةُ الإطنابِ في الآية قيد التّفسير:

غلبةُ المشركين يومَ الفرقانِ لم تكنْ إلّا بصنعِ اللّه ولطفِ تدبيرِه

ذكرَ على سبيلِ الإطنابِ التّوقيتَ ومراكزَ الفريقين، وأنّ الرَّكبَ أسفلُ منهم، ولمّا كانَت هذه الأخبارُ معلومةً عند المخاطَبين، دلَّ على أنّ المرادَ لازمُ الفائدة مع أصلِها؛ أي: لتصويرِ الحالةِ وللإخبارِ عن قوّة شأنِ العدوّ وشوكتِه، واستظهارِهم بالرّكب، وحِرصِهم على المقاتلة عنها، وعن ضعفِ شأن المسلمين والتياثِ أمرِهم واختلاطِه، واستبعادِ غَلَبتِهم عادةً، فإنَّ العُدْوَةَ الدّنيا كانت رِخوةً تسوخُ فيها الأقدامُ، ولا يُمشى فيها إلّا بتعبٍ، وكانت مفازةً لا ماءَ فيها، والعدوة القصوى الّتي أناخَ بها المشركون، كانت في مكانٍ فيه الماءُ، وكانت أرضًا لا بأسَ بها، فغلَبَتُهم في مثل هذا الحالِ ليسَت إلّا صُنعًا من اللّه تعالى، ودليلًا على أنّ ذلك أمرٌ لم يتيسّر إلّا بحولِه وقوّته، وباهرِ قدرته[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾:

التّأكيدُ على بيانِ لطفِ اللهِ بالمؤمنينَ وحسن تدبيرِه لهم

الواو حاليَّة[2]؛ والمعنى: أنتم بالعدوة الدّنيا، والحالُ أنّ القافلة ليست ببعيدةٍ عنكم، فلو علمَ العدوُّ بهذا الوضع لطبَّقَ جماعَتَيْه على جيشِ المسلمين، ولكنَّ اللّه صرفَهم عنِ التّفطُّنِ لذلك، وصرفَ المسلمين عن ذلك، وقد كانوا يطمعونَ أن يصادفوا العيرَ فينتهبوها، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/212، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/111، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/403، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/89.

7]، ولو حاولوا ذلك لوقعوا بين جماعتين منَ العدوِّ، ولأصبحوا بين فكَّي الرَّحى! ولكنّ الله سلّمَ، ففي الحال تأكيدٌ على بيانِ لطفِ الله بالمؤمنين، وحسنِ تدبيرِه لهم[1].

دلالةُ (أل) في قوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾:

(أل) عهديَّةٌ ذهنيَّةٌ في قوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾، أي: الرّكب الّذي تعرفونه، فالكلامُ عن حالةٍ كانت قريبةَ عهدٍ بكم؛ أي: معهودةً في أذهانِكم، "ولا خلاف بين اللّغويّين في أنّه يُقال: ركبتُ الفرسَ، وركبتُ البَغلَ، وركبتُ الحمارَ، وقد قالَ الله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ [النّحل: 8]، فأوقع الرّكوب على الجَميع، وقال زيد الخَيل الطّائي:

وتَركَبُ يومَ الرَّوعِ فيها فوارِسٌ *** بَصيرونَ في طَعنِ الأباهِرِ والكُلَى

وهذا اللَّفظُ لا يدلُّ على تَخصيص شَيءٍ بشَيءٍ، بل اقترانه بقوله: ﴿فَرِجَالًا﴾ [البقرة: 239]، يدلُّ على أنّه يَقعُ على كلّ ما يُقِلُّ على الأرض"[2].

كلُّ مَن ركبَ دابّةً فهو راكبٌ، وليس اللّفظُ خاصًّا براكب الإبل

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ﴾:

تَحتَمِلُ الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ أن تكونَ استئنافيّةً، بمعنى: الإخبار عن أمر المواعدةِ لو حصلَت في ذلك الموضعِ وذلك الزّمان، "وقد كان العيرُ في أسفل الوادي بثلاثة أميالٍ، ولو تَواعَدتُّم أنتم وأهلُ مكّةَ، وتواضَعتُم بينكم على موعدٍ تلتَقونَ فيه للقتال؛ لخالَفَ بعضُكم بعضًا، فثبَّطكم قِلّتُكم وكثرَتُهم عنِ الوفاءِ بالموعد، وثَبَّطَهم ما في قلوبهم مِن تَهَيُّبِ رسولِ الله ﷺ والمُسلمين، فلَم يتَّفِقْ لكم منَ التّلاقي ما وفّقَهُ اللهُ، وسبّبَ لهُ"[3].

كلُّ أمرٍ ينفذُ في الكون، هو قدرُ الله المحتوم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/17.

(2) البغداديّ، خزانة الأدب: 6/254.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/646.

وتَحتمِلُ أن تكونَ عاطفةً؛ لتعطفَ جملةً على جملةٍ؛ ليفيدَ عطفُ الجملةِ تمامَ تصويرِ الحالةِ(1).

بلاغةُ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَلَوۡ﴾:

حلولُ الفريقينِ في العُدوَتَين، تدبيرٌ حكيمٌ من ربّ الثّقلين

لمّا أفاد الشّرطُ هنا في قوله: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ أنَّكم لو تواعدتُم؛ لاختلفتُم في الميعاد، لظروفِ ذلك الوقت من تعذُّرِ الإيفاءِ بالتّواعدِ في وقتٍ واحدٍ، دلَّ على أنّه بالأحرى أن لا تتوافقوا على الإيفاء بالوقتِ، وأنتم لم تتواعدوا؛ ليُعلَمَ أنَّ حلولَكم في العُدوَتَين من صنعِ اللّه، وحسنِ تدبيرِه؛ لإظهارِ معجزتِه، وليعلموا أنَّ نصرَهم إنّما كانَ من عنده تعالى(2).

بلاغةُ التّغليبِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾:

تغليبُ المؤمنين لشرفهم، ولما ينبغي أن يكونوا عليه منَ القوَّة

لمّا كان المعنى: (ولو تواعدتُم أنتُم وهُمُ القتالَ)، أفادَ اللّفظُ تغليبَ المخاطَبين وهم المؤمنون، على الغائبين وهم المشركون؛ بيانًا لشرافةِ المؤمنين(3)، وللإشعارِ بأنَّ مواعدةَ قتالِ المشركينَ إن حصلَت فينبغي أن تبدأ منَ المؤمنين؛ بيانًا لما ينبغي أن يكونوا عليه منَ القوَّةِ وشدَّةِ الشَّوكةِ.

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أن لا تغليبَ في اللَّفظِ؛ لأنَّ الخطابَ للفريقين؛ والمعنى: ولو تَواعَدتُم بينكم؛ أي: أنتُم وأهلُ مكَّةَ على موعدٍ تلتقون فيه للقتال. وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ التّغليبَ واقعٌ في لفظَي ﴿تَوَاعَدتُّمۡ﴾ و﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾(4).

بلاغةُ الجِناسِ والطِّباقِ:

في لفظَي ﴿تَوَاعَدتُّمۡ﴾ و﴿ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ - في قوله: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/7، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/19.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/91، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/204.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/224، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/19.

أثرُ المحسِّناتِ البديعيّةِ في التّناسقِ الصّوتيِّ والمعنويِّ في الآيةِ

﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ - جِناسُ اشتقاقٍ مغاير، ذو أثرٍ بليغٍ في المعنى. وفي قوله: ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ طباقٌ موجبٌ؛ ليحصلَ منَ المقايسة بينهما وضوحُ الحالةِ الّتي كان عليها المؤمنون يومَ بدرٍ، وليتكاملَ التّناسقُ الصّوتيُّ والمعنويُّ في استعمال الجِناسِ والطِّباقِ في هذه الآية في بيانِ الصّورةِ وإيضاحِها.

دلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾:

دلالـةُ الـلّامِ على التّسويفِ والتّأكيدِ واضحةٌ جَليّةٌ

هذهِ اللّامُ رابطةٌ لجوابِ ﴿وَلَوۡ﴾ بالشّرطِ، وتفيدُ التّسويف[1]؛ لأنّها تدلُّ على تأخير وقوعِ الجوابِ عن الشّرط، وتراخيه عنه بأحداثٍ مطويَّةٍ، والمعنى: لو تواعدتُم، وجاء كلُّ فريقٍ إلى الموضعِ الّذي تواعدتُم فيه، لاختلفتُم في الميعاد.

كما تفيدُ التّأكيدَ[2]، بمعنى زيادةِ تقريرِ اختلافِهم في الميعاد وتحقيقِه، وبمعنى تأكيد ارتباطِ الجزاءِ بالشّرطِ؛ أي: لو تواعدتُم فلا يقعُ سوى الاختلاف في الميعاد، ولا ينفكُّ عنه، وذلكَ بحكمِ العادةِ والواقعِ في ذلكَ الزّمانِ.

مناسبةُ حذفِ مُتعلّقِ قوله تعالى: ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾:

لا تـلاقـيَ في الميعادِ من غيرِ توفيقِ اللهِ وتيسيره

لم يُذكَرْ سببُ الاختلافِ في الميعاد، لو تواعدَ المؤمنون والمشركون القتالَ؛ للإشعارِ بعموم السّببِ، والمعنى: لو تواعدتُم على الاجتماعِ، من غيرِ أن يوفّقَه اللّه، لاختلَفتُم بسببِ القواطِعِ والعوارضِ القاطعةِ بالنّاسِ؛ للإشعارِ بنعمةِ اللّهِ يومَ بدرٍ، وتيسيرِه ما تيسّر من ذلك [3]، واللّهُ يفعلُ ما يرى ويشاء، لا رادَّ لحكمه، ولا معقّبَ لكلماته.

---

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/424، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/92.
(2) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 225، وابن يعيش، شرح المفصّل: 5/142.
(3) المهدويّ، تحصيل الفوائد: 3/187، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/533، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/329.

تلاقي الفريقين يومَ الفرقانِ بحدِّ ذاتِه، من معجزاتِ الله

دلالة ﴿وَلَٰكِن﴾ الاستدراكيّة:

﴿وَلَٰكِن﴾ في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ للاستدراكِ، بمعنى: بيان انتفاءِ المقدَّم؛ ليفيدَ انتفاءَ التّالي، مع تأكيدِ امتناعِ تحقّقِ الجزاءِ الّذي تفيده﴿وَلَوْ﴾[1]، والمعنى: ولو تواعدتُم أنتُم وهُمُ القتالَ لاختلفتم في الميعادِ فما تلاقيتُم، ولكن لمّا لم تتواعدوا لم تختلفوا في الميعادِ، فجمعَ اللّهُ بينكم على هذه الحالِ من غير ميعادٍ؛ للإيذانِ بأنَّ انتفاءَ التّواعدِ كانَ سببًا في التّلاقي، وهو خلافُ العادةِ، ليكون على معنى أنَّ تلاقيَكم بحدِّ ذاتِه معجزةٌ من معجزاتِ اللّه، وأنّه كان بقضائِه وحكمِه.

حذفُ المسبَّب وذكرَ السّببُ؛ لإظهارِ قضاءِ اللهِ وحسنِ تدبيره

بلاغةُ حَذْفِ المسبَّب بعد: ﴿وَلَٰكِن﴾:

لمّا كان تقديرُ ما بعد حرفِ الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، هو: (ولكن لمّا لم تتواعدوا لم تختلفوا في الميعاد)، دلَّ على أنّه حُذِفَ، وطويَ منَ الكلامِ دلّ عليه قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾: فهو إيجازٌ بحذف جملةٍ مضمونُها مُسبَّبٌ؛ لأنّه معروفٌ مُشاهَدٌ منَ المخاطَبين، فلا فائدةَ في ذكرِه، واكتُفيَ بذكرِ سببِه[2]، فجيءَ بحرف الاستدراكِ ﴿وَلَٰكِن﴾ للتّوصل إلى ذكرِ سببِ الجمعِ بين الفريقين، وهو إظهارُ قضاءِ اللّه في الأمرِ بقولِه: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ ليتحقّقوا أنَّ ما اتّفقَ لهم منَ الفتح ليس إلّا صُنعًا منَ اللّه ﷻ خارقًا للعادات، فيزدادوا إيمانًا وشكرًا، وتطمئنَّ نفوسُهم بفرضِ الخُمُس[3].

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِّيَقْضِيَ﴾:

تفيدُ اللّامُ هنا في قوله: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ التّرتُّب،

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/383.
(2) القزوينيّ، الإيضاح، ص: 314.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.

تـنـوّعُ المعنـى وتوسّعُه، بتنوّع معنى الحرف في سياق الآية

بمعنى: ليترتَّبَ على لقائِكم العدوَّ ظهورُ قضاءِ اللّهِ تعالى، ومثلُه اللّام في قولِه: ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾، والمقدّرةُ في ﴿وَيَحۡيَىٰ﴾، بمعنى ليترتَّبَ على قضاءِ هذا الأمر أن يَهلِكَ مَن هلكَ مِنَ الكفّارِ عن حُجَّةٍ بيِّنةٍ مُشاهَدةٍ بالبصرِ، ويحيا مَن حيَّ منَ المؤمنينَ عن بيِّنةٍ قطعيَّةٍ حسّيَّةٍ كذلك، فيزدادوا يقينًا بالإيمان.

وتَحتمِلُ اللّامُ أن تكونَ لِلتّعليل، والمعنى: ولكن لم تختلفوا في الميعاد؛ ليظهرَ قضاءُ اللّه، ولأجل أن يهلكَ مَن هلك، وليحيى مَن حَيَّ. كما تَحتملُ أن تكونَ لامَ العاقبة، والمعنى: لتكون نتيجةُ ذلك اللِّقاءِ أن يظهرَ قضاءُ اللّهِ السّابقُ في علمِه، ويهلكَ الّذين هلكوا عن حجَّةٍ قائمةٍ ويحيى من حيَّ عن حجَّةٍ ظاهرةٍ[1].

دلالةُ التّنكيرِ في لفظ ﴿أَمۡرٗا﴾:

امتناعُ تخلُّفِ قضاءِ اللّهِ وتقديرِه، يتماشى مع حكمةِ صنعِه وتدبيرِه

أفادَ التّنكيرُ في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا﴾ تعظيمَ الأمرِ الّذي يقضي به اللّه، ولهذا وصفَه بقوله: ﴿كَانَ مَفۡعُولٗا﴾، بالإشارة إلى امتناع تخلّفِ قضاءِ أمرِ اللّهِ وحصولِه، والأمرُ المشارُ إليه هنا، هو إعزازُ الإسلام، وإحقاقُ الحقِّ، وإبطالُ الباطل[2]، وذلك من أعظم المهامِّ وأرقاها؛ لأنّها تجليّاتٌ لقدر اللّه المدبّر الحكيم.

دلالةُ الفعلِ: ﴿كَانَ﴾:

نصْرُ أولياء الله وقهرُ أعدائه دائمٌ مستمرٌّ، في كلّ حينٍ وأوان

أفادَ التّعبيرُ بلفظ ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ الدّوامَ والاستمراريّةَ، والمعنى: دوامُ حصولِ ما يقضي اللّهُ به؛ أي: ليقضيَ اللّهُ أمرًا حقيقًا بأن يُفعلَ لقضائه به، والمرادُ به هنا نصرُ أوليائه، وقهرُ أعدائه، وللإشعار بأنَّ ما يقضيه اللّهُ تعالى محتَّمُ الوقوع، فعُبِّرَ به بصيغة الماضي لتحقّقه حتّى كأنَّه مضى[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/92، ورشيد رضا، تفسير المنار: 10/17، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3141.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/92، ورشيد رضا، تفسير المنار: 10/17، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3141.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، والنّيسابوريّ، غرائب الفرقان: 4/277.

دلالةُ الكلامِ بين البدلية والاستئناف:

دلالةُ الكلامِ على البيانِ والإيضاحِ لاقتضاء المقامِ

يَحتمِلُ أن يكونَ قولُه: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ بدلًا من قوله: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾؛ وهو قولُ جمهورِ المفسّرين؛ وهو من بدلِ البعضِ منَ الكلِّ؛ ليفيدَ مجموعُ البدلِ والمبدَل منه زيادةً في الإيضاحِ والبيانِ، وكأنَّ قولَه: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ جاء مُجملًا بعمومه، ثمَّ بيّنه بجملةِ البدل، ولهذا تكرّرَ دخولُ اللّام عليها، وتكون اللّامُ على هذا التّوجيه؛ للتّرتّب أو للتّعليلِ، أو للعاقبةِ في المَوضِعين. ويحتملُ أن يكونَ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿مَفۡعُولٗا﴾؛ لتكونَ اللّامُ تعليليّةً[1]، كما يحتملُ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ تقديره: (لِمَ يفعل هذا؟)، فكانت الإجابةُ: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾، وتكون اللّامُ حينئذٍ في ﴿لِّيَقۡضِيَ﴾ للتّرتّب أو للتّعليل أو للعاقبة، واللّام في ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ للتّعليل.

دلالةُ التّنكيرِ في لفظ ﴿بَيِّنَةٖ﴾:

البـيّـنـةُ على الإيمـانِ والكفر واضـحـةٌ، لا ينكرُها أيُّ عاقلٍ حصيفٍ

أفادَ التّنكيرُ في قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ تعظيمَ البيّنةِ وتفخيمَها، وكونَها واضحةً أشدَّ الوضوح؛ فما يترتّبُ عليه الهلاكُ والحياةُ، أو الكفرُ والإيمانُ، لابدَّ أن يكونَ عظيمًا، والمعنى: "فيهلك الهالكون من كفّار قريشٍ عن حُجَّةٍ ظاهرةٍ، وهي هزيمةُ الكثرةِ الكافرةِ، ويحيا المؤمنون من حجّةٍ بيّنةٍ، وهي نصرُ اللّه للقلّةِ المؤمنةِ، إنّ اللّه لَسميعٌ عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ من أقوال الفريقين ولا نيّاتهم"[2].

دلالةُ ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ و﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

السّياقُ للكفرِ هلاكٌ وللإيمان حياةٌ

يَحتمِلُ أن يكونَ المرادُ منَ الفعلين ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ و﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ الحقيقةَ؛ أي: الموت والحياة، والمعنى: ليموتَ مَن يموتُ عن بيّنةٍ

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/403.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

عاينَها؛ لقطعِ أعذارِه، ويعيشَ مَن يعيشُ عن حجّةٍ شاهدَها. ويَحتملُ أن يكونَ استعارةً تصريحيّةً تبعيَّةً؛ إذ استعارَ الهلاكَ والحياةَ للكفر والإسلام، فشبّه الكفرَ بالهلاك بجامعِ ما يلقاه صاحبُه من ضررٍ، وشبّه الإيمانَ بالحياة بجامعِ ما يلقاه صاحبُه من نفع. كما يَحتملُ أن يكونَ مجازًا مُرسَلًا؛ فإنَّ الهلاكَ مُسبَّبٌ عنِ الكفر، والحياةَ مُسبَّبةٌ عنِ الإيمان، فعلاقتُه السَّببيَّةُ؛ والتَّعبيرُ بالحياة والهلاك عن سبَبَيْهِما يورِثُ في النَّفس الرّغبةَ في تجنّبِ أسبابِ الهلاكِ، والسّعيَ في أسباب الحياة[1].

سرُّ المجازِ المُرسَلِ في لفظَي ﴿هَلَكَ﴾ ﴿وَيَحۡيَىٰ﴾:

المــوتُ والحـياةُ قـدرُ الله المقيَّد في علمه أزلًا

جاءَت الأفعال ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ و﴿هَلَكَ﴾ و﴿حَيَّ﴾ في قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ﴾ ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ﴾ على طريق المجاز المُرسَل، باعتبار ما سيكون، فالمرادُ بـ(هلك) المشارفُ للهلاكِ أو الكفر، والمرادُ بلفظ ﴿حَيَّ﴾ المشارفُ لِلحياة أو الإيمانِ، أو مَن حالُه في علم اللّه تعالى الهلاكُ والحياةُ[2]، وعُبِّرَ بصيغة الماضي للإشعار بالقطعِ بتحقّقِه ووقوعِه.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ ﴿وَيَحۡيَىٰ﴾:

السّياقُ القرآنيُّ ودلالتُه صالحة لكلّ زمانٍ ومكانٍ

التّعبيرُ بالمضارع في ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ و﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ دون الماضي؛ للدّلالة على الاستمرارِ، وتجدُّدِ الهلاكِ والحياةِ؛ لأنَّ الخطابَ على معنى العمومِ، فليس خاصًّا بمَن تتحدّثُ عنهم الآية، والمعنى: "ليهلِكَ الهالكون من كفّار قريش عن حجَّةٍ ظاهرةٍ، وهي هزيمةُ الكثرةِ الكافرةِ، ويحيا المؤمنون من حجّةٍ بيّنةٍ، وهي نصرُ اللّه للقلّة المؤمنَة"[3]، وهذا الأمرُ يتجدّدُ في كلّ الأحوالِ والأزمنة، ممّا يتناسبُ في الاستعمال مع الفعل المضارع، الدّالِّ على الحال والاستقبال.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/11.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.
(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/108.

بديعُ المقابلةِ وأثرُها في المعنى:

كلُّ فعلٍ ببيّنةٍ، فهو حكمةٌ للبشر ونفعٌ لهم

قابَلَ التنزيل الحكيم بين قولِه: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ وقولِه: ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾؛ لتوجيهِ المخاطَبين إلى المقايَسةِ بين مَن يموتُ على الكفر، ومَن يموتُ على الإيمان، أو بين مَن يصدرُ منه الكفرُ، ومَن يصدرُ منه الإيمانُ؛ لمزيدِ بيانٍ يقتضيه المقام، فيشكر المؤمنونَ اللّه على نعمة اللِّقاءِ والنَّصرِ على الأعداءِ.

دلالةُ ﴿عَنۢ﴾ على المجاوزةِ المجازيَّةِ:

خروجُ (عن) إلى المعنى المجازيّ

تفيدُ ﴿عَنۢ﴾ هنا في قوله: ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ المجاوزةَ المجازيَّةَ، بمعنى: ليَهلِك مَن هلك صادرًا هلاكُه عن حجَّةٍ ودليلٍ، ويحيى مَن حيَّ صادرًا هلاكُه عن حُجَّةٍ ودليلٍ[1]، ذلك أنّه "هو الّذي جمع بين المؤمنين والمشركين في هذه المعركة، فأغرى المؤمنين بالعير، وحرَّك قريشًا لحماية عيرِها، وهو الّذي سهّلَ اللّقاءَ على الفريقين، فأطمع المشركين في المؤمنين، وسهّلَ للمؤمنين اللّقاءَ بهم؛ ليحقّقَ ما أراد سبحانه؛ وهو إعزازُ الحقّ، وإذلالُ الباطل"[2]، وقد كان تصريفُ الأقدار لتحقيق المعنى المجازيِّ المُتوخّى.

دلالةُ القراءاتِ القرآنيّةِ في لفظِ ﴿حَيَّ﴾:

حياةُ المؤمنين متفاوتةٌ بين أعلى الكمالِ وأدناه، والكمالُ المُطلَقُ لله

قرأ نافع والبَزِّيُّ عن ابن كثير وأبي بكر عن عاصم بإظهار الياءين للفعل ﴿مَنۡ حَيِيَ﴾؛ ليشيرَ الإظهارُ إلى معنى الحياةِ الّتي هي في أعلى الكمال، وقرأ الباقون بالإدغام ﴿حَيَّ﴾؛ لتشيرَ القراءةُ إلى معنى أدنى الكمالِ، فحياةُ المؤمنين متفاوتةٌ بين أعلى الكمالِ وأدناه[3].

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر:

لمّا اقترنَ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ثلاثةُ مُؤكِّدات:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/21.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/21.

(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 4/2337، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/221.

(إنَّ) المؤكِّدةُ لمضمونِ الجملة، والجملةُ الاسميَّةُ الّتي تفيدُ ثبوتَ المعنى، واللّامُ، ولمّا كان المخاطَبون مؤمنين بأنَّ اللّه سميعٌ عليمٌ؛ دلَّ على أنَّ الكلامَ جاءَ على خِلافِ مُقتضى الظّاهر لما يقتضيه الحال، إذ نُزِّلَ المخاطَبون منزلةَ مَن هو بحاجةٍ إلى تأكيدِ المعنى وتقريرِه؛ لإزالةِ الضَّعفِ الّذي أصابهم لما رأوا من قلّة عددِهم وعُدَّتِهم، وكثرةِ عددِ المشركين وعُدَّتهم، وللإشعارِ بأنَّ مَن لا يقبلُ إعطاءَ الخُمُسِ للّهِ فيتكلمُ مُعترِضًا، أو يُضمِرُ في قلبِه خلافَ ما قسمَ اللّه، فهو بمنزلةِ المنكِر.

التّصرّفُ في السّياق وفْق مُقتضى الحال، آثَرُ في الإيضاح والإقناع

مناسبةُ الجمعِ بين الوصفين ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

جمعَ في آية التّذييلِ بين الوصفين الجليلين؛ لاشتمالِ الأمرين على القولِ والاعتقادِ، والتّقدير: فإنَّ اللّه لسميعٌ أقوالَكم، عليمٌ بنيّاتِكم، وكيف يدبِّرُ أمورَكم، ويسوّي مصالحَكم. كما أنَّ فيه تعريضًا بأنَّ البيّنةَ على الهلاكِ أو الإيمانِ، إنّما هي لأجلكم؛ لأنَّ اللّه لسميعٌ عليمٌ، بكفرِ مَن كفرَ، وبإيمانِ مَن آمنَ(1).

إنَّ اللهَ سميعٌ الأقوالَ، عليمٌ بالنّيّاتِ والمقاصد

بلاغة التّعريضِ:

أفادتِ الجملةُ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التّعريضَ بالمجازاةِ يومَ القيامة، للمؤمنين والكافرين، فإنَّه تعالى لمّا كان سميعًا للأقوالِ، عليمًا بما في القلوب، دلَّ على أنَّه تعالى سيجازي كلَّ إنسانٍ بما يستحقُّه، من ثوابٍ أو عقابٍ، على حسبِ ما يسمعُ من أقوالِه، وما يعلمُ مِن اعتقادِه وما في قلبِه.

كلُّ إنسانٍ سيُجازَى يومَ القيامةِ بما يقولُ وما يعتقدُ

حُسنُ التّذييل وبلاغتُه:

أفادَت الجملةُ التّذييليّةُ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فوائدَ لغويّةٍ بلاغيَّةٍ، خلاصتها: عمومُ المعنى وكلّيَّتُه، وثبوتُ الوصفين للّه

بلاغةُ الإتمامِ في سبك العبارة بمسك الختامِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/224، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/93.

تعالى، لمجيء الجملةِ اسميَّةً، وإجراء الجملة مجرى المثَلِ في الكلامِ لعمومِها وكلّيَّتِها، وإفادة تأكيد مفهومِ ما تقدّم الجملة، فهو تعالى سميعٌ بأقوالِ مَن كان في العُدْوَتَيْن، عليمٌ بأحوالِهم، بمعنى: لا يخفى عليه شيءٌ، عليمٌ بنيّاتهم وأحوالِهم، إضافة إلى المبالغةَ في المعنى بما ذُكرَ مِن اقترانِها بالمؤكِّدات[1].

(1) البهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/612.

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤﴾

[الأنفال: 43 - 44]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلهما:

تـوالي ألـطـافِ الـلـه تـعـالى بـالمؤمـنين، في غزوة بدرٍ الكبرى

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ موضعَ الفريقين يومَ بدرٍ، وصوَّرَ حالَهم في ذلك الوقتِ، زاده بيانًا وإيضاحًا، بما أشارَ إليه من لُطفِ تدبيرِه في مدّةِ نزولِهم بالعُدْوةِ الدُّنيا، فإنَّ هذهِ الرُّؤيا ممّا اشتملَ عليه زمانُ نزولِ المؤمنين بعُدْوةِ بدرٍ، ثمّ لمّا بيَّنَ ما نشأ عن رؤيتِه ﷺ من قِلَّتِهم، وما كان ينشأُ عن رؤيتِه الكثرةَ، لو وقعت، أتبعَه ما فعلَ منَ اللُّطفِ في رؤيتِهم بأنفسِهم يقظةً، فقال: ﴿وَإِذۡ﴾، أي: واذكروا أيضًا ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ﴾: فشِلَ يَفشَلُ عندَ الحربِ والشّدّةِ ويضعفُ، وإنّه لَخَشِلٌ فشِلٌ، والفَشِلُ: الجَبانُ المرعوبُ، يُبهَتُ عند الرَّوعِ، لا يُحسِنُ قتالًا ولا شِرادًا[2]، قال اللّهُ جلّ وعزّ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46]، قال الزّجّاج: أي: تجبُنوا عن عدوّكم إذا اختلفتم[3]. والفَشَلُ: هو الفزعُ والجُبنُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/289، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/22.
(2) الخليل، العين: (فشل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فشل).

والضَّعفُ[1]، ويدلُّ على ضعف القلبِ وخَورِ الجَنانِ. وذهب بعضُ اللُّغويّين إلى أنَّ الفشلَ هو ضَعْفٌ مع جُبْن[2].

2) ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾: يدورُ معنى النّزْعِ على القَلْع، يقالُ نَزَعَ الشّيءَ يَنزِعُه نزعًا، فهو مَنزوعٌ ونَزيعٌ، ويأتي منه معنى المطاوعة، يُقال: انتَزَعه فانتزَعَ؛ أي: اقتَلَعَه فاقتَلَعَ. والتّنازعُ والمنازَعةُ: المجاذَبةُ، ويُعبَّرُ بهما عنِ المخاصمة والمجادلة[3]. ويُقال: "تنازُعٌ على البقاء: صِراعٌ بين كائنات النّوعِ الواحدِ للحصول على القوتِ والغذاءِ، من أجل البقاءِ والوجودِ، وتكون فيه الغَلَبَةُ للأفضل"[4]. (تنازع) القَوم: اختلفوا، ويُقال: تنازعوا في الشَّيء، والقَومُ الشَّيءَ: تجاذبوه[5].

3) ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: هي الأشياءُ الموجودةُ في الصّدور، وهي الأسرارُ والضّمائرُ والمعتقداتُ والظّنونُ، فإنّها لمّا كانَت مضمَرةً في الصّدور، حالَّةً فيها، مصاحبةً لها، سُمّيَت ذاتَ الصّدور، وذهب بعضُهم إلى أنّ المرادَ القلوبُ الّتي في الصّدور[6].

4) ﴿ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾: اللّقاء، توافي الاثنين متقابِلَيْن؛ أي: استقبالُ الشّيءِ ومصادفتُه معًا على سبيلِ المواجهةِ والتّماسِّ، ويُقال ذلك في الإدراك بالحسّ، وبالبصر، وبالبصيرة، واللّقاء. والالتقاءُ في الأصل الحضورُ لدى الغير، من صديقٍ أو عدوٍّ، وفي خيرٍ أو شرٍّ، وقد كَثُرَ إطلاقُه على الحضور مع الأعداء في القتال[7]، قال النّابغة[8]:

إذا ما التَقَى الجَمعانِ حَلَّقَ فوقَهُم *** عَصائِبُ طَيرٍ تَهتَدي بعَصائِب

ورويَ في غريب الحديث: «إذا التقى الصّفّان في سَبيل الله، فُتِحَت أبوابُ السَّماء وأبوابُ الجنَّة»[9].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فشل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فشل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/231.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بقي).
(5) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (نزع).
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/397، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقي)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.
(8) الخليل، العين: (عصب).
(9) الزّمخشريّ، الفائق: 1/315.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ الرّؤيةِ المناميّةِ والواقعيّةِ للعدوّ؛ تمهيدًا لنصرِ المؤمنين عليهم

واذكرْ - أيُّها النّبيُّ - حينما أراك اللّهُ قبلَ يوم بدرٍ قلَّةَ عددِ عدوِّك في منامِك، وأنّهم مهزومون، فأخبرتَ المؤمنين بذلك، فقويَت قلوبُهم، واجترؤوا على حربِهم، ولو أراك ربُّك عدوَّهم كثيرًا لفشلَ أصحابُك، فجَبُنوا ولم يقدروا على حربِ القومِ، ولَتنازعوا في ذلكَ، ولكنّ اللّه سلّمهم من ذلك، بما أراكَ في منامِك منَ الرُّؤيا، إنّهُ عليمٌ بخفايا الصُّدورِ، لا يخفى عليه شيءٌ ممّا تضمرُه القلوبُ.

واذكروا أيُّها المؤمنونَ حينما أراكمُ اللّهُ الأعداءَ في أرضِ المعركةِ قليلًا، وهم كثيرٌ عددُهم، وقلَّلَكم في أعينِهم؛ ليتركوا الاستعدادَ لحربِكم، فتهونَ على المؤمنينَ شوكتُهم، حتّى يقضيَ اللّهُ بينَكم ما قضى من قتالِ بعضِكم بعضًا، وإظهارِكم على أعدائِكم منَ المشركينَ والظَّفَرِ بهم، لِتكونَ كلمةُ اللّهِ هي العليا، وكلمةُ الّذين كفروا السُّفلى، وإلى اللّهِ مصيرُ الأمورِ كلِّها، فيجازي كُلًّا بما يستحقُّ؛ المحسنَ بإحسانِه، والمسيءَ بإساءَتِه(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ تصديرِ الآيةِ بـ﴿إِذۡ﴾ ودلالتها:

تنوّعُ الحوادثِ يومَ الفرقانِ مرتبطٌ بعِظَمِ ما وقعَ فيه منَ الأحداثِ

لمّا كان تصديرُ الكلامِ بظرف الزّمان (إذ) لما عظمَ شأنُه، دلَّ على عظم شأنِ زمنِ إراءةِ اللّهِ رسولَه ﷺ العدوَّ في منامِه قليلًا في قوله: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾، وتعظيمُ شأنِ الظّرف لعظم مظروفِه، وما وقع فيه منَ الأحداثِ.

ويَحتمِلُ ظرفُ الزّمان ﴿إِذۡ﴾ أن يكونَ بدلًا من يوم الفرقان، وهو الأحسنُ، وبيانُه أنَّه لمّا جاء ﴿إِذۡ﴾ بدلًا من ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾، في قوله: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ جيءَ ببدلٍ ثانٍ؛ لِيُشعِرَ تكرّرُ الظّرفِ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/569 - 573.

سبيلِ البدلِ بتنوّعِ الحوادثِ العظامِ الّتي وقعَت يومَ الفرقانِ، وليكون مجموعُ البدل والمبدَل منه أكثرَ بيانًا وإيضاحًا للمعنى.

ويَحتمِلُ أن يكونَ ظرفًا لفعلٍ محذوفٍ، تقديره: (اذكُروا)؛ لتذكير جميعِ المخاطَبين بالقرآن، بظهور معجزةِ اللّه يومَ بدرٍ. ويَحتمِلُ أن يكونَ ظرفًا مُتعلِّقًا بقوله: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: يعلمُ المصالح؛ إذ يقلِّلهم في عينِك، في مَنامِكَ في رؤياك، فتفيد ﴿إِذْ﴾ حينئذٍ التّعليلَ أيضًا، ليكونَ الكلامُ على معنى الاستدلالِ لإظهارِ الحجّة وبيانِها لجميعِ المؤمنين[1].

مناسبةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾:

استحضارُ صورة المنامِ العجيبةِ مِنَ المعجزات الخوارق

أفادَ التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ استحضارَ صورةِ حالةِ الرُّؤيا العجيبةِ في نفس النّبيّ ﷺ، وفي نفوس أصحابِه، وفي نفوس المتدبّرين لهذا القرآن[2] - وذلك أنّ النّبيَّ ﷺ رأى في المنام أنّ العدوَّ قليلٌ قبل أن يلتقوا، فأخبر أصحابَه بما رأى في المنام، فقالوا: رؤيا النّبيِّ ﷺ حقٌّ، والقومُ قلّةٌ، فلمّا التقوا ببدرٍ قلَّلَ اللّهُ المشركين في أعين المؤمنين؛ لتصديقِ رؤيا النّبوّة الّتي لا تنطقُ عنِ الهوى[3].

نكتةُ إسنادِ الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

رُؤيا النّبيِّ ﷺ وحيٌّ بمَدلولِها

أُسنِدَت الإراءةُ إلى اللّهِ تعالى في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾؛ لأنَّ رُؤيا النّبيِّ ﷺ وحيٌ بمدلولِها[4]؛ "أي: إنّه تعالى سميعٌ لما يقولُ أصحابُك، عليمٌ بما يُضمِرونه، إذ يُريك اللّهُ عددَ عدوِّك وعدوِّهم قليلًا في الرّؤيا المناميّة، فتخبرُ بها المؤمنينَ، وتطمئنُّ قلوبُهم، وتقوى آمالُهم بالنّصر، فيجترئون عليهم"[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/223، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/534.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/23.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/23.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/330، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/22.
(5) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/10.

بلاغةُ الاحتراس في الجار والمجرور ﴿فِي مَنَامِكَ﴾:

الإطنابُ في قوله: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ من قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ﴾؛ للاحتراس من أن يُظنَّ أن يكونَ المرادُ من قولِه: ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الرّؤيةَ البصريّةَ أو القلبيّةَ، فهو لدفع ما قد يُتوهّمُ من خلافِ المقصودِ، ولِلتّأكيد على أنّها الرّؤيةُ الحُلميّةُ، فبها تكون الآيةُ أعظمَ وأظهرَ، وعليه جميعُ المفسّرين[1].

برؤيا الرّسولِ الأعظمِ، في منامِهِ الأعظمِ، كانت الآيةُ أنضرَ وأبهرَ

نكتةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مَنَامِكَ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿مَنَامِكَ﴾ من قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ﴾ مصدرًا ميميًّا، وليس ظرفَ مكانٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ به نومُك، وعُبِّرَ بالمصدرِ الميميّ، دون أن يقولَ: (في نومك)؛ للإشعار بأنَّ الإراءةَ في النّوم كانت في الموضِع المعتادِ للنّوم، وإنّما قال: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾، فأسندَ الرُّؤيةَ إلى ما كان في النّوم؛ للإيذانِ بأنّها في مقامِ الرّؤيةِ الحقيقيّةِ على سبيلِ الاستعارةِ، فكأنّه أطلقَ العينَ على حاسّة الخيالِ تشبيهًا لها بالعينِ الباصرةِ، في كونها سببًا لإدراك المحسوساتِ العينيّةِ، وحاسّةُ الخيالِ كذلك يُدرَكُ بها في حال غيابِ المادّة[2].

الإراءةُ كانَت في النّوم، ولله في أحوال العبادِ شؤونٌ وتصريفاتٌ

بلاغةُ الشّرطِ في قوله: ﴿وَلَوۡ﴾:

لمّا كانَت (لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ تفيدُ تعليقَ حصولِ فشلِ المؤمنين وتنازعِهم على حصولِ الشَّرطِ، وهو إراءةُ اللّهِ رسولَه المشركين كثيرًا الّتي قطعَ بانتفائها، كان المعنى تعليقَ امتناعِ فشلِهم وتنازعِهم على ما قطعَ بامتناعِه، وهو إراءَةُ اللّهِ رسولَه العدوَّ كثيرًا، ففي التّعبيرِ حصرُ امتناعِ الفشلِ والتّنازعِ على امتناعِ إراءَةِ اللّهِ رسولَه العدوَّ كثيرًا؛ إظهارًا لمنَّةِ اللّهِ تعالى على المؤمنينَ، بما أكرمَ اللّهُ رسولَه في الرُّؤيا.

إظهارُ منَّةِ اللهِ تعالى على المؤمنينَ، بما أكرمَ اللهُ رسولَه في الرُّؤيا

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2836، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/419، وحاشية محيي الدّين شيخ زاده: 4/398.

دلالةُ اللّامِ الرّابطةِ لجواب (لو):

دلالـةُ الـلّام على التّسويفِ والتّأكيدِ، زيادةٌ في البيانِ المفيدِ

هذهِ اللّامُ في قوله: ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ رابطةٌ لجوابِ ﴿وَلَوۡ﴾ بالشّرطِ، وتُسمَّى لامَ التَّسويف[1]؛ لأنَّها تدلُّ على تأخير وقوعِ الجوابِ عنِ الشّرط، وتراخيه عنه في الزّمن، والمعنى: لو أراكهم رؤيا مماثلةً للحالة الّتي تبصرُها الأعين، وما كانوا عليه في الواقعِ منَ الكثرة، وحدَّثتَ بها المؤمنين، لجبنتُم وهبتُم الإقدامَ، ولَتَنازَعتُم في الرّأي، وتفرّقتَ فيما تصنعون كلمتُكم، وترجّحتُم بين الثّباتِ والفرارِ. كما تفيدُ التَّأكيدَ[2]، بمعنى: تأكيدِ تقريرِ الفشلِ لو تحقَّقَ الشّرطُ، وبمعنى تأكيد ارتباطِ الجزاءِ بالشّرطِ؛ أي: لو أراكَهُم كثيرًا فلا يقعُ سوى الفشلِ والتّنازعِ في الأمرِ؛ أي: القتالِ.

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ﴾:

الفشلُ والخوفُ لا تتأتّى نسبتُه إلى رسول الله المعصوم

عُدِلَ في الكلام عن مخاطبة النّبيّ ﷺ إلى خطاب المؤمنين؛ إذِ الفشلُ والخوفُ لا يناسبُ نسبتُه إليه ﷺ؛ إظهارًا لشرفِ رسول اللّه، وتلطُّفًا به ﷺ، ولأجلِ عصمته منَ الفشلِ والنّقائصِ كذلك، ولهذا لوّنَ الخطابُ عنه إليهم، فأُسنِدَ الفشلُ إلى مَن يُتَصَوَّرُ منه ذلك، وهذا من محاسنِ التّعبيرِ القرآنيّ[3].

نكتةُ التّعبيرِ بصيغة ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾:

الـتّـنـازعُ فيه معنى التّخاصمِ والتّخالفِ، وهو مذمومٌ مشؤومٌ

عَبَّرَ في قوله: ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ بصيغةِ التّفاعلِ المفيدِ معنى الاشتراكِ، بمعنى: أن يكونَ كلُّ واحدٍ فاعلًا في اللّفظ، مفعولًا في المعنى، والمعنى: كلُّ واحدٍ مشاركٌ صاحبَه في التّنازعِ، صريحًا من غيرِ سبقٍ لواحدٍ على آخر في التّنازعِ، وفي اللّفظ معنى التّخاصمِ والتّجاذبِ والتّخالفِ؛ بأن يَنزَعَ كلُّ واحدٍ مَنْزَعًا خلافَ مَنْزَعِ صاحبِه[4].

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/424، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/92.
(2) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 225، وابن يعيش، شرح المفصّل: 5/142.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/330، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/93.
(4) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/100، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/289.

مناسبةُ العطفِ في جواب الشّرط:

لمّا جاءَ الجزاءُ في قوله: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ معطوفًا؛ دلَّ على أنَّ الشّرطَ لو وقعَ؛ لوقعَ الفشلُ والتّنازُعُ كلاهما، وفيه إشعارٌ بأنَّ وقوعَهما يعني الهزيمةَ والخِذلانَ، والنّتيجةُ معلومةٌ سلفًا، ومُدرَكةٌ باعتبار أنّ النّتائجَ مُترتِّبةٌ على المُقدّمات، ومعنى: "﴿لَّفَشِلۡتُمۡ﴾: لجبُنْتُم وهبتُم الإقدامَ، ولَتَنازَعتُم في الرّأي، وتفرّقَت فيما تصنعون كلمتُكم، وتأرجحتُم بين الثّبات والفِرار، ولكِنَّ اللّه سَلَّمَ؛ أي: عَصَم وأنعَمَ بالسّلامة منَ الفشل والتّنازع"[1].

وقوعُ الفشلِ والتّنازعِ يعني الهزيمةَ والخِذلانَ، وهما متلازمان

سببُ إيثارِ تقديمِ الفشلِ على التّنازع:

لمّا كان التّنازعُ سببًا للفشلِ، لِقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46]، كان تقديمُ الفشلِ على التّنازع هنا في قوله: ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ لتعظيمِ المِنَّة، بتقديمِ مُسبَّبِ التّنازع ونتيجتِه؛ لأنّه الأهمُّ بمقتضى المقام، فالفشلُ يعني الهزيمةَ، وللإشعارِ بأنَّ الفشلَ قد يحصلُ من غير تنازعٍ، بأن يكونَ له أسبابٌ أخرى.

الفشلُ مُسبَّبٌ عنِ التّنازع، ونتيجةٌ لا مندوحةَ عنها

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾:

تفيدُ (أل) في قوله: ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ العهدَ، والمعنى: الأمرُ الّذي تعهدونه، وهو القتالُ أو لقاءُ العدوِّ. أو تكون عِوضًا عنِ المضاف إليه؛ أي: (أمرِ القتال)[2]؛ للإشعارِ بأنّ أمرَ القتالِ في أذهانِكم، وأنّكم لم تنسوه بعدُ؛ لِعظَمِ ما وقعَ فيه منَ الحوادثِ العظام، والآياتِ البيّنات.

خيارُ طاعة الله ورضاه حمايةٌ من مَغبّات التّنازعِ والفشلِ

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾:

عبّر بلفظ الأمر دونَ القتالِ في قوله: ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ لما يفيدُه اللّفظُ من معنى الشّأنِ الّذي يشملُ أيضًا لقاءَ العدوِّ، وما

عبَّر بلفظ الأمر؛ لتعظيمِ شأنِ لقاءِ العدوِّ يومَ الفرقانِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/108.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

يَعرِضُ فيه منَ الأحوالِ الّتي تصاحبه، كما أنَّ فيه تفخيمًا لشأنِ القتالِ في ذلك اليوم.

دلالةُ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الاستدراكيّة:

تفيدُ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الاستدراكَ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾، بمعنى رفعِ ما يُتوهَّمُ من وقوعِ المؤمنين في الفشلِ والتّنازع، ولمّا كانَت (لو) تفيدُ امتناعَ وقوعِهما كان مجيءُ الاستدراكِ على معنى تأكيدِ امتناعِ الوقوعِ وتقريرِه[1]، بمعنى: أنّه "لو ترككم ترونهم كثيرًا، دون أن يُثَبِّتَكم بهذه الرّؤيا لهبتُموهم، ولتردَّدتُم في قتالهم، ولعجزتُم، وكان التّنازعُ في الإقدام وعدمِه، ولكنّ اللّه سلّم من ذلك، ونجَّى من عواقبه"[2].

تأكيدُ السّلامةِ من وقوعِ الفشلِ والتّنازع؛ لحفظ الله للأمّة

مناسبةُ الاستدراكِ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾:

لّما كانَ الاستدراكُ على معنى: (لكنّ اللّه لم يُرِ رسولَه المشركين كثيرًا، فلم تفشلوا، ولم تتنازعوا) عَبَّرَ عنِ انتفاءِ اللّازم بانتفاءِ الملزوم، بما هو أعمُّ منهما، وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾؛ ليكونَ أوعبَ فائدةً، وللإشعار بالسّببِ؛ لتقريرِ أنّ الأمرَ كلَّه للّه، ولإظهارِ نعمةِ اللّه عليهم، بمعنى: أنّكم لم تفشلوا ولم تتنازعوا، لأنَّ اللّه أنعمَ عليكم بالسّلامةِ منهما، وممّا يصحبُهما منَ الضُّرِّ والأذى[3]، ولا مكانَ للفشلِ والنّزاعِ، مادامتِ الأمّةُ معتصمةً بحبل اللّه الّذي لا تنفصِمُ عُراه.

كما سلّم اللهُ الأمّةَ منَ الفشل والتّنازع فيما مضى، كذلك يفعلُ فيما يأتي

بلاغةُ الحذفِ في قوله تعالى: ﴿سَلَّمَۚ﴾:

حُذِفَ المفعولُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾؛ ليُفيدَ العمومَ، فيتناولَ كلَّ ما سلَّم اللّهُ في ذلك الوقتِ، وفي تلكَ الحالة،

حذفُ المفعولِ لإفادة العموم، من حُسن البيانِ في السّياق

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/383.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/93.

ليكون التَّقديرُ: ولكنَّ اللّه سلّمَ منَ الفشل والتّنازع، بأن سلّمَكم من سببهما، وهو إراءتُكم واقعَ عدد المشركين؛ لأنّ الاطّلاعَ على كثرة العدوّ يلقي في النّفوس تهيُّبًا، وسلَّمَ منَ الهزيمةِ، وسلَّمَ منَ العدوّ، وسلَّم أمرَه فيهم، حتّى نفذَ ما حكم فيهم به من هلاكهم، وسلَّم أمرَكم لكم، ونحوه منَ التّقديراتِ الّتي تندرجُ فيما ذكر، بقرينة المقامِ، فسلَّم اللّهُ ذلكَ كلَّه[1].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿سَلَّمَۚ﴾:

التّعبيرُ بلفظِ (سَلَّمَ)، المفيد عموم السّلامةِ من كلِّ مُتخوَّفٍ

عبّر بلفظ ﴿سَلَّمَۚ﴾ دون غيره؛ لأنَّه لفظٌ يعمُّ السّلامةَ من كلِّ مُتخوَّفٍ، اتّصلَ بالأمر أو عرضَ في وجهه؛ أي: إنَّه لم يلحقهم أيُّ عيوبٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، ولم يُصِبْهم أيُّ نقصٍ، وفي اللَّفظ معنى البقاءِ، والغنى، والعزِّ، والصّحةِ، والعافيةِ[2].

مناسبةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المضمَر:

تعظيمُ عنايةِ اللهِ لأمرِ المؤمنين، سلامةً منَ الأذى في كلِّ حين

وُضِعَ الظّاهرُ مَوضِعَ المضمَرِ في لفظِ الجلالة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾، دون أن يقولَ: ولكنّه سلّم؛ لإحضارِ الاسم الجليل بعينِه، وباسمٍ مختصٍّ به؛ لِقصد إسنادِ ذلك إلى اللّه، ولِتأكيدِ المعنى وتقريرِه، وللاهتمامِ بهذا الحادث، وللإشعارِ بعظم شأنِ الأمرِ، وبعظم عنايةِ اللّهِ تعالى به؛ فلا يصدرنَّ ذلك إلّا عن باهر السّلطان[3].

مناسبةُ مجيءِ الخبر جملةً فعليّةً ﴿سَلَّمَۚ﴾:

تقويةُ الإسنادِ لتأكيدِ المعنى من لطائفِ الإبانةِ عنِ المراد

جاء الخبرُ جملةً فعليّةً في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾؛ لتقوية الإسنادِ وتأكيدِه، فهو على معنى تكرير الإسناد لعودِ الضّمير على المسنَدِ إليه[4].

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/323، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سلم).

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/120، والتّفتازانيّ، المُطوَّل، ص: 215 - 217، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

(4) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

من كمال اليقين الجزمُ بأنّ اللهَ يعلمُ ما تخفي الصّدور

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ بالجملة التّعليليّة:

جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليليّةٌ، جاءَت استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ تقديرُه: (لِمَ فعلَ بهم ما فعل منَ الإراءةِ وغيرِها؟) فكان الجوابُ: لأنّه يعلمُ مُضْمَراتِ صدورِهم، وخواطِرَها، وتأثُّرَها بالمشاهَداتِ والمحسوساتِ[1]؛ وبيانُ السّببِ بالجملة الاستئنافيّة؛ يحرِّكُ السّامعين لأن يعلموا ويتقرّرَ عندهم أنَّ اللّه عليمٌ بخفايا الصّدور.

الإضمارُ للإيجاز يبينُ عنِ الدّلالة، في حالتي التّصريح والإيعاز

مناسبةُ الإضمارِ بعدَ الإظهار:

أضمرَ لفظَ الجلالة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وعَبَّر عنه بالضّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾، لأنَّ المسنَدَ إليه في ذهنِ المخاطَبين لتقدُّمِ ذِكره، فأُضمِرَ إيجازًا، وهو تعالى: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأنّه ليس هناك أيَّةُ قرينةٍ صارفةٍ للمعنى إلى غير اللّه، الّذي ثبَّتَهم بالرّؤيا، وحَماهُم من لَأْواءِ الفشلِ، وفتنةِ التّنازعِ، فكان أمرُه مقضيًّا، وحكمُه مَرعيًّا، وحكمتُه ساريةً، وكفى اللّهُ المؤمنين من تلك العواقب العاتية؛ لأنّه عليمٌ بالقلوب وما تنطوي عليه، وهو يعلمُ السّرَّ وأخفى، فلا تخفى عنه خافية.

تتابعُ المُؤكِّدات في السّياق:

في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أفادَت (إنّ) تأكيدَ مضمونِ الجملة، كما دلَّت الجملةُ الاسميّةُ على تأكيدِ المعنى وثبوتِه، حتّى لا تبقى في النّفوس شائبةٌ أنّ اللّه تعالى هو الّذي يُؤتي نصرَه مَن يشاء، وليسَت بقوّةِ استعدادِكم أو كثرتِكم. وكونه عَليمًا بذاتِ الصُّدورِ؛ بمعنى: أنّه يعلمُ ما سيكون في القلوب المنطويَةِ على الأفكار، والمحتويَةِ على الأسرار، منَ الشّجاعة والجُبْن، ومنَ المصابرة والجزع، ومنَ الثّبات والتّزلزل، ومنَ التّشبُّث والتّحوُّل، فكان حقيقًا بهذا النّمط منَ التّوكيد المكثَّف، أن يجلّي قدرةَ اللّه المحيطة بعلم كلِّ شيءٍ، والّتي لا يُعجِزُها شيء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/23.

دلالات التّذييل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

فوائدُ التّذييل اللّغويّةُ والبلاغيّةُ، تُبرز بيانَه وجمالَه

في جملة التّذييل فوائد لغويّة وبلاغيَّة هي[1]:

أولاً: لمّا جاء الكلامُ في سياق ذمِّ التّنازعِ في القتالِ وفي الغنيمةِ، وكانَ التّدبيرُ إنّما يصدرُ عن ذلك الموضع، ويرجعُ إليه، وكلُّ بني آدم خُصّوا بمعنى التّدبير؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بالصّدور صدورُ البشر، فخَصَّهم بعلم ما تنطوي عليه صدورُهم، منَ الخواطرِ والبواعثِ والصّوارفِ؛ ليخرجَ الكلامُ مخرجَ التّحذيرِ لهم كي لا يُضْمِروا ما يخالفُ إيمانَهم، فإذا كان عالمًا بذاتِ الصُّدور فسيُظْهِرُ ما يشاءُ على رسوله وعلى المؤمنين، لذلك خَصَّ علمَه هنا بذاتِ الصّدور، وإن كان عالمًا بالكلِّ، بذات الصّدور وغير ذات الصّدور؛ لأنّه محيطٌ بكلّ شيءٍ علمًا.

ثانيًا: تفيدُ بمقتضى اللّازمِ معنى العموم، فمَن كان لا يخفى عليه ما كان مُضمَرًا في صدر المرءِ، ولا يعلمُه غيرُ صاحبه، ولا يمكن اطّلاعُ أحدٍ عليه - لا يخفى عليه القولُ سرًّا كان أو جهرًا.

ثالثًا: في جملة التّذييل معنى العمومِ والكلّيّةِ، فتكونُ جاريةً مجرى المَثَلِ في الكلامِ.

التكثيف الدلالي في قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

مُضمَراتُ الصّدورِ مدبِّرةٌ لحالِ البشرِ، الّتي يحكمُها قدرُ الله المقدور

لمّا كانتِ الأسرارُ والضّمائرُ والخواطرُ، الحالَّة في الصُّدورِ المصاحبة لها، هي المدبّرةَ لحال البشرِ، المصرِّفةَ لأمورهم، جُعلت كأنَّها مالكةٌ للصُّدور، فأفادَ لفظُ (ذاتِ)، ما لايفيدُه لو قيل: (إنّه عليمٌ بالصّدور أو بالقلوب)، فليس لفظُ (ذاتِ) مُقحَمًا، ولا من إضافة المسمَّى إلى اسمه[2]، ولكنّه أفاض من إضافته لفظ (ذات)

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/494، 10/33، ومكّيّ بن أبي طالب، الهداية: 12/7579.
(2) الشّهاب، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/278 - 5/71.

إلى الصّدور على الجملة المكرَّسةِ لتأكيد معنًى عقائديٍّ جليلٍ، يتعلَّقُ بإحاطة علم الله بما يخبِّئه المتشاكسون، وتنطوي عليه صدورُهم، فتكون حركةُ قَدَرِه متماشيةً مع مُطلَقِ علمِه، فلا يكون إلّا ما أراد، وهو القاهرُ فوق عباده، وكلُّ ما قدّرَه فلِحكمةٍ لا نعلمُها، ولكنّنا ندركُ آثارَها، فيما وقع من أحداثٍ، وما يقعُ من تصاريفَ.

فائدةُ الوصلِ في لفظ ﴿وَإِذۡ﴾:

العطفُ يقتضي المغايرةَ، ويجمعُ المعاني لإبرازِ الدّلالةِ الكلّيّةِ للسّياق

جاء الوصلُ بالواو في قوله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾؛ لإفادة مغايرةِ هذه الرُّؤيةِ لِما سبقها، فهي في اليقظة، وللإشعارِ بأنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يندرجُ في خِطاب: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾؛ لأنَّهُ لا يَجوزُ على أن يرَى الكَثيرَ قليلًا لا حَقيقَةً ولا تَخميناً، ليكونَ الخطابُ بطريقِ التّلوين، فالإراءةُ هنا تختلفُ عمّا أراه اللّهُ تعالى لرسولِه ﷺ[1].

مناسبةُ التّعبيرِ بـ﴿وَإِذۡ﴾:

رؤيـةُ اليـقظةِ عـند الفـريـقين مـن آيـاتِ الله الباهرةِ

لمّا كانَت ﴿وَإِذۡ﴾ في قوله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ لتعظيم شأن المذكورِ إذا تصدّرَت في الكلام، أفادَت هنا أنَّ ما ذُكِرَ بعدَها من رؤيةِ اليقظةِ عندَ الفريقينِ آيةٌ أخرى من آياتِ اللّه يومَ بدرٍ، ونعمةٌ كبيرةٌ أظهرها اللّهُ للمؤمنين يومئذٍ، وفي قوله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ الضّميران مفعولان، والمعنى: وإذ يبصِّركم إيّاهم، وقد يؤيّدُ اللّهُ المعجزةَ المناميّةَ، بالمعجزة المباشرة في حالة اليقظة؛ ليثبِتَ تصرّفَ قدرتِه في جميع الأحوال، من نوم أو يقظةٍ، في الحال أو في المآل، ممّا ينفسحُ له كلُّ تعبيرٍ دامغٍ لكلّ باطل، وتشملُه كلُّ معجزةٍ من شأنها أن تكشفَ عن كلِّ يقينٍ لا يخالطُه إفكٌ، ولا تشوبُه ظنون.

دلالةُ ﴿إِذِ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾:

أفادَت ﴿إِذِ﴾ هنا في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/331، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.

حصولُ رؤيةِ التّقليل للطّرفين في وقتِ الالتقاء

بيانَ وقتِ الرّؤيةِ، بمعنى: حصولِ الرّؤيةِ في وقتِ الالتقاء، ليكونَ الأمرُ أشدَّ تثبيتًا للمؤمنين، وأجرأ للكفّار على القتال، وفي ﴿إِذۡ﴾ معنى التّعليل؛ بمعنى: أنَّ سببَ ما حصلَ من رؤية اليقظةِ للمؤمنين، هو التقاؤُكم بفريق المشركين.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾:

التّقليلُ آيةٌ من آياتِ الله؛ لشدّة قربِ الفريقين، وكأنّهما متماسَّيْن

في قوله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾ لمّا كان الالتقاءُ افتعالًا منَ اللِّقاء، وصيغةُ الافتعال فيه دالَّة على المبالغة[1]، دلَّ على أنَّ التقاءَ الفريقين كان على سبيلِ المقابلةِ، وجهًا لوجهٍ متماسّين؛ ليفيدَ قربَ بعضِهم من بعضٍ بحيث تكون الرّؤيةُ واضحةً، للإيذانِ أنَّ التّقليلَ الّذي حصل كانَ بآيةٍ من آياتِ الله، خصوصًا وأنّه تعالى مالكُ الملك، والمتصرّفُ في الكون بالمشيئة، وهو مُقلِّبُ القلوب والأبصار، يفعلُ ما يشاءُ ويختارُ، لارادَّ لحكمه، ولا مُعقِّبَ لكلماته، ولذلك فهو قد أعطى مثالًا واقعيًّا ملموسًا في نصرة منِ اصطفاهم لتقواهم، ودحرِ مَن غضبَ عليهم لكفرهم الصُّراح، وفِسْقِهم البَواح، وهو العادلُ الّذي لا تضيعُ عنده حصائلُ الأعمالِ من أهل الهدايةِ، ولا صنوفُ المخازي من أهل الضّلال والغَواية.

بلاغةُ الاحتراسِ في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾:

تأكيدُ أنَّ رؤيةَ المؤمنين كانت بالعين لا في المنامِ

جاء الكلامُ على طريق الإطنابِ في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾؛ لأنَّ الرّؤيةَ إذا أُطلِقَت لا تكون إلّا بآلتِها وهي الأعين، فكان ذِكْرُ ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾ احتراسًا؛ لأنَّه لو لم يكن لمقصدٍ لكان مُستغنًى عنه، فجاء الاحتراسُ لدفعِ ما قد يُتوهَّمُ، من أنّ يكونَ المرادُ رؤيا المنام، ولِتأكيدِ أنَّ الرّؤيةَ بالأعينِ؛ ولينبّهَ على أنّ رؤيتَهم بالأعينِ قليلًا عددُهُم، يسيرًا أمرُهُم، ليست على حقيقة ما هم عليه؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.

أي: ليس كذلك في نفس الأمر، بل بفعلِ اللّه، ليكونَ آيةً من آياتِ اللّه تعالى[1].

دلالةُ الحالِ في لفظ ﴿قَلِيلًا﴾:

الرّؤيةُ بهيئةِ القلَّةِ، كانت في وقتِ التقاء الفريقين وليست مُطلَقةً

قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ هنا - من قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ ﴿فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ - حالٌ؛ لأنَّ الرُّؤية رؤيةُ العين، فالفعلُ يتعدّى لمفعول واحدٍ[2]، ولمّا كان الحالُ قيدًا لعامله، ولمتعلِّقاتِ عامله، أفادَ المعنى أنَّه تعالى أراهم المشركين قليلًا في أعينِهم، وليس في حقيقةِ الأمرِ، وأنَّ هذه الرّؤيةَ بهيئةِ القِلَّة كانت في وقتِ التقاء الفريقين، وليست مُطلَقةً؛ ليفيدَ أنَّ ما حصلَ في هذه الرّؤية آيةٌ من آياتِ اللّه أظهرها اللّهُ إكرامًا للمؤمنين، وليدلَّ على عنايةِ اللّهِ ولطفِه بهم، منذ بداياتِ الأمرِ.

مناسبةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾:

تصديقُ رؤية العين لِما رآه رسولُ الله ﷺ في المنام

عَبَّر بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله: ﴿فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ موافقًا لما ذكرَ في الآية السّابقةِ في اللّفظ والمعنى؛ ليدلَّ على أنَّ القليلَ الّذي حصل في النّوم تأكّدَ بحصوله في اليقظة[3]؛ ليكونَ مُصدِّقًا لما أخبر به النّبيّ ﷺ عن رؤياه، تشريفًا لقدره ﷺ، وبيانًا لمكانته عندَ اللّه، وليجترأ المؤمنون على عدوّهم.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغة فعيل في قوله: ﴿قَلِيلًا﴾:

قوّةُ الإيمانِ بمددِ الله، وضعفُ الكفرِ بخذلان الله وعقابه

لمّا تكرر وصفُ القلّة ﴿قَلِيلًا﴾ بصيغة (فعيل) في الآيتين أشعرَ بأنَّه وصفٌ لازمٌ ثابتٌ دائمٌ على المشركين، ماداموا بوصفِ الكفرِ، ومادامَ المؤمنون بوصفِ الإيمانِ، فتكون القلَّةُ بمعنى لازمِها؛ وهو الضّعف[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/404.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/290.

حِكمةُ التّقليلِ في رؤية العينِ للفريقين:

لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى أنَّ الرّؤيةَ كانت بالعين عندَ الطّرفين، دلَّ على إنفاذِ قضائِه في نصرةِ الإسلامِ وإظهارِه، فقلّلَ كلَّ طائفةٍ في عيونِ الأخرى، وإنّما جاءَ السّياقُ على معنى اعتبارِه آيةً من آياتِ اللّه؛ لأنَّ البصرَ قد يرى الكثيرَ قليلاً والقليلَ كثيرًا، لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدّ، وإنّما ذلك بصدِّ اللّهِ تعالى الأبصارَ، عن إبصار بعضٍ دون بعضٍ، مع التّساوي في الشّرائط، فوقع الخللُ في التَّخمينِ والحَزْرِ الّذي يستعمله النّاس في هذا؛ لِتتَجَسّر كلُّ طائفةٍ على الأخرى في الحرب، وتَتَسبّب أسبابُها، ويتجرَّأ كلٌّ منهم على قتالِ الآخر، ولا يطيل الأُهبةَ والتَّحضيرَ فيقعَ اللِّقاءُ[1].

معجزةُ التّقليلِ: أنَّ اللّهَ تعالى صدّ الأبصارَ، عن إبصارِ بعضٍ دونَ بعضٍ

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ﴾:

عبّرَ بالأفعال المضارعة في قوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ و﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ﴾ لحكاية الحالِ الماضية، ولتصويرِ تلكَ الحالةِ الغريبة[2]؛ ليستحضرَ المخاطَبون تلك الصّورة، حتّى كأنّهم رأيُ عينٍ أمامَ ساحةِ المعركة، ومعلومٌ أنّ الإراءةَ جاءَت "تصديقًا لرؤيا رسول اللّه ﷺ، وليُعاينوا ما أخبرَهم به، فيزدادَ يقينُهم، ويَجِدّوا، ويَثْبُتوا، قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قُلِّلوا في أعيننا، حتّى قلتُ لرجلٍ إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئةً! فأسرنا رجلًا منهم، فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفًا!"[3].

المضارعُ يُعبَّرُ به عنِ استحضارِ الصّورة، وحكايةِ الحالِ

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ﴾:

عَبَّر بصيغة الفعل المضارع: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾، دون الوصف بصيغة (فعيل)، كما وصفَ

تقليلُ المؤمنين لم يكن وصفًا ثابتًا، بل واقعة فعلٍ حصلَت قبلَ اللّقاء

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/214، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/94.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.

العدوّ؛ للإشعارِ أنّها صيغةُ فعلٍ واقعٍ وقتًا قبلَ اللّقاء؛ ومادّةُ التّفعيل تدلُّ على الجعلِ، فصيغةُ الفعلِ تفيدُ أنَّ التّقليلَ ليس وصفًا، والمعنى: يجعلكم قليلًا؛ ليجترئوا على قتالِكم ومصادمتِكم[1]، وقد قال أبو جهل: إنّ محمّدًا وأصحابَه أكلةُ جزور، مثلٌ في القلّة، (كأكَلَةِ رأسٍ)، أي: أنّهم لقلّتهم يكفيهم ذلك[2].

بلاغةُ الاحتراسِ في عبارة ﴿فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾:

تقليلُ المؤمنين ليس بالنَّقصِ من عدد المسلمين، بل في أعينِ الكافرين

جاء الكلامُ على طريق الإطناب في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ في قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾؛ ليعلمَ أنَّ التَّقليلَ ليس بالنَّقصِ من عدد المسلمين في نفس الأمر، فهو في أعينهم فقط، "وهذا من شأنه أن يبعثَ في نفوس المشركين، أو في كثيرٍ منهم، مشاعرَ الاستخفافِ بالمسلمين، وعدمَ المبالاةِ بهم، وأخذَ الحذرِ منهم، وبهذا يفوتهم كثيرٌ من إحكام التّدبير، كما تتخلّى عنهم كثيرٌ من مشاعر الخوفِ الّتي تحملُ الإنسانَ على استجماعِ قواه، واستخراجِ كلِّ رصيدٍ في كيانه، لدفع الخطر الّذي يتهدَّده!"[3].

مناسبةُ تكرارِ قوله: ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾:

لا تَكرارَ في الجملة لاختلاف الفعلِ المعلَّلِ بها، فالتَّكرارُ ثراءٌ لا ترداد

قد يُقال ذكرتَ هذه الجملة في الآية المتقدِّمَة، فكان ذكرُها هنا محضَ التَّكرار، وجوابه أنْ لاتكرار؛ لأنّه لمّا اختلفَ الفعلُ المُعلَّلُ به أُعيدَ ذكرُ الجملة، فاختلفَ المعنى لاختلافِ السَّبب، وبيانُه أنَّه علَّلَ بها الجمعَ بين الفريقين، من دون ميعادٍ في الأولى، وفي هذه الآية علّلَ بها تقليلَ كلِّ واحدٍ منَ الفريقين، في أعين الآخر في الثّانية.

وأيضًا المرادُ بالأمر ثَمَّةَ الالتقاءُ على الوجه المَحكيِّ، وهاهنا إعزازُ الإسلامِ وأهلِه، وإذلالُ الشّركِ وحزبِه، أو يُقال: إنّه تعالى لمّا قلّلَ عددَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/291، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.

المؤمنين في أعين المشركين بَيَّن هاهنا، أنَّه إنّما فعل ذلك ليصيرَ ذلك سببًا لئلّا يبالغَ الكفّارُ في تحصيل الاستعداد والحذر، فيصير ذلك سببًا لانكسارهم، فيحصل به نصرُ المؤمنين وهزيمةُ المشركين(1).

مناسبةُ إيثارِ الإظهارِ موضعَ الإضمار:

تربيـةُ المهابـةِ في نفـوس المخاطَبين إجلالًا لله تعالى، من مقاصد البيان القرآنيّ

جاء المسنَدُ إليه ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ ظاهرًا بعد إضماره في الجملة السّابقة؛ ليكونَ على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوس المخاطَبين، ولزيادة الإيضاحِ والتَّقريرِ عند المخاطَبين بذكرِ الاسم الّذي يخصُّه تعالى، ولما في مجيء الاسم الجليلِ من إظهارٍ لتعظيم ما قضى به سبحانَه ممّا هو آيةٌ من آياتِه يومَ بدرٍ، ولمناسبة كون ما قضى به كان مفعولًا ثابتًا واجبًا، فلا يقضي به إلّا اللّه تعالى(2).

دلالةُ الواو بين الاستئنافيّة والحاليّة:

العطفُ الصّوريُّ اعـتراضٌ يقترنُ بـالـجـمـلـة التّذييليّة آخر السّياق

الواو في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ استئنافيَّةٌ؛ لتكون الجملةُ بعدها تذييليَّة، خوطِبَ بها المؤمنون وغيرهم، وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ هذه الواو اعتراضيّةٌ، والعطف يسمَّى اعتراضيًّا؛ لأنَّه عطفٌ صوريٌّ ليسَت فيه مشاركةٌ في الحكم، وهو اعتراضٌ في آخر الكلام؛ لاقترانِه بالجملة التّذييليّة(3).

بلاغةُ الحصرِ في الكلام:

كـلُّ شيءٍ في الكون من بدئه إلى منتهاه، أمره راجعٌ إلى الله

لمّا تقدّمَ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ على المسنَد والمسنَد إليه ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ دلَّ على الحصرِ، وهو على معنى قَصْرِ القلبِ؛ أي: إلى اللّه لا إلى غيره، تُرجَعُ الأمور(4). وإمّا على معنى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/95.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 177 - 180.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/96.

قَصْرِ الإفراد؛ أي: إلى اللّه وحدَه تُرجَعُ الأمور. ويَحتمِلُ أن يكونَ على مجموعِ الوجهين لدخول جميعِ المخاطَبين في الكلام؛ بمعنى: إلى اللّه وحدَه لا إلى غيره تُرجَعُ الأمور[1]؛ ليفيدَ الحصرُ تقريرَ ما يعتقدُه المؤمنون، وتصويبَ ما يخطئُ به الكافرون في حكمِهم ومعتقدِهم.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾:

(أل) في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ استغراقيّة[2]؛ ليدلَّ اللّفظُ على أنّ المعنى: إلى اللّه وحده لا إلى غيره ترجعُ الأمورُ كلُّها، جليلُها ودقيقُها[3]، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، كما قال صاحبُ المنار: بمعنى "فلا يَنْفُذُ شيءٌ في العالم إلّا ما قَضاهُ اللّهُ تعالى، وقَدَّرَ أسبابَهُ، وإنَّما القَضاءُ والقَدَرُ قائِمانِ بسُنَنِه تعالى في الأسبابِ والمُسَبَّباتِ، فهو لو شاءَ لَخَلَقَ في القُلوبِ والأذهانِ ما أرادَهُ بتأثيرِ مَنامِ الرَّسولِ، وبِتَقليلِ كُلٍّ مِنَ الجَمْعَينِ في أعيُنِ الآخَرِ، مِن غَيرِ أن يُرَتِّبَهُما على هذينِ السَّبَبَينِ، ولكِنَّهُ ناطَ كلَّ شيءٍ بسببٍ، وخلقَ كلَّ شيءٍ بقَدَرٍ"[4].

كلُّ ما قدّرَ اللهُ في الحياة مرتبطٌ بسُنَنِ الأسبابِ والمُسبَّباتِ

نكتةُ الجمعِ في لفظ ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾:

لمّا كانَت (أل)، في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ استغراقيّةً؛ كان التّعبيرُ بصيغة المفردِ كافيًا في الدّلالة على استغراق الأمورِ كلِّها، فلمّا جاء بصيغة الجمعِ دلَّ على أنَّ المرادَ مِنَ الأمور الذّواتُ والأحوالُ جميعُها[5]؛ لمناسبتِها سياق الكلام، بمعنى: إلى اللّه تُرجعون بذواتِكم، وإلى اللّه ترجعُ الأحوالُ الّتي رأيتموها في يومِ الفرقان مِنَ الإراءةِ المعتادةِ، والإراءةِ غيرِ المعتادة، والمعنى على العموم.

إلى اللّه الرّجعى، فلا مفرَّ إلى سِواهُ ولا شكوى

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1628.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/96.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/19.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.

دلالةُ لفظ ﴿تُرْجَعُ﴾:

تدبيرُ أمورِ الدّنيا كلّها، مرجعُه إلى الله جلّ في علاه

في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لمّا كان الرّجوعُ بمعنى العودِ إلى ما كان منه البدءُ[1]، دلَّ على أنَّ تدبيرَ أمورِ الدّنيا كلها، وتصريفَها بدءًا ورجوعًا إلى اللّه وحدَه، فلا يصدرُ شيءٌ إلّا منه وعن قضائه، ولا ينفذُ شيءٌ في العالم إلّا ما قضاه اللّهُ تعالى وقدَّرَ أسبابَه. وعبّر بالرّجوع للإشعار بأنَّ مآلَ الذّواتِ والأحوالِ في ما حصل يومَ الفرقانِ وفي غيره إلى اللّه تعالى وحدَه، فيجزي المحسنَ إحسانًا، وللمسيء العاقبةُ السّوءى أو المغفرةُ.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في قوله: ﴿تُرْجَعُ﴾:

كلُّ مايجري في الكَوْنِ مَقْدور وإلى اللهِ تُرجَعُ الأُمور

عَبَّرَ بصيغة المضارعِ في قوله: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ للدّلالة على استمرارِ رجوعِ الأمورِ كلِّها إلى اللّه، وتجدّدِ رجوعِها حالًا فحالًا، وفي هذه الواقعةِ ومثيلاتِها في هذه الدّنيا، يقدّرُ اللّهُ الأسبابَ، "فيتمُّ تنفيذُ أمرٍ علمَه اللّهُ، وكان لا بدَّ أن يتمَّ، وإلى اللّه تُرجَعُ أمورُ العالمِ كلّه، فلا يَنْفُذُ إلّا ما قضاه، وهيّأ أسبابَه"[2].

أثرُ المجازِ العقليّ في توجيه القراءة القرآنيّة في قوله: ﴿تُرْجَعُ﴾:

كلُّ الأمورِ منقادةٌ بنفسها إلى إرادةِ الله خالقِها

في قوله: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، قرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائيّ ويعقوب وخَلَف بفتح تاء (تَرجِعُ)، وقرأ الباقون بضمّها ﴿تُرْجَعُ﴾[3]: فعلى قراءة الفتحِ فـ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ فاعل، ويكون الإسنادُ على طريقِ المجازِ العقليِّ، والمعنى: (إلى اللّه تَرجعُ الأمورُ مِن تلقاءِ ذاتها إلى اللّه)، وفائدةُ التّعبيرِ بالمجاز الإيذانُ بأنّها منقادةٌ بنفسِها إلى اللّه. وعلى قراءة الضّمِّ حُذِفَ الفاعلُ للعلم به؛ وهو اللّهُ تعالى، فهو الّذي يُرجِعُها إليه، وفائدةُ البناءِ للمفعول توجيهُ الأنظار، إلى رجوعِ الأمور كلِّها إلى اللّه تعالى[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

(2) الرّاغب، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 250.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/208-209.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/29.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرّبـطُ بين أسبابِ النّصر ودواعيه، بذكر اللهِ والثّباتِ على مباديه

لمّا عرّفهم اللّهُ بنعمِه ودلائلِ عنايَتِه، وكشَفَ لهم عن سرٍّ من أسرارِ نصرِه إيّاهم، وكيف خذلَ أعداءَهم، وصرفَهم عن أذاهم، فاستتبَّ لهم النَّصرُ مع قلَّتِهم وكثرةِ أعدائِهم، أقبلَ في هذه الآيةِ على أن يأمُرَهم بما يُهَيِّئُ لهم النَّصرَ في المواقعِ كلِّها، ويستدعي عنايةَ اللّهِ بهم وتأييدَه إيّاهم، فجمعَ لهم في هذه الآيةِ ما به قِوامُ النَّصرِ في الحروبِ كلِّها، بمراعاةِ آدابِ اللّقاءِ عندَ مبارزةِ الأعداءِ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِئَةٗ﴾: أصلُ الكلمة (فيأ)، ويدورُ معنى الكلمة على فجوةٍ أو شَقٍّ وفَراغٍ في شيءٍ غليظٍ صُلْبٍ، يَفصِلُه شطرين أو كتلتين: كالصّدعِ في الجبلِ وتلك الفُرَجِ. والفئةُ: الفِرقةُ أو الجماعةُ، من ناسٍ أو جيشٍ كثيرين أو قليلين، بحيث تكونُ متظاهرةً يَرجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التّعاضُدِ. كما تُطلَقُ على الطّائفةِ الّتي تُقيمُ وراءَ الجَيشِ، فإن كانَ عليهم خَوفٌ أو هَزيمَةٌ، التجؤوا إليهم(2).

2) ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾: يدورُ معنى الثّباتِ على متانة ارتباطِ الشّيءِ المتنقِّل، بما لُزَّ به أو قامَ عليه، لا يتحلحلُ ولا يزولُ، ومنه الثّبات في المكان، وفي مواجهة العدوّ. كما استُعمِلَ في الثّبات النّفسيّ، وما هو من بابه، كقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: 32](3).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/29.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فيأ).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثبت).

ومعنى اللّفظ في سياقه: "﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ لقتالهم كما ثَبَتُّم في بدرٍ، ولا تحدّثوا أنفسَكم بفِرار"[1]، والثّباتُ هنا عدمُ التّزلزلِ والتّزحزحِ في مواطنِ الحربِ، عندَ لقاءِ العدوّ ومواجهته في ميدان النّزالِ والالتحامِ، وهو موقفٌ مرعبٌ، تَزِلُّ فيه الأقدامُ، وتنخلعُ فيه القلوبُ، ويحومُ فيه الموتُ على الرّؤوس، إذا اشتدَّ الوطيسُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التّعريفُ بآدابِ القتالِ عندَ هلعِ النّفوسِ، ومباشرةِ الحربِ الضّروس

يا أيُّها الّذين آمنوا باللّه حقَّ الإيمان، إذا لقيتُم جماعةً من أهل الكفرِ باللّه للحرب والقتال، فاثْبُتوا لقتالِهم، ولا تولّوهم الأدبارَ، وادعوا اللّه بالنّصر عليهم، واذكروه في قلوبكم وألسنتكم، لعلَّكم تنجحون فتظفرون بعدوّكم، ويرزقُكم اللّهُ النّصرَ والظّفرَ عليهم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ النّداءِ بالأداة (يا):

تنبيهُ المؤمنين إلى أهميّة الخطابِ والإقبالِ إليه، منهجٌ نفسيٌّ مشوقٌ

لمّا كان النّداءُ لطلب إقبالِ المخاطَبِ، كان المرادُ هنا طلبَ الإقبال بالقلب والحضور النّفسيّ، وجيءَ بـ(يا) النّداء التي للبعيد، في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ إمّا للإيذانِ باحتمالِ غفلةِ المؤمنين عنِ الثّباتِ وذكرِ اللّه كثيرًا؛ لمجيءِ (يا) في مناداةِ مَن سها وغفل وإن قرُب؛ تنزيلًا له منزلةَ مَن بَعُدَ، تنبيهًا لِلمؤمنين للاهتمامِ بما يأتي بعدَ النّداء. وإمّا للتّأكيد المؤذِن بأنّ الخطابَ الّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا، وللإشعارِ ببعدِ مكانةِ الثّباتِ وذكرِ اللّه كثيرًا[3]. ونداءُ اللّه تعالى للمؤمنين لا يُتصَوَّرُ فيه إلّا أن يكونَ من إنزال القريبِ منزلةَ البعيد، ليتنبّهوا ولا يغفلوا، وهو مظهرٌ من مظاهرِ التّوكيد.

(1) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/574.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/574.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/121.

دلالةُ استعمالِ (أيٍّ) في المنادى:

تربية المؤمنين على الثبات في القتال والجِدّ عند النِّزال

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لمّا كان لفظُ (أيّ) وصلةً لنداء المعرَّفِ (بأل)، كانَت تمهيدًا للتّأكيدِ، فيكون بمثابةِ ذكرِ المنادى مرّتين للتّأكيدِ[1]، والنّداءُ تحريضٌ للمؤمنين على القتال، وتأكيدٌ للثّبات على النّزال، وهو يخاطبُهم بأسلوب النّداء: "﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾؛ أي: إذا حاربتُم جماعةً منَ الكفرة، فجدّوا في المحاربة ولا تنهزموا"[2].

فائدةُ (ها) التّنبيه، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

تأكيدُ النّداء، والاهتمامُ بمضمونِه، من بلاغة الخطاب

لمّا كان لفظُ (ها) للتّنبيه، وكان النّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المدعوِّ، ناسب اقترانُ الكلامِ بها، ليُشعِرَ اللّفظُ بتأكيدِ النّداء، والاهتمام بمضمونِه، خاصّةً وأنّ الثّباتَ قوّةٌ معنويّةٌ، طالما كانت السّببَ في النّصر والغَلَب، فإنّ من أهمِّ أسبابِ النّصرِ فيها الثّباتَ وعدمَ اليأس، بل الثّباتُ نافعٌ في كلّ أعمالِ البشرِ، فهو الوسيلةُ في الفوز والنّجاح فيها[3].

من لطائفِ النّداءِ بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

مجيءُ النّداء إشعارٌ بعِظَمِ ما يأتي بعده في السّياق

قد يُقال: لِمَ كثُرَ في كتاب اللّهِ النّداءُ على هذا الأسلوبِ، ما لم يكثُر في غيره؟

والجواب: لاستقلاله بأوجهٍ منَ التّأكيد، وأسبابٍ منَ المبالغة، ليسَت في غيرِه منَ الأساليب؛ لأنّ كلَّ ما نادى اللّهُ له عبادَه، من أوامرِه ونواهيه، وعظاتِه وزواجرِه، ووعدِه ووعيدِه، واقتصاصِ أخبارِ الأممِ الدّارجةِ عليهم وغيرها، هي أمورٌ عِظامٌ، وخُطوبٌ جِسامٌ، ومعانٍ عليهم أن يتيقّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/92.
(2) الجاوي، مراح لبيد: 1/426.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/09.

إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضتِ الحالُ أن يُنادَوا بالأسلوبِ الآكَدِ الأبلغِ[1].

دلالةُ الموصول وصلته في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

لمّا عَبَّرَ بصلة الموصول﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ دلَّ على تذكيرِهم بما هو معلومٌ عندهم؛ تعظيمًا لشأنِ الإيمانِ، وللإيماء إلى وجهِ بناء الشّرط وجزائه، على كونهم مؤمنين، كما أنَّ فيه مقصدًا آخرَ، هو توجيهُ أذهانِ المخاطَبين إلى ماسيخبرُ به عنه، ليكونوا منتظرين لوروده إليهم، حتَّى يأخذَ مكانَه من قلوبِهم[2].

الإيمانُ يقتضي الثّباتَ عند لقاءِ الأعداءِ، والذّيادَ عن بيضة الدّينِ وحرماتِه

مناسبةُ التّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ﴾:

لمّا كان الأصلُ في ﴿إِذَا﴾ القطعَ بوقوع الشّرط، أشعرَ أنَّ لقاءَ الفئةِ أمرٌ مقطوعٌ به، وأنّه لا ينقطعُ، وأنّه قريبُ الوقوعِ في المستقبل، وهو النّكتةُ في اقترانِ الشّرطِ بالفعل الماضي ﴿لَقِيتُمۡ﴾؛ لكونِ الماضي مُؤْذِنًا بالقطعِ في الوقوعِ، ويكون لفظُ (إذا) للتّنبيه على أنَّ المتّصفين بالإيمانِ، يحقُّ أن يكون ثباتُهم عند لقاء العدوِّ وذكرُهم اللّه كثيرًا مقطوعًا به[3].

الإيقانُ بثبات المؤمنين عند اللّقاء، وذكرُ الله كثيرًا عند النّزال

سرُّ حذفِ صفة ﴿فِئَةٗ﴾:

لم يذكرِ القرآنُ صفةَ الفئة في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾؛ للإشعار بعموم الفئةِ؛ لتشملَ الكافرةَ والباغيةَ وغيرها، وذهب بعضُ المفسِّرين، إلى أنَّ الصِّفةَ محذوفةٌ للعلم بها منَ السّياق، أو لأنَّ المؤمنين ما كانوا يلقَون إلّا الكفّار، والتّقدير: فئةً كافرةً[4].

سوف تبقى الحربُ سجالًا بين الكفر والإيمان، على مدى الأزمان

سببُ تنكير لفظ ﴿فِئَةٗ﴾:

لمّا كانتِ النّكرةُ في سياق الشّرطِ تفيدُ العمومَ دلَّ على أنَّ المعنى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/90.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 183.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240 - 243.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/364، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226.

تـنـوّعُ الأعــداء وتـحـامـلُـهـم، لايؤثّرُ في ثباتِ المؤمنين

على العمومِ؛ ليشملَ كلَّ فئةٍ هي عدوٌّ للمؤمنين، في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾، على سبيلِ البدلِ، بأن تأتي فئةٌ ثمَّ فئةٌ أخرى على البدلِ، في الذّواتِ والأوقاتِ والمواضعِ(1)، كما يرشدُ إليه السّياقُ؛ والمعنى: أيُّ فئةٍ كانت قليلةً أو كثيرةً؛ ليشملَ عمومَ الفئة وعمومَ أحوالِها(2)، وتقدّمَ في سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال: 16].

دلالةُ الفاءِ في جواب الشّرط:

وجوبُ الثّباتِ، وذكرُ الله كثيرًا، عـنـد الـحـرب العوان، من غيرِ مهلةٍ

لمّا كانتِ الفاءُ حرفَ عطفٍ، يفيدُ التّرتيبَ والتّعقيبَ، وكانت في موضعِ جوابِ الشّرطِ هنا في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾، دلّت هنا على ترتّبِ وجوبِ الثّباتِ، وذكرِ اللّهِ كثيرًا، على لقاءِ الفئةِ، بمعنى: أنَّ لقاءَ المؤمنين الفئةَ سببٌ لتحقّقِ الجزاءِ. كما دلّت على وجوب أن يكون الثّباتُ وعدمُ تولّي الأدبار عندَ اللّقاءِ، من غير مهلةٍ، ومن دون تقاعس.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾:

الثباتُ عندَ قتالِ الـعـدوِّ يقتضي المداومةَ عليه

أصلُ الثّباتِ هو اللّزومُ وعدمُ الحركة، وهو هنا مجازٌ عنِ المداومةِ على القتال، فشبّه الأمرَ بمواصلة المؤمنين القتالَ ولزومه، بالأمر بلزوم المكانِ وعدم التّزحزحِ عنه لمَن شأنُه الثّباتُ وعدمُ التّحرّكِ، حيث حذفَ هذا الشَّيءَ الجامدَ الثّابتَ، وترك شيئًا من لوازمه، وهو الثّباتُ وأسنده إلى المشبّه، على سبيل الاستعارة المكنيّة التّخييليّة؛ ليفيدَ تقويةَ المعنى وتأكيدَه، وليكونَ استدلالًا على وجوبِ الثّباتِ، وتصويرًا للحالةِ.

---

(1) الجوينيّ، البرهان في أصول الفقه: 1/119، والعطّار، حاشية على شرح جمع الجوامع: 2/10.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/464.

الثّباتُ في الحرب دليلُ رسوخِ الإيمانِ، وثباتِ الجَنانِ

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾:

لمّا كان الأمرُ بالثّبات نهيًا عن تَوْليةِ الأدبارِ، وكانَ الأمرُ بالشّيء نهيًا عن ضدّه، دلَّ على أنَّ المرادَ منَ الأمر بـ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ - في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ - فائدةُ الخبر ولازمُها؛ أي: الأمرُ بالثّباتِ والنّهيُ عنِ التّولّي[1]، و"هذا أمرٌ بما فيه داعيَةُ النّصرِ، وسببُ العزِّ، وهي وصيَّةٌ منَ اللّه مُتَوَجّهَةٌ بحَسَبِ التّقييدِ في آيةِ الضّعفِ، ويجري مع معنى الآيةِ قولُ النّبيِّ ﷺ: «لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللّهَ العافيةَ، فإذا لقيتُموهم فاثبتوا»"[2].

دَيمومةُ ذِكرِ الله عند القتال ثَباتٌ حِسّيٌّ ودَعْمٌ نفسيٌّ

مناسبةُ العطفِ في جملة الجزاءِ:

عُطِفَ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ على جواب الشّرط ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، في قوله: ﴿فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾؛ ليفيدَ العطفُ التّشريكَ بين المعطوف والمعطوف عليه، في وقوعِ الجزاء، وليُشعرَ أنَّ المعطوفَ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ لا يكونُ شيئًا حتّى يتحقّقَ المعطوفُ عليه، بقوله: ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، فيكونُ الشّرطُ سببًا للامتثال لِذكر اللّه، بواسطةِ أنّه سببٌ للامتثال لـ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، فيكون المعنى على هذا: (إذا لقيتم فئةً فاثبتوا، وإذا ثبتّم فاذكروا اللّه كثيرًا)[3]. وفيه إشعارٌ أنَّ ذكرَ اللّه كثيرًا يقوّي الثّباتَ ويديمه، وجمع بين الأمرِ بالثّبات والأمرِ بذكر اللّه ليفيدَ الجمعَ بين الجانب النّفسيِّ والحسّيِّ عندَ لقاءِ العدوِّ.

ذِكْرُ الله مأمورٌ به في جميعِ الأوقاتِ

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿كَثِيرٗا﴾:

جاء اللّفظُ بصيغة النّكِرة لتعظيم الذّكرِ وتفخيمه، وللحثِّ على الزّيادةِ والكثرةِ في ذكر اللّه كما يرشدُ إليه السّياقُ، وفيه بيانٌ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/230.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536. والحديث أخرجه مسلم، الصحيح، برقم: (4541)، بلفظ: «و إذا لقيتموهم فاصبروا».

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 234.

لأهميّة ذكرِ اللّه، إذ أمرَ اللّهُ تعالى به في أَحْلَكِ الظّروف وأشدِّها انشغالًا للمؤمنين فيما هو واجبٌ عليهم، وفي وقتِ تماسِّ الفريقين، والمواجهة في الحربِ وحملِ السّلاح، فكيفَ إذا كان المؤمنُ في حالةِ الرَّخاءِ والمُسالَمَة؟!

مناسبةُ مجيءِ لفظ ﴿كَثِيرًا﴾:

لا تنظروا إلى كثرةِ العدوِّ بل امتثلوا إلى كثرةِ الذِّكرِ فتظفَروا

لمّا كان السّياقُ قد أخبرَ عن كثرةِ العدوِّ وقلّتِهم ناسبَ أن يقيِّدَ الذِّكرَ المأمورَ به بصفة المصدر المحذوف، والتّقدير: اذكروا اللّه ذكرًا كثيرًا؛ للتّنبيه إلى أن لا تنظروا إلى كثرة العدوِّ بل امتثلوا إلى كثرة الذّكر فتظفَروا[1].

بلاغةُ التّعبير بـ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾:

قلوبُ المؤمنين تتطلَّعُ دومًا إلى رحمة الله ترتجي رضاه

لمّا كان (لعلَّ) على معنى التَّرجّي والتّعليل؛ أفاد الكلامُ الرّجاءَ بالنّسبة للعبدِ[2]، بمعنى: امتثلوا لأمر الثّباتِ حين لقاءِ الفئةِ، واذكروا اللّه كثيرًا رجاءَ أن تُفلِحوا وتُنجِحوا، وأفادَ التّعليلَ بمعنى: أنّ الثّباتَ حينَ لقاء العدوِّ وذكرَ اللّه كثيرًا؛ سببٌ للفلاحِ.

دلالةُ مجيء الخبر جملةً فعليّةً:

أفاد الإسنادُ تأكيدَ المعنى وتقويتَه بما تضمَّنه من مجيء المسنَدِ جملةً فعليَّةً[3].

مناسبةُ حذفِ مُتعلّق الفعل ﴿تُفۡلِحُونَ﴾:

خيرُ الفلاح ما كان في الدّنيا والآخرة

للإيذانِ بعمومِ فلاحِهم إذا امتثلوا لأمره تعالى؛ أي: لعلَّكم تفلحون في الدّنيا، وتفلحون في الآخرة. كما يَحتملُ أن يكونَ المرادُ إثباتَ وصفِ الفلاح في أنفسهم؛ ليكونَ وصفًا لازمًا لهم.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/232.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/317، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/525.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217 - 221.

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿تُفۡلِحُونَ﴾:

تـجـدّدُ فـلاحِ المؤمنين بتجدّد أسبابِه

أفادَ الفعلُ المضارعُ استمرارَ فلاحِ المؤمنين إذا ثبتوا عند لقاءِ الفئةِ وذكروا اللّه كثيرًا، وتَجَدُّدَ حدثِ الفلاح أو وصفِه بتجدُّدِ أسبابِه.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾ [الأنفال: 46 - 47]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

رَبْطُ الدَّعوةِ إلى الثَّباتِ والذِّكرِ باتِّخاذِ الأسبابِ المفضيةِ إلى النَّصرِ

لمّا أمرَهم بالثَّباتِ وذكْرِ اللّهِ كثيرًا في الآيةِ السّابقةِ؛ ناسبَ الاستمرارَ على الوصيَّةِ لهم، بأنْ يتمِّمَ ذكْرَ الأسبابِ المعينةِ على النَّصرِ[1]، وأيضًا لمّا أمرَهم برسوخِ الأقدامِ، وذكرِ اللّهِ على الكمالِ والتَّمامِ؛ أمرهم بأعمالٍ راجعةٍ إلى انتظامِ الجيشِ، والتئامِ الصَّفِّ، ووحدةِ الكلمةِ، وهي تمتينُ علائقِ بعضِهم مع بعضٍ، بالهرَعِ إلى الطّاعةِ، والالتزامِ بترْكِ التَّنازعِ والشِّقاقِ، والتَّحلّي بالصَّبرِ الجميلِ، واجتنابِ الكِبْرِ والرِّياءِ والصَّدِّ عنِ السَّبيلِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِيحُكُمۡۖ﴾: أصلُ الكلمةِ: روحٌ، ويدلُّ على سعةٍ وفسحةٍ واطِّرادٍ، وأصل ذلك كلِّه الرّيحُ، وهي الهواءُ المتحرِّكُ، والجمع رياحٌ، وعامَّةُ المواضعِ الَّتي ذكرَ اللّهُ تعالى فيها إرسال الرّيح بلَفْظِ الواحِد، فهي بمعنى العذابِ، وكلُّ موضعٍ ذكرَ فيه بلفظِ الجمع، فهي بمعنى الرَّحمةِ، ويأتي اللَّفظُ على المجازِ بمعنى الغلبةِ، ومنه: (ذهبت ريحهم)، أي: دولتهم[3]، ومن ذلك قولُ الشّاعرِ:

إذا هَبَّت رياحُكَ فاغتَنِمها*** فعُقبى كُلُّ خافِقَةٍ سُكونُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/30.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (روح).

وإن دَرَّت نياقُكَ فاحتَلِبها*** فما تَدري الفَصيلُ لِمَن يَكونُ؟[1]

2) ﴿بَطَرًا﴾: الباءُ والطّاءُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو الشَّقُّ، وسُمّي البيطارُ لذلك، والمعنى المحوريُّ الَّذي تدورُ عليه هو: تجمُّعُ مادَّةٍ فاسدةٍ في الباطنِ أو في الأثناء، فيشقُّ عنها: كما في إخراجِ الماءِ الَّذي في باطنِ الحافرِ، وهو فاسدٌ، ويقال لكلِّ من أرهق إنسانًا، فحمَّلَهُ فوقَ ما يُطيقُهُ: قد أبْطَرَهُ ذرعَهُ، أي: ضيَّعَ واستهلكَ قوَّتَهُ، والبطرُ: دهشٌ يعتري الإنسانَ من سوءِ احتمالِ النِّعمةِ وقلَّةِ القيامِ بحقِّها، وصرفِها إلى غيرِ وجهها، ومنه: بَطَرُ النِّعمة: قلَّةُ احتمالها والطُّغيانُ بها، وعدمُ شكرها، فهو في ضوءِ ما سبقَ فسادُ النَّفسِ إزاءَ تلقّي النِّعمةِ ببخْسِ قيمتِها، أو بالإفسادِ بها، فتُهْدَرُ[2].

3) ﴿وَرِئَآءَ﴾: مشتقٌّ من الفعلِ (رأى)، يقال: فلانٌ مُراءٍ وقومٌ مُراؤونَ، والاسم الرّياءُ، وهو أن يفعلَ شيئًا ليراهُ النّاس، ويَظُنّوا به خَيْرًا، يُقالُ: فعَلَ ذلك رياءً وسُمْعَةً، ويُقال: أرْأى الرَّجُلُ؛ إذا أظهرَ عَملًا صالحًا رياءً وسُمْعةً[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةٌ إلى طاعةِ اللهِ ونبذِ الفرقةِ، وتحفيزٌ على الصَّبرِ على العوائقِ

يرشدُهم السّياقُ أن أطيعوا اللّهَ ورسولَهُ، فيما أمركم به، ونهاكم عنهُ، ولا تخالفوهما في شيءٍ، ولا تختلفوا، فتفرَّقوا، وتختلف قلوبُكم، فتضعفوا، وتجْبُنوا، وتذهب قوَّتُكم وبأسُكم، واصبروا على مشاقِّ الطّاعةِ واجتنابِ المعصيةِ، إنَّ اللّه معَ الصّابرين بتأييدهِ ومعونتِه ونصرِه، ولا تكونوا مثلَ المشركينَ الّذين خرجوا من بلدِهم كِبْرًا ورياءً؛ ليمنعوا النّاسَ من الدُّخول في دينِ اللّهِ، واللّهُ بما

(1) البيتان منسوبان لعليّ بن أبي طالب، وللشّافعي، وللمتنبّي، وللشّاعر ابن هندو العبّاسيّ، وهما من الحكمة السَّيّارة، واستشهد الزّمخشريّ بالمطلع. ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة: 1/393، والزّبيديّ، تاج العروس: 6/414.

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بطر).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رأى).

يعملون محيطٌ، لا يغيبُ عنه شيءٌ، ففي الآيةِ أمرٌ من اللّه (جلّ ثناؤه) إلى المؤمنين بِه وبرسولِه، ألّا يعملوا عملًا إلّا للّهِ مخلصًا، طلبًا لما عنده[1]، وابتغاءً لمرضاتهِ وفضلِه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

طاعةُ اللهِ ورسولِه أهمُّ أسبابِ النَّصرِ المبينِ

جاءَ الوصلُ بالواو، ليفيدَ عطفَ ما في هذهِ الآيةِ على جوابِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ لمناسبةِ عطفِ الطَّلبِ على الطَّلبِ، وتصدَّرتِ الآيةُ بالأمرِ بطاعةِ اللّهِ ورسولِه، ولم تكن ضمنَ الآيةِ السّابقةِ لتعظيمِ أمرِ الطّاعة، وللإشعارِ بأنَّ طاعةَ اللّهِ ورسولِه تحقّقُ الثّباتَ في القتالِ وتقوّيه، فيكونُ التَّخصيصُ بالأمرِ بطاعةِ اللّهِ ورسولِه هنا فيه تأكيدٌ.[2]

مناسبةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

الامتثالُ لطاعةِ اللهِ العظيمِ، لا معنى له دونَ طاعةِ رسولِه الكريمِ

عطفَ لفظَ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على الاسمِ الجليلِ، للإشعارِ بأنَّ طاعةَ رسولِه من طاعتِه، وأنَّ الامتثالَ لطاعةِ اللّهِ تعالى، لا يحصلُ من دونِ طاعةِ رسولِه، ولمّا كان المقامُ مقامَ ذِكرِ لقاءِ الفتنَة، لقاءِ الفئة؛ أفادَ التَّنبيهُ على وجوبِ طاعةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، في الإقدامِ والإحجامِ في القتالِ، لجهلِهم بالعواقبِ[3]، كما أنَّ العطفَ أشارَ إلى تقريرِ أمرِ خمسِ الغنيمةِ، فإنَّ ما كانَ لرسولِ اللّهِ، فهو للّهِ تعالى.

دلالةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ في: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

تنويهٌ بمكانةِ الرَّسولِ القداسيَّةِ بإضافةِ الرَّسولِ إليهِ في الطَّاعةِ

أضيفَ لفظُ (رَسولِ) إلى الضَّميرِ العائدِ إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، لكونه مذكورًا، فهو مقرَّرٌ في ذهنِ السّامعِ، وللإيذانِ أنَّ طاعةَ رسولِ اللّهِ، هي نفسُها طاعةٌ للّهِ تعالى؛ لأنَّ الآمرَ بها، والواضعَ لها ذلك الموضعَ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/576، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 183.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/305.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/293.

مِنَ التِّجلَّةِ والتَّكرمةِ، هو اللّهُ (تعالى)، إضافةً إلى أنَّ الرَّسولَ مذكورٌ بلفظِ الرَّسولِ، وهو يعني: أنَّ الطّاعَةَ للّهِ بالأصالةِ، وأنَّ العطفَ والإضافةَ لطاعةِ رسولِه، يوحي بأنَّ أصلَ طاعةِ الرَّسولِ، راجعةٌ إلى طاعةِ اللّهِ في الأساسِ.

فائدةُ حذفِ تاءِ المضارعةِ في: ﴿وَلَا تَنَزَعُواْ﴾:

التَّنازعُ وإنْ قلَّ ينبغي اجتنابُهُ؛ لأنَّـهُ خيبـةٌ وفسادٌ

حُذِفَت تاءُ الفعل في قوله: ﴿وَلَا تَنَزَعُواْ﴾ تخفيفًا، والتَّقديرُ: (ولا تتنازعوا)، ولعلَّ فيه إشارةً إلى أنَّ التَّنازعَ - وإنْ قلَّ - منهيٌّ عنهُ، ولذلك قالَ لهم: "وَلا تَنازَعوا باختلافِ الآراءِ، كما فعلتُم يومَ بدرٍ، في أوَّلِ الأمرِ، ويومَ أحدٍ، فتَفْشَلوا، أي: تجْبُنوا"[1].

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿تَنَزَعُواْ﴾:

التَّنازعُ سببُ كلِّ شرٍّ، وهو المفضي لكلِّ خيبةٍ وهزيمةٍ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُواْ﴾ حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ لإفادةِ العمومِ، فليس الأمرُ مختصًّا بالتَّنازعِ في رأيٍ معيَّنٍ، ولا في أمرِ الغنيمةِ أو في القتالِ، والمعنى: لاتنازعوا في أيِّ رأيٍ، للإشعارِ بأنَّ التَّنازعَ سببُ كلِّ شرٍّ، ولم يقل: (ولا تنازعوا فيما بينكُم)، للإيجازِ في الكلامِ، فإنَّ التَّنازعَ بمعنى: أن ينزعَ بعضُ القومِ بعضًا، وليفيدَ النَّهيُ عمومَ المنازعةِ، ليعمَّ الأفرادَ والجماعاتِ.

مناسبةُ النَّهيِ عن التَّنازعِ في قولِه: ﴿وَلَا تَنَزَعُواْ﴾:

أوَّلُ الفسادِ التَّنازعُ، ورأسُ الزَّللِ الاختلافُ

لمّا كانت طاعةُ اللّهِ ورسولِه، تفيدُ الموافقةَ بينَ المسلمين في أصلِ الدّينِ؛ ناسبَ أن يعطفَ عليها قولَه: ﴿وَلَا تَنَزَعُواْ﴾، ليؤذنَ أنَّه كما تجبُ الموافقةُ في الدّينِ والعقيدةِ، تجبُ الموافقةُ في الرَّأيِ والعزيمةِ[2]، وليشعرَ أنَّ طاعةَ اللّهِ ورسولِه، لا تكفي في النَّصرِ من دونِ اجتنابِ التَّنازعِ في الآراءِ.

(1) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 4/97.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/629.

مناسبةُ عطفِ النَّهي عَنِ المنازعةِ على الأمرِ بالطّاعةِ:

اجتنابُ التَّنازعِ لونٌ من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه

لمّا كانَ الأمرُ بطاعةِ اللّهِ ورسولِه في قولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، عامًّا شاملًا، لِكلِّ ما تأتون وما تَذرون، ليعمَّ فعلَ المأموراتِ، وتركَ المنهيّاتِ الَّتي تشملُ التَّنازعَ، كان النَّهيُ عن التَّنازعِ في قولِه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾، من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ ليكونَ تأكيدًا للنَّهي عن التَّنازعِ، وتقريرًا لهُ، لاندراجِه في الأمرِ بطاعةِ اللّهِ ورسولِه، اندراجًا أوّليًّا وهكذا الأمرُ بالصَّبرِ، ففيهِ معنى التَّأكيد(1)، وإنْ كان المرادُ من الأمرِ بطاعةِ اللّهِ ورسولِه الأمرَ بطاعةِ ولّاة الأمورِ، فيكونُ من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، حتَّى يرتقي النَّهي بهم من الأدنى إلى الأعلى، وذلك لأنَّ النَّهيَ عن التَّنازعِ، أعمُّ من الأمرِ بطاعةِ ولّاة الأمورِ؛ لأنَّهم إذا نُهوا عن التَّنازع بينهم، فالتَّنازعُ مع أولي الأمرِ أولى(2).

دلالةُ الفاءِ بين السَّببيَّةِ والعطفِ:

التَّنازعُ والفشلُ مذمومانِ على مستوى الأفرادِ والجماعاتِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾، الأظهرُ أنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ سببيَّةٌ؛ لأنَّها وقعت في جواب النَّهي، فيكونُ ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ منصوبًا بأنْ مضمرة، ليفيدَ أنَّ الفشلَ، مسبَّبٌ عن التَّنازعِ، بمعنى: أنَّ التَّنازعَ سببٌ للفشلِ، ولمّا كان المسبَّبُ - وهو (الفشلُ) - مذمومًا عندَ الأفرادِ والجماعاتِ، بحكم العقلِ والفطرةِ؛ دلَّ على ذمِّ السَّببِ، وهو (التَّنازع)، ويكون قولُهُ: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ بنصبِ الفعلِ ﴿تَذۡهَبَ﴾، معطوفًا على ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾، ويمكنُ أن تكونَ الفاءُ عاطفةً، فيكونَ الفعلُ ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ مجزومًا، لدخولِه في حكم النَّهي بـ(لا)، في قولِه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ والتَّقدير: لاتنازعوا، فلا تفشلوا، والمعنى على النَّهي عن الأمرين: التَّنازعِ والفشلِ(3).

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/31.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/332.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّركيبِ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾:

لمّا كانَ الرّاجحُ أنَّ الفاءَ هنا سببيَّةٌ؛ أفادَ أنَّ التَّركيبَ تضمَّنَ نهيًا واستدلالًا، على وجوبِ الامتثالِ ببيانِ سببِ النَّهي، وهو الَّذي يسمَّى في البلاغةِ (العلَّة الغائيَّة)، وبيانُهُ أنَّه لمّا قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، أفادَ النَّهيُ طلبَ انتفاءِ التَّنازعِ وتركَهُ، ولمّا أرادَ أنْ يستدلَّ على ذمِّ التَّنازعِ، ليكون أدعى إلى التَّركِ، ذكرَ ما يكونُ مسبَّبًا عن التَّنازعِ، وهو الفشلُ، فيكون المرادُ من الكلامِ أمرين: النَّهيَ وبيانَ سببِ النَّهي، والنَّهي هنا على تقديرِ شرطٍ مفادُهُ: لا تنازعوا، فإنْ تتنازعوا؛ تفشلوا[1]، فيكون ذكرُ الفاءِ بيانًا للسَّببِ، وإشعارًا بوقوعِ الفشلِ عقبَ التَّنازعِ من غيرِ مهلةٍ، ليكونَ التَّركيبُ على معنى المبالغةِ في التَّحذيرِ من المنهيِّ عنه، وفيه معنى آخر، هو من لازمِ الفائدةِ، والمعنى: إن لم تتنازعوا؛ لن تفشلوا، ولن تذهبَ دولتُكم وقوَّتُكم وهيبتكم، ولازم اللّازم: اجتماعكم قوَّةٌ لكم، وهيبةٌ في عيونِ الآخرين.

كلُّ تنازعٍ يعقبهُ الفشلُ، ويُطْبِقُ من جرّائِه الضَّعفُ

دلالةُ النَّهي في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾:

لمّا كان التَّنازعُ قد وقعَ يومَ بدرٍ على الغنيمةِ، ويومَ أُحُدٍ على تركِ الموقعِ على الجبلِ، وكان الخطابُ بالنَّهي على معنى العموم لجميعِ المؤمنين في موردِ النِّداء؛ لأنَّه لم يُرِدْ به مخاطَبًا بعينِه، ولمّا كانَ النَّهيُ راجعًا إلى اتِّصالِ الواقعِ، بما عليهِ المؤمنونَ، من تركِ التَّنازعِ، وليس إلى قطعِ الواقعِ؛ دلَّ على أنَّ النَّهيَ، على معنى الاستمرار، وليس على المرَّةِ[2].

النَّهيُ عنِ التَّنازُعِ على الاستمرارِ؛ لأنَّهُ على المدى فسادٌ ودمارٌ

سببُ كونِ التَّنازعِ سببًا للفشلِ:

قد يقالُ: لمَ قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، دونَ أن يقولَ: (ولا تختلفوا مثلًا)؟ والجوابُ: أنَّه لمّا كان التَّنازعُ على معنى: أنَّ كلَّ واحدٍ من

التَّنازعُ جبنٌ وخورٌ، والاتِّفاقُ قوَّةٌ وتمكينٌ

(1) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 321، والتّفتازاني، المطوّل، ص: 428 - 429.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 321.

المتنازعين، يريدُ أن ينزعَ ما عندَ الآخرِ من رأيٍ، ويلقي به، أو كان على معنى نزعٍ إلى الشَّيء نزوعًا؛ إذا مالَ إليه، فإنَّ كلَّ واحدٍ من المتنازعين في الأمر، يميلُ إلى غيرِ ما يميلُ إليهِ الآخرُ، فيفيدُ كلا الوجهين، التَّغاضبَ وانتفاء التَّعاون بين القوم، والتَّفرُّق؛ لِلانشغالِ باتِّقاءِ بعضِهم بعضًا، فيصرفُ الأمَّةَ والجيشَ عن الإقدام على أعدائِهم، فيتمكَّنُ منهم العدوُّ، فكان التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ دونَ غيرِه، على مقتضى بلاغةِ الكلام[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، أو المكنيَّةِ:

الهيبةُ عدمُ التَّفرُّقِ، لا في التَّشرذمِ والتَّمزُّقِ

في قولِه: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ عن الغلبةِ أو الشَّوكةِ، أو الدَّولة؛ إذ شبَّهَ الدَّولةَ والشَّوكةَ بالرّيح، فحذف المشبَّهَ، وذكرَ المشبَّهَ بهِ، وشُبِّهتِ الدَّولةُ أو الغلبةُ بالرّيح، من حيثُ إنَّها في تمشّي أمرِها ونفاذِه، مشبَّهةٌ بها في هُبوبها، فلا يمنعُ جَرْيَها ونفاذَها شَيْءٌ[2]، ويمكنُ حملُها على الاستعارةِ المكنيَّةِ، وتكون الرّيحُ مستعارةً للقوَّةِ[3]، وأصلُهُ: أنَّ الرَّيح إذا كانت في الحرب من جهة صفٍّ؛ كانت في وجوه أعدائهم، فمنعتهم ممّا يريدون، فخذلوا، فصارت كأنَّها قوَّةُ مَنْ أتتْ مِن عندِه، فصارت ممّا يستعارُ للكنايةِ عن القوَّةِ في المواجهاتِ والقتالِ[4]، ويمكنُ أن تكونَ الرّيحُ مستعارةً، لِلهيبةِ والرُّعب في نفوس الأعداء؛ لأنَّهما من لوازمِ القوَّةِ، وكنايةٌ عنها، والمعنى: فتذهبُ هيبتُكم ورعبُكم، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكونَ الكلامُ على الحقيقةِ، ويكونُ المرادُ بالرّيح الحقيقةَ، أي: ريحُ النَّصرِ الَّتي يرسلُها اللّهُ ﷻ لنصرِ أوليائهِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/23، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/425، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/215، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31، وينظر: الشّعرواي، تفسير الشّعراويّ: 12/7540.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/294.

وهلاك أعدائه[1]، وفي الحديثِ قال رسولُ اللّه ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ»، والصَّبا هي ريحُ النَّصرِ، والدَّبورُ هي رياحُ الهلاكِ[2].

التَّنازعُ سببٌ لذهابِ الدَّولةِ وقوَّتِها، والأمَّةِ وتماسكِها

بلاغةُ العطفِ في جملتي الجزاءِ في قولِه: ﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾:

لمّا كان التَّنازعُ سببًا للفشلِ، والفشلُ سببًا لذهابِ الدَّولة وتوابِعها؛ دلَّ على أنَّ الشَّرطَ - وهو التَّنازع - سببٌ لذهابِ الدَّولة بوساطةِ كونِه سببًا للفشلِ، فكانَ النَّهيُ عن التَّنازع مفيدًا انتفاء الفشلِ، وما عطفَ عليه[3]، "لأنَّ التَّنازعَ هو تعاندُ القوَى، أي: توجدُ قوَّةٌ تعاندُ قوَّةً أخرى، والقوى المتعاندةُ، تهدرُ طاقةَ بعضِها البعضَ، فالتَّعاندُ بين قوَّتينِ، يهدرُ طاقةَ كلٍّ منهما، فتصبحُ كلُّ قوَّةٍ ضعيفةً وغيرَ مؤثِّرةٍ"[4].

تلاشي الدَّولةِ والقوَّةِ شيئًا فشيئًا، إن وقعَ التَّنازعُ الماحقُ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِه: ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ و﴿وَتَذْهَبَ﴾:

لإفادةِ تكرُّرِ الفشلِ وذهابِ ريحِكم إنْ تنازعتم، وأنَّه سيكونُ مستمرًّا على معنى تجدُّدِهما حالًا فحالًا، ليدلَّ على أنَّ الفشلَ والضَّعفَ يذهبُ شيئًا فشيئًا، ومثله قوَّةُ الدَّولةِ والهيبةِ، يذهبانِ شيئًا فشيئًا، "والفشلُ هو إخفاقُ الإنسانِ دونَ المهمَّةِ الَّتي كانَ يرجوها من نفسِه"[5].

من علامةِ النَّصرِ أن تهبَّ ريحٌ من جهةِ المقاتلين إلى وجوهِ الأعداءِ

دلالةُ الإضافةِ للفظِ (الرّيح):

في قولِه تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ الإضافةُ هنا للتَّخصيصِ، بمعنى الرّيحِ الَّتي خصَّكم اللّهُ بها، إشعارًا بالنِّعمةِ، وحثًّا على

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/324، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/215، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/332، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.

(2) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (1035)، مسلم، الصحيح، برقم: (900).

(3) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 234.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4723.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4727.

دوامِها، بدوامِ سببِها، وهو تركُ التَّنازعِ، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الإضافةَ هنا، لأدنى ملابسةٍ، لتكونَ الرّيح على المعنى الحقيقيِّ لها؛ للإشعارِ بأنَّ الأغلبَ والأشهرَ، هو أنَّ علامةَ الكسرِ، ذهابُ الرّيحِ من وجوهِ الأعداءِ، كما أنَّ علامةَ النَّصرِ أن تهبَّ ريحٌ من جهةِ المقاتلينَ إلى وجوهِ الأعداءِ[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

التَّنازُعُ سببٌ لانتفاءِ النَّصرِ، وحتميَّةٌ لانتصارِ العدوِّ على المتنازعين

طويَتْ بعضُ الجملِ، على طريقِ الإيجازِ لوضوحِها، فحذفَ لازمَ الشَّرطِ، وهو (تفرَّقتم)، والتَّقدير: (ولا تنازعوا؛ لأنَّكم إذا تنازعتم؛ اختلفتم وتفرَّقتم)، ولمّا ذكر الجزاءَ في قولِه: ﴿فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾؛ حذفَ لازمَهُ، وهو (فَلا تُنْصَرونَ)، والتَّقديرُ: (فإذا تفرَّقتم؛ فشلتم، وجبنتُم، وذهبت قوَّتُكم وغَلَبَتُكم؛ فلا تنصرونَ، ولا تظفرونَ على عدوِّكم؛ بل يظفرُ بكم عدوُّكم)[2].

مناسبةُ الأمرِ بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾:

النَّصرُ مع الصَّبرِ، ومن صبرَ ظفرَ

لمّا كانَ ما تقدَّم من الأوامرِ والنَّواهي، فيه مشاقٌّ، جاء بلفظٍ عامٍّ جامعٍ للمعاني[3]، فقال: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾، أي: على ما يكونُ من المشاقِّ، ولمّا جاءَ في سياقِ هذه الآيةِ، اندرجَ فيه الصَّبرُ في القتالِ - والصَّبرُ على طاعةِ اللّهِ ورسولِه وعن التَّنازعِ - اندراجًا أوَّليًّا، ليشعرَ أنَّ النَّصرَ لا يقعُ من غيرِ صبرٍ.

فائدةُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿وَٱصۡبِرُواْ﴾:

الصَّبرُ على طاعةِ اللهِ، كالصَّبرِ على مخالفةِ الأهواءِ

حُذفَ متعلَّقُ فعلِ الأمرِ ﴿وَٱصۡبِرُواْ﴾، إمّا ليفيدَ العمومَ، والمعنى: (اصبروا على طاعةِ اللّهِ ورسولِه، وعلى شدائدِ الحربِ، واصبروا مع نبيِّ اللّهِ ﷺ عندَ لقاءِ عدوِّكم، ولا تنهزموا عنه، وتتركوهُ، واصبروا على مخالفةِ أهوائِكم الَّتي تحملُكم على التَّنازعِ)، ويكون المرادُ بيانَ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/97.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/232.
(3) الرّاغب، المفردات: (صبر).

عمومِ ما يتعلَّقُ بهِ الصَّبرُ، وإمّا ليفيدَ التَّحلّي بالصَّبرِ على الجملةِ، بمعنى أن يكونَ الصَّبرُ نفسُهُ، معنًى ثابتًا في أنفسِهم(1).

حسنُ التَّذييلِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

جملةُ التَّذييلِ كالمثلِ في جريانِها في الكلامِ

أفادتْ جملةُ التَّذييلِ فوائدَ؛ هي أوَّلًا: تأكيدُ مفهومِ ما تقدَّمها، للإشعارِ بأنَّ الامتثالَ للأوامرِ والنَّواهي لا يكون من غيرِ صبرٍ. وثانيًا: لمّا كانت الجملةُ على معنى العمومِ والكُلّيَّة؛ أفادتْ أنَّ اللَّهَ تعالى مع كلِّ صابرٍ من المؤمنينَ. وثالثًا: لمّا كانت الجملةُ على معنى العمومِ، كانت بمنزلةِ المثلِ في جريهِ في الكلامِ. رابعًا: أفادَ تأكيدُ مضمونِ الجملةِ بـ(إنَّ)، ومجيئُها جملةً اسميَّةً: تقريرَ المعنى؛ حثًّا للمؤمنين على الصَّبْرِ والمداومةِ عليه؛ لأنَّ ترويضَ النُّفوسِ وحبسَها على مقتضى العقلِ والشَّرعِ يحتاجُ إلى صبرٍ. خامسًا: في جملةِ التَّذييلِ إيماءٌ إلى منفعةِ الصَّبرِ الإلهيَّةِ، وهي إعانةُ اللَّهِ لمن صبرَ امتثالًا لأمرِه(2).

دلالةُ لفظِ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

دلالةُ (إنَّ) على معنى السَّببيَّةِ، تربطُ المضمونَ بالمقصدِ القيَميِّ

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، كما تقدَّمَ، كما تفيدُ تعليلَ الأمرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ حرفَ التَّأكيدِ في مثل هذا، قائمٌ مقامَ فاءِ التَّفريعِ(3)، والمعنى: (اصبروا؛ لأنَّ اللّه مع الصّابرين)، ففيهِ بيانُ سببِ الأمرِ للمبالغةِ في الحثِّ على الامتثالِ.

نكتةُ ذكرِ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

قوَّةُ اللهِ وإعانتُهُ للصّابرينَ، نعمةٌ لكلِّ محتسبٍ صبورٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ذكرَ الاسمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ أن يقولَ: إنَّ ربَّكم مع الصّابرينَ، للإيذانِ بالإمدادِ والقوَّةِ، والإعانةِ والغلبةِ للصّابرينَ، لما يدلُّ عليه مقامُ الألوهيَّةِ، اقتضاءً لمقامِ الكلامِ وسياقِه، فالصَّبرُ سلاحُ المؤمنِ الَّذي لا يفلُّ،

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 155.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32.

ولقد قيلَ: (الشَّجاعةُ صبرُ ساعةٍ)، وكفى بالصَّبرِ شرفًا أنَّ اللّه مع الصّابرين بالمعونةِ والمددِ والتَّأييدِ إلى الأبدِ.

دلالةُ الحرفِ ﴿مَعَ﴾ في قولِه: ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

أينما وُجِدَ الصَّبرُ؛ وُجِدَ إمدادُ اللهِ الَّذي لا ينفدُ

لمّا كان لفظُ ﴿مَعَ﴾ يفيدُ أصالةَ المذكورِ بعدَهُ، وتبعيَّةَ ما قبلَهُ على سبيلِ الاجتماعِ في زمانٍ أو مكانٍ[1]؛ أفادَ أنَّ المرادَ من أصالتِهم، إنَّما هي من حيث إنَّهم المباشِرون للصَّبرِ، فهم متَّبعونَ من تلك الحيثيَّةِ، ومعيَّتُه تعالى، إنَّما هي من حيثُ الإمدادُ والإعانةُ، والنُّصرةُ والكَلاءةُ والحفظُ، في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ، يكونونَ فيه، والأغلب أن تكونَ للمكانِ، والمعنى: كلَّما صبرْتُم؛ كان إمدادُهُ تعالى ونصرُهُ تابعًا لكم في أيِّ مكانٍ تكونونَ فيه لا يفارقكم[2]، واللّهُ يعطي على الصَّبرِ بلا حسابٍ، ويوفّي الصّابرين أجرَهم، لما للصَّبرِ من مزيَّةٍ، وما لأهلِه من مقامٍ عندَ اللّهِ، تُرْفَعُ بِهِ درجاتُهم، وتضاعفُ به أعمالُهُم عندَ من لا تضيعُ عندَهُ الأعمالُ، ولا يُظلمُ عندَهُ أحدٌ فتيلًا، وقد قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزّمر: 10].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

الصّابرُ هو الَّذي يكونُ الصَّبرُ وصفًا ثابتًا له، لا مؤقَّتًا

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، لمّا جاءَ الاسمُ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ، دلَّ على أنَّ اللّه تعالى مع المؤمنين الَّذين يكونُ الصَّبرُ وصفًا لازمًا لهم، لاينفكُّ عنهم، وقد جاءَ السّياقُ في حثِّه على الوحدةِ والصَّبرِ، "ليشدَّ تلك الجماعةَ بعضَها إلى بعضٍ، بعد أن شدَّ كلَّ فردٍ فيها إلى موطنِ العزمِ والصَّبرِ من نفسِه"[3].

فائدةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

تناسقُ اللَّفظِ لتناسقِ المعنى

لمّا حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾، فكان دالًّا إمّا على العمومِ أو على معنى الاتِّصافِ بالصَّبرِ، ليكونَ معنًى ثابتًا لهم، ناسبَ أن

(1) الرّضي، شرح كافيّة ابن الحاجب: 3/311، والسّامرائي، معاني النّحو: 2/243 - 244.
(2) ابو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/628.

يحذف متعلَّق ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ ليكون على نسقِه وشبهِه في المعنى، وليوافقَ المعلولُ علّتَهُ.

بديعُ جناسِ الاشتقاقِ:

الأمرُ بالثَّباتِ على الصَّبرِ، والمداومةِ عليه في كلِّ أمرٍ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ مغايرٍ، وغرضُهُ بيانُ قيمةِ الثَّباتِ على الصَّبرِ والمداومةِ عليهِ بكلِّ أحوالِه، وقد استعملَ فعلَ الأمرِ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ في البدايةِ للحثِّ على الصَّبرِ والاستعانةِ على لأواءِ مصادمةِ الأعداءِ بالثَّبات والتَّصبُّرِ؛ لأنَّهُ المنجى والسَّندُ في تلك الحالِ، واستعملَ اسمَ الفاعلِ في بيانِ أنَّ اللّه مع الصّابرين، ومن كانَ اللّهُ معهُ، فلا يخاف دركًا ولا يخشى.

مناسبةُ الوصلِ بالواو في: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾:

الائتمارُ بالامتثالِ للطَّلبِ أمرًا أو نهيًا

أفادتِ الواوُ استمرارَ وصيَّةِ اللّهِ للمؤمنين، فعطفت جملةَ النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ على جملةِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، فيكون الكلامُ من عطفِ جملة النّهي على جملةِ النَّهي، ويحتملُ أن تكونَ قد عطفت جملةَ النَّهي على جملةِ ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، فيكونُ من عطفِ جملةِ النَّهي على جملةِ الأمر، وهو بالمجمل من عطفِ الطَّلبِ على الطَّلبِ[1]، إكمالًا لأسباب النَّصرِ عند اللّقاءِ، وفي كلا الحالين هو من عطفِ تكليفٍ على تكليفٍ.

براعةُ الجمعِ بين فائدةِ الخبرِ ولازمِها:

الأمرُ بالاتِّصافِ بضدِّ ما يفعلهُ المشركونَ بسببِ شركِهم

لّما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾؛ دلَّ على أنَّ المرادَ منه، نهيُ المؤمنين عن الخروجِ على الحالةِ الَّتي خرج عليها المشركون من ديارِهم، ويكون هو فائدةَ الخبرِ، وفيه إيذانٌ بلازمِ الفائدة، على معنى أمرِ المؤمنينَ بالخروجِ على ضدِّ ذلك، كأنَّه قال: اخرجوا بحالٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32.

ووصفٍ، على ضدِّ ما خرجوا هم عليهِ، أي: مِن تقوى اللّهِ، والخشيةِ منهُ، مخلصين أعمالَكم للّهِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿دِيَٰرِهِم﴾:

استحكامُ المشركين على ما خرجوا عليهِ مِنَ الأوصافِ الذَّميمةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ عبَّرَ بلفظِ ﴿دِيَٰرِهِم﴾ دونَ (منازلهم) أو (بيوتهم)؛ لأنَّ الدّارَ هو الموضعُ الَّذي يحلُّ به القومُ، ويشتملُ على بيوتٍ ومنازلَ، بحيثُ يكونُ لهُ حرمٌ يحيطُ بهِ[2]، فدلَّ على أنَّهم خرجوا جميعًا من محيطِ حرمِهم، بطرًا ورئاءَ النّاس، ويصدّونَ عن سبيلِ اللّهِ، إشعارًا باستحكامِهم على ما خرجوا عليهِ، واجتماعِهم على الأوصافِ المذكورة، تأكيدًا وتقريرًا للمبالغةِ في ذمِّهم، وأنَّ خروجَهم مجتمعينَ، كان سببًا في اتِّصافِهم بالأحوالِ القبيحةِ، ولو قال: (منازلهم أو بيوتهم)؛ لأفادَ خروجَهم منفردين؛ لأنَّ البيتَ: هو اسْمٌ لمسقفٍ واحِدٍ لَهُ دهليزٌ، والمنزلَ: اسْمٌ لما يشْتَمل على بيتٍ يسكنهُ الرَّجلُ بعيالِه، بمعنى: خرجَ كلُّ واحدٍ منهم من بيتهِ، أو من منزلِه، ففيهِ معنى الضَّعفِ والتَّشتُّتِ، كما أنَّه قد يوهِمُ أنَّ الأوصافَ المذكورةَ، أحوالٌ لهم على الغالب، وليس على الاستيعابِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿دِيَٰرِهِم﴾:

تنوُّعُ الأقوامِ الَّذين خرجوا لقتالِ المسلمينَ

في قولِهِ تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾، لَمّا كانَ لكلِّ قومٍ من أهلِ مكَّةَ دارٌ، بمعنى محلَّةِ تجمُّعهم، دلَّ على أنَّ المرادَ خروجُ أقوامٍ من ديارِهم، فلم يكونوا من قومٍ معيَّنين، إشعارًا بكثرتِهم، والخروجُ بوصفِ الكثرةِ إشارةٌ إلى الخَطْبِ الَّذي بسببِهِ خرجوا من ديارِهم، وأنَّ ما عزموا على فعلِه من استعراضٍ للقوَّةِ، واحتفالٍ بما كانَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/234، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/24، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دور)، والكفويّ، الكليّات، ص: 239.

غرضُهُ إخافةَ الآخرين، كان فعلًا جماعيًّا، اقترحهُ الزُّعماءُ والعتاةُ، ولكنَّ المشاركين فيهِ، كانوا كلَّ الخارجين من ديارِهم.

بديعُ الإدماجِ لمعنيين مع النَّهي:

بيانُ قبحِ المنهيِّ عنهُ سببٌ مقنعٌ لاجتنابه

لمّا كانَ الأصلُ في الكلامِ النَّهيَ عن التَّشبُّهِ بالمشركين في بطرِهم، ورئائِهم، وصدِّهم عن سبيلِ اللّهِ؛ أدمجَ معنيين مع النَّهي، هما التَّشنيعُ على المشركين بذكرِ أحوالِهم القبيحةِ، وتكريهِ المسلمين تلكَ الأحوالَ؛ لأنَّ الأحوالَ الذَّميمةَ، تتَّضِحُ مذمَّتُها، وتنكشفُ مزيدَ الانكشافِ، إذا كانت من أحوالِ قومٍ مذمومين عند آخرينَ، وهذا أبلغُ في النَّهي، وأكشفُ لقبحِ المنهيِّ عنهُ، فإنَّ بيانَ قبحِ المنهيِّ عنهُ، سببٌ مقنعٌ لتركِه واجتنابه[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ﴾:

إبرازُ المشركينَ في معرضِ التَّقبيحِ والتَّوبيخِ للتَّنفيرِ من حالِهم

لمّا كان الأصلُ في المشبَّه بهِ أنْ يكونَ أعرفَ بجهةِ التَّشبيهِ من المشبَّهِ، وأخصَّ بها؛ دلَّ على أنَّ المشركين معروفونَ بالأوصافِ المذكورةِ، ولمّا كان وجهُ الشَّبهِ ما ذكرَ من أحوالِهم من البطرِ والرِّئاءِ والصَّدِّ عن سبيلِ اللّهِ، كان وجهُ الشَّبهِ قريبًا؛ لِظهورِ الأحوالِ على الذَّواتِ، فهي بمنزلةِ المحسوساتِ، ومجيءُ ما يدلُّ على وجه الشَّبهِ - وهي الأحوالُ المذكورةُ المجتمعةُ - يفيدُ حضورَ صورةِ التَّشبيهِ بحضورِ ذواتِهم، فهي صورةٌ متكرِّرةٌ على الحسِّ بمجرَّدِ حضورِ ذواتِهم في الذِّهن، والغرضُ من التَّشبيهِ هنا، إبرازُ الَّذين خرجوا من ديارِهم إلى المخاطبينَ في معرضِ التَّشويهِ والتَّقبيحِ والتَّوبيخِ، للتَّنفيرِ من حالِهم، وفائدةُ التَّشبيهِ أنَّه تعالى لمّا نهى المؤمنين عن التَّشبُّهِ بأحوالِ المشركين المذكورةِ المجتمعةِ؛ دلَّ على أنَّ الأحرى بهم، ألّا يتَّصفوا بها؛ لأنَّ الاتِّصافَ بأمرٍ، أقوى من التَّشبُّهِ بهِ، والمعنى: بدلًا من أن يقولَ اللّهُ تعالى للمؤمنين: إذا خرجتُم من ديارِكم، لا تبطروا، ولا تراؤوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32 - 33.

النّاس، ولا تصدّوا عن سبيلِ اللّهِ، عبَّرَ بأسلوبِ التَّشبيهِ، ليكونَ أبلغَ في النَّهي، وأوضحَ للمعنى، لحضورِ الصّورةِ أمامَهم.

دلالةُ ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ﴾ بينَ الحالِ والمفعولِ لأجلِه:

اقترانُ الأوصافِ القبيحةِ بالمشركينَ من وقتِ خروجِهم للقتالِ

ذهبَ جمهورُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ﴾ أحوالٌ، فجاء ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مصدرين على معنى الحالِ، أي: بَطِرين مُرائين، وجاء ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ فعلًا في موضع الحالِ، أي: صادّين؛ ليكونَ المرادُ اقترانَهم بهذهِ الأحوالِ، وانتفاءَ انفكاكِهم منها من وقتِ خروجِهم، وليس المرادُ في الكلامِ انتفاءها عنهم، قبلَ الخروجِ، وذهبَ آخرونَ إلى جوازِ أن تكونَ مفعولًا لأجلهِ، لبيانِ سببِ خروجِهم، أي: إنَّ البطرَ والرّياءَ والصَّدَّ عن سبيلِ اللّهِ، حملهم على الخروجِ، فيكونُ المرادُ تبييتَهُم النّيَّةَ، على أن يخرجوا لهذا الغرضِ، فهو من قبيلِ العلَّةِ الغائيَّةِ[1].

نكتةُ مجيءِ الحالِ مصدرًا:

مجيءُ الحالِ مصدرًا يفيدُ المبالغةَ، وهو من البيانِ الجميلِ

في قولِه تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا﴾ جاءَ الحالُ هنا مصدرًا للمبالغةِ، بمعنى تمكُّنِ عينِ البَطَرِ، وعينِ رئاءِ النّاس منهم، فأحوالهُم قد جمعتْ كلَّ البطرِ، وكلَّ الرِّئاءِ[2]، ومعلومٌ "أنَّ النِّعمَ إذا كَثُرت منَ اللّهِ تعالى على العبدِ، فإن صرفَها إلى مرضاتِه تعالى، وعرفَ أنّها من اللّهِ تعالى، فذاكَ هو الشُّكرُ، وأمّا إن توسَّلَ بها إلى المفاخرةِ على الأقرانِ، والمغالبةِ بالكثرةِ على أهلِ الزَّمانِ، فذاك هو البطرُ"[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَرِئَآءَ﴾:

كلمةُ ﴿وَرِئَآءَ﴾، قرأها أبو جعفرٍ (رياءً)، بإبدالِ الهمزةِ ياءً[4]،

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/188، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/616، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/99، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

(3) الجاوي، مراح لبيد: 1/428.

(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 1/396.

ووجودُ الهمزةِ، وتَحقُّقُ النُّطقِ بها يتيحُ ثراءً في المعنى؛ حيثُ يكشفُ عن حالةِ التَّكلُّفِ في الحشدِ والاستعراضِ من قبل المشركين، وقد ظهرَ رياؤهُم في قولِ أحدِ زعمائِهم: (واللّهُ ما نرجعُ عن قتالِ محمَّدٍ، حتَّى نردَ بدرًا، فنشربُ فيها الخمورَ، وتعزفُ علينا القيانُ، وننحرُ الجزورَ في بدرٍ، فيثني النّاسُ علينا بالشَّجاعةِ والسَّماحةِ) [1].

اختلافُ القراءاتِ مفيدٌ في التَّأويلِ وانفساحِ الدَّلالةِ

دلالةُ مجيءِ الأحوالِ على العطفِ:

لَمّا جاءتِ الأحوالُ معطوفةً، وكانتِ الواوُ تفيدُ الجمعَ المطلقَ في الحالِ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بيانُ واقعِ حالِ المشركين حين خروجهم من ديارِهم، وليس المرادُ النَّهيَ عن الاتِّصاف بهذهِ الأحوالِ، حالَ اجتماعِها فقط، فإنَّها مذمومةٌ مجتمعةً أو منفردةً.

الصِّفاتُ القبيحةُ مذمومةٌ، مجتمعةً كانت أو منفردةً

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المصدرِ (فِعالِ):

لَمّا كانَ ﴿وَرِئَآءَ﴾ مصدر (راءى) (فاعَلَ) من الرُّؤيةِ؛ كان على معنى المفاعلةِ، وتفيدُ الصّيغةُ معنى المبالغةِ من جهتين: إحداهما مجيئُها على صيغةِ المصدرِ - كما تقدَّم - والأخرى مجيئُها بصيغةِ المفاعلةِ، أي: بالغوا في إراءةِ النّاسِ عملهم، رغبةً في أنْ يروهم ليفخروا عليهم [2].

المرائي يحبُّ أن يراهُ النّاسُ، ليفخرَ عليهم

بلاغةُ العُدولِ عن المصدرِ إلى صيغةِ المضارِعِ:

عبَّرَ بصيغةِ المضارع ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ عطفًا على المصدرين ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وهو خلافُ الظّاهر؛ لأنَّ الأصلَ في العطفِ توافقُ المعاطيفِ في الاسميَّةِ والفعليَّة، ونكتتُهُ أنَّ الاسمَ لَمّا كانَ على معنى الثُّبوتِ والتَّمكين، عبَّرَ بالمصدرين، إيذانًا بأنَّ البطرَ والرِّئاءَ كانا وصفين ثابتين لهم، راسخَين في أنفسِهم، أي: كانوا مجبولين على البطرِ والمفاخرةِ والعُجبِ، ولمّا كانَ الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ، حصلَ

تجدُّدُ فعلِ الصَّدِّ من الكافرين، ومزاولتِهم لهُ، أمرٌ معهودٌ موجودٌ

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/428.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

في زمنِ دعوةِ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ عُبِّرَ بالفعلِ على معنى حدوثِهِ منهم، وجاءَ بصيغةِ المضارعِ؛ لأنَّ المرادَ تجدُّدُ فعلِ الصَّدِّ من الكافرين، ومزوالتِهم له، بمعنى أنَّ الصَّدَّ يحدثُ منهم شيئًا فشيئًا، متجدِّدًا متزايدًا، كما أنَّ في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ استحضارًا لصورة صدِّهم عن سبيلِ اللّهِ، تبشيعًا لفعلِهم وتقبيحًا له[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ (بَطَرًا):

البطرُ آفةٌ تُدمِّرُ الكيانَ، وتجني علـى فـطـرةِ الإنسانِ

في قولِهِ تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا﴾ أفادَ التَّنكيرُ تفخيمَ البطرِ وتعظيمَهُ، لِما يقتضيه المقامُ من ظهورِ خُيَلائِهم وكِبَرِهم وكفرِهم بنعمِ اللّهِ عليهم، والبطرُ صفةٌ نفسيَّةٌ، تلبسُ صاحبَها، وتحرِّكُ فيه نوازعَ شتَّى من الضَّلالِ المؤذي، بأساليبَ استعراضيَّةٍ شتَّى، بطرًا ورياءً وصدًّا عن سبيلِ اللّهِ (ﷻ).

نكتةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾:

الرّيـاءُ: لا يكونُ الفعلُ والقصدُ إلّا مِـن أجـلِ النّاسِ

أضافَ المصدرَ ﴿وَرِئَآءَ﴾ إلى مفعوله؛ للإشعارِ بأنَّ الرّياءَ، لا يكونُ إلّا منْ أجلِ النّاسِ، وبيانُه أنَّهُ لمّا ذكرَ الحاملَ لهم على الخروجِ من أنفسِهم في قولِه: ﴿بَطَرٗا﴾ بمعنى: إظهارِهم فخرَهم، ومقابلتِهم النِّعمةَ بالتَّكبُّرِ؛ ذكرَ ما أوجبَهُ لهم من غيرِها، فقالَ: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: خرجوا يرون النّاسَ خروجَهم، وأحوالَهم الَّتي كانوا عليها، من شربِ الخمورِ، ونحرِ الجزورِ، وعزفِ القيانِ، ليثنوا عليهم بالشَّجاعةِ والسَّماحةِ[2].

دلالةُ (أل) في لفظِ (النّاسِ) في قولِهِ: ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾:

الـرّيـاءُ مظهرٌ زائـفٌ، وإرضـاءُ الـنّـاسِ غـايـةٌ لا تدركُ

تفيدُ (أل) هنا الاستغراقَ، بمعنى: أنَّ رياءَهم، كان من أجلِ كلِّ النّاسِ، وليس من أجلِ المؤمنين فقط، أي: كانوا يطلبونَ إظهارَ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 175، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/491، والقوجويّ، حاشية محيي الدّين شيخ زاده على البيضاويّ: 4/401.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

جميلِ أفعالِهم، وإخفاءَ قبيحِ باطنِهم، لكلِّ النّاس، وهذهِ ظاهرةٌ متفشّيّةٌ في أهلِ الرّياءِ، تراهُم يتظاهرونَ بإبرازِ الأعمالِ إلى كلِّ النّاسِ، وكلَّما فشا الخبر، وانتشرَ الأثرُ؛ كانَ ذلك أمتعَ لنفوسِهم، وأشبعَ لرغبتِهم في الظُّهورِ، وهو رغبةٌ نفسيَّةٌ تسيطرُ على صاحبِها، فتودي بهِ في مسالكِ المهالكِ.

فائدةُ ذكرِ قولِه: ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

الجزاءُ من جنسِ العملِ، وكما تدينُ تدانُ

لّما كان المشركونَ خرجوا على هذه الأحوالِ، أو لهذه الغايةِ، كان جزاؤُهم من جنسِ أعمالِهم، وذلك أنَّ أبا جَهْلٍ، لّما علمَ بنجاةِ عيرِ أبي سفيان، قال: واللهِ لا نَرْجِعُ؛ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا، فنُقيمُ بها ثلاثًا، فنَنْحَرُ الجَزورَ، ونُطْعِمُ الطَّعامَ، ونَسْقي الخَمْرَ، وتَعْزِفُ عَلَيْنا القيانُ، وتَسْمَعُ بنا العَرَبُ، فلا يَزالونَ يَهابونَنا أبَدًا، فكان جزاؤهم حينَ وافَوْها أن سُقوا كؤوسَ المَنايا مَكانَ الخَمْرِ، وناحَتْ عليهمُ النَّوائحُ مَكانَ القيانِ، وكانت أموالُهم غنائمَ بدلًا عن بذلِها، ورجعوا أذلّاءَ مهانينَ، ودخلَ العربُ بعدَها أفواجًا في دينِ اللّهِ[1].

بلاغةُ حذفِ مفعولِ الفعلِ:

الصّادّونَ عن سبيلِ اللهِ، يصدّونَ أنفسَهم وغيرَهم

لّما كانَ الفعلُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ متعدّيًا؛ دلَّ على أنَّ حذفَ المفعولِ بقصدِ العمومِ، وليس لدلالةِ السّياقِ عليه، ليفيدَ أنَّ صدَّهم عن سبيلِ اللّهِ؛ كانَ لأنفسِهم وللمؤمنين، لأهلِ مكَّةَ ولِغيرِهم، والمعنى: يصدّونَ أيَّ إنسانٍ عن سبيلِ اللّهِ؛ لأنَّهم أحرى بذلك، من أنْ يقتصرَ صدُّهم على أنفسِهم[2].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ:

قبحُ الصِّفاتِ إشعارٌ بقبحِها، وضرورةُ تبشيعِ فعلِ من يتَّصفُ بها

لّما كان النَّهيُ بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾، يقتضي أن يكونَ المنهيُّ عنهُ جملةً معلومةَ الانتسابِ إلى مشارٍ إليه؛

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/299، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/211.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/537، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/616، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

ناسبَ أن يعبِّرَ بالموصولِ وصلته؛ ليكونَ الاجتنابُ عن حالةٍ معلومةٍ واضحةٍ، كما أنَّ في التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ إشعارًا باستهجانِ التَّصريحِ باسمِهم، في مقامِ الكفرِ بنعمةِ اللّهِ، والطُّغيانِ فيها، والتَّكبُّرِ وإظهارِ السُّمعةِ، والصَّدِّ عن سبيلِ اللّهِ، وليكونَ على معنى العمومِ، ففيهِ نهيُ المؤمنين، عن أن يكونوا مثلَ كلِّ مَنْ عملَ مثلَ عملِهم، وفيه أيضًا تنبيهُ المؤمنين إلى وجهِ بناءِ النَّهي عن ما ذكرَ، للإشارةِ إلى قبحِ هذه الصِّفاتِ، وقبحِ من يعملُ مثلَها، ومن أجلِ تذكيرِهم بأنْ يكونوا على الضِّدِّ منها[1].

نكتةُ ذكرِ الأحوالِ الثَّلاثةِ:

الصَّبرُ يضادُّ البطَرَ والرِّياءَ والصَّدَّ عنِ سبيلِ اللهِ

لمّا أمرَ اللّهُ تعالى بالصَّبرِ في الآيةِ السّابقةِ، وكان من معاني الصَّبرِ ضبطُ النَّفسِ عن الطُّغيانِ وغيرِه، وكان الَّذي يضادُّ هذا المعنى، هو البطرُ والرِّياءُ الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ[2]، ناسبَ أن يذكرَ ما كانَ عليهِ المشركونَ، حالَ خروجِهم من ديارِهم مِنَ الأحوالِ الَّتي كانوا عليها.

دلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والحالِ:

الحرفُ يحتملُ أكثرَ من تأويلٍ، وهو جزءٌ من البنيةِ الدّلاليَّةِ للسّياقِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ تحتمل الواوُ أن تكونَ استئنافيَّةً؛ لِتقريرِ معنى جملةِ التَّذييل، وتحتمل أنْ تكونَ حاليَّةً، وهو الظّاهرُ؛ لتكون الجملةُ حالًا من ضميرِ ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾[3]، أي: فعلوا ما فعلوا بخروجِهم بَطِرينَ مُرائين، صادّين عن سبيلِ اللّهِ، والحالُ في ذلك كلِّه أنَّ اللّه محيطٌ بهم، عالمٌ بأحوالهم كلِّها.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (ما):

إحاطةُ علمِ اللهِ بالأعمالِ جميعًا، دليلٌ على سعتهِ واتِّساعهِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، لمّا كانَ الاسمُ الموصولُ (ما) يفيدُ العمومَ دلَّ على إحاطةِ علمِ اللّهِ بأعمالِهم جميعًا، وفي

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/296.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.

ذلك إشارةٌ إلى "أنَّ اللّهَ ﷻ محيطٌ بكلِّ أعمالِهم، لا يغيبُ عنه عملٌ واحدٌ ممّا يفعلونَهُ، هو محيطٌ بهم تمامًا، وهم لا يستطيعونَ أن يفلتوا منهُ" (1).

بلاغةُ المجازِ:

إسنادُ الإحاطةِ إلى اللّه تعالى في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، مجازٌ عقليٌّ، والمرادُ علمُه سبحانه، وفائدتُهُ تعظيمُ الأمرِ وتهويلُهُ، لما يقتضيه مقامُ الألوهيَّةِ من الخوفِ والرَّهبةِ من المحاسبةِ والمجازاةِ(2)؛ "لأنَّهُ سبحانَه محيطٌ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وسيجازي الَّذين أساؤوا بما عملوا، ويجازي الَّذين أحسنوا بالحُسنى" (3).

اللهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ علمًا، فلا يعزبُ عن علمهِ شيءٌ

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، تقدَّمتْ شبهُ الجملةِ ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، على الخبرِ ﴿مُحِيطٌ﴾، وفائدةُ التَّقديمِ إمّا أن تكونَ من بابِ تعجيلِ المسرَّةِ للمؤمنين، وتعجيلِ المضرَّةِ للكافرينَ، فقدَّمَ ما كانت العنايةُ إليهِ مُنصبَّةً، وإمّا أن تكونَ لِلحصرِ الإضافيِّ الادِّعائيِّ؛ لأنَّه تعالى يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّهُ لشِدَّةِ إحاطتِه بأعمالِهم، كأنَّهُ لا نظرَ لَهُ إلى غيرِها، فلا شاغلَ لَهُ عنها، ترهيبًا لهم(4).

علمُ اللهِ بأعمالِ المشركين مسرَّةٌ للمؤمنين، ومضرَّةٌ للكافرين

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

التَّعبيرُ بقولِه: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ هنا دونَ (يفعلون)؛ لأنَّ العملَ يكونُ فيما يمتدُّ زمانُهُ، وما يكون عن قصدٍ وتخطيط، ولِما من شأنِه أن يُحدث أثرًا، بخلاف الفعل(5)، وقد باءت أعمالُهُم بالخسرانِ، وآلوا

مدلولُ العملِ يخالفُ مدلولَ الفعلِ، وكلاهُما يُحصى على الإنسانِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/116.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/279.

(5) الرّاغب، المفردات: (فعل) و(عمل). والشّعراوي يفرّق بين (عمل) و(فعل)، وأن (عمل) تشمل الفعل والقول، قال في تفسيره: "إذن، فالقول محلّه اللّسان، والفعل محلّه بقية الجوارح، والاثنان يجمعهما العمل"، يُنظر: الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 5/2978.

بها إلى سوءِ العاقبةِ، وأشنع النَّهايةِ، "فأوردَهُم - إذ خرجوا يحادّونَهُ - بدرًا، فنحرَ مكانَ الجزورِ رقابَهم، وسقاهُم مكانَ الخمورِ كؤوسَ المنايا، وأصاحَ عليهم مكانَ القيانِ صوائحَ النَّوائحِ"[1].

بلاغةُ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ بينَ التَّصريحِ والكنايةِ:

لا تخفى على اللهِ خافيةٌ، ولا يعزبُ عن علمِهِ شيءٌ

هذا الكلامُ جمعَ بينَ الصَّريحِ والكنايةِ باعتبارين، فهو تذكيرٌ للمسلمين بصريحِ المعنى باعتبارِ أنَّهُ خطابٌ لهم، ليكون على معنى تقريرِ ما في اعتقادِهم وتأكيدٍ له، وهو وعيدٌ للكفّارِ وتهديدٌ لمن بقي منهم بالمعنى الكنائيِّ؛ لأنَّ إحاطةَ العلم بما يعملون مجازٌ في عدم خفاءِ شيءٍ من عملِهم عن علم اللّهِ تعالى، فيكون المرادُ منه لازمَ علمِه تعالى بما يعملون، وهو المجازاةُ، أي: إنَّه مجازيهم عن عملِهم بما يجازي بهِ العليمُ القدير من اعتدى على حرمهِ، وهذا يقتضي التَّوبةَ والاستعدادَ باللّازمِ الأبعدِ[2].

حُسْنُ التَّذييلِ:

براعةُ التَّذييلِ، لعمومِ المعنى ولجريِهِ مجرى المثلِ

تفيدُ جملةُ التَّذييلِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فوائدَ؛ هي: أوَّلًا: عمومَ المعنى وكلّيَّتَهُ. وثانيًا: لمّا كانت الجملةُ تفيدُ عمومَ المعنى؛ كانت جاريةً مجرى المثلِ في الكلام، وثالثًا: أفادتِ الجملةُ بشارةً للمؤمنينَ، بالإيذانِ بعلمِ اللّهِ بما يعملُهُ المشركون، وأنَّهُ مجازيهم، على ما يفعلونَهُ بالمؤمنين، وفيها تهديدٌ للكافرين، ووعيدٌ لهم كما تقدَّمَ[3].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الضَّعف والفَشَل والوَهن:

الفشلُ يكونُ عِندَ الحَرْبِ والشِّدَّةِ؛ إذا ضَعُفَ وكسِلَ، وتثاقلَ وذَهَبت قواهُ، فأبطأ عن اللِّقاءِ، أو هو ضعفٌ مقرونٌ بجبنٍ؛ لِما فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/234، والواحديّ، التّفسيرالوسيط: 2/456، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/537، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/333، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/234.

من معنى التَّراخي، وعدمِ الثَّباتِ، ومنهُ تَفَشَّلَ الماءُ: سالَ، فيكون الفشلُ عند اللّقاءِ والشَّدائدِ، ويكون الفشلُ في الحالِ لا في البدنِ[1]، فناسبَ ذكرُ الفشلِ في سياقِ هذه الآيةِ، وأمّا الضَّعفُ؛ فهو ضدُّ القوَّةِ، أي: هو نقصانُ القوَّةِ، وهو من فعلِ اللّهِ تعالى، كما أنَّ القوَّةَ من فعلِ اللّهِ، تقولُ: خلقَهُ اللّهُ ضعيفًا، أو خلقَهُ قويًّا، والضَّعْفُ قد يكونُ في النَّفسِ، وفي البدنِ، وفي الحالِ، قال تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [آل عمران: 146]، أي لم يضعفوا بنقصانِ قوَّتِهم، فيكونُ الضَّعفُ مستعملًا في الحربِ وغيرِها، وقال الخليلُ: الضُّعْفُ بالضَّمِّ في البدن، والضَّعْفُ بالفتحِ في العقلِ والرَّأيِ، وأمّا الوهنُ؛ فهو من حيثُ الخَلْقِ، أو الخُلُقِ، وهو أن يفعلَ الإنسانُ فعلَ الضَّعيفِ، تقولُ: وهنَ في الأمرِ يهنُ وهنًا، وهو واهنٌ، إذا أخذ فيهِ أخذَ الضَّعيفِ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]، أي: لا تفعلوا أفعالَ الضُّعفاءِ، وأنتم أقوياءُ على ما تطلبونَهُ، بتذليلِ اللّهِ إيّاهُ لكم، فلا يقالُ: خلقَهُ اللّهُ واهنًا، كما يقالُ: خلقَهُ اللّهُ ضعيفًا، ويحتملُ أن يقالَ: الضُّعفُ: نقصانُ القوَّةِ - كما تقدَّمَ - والوهنُ هو انكسارُ الجسدِ بالخوفِ ونحوِه، ويكونُ في الحربِ وغيرِها كذلك[2].

الضَّعْفُ: نقصانُ القوَّةِ، والوهنُ: فعلُ الضَّعيفِ، والفشلُ: الضَّعفُ المقرونُ بجبنٍ

البَطَر والجَحْد وكُفر النِّعمة والتَّكبُّر:

لفظُ ﴿بَطَرٗا﴾ لم يَرِدْ في القرآنِ الكريمِ إلّا في موضعينِ، هنا وفي سورةِ القصصِ، في قولِه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: 58]، وقد قرَّرَتْ آيةُ القصصِ بوضوحٍ أنَّ البطرَ كانَ سببًا في إهلاكِ القُرى لما لهُ من آثارٍ وخيمةٍ، والفرقُ بينَ البطرِ وكفرانِ

البَطَرُ: هو الطُّغيانُ عند النِّعمَةِ، وهو اللَّفظُ المعبِّرُ به في هذه الآيةِ بدقَّةٍ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم والمخصّص، والرّاغب، المفردات: (فشل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 115 - 116، والرّاغب، المفردات: (ضعف، وهن).

النِّعَم والتَّكبُّرِ والجحودِ: هو أنَّ البطرَ هو الطُّغْيانُ عند النِّعْمَةِ وطول الغِنَى، حتَّى يصلَ إلى حدِّ الدَّهشِ، فلا يضبط صاحبُه نفسَهُ، ففيه معنى دفعِ الحقِّ والفخرِ والبغي ومجاوزةِ الحدِّ في الطُّغيانِ، وبَطَرُ الحقِّ ألّا يَراهُ حَقًّا، ويَتَكَبَّرَ عَنْ قَبولِه لطغيانِه ودهشِه، وبطرُ النِّعمةِ: هو تعظيمُها مع البغي فيها، وبطرَ فلانٌ نعمةَ اللّهِ: استخفَّها، فكفرَها، وبغى فيها، ولم يسترجعْها، فيشكرُها، وأمّا كفرانُ النِّعمةِ؛ فهو تغطيَتُها وإخفاؤُها وتركُ شكرِها، فلا يتضمَّنُ الكفرانُ معنى الطُّغيانِ والدَّهشِ والأشَرِ، كما هو في البطرِ، والجحودُ هو نقيضُ الإقرارِ مع العلمِ بالحقِّ، أو هو نفيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نفيُهُ، وقد يكونُ للنِّعمةِ أو غيرِها، والبطرُ يغايرُ الكِبرَ والتَّكبُّرَ والاستكبارَ، فالكِبرُ إعجابُ الإنسانِ بنفسِه، بأن يرى نفسَهُ أكبرَ من غيرِه، فيرفضَ الحقَّ، ويمتنعَ عن قبولِه، والتَّكبُّرُ أعمُّ من البطرِ من حيثُ مقابلةُ النِّعمةِ، فلا يختصُّ بالنِّعمِ وحدَها[1].

الرِّئاء والنِّفاق:

النِّفاقُ: إظهارُ الإيمانِ وإبطانُ الكفرِ، والرّياءُ: إظهارُ الفعلِ لحمدِ النّاسِ فحسبُ

الفرقُ بينهما: هو أنَّ النِّفاقَ إظهارُ الإيمانِ، مع إبطانِ الكفرِ وإسرارِه، ولايقعُ اسمُ النِّفاقِ حينَ إطلاقِ اللَّفظِ على من يُظهرُ شيئًا، ويُخفي غيرَهُ، إلّا الكفرَ والإيمانَ، والرِّئاءُ: إظهارُ الخيرِ مع إبطانِ الشَّرِّ، مع قصدِ إظهارِ الجميلِ، وإبطانِ القبيحِ، ليكونَ حسنَ المرأى، فيُمدحَ بين النّاسِ، أو هو إظهارُ جميلِ الفعلِ رغبةً في حمدِ النّاس لا في ثوابِ اللّهِ تعالى، فليس الرّياءُ من النِّفاقِ في شيءٍ، فإنِ استعملَ أحدُهما في موضعِ الآخر، فعلى التَّشبُّهِ[2].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (بطر، جحد، كبر، كفر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 231.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 228 - 229، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/490.

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين بطرِ الكفّارِ في بدرٍ، ونكوصِ الشَّيطانِ عن نصرةِ أوليائِه المنهزمين

لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى عن حالِ الفريقينِ يومَ بدرٍ في الآياتِ السّابقةِ؛ جاءت هذه الآيةُ معطوفةً على قوله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾، زيادةً في إيضاحِ لطفِ تدبيرِهِ تعالى، وبيانِ صنعِه يومَ بدرٍ، فيكونُ الكلامُ السّابقُ الَّذي توسَّطَ بين العاطفِ والمعطوفِ اعتراضًا، فذكرَ في الاعتراضِ ما يَنْبَغي للمؤمنين عند اللِّقاءِ، ليَجْمعَ لهم بين الأمْرِ بما يَنْبَغي، والتَّحْذيرِ ممّا لا يَنْبَغي، وتَرْكِ التَّشَبُّه بمَنْ لا يُرْتَضَى، فيَكونُ للآيةِ إتْمامُ المُناسَبَةِ بحِكايَةِ خُروجِهم وأحْوالِه، ليتمَّ هذا الأسلوبُ البديعُ المحكمُ الانتظامِ[1]، وأيضًا جاءت هذه الآيةُ استمرارًا في تصويرِ ما حصلَ يومَ بدرٍ، فإنَّهُ لمّا ذكرَ أحوالَهم الَّتي خرجوا بها من ديارِهم، وذكرَ أحوالَ المشركينَ الَّتي نهى عن التَّشبُّه بها؛ بيَّن أنَّ ما كانوا يعملونَهُ، وما يظهرونَهُ من الأحوالِ، إنَّما كانَ من تزيينِ الشَّيطانِ؛ تنفيرًا للمؤمنينَ من أعمالِهم، وتعظيمًا لقدرِ النَّصرِ، وبيانًا أنَّ نصرَ المؤمنين كان نصرًا على المشركين، وعلى الشَّيطانِ الَّذي زيَّنَ لهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَ﴾: الزّاءُ والياءُ والنّونُ أصلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على حُسْنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34، وينظر: الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (زين).

الشَّيْءِ وتَحْسينِه[1]، يدورُ معنى لفظ (زَين) على حسنِ الشَّيءِ وتحسينه، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّيْنِ الَّذي هو القبحُ، وازَّيَّنَتِ الأرضُ، وتَزَيّنَتْ، أي: حَسُنت وبَهُجَتْ بنباتِها، ثمَّ عُمِّمَ اللَّفظُ لكلِّ ما يتزيَّنُ بهِ، فالزِّينةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ شَيْءٍ يُتَزيَّنُ به، وزَيَّنَ الشَّيءَ: جعلَ الشَّيءَ ذا زينةٍ، أو إظهارُهُ زينًا، أو نسبتهُ إلى الزَّينِ، وهو في الآيةِ بمعنى إظهارِهِ في صورةِ الزَّينِ، إمّا بالفعلِ، وإمّا بالقولِ، وإن لم يكن في الحقيقةِ زينًا، والتَّزيينُ قد ينسبُ إلى اللهِ تعالى، وقد ينسبُ إلى الشَّيطانِ، وقد يُذكَرُ غيرَ مسمًّى فاعلُهُ.

2) ﴿لَا غَالِبَ﴾: جذرُ الكلمةِ الغلبُ، وفي الأصل يطلق الغلبُ على الرَّقبةِ العظيمةِ، ومنهُ الأغْلَبُ: الغليظُ الرَّقبةِ عَظيمُها، ويدورُ معنى الكلمةِ على الشِّدَّةِ مع علوٍّ ما، وعِظَم جرْم، والغَلَبُ: القوَّةُ والقهرُ والشدَّةُ، ومنه تغلَّبَ على بلدِ كذا: استولى عليهِ وملَّكَهُ قهرًا، كأنَّ من استولى، تناولَ غَلَبَ الرَّقبةِ إشعارًا بقوَّتِه وشدَّتِه، وسائرُ ما في القرآنِ من التَّركيبِ، هو من الغَلَبِ: القهرِ[2].

3) ﴿جَارٌ﴾: يدلُّ معنى اللَّفظِ، على دخولٍ في حيِّز شيءٍ بقوَّةٍ للإقامةِ، والجارُ: من يقربُ مسكنُهُ منكَ، ولمّا كان عندَ العربِ من حقوقِ الجيرةِ، استُعملتِ المجاورةُ، والإجارةُ في معنى الحمايةِ؛ ولمّا تُصوِّرَ مِنَ الجارِ، معنى القربِ؛ دلَّ الجوارُ على معنى الحمايةِ مع القُربِ منهُ، فعبَّرَ عن كلِّ من يعظِّم حقَّهُ، أو يستعظم حقَّ غيرِهِ بالجارِ، ويقالُ: استجرْتُهُ فأجارني[3].

4) ﴿تَرَآءَتِ﴾: الرّاءُ والهمزةُ والياءُ، أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ، ويقال: تراءى القومُ، أي: رأى بعضُهم بعضًا، ففي الصّيغةِ معنى المشاركةِ، وتراءى فلانٌ لفلانٍ؛ إذا تعرَّضَ له ليراهُ[4]، وتقولُ: تراءى لي فلانٌ، أي: تصدَّى لكَ لتراهُ، وتراءى له تابعُهُ من الجنِّ؛ إذا ظهرَ لهُ ليَراهُ، والمِرآةُ التي يُنْظَرُ فيها[5]، وفي القرآنِ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [الشّعراء: 61].

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (زين).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(5) الخليل، العين: (رأي).

5) ﴿نَكَصَ﴾: المعنى المحوريُّ لهذهِ المادَّةِ: الرُّجوعُ القهقرى بقوَّةٍ إلى الخلفِ، يقالُ: نكصَ عن الأمرِ: أحجمَ، وتركيبُ ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ يُقصدُ بهِ الرُّجوعُ القهقرى، ومنهُ قولُهم: أرادَ فلانٌ أمرًا، ثمَّ نكصَ على عَقِبيهِ، أي: أحجمَ عنهُ، ورجعَ القَهْقَرى بقوَّةٍ إلى الخلفِ، أي: تأخَّرَ عَن ما تقدَّمَ لَهُ الآخر خوفًا أو هيبةً، وهو في الآيةِ بمعنى رجعَ هاربًا، وتركَ غيرَهُ متقدِّمًا[1].

6) ﴿عَقِبَيۡهِ﴾ العِقابُ: العَقِبُ مؤخَّرُ الشَّيءِ، ويدورُ بابُ الكلمةِ على معنى أنْ يَجيءَ الشَّيْءُ بعَقِب الشَّيْءِ، أيْ: مُتَأَخِّرًا عنه، ومنه قولهم: (جاءَ زَيْدٌ يَطَأُ عَقِبَ عَمْرٍو)، والمعنى: كُلَّما رَفَعَ عَمْرٌو قَدَمًا؛ وضَعَ زَيْدٌ قَدَمَهُ مَكانَها، والعقِبُ هو مؤخَّرُ القدم، وجمعهُ: أعقابٌ، ومنه العقابُ؛ لوقوعه عقبَ الفعلِ الَّذي يُجازى عليه، يُقالُ: عاقبتُ الرَّجلَ، أي: جزيتُهُ بما فعلَ سوءًا، وأصلُ ذلك: أنَّكَ جعلْتَ ثمرةَ عملِهِ تَعْقُبُهُ، أي: تلحقُهُ لا يفوتها، والعُقوبَةُ والمعاقبةُ والعِقابُ يُختصُّ بالعذابِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خذلانُ الشَّيطانِ لأتباعِهِ سنَّةٌ، ما فتئت تتجدَّدُ ولاتتبدَّدُ

يقول السّياقُ: واذكر - يارسولَ اللّهِ - حين حسَّنَ الشَّيطانُ للمشركين خروجَهم إليكم، لحربِكم وقتالِكم، وما جاؤوا له بأنْ وسوسَ لهم، وقال لهم بأنْ ألقى في روعِهم: لن يغلبَكم اليومَ أحدٌ من النّاس، وإنّي ناصرُكم، فلمّا تقابلَ الفريقانِ: المشركونَ، ومعهم الشَّيطانُ، والمسلمونَ، ومعهم الملائكةُ، ورأى بعضُهم بعضًا ارتدادَ الشَّيطان هاربًا، وهو يقولُ للمشركين: إنّي بريءٌ منكم، إنّي أرى ما لا ترونَ من الملائكةِ الَّذين جاؤوا مددًا للمسلمين، إنّي أخافُ اللّه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نكص)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/222.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب).

فخذلَهم، وتبرَّأ منهم، واللّهُ شديدُ العقابِ، لِمَنْ عصاهُ، ولم يتبْ توبةً نصوحًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ التَّعبيرِ بلفظِ (إذْ):

وعدُ الشَّيطانِ غرورٌ، وميثاقهُ ضلالٌ وزورٌ

في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، لمّا كانَ تصديرُ الكلامِ بـ﴿وَإِذۡ﴾ لتعظيمِ شأنِ المذكورِ بعدَها، بما يفيدُهُ تعظيمُ الظَّرفِ تعظيمَ الحدثِ الواقعِ فيه، والمعنى: "واذكُر وقتَ تزيينِ الشَّيطانِ أعمالَهم في معاداةِ المؤمنينَ وغيرِها، بأن وسوسَ إليهم"[2]، وواضحٌ أنَّ الظَّرفيَّةَ الزَّمنيَّةَ هنا مرعيَّةٌ؛ لأنَّ الشَّيطانَ تشكَّلَ لهم في صورةٍ آدميَّةٍ في ذلك الزَّمانِ، وقبل أن يلتقيَ الجمعانِ، ليقنعَهم بما يريدُ تزيينَهُ لهم، قال المفسِّرونَ: وإبليسُ قد تصوَّرَ في صورةِ سراقَةَ بنِ جعْشم المدلجيِّ، يجيرُ المُشْرِكين، ويخبرُهم أنَّه لا غالبَ لهم اليَوْمَ من النّاسِ، فلَمّا أبْصرَ المَلائِكَةَ؛ نكصَ على عَقبَيْهِ[3]، قال ابن عاشورٍ: "ويَجوزُ أنْ يَكونَ إسْنادًا مَجازيًّا، وإنَّما المُزَيِّنُ لهم سُراقَةُ بإغْراءِ الشَّيْطانِ، بما سَوَّلَ إلى سُراقَةَ بْنِ مالِكٍ مِن تَثْبِيتِهِ المُشْرِكينَ على المُضيِّ في طَرِيقِهِم، لِإنْقاذِ عيرِهِم، وألّا يَخْشَوْا غَدْرَ كِنانَةَ بِهِمْ"[4]، وأيًّا كانتِ الرِّوايةُ محمولةً على الحقيقةِ أو على المجازِ، فقد كان تزيينُ الشَّيطانِ مرتبطًا بالأوانِ، ودلالةُ (إذْ) الظَّرفيَّةِ عليهِ بليغةٌ.

بلاغةُ تلوينِ الخطابِ:

تلوينُ الخطابِ مــن بـراعـةِ الـنَّـظـمِ، وفيهِ راحةٌ للمخاطبِ

بعد أن كانَ الخطابُ في الآياتِ السّابقةِ للمؤمنين بالأمرِ والنَّهي، لبيانِ أسبابِ النَّصرِ، خوطبَ النَّبيُّ ﷺ، في هذهِ الآيةِ بطريقِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/7، نخبة من أساتذة التّفسير، ص: 183.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.
(3) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 4/78.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

التَّلوينِ(1)، وفي ذلك تنويعٌ وتحسينٌ للسّياقِ الَّذي تقدَّمَ فيهِ مضامينُ الخطابِ، وفيه نَقْلٌ لوجهةِ الخطابِ من جهةٍ إلى أخرى، لاستيعابِ العناصرِ المعنيَّةِ بالدِّلالة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فَعَّلَ):

تحسينُ الشَّيطانِ أعمالَ المشركين، لا يجعلُها حسنةً

في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، لمّا كانت صيغةُ (فَعَّلَ)، لنسبةِ المفعولِ إلى أصلِ الفعلِ، لتسميَتِه به، ولتكثيرِ أصلِ الفعل(2)؛ دلَّ على أنَّ تزيينَ الشَّيطانِ أعمالَ المشركينَ الَّتي عملوها في معاداةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وفي مسيرِهم إلى بدرٍ، وقتالِهم رسولَ اللّهِ ﷺ وتزيينِه لهم قوَّتَهم، حتَّى اعتمدوها، كان بإظهارِها في عقولِهم وحسبانِهم في صورةِ الزَّين، وهي في الحقيقةِ ليست كذلك، والمعنى: نسبَها إلى الزَّين، وصوَّرها كذلك مع تكرُّرِ فعلِ التَّزيين منه؛ ترغيبًا فيها، ليقبلوا عليها، ويزيدوا منها رغبةً فيها، وليكون تزيينُهُ صدًّا لهم، عن رؤيةِ الحقِّ واتِّباعِه، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

متابعةُ الشَّيطانِ إيذانٌ بسوءِ العملِ، وسوءِ العاقبةِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفاعلِ والمفعولِ؛ للإشعارِ باهتمامِ الشَّيطانِ بهم، ممّا يُنْبِئُ عن سوءِ أعمالِهم، ولأنَّ الكلامَ مسوقٌ فيهم، وفي التَّقديمِ إشعارٌ بتخصيصِ تزيينِ الشَّيطانِ لهم دونَ المسلمين، فهو تخصيصٌ إضافيٌّ، لبيانِ منَّةِ اللّهِ على المؤمنينَ، بحفظِهِ لهم من الشَّيطانِ وتزيينِه، يومَ الفرقانِ، وهذا بليغٌ في بابِه.

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، بصيغةِ الجمعِ:

لمّا كانَ لفظُ زيَّنَ على معنى تكثيرِ التَّزيُّنِ ناسبَهُ مجيءُ الأعمالِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/100.

(2) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/93 - 94.

تلوُّنُ مكرِ الكفرة وكيدِهم، نتاجُ تزيينِ الشَّيطانِ بدونِ توانٍ

بصيغةِ الجمعِ، لظهورِ معنى التَّكثيرِ فيها، فيكونُ التَّزيينُ لكلِّ عملٍ من أعمالِهم، والمعنى: اذكر إذ زيَّنَ الشَّيطانُ لهؤلاءِ الكفّارِ أعمالَهم، والمقصودُ الأعمالُ الَّتي عملوها في معاداةِ رسولِ اللّهِ ودعوتِه، وقد كانوا يخطِّطونَ، ويسعونَ حثيثًا لوأدِ الإسلامِ، والإجهاضِ على دعوتِه، ولا يدَّخرون في ذلك جهدًا، ولذلك فقد زَيَّنَ لهم الشَّيطانُ مجملَ ما بادروا إليهِ من أعمالٍ، وكان الصَّوغُ بوزن الجمعِ منطبقًا على واقعِ المواجهةِ الدَّؤوبةِ المبرزةِ في السّياقِ.

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ:

تزيينُ الشَّيطانِ غـوايةٌ، وتزيينُ اللهِ هدايةٌ

في قولهِ تعالى: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، التَّعبيرِ بلفظ ﴿زَيَّنَ﴾، كنايةٌ عن أمرينِ؛ أحدهُما: فيه كنايةٌ عن ضلالِ أعمالِهم، والثّاني: أنَّ التَّزيين، بمعنى الإضلالِ والإغواءِ، فإنَّ تزيينَ الشَّيطانِ إغواءٌ لهم، باتِّباعِ خطواتِه وطاعتِه، كما أنَّ تزيينَ اللّهِ للإيمانِ توفيقٌ وهدايةٌ للمؤمنينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

تزيينُ الشَّيطانِ لأتـبـاعـهِ، ووسوستُه لهم إبعادٌ عن الحقِّ والهُدى

في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، ذكرَ لفظَ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، ولم يسمِّه باسمِ إبليسَ؛ لأنَّ الشَّيطانَ لمّا كان مشتقًّا من شطنَ بمعنى بَعُدَ، عُبِّرَ به للإشعارِ بأنَّ تزيينَهُ ووسوستَهُ، إبعادٌ للمشركين عن الحقِّ وإضلالٌ لهم عن الهُدى والرَّشادِ، والغالبُ أن يُستعملَ لفظُ الشَّيطانِ في الكيدِ والصِّراعِ، وفي الإغراءِ والإغواءِ، ولذلك قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: 6].

دلالةُ (لا) النّافيةِ للجنسِ في قولهِ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾:

قولهُ: ﴿لَكُمُ﴾ خبرٌ للأداةِ (لا) النّافيةِ للجنسِ[1]، أي: لنفيِ وجودِ أيِّ أحدٍ، ممَّن له وصفُ الغلبةِ لكم، والمعنى على استغراقِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/334.

إفـــادةُ نفيِ الجنسِ المبالغةَ في النَّـفـي؛ لـيـصـدِّقَـهُ المشركونَ

نفي جنسِ الغالبين للمشركين ذلك اليوم، والتَّقديرُ (لا غالب كائنٌ لكم)، ويكونُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرفًا مقيَّدًا؛ إشعارًا بظهورِ أمرِهم وشأنِهم في ذلك اليومِ، إن غلبوا المسلمينَ، وتأكيدًا لنفي غلبتِهم، وتقريرَه في ذلك اليومِ، ولمّا كان القتالُ بين فئتين، يقتضي وجودَ غالبٍ ومغلوبٍ، وكان ﴿لَكُمُ﴾ هو الخبرُ؛ دلَّ على أن لا غالبَ لكم، يفيدُ بمفهومِه (إنَّكم أنتم الغالبون)، ففي الكلامِ مبالغةٌ في المعنى، وفي التَّعبيرِ بهذا التَّركيبِ نكتةٌ أخرى؛ لِما يفيدُهُ النَّفي بـ(لا) للجنسِ من كونِها جوابًا لسؤالٍ تقديرُهُ: هل مِن غالبٍ لكم اليومَ[1]؟ وبيانُه أنَّ الشَّيطانَ لمّا زيَّن للمشركين أعمالَهم ومسيرَهم وقوَّتهم؛ تعاظموا، وظنّوا أن لا أحدَ يغلبُهم، فكأنَّهم قد قالوا حينئذٍ: هل من غالبٍ لنا اليومَ؟ على معنى العموم، لمجيءِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفي، فقالَ الشَّيطانُ مؤكِّدًا ومقرِّرًا: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكونَ ﴿لَكُمُ﴾ صفةً لقوله: ﴿غَالِبَ﴾، ويكون اليومُ خبرًا له[2]، والوجهُ الأوَّلُ هو الظّاهرُ تركيبًا ومعنًى.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

يومُ بـدرٍ علامةٌ فارقةٌ في تاريخِ الـصِّـراعِ بين الكفرِ والإيمانِ

في قولِه تعالى: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، تفيدُ (أل) من لفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ العهدَ العلميَّ، بمعنى: يوم بدرٍ، للإشعارِ بحضورِه في أذهانِهم، ويومُ بدرٍ علامةٌ زمنيَّةٌ فارقةٌ في الصِّراعِ المحتدم بين الطَّرفين، وهو يومٌ مشهودٌ، وقد سُمّيَ لذلك يومَ الفرقانِ؛ لأنَّهُ فرَّقَ فيهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وقد زيَّنَ الشَّيطانُ للكفّارِ: أنَّهم وصلوا إلى ذلك المستوى من العزوةِ في ذلكَ اليومِ، فلا يحقُّ لهم الانسحابُ دونَ تخليدِ وجودِهم القويِّ، لتأديبِ من يتطاولُ عليهم.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 2/275.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/616، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

نفيُ الجنسِ تقريرٌ للإعلامِ، وتحفيزٌ من الشّيطانِ على الإقدامِ

أفادت ﴿مِنَ﴾ بيانَ جنسِ الغالبِ[1]، لمجيءِ لفظِ ﴿غَالِبَ﴾ وصفًا عامًّا؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ من نفي الجنسِ في قولِه: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾، هو ما كانَ من جنسِ النّاسِ، وليكونَ أدعى للمشركين على القتالِ بإيهامِهم، أنَّهم أقوى النّاس، فالتَّصريحُ بذكرِ النّاسِ تقريرٌ للمعنى، وإيضاحٌ له بالنِّسبةِ للمشركين.

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾:

كلُّ وعودِ الشَّيطانِ هوانٌ وأوهامٌ

لمّا نفى الشَّيطانُ أن يكونَ أيُّ أحد غالبًا للمشركين، ولكي يردَّ على ما قد يقعُ في نفوسِهم، من توقُّعِ الهزيمةِ، أو الخوفِ منها، وأنَّهم قد يغلبونَ لتزايدِ المسلمينَ، ولعلمِهم بأنَّ رسولَ اللهِ كُلَّما أَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ؛ وقَعَ[2]؛ زادَ في إضلالِه لهم، بأن ذكرَ لهم أنَّكم إن غلبتُم؛ فسأكونُ جارًا لكم، أعينُكم وأنصرُكم عليهم، ولن أتخلَّى عنكم، فأفادَ الوصلُ بالواوِ الجمعَ والتَّشريكَ، لتكونَ الجملةُ معطوفةً على ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، والمعنى: أنَّكم ستغلبونَ لجمعِكم بين أمرين؛ أحدُهما: أنّه لا غالبَ لكم، والثّاني: أنّي جارٌ لكم، ليسدَّ عليهم أبوابَ الرُّجوعِ عن القتالِ، وأجازَ بعضُ المفسِّرين، أن تكونَ الواوُ للحالِ، وتكونَ جملةُ: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ حاليَّةً، والتَّقديرُ: لا أحدَ يغلبكم، وأنا جارٌ لكم، أُعينُكم، وأنصرُكم؛ للإشعارِ بأنَّ انتفاءَ غَلَبَتِهم، إنَّما تكونُ في وقت جوارِه لهم، لتعظيمِ شأنِ جوارِه لعنَهُ اللهُ[3].

دلالةُ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿جَارٞ﴾:

من كانَ الشَّيطانُ جارَهُ؛ طالَهُ الأذى من جوارِه

في قولِه: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ جاءَ بلفظِ ﴿جَارٞ﴾ نكرةً؛ للإشعارِ بأنَّ الشَّيطانِ، كان يعظِّمُ جوارَهُ للمشركين، ويفخِّمُه، وأنَّهُ الحامي

(1) الدّر المصون: 5/616، وابن عادل، اللّباب: 9/538.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/144.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/334.

النّاصرُ لهم، وأنَّهُ جارٌ لكلِّ من ارتضى سلوكَ سبيلِه، واتِّباعَ غوايتِه، فهو باستعمالِ النَّكرةِ هاهنا، يشيرُ إلى عموم الجيرةِ الَّتي تتأتَّى لكلِّ من يريدُ أن يركنَ إليهِ، ويقبلَ حمايتَهُ وإعانتَهُ، أو يدخلَ في جوارِهِ، كما وعدَ الكفّارَ في ذلك الموقفِ المصيريِّ المهمِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿جَارٌ﴾:

تبرُّعُ الشَّيطانِ في إجارتِه إضلالٌ للمشركينَ وتغريرٌ بهم

لم يقل: وإنّي أجيرُكم؛ لأنَّ التَّعبيرَ بلفظِ (أُجير)، يؤذنُ أنَّهم طلبوا إجارتَهُ، فأجارَهُم، فلمّا قال: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ دلَّ على أنَّه - لعنَهُ اللّهُ - وسوسَ لهم، أنَّهُ حاميهم من نفسِه من غيرِ طلبٍ منهم إضلالًا منهُ لهم، ولم يقل: وإنّي جارُكم، لِما تفيدُهُ اللّامُ هنا من تقويةِ اختصاصِ جوارِه لهم وتأكيدِه(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ بينَ الكنايةِ والاستعارةِ:

مَن كانَ الشَّيطانُ له جارًا؛ خطَّ إلى الخزيِ والنّارِ مسارًا

لمّا ألقى الشَّيطانُ في روعِ المشركين، وخيَّلَ إليهِم أنَّهم لا يُغلَبون، ولا يُطاقون، لكثرةِ عَددِهم وعُدَدِهم، وأوهمهم أنَّ اتِّباعَهم إيّاهُ - فيما يظنّون أنَّها قرباتٌ - مجيرٌ لهم، حتَّى تجاسروا، فقالوا: اللهمَّ انصر أهدى الفئتينِ، وأفضلَ الدّينين، كان (جارٌ) على معناهُ اللّازمي، إمّا بالكنايةِ، بأنْ يرادَ الحامي لهم، وإمّا على الاستعارةِ، بمعنى: إنّي دافعُ الضَّررِ عنكم، لقربي منكم، وصحبتي لكم، كما يدفعُ الجارُ الضَّررَ عن جارِه.

تتابعُ المؤكّداتِ في مقولةِ الشَّيطانِ:

الكذبُ لا تجدي فيه كثرةُ المؤكِّداتِ، ولا تلميعُ العباراتِ

تتابعتِ المؤكِّداتُ في قولِ الشَّيطانِ: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾، لتقريرِ ما يوسوسُ بِهِ في صدورِ الكفّارِ، فأكَّدَ النَّفيُ غلبتَهُم بـ(لا) النّافيةِ للجنسِ - كما تقدَّمَ - وأكَّدَ جوارَهُ لهم، بـ(إنَّ) الَّتي تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، وبالجملةِ الاسميَّةِ، وباللّامِ الدّاخلةِ لتقويةِ الاختصاصِ.

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/74.

بلاغةُ الاستعارةِ:

إغواءُ الشَّيطانِ فنونٌ وفتونٌ لاستدراجِ كلِّ مفتونٍ

في قوله: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، و﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾، التَّزيينُ والقولُ فيهما على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، بتشبيهِ وسوستِه وتخييله بمن يفعلُ فعلَ التَّزيين، ويقولُ القولَ المذكورَ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وذُكِرَ المشبَّهُ به، ليكونَ على معنى المبالغةِ، في تأثُّرهم بتزيينِ الشَّيطانِ، والمعنى: وسوسَ لهم، فحسَّنَ لهم أعمالَهم، وألقى في روعِهم، وخيَّلَ إليهم أنَّهم لا غالبَ لهم، فلا يغلبونَ، ولا يطاقونَ، لكثرةِ عددِهم وعُددِهم، فالقولُ مقالةٌ نفسانيَّةٌ لا لفظيَّة، فهو حديثٌ نفسيٌّ بوسوسةِ الشَّيطانِ في قلوبِهم، ويُمْكِنُ أنْ يَكونَ صُدورُ هذا القَوْلِ، على لِسانِ بَعْضِ الغواةِ مِنَ النّاسِ، ممَّن كان مع المشركينَ في القتالِ، فقالَ لهم ذلك بإغْواءِ إبْليسَ لَهُ، ونُسِبَ ذلك إلى إبْليسَ؛ لِأنَّهُ هو المُتَسَبِّبُ في ذلك القَوْلِ، فيَكونُ القَوْلُ صادرًا مِن إنْسانٍ حَقيقَةً، وهو على طريق المجاز العقليِّ، باعتبارِ صدورِ قولِ ذلك الشَّخصِ المتأثِّرِ بوسوسةِ الشَّيطانِ[1].

دلالةُ حرفِ (الفاء):

أكبرُ الغبنِ والأساةِ أن يتبرَّأَ المتبوعُ مِنَ التّابعِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾ أفادتِ الفاءُ التَّعقيبَ، بمعنى: تعقيب وقوعِ ترائي الفئتين، على قولِ الشَّيطانِ من غيرِ مهلة؛ للإشعارِ بسرعةِ نكوصِه وخيانتِه لهم، وقد تلاحقتِ الأحداثُ بسرعةٍ، وكانَ النُّكوصُ برجوعِه القهقرى على عقبيه، وقد تبرَّأ من المشركينَ، وقيل: "إنَّهُ كان آخذًا بيدِ الحارثِ بن هشام، أخي أبي جهلٍ، فلمّا رأى الملائكةَ، ينزلونَ مِنَ السَّماءِ، يقدمُهم جبريل (عليه السلام)؛ نزعَ يدَهُ من يدِ الحارثِ، وهربَ، فقالَ لهُ الحارثُ: أفرارًا من غيرِ قتالٍ؟ وجعلَ يُمسِكُهُ، فدَفعَ في صدرِه، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، وهربَ"[2].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/235، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/271.

دلالةُ (لَمَّا) في قولِه: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾:

أحبالُ الكذبِ قصيرةٌ، وخُدَعُ الشَّيطانِ مكشوفةٌ للعيانِ

لَمّا كانت (لمّا) التَّعليقيَّةُ حرفَ وجودٍ لوجودٍ، يفيدُ وقوعَ أمرٍ لوقوعِ غيرِه، وفيها معنى الشَّرطِ والتَّعليل، ويدخلُ الكلام الَّذي يتضمَّنُها معنى الوقتِ[1]، أفادَ التَّعبيرُ بها أنَّ الشَّيطانَ نكصَ على عقبيه، وقال قولَهُ المذكورَ بمجرَّدِ وقوعِ ترائي الفئتَينِ من قبلِ القتالِ، وأنَّ التَّرائي كانَ السَّببَ في نكوصِه، وأنَّ نكوصَهُ كان في وقتِ التَّلاقي والتَّرائي؛ لتضمُّنها معنى الوقت، ولاقترانِ الجوابِ بالشَّرطِ؛ إشعارًا بعظمِ فئةِ المؤمنينَ وقوَّتِهم ورهبتِهم، في أعينِ أعدائِهم حين التَّرائي مع قلَّتِهم في العددِ والعدَّةِ، ففيهِ تذكيرٌ بهذهِ النِّعمةِ العظيمةِ والآيةِ الباهرةِ، كما أنَّ فيهِ إيذانًا بسرعةِ انكشافِ كذبِ الشَّيطانِ في دعواهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿تَرَآءَتِ﴾:

التَّرائي بين الفئتين مؤذنٌ بقربِ القتالِ والالتحامِ

لَمّا كانَ الفعلُ ﴿تَرَآءَتِ﴾ على وزنِ تفاعلت، فهو من المفاعلةِ دلَّ على معنى المشاركةِ، أي: رأت كلُّ فئةٍ الأخرى رؤيةَ عينٍ، بحيثُ كانت كلُّ فئةٍ في مرمى نظرِ الفئةِ الأخرى، ومقابلةً لها؛ إشعارًا بقربِ القتالِ، والمعنى: "فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ - أي: التقى الجمعانِ: جمعُ المؤمنين، وجمعُ الكافرين - بحيثُ رأت كلُّ واحدةٍ الأخرى، ورأى إبليسُ نزولَ الملائكةِ من السَّماءِ؛ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ، أي: رجعَ إلى خلفهِ هاربًا، وقالَ: إنّي بَريءٌ مِنكُمْ"[2]، والتَّرائي موقفٌ مزلزلٌ، تُمتحن فيه عزائمُ الرِّجالِ، ويُنظرُ فيهِ إلى جلَدِ الشُّجعان، ويكونُ فيصلًا في تحقيقِ النَّصرِ أو الهزيمةِ، والنُّكوصُ حين التَّرائي مؤذنٌ بالخيبةِ، وموحٍ بالخذلانِ، وكذلك هو شأنُ الشَّيطانِ في كلِّ مناحي الحياةِ، كلَّما زيَّن للإنسانِ أمرًا،

(1) الرّضي، شرح كافية ابن الحاجب: 3/309، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 594، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 369.

(2) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 3/309، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 594، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 369.

حتَّى إذا جدَّ الجدُّ، وجاءتِ اللَّحظةُ الحاسمةُ؛ نكصَ على عقبيهِ، وخذلَ منِ اغترَّ بهِ.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ:

التَّلاقي سببٌ في التَّرائي، وهو مؤذنٌ بالتَّصادمِ والاشتباكِ

في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾، عبَّرَ بلفظِ ﴿تَرَآءَتِ﴾ على طريقِ المجازِ المرسلِ[1]؛ لأنَّ التَّرائي مسبَّبٌ عن التَّلاقي حتَّى صارَ كلُّ واحدٍ بحيثُ يتمكَّنُ من رؤيةِ الآخرِ، والمعنى: تلاقتِ الفئتانِ، فكان التَّلاقي سببًا في التَّرائي، وعُبِّرَ بالمجازِ المرسلِ، لتعظيمِ أثرِ المسبِّب، وما ترتَّبَ عليه.

بلاغةُ الاستعارةِ:

كلُّ نكوصٍ تأخُّرٌ وتعثُّرٌ، ونكوصُ الشَّيطانِ خيبةٌ وتنكُّرٌ

لمّا كان التَّعبيرُ بلفظ ﴿نَكَصَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾، بمعنى: رجعَ القهقرى في الأصلِ، عُبِّرَ به؛ لتشبيهِ بطلانِ كيدِه مع إحكامِه، بالرُّجوع القهقرى، في عدمِ الوصول إلى ما قصدَهُ، ورجوعِه عنه خائبًا، بعدَ إقبالِه عليهِ؛ ليكونَ استعارةً تمثيليَّةً، تصويرًا لحالةِ رجوعِه، فارًّا منهزمًا، فالتَّعبيرُ بـ﴿نَكَصَ﴾ ليس على الحقيقةِ[2].

فائدةُ ذكرِ قولِه: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾:

تفظيعُ حالةِ التَّقهقرِ بالتَّعبيرِ بالعقبِ لهوانِه

لمّا كانَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾، حالًا من فاعلِ ﴿نَكَصَ﴾، كان تأكيدًا لرجوعِه القهقرى، وتقريرًا له، ويحتملُ أن يكونَ حالًا مؤسِّسة؛ إذا كانَ (نكص) بمعنى مطلقِ الرُّجوعِ؛ لأنَّهُ كنايةٌ عن الفرارِ، فيفيدُ أنَّ رجوعَهُ كان على حالةٍ مزريةٍ خائبةٍ، هي حالةُ القهقرى، وعلى الوجهين أفادَ ذكرُ ﴿عَقِبَيۡهِ﴾، تفظيعَ حالةِ التَّقهقرِ وخسَّتِها؛ لأنَّ عقبَ الرَّجلِ أخسُّ القوائم، لملاقاته الغبارَ والأوساخَ[3].

---

(1) الشّهاب، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/280، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/101.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/538، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/101، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/22.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/618، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/37.

مناسبةُ الوصلِ في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾:

أفادتِ الواوُ عطفَ القولِ على الفعلِ؛ لِما بين الجملتينِ من جهةٍ جامعةٍ تجمعُهما، وهي خذلانُه لهم، فأفادَ قولُ الشَّيطانِ المُبالَغَةَ في الخِذْلانِ والانْفِصالِ عنهم، فإنَّهُ - لعنَهُ اللّهُ - لَم يَكْتَفِ بالفِعْلِ، حَتَّى أَكَّدَ ذلك بالقَوْلِ[1]، ولمّا كان جوابُ (لمّا) جملتينِ معطوفتينِ؛ دلَّ على وقوعِ النُّكوصِ، والقولُ المذكورُ في وقتِ ترائي الفئتينِ.

خذلانُ الشَّيطانِ، يجمعُ بينَ القولِ المزيَّنِ، والفعلِ المخيِّبِ

بلاغةُ الاستعارةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ جاءَ الكلامُ على الاستعارةِ، إذ شبَّهَ تبرُّؤَ الشَّيطانِ من المشركين، وخذلانَهُ لهم، بالرَّجلِ الَّذي يقولُ هذا القولَ، إيذانًا بوضوحِ تبرُّئِه منهم، وأنَّه كان بمنزلةِ القولِ المسموعِ، أو يكون مجازًا عقليًّا، بأن يكونَ شخصٌ ممَّن كانَ معَهم في القتالِ، له شأنٌ، قال ذلك القولَ متأثِّرًا بوسوسةِ الشَّيطانِ[2].

تبرُّؤُ الشَّيطانِ قمَّةُ الخيبةِ والخذلانِ

دلالةُ (إنَّ) على التَّوكيدِ:

تفيدُ (إنَّ) - في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ - تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، بمعنى: تأكيدِ براءةِ الشَّيطانِ من المشركينَ وتقريرِها، وهذهِ البراءةُ مسألةٌ حتميَّةٌ لازمةٌ، يلجأُ إليها أهلُ الباطلِ، حيثُ تكونُ وشائجُ الصِّلةِ منبتَّةً في النِّهايةِ بينَ أهلِ الباطلِ بعضِهم ببعضٍ، وعلى رأسِهم الشَّيطانُ الَّذي يعدُ أتباعَهُ ويمنّيهم، ثمَّ ينتهي إلى الانقلابِ عليهِم والتَّبرُّؤِ منهم، فتكونُ الخيبةُ الكبرى بينَهُ وبينَهُم.

انقلابُ الشَّيطانِ وتبرُّؤُه من أتباعِه، حقيقةٌ لا مفرَّ منها

نكتةُ الالتفاتِ في الضَّميرِ:

في قولِه: ﴿بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ التفاتٌ بمجيءِ ضميرِ الخطابِ؛ لأنَّ النُّكوصَ يفيدُ الرُّجوعَ القهقرى، فلا يكونونَ قبالتَهُ؛ للإشعارِ بأنَّهُ

ما كانَ للهِ دامَ واتَّصلَ، وما كانَ لغيرِ اللهِ انقطعَ وانفصلَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/335.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

استحضرَهُم، كأنَّهم يسمعونَهُ، فقال قولهُ هذا[1]، ويحتملُ أن يكونَ على الظّاهرِ رجعَ مستأخرًا مقبلًا بوجهِهِ إليهم[2]، وأيًّا كانَ الأمرُ في هذهِ الحالةِ أو تلكَ، فإنَّ التَّبرُّؤَ بهذا الأسلوبِ السّافرِ الجليِّ، وبصورةٍ جازمةٍ باتَّةٍ، هو منتهى كلِّ علاقةٍ تقومُ على الباطلِ.

مناسبةُ تقديم: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ على: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾:

تصاغرَ الشَّيطانُ لمّا رأى إمدادَ الملائكةِ للمؤمنينَ

قُدِّمَت الجملةُ الأولى على الثّانيةِ؛ لِما يُشعرُ بهِ ترائي الفئتينِ من شدَّةِ خذلانِه وخيبتِه (لعنهُ اللّهُ)، بما رأى حينئذٍ من إمدادِ الملائكةِ للمؤمنينَ، فتصاغرَ ودُحِرَ، فاستعجل الانهزامَ أوَّلًا، ثمَّ قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾؛ تعظيمًا لآياتِ اللّهِ يومَ الفرقانِ، وإيذانًا بصغارِ الشَّيطانِ وضعفِه وحقارتِه.

بلاغةُ الاستئنافِ:

قوَّةُ الشَّيطانِ ومكائدُهُ، تتضاءلُ أمامَ قدرةِ اللهِ الَّتي لا تُغالبُ

وردَ الاستئنافُ البيانيُّ في الآيةِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾؛ جوابًا لسؤالٍ تقديرهُ، (لِم قلتَ: إنّي بريءٌ منكم، وقد زيَّنت لهم أعمالَهم، وقلت: لا غالب لكم اليومَ من النّاسِ؟)، فكان الجوابُ في بيانِ السَّببِ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، فتبرَّأ لخوفِه ورهبتِه، ممّا رأى من خرقِ العادةِ، ونزولِ الملائكةِ.

تتابعُ التَّأكيدِ:

التَّأكيدُ بلفظِ (لا) النّافيةِ على نفي رؤيتِهم ما كان يرى

في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ تنوُّعُ التَّأكيدِ في الآيةِ لتقريرِ معناها، بعدَ أنْ زيَّنَ لهم أعمالهم، ووعدَهم بالغلبةِ، فجاء على طريقِ الخبرِ الإنكاريِّ، بتأكيدهِ بـ(إنَّ)، ومجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً، لتقوّي الحكمَ بنفسِ التَّركيبِ على تقديرِ تكرُّرِ الإسنادِ بتكرُّرِ المسندِ إليهِ، وهو الياءُ في قولهِ: ﴿إِنِّيٓ﴾ والضَّميرِ المستترِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/36.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/236.

في ﴿أَرَىٰ﴾ [1]، ولمّا تتابعَ التَّأكيدُ على إثباتِ رؤيتِه؛ ناسبَ أن يأتيَ بـ(لا) لتأكيدِ نفي رؤيتِهم، ما كان يراهُ[2].

بديعُ الطِّباقِ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾:

تقابلُ اللَّفظينِ طباقٌ، وهو يجلّي المعنى، ويوضِّحُ الدِّلالةَ

جاء طباقُ السَّلبِ في قولِه: ﴿أَرَىٰ﴾، و﴿لَا تَرَوۡنَ﴾؛ ليفيدَ المقايسةَ بينَ رؤيةِ الشَّيطانِ ورؤيةِ المشركين، وأنَّ رؤيتَهُ ما لا يرون، كانت حينَ تراءتِ الفئتانِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أَرَىٰ﴾ و﴿لَا تَرَوۡنَ﴾:

ما يراهُ إبليسُ مستمرٌّ، بإرجاءِ اللهِ له إلى نهايةِ الدُّنيا

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿أَرَىٰ﴾، إشعارًا باستمرارِ رؤيتِه، لما لا يرونَهُ، وأنَّها متجدِّدَةٌ حالًا فحالًا، ولم تكن مرَّةً واحدةً، ولتصويرِ حالةِ الرُّؤيةِ المستمرَّةِ، عُبِّرَ بقولِه: ﴿لَا تَرَوۡنَ﴾، إشعارًا باستمرارِ نفي رؤيتِهم، ما يراهُ، ولتصويرِ الحالةِ كذلك.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

إفادةُ العمومِ هنا أولى من التَّخصيصِ لإفادةِ هولِ المرئيِّ

في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ المفيدِ العمومَ المرادَ بهِ تعظيمُ المرئيِّ وتفخيمُه، وتأكَّد هذا التَّعظيمُ بحذفِ العائدِ من الفعلِ ﴿تَرَوۡنَ﴾، لما يشعرُ بهِ ذكرُ العائدِ من التَّخصيصِ، فيكونُ التَّعميم.

نكتةُ مجيءِ قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾:

خوفُ الشَّيطانِ بسببِ ظنِّه أنَّ أوانَ قيامِ السّاعةِ قد آنَ

لمّا علِمَ الشَّيطانُ أنَّ القوَّةَ الّتي مع المؤمنينَ، هي قوَّةُ اللهِ بما أمدَّهم من الملائكة، وعلِمَ أنَّها لا تقهر، وأنَّ المشركينَ مهزومون لا محالةَ، وأنَّه لا قوَّةَ له ولا طاقةَ، قال مقولةَ العاجزِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّه إنَّما ذكرَ خوفَهُ من اللهِ تعالى في هذا الموضعِ، ولم يذكرْهُ في امتناعِه من السُّجودِ لآدمَ؛ لأنَّه قد كانَ سألَ الإنظارَ إلى قيامِ السّاعةِ، فلمّا رأى نزولَ الملائكةِ ببدرٍ؛ تصوَّرَ قيامَ السّاعةِ، فخافَ[3].

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217، 221.
(2) سيبويه، الكتاب: 3/117.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/235.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، بين الاستئنافِ البيانيِّ والتَّأكيدِ:

رؤيةُ الشَّيطانِ حقيقةٌ للهولِ، وخوفُه من اللهِ باطلٌ من القولِ

لّما جاءَ قولهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، استئنافًا بيانيًّا، كما تقدَّم، فكأنَّ السّائلَ سألَ مرَّةً أخرى: وما حملكَ على هذا كلِّه؟ فكانَ الجوابُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، ويحتملُ أن يكونَ تأكيدًا لمضمونِ قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، فإنَّه لّما رأى ما رأى، هالَهُ الموقفُ، وفزِعَ منه، فقال مؤكِّدًا مقتضاهُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾.

دلالةُ الواوِ بين العطفِ أو الاستئنافِ:

ارتباطُ المعنى بالوعيدِ لمن يخالفُ اللهَ، ويعادي نبيَّهُ

تحتملُ الواوُ في قولهِ: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أن تكونَ عاطفةً لتكونَ من تمامِ كلامِ الشَّيطانِ، في بيانِ جزاءِ الأفعالِ المخالفةِ لأوامرِ اللّهِ تعالى، ويُحتملُ أن تكونَ استئنافيَّةً، ليكونَ الكلامُ من جهتِه ﷻ على معنى الوعيدِ، لمن يخالفُ أوامرَهُ، ويعادي رسولَهُ ﷺ، وهو الظّاهرُ؛ لأنَّ علماءَ الوقفِ ذكروا أنَّ الوقوفَ على الاسمِ الجليلِ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، هو وقفٌ حسنٌ أو مطلقٌ، أي: يحسنُ الابتداءُ بما بعدَهُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

مجازاةُ الشَّرِّ بالعقابِ من وعدِ اللهِ المرسَّخِ في الكتابِ

لّما كانَ العقابُ لا يكونُ إلّا مجازاةً على أمرٍ، وكان لا يُستعمل إلّا في الشَّرِّ؛ عُبِّرَ بـ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، دون أن يقولَ: (شديد العذاب)؛ لمناسبةِ المقامِ، ففيهِ إيذانٌ بسوءِ عاقبةِ أعمالِهم، وأنَّ الَّذي عملوهُ من معاداتِهم رسولَ اللّهِ ﷺ، ومسيرِهم للقتال، وقتالِهم المؤمنين، هو من الشَّرِّ، وأنَّ ثمرةَ هذه الأعمالِ ستعقبُهم وتلحقُهم، ولا يفوتُ منها شيءٌ، وأنَّ اللّه تعالى، هو المتعقِّبُ لهذهِ الأعمالِ المتقدِّمةِ، وسيجازيهم عليها سوءًا، وفيه تنبيهٌ أنَّ العقابَ يُرتكبُ بالجرائمِ، لا قبلَ أدائِها[2].

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/410، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب)، والرّاغب، تفسير الرّاغب، ص: 93.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَكَصَ ورَجَعَ وفرَّ:

النُّكوصُ لا الفرارُ: إحجامٌ بعد إقدامٍ، والرُّجوعُ: عودٌ على ما منهُ البَدءُ

وردَ في الآيةِ السّابقةِ قولُهُ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾، ولم يقل: (رجعَ على عقبيهِ)، ولا (فرَّ على عقبيهِ)، لمناسبةِ لفظِ ﴿نَكَصَ﴾ للسّياقِ، فإنَّ النُّكوصَ هو إحجامٌ عن الأمرِ، بعدَ تقدُّمٍ لهُ، خوفًا ورهبةً، ممّا يلاقيهِ إن استمرَّ بالإقدامِ، مع تركِ غيرِه متقدِّمًا، ويكونُ باختيارِ صاحبِهِ من غيرِ قهرٍ، وهو المناسبُ تمامًا، لمعنى الآيةِ وسياقِها، بنكوصِ الشّيطانِ عن المشركينَ يومَ بدرٍ، وأمّا (فرَّ) فهو بمعنى المباعدةِ بخفَّةٍ وسرعةٍ، فيكون فيهِ انكشافٌ لموضعٍ فيهِ اختلاطٌ، وأمّا (رجع)؛ فهو العودُ إلى ما كانَ منه البدءُ، أو تقديرُ البدءِ مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، فهو تحوُّلٌ عن الاتِّجاهِ أو الحالِ إلى عكسِهِ، والرُّجوعُ قد يكون محمودًا، وقد يكونُ مذمومًا، والنُّكوصُ لا يكون إلّا في مقامِ الذَّمِّ[1].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع)، (فرر)، (عقب).

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾ [الأنفال: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اقــتران تـزيين الـشَّـيـطـانِ، بـإرجـافِ الـمـنـافـقـيـنَ، لا يـضـعـفُ المسلمينَ

لمّا استوفى ما كانَ يقطعُ بهِ المشركونَ من قوَّتِهم وضعفِ المسلمين، ممّا هو من أنفسِهم، وممّا هو من تزيينِ الشَّيطانِ؛ أبدلَ منهُ ما كان يقطعُ بهِ أهلُ الجهلِ باللّهِ من هزيمةِ المسلمينَ، لقلَّتِهم عددًا وعُدَّةً ولكثرةِ عددِ المشركين، وعدَّتهم في حقِّهم، فقال: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾[1]، وأيضًا: لمّا ذكر اللّهُ تعالى أنَّ الشَّيطانَ زيَّن للمشركينَ أعمالهم؛ بيَّن أنَّ قولَ المنافقين، وقع في وقتِ تزيين الشَّيطانِ للإرجافِ بفئةِ المسلمين، فيكونُ قد اجتمع عليهم تزيينُ الشَّيطانِ للمشركين أعمالَهم، وقولُ المنافقين ما قالوه، فالمناسبةُ في ذكرِ هذه الآيةِ، عقبَ آيةِ تزيين الشَّيطانِ، هيَ أنَّ كِلا الخَبَرَيْنِ يَتَضَمَّنُ قوَّةَ جَيْشِ الْمُشْرِكينَ، وضَعْفَ جَيْشِ الْمُسْلِمينَ، ويَقينَ أولياءِ الشَّيطان، بأنَّ النَّصْرَ سَيَكونُ لِلْمُشْرِكينَ على الْمُسْلِمينَ، فأفادت (إذ) الاقترانَ الزَّمنيَّ بين التَّزيينِ وقول المنافقين، فيكونُ قَوْلُهم واقِعًا في وقْتِ تَزْيينِ الشَّيطانِ أعْمالَ الْمُشْرِكينَ، ليزيدوا من إضعافِ المسلمين، بما توهَّموهُ، من قلَّة تدبيرِ المسلمين وغرورِهم[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّرَضٌ﴾: يدورُ معنى لفظِ (مرض)، على ما يَخرجُ بهِ الإنسانُ أو الحيوانُ عن حدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شيءٍ كان، فهو خروجٌ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ، وذلك ضربان: مَرَضٌ جسميٌّ، والآخرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/300.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/37.

عبارةٌ عن الرَّذائلِ كالجهلِ، والجبنِ، والبخلِ، والنِّفاقِ، وغيرِها من الرَّذائلِ الخلقيَّة، والمرضُ في القلبِ كلِّه هو الشَّكُّ، وهو مشهورٌ في كلامِ العربِ[1]، والمقصودُ بالمرضِ القلبيِّ هو الشَّكُّ، عبادةُ اللّه على حرفٍ، وعدمُ رسوخِ العقيدةِ في الوجدانِ نظرًا للتَّذبذبِ في الإيمانِ والميلِ إلى الكفرانِ.

2) ﴿غَرَّ﴾: الغَرَرُ: هو الخطرُ الَّذي لا يُدرى أيكونُ أم لا، والغِرُّ: الَّذي لا يَفْطُنُ للشَّرِّ، ويَغْفُلُ عنه، ومنه اغترَرْتُه واستَغْرَرْتُه، أيْ: أتيتُهُ على غِرّةٍ، أي: على غَفْلَةٍ، ورجلٌ غِرٌّ؛ إذا كان ينخدعُ لمن خادعَه، ويقالُ: غَرَّ فلانٌ فلانًا، أي: عَرَّضَهُ للهَلَكَةِ والبَوارِ، أو بمعنى نقصه من الغِرارِ، وهو النُّقْصانُ، أو المعنى: فعَلَ به ما يُشْبِهُ القَتْلَ والذَّبْحَ بغِرارِ الشَّفْرَةِ، أي: حدِّها، والغرورُ كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ، وشهوةٍ وشيطانٍ، كما يطلقُ الغرورُ على الإيقاعِ في المضرَّةِ، بإيهامِ المنفعةِ[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

إنكارُ المعاندين غرورَ المؤمنين بدينِهم، لكن من توكَّلَ على اللهِ كفاهُ

واذكرْ - يارسول اللّه - وقتَ أن قال أهلُ النِّفاقِ والَّذين في قلوبِهم شكٌّ في الإسلام، ممَّن لم يصحَّ يقينهم، لمّا رأوا قلَّةَ المسلمينَ، وكثرةَ عدوِّهم: خدعَ هؤلاءِ المسلمينَ دينُهم، ولم يدرك هؤلاءِ المنافقونَ ومن مَعهم أنَّه من يتوكَّلُ على اللّهِ، ويثقُ بوعدِه، فإنَّ اللّه لن يخذلَهُ؛ لأنَّ اللّه عزيزٌ لا يغلبهُ شيءٌ، ولا يعجزهُ أمرٌ، حكيمٌ في تدبيرِهِ وصنعهِ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ لفظِ ﴿إِذۡ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾، تفيدُ ﴿إِذۡ﴾ هنا عظمَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مرض)، وينظر: الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/99، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/326.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 270.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/12 - 15، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 183.

القولِ الَّذي قالَهُ المنافقونَ، والَّذين في قلوبهم مرضٌ، للتَّنبيهِ على عظمِ قولِهم في ذلكَ الوقتِ بحيثُ يستحقُّ أن يكونَ القولُ الَّذي قالوهُ مثلًا للذِّكرى والتَّدبُّر والعظةِ، فإنَّ تعظيمَ الظَّرفِ، إشعارٌ بعظمِ مظروفِه، والكلامُ المصدَّرُ بلفظِ (إذ)، موجَّهٌ إلى مخاطَبٍ معيَّنٍ، أو مخاطبينَ مُعيَّنينَ لِلتَّذكيرِ بأمرٍ مُهمٍّ قدْ حَصَل.

تعظيمُ الظَّرفِ إشعارٌ بعظمِ مظروفِه

بلاغةُ التَّعريضِ بذكرِ قولِ المنافقين:

ذُكِرَ قولُ المنافقينَ؛ للتَّعريضِ بعظمِ منزلةِ الدّين وخطيرِ قدرِه في قلوبِ المؤمنين الذين قاتلوا مع رسولِ اللّهِ ﷺ وذلك أنَّهم بذلوا أنفسَهم للهلاكِ؛ لخروجِهم لقتالِ عدوِّهم مع ضعفِهم وقلَّةِ عددِهم، وكثرةِ أعدائِهم وقوَّتِهم؛ رجاءَ أن يسلمَ لهم دينُهم، فذكرهُ اللّهُ تعالى لنا لنعرفَ عظيمَ محلِّ الدّين في قلوبهم؛ ليكونَ محلُّ الدّين في قلوبنا على مثل قدرِه في قلوبِ صحابةِ رسولِ اللّهِ ﷺ[1].

تعظيمُ قدرِ الدِّينِ عندَ المؤمنينَ؛ إذ بذلوا أنفسَهم لأجلِه

دلالةُ لازمِ الفائدةِ من قولِ المنافقين:

فائدةُ القولِ هو معنى منطوقِه المذكورِ، ولازمُ الفائدةِ هنا إثباتُ رسالةِ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّهم إنَّما قالوا ذلك سرًّا فيما بينهم، فأطْلَعَ اللّهُ رسولَهُ على ذلكَ؛ ليعلمَ أنَّهُ عرفَ ذلك باللّهِ[2]، "والإشارةُ بقولِه تعالى: (هؤلاء) إلى المسلمينَ، وإنَّما قالوا هذا؛ لأنَّهم رأوا قلَّةَ المسلمين، فلم يشكّوا في أنَّ قريشًا تَغلِبُهم"[3].

قد ينتصرُ أهلُ الإيمانِ - وإن كانوا قلَّةً - ضدَّ الطُّغيانِ

دلالةُ الفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

لمّا كانَ ظرفُ الزَّمانِ (إذْ)، لِما مضى، فيقترنُ في الأصلِ بالفعلِ الماضي، لفظًا أو معنًى، كانَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ هنا؛ للإشعارِ بأنَّ قولَهم كان متَّصِلًا بالزَّمنِ الماضي مع استمرارِه وتجدُّدِه كلَّ

تفيدُ صيغةُ المضارعِ تَجدُّدَ بشاعةِ قولِهم معَ الاستمرارِ والاستحضارِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/237.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 5/237.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/217.

وقتٍ، لما لهم فيهِ من الرَّغبةِ[1]، وأنَّ هذا كان شأنَهم وديدنَهم، كما يفيدُ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ استحضارَ صورةِ قولِهم البشعةِ.

دلالةُ القولِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

التَّعبيرُ بلسانِ الحالِ مجازٌ يبيِّنُ بلاغةَ الإعجازِ

القولُ هنا مستعملٌ في حقيقتهِ ومجازِهِ، فالمنافقونَ يقولونَ ذلك حقيقةً بألسنتِهم، أمامَ أمثالِهم من المنافقينَ، والَّذين في قلوبِهم مرضٌ، يقولون ذلك في أنفسِهم، وبلسانِ حالِهم من خلالِ تعامِلهم مع المؤمنينَ[2]، وما يقالُ بلسانِ الحالِ، لا يكونُ إلّا مجازًا، والتَّعبيرُ بالمجازِ لا يقلُّ أهمّيَّةً عن التَّعبيرِ بالحقيقةِ، وهو من مأنوس الاستعمالِ المتوخَّى عادةً في مثلِ هذه الأحوالِ.

مناسبةُ العطفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

العطفُ يقتضي التَّغايرَ بالذّاتِ أو بالوصفِ

لمّا كانَ العطفُ يقتضي المغايرةَ بين المعاطيفِ؛ دلَّ هنا في قولهِ: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على تغايرِ المعطوفين، فإمّا أن يكونَ بتغايرِ الذّاتين، أي: التَّغايرُ بالشَّخصِ، فيكونُ المرادُ من المنافقينَ الَّذين أظهروا الإيمانَ، وأبطنوا الكفرَ، والمرادُ من ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الَّذين لم يطمئنّوا إلى الإيمانِ بعدُ، وبقيتْ في قلوبِهم شبهةٌ، فليسوا بثابتي الأقدامِ في الإسلامِ، وإمّا أن يكونَ بتغايرِ الوصفين، فيكونُ واحدًا بالشَّخصِ، وله وصفان، فكشفَهما اللّهُ تعالى، والمعنى: وإذ يقولُ الَّذين جمعوا بين الوصفين: النِّفاقِ والشَّكِّ في الإيمانِ، ووردَ هذا الوجهُ في القرآنِ الكريمِ، حينَ ذكرَ اللّهُ المؤمنينَ بوصفين في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3]، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: 4]، وهما واحدٌ، ويحتملُ أن يكونَ من عطف العامِّ على الخاصِّ، تأكيدًا وتقريرًا لكشفِ ما يقوله المنافقونَ، فإنَّ من في قلبهِ مرضٌ، أعمُّ من المنافق،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/299.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

والمَرَضُ أعَمُّ مِنَ النِّفاقِ؛ إذْ يُطْلَقُ مَرَضُ القلبِ على الكفرِ، وعلى الاعتراضِ الَّذي فيه شبهةٌ وعلى ما بينهما[1].

دلالةُ الموصولِ وصلتِهِ:

النِّفاقُ ومرضُ القلبِ، سببانِ للاستهزاءِ بالمسلمين

في قولِهِ تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، عُدِلَ عنِ التَّصريحِ بالاسمِ، ولم يقل: (ويقول أهلُ النِّفاقِ ومرضى القلوب)، فذُكِرَ الصِّنفانِ عن طريقِ الموصولِ وصلتِهِ، لما تشعرُ بِهِ جملةُ الصِّلةِ، من معنى مفهومٍ عندَ المخاطبينَ، فإنَّ لفظَ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ بتقديرِ الَّذين ينافقونَ، لِما تدلُّ عليهِ (أل) المقترنة بالوصفِ على الموصوليَّةِ، ووجهُ مجيءِ الموصولِ وصلتِهِ في الموضعين، هو الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ قولِهم الَّذي قالوه، وأنَّ سببه هو نفاقُهم، وما في قلوبِهم من المرضِ والشُّبهة، كما أنَّ فيه زيادةَ تقريرٍ لنفاقِ الصِّنفِ الأوَّلِ، ومرضِ قلوبِ الصِّنفِ الثّاني، وفيه كذلك تعريضٌ بإهانتِهم لوصفِهم بهذين الوصفين[2].

بلاغةُ تقديمِ المسندِ على المسندِ إليه:

مرضُ الشُّبهاتِ أشدُّ فتكًا من مرضِ الشَّهواتِ

في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، قُدِّمَ المسندُ ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ على المسندِ إليهِ ﴿مَّرَضٌ﴾ للاهتمام؛ لأنَّ القلوبَ هي محلُّ الشُّبهةِ والشَّكِّ، فلما كانَ المسؤولُ عنهُ، هو متعلَّقُها، كان هو المهتمَّ بهِ في الكلامِ، والمعنى: "الَّذين لم تطمئنَّ قلوبُهم بالإيمانِ بعدُ، وبقيَ فيها نوعُ شبهةٍ، وقيل: هم المشركونَ، وقيل: هم المنافقونَ في المدينة"[3].

(1) مكي بن أبي طالب، الهداية: 4/2846، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/335، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/104.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 184.

(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2846، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/335، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/104.

بلاغةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

مَـرضَى القلـوبِ خطرٌ على الأمَّةِ في الـظُّـروفِ المدلهمَّةِ

في قولِه تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أفادَ التَّنكيرُ تعظيمَ المرضِ الَّذي في صدورِهم، وتهويلَه، فكانَ منهُ صدورُ قولِهم الَّذي قالوه، فأمّا ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ففيهم ثلاثةُ أقوالٍ: "أحدُها: أنَّهم قومٌ كانوا قد تكلَّموا بالإسلامِ بمكَّة، فأخرجَهم المشركونَ معهم يومَ بدرٍ كُرهًا، فلمّا رأوا قلَّةَ المسلمين، وكثرةَ المشركين، ارتابوا ونافقوا. والثّاني: أنَّهم المشركونَ، لمّا رأوا قلَّة المسلمين، قالوا: ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ﴾. والثّالث: أنَّهم قومٌ مرتابونَ، لم يظهروا عداوةَ النَّبيِّ ﷺ"[1]، وأيًّا كان المعنى من الثّلاثةِ، فإنَّ التَّنكيرَ، يبقى له أثرهُ في تبريزِ تعظيمِ المرضِ وتبشيعهِ.

بلاغةُ المجازِ:

دلالةُ الخبرِ عن قلوبِهم مجزئٌ عن التَّصريحِ باعتقادِهم

في قولِه تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، عبَّرَ بذكرِ القلوبِ عن معتقدِهم الفاسدِ؛ إذ القلوبُ محلُّه، فإنَّه لمّا كان معلومًا بالخبرِ عن مرض القلب، أنَّه معنيٌّ به مرضُ ما هم معتقدوه من الاعتقادِ الفاسدِ، استغنى بالخبرِ عن القلبِ بذلك، والكفايةُ عن تصريحِ الخبرِ عن ضمائرِهم، واعتقاداتِهم، فاجتزأ بدلالةِ الخبرِ عن قلوبِهم على معناهُ عن تصريحِ الخبرِ عن اعتقادِهم ليلزَمَ منهُ شكُّهم في دينِهم[2].

أثرُ التَّعبيرِ بالمجازِ في قولِه: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

المــــرضُ في الـقـلـوبِ شَـكٌّ في الاعـتـقـادِ، وضــعــفٌ في الدّينِ

لمّا كان المرضُ حقيقةً، هو فيما يعرضُ للبدنِ، فيخرجهُ عن الاعتدالِ الخاصِّ به، ويوجبُ الخللَ في أفعالِه؛ عُبِّرَ به هنا على طريقِ المجازِ بمعنى: الشَّكِّ أو ضعفِ الإيمانِ أو سوءِ الاعتقادِ، ممّا هو فسادٌ وآفةٌ شبيهةٌ بالمرض، للإيذانِ بأنَّ الصِّحَّة في الإيمانِ باللهِ وبرسولِه،

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/217.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/279، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539.

وفي عبادتهِ سبحانه والامتثالِ لأوامرهِ، واجتنابِ نواهيهِ، وأنَّ المرضَ في ما هم فيه من الشُّبهةِ والشَّكِّ، وسوءِ الاعتقادِ، وسوءِ الأعمالِ، وأنَ شكَّهم يزيدُ كما يزيدُ المرض[1]، كما أفادَ التَّعبيرُ بالمرضِ أنَّه صار وصفًا قارًّا، كما أنَّه إذا أصابَ القلبَ، تأثَّر بهِ الجسدُ كلُّهُ، وفيه كذلك إشعارٌ بسوءِ عاقبةِ شكِّهم عليهم، كما أنَّ المرضَ كذلكَ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

لا تزيدُ أقاويلُ الباطلِ المؤمنينَ إلّا رسوخًا وثباتًا

في قولهِ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، لفظُ (غرَّ) هنا مستعارٌ؛ إذ شبَّهَ المنافقونَ والَّذين في قلوبهم مرضٌ: الدّينَ - وهو الإسلامُ - بالغررِ، أي: في مظهرٍ محبوبٍ، وهو في العاقبةِ مكروهٌ، كما أنَّ في قولِهم تعريضًا بالمسلمينَ، أنَّهم مغفَّلونَ منخدِعونَ بالإسلامِ، لاغترارِهم بهِ، لتشويهِ الحقيقةِ، وليبثّوا روحَ الانهزامِ والفرارِ في قلوبِ المسلمين، فيضعفوا عند ملاقاةِ المشركين، أو يرجعوا، فلا يقاتلوا، وإسنادُهم فعلَ الغرورِ إلى الدّينِ، باعتبارِ ما في القرآنِ من الوعدِ بالنَّصرِ، أي: غرَّهم ذلك، فخرجوا، وهم عددٌ قليلٌ، للقاءِ جيشٍ كثيرٍ، والمعنى: إذ يقولونَ ذلك عند اللِّقاءِ، وقبل حصولِ النَّصرِ، فإطلاقُ الغرورِ هنا استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وإسنادهُ إلى الدّينِ حقيقةٌ عقليَّةٌ[2].

دلالةُ اسمِ الإشارةِ:

مَن أعزَّهُ اللهُ بنصرِهِ، لا يضرُّهُ تطاولٌ ولا استحقارٌ

في قولهِ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ، ولم يُذكرِ المسلمونَ بوصفِ الإسلامِ؛ لأنَّ المنافقينَ - ومن معهم - قصدوا كمالَ العنايةِ بتمييزِ المسلمين - الَّذين قالوا فيهم هذه المقولةَ - أكملَ تمييزٍ، وجاءَ على صيغةِ القريبِ؛ لأنَّهم قصدوا تحقيرَهم لقلَّتِهم، واسترذالَهم لضعفِهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/59، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

مَـن تـكُـنْ باللهِ نـصـرتُـهُ؛ فلا غالبَ لـهُ بقولٍ ولا قتالٍ

فائدةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

في قولِه تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، قُدِّمَ المفعولُ به ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على الفاعل ﴿دِينُهُمۡۗ﴾؛ لتخصيصهم بالاغترارِ بدينِهم، وللاهتمام بهم؛ لأنَّهم هم المقصودونَ في الكلامِ، ولم يَدُرْ في خَلَدِ هؤلاءِ المغرورين أنَّ هذه الفئةَ القليلةَ، سوف تستأصلُ شأفتَهم، وتذيقُهم مرارةَ الهزيمةِ والاندحارِ.

محاربةُ الدّيـنِ بالقولِ والفعلِ ضـلالـةٌ وسـوءُ تقديرٍ

دلالةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿دِينُهُمۡۗ﴾:

في قوله تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، أفادتِ الإضافةُ هنا تخصيصَ الدّين الَّذي يدينُ به المسلمونَ بهم، أي: إنَّه ملَّةٌ خاصَّةٌ بهم، ففيه إشعارٌ بأنَّهم لا يدينونَ بالإسلامِ، أو هم في شَكٍّ منه، وديدنُ المشكِّكين أن ينفوا عن هذا الدّينِ صدقيَّتَهُ، ويكونُ ذلك التَّكذيبُ مطعنًا في أهلِهِ واعتقادِهم حتَّى يسهلَ عليهم نسفُ الحقائقِ، والإقناع بالأباطيل.

دَأبُ المسلمينَ التَّوكُّلُ على اللهِ لا الغرورُ

دلالةُ قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

وردتْ هذهِ الجملةُ استئنافًا على طريقِ الإخبارِ؛ لتكونَ جوابًا لهم من جهتِه تعالى، وردًّا لمقالتِهم[1]، فإنَّهُ تعالى كما أخبرَ عنهم بقولِهم الَّذي قالوهُ، أخبرَ عن جوابه وردِّه على مقالتِهم، فهي من جملةِ الأخبارِ المسوقةِ لبيانِ عنايةِ اللّه تعالى بالمسلمين، وللامتنانِ عليهم، فالمناسبةُ بينها وبين الجملةِ الَّتي قبلها: أنَّ الاستئنافَ فيها بمنزلةِ العلَّةِ لخيبةِ ظنونِ المنافقين ونصرائِهم، أي: إنَّ اللّه خيَّبَ ظنونهم، فالمسلمون يتوكَّلونَ على اللّه، في لِقاءِ عَدوِّهم، وليسوا مغترّينَ بدينِهم، كما قالوا عنهم[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

بلاغةُ الجملةِ الشَّرطيّةِ في قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

أفاد الأسلوبُ الشَّرطيّ إرادة العمومِ، لتذهبَ النَّفسُ في تقديرِه كلَّ مذهبٍ

لمّا كان الشَّرطُ على معنى تعليقِ الجوابِ بالشَّرطِ، وكانَ الجوابُ هنا محذوفًا؛ إذ ذكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ، وهو عزَّةُ المتوكِّل على اللّه، وإلفائهِ منجيًا من مضيقِ أمرِه، فهو كنايةٌ عنِ الجوابِ، وليسَ الجوابَ، وهو من وجوهِ البيانِ، وكثيرُ الوقوعِ في القرآن[1]؛ ومناسبةُ ذكرِ الملزومِ، وإرادة اللّازمِ انتفاءُ الملازمةِ بينهما بوعدِ اللّهِ الَّذي لا يتخلّفُ، كما أنَّه يفيدُ العمومَ؛ لتذهب النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ في التَّقدير، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك؛ دلَّ على مناسبتِه كلّ ظرفٍ يقتضيه مقامُ المخاطبين، ويدخلُ فيه المسلمونَ الَّذين قاتلوا المشركينَ بتوكُّلهم على اللّهِ في قتالِهم، دخولًا أوّليًّا، فكانَ الجزاءُ عزَّةَ المسلمينَ ونصرَهم على عدوِّهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

الحثُّ على استمرارِ التَّوكُّلِ وتجدُّدِه، بعمومِ الأزمنةِ والأمكنةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أفادَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ الحثَّ على استمرارِ التَّوكُّلِ على اللّهِ، وتجدُّدِه بعمومِ الأزمنةِ والأمكنةِ؛ لأنَّ سياقَ ورودِ الجملةِ كانَ للدَّلالةِ على أنَّ المسلمينَ، توكّلوا على اللّهِ في وقت قتالِهم المشركين يومَ بدرٍ، وفي ذلك المكانِ، فلمّا حذف متعلَّق الفعلِ؛ دلَّ على العمومِ.

فائدةُ تخصيصِ التَّوكُّلِ بقولِه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

تحصيلُ الجزاءِ الأوفى، مرتبطٌ بالتَّوكُّلِ على اللهِ الأعلى

لمّا جاءَ فعلُ الشَّرطِ ومتعلَّقُهُ (على اللّه)، في سياقِ الشَّرطِ، وكان الشَّرطُ قيدًا للجملة؛ دلَّ على تخصيصِ أن يكونَ التَّوكُّلُ على اللّهِ وحدَهُ، لا على غيرِه، ولمّا كان الجزاءُ على معنى اقترانه بالشَّرطِ؛ دلَّ على أنَّه لا يتحقَّق إلّا بحصولِ الشَّرطِ، أي: التَّوكُّل على اللّهِ وحدَهُ، لا على غيرِه، والمعنى من يتوكَّل على اللّهِ وحدَهُ دونَ غيرِه، فإنَّ الجزاءَ واقعٌ وهو ثابتٌ لا يتغيَّرُ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/39.

دلالةُ مجيءِ الجملةِ الفعليّةِ خبرًا لأداةِ الشَّرطِ:

مَن توكَّلَ على اللّـهِ؛ حماه المولى، وكانَ بها أولى

في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ﴾، أفادَ مجيءُ الجملةِ الفعليَّةِ ﴿يَتَوَكَّلۡ﴾، خبرًا تقوّي حُكْمَ مضمونِ الجملةِ بنفسِ التَّركيبِ، لعظمِ الشَّرطِ والجزاءِ، ففيهِ معنى التَّقرير والتَّأكيد[1]، وقد "أخبرَ اللّهُ ﷻ بأنَّ من توكَّلَ على اللّهِ، واستندَ إليه، فإنَّ عزَّةَ اللّه تعالى وحكمتَهُ، كفيلةٌ بنصرهِ، وشدِّ أعضادهِ"[2].

دلالةُ (الفاء) في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

من توكَّلَ على اللهِ؛ اطمأنَّ إلى كنفهِ وحماهُ

أفادتِ الفاءُ الواقعةُ في جواب الشَّرطِ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، اقترانَ الجزاءِ بالشَّرطِ، بأن يكونَ عقبَهُ من غيرِ مهلةٍ، وفي ذلك ترهيبٌ بعزَّةِ اللّهِ لمن لم يتوكَّلْ على اللّهِ، وتذكيرٌ بحكمته لمن توكَّلَ عليهِ، وأسلمَ له القيادَ، وعلم أنَّهُ الملجأُ في الكروبِ، والمنجى عند احتدامِ الخطوبِ.

تتابعُ التَّأكيدِ:

دلالةُ المؤكّداتِ على إبرازِ النَّصرِ للمؤمنين، وتأكيدِ الخيبةِ للكافرين

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، جاءَ تأكيدُ جملةِ الجزاءِ بتأكيدينِ، هما الأداةُ (إنَّ)، ومجيءُ الجملةِ اسميَّةً، دالَّةً على ثبوت اتِّصافِ اللّهِ بالوصفين الجليلين، فيفيدُ التَّأكيدُ زيادةً في تقريرِ مضمونِ الجملةِ: للمؤمنين، فيستبشرون، وللكافرين فيعلمون أنَّ اللّه ناصرُ المؤمنينَ، فيخيبونَ.

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ:

لإظهارِ اسمِ الجلالةِ من التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، ما ليس للضَّميرِ

كان الظّاهرُ أن يقولَ: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللّه فإنَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ)، لقربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، فعدلَ عن الكلامِ بوضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ، لتربيةِ المهابةِ بتقريرِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، ولزيادةِ تمكينه، أي: تقريره، وتثبيته في ذهنِ السّامعِ حتَّى يكونَ مستحضرًا لا يزولُ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539.

عن البالِ؛ لأنَّ في إظهارِ الاسمِ الجليلِ من التَّفخيمِ والتَّعظيمِ ما ليس في الضَّمير، والمقام يقتضيه، لتقويةِ داعيةِ التَّوكُّلِ على اللّهِ تعالى(1).

حسنُ التَّذييلِ:

بـلاغـةُ جـريـانِ الجملةِ مجرى المثلِ في التَّوكُّلِ على اللهِ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، أفادتْ جملةُ التَّذييلِ أنَّه لمّا كانت جملةُ الشَّرطِ على معنى العموم، لشمولِ اسم الشَّرطِ (من) كلَّ العقلاءِ ولِعموم الجزاءِ - كما تقدَّمَ - دلَّ على أنَّها بمنزلةِ المثلِ في جريانها في الكلام، لتشملَ كلَّ من يتوكَّلُ على اللّهِ في أعمالِه، وأنَّ فيها حثًّا للمؤمنين جميعًا على التَّوكُّلِ على اللّهِ، لِما ذكره من عظم الجزاءِ الذي لا يتخلَّفُ.

مناسبةُ مجيءِ وصفي ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ في الآية:

من تـوكَّـلَ على اللهِ وإنْ ضعفَ؛ لا يغالَبُ بقوَّةٍ وإن عظمت

لمّا جاءَ الكلامُ في سياقِ قتالِ الفئةِ المؤمنةِ القليلةِ العددِ والعدَّةِ، للفئةِ الكافرةِ الكثيرةِ العددِ والعدَّةِ، وكان الشَّرطُ في بيانِ جزاءِ الَّذي يتوكَّلُ على اللّهِ؛ ناسبهُ ذكرُ الوصفين (عزيزٌ حكيمٌ) في الجزاءِ، فاللّهُ تعالى عَزيزٌ غالبٌ، لا يذلُّ من توكَّل عليه، واستجارَ به، وإنْ قلَّ، ولا يغالَبُ بقوَّةٍ وإن كثرت، فمن تمسَّكَ بالاعتمادِ عليه نصرَهُ؛ لأنَّهُ حَكيمٌ، يفعل بحكمتِه البالغةِ، ما تستبعدُهُ العقولُ، وتحار في فهمه ألبابُ الفحولِ، ويَضَعُ الأشياءَ مَواضِعَها، ويضعُ أسبابَ النَّصرِ من حيثُ يجهلُها البشرُ، كما أنَّ حكمتَهُ تقتضي نصرَ أوليائِه(2).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المنافقون، والذين في قلوبهم مرض:

النِّـفـاقُ إبطانُ الـكـفـرِ وإظـهـارُ الإسلامِ، والمرضُ اختلالٌ في صحة الإنسانِ

وردَ ذكرُ المرض مقرونًا بالنِّفاقِ، وورد منفردًا، فقالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ

(1) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/266 - 267.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

﴿إِلَّا غُرُورًا ١٢﴾ [الأحزاب: 12]، وقال تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠﴾ [الأحزاب: 60]، وقال تعالى حكايةً عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البقرة: 10]، وقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 52]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: 125]، ومجيءُ المرضِ معطوفًا على النِّفاق، يقتضي تغايرهُ، فالنِّفاقُ: هو إبطانُ الكفرِ وإظهارُ الإسلام، والمرضُ: هو الخروجُ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ، وهو نوعانِ: أحدُهما: جسميٌّ، وهو فتورُ الأعضاء، بأن يكونَ فيها خللٌ، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [النّور: 61]، والثّاني: عبارةٌ عن الرَّذائلِ كالجهلِ، والجبنِ، والبخلِ، والنِّفاقِ، وغيرِها من الرَّذائلِ الخُلقيَّةِ، نحو قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: 10]، ويشبَّهُ النِّفاقَ والكفرَ وحبَّ الفاحشةِ والسَّيرَ وراءها، ونحو ذلك مِنَ الرَّذائلِ: بالمرضِ؛ لأنَّ المرضَ أعمُّ منها من حيثُ المعنى، وأيضًا إمّا لكونِها مانعةً عن إدراكِ الفضائلِ، كالمرضِ المانعِ للبدنِ عن التَّصرُّفِ الكاملِ، وإمّا لكونِها مانعةً عن تحصيلِ الحياةِ الأخرويَّةِ المذكورةِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وإمّا لميلِ النَّفسِ بها إلى الاعتقاداتِ الرَّديئةِ، كميلِ البدنِ المريضِ إلى الأشياءِ المضرَّةِ[1]، ويقالُ: أصلُ المرضِ الفتورُ، فهو في القلبِ فتورٌ عن الحقِّ، وفي الأبدانِ فتورُ الأعضاءِ، وفي العيونِ فتورُ النَّظرِ[2]، واستُعمِلَ المرضُ في القرآنِ بمعنى الكفرِ والنِّفاقِ، والشَّكِّ والرِّيبةِ، وضعفِ الجسدِ، وضعفِ الإيمان، والشَّهوةِ والميلِ إلى النِّساءِ، والسِّياقُ هو الذي يعيِّنُ المرادَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (مرض).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/85، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 50.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: 50 - 51]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

العلاقةُ بين أعداءِ المؤمنين في الدُّنيا، ومصيرِهم في عذابِ النّارِ في الآخرة

لمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى أحوالَ أعداءِ المؤمنينَ، المجاهرينَ والمتستِّرينَ في الدُّنيا؛ بيَّنَ أحوالَ موتِهم والعذابَ الَّذي يصلُ إليهم في ذلك الوقتِ[1]، ولمّا عذَّبوهم قولًا وفعلًا؛ علَّلوا لهم ذلكَ بقولِهم زيادةً في تأسيفِهم وتوبيخِهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وأيضًا لما وُفِّيَ وصفُ حالِ المشركين، وفُصِّلَت أحوالُ هزيمتِهم ببدرٍ، وكيف أمكنَ اللّهُ منهم المسلمين على ضعفِ هؤلاء، وقوَّةِ أولئك، بما شاهدَهُ كلُّ حاضرٍ، حتَّى ليوقنَ السّامعُ أنَّ ما نالَ المشركين يومئذٍ، إنَّما هو خذلانٌ من اللّهِ إيّاهم، وإيذانٌ بأنَّهم لاقونَ هلاكَهم ما داموا مناوئين للّهِ ورسولهِ؛ انتقلَ إلى وصفِ ما لقيَهُ من العذابِ مَن قُتِلَ منهم يومَ بدرٍ، ممّا هو مغيَّبٌ عن النّاس، ليعلمَ المؤمنون، ويرتدعَ الكافرونَ، والمرادُ بالَّذين كفروا هنا الَّذين قُتِلوا يومَ بدرٍ، وتكون هذه الآيةُ من تمامِ الخبرِ، عن قومِ بدرٍ، ثمَّ أعقبَهُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، لقصدِ التَّنكيلِ والتَّشفّي[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّى﴾: يدورُ معنى (وفي)، على إكْمالٍ وإتْمامٍ، ومنه الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، والوافي: الَّذي بلغَ التَّمامَ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/493.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/39.

وتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ: بذلته تامًّا، واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخذتُهُ كُلَّهُ، حتَّى لم تَتْرُكْ منه شَيْئًا، ومنه يُقالُ لِلْمَيِّت: تَوَفّاهُ الله، وقد وفَى الشَّيْءُ بنَفْسِه يَفي؛ إذا تَمَّ، وقد عبَّرَ عن الموتِ النَّومِ بالتَّوَفّي؛ وإذا أطلقَ اللَّفظَ، فقيلَ: وفاةٌ، فيُقصدُ بهِ الموتُ، والتَّوفّي هنا: استيفاءُ الأرواحِ، أي: استعادةُ اللّه تعالى إيّاها[1].

2) ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: الدُّبُرُ خِلافُ القُبُلِ، ودُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ: عَقِبُهُ ومُؤَخَّرُهُ، وجَمْعُهُما: أَدْبارٌ، ودَبَرَ النَّهارُ وأَدْبَرَ، وذلك إذا جاءَ آخِرُهُ، وهو دُبُرُهُ، وقطَعَ اللّه دابِرَهُم، أيْ: آخِرَ مَنْ بَقيَ منهم، وقولُهُ تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، أي: وجوهَهم وخلفهم[2]، قال الكسائيُّ: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطّور: 49]؛ لأنَّ لها دبرًا واحدًا في وقتِ السَّحرِ، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: 40]؛ لأنَّ مع كلِّ سجدةٍ أدبارًا، ودابرُ الشَّيءِ: آخرُهُ، وفي التَّنزيلِ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: 45]، أي: استؤصِلَ آخرُهم، ودابرةُ الشَّيءِ، كدابرِه، وجاء دبريًّا: أي: أخيرًا، وفلانٌ (لا يصلّي الصَّلاةَ إلّا دبريًّا)، أي: أخيرًا[3].

3) ﴿وَذُوقُوا۟﴾: ذاقه ذوقًا، اختبرَ طعمهُ وأصلَهُ، فيما يقلُّ تناولُهُ، "فإنَّ ما يكثُرُ من ذلكَ، يقالُ له: الأكلُ، وأذقتُهُ أنا إذاقةً، وفي البصائرِ والمفرداتِ: اختيرَ في القرآنِ لفظُ الذَّوقِ للعذابِ؛ لأنَّ ذلك، وإن كانَ في التَّعارُفِ للقليل، فهو مستصلحٌ للكثيرِ، فخصَّهُ بالذِّكرِ، ليعلمَ الأمرين، وكثرَ استعمالُهُ في العذابِ، وقد جاءَ في الرَّحمةِ نحو قولهِ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [فصّلت: 50]"[4]، والذَّوقُ: مباشرةُ الحاسَّةِ الظّاهرةِ، أو الباطنةِ، ولا يختصُّ ذلك بحاسَّةِ الفمِ في لغةِ القرآنِ، ولا في لغةِ العربِ، قالَ تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وقالَ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [ص: 57][5].

4) ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: الحرْقُ: حَكُّ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ، معَ حَرارَةٍ والتِهابٍ، والمعنى المحوريُّ: الَّذي تدلُّ عليه هذه المادَّة: تحويلٌ حادٌّ أو بالغٌ، ينالُ مادَّةَ الشَّيءِ وحقيقتَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وفي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دبر)، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 9/311.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/326.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/326.

كالنّارِ، وهي تُفني حقيقةَ ما تُحرقُهُ، وتحوِّلُهُ رمادًا[1]، والمعنى: لهم عذابٌ بكفرِهم، وعذابٌ بإحراقِهم المؤمنينَ، و"التَّحريقُ: تأثيرُ النّارِ في الشَّيء، وفي الحديثِ: (الحَرِقُ شهيدٌ)، هو بكسرِ الرّاءِ: الَّذي يقعُ في النّارِ، فيلتهبُ"[2]، والحريقُ صفةٌ للنّارِ، يرادُ أنَّها محرقةٌ، والمرادُ بِهِ هنا، هو عذابُ جهنَّمَ، والعياذُ باللّه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ توفّي أرواحِ الكافرينَ معَ عذابٍ مؤلمٍ مهينٍ، بما قدَّمَت أيديهم

ولو تُعاينُ - يا رسولَ اللّهِ - حينَ يتوفَّى الملائكةُ أرواحَ الكفّارِ، فتنزعُها من أجسادِهم، تضربُ الوجوهَ منهم والأدبارَ، ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ النّارِ الَّتي تحرقُكم يومَ ورودِكم جهنَّم، هذا العذابُ لكم بما كسبت أيديكم، من الآثام والمعاصي أيّام حياتِكم، فذوقوا اليومَ العذابَ، وفي معادكم عذابُ الحريق، ذلك الجزاءُ الَّذي أصابَكم بسببِ أعمالِكم السَّيِّئة في حياتِكم الدُّنيا، وبسببِ أنَّ اللّه لا يظلمُ أحدًا من خَلْقِه، فيجزي المحسنُ بإحسانِه، ويجزي المسيءَ بإساءتِه، فلا يعذِّبُ بغيرِ ذنبٍ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الشَّرطِ في الآية:

يجوزُ أن تُخطِئَ المنايا، والخلدُ في الدَّهرِ لا يجوزُ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، لمّا كانت كلمةُ ﴿وَلَوۡ﴾ هنا، لتعليقِ ما امتنعَ بامتناعِ غيرِه، على سبيلِ القطعِ والجزم[4]؛ أفادَ الشَّرطُ امتناعَ الجزاءِ، لامتناعِ الرُّؤيةِ في وقتِ قبضِ أرواحِ الكافرين، ويأتي هذا الأسلوبُ، لبيانِ عظم الجزاءِ، وأنَّهُ كان بحيثُ يصعبُ تصوُّرُهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حرق).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/157.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/15 - 18، ونخبة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 183.
(4) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 246.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَرَىٰٓ﴾ على المفردِ المخاطبِ:

لا تختصُّ الرُّؤيةُ براءٍ دونَ آخرَ؛ إذْ كلُّ راءٍ، لهُ مدخلٌ في الخطابِ

لمّا كانَ حقُّ الخطابِ أن يكونَ معَ مخاطَبٍ معيَّنٍ، وجاء الفعلُ ﴿تَرَىٰٓ﴾ - وهو بمعنى الرُّؤيةِ البصريَّةِ - خطابًا للرَّسولِ ﷺ، وقصدَ بهِ غيرَ المعيَّنِ؛ دلَّ على معنى العمومِ، لصلاحيَّةِ الخطابِ؛ لأن يخاطب به كلُّ أحدٍ، فيدخلُ فيهِ الرَّسولُ ﷺ وغيره؛ قصدًا لتفظيعِ حال الَّذين كفروا، وخاطبَ بهِ الرَّسولَ دونَ غيرِه، لعظمِ الأمرِ، ولعلمِه بصنعِ اللّهِ أكثرَ من غيرِه، وجاءَ بصيغةِ المضارعِ للمخاطبِ، ليكونَ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ، من أنَّ الأصلَ دخولُ (لو)، على الماضي؛ إيذانًا بأنَّ الرُّؤيةَ قد بلغت من الظُّهورِ إلى حيثُ يمتنعُ خفاؤها ألبتَّة، فلا تختصُّ رؤيةُ راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ من يتأتّى منه الرُّؤية، فلهُ مدخلٌ في الخطابِ، ليفيدَ الخطابُ التَّجدُّدَ والتَّكرارَ والاستمرارَ، ونُظِمَ هنا الفعلُ المضارعُ الدّالُّ على المستقبلِ في سلكِ الماضي المقطوعِ به، لصدورِه عمَّن لا خلافَ في أخبارِه، كما أنَّ في مجيءِ الفعلِ المضارعِ إشعارًا باستحضارِ صورةِ الَّذين كفروا، والملائكةُ يتوفّونهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ الحريقِ، تنكيلًا بهم وترويعًا للمخاطبين، لئلّا يكونوا مثلَهم[1].

دلالةُ حذفِ المفعولِ بهِ:

هولُ حالِ الكفرةِ بشدَّةِ سكراتِ الموتِ وأنواعِ الكُرباتِ

في قولِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾، حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَىٰٓ﴾ لإفادةِ العمومِ بمعنى التَّهويلِ والتَّعظيمِ، والتَّقديرُ: (ولو ترى الكفرةَ)، أو (ولو ترى حالَ الكفرةِ حينئذٍ)، ورُجِّحَ كونُ المحذوفِ (حال الكفرة)؛ لأنَّ المقصودَ رؤيةُ حالِهم، من شدَّةِ سكراتِ الموتِ، وأنواعِ الكرباتِ[2].

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 180، 246، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/170، 356، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/105.

تهويلُ تصويرِ وقتِ قبضِ الملائكةِ أرواحَ الَّذين كفروا

دلالةُ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، تفيدُ ﴿إِذْ﴾ هنا تعظيمَ الوقتِ الَّذي تقبضُ فيه الملائكةُ أرواحَ الَّذين كفروا، وتعظيمَ وقتِ الضَّربِ، ووقتِ قولِهم الَّذي يقولونهُ لهم، كما تشعرُ (إذ) بالتَّعليل[1]، فقد أشعرَ الكلامُ من بدايتِه بالتَّهويلِ والتَّفظيعِ، بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، فجاءت ﴿إِذْ﴾ مُعلِّلَةً هذا التَّهويلَ، وكأنَّ المعنى لِمَ هذا التَّهويلُ والتَّعظيمُ؟ فقيلَ: لما يقعُ حينَ تتوفَّى الملائكةُ الَّذين كفروا.

جوابُ (ولو) محذوفٌ للإيذان بخروجِه عن حدودِ البيانِ

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ضربَ الملائكةِ وجوهَ الكفّارِ وأدبارَهم، حين يتوفّونهم، وقولَهم؛ أمرٌ لا يحيطُ به الوصفُ، ولتذهبَ نفسُ السّامعِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، فلا يتصوَّرُ مطلوبًا، ولا مكروهًا، إلّا ويجوزُ أن يكونَ الأمرُ أعظمَ ممّا يتصوَّرُه، ولو ذكرَ الجوابَ هنا، فربَّما خفَّ أمرُهُ عند السّامعِ، فأشعرَ حذفُ الجوابِ أنَّ فظاعةَ الضَّربِ والقول الَّذي قالوهُ لهم، بلغَ مبلغًا، يبهتُ السّامعَ[2]، وتقديرُ الكلامِ للتَّقريبِ: لو عاينتَ وشاهدتَ؛ لرأيتَ أمرًا عظيمًا فظيعًا[3].

حالُ الكافرين في سوءِ العقبى، نقيضُ حالِ أهلِ الإيمانِ والتَّقوى

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَتَوَفَّى﴾ و﴿يَضْرِبُونَ﴾:

لاستحضارِ صورةِ الحالةِ الَّتي يكونونَ عليها، للتَّحذيرِ من أعمالِهم، وليستبشرَ المؤمنون بحالِ إيمانِهم، ويحمدوا اللّٰه على أنَّهم ليسوا مثلَهم، كما يفيدُ المضارعُ تجدُّدَ الحدوثِ وتكرارَهُ، واستمرارَهُ، لكلِّ كافرٍ باللّٰه[4].

دلالةُ الموصولِ وصلتِه:

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، جاءَ الكلامُ على صيغةِ

(1) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 3/282.
(2) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/188، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/593.
(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2847، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/217.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.

المَوصولِ وصلتهِ، لما تفيدُهُ الصِّلَةُ من معنى معلوم الانتساب إلى مشارٍ إليهِ معيَّن، ليدخلَ في المذكورِ كلُّ من يحدثُ الكفرَ أو يتَّصفُ بهِ، كما أفادَ التَّعبيرُ الإيماءَ، إلى أنَّ سببَ نيلِهم العذابَ الفظيعَ المذكورَ، هو كفرُهم[1].

كلُّ منِ اتَّصفَ بالكفرانِ، كانَ مصيرهُ العذابَ والهوانَ

سببُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾:

لم يقلْ: (الَّذينَ كَفَروا باللّه) مثلًا، للإشعارِ بالعموم، فيشملُ من كفرَ باللّهِ وبرسولِه، وباليوم الآخرِ، وكلَّ من كفرَ بما يجبُ الإيمانُ به، وكلُّ فعلٍ يخالفُ شرعَ اللّهِ، ويندُّ عن أمرِه وهداهُ، ممّا نصَّ عليهِ القرآنُ، وبيَّنتهُ سنَّةُ سيِّد عدنانَ، فهو آيلٌ إلى الكفرِ، ولهذا أطلقَ في الآيةِ بعدمِ ورودِ المتعلَّق، ولم يقيِّد المعنى في واحدٍ من فعالِ الكفرِ الكثيرة، حتَّى يتلاءمَ السِّياقُ مع كلِّ الألوانِ من الكفرانِ، إشارةً إلى أنَّ الكفرَ كلَّهُ ذميمٌ.

ارتباطُ شرحِ أحوالِ الكُفّارِ بأحوالِ موتِهم وعذابِهم المخزي المهينِ

دلالةُ الوقفِ والابتداءِ في تنوُّعِ المعنى:

يحتملُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، مفعولًا والفاعل محذوفًا، والتَّقديرُ: (إذ يتوفَّى اللّهُ الَّذين كفروا)، فيكونُ الوقفُ على ﴿كَفَرُواْ﴾، ثمَّ تبتدئُ: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، على الابتداءِ والخبرِ؛ لأنَّ اللّه هو الَّذي يتوفَّى الأنْفُسَ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزُّمَر: 42]، واختارَ النّيسابوريُّ أن يكونَ الوقفُ على (كفروا) ممنوعًا؛ لاختلالِ النَّظمِ وفسادِ المعنى[2]، كما يحتملُ الوقفُ على ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ويكونُ لفظُ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعلًا مؤخَّرًا، ويبتدِئ بـ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ على إضمارِ مبتدأ، أي: (هم يضربون)، والأحسنُ من هذا كلِّه والأولى: الوقفُ على ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، وهو وقفُ التَّمامِ، ويبتدِئ بقولِه: ﴿وَذُوقُواْ﴾ على معنى: ويقولون[3].

التَّوقّي قدرُ اللهِ وأمرُهُ، والملائكةُ منفِّذون للإماتةِ والعذابِ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/409.

(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2848، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.

دلالةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

من حاربَ اللهَ ورسولَهُ؛ آلَ إلى الخزيِ في الدُّنيا، والعذابِ في الآخرةِ

في قولِه تعالى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قُدِّمَ المفعولُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ للاهتمامِ بهِ؛ لأنَّ الحديثَ منصبٌّ على الَّذين كفروا في الأساسِ[1]، "وتقديمُ المفعولِ للاهتمامِ بهِ، وقيل: الفاعلُ ضميرٌ عائدٌ إلى اللّهِ ﷻ، والملائكةُ مبتدأٌ"[2]، فقد خرجَ الكفّارُ على حالٍ من الزَّهوِ والكبرياءِ، وقد آلَ بهم الغرورُ إلى سوءِ المصيرِ، "فهاهُم أولاءِ يتلقّون الصَّفعاتِ على وجوهِهم، والضَّرباتِ على أدبارِهم، كما يُفعَلُ بعبيدِهم وإمائِهم!"، فما أجدت لهم عزَّةٌ، ولا منعتْهُم منعةٌ، ولا نفعتْهُم سطوةٌ، ولا أغنى عنهم جاهٌ، لقد عروا من هذا كلِّه، "ولبسوا ثوبَ الخزي والمهانةِ، ونزلوا إلى أسوأِ ممّا كانَ عليهِ الأرقّاءُ، من عبيدٍ وإماءٍ!"، وتلك سنَّةُ اللّهِ في تأديبِ كلِّ مفسدٍ ومعاندٍ[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ لمعاني الآيةِ الدِّلاليَّةِ:

باختلافِ القراءاتِ القرآنيَّةِ، يتَّسعُ المعنى، وتتنوَّعُ الدِّلالاتُ

في قولِه: ﴿يَتَوَفَّى﴾، جاءتْ قراءةُ ابنِ عامرٍ بتأنيثِ الفعلِ، أي: (تتوفَّى) بالتّاءِ الفوقيَّةِ، وقرأ البقيَّةُ بالياءِ التَّحتيَّةِ[4]، وعلى قراءةِ التَّأنيثِ لا يوقف على ﴿كَفَرُواْ﴾، بل يوقفُ على ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، وهو الأحسنُ - كما تقدَّم - فتكون قراءةُ ابن عامر مقوّيةً لأن يكون ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَتَوَفَّى﴾، وألّا يوقف على ﴿كَفَرُواْ﴾، وأُنِّثَ الفعلُ لتأنيث لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وأمّا الجمهورُ؛ فيروْنَ أنَّ تأنيثَ الملائكةِ، مجازيٌّ وليس حقيقيًّا، هو جمع تكسيرٍ، والفصلُ بين الفعلِ والفاعل يجيزهُ كما هنا؛ إذ فصل بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/102، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/105.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/635.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/277.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.

دلالةُ الجملةِ بين الحاليَّةِ والبدلِ:

ذكرُ الاشتمالِ على الضَّربِ دونَ غيرِه لفظاعتهِ وهولِه

تحتملُ جملةُ ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، أن تكونَ حالًا من الفاعل ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو من الفاعلِ والمفعولِ، لاشتمالِ جملةِ الحالِ، على ضميرينِ راجعينِ إليهما، والتَّقديرُ: (يتوفّى الَّذين كفروا الملائكةُ، حالَ كونِهم يضربونَ وجوهَهم وأدبارَهم)، أي: وقوعُ الضَّربِ في وقتِ التَّوفّي تنكيلًا بهم، كما تحتمل أن تكونَ بدلَ اشتمالٍ، من جملةِ ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1]، بمعنى اشتمالِ التَّوفّي على أنواعٍ من العذابِ، منها الضَّربُ على وجوهِهم وأدبارِهم، وذكْرُ الاشتمال على الضَّربِ دونَ غيرِه لفظاعته وهولِه.

ذكرُ الوجوهِ والأدبارِ بينَ الكنايةِ والمجازِ المرسلِ:

خُصَّتِ الوجوهُ والأدبارُ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الخزيَ في ضَرْبِهما أشدُّ وأقوى

ذكَرَ الوجوهَ والأدبارَ لتعميمِ الضَّربِ الَّذي يقعُ عليهم، بمعنى إيصالِ الألمِ إليهم، بكلِّ ضربٍ، وبكلِّ جهةٍ على معنى الإحاطةِ، فهو من بابِ الكنايةِ؛ لأنَّ الوجوهَ والأدبارَ يُكنَّى بها عن جميعِ البدنِ، وقد يكونُ من بابِ المجازِ المرسلِ، حيثُ أطلقَ الجزءَ، وأرادَ الكلَّ، فذكرَ الوجوهَ والأدبارَ، وأراد الأعضاءَ كلَّها، وإنَّما خصّوهما بالضَّربِ؛ لأنَّ الخزيَ والنَّكالَ في ضربِهما أشدُّه كما أنَّ إيقاعَ الأذى فيهما أقوى[2].

نكتةُ حذفِ القولِ في قولِه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

حذفُ القولَ إيجازًا؛ لانصبابِ الكلامِ على المقولِ

قولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، حذفَ القولَ فيهِ إيجازًا؛ فإن كانَ من قولِ الملائكةِ - وهو الظّاهرُ من السّياقِ - فيكونُ من عطفِ الجملةِ الخبريَّةِ على ما قبلَها، ليجتمعَ عليهم عذابُ الفعلِ، وعذابُ القولِ، والتَّقديرُ: (ويقولونَ: ذوقوا عَذابَ الحَريقِ)[3]، وإن كانَ من قولِ اللّهِ تعالى، فيكونُ التَّقديرُ: (ونقولُ)، وهذا النَّوعُ من الحذفِ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/239، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/63، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/413، وابن جرير، جامع البيان: 13/17.

- أي: حذفُ القولِ - كثيرٌ في القرآن، وهو من الإيجازِ البديع في الكلام، كما في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ [البَقَرَة: 127] أي: ويقولان: رَبَّنا، وقولِه سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ [السَّجۡدَة: 12] أيَ: يَقولونَ: رَبَّنا[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

الاستعارةُ تصويرٌ بديعٌ، يكسو السِّياقَ جمالًا وروعةً

لمّا كان الأصلُ في الذَّوقِ أن يكونَ باللِّسان والفم؛ كان التَّعبيرُ عن إصابةِ العذابِ لهم بالذَّوقِ، من بابِ الاستعارة المكنيَّة التَّخييليَّة، حيثُ شبَّهَ العذابَ بشيءٍ محسوسٍ من شأنِه أن يُذاقَ، بجامعِ المباشرةِ؛ إذ الذَّوقُ من أبلغِ أنواعِها، وحاسَّتُهُ مميَّزةٌ جدًّا، فحذفَ المُشبَّهَ به، وترك شيئًا من لوازِمه، وهو الذَّوق، وأسندهُ إلى المُشبَّهِ بجامعِ بقاءِ الأثرِ والإحساسِ به، ويمكن حملُها على التَّصريحيَّةِ، بتشبيهِ إصابةِ العذابِ بتذوُّقِه، بجامعِ الوصولِ إلى المقصودِ في كليهما[2].

دلالةُ الفعلِ ﴿وَذُوقُواْ﴾:

الأمرُ بالذَّوقِ على طريقِ التَّهكُّم، يقالُ للمنتقِمِ منه عادةً

جاء فعلُ الأمرِ﴿وَذُوقُواْ﴾ دالًّا على المجاز، وجاءَ بأسلوبِ البشارةِ لهم؛ ليفيدَ هنا الإهانةَ على طريقِ التَّهكُّم، وهو كلامٌ يقالُ للمنتقمِ منهُ[3]، وعليه فإنَّ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، لا يخلو من تهكُّمٍ بهم؛ لأنَّهم فسقوا، وذاقوا من الهوى ما ذاقوا، فكأنَّهُ يقالُ لهم: كما ذقتُم المتعَ والشَّهواتِ، فذوقوا الحريقَ، وكأنَّهُ يبشِّرُهم"[4]، و"قيل: كانوا يقولونَ للكفّارِ حينئذٍ هذا اللَّفظَ، فحذْفُ (يقولون) اختصارٌ، وقيل: معناهُ: وحالُهم يومَ القيامةِ أن يقالَ لهم هذا[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/146، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 260.
(2) الهَرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/84.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/447، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/42.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3159.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.

دلالةُ الإضافةِ في قولهِ: ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

العذابُ بكلِّ أنواعِهِ مهلكٌ للنَّفسِ مدمِّرٌ للكرامةِ والضَّميرِ

إضافةُ العذابِ إلى الحريقِ إضافةٌ بيانيَّةٌ من بابِ إضافةِ الجنسِ إلى نوعِه لبيانِ هذا النَّوعِ[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، هو بيانٌ للمصيرِ الَّذي صارَ إليهِ أولئك المشركونَ الَّذين أذلَّ اللهُ كبرياءَهُم في هذا اليومِ، يومَ بدرٍ، وهو مصيرٌ مشؤومٌ، يُلقى بهم في سواءِ الجحيمِ، حطبًا لجهنَّمَ، ووقودًا لسعيرِها"[2].

دلالةُ صيغةِ (فعيل) في قولهِ: ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾:

مجيءُ صيغةِ (فَعيلٍ) بمعنى اسمِ الفاعلِ للثُّبوتِ في الوصلِ

صيغةُ فعيلٍ هنا بمعنى اسمِ الفاعلِ، مثل الأليمِ بمعنى مؤلمٍ، والمعنى: ذوقوا العذابَ الَّذي هو من نوعِ العذابِ المحرقِ[3]، وجاء بصيغةِ فعيلٍ؛ للمبالغةِ لِما تدلُّ عليه صيغةُ فعيلٍ، من معنى وصفِ الحرقِ الثّابتِ لهذا العذابِ، أعاذنا اللهُ منهُ.

مناسبةُ التَّعبيرِ بقولهِ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

عذابُ الحريقِ: هو عذابُ النّارِ نفسِها، وهو أشدُّ العذابِ

يحتملُ أن يكونَ المرادُ من عذابِ الحريقِ، عذابَ النّارِ نَفْسِها، بذوقِهم العذابَ في الآخرةِ، وهو الظّاهرُ؛ لأنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأبقى، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ حالَةَ المَوْتِ في الدُّنيا، أي: ذوقوا مقدِّمةَ عذابِ النّارِ[4]؛ ليكونَ الموتُ نكالًا عليهم، وما بعدَه أشدُّ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ (ذلك) استحضارٌ للصّورةِ المهيبةِ، لفظاعةِ المشهدِ

قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، "إنَّما قال: (ذلك) على خطابِ الواحدِ، ولم يقل: (ذلكم)، على قياسِ اللُّغةِ الأُخرى، بأن يقالَ: (ذلكُم بما قدَّمَتْ أيْديكُمْ)، لأنَّه أرادَ به الجمعَ، فكأنَّه قال: (ذلك أيُّها الجمعُ)، والجمعُ بلفظِ الواحدِ، وهُما لغتانِ جيِّدتانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/636.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/548، 2/540.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/409، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106.

نزلَ بهما القرآنُ"[1]، وقد عُبِّرَ بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لإحضارِ المشارِ إليه، وهو الضَّربُ والعذابُ في ذهنِ السّامعِ، بالإشارة إليه، للدَّلالةِ على وضوحِه، ولتمييزِه أكملَ تمييزٍ وتعيينٍ؛ إشعارًا بالقطع بحصولِ الضَّربِ والعذابِ على المجموعِ، وعُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الإشارة الَّذي للبعيدِ، للإشعارِ بكونهما استحضارًا للصّورةِ المهيبةِ لفظاعةِ المشهدِ، لمن لم يكن حاضرًا، بتعظيم ما يشاهدونه من الأهوال[2]، وفيه استحضارٌ للصّورةِ المهيبةِ؛ لفظاعةِ المشهدِ، لمن لم يكن حاضرًا.

دلالةُ (الباء) في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾:

إسنادُ ما قدَّمَ من عملٍ إلى اليدِ من دقَّةِ البيانِ وتلاؤمِه مع المرادِ

تفيدُ الباءُ معنى السَّببيَّةِ، أي: بسببِ ما قدَّمت أيديكم، وجيءَ بالسَّببِ للإيذانِ أنَّ هذا العذابَ لعظمِ هولِه، ممّا يتساءلُ عن سببِه[3]، ولأهمّيَّةِ اليدِ في الفعلِ والسَّببِ، "نحن نعلمُ أنَّ معظمَ أعمالِ الإنسانِ يزاولها بيدِه، وقد يفعلُ أشياءَ بقدميهِ أو بلسانِه؛ لكنَّ معظمَ الأعمالِ تتمُّ باليدِ؛ لأنَّ اليدَ تحملُ القدرةَ على الفعلِ، فسبحانه لم يفتَئِتْ عليهم"[4].

دلالةُ الواوِ بين العطفِ والاستئنافِ:

غرضُ الاعتراضِ التَّذييليِّ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾

تحتملُ الواوُ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، أن تكونَ عاطفةً تفيدُ التَّشريكَ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، فتكونُ الباءُ السَّببيَّةُ داخلةً على المعطوفِ كذلك، على معنى الاجتماعِ مع المعطوفِ عليهِ، للدَّلالةِ على أنَّ سببيَّةَ العذابِ في قولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، مقيَّدةٌ بانضمامِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ إليه،

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/36.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

أي: بسبب اجتماعِ أمرين: ما قدَّمت أيديكم من المعاصي، وأنَّ اللّه ليس بظلّام للعبيدِ؛ إذ لولا أنَّه تعالى ليس بظلّام للعبيدِ، وأنّه عادلٌ عليهم؛ لأَمكنَ أن يعذِّبَهم بغيرِ ذنوبِهم، ومن العدلِ أن يعاقبَ المسيءَ منهم، ويثيبَ المحسنَ، وفائدةُ العطفِ: هي الإيذانُ: أنَّ ما قدَّمت أيديهم، أوجبَ حصولَ العذابِ، وعدلُ اللّهِ أوجبُ، كونُ هذا العذابِ في مقدارِهِ المشاهدِ من الشِّدَّة، حتَّى لا يظنّوا أنَّ في شدَّتهِ إفراطًا عليهم في التَّعذيبِ، كما تحتملُ أن تكونَ جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ اعتراضًا تذييليًّا مقرِّرةً لمضمونِ ما قبلَها، بمعنى: كلُّ ما حصلَ من القتالِ ومقدِّماتِه، وما حصلَ بعدَهُ، وما قدَّمتموهُ بأيديكم، ليس بظلمٍ من اللّهِ لكم، وأنَّه تعالى لا يعذِّبكم من غيرِ ذنبٍ[1].

بلاغةُ قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ بين الاستعارةِ والمجازِ والتَّغليبِ:

تـنـوُّعُ المعاني البـلاغـيَّـةِ للأسلوبِ الواحدِ براعةٌ في النَّظمِ القرآنيِّ

يحتملُ قولهُ: ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، أن يكونَ مجازًا عن الكسبِ والفعلِ على طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، بتشبيهِ الأعمالِ الَّتي اقترفوها، بما يجتنيهِ المجتني من الثَّمرِ، أو يقبضُهُ البائعُ من الأثمانِ، تشبيهَ المعقولِ بالمحسوسِ، وذكرِ رديفِ المشبَّهِ، وهو الأيدي الَّتي هي آلةُ الاكتسابِ للأعمالِ، في غالبِ أمرِ الإنسانِ، فأضيفَ كلُّ كسبٍ إليها، أي: بما قدَّمتْهُ أيديكم لكم، والمعنى ذلك واقعٌ بسببِ ما كسبتُم من الكفرِ والمعاصي[2]، ويحتملُ أن يكونَ كنايةً عن القدرةِ[3]، ويحتملُ أن يكونَ مجازًا مرسلًا بالتَّعبيرِ عن الكلِّ باسمِ الجزءِ، فإنَّ الذّنوب تكون بالألسنةِ وغيرها أيضًا، وعبَّرَ بالأيدي؛ لأنَّ بها البطشَ والأذى

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، والقنّوجي، فتح البيان: 5/194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/25.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/146.

غالبًا[1]، كما يجوزُ أن يكونَ على سبيل التَّغليب، بأن نَسبَ ما قَدَّموهُ مِنَ المَعاصي القَوْليَّةِ والفِعْليَّةِ والاعْتِقاديَّةِ إلى الأَيْدي، تغليبًا لها على غيرِها، ممّا يقعُ به الكسبُ؛ لِأنَّ الأيْديَ تُزاوِلُ أكْثَرَ الأعْمالِ، فكَأنَّ كُلَّ عَمَلٍ واقِعٌ بها[2].

تتابعُ المؤكِّداتِ:

اللهُ لا يظلمُ النّاسَ شيئًا، ونسبةُ الظُّلمِ إليهِ مستحيلةٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، أفادت (أنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تفيدُ تأكيدَ ثبوتِ المعنى وتقريرِه، وأفادتِ الباءُ تأكيدَ نفيِ الظُّلمِ عنِ اللهِ تعالى، كما أنَّ توسُّطَ النَّفيِ بينَ المسندِ إليهِ والمسندِ، أفادَ تقويةَ الحكمِ[3]، واللهُ عدلٌ مطلقٌ، لا يظلمُ النّاسَ شيئًا، وليس بظلّامٍ للعبيدِ، "إذ لا يعذِّب أحدًا بلا ذنبٍ، على أنَّه لو فعلَ، فلا يعدُّ ظلمًا، لاستحالةِ نسبةِ الظُّلمِ إليهِ؛ لأنَّهُ المالكُ المطلقُ، وللمالكِ التَّصرُّفُ بملكهِ كيفَ يشاءُ، ألا ترى أنَّكَ إذا هدمتَ دارَك، أو أخربت ما هو ملكك، لا يعترضُكَ فيه أحدٌ؟"[4].

دلالةُ حرفِ النَّفيِ ﴿لَيۡسَ﴾:

دقَّةُ البيانِ بإجراءِ التَّقابلِ بينَ أفرادِ الظُّلمِ، وأفرادِ العبيدِ

تُفيدُ ﴿لَيۡسَ﴾ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ استمرارَ النَّفيِ[5]، وهذا الأسلوبُ من دقَّةِ الأداءِ البيانيِّ، لإجراءِ التَّقابُلِ بينَ أفرادِ الظُّلمِ، وأفرادِ العبيدِ، فلو أنَّه تعالَى ظَلَمَ كُلَّ واحدٍ من عبادِه، أقلَّ ظُلْمٍ؛ ولَكِنَّهُ لا يفْعَلُ ذلك، فهو ليْسَ بظلّامٍ، فاللهُ ﷻ نفى ذلك عن نفسه في نصوصٍ أخرى، منها قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النّساء: 40]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3159.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/121.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 213 - 214.
(4) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 5/301.
(5) السّامرائي، معاني النّحو: 4/191.

﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: 44]، وقولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49](1).

دلالةُ صيغةِ (فَعّالٍ) في قولِه: ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾:

نفيُ أدنى الظُّلمِ وأقصاهُ عن اللهِ؛ لأنَّه ليس بظالمٍ ولا ظلّامٍ

قد يقالُ: لمّا كانت صيغةُ فعّالٍ للمبالغةِ؛ كانَ الأبلغُ في وصفهِ تعالى أن يُنفى عنهُ أدنى الظُّلم لا أكثره، أي: لمّا كان النَّفي منصبًّا على المبالغةِ؛ كان المعنى: وما ربُّك بكثيرِ الظُّلم؛ فالمنفيُّ هو الكثرةُ وحدَها، دونَ الظُّلمِ الَّذي ليس كثيرًا، وهذا معنًى فاسدٌ؛ لأنَّ اللّه لا يظلمُ مطلقًا، لا كثيرًا ولا قليلًا، وجوابهُ من وجوه: **أوَّلًا**: أنَّ المرادَ نفيُ نفسِ الظُّلم، وجاءَ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ، لما فيهِ من البيانِ أنَّ ما هم فيهِ من الأعمالِ القبيحةِ، يوجبُ العذابَ وأقصاهُ، فدلَّ على أنَّهم استحقّوا أشدَّ العذابِ؛ لأنَّهم أشدُّ المسيئينَ، فهم أحقّاءُ لعذاب الحريقِ، فيكونُ فيه إشارةٌ إلى عظم العذابِ على سبيلِ الكنايةِ، **ثانيًا**: أن يقال: إنَّ العذابَ الَّذي توعَّدَ بأن يفعله بهم، لو كان ظلمًا؛ لكان عظيمًا، فنفاهُ على حدِّ عِظمهِ، لو كان ثابتًا. **ثالثًا**: جاء بصيغة التَّكثير ليناسبَ المتعلّقَ ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ ليكونَ توزيعًا على الآحادِ، كأنَّهُ قيل: ليس بظالمٍ لفلانٍ، ولا بظالمٍ لفلانٍ، وهكذا، فلمّا جمعَ هؤلاءِ عدلَ إلى ظلّامٍ لذلكَ(2)، **رابعًا**: أن يكونَ المرادُ من قولهِ: ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾ بذي ظلم، لمجيءِ فعّالٍ بمعنى صاحبٍ(3)، والمعنى على هذه الوجوهِ كلِّها هو أن يقال: كما أنَّ وقوعَ الظُّلمِ منهُ لعبيدهِ منتفٍ قطعًا، تعيَّنَ أنْ تكونوا أنتم الظّالمينَ لأنفسِكم قطعًا فلوموها، فلا لومَ لكم إلّا عليها(4).

---

(1) عبد الرحمن، بلاغة اللّغة: 1/212.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/448، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

(3) ابن مالك، شرح الكافية الشّافية: 4/1963، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/302.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/31.

دلالةُ اللّامِ الجارَّة ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾:

اللهُ تعالى منزَّهٌ عن الظُّلم كلِّه كتنزُّهِه عن سائرِ النَّقائِص

قال تعالى: ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، ولم يقل: (بظلّامٍ العبيدَ)؛ لما تفيدُهُ اللّامُ الدّاخلةُ على معمولِ صيغةِ المبالغةِ من تقويةِ نفي ظلمِه تعالى للعبيدِ، وتأكيدِه وتقريرِه[1]، "وبأنَّ اللّه تعالى ليس بظلّامٍ للعبيدِ، فيكونُ ذلك العذابُ ظلمًا منهُ على تقديرِ عدمِ وقوعِ سببهِ من كسبِ أيديكم، ولكنَّ سببَ ذلك منكم، ثابتٌ قطعًا، كما أنَّ وقوعَ الظُّلم منهُ لعبيدِه، منتفٍ قطعًا، فتعيَّنَ أن تكونوا أنتم الظّالمين لأنفسِكم قطعًا، فلوموها فلا لومَ لكم إلّا عليها"[2]، وفي الحديث القدسيِّ الَّذي يرويهِ الرَّسولُ ﷺ عن ربِّه: «يا عِبادي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسي، وجَعَلْتُهُ بينكُم مُحَرَّمًا، فلا تَظالَمُوا»"[3]، وعليه فاللّامُ ذاتُ أثرٍ في تقويَةِ المعنى، بنفي الظُّلمِ عنِ اللّهِ في الأساسِ وفي كلِّ حالٍ، مع ملاحظةِ أنَّ التَّعريفَ باللّامِ في ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾ عوضٌ عن المضافِ إليهِ (عبيده)[4]، للنَّصِّ على استغراقِ العمومِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العباد والعبيد:

لفظُ العبادِ مقترنٌ بالرِّفعةِ، ولفظُ العبيدِ مرتبطٌ بالتَّحقيرِ

بيانُه أنَّه متى سيقت اللَّفظةُ في مضمارِ التَّرفيعِ والدَّلالةِ على الطّاعةِ، دونَ أن يقترنَ بها معنى التَّحقيرِ، وتصغيرِ الشَّأنِ، جاء بصيغةِ (عباد)، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: 207]، و[آل عمران: 30]، وقولهُ: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: 26]، وقولهُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: 53]، وقولُ عيسى في معنى الشَّفاعةِ، والتَّعريضِ لرحمةِ اللّهِ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة: 118]، فنوَّه بهم، وأمّا العبيدُ، فيستعملُ

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/74.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/31.
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظّلم، برقم: (2577).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/42.

في التَّحقيرِ، ومنهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]، لأنَّهُ مكانُ تشفيقٍ وتنجيةٍ وإعلامٍ بقلَّةِ انتصارِهم ومقدرتِهم، وأنَّهُ تعالى ليس بظلّامٍ لهم معَ ذلك، ولمّا كانت لفظةُ العبادِ تقتضي الطّاعةَ، لم تقع هنا، ولذلك أنِسَ بها في قولِه تعالى: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزّمر: 53]، فهذا النَّوعُ من النَّظرِ يسلكُ بِهِ سبلُ العجائبِ في ميزةِ فصاحةِ القرآنِ العزيزِ، على الطَّريقةِ العربيَّةِ السَّليمةِ(1).

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، 589، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/81 - 82.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ [الأنفال: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ هزيمةِ الكفّارِ في بدرٍ، وهلاكِ كفرةِ آلِ فرعونَ ومَن قَبْلهم

لمّا بيَّن اللّهُ تعالى، ما أنزلهُ بأهلِ بدرٍ من الكفّارِ عاجلًا وآجلًا؛ أتبعهُ بأنْ بيَّنَ أنَّ هذه طريقتُهُ وسنَّتُهُ في الكلِّ، فقال: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾[1]، وأيضًا لمّا بيَّنَ سيرَ المشركين وأعمالهم مع رسولِ اللّهِ ﷺ، وبيَّنَ أنَّ من خالفَ ما أمرَ اللّهُ به ورسولهُ؛ هلكَ كائنًا من كان؛ أتبعَهُ بما يبيِّنُ أنَّ هذا من العمومِ والاطِّراد، بحيثُ لا يخصُّ زمانًا دونَ زمانٍ، ولا مكانًا سوى مكانٍ، وأنَّ ما يفعلهُ المشركون بما أُرسلَ بهِ النَّبيُّ ﷺ، هو كعادةِ الأممِ السّالفةِ مع رسلِهم، فذكرَ هذه الآيةَ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: دأبَ الرَّجلُ في عملِه: اجتهدَ فيه، ودأبتِ الدّابةُ في سيرِها دأْبًا ودأَبًا ودُؤوبًا، وفي قراءةِ عاصم: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ [يوسف: 47]، ومن المجازِ: هذا دأْبُكَ، أي: شأْنُكَ وعملُك[3]، ويدورُ معنى (دأبَ) عَلى ملازمةٍ ودوامٍ، فالدَّأْبُ: العادةُ المستمرَّةُ على حالةٍ، حتَّى تكونَ شأنًا لصاحبِها، ودأبَ الرَّجلُ في عملِه دَأبًا ودُؤوبًا؛ إذا استمرَّ على العملِ، وواظبَ عليه، وجدَّ، وتعبَ فيه، ففي اللَّفظِ معنى الاجتهادِ في الشَّيءِ، ومعنى ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾: كعادةِ آلِ فرعونَ في كفرِهم، وتظاهرِهم على نبيِّهم.

2) ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: يدورُ معنى الأخذِ على حَوْزِ الشَّيءِ، وجمعِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/459.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/303.
(3) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (دأب).

في الأثناءِ، ضمًّا أو قبضًا، على غَلَظٍ ماديٍّ أو معنويٍّ، والأَخْذُ حوزُ الشَّيءِ وتحصيلُهُ بقوَّةٍ، وهو خلافُ العطاءِ، أي: التَّناول، ومنهُ أخْذُ الميثاقِ، أي: ضمانُهُ، بمعنى تحصيلِهِ بقوَّةٍ، وأخذَهُ بذنبه: تمكَّنَ منهُ، فعاقبَهُ، والمؤاخَذَةُ: المجازاةُ على الذَّنبِ بالعقوبةِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ هلاكِ كفّارِ مكَّة، كما هلكَ آلُ فرعونَ ومَن قبلَهم

فِعْلُ هؤلاءِ المشركين من قريشٍ الَّذين قُتِلوا ببدرٍ من التَّكذيبِ، والكفرِ بآياتِ اللّهِ، كعادةِ قومِ فرعونَ، ومَن كفرَ باللّهِ، وكذَّبَ بآياته ورسلِه من الأممِ الخاليةِ قبلهم، ففعَلْنا بهم مِنَ التَّعذيبِ والهلاكِ، كفعلِنا بفرعونَ وأشياعِه وأتباعِه، ومن سبقَ مِنَ الأممِ[2]، أي: إنَّ هؤلاءِ كذَّبوا كما كذَّبَ فرعونُ وآلُهُ ومن سبقَهم، فنزلَ بهم العذابُ، كما نزلَ بسابقيهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الإيجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾:

الكفرُ ملَّةٌ واحدةٌ، وعاقبةُ أهلِه في الهلاكِ والعذابِ مشتركةٌ

لَمّا ذكرَ أحوالَ المشركينَ وأعمالهم، واستأنف كلامًا آخر، يبيِّنُ فيه أنَّ ما حلَّ بهم، هو بسببِ كفرهم، لا بشيءٍ آخر من غيرِهم، حُذِفَ المبتدأ، والتَّقدير: دأبُ هؤلاءِ كدأبِ آلِ فرعونَ[3]، وهذا الحذفُ من بلاغةِ الكلامِ ولطفه، ولو ذكرَ؛ لكانَ ثقيلًا في الكلامِ[4]؛ إذ عادةُ البلغاءِ الاكتفاءُ بما يكونُ له دورٌ في الكلامِ، وما كان جائزًا أو ضروريًّا أن يحذفَ، استغنَوا عنه، واكتفَوا بما يدلُّ عليه، وقالوا: (البلاغةُ الإيجازُ).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/18.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/439، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27.

(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 147 - 149.

بلاغةُ التَّشبيهِ:

دورُ التَّشبيهِ في تجليَةِ الصّورةِ وبيانِها

في قولِه تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، إذ شبَّهَ المشركين بآل فرعونَ، والَّذين من قبلهم، ووجهُ الشَّبهِ صورةٌ منتزعةٌ من متعدَّدٍ، هي كفرهُم بآياتِ اللّهِ، وما ترتَّبَ عليهِ من أخذِ اللّهِ لهم بذنوبِهم؛ لأنَّ دأبَهم هو مجموعُ ما فعلوا، وما فُعِل بهم، لا ما فعلوهُ فقط[1]. فأركانُ التَّشبيهِ كلُّها مذكورةٌ، لإيضاحِ الصّورةِ وبيانِها للمخاطبينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (دَأبِ):

مِن دأبَ على الكفرانِ؛ جنى الخيبةَ والهوانَ

عبَّرَ في قولِه تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ بالدَّأبِ ليُشعِرَ أنَّ كفرَهم بآياتِ اللّهِ صارَ عادةً دائمةً مستمرَّةً لهم، وأنَّهم كانوا يجدّونَ ويجهدونَ ويجتهدونَ في كفرِهم، فكانَ شأنًا ملتزمينَ بهِ لا يفارقُهم على التَّأبيدِ[2].

دلالةُ الإضافةِ:

الدَّأبُ على الكفرِ إيغالٌ في الضَّلالِ يؤولُ إلى سوءِ المآلِ

الإضافةُ في قولِه: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ من إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه، والمعنى: كما دأبَ آلُ فرعونَ، والَّذين من قبلِهم، وأجازَ بعضُ المفسِّرينَ أن تكونَ الإضافةُ من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه، والتَّقديرُ: كدأبِ اللّهِ فيهم، فأضافَ الدَّأبَ إليهم؛ إذ لهم نسبةٌ إليه، بكفرِهم بآياتِ اللّهِ، والرَّأيُ الأوَّلُ، هو الرّاجحُ والظّاهرُ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ الصَّريحِ:

وصفُ اللُّزومِ بلفظِ الدَّأبِ دليلٌ على تأصُّلِهم في الكفرِ

في قولِه تعالى: ﴿كَدَأۡبِ﴾ عَبَّرَ بالمصدرِ الصَّريحِ (دَأْبِ) دون المؤوَّلِ، بأنْ يقالَ: (كما دأب)؛ للإشعارِ بلزومِهم الكفرَ بآياتِ اللّهِ، وأنَّه صارَ حدثًا ملازمًا لهم من غيرِ تخصيصٍ بزمنٍ، فوصَفُ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.

(2) الحرّاليّ، تراث أبي الحسن الحرّاليّ: 1/521.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.

اللُّزومِ من معنى الدَّأبِ، كما أنَّهُ لو جاء بالمصدر المؤوَّلِ؛ لأفادَ أنَّهم كفروا، ثم صارَ الكفرُ دأبًا لهم، فلمّا جاء بالمصدرِ الصَّريحِ؛ كانَ على معنى المبالغة، فكأنَّ ابتداءَ حالِهم، هو الدَّأبُ على الكفرِ بآياتِ اللّهِ، توبيخًا لهم وتقبيحًا، ولتعظيم شأنِ الكفرِ بآياتِ اللّهِ(1).

سببُ إيثارِ التَّمثيلِ بآلِ فرعونَ دونَ سواهُم:

آلُ فرعونَ نموذجٌ للطُّغيانِ، ومثالٌ للمصيرِ المزري

نَبَّهَ على آلِ فِرْعَوْنَ، دون غيرهم من الأمم السّابقةِ؛ لأنَّ الكَلامَ معَ مخاطبينَ يَعْرِفونَ ما جَرَى لأشياعِ فرعونَ وأتباعِه، حينَ كَذَّبوا بموسَى مِن إغْراقِهم وتَصْييرِهم آخِرًا إلى النّارِ.

بلاغةُ التَّعريضِ:

تأرجحُ عقبى الكفّارِ بينَ الاستئصالِ والنّارِ

في الآيةِ بشارَةٌ لِرَسولِ اللّه ﷺ، ولِمَنْ آمَنَ به، لِما تفيدهُ من التَّعريضِ بأنَّ الكُفّارَ مَآلُهُم في الدُّنْيا إلى الاسْتِئْصالِ، وفي الآخرَةِ إلى النّارِ، كما جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ والذين من قبلِهم، أُهْلِكوا في الدُّنيا، وصاروا إلى النّارِ(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتهِ:

الاسمُ الموصولُ يستوعبُ الأممَ السَّوابقَ على امتدادِ الدَّهرِ

لمّا كانت الأممُ السّالفةُ كثيرةً، أوجزَ في تعدادِهم بذكرِ الاسمِ الموصولِ، بوساطةِ جملةِ الصِّلة: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، ولمّا كانَ لفظُ (قَبْلِ) هنا، للتَّقدُّمِ الزَّماني من غيرِ قيدٍ، أفادَ استيعابَ الأممِ السّالفةِ معَ الإيجازِ، وللإشعارِ بأنَّ توالي الأزمانِ لم يغيِّرْ دأبَهم وعاداتِهم في الكفرِ.

نكتةُ مجيءِ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

الكفرُ مسارٌ ممتدٌّ عبرَ الزّمانِ الموغلِ في القدمِ

ذكرَ حرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾ لإفادةِ الابتداءِ؛ للإشعارِ بامتدادِ دأبِ الكفرِ، وكأنَّهُ سارَ من زمنِ الأممِ السّالفةِ إلى وقتِ آلِ فرعونَ، وأفادَ الحرفُ ﴿مِن﴾ أنَّ كلَّ قومٍ كانوا يبتدئونَ كفرَهم بآياتِ اللّهِ، حتَّى

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/148.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/36.

يكونَ الأمرُ عندَهم عادةً وشأنًا لا يفارقونَهُ، كما تحتملُ (مِن) معنى النّيابةِ عن (في)، للتَّنصيصِ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ للأقوامِ السّالفةِ، والمعنى: وكدأبِ الَّذين هم في الوقتِ الَّذي كان قبلَ وقتِ آلِ فرعونَ[1].

دلالةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

الكافرونَ مجمعونَ في الكفرِ والضَّلالِ على موقفٍ واحد

لمّا كانَ العطفُ بالواوِ على معنى التَّشريكِ بين المعطوفينَ في الحكمِ؛ أفادَ أنَّ دأبَ آلِ فرعون، ودأبَ الَّذين من قبلهم أمرٌ واحدٌ، في الكفرِ بآياتِ اللهِ، فتكونُ عادةُ الأمم بجملتِها لا على انفرادِ أمَّةٍ[2].

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

الدُّنيا تموجُ بالصِّراعِ بينَ الكفرِ والإيمانِ عبرَ الأزمانِ

يُحتمَلُ أن يعودَ الضَّميرُ في ﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾ على آلِ فِرۡعَوۡنَ، فيكونُ المرادُ من الاسمِ الموصولِ، كُفّارَ الأُمَمِ السّالِفَةِ، كَقَوۡمِ نوحٍ، وقَوۡمِ هودٍ، وقَوۡمِ شُعَيۡبٍ، وغَيۡرِهم، وهذا هو الظّاهرُ من السّياقِ، وكذا يُحۡتَمَلُ أنۡ يَعودَ الضَّميرُ على الَّذينَ كَفروا، وهُم مُعاصِروا رَسولِ اللهِ ﷺ[3].

دلالةُ قولِهِ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ بينَ الاستئنافِ والحاليَّةِ:

من كفرَ بآياتِ اللهِ؛ أُخِذَ بذنبه، ولاقى ما لا يرضاهُ

تحتملُ الجملتانِ ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، أن تكونا بمنزلةِ الاستئنافِ البيانيِّ، لِتكونا تفسيرًا لدأبِ آلِ فرعونَ، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿كَفَرُواْ﴾ عائدًا إلى ﴿ءَالِ﴾، كَأَنَّهُ قيلَ: (ما فعَلَ آلُ فرعون والذين من قبلهم ليكونوا مثلَهم؟ وما فُعِلَ بهمۡ؟)، فقيلَ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، فالجملتانِ المعطوفتانِ كَأَنَّهَما جَوابُ سُؤالَين مُقَدَّرَين، كما تحتملُ أن تكونا تفسيرًا لدأبِ مشركي مكَّةَ، ويكون

(1) الرّضي، شرح كافية ابن الحاجب: 4/260، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 2/194.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/38.

الضَّميرُ في ﴿كَفَرُواْ﴾ عائدًا إلى مشركي مكَّةَ، كما تحتملُ الجملتانِ أن تكونا حاليَّتينِ، بتقديرِ (قد كَفَروا)، أي: دأبُ كفّارِ مكَّةَ، كدأبِ آل فرعونَ، والَّذين من قبلِهم في حالِ كفرِهم وإهلاكِهم[1].

سرُّ جعلِ أخذِ اللهِ للكفّارِ دأبًا:

دخولُ العذابِ في الدَّأبِ من بابِ تغليبِ ما فعلوهُ على ما فُعِلَ بهم

لمّا كانَ الدَّأْبُ على معنى الاعتيادِ على الشَّيءِ، والاستمرارِ عليه، وكان العذابُ قد جُعِلَ من جملةِ دأبِهم، مع أنَّهُ ليس ممّا يُتصوَّرُ مداومتُهم عَليهِ، واعتيادُهُم إيّاهُ، كما هو المعتبرُ في مدلولِ الدَّأبِ، أفادَ أنَّ دخولَ العذابِ في الدَّأبِ من بابِ تغليبِ ما فعلوهُ على ما فُعِلَ بهم، أو لِتنزيل مداومتِهم على ما يوجبُهُ من الكفرِ والمعاصي منزلةَ مداومتِهم على العذابِ، لما بينهما من الملابسةِ التّامَّةِ[2].

دلالةُ الآياتِ الإلهيَّةِ في قولِه: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

تكاملُ الإعجازُ في آياتِ اللهِ في الكونِ المنظورِ، والوحي المسطورِ

يُحتَمَلُ أنْ يكونَ المرادُ من ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: المَتلوَّةَ في كُتُبِ اللّه، ويُحتَمَلُ أنْ تَكونَ العَلاماتِ الدّالَّةَ على تَوحيدِ اللّه وصِدْقِ أنْبيائِه[3]، قال ابن عبّاسٍ: "هو أنَّ آلَ فرعونَ أيقنوا أنَّ موسى نبيٌّ من اللّهِ، فكذَّبوهُ، كذلك هؤلاءِ جاءهم محمَّد ﷺ بالصِّدقِ فكذَّبوه، فأنزلَ اللّهُ بهم عقوبتَهُ، كما أنزلَ بآلِ فرعونَ، والَّذين من قبلِهم، أي: كفروا بآياتِ اللّه، فأخذَهُم اللّهُ بذنوبِهم، إنَّ اللّه قويٌّ شديدُ العقابِ" [4].

نكتةُ جمعِ لفظِ (آياتِ):

من كابرَ آياتِ اللهِ بالنُّكرانِ، أولاهُ اللهُ الخسرانَ والهوانَ

في قولِه تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أفادَ جمعُ الآياتِ أنَّ الآياتِ كانت تتوالى عليهم، ولم يكنْ لهم آيةٌ واحدةٌ، وأنَّ دأبَهم كان هو الكفرُ بها، وقد تَعدَّدَتْ رسلُهم وكثرت، وتوالى المبعوثونَ لهم من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/109.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/39.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/302.

الرُّسلِ والأنبياءِ الَّذين كثروا وخصوصًا في بني إسرائيلَ، فكانَ الكفرُ بذلك متعدِّدًا بتعدُّدِ التَّكذيب الَّذي يُقابلُ بهِ كل نبيٍّ تختارهُ العنايةُ الإلهيَّةُ للبلاغ، ولذلك كان الجمعُ للفظِ آياتٍ مناسبًا لتعدُّدِ ذلك وتكرارِه، في فتراتٍ متلاحقةٍ.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

الآياتُ المضافةُ إلى اللهِ في الآيةِ، لعنةٌ على من ارتادَ الغواية

الإضافةُ للتَّخصيص، لِتعظيمِ الآياتِ بتخصيصِها باللّهِ تعالى، وفي التَّعبيرِ إيذانٌ أنَّهم كانوا يعرفونَ أنَّها آياتُ اللّهِ، ثمَّ يكفرونَ بها، ففيهِ توبيخٌ للكافرين، وتهويلٌ لكفرِهم؛ لأنَّ من عرفَ التزمَ وأنابَ، إن رجعَ وتابَ، ومن جهلَ واستكبرَ بعد أن عرفَ وأنكرَ؛ كان نكرانُهُ عن علمٍ ومعرفةٍ بالحقِّ، فوجبَ أن يكونَ إيمانُهُ أكبرَ، وتصورُّهُ للهدى أبصرَ، ولكنَّهُ أضاعَ الدَّليلَ، فضلَّ عن سواءِ السَّبيلِ.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الكفرُ مفضٍ إلى الذُّنوبِ، ومعرِّضٌ صاحبَهُ للأواءِ الخطوبِ

أفادتِ الفاءُ أنَّ ما قبلَها سببٌ لما بعدَها، مع التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، والمعنى: أنَّ كفرَهم بآياتِ اللّهِ، جعلَهم يذنبونَ ذنوبًا كثيرةً، فكان سببًا في أخذِهم وهلاكِهم، وأنَّ أخذَهُم كان بعدَ كفرِهم وارتكابِهم الذُّنوبَ، وتعقيبُ كلِّ أمرٍ بحسبه، وهو أمرٌ يقتضيهِ عدلُ اللّهِ الَّذي غمرَ الموجوداتِ، وكان كلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا.

مناسبةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ:

غرضُ الإظهارِ زيادةُ تمكينِ الاسمِ الجليلِ، وتقريرِهِ في ذهنِ السّامعِ

كان الظّاهرُ أن يقولَ: (كفروا بآياتِ اللّهِ، فأخذهم بذنوبِهم)، لقربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، فعدلَ عن الكلامِ بوضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ في قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، لتربيةِ المهابةِ بتقريرِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، ولتعظيمِ كفرِهم بآياتِه سبحانه، ولزيادةِ تمكينِ الاسمِ الجليلِ وتقريرِه في ذهنِ السّامعِ، حتَّى يكونَ مستحضرًا لا يزولُ عن البالِ؛ لبيانِ عظمِ أخذِ اللّهِ لهم وإهلاكِهم، وأنَّه من مقامِ

الألوهيَّة الجليلةِ، ولم يقل: (فأخذناهم بذنوبهم) ليكونَ الكلامُ على منهاجٍ واحدٍ في الغيبةِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾، جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُه أنَّه شبَّهَ إحاطةَ عذابه بهم وإهلاكَهم بقوَّةٍ، وانتفاءِ تفلُّتِ أيِّ واحدٍ منهم، بالمَأْخوذِ باليَدِ المُتَصَرِّف فيه بحُكْمِ إرادةِ الأخْذِ[2] الَّتي تفيدُ حوزَ الشَّيءِ والتَّمكُّنَ منهُ، وتحصيلَه بقوَّةٍ، للإيذانِ أنَّ عقابَهم كانَ عظيمًا، وأنَّهُ استوعبَ جميعَهم.

من أخذتْهُ قوَّةُ اللهِ؛ فلا مفرَّ لَهُ منها، ولا فكاكَ

دلالةُ الباءِ ومجرورِها في قولِهِ: ﴿بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾:

الباءُ سببيَّةٌ، بمعنى: أنَّ سببَ أخْذِهم وإهلاكِهم، هو ما اكتسبوهُ من الذُّنوب مع كفرِهم، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ لهم مع كفرِهم ذنوبًا أُخَرَ، لها دخلٌ في استتباعِ العقابِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بذنوبِهم معاصيَهم المتفرِّعةَ على كفرِهم، فتكونُ الباءُ للملابسةِ، أي: فأخذَهم ملتبسينَ بذنوبِهم، غيرَ تائبينَ عنها[3]، وفي الباءِ السَّببيَّةِ إشعارٌ بأنَّ صريحَ المؤاخذةِ مُناطٌ بالذُّنوب، وأنَّ المؤاخذةَ الدُّنيويَّةَ لا تصلُ إلى حدِّ الانتقامِ على الكفرِ بآياتِ اللّهِ فقط، فأفادَ أنَّ ما ظهرَ من أمرِ الدُّنيا يقع عقابًا على ما ظهرَ من الأعمالِ، وما بطنَ من أمرِ الآخرةِ، يستوفي العقابَ على ما أصرَّت عليه الضَّمائرُ من الكفرِ[4]، وقد أفادَ الجمعُ في المجرورِ بالباءِ كثرةَ ذنوبِهم، وعبَّرَ بالذُّنوبِ دونَ غيرِها، ممّا يدلُّ على المعصيةِ؛ لأنَّ الذَّنبَ ينبِئُ عن استحقاقِ العقابِ المناسبِ للسّياقِ[5].

ما ظهرَ من الذُّنوبِ يقعُ عقابُهُ في الدُّنيا، وما ضُمِرَ يُستوفى في الآخرة

---

(1) البهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/266 - 267.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/39.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/38، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.

(4) الحرّالي، تراث أبي الحسن الحرّالي: 1/522.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 257.

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

عقابُ اللهِ شديدٌ قويٌّ على كلِّ كافرٍ عتيٍّ

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ؛ لبيانِ أنَّ اللّه تعالى ليس بخافٍ عليهِ ما يفعلهُ الكفّارُ، وأنَّه سيعاقبُهم على كفرِهم، وفي التَّأكيدِ تعريضٌ بالمُشْركينَ، فقد كانوا يُنْكِرونَ قوَّةَ اللّه عليهم، بمعنى لازِمها، وهو إنْزالُ الضُّرِّ بهم، ويُنْكِرونَ أنَّه شَديدُ العِقابِ لهم، فأكَّدَ الخَبَرَ باعْتِبارِ لازمِهِ التَّعْريضيِّ الّذي هو إبْلاغُ هذا الإنذارِ إلى مَنْ بَقِيَ مِنَ المُشْرِكينَ(1).

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

العذابُ منوطٌ بالسَّيِّئاتِ الماحقةِ، ولا يقعُ بلا سابقةٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، مَسوقٌ لتعليلِ ما يفيدُ النَّظمُ الكريمُ من كونِ ما حلَّ بهم من العذابِ منوطًا بأعمالِهم السَّيِّئةِ غيرَ واقعٍ بلا سابقةٍ، فالجملةُ جوابٌ لسؤالٍ تقديرُهُ: لِمَ أخذهم بذنوبِهم؟(2).

بلاغةُ حسنِ التَّذييلِ:

التَّذييلُ كالأمثالِ المرويَّةِ مفيدٌ للعمومِ والكليَّةِ

في التَّذييل بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فوائدُ؛ هي: أوَّلًا: تفيدُ معنى العمومِ والكلّيَّةِ لما تدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ من معنى الثُّبوتِ، ولوصفِ اللّهِ تعالى بوصفين ثابتينِ لهُ سبحانه، ثانيًا: لمّا كانت جملةُ التَّذييلِ، تفيدُ العمومَ والكلّيَّةَ؛ دلَّت على أنَّها بمنزلةِ المثلِ، في جريانِها في الكلامِ. ثالثًا: التَّنبيهُ على أنَّ كلَّ مَن يكفرُ باللّهِ وآياته، له عذابٌ مدَّخرٌ، ويدخل فيه كفّارُ مكَّةَ - ومن كان قبلَهم - دخولًا أوَّليًّا سوى ما نزلَ بهم من العذابِ العاجلِ(3).

مناسبةُ مجيءِ الوصفينِ في جملةِ التَّذييلِ:

وصفُ اللهِ بالقوَّةِ وشدَّةِ العقابِ يتلاءمُ مع مضمونِ الخطابِ

لمّا كانَ الكلامُ عن دأبِ كفّارِ مكَّةَ، ومن كانَ قبلَهم من الأممِ السّالفةِ الَّتي كفرت بآياتِ اللّهِ، وكان الدَّأبُ بمعنى الشَّأنِ الَّذي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/44.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/104.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/495.

يكونون عليه؛ ناسبَ مجيءُ الوصفين؛ لأنَّ وصْفَ اللّهِ تعالى بالقويِّ، بمعنى التّامِّ القوَّةِ الَّذي لا يَسْتَوْلي عَلَيهِ العَجْزُ في حالٍ مِن الأحْوالِ[1]، وجاءَ وصف ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمناسبةِ المجازاةِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾؛ لأنَّ معنى الأخْذِ بالذَّنْبِ العِقابُ عليه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العادة والدَّأب:

الـدَّأبُ: اجتهادٌ بـاخـتـيـارٍ، والـعـادةُ: إلـفُ الأمرِ بالتَّكرارِ

الدَّأبُ والدُّؤوبُ: المبالغةُ في السَّيرِ، وأدأبَ الرَّجلُ الدّابةَ إدآبًا؛ إذا أتعبَها، والفعلُ اللّازِمُ دأبتِ الدّابةُ تدأبُ دُؤوبًا، وقولُه تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [آل عمران: 11]، أي: كعادتِهم وحالِهم[3]، الفرقُ بينهما: هو أنَّ الدَّأبَ لا يكونُ إلّا اختيارًا، وفيه معنى الجدِّ والاجتهادِ والكدحِ، حتَّى يصيرَ الأمرُ شأنًا لازمًا، مع الجهدِ والتَّعبِ في تعاطيه، وفيه معنى الاستمرارِ على حالةٍ واحدةٍ، وأمّا العادةُ؛ فهي اسمٌ لتكريرِ الفعلِ والانفعالِ حتى يصيرَ ذلك سهلًا تعاطيه كالطَّبعِ، ولذلك قيل: العادَةُ طبيعةٌ ثانيةٌ، ولمّا كان العودُ بمعنى الرَّجوعِ إلى الشَّيءِ وتجدُّدِ الأمرِ فيه؛ دلَّ على احتمالِ تغيُّرِ الحالِ في الاختيارِ، وقد تكونُ العادةُ اختيارًا أو اضطرارًا[4].

(1) الخطابي، شأن الدّعاء: 1/77.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/85.
(3) الخليل، العين: 3/38.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عود).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين مصير آل فرعون المغرقين، وكون النّعم تتغيّر بالكفر المهين

لمّا كان كأنّه قيل: فما له يمهلُهم ولا يعالجُهم بالأخذ قبلَ النّكايةِ في أوليائه وأهل ودّه وأصفيائه؟ أجيبَ بأنّ الأخذَ على هذه الحالة؛ بسبب أنّهم غيّروا ما في أنفسهم، وقد كان له سبحانَه أن يأخذَهُم قبلَ أن يغيّروا لعلمه بما في ضمائرِهم، ولكنّه تعالى أجرى سنّتَه الإلهيّةَ لتمامِ علمِه وكمالِ قدرتِه وإحاطتِه بجميعِ صفاتِ الكمالِ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُغَيِّرًا﴾: التَّغييرُ يُقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورةِ الشّيءِ دون ذاته، يُقال: غَيَّرْتُ داري: إذا بنيتُها بناءً غيرَ الّذي كان. والآخر: لتبديله بغيره، نحو: غَيَّرْتُ غلامي ودابّتي: إذا أبدلتهما بغيرهما، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: 11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سبب تغيير النّعم، ما يحصل من كفر وعناد في سائر الأمم

جرَت سنّتُه سبحانَه في خلقه ألّا يبدّلَ نعمَه بنقمةٍ، إلّا بسبب ارتكابِ الذّنوب، واجتراحِ السّيّئاتِ، فإذا لم يتلقّ النّاسُ نعمَه ﷻ بالشّكر والطّاعة، وقابلوها بالكفر والعصيان، بدّل نعمَهم بنقمٍ جزاءً وفاقًا، بسبب أنّه سبحانه سميعٌ لما نطقوا به من سوءٍ، وعليمٌ بما ارتكبوه من قبائحَ ومنكراتٍ، وقد عاقبَهم على ذلك بما يستحقّون من عذاب[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/304 - 305.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/126 - 129.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

في الفصل بيانٌ لعلّة استحقاقِ الكفرة النّكالَ بهم

وجهُ الفصلِ بالاستئنافِ البيانيِّ أنّه مَسوقٌ لتعليل ما يفيدُه النّظمُ الكريمُ من استحقاقِ حلولِ النّكالِ للكفران، وأنّ ما حلّ بهم منَ العذاب منوطٌ بأعمالهم السّيّئة، فقد ترتّب العقابُ على أعمالهم السّيّئة دون أن يقعَ ابتداءً مع قدرته تعالى على ذلك[1].

دلالة استعمالِ اسم الإشارة للبعيد، في نداء القريبِ:

النّداء بالبعد، ذو غرض بيانيّ في الآية، هو التّهويل

قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكرَته الآياتُ السّابقةُ منَ الأخذ بسبب ذنوبهم، وهو اسمُ إشارةٍ للبعيد، ولكنّ البعدَ هنا هو بعدٌ معنويٌّ للإشعار بكون الأخذِ في الغاية القاصيةِ منَ الهول والفظاعة. واستهلالُ الآيةِ باسم الإشارة للبعيد، من شَأْنه أن يجذبَ الأنظارَ والعقولَ إلى ما يَتْبعُها من كلام، فـ" اسمُ الإشارة في مثل هذا المقام مُؤذنٌ بأنّ ما بعده جديرٌ بمَن قبله لأجل اكتسابه موجِبَهُ"[2].

دلالةُ (الباء) على السّببيّة أو التّوكيد:

تغييرُه تعالى للنّفوس، مرهونٌ بالسّعي والإقدام

الباءُ في قوله ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ للسّببيّة[3]؛ أي: أنّ ما أصابهم كان بسبب أنّ اللّه تعالى قد اقتضت سنّتُه ألّا يغيّرَ نعمَه على قوم حتّى يقع التَّغيير منهم. وتحتمل أن تكونَ الباءُ زائدةً لتوكيد كونه تعالى متّصفًا بعدم التَّغيير لما فيه مِنَ الكفايةِ، والقدرةِ، والعزّةِ، والحكمةِ، والعلمِ.

بلاغةُ التّوكيد بـ(أنّ)، والجملة الاسميّة:

سننُ اللّه تعالى، قائمةٌ في الأرض لا تتخلّف

تأتي (أنّ) كما (إنّ) لتوكيد الحكمِ والنّسبة بين الجزأين إذا كان المخاطبُ عالمًا بالنّسبة والحكم، ونفي الشّكِّ عنها إذا كان المخاطَبُ مُتردِّدًا فيها، ونفي الإنكار لها إذا كان مُنكِرًا لها. ومنها:

---

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/134، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/104.

(2) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/135.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/218، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/28.

أنّها جاءَت مُؤكَّدةً بـ (أنّ) والجملة الاسميّة، وذِكْرِ المُبتدَأ مرّةً أخرى بكونه اسمَ (كان) المحذوف، وفي هذا زيادةُ تقريرٍ لها على أنّها سنّةٌ لا تتخلّف.

سرُّ إظهار اسمِه الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

إحاطةُ الله تعالى بجميع صفاتِ الكمالِ والامتنان

الاسمُ الظّاهرُ أوقعُ في النّفس منَ الضّمير، ومن عادات القرآنِ التّصريحُ باسمه الأعظم في مواضع التّمنّن، والتّفضّل، والنّعم، والثّبات على سننها؛ للدّلالة على تمام علمِه، وكمالِ قدرتِه، وإحاطتِه بجميع صفاتِ الكمالِ.

بلاغةُ الحذفِ للتّخفيف، في لفظ ﴿يَكُ﴾:

التّخفيفُ إشعارٌ بانتفاء وقوع أدنى تغيير منَ الله، مهما كان خفيفًا أو قليلًا

الفعل (يكُ) حُذِفَتِ النّون فيه تخفيفًا؛ إذ إنّه مجزومٌ لوقوعه بعد (لم)، وعلامةُ جزمه السّكونُ المُقدّرُ على النّون المحذوفة تخفيفًا في (يكنْ)، وغرضُ هذا الحذفِ منَ الكلمة هنا كمالُ تنزيهه تعالى عن أن يُغيّر أيَّ نعمةٍ مهما قلّت عن قوم حتّى يبادروا هُم بالعصيان، فالأصلُ هو دوامُ النّعم لا زوالُها. و"إرْشادٌ إلى أنَّ هذه الموعظة خليقةٌ بأن يوجزَ بها غايةَ الإيجاز، فيبادرُ إلى إلقائها لما في حسن تلقّيها من عظيم المنفعةِ؛ لأنّ مَن خالفَها جديرٌ بتعجيل الانتقام"[1].

بلاغةُ التّعبير بفعل الكون مضارعًا:

سنّةُ الله ومقتضى حكمته، أن يعلّقَ الإنعامَ بتغيير النّفس

يدلُّ الكونُ في قولنا: (كان زيدٌ قائمًا) على الحصول المُطلَق، ويدلُّ خبرُه على الكون المخصوصِ؛ أي: حصوله، فلفظُ الكون دالٌّ على حصولٍ ما، ثم عيّن بالخبر ذلك الحاصل، فكأنّك قلت: حصلَ شيءٌ، ثمّ قلت: حصلَ القيامُ، فالفائدةُ في إيراد مُطلَقِ الحصولِ أوّلًا، ثمّ تخصيصِه، فضلًا عن تعيين زمان ذلك الحصولِ المقيّدِ، ولو قيل: (قام زيد)، لم تحصل هاتان الفائدتان معًا. وحيث وقع الإخبارُ بـ (كان) عن صفةٍ ذاتيّةٍ (اللّه)، فالمرادُ الإخبارُ عن

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/305.

وجودها، وأنّها لم تفارقْ ذاتَه، وتأتي بمعنى القدرة والاستطاعة؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النّساء: 58]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: 11]، أنّ معناه: أنّه هذا كونه، أي: هذه حقيقتُه وصفتُه[1]، فما استُعمِلَ منه في جنس الشَّيء مُتعلِّقاً بوصفٍ له هو موجودٌ فيه، فتنبيهٌ على أنَّ ذلك الوصفَ لازمٌ له، قليلُ الانفكاكِ منه. وبذا يكون معنى نفي الكون التّنزيهَ ونفيَ الحصولِ المُطلَقِ، والحصولِ المتعيّنِ بالخبر؛ أي: ما يجب وما ينبغي أن يكونَ له المعنى المذكور[2]. والمعنى المنفيّ هنا تغييرُ النّعمةِ المقيّدُ بتغيير الحال، والتّعبيرُ عنه بنفي الكون أقوى منَ التّعبير عنه بنفي الفعل المباشر في قولنا مثلًا: (لا يغيّرُ نعمةً)، ودلالةُ صيغةِ المضارعِ المنفيِّ بـ(لم) في هذا الموضع تفيدُ استمرارَ كونه تعالى غيرَ مُغيّرٍ نعمةً أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، وأنّ ذلك سنّةُ الكون، "فقوله: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ مُؤذِنٌ بأنّه سنّةُ اللّه ومقتضى حكمته؛ لأنّ نفيَ الكون بصيغة المضارع يقتضي تجدّدَ النّفي ومنفيه"[3].

براعةُ الإيجازِ بالحذف في السّياق:

الاكتفاءُ بالمذكور للإيجاز، من فصيح البيان

سياقُ الكلام يقتضي محذوفًا تقديره: (لم يكُ هكذا)، فاكتُفيَ بالمذكور اختصارًا؛ تقريبًا لبيان تعميم العلّةِ، وإبعادًا للسّامع من مثل ذلك[4].

بلاغةُ التّنكير للألفاظ: ﴿مُغَيِّرًا﴾، و﴿نِّعْمَةً﴾، و﴿قَوْمٍ﴾:

إفادة التّعظيم، والتّكثير، وإعمام النّعمِ، وأفراد القومِ

والتّنكير لـ﴿مُغَيِّرًا﴾ يفيدُ التّعظيمَ له ﷻ، وتنكيرُ ﴿نِّعْمَةً﴾ و﴿قَوْمٍ﴾ يحتملُ التّقليلَ والتّكثيرَ، والأفضل أن يُحملَ تنكيرُهما على التّعميم ليشملَ النّعمَ كلَّها، ويشملَ المسلمَ والكافرَ، والبرَّ والفاجرَ[5].

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/209 - 215.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/510.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/54.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/304 - 305.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/337.

دوامُ وصفِ عدم التّغيير وثبوتُه مقيّدٌ بتغيير المكلّف

نكتةُ التّعبيرِ عنِ التّغييرِ باسم الفاعل:

عبّر عن نفي التّغيير بنفي اللّفظ المُصاغ على هَيْئَةِ اسمِ الفاعلِ ﴿مُغَيِّرًا﴾ للدّلالة على ثبوتِ وصف نفي التّغيير في الزّمن الماضي، ودوامِه مقيّدًا بشرط تغيير المكلَّف ما بنفسه. وعدل عنِ المضارع للتّعبير عن ثبوت هذا الوصف فيه سبحانه؛ وذلكم من أماراتِ حكمتِه، وقدرتِه جلّ في علاه.

النّعمةُ لا يشوبُها ما يكدّرُها، ولا تكون عاقبتُها سوأى

وجهُ إيثارِ لفظِ (النّعمةِ) دون (المنّة) وغيرها:

النّعمةُ الحالةُ الحسنةُ؛ لأنّ بناءَ الفعلة بالكسر للهيئات؛ ومُتعلّقَ النّعمة اللّذّاتُ الحسّيّةُ، ثمّ استُعملَت في اللّذّاتِ المعنويّةِ العائدةِ بالنّفع، ولو لم يحسّ بها صاحبُها. فالمرادُ منَ النّعمة ما لم يَشُبْها ما يكدّرها، ولا تكون عاقبتُها سوأى، فهي شاملةٌ لخيرات الدّنيا الخالصةِ منَ العواقب السّيّئةِ ولخيرات الآخرةِ، وهي الأهمُّ، فيشمَلُ النِّعمَ الدّنيويّةَ، ويشمَلُ النّعمَ الأخرويّةَ. وتنكيرها للتكثير، والإعمام بحسب ما ذُكر.

نِعمُ اللهِ تشريفٌ، وتفضّلٌ، ومنّةٌ

تعديةُ فعلِ الإنعامِ بـ(على):

الاستعلاءُ المستفادُ بـ(على) المصاحب لفعل الإنعام، نصٌّ على فوقيّته، وإنزالِه منَ السّماء، وفي هذا تشريفٌ للمُنعَم عليه، وتفضّلٌ من لدن المُنعِم.

لولا دوامُ نعمِ اللهِ، ما اجتمع قومٌ

علّةُ التّعبير بلفظ (قوم):

إنّ تخصيصَ الإنعام بلفظ (قوم) فضلًا عنِ الإعمام المستفادِ من تنكير اللّفظِ، فإنّه يومئ إلى أنّ ذلك الفضلَ مُتمكّنٌ منهم حتّى كأنّه من مقوّمات قوميّتهم، وعليه فإنّهم لم يكونوا قومًا من غير دوامِ نعمِ اللّه عليهم، وتنوّعِها، وثباتِها فيهم.

بلاغةُ الجناس الاشتقاقيّ في السّياق:

بين لفظي (نعمة) و(أنعمها) جناسٌ اشتقاقيٌّ، جمع فيه بين

تَرْسيخُ حَتْميّةِ وقوعِ الإنعامِ، وعَدَمِ تغييره إلّا بالقيد المذكور

المصدر والفعل الماضي الدّالّ على تحقّق المنّ؛ وترسيخِ وقوعِ الإنعام، وعدمِ تغييرِه إلّا بالقيد المذكور في الآية. فضلًا عمّا أضفاه على السّياق من تأثيرٍ بليغٍ يقعُ في القلب أحسنَ موقعٍ، بما يُحدثُه من ميلٍ إلى الإصغاء، والتّجاوب، والتّأثير، فالقبول.

وكذا الأمر مع لفظي: (مغيِّرًا) و(يغيّروا) فجمع بين صيغتي اسم الفاعل والفعل المضارع؛ ليوائمَ بين ثبوتِ صفةِ نفي التّغييرِ منه سبحانَه، وبين قيدِ التّغييرِ المُتجدّد المُستمرِّ لدى المكلَّف.

فائدةُ التّعبير بالحرف ﴿حَتَّىٰ﴾، للدّلالة على الغاية:

من السّنن الإلهيّة، ربط التّغيير الاجْتِماعيِّ بالتّغيير النّفسيّ

جعل الجملةَ على نظم الجملِ الشّرطيّةِ، بتعليق التّغيير الإلهيّ بالتّغيير الإنسانيّ، كلُّ ذلك حتّى يستقرَّ في وجدانِهم أنّ صلاحَ الكونِ وانتظامَه مرتبطٌ تمامًا بصلاح النّفوسِ واستقامتِها على شريعة اللّه، يقول صاحبُ التّحرير والتّنوير: "فالغايةُ المستفادةُ من (حتّى) لانتفاء تغييرِ نعمةِ اللّهِ على الأقوام هي غايةٌ مُتّسعَةٌ؛ لأنّ الأقوامَ إذا غيّروا ما بأنفسهم من هدىً أمهلهم اللّهُ زمنًا، ثمّ أرسلَ إليهم الرّسلَ، فإذا أرسلَ إليهم الرّسلَ فقد نبّههم إلى اقتراب المؤاخذةِ، ثمّ أمهلَهم مدّةً لتبليغ الدّعوةِ والنّظرِ، فإذا أصرّوا على الكفر غيّرَ نعمتَه عليهم بإبدالها بالعذاب أو الذّلّ أو الأسر، كما فعل ببني إسرائيلَ حين أفسدوا في الأرض[1]"، فـ(حتّى) هنا لانتهاء الغايةِ، وانتفاء الشّرطِ. وأثارَ الزّمخشريّ مسألةً مهمّةً هنا نصّها: "فإنْ قلت: فما كان من تغيير آلِ فرعونَ ومشركي مكّةَ حتّى غيّر اللّه نعمتَه عليهم؟ ولم تكن لهم حالٌ مرضيّةٌ فيغيّروها إلى حالٍ مسخوطةٍ؟ قلت: كما تُغَيَّرُ الحالُ المرضيّةُ إلى المسخوطة تُغَيَّرُ الحالُ المسخوطةُ إلى أسخطَ منها، وأولئك كانوا قبلَ بعثةِ الرّسولِ إليهم كفرةً عبدةَ أصنامٍ، فلمّا بعث إليهم بالآيات البيّناتِ، فكذّبوه،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/45.

وعادوه، وتحزّبوا عليه ساعين في إراقةِ دمِه، غيّروا حالَهم إلى أسْوأ ممّا كانت، فغيّرَ اللّهُ ما أنعم به عليهم منَ الإمهال وعاجلهم بالعذاب[1]".

التَّعبيرُ عنِ التَّغيّرِ بالمضارع:

شرطُ التّغييرِ أن يكونَ مُتجدِّدًا

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغة المضارع على أنّ التّغييرَ لا يكون وقتيًّا منوطًا بالعذاب، أو الخوف منه، وإنّما يكون مُتجدِّدًا، مُستمرًّا فيهم، يمارسونه عادةً، وإرادةً، وعبادةً.

سرُّ إسنادِ الفعلِ إلى واو الجماعة:

التّوبةُ الجماعيّةُ قيدُ رضا الله، وعودُ إنعامه

دلَّت واو الجماعة على شمول هذا الحكم جميع النّاس، فاجتماعهم على هذا التّغييرِ هو قيدُ تغييرِ اللّهِ تعالى نعمتَه، ولن يُعبَأ بالتّغيير الفرديّ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117].

سرُّ التّعبيرِ بالموصول (ما):

أكّـدَت (مـا) ما لابسـهـم من نكرانٍ وجحودٍ

للعموم المستفادِ مِن (ما) في قوله: ﴿مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾؛ أُختيرَ دون غيره منَ الأسماء الموصولة، لكون تغيير ﴿مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ عامًّا غيرَ مُحدَّدٍ. والإتيانُ بـ (ما) الموصولة؛ للإيماء إلى علّة الحكم؛ أي: إنّ ظلمَهم وإنكارَهم سببٌ في تغيير النّعمةِ، فأفاد تَأكيدَ ما لابسهم من جحود.

دلالةُ (الباء) في لفظ ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾:

آثـامُ صنيعهم ملاصقةٌ لهم، وتصرّفاتهم نتاج هذه الملابسة

الباء في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾ باء الإلصاق والملابسة؛ أي: ما لاصقهم وعَلِقَ بهم[2] من أدران صدّهم عنِ المنهجِ الحقِّ، وسبيلِ الصّدقِ المؤدّين إلى الرّضا، والنّجاة، والفوز.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/218.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/45.

سرُّ توكيدِ جملةِ الفاصلةِ، في السّياق:

وجاء الاسمان الجليلان المذيّل بهما الفاصلة مؤكَّدين بـ (أنّ)، والجملة الاسميّة؛ لأنّها جاءَت تعريضًا بأولئك الّذين غيّروا وبدّلوا في دين اللّه، فاستحقّوا ما استحقّوه منَ العذاب.

في هذا التّوكيد تَسْرِيَةٌ لقلوب الفئةِ المؤمنةِ الصّابرة، وطمأنةٌ لهم

بلاغةُ أسلوب التّذييلِ، في جملةِ الفاصلةِ:

أوجز أبو السّعود مناسبةَ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لسابقتها، وسرَّ تذييلها بهذين الاسمين الجليلين، فذكر أنّ الجملةَ "عطفٌ على ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ إلى آخره داخل معه في حيّزِ التّعليل؛ أي: وبسبب أنّه تعالى سميعٌ عليمٌ، يسمعُ ويعلمُ جميعَ ما يأتون وما يذرون منَ الأقوالِ والأفعالِ السّابقةِ واللّاحقةِ، فيرتِّبُ على كلٍّ منها ما يليقُ بها من إبقاء النّعمة وتغييرها"[1].

كمالُ صفاتِ اللهِ تعليلٌ لإبقاءِ النّعمِ وزوالها

نكتةُ التّعبيرِ عنِ الاسمين بصيغة (فعيل):

في صوغهما على هيئة (فعيل) دلالةُ ثبوت الصّفتين فيه تعالى؛ لما تدلّان عليه منَ الشّدّةِ، والمبالغةِ في الوصف بما تحصّله من صفات السّمعِ والعلمِ أكملِها، وأتمِّها جلّ وتعالى وصفُه، وقدرتُه.

الوصفان (سميعٌ عليمٌ) ثابتان فيه تعالى بيقين

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّغيير والتّبديل:

الاستبدال: أخذُ الأوّل بدلَ الثّاني بعد أن كان حاصلًا له أو في شرف الحصولِ، فهو يُطلَقُ على تبديل ذاتٍ بذاتٍ كتبديل الدّنانيرِ دراهمَ، وعلى تبديل صفةٍ بأخرى كبدّلتُ الخاتمَ حلقةً[2].

والتّغيير: تبديلُ شيءٍ بما يضادُّه، فقد يكون تَبْديلَ صورةِ جسمٍ كما يُقال: غيّرتُ داري، ويكون تَغْيِيرَ حالٍ وصفةٍ، ومنه تغييرُ الشّيب؛

تغييرُ النّعمةِ إبدالُها بضدّها؛ من النّقمة وسوء الحال

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/105.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 9/412.

أي: صباغه، وكأنّه مشتقٌّ منَ الغير وهو المخالفُ، فتغييرُ النّعمة إبدالُها بضدّها؛ وهو النّقمةُ وسوءُ الحال؛ أي: تبديلُ حالةٍ حسنةٍ بحالةٍ سيّئةٍ[1]. ومن هنا فهو أنسبُ لسياق تغيير النّعمةِ إلى نقمةٍ، وتغيّرِ سوءِ الخُلُقِ والحالِ بحسنهما.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/45.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾

[الأنفال: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين أسباب تغيّر النّعم، وما حلّ بآل فرعون والّذين من قبلهم من هلاك

لمّا بيَّن ما أنزله بأهل بدر منَ الكفّار عاجِلًا وآجِلًا، أتْبعه بأنْ بيَّن أنَّ هذه طريقتُه وسنّتُه ودأْبُه في الكلِّ فقال: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾[1]، فهو استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أنّ ما حلَّ بهم منَ العذاب بسبب كفرهم لا بشيءٍ آخرَ من جهة غيرِهم، وذلك بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالإهلاك بسبب جرائمِهم؛ لزيادة تقبيحِ حالِهم، وللتّنبيه على أنّ ذلك سنّةٌ مُطَّرِدةٌ فيما بين الأمم المهلَكةِ؛ أي: شأنهم الّذي استمرّوا عليه ممّا فعلوا وفُعِل بهم منَ الأخذ، كدأب آلِ فرعونَ المشهورين بقباحةِ الأعمالِ وفظاعةِ العذابِ والنّكالِ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: الدّال، والهمزة، والباء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ملازمةٍ ودوام. والدّأبُ: العادةُ المستمرّةُ دائمًا على حالة والشّأنُ، ودأبَ فلانٌ في عمله؛ أي: جدَّ وتعِب. وأصله: المبالغة في السَّير، والدّأبُ في الآية: العادةُ والشّأنُ. ودَأبُ آلِ فِرعَونَ؛ أي: شأنُهم وعادتُهم الّتي يستمرّون عليها[3]. ويرى الأزهريّ أنّ معنى "دَأبَ هَهُنا اجتهادُهم في كفرهم وتظاهرُهم على النَّبيِّ ﷺ كتظاهر آلِ فِرعَونَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/495، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/543.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/103.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (دأب).

على موسى عليه السلام"[1]. ودأبُهم عند أهل التّفسيرِ عادتُهم وعملُهم الّذي دأبوا فيه؛ أي: داوموا عليه، وواظبوا، وكَفَروا[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

عقوباتُ السّابقين من آل فرعون الظّالمين، عظاتٌ وعبر للّاحقين

إنّ شأنَ تكذيبِ هؤلاء المشركين الّذين حاربوك يا محمّد، كشأن تكذيبِ آلِ فرعونَ، ومَن تقدّمهم منَ الأقوام السّابقةِ، كقوم نوحٍ وقوم هودٍ، فكانت نتيجةُ ذلك أن أهلكَهم اللّهُ بسبب ما ارتكبوه من ذنوب، وبسبب استعمالهم النِّعَمَ في غير ما خُلِقَت له، وكلٌّ منَ الأقوام المذكورين، ومَن على شاكلتهم في الكفر والضّلال كانوا ظالمين لأنْفُسِهم بكفرهم، ولأنبيائهم بسبب محاربتهم لهم، وإعراضهم عنهم، مع أنّ الأنبياءَ ما جاءوا إلّا لهدايتهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

ما حلَّ بآل فرعون من نقمةٍ، كان بسبب الكفر والظّلم والغرور

الجملةُ استئنافٌ سيق؛ لبيان أنّ ما حلَّ بهم منَ العذاب بسبب كفرِهم لا بشيءٍ آخرَ مِن جهة غيرِهم، ولتقرير ما سيق له الاستئنافُ الأوّلُ، ويصحُّ تقديرُ كونِها اعْتِراضًا[4].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

وضوحُ المعنى مظنّةُ الإيجاز بالاستغناء بالمذكور

قوله: ﴿كَدَأۡبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: (دأبُ هؤلاء مثل دأب آلِ فرعونَ)، وهو حذفٌ تابعٌ للاستعمال في مثل هذه الحالات، فإنّ العربَ إذا تحدّثوا بشيءٍ، ثمّ جاؤوا بخبرٍ دون مبتدأ، عُلِمَ أنّ المبتدأ محذوفٌ، ويُقدَّرُ بحسب الكلام[5].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دأب).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 126 - 129/6.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/43.

وجوّزوا في (دأب) أن يكونَ في محلّ النّصبِ على أنّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: حتّى يغيّروا ما بأنفسهم تَغْييرًا كائِنًا كدأبِ آلِ فرعونَ؛ أي: كتغييرهم، على أنّ دَأْبَهُم عبارةٌ عمّا فعلوه فقط كما هو الأنسبُ بمفهوم الدّأبِ[1].

بلاغةُ التّشبيهِ في السّياق:

التّشبيهُ الأوّلُ لمشابهتهم للسّابقين، والثّاني لبيان سُنّةِ التّغييرِ الكونيِّ والاجتماعيّ

شبّه دأبَهم بدأب المذكورين، لكنْ لا بطريقِ التّكريرِ المحضِ، بل بتغيير العُنوانِ، وجعلِ الدّأبِ في الجانبين عبارةً عمّا يلازمُ معناه الأوّلَ من تغيير الحالِ وتغييرِ النّعمة، أخذاً ممّا نطقَ به قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً﴾ الآية؛ أي: دأبُ هؤلاء وشأنُهم الّذي هو عبارةٌ عنِ التّغييرَين المذكورين، كدأب أولئك حيث غيّروا حالَهم فغيّر اللّهُ تعالى نعمتَه عليهم، فقولُه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ تفسيرٌ لدأبهم الّذي فعلوه من تغييرهم لحالهم، وقوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ تفسيرٌ لدأبهم الّذي فُعِلَ بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته، وأمّا دأبُ قريشٍ فمستفادٌ منه بحكم التّشبيه، فللهِ درُّ شأنِ التّنزيلِ حيث اكتَفى في كلٍّ منَ التّشبيهين بتفسير أحدِ الطّرفين[2]، وهذا رأيُ الطّيبيِّ فالتّشبيهُ الثّاني عنده مُفصّلٌ لما أُبهمَ منَ التّشبيه الأوّلِ، وليس تشبيهًا جديدًا، قال في حاشيته على الكشّاف: فعُلِمَ من هذه الآية: أنّ تلك النّعمةَ هي نعمةُ الآياتِ المنزَلة، وأنّ ذلك الكفرانَ تكذيبُها وجحودُ الحقّ، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ مشتملٌ لجميع أنواعِ التّعذيبِ، وقوله: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ نصٌّ على تعيين العذابِ.

وزعم بعضُهم أنّ هذا ليس بتكرير؛ لأنّ معنى الأوّل حالُ هؤلاء كحالِ آلِ فرعونَ في الكفر والتّكذيب، فأخذهم بالعذاب، ومعنى

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/105.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/105.

الثّاني حالُ هؤلاء كحال آلِ فرعونَ في تغييرهم النّعم، وتغيير اللّه حالهم بسبب ذلك التّغيير، وهو أنّه أغْرقهم، بدليل ما تقدّم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ الآية، والنّظمُ يأبى هذا القولَ؛ لأنّ وجهَ التّشبيهِ في التّشبيهِ الأوّلِ هو قوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، فشبّهَ حالَ كفّارِ قريشٍ بحال فرعونَ ومَن قبله، والوجه الاخر للتّشبيه الكفرُ المُرتّبُ عليه العقابُ، فكذلك ينبغي أن يكونَ الوجهُ في التّشبيه الثّاني هو قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾، لأنّه مثلُه[1].

وبعضُ المفسّرين رأى أنّ التّشبيهين ليسا من بابٍ واحدٍ، مثل صاحب المحرّر الوجيز حيث يقول: "وهذا التّكريرُ هو لمعنًى ليس للأوّلِ، إذِ الأوّلُ دأبٌ في أنْ هلكوا لمّا كفروا، وهذا الثّاني دَأْبٌ في أنْ لم تُغَيَّرْ نعمَتُهم حتّى غيَّروا ما بأنفسهم[2]"، وكذلك القاضي البيضاويّ حيث قال: "الأوّل: تشبيهُ الكفرِ والأخذ، والثّاني: تشبيهُ التّغييرِ في النّعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم"[3]، والّذي يبدو أنّ التّشبيهين، وإن ظهرا لأوّل وهلةٍ مكرّريْنِ إلّا أنّ سياقَ كلِّ تشبيهٍ ووجهَ الشّبهِ فيهما مُختلفٌ تمامًا، فالتّشبيهُ الأوّلُ جاء في سياق مشابهتهم للأقوام السّابقة في أنّ ما أصابَهم كان بسبب كفرهم وعنادهم، وليس بسبب ظلم اللّه تعالى لهم، فوجهُ الشّبه بين مشركي مكّة ومَن سبقهم هو في ظلمهم أنفسهم بسبب ما قدّمته أيديهم، لا بسبب شيءٍ آخر، فاستحقّوا على إثر هذا أن يؤاخذوا بالعقوبة بسبب هذه الذّنوب، وسياقُ التّشبيه الثّاني يتعلّقُ بسنّةِ التّغييرِ الكونيِّ الّتي ربطَها الحقُّ ﷻ بسنّة التّغيير الاجتماعيّ، فإنّ صلاحَ الكونِ منوطٌ بصلاح النّفوس، وهذا ما ذكره الحقُّ في مواضعَ كثيرةٍ، يقول تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجنّ: 16]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]، ووجهُ الشّبهِ هنا بينهم وبين مَن سبقوهم هو في تكذيبهم بهذه السّنَنِ الإلهيّةِ والقوانينِ الكَوْنيّةِ، فاستحقّوا على إثرها الإهلاكَ والإغراقَ، وكأنّه يقول لهم: إنّ مَن يُكذِّبُ بهذه السّنَن تنقلبُ عليه قوانينُها، فبدلًا من أن تكونَ قوانينُ الكون مسخّرةً لتكون سببًا في نجاتهم واستقرارهم في الأرض، تصبح سببًا في إهلاكهم وإغراقهم واللّه أعلم.

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/134.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 809.

(3) (3) البيضاويّ، حاشية محيي الدّين بن شيخ زادة للقونويّ: 4/406 - 407.

سرُّ التّعبيرِ بالآل دون غيره:

أوثر لفظُ الآل ليشملَ الأتباعَ كلَّهم

عبّر بـ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ ليشملَ ملأهُ، وشرفاءَ قومه، وكبراءَهم، وجميعَ أتباعه، ومَن آلَ إليه في دينٍ، أو مَذهَبٍ، أو نسبٍ؛ لأنّ الآلَ لا تُطلَقُ إلّا على الأتباعِ كلِّهم، مع إيمانهم بالمتبوع، واتّباع منهجِه، وشريعتِه، وسيرتِه[1].

فائدةُ تخصيصِ ذكرِ آلِ فرعونَ مِن بينهم:

كفرُ فرعون وآله، هو أشنعُ الكفر وأفظعُه

وجهُ تخصيص ذِكرِ ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ دون غيرهم، وذِكرِ الّذي أُهلِكوا به، وهو إغراقهم؛ لأنّه انضمّ إلى كفرهم دعوى الإلهيّةِ والرّبوبيّةِ لغير اللّه تعالى، فكان ذلك أشنعَ الكفر وأفظعَه[2].

آلُ فرعون أقربُ إلى كفّار قريشٍ من غيرهم، وفيه تذكيرٌ لأهل الكتاب منهم

خُصّوا بالذّكر؛ لكونهم أقربَ إلى هَؤُلَاءِ الكفّار من غيرهم ممّن كان قبلهم، ألا ترى أنّه قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ [المزّمّل: 15]، أو أن يُذكرَ أهلُ الكتاب منهم؛ لكونهم كانوا ينكرون بعثَ الرُّسلِ من غير ملّتهم، ويقولون: إنّ محمّدًا أمّيٌّ بُعِثَ إلى الأمّيّين مثلِه، فأجاب: إنَّ موسى لم يكُنْ منَ القبط، ومع ذلك بُعِثَ رسولًا إليهم؛ وعليه فإنّ مُحَمَّدًا، وإن كان أمّيًّا، فإنّه بُعِثَ إلى الأمّيّين وغيرهم[3].

في ذكر هلاكِ أشهرِ الملوكِ الظّلمةِ طغيانًا عِبرةٌ، ورهبةٌ، وردعٌ

وخُصَّ آلُ فرعونَ بذكر هلاكهم؛ لأنّ فرعونَ كان أشهرَ ملوكِ عصرِهم، وأشدَّهم طغيانًا عن رعيّتِه، وأرهبَهم، وأظلمَهم، فذِكْرُهُ للعرب، وقد أهلكه اللّهُ تعالى بالغرقِ، أرهبُ لنفوسهم، وأشَدُّ على غرورهم، وأرْدَعُ لطغيانهم، وفوق ذلك أغرقَه اللّهُ تعالى بأمرٍ خارقٍ للعادةِ لم يكن في حسبانهم، إذِ انفلقَ البحرُ فكان كلُّ فرقٍ كالطّودِ العظيمِ، ثمّ انطبقَ عليهم بما لم يعهدوا، ولم يحسبوا،

(1) الرّاغب، المفردات: (آل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 1/140، ورشيد رضا، تفسير المنار: 9/74 - 75.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/338.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/241.

فهو يُذكِّرُ المشركين بأنّ اللّه تعالى يأتيهم من حيثُ لم يحتسبوا، وأنّه سيهزمُهم من حيثُ لا يشعرون، بل يحسبون في أنفسهم أنّهم الغالبون، ويوسوسُ لهم الشّيطانُ بأنّهم لا غالبَ لهم[1].

الذّكرُ في مواضع الخيبةِ إذلالٌ

وفضلًا عمّا ذُكِرَ فإنّ موردَ الذّكرِ في مَواطنِ الخيبةِ، والعقوبةِ، والعذابِ، والإهلاكِ إذلالٌ ومهانةٌ يناسبه التّصريحُ، فعقابُ هؤلاء الكفّار بأنواع العقوبةِ لِما ارتكبوه من تنوّع الزّلّاتِ، كما تنوّعت من آلِ فرعونَ الذّنوبُ فنوّع لهم العقوبةَ[2].

علّةُ العطفِ بحرف (الواو):

اجتمعَ آلُ فرعونَ ومَن قبلهم في تكذيب آياتِ اللهِ

وصلَ بين جملتي ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، و(الّذين من قبلهم) بالعاطف (الواو) الدّالّة على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركة في الحكم، دون (الفاء)، أو (ثمّ)؛ للدّلالة على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركةِ في الحكم من غير اقتضاءِ ترتيبٍ، ممّا يسوّغُ أن يكونَ المتأخّرُ ذكرًا مُتقدِّمًا معنى، والعكس بالعكس كذلك.

وجهُ تشديدِ فعل التّكذيب، وإسْنادِه إلى واو الجماعة:

الإصرار على الكذب وممارسته؛ أودى بهم إلى عاقبة مُزْرِيَةٍ

بالغَ في وصف كذبهم بالتّعبير عنِ الفعل مُشَدَّدًا، مُصاغًا بهيأة الماضي الدّالّ على الوقوع، والتّحقّق، والإصرارُ على شنيع فعلِ التّكذيب للخالق غيٌّ وضلالٌ يستحقُّ العقابَ، ويستوجبُ الإهلاكَ، ودلَّت واو الجماعة على اجتماعهم على الكذب، وشموله جميع المذكورين. قال تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾ [الإسراء: 103]، فالضّميرُ في ﴿كَذَّبُواْ﴾، وكذلك في ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾، عائدٌ على المشبّه والمشبّه به في ﴿كَدَأۡبِ﴾؛ ليشملَ كلَّ المُكَذِّبين السّابقين.

سرُّ جمعِ لفظ (آيات)، في السّياق الحكيم:

تعدّدُ الآيات قطعٌ للعذر، ومن أنذر فقد أعذر

جمعُ الآياتِ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ دليلُ تعدّدِها، وتنوّعِها،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3166.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.

رحمةً منَ اللّه، وقطعًا للعذر، وفي ذلك " زيادةُ دلالةٍ على كفران النِّعم وجحود الحقّ "[1].

فائدةُ تعريفِ الآياتِ بالإضافة:

عِظَمُ الآياتِ، بعِظَمِ صانعها

تعريفُ الآيات بإضافتها إلى لفظ الرّبوبيّةِ دليلُ عظمتِها، وصدقِها، ونفعِها؛ بوصفه مُنعمًا بها عليهم، راعيًا لمصالحهم من حيث إنّه هو المُرَبّي لهم بنعمه، ولهذا ذكرَ فيها اسمَ الرّبِّ مضافًا إليهم بدلَ اسمِ الجلالةِ هناك - فيدخُلُ في ذلك تكذيبُ الرّسلِ ومعاندتُهم وإيذاؤُهم وكفرُ النّعم المُتعلِّقة ببعثهم والسّابقةِ عليها، وفي الجزاء على ذلك بعذاب الدّنيا[2]. ومن فوائد نسبةِ الآياتِ المُكذَّبةِ إلى ربّهم: بيانُ فظاعةِ التّكذيبِ؛ لأنّهم كذّبوا بآيات ربِّهم الّذي خلقَهُم، وكوَّنَهُم، وربّاهُم، وهو العليمُ بما يناسبُهُم من أدلّةٍ، وأنّ هذه الآياتِ منَ المتفضِّلِ عليهم بنعمة الوجودِ والتّنمية، وإعطائِهم القوّةَ الّتي طغَوا بها[3].

سرُّ إيثارِ وصفِ الرّبوبيّة:

لا شناعةَ لفعل أشدُّ منَ الاجتراء على الخالق في موضع الشّكر

ذكرَ وصفَ الرّبوبيّة هنا دون الاسم العلم لزيادة تفظيع تكذيبهم؛ لأنّ الاجتراءَ على اللّه مع ملاحظة كونه ربًّا للمجترئ، يزيدُ جراءَته قبحًا؛ لإشعاره بأنّها جراءةٌ في موضعِ الشّكرِ؛ لأنّ الرّبَّ يستحقُّ الشّكرَ[4].

وفي مقام الرّبوبيّةِ مزيدٌ منَ النّعي عليهم بأنّ تكذيبَهم صدرَ بحقِّ مَن ربّاهم، ودلائلُ تربيته وإحسانه كثيرةٌ مُتَتاليَةٌ، فقابلوها بكفران النّعمةِ وجحود الحقِّ فاستحقّوا الإهلاكَ والإغراقَ[5].

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/133.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/41.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/338.

دلالةُ (الفاءِ) العاطفة في السّياق:

تضافرُ الذّنوب، مظنّةُ العقاب من علّام الغيوب

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ عاطفةٌ؛ لربط ما بعدها على ما قبلها؛ أي أنّه بسبب تكذيبِهم أهلكهم اللّهُ تعالى بسبب هذه عقابًا منَ اللّه تعالى، ولأنّ الذّنوبَ المتضافرةَ يترتّبُ عليها الهلاكُ لا محالة[1]، وعملُها التّعقيبُ والتّرتيبُ أفادَ سرعة وقوعِ الأخذِ بهم.

معنى حرف (الباء) في شبه الجملة ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

التّلبّس بالذّنوب، سببُ أخذ كلّ عاصٍ، بالعقاب المطلوب

الباء لتأكيد ما أفادته الفاءُ منَ السّببيّةِ، مع الإشارةِ إلى أنَّ لهم مع كفرهم ذنوبًا أُخَرَ لها دخلٌ في استتباع العقابِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بذنوبهم معاصيَهم المتفرِّعةَ على كفرهم، فتكونُ الباءُ للملابسة؛ أي: فأخذهم مُلتبِسين بذنوبهم، غيرَ تائبين عَنْها، فدأْبُهم مجموعُ ما فعلوا وفُعِل بهم لا ما فعلوه فقط[2].

وجهُ إيثارِ لفظِ الإهلاكِ دون الأخذ:

مآلُ الأخذ الإهلاكُ، وليس بعد وقوعه من ادّراك

عبّرَ بالإهلاك عوضًا عن لفظ (الأخذ) المُتقدِّم ذكرُهُ في الآية [52]؛ ليفسّرَ الأخذَ بأنّه آلَ إلى الإهلاك، وزيدَ الإهلاك بيانًا بالنّسبة إلى آلِ فرعونَ بأنّه إهلاكُ الغرقِ[3].

براعةُ التّفنّن في الأسلوب:

الكفرُ والتّكذيبُ سببان للأخذ والإهلاك

وخولِف بين الجملتين بذكر التّكذيبِ هنا بعد ذكرِ الكفرِ في الآية [52] تفنّنًا في الأسلوب، وزيادةً للفائدة، فالكفرُ والتّكذيبُ سببان للأخذ والإهلاك[4].

الحكمةُ في تكرار قوله: ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾:

فائدةُ التّكرارِ أنّه تعالى ذكرَ في الآية الأولى الأخذَ بالذّنوب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.

في ذكر الإغراق بيانٌ للأخذ بالذّنوب الّتي تغرق القلب قبل البدن

والتّعذيب، ولم يبيّن ما كان ذلك العذاب، فبيّنَ في الآية الأخرى أنّ ذلك العذابَ هو الإهلاكُ والاستئصالُ؛ إذ قال: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾؛ فالكلامُ الثّاني جرى مَجرَى التّفصيلِ للكلام الأوّلِ؛ لأنّ الآيةَ الأولى فيها ذكرُ أخذِهم، وفي الآية الثّانيةِ ذكرُ إغراقِهم، فهذه تفسيرٌ للأولى[1]، وعلّةُ التّفصيلِ أنّه مقامُ ذمٍّ وهو كالمدح، والبلاغةُ فيه الإطنابُ[2]، ولقصد التّأكيدِ، والتّسميعِ، وتقريرِ الإنذارِ والتّهديدِ[3]، فقد ذكر في الآية الأولى أنّهم كفروا بآيات اللّه، وفي الآية الثّانية أنّهم كذّبوا بآيات ربّهم؛ ففي الآية الأولى إشارةٌ إلى أنّهم أنكروا آياتِ اللّهِ وجحدوها، وفي الآية الثّانيةِ إشارةٌ إلى أنّهم كذّبوا بها مع جحودِهم لها وكفرِهم بها، وفي ذلك زيادةٌ في الدّلالة على كفران النّعم، وجحودِ الحقّ، وفي ذكر الإغراقِ بيانٌ للأخذ بالذّنوب[4]؛ فالأولى لسببيّة الكفر، والثّانية لسببيّة التّغيير[5].

وثمّة فائدةٌ أخرى في تكرار ذكرهم؛ وهي تأكيدُ الإعلام بأنّه لا يُهمَلُ المُكلَّفُ على الدّوام، وإن أمْهَلَهُ حينًا ودهرًا[6].

بلاغةُ الالتفاتِ، منَ الغيبة إلى الحضور:

حكمُ الله واقعٌ، والتّذكيرُ بالرّهبة منه واجبٌ

في الكلام التفاتٌ منَ الغيب إلى الحاضر، والإسنادُ إلى اللّه تعالى بإسناد الإهلاكِ إليه ﷻ لبيان تأكّدِ الوقوعِ؛ لأنّه منَ اللّه تعالى القاهرِ فوقَ عبادِه العزيزِ الحكيمِ، ولتربية المهابةِ في النّفس، وللتّذكير بالرّهبة منَ اللّه تعالى[7].

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/43، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/241 - 242.
(2) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 708.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 3/43.
(5) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/577.
(6) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.

وفي الالتفاتِ إلى نونِ العظمةِ في (أهلكنا) جَرْيٌ على سنن الكبرياءِ؛ لتهويلِ الخَطبِ[1].

بلاغةُ عطفِ الجُمل، وأثره في السّياق:

الإشعار بالعطف والاتّساق، كمالُ هولِ الإغراقِ

عطفُ قوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ على ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ مع اندراجه تحته؛ للإيذان بكمالِ هولِ الإغراقِ وفظاعتِه كعطف جبريلَ عليه السلام على الملائكة[2]. وهو من عطف الخاصِّ على العامّ للإشادة بجرائمِ آلِ فرعونَ حتّى كأنّها مغايرةٌ لجرائم كلِّ الأقوامِ الّذين سبقوهم.

بلاغةُ التّشابه اللّفظيّ بين آية آل عمران، وآيتي الأنفال:

علّةُ اختلافِ النّظم بين الآيات الثّلاث، اختلافُ السّياق الّذي وردَت فيه كلُّ آيةٍ

قد شابه نظمُ هاتين الآيتين هنا في الأنفال نظمَ آيةٍ أخرى في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11].

وقد حاول صاحبُ ملاك التّأويل أن يعلّلَ بعضَ أسبابِ الاختلافِ في نظم الآياتِ الثّلاثِ بما يأتي: آية آل عمران والآية [54] منَ الأنفال ذُكِرَ فيهما التّكذيبُ، ففي سورة آل عمران تقدّم قبلَها الحديثُ عن تنزيل الكتبِ الثّلاثةِ، والإشارةُ إلى ما تضمّنَتهُ منَ الهُدى والفرقان، فالتّكذيبُ ناسبَها، وفي الأنفال جاء التّكذيبُ؛ لأنّه سبقَها بآيتين الحديثُ عنِ الكفر، فعدل لثقل التّكرّرِ مع القرب، وليحصلَ وسمُهُم بالكفر والتّكذيب، وجيءَ بالاسم الظّاهر (اللّه) في الآية [52] منَ الأنفال فقال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لتقدُّم ذكرِ الملائكةِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بنسبةِ الفعلِ للملائكة، وتقدّم أيضًا: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، بينما في آل عمران لم يتقدّمها ذكرُ فعلٍ لغير اللّه، ولا نسبةُ شيءٍ لسواه، فجيءَ بقوله:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/31.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11] على طريقة الالتفاتِ، وفي الموضعِ الأوّلِ منَ الأنفال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُعلمَ أنّ الأمرَ له ﷻ، وأنّ الملائكةَ مسخّرون بأمره وفعلُهم مِن خلقِه، وتَزْيينَ الشّياطين بقدره، وقيل في الثّانية: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ ليجري مع ما تقدّمه مُتّصلًا به من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾، فذكر ابتداءَه بالنّعم، فناسبه ذكرُ ملكيّته سبحانَه لهم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، وأمّا الأخذُ بالذّنوب في آل عمران والآيةِ الأولى منَ الأنفال دون الموضع الثّاني منَ الأنفال: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾، فإنّه جاء هكذا دفعًا للتّكرار؛ لأنّه سبقها الحديثُ عنِ الأخذ بالذّنوب، وأمّا تباينُ الحديث عن شدّة العقابِ ففي آل عمران: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝١١﴾ [آل عمران: 11]؛ لأنّه لم يسبقها ما سبق آيةَ الأنفال الأولى منَ الحديث عن قول الشّيطان: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ فقوبِل قولُه المُضمَحلُ بإسناد القوّة للّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ ولذلك فصّل العقابَ في ثانية الأنفال فقال: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، وهو آخرُ موضعٍ وقع التّذكيرُ فيه بعبادة آلِ فرعونَ في تكذيبهم، وأخذِهم بكفرهم[1].

ولا شكّ أنّ كثيرًا من توجيهاته سديدٌ مقبولٌ، وبعضها لا يخلو من تكلّفٍ، فانفرادُ الآيةِ الأولى منَ الأنفال بقوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبقها الحديثُ عن توفّي الملائكةِ للّذين كفروا، وسبقها الحديثُ كثيرًا عن فئة الكافرين في مقابل الفئة المؤمنة، فناسب أن يسِمَهم بالكفر، وبعدها بآيتين يبيّنُ نوعَ هذا الكفر، وأنّه كان تكذيبيًّا، ولذلك خصّص في الآية الثّانيةِ الأخذَ بالإهلاك أيضًا.

يقول ابنُ عاشور: "فأمّا المُخالَفَةُ بين ﴿كَذَّبُواْ﴾ [آل عمران: 11] و﴿كَفَرُواْ﴾؛ فلأنّ قَومَ فِرعَونَ والّذينَ مِن قَبلِهم شارَكوا المُشرِكينَ في الكُفرِ باللّه وتكذيبِ رُسُله، وفي جَحدِ دَلالَةِ الآياتِ على الوَحدانيَّةِ وعلى صِدقِ الرَّسولِ ﷺ، فذُكِروا هنا ابتِداءً بالأفظَعِ مِنَ الأمرَين، فعُبِّرَ بالكفر بالآياتِ عَن جحد الآياتِ الدّالّةِ على وحدانيّةِ اللّهِ تعالى؛ لأنّ الكُفرَ أصرَحُ في إنكارِ صِفاتِ اللّهِ تعالى. وقَد عُقِّبَتْ هذه الآيَةُ بالّتي بَعدَها، فذُكِرَ في الّتي بَعدَها التَّكذيبُ

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/79.

بالآياتِ؛ أي: التَّكذيبُ بآياتِ صِدقِ الرَّسولِ ﷺ، وجَحدُ الآياتِ الدّالَّةِ على صِدقِه. فأمّا في سورَةِ آلِ عِمرانَ [11] فقَد ذُكِرَ تَكذيبُهُم بالآياتِ؛ أي: الدّالَّة على صِدقِ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنّ التَّكذيبَ مُتَبادِرٌ في مَعنَى تَكذيبِ المُخبِر، لِوُقوعِ ذلك عَقِبَ ذِكرِ تَنزيلِ القُرآنِ، وتَصديقِ مَن صَدَّقَ به، وإلحادِ مَن قَصَدَ الفِتنَةَ بِمُتَشابِهِه، فعُبِّرَ عَنِ الّذينَ شابَهوهُم في تَكذيبِ رَسولِهم بِوَصفِ التَّكذيبِ. فأمّا الإظهارُ هُنا في مقامِ الإضمارِ فاقتَضاهُ أنَّ الكُفرَ كُفرٌ بما يَرجِعُ إلى صِفاتِ اللّهِ، فأُضيفَتِ الآياتُ إلى اسمِ الجَلالَةِ؛ لِيَدُلَّ على الذّاتِ بِعُنوانِ الإلَهِ الحَقِّ، وهو الوَحدانيَّةُ"[1].

غرضُ التّنكيرِ في لفظ ﴿وَكُلٌّ﴾، من الآية الكريمة:

المرادُ بـ﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: كلٌّ منَ الفرق المذكورين، أو ﴿وَكُلٌّ﴾ من هؤلاء وأولئك، أو ﴿وَكُلٌّ﴾ من آل فرعونَ وكفّار قريش[2]، والأولى الحملُ على العموم، وتنوين ﴿وَكُلٌّ﴾ للتّعميم؛ تعويضٌ عنِ المضاف إليه، أي: كلُّ مَن تقدّمَ منَ المذكورين؛ أي: آل فرعون والّذين من قبلهم، ولذا جاءَ بعدَها ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ لتعدّدهم مراعاةً للفاصلة عند مَن يقولُ بذلك[3]، ولا شكّ أنّه عند التّحقيق فإنّ العلماءَ يرضون أن تكونَ مراعاةُ الفاصلةِ مقبولةً إن كانت تبعًا للمعاني المقصودة، فتزيدها حسنًا فوقَ حُسن، ومفعول ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ محذوفٌ للتّعميم، فيدخلُ فيه ظلمُهم لأنْفُسِهم، وظلمُهم لغيرهم.

مراعاة الفاصلة للمعاني المقصودةِ، يزيدها حُسنًا فوق حُسنها

بلاغةُ توكيدِ الحكمِ في الفاصلة بـ(كان)، والجملة الاسميّة:

(كلٌّ) مضافٌ إلى محذوفٍ يعمُّ حكمَ اللّهِ تعالى عليه بأنّه ظالمٌ، فوصف اللّهُ تعالى العصاةَ جميعًا بأنّهم ظالمون، فقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ

ظلمُهم ثابتٌ دائمٌ أحاط بهم، فأغرقتهم أمواجه المتلاطمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/43.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/31.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/338 - 339، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.

﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: كلُّ الّذين كفروا برسل اللّهِ، وآياتِ ربِّهم كانوا ظالمين، وأكّدَ ذلك الحكمَ بـ(كان) الدّالّةِ على استمرار الظّلم، وبالجملة الاسميّةِ، وقد ظلموا أنبياءَهم بتكذيبهم مع أنَّ الحقَّ واضحٌ أبلجُ، وظلموا أنفسَهم؛ لأنّهم ارتضوا الضّلالةَ بدلَ الهداية، وظلموا المؤمنين؛ لأنّهم آذوهم، وسَخِروا منهم، وظلموهم؛ لأنّهم حاربوهم، وهم فاجرون في حربهم، وظلموهم؛ لأنّهم أشاعوا عنهم السّوءَ، وهكذا أحاطَ الظّلمُ بهم، والظّلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واللّهُ مُنتقِمٌ جبّارٌ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدّأب والسُّنّة:

الـدّأبُ وصفٌ لطريقة الكفّار في السّير، على نهج سابقيهم حتّى أُهلِكوا

ممّا يُلحَظُ في هذه الآيات مدار البحث أنّ آيتي الأنفال استَعملتا لفظةَ (الدّأب) الّتي وردَت أيضًا في سورة آل عمران بقوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وفي سورة يوسف بقوله: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف: 47]، وفي سورة إبراهيم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: 33]؛ فيُلحظُ في استعمالاتها أنّها كانت وصفًا لحالاتٍ متتابعةٍ لا تتغيّر، فقد شبّه القرآنُ الكريمُ حالَ الكفّار بمَن يسيرُ على عادةِ مَن سبقه حذو القذّة بالقذّة دون خروج عن سننهم في الحياة، مع الثّبات في طريقة السّيرِ، واستعمل القرآنُ لفظةً أخرى مقاربةً للتّعبير عن مثل هذه الحالات؛ وهي لفظةُ (السُّنّة) في وصف عادات السّابقين، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾ [الكهف: 55]، واستعملها مضافةً إلى اللّه على

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3166.

أنّها من قوانين الكونِ الكونيّةِ أو الاجتماعيّةِ، فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ۝٦٢﴾ [الأحزاب: 62].

فالسّنّة هي عادةٌ أيضًا مثلُ الدّأب، ولكنّها قد تكون قهريّةً، وقد تكون اختياريّةً، وقد تكون كونيّةً أو اجتماعيّةً، والدّأبُ لا يكونُ إلّا اختياريًّا من خلال الاستعمالاتِ الّتي ذكرها القرآنُ الكريمُ له، فظهر بهذا أنّ استعمالَ الدّأبِ في المواضعِ الّتي ورد فيها لا تسدُّ مَسدَّهُ كلمةُ (العادة) أو (السُّنّة).

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾

[الأنفال: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين هلاك الكافرين، وتشبيههم بالدّوابّ، لانعدام العقل والدّين

بيّن في هذه الآية وما بعدها أحكامَ التّعاملِ مع الّذين ينقضون هذه العهود، وكذلك الّذين يُخاف مِن أن ينقضوها، بعد أن تَحَدّثَ عمّا جرى مع الكافرين المعاصرين للنّبيّ ﷺ ومَن سبقوه، فالرّابطُ العامُّ الجامعُ في هذه الآيات كلِّها هو الحديثُ عنِ الكفر وأهلِه، منَ المعاهدين وغيرهم. والآيةُ هنا تعليلٌ لاتّصافهم بالظّلم في الآية السّابقة، أو استئنافٌ بيانيٌّ له؛ أي: ظلموا لأنّهم كفروا بآيات ربِّهم الّذي تفرّدَ بالإحسان إليهم[1]، ثمّ إنّه تعالى لما وصف كلَّ الكفّارِ بقوله: ﴿وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أفرد بعضَهم بمزيّةٍ في الشّرِّ والعِنادِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾: جمع دابّة، وأصل (دبّ) يدلّ على حركةٍ على الأرض تكون أخفَّ منَ المشي، ويُقال لكلِّ مَن مشى على الأرض دابّةً[3]، وتُستعمَلُ كلمةُ (دابّة) مع كلِّ حيوانٍ، وإن اختُصَّت في التّعارفِ بالفرس، وقولُه هنا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عامٌّ في جميع الحيوانات[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

شرُّ النّاس مَن أصرَّ على الكفران، فأضحى كالبهائم، بلا عقل ولا إيمان

الآيةُ إخبارٌ عن قوم مطبوعين على الكفر بأنّهم لا يؤمنون؛ أصرّوا على الكفر ورسخوا فيه، فلا يتوقّعُ منهم إيمانٌ، فهم شرُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/308.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دب).
(4) الرّاغب، المفردات: (دب).

النّاسِ عند اللّه ﷻ، وروِيَ أنّ هذه الآيةَ نزلَت في طائفةٍ من بني عبد الدّار؛ وهم يهودُ بني قريظة رهطُ كعبِ بنِ الأشرف، وظاهرُها العمومُ فيهم وفي غيرهم ممّنِ اتّصفَ بهذه الأوصاف[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ أسلوب الفصلِ:

المصرُّ على الكفر، والنّاقضُ للعهد في حكم الدّابّة العجماء

هذه الآياتُ لم تُعطَفْ على سابقتها؛ لأنّها تناولَت أحكامًا جديدةً تتعلّقُ بأصنافٍ منَ الكافرين تربطُهم مع المؤمنين عهودٌ ومواثيقُ، فجاءَت استئنافًا ابتدائيًّا جديدًا[2]، شرعَت فيه الآياتُ ببيان أحكامٍ خاصّةٍ بأصنافٍ محدّدةٍ منَ الكافرين، بعد أن تناولتِ الكافرين منَ المشركين ومَن سبقهم من كفّار الأممِ البائدة، وقد مرّ قولُ الرّازيّ: إنّه تعالى لمّا وصف كلَّ الكفّارِ بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أفرد بعضَهم بمَزيَّةٍ في الشّرِّ والعنادِ، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه وعلمه مَن حصلت له صفتان: الصّفة الأولى: الكافرُ الّذي يكونُ مُستمرًّا على كفره، مُصِرًّا عليه، لا يتغيّر عنه البتّة، الصّفة الثّانية: أن يكونَ ناقضًا للعهد على الدّوام[3]. وتحتملُ الآيةُ هنا تعليلَ اتّصافِهم بالظّلم في الآية السّابقةِ بحسب ما مرّ آنفًا.

بلاغةُ المؤكّدات، في ثنايا الآية الكريمة:

كونهم دوابًّا، وصفٌ راسخٌ فيهم على مدى الأزمان

جاءَتِ الآيةُ هنا على هيئة الجملةِ الاسميّةِ المؤكَّدةِ بـ (إنّ)؛ لتعطي معاني الثّباتِ والاستقرارِ فيما تقرّرُه من قضايا وأحكام، لتبقى قاعدةً مُقرَّرةً على مدى الأزمان، مهما تبدّلتِ الظّروفُ والأحوالُ، وترسّخَ نفي إيمانِهم المستقبليِّ المُقرَّرِ في فاصلةِ الآيةِ بحسب ما سيأتي بيانه.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/541، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/64، والخازن، لباب التّأويل: 3/43.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149.

علّةُ وصفِهم بلفظ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ دون (النّاس):

قد جُعلوا في الآية شرَّ الدّوابِّ لا شرَّ النّاسِ إيماءً إلى أنّهم بمعزلٍ من مجانستهم، وإنّما هم من جنس الدّوابِّ، ومع ذلك شرٌّ من جميع أفرادِها كما جاء في قوله: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: 44][1]، فوصفهم القرآنُ بهذا الوصف؛ لأنّ دعوةَ الإسلام أظهرُ من دعوة الأديانِ السّابقةِ، ومعجزة الرّسولِ ﷺ أسطعُ مِن أن تُطمَسَ، والدّلالة على أحقيّة الإسلام عقليّةٌ بيّنةٌ، فمَن يجحدُه فهو أشبهُ بمَن لا عقلَ له[2]. عبّرَ عنهم بالدّوابِّ، وهو اللّفظُ الّذي غلبَ استعمالُه في البهائم ذوات الأربع أو فيما يركبُ منها؛ لإفادة أنّهم ليسوا من شرار البشرِ فقط، بل هم أضلُّ من عجماواتِ الدّوابّ؛ لأنّ فيها منافعَ للنّاس، وهؤلاء لا خيرَ فيهم، ولا نفعَ لغيرهم منهم، فإنّهم لشدّةِ تعصّبِهم لجنسِهم قد صاروا أعداءً لسائر البشرِ[3].

مَن يجحدُ دعوةَ الإسلامِ أشبهُ بمَن لا عقلَ له

بلاغة التّشبيهِ البليغ:

وصْفُهم بأنّهم شرُّ الدّوابِّ هو تشبيهٌ بليغٌ؛ حُذِفت فيه أداةُ التّشبيه ووجهُ الشّبه في هذا الموضع بخلاف التّصريح بالأداة في آية سورة الفرقان المُتقدِّمة، وقد تقدّمَ في نظم الآيةِ الكريمةِ المشبّهُ به على المشبّه، والأصل: إنّ الّذين كفروا شرُّ الدّوابِّ عند اللّه، وفي تنوّعِ مظاهرِ هذا التّقديم منَ الدّلالات على التّشنيع عليهم ما فيه، حيث بدأ التّعريفَ بشرّ الدّوابِّ على أنهم هُم، ولم يبدأْ التّعريفَ بهم على أنّهم هُم شرُّ الدّوابِّ.

تشبيهُهم بالدّوابّ انتفاءٌ لبشريّتهم، ومزيد التّشنيع عليهم

بلاغةُ التّقديم:

في تقديم ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ هنا تشويقٌ إلى معرفة مَن هُم، حيث تتوجّهُ النّفوسُ لمعرفة مَن استحقَّ هذا الوصفَ بأن يكونوا ليسوا دوابًّا فحسبُ؛ بل شرّ الدّوابّ.

في التّقديم تشويقٌ، وإلماحٌ بأنّ الأمورَ لا تتعدّى ميزانَ الله تعالى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/47.

(3) رضا، تفسير المنار: 10/42.

وفي تقديم شبهِ الجملةِ الظّرفيّةِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على خبر إنّ؛ إيماءٌ بأنّ الأمورَ لا توزَنُ إلّا بميزان اللّه، لا بميزان غيره، وأنّ الغايةَ القصوى في كلِّ الأمورِ ينبغي أن لا تتعدّى ميزانَ اللّه، وأفادَ ذكرُها الاحتراسَ من أن يكونَ هذا النّظرُ عند النّاس، بل هو عند اللّه كذلك، فالعنديّةُ هي في سابق علمِه وصادقِ حكمِه(1).

فائدةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التّعبيرُ بالاسم الموصول، غرضه البلاغيُّ، هنا هو الذّمّ والتّحقير

جاء بخبر إنّ اسمًا موصولًا مُبهَمًا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُفتقِرًا إلى جملة صلةِ الموصولِ ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لتزيلَ إبهامَه من ناحية، ولتدلَّ على تجدّد الكفرِ فيهم من ناحيةٍ أخرى؛ لما يُفهمُ من كونها جملةً فعليّةً، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالاسم الموصول في هذا الموضع يفيدُ الذّمَّ والتّحقيرَ لهم، إذ ما من وسيلةٍ للتّعريف بهم سوى بالكفر، فليس لهم عنوانٌ غيرُهُ يُعرَفون به.

علّةُ إيثارِ فعلِ الكفرِ الماضي المجموع دون الوصف:

اجتمعوا على الكفر فاشتركوا في الذّمّ

عبّرَ عنهم بفعل الكفر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الوصف (الكافرون)؛ للإشارة إلى أنّهم كانوا مؤمنين، فعرض لهم الكُفْرُ، وهذا ظاهرٌ في جملة اليهودِ الّذين كفروا بمحمّدٍ ﷺ كما كفروا بمَن قبله، وهم في عرف القرآنِ متكافلون متشابهون، آخرهم في ذلك كأوّلهم(2). وجمعه يدلُّ على شمول كلِّ الكافرين المقصودين بالكلام.

سرّ استعمال (الفاء) في الجملة، وتنوّع معانيها:

الفاء قد تحتمل التّعليليّة أو غيرها، والسّياقُ هو المرجّح لبعضها

تحتملُ الفاءُ هنا معانيَ متنوّعةً، كلُّها سائغٌ ومقبولٌ، إذ يمكن أن تكونَ تعليليّةً بمعنى أنّ العلّةَ في استحقاقهم هذا الوصفَ وتَمَكُّنِه فيهم، هي عدمُ إيمانِهم، ويمكن أن تكونَ الفاءُ فصيحةً تفصحُ عن كلامٍ محذوفٍ، يمكن أن يكونَ تقديرُه: إذا علمت أنّ أولئك شرُّ

---

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.

(2) رضا، تفسير المنار: 10/42.

الدّوابّ، فاعلم أنّهم لا يؤمنون أصلًا فلا تُتعبْ نفسَك، ويمكن أن تكون عاطفةً عطفتِ الصّلةُ على الصِّلَةِ بما يُشعِرُ بمعنى الحال، كأنّه قيل: إنّ شرَّ الدّوابِّ الّذين كفروا مُصرّين على عدم الإيمان[1]، أو بما يُشعِرُ أنّ المُرادَ هو مجموعُ الصّلتين، بمعنى: إنَّ شرَّ الدّوابّ الّذين كفروا من قبل الإسلام، فاستمرّ كفرُهم فهم لا يؤمنون بعد سماعِ دعوةِ الإسلام[2]، وفي العطف تنبيهٌ على أنَّ تحقُّقَ المعطوفِ عليه يستدعي تحقُّقَ المعطوف[3].

ويُفهم من كلام بعضهم أنّ الفاءَ وقعَت هنا استئنافيّةً، كما يُفهَمُ من كلام أبي السّعود حيث يقول: "﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ حكمٌ مترتّبٌ على تماديهم في الكفر ورسوخِهم فيه، وتسجيلٌ عليهم بكونهم من أصل الطّبعِ، لا يَلويهِم صارِفٌ، ولا يَثنيهم عاطفٌ أصلًا، جيءَ به على وجه الاعتراضِ، لا أنّه عطفٌ على ﴿كَفَرُواْ﴾، داخِلٌ معه في حيِّزِ الصّلةِ[4]".

بديعُ توسّطِ النّفي في ثنايا السّيّاق:

أفادَ توسّطُ النّفي تقويةَ الحُكْمِ، وجمالَ الإيقاعِ الصّوتيِّ في الفواصل

أفاد توسّطُ النّفي في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بين المسند إليه المُقدَّم، والمسند الفعليِّ المُؤخّرِ في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تقويةَ الحكم وتوكيدَه[5]"، وقد يفيدُ التّخْصيصَ بالقرائن، ولا قرينَةَ موجِبَةً للتّخصيص ههنا، فأفادَت معنى التّأكيدِ على نفي الإيمانِ عنهم، دون التّعرّضِ لغيرهم فضلًا عمّا يضيفُه هذا التّقديمُ من إيقاعٍ صوتيٍّ جميلٍ في فواصل الآيات، من مراعاةٍ للفاصلة بعد مراعاةِ المعاني المرادة، فالقرآنُ لا يُقدِّمُ أو يُؤخِّرُ كلمةً لأجل الفاصلة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/47.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/64.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.
(5) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/135.

فقط، وإنّما مدارُ الأمر قائمٌ على المعاني، وتبقى مراعاةُ الفاصلة على جلالة قدرها معنىً ثانويًّا، لا مطلبًا أساسيًّا.

دلالةُ اسميّةِ جملة الفاصلة:

حقائقُ الله تعالى الثّابتةُ، لاتَتَبدّلُ إلّا بإذنه

جيء بالصّلة الثّانية جملةً اسميّةً لإفادة ثبوتِ عدم إيمانهم، وأنّهم غيرُ مرجوٍّ منهم الإيمان[1]، وهذه حقيقةُ شرِّ الخلائق، فهيهات أن تتبدّلَ الحقائقُ إلّا أن يشاءَ واضعُها، فقوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لا يُبقي للرّجاء فيهم مساغٌ، ولا ينجعُ فيهم نصحٌ وإبلاغٌ[2].

دلالةُ صوغِ الإيمانِ المنفيّ مضارعًا:

رفضُهم الإيمان فعلٌ مُتجدِّدٌ منهم

أفاد مجيءُ الخبر فعلًا مضارعًا ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ معنى التّجدّدِ الاستمراريِّ لعدم قبولِهم الإيمانَ كلّما عُرِضَ عليهم، فهذا هو موقفُهم الّذي يُعبّرون عنه كلّما دُعوا إلى الحقّ؛ ذلك أنّ كلمة (كفروا) لا تقتضي الثّباتَ على الكفر دائمًا، فعطفَ عليها الإخبارَ بأنّ كفرَهم دائمٌ مستمرٌّ لا يرجعون عنه في جملتهم، حتّى ييأسَ الرّسولُ والمؤمنون ممّا كانوا يَرْجونَ من إيمانهم، وهذا لا ينافي وقوعَ الإيمان من بعضهم، وقد وقع[3].

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ بين آيتي الأنفال:

ناسبَ في الأولى بين ذكر السّمع والصّمم، وفي الثّانية سياقَ كفرِهم ونقضِهم للعهود

قد شابه نظمُ هذه الآية الّتي بين أيدينا نظمَ آيةٍ أخرى مُتقدِّمةٍ عليها في نفس السّورة، وهي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: 22]، ولا شكّ أنّ لكلّ سياقٍ خصوصيّتَه الّتي تقتضي ألفاظَه وتراكيبَه الخاصّة به؛ فهذه الآية جاءت في سياق الأمر بطاعة الله ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/47.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.
(3) رضا، تفسير المنار: 10/42.

لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: 20 - 23]، فقد تقدّمَ هذه الآيةَ الحديثُ عن عدم انتفاعِ هؤلاء الكفّار بسمعهم، وتبعها الحديثُ عن أنّه لو علمَ اللّه فيهم خيرًا لأسمعَهم، حيث ذُكِرَ السّمعُ قبلها مرّتين وبعدها مرّتين، فناسب ذلك كلُّه أن تكونَ قد ذُيّلت بوصفهم بالصّمِّ البكمِ الّذين لا يعقلون، فقد عطّلوا متعمّدين أدواتِ المعرفةِ والاستقبالِ فيهم لسماع الحقّ، وشابهوا بفعلتهم هذه فعلةَ مَن سبقوهم على الكفر مِنَ الّذين قالوا سمعْنا وهم لا يسمعون، فاستحقّوا هذه الأوصافَ الّتي لاءَمَتْ عدمَ انتفاعِهم بما أكرمَهم اللّهُ به من نوافذِ المعرفةِ ومصادرِ العلمِ، وأمّا الآيةُ الّتي بين يدينا الآن فقد وصفتهم بما وصفتهم به تلك من أنّهم شرُّ الدّوابّ، ولكن هذه المرّة لعلّةٍ أخرى غير العلّتين السّابقتين، وهي هنا بسبب كفرِهم وعدمِ إيمانِهم ونقضِهم للعهود المبرَمةِ مع النّبيّ محمّد ﷺ كلّما سنحَت لهم الفرصةُ.

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأنعام والدّوابّ:

> كلمة الدّوابّ هي الأقربُ لتأديةِ الغرضِ مِنَ التّشبيه الّذي سيق من أجله

استَعْمَلتِ الآياتُ السّابقةُ في وصف الكافرين لفظةَ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾، واستعملَت في مَواضِعَ أخرى - كما تقدّم - لفظةَ (الأنعام)، وفي موضعٍ واحدٍ جَمعَ بين اللّفظتين في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: 28]، فاقتضى الأمرُ التّفريقَ بين هاتين اللّفظتين في الاستعمال القرآنيِّ، يقول صاحبُ مقاييس اللّغة: "النّونُ والعَينُ والميمُ فُروعُه كثيرةٌ، وعِندَنا أنّها على كَثرَتِها راجِعَةٌ إلى أصلٍ واحِدٍ يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيشٍ وصَلاحٍ. منهُ النِّعمَةُ: ما يُنعِمُ اللّهُ تعالى على عَبدِه به من مالٍ وعَيشٍ. يُقالُ: للّهِ تعالى عليه نِعمَةٌ. والنِّعْمَةُ: المِنَّةُ، وكذا النَّعماءُ. والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ وطيبُ العَيشِ. قال اللّه

تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدّخان: 27]. والنُّعامَى: الرّيحُ اللَّيِّنَةُ. والنَّعَمُ: الإبلُ، لِما فيهِ مِنَ الخيرِ والنِّعمَةِ. قالَ الفَرّاءُ: النَّعَمُ ذَكَرٌ لا يُؤَنَّثُ فيقولونَ: هذا نَعَمٌ وارِدٌ، وتُجمَعُ أنعامًا، والأنعامُ: البَهائِمُ"[1]، وقيلَ: النَّعَمُ الإبلُ خاصَّةً، والأنعامُ ذَواتُ الخُفِّ والظِّلفِ؛ وهي الإبلُ والبَقَرُ والغَنَمُ، وقيلَ تُطلَقُ الأنعامُ على هذه الثَّلاثَةِ فإذا انفَرَدَتِ الإبلُ فهي نَعَمٌ، وإنِ انفَرَدَتِ البَقَرُ والغَنَمُ لَم تُسَمَّ نَعَمًا"[2]، والأنعام عند صاحب المفردات: جمع النَّعَم، وتسميته بذلك؛ لأنّ الإبلَ عندَ العربِ أعظمُ نعمةً، لكنِ الأنعام تُقال للإبل والبقر والغنم[3]، وبناءً على هذا فلفظُ الدّوابّ أعمُّ من لفظ الأنعامِ؛ لأنّ الأخيرةَ محصورةٌ في أصنافٍ معروفةٍ منَ الحيوانات، يكثرُ فيها الخيرُ بالنّسبة للإنسان، بخلاف الدّوابّ الّتي تشمَلُ كلَّ ما يدبُّ على الأرض النّافعَ منه والمفترسَ والضّارَّ، ولذلك لمّا وصفَ القرآنُ الكريمُ الكافرين بكونهم أنعامًا أضربَ عنها إلى وصف أشدّ فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179]، فاختيارُ كلمةِ الدّوابِّ في سورة الأنفال كان هو الأقربُ لتأديةِ الغرضِ منَ التّشبيه الّذي سيق من أجله، وهو التّنفيرُ من حالِ الكافرين وفضحُ أعمالِهم، فشرُّ ما يدبُّ على الأرض من مخلوقاتٍ على اختلاف أجناسِها وتنوّعِ ألوانِها وسائرِ أصنافِها هم أولئك الكافرون، وبناءً عليه لا تسدُّ كلمةُ الأنعام مكانَها في هذا التّشبيه، ولا تؤدّي الغرضَ الّذي أدّته كلمةُ الدّوابّ والله أعلم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: 2/613.
(3) الرّاغب، المفردات: (نعم).

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾ [الأنفال: 56]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين تشبيه العصاة بالدّوابّ، والتّنديد بمن ينقضُ العهد في كلّ مرّة

لمّا شبّههم بالدّوابّ العجماواتِ انتقل إلى بيانِ وصفٍ من أوصافهم، وحالٍ من أحوالهم، وهم اليهودُ الّذين عاهدوا النّبيَّ ﷺ، ونقضوا عهدَه[1]، وفي ذلكم تفصيلٌ لما أُجمِلَ من وصفٍ، ومزيدُ تأكيدٍ لاستحقاقهم إيّاه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰهَدتَّ﴾: يقول ابنُ فارس: "العَيْنُ والهاءُ والدّالُ أصلُ هذا البابِ عِندَنا دالٌّ على مَعنًى واحِدٍ، قَد أومَأ إليه الخَليلُ، قالَ: أصلُهُ الاحتِفاظُ بالشَّيءِ وإحداثُ العَهدِ به. والّذي ذَكَرَهُ مِنَ الاحتِفاظِ هو المَعنَى الّذي يَرجِعُ إليهِ فُروعُ الباب. فمِن ذلك قَولُهُم: عَهِدَ الرَّجُلُ يَعهَدُ عَهدًا، وهو مِنَ الوَصيَّةِ. وإنّما سُمّيَت بذلك؛ لأنّ العَهدَ ممّا يَنبَغي الاحتِفاظُ به. ومنه اشتِقاقُ العَهدِ الّذي يُكتَبُ لِلوُلاةِ مِنَ الوَصيَّةِ، وجَمعُهُ عُهودٌ. والعَهدُ: المَوثِقُ، وجَمعُهُ عُهودٌ. ومِنَ البابِ العَهدُ الّذي مَعناهُ الالتِقاءُ والإلمامُ، يُقالُ: هو قَريبُ العَهدِ به، وذلك أنّ إلمامَهُ به احتِفاظٌ به وإقبالٌ"[2]، ولم يبعدِ المعنى الاصطلاحيّ عن هذا المعنى فهو "حفظُ الشّيءِ ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ"[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الّذين أخذتَ عهودَهم ومواثيقَهم أن لا يحاربوك ولا يُظاهروا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (عهد).

عليك محاربًا لك كبني قريظة ونظرائهم، ممّن كان بينك وبينهم عهدٌ وعقدٌ، ثمّ ينقضون عهودَهم ومواثيقَهم، كلّما عاهدوا دافعوك وحاربوك وظاهروا عليك، وهم لا يتّقون اللّه، ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقِعَ بهم وقعةً تجتاحُهم وتهلكُهم[1].

مَن ينقض العهدَ والميثاقَ، فلا إيمان لَدَيْه بمولاه، ولا خشية له من الله

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ جاء مُنفصلًا عمّا قبله دون حرفِ العطفِ، ممّا جعلَه يحتملُ إعراباتٍ كثيرةً لمعانٍ سديدةٍ، كلُّها شافٍ كافٍ، لكنّ بعضَها قد يكون الأقربَ لمتطلّبات السّياق، فيمكن أن يكونَ بدلًا مُطابقًا (بدل الكلّ منَ الكلّ) لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فالّذين عاهدوا هُمُ الّذين كفروا، ويمكن أن يكونَ بدلَ البعض منَ الكلّ على معنى أنّ شرَّ الدّوابِّ مَن جمعَ بين ثلاثة أوصافٍ: الكفر، الموافاة عليه بعدم الإيمان، المعاهدة مع النّقض[2]، فالمعاهَدونَ هم بعضُ أولئك الكافرين.

الّذين نقضوا العهدَ هم أنفسُهم الّذين كفروا، أو صِنفٌ منهم

ويمكن أن يكون قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ عطفَ بيان من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ إذ إنّ عطفَ البيان يزيدُ عن معنى البدل عند مَن يرى التّفريقَ بينهما بزيادة الوصفِ فيه، ويمكن أن يكونَ نعتًا للّذين كفروا، ولا عطف يقعُ بين التّابع والمتبوع كما هو مُقرَّرٌ، أو يكون موقعُهُ الرّفعَ على الابتداء وخبره (فإمّا تثقفنّ)، حيث دخلتِ الفاءُ في الخبر؛ لأنّ نظمَ الجملةِ مُشعِرٌ بالشّرطيّة[3]، أو أن يَكونَ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ تقديره: هم الّذين عاهدت منهم، أو في محلّ نصبٍ على الذّمّ، والتّقدير: أَذُمُّ الّذين عاهدتَ منهم[4].

زيادةُ الوصفيّة، والإشعارُ بالشّرطيّة، والذّمُّ وجوهُ إعرابٍ مقبولةٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/20 - 21.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/620.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/339.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

وربّما كان الأيسر من هذه التّوجيهات كلِّها أن نجعلَه استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ مُقدّرٍ في الذّهن بعد قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ من هم الموسومون بأنّهم شرُّ الدّوابِّ؟ فكان الجواب: الّذين تعاهدهم ثمّ ينقضون عهودَهم.

تقديرُ الاستئنافِ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ وجهٌ راجحٌ

بلاغةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول هنا النّعيُ عليهم بنقضهم للعهود والمواثيق، وفي ذلك قدحٌ لهم وتشهيرٌ بهم، فضلًا عن تَخصيص الموصول الأوّلِ بمَن عاهدَ منهم، ثمّ نقضَ، وفائدَةُ التّعميمِ أوّلًا ثمّ التَّخصيص ثانيًا؛ لزيادة التّقرير، كما هو المقرَّرُ في الغرض منَ البدل[1].

شَهّرَ بهم، ونعى عليهم نقضَهم للعهود والمواثيق، وقَرَّرَ قبحَ فعلهم

سرُّ التَّعبير عنِ المعاهدة، بصيغة المفاعلةِ:

إيرادُ لفظِ المعاهدةِ على صيغة المفاعلة ﴿عَٰهَدتَّ﴾ الدّالّ على حصول الفعلِ منَ الجانبين[2]، إشارةٌ الى أنّهم قبلوا العهدَ، وأقرّوه؛ ومن ثمَّ فنقضُ الالتزام به تعريضٌ بهم، وترسيخٌ لما وُصِفوا به، توبيخًا لهم، وحطًّا من شأنهم.

إقرارُهم بالعهد ثمّ نقضُه، ترسيخٌ لما وُصِفوا به

دلالةُ (مِن) في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

قد تكون (من) للتّبعيض عند بعض المفسّرين، على اعتبار أنّ المعاهدةَ إنّما تكونُ مع أشرافهم[3]، وقد ضعّف صاحبُ تفسيرِ التّحرير والتّنوير هذا الرّأيَ؛ لعدم متانةِ المعنى، إذ يصيرُ الذّمُّ مُتوجِّهًا إلى بعض الّذين كفروا فهم لا يؤمنون، وهم الّذين ينقضون عهدَهم، في حين تعدّى العهدُ بـ(من) للدّلالة على أنّ العهدَ كان يتضمّنُ التزامًا من جانبهم، فلمّا ذكر المفاعلةَ ﴿عَٰهَدتَّ﴾ الدّالّ

دلّت (مِن) على أنّ العهدَ كان يتضمّنُ التزامًا من جانبهم

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 9/112.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/48.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149.

على حصولِ الفعلِ منَ الجانبين، نبّه على أنّ المقصودَ منَ المعاهدة التزامُهم بأن لا يعينوا عليه عدوًّا[1].

بلاغةُ التّضمينِ في لفظ العهد:

المعاهدةُ عبارةٌ عن إعطاء العهدِ، وأخذه منَ الجانبين

يمكن أن يكون الكلامُ قد بُنيَ على التّضمين[2]؛ إذ ضَمّنَ العهدَ معنى الأخذ، والأخذ هو الّذي يتعدّى بـ (مِن)، فيصبح المرادُ هو مجموعُ الفعلين؛ أي: عاهدتَ آخذًا منهم، لأنّ المعاهدةَ عبارةٌ عن إعطاءِ العهدِ وأخذه منَ الجانبين[3].

دلالاتُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق:

أفادَ العطفُ بـ (ثمّ) هنا معاني التّراخي الزّمنيّ والرّتبيّ على حدٍّ سواء

وقوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ الجملةُ معطوفةٌ بـ ﴿ثُمَّ﴾ على جملة صلة الموصول ﴿عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾، وأفادَ العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا معاني التّراخي الزّمنيّ والرّتبيّ على حدٍّ سواء، فنقضُ العهد أشنعُ رتبةً ممّا كان قبله، وهذه الجملةُ داخلةٌ مع الجملة السّابقةِ في حيّزِ الصّلةِ.

سرُّ العدولِ من فعل المضيّ إلى الاستقبال:

ديدنُ اليهود وشأنُهم تجدّدُ نقض العهود، فهم قومٌ بُهْتٌ

العدولُ بمجيءِ صيغةِ الاستقبالِ ﴿يَنقُضُونَ﴾ بعد الفعل الماضي ﴿عَٰهَدتَّ﴾ للدّلالة على تجدّد النّقضِ وتعدّدِه فيهم، واستمرارِهم على ذلك، ولبيان أنّ من شأنهم نقضَ العهد مرّةً بعد مرّةٍ، فهذا ديدنُهم، وكونهم على نيّته في كلّ حال، وفي هذا تعريضٌ بالتّأييس من وفائهم بالعهد[4]، وأنّه لم يكن هفوةً رجعوا عنها، وندموا عليها، بل أنّهم ينقضونه في كلِّ مرّةٍ وإن تكرّر، وهو يصدقُ على عهود طوائف اليهودِ الّذين كانوا حولَ المدينة في جملتهم، وهم ثلاثُ طوائفَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/48.
(2) التّضمين: هو تضمينُ كلمة معنى كلمة أخرى، وجَعلُ الكلامِ بعدَها مبنيًّا على الكلمةِ غيرِ المذكورة، كالتّعديةِ بالحرفِ المناسبِ لمعناها، فتكون الجملةُ بهذا التّضمين بقوّة جملتين. يُنظر: عبد الرحمن، بلاغة اللّغة: 2/49.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

ويصدقُ على بني قريظة وحدَهم بحسب ما نُقِلَ عنِ ابن عبّاس ﵄، وكانوا أشدَّهم كفرًا، فقد رويَ أنّه تكررَ عهدُه ﷺ لهم، ثمّ نقضوا عهدَ رسولِ الله ﷺ، وأعانوا عليه المشركين بالسّلاح في يوم بدرٍ، ثمّ قالوا: أخطأنا فعاهدهم مرّةً أخرى، فنقضوه أيضًا يومَ الخندق[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بجملة: ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾:

تكرّرَ النّقضُ في كلِّ مرّةٍ، يُتوقَّعُ فيها عدمُه، ويُستقبَحُ وجودُه

المرادُ بـ ﴿كُلِّ مَرَّةٍ﴾ كلُّ مرّةٍ من مرّات المعاهدةِ الّتي يحقُّ فيها الوفاءُ بما عاهدوه عليه سواء تكرّر العهدُ أم لم يتكرّر؛ لأنّ العهدَ الأوّلَ يقتضي الوفاءَ كلّما دعا داعٍ إليه[2]، ويمكن أن يكون المعنى في كلّ مرّةٍ من مرّات المحاربةِ[3]، واستبعد صاحبُ تفسير إرشاد العقل السّليم هذا المعنى فقال: "﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾؛ أي: من مرّات المعاهدةِ إذ هي الّتي يُتوقَّعُ فيها عدمُ النّقضِ، ويُستقبَح وجودُه، لا من مرّات المحاربة كما قيلَ، إذ لا يُتوقَّعُ فيها عدمُ النّقضِ بل لا يُتصوَّرُ أصلاً حتّى يُستقبَحَ فيها وجودُه؛ لكونها مَظِنّةً لعدمه، فلا فائدةَ في تقييد النّقضِ بالوقوع في كلّ مرّةٍ من مرّاتها بل لا صِحةَ له قَطْعًا؛ لأنّ النّقضَ لا يتحقّقُ إلّا في المرّةِ الواردةِ على المعاهدة لا في المرّات الواقعةِ بعدها بلا معاهدة"[4].

وأكّده الطّاهرُ ابن عاشور بقوله: "الأظهرُ أنَّ هذه الآيةَ نزلَت عقب وقعةِ بدر، وقبل وقعة الخندق، فالنّقضُ الحاصلُ منهم حصلَ مرّةً واحدةً، وأخبر عنه بأنه يتكرّرُ مرّاتٍ، وإن كانت نزلَت بعد الخندقِ، بأنِ امتدَّ زمانُ نزولِ هذه السّورة، فالنّقضُ منهم قد حصل مرّتين، والإخبارُ عنه بأنّه يتكرّرُ مرّاتٍ هو هو، فلا جدوى في ادّعاء أنّ الآيةَ نزلَت بعد وقعةِ الخندقِ"[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149، ورشيد رضا، تفسير المنار: 10/43.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/48.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/32.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/48.

عَدَمُ وقوعِ التّقوى منهم، تيئيسٌ للمؤمنين منهم، وذمٌّ لهم وقدحٌ

معاني (الواو) في مطلع الآية الكريمة:

قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾، يمكن أن تكون الواو في جملة الفاصلةِ عاطفةً، والجملةُ الاسميّةُ معطوفةٌ على جملة الصّلة ﴿عَٰهَدتَّ﴾، أو على الخبر ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في الآية السابقة، ويكون العدولُ بعطف الجملةِ الاسميّةِ على الفعليّة لما فيها من معنى الدّوام والثّبات، وهذا آكدُ في نفي التّقوى عنهم، وإمّا أن تكون الواو حاليّةً، والجملةُ منَ المبتدأ والخبر (هم لا يتّقون) في محلّ النّصب على الحاليّة، والمعنى: ينقضون عهدَهم في كلّ مرّةٍ، وحالُهم حالُ مَن لا يتّقي اللّه، وعلى كلا الاحتمالين فالجملةُ دالّةٌ على أنّ نفيَ التّقوى عنهم صفةٌ متمكّنةٌ منهم ومَلَكَةٌ فيهم[1]. وفي وجه الحاليّة معنى: "أنّ هؤلاء القوم دأبهم نَقْضُ العهودِ والمواثيقِ في كلِّ وقتٍ، ومع ذلك فحالهم وشأنهم أنّهم لا يشعرون خلال نقضِهم للعهود بأيِّ تحرّجٍ أو خجلٍ، بل يرتكبون ما يرتكبون منَ المنكَرات دون أن يتّقوا عارَها، أو يخشوا سوءَ عاقبتها"[2].

بالتقديم قوّى حكمَ عدمِ تقواهم

دلالةُ تقديمِ الخبر، وتوسّطِ النّفي، في جملة الفاصلةِ:

يدلُّ على هذا مجيءُ الخبر (هم) مُقدَّمًا تليه الجملة الفعليّة المنفيّة، وهذه الحالةُ منَ التّرتيب بين المسند والمسند إليه وأداة النّفي تفيدُ تقويةَ الحكم عند جمهور البلاغيّين كما تقدّم مرارًا، وقد تفيدُ التّخصيصَ بالقرائن، ولا قَرينَةَ دالّةٌ على التّخصيص في هذا الموضع.

شأنُهم النّقض في كلّ عهدٍ يقطعونه

بلاغةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾، وحَذْفِ مفعوله:

لا شكّ أنّ التّعبيرَ عن نفي التّقوى بالمضارعيّة له دلالته في تجدّده عندهم، فهذا شأنُهم، وهذا ديدنُهم دائمًا عند كلّ عهدٍ يقطعونه،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/49.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/134 - 135.

وكذلك فإنّ في حذف مفعولِ التّقوى بإنزال الفعلِ المتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازمِ، ما يفيدُ التّعميمَ ليشملَ كلَّ ما يمكن أن يُتَّقى من عذابِ اللّه وغضبِه ومحارمِه.

ووقوعُ فعل ﴿يَتَّقُونَ﴾ في حيّز النّفي يعمُّ سائرَ جنسِ الاتّقاءِ؛ وهو الجنسُ المُتعارفُ منه، الّذي يتهممُ به أهلُ المروءات والمتديّنون، فيَعمُّ اتّقاءَ اللّه وخَشْيَةَ عقابِه في الدّنيا والآخرة، ويعمُّ اتّقاءَ العارِ، واتّقاءَ المسبّةِ، واتّقاءَ سوءِ السّمعة، فإنّ الخَيْسَ بالعهد والغدرَ مِنَ القبائح عند جميع أهل الأحلامِ، وعند العرب أنفسِهم، ولأنّ مَن عُرِفَ بنقض العهد، عُدِمَ مَن يركَنُ إلى عهده وحِلْفه، فيبقى في عزلةٍ منَ النّاس، فهؤلاء الّذين نقضوا عهدَهم قد غلبهم البغضُ في الدّين، فلم يعبأوا بما يجرُّه نقضُ العهد مِنَ الأضرار لهم[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العهود، والمواثيق، والعقود، والوعد:

اختيار لفظةِ العهد ناسبَت هذه الحال، منَ العهود الّتي أُبرِمَت بين طرفين

استعملتِ الآياتُ السّابقةُ لفظةَ العهود للتّعبير عنِ الاتّفاقيّات الموثّقة مع الكافرين، مع أنّ القرآنَ استعملَ ألفاظًا أخرى في مواضعَ مختلفةٍ للدّلالة على هذه العهود مثل: الميثاق في مثل قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ [البقرة: 83]، والعقود في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، والوعد في مثل قوله: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾ [الأنبياء: 9]، ولا شكّ أنّ كلَّ لفظةٍ منها تشتركُ مع اللّفظةِ الأخرى في معانٍ، وتنفردُ عنها في معانٍ أخرى، بحيث تبقى لكلّ لفظةٍ خصوصيّتُها في الاستعمال القرآنيّ، لا تصلح اللّفظةُ الأخرى لتقومَ في مقامها، وتؤدّي غرضَها الّذي استُعمِلَت من أجله، فالميثاقُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/49.

في أصل اللّغة يدلُّ على عقدٍ وإحكام، فالميثاقُ هو العهدُ المُحكَم[1]، أو العقدُ المُؤكَّدُ بيمينٍ وعهدٍ[2]، فالفرقُ بين العهد والميثاق عند صاحب كتاب الفروق في اللّغة: "أنّ الميثاقَ توكيدُ العهدِ من قولك: أوثقتُ الشّيءَ إذا أحْكَمتَ شدَّه، وقال بعضُهم: العهدُ يكون حالًا من المتعاهدين، والميثاقُ يكون من أحدهما[3]"، ولذلك نجد في سورة الرّعدِ أنّه قد جمعَ بين اللّفظتين ممّا يدلُّ على تغاير معنيّهما بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرّعد: 20]، ففرّق في هذا الموضع بين العهدِ والميثاقِ، فالعهدُ يقتضي الوفاءَ، والميثاقُ يقتضي عدمَ النّقضِ، وقال بعدَها بآياتٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرّعد: 25]، حيث دلّت هذه الآيةُ على أنّ الميثاقَ هو العهدُ الموثّقُ، ولذلك أُسنِدَ إليه النّقضُ، ومثلها في سورة البقرة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 27]، وقد جاء ذكرُ الميثاقِ في أكثر مرّات وروده مسندًا إلى أهل الكتاب كقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187]، وهو العهدُ الّذي أخذَه اللّهُ عليهم.

وعند العسكريّ أنّ العقدَ أبلغُ منَ العهد؛ لأنّه إلزامٌ باستيثاق[4]، وأمّا الوعدُ فإنّه يقتضي الإنجازَ، والعهدُ هو وعدٌ مقرونٌ بشرطٍ، وهو يقتضي الوفاءَ[5].

وفي ضوء ما تقدّم من فروق عند صاحبِ الفروق في اللّغة، وهي آراءٌ مُقدَّرَةٌ ومُحتمَلَةٌ؛ فإنّ اختيارَ لفظةِ العهدِ دون غيرها فيما نحن بصدده ناسبَت هذه الحالَ منَ العهود الّتي أُبرِمَت بين طرفين، فخان بعضُهم هذه العهودَ، وأُمرنا بطرح بعضِها عند ظهورِ أمارات الخيانة، فلم تكن هذه العهودُ بقوّة المواثيقِ وإحكامِها؛ لأنّ أصحابَها لم يفوا بها، ولا بقوّة العقودِ المُؤكّدة، بل إنّ الأمرَ كان للنّبيّ ﷺ بأن يطرحَ منها ما بدرَ من أصحابها من خيانةٍ لها، فكانَت كلُّ لفظةٍ أليقَ في المكان الّذي جاءَت فيه لا تسدُّ قريبتُها مكانَها أبدًا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات: (وثق).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 69.
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 69.
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 69.

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال: 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

الآيـةُ شـروعٌ في بيان حكمهم، بعد أن فصّلَ حالَهم

إذ قد تحقّقَ منهم نقضُ العهدِ فيما مضى، وهو مُتوقَّعٌ منهم فيما يأتي، لا جرمَ تفرّعَ عليه أمرُ اللّه رسوله ﷺ أن يجعلَهم نكالًا لغيرهم، متى ظفرَ بهم في حربٍ يُشهرونها عليه أو يعينون عليه عدوَّه(1)، فالآية المباركة "شروعٌ في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالِهم"(2).

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾: أصل مادّةِ (ثقف) يدورُ حولَ تصويبِ عوج الشّيء، ثمّ استُعملَ لَمن يظفرُ بالشّيءِ؛ لأنّه إذا ثَقِفَهُ فقوّم اعوجاجه فقد أمسكَه(3)، والمعنى المحوريّ الّذي تدورُ عليه معاني هذه المادّة هو: تمكّنٌ يُبلَغُ به أتقنُ أحوالِ الشّيءِ وأحكمها: كالخلّ الثَّقيفِ لإحكام تعتيقه، واستقامة الرّمح والقوس على ما يراد منهما بتحكّم الثِّقاف فيهما، ومنه: ثَقُفَ - ككرم وفرح: صار حاذقًا خفيفًا فطنًا. ومن تمكّن ما يحيط بالشّيء منه أشدّ التّمكنِ: ثَقِفَه: ظَفِرَ به أو أدركه، وسائر ما في القرآن منَ التّركيب هو بمعنى التّمكّن التّامّ منَ الشّيء(4).

2) ﴿فَشَرِّدۡ﴾: منَ الفعل (شَرَدَ)، ولم تأتِ في القرآن الكريم إلّا في هذا المَوضِع، وورد في استعمالات اللّغة قولُهم: شرد البعيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/49.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقف).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثقف).

والدّابّةُ: نَفَر واستعصى وذهبَ على وجهه، ونَفَر وذهب في الأرض. وشرد الرّجلُ شرودًا: ذهب مطرودًا. تشرّدَ القومُ: ذهبوا. والمعنى المحوريّ اندفاعٌ بابتعادٍ، ويلزمُه التّفرّدُ أو التّفرّقُ: كالبعير الشّاردِ، والمطرودِ، والقوم الذّاهبين رحيلًا بلا عود.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: فرّقْ وبدّدْ جمعَهم إن أسرتهم يا محمّد فنكلّ بهم مَنْ خلفهم ممّن تخافُ نقضَهم للعهد لعلّهم يذّكرون فلا ينقضون العهدَ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان أنّ جزاء ناقضي العهدِ، الحرب والتّشريد والعقاب؛ رجاء الارعواء والتّذكّر

فإمّا تلقيَنَّ في الحرب هؤلاء الّذين عاهدتهم فنقضوا عهدَك مرّةً بعد مرّةٍ، فافعلْ بهم فعلًا يكون مُشرِّدًا من خلفهم من نظرائهم ممّن بينك وبينه عهدٌ وعقدٌ، إخافةً لهم، حتّى لا يجترئوا على مثل الّذي اجترأ عليه هؤلاء الّذين وصف اللّهُ صفتَهم في هذه الآية من نقضِ العهدِ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى حرف (الفاء) في مَطلَع الآية:

أفادتِ الفاءُ الرّبط بين جملتين، فضلًا عنِ التّرتيب والتّعقيبِ

الفاء في قوله: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ هي العاطفة للتّرتيب والتّعقيب، بمعنى: إذا كان حالُهم كما ذُكر فإمّا تصادفنّهم في الحرب فافعلْ بهم كيت وكيت[3]، ويمكن أن تكونَ الفاءُ هي الرّابطةَ بين هذه الجملةِ وبين الآية السّابقة؛ وذلك لتضمّنِ المبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ معنى اسم الشّرطِ، فكأنّه قيل: مَن يعاهدْ منهم؛ أي: منَ الكفّار، فإن تظفرْ بهم فاصنعْ كذا[4].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرد).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/20 - 21.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/339.

معاني (إمّا)، ودلالاتها:

(إمّا) عند الكوفيّين مكوّنةٌ من (إن) الشّرطيّة و(ما) الّتي قيل عنها زائدة[1]، ودخلَتِ النّونُ مع (إمّا) تأكيدًا، ولتفرّق بينها وبين (إمّا) الّتي هي حرفُ انفصالٍ في قولك: جاءَني إمّا زيدٌ وإمّا عمرو[2]، وفعلُ الشّرطِ لها في الآية قوله: ﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ فهو فعلُ مضارع مبنيّ على الفتح لاتّصاله بنون التّوكيد الثّقيلة، وهو في محلّ جزم فعل الشّرط، وجوابه ﴿فَشَرِّدۡ﴾، والفاء رابطة للجواب.

أفادت (إمّا) هنا معنى الشّرط حيث علّقت فعلًا بفعلٍ حالَ وقوعه

بديعُ إيثارِ لفظِ ﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾، على (تصادفنّهم):

﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ معناه: تَأۡسِرُهُم وتحصِّلُهم في ثِقافِكَ، أو تلقاهم بحالِ ضعفٍ تَقدِرُ عليهم فيها وتَغلِبُهم، وتأخذُهم، وتظفرُ بهم، وهذا لازمٌ منَ اللّفظ لقوله: (في الحَربِ)، وقيل: ثَقِفَ: أخذَ بسرعةٍ، ومن ذلك قولُهم: (رجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ)، ذكر ابنُ عطيّة أنّ بعضَ النّاسِ ذهبَ إلى أنّ معنى (تثقفنّهم): تُصادِفَنَّهُم، وردّه لكونه لا ربطَ له في المعنى، وذلك أنَّ المُصادَفَ يُغْلَبُ فيُمكِنُ التَشريدُ به، وقَد لا يُغْلَبُ[3]. وثقفَ لفظٌ صريحٌ في الظّفر، والغلبة.

إنّ المُصادِفَ قد يَغلِبُ فيُمكِنُ التّشريدُ به، وقَد لا يَغلِبُ

بلاغةُ الجملةِ الشّرطيّةِ المقترنةِ بالفاء:

في مجيء فعل الشّرطِ على هيئة الفعليّةِ، ومعها نون التّوكيدِ الثّقيلةِ في (تثقفنّهم)، ما يدلّ على تكرّر تحقّقِ هذه البشارة بالنّسبة للمؤمنين، فلا بدّ أن يحصلَ لكم الظّفرُ عليهم في كلّ مواجهةٍ تكون بينكم، وفي هذا النّظم تطمينٌ للمؤمنين، وتهديدٌ لأعدائهم، وفي دخول الفاء الرّابطة على جواب الشّرطِ الظّاهرِ، والّذي لا يصلحُ أن يكونَ جوابًا للشّرط إلّا بتقدير جوابٍ محذوفٍ،

جملة الشّرطِ بشارةٌ بالظّفر، وتطمينٌ للمؤمنين

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/71 - 73.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/542.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/542.

تذهبُ فيه النّفوسُ كلَّ مَذهَبٍ، كأن يكون التّقديرُ: فإمّا تثقفنّهم في الحرب، فتقاتلونهم، وتنتصرون عليهم، فشرّدوا بهم مَن خلفهم؛ ليكونوا عِبرةً لغيرهم، في ذلك كُلِّه تأكيدٌ على ما في الآية من أحكام حريٌّ بها أن تُطبّقَ لما فيه صلاحُ حالِ المؤمنين وتمكينُهم في الأرضِ.

دلالةُ الأمرِ المُصاغِ بالفعل (شرِّدْ):

أفـادَ الأمـرُ الـتّـهـديـدَ، والـوعـيـدَ، والإيـذانَ بحربٍ قريبةٍ معهم

(شرّد) فعلُ أمرٍ مبنيّ على السّكون في محل جزم جواب الشّرط، وهو أمرٌ مفيدٌ للتّهديد، ويكون المعنى حينئذٍ: فإمّا تظفرنّ بهم في تضاعيف الحربِ ففرّقهم تفريقًا عنيفًا موجِبًا للاضطرار والاضطراب، ونكّلْ بهم مَن وراءهم منَ الكفرة، وفيه إيماءٌ بأنّهم بصدد حربٍ قريبةٍ معهم[1].

بلاغةُ الكنايةِ أو التّضمينِ في فعل التّشريد:

يحتمل فعلُ التّشريدِ معنى التّسميعِ بهم عند العرب

قد يكون معنى (شرّد بهم)؛ أي: سمّع بهم[2]، على الكناية أو التّضمين؛ فيكون التّشريدُ كنايةً عنِ التّسميع بهم عند العربِ، ولا مانعَ من إرادة المعنى الحقيقيّ، فمِن شأن التّسميع بهم أن يؤدّي إلى تشريدهم، أو أن يكون الفعلُ (شرّد) قد تضمّنَ الفعلَ (سمّع) فيصبح المرادُ - كما تقدّم في الحديث عنِ التّضمين - مجموعَ قوّةِ الفعلين؛ أيّ: سمّعْ بهم العربَ تسميعًا مِن شأنه أن يُشرّدَ مَن خلفهم.

معاني حرف (الباء)، في قوله: ﴿بِهِمۡ﴾:

تحتملُ الباءُ الـتّـعـديـةَ والسّببيّةَ: ولها أثر في المعنى

الباء في قوله: (بهمْ) قد تكون للتّعدية والنّقل، وقد تكون باءُ السّببيّة بمعنى: شرّدْ بهم مَن خلفهم بسبب تنكيلك بهم[3].

سرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿بِهِمۡ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملةِ (بهم) يفيدُ مزيدًا منَ النّعي عليهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/497، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/32.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/158.

وتبكيتهم، إذِ الأصل: فشرّدْ مَن خلفهم بهم، فأفاد تقديمُهم على المفعول به مدى تقدّمهم في الخيانة ونقض العهودِ، وأنّهم السّببُ الرّئيسُ في تشريد مَن جاء خلفهم.

رسوخُ الخيانةِ فيهم، وتمكّنهم الماكر في نقض العهودِ

بلاغةُ الكنايةِ، أو الاستعارةِ في قوله: ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾:

إيقاعُ التّشريد لِمَن في الوراء، لا يتحقّقُ إلّا بتشريد مَن كانوا في الأمام

المقصود بـ ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾؛ أي: مَن وراءهم مِنَ الكفرة، والاسم الموصول (مَن) مفعول به لشرّد، وفيه كنايةٌ عن صفتي التّخويف والتّنفير؛ فإنّ إيقاعَ التّشريدِ لِمَن في الوراء لا يتحقّقُ إلّا بتشريد مَن كانوا في الأمام. ويمكن حمل المعنى على الاستعارة بأن يكون الخلفُ مُستَعارًا للمُقتدين بهم بجامع الاتّباع[1]، فشبّه مَن يقتدي بأولئك الكفّار بحالِ مَن هو بالخلف بجامع الاتّباعِ في كليهما لِمَن هو في الأمام، فحذفَ المشبّهَ، وهُمُ الّذين يقتدون بهم، وذكرَ المشبّهَ به (مَن خلفهم) على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ، فيكون كلُّ هذا التّنكيل بالأتباع، فكيف بالرّؤساء وأئمة الكفر!

دلالة الجملة التّعليليّة على الاستئناف البيانيّ:

أيلولة معنى التّذكُّرِ إلى لازمه، وهو الاتّعاظُ والاعتبارُ

قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ جملةٌ تعليليّةٌ وقعَت استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لمَ نفعل بهم هذا؟ وضميرُ الغيبة في (لعلّهم) راجعٌ إمّا إلى ضمير الكفرةِ ناكثي العهود في قوله: (تثقفنّهم)، وإمّا أن يكون راجعًا إلى (مَن) الموصولة في قوله: (مَن خلفهم) باعتبار كونِ مدلولِ صلتِها جماعةً مِنَ النّاس، ويكون المعنى: لعلّ مَن خلفهم يخافُك، ويتذكّرُ ما حلَّ بناقضي العهدِ مِنَ النّكالِ، فلا يُقدِموا على نَقضِ العهدِ، فيؤول معنى التّذكُّرِ إلى لازمه، وهو الاتّعاظُ والاعتبارُ، وقد شاع إطلاقُ التّذكُّرِ وإرادةُ معناهُ الكنائيِّ وغلبَ فيه[2]، وربّما كان الحملُ على هذا المعنى أبلغَ مِنَ المعنى الأوّل، والأصلُ في (لعلّ) أنّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/50.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/138، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/50.

تفيدُ التّرجّي، والمقامُ لا يساعدُ عليه، فيكون المقصودُ التّشفّيَ بهم، والإيماءَ إلى أنّ ما أصابهم كان بسبب عدم تذكّرهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

ثقفتموهم، ووجدتموهم، وصادفتموهم:

الثّقفُ يقومُ على التّربّص والتّمكّن والظّفر بالأعداء المؤذين للمؤمنين

استعملتِ الآياتُ السّابقةُ لفظةَ (ثقفتموهم)، ولم تستعملْ لفظةَ (وجدتموهم)، ونجد مثل ذلك النّظم في مواضعَ متنوعةٍ في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [البقرة: 191]، وقوله في سورة النّساء؛ إذ ذُكرتِ اللّفظتان في آيتين متجاورتين، في سياقٍ واحدٍ ممّا يزيدُ من صعوبة التّفريق بينهما، وهي قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النّساء: 89]، وبعدها قوله: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾ [النّساء: 91]، وقال في سورة التّوبة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ [التّوبة: 5]، وهذا التّباينُ في استعمالِ اللّفظتين في مواضعَ متشابهةٍ في سياقات القتالِ والمناجزةِ يدفعُ للتّساؤل عنِ الفرق بينهما، ويلحظُ من خلال استقراءِ هذه المواضع؛ أنّ الثّقفَ يُرادُ به نوعٌ مُحدَّدٌ مخصوصٌ منَ الوجدان، يقومُ على التّربّصِ والتّمكّنِ والظّفرِ بالأعداء الّذين سبقَ لهم وأنْ تعرّضوا للمؤمنين بالقتل والتّشريد؛ ففي سورة البقرة قال عند الأمر بمقاتلة مَن قاتلهم: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة: 191]، فهو ثقفٌ مقصودٌ مُدبَّرٌ له غاياتُه المحدّدة، وقد سبقه إخراجٌ وأذىً منَ المشركين، وفي النّساء قال: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ

﴿أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ [النّساء: 91]، فهو ثقفٌ مُحدَّدٌ أيضًا بهذه الفئة الّتي لم تكفّ أيْديَها عن المؤمنين، ومثلُ هذا في سورة الممتحنة بقوله عن المشركين: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ [الممتحنة: 2]، فهو ثقفٌ عن ترصُّدٍ وتدبيرٍ قد خُطِّطَ له زمنًا طويلًا، في حين وردَت كلمةُ (وجدتموهم) في موضعي النّساء، والتّوبة في سياق الحديثِ عن قتالٍ مع المنافقين أو المشركين لا يحملُ ظلالَ هذه الشّدّة الّتي نجدُها في مواضع (ثقف)، ففي سورة النّساء كان السّياق في الحديث عن المنافقين: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النّساء: 88 - 89]، ومعلومٌ أنّ الإسلامَ لم يأمرْ بقتل المنافقين إلّا إذا تعرّضوا مباشرةً للمسلمين؛ وذلك لصعوبةِ تمييزهم وتذبذبِ مواقفهم، فكان الأليقُ هنا (حيث وجدتموهم) سواء كان الوجود الحسّيّ أو المعنويّ بمعنى العلم؛ لأنّ هذا النّوعَ منَ القتال مُباشَرةً معهم لا يُتصوّرُ حدوثُه ولا يحتاج إلى هذا الإعدادِ والتّربّصِ والشّدّةِ، وكذلك نجدُ لفظةَ (وجدتموهم) في سورة التّوبة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [التّوبة: 5]، فقتالهم يكون بعدَ انتهاءِ الأجلِ المضروبِ لهم، أو بعدَ انقضاءِ الأشهرِ الحرمِ حيث وجدناهم أو علمناهم، وليس في هذا السّياقِ أيضًا تلك المعاني الّتي نجدُها في سياقات (ثقفتموهم) من معاني التّربّصِ والتّمكّنِ والإعدادِ والغلبةِ، فليس في ذهن المؤمنين أن تكونَ المدّةُ المضروبةُ بينهم وبين أعدائهم فرصةً للإعداد، والتّربُّص، والانتقام، وقد تقدّم أنّ المُصادَفَ يُغْلَبُ فيُمكِنُ التّشريدُ به، وقد لا يُغْلَبُ.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾ [الأنفال: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أتمَّ حُكمَ النّاقضِ للعَهدِ فعلاً، ببيان من يتوقّع منه ذلك مستقبلًا

الآيةُ "بيانٌ لأحكام المُشرفين إلى نقض العهد، إثْر بيانِ النّاقضين له بالفعل"[1]، في دعوة مباشرةٍ للحذر منهم، وتوّقع غدرِهم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿خِيَانَةً﴾: أصل مادّةِ (خون) يدلُّ على التّنقّص[2]، والمعنى المحوريّ: نقصُ خطيرٍ - في خِفيَةٍ أو لُطفٍ - مِن باطنٍ أو حَوزَةٍ كان في داخلِها: كذَهابِ الحِدَّة مِنَ النَّظَر، والقوّةِ مِنَ الرِّجلَين ومن الرِّشاء، وكذَهابِ اللَّحمِ والشّحم مِنَ النّاقة، وكسَرِقةِ المال. ومنه: خَوّنه وخَوَّنَ منه وتخوّنه: تَنَقَّصَه. ومن ذلك خَوْنَ الأمانة المادّيّة بانتقاصها أو أخذها في خفية كالسّرقة. ومن معنويه: خيانةُ العهود والمواثيق، فعدمُ الوفاء نقصٌ، كما أنّ إتمامَ الكيل استيفاءٌ، "يُقال: خانه العهدَ أو الأمانةَ؛ أي: في العهد أو الأمانة[3]. واصطلاحًا: الخيانةُ هي مخالفةُ الحقِّ بنقض العهد في السِّرّ"[4].

2) ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾: مادّته (نبذ): وأصلها يدلُّ على الطّرح والإلقاء[5]، والمعنى المحوريّ الّذي تدور حولَه اسْتِعْمالاتُ هذه المادّة: طَرْحُ الشّيء أو تنحيته بعيدًا مع تخَلٍّ أو ما يشبهه - كالنّبيذ الموصوف - حيث يُنَحَّى زمنًا طويلًا إلى أن يصلح، وكنبذ الشّيء: إلقائه مِنَ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خون).
(4) الرّاغب، المفردات: (خون).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبذ).

اليد، وكطرح ولدِ الزّنا. ومن قولهم: جلس نَبْذة؛ أي: ناحية. وانتبذَ عن قومه: تَنَحَّى ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ [مريم: 16]، ومن معنى الطّرحِ الإخراجُ منَ الماء ﴿۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾ [الصّافّات: 145]، وبعكس ذلك ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ [القصص: 40]، ومنَ الطّرح والإلقاء كذلك: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾ [الهمزة: 4]، وقوله: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾ [طه: 96]؛ أي: ألقيتها على الحلي الّذي جمعوه من أهل مصر، ومنَ الطّرحِ المجازيِّ تخليًّا وإعراضًا قوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 101]، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾؛ أي: فانبذ إليهم عهدهم؛ أي: ارمه واطرحه غيرَ مبالٍ به[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نقضُ العهد المقطوع، إيذانٌ بالحرب الضّروس:

وإمّا تخافنّ - يا نبيّ اللّه - من عدوٍّ لك بينك وبينه عهدٌ وعقدٌ أن ينكثَ عهدَه، وينقضَ عقدَه، ويغدرَ بك، فألقِ إليهم مقاليدَ السّلم، وآذنهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربِك إيّاهم أنّك قد فسختَ العهدَ بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور آثارِ الغدرِ والخيانة، حتّى تصيرَ أنت وهم على سواءٍ في العلم بأنّك لهم محاربٌ، فيأخذوا للحرب آلتَها، وتبرأ منَ الغدر، واعلم أنّ اللّه لا يحبُّ الغادرين[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالعطف:

وصل حكم النّاقضين للعهود بالفعل، بحكم الّذين يوشكون على ذلك

قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾، هذه الآية معطوفةٌ على الآية السّابقةِ من باب عطف حالةٍ على حالةٍ، أو عطف حكمٍ على حكمٍ؛ فهناك تناولَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبذ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/25.

حكمَ النّاقضين للعهود بالفعل، وهنا تناولَ أحكامَ المشرفين على النّقض(1)، وقد يكون هذا العطف من باب عطف العامّ على الخاصّ، إذ إنّ حالةَ مَن يمكن أن تظهرَ منه علاماتُ الخيانة والغدر، أشملُ وأعمُّ منَ الّذين غدروا بالفعل(2).

سِرُّ التّعبير بـ(إمّا)، في السّياق:

تأكيدُ الشّرط ترسيخٌ للخوف

(إمّا) هنا كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾، هي (إنْ) الشّرطيّة مُؤكَّدة بلفظ (ما)؛ ولذا أُكِّدَت بالنّون الثّقيلة، ويكون تأكيدًا للشّرط، فهو تأكيدٌ للخوف، والمعنى: إن خفتُم خوفًا مؤكّدًا توافرت أسبابُه، حتّى يكون توقّعُ الخيانةِ أمرًا ثابتًا قامَت أماراتُه، وبدرَت بوادرُه(3).

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الخوفِ):

للعلم والخوف أماراتٌ ودلائلُ، ويترتّبُ عليه مخاطرُ

الخوفُ مُستعارٌ للعلم بأنْ شبَّه العلمَ بالخوف، بجامع أنَّ كليهما يكون عن أماراتٍ ودلائلَ، ويترتّب عليه مخاطرُ؛ أي: وإمّا تعلمنَّ من قومٍ منَ المعاهدين نقضَ عهدٍ فيما سيأتي بما لاح لك منهم من دلائل الغدرِ ومخايل الشّرِّ، فاطرحْ إليهم عهدَهم(4)؛ لأنّ شؤونَ المعاملات السّياسيّة والحربيّة، تجري على حسب الظّنون ومخائل الأحوال، ولا يُنتظَرُ تحقّقُ وقوعِ الأمرِ المظنونِ؛ لأنّ التّريّثَ قد يُعرّضُ الأمّةَ للخطر، وضياعِ المصالحِ(5).

دلالةُ (الفاء) في جواب الشّرط في السّياق:

الفاءُ رُبِطَت بجوابٍ محذوفٍ

الفاءُ في جواب الشّرط ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ رابطةٌ بجوابٍ محذوفٍ، تقديره: وإمّا تخافَنّ من قومٍ خيانةً، فبادرْ أنت بالتّصرّف معهم، فانبذ إليهم عهودَهم.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/51.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3170.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/52.

توجيهُ التَّعبير عن جواب الشّرط:

صاغ جوابُ الشّرط بفعل الأمر المبنيّ في محلّ جزم، والمفعولُ به محذوفٌ، تقديره: عهدهم، دلّ عليه قوله قبلها: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾، وأفادَت صيغةُ الأمرِ فيه معاني التّحقيرِ وعدم المبالاةِ بهذه العهود المبرمةِ معهم، وأفادَت نونُ التّوكيد الثّقيلة فيه ربطَ هذا النّقض بثبوت الخوف وتيقّنه في النّفوس، واقتضَت قوّةُ جوابِ الشّرطِ ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ الحضَّ على حربهم ومناجزتهم إن لم يستقيموا[1].

أفادَت صيغةُ الأمـر فيه معاني التّحقير واللّامبالاة، بهذه العهود المبرمة معهم

بلاغةُ الاستعارةِ في فعل الأمر﴿فَٱنۢبِذۡ﴾:

في قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ لأنّ النّبذَ مُستعمَلٌ على الحقيقة في الطّرح، وهو هنا مجازٌ عن إعلامهم بأن لا عهدَ لهم بعدَ اليوم، فشبّه العهدَ بالشّيء الّذي من شأنه أن يُرمَى لعدم الرّغبة فيه[2].

بخيانتهم فقدوا الثّقةَ بهم، فكان النّبذ إليهم مقابل خيانتهم

بيانُ التّضمينِ في فعل النّبذِ:

تعدية ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ بـ (إلى) لتضمّنِ النّبذِ معنى الرّدّ، فيصبح المطلوبُ مجموعَ قوّةِ الفعلين؛ أي: اُرْدُدْ إليهم عهدَهم ردًّا فيه طرحٌ وإلقاءٌ.

الأمرُ بردّ العهدِ فيه طرحٌ وإلقاءٌ

سرُّ تنكير القوم والخيانة:

تنكير ﴿قَوۡمٍ﴾ و﴿خِيَانَةً﴾ جاء في سياق الشّرط مفيدًا للعموم؛ ليشملَ كلَّ قومٍ مهما كان وصفُهم، وكلَّ خيانةٍ مهما كان حالُها، وفي مجيء هذا التّنكير رفعٌ لشأن المؤمنين وتعزيزٌ لمعنويّاتهم، بأن يكونَ هذا ردّهم مع أيِّ قومٍ كانوا، وضدّ أيِّ خيانةٍ قلّت أو كبرت، والمقصودُ بخوف الخيانةِ ظهورُ بوارقها، وبلوغ ذلك إلى المسلمين[3].

المؤمنون مرفوعٌ عند الله تعالى قدرُهم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 810.

(2) الهرريّ، حدائق الرّيحان: 11/84.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/51.

صفةُ النّبذ تساوي بيانه لدى الجميع

توجيهُ إعراب قوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾:

الجملة صفة لمصدر محذوف؛ أي: نبذًا صفته أنّه على سواء، أو حال منَ الضّمير في ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾؛ أي: في حال كونك على سواء(1)، ومعنى (على سواء)؛ أي: حتّى يكون الأمرُ في بيانِه والعلمُ به على سواءٍ منكَ ومنهم، فتكونون في استشعار الحربِ سواءً، وقيل: على سواء؛ أي: على مَعْدَلَةٍ؛ أي: فذلِكَ هو العدلُ(2)، وهو قريبٌ منَ الرّأي الأوّل.

التّعبير بكلماتٍ قليلةٍ، عن معانٍ عظيمةٍ بالإشارة

دلالة فنّ الإشارة على الإيجاز في السّياق:

في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ فنٌّ، يُقال له: فنّ الإشارة، وهو من أبواب الإيجاز، حيث عبّر القرآنُ الكريمُ بكلماتٍ قليلةٍ عن معانٍ عظيمةٍ يطولُ شرحُها، ولكن يُعبَّرُ عنها بالإشارة، فقوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ يُشيرُ إلى الأمر بالمقاتلة بنبذِ العهدِ كما نبذوا عهودَهم، مع ما يدلُّ عليه الأمرُ بالمساواة في الفعل منَ العدل، فإذا أضفتَ إلى ذلك ما تشير إليه كلمةُ ﴿خِيَانَةً﴾ من وجود معاهدةٍ سابقةٍ، تبيّنَ لك ما انطوَت عليه هذه الإشاراتُ الخفيّةُ من دلالاتٍ ومعانٍ خفيّةٍ(3).

تكرارُ معاهدتهم، مضيٌّ في التّعاقد مع من لا يحبّهم الله

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في جملة الفاصلة:

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾، من حيث الموقع: استئنافٌ بيانيٌّ جاءَ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ فُهِمَ منَ الجملة الشّرطيّة السّابقة، تقديره: لِمَ ننبذُ إليهم عهدَهم عند ظهور مخايلِ الخيانةِ منهم؟ فهي جملةٌ تعليليّةٌ لما تقدّمها، وفيها ما فيها منَ التّعريض بالخيانة، فإنّ الاستمرارَ في عهودهم مضيٌّ في معاهدة مَن لا يحبّهم اللّهُ، فضلًا عن أنّه لا يمكن عطفُها على الجملة الإنشائيّة قبلها: ﴿فَٱنۢبِذۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/52.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 810.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/159 - 160.

﴿إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾؛ لأنّه لا يمكن عطفُ الجملةِ الإنشائيّةِ على الخبريّة أو العكس، إلّا إذا كانَت إحداهُما بمعنى الأخرى، كما هو مقرّرٌ عند علماء البيان.

أغراضُ تزاحم المؤكّدات، في جملة الفاصلة:

التّوكيدُ ترسيخٌ لبغضه تعالى الخيانة

قد أكّد نفيُ محبّةِ اللّهِ تعالى للخيانة بـ (إنّ) الّذي هو حرف توكيدٍ ونصبٍ، وبالجملة الاسميّة، وبذكر المسند إليه مرّةً بوصفه مسندًا إليه مبتدأً، ومرّةً بكونه فاعلًا مُضمَرًا في الفعل ﴿يُحِبُّ﴾؛ ترسيخًا لبغضه تعالى صفةَ الخيانةِ، ومَن رسخَ فيهم هذا الوصف.

توجيهُ توسّطِ النّفي في السّياق:

وسّط النّفيَ ليقوّي بغضَه للخائنين

توسّطَ النّفيُ هنا بين الفاعل المقدَّم (اللّه) والفعلِ المُؤَخَّرِ (يحبّ)، وهذه الحالةُ تقتضي تقويةَ الحكم وتوكيدَه عند البلاغيّين، وقد تفيدُ التّخصيصَ بالقرائن - كما تقدّم مرارًا -، ولا قرينة هنا على صرفه إلى التّخصيص؛ لأنّ عدمَ محبّةِ الخائنين ليس حصرًا على لفظ الجلالة، فالخائنون لا يحبُّهم اللّهُ ولا رسولُه ولا المؤمنون، فيكون التّقديمُ هنا مفيدًا لتقوية الحكم وتوكيده. ونفيُ المحبّةِ أبلغُ في النّهي؛ لأنّ محبّةَ اللّه مطلوبةٌ، فإذا كانتِ الخيانةُ لا تؤدّي إليها فهي منهيٌّ عنها نهيًا شديدًا مُؤكَّدًا[1].

دلالةُ التّعريف بـ(أل)، وصيغةُ اسم الفاعل:

لا يُحِبُّ اللهُ تعالى الخيانَةَ، عظُمَت أو صغُرَت

تعريف المفعول به ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ بـ (أل) تعريفًا استغراقيًّا ليشملَ كلَّ مَن كانت هذه صفته، دلّ على هذا الاستغراق تنكيرُ كلمتي (قوم) و(خيانة)، والتّعبيرُ عنِ الخيانة بصيغة اسم الفاعلِ الدّالّ على رسوخ الوصفِ، ودوامه؛ فاللّهُ تعالى لا يُحبُّ كلَّ مَن اتّصفَ بالخيانة مهما كانَت هذه الخيانةُ نوعًا وكمًّا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3172.

آيَةُ الحجّ كانت في التّثبيت للمؤمنين، والأنفال لمَن يُخشَى منهم نقضُ العهود

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيّ بين آيتي الأنفال والحجّ:

هناك آية أخرى في سورة الحجّ تشبهُ نظمَ هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحجّ: 38]؛ حيث تقدّمَ النّفيُ (لا) فيها لفظَ العموم (كلّ)، والأصل أن تفيدَ هذه الطريقةُ عند البلاغيّين سلبَ العموم[1]؛ بمعنى: أنّ الظّاهرَ المُرادَ منها أنّ اللّه قد يُحبُّ بعض الخوّانين دون بعضِهم الآخر، كما في قولنا: لم آخذْ كلَّ الدّراهم؛ أي: أنّني يمكن أن أكونَ قد أخذتُ بعضَها لا كلّها، مع أنّ الّذي يعتقده المؤمنُ هو أنّ اللّه لا يحبُّ جميعَ الخونةِ والكافرين، لذلك قالوا: إنّها هنا ليست على ظاهرها من إرادة سلبِ العموم، بل إنّها تفيدُ عمومَ السّلبِ بالقرائن؛ أي: إنّ اللّه لا يحبُّ جميعَ مَن كان هذا وصفُه على وجه العموم، دون استثناءٍ، فقد سلبَت آيةُ الحجِّ محبّةَ اللّه عن كلِّ مَنِ اتّصف بهذين الوصفين المُبالغ فيهما على وجه العموم، ويبقى التّساؤلُ عن سرِّ التّغايرِ بين نظمي الآيتين في الأنفال والحجّ، والّذي يبدو من سياق آية الحجِّ أنّها جاءَت تمهيدًا لتشريع الإذن لهم بالقتال بعد أن كان مُحرَّمًا عليهم، لِمَن أخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ، حيث جاء بعدَ هذه الآية قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحجّ: 39 - 41]، فسياقُ آيةِ الحجِّ كان في التّسريةِ والتّثبيتِ للمؤمنين بأنّ اللّه تعالى يُدافعُ عنهم، وأنّه لن يتركَهم لعدوّهم، وأنّ ما أصابهم ما

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 371 - 372، والقزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 67 - 68.

كان ليصيبهم لولا سنّةُ التّدافعِ، وأنّ التّمكينَ في الأرض هو ما أعدّه لهم بعد ذلك، فكان هذا التّعريضُ بأعدائهم من خلال وصفهم بصيغتي المبالغة للخيانة المُقترنةِ بالكفر هو الأليق بهذا المقام، وفيه ما فيه من إذهابِ غيظِ المؤمنين ووعيدِ الكافرين، ولا سيّما وأنّ سورةَ الحجّ مكّيّةٌ على أصحِّ الأقوال، بينما في آية الأنفالِ هنا كان الحديثُ مُنصبًّا على مَن يُخشَى منهم نقضُ العهودِ، وكان الأمرُ بأن يطرحَ عهودَهم ومواثيقَهم على سواء، فناسب هذا كلّه ذكرُ عدمِ مَحبَّته للخائنين عمومًا على اختلاف أجناسِهم ومللِهم والله أعلم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّبذ، والطّرح، والإلقاء، والقذف، والرّمي:

النّـبـذُ طـرحٌ لـلـعـهـود مع الخـائـن، وفيه معـنـى مجـيء جـزائـهـم مـن جنس عملهم

استُعمِلَتْ كلمةُ (النّبذ) دون (الطّرح) أو (الإلقاء) و(القذف) و(الرّمي) لخصوصيّة كلِّ لفظةٍ منها، دون ما تشترك فيه كلُّ هذه الألفاظ في معاني الإبعاد والإقصاء الحسّيّة والمعنويّة؛ فالطّرحُ للشّيء هو تنحيته بعيدًا مع تخلٍّ عنه[1]، واستعملَها القرآنُ الكريمُ مرّةً واحدةً على لسان أخوةِ يوسفَ: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]، فالطّرحُ يجتمعُ مع النّبذ في الإلقاء والإبعاد، لكنّ الطرحَ قد يكون مع استهانةٍ واسترذالٍ، أو قد لا يكونُ كذلك، والنّبذُ اسمٌ لإلقاء الشّيءِ استهانةً به، وإظهارًا للاستغناء عنه، فهو طرحٌ من نوعٍ مخصوصٍ[2]، وأمّا الإلقاءُ فهو طرحُ الشّيءِ حيث تلقاه؛ أي: تراه، ثمّ صار في التّعارف اسمًا لكلّ طرح[3]، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبذ).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 332.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 344.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 12]، والرّمي يُستعمَلُ في الإلقاء المادّيّ والمعنويّ[1]، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧﴾ [الأنفال: 17]، والقذفُ أشدُّ منَ الرّمي والإلقاء؛ لأنّه يكون للرّمي البعيد سواءً أكان رميًا مادّيًّا أو معنويًّا[2]، ولذلك ورد في القرآنِ مع الحصون المنيعةِ في سياق الحديثِ عن اليَهود: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ [الحشر: 2]، وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦﴾ [الأحزاب: 26].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رمى).
(2) الرّاغب، المفردات: (قذف).

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩﴾ [الأنفال: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين تسلية نبيّه من خيانة أعدائه، وأنّ نجاتهم لا تعجز قدرة الله

لمّا بيّنَ تعالى ما يفعلُ الرّسولُ في حقِّ مَن يجدُه في الحرب، ويتمكّنُ منه، وذكر أيضًا ما يجبُ أن يفعلَه فيمَن ظهر منه نقضُ العهد، بيّنَ أيضًا حالَ مَن فاته في يوم بدرٍ وغيره؛ لئلّا يبقى حسرةً في قلبه، فقد كان فيهم مَن بلغَ في أذيّةِ الرّسول ﷺ مَبلغًا عظيمًا، فقال: لا تحسبنّ الّذين كفروا سبقوا؛ والمعنى: أنّهم لمّا سبقوا فقد فاتوك، ولم تقدرْ على إنزال ما يستحقّونه بهم[1].

فالآيةُ تسليةٌ للنّبيّ ﷺ، على ما بدأه به أعداؤُهُ منَ الخيانة مثلَ ما فعلَت قريظَةُ، وما فعلَ عبدُ اللّه بنُ أبَيٍّ بن سَلول وغيرُهم من فلول المشركين الّذين نجَوا يومَ بدرٍ، وطمأنةٌ له وللمسلمين بأنّهم سَيُدالون منهم، ويأتون على بقيَّتِهم، وتهديدٌ للعدوِّ بأنَّ اللّه سَيُمَكِّنُ منهم المُسلمين[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أحَدَ يفلت من عقاب الله، وحسابه، مهما كانت حيلته وتحصيناته

هذه الآيةُ نزلَت فيمَن أفلتَ منَ الكفّار في بدرٍ، والخطابُ موجّهٌ لرسول اللّه ﷺ؛ والمعنى: لا تظنّنّ الّذين كفروا فائتين اللّه تعالى، وناجين من عقابه، ومُفلتين من حسابه، فإنّهم لا يَعجِزون طالبَهم، بل لا بُدَّ من أن يُظفرَك اللّهُ بهم، أخذهم في الدّنيا وفي الآخرة، وهذا وإن كان في أهل بدرٍ، إلّا أنّ العِبرةَ بعموم اللّفظِ لا بخصوص السّببِ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/498.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/5.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/505، والصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 709.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ إعرابِ (الواو) في المَطلَع:

تسليةُ نبيّ الرّحمة الّذي لا يظلم

الواو هنا عاطفة، عطفَت طبيعةَ تعاملِ النّبيّ ﷺ مع مَن يتمكّن منه في الحرب، ومع مَن ظهر منه نقضٌ للعهد، على حال مَن فاته في يوم بدر وغيره، لئلّا يبقى حسرةً في قلبه، بعد أذيّتهم له ﷺ. أو هي للاستئناف[1].

توجيهُ القراءتين في (لا يحسبنّ):

في تنوّع القراءات ثراءٌ وتنوّعٌ، يُظهر روعةَ الإعجاز وتفرّدِه

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾، فيه قرأ ابنُ عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر بياء الغيب مع فتح السّين (يَحسبنَّ)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب للنّبيّ ﷺ (تحسبنّ)، على اختلاف أصولِ القرّاءِ أيضًا بفتح السّين أو كسرها، وقرأ ابنُ عامر بفتح همزة (أنّهم لا يعجزون)، وقرأ الباقون بكسرها (إنّهم لا يعجزون)[2]، فعلى قراءة ياءِ الغيبةِ (يحسبنّ) يكون الفاعلُ هو قوله: (الّذين كفروا)، و(حسب) فعل متعدٍّ طبعًا، ويحتاج إلى مفعولين، يمكن أن يكونَ الأوّلُ محذوفًا، وتقديره (أنفسهم)، والمفعول الثّاني هو المصدرُ المؤوّلُ من (أن) المحذوفة والفعل (سبقوا) بعدها، والتّقدير: ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنفسَهم سابقين، ويمكن أن يسدَّ المصدرُ المؤوّلُ مسدَّ المفعولين أيضًا، والتّقدير: ولا يحسبنّ الّذين كفروا أن سبقوا[3]، ويمكن على تقديرٍ أبعد أن يكونَ الفاعلُ محذوفًا تقديره يعود على الرّسول ﷺ أو المؤمنين، ويكون (الّذين كفروا) مفعولًا به أوّل، و(سبقوا) مفعولًا به ثانيًا[4]، وأمّا على قراءة تاء المخاطبةِ للنّبيّ ﷺ أو مَن يصلحُ للخطاب، يكون المفعولُ به الأوّلُ (الّذين كفروا) والثّاني (سبقوا)، والمعنى: ولا تحسبنّ الّذين كفروا سابقين[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.
(2) آل نصر، طلائع البشر، ص: 184.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 811.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151.

دلالةُ النّهي عنِ الحسبان:

(لا) ناهية، والنّهي عنِ الحسبان، والظّنّ هو نهيٌ عمّا ينبغي؛ لأنّ الحسبانَ لا يقعُ عليه النّهي، إنّما المرادُ: لا ينبغي لهم أن يحسبوا أنّهم سبقوا؛ أي: فازوا، إذا سبقوا إلى عيرهم، وأخذوها، وأفلتوا بها، فإنّهم لا يُعجزون[1].

النّـهـي عـنِ الحسبان، نهيٌ عمّا ينبغي

بلاغةُ الاستعارة في لفظِ (السّبق):

السَّبقُ مُستعارٌ للنّجاة ممّن يَطلُبُ، والتَّفلُّتِ من سُلطته، شبَّهَ المُتَخلِّص من طالبه بالسّابق كقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، وقالَ بعضُ بَني فقْعَسٍ:

كَأنّكَ لم تُسبَقْ منَ الدَّهرِ مَرَّةً***إذا أنتَ أدركتَ الّذي كُنتَ تَطلُبُ

أي: كأنّك لم يَفُتكَ ما فاتَكَ إذا أدركتَهُ بعدَ ذلك، ولذلك قوبِلَ السَّبقُ هنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾؛ أي: هم وإنْ ظهرَت نجاتُهُمُ الآن، فما هي إلّا نَجاةٌ في وقتٍ قصيرٍ، فهم لا يُعجِزون اللّه، فهو القادرُ عليهم المتمكّنُ منهم، أو لا يُعجزون المُسلمين؛ أي: لا يُصَيِّرون مَن أفلَتوا منه عاجِزًا عن نَوالِهم[2].

إنّ اللّهَ يمهلُ الظّالمَ؛ فإذا أخذه لم يُفلته

توجيهُ العدولِ عن ذكرِ ما سبقوا فيه:

عُدِلَ عن ذكر "ما سبقوا فيه أو ما فازوا به، بل أطلق نفي ظنِّهم أنّهم سبقوا أيَّ نوعٍ منَ السّبق، أو فازوا بأيِّ نوعٍ منَ الفوز، فالمعنى: أنّهم لا يظنّون أنّهم يسبقون بأيِّ سبق، فحياتُهم فارغةٌ أبدًا، لأنّهم ليست لها غاية؛ لأنّ أيَّ سبقٍ لهم فهو لغوٌ، وأنّ نهايتَهم واحدةٌ إنِ استمروا على كفرهم، وإنّ اللّه تعالى غالبٌ، والنّصرُ للمؤمنين"[3].

بيان أنّه لا غايةَ لحياتهم، ولا جدوى من عيشهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/53.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.

مهما يغلبوا فإنّ الغلبَ عليهم، ولا تحسبَنَّهم مُعجزين المؤمنين

توجيهُ قراءةِ كسرِ همزةِ (إنّ) وفتحِها:

أكثرُ القرّاءِ على كسر (إنّ) في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ وهو الوجهُ؛ لكون الجملةِ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤال تثيرُه جملةُ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾؛ ولأنّه ابتداءُ كلامٍ غيرِ متّصلٍ بالأوّل كقوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، وتمّ الكلامُ، ثمّ قال: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، فكما أنّ قولَه: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ منقطعٌ منَ الجملة الّتي قبلها، كذلك قوله: إنّهم لا يُعجزون. وهي في معنى تَعْليلِ نهيهم عن حسبان أنّهم سبقوا، حين ظنّوا أنّهم فازوا عندما سبقوا إلى عيرهم، وأخذوها، وأفلتوا بها؛ لأنّه ما دامتِ النّهايةُ للمؤمنين، وأنّهم لا يُعجزون، فالهزيمةُ لاحقةٌ بهم مهما سبقوا، ومهما يفوزوا في حركاتٍ ليسَت هي النّهاية، واللّهُ من ورائهم محيطٌ حتّى يوم القيامة[1]. وهناك قراءةٌ بفتح (أنّ) على حذف لام التّعليل؛ فالجملةُ في تأويلِ مصدرٍ هو علّةٌ للنّهي؛ أي: لأنّهم لا يُعجزون، جاء في الكشّاف: كلٌّ واحدةٍ منَ المكسورة والمفتوحة تعليلٌ إلّا أنّ المكسورةَ على طريقةِ الاستئنافِ، والمفتوحةَ تعليلٌ صريحٌ[2]، والمعنى الجُمليّ للنّصّ السّاميّ أنّهم مهما يسبقوا ويفوزوا فإنّ الغلبَ عليهم، ولا تحسبَنَّهم مُعجزين منَ المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾[3].

بيان أنّهم لا يُعجزون اللهَ في أيّ شيءٍ، وعلى الدّوام

بلاغةُ التّعبير بالمضارع، وحَذْفِ مفعول ﴿يُعۡجِزُونَ﴾:

التّعبيرُ عن نفي العجزِ بالفعل المضارع ﴿يُعۡجِزُونَ﴾، وما يدلُّ عليه منَ التّجدّدِ الاستمراريِّ، وحذفِ مفعول ﴿يُعۡجِزُونَ﴾ إيجازًا

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/498، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/54.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.

وتعميمًا ليشملَ اللّهَ والرّسولَ والمؤمنين، فهم أعجزُ من أن يُعجِزوا اللّهَ أو رسولَه أو المؤمنين، كلُّ ذلك يؤدّي الى شحذ همّةِ المؤمنين وتقويةِ بنيانِهم وجبرِ خواطرِهم، ويؤدّي بشكلٍ آخر موازٍ لهذا إلى تهديدِ الكافرين، وزعزعةِ بنيانِهم، وتقويضِ أوهامِهم.

بلاغةُ المؤكِّدات:

التّوكيدُ يرفعُ مَعنَويّاتِ المؤمنين، ويحقّق التّعريض بالكافرين

لا شكّ أنّ نظمَ الجملةِ ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ يشبهُ نظمَ الجملةِ السّابقةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾، وما قيل هناك من وجوهٍ بلاغيّةٍ يصلحُ أن يُقال هنا، من حيث تقدّم المسند إليه المبتدأ على المسند الفعليِّ المنفيِّ، وما يتبعه من تقوية الحكمِ أو تخصيصِه، فضلًا عن أنّ هذه الجملةَ هنا قد حظيَت بالمُؤكِّدات الّتي حظيَت بها الجملةُ السّابقةُ.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين قدرة الله على الكافرين، وضرورة الإعداد للنّصر المبين

بعد أن أوجبَ عليهم أن يُشرِّدوا مَن بادرَ إلى نقض العهد، وأن ينبذوا عهودَ مَن يُخافُ منه الخيانةُ، ونقضُ الميثاقِ، أمرَهم في هذه الآية بالإعداد للكفّار[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَعِدُّواْ﴾: يقول صاحبُ معجم المقاييس في اللّغة حول أصل مادّة (عدّ): "العينُ والدّالُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ لا يخلو منَ العدِّ الّذي هو الإحصاءُ، ومنَ الإعداد الّذي هو تهيئةُ الشّيء، وإلى هذيْن المعنَييْن ترجعُ فروعُ البابِ كلُّها[2]"، الإعداد: هو التّهيئةُ والإرصاد[3].

2) ﴿قُوَّةٖ﴾: القافُ والواو والياءُ أصلان متباينان، يدلُّ أحدُهما على شدّةٍ وخلافِ ضَعْفٍ، والآخرُ على خلاف هذا وعلى قلّةِ خيرٍ، فالأوّلُ القوّة، والقويُّ: خلافُ الضّعيف، والأصلُ الآخرُ: القَواءُ: الأرضُ الّتي لا أهلَ بها[4]، والقوَّة: تُستعمَلُ تارةً في معنى القدرة، نحو قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: 171]، وتارةً للتّهيّؤ الموجود في الشّيء، ويُستعمَلُ ذلك في البدن تارةً، وفي القلب

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 148.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).

أخرى[1]، وقال صاحب الكلّيّات: القوّةُ: هيَ كَون الشَّيء مُستعدًّا لأن يوجد ولم يوجد[2].

3) ﴿رِبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾: رَبطُ الفرس: شدّه بالمكان للحفظ، ومنه: رِباطُ الخيل، وسمّي المكانُ الّذي يخصُّ بإقامة حِفْظِه فيه: رباطًا، والرِّباط مصدر رَبَطْتُ ورابَطْتُ، والمُرابَطَة كالمحافظة، قال اللّه تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الانفال: 60]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: 200]، فالمرابطة ضربان: مرابطة في ثغور المسلمين، وهي كمرابطة النّفس البدن، فإنّها كمَن أُقيم في ثغرٍ، وفوّض إليه مراعاتُه، فيحتاج أن يراعيه غيرَ مخلٍّ به، وذلك كالمجاهدة، والضّربُ الثّاني: يُقال: فلان رابِطُ الجأش: إذا قوي قلبُه[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قـوّة الإعـداد تُـرهبُ الأعـداء المـتربّـصـين، وتُمكّنُ المؤمنين منَ النّصر المكين

يخاطبُ اللّهُ عبادَه المؤمنين بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ لأعدائكم الكفّار السّاعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾؛ أي: كلُّ ما تقدرون عليه منَ القوّة العقليّة والبدنيّة وأنواع الأسلحة ونحو ذلك ممّا يعينُ على قتالهم، فدخلَ في ذلك أنواع الصّناعات الّتي تعملُ فيها أصنافُ الأسلحةِ والآلاتِ والشّجاعةِ والتّدبيرِ والمراكبِ المحتاج إليها عند القتالِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾، وهذه العلّةُ موجودةٌ فيها في ذلك الزّمان، وهي إرهابُ الأعداء، والحكمُ يدورُ مع علّته، وقوله: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾؛ أي: ممّن تعلمون أنّهم أعداؤكم، ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ ممّن سيقاتلونكم بعدَ هذا الوقت الّذي

(1) الرّاغب، المفردات: (قوى).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 717.
(3) الرّاغب، المفردات: (ربط).

يخاطبُهم الله به، ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ فلذلك أمرَهم بالاستعداد لهم، ومِن أعظم ما يعينُ على قتالهم بذلك النّفقات الماليّة في جهاد الكفّار، ولهذا قال تعالى مُرَغِّبًا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قليلًا كان أو كَثيرًا ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾، فأجرُه يوم القيامة مُضاعفٌ أضعافًا كثيرةً، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾؛ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالعطف:

جمعَ وجوبَ التّشريد والنّبذ، مع الأمر بالإعداد

الآيةُ الكريمةُ معطوفةٌ؛ إمّا على قوله: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾، فبعد أن أوجبَ عليهم أن يُشرِّدوا مَن صدر منه نقضُ العهد، وأن ينبذوا عهودَ مَن يُخاف منه النّقض، أمرهم في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفّار[2].

بلاغةُ الاحتراسِ في العطف:

الاستعدادُ للعدوّ، علّةُ كونه لا يُعجز

تحتملُ الآيةُ العطفَ على قوله: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾؛ ليفيدَ العطفُ غرضًا بلاغيًّا يسمّى الاحتراس[3]، فقوله: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ يوهمُ التّوهينَ من شأن المشركين، والتّقليلَ من شأنهم؛ فعقّبه بالأمر بالاستعداد لهم، لئلّا يحسب المسلمون أنّ المشركين قد صاروا في مكنتهم، فيلزم من هذا الاحتراس أن يستعدّوا لهم، فيكون هذا الاستعداد هو السّببُ في كونهم لا يُعجزون[4].

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 324 - 325.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151.

(3) وهو نوعٌ منَ الإطناب، ويسمّى الاحتراس أو التّكميل: وهو أن يُؤتى بكلامٍ يوهمُ خلافَ المقصود بما يدفعه. يُنظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 127.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/54 - 55.

يدُ الله مع الجماعة، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب

دلالةُ الأمرِ (أعدّوا)، ووجهُ جمعِه:

الأمرُ بالإعداد اتّخاذُ الشّيء لوقت الحاجةِ إليه[1]، وهو عامٌّ موجّهٌ لكلّ المؤمنين؛ فـ" المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين"[2]، فاجتماعُهم، ومشاركتُهم في الإعداد موئلُ نصرِهم، وآلةُ تمكينِهم، وسرُّ ثباتِهم.

الأمـرُ مُتوجِّهٌ لمحاربة جميع الكفّار

عودُ الضّمير في ﴿لَهُم﴾، من الآية الكريمة:

الضّميرُ في قوله: ﴿لَهُم﴾ عائدٌ على الّذين يُنْبَذ إليهم العَهْدُ، أو على الّذين لا يُعجزون على تأويل مَن تأوّلَ ذلك في الدّنيا، ويحتملُ أن يعيدَه على جميع الكفّار المأمور بحربهم في ذلك الوقت، ثمّ استمرّتِ الآيةُ في الأمّةِ عامّةً، إذِ الأمرُ قد توجّهَ بحرب جميعِ الكفّار[3].

أفادَت (ما) التّعميمَ، لتوخّي كلّ أنماط الإعداد اللّازمة

سرُّ التّعبيرِ بالموصول (ما) في السّياق:

إيثار الموصول الاسميّ (ما) الدّالّ على الإبهام والتّنكير؛ لإفادة التّعميم لتشملَ كلَّ أنواعِ الإعداد، ومختلفَ وجوه الاستطاعة قلّت أو كثرت.

الحثُّ على تحصّل مكامنِ الإعدادِ، في مواجهة الأعداء

التّعبيرُ عنِ الاستطاعة بصيغة الاستفعال:

تدلُّ صيغةُ الاستفعال على طلبِ الفعلِ، والأمرُ هنا بالاستطاعة وفاقَ هذه الصّيغة طلبٌ للسّعي وبذلِ الجهدِ والنّفسِ لتحصّل تمامِ الإعداد، والإمكانِ منه، والقدرةِ على تنفيذه بما توحي به الصّيغةُ من دلالةٍ على قوّةِ المعنى، بالزّيادةِ على أصل الفعلِ، وبذا تكونُ أخصَّ منَ القدرة.

إفادة القوّة التّعميمَ، ليشملَ كلَّ القوى المادّيّة والمعنويّة

بلاغةُ تنكير لفظ ﴿قُوَّةٖ﴾ في الآية:

الخطابُ في الآية هو لجماعة المسلمين وولاة الأمر منهم؛ لأنّ ما يُراد منَ الجماعة إنّما يقوم بتنفيذه ولاةُ الأمور الّذين هم وكلّاءُ الأمّةِ على مصالحها[4]، والأمرُ في ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ يفيدُ الوجوبَ الفرضيَّ

---

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/45.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/545.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/545.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/55.

على القادرين، وتقديمُ شبه الجملة ﴿لَهُم﴾ على المفعول به، إنّما هو لكمال التّحذيرِ للمؤمنين من أعدائهم، ولكي لا يتواكلوا ولا يتوانوا في الإعداد والتّهيئة لأعدائهم الّذين يتربّصون بهم، والضّمير في قوله: ﴿لَهُم﴾ عائدٌ على الّذين يُنْبَذ إليهم العَهْدُ، أو على الّذين لا يُعجزون، ويحتمل أن يعودَ على جميع الكفّار المأمورِ بحربهم في ذلك الوقت، ثمّ استمرّتِ الآيةُ في الأمّةِ عامّةً[1]، والظّاهرُ العمومُ[2]، والقوّةُ هنا أُطلِقَت مجازًا على شدّة تأثير شيءٍ ذي أثر، ويمكن أن تكونَ أُطلقت على سبب شدّةِ التّأثيرِ، فقوّةُ الجيش شدّةُ وقعِه على العدوّ، وقوّتُه أيضًا سلاحُه وعتادُه، وهو المراد هنا، فهو مجازٌ مُرسَلٌ بواسطتين أو بسببين، فاتّخاذُ السّيوفِ والرّماحِ والأقواسِ والنّبالِ منَ القوّة في جيوش العصورِ الماضيةِ، واتّخاذُ الدّبّاباتِ والمدافعِ والطّيّاراتِ والصّواريخِ منَ القوّة في جيوش عصرِنا[3]، وذكروا فيما يمكن أن يكونَ سببًا في القوّة وجوهًا: **الأوّل**: المرادُ منَ القوّة أنواعُ الأسلحة، **الثّاني**: ما ورد عنِ النّبيّ ﷺ: «ألا إنّ القوّةَ الرّميُ» قالَها ثلاثًا[4]، **الثّالث**: قال بعضُهم: القوّةُ هي الحصونُ، الرّابع: هذا عامٌّ في كلِّ ما يتقوّى به على حرب العدوّ، وهو القول الأولى[5]، ويؤيّدُ هذا الرّأيَ الأخيرَ تنكيرُ كلمةِ ﴿قُوَّةٖ﴾، والّذي يفيدُ التّعميمَ ليشملَ كلَّ القوى المادّيّة والمعنويّة، فيدخل فيها الرّميُ دخولًا أوّليًّا؛ لأنّه من أهمِّ القوى الّتي تحسمُ المعركة.

توجيهُ العطفِ، في ذكر رباط الخيل:

عطـفُ (رباط الـخـيـل)، من عطف الـخـاصّ على العامّ

عطفُ ﴿رِبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ على ﴿قُوَّةٖ﴾ من عطف الخاصّ على العامّ للاهتمام بذلك الخاصّ[6] نحو قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 811 - 812.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/55.
(4) مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب: فضل الرّمي والحثّ عليه، برقم: (1917).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151 - 152.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/55.

﴿لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة: 98]، وجبريل وميكال من جنس الملائكة، وعطفها عليها يقتضي تفضيلَها على بقية أفرادِ جنسِها.

علّةُ إيثارِ صيغة (الرّباط)، في ثنايا السّياق:

الرّباطُ اسمٌ للخيل الّتي تُربَطُ في سبيل اللّه، فِعال بمعنى مفعول، أو مصدرٌ سمّيت به[1]، حيث يسمّون المكانَ الّذي تُربطُ فيه الخيولُ رباطًا، ويمكن أن تكونَ رباطُ صيغةَ مبالغةٍ للمبالغة بربط الخيلِ واحتباسِها انتظارًا للغزو[2].

الرّباطُ اسمٌ للخيول الّتي تُربَطُ في سبيل الله

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾:

﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ كنايةٌ عربيّةٌ بليغةٌ معروفةٌ عند العربِ دالّةٌ على البأس والإعداد الحربيّ[3]، قال الشّعراويّ: "ورباط الخيل هو القوّةُ الّتي تحتلُّ الأرضَ، فمهما بلغَت قدرتُك في الرّمي فأنت لا تستطيع أن تستولي على أرض عدوِّك، ولكنَّ راكبي الخيل كانوا يدخلون المعركةَ في الماضي بعدَ الرّمي ليحتلوا الأرضَ، وهذه عَمَليَّةٌ تقومُ بها المدرّعات الآن؛ فالمعركةُ تبدأُ أوّلًا: رَمْيًا بالصّواريخ والطّائرات حتّى إذا حطّمتَ قوّةَ عدوِّك انطلقَتِ المدرّعاتُ لتحتلَّ الأرضَ، فالطّائراتُ والصّواريخُ تهلكُ العدوَّ وتحطّمُه، ولكنّها لا تأخذُ الأرضَ، ولكنّ الّذي يمكّننا منَ الأرض والاستيلاء عليها هو رباطُ الخيل، أو المدرّعاتُ، ورباطُ الخيل هو عقده للحرب؛ أي: أنّ الخيلَ تُعدُّ، وتُعلَفُ، وتدرَّبُ، وتكونُ مستعدّةً للحرب في أيّة لحظةٍ، تَمامًا كما تأتي للمدرّعات، وتعدُّها إعدادًا جيّدًا بالذّخيرة، وتصلحُ ماكيناتِها، وتتدرّبُ عليها؛ لتكونَ مُسْتَعدًا للقتال في أيّ لحظة"[4].

الخيلُ مظنّةُ البأس، والإعداد للحرب

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/109.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/55.

(3) مراد، المقدّمة في فقه العصر: 2/737.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4777.

وجهُ إضافةِ الرِّباط إلى الخيل:

يكثُرُ استعمالُ التّركيبِ ﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ في الخيل الّتي تُربَطُ في سبيل الله. فالإضافة؛ إمّا باعتبار عموم المفهوم الأصليِّ، أو بملاحظة كون الرِّباط مشتركًا بين معانٍ أُخَر، كانتظارِ الصّلاةِ، وملازمةِ ثغرِ العدوِّ، والمواظبةِ على الأمر، فإضافته لأحد معانيه للبيان، كـ (عين الشّمس)، ومنه يعلم أنّه يجوزُ إضافةُ الشّيء لنفسه إذا كان مُشتركًا، وإذا كان من إضافة المُطلَقِ للمقيّد، فهو على معنى (من) التّبعيضيّة[1].

الإضافةُ للبيان، أو على (من) التّبعيضيّة

سرُّ تخصيص الخيل بالذّكر، في سياق القرآن الكريم:

لمّا كانتِ الخيلُ هي أصلُ الحروبِ وأوزارها، والّتي عُقِدَ الخيرُ في نواصيها، وهي أقوى القوّة، وحصونُ الفرسان، وسروجُ صولاتِهم، وآلاتُ غاراتِهم، خصّها اللهُ بالذّكر ههنا تشريفًا لها، على نحو قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98][2].

خُصّتِ الخيلُ بالذّكر تشريفًا لها على لسان كثير من الأنبياء

بلاغةُ تركِ العطفِ في السّياق:

قوله تعالى ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾، هذه الجملةُ لم تُعطَفْ على سابقتها لاحتمالات: إمّا لكونها استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لمَ نعدّ لهم هذا كلّه؟ ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم، وهو الأولَى هنا؛ لأنّ في تقدير السّؤالِ المحذوفِ بَلاغَةً عَجيبَةً من شجاعة العربيّة، وإمّا أنّ تركَ العطفِ لكمال الانقطاع بسبب عدم جوازِ عطفِ الجملةِ الخبريّةِ على الإنشائيّةِ، فجملة ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ خبريّة، وجملة ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ إنشائيّة، ولا يجوزُ عطفُ إحداهما على الأخرى إلّا إن كانت إحداهما بمعنى الأخرى، وإمّا تُركَ العطفُ لكونها جملةً حاليّةً من ضمير ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ على معنى: مرهبين به، أو منَ الاسم الموصول (ما)، أو من عائده المحذوف (ما استطعتموه)[3].

تُركَ العطفُ لشبه كمال الاتّصال، أو لكمال الانقطاع أو لكونها جملةً حاليّةً

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/315.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/546.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/56.

توجيهُ القراءاتِ في قوله: ﴿تُرۡهِبُونَ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ بسكون الرّاء وتخفيف الهاء، منَ الفعل (أرهب)، وقرأ رويس بفتح الرّاء وتشديد الهاء[1]، منَ الفعل (رَهَّب)، وكِلاَ الفعلين مُتعدٍّ، لكنّ قراءةَ التّضعيف أفادَتِ المبالغةَ في إيقاع الرّهبةِ في قلوبهم، وبجمع معاني القراءتين يُفهَمُ أنّ الغايةَ من هذا الإعداد هو إيقاعُ الرّهبةِ في قلوب الكافرين، كلٌّ بحسب ما يلزمه من هذا التّخويف والإرهاب، وفوائدُ هذا الخوف ما جاء في تفسير الرّازيّ: "أوَّلُها: أنّهُم لا يَقصِدونَ دُخولَ دارِ الإسلام. وثانيها: أنّه إذا اشتَدَّ خَوفُهُم فرُبَّما التَزَموا من عِند أنفسِهم جزيَةً. وثالِثُها: أنّه رُبَّما صارَ ذلك داعيًا لهم إلى الإيمان. ورابِعُها: أنّهُم لا يُعينونَ سائِرَ الكُفّارِ. وخامِسُها: أن يَصيرَ ذلك سَبَبًا لِمَزيدِ الزّينَةِ في دارِ الإسلامِ"[2].

غـايـةُ الإعــدادِ إيقاعُ الرّهبة في قلوب الكافرين، كـلٌّ بحسب ما يلزمه

الغَرَضُ منَ العطف بين الصّفات:

المراد بـ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ هم المشركون، وعرّفهم بصفتين متقاربتين بأنّهم أعداءُ اللّه وأعداؤهم ليتقوّى ذمّهم، فهذا من عطف الصّفات لموصوفٍ واحدٍ لإنزال التّغايرِ العنوانيِّ منزلةَ التّغايرِ الذّاتيِّ، وقد تقدّمَ الحديثُ عن نظائره، فكونهم أعداءً للّه يقتضي أنهم أعداءٌ للمؤمنين، وعطفُ ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾ أفاد توكيدًا لعداوتهم للّه، وأشعر أنّ كلَّ صفةٍ منَ الصّفتين تصلحُ أن تكونَ كافيةً لإرهابهم، فكيف وقد اجتمعتِ الصّفتان بما يُشعِرُ بنبوّ إحداهما عنِ الأخرى.

عطفُ الصّفاتِ لإنـزال التّغاير العنوانيّ، منزلةَ التّغاير الذّاتيّ

دلالة العطفِ في مطلع الآية الكريمة:

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾، الجملةُ معطوفةٌ على ما سبقها، والمراد أنّ تكثيرَ أدواتِ الجهاد وآلاتِه كما يُرهِبُ أعداءَ اللّه الّذين

(1) آل نصر، طلائع البشر، ص: 184.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/152 - 153.

نعلمُ أنّهم أعداءٌ، يُرهِبُ كذلك الأعداءَ الّذين لا نعلمُ أنّهم أعداءٌ كالمنافقين، وذلك أنّهم إذا شاهدوا قوّةَ المسلمين وكثرةَ آلاتِهم وأدواتِهم انقطعَ عنهم طمعُهم من أن يصيروا غالبين لهم، وذلك يحملُهم على ترك الكفر في بواطنهم، ويَصيرونَ مخلصين، وأيضًا فإنّ المنافقَ من شأنه أن يتربّصَ ظهورَ الآفاتِ، ويحتالَ في إلقاء الإفسادِ والتّفريقِ فيما بين المسلمين، فإذا شاهدَ قوّةَ المسلمين خافَهم، وتركَ هذه الأفعالَ المذمومةَ، وقال بعضُهم: المرادُ بذلك كفّارُ الجنِّ أو المسلمون؛ لأنّ المسلمَ قد يُعادي أخاه المسلم[1].

من وجوه الإعداد، تكثيرُ آلاتِ وأدواتِ الجهادِ

فائدةُ التّعبيرِ بشبه الجملة ﴿مِن دُونِهِمۡ﴾:

يرى ابنُ عاشور أنّ هذا القيدَ في قوله: ﴿مِن دُونِهِمۡ﴾ ما يُشعِرُ بأنّهم من قبائل العرب الّذين كانوا ينتظرون ما تتكشفُ عنه عاقبةُ المشركين من أهل مكّة من حربهم مع المسلمين، فقد كان ذلك دأبَ كثيرٍ منَ القبائلِ، ولذلك ذكرَ ﴿مِن دُونِهِمۡ﴾ بمعنى من جهات أخرى؛ لأنّ أصلَ (دون) أنّها للمكان المخالفِ، وهذا أولى من حمله على مُطلَقِ المغايرة الّتي هي من إطلاقات كلمة (دون)؛ لأنّ ذلك المعنى قد أغنى عنه وصفهم بـ(آخرين)[2]، وعلى جلالة قدر رأيه إلّا أنّ الحملَ على العموم هو الأليقُ بألفاظِ كتابِ اللّه تعالى ليعمَّ كافّةَ صنوفِ أعداءِ اللّه، وأعدائِهم الظّاهرين والمبطنين واللّه أعلم.

استيعاب صنوف أعداء اللّه كافّةً، الظّاهرين والمبطنين

دلالةُ نفي العلم بالفعل المضارع المنفيّ:

معنى قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾: لا تعلمون أعيانَهم وأشخاصَهم؛ إذ هم مُستترون عن أن تعلَموهم بالإسلام، فالعلمُ هنا بمعنى المعرفة، ولذلك فقد تعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبعضهم تكلّفَ في تقدير مفعولٍ ثانٍ لـ(علم)، مثل: محاربين أو فارغين أو راهبين[3]، وإطلاقُ العلمِ على

نَفْيُ عِلْمِ الأعيان والأشخاص، استيعابٌ لكلّ المَنفيّاتِ في السّياق

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/153.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/57.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/345.

المعرفة شائعٌ في لغة العربِ، وفي إسناد المعرفةِ إلى اللّه تباينَت آراءُ العلماء، والأكثرون على منعه[1]؛ لأنّ المعرفةَ تكونُ بعدَ جهلٍ، وتحتاجُ إلى أسبابٍ في تحصيلها، وكلا الأمرين تتنزّه عنه الذّات العليّة.

بلاغةُ تقديمِ المسند إليه، على المسند الفعليّ:

أفادَ التّقديمُ رفع معنويّات المؤمنين، وزعزعة معنويّات أعدائهم

في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ تقديمٌ للمسند إليه على الخبر الفعليّ، وهذا التّركيبُ كما تقدّم مرارًا يفيدُ تقويةَ الحكم وتأكيدَه، وقد يفيدُ التّخصيصَ بالقرائن، وذلك عند مَن يرى أنّ اللّه وحده هو الّذي يعلمُ حالَهم، بدليل أنّه نفى عنهم علمهم بهم، ويرى ابنُ عاشور أنّ الحملَ على التّخصيص والقصر هنا غيرُ مرادٍ؛ لأنّه تقدّمها قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾، ولو قيل: (لا تعلمونهم ويعلمهم اللّه) لحصلَ معنى القصر من مجموع الجملتين[2]، وفي حملها على تقوية الحكم ما يرفعُ من معنويّةِ المؤمنين، وما يزعزعُ معنويّات أعدائهم، ويمكن كذلك أن يكونَ قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: فمَن يعلمهم؟

نكتةُ التّعبير بالجملة الاسميّة:

أفادَت هيئةُ الاسميّة تهديدَ الآخرين، وامتنانًا للمسلمين

جاءَت الجُملَةُ بهيئة الاسميّةِ الّتي تفيدُ التّوكيدَ والثّباتَ تعريضًا وتهديدًا لهؤلاء الآخرين، وإشعارًا بالامتنان على المسلمين بأنّهم بمحلّ عنايةِ اللّهِ، فهو يحصي أعداءَهم، وينبهُهم إليهم[3].

نكتةُ التّعبير عنِ العلم وعن نفيه مضارعًا:

علمُ اللّه لا يسعه شيءٌ، وقد أحاط بكلّ شيء علما

علمُ اللّه تعالى بهم دائمٌ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ لا يسعُه حدٌّ، ولا يُحيط به كمٌّ، وعلمُ البشر بخلافه قاصرٌ، محدودٌ قد يعلمُ شيئًا ويجهلُ أشياءَ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/38 - 39.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/57.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/57.

دلالةُ الواو:

الـــواو بين الاستئنافيّة والعاطفة على الآية الفارطة

قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ﴾، هذه الواو يمكن أن تكون استئنافيّةً شرعت بعدها بكلام جديدٍ لا يتّصلُ مباشرةً بما سبقها؛ حيث لا يجوزُ أن تكونَ معطوفةً على قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾؛ لاختلاف نظم الجملتين من حيث الإنشائيّة والخبريّة من ناحية، ولغياب الجامعِ المباشرِ بينهما من ناحية أخرى، ولكن يحتمل كونها عاطفة على قوله: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ أو قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ﴾ فتكون عاطفةً على ما تقدّمها من أحكامٍ جليلةٍ في هذه السّورةِ الكريمةِ.

بلاغةُ الجملةِ الشّرطيّةِ:

تَحقُّقُ الإيفاءِ، والمجازاة مرهونٌ بالإنفاق في سبيل الله

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ؛ لأنّ (ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدَّم لـ(تنفقوا)، و(تنفقوا) فعل الشّرط و(يوفّ) جوابه[1]، وهما مجزومان، ومنَ المعلوم أنّ الجملةَ الشّرطيّةَ تفيدُ تحقّقَ وقوعِ جوابِ الشّرط لتحقّق فعله، فهي قويّةٌ في إثباتِ أثرِها، فتَحَقُّقُ الإيفاءِ، والمجازاة مرهونٌ بالإنفاق في سبيل اللّه؛ ذلك أنّ إعدادَ القوّةِ يستدعي إنفاقًا، وأنّ النّفوسَ شحيحةٌ بالمال، لذا تكفَّل اللّهُ للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه، والإثابة عليه[2].

سرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ في السّياق:

دوامُ الإنفاقِ وإكثاره، رِباحٌ ومنافع جمّة

جاء التّعبيرُ بالفعليّة في ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾ و﴿يُوَفَّ﴾ لإفادة التّجدّدِ الاستمراريِّ، وفيه إلحاحٌ على إدامة الإنفاقِ، والحَثِّ على الإكثار منَ التّصدّق، والجزاء أداءٌ للحقِّ الكاملِ باستمرار، وإيفاءٌ له على الدّوام، فالمُجْزي اللّهُ فأنّى يُظلَمون؟!

---

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/57.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

جاءَت كلمةُ ﴿شَيۡءٍ﴾ المستغرقة في الإبهام والتّنكير في سياق الشّرط، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لإفادة التّعميم لتشملَ أيَّ شيءٍ مهما قلّ أو كثر.

أفادَت (شيء) التّعميم، في السّياق الكريم

بلاغةُ المجازِ العقليِّ والاستعارةِ في الآية:

أُسنِدَتِ التّوفيةُ إلى الإنفاق بطريق البناء للمجهول على سبيل المجازِ العقليِّ من إسناد الفعلِ لغير الفاعل، أو عن طريق المجازِ بالحذف؛ بمعنى: يوفِّ جزاءَ الإنفاق إليكم، حيث جُعِلَ الإنفاقُ كالقرض للّه، فحذفَ المشبّهَ به، وجَعلَ على الإنفاق جزاءً، فسَمّى جزاءَهُ توفيةً، وأُسنِدَ إلى المشبّه على طريقة الاستعارةِ المكنيةِ[1]، وفي الاستعارة منَ التّوكيد للمعنى ما ليس في الحقيقة، فالاستعارةُ تتضمّنُ الحقيقةَ، وفيها مزيدُ بيانٍ وتقريرٍ لا تسدُّ مسدَّه الحقيقةُ.

الإنفاقُ في سبيل اللّه قرضٌ له تعالى يوفّيه بأحسن منه

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾:

الواو يمكن أن تكون عاطفةً، فتجمع بين التّوفيةِ، وعدمِ الظّلم. ويكونُ المعنى: يوَفَّى إليكم ما تنفقونه ولا تُظلمون أيضًا، ويمكن أن تكونَ واو الحال، والجملة الاسميّة منَ المبتدأ والخبر في محلّ النّصب على الحاليّة على معنى: ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾، والحال في ذلك: أنّكم لا تُظلمون.

العطفُ جمعٌ للوفاء ونَفْيِ الظّلم

توجيهُ توسّطِ النّفي في السّياق:

يُشعِرُ نظمُ الجملةِ بتوسّط النّفي بين المسند إليه المقدَّم والمسند الفعليّ، بتقوية الحكم، كما تقدّمَ مرارًا، وقد يفيدُ التّخصيصُ بالقرائن، ولا قرينةَ هنا على إرادة تخصيصهم دون غيرهم بنفي الظّلم عنهم، وإنّما المرادُ توكيدُ عنايةِ اللّه تعالى بهم، وأنّه لا يضيّعُ لهم شيئًا من أعمالهم.

توسّطَ النّفيُ توكيدًا لعناية اللّه، وأنّه لا يضيّعُ لهم شيئًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/58.

نكتةُ صوغِ الخبرِ جملةً فعليّةً:

لا ظلمَ مع تجدّدِ الإنفاق

مجيءُ الخبرِ ﴿تُظۡلَمُونَ﴾ بالفعليّة للدّلالة على تجدّد نفي الظّلم عنهم، وديمومته، واستمراره، وأنّه لا تنقطعُ رحمةُ الله عنهم؛ توفيةً لدوام إنفاقِهم، واستمرار تصدّقِهم.

بلاغةُ إسنادِ الفاعلِ للمفعول:

واجبُهم التّفكّرُ بالنّعمة وأداءُ حقِّها

أمّا إسنادُ الفعلِ للمفعول فلأنّ الفاعلَ معلومٌ مُقرَّرٌ في أذهانهم، وما عليهم سوى الانشغال بهذه النّعمة والتّفكّر فيها وأداء حقّها.

سرُّ حذفِ مفعول ﴿تُظۡلَمُونَ﴾:

الحذفُ للتّعميم، وأثره في السّياق جليّ

حذفُ مفعولِ ﴿تُظۡلَمُونَ﴾ للتّعميم كي يشملَ صغائرَ الأمور وكبائرَها، والمرادُ لا تُظلمون بترك الإثابةِ أو بنقص الثّوابِ.

بلاغةُ التّعبيرِ عن تركِ الثّوابِ بالظّلم:

بيانُ كمالِ نزاهتِه سبحانه وجَميلِ إثابتِه

عبّر عن ترك الإثابةِ، ونَقْصِ الثّوابِ بقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾، والتّعبيرُ عن تركها بالظّلم مع أنّ الأعمالَ غيرُ موجبةٍ للثّواب حتّى يكونَ تركُ ترتيبِه عليها ظُلْماً لبيان كمالِ نزاهتِه سبحانه عن ذلكَ بتصويره بصورةِ ما يستحيلُ صدورُه عنهُ تعالى منَ القبائح وإبرازِ الإثابةِ في مَعرِض الأمورِ الواجبةِ عليه تعالى[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/32.

﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ [الأنفال: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

الآيةُ انتقالٌ من أحوالِ الحربِ إلى أحوالِ السّلمِ

الآيةُ "انتِقالٌ مِن بَيان أحوالِ مُعامَلَةِ العَدوِّ في الحَربِ: مِن وفائِهم بالعَهدِ، وخيانتِهم، وكَيفَ يَحِلُّ المُسلمونَ العَهدَ معَهُم إن خافوا خيانتَهُم، ومُعامَلَتِهُم إذا ظَفِروا بالخائِنينَ، والأمرِ بالاستِعدادِ لهم إلى بَيان أحكام السِّلمِ إن طَلَبوا السَّلمَ والمُهادَنَةَ، وكَفّوا عَن حالَةِ الحَربِ، فأمَرَ اللّهُ المُسلِمينَ بأن لا يأنفوا مِنَ السَّلمِ، وأن يوافِقوا مَن سَألَهُ منهم"[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿جَنَحُواْ﴾: "الجيمُ والنّونُ والحاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الميلِ والعدوانِ، ويُقال: جَنَحَ إلى كذا؛ أي: مالَ إليه، وسُمّيَ الجناحان جناحَيْن لميلِهما في الشِّقّين، والجُناحُ: الإثمُ، سُمّيَ بذلك لميلِه عن طريقِ الحقِّ"[2].

2) ﴿لِلسَّلۡمِ﴾: "السّينُ واللّامُ والميمُ معظمُ بابِه منَ الصِّحَّةِ والعافيةِ، ويكون فيه ما يَشذُّ، فمنِ البابِ الأوّلِ: السِّلم وهو الصُّلحُ، وقد يُؤنَّثُ ويُذكَّرُ، والّذي شَذَّ عنِ الباب: السَّلمُ: الدَّلوُ الّتي لها عُروةٌ واحدةٌ"[3]، والمعنى المحوريّ الّذي تدورُ عليه هذه المادّة: صحّةُ جرمِ الشّيءِ والتئامُ ظاهره في ذاته؛ أي: عدم تصدّعه أو تفرّع غيره منه: كعيدان السَّلَم الموصوفة، وكالحجارةِ العريضةِ الصّلبةِ، وكعظام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/58.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).

الأصابع كلّ منها ملتئم في ذاته غير متّصل بغيره، وكظاهر حَجَر الحافر المستوى. ومنه: "سَلَمْت الدّلوَ: فرَغْتُ من عملها وأحكمتها"، (أي: هي تامّة سليمة. والدِّلاء كانت تُصنع من جلود تُخرز وتُلأم). ومنه "السُّلَّم: المِرقاة" لأنّه أداةُ الصّعود دون عَطَب. ومنه: "سَلِم (كفرح) سلامةً وسلامًا: بَرِئَ من عيب جسميّ أو معنويّ، فهو سالم وسليم"، فمِنَ السّلامة المادّيّة؛ أي: عدم التّصدّع والعيوب ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم: 43]، ومنَ السّلامة المعنويّة: "السِّلم ضدّ الحرب"؛ لأنّه مسالمةٌ(1).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

دينُ الإسلامِ دينُ السّلامِ، لمن يجنح له، ويتوكّل على الله، المحيط بكلّ شيء

يستمرُّ خطابُ اللّه تعالى لعباده المؤمنين بأنّ الكفّارَ المحاربين إن مالوا للسّلم، والصّلح، وترك القتال، فأجبهم إلى ما طلبوا مُتوكِّلًا على ربِّك، فإنّ في ذلك فوائدَ كثيرةً. واللّهُ تعالى سميعٌ عليمٌ بما يضمره العبادُ في نفوسهم(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في مطلع الجملة الشّرطيّة:

جمع بين الشّدّة والسّلم، رحمةً ورأفةً

قوله: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾، قد تكون الواو عاطفةً على قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾، ويكون الضّميرُ في (جنحوا) هو للّذين نُبِذَ إليهم على سواء(3)، أو يكون عائدًا على أهل الكتابِ، والأولى طبعًا أن يعودَ إلى جميع الكافرين من مشركين وأهل كتاب، وقد تكون الواو هنا استئنافيّةً.

توجيهُ الجملةِ الشّرطيّةِ:

الجملةُ شرطيّةٌ في قوله: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلم).
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 324 - 325.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 813.

﴿عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ربطَت جوابَ الشّرط (فاجنح) بفعله (جنحوا)، ورسّخَت تحقّقَ وقوعِ جوابِ الشّرطِ (فاجنح) لتحقّقِ فعلِه (جنحوا)، فهي قويّةٌ في إثبات أثرِها، فتحقّقُ الاستجابة للسّلم والميل إليه مُتوقِّفٌ على استعدادهم للجنوح له وسعيهم إليه.

تحقّقُ السّلم، مرهونٌ بسعيهم للجنوح له

علّةُ التّعبير بـ(إنْ) دون (إذا):

التّعبير بـ(إن) دون (إذا) هنا لما فيها من معنى التّشكيكِ وقلّةِ حصولِ فعلِها، وتدلُّ على أنّ الأصلَ معهم هو دوامُ قتالِهم ومناجزتِهم، بخلاف التّصالحِ معهم، فهو في حكمِ القليلِ النّادر.

الأصلُ دوامُ قتالِهم وليس مصالحتَهم

إيثارُ لفظِ الجنوحِ، ووجهُ تعديته وتضمينه:

عبّر عنهم بالميْل، ولم يقُل: إن طلبوا السّلم للتّنبيه على أنّه لا يسعفهم إلى السّلم حتّى يعلم أنّ حالَهم حالُ الرّاغب؛ لأنّهم قد يُظهرون الميْلَ إلى السّلم كيدًا[1].

وقد يتعدّى الجنوحُ بـ(إلى) و(اللّام)، كما يُفهَمُ من كلام صاحبِ الكشّاف[2]، ويرى غيرُه أنّ الجنوحَ يتعدّى بـ(إلى)؛ لأنّه بمعنى (مال)، فإذا تعدّى باللّام فإنّما يأتي لغرضٍ، وهو هنا للتّنبيه على أنّ ميلَهم إلى السّلم ميلُ حقٍّ؛ أي: لأجله لا لشيءٍ آخر[3]، ويمكن حملُ هذا المعنى على تضمين ﴿جَنَحُواْ﴾ معنى: (صالحوا) لأجل ﴿لِلسَّلۡمِ﴾، أو معنى: رضخوا، فتكون اللّام للتّعليل كما يُفهَمُ من كلامه، ويصبح المرادُ في التّضمين قوّةَ الفعلين؛ أي: مالوا فصالحوا لأجل السّلم.

مالوا لأجل السّلم؛ فصالحوا، وذلك مأمور الله العليّ

بلاغةُ المشاكلةِ في التّعبير بالجنوح عن قبول المصالحةِ:

كلمة ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ قرأها الجمهورُ بفتح السّين، وقرأها شعبةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/59.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/221.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/59.

بكسرها[1]، والأرجح عند العلماء أنّهما لغتان من لغات العربِ لمعنى واحدٍ، فقد يكونا بمعنى الإسلام أو الصّلح، كما يظهرُ من استعمالاتهما.

الجنوحُ للمسالمة مرتبطٌ بحُجَّةِ منفعتِها للمسلمين

والفاءُ الرّابطةُ في الجواب ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾ قد تكون عاطفةً على جواب مُقدَّرٍ، كأن يكون تقديرُ الكلام: وإن جنحوا للسّلم قَدِّرْ أنت الملائم للمسلمين، فإن رأيت أنّ في مسالمتهم منفعةً للمسلمين فاجنحْ لذلك، والتّعبيرُ عن قبول مصالحتِهم بالجنوح هو من باب المشاكلة[2] (وإن جنحوا فاجنح)، وبين الجنوحين فروقٌ وفروقٌ.

بلاغةُ الاستعارةِ:

الجنوحُ المطلوبُ ما ثبتَ وصُدِقَ فيه

قوله تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ استعارةٌ؛ إذ شبّه هوى الإنسان إلى الأشياء بميل جرم إلى جرم، "والمرادُ بها: فإن مالوا إلى السّلم ميلَ ثباتٍ عليه، وركونٍ إليه، لا ميل مكرٍ ومخادعةٍ وإدهانٍ ومواربةٍ، فسالِمْهم على هذا الوجه الّذي طلبوا السّلمَ عليه، وأنّث السّياقُ (السّلم)؛ لأنّه بمعنى المسالمة والمخادعة، وما يجري مجرى ذلك"[3].

فائدةُ عطفِ التّوكّل على ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾:

لا جنوحَ من غير التّوكّلِ على الله

قوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ معطوفٌ على ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾، وفائدةُ عطفِه أنّهم بحاجةٍ إلى توكيل الأمر، وتفويضه إلى اللّه، إذا نقضوا العهدَ، وعدلوا عنِ الوفاء[4].

بلاغةُ التّشابهِ اللّفظيِّ:

الدُّعاءُ إلى السَّلمِ، هو في حالِ قُدرَةِ المُسلِمينَ وخَوفِ العَدوِّ منهم

أفاد الأمرُ في الفعلين ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾ و﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ النّدبَ أو الإباحةَ، وقد

(1) آل نصر، طلائع البشر، ص: 184.

(2) المشاكلة: ذكرُ الشّيءِ بلفظِ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا، كقوله: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: 116]، أو تقديرًا نحو قوله: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 138]، وهو مصدرٌ مُؤَكِّدٌ لفعل: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 136]، ينظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 178 - 179.

(3) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 8/224.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/154.

جاء في سورة محمّد ﷺ النّهي عن مسالمتهم بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾ [محمّد ﷺ: 35]، فيبدو من ظاهر الآيتين في الأنفال ومحمّد وقوعُ التّعارض بين الحكمين، والأمر ليس كذلك، فآية سورة محمّد ﷺ ذكرَت قيدًا جديدًا ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، يقول ابنُ عاشور عند آية سورة محمّد ﷺ: "فتَحَصَّلَ مِمّا تَقَرَّرَ أنّ الدُّعاءَ إلى السَّلم المَنهيِّ عَنهُ هو طلبُ المسالمةِ مِنَ العَدوِّ في حالِ قُدرَةِ المُسلِمينَ وخَوفِ العَدوِّ منهم، فهو سَلمٌ مُقَيَّدٌ بكونِ المُسلِمينَ داعينَ له وبِكَونِه عَن وهَنٍ في حالِ قوَّةٍ، قالَ قَتادَةُ: أي لا تكونوا أوَّلَ الطّائِفَتَينِ ضَرِعَت إلى صاحِبَتِها، فهذا لا يُنافي السَّلمَ المَأذونَ فيه بقَولِه: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، فإنّه سَلمٌ طَلَبَهُ العَدوُّ، فلَيسَت هذه الآيَةُ ناسِخَةً لآيَةِ الأنفال ولا العَكسَ، ولِكلٍّ حالَةٌ خاصَّةٌ، ومُقَيَّدٌ بكَونِ المُسلمينَ في حالَةِ قوَّةٍ ومَنَعَةٍ وعِدَّةٍ بحَيثُ يَدعونَ إلى السَّلمِ رَغبَةً في الدَّعَةِ، فإذا كان لِلمُسلِمينَ مَصلَحَةٌ في السَّلمِ أو كان أخَفَّ ضُرًّا عليهم فلهم أن يَبتَدِئوا إذا احتاجوا إليه، وأن يُجيبوا إليهِ إذا دُعوا إليه"[1].

بلاغةُ التّذييلِ، في نهاية سياق الآية الجليل:

التّنبيه بغاية زجرهم عن نقض الصّلح

قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدّرٍ: لمَ نجنح إلى مسالمتهم، ونتوكّل على اللهِ؟ لأنّه هو السّميع العليم. والتّذييلُ بهذين الاسمين؛ لأنّه سميعٌ لما يقولونه، عليمٌ بما يضمرونه، ونبّه بذلك لزجرهم عن نقضِ الصّلحِ[2].

براعةُ التّوكيدِ في جملة الفاصلة:

قصرُ صفاتِ الكمالِ والتّوكّل عليه جلّ في علاه

جاءَت فاصلةُ هذه الآية مرصّعةً بأساليبَ متنوّعةٍ في التّوكيد؛ فأُكِّدَت بـ(إنّ) والجملة الاسميّة، وقُصِرَت بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/131.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/154.

وبتعريف الخبر، يقول ابنُ عاشور: "وطريقُ القَصرِ في قَولِه: هو السَّميعُ العَليمُ أفادَ قَصرَ مَعنَى الكَمالِ في السَّمعِ والعِلم؛ أي: فهو سَميعٌ منهم ما لا تَسمَعُ، ويَعلَمُ ما لا تَعلَمُ. وقَصرُ هَذَين الوَصفَينِ بهذا المَعنَى على اللّه تعالى عَقِبَ الأمرِ بالتَّوَكُّل عليه يُفضي إلى الأمرِ بقَصرِ التَّوَكُّلِ عليه لا على غَيرِه. وفي الجَمعِ بَينَ الأمرِ بقَصرِ التَّوَكُّلِ عليه وبينَ الأمرِ بإعدادِ ما استَطاعَ مِنَ القوَّةِ لِلعَدوِّ: دَليلٌ بَيِّنٌ على أنّ التَّوَكُّلَ أمرٌ غيرُ تَعاطي أسبابِ الأشياءِ، فتَعاطي الأسبابِ فيما هو مِن مَقدورِ النّاس، والتَّوَكُّلُ فيما يَخرُجُ عَن ذلك"[1].

بديعُ المقابلةِ بين مفتتحِ الصّفحةِ وختامِها:

لا حـدَّ يُحيطُ بصفاته سبحانه

خُتِمَتِ الآيةُ في مَطلِعِ الصّفحة بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وخُتِمَتْ هذه الآيةُ الأخيرةُ فيها بالوصفين نفسيهما معرّفين: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ فأطلقَ صفتي السّمع والعلم في الأولى فلا قيدَ، ولا حدَّ، ولا سعةً تحيطُ. وقصرهما عليه ههنا جلّ في علاه، وتباركت أوصافُه. فسبحانَه مِن خالقٍ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: 11].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّهبة، والجزع، والحذر، والخشية، والخوف، والرّعب، والرّوع، والفرَق، والفزع، والهلع، والوجف، والوجل:

أراد اللهُ أن يكونَ الكافرون في خوفٍ واضطراب، فلا يشعروا بالطّمأنينةِ

استعملَتِ الآياتُ السّابقةُ لفظةَ (ترهبون) للتّعبير عنِ الخوف الّذي يقعُ على أعداءِ اللّه، واستعملَ القرآنُ الكريمُ ألفاظًا أخرى للتّعبير عن هذا الخوف، وعند التّدقيق في دلالاتها المعجميّة واستعمالاتها السّياقيّة في القرآن الكريم نجد أنّ لكلّ لفظة منها خصوصيتّها الّتي تميزها عمّا تشترِكُ به مع غيرها، ومن هذه الألفاظ الّتي استعملَها القرآنُ الكريمُ:

الرّهبة: يقول ابنُ فارس: الرّاءُ والهاءُ والباءُ أصلان: أحدُهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/59.

يدلُّ على خوفٍ، والآخرُ على دِقّة وخِفّة، فالأوّلُ الرَّهبةُ: تقولُ رهِبتُ الشّيءَ رُهْبًا ورَهَبًا ورَهبَةً، والتَّرهُّبُ: التَّعبُّدُ، والأصلُ الآخرُ الرَّهبُ: النّاقةُ المهزولةُ، والرِّهابُ: الرِّقاقُ منَ النِّصالِ"(1). واصطلاحًا: "الرَّهبةُ والرُّهبُ: مخافة مع تحرّزٍ واضطرابٍ"(2).

الجزع: هو حزن يصرفُ الإنسانَ عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه، وأصل الجَزَع: قطع الحبلِ من نصفه، يُقال: جَزَعتُهُ فانجزَعَ، وهو خلافُ الصّبر(3).

الحذر: احترازٌ عن مخيف، يُقال: حَذِرَ حَذَرًا، وحذرته. وحَذارِ؛ أي: احذر(4).

الخشية: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه(5).

الخوف: توقّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، كما أنّ الرّجاءَ والطّمعَ تَوَقّعُ مَحْبوبٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، ويضادُّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعمَلُ ذلك في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة، قال تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 57]. والخوفُ منَ اللّه لا يُرادُ به ما يخطر بالبال منَ الرّعب، كاستشعار الخوفِ منَ الأسد، بل إنّما يُرادُ به الكفُّ عنِ المعاصي واختيار الطّاعات؛ ولذلك قيل: لا يعدُّ خائفًا مَن لم يكنْ للذّنوب تارِكًا. والتّخويفُ منَ اللّه تعالى: هو الحثُّ على التّحرّز، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [سورة الزّمر: 16](6).

الرّعب: الانقطاعُ منِ امتلاء الخوفِ، يُقال: رَعَبتُهُ فرَعَبَ رُعْبًا، فهو رَعِبٌ. والتِّرعابَةُ: الشّديد الخوف والفزع. وقد جاء هذا اللّفظُ في القرآن في خمسةِ مَواضِع فقط، منها قوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [آل عمران: 151](7).

الرَّوعُ: إصابةُ الرّوع (القلب)، واستُعمِلَ فيما ألقي فيه منَ الفزع، يُقال: رُعتُهُ ورَوَّعتُهُ، وريعَ فلان: فزع. والأروَعُ: الّذي يروع بحسنه، كأنّه يُفزِع. وقد جاء هذا اللّفظ في القرآن مرّةً واحدةً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ [هود: 74]؛ أي: الخوف(8).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهب).
(2) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جزع).
(4) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(5) الرّاغب، المفردات: (خشى).
(6) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(7) الرّاغب، المفردات: (رعب).
(8) الرّاغب، المفردات: (روع).

الفرَق: الفزعُ وتفرُّقُ القلبِ من شدّة الخوف، يُقال: فرِقَ فلان: إذا جزع واشتدّ خوفه. وقد جاء هذا اللّفظ في القرآن مرّةً واحدةً بصيغة الفعل، وذلك قوله سبحانه في وصف المنافقين: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التّوبة: 56]؛ أي: يخافون أن يُظهِروا ما هم عليه(1).

الفزَع: انقباضٌ ونفارٌ يعتري الإنسان منَ الشّيء المخيف، وهو من جنس الجزع: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النّمل: 87](2).

الهلع: أسوأ الجزع والضّجر، وهذا اللّفظ لم يَرِد في القرآن إلّا مرّةً واحدةً فقط، وذلك قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ [المعارج: 19](3).

الوجف: الاضطراب، وسرعة السّير(4)، يُقال: وجَفَ الشَّيءُ يَجِف وجْفًا: اضطرب. ووجَفَ القلبُ: خفق. ووجفَ فلانٌ: إذا سقط منَ الخوف، فهو واجفٌ. وهذا اللّفظُ بهذا المعنى لم يَرِد في القرآن إلّا مرّةً واحدةً فقط، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ [النّازعات: 8]، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: 6] فالمرادُ بـ (الإيجاف) هنا: الإسراعُ في السّير، يُقال: وجفَ الفرسُ يجف وجيفًا وهو: سرعة السّير، وأوجفه صاحبُه: إذا حملَه على السّير.

الوجل: استشعار الخوف، يُقال: وجِلَ يَوْجَلُ وجَلًا: خاف وفزع، فهو وجِلٌ، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60](5).

وقد حاول صاحبُ كتاب الفروق اللّغويّة التّفريقَ بين بعض هذه الألفاظ، وممّا جاء عنده: أولاً: الفرقُ بين الخوفِ والحذرِ والخشيةِ والفزعِ: أنّ الخوفَ توقّعُ الضّررِ المشكوكِ في وقوعه، ومَن تيقّن الضّررَ لم يكن خائفًا له، وكذلك الرّجاءُ لا يكون إلّا مع الشّكّ، ومَن

(1) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(2) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 5/269.
(4) الرّاغب، المفردات: (وجف).
(5) الرّاغب، المفردات: (وجل).

تيقّن النّفعَ لم يكن راجيًا له، والحذرُ توقّي الضّرر سواء كان مظنونًا أومتيقّنًا، والحذرُ يدفعُ الضّررَ، والخوفُ لا يدفعُه[1].

ثانيًا: الفرقُ بين الخوف والخشية: أنّ الخَوفَ يتَعَلَّق بالمكروه وبترك المَكروه، تقول: خفتُ زيدًا كما قالَ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]، وتقول: خفتُ المَرَض كما قالَ سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرّعد: 21]، والخشيةُ تتَعَلَّقُ بمنزل المَكروه، ولا يُسمَّى الخَوفُ من نفس المَكروه خشيَةً، ولهذا قالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرّعد: 21]، فإن قيل أليسَ قد قالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94]، قُلْنا: إنّهُ خشي القَول المُؤدّي إلى الفرقَة والمؤدّي إلى الشَّيء بمَنزِلَة مَن يَفعَله، وقال بعضُ العلماءِ: يُقال: خشيت زيدًا ولا يُقال: خشيت ذهابَ زيدٍ، فإنْ قيل ذلك فلَيسَ على الأصل، ولكن على وضعِ الخشية مَكان الخَوف، وقد يوضَعُ الشَّيءُ مَكانَ الشَّيءِ إذا قَرُبَ منه[2].

ثالثًا: الفرقُ بَين الخَوف والرّهبة: أنّ الرّهبةَ طولُ الخَوف واستمرارُه، ومن ثمَّ قيل للرّاهب راهِبٌ؛ لأنّهُ يديمُ الخوفَ، والرّهبةُ خوفٌ يقعُ على شريطة لا مَخافَة، والشّاهِدُ أنّ نقيضَها الرَّغبَةُ؛ وهي السَّلامَةُ منَ المخاوف معَ حُصول فائدَة، والخَوفُ معَ الشَّكِّ بوُقوع الضّرر، والرّهبةُ معَ العلم به يَقعُ على شريطة كَذا، وإن لم تكنِ الشّريطةُ لم تقع[3].

رابعًا: الفرقُ بَين الخَوفِ والهلعِ والفزعِ: أنّ الفَزعَ مفاجأةُ الخَوف عِند هجوم غارة أو صَوت هدّة وما أشبه ذلك، وهو انزعاجُ القلب بتوقّعِ مَكروهٍ عاجلٍ، وتقول: فزعتُ مِنه فتعديهِ بمن، وخِفته فتعديه بنَفسِه، فمَعنى خفته؛ أي: هو نَفسه خوفي، ومعنى فزعتُ مِنه؛ أي: هو ابتِداء فزعي؛ لأنّ مِن لابتداء الغاية، وأمّا الهَلَع فهو أسوَأُ الجزع[4].

خامسًا: الفرقُ بَين الخَوف والوجل: أنّ الوَجَلَ خلافُ الطّمأنينةِ، وجل الرّجلُ يوجلُ وجلًا إذا قلق ولم يطمئن، ويُقال: أنا مِن هذا على وجلٍ، ومن ذلك على طمأنينةٍ، ولا يُقال على خوفٍ في هذا المَوضِع، وفي القُرآن: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: إذا ذُكِرَت عَظمَةُ اللّه وقدرتُه لم تَطْمئنَ قُلوبُهم إلى ما قدّموه منَ الطّاعَة، وظنّوا أنّهم

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 270.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 270.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 271.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 272.

مقصِّرون، فاضّطربوا من ذَلِك، وقلقوا، فلَيسَ الوجلُ منَ الخَوفِ في شَيءٍ[1].

ويظهرُ من خلال هذه الفروق؛ أنّ استعمالَ ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ في الآية السّابقة إنّما كان لخصوصيّة هذه اللّفظةِ، وما تحملُه من دلالاتٍ، فقد أراد اللّهُ تعالَت حكمتُه أن يكون ثمرةُ الإعداد للكافرين هو خوفٌ دائمٌ فيه اضطرابٌ وقلقٌ يلازمهم، ولا يتركهم لحظةً واحدةً ليشعروا بالطّمأنينةِ أو السّكون.

إيثار لفظة (جنحوا)، تعريضٌ بالكافرين بأنّهم سيبقون في موضع تهمةٍ

(جنحوا)، و(مالوا)، و(دَعَوْا):

استعملَتِ الآيةُ لفظةَ ﴿جَنَحُواْ﴾ في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ دون غيرها منَ الألفاظ كـ(الميل)، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النّساء: 129]، أو (دعوا) كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [محمد ﷺ: 35].

وبعدَ التّتبّع للمعنى المحوريّ لمادّة (جنح) نجدُ أنّها تدورُ حول: امتدادٍ، أو اندفاعٍ منَ الجوانب قويّ أو حادّ، كالجَناح من جسم الطّائر: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38]، ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ [فاطر: 1]، وكشفرتي النّصلِ من جرمه، والعَضُد من جانب الصّدر، وكأوائل الضّلوع من مصدرها. ومنه: جِنْحُ الطّريق - بالكسر - جانبه. وجِنْح القوم: ناحيتهم. وجَنَحتِ السّفينةُ جُنوحًا: انتهَت إلى الماءِ القليلِ فلزِقَتْ بالأرض فلم تمضِ، "(انحرفَت إلى الماءِ الضّحلِ، وهو يكون في جوانب المَجرَى). ومن ذلك "الجُناح: الجناية والجُرمُ: (انحرافٌ عنِ الجادة المستقيمة إلى الجوانب)، وكذلك الإثمُ والذّنبُ: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: 158][2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 273.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جنح).

وعلى هذا نجدُ أنّ مادّةَ (جنح) تحملُ في طيّاتها معاني الجنايةِ والجرمِ والإثمِ، واختيارُها هنا دون غيرها مُشعِرٌ بأنّ ميلَهم هذا إلى السّلم هو تُهمةٌ أوّلًا في نظرهم؛ لأنّه يُعَدُّ تنازلًا عن كبريائهم وغطرستهم، وهم في جنوحهم للسّلم سيبقون في موضع تهمةٍ وشكٍّ وجرم بالنّسبة للمؤمنين، وفي هذا تحذيرٌ للمؤمنين بأن يأخذوا حذرَهم منهم خشيةَ أن ينقضوا عهدَ المصالحة معهم، فلا تصلحُ كلمةُ (مالوا) أو (طلبوا) أن تسدَّ مسدَّ هذه اللّفظة في هذا الموضع.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: 62 - 63]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

خِـداعُ الأعـداءِ احـتـمالٌ قـائمٌ ومسلكٌ غائمٌ

لمّا بيَّنَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ حكمَ الاستجابةِ للصُّلحِ الذي يجنحُ له الأعداءُ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أحدَ أغراضِ الميل للصُّلحِ الَّذي قد يكون في نيّاتهم، فقد يكون طلبُ الصُّلحِ "خديعةً حربيَّةً ليغروا المسلمين بالمصالحةِ، ثمَّ يأخذوهم على غرَّةٍ، أيقظ اللّه رسولَه لهذا الاحتمالِ، فأمرهُ بأن يأخذَ الأعداءَ على ظاهرِ حالهم، ويحملَهم على الصِّدق[1]"، فمناسبةُ الآيةِ للسّابقة مناسبةُ تتميمٍ وتكميلٍ احترازيٍّ لما قد يقع في قابلِ الأيّامِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡدَعُوكَ﴾: يدلُّ أصلُ هذه المادَّة على إخفاءِ شيءٍ، وبه سُمّيَت الخِزانَةُ مُخْدَعًا، والأخْدَعانِ: عِرْقانِ في اللَّبَّتينِ؛ لأنَّهما خفيا، وبَطَنا، ويُجمَعُ على أخادِعَ[2]، والخداعُ: "إنزالُ الآخرِ عمّا هو بصددهِ بأمرٍ يبديهِ على خلاف ما يخفيه"[3]، وقد وردَت هذه الكلمةُ خمسَ مرّاتٍ في القرآن الكريم، واحدةٌ هنا واثنتان في البقرة، واثنتان في النِّساء، غالبُها في سياق الحديثِ عن المنافقين وصفاتِهم، وهذا يتلاءمُ مع طبيعة شخصيَّةِ المنافقِ الذي يُخفي خلافَ ما يُظهِرُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/61، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/154.
(2) الخليل، العين، ص: 234.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 110.

2) ﴿حَسْبَكَ﴾: مَعْنَاهُ: كافٍ، وهو صِفةٌ مُشَبَّهَةٌ بمعنى اسْمِ الفاعِل، أيْ: حاسِبُكَ، أيْ: كافيكَ، والحَسْبُ: العَدُّ والإحصاء، والحَسَبُ: ما عُدَّ، والحَسَبُ بفتح السّين: الشَّرَفُ الثّابتُ في الآباء، رجلٌ كريمُ الحَسَبِ: حسيبٌ، وقَوْمٌ حُسَباءُ، وأمّا حَسْبُ بسكون السّين؛ فمعناهُ: كما تقولُ: حَسْبُكَ هذا، أيْ: كَفاكَ، وأحْسَبَنِي ما أعطاني، أي: كفاني[1].

3) ﴿وَأَلَّفَ﴾: أصلُ مادَّة الإلفِ يدُلُّ على انضمام الشَّيءِ إلى الشَّيءِ"[2]، والإلفُ: اجتماعٌ مع التئام، والمُؤلَّفُ: ما جُمِعَ من أجزاءٍ مختلفة، ورُتِّب ترتيبًا قُدِّمَ فيه ما حقُّهُ أن يُقدَّم، وأُخِّر فيه ما حقُّه أن يُؤَخَّر[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تمامُ الثِّقةِ باللهِ تـعـالى طـريـقُ المتوكّلين وسبيلُ المؤمنينَ

تناولتِ الآيتانِ موقفَ المسلمين ممَّن يريدُ الصُّلحَ في الظّاهرِ، ويُبطِنُ خلافَه، فوجَّهتِ النَّبيَّ ﷺ بما يجبُ عليه من الثِّقةِ باللّه ﷻ فإن أرادَ أولئكَ خداعَك والمكرَ بك؛ فإنَّ اللّه كافيكهم وكافيك خداعَهم إيّاك؛ لأنَّه متكفِّلٌ بإظهارِ دينك على الأديان، ومتضمِّنٌ أن يجعلَ كلمتَهُ العليا، وكلمةَ أعدائهِ السُّفلى، فهو الذي قوّاك بنصرهِ إيّاك على أعدائهِ وبالمؤمنين، وجمعَ بين قلوبهم من الأوسِ والخزرج بعد التَّفرُّقِ والتَّشتُّت، على دينهِ الحقِّ، فصيَّرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداءً، لو أنفقتَ ما في الأرض جميعًا، ما جمعتَ بين قلوبهم بحيَلِكَ، ولكنَّ اللّه جمعَها على الهُدى، فائتلفتْ، واجتمعتْ تقويةً من اللّه لك وتأييدًا منهُ ومعونةً على

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حسب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 85.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 20.

عدوِّكَ، وإنَّ اللّه الذي ألَّف بين قلوبِهم بعد تشتُّتِ كلمتِهم، جعلَهم لك أنصارًا، فعليهِ فتوكَّل، وبهِ فثِقْ، فإنَّه حكيمٌ في تدبيرِ خلقهِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو:

العــدوُّ طالبُ الـسِّـلـمِ إمّـا خاضعٌ صادقٌ وإمّـا مـراوِغٌ مخادِعٌ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ عاطفةٌ، عطفتِ الجملةَ على الجملةِ السّابقة: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾، ومعنى العطفِ: تتميمُ الكلامِ وتكميلُ المعنى، ودفعُ ما قد يجولُ في الصُّدورِ، فإنَّ من يجنحُ للسِّلمِ في حالةِ الحربِ؛ فإنَّه أحدُ رجلين: إمّا مريدٌ للسِّلمِ حقيقةً، وإمّا مخادعٌ، فأتى العطفُ على الحالةِ الثّانيةِ استكمالًا لأحوالِ الأعداءِ، ولدفعِ ما يجولُ في صدرِ المؤمنينَ من السُّؤالِ عن المطلوبِ في حالِ حُدوثِ مثلِ هذا الفعلِ.

نكتةُ استعمالِ (إن) دون (إذا):

الثِّـقـةُ بـالـلـهِ أصلٌ عظيمٌ من أصولِ الانتصارِ على الأعداءِ

صُدِّرَتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ بحرفِ الشَّرطِ (إن) الَّذي يُستعمل في الأمرِ المشكوكِ فيه الَّذي ينبغي ألّا يكونَ، بخلافِ (إذا) التي تُستعمل في الأمرِ المُحقَّقِ، وقد تأتي إحداهُما في موضعِ الأخرى أحيانًا لغرضٍ بيانيٍّ خروجًا عن مقتضى الظّاهرِ، وليس خروجًا عن مقتضى الحالِ، وفي مجيئِها هنا دونَ (إذا) نوعٌ من الطَّمأنةِ للمُؤمنين، وبشرى لهم بأنَّ هذا الخداعَ ليس أكيدًا حتميًّا، بل هو في حكمِ الممكنِ؛ لذا وجبَ على المؤمنين الثِّقةُ باللّهِ تعالى بأنَّه ناصرُهم ومؤيِّدُهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ:

تحذيرُ المؤمنينَ مــن غــدرِ المُخادعينَ منهجُ المتثبِّتينَ

عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ المضارعِ في جملةِ فعلِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ لاستحضارِ صورةِ هذهِ الخديعةِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/3886 - 3888.

وهي صورةُ إظهارِ الرَّغبةِ في المصالحةِ، وإبطانِ الغدرِ والخديعةِ في السِّرِّ، وقد يفيدُ معنى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ ليُفيدَ تحذيرَ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ من أن يغترّوا بهم، ويقعوا في خديعتِهم.

إشـاراتُ الغيبِ في ثنايا النَّظمِ

جاء مفعولُ فعْلِ الشِّرطِ مصدرًا مؤوَّلًا ﴿أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بالمضارعيَّة، فلم يقل: (وإن يريدوا خداعَك)؛ إذ دلَّ الفعلُ المضارعُ على استحضارِ الصّورةِ والتَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ لتؤدّيَ الأغراضَ الَّتي أدّاها الفعلُ ﴿يُرِيدُوٓاْ﴾، بالإضافةِ إلى أنَّ صيغةَ المضارع هنا أفادتِ استبعادَ أن يقعَ منهم خداعٌ لا بسببِ أمانتِهم وحسنِ أخلاقِهم، بل لأنَّ اللّه علِمَ ضعفَهم عن إيقاعِ المخادعةِ بحيثُ يقعُ لهم انتصارٌ وللمؤمنين هزيمةٌ، وهذا من إشاراتِ الغيبِ في ثنايا النَّظمِ الكريمِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الخداعِ:

إخـفـاءُ خـلافِ المُظْـهـرِ متوقَّعٌ من أعداءِ الأمَّةِ

ناسبتْ مفردةُ ﴿يَخۡدَعُوكَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ سياقَ الكلامِ، إذ دلَّتِ المفردةُ مُعجميًّا على إخفاءِ شيءٍ، وهو المتلائمُ مع طبيعةِ العداوةِ الَّتي يُكِنُّها الأعداءُ في صدورِهم تجاه المؤمنين عمومًا، وهو المناسبُ لما يُظَنُّ فيهم من إخفاءِ شيءٍ مع إظهارِ الجنوحِ للسِّلمِ والصُّلحِ، فلم يقل: (وإن يريدوا أن يمكروا بكَ) أو (يغدروا)، فإنَّه غيرُ مناسبٍ لهذا السّياقِ.

نكتةُ توجيهِ الخِطابِ للنَّبيِّ ﷺ:

مَـنْ يُـسيءُ إلى رسولِ اللهِ؛ فهو مـسيءٌ لـلأمَّـةِ كلِّها

وُجِّهَ الخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، فلم يقل: (وإنْ يُريدوا أن يخدعوكم)، وذلكَ ليتناسبَ مع الآيةِ السّابقةِ؛ إذ وُجِّهَ الخطابُ له ﷺ ولبيانِ أنَّ ما يقعُ من الأعداءِ من الخداعِ والمكرِ على خيرِ خلقِ اللّه تعالى فلا يُستبعَدُ منه الأشدُّ والأنكى في حقِّ بقيَّةِ المؤمنين، فإنَّهم لا يُراعون حرمةً ولا أمانةً.

بلاغةُ استعمالِ الفاءِ في جوابِ الشَّرطِ:

اقترنَ جوابُ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ

﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ بالفاءِ الرّابطة بمقدَّرٍ، ولك أن تُقدِّرَهُ: إن يُريدوا خِداعَكَ، ولم يكن لك بدٌّ من قبولِ مصالحتِهم، وخِفْتَ غدرَهم وخيانتَهم؛ فإنَّ اللّه يكفيكهم، فاحتملتِ الفاءُ هذه المعاني، وحَسُنَ الإيجازُ لما فيهِ تلويحٌ لما يجولُ في النَّفس، مع الحياءِ من إظهارِه، فناسبَ الإضمارُ الإضمارَ، ولاءمَ الإيجازُ المقامَ.

حُسْنُ الإشاراتِ المقاميَّةِ يُناسبُها براعةُ الإيجازِ الخفيَّةُ

فائدةُ استعمالِ التَّوكيدِ في الخطابِ:

يرى ابنُ عاشورٍ أنَّ تأكيدَ الجملة بـ(إنَّ) روعيَ فيه المعنى الكنائيُّ؛ لأنَّ معناه الصَّريح ممّا لا يشكُّ فيه أحدٌ[1]، ومعناهُ: أنَّ التَّأكيدَ ليس للنَّبيِّ ﷺ وليس للفئةِ المؤمنةِ المُخاطبة معه بأنَّ اللّه تعالى لن يتخلَّى عنهم، فهم يعرفون هذه الحقيقةَ، بل هو على المعنى المُكَنَّى عنهُ، بمعنى: ضرورةُ ألّا يتعاملَ المسلمونَ معهم بحسب ظنِّهم بهم، وأن يقتصروا على ظاهرِ المسألةِ، ويكلوا أمرَهُم إلى اللّه.

على المؤمنِ الأخذُ بالظّاهرِ وتركُ السَّرائرِ

فائدةُ تقديمِ ﴿حَسۡبَكَ﴾ على لفظِ الجلالةِ:

جاء المسندُ إليهِ ﴿حَسۡبَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ وصفًا، وهو بمعنى الكفايةِ، وكان الظّاهرُ أن يكون ذاتًا؛ فلم يقل: (فإنَّ اللّه حسبك)؛ وذلك على اعتبارِ أنَّ الذي يخطرُ بالبالِ بادئَ بَدْءٍ هو طلبُ مَن يَكْفيه[2]، فإنَّ النُّفوسَ في مثل هذه المواقفِ تترقَّبُ الوعدَ بالكفايةِ، فلمّا قال: حسبك؛ تشوَّقتِ النُّفوسُ للتَّصريحِ باسْمِ الكافي سبحانه وهذا من التَّراكيبِ الَّتي يصلُحُ أن يكونَ فيها المسندُ إليه مسندًا والعكس، وهو المسمَّى بالحمل على المواطأةِ.

إشباعُ النُّفوسِ بالطُّمأنينةِ سابقٌ لإسماعِها هيبةَ الألوهيَّةِ

بلاغةُ العدولِ من الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ:

جاءَ جوابُ الشَّرطِ معدولًا من الجملة الفعليَّةِ إلى الجملة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.

الثِّقةُ باللهِ أثبتُ مقامًا من هواجسِ الظُّنونِ

الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ (إنَّ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ لما تُفيدُه من معاني الثَّباتِ والاستقرار وإزالةِ ما في النُّفوس من هواجسَ وظنونٍ، فإنَّ شأنَكم وديدنكم - أيُّها المؤمنونَ - أن تكونَ ثقتُكم بنصر اللّه وتأييده، وأنَّهُ لن يتخلَّى عنكم أبدًا، فجملةُ ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ دلَّت على تكفُّلِ اللّه كفايةَ هذا الأمرِ، وفيها كنايةٌ عن عدم معاملةِ المسلمين لهم بناءً على الظَّنِّ، ألّا يتوجَّسوا منهم خيفةً، وأنَّ ذلك لن يضرَّهُم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

الإشـــارةُ إلى كفايةِ العبادِ دليلٌ على وعيدِ الأعداءِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾؛ وذلك لما يورِّثُه هذا اللَّفظُ من بهاءِ الجلالةِ ومهاب الجلال، فإنَّ ذكرَ لفظِ الجلالةِ في كونِه الكافي سبحانه هو أعظمُ أثرًا في المخاطبين، وترويعًا للمعتدين؛ لأنَّ اللّه الكافي عبدَهُ هو المعذِّبُ عدوَّهُ.

توجيهُ الفصلِ عن الكلامِ السّابقِ:

الحملُ على الاستئنافِ البيانيِّ أو التَّفسير

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عن الجملةِ السّابقةِ، فلم يقل: (وهو الذي أيَّدك..)؛ إمّا لأنَّها من قبيلِ شبهِ كمالِ الاتِّصال، فهي جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فهي جوابٌ عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لمَ نكِلُ أمرَهم إلى اللّه؟ وعلى هذا التَّقديرِ؛ فهي جملةٌ تعليليَّةٌ لما تقدَّمها[2]؛ لأنَّها جوابٌ عن سؤالٍ مقدَّر، أي: لأنَّه هو الذي أيَّدك بالنَّصرِ وبالمؤمنين.

وإمّا أن تكون جملةً مُفسِّرةً أو مؤكِّدةً لما تقدَّمها، فلم تُعطف عليها لكمالِ اتِّصالها بها، حيث لا يُعطَفُ التّابعُ على المتبوع، فتكون بيانًا لكفايةِ اللّهِ للنَّبيِّ ﷺ بالتَّأييدِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

تعظيمُ الذّاتِ العليَّةِ بما اتّصفت بهِ من صفاتِ النُّصرةِ والتَّأييدِ

جاءَ الخبرُ في قولهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسمًا موصولًا مبهمًا مفيدًا للتَّعظيم؛ لأنَّهُ يعودُ على لفظِ الجلالة، وقد شوَّقَ الاسمُ الموصولُ السّامعَ لإزالةِ الإبهامِ بقولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ فأفادت معانيَ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ لهذه الذَّاتِ العليَّة، فكأنَّ طريقَ التَّعريفِ بها هو بوصفِها بالتَّأييدِ بالنَّصْرِ وبالمؤمنينَ.

فائدةُ التَّعبيرِ بمفردةِ التَّأييدِ:

التَّأييدُ أخصُّ مِنَ التَّقويةِ بالفعلِ والآثارِ

آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَ مفردةِ التَّأييد في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهو التَّقويةُ بالإعانةِ على عملٍ، وجُعِلَت هذه التَّقويةُ بالنَّصرِ؛ لأنَّه يقوّي العزيمةَ، ويثبِّتُ رأيَ المنصور، والتَّأييدُ تقويةٌ بالارتكانِ إلى عظيم، فكيف إذا كان المُؤيِّدُ هو اللّه تعالى؟ فإنَّه يزيدُ من الثِّقةِ والطُّمأنينةِ والقوَّةِ النَّفسيَّةِ والظّاهرة، وهذا من أعظم ما يكونُ عليه الاستقواءُ باللّه تعالى ولذلك لم يقل: (هو الذي قوّاك بنصرهِ).

دلالةُ إضافةِ لفظِ النَّصرِ إلى الضَّميرِ العائدِ على لفظِ الجلالةِ:

نصرُ اللهِ ليس كأيِّ نصرٍ بل هو نصرٌ خاصٌّ بآثارِه ومعانيه

في إضافةِ النَّصرِ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى الذّاتِ العليَّةِ في قولهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّه نصرٌ خارقٌ للعادة، وهو النَّصرُ بالملائكةِ والمعجزات[1]، فيما يتعلَّقُ بالنَّبيِّ ﷺ وما يتعلَّق بالصّالحين من المجاهدينَ والعاملينَ لإعلاءِ كلمةِ اللّهِ تعالى ففي الإضافةِ معنى الخصوص، فهو نصرٌ خاصٌّ غير معهودٍ إلّا لعبادِ اللّهِ الَّذين يرتضيهم لمثلِه، فهو نصرٌ ليس كأيِّ نصرٍ.

غرضُ إعادةِ حرفِ الجرِّ على المعطوفِ:

تقسيمُ أسبابِ النَّصرِ إلى ما هو ظاهرٌ معلومٌ وخفيٌّ مضمونٌ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على قولِه: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾، وقد أُعيدَ حرفُ الجرِّ بعد الواوِ؛ لدفع توهُّم أن يكون معطوفًا على اسم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.

الجلالةِ، فيوهمُ معنًى غير مرادٍ، وهو أنَّ اللّه تعالى أيَّدهُ بنصرهِ ونصرِ المؤمنين لَهُ، مع أنَّ المقصودَ أنَّ وجودَ المؤمنين تأييدٌ من اللّه لرسولِه؛ إذ وفَّقهم لاتِّباعه[1]، قال الرّازي: "فإن قيلَ: لمّا قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ فأيُّ حاجةٍ مع نصرهِ إلى المؤمنينَ حتَّى قالَ: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ قلنا: التَّأييدُ ليس إلّا مِنَ اللّه لكنَّهُ على قسمين: أحدهما: ما يحصلُ من غيرِ واسطةِ أسبابٍ معلومةٍ معتادةٍ، والثّاني ما يحصلُ بواسطةِ أسبابٍ معلومةٍ معتادةٍ، فالأوَّلُ هو المرادُ من قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ والثّاني هو المرادُ من قوله: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾"[2].

فائدةُ العطفِ بين الأفعالِ:

المـؤالـفـةُ بين المؤمنينَ سبيلُ النَّصرِ المعنويِّ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ على قولِه: ﴿أَيَّدَكَ﴾ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فيكون المعنى: أيَّدَكَ بنصرِه وبالمؤمنين، وألَّف بين قلوبِ الَّذين أيَّدك بهم، فتكون المؤالفةُ مظهرًا من مظاهرِ نصرةِ دينِ اللّه تعالى ومن تركَ المؤالفةَ بين المؤمنينَ وحاربها، فإنَّه يكونُ قد تركَ سببًا من أسبابِ التَّأييدِ وحاربَهُ، وهذا دليلٌ عظيمٌ من أدلَّةِ المؤالفةِ بين المسلمين، وأنَّ اجتماعَهم على كلمةٍ واحدةٍ هو طريقُ النَّصرِ والظَّفرِ.

بلاغةُ حذفِ المسند إليه:

الانـشـغـالُ بالمؤالفةِ أولويّةٌ في مـواجـهـةِ الباطلِ

المسندُ إليه الفاعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ محذوفٌ، ونكتةُ الحذفِ أمرانِ:

الأوَّلُ: الإيجازُ للعلمِ به، وهذه نكتةٌ لفظيَّةٌ لا تستقلُّ بذاتِها.

الآخرُ: ليتحقَّقَ الانشغالُ بفعلِ المؤالفةِ، وليعتني بهِ المؤمنونَ أيَّما عنايةٍ، فيشكروا اللّه عليها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/155.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ ﴿وَأَلَّفَ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ بمفردةِ المؤالفةِ دونَ غيرِها من الألفاظِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾، من مثلِ: جمعَ، وحبَّبَ؛ وذلك أنَّ المؤالفةَ لفظٌ يُراد بِه الجمعُ في الظّاهر والباطن لتحقيق غايةٍ، فالمؤالفةُ هي اجتماعُ الأواصرِ بما يحقِّق غايةً مرضيَّةً، وهذا لا يكونُ بمجرَّدِ الحبِّ، أو مطلق الجمعِ، فكم من متحابّينَ لا يُحقِّقونَ أغراضًا مقصودةً، فإيثارُ هذا اللَّفظِ لبيان أمرٍ مقصودٍ لا يُحقِّقُهُ لفظٌ آخر، والتَّأْليفُ بين قُلوبِ المُؤْمِنينَ مِنَّةٌ أُخْرَى على الرَّسولِ، إذْ جَعَلَ أتْباعَهُ مُتَحابّينَ، وذلك أعْوَنُ لَهُ على سياسَتِهم، وأرْجَى لاجْتِناءِ النَّفْعِ بهِمْ؛ إذْ يَكونونَ على قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، وقد كانَ العَرَبُ يُفَضِّلونَ الجَيْشَ المُؤَلَّفَ مِن قَبيلَةٍ واحِدَةٍ؛ لِأنَّ ذلك أبْعَدُ عَنْ حُصولِ التَّنازُعِ بينهُمْ.

وَهو - أيْضًا - مِنَّةٌ على المُؤْمِنينَ؛ إذْ نَزَعَ مِن قُلوبهِمُ الأحْقادَ والإحَنَ الَّتي كانَتْ دَأْبَ النّاسِ في الجاهِليَّةِ، فكانَتْ سَبَبَ التَّقاتُلِ بين القَبائِلِ، بَعْضِها مَعَ بَعْضٍ، وبين بُطونِ القَبيلَةِ الواحِدَةِ[1].

المؤالفةُ جمعٌ للأفرادِ ذوي العلاقةِ الواحدةِ لتحقيقِ غرضٍ مرضيٍّ

دلالةُ إسنادِ فعلِ ﴿وَأَلَّفَ﴾ إلى القلوبِ:

استعملَ النَّظمُ القلبَ جمعًا مضافًا إلى الضَّميرِ دونَ الاكتفاءِ بالضَّميرِ وحدَهُ، فلم يقل: (وألَّف بينهم)، وذلك لبيانِ أنَّ القلوبَ هي موطنُ المؤالفةِ، فإذا صلُحت؛ فقد ائتلفت، وألَّفت بين جماعةِ المؤمنين، ففيه دلالةٌ على أثر صلاحِ القلوب في حياة الأمَّةِ ونصرتِها على أعدائها؛ فقولُه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ معطوفٌ على المنن السّابقة، فقد ألَّفَ بين قلوبِهم حتَّى جعلهم أمَّةً واحدةً.

القلوبُ هي مناطُ الصَّلاحِ في الأمَّةِ

نكتةُ جمعِ القلوبِ:

لجمعِ القلوبِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ نكتةٌ بيانيَّةٌ بديعةٌ، وهي بيانُ اختلافِها وتنوُّعها، في مشاربِها وأصولِها وميولِها

اختلافُ القلوبِ لا تُزيلُهُ إلّا قدرةُ العزيزِ الحميدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.

وشهواتها، فليس الجمعُ لمجرَّدِ الكثرةِ، بل لبيانِ التَّعدُّدِ، فإنَّ القلوبَ الَّتي جُمعت هي قلوبُ المهاجرين والأنصارِ، والأوسِ والخزرج مع ما كانَ بينهم قبلَ ذلك من العصبيَّةِ والضغينةِ والتَّهالك على الانتقام، بحيثُ لا يكادُ يأتلفُ فيهم قلبانِ حتَّى صاروا بتوفيقهِ تعالى كنفسٍ واحدةٍ[1]، وممّا هو معلومٌ أنَّ الاختلافاتِ إذا كثُرت؛ فإنَّها تكونُ أصعبَ منالًا، فكيف إذا تكاثرت، واختلفت، وتعدَّدت؟ وهذا زيادةٌ في الامتنانِ على العبادِ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

المــالُ طـريـقٌ لجمعِ المرتزقةِ لا لجمعِ الأمَّةِ

بيَّنَ الحقُّ سبحانه استحالةَ تأليفِ تلك القلوبِ المتنافرةِ في جاهليَّتِها في قولِه: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، وهو "استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبلَه، ومبيِّنٌ لعزَّةِ المطلبِ وصعوبةِ المأخذِ، أي: تناهي التَّعادي فيما بينهم إلى حدٍّ لو أنفقَ منفقٌ في إصلاحِ ذات البيْنِ جميعَ ما في الأرضِ من الأموالِ والذَّخائرِ لم يقدرْ على التَّأليفِ والإصلاحِ[2]"، فهو اسْتِئْنافٌ ناشِئٌ عَنْ مَساقِ الامْتِنانِ بهذا الائْتِلافِ، فهو بَيانيٌّ، أيْ: لَوْ حاوَلْتَ تَأْليفَهُم ببَذْلِ المالِ العَظيم؛ ما حَصلَ التَّآلُفُ بينهُمْ[3]، كَما امتنَّ سبحانه عليهم في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: 103].

نكتةُ خطابِ الواحدِ وإرادةِ الجميعِ:

الأمـــوالُ غيرُ مؤثِّرةٍ إن كانت القلوبُ مبعثَرةً

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، وإن كان ظاهرُهُ للنَّبيِّ ﷺ إلا أنَّه يتناولُ كلَّ واقفٍ عليه؛ لأنَّهُ لا مبالغةَ في انتفاءِ ذلكَ من منفقٍ معيَّنٍ[4]، فهو تحدٍّ ضمنيٌّ قائمٌ إلى قيام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/64.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/41.

السّاعةِ، فإنَّ الأموالَ مَهما تكاثرت في أيدي أصحابِها؛ فلن تكونَ مؤثِّرةً إن كانت القلوبُ مبعثَرةً.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(لَوْ) دونَ غيرِها من أدواتِ الشَّرطِ:

استُعملتْ أداةُ (لَوْ) دون غيرِها من أدوات الشَّرط في قولهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ زيادةً في بيانِ استحالة تحقُّق المؤالفةِ بين مَنْ وقعتِ المؤالفةُ بينهم، فلم يقل: (إن أنفقت) أو (إذا أنفقت)، فـ(لَوْ) تدلُّ على عدم الوقوع، فكيف إذا كان جوابُها نفيًا؟ وأفاد نظمُ هذه الجملةِ الشَّرطيَّة عقدَ السَّببيَّةِ والمسبَّبيَّةِ بين الجملتين، فـ(لَوْ) تقوم بتقييدِ الشَّرطِ بالزَّمن الماضي دونَ المستقبلِ، وتُفيدُ امتناعَ الجوابِ لامتناعِ فعلِ الشَّرطِ، ولذلك يمكنُ أن يأتيَ بعدها حرفُ استدراكٍ[1]، كما حصلَ هنا.

براعةُ اتِّساقِ مفردةِ الإنفاقِ:

الإنفاقُ والأرضُ علاقةُ الجزءِ بالكلِّ

المفردةُ القرآنيَّةُ متَّسقةٌ مع نظيراتِها في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، فذكرُ الأرضِ جاءَ على أتمِّ المناسبةِ، حيثُ إنَّ الإنفاقَ المُشتقَّ من مادَّة (نفق) مأخوذٌ من نافِقاءِ اليَرْبوعِ وهو جُحْرٌ من جِحرتِه يخرج منه؛ إذا أخذ عليه الجُحْرُ الذي دخلَ فيه[2]، فالعلاقةُ بين إنفاقِ المالِ ونفَقِ الأرضِ: هو نفادُ المالِ المنفقِ في الأرضِ؛ لأنَّهُ يتوارى عنِ الأنظارِ في باطنِ الأرضِ، فكانَ اختيارُ هذه المفردةِ بدلًا من مرادفاتِها مُتَّسِقًا مع لفظِ الأرضِ التي تحوي النَّفقَ، والنَّفقُ الذي أُخِذَ منه الإنفاقُ هو جزءُ الكلِّ الَّذي هو الأرضُ.

دلالةُ إيثارِ استعمالِ ﴿مَا﴾:

الاتِّساقُ مطلبُ النَّظمِ، وسرُّ الاختيارِ

آثَرَ النَّظمُ الإتيانَ بما الموصوليَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ بدلًا من الاسمِ الموصولِ الظّاهرِ، حيث أُريدَ بيانُ العمومِ،

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/284.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 29.

أي: ما في الأرضِ كلِّها دونَ استثناءٍ، ما ظهرَ منها وما بطنَ، والاتِّساقُ بين الأدوات والمفردات مطلبٌ عظيمٌ في النَّظم القرآنيِّ، لما له من إبرازِ المعاني وتوكيدِ مراميها.

بلاغَةُ اسْتِعمالِ حَرْفِ الظَّرفيَّةِ:

كلمةٌ موجزةٌ في استغراقِ جميعِ أموالِ الأرضِ

سبقَ بيانُ اتِّساقِ مفردةِ الإنفاقِ مع لفظِ الأرضِ، ويزدادُ الأمرُ جمالًا في استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾؛ فلم يقل: (لو أنفقت ما على الأرض)؛ ليشملَ ذلك ما عليها وما فيها، وليتلاءمَ مع مفردةِ الإنفاقِ، فالإنفاقُ المفترضُ يشملُ ما هو ظاهرٌ وما هو باطنٌ، بحيثُ لا يغيبُ شيءٌ ممّا فيها، وهذا دالٌّ على استيعابِ جميعِ أموالِ الأرضِ الظّاهرةِ والباطنةِ، وهذا في غايةِ المبالغةِ في استغراقِ الأموالِ، ولا يوجدُ في لسانِ أحدٍ ما يشملُ جميعَ أموالِ الأرضِ كهذا البيانِ.

الإشـــارةُ إلى اكتشافِ الأموالِ النَّفطيَّةِ

ولا يبعدُ أن تُشيرَ الآيةُ إلى ما سيكونُ في باطنِ الأرضِ من أموالٍ نفطيَّةٍ باطنيَّةٍ - لاسيَّما - في جزيرة العربِ الَّتي كانتِ المؤالفةُ بفضلِ اللّه تعالى بين قلوبِ أهلِها، ففيها فضيلةٌ للعربِ، حيثُ إنَّ اللّه تعالى ألَّف بين قلوبهم، ثم أخَّر إخراجَ ما في الأرضِ لتكون لهم إنفاقًا في قادمِ الأيّام، فلمّا تآلفوا أخرجتِ الأرضُ خيراتِها، وما دامتِ المؤالفةُ بين قلوبِهم على قاعدةِ الإسلامِ قائمةً؛ فالخيراتُ - بإذنِ اللّهِ - على قاعدةِ الشُّكرِ قائمةٌ.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

دلَّ التَّعريفُ على معنى العهدِ، فالمقصودُ بالأرضِ: المعهودةُ كلُّها، لا بعضُها أو أجزاءٌ منها، وهي تشملُ البرَّ والبحرَ وغلافَها الجويَّ الملاصقَ لها.

موقعُ الحالِ من السّابقِ:

جاءتِ الحالُ ﴿جَمِيعٗا﴾ مبيِّنةً المقصودَ بالمنفَقِ، ومؤكِّدةً مفهومَ

التَّأكيدُ على استغراقِ جميعِ الأموالِ

العمومِ والاستغراقِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فهي تشمَلُ جميعَ ما في الأرضِ من أموالٍ ينتفعُ بها النّاسُ، ويُقوِّمونها ممّا يخطرُ في الأذهانِ وما لا يخطُر، وهذا في غايةِ المبالغةِ في استغراقِ الأموالِ، وفي تصويرِ استحالةِ المؤالفةِ بالأموالِ وحدَها.

بلاغةُ البيانِ القرآنيِّ في المدحِ الشَّبيهِ بالذَّمِّ:

فضلُ العربِ بتقديمِ عبادةِ الدَّيّانِ على الأموالِ والجنانِ

وفي هذا البيانِ فضلٌ للعربِ الذين آلفتْ بين قلوبِهم كلماتُ القرآنِ، ومواعظُ النَّبيِّ العدنانِ، فكان لها أعظمُ التَّأثيرِ، ما لم يكن لأموالِ الدُّنيا كلِّها، فإقبالُهم إقبالُ الواثقِ المستوثقِ، الباحثِ عن الحقِّ، المؤمنِ بالحقِّ، فلم يكن إيمانُهم عابرًا للحصولِ على أموالٍ فانيةٍ، أو زخارفَ لاهيةٍ، أو شهواتٍ لاغيةٍ، بل كان راسخًا رسوخَ الرَّواسي الشّامخةِ، فكانت هذه الجملةُ مدحًا بما يُشبهُ الذَّمَّ، وامتنانًا يحيطُ به الامتنانُ، لا يفقهُ إشاراتِه إلّا عربيُّ اللِّسانِ آمنَ باللهِ، وكفرَ بما دونَه.

بلاغةُ جملةِ جوابِ الشَّرطِ:

إعجازُ القرآنِ التَّأثيريِّ وجهٌ كاشفٌ عن عجزِ البشرِ على التَّأثيرِ الحقيقيِّ

جاءت جملةُ جوابِ الشَّرطِ ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ واقعةً موقعَ البيانِ المُفصحِ عن حقيقةِ النَّفي فيها، فإنَّ إنفاقَ ما في الأرضِ كلِّها جميعًا لن يُحقِّقَ المؤالفةَ بين مَنْ آمنَ باللهِ تعالى كما تحقَّقَ ذلك في التَّأثُّرِ بالقرآنِ، فأثرُ القرآنِ أعظمُ أثرًا من إنفاقِ جميعِ أموالِ الأرضِ، وهذا نصٌّ كاشفٌ عن إعجازِ القرآنِ في تأثيرِه على السُّلوكِ الاجتماعيِّ للبشرِ، وهذا أحدُ أوجهِ الإعجازِ التَّأثيري، ومعنى الكلامِ: بيانُ قوَّةِ أثرِ القرآنِ في النّاسِ، بما لا تستطيعُهُ قوَّةٌ أخرى، فباتَ القرآنُ - باعتبارِه كلامَ اللهِ تعالى - خارقًا للعادةِ البشريَّةِ في تأليفِ القُلوبِ، وهذا البيانُ بيِّنٌ في نفيِ القدرةِ عن كلِّ أحدٍ على المؤالفةِ بين قلوبِ مَنْ تحقَّقتِ المؤالفةُ بينهم بالقرآنِ.

سرُّ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

اختلافُ الفاعلِ والحالِ إشارةٌ إلى الفرقِ بين المقامين

في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ كان ظاهرُ النَّظمِ أن يكونَ بإضمارِ القلوبِ، فيقولُ: (ما ألَّفت بينها)، لكنَّه عدلَ عن ذلك وأظهرها، وسرُّ ذلك كامنٌ في كونِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ هو اللهُ تعالى فالجملةُ خبرٌ عمّا وقعَ، بينما في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ فالفاعلُ هو النَّبيُّ ﷺ والجملةُ إخبارٌ عمّا يستحيل أن يقع؛ فلمّا اختلفَ الفاعلُ والحالُ بين الوقوعِ واستحالةِ الوقوعِ حَسُنَ الإظْهارُ للإشارةِ إلى بيانِ الفرقِ بين المقامَيْن.

أغراضُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالةِ:

تأليفُ الملكِ المنّانِ اعتزازٌ للمؤمنِ وامتنانٌ

ذُكِرَ المسندُ إليهِ - وهو لفظ الجلالةِ - في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مُظْهَرًا، مع تقدُّمِ ذكرِه في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ فكان مقتضى الظّاهرِ الإضمارَ، لكنَّه عدلَ عن ذلك لأغراض عدَّة، منها:

الأوَّلُ: تربيةُ المهابةِ في قلوبِ المُخاطَبين.

الثّاني: تقويةُ الامتنانِ في نفوسِ المخاطبين.

الثّالثُ: المحافظةُ على أثرِ تلك المؤالفةِ العظيمةِ الصّادرةِ عنهُ سبحانه.

الرّابع: الإشارةُ إلى اختلافِ المقامَيْن: مقام ذكرِ المؤالفةِ ابتداءً، ومقام ذكرِ المؤالفةِ بعد نفي قدرةِ أحدٍ عليها.

نكتةُ العدولِ عن ذكرِ القلوبِ إلى ذكرِ أصحابِها:

ذكرُ نتائجِ الأفعالِ امتنانٌ من صاحبِ الأفعالِ

جاء ذكرُ القلوبِ مظهرًا مرَّتينِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾، وعدلَ في الجملةِ الاستدراكيَّةِ عن ذكرِها - إضمارًا أو إظهارًا - إلى ذكرِ أصحابِها، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الاستدراكيَّةَ تُخبِرُ عن النَّتيجةِ العظيمةِ، وهي التَّأليفُ بين أصحابِ القلوبِ بعد وقوعِها، فالمؤالفةُ بينهم هي في المعيشةِ والزَّواجِ والنَّسبِ والمعاملاتِ الماليَّة

ونصرةِ بعضِهم بعضًا، وما يتبعُ ذلك من لوازمِ المؤالفةِ على الحقِّ، فكان ذكرُ القلوبِ كالعلَّةِ للنَّتيجةِ في المؤالفةِ بين أصحابِ القلوبِ.

التَّأليفُ بين القلوبِ منَّةٌ خالصةٌ للهِ ﷻ

فائدةُ الاستدراكِ بعد النَّفي:

أفادَ الاستدراكُ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بعد النَّفي بـ﴿مَّآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مجموعةً من المعاني، وهي كالآتي:

الأوَّل: القصرُ، حيثُ قصرَ التَّأليفَ بين قلوبِهم على الذّات العليَّةِ، بعد أن نفاهُ عنهم.

الثّاني: أشعرَ النَّظمُ بحرفِ الاستدراكِ بعد النَّفي زيادةً في التَّأكيدِ، حيثُ أثبتَ ذلك في الجملةِ المتقدِّمةِ خبرًا ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، ثمَّ أكَّدهُ مرَّةً أخرى في الجملةِ الاستدراكيَّة.

الثّالث: أومأ الاستدراكُ إلى نفي القدرةِ على التَّأليفِ بين القلوبِ عن رسولِ اللّه ﷺ دفعًا لأن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ اللّه ألَّف بين قلوبِهم بأخلاقه ﷺ وحسن دعوته، فإنَّ أخلاقَ النَّبيِّ ﷺ منَّةٌ من اللّه تعالى على الأمَّةِ، كما أنَّ التَّأليفَ بين القلوبِ منَّةٌ عليها.

تعليلُ خوارقِ السُّننِ الاجتماعيَّةِ بيانٌ قرآنيٌّ ونظمٌ معجزٌ

بلاغةُ التَّذييلِ:

جاءَت فاصلةُ الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مؤكَّدةً بـ(إنَّ)، والتَّأكيدُ بها لِمُجرَّدِ الاهْتِمامِ بالخَبَرِ باعْتِبارِ جَعْلِه دَليلًا على بَديعِ صُنْعِ اللّه تعالى فإنَّ التَّأليفَ بين القُلوبِ ممّا لا تستطيعُه قوى البشرِ، فكانتِ الجملةُ تعليلًا لما حصلَ من تأليفِ اللّهِ وحدَه لقلوبِ المؤمنين، فلمّا كانَ هذا التَّكْوينُ صُنْعًا عَجيبًا؛ ذَيَّلَ اللّه الخَبَرَ عنه بقَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وهذا من توحيدِ الأسماءِ والصِّفات، فقد اختيرَ هذان الاسمانِ دونَ غيرِهما، وهما: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، "أي: قادرٌ قاهرٌ يمكنُهُ التَّصرُّفُ في القلوب، ويقلبُها من العداوةِ إلى الصَّداقة، ومن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/64.

النَّفرةِ إلى الرَّغبة، حكيمٌ بفعلِ ما يفعلُهُ على وجهِ الإحكامِ والإتقانِ، أو مطابقًا للمصلحة والصَّواب[1]"، ومن آثارِ حكمتِه تدبيرُ أمورِهم على وجهٍ أحدثَ فيهم التَّوادَّ والتَّحابَّ، فاجتمعت كلمتُهم، وصاروا جميعًا كنانةَ رسولِ اللّه ﷺ الذّابّينَ عنه بقوسٍ واحدةٍ[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخداعُ والكَيْدُ والغُرورُ والمَكْرُ:

الخداعُ لا يحتاجُ كبيرَ تدبيرٍ وفكرٍ، بخلافِ الكيدِ فهو يحتاجُ ذلك

استعملتِ الآيةُ الأولى لفظةَ الخداعِ، واستعملَ القرآنُ كلماتٍ مقاربةً لها في مواضعَ أُخرى كالكيدِ والمكرِ والغرورِ، وكلُّ لفظةٍ من هذهِ الألفاظِ قد تلتقي مع اللَّفظةِ الأخرى في بعضِ الدِّلالاتِ وتغايرِها بدلالاتٍ أخرى تميِّزُها عن غيرِها، فقد جاء استعمالُ كلمةِ الكيدِ في بعضِ المواضعِ كقولهِ تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢﴾ [الطور: 42]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق: 15 - 17] والكيدُ ضربٌ من الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا، وقد يكون ممدوحًا، وإن كان أكثرُ استعمالهِ في المذموم[3].

فالفرقُ بين الخَدْعِ والكيد: أنَّ الخَدْعَ هو إظهارُ ما يُبْطِنُ خلافَه، أرادَ اجتلابَ نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ، ولا يقتضي أن يكونَ بعد تدبُّرٍ ونظرٍ وفكرٍ ألا ترى أنَّهُ يقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ من جشاءٍ، وهمَّه الإنصافُ، وإن كان ذلك بديهةً من غيرِ فكرٍ ونظرٍ، والكيدُ لا يكونُ إلّا بعدَ تدبُّرٍ وفكرٍ ونظرٍ، ولهذا قال أهلُ العربيَّةِ: الكيدُ التَّدبيرُ على العدوِّ وإرادة إهلاكه، وسمّيت الحيلُ الَّتي يفعلها أصحابُ الحروب بقصد إهلاكِ أعدائهم: مكايدَ؛ لأنَّها تكون بعد تدبُّرٍ ونظرٍ، ويجيءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/156.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/41.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 335.

الكيدُ بمعنى: الإرادةِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ [يوسف: 76] أي: أردنا، ودلَّ على ذلكَ بقولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [يوسف: 76]، ويجوزُ أن يقالَ: الكيدُ الحيلةُ التي تقرِّبُ وقوعَ المقصودِ به من المكروه، وهو من قولِهم: كادَ يفعلُ كذا، أي: قرُبَ، إلّا أنّه قيل في هذا: يكادُ، وفي الأولى: يكيد؛ للتَّصرُّفِ في الكلامِ والتَّفرقةِ بين المعنيين.

ويجوز أن يقالَ: إنَّ الفرقَ بين الخَدْعِ والكيدِ: أنَّ الكيدَ اسمٌ لفعلِ المكروهِ بالآخرين قهرًا، تقول: كايدني فلانٌ، أي: ضرَّني قهرًا، والخديعةُ: اسمٌ لفعلِ المكروهِ بالآخرين من غير قهرٍ، بل بأن يريدَ بأنَّهُ ينفعهُ، ومنه الخديعةُ في المعاملةِ، وسمَّى اللّه تعالى قصدَ أصحابِ الفيل في مكَّةَ كيدًا في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢﴾ [الفيل: 2]، وذلك أنَّهُ كان على وجهِ القهرِ[1].

الغرورُ: وهْمٌ يوقع صاحبَهُ في الخطأ، والخَدْعُ: إيهامٌ صادرٌ عن الآخر للإيقاعِ في الخطأ

وأمّا الغرورُ، فقدِ استعمل القرآنُ الكريمُ لفظةَ الغرورِ في مثلِ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [آل عمران: 24] والغرورُ: كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[2]، والفرقُ بين الخَدْعِ والغرورِ: أنَّ الغرورَ إيهامٌ يحملُ الإنْسانَ على فعل ما يضرُّهُ مثل أن يرى السَّرابَ، فيحسبهُ ماءً، فيضيِّعُ ماءَهُ، فيهلك عطشًا، وتضييعُ الماءِ فعلٌ أدّاهُ إليهِ غرورُ السَّرابِ إيّاه، وكذلك غرَّ إبْليسُ آدمَ، ففعلَ آدمُ الأكلَ الضارَّ له، والخَدْعُ: أن يسترَ عنه وجهَ الصَّوابِ، فيوقعَهُ في مَكْروهٍ، وأصلهُ من قَوْلهم: خدعَ الضَّبُّ؛ إذا توارى في جُحْرِهِ، وخدعَهُ في الشِّراءِ أو البيعِ؛ إذا أظهر لَهُ خلافَ ما أبطنَ، فضرَّهُ في مالهِ[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 288 - 289.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 270.
(3) العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص: 289.

وأمّا المكرُ؛ فهو صرفُ الآخرِ عمّا يقصدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: محمودٌ ومذمومٌ[1]، وقد استُعمِلَ في القرآنِ الكريمِ كثيرًا من مثل قولهِ تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]، والمكرُ مثلُ الكيدِ في أنَّهُ لا يكونُ إلّا مع تدبُّرٍ وفكرٍ إلا أنَّ الكيدَ أقوى منهُ[2].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 356.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 290.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ
صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ
عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ
يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ
وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: 64 - 66]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـالُ من وسيلةِ الإقناعِ إلى أوامـــرِ التَّكليفِ منهجُ القرآنِ في البناءِ والنُّهوضِ

لّما وعدهُ سبحانه بالنَّصرِ عند مخادعةِ الأعداءِ؛ وعدَهُ بالنَّصرِ والظَّفرِ في هذهِ الآيةِ مطلقًا على جميعِ التَّقديرات، وعلى هذا الوجهِ لا يلزمُ حصولُ التَّكرارِ؛ لأنَّ المعنى في الآيةِ الأولى: إن أرادوا خداعَك؛ كفاك اللّه أمرَهم، والمعنى في هذه الآية عامٌّ في كلِّ ما يُحتاجُ إليه في الدّين والدُّنيا[1]، فمناسبةُ هذه الآياتِ للآياتِ السّابقةِ هو تثبيتُ التَّوكُّل على اللّهِ تعالى والانتقالُ من خطابِ الإقناعِ إلى خطابِ التَّكليفِ، وقد وقعَ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كواسطةِ العقدِ ودرَّةِ القلادةِ بين السّابقِ واللّاحقِ، لأنَّه خطابٌ تكميليٌّ للسّابقِ في دفعِ ما قد يُحدثُه الخاطرُ من فكرٍ، وخطابٌ تمهيديٌّ للّاحق في تحريضِ المؤمنين على القتالِ، وهو القيامُ بما يُمليه واجبُ العملِ، بقطعِ النَّظر عن وقوعِ الخديعةِ أو عدمِها، فمَوْقِعُ هذه الآيةِ بَعْدَ الَّتي قَبْلَها كاملُ الاتِّساقِ والانْتِظامِ، فإنَّهُ لَمّا أَخْبَرَهُ بأنَّهُ حَسْبُهُ وكافيهِ، وبَيَّنَ ذلك بأنَّهُ أَيَّدَهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/156.

بنَصْرِه فيما مَضَى وبالمُؤْمنينَ، فقد صارَ لِلْمُؤْمنينَ حَظٌّ في كِفايةِ اللهِ تعالى رَسولَهُ ﷺ فلا جَرَمَ أنْتجَ ذلك أنَّ حَسْبَهُ اللهُ والمُؤْمنونَ، فكانَتْ جُمْلَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ كالفذْلَكَةِ لِلْجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرِّضِ﴾: تدلُّ مادَّةُ الحاءِ والرَّاءِ والضَّادِ على الذَّهابِ والتَّلفِ والهلاكِ والضَّعفِ وشبه ذلك، كأنَّهُ في الأصلِ إزالةُ الحرضِ، والحَرَضُ وهو المشرفُ على الهلاك[2]، والتَّحريضُ الحثُّ على الشَّيءِ بكثرةِ التَّزيينِ وتسهيلِ الخَطْبِ فيه، فهو حثُّ الآخرين على الشَّيءِ حثًّا يعلمُ معه أنَّهُ حارضٌ إن تخلَّفَ عنه، والحارضُ الَّذي قدْ قارَبَ الهلاكَ؛ فالتَّحريضُ هو إقناعُ المحرَّضِ على فعلِ أمرٍ إن لم يفعلْهُ؛ وقعَ في الهلاكِ، وقد وردت هذه اللَّفظةُ في موضعين آخرين من القرآنِ سوى هذا الموضعِ في قوله: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء: 84] وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ [يوسف: 85].

2) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: يدلُّ أصلُ المادَّةِ على إدراكِ الشَّيءِ والعلم به، والفقهُ اصطلاحًا: التَّوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ، والفقهُ: هو العلمُ بأحكامِ الشَّريعةِ[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

المؤمنُ منتصرٌ بأمرِ اللهِ ومعيَّتِهِ لا بقوَّتِهِ وكثرتِه

تُخاطبُ الآياتُ النَّبيَّ ﷺ آمرةً بأن يحثَّ المؤمنينَ على القتالِ بصبرٍ وجلدٍ، من أجلِ إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ، فإنَّ وجودَ عشرينَ رجلًا صابرًا يغلبونَ - بسببِ إيمانِهم وصبرِهم - مئتينِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حرض)، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/423.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فقه).

من الكافرين، وإن توجدْ مئةٌ تغلبْ ألفًا، وبعد أن شقَّ على المؤمنين الاستمرارُ على مواجهةِ الأعداءِ الكثيرين، ولم تبقَ هناك ضرورةٌ لدوام هذا الحكم لكثرةِ عددهم؛ خفَّف اللّهُ عنهم رحمةً بهم، فأوجبَ عليهم أن يثبتَ الواحدُ منهم أمامَ اثنين من أعدائِهم بدلًا من عشرةٍ، واللّه تعالى مع الصّابرين بتأييدهِ ورعايتهِ ونصرهِ، وللإشارةِ إلى تأييدِهم، وأنَّهم منصورونَ حتمًا؛ لأنَّ من كان اللّه معه لا يغلب[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

النَّبيُّ هو قدوةُ الأمَّـةِ وخطابُهُ خطابٌ لها

قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ بالإقْبالِ على خِطابِ الرَّسولِ ﷺ بأوامِرَ وتَعاليمَ عَظيمَةٍ، مَهَّدَ لِقَبولِها وتَسْهيلِها بما مَضَى مِنَ التَّذْكيرِ بعَجيبِ صُنْعِ اللّه والامْتِنانِ بعِنايَتِه برَسولِه والمُؤْمنينَ، وإظْهارِ أنَّ النَّجاحَ والخَيْرَ في طاعَتِه وطاعَةِ اللّه، مِن أوَّلِ السّورَةِ إلى هُنا[2]، فهذه الآيةُ هي خلاصةٌ لما تقدَّم، جاء الخطابُ فيها للنَّبيِّ صراحةً.

بلاغةُ البَدْءِ بحرفِي النِّداءِ والتَّنبيهِ:

نداءُ الله للنَّبيِّ دليلُ عِظَمِ ما سيُلقى من القول

تصديرُ الجملةِ بحرفِي النِّداءِ والتَّنبيهِ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تنبيهٌ على مزيد الاعتناءِ بمضمونها[3]، فإنَّ من بلاغةِ القرآنِ العنايةَ بالمخاطَبِ بتنبيهِهِ على مضامين المعاني، فالنِّداءُ إن كان لنداءِ البعيدِ - كما هو الأغلبُ عند النَّحويّين[4] - فإنَّ لاستعمالِ (يا) في نداءِ القريبِ أغراضًا بيانيَّةً، وحريٌّ أن يُتنبَّهَ لها، ونداءُ اللّه تعالى للمؤمنين لا يُتصوَّرُ فيه إلّا أن يكونَ من إنزالِ القريبِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/152 - 154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/429.

منزلةَ البعيدِ ليتنبَّهوا، ولا يغفلوا، وهو مظهرٌ من مظاهرِ التَّوكيدِ، وفي نداءِ النَّبيِّ بهذا الحرفِ ما فيهِ من إعلاءٍ لشأنهِ ورفعٍ لقدرهِ ولقدرِ مناديه، وهناك توكيدٌ من نوعٍ آخرَ في استعمالِ (أيٍّ) التي قالوا عنها: إنَّها تأتي في حالاتٍ محدَّدةٍ منها: أن تكونَ وصلةً لنداء المُعرَّفِ بأل[1]، فهنا مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ التَّوكيدِ في ذكرِ المنادى مرَّتينِ: مرَّةً بكونهِ منادًى أصيلًا، ومرَّةً أخرى بذكرهِ بدلًا أو صفةً بعد قولهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾، وهناك مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ التَّوكيدِ في هذه الجملةِ في مجيءِ (الهاء) الَّتي تأتي للتَّنبيهِ، على أنَّها نعتٌ آخر للمنادى لكونهِ هو المقصودُ بالنِّداءِ[2].

غَرضُ النِّداءِ بوصفِ النُّبوَّةِ ومعنى (أل) فيه:

رفعةُ النَّبيِّ قائدًا وقدوةً رفعةٌ لأمَّتِه

التَّعريفُ في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ للعهدِ، ولا ينصرفُ الذِّهنُ إلّا إلى النَّبيِّ ﷺ وإيراده ﷺ بعنوانِ النُّبوَّةِ للإشعارِ بعليَّتها للحكم[3]، وتَخْصيصُ النَّبيِّ بهذه الكِفايَةِ لِتَشْريفِ مَقامِه بأنَّ اللهَ يَكْفي الأُمَّةَ لِأجْلِه[4]، وفي ندائهِ ﷺ بوصفِ النُّبوَّةِ دونَ الرِّسالةِ ما فيه من معاني الرِّفعةِ والعلوِّ الَّتي نجدُها في معاني (نبو) ودلالاتها على العلوِّ والارتفاع، وهذا ما نلحظهُ في نداءاتِ النَّبيِّ ﷺ بوصفِ النُّبوَّةِ في القرآنِ أنَّها تأتي بوصفهِ القائدَ والقدوةَ للمؤمنين، بخلافِ النِّداءات له بوصفِ الرِّسالةِ حيثُ تأتي على أنَّها النِّداءُ بالوصفِ الوظيفيِّ له ﷺ.

بلاغةُ تعريفِ الجزأين:

الإلهابُ والتَّهييجُ توطئةٌ لتحريضِ المؤمنين على القتالِ

عُرِّفَ الطَّرفانِ في قولهِ تعالى: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ ليكونَ المقدَّمُ مسندًا إليهِ، والمؤخَّر مسندًا، وهذا ممّا يجوزُ فيه الإعرابُ العكسيُّ عند النُّحاةِ، لكنَّ التزامَ ترتيبِ النَّظمِ يحملنا على جعلِ المقدَّمِ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/92.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/402.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.

مبتدأً، والمؤخَّرِ خبرًا، وهو من الحملِ على المواطأةِ، وهو يُفيدُ القصرَ، وتقديمُ ﴿حَسۡبُكَ﴾ فيه معنى الإلهابِ والتَّهييجِ بتكريرِ هذه الجملةِ، بهذا النَّظم، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يعلمُ أنَّ اللّه كافيهِ، وإخبارُه بذلك مع التَّكرار أفادَ إلهابَهُ وتهييجَهُ توطئةً لتكليفهِ بتحريضِ المؤمنين على القتالِ.

أتباعُ النَّبيِّ مكفيّون من اللهِ تعالى ابتداءً ليكفوا النَّبيَّ انتهاءً

تعيينُ المعطوفِ عليه وبراعةُ إعرابِ ﴿وَمَنِ﴾:

استُعمِلَتْ ﴿وَمَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للدَّلالةِ على العموم، فيدخلُ فيها جميعُ المتَّبعين من المؤمنين نصًّا، وتحتملُ أن تكون ﴿وَمَنِ﴾ في محلِّ نصبٍ، وفي محلِّ رفعٍ، فعلى النَّصبِ تكون معطوفةً على الكافِ في قوله: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾، فالكافُ مجرورةٌ لفظًا منصوبةٌ محلًّا على أنَّها مفعولٌ به؛ لأنَّ في ﴿حَسۡبُكَ﴾ معنًى واقعًا من الفعل: رددناهُ، ويصير المعنى: يكفيكَ اللّه، ويكفي من اتَّبعكَ، و﴿وَمَنِ﴾ معطوفةٌ على الكافِ، وعلى الرَّفعِ تكون معطوفةً على لفظِ الجلالةِ، ويكون المعنى: يكفيك اللّه، ويكفيك أتباعُك من المؤمنينَ[1].

والإعرابانِ صحيحانِ صنعةً ودلالةً، فالمعنى صحيحٌ على النَّصبِ؛ إذ اللّهُ يكفي نبيَّه والمؤمنين، وكذلكَ على الرَّفعِ؛ إذ جعلَ اللّهُ المؤمنين كافين النَّبيَّ ﷺ والكفايةُ ابتداءً من اللّهِ للمؤمنين؛ لتتحقَّقَ لنبيِّه ﷺ فبأيِّ الإعرابين أخذتَ؛ فالمعنى صحيحٌ.

شرطُ الاتِّباعِ الإيمانُ والطّاعةُ في نصرةِ النَّبيِّ ﷺ

سرُّ استعمالِ مفردةِ الاتِّباع:

استُعملتْ مفردةُ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دونَ أن يقولَ: (ومن آمن بك) أو (ومن نصرك) وغيرها من المحتملاتِ؛ لبيانِ أنَّ كفايةَ النَّبيِّ بمن معَهُ هي بكونِهم أتباعًا له، ومقتضى الاتِّباعِ الإيمانُ والطّاعةُ والنُّصرة، والتَّعبيرُ بالاتِّباعِ دون

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/417، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/423، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/222.

التَّبعِ يدلُّ على اللُّحوقِ، فإنَّ بناءَ (تَبِعَ) يدلُّ على القفوِ، وبناء (اتَّبعَ) يدلُّ على اللُّحوقِ[1]، فـ (تبع) أشدُّ دلالةً في التُّلوِّ والقفوِ من (اتَّبع)، والمطلوبُ هو عمومُ الاتِّباعِ، فاستُعمل الاتِّباعُ لما فيهِ من مراعاةِ حالِ المُتَّبعين، فهم على أحوالٍ متباينةٍ، ودرجاتٍ مختلفةٍ، لكنَّهم جميعًا متَّصفون بالاتِّباعِ، وهو المطلوبُ في هذا المقام.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ والتَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

يدخلُ في مفهومِ (المؤمنين) الصَّحابةُ دخولًا أوّليًّا وعمومُ المؤمنين

يُحمَلُ التَّعريفُ في لفظِ: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إمّا على تعريفِ العهدِ؛ إذا كان المقصودُ بالمؤمنين أصحابَ النَّبيِّ ﷺ وتكونُ ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةً، وإمّا على تعريفِ الجنس؛ إذا كان المقصودُ عمومَ المؤمنين المتَّبعين إلى قيامِ السّاعةِ، وتكون ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةً[2]، والصَّحيح أنَّها للجنسِ، ويدخل العهدُ دخولًا أوّليًا، فاللهُ ناصرٌ نبيَّهُ بأصحابهِ على وجه الخصوصِ، وبالمؤمنين عامَّةً على جعلِ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ منصوبةً، أو أنَّ المُتَّبعين ينصرون النَّبيَّ ﷺ من الصَّحابةِ خاصَّةً، ومن المؤمنين عامَّةً على جعلِ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مرفوعةً كما تقدَّمَ.

سرُّ اختيارِ صفةِ الإيمانِ:

الإيمانُ يتضمَّنُ الأعمالَ العظيمةَ والمعتقداتِ الرّاسخةَ

اختيرَ وصفُ الإيمانِ في قولِه: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دونَ الإسلام؛ لأمرين اثنين:

الأوّل: بيانُ أثرِ الإيمانِ في عظائمِ الأمورِ، وكبائرِ الشُّؤونِ، فإنَّ الإيمانَ جذرُ الخيرِ والحقِّ والأمانةِ في القلوبِ، ولذلك آثرَ السّياقُ الإتيانَ بِه تنبيهًا على علَّةِ العملِ والاستجابةِ لأمرِ اللّه تعالى في تأييدِ النَّبيِّ ونصرةِ دينِه على الباطل، وأفادَ أنَّ الإيمانَ ليس مجرَّدَ اعتقادٍ معرفيٍّ عابرٍ، بل هو تصديقٌ وقولٌ وعملٌ لا ينفكُّ عن صاحبه بحالٍ، فهو يشملُ في هذا السّياقِ مفهومَ الإسلامِ والإحسانِ وحقائقَ اليقينِ من التَّوكُّلِ عليه والثِّقةِ بهِ في الانتصارِ على الباطلِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/43 - 44.

الآخر: لما يتضمَّنهُ وصفُ الإيمانِ من الإيماءِ إلى الخصوصيَّةِ بخلافِ الإسلامِ، فهو يدلُّ على العمومِ، كما قال سبحانه: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14].

تكريرُ الخطابِ ودلالةُ الأمرِ:

تَحريضُ المؤمنينَ على قتالِ أعداءِ اللهِ من متطلَّباتِ النُّبوَّةِ

كُرِّرَ خطابُ النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ بعد قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به[1]، ولِلتَّنْويهِ بشَأنِ الكَلامِ الوارِدِ بَعْدَ النِّداءِ، وهذا الكَلامُ في معنى المَقْصِدِ بالنِّسْبَةِ لِلْجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَهُ؛ لِأنَّهُ لَمّا تَكَفَّلَ اللهُ لَهُ الكِفايَةَ، وعَطَفَ المُؤْمِنينَ في إسْنادِ الكِفايَةِ إليهِمْ؛ احْتيجَ إلى بَيانِ كَيْفيَّةِ كِفايَتِهم، وتِلْكَ هيَ الكِفايَةُ بالذَّبِّ عَنِ الحَوْزَةِ وقِتالِ أعْداءِ اللهِ[2].

وفي النِّداءِ بلفظِ النُّبوَّةِ ما يشعرُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قدوتُهم في ذلك، وأنَّ التَّهيئةَ لقتالِ أعدائِهم هو من متطلَّباتِ هذه النُّبوَّةِ.

غرضُ الأمرِ ومعناه:

معنى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ للوجوبِ، ومعناه: بالغ في حثِّهم عليهِ وترغيبِهم فيه بكلِّ ما أمكنَ من الأمورِ المرغَّبةِ[3].

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿حَرِّضِ﴾:

التَّحريضُ هو إقناعٌ بالغٌ لدفعِ الهلاكِ عنِ الأمَّةِ

استعملَ النَّظمُ مفردةَ ﴿حَرِّضِ﴾ دونَ مرادِفاتِها؛ لما تتضمَّنُه هذه المفردةُ من معنًى، فالتَّحريضُ هو إقناعُ المحرَّضِ على فعلِ أمرٍ إن لم يفعلْهُ؛ وقعَ في الهلاكِ، فأدَّت هذه المفردةُ معنًى فريدًا: وهو إقناعُ المخاطَبِ غايةَ الإقناعِ وبالِغَ البيانِ، بما يجبُ عليه من قتالِ أعداءِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.

اللّهِ تعالى وإلّا وقع هو في القتلِ والهلاكِ، ومن هنا يَبِينُ التَّناسبُ بين اللَّفظةِ وسياقِ الكلام.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡقِتَالِۚ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلۡقِتَالِۚ﴾ للعهدِ، أي: القتالُ الَّذي يعرفه المؤمنونَ في مقاتلةِ أعداءِ الدّين، وليس من شأنِ النَّبيِّ أن يُحرِّضَ الأمَّةَ على أيِّ قتالٍ، إلّا في قتالِ أعداءِ الملَّة الذين يحولون دونَ الدَّعوةِ إلى اللّهِ تعالى فحقيقةُ القتالِ هي في نصرةِ الحقِّ وإنصافِ أهلِه، وردع الباطلِ وهزيمةِ وحزْبه.

القتالُ في الإسلامِ لإعلاءِ كلمةِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

لمّا كان عمومُ الجنسِ الذي دلَّ عليهِ تعريفُ القتالِ يقتضي عمومَ الأحوالِ باعتبارِ المقاتَلين، وكان في ذلك إجمالٌ من الأحوال، وقد يكونُ العدوُّ كثيرين، ويكون المؤمنونَ أقلَّ منهم؛ بيَّن هذا الإجمالَ بما جاء بعدها من تفصيل[1]، فقال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ وهو استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الإجمالَ الَّذي سبقها من شأنِه أن يثيرَ سؤالًا عن الأحوالِ مع تباينِ عددِ العدوِّ، فكأنَّ المعنى: حرِّض المؤمنين على القتالِ بهذه الكيفيَّة[2].

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ بيانٌ مشرقٌ وتوضيحٌ مفلقٌ

نكتةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ بدلًا من أدواتِ الشَّرطِ الأخرى:

أتى النَّظمُ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ لبيانِ أنَّ هذا الاحتمالَ ليس لازمًا، فهو من بابِ التَّمثيل الافتراضيِّ، لا التَّعيين الحتميِّ، وفيه من التَّخفيفِ بطريقِ الإيماءِ ما لا يخفى أثرُهُ على المخاطَبين.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

التَّعبيرُ بصيغةِ الفعلِ المضارع في فعلِ الشَّرطِ وجوابه في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ يُفيدُ

استحضارُ الصّورةِ يُخفِّفُ من وطأةِ القتالِ ويُمهِّدُ النَّفسَ لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.

استحضارَ الصّورةِ في ذهنِ السّامعِ، وهو مناسبٌ للسّياقِ، فإنَّ المخاطَبين يجولُ في خاطرِهم ذلك الافتراضُ العدديُّ، وكيفيَّةُ التَّغلُّبِ عليهِ، فكان التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ مرتعًا خصبًا للبيانِ.

توجيهُ ﴿يَكُن﴾ بين النَّقصِ والتَّمامِ:

(كان): إمّا أن تكونَ ناقصةً، واسمُها ﴿عِشۡرُونَ﴾، و﴿صَٰبِرُونَ﴾ صفةٌ لها، وخبرها ﴿مِّنكُمۡ﴾، وإمّا أن تكونَ تامَّةً، وفاعلها ﴿عِشۡرُونَ﴾، والجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنكُمۡ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحال[1].

بلاغةُ قولِه: ﴿مِّنكُمۡ﴾ تقديمًا وخطابًا:

العـنـايـةُ بـالـمـخـاطـبـين أولـويـّةٌ قرآنيّةٌ ولـطـفٌ في الخطابِ

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ للعنايةِ والرِّعايةِ بالمخاطَبين[2]، وللتَّلطُّفِ بهم، لاسيَّما أنَّ السّياقَ في تحريضِهم على مغالبةِ أعدائهم في حال كونهم قلَّةً وحالِ كونِ أعدائهم كثرةً، والضَّمير في ﴿مِّنكُمۡ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وعلى كلِّ الأحوال لا يخفى ما تؤدّيه الجملةُ الشَّرطيَّةُ في النُّفوس من خلالِ تعليقِ النَّتائجِ على الأسبابِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالخبرِ عن الإنشاءِ:

عظائمُ الأمورِ في بداياتِها فإنْ أحسنَتِ البداياتُ؛ تكاملَتِ النّهاياتُ

قولُه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ ظاهرُه الخبرُ، وحقيقتُه الإنشاءُ؛ "كَأنَّهُ قالَ: إنْ يَكُنْ مِنكم عِشْرونَ؛ فلْيَصْبِروا، ولْيَجْتَهِدوا في القِتالِ حَتَّى يَغْلِبوا مئتين، والَّذي يَدُلُّ على أنَّهُ لَيسَ المُرادُ من هذا الكَلامِ الخَبَرَ؛ وُجوهٌ: الأوَّلُ: لَوْ كانَ المُرادُ منه الخَبَرَ؛ لَزِمَ أنْ يُقالَ: إنَّهُ لَم يَغْلِبْ قَطُّ مئتانِ مِنَ الكُفّارِ عِشْرينَ مِنَ المُؤْمِنينَ، ومَعْلومٌ أنَّهُ باطِلٌ. الثّاني: أنَّهُ قالَ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾، والنَّسْخُ ألْيَقُ بالأمْرِ منه بالخَبَرِ. الثّالِثُ: قَوْلُهُ مِن بَعْدُ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وذلك ترغيبٌ في الثَّباتِ على الجِهادِ، فثَبَتَ

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 5/636.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/636.

أنَّ المُرادَ مِن هذا الكَلامِ هو الأمْرُ؛ وإنْ كانَ وارِدًا بلَفْظِ الخَبَرِ، وهو كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البَقَرَة: 233]، ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البَقَرَة: 228]"(1).

ونكتةُ التَّعبيرِ بالخبرِ عن معنى الإنشاءِ - وهو الأمرُ هنا - بيانُ تأكيدِ هذا الأمرِ، وأنَّه بمنزلةٍ لا يُقبَلُ معها التَّهاونُ أو التَّراخي أو التَّسويفُ أو الأخذُ بالرُّخصةِ، بل هو مقامٌ عظيمٌ يستدعي القيامَ بأعظمِ الأفعالِ لتحقيقِه على وجْهِ المطلوبِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿يَغۡلِبُوٓاْ﴾:

غلبةُ المؤمنين لأعدائِهم تمكُّنٌ وقوَّةٌ يُرادُ منها هدايةُ الخلقِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بمفردةِ ﴿يَغۡلِبُوٓاْ﴾ دونَ أن يقولَ: (يهزموا) أو (يقتلوا) أو (ينتصروا على مئتينِ)، وما إلى ذلك من ألفاظٍ؛ وذلك لأنَّ الغلبةَ تدلُّ على العظمةِ والشِّدَّةِ والتَّمكُّنِ في أصلِ اللُّغةِ(2)، وعليه فيكونُ الوعدُ لا للانتصارِ فحسبُ؛ لأنَّ الانتصارَ قد يكون يسيرًا، أو قريبًا من ذلك، أمّا الغلبةُ؛ فهي انتصارٌ عظيمٌ، وهذا إخبارٌ ووعدٌ من اللّه تعالى أنَّ المؤمنين إنِ استعانوا باللّهِ، وصبروا؛ فإنَّهم يغلبون عشرةَ أضعافٍ، وهذا يُقوّي أنَّ الخبرَ مرادٌ به الأمرُ، والمعنى: إن استجبْتُم لأمرِ اللّهِ؛ فأطعتموه؛ فإنَّه يجعلُكم غالبين على أعدائِكم، كما أنَّهُ ليس المطلوبُ بالغلبةِ على الأعداءِ قتلَهم وإبادتَهم، كما يظنُّ ذلك ضَعَفةُ العقولِ والقلوبِ، بل المرادُ الغلبةُ ثم هدايةُ المغلوبين لإنقاذِهم من عذابِ الدُّنيا والآخرةِ.

غرَضُ العَطْفِ:

الإيماءُ إلى أنَّ خرقَ السُّننِ الاجتماعيَّةِ لا يصدُرُ إلّا عن خبيرٍ عليمٍ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على السّابقِ لأداءِ غرضٍ بيانيٍّ، وهو زيادةُ التَّقريرِ، وتحقيقُ الاطمئنانِ لدى المخاطَبين، على أنَّهُ قد يجري بين الجمْعَيْنِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/157.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (غلب).

القليلَيْنِ ما لا يجري بين الجمعينِ الكثيرَيْنِ، مع التَّفاوتِ بينهما على نسبةٍ واحدةٍ، فبيَّنَ أنَّ ذلك لا يتفاوتُ في الصّورتَيْن[1]، فغرضُ العطفِ دفعُ أيِّ احتمالٍ يجري في الذِّهن والتَّجربة من أنَّ ما يتحقَّقُ في الجمعِ اليسير قد لا يتحقَّق في الجمعِ الكثير، ففيه إيماءٌ إلى وعدٍ كريمٍ هو من قبيل خرقِ السُّننِ الاجتماعيَّةِ الَّتي لا تكونُ إلّا بقدرةِ حكيمٍ عليمٍ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

التَّأنيثُ اللّفظيُّ والتَّذكيرُ المعنويُّ لا يتعارَضان بل يتعاضَدان

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم﴾ قراءتانِ، فقد قَرَأ الكوفيّونَ، والبَصريّانِ بالياءِ على التَّذكيرِ، وقَرَأ الباقونَ بالتّاءِ على التَّأنيثِ[2]، "فَمن أنَّثَ فلتأنيثِ المئةِ، ومن ذكَّرَ فلأنَّ المئةَ وقعت على عددٍ مُذَكَّرٍ، وأُخْرَى وهي: أنّه لمّا حُجِز بَين الاسْم والفِعْل بحاجزٍ؛ ذكَّرَ الفِعْلَ؛ لأَنَّ الحاجزَ صارَ كالعوضِ منه"[3].

بلاغةُ الاحتباكِ بين الجُملتينِ الشَّرطيَّتين:

إرشادُ القليل إلى الصَّبرِ الـهـابِّ لهم، وتحفيزُهم بالغَلَبَة تنشيطٌ لهُم

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ زيادةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على الجملةِ السّابقةِ، وفي الجملةِ السّابقةِ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ زيادةُ نعتِ المؤمنين بقولِه: ﴿صَٰبِرُونَ﴾، فيُستدلُّ من كلِّ جملةٍ على المحذوف في الأخرى، فيكونُ تقديرُ الجملتَيْن: إنْ يكن منكم عشرونَ صابرونَ؛ يغلبوا مئةً من الذين كفروا، وإن يكنْ منكم مئةٌ صابرةٌ؛ يغلبوا ألفًا من الذين كفروا، وهذا احتباكٌ بديعٌ، يقول أبو حيّان: فانظر إلى فصاحةِ هذا الكلامِ حيثُ أثبتَ قيدًا من الجملةِ الأولى، وحذفَ نظيرَهُ من الثّانية، وأثبتَ قيدًا في الثّانية،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111 - 112.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 313.

وحذفه من الأولى، ولمّا كان الصَّبرُ شديدَ المطلوبيَّةِ؛ أثبتهُ في أولى جملتي التَّخفيف، وحذفَهُ من الثّانيةِ لدلالة السّابقةِ عليه[1].

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

و﴿مِّنَ﴾ في قولهِ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بيانيَّةٌ حيثُ بيَّنتِ المرادَ بعددِ الألف[2].

نكتةُ التَّعريفِ بالاسمِ الموصول:

التَّلازمُ بين الكفرِ وعدمِ الفقهِ في الدّين مؤدّاهُ الهزيمةُ والخسارةُ

التَّعريفُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع جملةِ صلتهِ ﴿كَفَرُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إيماءٌ لما سيأتي من وصفهِم بأنَّهم لا يفقهون[3]، حيثُ كان تعليلُ كفرِهم بكونِهم لا يفقهون، فهناك تلازمٌ بين الكفرِ وعدمِ الفقهِ، وليس المقصودُ بالفقهِ هاهنا مطلقَ الفهمِ، بل ما يخصُّ العقلَ والحكمةَ في فهمِ المطلوبِ من العبادِ، أن يعملوه لدارِ المعاد.

حكمةُ اختيارِ هذه الأعدادِ في الآيةِ الكريمةِ:

تربيةُ القرآنِ للمؤمنين يُحقّقُ غاياتِ الدَّعوةِ وأهدافَ المرحلةِ

سألَ بعضُ المفسِّرين عن اختيارِ هذه الأعدادِ، وهي العشرونَ في مقابلِ المئتينِ، والمئةُ في مقابلِ الألفِ، مع أنَّ "حاصلَه وُجوبُ ثَباتِ الواحِدِ في مُقابَلَةِ العَشَرَةِ، فما الفائِدَةُ في العُدولِ عَنْ هذه اللَّفْظَةِ الوَجيزَةِ إلى تِلْكَ الكَلِماتِ الطَّويلَةِ؟ وجَوابُهُ: أنَّ هذا الكَلامَ إنَّما ورَدَ على وفْقِ الواقِعَةِ، وكانَ رَسولُ اللّٰه يَبْعَثُ السَّرايا، والغالِبُ أنَّ تِلْكَ السَّرايا ما كانَ يَنْتَقِصُ عَدَدُها عَنِ العِشْرينَ، وما كانَتْ تَزيدُ على المِئَةِ، فلِهذا المعنى ذَكَرَ اللّٰه هَذَيْنِ العددين"[4]، ويُقوّي هذا الوجه أنَّ حكمَ الآيةِ قد خُفِّف فيما بعدُ، فيكون اختيارُ هذه الأعداد لمناسبةٍ واقعيَّةٍ من شأنِها تربيةُ الجيلِ المسلم في ذلك الوقتِ بما يتناسبُ مع وضعه الذي يعيشُ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/349.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/45.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/68.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/158.

دلالةُ الباءِ السَّببيَّةِ:

الفقهُ المعتبرُ هو الَّذي يقودُ صاحبَهُ إلى النَّجاةِ في الدّارين

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ سببيَّةٌ، كأنَّه قال: إنَّهم قومٌ مغلوبون؛ لأنَّهم لا يفقهون، ومعنى ذلك: أنَّه بسببِ أنَّهم قومٌ جهلةٌ باللّٰه تعالى وباليوم الآخرِ لا يقاتلونَ احتسابًا وامتثالًا لأمرِ اللّٰه تعالى وإعلاءً لكلمتهِ وابتغاءً لرضوانه، كما يفعلُ المؤمنونَ، وإنّما يقاتلونَ للحميَّةِ الجاهليَّةِ واتِّباع خطواتِ الشَّيطانِ، وإثارة ثائرةِ البغي والعدوانِ، فلا يستحقّونَ إلّا القهرَ والعدوانَ[1].

وَتَقْرِيرُ هذا الكَلامِ مِن وُجوهٍ:

العبرةُ بفقهِ المآلاتِ لا بتحقيقِ الشَّهواتِ

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنَّ مَنْ لا يُؤْمِنُ باللّٰه، ولا يُؤْمِنُ بالمَعادِ، فإنَّ غايَةَ السَّعادَةِ والبَهْجَةِ عندهُ لَيسَتْ إلّا هذه الحَياةَ الدُّنْيَوِيَّةَ، ومَنْ كانَ هذا مُعْتَقَدَهُ؛ فإنَّهُ يَشِحُّ بهذه الحَياةِ، ولا يُعَرِّضُها للزَّوالِ، أمّا مَن اعْتَقَدَ أنَّهُ لا سَعادَةَ في هذه الحَياةِ، وأنَّ السَّعادَةَ لا تَحْصُلُ إلّا في الدّارِ الآخِرَةِ، فإنَّهُ لا يُبالي بهذه الحَياةِ الدُّنيا، ولا يَلْتَفِتُ إلَيْها، ولا يُقيمُ لَها وزْنًا، فيُقْدِمُ على الجِهادِ بقَلْبٍ قَوِيٍّ وعَزْمٍ صَحيحٍ، ومَتَى كانَ الأَمْرُ كَذلك؛ كانَ الواحِدُ مِن هذا البابِ يُقاوِمُ العَدَدَ الكَثيرَ مِنَ البابِ الأَوَّلِ.

الوَجْهُ الثّاني: أَنَّ الكُفّارَ إنَّما يُعَوِّلونَ على قوَّتِهم وشَوْكَتِهم، والمُسْلِمونَ يَسْتَعينونَ برَبِّهم بالدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ، ومَنْ كانَ كَذلك؛ كانَ النَّصْرُ والظَّفَرُ به أَلْيَقَ وأولَى.

الوَجْهُ الثّالِثُ: وهو أَنَّ كُلَّ قَلْبٍ اخْتَصَّ بالعِلْمِ والمَعْرِفَةِ؛ كانَ صاحِبُهُ مَهيبًا عند الخَلْقِ، وما ذاكَ إلّا أَنَّ الآدَميَّ بسَبَبِ ما فيه مِن نورِ العَقْلِ يَكونُ مَهيبًا، ورُبَّما قَوِيَ عند ظُهورِ التَّجَلّي في قَلْبه على أعْمالٍ يَعْجِزُ عَنْها قَبْلَ ذلك الوَقْتِ[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/45.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/158.

بلاغةُ الاستئنافِ:

جملةُ: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ منفصلةٌ عن الجملةِ السّابقةِ على الاستئنافِ النَّحوي، وهو ما يؤيِّدُ القولَ بوقوعِ النَّسخِ فيها، وهو رأيُ جمهورِ العلماءِ، ولم يخالفْ في ذلك إلّا نفرٌ قليلٌ، وفيها نسخٌ إلى حكم أقلَّ؛ تخفيفًا على المؤمنين، فبين النّاسخِ والمنسوخِ تراخٍ زمنيٌّ، والاستئنافُ أنشأ حكمًا جديدًا، هو مرتبطٌ بالحكمِ السّابقِ من حيثُ الكلِّ، وجديدٌ من حيثُ التَّفصيلُ.

الاستئنافُ مقوٍّ للنَّسخِ ومبيِّنٌ للبدل

معنى ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ﴾:

﴿ٱلۡـَٔـٰنَ﴾: اسمُ ظرفٍ للزَّمانِ الحاضرِ، قيل: أصلُهُ: أوانٌ بمعنى زمانٍ، ولمّا أُريد تعيينُهُ للزَّمانِ الحاضرِ لازمته لامُ التَّعريفِ بمعنى العهدِ الحضوريِّ، فصارَ مع اللّام كلمةً واحدةً، ولزِمَهُ النَّصبُ على الظَّرفيَّة، والوقتُ المستحضرُ بقوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ﴾ هو زمنُ نزولِها، وهو الوقتُ الَّذي علمَ اللّهُ عنده انتهاءَ الحاجةِ إلى ثباتِ الواحدِ من المسلمينَ للعشرةِ من المشركين، بحيثُ صارتِ المصلحةُ في ثباتِ الواحد لاثنين، لا أكثرَ، رفقًا بالمسلمين واستبقاءً لعددهم[1].

ظرفٌ زمانيٌّ فاصلٌ بينَ مرحلَتَيْنِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّخفيفِ:

أضفى التَّعبيرُ بمفردةِ ﴿خَفَّفَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ ما يحملُهُ مِنَ السُّرورِ والبهجةِ في قلوبِ المؤمنين، بعد أن ثقُلَتْ عليهم مواجهةُ الأعداءِ بعُشرِ العددِ، وأشار استعمالُ هذه المفردةِ إلى ما يُقابِلُها من معنى الثِّقَل المستكنِّ في الحكم السّابق، وغايةُ التَّخفيف بعد إثقالِ الحكم على المؤمنين، تبليغُهم درجاتِ الرِّضا والطّاعة، ونزعُ فتيل المعصيةِ والاعتراضِ من القلوب، فدلالةُ هذه المفردة في هذا السّياق دلالةٌ نفسيَّةٌ أتَتْ على الضِّدَّين من التَّخفيفِ بعد الثِّقل، والمؤمنون في الحالين في درجاتِ الرِّضا آمنونَ.

التَّخفيفُ دليلُ الرَّحمةِ المزوجةِ بإرادةِ التَّربية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/69.

سرُّ تقديمِ فعلِ ﴿خَفَّفَ﴾ على لفظ الجلالةِ:

قُدِّمَ فعلُ ﴿خَفَّفَ﴾ على الفاعلِ لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾؛ لبيانِ العنايةِ بالحكم اللّاحقِ، وللمسارعةِ بالتَّبشيرِ، فإنَّ إخبارَ المخاطَبين بالحكمِ الجديدِ فيهِ بشارةٌ، فحسُن تقديمُها، وهو ما يُشير إلى أنَّ المؤمنين كانوا متشوِّقين إلى نزولِ مثل هذا الحكمِ، وهو ما يُصوِّر فرحتَهم بأمرين؛ بالتَّخفيف عنهم، وبأنَّهم قد فازوا برضوانِ اللّهِ عندما كلَّفهم أن يقاتلَ الواحدُ منهم عشرةً من الكافرين.

ظَفِرَ المؤمنونَ بالفوزِ برضوانِ اللهِ عندَ التَّكليفِ وعندَ التَّخفيفِ

دلالةُ بناءِ الفعلِ للفاعلِ:

بُني الفعلُ للفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ دونَ البناءِ للمفعولِ، فلم يقل: (خُفِّفَ عنكم)، وذلك لأنَّ التَّصريحَ بالاسم الجليلِ يورِّثُ في قلوبِ المؤمنين مزيدَ الرَّحمةِ، فاللّهُ سبحانه هو الَّذي أراد التَّخفيفَ، والنَّصُّ على الفاعلِ مرادٌ في هذا السّياقِ، فهو معلومٌ بداهةً، لكنَّ التَّصريحَ به يُرادُ منه استشعارُ العنايةِ والرِّعايةِ تصريحًا لا تلويحًا، وعبارةً لا إشارةً.

معرفةُ عنايةِ اللهِ تعالى بعبادِه بالتَّصريحِ تورِّثُ الطُّمأنينةَ والسَّكينةَ

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ واو الحال، والجملةُ منصوبةٌ على الحاليَّة، أي: خفَّفَ عنكم، والحالُ أنَّه يعلم ضعفَكم، وحملُ الواوِ على العطف قد يوردُ فهمًا غيرَ مرادٍ من أن يكون علمُهُ تعالى حادثًا بعد حصول ضعفِهم مع أنَّ ضعفَهم متحقِّقٌ[1]، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ واسمِها وخبرِها سدَّ مسدَّ مفعولَيْ ﴿وَعَلِمَ﴾[2].

تخفيفُ اللهِ عن عبادِه تربيةٌ تدريجيَّةٌ لتحقيقِ رضاه

بلاغةُ الإطنابِ:

عدلَ النَّظْمُ عن أن يُقالَ: (وعَلِمَ ضَعْفَكُم) مع إيجازِه اللَّفظيِّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/70.

(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/168.

ضعفُ المؤمنينَ طارئٌ لا أصيلٌ، وهو مقيَّدٌ بقتالِ الواحدِ للعشرةِ

إلى ما جاءَ عليه النَّظمُ الكريمُ ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾، وذلك لدفعِ التُّهمةِ عن المؤمنينَ، فلوقال: (وعلمَ ضعفكم) لظُنَّ أنَّ الضَّعفَ أصيلٌ فيهم، ولظُنَّ أنَّ ضعفهم عامٌّ يشملُ أبدانَهم وقدرتَهم على القتالِ وإيمانَهم، فإنَّ الضَّعفَ "قد يكونُ في النَّفسِ وفي البدنِ وفي الحال"[1]، فلمّا قال: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ عُلِمَ أنَّ الضَّعفَ المرادَ مقيَّدٌ بضعفِ قتالِ الواحدِ للعشرةِ المأخوذِ من السّياقِ، وهو ضعفٌ طارئٌ لا أصيلٌ، وهو الأوفقُ بمقامِ خطابِ المؤمنين الذين جاهدوا في سبيلِ اللهِ آخذين بالعزيمةِ، فإنَّ جزاءَ المحسنِ الإحسانُ إليه، وهذا ما دلَّ عليه النَّظمُ البديعُ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على اسم ﴿أَنَّ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ على المبتدأ؛ للعنايةِ بهم والاهتمامِ بشأنِهم، فما كان هذا التَّخفيفُ في الحكمِ إلّا رحمةً بهم، فهم المقصودونَ بهذهِ الرُّخصةِ وهذا التَّخفيفِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿ضَعۡفٗاۚ﴾:

التَّنكيرُ محمولٌ على التَّنويعِ لا التَّعظيمِ

تنكيرُ لفظِ ﴿ضَعۡفٗاۚ﴾ إمّا أن يُحملَ على التَّنويعِ، وهو ضعفُ الرَّهبةِ من لقاءِ العددِ الكثيرِ في قلَّةٍ[2]، وإمّا أن يُحملَ على معنى التَّكثيرِ أو التَّعظيمِ باعتبارِ كثرةِ الضُّعفاءِ أو عظمةِ البلاءِ،

والصَّحيحُ أنَّ غرضَ التَّنكيرِ محمولٌ على التَّنويعِ، والمرادُ به هنا ما أفصحَ عنهُ السّياقُ من ضعفِ لقاءِ الأعداءِ في حالِ أنَّهم عشرةُ أضعافِ المؤمنين.

سرُّ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿ضَعۡفٗاۚ﴾:

اجتماعُ المدْحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ والتَّعريضَ بالآخرينَ

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ وصفِ المؤمنين بالضَّعفِ؟ وهل يوصَفُ بمن يواجهُ عشرةَ أضعافِه بالضَّعفِ؟ فعند تدبُّرِ ما أصابَ المؤمنينَ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 222.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/70.

لا يجدُهُ ضعفًا بشريًّا اعتياديًّا، بل هو ضعفٌ نادرُ الحدوثِ بين البشرِ، ولو نُظِرَ إليهِ من جانبِ الاعتيادِ، فليس ضعفًا؛ فيُسألُ عن سرِّ ذلك الوصفِ؟

والجوابُ: أنَّ هذا الوصفَ هو من قبيلِ المدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ؛ فلا تجدُ أحدًا يصفُ شخصًا لا يُجابهُ عشرةَ أضعافِه بالضَّعيفِ، فباتَ هذا الوصفُ مدحًا للمؤمنين عند المقارنةِ بغيرِهم ممَّن يضعفُ عن مجابهةِ الاثنين والثَّلاثة، وهذا من أدقِّ مسالك المَدْحِ بما يُشبه الذَّمَّ، وفيه تعريضٌ بغيرِهم ممَّن يضعفُ عن القليلِ من المؤمنين، وممَّن اشتكى من أقلَّ من ذلك، وفيه تنبيهٌ لعموم المؤمنين في قابلِ الأيّامِ، بأنَّ اللّه تعالى لم يُكلِّفْهم ما كلَّف المؤمنين في بدايةِ الجهادِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه: ﴿ضَعۡفًاۚ﴾:

تخفيفُ الأحكامِ يَلحقُ بعمومِ الأمَّةِ وأفرادِها

قرأ عاصمٌ وحمزةُ وخلفٌ بفتح الضّاد: ﴿ضَعۡفًاۚ﴾، وقرأ أبو جعفر بضمِّ الضّادِ وفتح العيْنِ والفاء وبعدها ألفٌ، وبعد الألفِ همزةٌ مفتوحةٌ غيرُ منوَّنةٍ ﴿ضُعَفَآءَ﴾، وقرأ الباقون بضمِّ الضّادِ ﴿ضُعۡفًا﴾[1].

وتوجيهُ تلك القراءاتِ: أنَّ (الضَّعف) و(الضُّعف) لغتانِ من لغاتِ العربِ، وليس كما قيلَ بالتَّفرقةِ بينهما بأنَّ لغةَ الضَّمِّ تفيدُ ضعفَ البدنِ، ولغةُ الفتحِ تفيدُ ضعفَ الرَّأي والعقل[2]، وعلى قراءةِ ﴿ضُعَفَآءُ﴾ يكونُ المعنى: أنَّ علَّةَ التَّخفيفِ هي وجودُ الضُّعفاء المحَدَّدين المعروفين بينكم، وليس المقصودُ حالةَ الضَّعفِ عمومًا.

والقراءتانِ بينهما تكاملٌ عجيبٌ، فقراءةُ الجمهورِ تُسلِّط الضَّوء على وجود الضَّعفِ، بينما قراءةُ ﴿ضُعَفَآءُ﴾ فهي تُشير إلى وجودِ بعض الضُّعفاء بينهم، وأنَّه لأولئك كان التَّخفيفُ، فقراءةٌ تناولت الضَّعفَ بمفهومِه العامِّ، وقراءةٌ أشارت إلى وجودِ بعض الضُّعفاءِ.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 816، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/71.

معنى الفاءِ:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ تفريعيَّةٌ، فهي تفريعُ ما بعدَها على ما قبلَها، فإنَّ التَّخفيفَ يقتضي بيانَ مآلِ الحكمِ بعد تخفيفِه، وتوضيحَ ما لَحِقَهُ من تفصيلٍ.

غرضُ استعمالِ (إنْ) دون (إذا):

تحفيزُ المؤمنين على الصَّبرِ لبلوغِ النَّصرِ

إيثارُ استعمالِ (إنْ) دون غيرِها من أدواتِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ قدرةَ المؤمنين متفاوتةٌ في تحقيق الالتزام بالصَّبرِ، فليس المؤمنونَ على درجةٍ واحدةٍ في الصَّبرِ على الشَّدائدِ، فكان استعمالُها يُفيدُ إلهابًا وتحفيزًا للمخاطَبين على الصَّبرِ، كأنَّه قال: إن صبرْتُم وأخذتم بالأسبابِ المعنويَّةِ والمادِّيَّةِ، فإنَّ مئةً تغلبُ مئتينِ، وإن كانتِ الأخرى من عدمِ الصَّبرِ، فالأخرى من عدم النَّصرِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

شأنُ الأحكامِ النّاسخةِ الاستمرارُ والتَّجدُّدُ في حياةِ الأمَّةِ

الجملتانِ المتفرِّعتانِ بعد (إنْ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ شرطيّتانِ، وفعلا الشَّرطِ وجوابُهما أتيا على صيغة الفعليَّةِ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ لأنَّ هذا الحكمَ باقٍ غيرُ منسوخٍ، وقد يدلُّ على استحضارِ الصّورةِ أيضًا، ولا مانعَ من تعدُّدِ الأغراضِ البيانيَّةِ، فإنَّ النِّكاتِ لا تتزاحمُ.

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ:

قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ بياءِ التَّذكير في ﴿يَكُن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾، وقرأ الباقونَ بتاءِ التَّأنيثِ[1]، وهذا كما في الآيةِ الَّتي سبقتها معتمدٌ على النَّظرِ: أهو إلى ظاهرِ اللَّفظِ أم إلى المعنى؟ أي: إلى اعتبارِ التَّأنيثِ المجازيِّ على معناهُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

أو على لفظِه، وبناءً - كذلك - على توسُّطِ ﴿مِّنكُم﴾ بين الفعلِ والعددِ ممّا يشكِّلُ فاصلًا بين الفعلِ والعددِ، وعلى القراءتين فاللَّفظُ والمعنى معتبران.

معنى حرفِ (من):

المطلوبُ من الأمَّةِ إعدادُ فئاتٍ من المؤمنينَ للقتالِ والمغالبةِ

تحتملُ (من) في قولِه: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾ أن تكونَ للتَّبعيضِ، ومعناه: استعدّوا وتجهَّزوا؛ ليكونَ منكم من يكونُ أهلًا لقتالِ الكافرين، فيصبرُ عندَ المغالبةِ، وتحتملُ أن تكونَ للبيانِ، ومعناهُ: كونوا مستعدّينَ للقتالِ، واصبروا، والتَّبعيضُ أسعدُ دلالةً من البيانِ، فإنَّ عمومَ النُّصوصِ القرآنيَّةِ والمقاصدِ الشَّرعيَّةِ تدلُّ على هذا المعنى.

غرضُ تَكرارِ المعنى الواحدِ مرَّتين قبلَ التَّخفيفِ وبعده:

الدَّلالةُ على أنَّ الحالَ واحدةٌ لا تتفاوتُ

يقولُ الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: لمَ كرَّرَ المعنى الواحدَ، وهو مقاومةُ الجماعةِ لأكثرَ منها مرَّتين قبل التَّخفيف وبعده؟ قلتُ: للدَّلالة على أنَّ الحالَ مع القلَّةِ والكثرةِ واحدةٌ لا تتفاوتُ؛ لأنَّ الحالَ قد تتفاوتُ بين مقاومة العشرين المئتينِ والمئةِ الألفَ، وكذلك بين مقاومة المئةِ المئتينِ والألفِ الألفين"(1).

بلاغةُ الاحتباكِ:

المذكوراتُ في باب الاحتباكِ أولى من المحذوفاتِ مع إغناءِ كلٍّ مذكورٍ عن المحذوفِ

في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ احتباكٌ؛ فقد وُصِفَ قولُه تعالى: ﴿مِّاْئَةٞ﴾ بالصَّبرِ، ولم يوصفْ قولُه: ﴿أَلۡفٞ﴾ بذلك، كما أنَّه قُيِّدَ قولُه تعالى: ﴿يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ﴾ بقيدِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، ولم يُقيَّدْ قولُه تعالى: ﴿يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ بذلك، فتقديرُ الاحتباكِ: فإن يكنْ منكم مئةٌ صابرةٌ؛ يغلبوا مئتين بإذنِ اللّهِ، وإن يكن منكم ألفٌ صابرةٌ؛ يغلبوا ألفين بإذنِ اللّهِ، وسرُّ ذلك أنَّ التَّنويهَ بالصَّبرِ في حقِّ المئةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/223.

أشدُّ احتياجًا، كما أنَّ الغلبة على الألفين أحوجُ إلى قيدِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، فذكرَ لكلِّ لفظٍ ما هو أولى اعتناءً من الآخرِ؛ للتَّنبيه على أهمّيَّته، مع إغناءِ كلِّ مذكورٍ عن المحذوفِ.

براعةُ استعمالِ قيدِ: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ ذكرًا وحذفًا:

التَّنبيهُ بذكرِ القيدِ لدفعِ الأوهامِ وحذفُهُ لمعرفتِهِ ضرورةً

معنى قولِه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بأمرِه، ويجوزُ أن يُرادَ بِه الأمرُ التَّكوينيُّ باعتبارِ صورة الخبرِ والوعدِ، ويجوزُ أن يُرادَ بِه الأمرُ التَّكليفيُّ باعتبارِ ما تضمَّنهُ الخبرُ من الأمرِ[1]، والباءُ يمكن أن تكونَ سببيَّةً، فهذا التَّخفيفُ ما كان إلّا بسببِ هذا الإذنِ، وشبهُ الجملةِ (الجارُّ والمجرورُ) في موقعِ الحالِ من ضميرِ ﴿يَغۡلِبُوٓاْ﴾، وصرَّحَ بالإذنِ هنا دونَ الآيةِ المنسوخةِ مع أنَّ كليهما مرهونٌ بإذنِ اللّه؛ لأنَّ غُلْبَ الواحدِ للعشرةِ أظهرُ في الخرقِ للعادةِ، فيُعلم بدءًا أنَّهُ بإذنِ اللّه، وأمّا غُلْبُ الواحدِ الاثنين، فقد يُحسبُ ناشئًا عن قوَّةِ أجسادِ المسلمين، فنبَّهَ على أنَّهُ بإذنِ اللّه ليُعلمَ أنَّهُ مضطردٌ في سائرِ الأحوالِ[2].

معنى الواوِ ودلالته:

دلالةُ حرفِ الواوِ بينَ الاعتراضِ والحالِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إمّا أن تكونَ اعتراضيَّةً تذييليَّةً لتقريرِ مضمون ما قبلها[3]، وإمّا أن تكونَ الواوُ حاليَّةً، ويصيرُ المعنى: تحصل لكم الغلبةُ بهذه الكيفيَّةِ بإذنِ اللّه والحالُ في هذا كلِّه أنَّ اللّه مع الصّابرين.

نكتةُ إظْهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

جرَيانُ الجملةِ مجرى المثلِ السّائرِ

أُظْهِرَ الاسمُ الجليلُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: (وهو مع الصّابرين) مع تقدُّمِ ذكرِه في قولِه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾؛ للنَّصِّ على حضورِ هيبةِ الجلالِ والجمالِ المُكتنزة في الاسم الجليل، ولمكافأة الصّابرينَ بالتَّصريحِ باسم اللّهِ تعالى في معيَّتِهم، ولإقامةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/72.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.

الجملةِ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مُقامَ الاستقلالِ، فتجري مثلًا سائرًا على الألسُنِ، بأنَّ الله مع الصّابرين.

معنى المعيَّةِ:

المرادُ بالمعيَّةِ معيَّةُ نَصرِه وتأييدِه، ويُشعر حرفُ ﴿مَعَ﴾ في دخولِه على لفظِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بأصالتِهم من حيثُ إنَّهم المباشرون للصَّبر[1]، ولا شكَّ أنَّ هذه المعيَّةَ من شأنِها أن ترفعَ من قيمةِ فضيلةِ الصَّبرِ، وترفعَ من شأنِ الصّابرين، فهي معيَّةٌ مرتبطةٌ بالله تعالى لا بغيره.

نصرُ الله للمؤمنين وتأييدُه لهم بصبرِهم وتحمُّلِهم الشَّدائدَ

توجيهُ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الإنشاءِ:

يرى ابنُ عطيَّةَ الأندلسيُّ أنَّ هذهِ الجملةَ الخبريَّةَ ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيها معنى الإنشاءِ؛ لأنَّها تحوي وعدًا وحضًّا على الصَّبرِ، وفيها وعيدٌ لمن لا يصبرُ[2]، فكأنَّ هذهِ الجملةَ الخبريَّةَ قد حَمَلَتْ في منطوقِ حالِها أمرًا بالصَّبر ونهيًا عن تركِه.

الأمرُ بالصَّبرِ يأتي بالوعدِ لفاعلِه والوعيدِ لتاركِه

بلاغةُ الاحتباكِ الإجماليِّ:

لم يُتعرَّضْ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لحالِ الكفرةِ من الخذلان، كما لم يُتعرَّضْ في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ لحالِ المؤمنينَ، مع أنَّ مدارَ الغلبةِ في الصّورَتَيْن مجموعُ الأمرين: نصرُ الله المؤمنينَ، وخذلان الكفرةِ اكتفاءً بما ذُكِرَ في كلِّ مقامٍ عمّا تُرِكَ في المقامِ الآخر[3]، وهذا قريبٌ من الاحتباكِ، لكن على طريقِ الإجمالِ لا التَّفصيلِ.

الآياتُ تتكاتفُ ويأخذُ بعضُها بعضٍ في بيانِ المعاني والدَّلالاتِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 816.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحسْبُ والكفايةُ:

الحسْبُ مرحلةٌ سابقةٌ للكفايةِ الَّـتـي تـعـني الامتلاءَ بلا مزيدٍ

استعملَ القرآنُ الكريم كلماتٍ مقاربةً لقولِه تعالى: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ مثل قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ في نحو ستَّ عشرةَ مرَّةً، كانت الأولى ورودًا منهنَّ في سورة النِّساءِ في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: 6]، حيثُ جمعت بين هاتيْنِ الكلمتين المتقاربتين، عِلمًا أنَّ سورةَ النِّساء هي - أيضًا - أكثرُ سورةٍ ذُكِرَ فيها (كفى باللّه) حيثُ وردت تسعَ مرّاتٍ.

وكلمة ﴿حَسۡبُكَ﴾ أصلُها مادَّةُ (حسب) تعودُ لأربعِ أصولٍ: الأَوَّلُ: العدُّ، تقول: حسِبتُ الشيءَ أحسُبُهُ حسْبًا وحُسبانًا، الثاني: الكفايةُ، تقول: شيءٌ حسابٌ، أي: كافٍ، الثّالث: الحُسبانُ، وهي جمعُ حُسبانةٍ، وهي الوسادةُ الصَّغيرةُ، والرّابعُ: الأحسبُ، وهو الَّذي ابيضَّتْ جلدتُهُ[1]، والمعنى المحوريُّ الَّذي تدورُ حولَهُ هذه الأصولُ هو: جمعُ ما هو منتشرٌ في حيِّزٍ يضمُّهُ حتى يمتلئَ بهِ[2]، ولا شكَّ أنَّ قولَهُ: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ يدورُ حولَ أصلِ الكفايةِ، ولم ترد هذه الصّيغةُ في القرآنِ إلّا في موضعين، والموضعانِ في هذه السّورةِ: الأَوَّلُ: قولُه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، والآخرُ: قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وأمّا أصلُ (كفى)؛ فهو يدلُّ على الحَسْبِ الَّذي لا مستزادَ فيهِ[3]، والمعنى المحوريُّ لـ(كفى): بلوغُ الامتلاءِ أو النُّمو إلى الكمالِ المناسبِ دونَ زيادةٍ[4]، ومعنى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ١٦٦﴾ [النساء: 166]، أي: اكتفِ باللّه[5]، على تضمينِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 263.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 1/426.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 929.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 4/1904.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 330.

الفعلِ (كفى) فعلَ الأمرِ (اكتفِ)، فيصبحُ مجموعُ اللَّفظِ يُساوي قوَّةَ الفعلين، أي: اكتفِ باللّه كفايةً، وبناءً على ما تقدَّمَ يظهرُ جليًّا أنَّ الحسْبَ يأتي قبل الاكتفاءِ؛ لأنَّ الحسبَ يقومُ على الجمعِ في حيِّز، والاكتفاءُ هو حسْبٌ لا مُستزادَ فيه، وبهذا اختصَّتْ سورةُ الأنفالِ بهذا الحسْبِ الذي جاء مُؤَيَّدًا بنصرِ اللّه وبالمؤمنينَ في الموضعِ الأوَّلِ، وبالمؤمنين في الموضعِ الثّاني، وقد سبقَ هاتيْنِ الآيتيْنِ في السّورةِ الكريمةِ الأمرُ بالإعدادِ لأعداءِ اللّه بكلِّ أنواعِ القوى الممكنةِ، وهو نوعٌ منَ الجمعِ والإعدادِ يوصلُ إلى حالةِ الامتلاءِ والاكتفاءِ.

الفقهُ والعلمُ:

الفقهُ أخصُّ من العلمِ وأشملُ ويأتي بعد تأمُّلٍ

الفقهُ: هو التَّوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ[1]، والمعنى المحوريُّ الَّذي يدورُ حولَهُ أصلُ (فقه) هو: وصولٌ إلى حقيقةِ باطنِ الشَّيءِ؛ كما يعرفُ الفحلُ حال باطن النّاقة، ومن ذلك: "الفِقْه: العلمُ بالشَّيء وفهمُه" (فهمًا عميقًا مستوعبًا) وقد فقِهَ الشَّيءَ: كأنَّما غاصَ في داخلِه، فأدركَ دقائقَهُ وخفاياهُ[2]. والمعنى المحوريُّ لـ(علم) يقومُ على: الدِّلالةِ والهدايةِ بمرتفع إلى معنى: اتجاهٍ أو طريقٍ أو حدٍّ أو غيرِ ذلك، كما يدلُّ العَلَم في الصَّحراءِ على الاتِّجاهات والطُّرقِ والمواقعِ (وكما يُتَّخَذُ الجبلُ عَلَمًا على مثلِ ذلك)[3]، والعِلمُ اصطلاحًا هو: "إدراكُ الشَّيءِ بحقيقته، وذلك ضربانِ: أحدُهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثّاني: الحكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو موجودٌ لَهُ، أو نفي شيءٍ هو منفيٌّ عنه[4]".

فالفقهُ: "هو العلمُ بمقتضى الكلامِ على تأمُّله، ولهذا لا يُقال: إنَّ اللّه يفقهُ؛ لأنَّهُ لا يوصف بالتأمُّلِ، ولا يُستعمل إلّا على معنى الكلامِ،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 290.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1703.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1512.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 258.

ومنهُ قوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف: 93]"[1]، وممّا يؤيِّدُ هذا الكلامَ ما جاء في سورة (المنافقون): ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: 7 - 8] ففي سياقِ القولِ جاء ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ وفي سياقِ علم حقيقةِ الشَّيءِ جاء ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ولذا جاءَ في الآيةِ هنا في سورة الأنفالِ ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأنَّ الكفّارَ يقيسون الأمورَ الغائبةَ عنهم كالنَّصرِ والغلبةِ بالأمورِ الحسّيَّةِ المشاهدة كالعَدَدِ والعُدَد، ولا يدركون حقيقةَ الأشياءِ، ولا يعلمونَ الغيب، فناسبَ هذا كلَّه مجيءُ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ هنا دونَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾.

الضَّعفُ والوهنُ:

الضَّعفُ يكون جبلّيًّا بخلافِ الوهنِ فيكون جبلّيًّا وكسبيًّا

الضَّعفُ قد يكونُ في النَّفسِ وفي البدنِ وفي الحالِ، والمعنى المحوريُّ الذي يدورُ حولَهُ الضَّعفُ: هو عدمُ القوَّة: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ [الروم: 54]، ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾، ومن ذلك: "الضَّعيفُ الأعمى" وكلُّ ما في القرآنِ من الفعلِ (ضعُف) و(استضعف) ومضارعِه للفاعل والمفعول، وكلمةُ (ضَعْف) بالفتح، والصِّفةُ (ضعيف) وجمعُها (ضِعاف) و(ضُعفاء)، وكذلك صفةُ التَّفضيل (أضعف)، واسم المفعول (مستضعف) وجمعه كلُّ ذلك من الضَّعف: وهو عدمُ القوَّة[2]، بينما يدورُ المعنى المحوريُّ للوهنِ حول: ضعفِ تماسكِ البدنِ أو الشَّيءِ من اشتماله على رخاوةٍ ولذهابِ الصَّلابةِ منهُ، كالعظمِ الواهنِ وكالمرأةِ والطّائرِ الذي ذهبت قوَّتُه[3]، والوهنُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 102.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1289.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 4/2327.

اصطلاحًا: "ضَعْفٌ من حيثُ الخَلْقُ أو الخُلُق[1]"، وقد وردت مرّاتٍ عديدةً في القرآنِ الكريمِ في مثلِ قولهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ [مريم: 4] وقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: 41] وقوله في بدايةِ هذهِ السّورةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: 18].

والفرقُ بينَ اللّفظتين: أنَّ الضَّعفَ ضدُّ القوَّةِ، وهو من فعلِ الله تعالى والوهنُ هو أن يفعلَ الإنسانُ فعلَ الضَّعيفِ، وهو قويٌّ قادرٌ، والوهنُ - أيضًا - انكسارُ الحدِّ والخوف ونحوهِ، والضَّعفُ نقصانُ القوَّةِ[2]، وعلى هذا فالوهنُ قد يكونُ كسبيًّا أحيانًا بسبب إهمالِ أسباب القوَّةِ، فيسبِّب ضعفَ البدنِ أو ضعفَ الأمَّةِ، ولكنَّ الآياتِ السّابقةَ استعملت كلمةَ الضَّعفِ للتَّعبيرِ عن حالِ المؤمنين دونَ الوهنِ لبيان أنَّ هذا الضَّعفَ لا مَدْخَلَ لهم فيهِ، وأنَّهُ حالةٌ طبيعيَّةٌ وجبلّيَّةٌ في النُّفوسِ، وليس ناشئًا عن قصورٍ في همَّةِ المؤمنين أو تراخٍ في عزائمِهم، لذا لا تصلحُ كلمةُ الوهنِ أن تؤدّيَ هذا الغرضَ، وتقومَ بهذه المهمَّةِ في هذا الموضعِ الذي جاءت فيهِ.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 416.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 132.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧
لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ
٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ٦٩﴾ [الأنفال: 67 - 69]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

رِفْـقُ الـقـرآنِ بـالمؤمـنين بعد غزوةِ بدرٍ مظهرٌ مـن مـظـاهـرِ تـشـريـعـاتِـه ورحمتِه

أوضحَ صاحبُ تفسيرِ (التَّحريرِ والتَّنوير) خيرَ إيضاحٍ صلةَ هذهِ الآياتِ بما تقدَّمَها من النّاحيتَيْن: السّياقيَّة، والمقاميَّة، فقال: "اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ مُناسِبٌ لِما قَبْلَهُ سَواءٌ نَزَلَ بعَقِبه أم تَأخَّرَ نُزُولُهُ عنه، فكانَ مَوْقِعُهُ هُنا بسَبَبِ موالاةِ نُزولِه لِنُزولِ ما قبلَهُ، أو كانَ وضْعُ الآيَةِ هُنا بتَوْقيفٍ خاصٍّ، والمُناسَبَةُ ذِكْرُ بَعْضِ أحْكامِ الجِهادِ، وكانَ أعْظَمُ جِهادٍ مَضَى: هو جِهادُ يَوْمِ بَدْرٍ، فلا جَرَمَ نَزَلَتْ هذه الآيَةُ بَعْدَ قَضيَّةِ فِداءِ أسْرَى بَدْرٍ مُشيرَةً إلَيْها. وعِنْدي أنَّ هذا تَشْريعٌ مُسْتَقْبَلٌ أخَّرَهُ اللّه تعالى رِفْقًا بالمُسْلِمينَ الَّذينَ انْتَصَروا ببَدْرٍ، وإكْرامًا لهم على ذلك النَّصْرِ المُبِينِ، وسَدًّا لِخَلَّتِهِمُ الَّتي كانوا فيها، فنَزَلَتْ لِبَيانِ الأمْرِ الأجْدَرِ فيما جَرَى في شَأْنِ الأسْرَى في وقْعَةِ بَدْرٍ"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡرَىٰ﴾: الأسرُ: الشَّدُّ بالقيْدِ من قولهم: أسَرْتُ القتَبَ، وسمّي الأسيرُ بذلكِ، ثمَّ قيل لكلِّ مأخوذٍ ومقيَّدٍ؛ وإن لم يكن مشدودًا(2)، وأُسْرةُ الرَّجلِ: مَن يتقوَّى بهِ، والأُسْرُ: احتباسُ البولِ، كالحصْرِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/72.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 17.

احتباسِ الغائطِ لما في ذلك من الشِّدَّة القويَّةِ، ويُجمعُ الأسيرُ على أُسارَى وأسارى؛ ضمًّا وفتحًا، وأسرى، والمشهورُ أنَّه لا فرقَ[1].

2) ﴿يُثۡخِنَ﴾: يقولُ ابنُ فارس: "الثّاءُ والخاء والنّونُ يدلُّ على رزانةِ الشَّيءِ في ثقلٍ، تقول: ثَخُنَ الشَّيءُ ثخانةً، والرَّجل الحليمُ الرَّزينُ ثخينٌ[2]"، ومنه استعيرَ أثخنتُهُ ضربًا واستخفافًا[3]، "ومن المجازِ: أثخنَتْهُ الجراحاتُ، وتركه مثخنًا وقيدًا، وأثخنَ في العدوِّ: بالغَ في قتلهِم وغلَّظَ، وأثخنَ في الأرضِ: أكثرَ القتلَ، وأثخنَ في الأمرِ: بالغَ فيهِ، وأثخنتُهُ معرفةً، ورصنتُه معرفةً؛ إذا قتلتُه علمًا، وأثخنَهُ قولُهُ: بلغَ منهُ، وامرأةٌ مثخنةٌ: ضخمةٌ، واستثخنَ منّي الإعياءُ، والمرضُ: غلباني، واستثخنَ منّي النَّومُ: غلبني، وفلانٌ رزينٌ ثخينُ الحلمِ، وهو أعزلُ ثخينٌ، ومؤذٍ ثخينٌ[4]"، ولم ترد هذهِ الكلمةُ إلّا في موضعيْنِ من القرآنِ الكريمِ ارتبطا بالقتالِ، هذا الموضعُ، والموضعُ الآخرُ في سورةِ محمد ﷺ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد ﷺ: 4]، والمقصودُ في الآيةِ: هو المبالغةُ في القتلِ، الذي يلحقُهُ التَّمكُّنُ في الأرضِ.

3) ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾: خُصَّ العُرْضُ بالجانبِ، وأَعْرَضَ الشَّيءُ: بدا عُرْضُهُ، وعَرَضْتُ العودَ على الإناءِ، واعْتَرَضَ الشَّيءُ في حلقهِ: وقفَ فيهِ بالعَرْضِ، واعْتَرَضَ الفرسُ في مشيهِ، وفيه عُرْضيَّةٌ، أي: اعْتراضٌ في مشيهِ من الصُّعوبةِ، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيعِ، وعلى فلانٍ، ولفلانٍ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، ومنهُ استعارَ المتكلِّمون العَرَضَ لما لا ثباتَ لَهُ إلّا بالجوهرِ كاللَّونِ والطَّعمِ، وقيل: الدُّنيا عَرَضٌ حاضرٌ، تنبيهًا أن لا ثباتَ لها[5]، فالدُّنيا عرضٌ لتغيُّرِ أحوالها، ولكثرةِ خصائصِها الذّاتيَّةِ والعارضة الَّتي تحتاج إلى المتعلِّقين بها والباحثين عنها حتَّى تحلَّ في ذواتِهم وخواطرِهم.

---

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 181.
(3) الرّاغب، المفردات: (ثخن).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة، ص: 70.
(5) الرّاغب، المفردات: (عرض).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأحداثُ العظيمةُ تربّي الأمَّةَ العظيمةَ وحادثةُ الأسرى بابٌ من أبوابِ التَّربيةِ الحضاريَّةِ

تُبيِّنُ الآياتُ أنَّه ما استقام لنبيٍّ من الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام أنْ يَكونَ لَهُ أَسْرى من أعدائهِ الذين يريدون به وبدعوته شرًّا، حتى يبالغَ في قتلِهم، وإنزالِه الضَّرباتِ الشَّديدةَ عليهم إذلالًا للكفرِ وإعزازًا لدين اللّه، تريدون - أيُّها المؤمنون - بأخْذِكم الفداءَ من أعدائِكم الأسرى عرضَ الدُّنيا ومتاعَها الزّائِلَ، وحطامَها الَّذي لا ثباتَ لَهُ، واللّه تعالى يريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ، واللّه تعالى عَزيزٌ لا يُغالب، بل هو الغالبُ على أمرهِ، حَكيمٌ في كلِّ ما يأمرُ بِه، أو ينهى عنهُ.

ولولا حكمٌ مِنَ اللّه تعالى سبقَ منهُ في الأزلِ ألّا يعذِّبَ المخطِئَ على اجتهادِه، أو ألّا يعذِّبَ قومًا قبل تقديمِ البيانِ إليهم، ولولا كلُّ ذلك لأصابَكم بسببِ ما أخذْتُم مِنَ الفداءِ قبل أن تؤمروا بِه عَذابٌ عَظيمٌ لا يُقادرُ قدرهُ في شدَّته وألمِه، ولقد عفوتُ عنكم - أيُّها المؤمنون - فيما وقعتُم فيهِ من تفضيلِكم أخْذَ الفداءِ من الأسرى على قتلِهم، وأبحْتُ لكم الانتفاعَ بالغنائِم، فكلوا ممّا غنمتُم من أعدائِكم حلالًا لذيذًا هنيئًا لا شبهةَ في أكلهِ ولا ضررَ، واتَّقوا اللّه في كلِّ أحوالِكم بأن تخشوهُ، وتراقبوهُ، ولذا غفرَ لكم ما فرطَ منكم، وأباحَ لكم ما أخذتموهُ من فداءٍ، وتابَ عليكم توبةً صادقةً[1].

وقد جاء في سببِ نزولِها: ما رواهُ الإمامُ مسلمٌ عن عمرَ بن الخطّاب، قال: "فَلَمّا أسَروا الأُسارَى؛ قالَ رَسولُ اللّه ﷺ لِأبي بَكْرٍ وعُمَرَ: «ما تَرَوْنَ في هَؤُلاءِ الأُسارَى»؟ فقالَ أبو بَكْرٍ: يا نَبيَّ اللّه! هُم بَنو العَمِّ والعَشيرَةِ، أرَى أنْ تَأْخُذَ منهم فِدْيَةً، فَتَكونُ لَنا قوَّةً على الكُفّارِ، فعَسَى اللّه أنْ يَهْديَهُم لِلْإِسْلامِ، فقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «ما تَرَى يا ابنَ الخَطّابِ»؟ قُلْتُ: لا، واللّه! ما أرَى الَّذي رَأى

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/157 - 160.

أبو بَكرٍ، ولَكِنّي أرَى أنْ تُمَكِّنّا، فنَضْرِبَ أعْناقَهُم، فتُمَكِّنَ عَليًّا مِن عَقيلٍ، فيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وتُمَكِّنّي مِن فُلانٍ (نَسيبًا لِعُمَرَ)، فأضْرِبَ عُنُقَهُ، فإنَّ هَؤُلاءِ أئِمَّةُ الكُفْرِ وصَناديدُها. فهَوِيَ رَسولُ اللّه ﷺ ما قالَ أبو بَكْرٍ، ولَم يَهْوَ ما قُلْتُ، فلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ جِئْتُ، فإذا رَسولُ اللّه ﷺ وأبو بَكْرٍ قاعِدَيْنِ يَبْكِيانِ، قُلْتُ: يا رَسولَ اللّه! أخْبِرْني مِن أيِّ شَيْءٍ تَبْكي أنْتَ وصاحِبُكَ، فإنْ وجَدْتُ بُكاءً؛ بَكَيْتُ، وإنْ لَم أجِدْ بُكاءً تَباكَيْتُ لِبُكائِكُما، فقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «أبْكي لِلَّذي عَرَضَ عَلَيَّ أصْحابُكَ مِن أخْذِهِمُ الفِداءَ، لَقد عُرِضَ عَلَيَّ عَذابُهُم أدْنَى مِن هذه الشَّجَرَةِ» - شَجَرَةٍ قَريبَةٍ مِن نَبيِّ اللّه ﷺ وأنْزَلَ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ فأحَلَّ اللّه الغنيمةَ لهم"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ:

حكمُ الأسرِ تختلفُ أحكامُهُ باختلافِ أحوالِهِ

قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استئنافٌ نحويٌّ جديد يتعلَّقُ بقضيَّةٍ أخرى من قضايا غزوةِ بدرٍ، يدورُ حولَ حكم اتِّخاذ الأسرى، وما جرى في ذاك من أحداثٍ، وقد جاءتْ تفصيلاتُ تلك الحادثةِ في كتبِ السّيرةِ والحديثِ، والاستئنافُ لبيانِ الأسرِ وحكمِه في الإسلامِ بحسبِ أحوالِه.

نكتةُ استعمالِ أداةِ ﴿مَا﴾:

إفادةُ عمومِ النَّفيِ في أعمِّ أحوالِ الأسرِ قبلَ الإثخانِ

أداةُ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ حرفُ نفيٍ، واستُعمل دونَ غيرِه من أدواتِ النَّفي؛ لبيانِ العمومِ، وليقوى دخولُه على ﴿كَانَ﴾، فيزيدُهُ عمومًا، وهذا من نفي أعمِّ أحوالِ الأسرِ إلّا حالَ الإثخانِ في الأرضِ، وقد دلَّ هذا النَّفيُ سواء

---

(1) مسلم، الصّحيح، كتاب: الجهاد والسّير، باب: الإمدادِ بالملائكةِ في غزوةِ بدر، وإباحةِ الغنائِمِ، رقم: (1763).

أكان داخلًا على جملة اسميَّةٍ أم فعليَّةٍ على معنى: أنَّهُ لا يصحُّ أن يكونَ هذا الأمرُ، ولا يتصوَّرُ حصولُه بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿كَانَ﴾:

توجيهُ احتمالِ (كان) لأن تكونَ ناقصةً أو تامَّةً

يحتمل أن تكونَ ﴿كَانَ﴾ ناقصةً، واسمُها المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، وخبرُها مقدَّمٌ عليهِ، وهو ﴿لِنَبِيٍّ﴾، ويحتملُ أن تكونَ تامَّةً، بمعنى: ما صحَّ أو ما استقام، ويكونُ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن يَكُونَ﴾، واسمها المؤخَّرُ ﴿أَسۡرَىٰ﴾، وخبرُها المقدَّمُ ﴿لَهُۥٓ﴾ فاعلًا لها، ويتعلَّقُ بها الجارُّ والمجرورُ ﴿لِنَبِيٍّ﴾[1].

وَجْهُ إدخالِ (كان) على لفظِ (يكون)

"كيفَ حسُنَ إدخالُ لفظةِ ﴿كَانَ﴾ على لفظة ﴿يَكُونَ﴾ في هذهِ الآيةِ؟ والجواب: قولهُ: ﴿مَا كَانَ﴾ معناه النَّفيُ والتَّنزيهُ، أي: ما يجبُ وما ينبغي أن يكونَ له المعنى المذكورُ، ونظيره قولُه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ [مريم: 35]"[2].

اجتماعُ الخبريَّةِ والإنشاءِ في تركيبٍ واحدٍ:

خبرٌ مُشرَبٌ بالإنشاءِ

صيغةُ ﴿مَا كَانَ﴾ قد تأتي خبريَّةً كما هو في هذه الآيةِ، وفيها رائحةُ الإنشاءِ، فمعنى ﴿مَا كَانَ﴾: لا يصلحُ؛ لأنَّ هذا الكلامَ جاء تمهيدًا للعتابِ؛ فتعيَّنَ أن يكونَ مرادًا منه ما لا يصْلُح من حيثُ الرَّأيُ والسّياسةُ، وقد تأتي إنشائيَّةً صريحةً بمعنى النَّهي، كما في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ [الأحزاب: 53][3].

تعيينُ مقصودِ الخطابِ:

يدخلُ في خطابِ النَّبيِّ خطابُ أصحابه

الخطاب في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وإن كان ظاهرُه للنَّبيِّ ﷺ إلا أنَّه موجَّهٌ للمسلمين

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/169.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/164.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.

الذين أشاروا عليه بالفداء؛ لأنَّهُ ما فعل رسولُ اللّه إلّا ما أمرهُ اللّه بهِ من مشاورةِ أصحابه، ويكون المعنى العامُّ لها: نفيَ اتِّخاذ الأسرى عن استحقاق نبيٍّ لذلك الكونِ[1].

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

النَّبيُّ هو القُدوةُ في التَّكاليفِ العامَّةِ والفرديَّةِ

الغرضُ البيانيُّ من تقديم قولِه: ﴿لِنَبِيٍّ﴾ وقوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ هو العنايةُ بالمخاطَبِ ورعايته بهذهِ الآيةِ من ناحيةٍ، والعنايةُ بتنفيذِ الأحكامِ المرادةِ من هذا النَّفي من ناحيةٍ أخرى، فما نُفيَ عن النَّبيِّ ﷺ من شأنه أن يُنفى عن أتباعهِ ضرورةً، وتنزيلُ الأتباعِ منزلتَهم الحقيقيَّةَ في اتِّباع النَّبيِّ ﷺ أمرًا ولفظًا.

غرضُ تنكيرِ كلمة: ﴿لِنَبِيٍّ﴾:

الإشارةُ إلى قِدَمِ حُكمِ الأسرِ

نُكِّرت كلمةُ (نبيّ) للتَّعميم، إشارةً إلى أنَّ هذا الحكم سابقٌ وقديمٌ في حروب الأنبياء[2]، ولا يختصُّ بنبيِّ هذه الأمَّةِ وحدَها.

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّةِ:

قرأ أبو عمرٍو وأبو جعفر ويعقوبُ بالتّاء الفوقيَّةِ: ﴿تَكُونَ﴾، وقرأ الباقون بالياء التَّحتيَّةِ ﴿يَكُونَ﴾[3]، فحجَّةُ من أنَّثَ الفعلَ ﴿تَكُونَ﴾ مراعاةً للَّفظ ﴿أَسۡرَىٰ﴾ على تأنيثِها المجازيِّ، وحجَّةُ من ذكَّرَ الفعل ﴿يَكُونَ﴾ تقدُّمُ الفعلِ، وتذكيرُ أسرى، وللفصل بين الفعل والفاعل بتقدُّمِ شبه الجملةِ الجارِّ والمجرورِ[4].

معنى اللّامِ وفائدتُها:

أفادتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ معنى الاستحقاقِ، أي: ما كان لنبيٍّ أن يتَّخذ أسرى على وجه الاستحقاقِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.
(4) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 313.

التَّكاملُ الدّلاليُّ بين القراءاتِ المتواترةِ مَهْيَعُ التَّمام

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّة:

قرأ أبو جعفرٍ بضمِّ همزةِ ﴿أَسۡرَىٰ﴾ وفتحِ السّينِ وألفٍ بعدَها: ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ وهي جمع أسير، وقرأ الباقون بإسكان السّين من غيرِ ألف: ﴿أَسۡرَىٰ﴾ وهي جمعُ أسيرٍ أيضًا[1]، فحجَّةُ من قرأ: ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ أنَّها جمعُ أسيرٍ، مثل: كسالى، وحجَّةُ من قرأ: ﴿أَسۡرَىٰ﴾ أنّها جمعٌ مثل مرضى، ويرى ابنُ خالويه أنَّ الحجَّةَ لمن أثبتها، أي: الألف ﴿أُسَٰرَىٰ﴾: أنَّه أرادَ: جمعَ الجمعِ، والحجَّةُ لمن طرحها أنَّه أراد جمعَ أسيرٍ[2]، وهذا الرَّأي أليقُ من التَّفريقِ بين هذيْن الجمعيْنِ تفريقًا في المعنى المرادِ من كلٍّ منهما دونَ أن يستندَ إلى دليلٍ راجحٍ.

تصويرُ تمكُّنِ النَّبيِّ من الأرضِ دليلُ طلبِ ذلك

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

الإثْخانُ: الشِّدَّةُ والغِلَظَةُ في الأذَى، يُقالُ: أَثْخَنَتْهُ الجِراحَةُ، وأَثْخَنَهُ المَرَضُ؛ إذا ثَقُلَ عليه، وقد شاعَ إطْلاقُهُ على شِدَّةِ الجِراحَةِ على الجَريحِ، وقد حَمَلَهُ بَعْضُ المُفَسِّرينَ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ على معنى الشِّدَّةِ والقوَّةِ، فالمعنى: حَتَّى يَتَمَكَّنَ في الأَرْضِ، أيْ: يَتَمَكَّنَ سُلْطانُهُ وأَمْرُهُ، وقد عبَّرَ بالإثخانِ لا بالتَّمكُّنِ لما في اللفظِ من معنًى حسّيٍّ بليغٍ، فالإثخانُ يُصوِّرُ تمكُّنَ النَّبيِّ وسلطانَهُ في الأرضِ، وفيها استعارةٌ بليغةٌ، حيثُ شبَّهَ الأرضَ بالشَّيءِ الذي يُثخن، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ.

تقريرُ المعاني المعنويَّةِ بالألفاظِ الحسيَّةِ أقوى أثرًا ودلالةً

بلاغةُ الكناية:

معنى قولِه: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: حتَّى يقوى ويشتدَّ ويبالغ ويقهر؛ لأنَّ الملكَ والدولة إنَّما تشتدُّ بالقتل؛ لأنَّ كثرتَهُ توجب قوَّةَ الرُّعب وشدَّةَ المهابة، وذلك يمنعُ من الجراءةِ ومن الإقدامِ على ما لا ينبغي، فلا مانعَ من حملِها على الكنايةِ عن إدخالِ الرُّعبِ على قلوبِ الكافرين المناوئين لدينِ الحقِّ، والتَّمكُّنِ في الأرضِ.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

(2) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 173.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

عتابُ المقرَّبين رِفعةٌ وإهمالُهم معرَّةٌ

قولهُ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مسوقٌ للعتابِ[1]، فالجملةُ تعليلٌ للنَّهي المستفادِ من الجملة السّابقةِ، بتقدير سؤالٍ: لِمَ كان العتابُ على اتِّخاذ الأسرى؟ والخطابُ هنا أيضًا للفريقِ الَّذين أشاروا بأخذِ الفداءِ[2]، عند من يرى أنَّ النَّبيَّ ﷺ غيرُ مشمولٍ بالعتاب، وتقدَّمَ في معاني المفرداتِ أنَّ عرضَ الدُّنيا هو متاعُها الزّائلُ من مالٍ وغيرِه.

براعةُ الخبرِ في تعيينِ الأغراض:

إنكارُ أن يطلبَ المؤمنُ الدُّنيا بأعمالِ الآخرة

يرى ابنُ عاشورٍ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ قد يكون مستعملًا في معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ، "والمعنى: لَعَلَّكُم تُحِبّونَ عَرَضَ الدُّنْيا، فإنَّ اللّه يُحِبُّ لَكُمُ الثَّوابَ وقوَّةَ الدّينِ؛ لِأنَّهُ لَوْ كانَ المَنْظورُ إليه هو النَّفْعَ الدُّنْيَويَّ؛ لَكانَ حِفْظُ أنْفُسِ النّاسِ مُقَدَّمًا على إسعافهم بالمالِ، فلَمّا وجَبَ عليهم بَذْلُ نُفوسِهم في الجِهادِ، فالمعنى: يوشِكُ أنْ تَكونَ حالُكُم كَحالِ مَنْ لا يُحِبُّ إلّا عَرَضَ الدُّنْيا، تَحْذيرًا لهم مِنَ التَّوَغُّلِ في إيثارِ الحُظوظِ العاجِلَة"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المضارِع:

بيانُ خطورةِ إرادةِ المخاطَبين إن استمرّوا عليها، ورحمةِ اللهِ بما يُريدُه لعبادِه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ صيغة المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ وقولِه: ﴿يُرِيدُ﴾ لاستحضارِ الإرادتين، وبيانِ خطورةِ إرادةِ المخاطَبين إنِ استمرّوا عليها، وتجدُّدِ حالها فيهم، واشتمالِها على معنى الإنكارِ المستمرِّ، ما دامتِ الإرادةُ متجدِّدةً، وبيانِ رحمةِ اللّهِ تعالى بإرادته المستمرَّةِ في رعايةِ المؤمنين، فهو يُريدُ لهم الدّارَ الآخرةَ، بصرفِ إرادتِهم عن عرضِ الحياةِ الدُّنيا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/76 - 77.

المالُ عارضٌ سريعُ الزَّوالِ لا يلبثُ كثيرًا

سرُّ التَّعبيرِ بعرضِ الدُّنيا عن المالِ:

المقصودُ بقولِه: ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ المالُ، وإنَّما سُمّيَ عَرضًا؛ لأنَّ الانْتِفاعَ به قَليلُ اللُّبْث، فأشْبَهَ الشَّيْءَ العارِضَ؛ إذِ العُروضُ مُرورُ الشَّيْءِ وعَدَمُ مُكْثِه؛ لأنَّهُ يَعْرِضُ لِلْماشينَ بدونِ تَهَيُّؤٍ، والمُرادُ عَرَضُ الدُّنْيا المَحْضُ، وهو أخْذُ المالِ لِمُجَرَّدِ التَّمَتُّعِ به، وإنَّما ذُكِرَ مَعَ الدُّنْيا المُضافُ، ولَم يُحْذَفْ: لِأنَّ في ذِكْرِه إشْعارًا بِعُروضِه وسُرْعَةِ زَوالِه[1].

أثرُ المشاكلةِ في توجيهِ الأنْظارِ لما يَجبُ أنْ تتعجَّلَ فيه

بلاغةُ حذفِ الموصوفِ:

ذكرتِ الآيةُ ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ صفةَ الدُّنيا والآخرة، ولم تذكرِ الموصوفَ، وهو (الحياة)، وذلك لبيانِ أنَّ إرادتَهم كانَتْ متَّجهةً للعاجلة، وللإشارةِ إلى أنَّهم كانوا متعجِّلين في قرارِهم بشأنِ الأسرى، كما أنَّ ذكرَ ﴿عَرَضَ﴾ قد أغنى عن ذكرِ الموصوفِ، وحُذِفَ الموصوفُ فيما يتعلَّق بالآخرة؛ للمشاكلة، فلمّا اتَّجهتِ الأنظارُ إلى الدُّنيا تعجُّلًا؛ نبَّههم على ضرورةِ التَّعجُّلِ في إرادةِ الآخرة.

مسلكُ الإيجازِ أعمُّ دلالةً وأشملُ معنًى

بلاغةُ حذفِ المضافِ:

الإرادةُ في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بمعنى: المحبَّةِ، أي: تُحبّون منافعَ الدُّنيا، واللّه يحبُّ ثوابَ الآخرة أو عملَها، فحُذف المُضافُ، وأُقيمَ المُضافُ إليه مكانَهُ[2] إيجازًا لدلالةِ المقام عليه، وليكونَ الكلامُ أشملَ وأعمَّ، فيدخلُ فيه كلُّ ما يصلحُ أن يكونَ فيه من المنافعِ والمصالحِ ومظانِّ الخيرِ ونحوِه ممّا يحرصُ عليه النّاس.

إقناعُ المعاتَبين بدقائقِ الأسلوبِ دليلُ الارتقاءِ بلمحِ الإشاراتِ

نكتةُ المشاكلةِ في أسلوبِ المقابلةِ:

عبَّرَ بإرادتهِ ﷻ مقابلَ إرادتِهم في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ على سبيلِ المشاكلةِ[3]، وفي الجملةِ استعمالٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/76.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 817.

(3) المشاكلة: هي ذكر الشّيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، تحقيقًا أو تقديرًا. ينظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 178.

لأسلوبِ المقابلةِ بين ما يريدونَهُ، وبين ما يريدُهُ اللّه لهم؛ لبيانِ الفرقِ بين الإرادتين، ولما تُفيدُه المقابلةُ من مزيدِ العتابِ، وهو يدلُّ على أنَّ المخاطَبين المعاتبين يلمحونَ دقائقَ النَّظمِ، ويأخذونَ رقائقَ العتابِ.

نوعا الواوِ ومعناهما:

الواوُ بين العطْفِ والحالِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ إمّا أن تكونَ عاطفةً للجملةِ على السّابقةِ، وإمّا أن تكونَ للحاليَّةِ على معنى: تريدون متاعَ الدُّنيا، والحالُ أنَّ اللّه يريدُ لكم ثوابَ الآخرة.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

توكيدُ معنى إرادةِ اللهِ للمؤمنينَ الدّارَ الآخرةَ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ يُفيدُ تقويةَ الحكمِ وتوكيدَه على قولٍ، وقد يُفيدُ التَّخصيصَ بالقرائنِ على قولٍ آخرَ، ولا قرينةَ صارفةً هنا إلى التَّخصيص؛ فاللّه تعالى يريدُ لهم ثوابَ الآخرةِ، والنَّبيُّ ﷺ كذلك.

بلاغةُ التَّذييلِ:

اجتماعُ وصفِ العزَّةِ والحكمةِ دليلُ إرادتِهما للأمَّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ معطوفٌ على جملةِ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ عطفًا يؤذنُ بأنَّ لهذين الوصفيْن أثرًا في أنَّهُ يريدُ الآخرةَ، فيكونُ كالتَّعليل، وهو يفيدُ أنَّ حظَّ الآخرةِ هو الحظُّ الحقُّ ولذلك يريده العزيزُ الحكيمُ[1]، واجتماعُ الوصفين ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ له دلالةٌ سياقيَّةٌ؛ فصفةُ عزيزٍ تؤذنُ بأنَّهُ يغلِّبُ أولياءَهُ على أعدائه، وصفةُ حكيم تعني: أنَّه يعلمُ ما يليقُ بكلِّ حالٍ، ويخصِّصه بها، كما أمرَ بالإثخانِ، ونهى عن الفداءِ حين كانت الشَّوكةُ للمسلمين، وخيَّرَ بينه وبين المنِّ بقولِه: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد ﷺ: 4] لمّا تحوَّلت الحالُ، وصارت الغلبةُ للمؤمنين[2]، واجتماعُ هذين الوصفين دليلُ إرادتِهما للأمَّة، فيجبُ أن يسعى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.

المؤمنونَ إلى الامتثالِ بخلق العزَّة والحكمة، وأن يكونَ لهما حضورٌ راسخٌ في سلوك الأمَّةِ الحضاريِّ.

فائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

إظْهارُ قوَّةِ إيمانِ المخاطَبين وتقواهم لربِّ العالمين

قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الكلامَ السّابقَ يؤذنُ بأنَّ مفاداةَ الأسرى أمرٌ مرهوبٌ تُخشى عواقبُه، فيستثيرُ سؤالًا في نفوسِهم عمّا يترقَّبُ من ذلك لو حدث[1]، فيأتي الجوابُ بما أفادتْه الآيةُ، وفائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ أنَّه يُظهر مدى قوَّةِ إيمانِ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ وخوفِهم من عذابِ اللّهِ تعالى.

بلاغةُ استعمالِ ﴿لَّوۡلَا﴾ في بيانِ فنِّ المدْح بما يُشبِهُ الذَّمَّ:

غايةُ المَدح في دفعِ القدحِ واستحالةِ التَّعذيب

﴿لَّوۡلَا﴾ في قولِه: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ حرفُ امتناعٍ لوجودٍ متضمِّنةٌ معنى الشَّرطِ، ومعناه: لولا قضاءٌ من اللّه سبق لكم - أهلَ بدرٍ - في اللَّوح المحفوظ، بأنَّ اللّه مُحِلٌّ لكم الغنيمةَ، وأنَّ اللّه قضى فيما قضى أنَّه لا يُضِلُّ قومًا بعد إذ هداهم حتَّى يبيِّنَ لهم ما يتَّقون[2]، وأنَّه قضى ألّا يمسَّكم عذابٌ منه تعالى أي: عدمُ مسِّ العذابِ بسببِ سبقِ قضاءِ اللّهِ، فشرطُ العذاب انتفاءُ قضاءِ اللّهِ، والانتفاءُ مستحيلٌ، فالعذابُ مثلُه، وهذا في غاية المَدْح، ودفعِ القدْح عن أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ ففيه فنُّ المدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكتابِ:

الإشارةُ إلى الإعجازِ الغيبيِّ

ذهبَ المفسِّرون إلى تفسيرِ الكتابِ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ بقضاءِ اللّهِ تعالى وجاءَ التَّعبيرُ بالكتابِ دون القضاءِ في هذا السّياقِ لبيانِ أنَّه قضاءٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/3897 - 3900.

ثابتٌ مكتوبٌ قبلَ وقوعِ الحدَثِ، ففيه إعجازٌ غيبيٌّ في الإخبارِ عن قضاءِ اللّه لما سيحدُث، هذا ما يقتضيه ظاهرُ النَّظمِ الكريم، أو أن يُحمل على الكنايةِ عن رحمةِ اللّه بعبادِه، فيما يقتضيه قضاؤُهُ في مثل هذه الأحوالِ، وحملُ الكلامِ على ظاهرِ النَّظمِ أسعدُ مسلكًا.

غرضُ تنكيرِ الكتابِ:

اجتماعُ غرضِ النَّوعِ والتَّعظيمِ للحالِ والمآلِ

لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ مبتدأٌ نكرةٌ سوَّغَ مجيئَهُ نكرةً وقوعُهُ بعدَ ﴿لَّوۡلَا﴾، وخبرُهُ محذوفٌ، تقديرُهُ: موجودٌ أو كائنٌ، وتنكيرُهُ إمّا أن يكون للتَّنويعِ والإبهام[1]، وإمّا للتَّعظيمِ على اعتبارِ أنَّ هذا الكتابَ مسندٌ إلى اللّه، والمعنيان متآيلانِ، فنوعُ الكتاب خاصٌّ بما هو غيبيٌّ، وهو عظيمٌ في ذاتِه وفي مصدرِه وفي مآلِه.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

اكتسابُ معنى التَّشريفِ والتَّعظيمِ للكتابِ

أفادت ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ معنى الابتداءِ، أي: كتابٌ وقضاءٌ نازلٌ من اللّهِ تعالى وقد أعطى هذا الحرفُ زيادةَ تشريفٍ وتعظيمٍ للكتابِ، في كونِه من عندِ اللّهِ تعالى.

بلاغةُ استعمالِ القيد:

عظمةُ الأحكامِ المتعلّقةِ بالأمَّةِ وشؤونِها الحضاريَّةِ والدَّعويَّةِ

ذُكِرَ قيدُ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقُدِّمَ في قولِه: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، فلم يقل: (لولا كتابٌ سبق من اللّه)، ولم يقل: (لولا كتابٌ سبقَ لمسَّكم)، ونكتةُ ذلك بيانُ عظمةِ القضاءِ المتعلِّق بهذا الحدثِ، وأنَّه قضاءٌ عظيمٌ، ارتبطَ بحدثٍ عظيمٍ اختصَّ بالأمَّةِ وشؤونِها، فقضاءُ اللّه لم يتوقَّف على خصوصيَّةِ هذا الحدثِ، بل تعدّاهُ في مسيرةِ الأمَّةِ في علاقتِها مع الآخر، وفي الدَّعوة إلى دينِ اللّه تعالى بما يُعطي التَّصوُّرَ الصَّحيحَ قوَّةً ورحمةً في العلاقةِ مع الآخرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

بيانُ تداركِ رحمةِ اللهِ بعبادِه

اختيرتْ مفردةُ ﴿سَبَقَ﴾ دونَ مرادِفاتِها من مثل: (مضى)؛ للفتِ الأنظارِ إلى أنَّ هذا القضاءَ مقصودٌ، ولبيان تداركِ رحمةِ اللّهِ بهم، فكأنَّ الكتابَ مسابقٌ كتابًا آخر، وهو الذي سبقَ، ولو لم يسبقْ لوقع المكروهُ، ففيه زيادةُ امتنانٍ على عبادِ اللّه تعالى وفيه استعارةٌ بتشبيه الكتابِ بسابقٍ، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة، بحذفِ المشبَّه به، وذكر لازمٍ من لوازمِه، وهو لفظُ ﴿سَبَقَ﴾.

فنُّ التَّعليلِ:

سبقُ القضاءِ علَّةُ النَّجاةِ

في قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فنٌّ جليلٌ من فنون البلاغةِ يُسمَّى (فنَّ التَّعليل) وهو أن يريدَ المتكلِّمُ ذكرَ حكمٍ واقعٍ أو متوقَّعٍ، فيقدِّمُ قبل ذكرِه علَّةَ وقوعِه؛ لكونِ رتبةِ العلَّةِ التَّقدُّمَ على المعلولِ، وسبقُ الكتابِ من اللّه هو العلَّةُ في النَّجاةِ من العذاب[1]، وهذا فنٌّ بديعيٌّ مُشْرَبٌ بأساليبِ الإقناعِ الخطابيِّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾:

العذابُ المدفوعُ بالكلّيّةِ هو أدنى الدَّرجاتِ

أفادتِ اللّامُ الدّاخلةُ على جوابِ الشَّرطِ ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾ التَّوكيدَ، واختيرتْ مفردةُ المسِّ دون (أصابكم) لبيانِ أنَّ المدفوعَ وقوعُه، هو أدنى درجاتِ الفعلِ، وهو المسُّ، فلمّا نفى المسَّ؛ نفى ما هو أعلى منه بخلافِ العكس، وهذا كذلك كاشفٌ عن رحمةِ اللّهِ وامتنانِه بعبادِه، ورعاية حال أولئك المؤمنين، فإنَّ المدفوعَ عنهم هو مسٌّ لا أعظمَ منه، فالمعنى: أنَّه لو أرادَ أن يوقِعَ عليهم عذابًا؛ لكانَ مجرَّدَ مسٍّ، فكيف وقد دُفِعَ بالكلّيَّة.

وإضافةُ المسِّ للمفعولِ فيهِ زيادةُ امتنانٍ للمخاطَبين بغرضِ استشعارِ رحمةِ اللّهِ بهم.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/170.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّة:

الجمعُ بين معنى التَّعليلِ والظَّرفيَّةِ

أفادَ حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِه: ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ معنى التَّعليلِ، وفائدةُ استعمال هذا الحرفِ دونَ حرفِ التَّعليل، فلم يقلْ: (لمسَّكم بسببِ ما أخذْتم)؛ تصويرُ حجم ما وقعوا فيه من العملِ، فأفاد معنَيَيْنِ اثنينِ، الأوَّل: الظَّرفيَّةَ أصالةً، والآخر: التَّعليلَ تبَعًا.

دلالةُ إيثارِ ذكرِ ﴿فِيمَآ﴾ على الاسمِ الموصولِ الظّاهر:

استعملَ السّياقُ ﴿فِيمَآ﴾ الموصولةَ دونَ الاسمِ الظّاهر، فلم يقل: (في الذي أخذتم) للإبهامِ والإجمالِ في عدمِ إرادة التَّعيينِ، لاسيَّما أنَّ الأخْذَ تبايَنَت درجاتُه بين الآخذين، فكانَ استعمالُ ﴿فِيمَآ﴾ أدقَّ مسلكًا في تحقيقِ المرادِ.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

وتقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ على الفاعلِ ﴿عَذَابٌ﴾ للتَّنبيهِ على علَّة مسِّ العذابِ، فهي من بابِ تقديمِ السَّببِ على النَّتيجة.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾:

عمومُ العذابِ وعظمتُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٌ﴾ لإفادةِ التَّعميم؛ ليشملَ عذابي الدُّنيا والآخرة، ولا مانع في ذلك من حمْلِه على إفادةِ التَّعظيم أيضًا، فإنَّ عذابَ اللّهِ عظيمٌ، ووصفهُ بقولِه: ﴿عَظِيمٞ﴾ قرينةٌ على ذلك.

دلالةُ الفاءِ بين الفصيحةِ والتَّفريع:

ما بعد الفاءِ مرتبطٌ بما قبلَها تسبُّبًا ونتيجةً تشريعيَّةً

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ إمّا أن تكونَ فصيحةً، فقد أفادتِ الفاءُ معنى التَّسبيب، والسَّببُ محذوفٌ، والمعنى: قد أبحْتُ لكم الغنائمَ، فكلوا ممّا غنمتم[1]، وإمّا أن تكونَ تفريعيَّةً آذنت بتَفْريعِ هذا الكَلامِ على ما قَبْلَهُ، وفي هذا التَّفْريعِ وجْهانِ:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225.

أحَدُهُما: الَّذي جَرَى عليه كَلامُ المُفَسِّرينَ أنَّه تَفْريعٌ على قَوْلِه: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، أيْ: لَوْلا ما سَبَقَ مِن حِلِّ الغنائِم لَكُمْ؛ لَمَسَّكُم عَذابٌ عَظيمٌ، وإذْ قد سَبَقَ الحِلُّ، فلا تَبِعَةَ عَلَيْكُم في الانْتِفاعِ بمالِ الفِداءِ.

والآخر: أنَّ التَّفْريعَ ناشئٌ على التَّحْذيرِ مِنَ العَوْدِ إلى مِثْلِ ذلك في المُسْتَقْبَلِ، وأنَّ المعنى: فاكْتَفوا بما تَغْنَمونَه، ولا تُفادوا الأَسْرَى إلى أنْ تُثْخِنوا في الأرْضِ، وهذا هو المُناسِبُ لِإطْلاقِ اسْمِ الغَنيمَةِ هُنا إذْ لا يَنْبَغي صَرْفُهُ عَنْ مَعْناهُ الشَّرْعيِّ.

وَلَمّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ امْتِنانًا عليهم بأنَّه صَرَفَ عنهم بَأْسَ العَدوِّ، فرَّعَ على الامْتِنانِ الإذْنَ لهم بأنْ يَنْتَفِعوا بمالِ الفِداءِ في مَصالِحِهِم، ويَتَوَسَّعوا به في نَفَقاتِهِم، دونَ نَكَدٍ ولا غُصَّةٍ، فإنَّهُمُ اسْتَغْنَوْا به معَ الأَمْنِ من ضُرِّ العَدوِّ بفَضْلِ اللّه، فتِلْكَ نِعْمَةٌ لَم يَشُبْها أذًى[1].

غرضُ الأمرِ وفائدتُه:

توكيدُ حلِّ الغنائمِ والامتنانِ على ذلك

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ﴾ ليس منشأً لإباحةِ الغنائمِ؛ إذ قد سبقَ تحليلُها قبلَ يومِ بدرٍ، ولكنَّه أمرٌ يفيدُ التَّوكيدَ واندراجَ مالِ الفداءِ في عمومِ ما غنمتُم؛ إذ كان قد وقعَ العتابُ في الميْلِ للفداءِ، ثمَّ أقرَّه الرَّسولُ ﷺ[2] ووجهُ التَّوكيدِ دفعُ مَظِنَّةِ تحريمِ الانتفاعِ من الغنائمِ، وهو يُفيدُ الامتنانَ أيضًا[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالأكلِ عن الانتفاعِ:

دفعُ أدنى تحرُّزٍ عن الانتفاعِ بالغنائم

عُبِّرَ عنِ الانتفاعِ الهنيءِ بالأكلِ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾؛ لأنَّ الأكلَ أقوى كيفيّاتِ الانتفاعِ بالشَّيءِ، فإنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/78 - 79.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/354.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.

الآكلَ ينعمُ بلذاذةِ المأكولِ، وبدفعِ ألمِ الجوعِ عن نفسِه، ودفعُ الألمِ لذاذةٌ، ويكسبهُ الأكلُ قوّةً وصحّةً، والصحّةُ مع القوّةِ لذاذةٌ أيضًا[1]، ولأنَّ الأكلَ يُضارعُ الانتفاعَ في كثرةِ الاستعمالِ، ويدلُّ على كمالِ الانتفاعِ بالشَّيءِ المأكولِ، ولمّا كان السّياقُ في توكيدِ إباحةِ الانتفاعِ بالغنائمِ، عبَّرَ بالأكلِ ليدلَّ على هناءةِ الآكلِ دونَ أدنى تحرُّزٍ.

معنى (مِن) ودلالتُها:

تقسيمُ الغنائمِ يرجعُ للإمامِ بما تقتضيهِ المصلحة الشَّرعيَّةُ

معنى (من) في قولِه: ﴿مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ التَّبعيضُ، فإنَّ المخاطَبين لم يَمتلكوا جميعَ الغنائمِ، بل حازوا بعضَها، و(ما) موصولة، وجملتها ﴿غَنِمۡتُمۡ﴾ وشبهُ الجملةِ من الجارِّ والمجرورِ ﴿مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿فَكُلُواْ﴾[2]، وفائدةُ التَّعبيرِ بما الموصوليَّة، بيانُ عمومِ الانتفاعِ، وتركُ التَّقسيمِ لما تقتضيه المصلحةُ الشَّرعيَّةُ.

فائدةُ وصفِ الحلالِ بالطَّيِّب:

دفعُ الشُّبُهاتِ وتأكيدُ التَّرغيبِ بِهِ

قولُه تعالى: ﴿حَلَٰلٗا﴾ منصوبٌ على الحالِ من المغنومِ، أو صفةٌ للمصدرِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: أكلًا حلالًا[3]، و﴿طَيِّبٗاۚ﴾ صفةٌ له، والحلالُ لا يكونُ إلّا طيِّبًا، ففائدةُ وصفِه بالطَّيِّب تأكيدُ التَّرغيبِ[4]، ودفعُ توهُّمِ إباحتِه مع وجودِ شيءٍ من الحرجِ، فكان الوصفُ دافعًا لأيِّ شبهةٍ أو وسوسةٍ في غيرِ محلِّها.

دلالةُ العطفِ بين الجمل:

الـشَّـريـعـةُ ضبطتْ أفعالَ المكلَّفين باختلافِ مراتبِهم

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ على الأمرِ بالأكلِ في قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾، لضبطِ الانتفاعِ بالغنائمِ بما فيه طاعةُ اللّه، فإنَّ المؤمنين متفاوتونَ بالانتفاعِ ما بين متساهلٍ ومتشدِّدٍ، فكما أنَّ التَّعبيرَ بالأكلِ، ووصفَ الحلالِ بالطَّيِّب يضبط المتشدِّدَ، فإنَّ الأمرَ بالتَّقوى إرشادٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.

للمتساهلِ في أكلِ الغنائم، فكان السّياقُ جامعًا بين الطَّرفين، ليُحقِّقَ المقصودَ بما لا مزيدَ عليه، كما أنَّ التَّقوى تنفعُ الطَّرفين؛ لأنَّ التَّقوى هي شكرُ اللّه على ما أنعمَ من دفع العذابِ عنهم[1].

بلاغةُ التَّذييلِ:

الأمـرُ بالتَّقوى سياجُ المستقبلِ، والمـغـفـرةُ والرَّحمةُ بلسمُ الماضي

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إمّا أن يُحملَ على الاستئنافِ البيانيِّ، على تقديرِ سؤال: لمَ كان الأمرُ بالتَّقوى؟ فالجملةُ تعليليَّةٌ للأمرِ بالتَّقوى[2]، وإمّا أن يُحملَ على تركِ العطف بينها وبين الجملةِ الَّتي سبقتها لاختلاف الخبريَّة والإنشائيَّةِ، ويعبِّرون عنه بكمالِ الانقطاع أو الانفصال لغايةٍ، وقد بيَّنَ الشَّيخ عبدُ القاهرِ الجرجاني، وهو يتحدَّثُ عن محاسن (إنَّ) أنَّها تتولَّى ربطَ الجملةِ بما قبلَها ربطًا يُحتاجُ فيهِ أنَّك إذا حذفتها؛ قد تحتاجُ إلى الفاءِ في أكثر الأوقاتِ لتسدَّ محلَّها[3]، فكأنَّ الجملةَ السّابقة حالٌ حُذِفَ (إنَّ) منها، يكونُ تقديرُها: واتَّقوا اللّه، فإنَّ اللّه غفورٌ رحيم، فأغنى وجودُها عن فاءِ التَّفريع.

وتقديرُ الكلام: واعلموا أنَّ اللّه غفورٌ على ما أقدمتُم عليه في الماضي من الزلَّةِ، رحيمٌ لما أتيتم من الجرم والمعصيَةِ، فقولهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ إشارةٌ إلى المستقبلِ، وقوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إشارةٌ إلى الحالةِ الماضيةِ[4].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسّ والإصابة:

يدلُّ المسُّ على جسِّ الشَّيء باليد[5]، فيكونُ الإدراكُ معهُ بحاسَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 408 - 411.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/167.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).

المسُّ: هو مطلقُ المباشرة والملامسةِ، والإصابةُ: بلوغُ المقصودِ على وجهٍ بليغٍ

اللَّمسِ، ويكنَّى به أحيانًا عن النِّكاحِ، والجنونِ والأذى[1]، واستُعملت هذه الكلمةُ في حوارِ إبراهيمَ عليه السلام مع أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝٤٥﴾ [مريم: 45] وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنعام: 49] وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٨﴾ [هود: 48].

وأمّا الإصابةُ؛ فأصلُ جذرِها (صَوَبَ) وهو يدلُّ على نزولِ شيءٍ واستقراره[2]، والصوابُ عند الرّاغبِ الأصفهانيِّ يُقال على وجهَين: أحدهما: باعتبارِ الشَّيءِ في نفسِه، فيقالُ: هذا صوابٌ؛ إذا كان في نفسِه محمودًا بحسبِ مقتضى الشَّرعِ والعقل، والثاني: يُقالُ باعتبار القاصدِ؛ إذا أدرك المقصودَ بحسبِ ما يقصدهُ، فيقال: أصابَ كذا؛ إذا وجدَ ما طلب[3].

وقد أُسندَ فعلُ الإصابةِ في القرآن الكريم إلى العذابِ والمصائبِ في مواضعَ عديدةٍ، منها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 165]، فدلَّ الاستعمالُ اللُّغويُّ والقرآنيُّ لهاتَين اللَّفظتينِ على اشتراكهما في المباشرةِ والملامسةِ لمن وقعَ فعلُهما عليه، مع تمكُّنِ (الإصابة) وتغلغلِها على وجهٍ أبلغَ مِنَ (المسّ)؛ لذا فإنَّ في استعمالِ إبراهيمَ عليه السلام للمسِّ في حوارِهِ مع أبيهِ نوعًا من المؤانسةِ والتَّطميعِ والتَّرغيب في دعوة أبيهِ لدينِه، لا يسدُّ مسدَّها أن يقولَ له: (يصيبك عذابٌ من الرحمن)، وكذلك في سورةِ الأنعام جاء قوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنعام: 48 -

---

(1) الرّاغب، المفردات: (مسس).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).

(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).

49] ناسب ذكرَ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ وتقديمَها على ﴿وَمُنذِرِينَ﴾، وتقديمَ الإيمان والصَّلاحِ، ونفيَ الخوفِ والحزنِ عن المؤمنين أن يُعبِّرَ عن وقوع العذابِ بالمسِّ دونَ غيرِه، وكذلك نجدُ مثلَ هذا الإيناسِ والتَّطميع في سورة هود: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: 48] فالسَّلامُ والبركاتُ والإمتاعُ نِعَمٌ عظيمةٌ من الله إزاءَ لفظِ المسِّ المسندِ للعذابِ.

بينما نجدُ في استقصاءِ مواقعِ إصابة العذابِ في القرآن الكريم أنَّ هذا العذابَ قد أحاط بأصحابهِ من ناحيةٍ، وروعي فيه وقوعهُ وفقَ الصَّوابِ على مقتضى العقلِ والشَّرعِ من ناحيةٍ أخرى، والله أعلمُ وأحكمُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـط بين أحكام الغنائم، وأحكام الأَسْرى، وكلاهما مشمولٌ بحكمة الإسلام ورحمته

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ ما يتعلَّقُ بشأن الأسرى مِن أخذ الفداءِ منهم، وكيف شقَّ عليهم أخذُ أموالِهم؛ جاءَت هذه الآيةُ لتستكمل الحديثَ عنهم بترغيبهم في الإسلام، وذلك بخطاب رسولِ اللّه ﷺ لهم مباشرة[1] لاستمالة قلوبهم، مُستَعطِفًا لَهُم مُرغِّبًا في الإسلام؛ بأنْ يَقولَ لَهُم كلمةً رحيمةً هاديةً، فقال سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾: الهمزَةُ والسّينُ والرّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى الحَبسِ والإمساكِ[3]، ومِنهُ: الأسيرُ وهو المسجونُ، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ [الإنسان: 8]، ويُجمَعُ على: أُسَراء، وأُسارَى، وأَسارَى، وأَسْرَى[4].

وأصلُ الأَسرِ: الشَّدُّ بالقَيدِ، وبذلك سُمِّي الأَسيرُ أسيرًا، ثُمَّ استُعمِلَ الأسيرُ في كُلِّ مَأخوذٍ، ولو لم يَكُنْ مَشدودًا بالقَيدِ[5].

2) ﴿قُلُوبِكُمۡ﴾: القافُ واللّامُ والباءُ تدورُ تصاريفُها على

(1) رضا، تفسير المنار: 10/87.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/333، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3197.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أسر).

(4) ابن سِيدَه، المُحكَم: (أسر).

(5) الرّاغب، المفردات: (أسر).

مَعنَيَيْنِ؛ أحدهما: خالِصُ الشَّيءِ وشريفُهُ، والآخر: ردُّ الشَّيء من جهةٍ إلى أُخرى[1].

والقُلوبُ جمعُ قَلبٍ، وقلبُ كلِّ شيءٍ: أفضلُهُ وأَخلَصُهُ، ومِنهُ سُمِّي قلبُ الإنسانِ قلبًا[2]، وتقول العرَبُ: جِئتُكَ بهذا الأمرِ قَلبًا، أي: مَحضًا لا يَشوبُه شيءٌ[3].

وذكَرَ بعضُ أهلِ العربيَّةِ أنَّ القَلبَ سُمِّي قلبًا؛ لِتَقَلُّبِهِ وكثرةِ تغيُّرِه[4]، ومنهُ قولُ الشّاعر:

ما سُمّيَ القَلبُ إلا من تَقَلُّبِهِ *** والرّأيُ يُصرَفُ والأَهواءُ أطوارُ[5]

ويَرِدُ القَلبُ في القرآنِ الكريم مُرادًا بهِ القوَّةُ الباطنةُ، كما في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، وهذا الإطلاقُ هو الغالِبُ، وكما في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، ويُعبَّر بالقلب عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرّوح والعلم والشّجاعة وغير ذلك[6].

3) ﴿وَيَغْفِرْ﴾: الغَينُ والفاءُ والرّاء تدلُّ أكثرُ تصاريفِها على معنى السَّترِ، ومِنهُ: الغَفْرُ؛ وهو السَّترُ[7]، وقال الرّاغب: "الغَفرُ: إلباسُ ما يَصونُه عن الدَّنسِ"[8]، وهو راجعٌ إلى معنى السَّترِ، والمغفرةُ شَرعًا: سَترُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عَنهُ[9]، وهذا هوَ المَعنَى المُرادُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أحكام مخاطبة الأسرى، وبيان أنَّ الكلمة الرّحيمة الهادية، روح دعوةِ الإسلامِ

في هذه الآية يقولُ اللّهُ تعالى لنبيِّه الكَريم: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِمَن

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(2) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (قلب).
(3) الخليل، العين: (قلب).
(4) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/373.
(5) هو عند الأزهريّ في تهذيب اللّغة: (قلب) بلا نسبةٍ.
(6) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(8) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(9) ابن عُثيمين، القول المفيد: 1/85.

أسرتُموهُم في بَدرٍ: لا تَأسَوا على ما أُخِذَ مِنكُم مِنَ الفِداء، إن يَعلَم اللّهُ تعالى في قلوبِكُم خيرًا وإسلامًا؛ يُؤتِكُم أفضلَ ممّا أُخِذَ مِنكُم مِنَ المالِ، ويصفَحْ لكم عَمّا اقترفتُموهُ مِن كُفرِكُم باللّهِ تعالى وقتالِكُم نبيَّهُ ﷺ، واللّهُ ﷻ غفورٌ لذُنوبِ عبادِهِ؛ إذا تابوا، رحيمٌ بِهِم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فَصلِ سياقِ الآيةِ عَمّا قَبلَهُ:

تطييبُ خواطرِ الأسـرى، من رحـمـة الإسلام فـي مـعـامـلـة الخصوم

فُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ عَمّا قَبلَهُ؛ لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ لَمَا شأنه أن يُسألَ عنه؛ فكأنَّ الآيةَ كانت بمنزلةِ الجوابِ عمّا يردُ في شأن الأسرى.

دلالة النِّداءِ بلفظ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

الإشـــارة إلى اسـتـحـضـارِ القلبِ والعقلِ عند الخطاب

المقصودُ منه أن يجمعَ النّبيُّ ﷺ قلبَه وعقلَه في خطابه لأسرى بدرٍ بأَمرٍ مُتعلِّقٍ بحالِ سرائِرِ بعضِ الأَسرَى، بعد أن كانَ الخطابُ مُتعلِّقًا بالتَّحريضِ على قتالِ المُشركِينَ، وما يتبَعُ ذلكَ مِن أحكام[2].

وقد دلَّ هذا النِّداء بهذه الصّيغةِ الّتي اشتملَت على كثيرٍ من عناصر التّوكيد؛ على أنَّ اللّه ﷻ يدعو رسولَه الكريمَ صلوات اللّه عليه وسلامه لتحمُّل أمورٍ ذاتِ شأنٍ وبالٍ عمومًا، وفي شأن أسرى بدرٍ خصوصًا، ولا سيَّما أنّ الحديثَ عنهم هو من مَكنوناتِ النُّفوس وجزيلِ وَعدِ اللّهِ ﷻ لِمَن في قلبِهِ الخَيرُ، فإنَّ هذا المذكورَ لَهُ شأنٌ خَطيرٌ وجليلٌ.

سرُّ اختصاصِ النِّداءِ بالحرف (يا):

بيان عظمة اللهِ ﷻ، وَعـظـمـة خِطابِهِ

اختصّ النداءُ بـ (يا) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ دون غيرها من حروف النِّداء؛ لأنّها أندى، ولا يُنادى اسمُ اللّه إلّا بها، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف غيرُها، ولأنّها في الأصل لِنداء البَعيدِ، ونداءُ اللّه

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/72، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/80.

ﷻ لرُسُلِه وأنبيائِه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخلوقينَ، فحريٌّ أن يكونَ بأداةِ النِّداء لِلبعيد.

وفي التَّعبيرِ بأداة النِّداء لِلبَعيد نِكاتٌ: **أُولاها**: بُعدُ ما بَينَ الخالِقِ والمَخلوقِ مِنَ المَكانة، **ثانيها**: أنَّه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ سُبحانَهُ، وهو مُقتَضٍ أعلى العلوِّ وأبعدَه، **ثالثها**: أنّها تُفيدُ التّوكيدَ المُؤذِنَ بأنّ الخطابَ الّذي يتلوها معنيٌّ به جدًّا.

سِرُّ (أيّ) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

جاءَ النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وفي ذَلكَ ضَربٌ مِن تَقويةِ النِّداءِ، ووَجهُ ذلكَ: أنَّ (أيّ) لا يُفهَمُ المرادُ بها إلّا باسم بعدَها يُزيلُ غُموضَها، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وذلكَ ضربٌ مِن ضُروبِ التَّوكيدِ.

الانتقالُ مِنَ الإبهام إلى الإيضاح والبيان

وفي اقترانِ (أيّ) بـ(ها) التَّنبيه: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأَصلِ يُرادُ به التَّنبيهُ، فاجتمَعَ في هذا النِّداءِ الخاصِّ تَنبيهانِ؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ مضمونِه وكبيرِ أهمّيَّتِه.

سِرُّ نِداءِ اللهِ تعالى نَبيَّهُ بالوَصفِ:

مِن طرائقِ القُرآنِ الكَريم في نداءِ النَّبيِّ ﷺ أن يُنادَى بالوَصفِ لا بالاسم، فلَم يَرِد في النَّظمِ القرآنيِّ قطُّ: (يا مُحَمَّدُ ﷺ)، وإنمّا يَرِدُ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41، 67]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وذلكَ لبيانِ رِفعَةِ قَدرِ النَّبيِّ ﷺ عِندَ ربِّه سُبحانَهُ[1]، وفيهِ أيضًا تَعليمُ العبادِ الأدبَ معَهُ ﷺ في المناداة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾، وأيضًا في تلقّي أوامر التّشريع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾.

عَظَمَةُ قَدرِ النَّبيِّ ﷺ عِندَ رَبِّه ﷻ

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بوَصفِ النُّبوّة:

في النِّداءِ بِوَصفِ النُّبوَّةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن

---

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 371.

إبرازُ منزلة النّبيِّ ﷺ الرّفيعة

﴿فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ دون الرّسالة، مع تحقيقِ الوصفَين لِمقصدِ بَيانِ منزلةِ النَّبيِّ ﷺ الرَّفيعَة؛ لكَونِ لفظِ النُّبوَّةِ مُشعِرًا بأنَّه عليه السلام مُنبَّأٌ مِنَ اللّهِ سبحانَه، وفي هذا إيماءٌ إلى التَّرغيبِ في التَّلقّي منه ﷺ؛ إذ إنَّ اللّه سُبحانَهُ قد أنبأَهُ بكلِّ جليلٍ مِنَ المعاني[1] يُزكّي أُمّتَه مع رفعِ مقدارِه وإتمامِ أنوارِه.

وممّا يُذكَرُ أيضًا أنّ التّعبيرَ بالنّبوّة يأتي في مقام ذِكرِ الأحداثِ حين يكون الأمرُ مُتعلِّقًا بالأسوةِ السّلوكيّة، أمّا إذا كان مُتعلِّقًا بتشريعٍ؛ فالمناسبُ ذِكرُ الرّسالة.

وممّا يؤكّدُ ذلك أنّ النّداءَ بالرّسالة ورد في قوله سبحانَه: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41، 67] في سورةِ المائدةِ، والمقامُ فيها مقامُ التّشريعات عمومًا، وما يتعلّقُ بأهل الكتابِ خصوصًا.

وأيضًا في سرِّ التّعبيرِ بالنّبوّة في هذا الموضع الإعلامُ بوضعِ حدٍّ فاصلٍ في التّعامل بينه ﷺ وبين المشركين؛ فالقرآن يريدُ هنا ترسيخَ علوِّ قدرِه بالوحي الشّريف الّذي أنبأَه اللّهُ به؛ فيتعاملون معه على أنّه محمّدٌ النّبيُّ بدلًا من محمّد القُرشيّ.

دلالةُ العُدولِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

النّبيُّ مُحمّدٌ ﷺ منفردٌ بالنُّبوّةِ، وَقتَ نُزولِ القرآنِ الكريمِ

عدلَ عنِ المخاطبة بالإضافة بأن يقولَ: (يا نبيَّ اللّه) إلى المُخاطَبة بالوصف المُعرَّف بـ (أل) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لِمَا تدلُّ عليه (أل) من استغراقِ خصائصِ وصفِ النّبوّة؛ فهو النّبيُّ الكاملُ، ولذلك اختُلِفَ في معنى اللّام في قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾؛ فمنهم مَن قال: اللّام في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لِلعَهدِ العِلميِّ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ.

ويجوزُ أن تكونَ اللّام لِلعَهدِ الحضوريِّ؛ أي: النَّبيُّ الحاضِرُ وَقتَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/333.

نزولِ هذا الخِطاب، ومِنَ المعلومِ أَن لا نَبيَّ في الأرضِ حيٌّ وقتَ نُزولِ هذا الخِطاب إلّا محمَّدٌ ﷺ.

والوَجهانِ متآيلانِ.

دلالةُ تكرارِ النّداءِ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

تهيئتُه ﷺ، لتحمُّل الصُّعوبات في قتاله مع المشركين

النَّاظرُ في الرُّبُع الأخيرِ من سورة الأنفال يجدُ تكرارَ النّداء بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآية - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ الآية - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية، وكلُّها في سياق الحديثِ عن مواجهة الرّسول ﷺ للمشركين، وما تحملُه هذه المواجهةُ من صعوباتٍ يحتاج النّبيُّ ﷺ فيها إلى رفعِ روحِه المعنويّةِ بكفاية اللّه له في مواجهة المشركين، وهذه الكفايةُ تجعلُه ﷺ على يقينٍ بنصر اللّه؛ لأنّ اللّه كافيه؛ لذلك أرادَ أن يُشرِّفَ المؤمنين بنيل شرفِ النّصر بتحريضهم على قتال المشركين، وذلك برفعِ روحِهم المعنويّة؛ بأنّ الإيمانَ يجعلُ الواحدَ منهم بعشرةٍ منَ الكفّار، وكان فضلُ اللّه على الرّسول والمؤمنين ظاهرًا؛ بأن هُزِمَ المشركون في بدرٍ، فقُتلَ منهم سبعون، وأُسِرَ منهم سبعون؛ فكان هذا النّداءُ الأخيرُ نداءَ المنتصر، حيث قال اللّهُ له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ قولَ ترحُّمٍ وتعطُّفٍ عليهم لترغيبهم في الإسلام، وكلُّ ذلك ولفظ النُّبوَّة تاجٌ على رأسه ﷺ يجعلُه عالي القدر عالي المكانة، وفيه بشارةٌ بنصره ﷺ ومَن معه مِنَ المؤمنين؛ لأنّ النّبوّةَ تعني العلوَّ والارتفاعَ، وهذا ما حقّقه اللّهُ لرسوله في غزوة بدرٍ.

سِرُّ خطاب الأسرى بواسِطَةِ النّبيِّ الأكرم:

اختيارُ مشركي مكّة أن يكونوا في زمرةِ الأعداءِ دون الأولياء

وُجِّه الخطابُ للأسرى عن طريق نَبيِّه ﷺ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، دونَ أن يوجِّهَ إِليهم الخطابَ أصالَةً؛ للتَّنبيهِ على عدَمِ أهليَّتِهم لخطابِ اللّه

تعالى بإبعادهم أنفسَهم عنِ الإيمان به وبرسوله ﷺ، وبما اختاروا لأنفسِهم الكَونَ مع أعدائِهِ دونَ الكَونِ مع أوليائِه[1].

وفيه إشارةٌ بأنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ هو المُبلِّغُ عن ربّه، وفي هذا إشارةٌ إلى إعلان نُبوَّته منَ اللّه؛ فهو النّبيُّ ﷺ آمنتُم به أم لم تؤمنوا.

اللهُ ﷻ هو الآمِرُ، ونبيُّه ﷺ هو المُبَلِّغ الأمين

دِلالةُ الأَمرِ في ﴿قُل﴾:

فِعلُ الأَمرِ ﴿قُل﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ جارٍ على أصلِهِ مِن إرادَةِ طلبِ الفِعلِ على وجهِ الإلزام؛ لِكَونِ الأَمرِ صادِرًا منَ اللّه ﷻ إلى نَبيِّه المأمورِ أصالةً بالبلاغِ عنه سُبحانَهُ.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ أصلَ بلاغِ الدّعوة بالقول؛ لأنّه يشتملُ على الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ والجدالِ بالّتي هي أحسن، وما يأتي بعد ذلك من وسائلِ الدّعوة فهو تابعٌ له.

إبرازُ المعاني في قَوالِبِ المَحسوساتِ، أَعلَقُ بالذِّهنِ وأقرَبُ إلى الفَهمِ

بَراعَةُ الاستِعارَةِ في جَعْلِ الأسرى في أيديهم:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ استعارَةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ الأسرى الّذينَ هُم في وثاقِ المُسلمينَ واستيلائِهِم بالشَّيءِ الّذي في أَيديهِم، وهُم قابِضونَ عليهِ[2]، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وفي ذَلكَ مِن بلاغةِ التَّصويرِ وإبرازِ المعاني في قالَبِ المحسوسِ ما يجعلُهُ مُستَقِرًّا في النَّفسِ.

بيان العموم والشّمول في الاسم الموصول

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مَن﴾:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، آثرَ فيه التّعبيرَ بـ ﴿مَن﴾ الّتي تفيدُ العمومَ والشّمولَ وعدمَ الاختصاص؛ لِتصدُقَ على كلِّ الأسرى الّذين وقعوا في قبضة يدِ المسلمين؛ بخلاف (الّذي)

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/333.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/36، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/80.

فإنها لا تؤدّي هذا العموم، بل تنصرفُ إلى شخصٍ مُعيّن أو إلى مجموعةٍ معيّنة، وهذا غيرُ مُراد.

دلالةُ إيثارِ الظَّرفيّة بحرف ﴿فِيٓ﴾:

التمكُّن التّامّ في الجملة

آثرَ التّعبيرَ بالظّرفيّة ﴿فِيٓ﴾ الّتي تدلُّ على تمكُّنِ المظروف في الظّرف، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ هؤلاء الأسرى المشركين قد صاروا في قبضةِ المؤمنين وتحت تصرُّفهم؛ فلا يخرجون عن مُرادهم؛ لأنّهم في قبضة أيديهم، وتمكّنوا منهم تمكُّن الظّرف منَ المظروف، بخلاف الباء فلا تؤدّي هذا المعنى؛ لأنّها قد تكون بمعنى السّببيَّة أو الإلصاقِ، وليس هذا هو المُراد.

وممّا يؤكّدُ ذلك (اللّام) في قوله: ﴿لِّمَن﴾؛ فإنّها تدلُّ على التّأكيد.

سِرُّ العُدولِ في ﴿أَيۡدِيكُم﴾:

النّبيُّ ﷺ هو القائدُ، وأُمّتُهُ تَبَعٌ له

ورَدَ التَّعبيرُ بـ ﴿أَيۡدِيكُم﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ مع أنّ مُقتَضَى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لِمَن في يَدَيك)؛ لتقدُّم ذِكرِ ﴿قُل﴾ الّذي يدلُّ على المفرد، وإنّما جُمِعَت باعتبارِ تَعَدُّدِ المالِكينَ[1]، وللإيماءِ إلى أنَّ الأصلَ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه خطابٌ لأُمَّتِه تبعًا، ونظيرُهُ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق: 1].

دِلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾:

بيان أَثَرِ مَعاني الحُروفِ في إبرازِ حَقائِقِ القُرآنِ الكَريمِ

(مِنْ) - في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ - بيانيَّةٌ؛ لتقدُّم الاسم الموصولِ (مَنْ)، وهوَ مُبهَمٌ يفتقرُ إلى بيانٍ، فجاءَ هذا البيانُ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(الأسرى) في القراءات القرآنيّة:

النّاظرُ في آيات القرآنِ الكريمِ يجدُ أنّه استعملَ الجمعَ ﴿أَسۡرَىٰ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/80.

الأَسرَى منْ لَم يُشدَّ عليهمُ الوَثاقُ، والأُسَارى منْ شُدَّ عليهمُ الوَثاقُ

في قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، وفي الآية الّتي معنا: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، و﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَـٰرَىٰ﴾، وهذه المواضع رُويَت بأكثر من قراءة، تدورُ حولَ ﴿أَسۡرَىٰ﴾ و﴿أُسَـٰرَىٰ﴾؛ فموضعُ سورة البقرة قرأه حمزة ﴿أَسۡرَىٰ﴾ بغير ألفٍ، وباقي القرّاء قرؤوا ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ بالألف وضمّ الهمزة، وفي سورة الأنفال وردَ الخلافُ في قوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، حيث قرأَ أبو جعفر ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ بضمّ الهمزة وفتح السّين وألفٍ بعدها، وفي قوله: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ قرأ أبو عمرٍ وأبو جعفر (من الأُسارى)، وباقي القرّاء ﴿أَسۡرَىٰ﴾ مع أنّهما من مادّة (أسر) الّتي تدلُّ على الحبس والإمساك[1].

وعلى هذا يرِدُ السّؤالُ في وجه الفرق بين ﴿أَسۡرَىٰ﴾ و﴿أُسَـٰرَىٰ﴾؟

النّاظر في كتب اللّغةِ يجدُ أنّها تشيرُ إلى أنّ الأسيرَ يُجمَعُ على (الأَسرى)، و(الأَسارى)، و(الأُسارى) جمع الجمع، ولا يزيدون على ذلك.

بخلاف استعمالِ القرآنِ الكريمِ فإنّه فرَّقَ بينهما مراعاةً للوصف أو للحالة الّتي يكونُ عليها الأسير؛ لأنّ حالتَه تدورُ بين وصفين: محكوم عليه بالأسر أو في قبضة مَن أسَرَه؛ لأنّ (أسير) على وزن (فعيل)، جمْعُهُ على (فَعْلَى) نحو: (قتيل) و(قَتلَى)، وأصلُ ذلك إنّما يكون لما كان بمعنى مفعول؛ كالقتيل بمعنى المقتول، فصار في حكم الإنفاذ؛ لأنّه لمّا أُصيبَ بالأسر صار كالجريح والقتيل؛ لذلك يُطلَقُ لفظُ الأسرى على الّذين في يد أعدائهم.

أمَّا (أُسارى) على وزن (فُعالى)؛ فقد كَثُرَ استعمالُها في معنى الضّعف والتّعب، نحو: كُسالى وسُكارى، وفي هذا توصيفٌ لحالة

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/218 - 277.

الأسرى الموثَقين في القَيد، وقد أصابهم الضّعفُ والإعياءُ، ولذلك يجدُ النّاظر في مَوضعِ سورةِ البقرة تأكيدًا لذلك، حيث عبّر عنهم بقوله: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ﴾؛ فقوله: ﴿يَأۡتُوكُمۡ﴾ دليلٌ على أنّهم ليسوا في يد أعدائهم، بل أتوا قومَهم في حالةٍ من الضّعف والإعياءِ، بخلاف كلمة ﴿أَسۡرَىٰ﴾ فتدلُّ على أنهم في يد أعدائِهم، وفي قبضةِ مَن استولى عليهم، وهنا توصيفٌ لحالة أسرى مشركي مكّةَ الّذين كانوا في يدِ النّبيِّ ﷺ وأصحابه.

والمدُّ في (الأُسَارَى) يومئ إلى شدَّةِ الأَسرِ أكثَرَ من لفظِ (الأسرَى).

وعلى هذا فالأسرى وصفٌ يُطلَقُ على الّذين في يد أعدائهم عمومًا، والأُسارى وصفٌ يُطلَقُ على الّذين في القيد، وبذلك تتكاملُ القراءتان في وصف حالةِ الأسيرِ حُكمًا وواقعًا[1].

سِرُّ تَعليقِ الشَّرطِ بـ(إنْ):

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميع المَعلوماتِ، من أوضح المُسَلَّمات

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ(إنْ) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ مع أنَّ الأصلَ في (إنْ) دلالَتُها على الشَّكِّ بوقوعِ مدخولِها، ومِنَ المعلوم مِنَ الدّين بالضّرورةِ أنَّ عِلمَ اللّه سُبحانَهُ بكلِّ شيءٍ قطعيٌّ مُتحقّق، وإنَّما اختيرَ حرفُ الشَّرطِ (إنْ) باعتبار متعلِّق العِلم لا باعتبارِ العِلم ذاتِه، والمَعنَى: أنَّ ثبوتَ الخَيرِ في قُلوب هؤلاءِ الأَسرَى لَيسَ مقطوعًا بِهِ، وإن كانَ اللّهُ سُبحانَهُ عالِمًا بِهِم حالًا ومآلًا.

دلالَةُ عبارة ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾:

عِلمُ اللهِ تعالى، يُبديه ولا يَبتديه، وهو المحيط بكلّ شيءٍ علمًا

يجوزُ أَن يُرادَ بالعِلم في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ ظهورُ عِلمِهِ للنّاس[2]، وهوَ العِلمُ الّذي يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعقابُ، وذلك لأنَّ العِلمَ ضَربانِ:

---

(1) ابن أبي مريم، المُوضِح في وجوه القراءات وعِلَلِها: 1/288، ومحمّد الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 298 - 299، ومحمَّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 464 - 465.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/356.

أحدُهُما: عِلمٌ بالشَّيء قَبلَ وُجودِهِ.

والآخرُ: عِلمٌ بالشَّيء بعدَ وُجودِهِ[1].

وكلا العِلْمَين ثابتٌ للّه تعالى، إلّا أنَّ الأوّلَ - وهو العِلمُ السَّابق - لا يَترَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ؛ حتَّى يُختَبَرَ النّاس، ويُمتَحَنوا، وأمّا العِلمُ بالشَّيءِ بعدَ وجودِهِ فهذا هوَ العِلمُ الّذي يترتَّبُ عليهِ ثوابٌ وعقابٌ، وهو المرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾، وفي هذا دليلٌ على إقامة الحُجّة عليهم، وأنّ ما يحكمُ اللّهُ به على عباده هو دليلٌ على علمه الأزليّ.

دلالةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ (الله):

عَظَمَةُ عِلمِ اللهِ سُبحانَهُ، وإحاطَتُهُ بجميعِ العلمِ وأدقِّهِ وأشمله

عُرِّفَ المُسنَدُ إليهِ بالعَلَميَّة (اللّه) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾؛ للإيماء إلى عَظَمَةِ عِلمِ اللّهِ سُبحانَهُ لإحاطته بجميعِ المعلوماتِ، مَهما دقَّتْ، كالعِلمِ بما في مكنوناتِ القُلوبِ؛ لأنّ لفظَ الجلالةِ يجمعُ كلَّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ[2].

دلالةُ إسنادِ الخيرِ في قلوب الأسرى:

ادِّعاءُ الإيمانِ باللّسانِ، لا يكفي لحصولِ الخيرِ للإنسان

أسندَ الخيرَ في قوله تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ إلى علم اللّه؛ للإشارة إلى أنّ ادّعاء الإيمانِ باللّسانِ فقط لا يكفلُ لهم الحصولَ على الخير، ولا يُوصِّلُهم إلى مغفرة اللّه عمومًا، وفي شأن أسرى بدر خصوصًا؛ فعليهم أن يُخلِصوا للّه في إيمانهم حتّى ينالوا عظيمَ فضلِه وثوابِه.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾:

تمكُّن الخير من القلب، مفتاحٌ للولوج إلى حقائق الإيمان

آثرَ التّعبيرَ بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ دون غيرها منَ الحروف، نحو: (مِن) كأن يقول: (من قلوبكم)؛ لأنّ الظّرفيّة هي الأبلغُ في هذا السّياق، حيثُ دلَّت على تمكُّنِ علم اللّهِ بما في

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن (منَ الحجرات إلى الحديد)، ص: 424.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/333.

قلوب الأسرى؛ فأصبحَت قلوبُهم مظروفةً يحيطُ علمُ اللّه بها من كلِّ الجوانب، بخلاف (مِن) فلا تؤدّي ذلك؛ لأنّها قد تكون بمعنى الابتداء، والمعنى: ابتداء ما في قلوبكم، وهذا غيرُ مُراد.

سرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿قُلُوبِكُمْ﴾:

القلوبُ محلُّ نظرِ الله تعالى، ومَوْئِلُ الإيمان واليقين

آثرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿قُلُوبِكُمْ﴾ دون غيرها كالصّدور والأفئدة؛ لأنّ القلوبَ هي مناطُ التّكليف ومحلُّ المؤاخذةِ، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾ إلى غير ذلك منَ الآيات الّتي تؤكّد على أنّ القلبَ هو محلُّ القوّة العاقلةِ والمساءلة، بخلاف الصّدور والأفئدةِ. وللإشارة أيضًا إلى استحقاق الجزاءِ على ما في القلب؛ لأنّه موضعُ الإيمان، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنُّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، ولمّا كان المرادُ هنا (إن يعلمِ اللّهُ وجودَ الإيمان في قلوب الأسرى)؛ عَبَّر بالقلوب.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ (الخير) عن (الإيمان):

الخيرُ عطاء الله الدُّنيويُّ والأخرويّ، وهو منه تعالى ممدود غير محدود

قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، آثرَ فيه التّعبيرَ بالخير مع أنّ المرادَ به الإيمان؛ لأنّ الخيرَ هو الثّمرة النّاتجةُ عنِ الإيمان، ولأنّ الكلَّ يرغبُ فيه بحكم الفطرةِ السَّويّة، ولأنّه يجمعُ الكمالاتِ في الدّنيا وفي الآخرة؛ ففي الدّنيا يُطلَقُ على العقلِ والعدلِ والفضلِ، والشّيء النّافع، ويُطلَقُ على المال أيضًا، وهذا واضحٌ في كثيرٍ من آيات القرآنِ قال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، وفي الآخرة يُطلَقُ على الفلاح والفوز بالجنّة، ولمّا كان لفظُ الخيرِ بهذه المثابة المادّيَّةِ والمعنويَّةِ؛ آثر التّعبيرَ به، وضدُّه الشّرُّ، وكأنّ القرآنَ يوجّههم إلى أنّ ما هم عليه من قتالِ رسولِ اللّه ﷺ، ومنَ البقاءِ على الكفر هو الشّرُّ كلُّه؛ فعليهم أن يرغبوا عنه إلى الإيمان باللّه ورسوله؛ لأنّه الخيرُ كلُّه[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (خير).

كرمُ الله لا حدَّ له، كما لا حدَّ لكماله

سِرُّ تَنكيرِ لفظ ﴿خَيۡرًا﴾:

نُكِّرَ ﴿خَيۡرًا﴾ مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا﴾؛ للدِّلالَةِ على التَّقليلِ؛ أي: إِنْ يعلَم اللّهُ في قلوبِكُم شيئًا مِن تقواهُ الّتي تَحمِلُ على الإيمانِ الّذي هوَ رأسُ كلِّ خيرٍ، ولو كان قليلًا؛ لأنّ القليلَ مِن تقواه يقبلُه اللّهُ، ويضاعفُ ثوابَه، ولذلك فيه إشارةٌ إلى عظيمِ فضلِ اللّهِ ﷻ حيثُ يجزي على العملِ اليسيرِ بالثَّواب الجليلِ(1).

عطاءُ الله ليس كعطاء أحدٍ، فهو المعطي بلا حدٍّ

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاء في: ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالإيتاء دون الإعطاء في قوله: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا﴾؛ للدّلالة على وجود فرقٍ بين عطاءِ البشرِ وعطاءِ ربِّ البشرِ؛ فعطاءُ البشرِ محدودٌ وقليلٌ، وقد يكون عن كراهيةٍ وعدمِ حبٍّ، قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النجم: 34]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: 29] بخلاف عطاء ربِّ البشرِ؛ فهو كثيرٌ لا حدَّ له، ونفعُه عظيمٌ في الدّنيا والآخرة، ويعطيه لخَلْقه حبًّا لا عن كراهية، لكلِّ ذلك عبَّر عنه بالإيتاء ليَحُثَّهم على الدّخول في الإسلام لينالوا الخيرَ كلَّه، وهذا ما وقع مع العبّاس بن عبد المطلب، كما تذكرُ بعضُ الرّوايات أنّه لمّا دفعَ فداءَه وفداءَ أولادِ أخويهِ أعطاه اللّه خيرًا ممّا أُخِذَ منه في الدّنيا أضعافًا مُضاعفةً، وفي الآخرة يرجو غفرانَ ذنبه وعفوَ ربِّه.

تكرار لفظ (خيرًا) في السّياق، ليشملَ خيرَي الدّنيا والآخرة

دلالةُ تكرارِ لفظِ ﴿خَيۡرًا﴾:

كرّرَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿خَيۡرًا﴾ مع سَبْق ذِكره في قوله تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا﴾؛ لاختلاف المعنى في كلٍّ منهما؛ ففي الأولَى يُرادُ به الإيمان، وفي الثّانية يُطلَقُ على الخير المادّيِّ والمعنويّ؛ فيُطلَقُ على المال في الدّنيا وعلى الجنّة في الآخرة، يؤكّدُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/334.

ذلك ما جاء عن العبّاس ﷺ قال: "عوّضني الله عن أربعين أوقيّة أربعين عبدًا في الغزوات، وأعطاني زمزمَ، وما أحسبُ أنّ لي بها جميعَ مالي"[1]، ولم يقفِ الأمرُ عند العبّاس بل شملَ جميعَ مَن آمنَ بعد ذلك، وغزا مع النّبيِّ ﷺ؛ فأصابَ منَ الخير، وآتاه اللّهُ تعالى مع ذلك الإيمانَ والإخلاصَ، ومَن قُتِلَ منهم في الجهاد أُعطِي الشّهادةَ وفضلها عظيم[2].

سرُّ التّعبيرِ بعبارة ﴿أُخِذَ مِنكُمۡ﴾:

الأخذُ حَوزُ الشّيء وتحصيله، وهو تناولٌ بقوّة

آثرَ التّعبيرَ بالأخذ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ دون غيره؛ لأنّ الأخذَ معناه حَوْزُ الشّيء وتحصيله، وفي هذا إشارةٌ إلى قوّة المسلمين وتمكُّنهم من هؤلاء الأسرى؛ لأنّهم صاروا في قبضةِ أيديهم، وفيه ترهيبٌ للمشركين، وإضعافٌ للرُّوح المعنويّةِ عندهم الّتي تؤدّي بطبيعة الحال إلى إضعافِ القوّة البدنيّة، وفيه بشارةٌ للمسلمين بالغَلَبَة على المشركين.

سرُّ التّعبير بالماضي ﴿أُخِذَ مِنكُمۡ﴾:

تأكيد دلالة الماضي على الوقوعِ والتّحقُّقِ

عبّرَ بالماضي للدّلالة على تحقُّق وقوعِ الأخذِ من أسرى بدر سواءٌ كان الأخذ مادّيًّا أو معنويًّا.

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾:

الفديةُ لا تكون مِن جميع الأسرى

عبّرَ بقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ للدّلالة على التّبعيض، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ هذا الأخذَ يمكنُ أن يكونَ من بعض الأسرى الّذين يمتلكون إعطاءَ الفدية، وأمّا الّذين لا يمتلكون الفديةَ ولا أعطى قومُهم عنهم، كان المنُّ عليهم منَ الله ورسوله، وفي هذا إشارةٌ إلى رحمته ﷺ وسماحة هذا الدّين.

(1) كما جاء عند أبي زهرة، وهرة التفاسير: 6/3198 .

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3198.

دِلالَةُ حَذفِ مَفعولِ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾:

حَذْفُ المَعمولِ مُؤذِنٌ بالعُمومِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وذَلِك قصدٌ لإرادةِ العموم؛ لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بذلك؛ والمَعنَى: يغفِرَ لَكُم ذنوبَكُم جميعًا.

بلاغةُ العطفِ بلفظ (الواو):

الإسلامُ أَعظَمُ سَبَبٍ لِتَحصيلِ المَغفِرَةِ

في عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ على قولِه سُبحانَهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ أسلوبُ تَرَقٍّ بذِكرِ الشَّيءِ، ثُمَّ تعقيبه بما هو أعظمُ[1]؛ وذلك إذا كانَ المرادُ بـ ﴿خَيۡرٗا﴾ من قولِه تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا﴾: الخلَفَ في الدُّنيا[2]، فيكونُ عطفُ المغفِرَةِ عليه تَرَقّيًا مِنَ الجزاءِ الدُّنيويِّ إلى الجزاءِ الأُخرَويِّ، وهو أعلى وأرقى.

وإن كانَ المرادُ بـ ﴿خَيۡرٗا﴾ الإسلامَ الّذي يُلقيهِ اللّهُ ﷻ في قلوبِهِم، فيكونُ العَطفُ مِن عَطفِ المسبَّبِ على السَّبَبِ؛ إذِ الإسلامُ أَعظَمُ سببٍ لتحصيلِ المَغفِرةِ، ومَن فاتَهُ الإسلامُ انتفَت عنه المَغفِرَةُ قطعًا.

دلالَةُ مجيءِ جوابِ الشّرط جملةً خبريّة:

ملمح حضّ الأَسرى على الدُّخولِ في الإسلامِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ جُملَةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جُملَةِ الشَّرطِ؛ أنَّه يُنظَرُ إليها باعتبارِ جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كان جوابُها إنشاءً فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ خبرٌ، فالجملَةُ خبريَّةٌ.

وهذا الخبَرُ جارٍ على أصلِه في إفادَةِ المخاطَبينَ ما لا عِلمَ لَهُم بِهِ قَبلُ، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ فيه حضًّا وتحريضًا للأَسرى

(1) التَّرقّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُردَفَ بما هو أبلغُ مِنه. يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجُمان، ص: 135.
(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/261.

على الإيمانِ[1]، فهو بهذا الاعتبارِ مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ. والمعنيانِ المذكوران لا تَنافيَ بينَهُما؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

سِرُّ اختيارِ المغفرةِ في ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالمغفرة في قوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لأنّها تحملُ معنى السّترِ لكلِّ ما أسلفتموه من كفرٍ وجحودٍ وقتالٍ للمسلمين، وفي هذا تحريضٌ لهم على الإسلام؛ لأنّ اللّه ﷻ يمتنُّ عليهم بإعطائهم شيئًا غير قابلٍ للتّعويض، وهو المغفرةُ، وذلك من فضلِ اللّهِ ورحمتِه.

المغفرةُ كلُّها سترٌ، ورحمة، وغفران الله يشمل التّائبين برُمَّتهم

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾:

عبّرَ بالفعل المضارع الّذي يدلُّ على التّجدُّد والحدوثِ؛ فكلّما أحدثَ العبدُ ذنبًا أوجدَ اللّهُ له مغفرةً، هذا على العموم، ويدخلُ فيه أسرى بدرٍ على الخصوص إنْ هم ندموا على ما فعلوا من قتال المسلمين، ورضوا باللّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبسيّدنا محمّد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وفيه بشارةٌ بأنّ بابَ المغفرة مفتوحٌ لا يُغلَقُ حتّى تطلعَ الشّمس من مَغربِها.

مغفرةُ الله مُتجدِّدةٌ للعبد، بتجدُّد توبته للمعبود

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿لَكُمۡۚ﴾:

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿لَكُمۡۚ﴾ لمزيدٍ منَ العنايةِ والاختصاصِ بأسرى بدرٍ، وإن كانتِ المغفرةُ عامّة للكلِّ، إلّا أنّ اللّه أرادَ أن يُطيِّبَ خواطرَهم بهذا التّخصيص لينزعَ ما في قلوبهم من غلٍّ وحقدٍ على المسلمين، وليُذهبَ القلقَ عنهم بما قدّموا من أفعالٍ سيِّئة.

التّخصيص دليلُ العنايةِ الإلهيّة، والرّعايةِ الرّبانيّة

نُكتةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمار:

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظّاهِرِ أن يَردَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وهو غفورٌ رحيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكرِ الاسمِ الأحسَنِ (اللّه) في قولِه: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾، وعُبِّرَ عنه سُبحانَهُ بعدَها بالضَّمائرِ، فلمّا جيءَ إلى هذا

تفخيمُ صِفَتَي المَغفِرَةِ والرَّحمَةِ، لعظمة الله وعزّته وجلاله

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3197.

المَوضِعِ أُظهِرَ ذلكَ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والنُّكتَةُ في ذلكَ: تعظيمُ شَأنِ الوَصفَينِ اللَّذَينِ دَلَّ عليهما اسما اللّهِ: الغَفورُ والرَّحيمُ؛ وهُما المغفِرَةُ والرَّحمةُ، فَفُخِّمَ حالُهُما وقدرُهما؛ إذ هُما صادِران ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بصيغَتَي (فعول) و(فعيل):

اللهُ ﷻ كَثيرُ المَغفِرَة، وعَظيمُ الرَّحمَةِ ممّا يشمل خلقه وكونه

في بِناءِ اسمَي اللّهِ تعالى (غَفورٍ) و(رحيم) مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على صيغتي المبالَغَةِ دِلالَةٌ على قوَّةِ المغفرَةِ وسعَةِ الرَّحمَةِ وكثرَتِهما، فبناءُ المبالَغَةِ يقتضي قوّةَ المغفرةِ وكثرتَها، ومستعمَلٌ باعتبارِ كثرَةِ المخاطَبينَ، وعِظَمِ المغفرَةِ والرَّحمَةِ باعتبارِ واحدٍ مِنهُم[1].

بَلاغَةُ التَّذييلِ في آخر الآيَة:

التَّأكيد على صفة المغفرة بعدَ التَّأسيس لها

جاءَ هذا التَّذييل للتّأكيدِ على صفةِ المغفرةِ بعدَ التّأسيس لها في قوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وعلى أنّ هذا التّذييلَ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جارٍ مَجرَى المَثَلِ؛ لِاستقلالِهِ وعَدَمِ افتِقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المُرادِ، وفيهِ إيماءٌ إلى عِظَمِ مغفرةِ اللّهِ تعالى لَهُم؛ لأنّه كثيرُ الغفرانِ كثيرُ الرّحمةِ بعبادِهِ[2].

سرُّ تقديمِ المغفرةِ على الرّحمةِ:

زوالُ المَرهوبِ مُقدَّمٌ على تحصيل المطلوب

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه قُدِّمَتِ المغفرةُ على الرّحمة؛ لأنّ المغفرةَ سلامةٌ والرّحمةَ غنيمةٌ، والسّلامةُ تُقدَّم على الغنيمة، وممّا يُذكَرُ في سرِّ تقديمِ المغفرةِ على الرّحمةِ أنّه من باب تقديم السَّبب على المُسبَّبِ؛ فإنّ المغفرةَ سببٌ في الرّحمة، وأيضًا لأنّ تقديمَ المغفرةِ على الرّحمةِ من بابِ تقديمِ التَّخلية على التَّحلية؛ فالمغفرةُ زوالُ المرهوبِ، والرّحمةُ تحصيلُ المطلوبِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/81.

❁ الفروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النَّبيُّ والرَّسولُ:

الرّسولُ يؤسّسُ الدّعوةَ، والنّبيُّ يُجدِّدُها ويلتزم بها

في الفرقِ بين النَّبيِّ والرَّسولِ أقوالٌ كثيرَةٌ[1]، أصحُّها: أنَّ النَّبيَّ مَن أُوحِيَ إليه بشَرعٍ، وأُرسِلَ إلى قوم موافقينَ له، وهذا مُرادُ مَن قال: إنَّ النَّبيَّ يُوحَى إليهِ بشَرعِ مَن قَبلَهُ، فيكونُ مُجدِّدًا له، بخلاف الرَّسولِ فإنَّه مَن أُوحِيَ إليه بشرعٍ، وأُرسِلَ إلى قومٍ مخالفينَ لَهُ[2].

وعلى هذا: فالنَّبيُّ مؤكِّدٌ، والرَّسولُ مؤَسِّسٌ.

المَغفِرَةُ والرَّحمَةُ:

المغفرةُ طريقُ الرَّحمة، والرَّحمةُ سببٌ في المغفرة

الفَرقُ بينَهما من أَوجُهٍ: **أوَّلُها**: أنَّ أصلَ الغفرِ في اللُّغَةِ: السَّترُ[3]، وأصلَ الرَّحمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطفُ[4]. **ثانيها**: أنَّ أحدَهما سبَبٌ في الآخَرِ، ومال ابنُ عَرفة إلى أنَّ الرَّحمةَ سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ يوجبان عادةً سَترَ الزَّلَلِ[5]، إلّا أنَّ ظاهِرَ القرآنِ الكريم عكسُه؛ وهو كونُ المغفرة سببًا في الرَّحمة، كما قال اللّه تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النّمل: 46]. **وثالثُها**: أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَترِ ما مضى منَ الذُّنوب، والرَّحمةُ لِلعِصمة مِنها فيما يُستقبَلُ[6] إذا كان ذلكَ جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذنوبٌ حتَّى يُحتاجَ إلى العصمةِ منها. ورابِعُها: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المَكروه من آثار الذُّنوب، والرَّحمة فيها تحصيلُ المَطلوب[7].

(1) مصطفى السُّليمانيّ، الجواهر السُّليمانيَّة، ص: 27 - 28.
(2) ابن تيميّة، النُّبوّات: 2/714 - 715.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435 - 2/258.
(6) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلّتها، ص: 19.
(7) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.

العفوُ واقعٌ عند تركِ الواجبات، والمغفرةُ واقعةٌ عند فعلِ المُحرَّمات

المَغفِرَةُ والعَفوُ:

الفرقُ بينَهما مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ: أحدُها: أنَّ أصلَ الغَفرِ في لُغة العربِ: السَّترُ[1]، وأصلَ العَفوِ: المحوُ وتركُ الشَّيءِ[2]. وثانيها: أنَّ الغالبَ استعمالُ العفوِ في تركِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فعل المحرَّماتِ[3]. وثالثها: أنَّ أحدَهُما أبلغُ مِنَ الآخَرِ، وقد وقع خلافٌ في تَعيينِ الأَبلَغ مِنهُما على قولَين: أحدهما: أنَّ العفوَ أبلغُ مِنَ المغفرة؛ لأنَّ المغفرةَ تُنبِئُ عَنِ السَّترِ، بخلاف العفو فإنَّه مُشعِرٌ بالمَحْوِ، والمَحْوُ أبلغُ منَ السَّترِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).

(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/341.

(4) الصَّفّوريّ، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/88.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [الأنفال: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين معاملة الأسرى، في حالتي المسالمة والخيانة، وبين كون الله قادرًا عليهم

لمّا أمَرَ اللّهُ سُبحانَهُ نبيَّه ﷺ في الآيةِ السّابقة بِعَرضِ البُشرَى على الأَسرى في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وكانَ تقديرُ الكلامِ: فإنْ صدَّقوك وقبلوا هذه البُشرَى مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ، فإنَّه يوفِّي لَهُم ما وعدَهُم؛ جاءَت هذه الآيةُ تسليةً لرسول اللّه ﷺ وتطميناً له من غدرِهم ومكرِهم إذا خانوا رسول اللّه ﷺ بقوله ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿خِيَانَتَكَ﴾: الخاءُ والواوُ والنّونُ تدورُ تصاريفُها على مَعنَى التَّنَقُّصِ، ومِنهُ: الخيانَة، يُقال: خانَهُ يخونُهُ خونًا وخيانَةً؛ إذا نقص وفاؤُهُ[2]، وحقيقةُ الخيانَةِ: أَن يُؤتَمنَ الإنسانُ، فلا يَنصَح[3]، أَو هيَ: مُخالَفَةُ الحَقِّ بِنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ[4]، ومِن هذا قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾.

2) ﴿فَأَمۡكَنَ﴾: الميمُ والكافُ والنّونُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى رُسوخِ الشَّيءِ مُتجَمِّعًا مِن دُقاقٍ في باطِنٍ يَلتَئِمُ عليه، ومِنه قولُهُم: مَكَّنَهُ مِنَ الشَّيءِ، ومَكّنَ له، أي: جَعَلَ له سُلطانًا عليه، وقَدَّرَه،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/335.
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (خون)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(3) ابن سِيدَه، المُخصَّص: 1/286.
(4) الرّاغب، المفردات: (خون).

والتَّمكينُ مِنَ الشَّيءِ: إنالةُ ما يَصِحُّ الفِعلُ بِهِ مِنَ الآلاتِ والقوَى، و(أَمكَنَ) يَرِدُ بمعنى (مكَّنَ)، ومِنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾؛ ومعناهُ: مكَّنَ المُسلِمينَ مِنهم، وجعَلَهُم أَسرَى في أَيديهِم[1].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مَنْ خانَ اللهَ ورسولَه من الأسرى، أمكن اللهُ منهم، واستأصلَ شأفتهم

في هذه الآيةِ يقولُ اللّهُ تعالى لرسوله: وإنْ يُرِد هَؤُلاءِ الأَسرى الّذينَ في أَيديكُم الغدرَ بِكَ والمَكرَ والخِداعَ، بإظهارِهِم لكَ بالقَولِ خلافَ ما في نُفوسِهم، فلا تيأس؛ فقَد خالَفوا أَمرَ اللّهِ سُبحانَهُ مِن قَبلِ معرَكَةِ بَدرٍ، فأَمكَنَ منهم المُؤمِنينَ ببدرٍ، واللّهُ عليمٌ بما يقولونَ بأَلسِنَتِهِم، ويُضمِرونَهُ في نُفوسِهِم، حَكيمٌ في تَدبيرِهِم وتَدبيرِ أُمورِ جَميعِ خَلقِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ الوَصلِ بربطِ الآيةِ الكريمةِ بِما قَبلَها:

الجمعُ بَينَ الوَعدِ والوَعيدِ مِن طَرائِقِ القُرآنِ الكَريمِ في البيانِ

وُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ بما قَبلَهُ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالَينِ، وذلك أنَّ كِلتا الجملَتَينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما تضادٌّ، وذلكَ أنَّ الجُملَةَ الأولَى وارِدَةٌ على جِهَةِ الوَعدِ، فهي كلامٌ مَسوقٌ من جهته سبحانَه طمأنةً وتسليةً للنّبيِّ ﷺ بطريق الوعدِ، وليُبلِغَ مضمونَه الأسرى ليعلموا أنّهم لا يغلبون اللّهَ ورسولَه، وهذا من باب الوعيدِ لهم كما في الجملةِ الثّانيةِ.

نُكتَةُ تَعليقِ الشَّرطِ بـ(إنْ):

خيانَةُ الأَسرَى للنَّبيِّ ﷺ ليسَ مَقطوعًا بها

(إنْ) في أصلِ وضعِها تدلُّ على عَدَمِ القَطعِ بوقوعِ مدخولِها، وعُلِّقَ الشَّرطُ بها في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾؛ جريًا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مكن).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، ونخبة من العلماء، التَّفسير المُيسَّر، ص: 186.

على الأَصلِ في إفادة الشّكّ؛ إذ إنَّ خيانَتَهُم النَّبيَّ ﷺ ليسَ مقطوعًا بها؛ لأنّ وضعَ الأسيرِ بما يُؤخَذُ عليه من شروطٍ والتزاماتٍ يجعلُه في موضع الالتزام بما طُلِبَ منه من عدم قتالِ المسلمين وتأليبِ الأعداءِ عليهم، وأيضًا؛ لأنّ رسولَ اللّه ﷺ بقيادته للمسلمين في موضعِ القوّة؛ ففكرةُ العودةِ إلى الخيانة أمرٌ مشكوكٌ فيه، ولما تحمله جملةُ الوَعدِ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ مِن ترغيبِهم في الإسلام وحُسنِ التّلطّف معهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط عن إرادة الخيانة:

عِقابُ اللّهِ تعالى لِمَن أبدى من الخيانة ما يستحقّ به الإهانة

جاءَ التَّعبيرُ بإرادَةِ الخيانَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ دونَ الخيانَةِ نفسِها، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وَإِنۡ يخونوكَ)؛ وذلك لأنَّ سياقَ الآيَةِ واردٌ لِمَعنَى الوَعيد، وتعليقُ الوعيدِ على إرادَةِ الخيانَةِ أَبلَغُ مِن تعليقِهِ على الخيانَةِ ذاتِها، وفي هذا إظهارٌ لسُرعَةِ عقابِ اللّهِ تعالى لِمَن تَبدُرُ مِنه مبادئُ الخيانَةِ بإرادتِه لها.

دلالةُ التّعبيرِ بعبارة: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾:

الإرادةُ عزمٌ، والنّيّة خاطرٌ، ولكليهما دور في نجاح العمل واكتماله

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بالإرادة دون النِّيَّة؛ لأنّ الإرادةَ عزمٌ على الفعل؛ فتحوَّل من مجرَّد خاطرٍ إلى فعلٍ له أثرٌ في الواقع، بأن يعودوا للقتال مرّة ثانيةً، أمّا النِّيَّة؛ فهي مجرّد خاطرٍ لا يخرجُ إلى الواقع، ومن رحمةِ اللّهِ أنّه لا يحاسبُهم على هذا الخاطر لعلمه بما يقعُ في نفوس المأسورين.

دلالةُ التّعبير بالإضمار في ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾:

اختلافُ مرجع الضّمير، إثراءٌ للسّياق أثير

عبّرَ بالضّمير في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ لتعدُّد المُرادِ بهذا الضّمير؛ فبعضُ العلماء يرى أنّه يعودُ إلى الكفّار الّذين يخونون العهودَ في المستقبل، وبعضهم يرى أنّه يعودُ إلى الّذين جنحوا للسَّلم في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾، ولا يعبأُ الرَّسول ﷺ بما يفعلون إن

أرادوا الخيانةَ بعد أن جنحوا للسَّلم، وذهب البعض إلى أنَّ الضمير يعودُ للأسرى الّذين عاهدوا النّبيَّ ﷺ أن يكفّوا أذاهم عنِ المسلمين فإن خالفوا ذلك، ولم يكفّوا فلا تأبه بهم؛ فالملاحظ أنّ التّعبيرَ بالضّمير في قوله: (يريدون) أعطى مساحةً في المرادِ بهم، ولو عبّرَ بالظّاهر؛ لاختصَّ بفريقٍ أو بجماعةٍ دون الآخرين.

سرُّ التّعبيرِ بالخيانة دون غيرها:

وُرودُ التّعبير بالخيانة، للتّنفير منها، ومن مُرتكبيها

آثرَ التّعبيرَ بالخيانة دون غيرها في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾؛ لأنّ الخيانةَ تُقال اعتبارًا بالعهد والأمانة؛ لذلك كان اختيارُها هو المناسبَ لهذا السِّياق؛ لأنّ الخيانةَ تعني مخالفةَ الحقِّ بنقض العهدِ في السِّرِّ، وهذا هو المناسبُ لسلوك الأسرى إذا خانوا العهد[1].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿خِيَانَتَكَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ أفضلُ الخَلقِ مَجدًا، وأوثقهم عَهدًا

إضافةُ الخيانَةِ إلى ضميرِ الخِطابِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ من إضافَةِ المصدَرِ إلى مفعولِهِ، والمعنَى: وإِنْ يُريدوا أَن يَخونوكَ.

وضميرُ الخِطابِ يُرادُ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، وخُصَّ بذلكَ لكونِهِ أفضَلَ الخَلقِ في شرَفٍ وأعلاهُم في عَهْدٍ[2]، وفيها إشارةٌ إلى أنّ خيانة الرَّسول ﷺ خيانةٌ للّه.

سرُّ التّعبيرِ بالمصدر الصَّريح:

إفـادةُ تـأصُّـلِ الـفـعـلِ من مُرتكِبه، دلالةٌ عـلى دقّـة الاستعمال وأصالته

آثرَ التّعبيرَ بالمصدر الصَّريح ﴿خِيَانَتَكَ﴾، دون المصدر المؤوّلِ (أن يخونوك)؛ لأنّ المصدر الصّريح يدلُّ على الحدث من غير زمنٍ؛ فكأنّه يشيرُ إلى أنّ أمرَ الخيانةِ في هؤلاء الأسرى، أو على أنَّ المرادَ بهم الكفّارُ الّذين تكون الخيانةُ من طبائعهم الّتي لا تنفكُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (خون).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.

عنهم، يؤكّد هذا قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾، أمّا المصدرُ المؤوّلُ؛ فيدلُّ على الخيانة مع تجدُّد الزّمن.

دِلالَةُ (الفاءِ) في ﴿فَقَدۡ﴾:

مَن تَقَدَّمَت منه خيانَةٌ؛ لا يُستَبعَدُ مِنه تَكرارُها

الفاءُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ داخِلَةٌ على ما قامَ مقامَ جَوابِ الشَّرطِ[1]، ودخولُها هَهُنا واجِبٌ؛ لاقترانِ هذه الجُملَةِ بـ(قَد)، وجوابُ الشَّرطِ الحقيقيُّ محذوفٌ، والتَّقدير: وإن يُريدوا خيانَتَكَ؛ فإنَّ ذلك غيرُ مُستَبعَد مِنهُم؛ فقد خانوا اللّه سُبحانَهُ مِن قَبلُ[2]، ففيه إيجازٌ بالحذفِ؛ إذ طُوِيَ مِنَ الكلامِ ما دلَّ السِّياق عليه.

نُكتَةُ التَّأكيد بـ(قَد):

الوُقوعُ في الجُرمِ مَرَّةً، مَظِنَّةٌ لِلعَودِ إليه، إذا غابت الخشية لله

قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾، جملَةٌ خبريَّةٌ دَخَلَت عليها (قَد)، فأفادَت تقويَتَها وتأكيدَ مضمونِها، وأنَّ خيانَتَهُم مِن قَبلُ ثابِتَةٌ ثُبوتًا مُؤكَّدًا، ومَن ثبت ذلك عنه مرَّةً لا يُستَبعَدُ صدور ذلك منه مرَّةً أُخرَى.

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي ﴿خَانُواْ﴾:

خيانةُ المشرِكِ مُتحقِّقَةٌ، في خيانته للمعبود الواحد

عبّرَ عن خيانتهم بالفعل الماضي ﴿خَانُواْ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق وقوعِ الخيانةِ منهم؛ حيث عبدوا الأحجارَ والأوثانَ، وهمّوا بقتلِ الرّسول أو حبسِه أو إخراجِه من مكَّةَ، وكلُّ ذلك من بابِ الخيانةِ العظمى.

دلالَةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة (الله):

خيانَةُ النَّبيِّ الأكرمِ جُرمٌ، وخيانَةُ اللهِ تعالى أعظَمُ

عُلِّقَت خيانَتُهُم باسم الجلالة (اللّه) في قوله ﷻ: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ تعظيمًا لهذهِ الخيانَةِ؛ إذ خانوا المَلِكَ الأعظَمَ الجامِعَ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ[3]، وإذا صدرَت هذه الخيانَةُ العظيمَةُ مِنهُم؛ فخيانَتُهم لنبيِّهِ ﷺ غيرُ مُستغرَبَةٍ ولا مُستبعَدَةٍ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/232.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 11/96.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.

دِلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

(مِنْ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ أفادَت مَعنَيين: أحدُهُما: تَوكيدُ المَعنَى وتَقويَتُه، وهذا هو المَعنَى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مع (قَبلُ) و(بَعدُ)، والآخَرُ: الإيماءُ إلى أنَّ خيانتَهُم لَم تَكُن مُستغرِقَةً للزَّمَنِ[1].

الحُروفُ ذاتُ معانٍ في إبرازِ دَقائِقِ البيانِ القُرآنيِّ

الإيجازُ بالحَذفِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذْ حُذِفَ المُضافُ إليهِ، وقُصِدَ معناهُ دونَ لفظِه، ولذا بُنِيَ (قَبلُ) على الضَّمِّ، والتَّقدير: فقد خانوا اللّه تعالى مِن قبلِ هذا الوقتِ بالكُفرِ وغيرِهِ مِن أنواعِ الفِسقِ[2].

خيانَةُ العِبادِ لله تعالى، تكونُ بالكُفرِ والشِّرك وما دونَهُما

دلالةُ الإخبارِ بخيانتِهم لله:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ خيانتَهم لله؛ لطمأنةِ النّبيِّ ﷺ بأنّ ما يفعلونه معك ليس تهوينًا من شأنك؛ لأنّهم ارتكبوا الخيانةَ مع اللّه قبل ذلك، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّهم إن أعادوا الخيانةَ فسنُسلِّطُك عليهم كما فعلنا فيما مضى[3].

خيانةُ المشركين لن تضرَّ النّبيَّ ﷺ

دِلالَةُ الفاءِ في ﴿فَأَمۡكَنَ﴾:

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ عاطِفَةٌ[4]، وهي وارِدَةٌ على أصلِها في الدِّلالَةِ على التَّعقيبِ، وفي هذا دِلالَةٌ على سُرعَةِ إنزالِ اللّه تعالى عُقوبَتَهُ بالخائِنينَ، وفي هذا زجرٌ لِمَن تُسوِّل له نفسُه فعلَ الخيانة مع اللّه ورسوله.

سُرعَةُ عقابِ الخائنينَ، تُناسِب ما يَبدُرُ منهم من سرعة الخيانة

سِرُّ التَّعبيرِ في ﴿فَأَمۡكَنَ﴾:

آثَرَ التَّعبيرَ بالتَّمكين في قوله: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾؛ لأنّ التّمكينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.

(3) حاشية القونويّ: 9/136.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/46.

يُطلَقُ على المكان والمكانة؛ فيُقال: مكَّنتُ له فتمكَّنَ، ويُقال: مَكَانٌ ومَكَانةٌ[1]؛ لذلك آثرَ التَّعبيرَ به دون القُدرة مثلًا؛ لأنّ التّمكينَ أعمُّ منَ القدرة؛ فالتّمكُّنُ منهم يعني القُدرةَ عليهم؛ بخلاف ما لو عبَّرَ بالقُدرة فإنّه قد لا يكون معه التّمكين؛ لأنّ القدرةَ وصفٌ لهيئةِ الإنسانِ إذا كان قادرًا على فعل شيءٍ ما، وأيضًا لأنّ التّمكينَ يشيرُ إلى عُلوِّ المكانة.

لفظُ (التّمكين) فيه علوٌّ وقوّةٌ، والله أعلى وأقوى من كلِّ عُتلٍّ جبّارٍ

نُكتةُ العُدولِ في ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾:

تَمحُّضُ الخيانَةِ لِمَعاني النَّقصِ وسوءِ التّصرُّفِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ عُدِلَ عَنِ التَّعبيرِ بـ (فخانَهُم)، فلَم يَردِ النَّظمُ القرآنيُّ (وإن يُريدوا خيانَتَكَ فقد خانوا اللّه مِن قبلُ فخانَهُم) على ما في نظائرِه، كقوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النّساء: 142]، وقولِه جلَّ وعلا: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]؛ وذلكَ لأنَّ الخيانَةَ خِداعٌ في مَقامِ الائتِمانِ، فهيَ بهذا الاعتبارِ نقصٌ بكلِّ حالٍ، وليسَ فيها وجهٌ لِلكمالِ[2]، بخلافِ الخِداعِ والمَكرِ فإنَّه يقَعُ فيها الكمالُ والمدحُ، وهُما بهذا الاعتبارِ مِن أوصافِ اللّهِ تعالى على سبيلِ المقابلَةِ، ولا يصحُّ إرادَةُ ما فيهما مِن معاني النَّقصِ، أمّا الخيانَةُ؛ فلا مَدحَ فيهما ألبتَّةَ، ولذا لَم يَجُزْ أَن يَردَ النَّظمُ القرآنيَّ: (فخانَهُم)؛ لتمحُّضِ الخيانَةِ لمعاني النَّقص.

دِلالَةُ الإيجازِ بالحَذفِ في سياقِ الآيَة:

بيانُ التَّحذيرِ مِنَ العاقِبَةِ السَّيِّئَةِ للخيانَةِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ دليلٌ على مَحذوفٍ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾، والتَّقديرُ: وإِنْ يُريدوا خيانَتَكَ فإنَّ ذلكَ ليسَ مُستبعَدًا مِنهُم،

(1) الرّاغب، المفردات: (مكن).
(2) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/143.

وسَيُمكِّنُكَ اللّهُ تعالى مِنهم، مِثلَ ما أمكنَ مِنهُم مِن قَبلُ عِندَ وقوعِ الخيانَةِ[1].

لفظُ (أَمْكَنَ) بَينَ المجازِ والكِنايَةِ:

المُبالَغةُ في تَهديدِ الخائِنينَ، محاولةٌ لرَدْعِهم عن فِعلِهم المُشين

الفعلُ (أَمْكَنَ) مِن قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ مُشتَقٌّ مِنَ المكانِ، والهمزَةُ في أوَّلِهِ للجَعلِ، ومعنى: (أَمكَنَ فلانٌ فلانًا من كذا)؛ أي: جعل لَهُ مكانًا؛ أي: مَقرًّا، فالمكانُ واردٌ على سبيلِ المجازِ أو الكنايَةِ (عَن كَونِهِ في تَصرُّفِهِ كما يَكونُ المَكانُ مَجالًا لِلكائِنِ فيهِ)[2]، وفي هذا غايةُ التَّحذيرِ مِنهُم حيثُ أُبرِزَ جزاؤُهُم في قالبِ المحسوسِ؛ لأنَّ إدراكَ المحسوساتِ أقربُ للذِّهنِ، فتكونُ أوقعَ في التَّهديدِ.

دِلالَةُ (مِن) في ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾:

سياقُ الكَلامِ موجِّهٌ للمَعاني، مُبَيِّنٌ لِما استَكَنَّ مِنها

(مِنْ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ اتِّصاليَّةٌ، وذلك أنَّ (مِنْ) الّتي يتعدَّى بها فعلُ (أَمكَنَ) تَرِدُ لهذا المَعنَى، كالّتي في قولِهِم: لستُ مِنكَ ولستَ مِنّي.

وفي الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ، وذَلِكَ بحذفِ مفعولِ (أَمكَنَ)، والتَّقديرُ: فأمكَنَكَ اللّهُ مِنهُم، والّذي دلَّ على تعيينِ المَحذوفِ: سياقُ الكلامِ[3].

دِلالَةُ الخَبَرِ في جواب الشَّرط:

لُطفُ اللهِ تعالى بِمُصطَفاه، بِطريقِ الوَعدِ له، والوَعيدِ لمن عاداه

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، وذلك أنَّ التَّحقيقَ في الجُملَةِ الشَّرطيَّةِ يُنظَرُ إليها باعتبارِ جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كانَ جوابُها إنشاءً فهي جملةٌ إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ خبرٌ، فجملَةُ الشَّرطِ خَبَريَّةٌ.

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/34.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/82.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

وهذا الخبَرُ مَسوقٌ مِنَ اللهِ تعالى تسليَةً لنبيِّهِ ﷺ بطريقِ الوَعدِ لَهُ والوعيدِ والتَّهديدِ لَهُم(1)، فهو بهذا الاعتبارِ مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ (الله):

إرادةُ التَّعظيمِ والمهابةِ بذكرِ اسمِ اللهِ الأعظمِ مبرزًا بالتَّعريفِ بالعَلَميَّة

عُرِّفَ المُسنَدُ إليهِ بالعَلَميَّةِ (الله) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لإرادَةِ التَّعظيمِ، وبيانِ قَدرِ الوَصفَيْنِ اللَّذينِ دلَّ عليهما الاسمانِ الوارِدانِ في الخَبَرِ؛ وهُما وصفُ العِلمِ والحِكمَةِ، وأنَّهما وَصفانِ لا مُنتَهَى لكمالِهِما؛ لكونِهِما وصفَي مَن لَهُ جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

سِرُّ الإظهارِ في مَحَلِّ الإضمارِ:

الدّلالةُ على معاني الجلالِ والجَمالِ والكَمالِ في السّياق

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وهو عَليمٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسمِ الجلالةِ (الله) في قولِه: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾، وأُظهِرَ في هذا الموضِعِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، والنُّكتَةُ في ذلكَ: إدخالُ المهابَةِ وتَربيَتُها؛ لِما يدلُّ عليهِ الاسمُ الأحسَنُ من معاني الكمالِ.

بلاغة التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمة:

بَيانُ سَعَةِ عِلمِ اللهِ تعالى ودَقيقِ حِكمَتِهِ ﷻ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لِاستقلالِهِ وعَدَمِ افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المُرادِ منه، وفيهِ إيماءٌ إلى سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى ودقيقِ حِكمَتِهِ سُبحانَهُ، فقولُه تعالَى: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بما تُكِنُّهُ قلوبُهُم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في معامَلَتِهِم حَسَبَ ما يَعلَمُهُ مِنهُم(2).

مُناسبةُ خِتامِ الآيَةِ لِمَضمونِها:

في خَتمِ الآيةِ بالاسمَينِ الكريمَينِ (العَليم) و(الحكيمُ) في قولِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تناسُبٌ بديعٌ؛ إذ إنَّ عِلمَ اللهِ تعالى الواسِعَ يقتَضي عِلمَهُ بأحوالِ هؤلاءِ، وما يُضمِرونَهُ من أمرِ الخيانَةِ، وحِكمَتَهُ سُبحانَهُ تقتضي توهينَهُ كَيدَهُم، وإتقانَهُ ما يُقابِلُهم بِهِ، فهو لاحقُهُم لا محالَةَ[1].

حِكمَةُ اللهِ تعالى تَقتَضي تَوهينَهُ كَيدَ الكُفّارِ، وإتقانَهُ ما يواجههم به

سرُّ تقديم ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾:

اللهُ لا يخفى عليه شيءٌ، وأفعالُه كلُّها حكيمةٌ

قدَّمَ العِلمَ على الحكمةِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مناسبةً لمَا وردَ في صدرِ الآية؛ حيث تكلّمَتْ عن إرادة وقوعِ الخيانةِ منَ الكُفَّار عمومًا أو منَ الأسرى خصوصًا بناءً على المُراد بالضّمير في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾، وأمرُ الخيانةِ يقعُ تدبيرُه في الخفاء؛ فناسبَ أن يُقدِّمَ العلمَ ليعلّمَهم بأنّه لا تخفى عليه خافيةٌ؛ فهو عليمٌ بنِيَّات قلوبهم.

سرُّ اختلافِ فاصلةِ هذه الآية عن سابقتها:

التَّرغيبُ بعد التَّرهيب منهجٌ في العقاب والتَّأديب

خُتِمَت فاصلةُ هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، في حين خُتِمَت فاصلةُ الآيةِ السَّابقةِ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وذلك مراعاةٌ للتّناسب بين معنى الآيتين؛ فالآيةُ الأُولى كان الحديثُ فيها عن بعض أحوالِ الأسرى، وما أُخِذَ منهم، وهذا أمرٌ يتبعُهُ كراهيةٌ ومعصيةٌ منَ الأسرى؛ لذلك كان صدورُ المعصيةِ منهم مُتوقَّعًا، ويريدُ القرآنُ أن يُرغِّبهم في العودة إلى الإسلام؛ فأعلمَهم بأنّ اللهَ يسترُ ما كان منهم منَ المعاصي، ويرحمُهم إذا آمنوا بالله ورسوله؛ فقال في ختام الآية: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أمّا الآيةُ الثّانيةُ الّتي خُتِمَت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فمع ما سبق ذِكرُه يظهرُ للقارئ التَّناسبُ الجميلُ في اختيار تذييلِ الآيةِ بالعلم والحكمة؛ لارتباطهما بمضمونِ معنى الآيةِ الّتي تتحدَّثُ عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/336.

إرادةِ الخيانةِ لرسول اللّه ﷺ، وما أعلمَ اللّهُ به رسولَه في طمأنته بتمكُّنه منهم إن هم فعلوا ذلك؛ فهو سبحانَه عليمٌ بكلِّ النيات، حكيمٌ فيما يصنعُ فيهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخيانَةُ والخِداعُ:

بين الخيانة والخداع عمومٌ وخصوصٌ، وكلاهما من المنهيات المُفسِدة

الخداعُ هو إظهارُ أمرٍ، وقد أَضمَرَ الخادِعُ خلافَه[1]، وقَد يكون المُضمَرُ لَهُ يستحقُّ ذلكَ، كعقوبَةٍ يستحقُّها يَفجَؤُهُ بها، ونحو ذلكَ، بخلاف الخيانَةِ؛ فإنَّها مُخالَفَةُ الحَقِّ بِنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ[2]، ولذا تُعرَّفُ الخيانَةُ بأنَّها خِداعٌ في مَقامِ الائتِمانِ[3]، وبهذا التَّقريرِ يتبيَّنُ أنَّ الفرقَ بين الخيانَةِ والخداعِ مِن وَجهَينِ:

أحدُهُما: أنَّ الخداعَ أَعَمُّ مُطلَقًا مِنَ الخيانَةِ؛ إذِ الخيانَةُ خداعٌ خاصٌّ، وهو الخداعُ في مقامِ الائتِمانِ، والآخَرُ: أنَّ الخداعَ فيه ما هو حقٌّ، وفيه ما هو باطلٌ، ولذا صحَّ وصفُ اللّهِ تعالى بالخداعِ على جِهَةِ المقابَلَةِ بالمَعنَى الحقِّ الّذي فيه، فيُقال: يُخادِعُ اللّهُ تعالى مَن يُخادِعُهُ، بخلاف الخيانَةِ؛ فإنَّها كُلَّها باطلٌ ونقصٌ، ولا يصحُّ وصفُ اللّهِ تعالى بِها بحالٍ؛ لتمحُّضِها للنَّقص، ولا كمالَ فيها بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

(1) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/284.
(2) الرّاغب، المفردات: (خون).
(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/143.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ [الأنفال: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين قدرة الله على كلِّ خائنٍ، والخطوط الفاصلة بين مَن نُوالي ومَن نُعادي

في مناسبة هذه الآية لما قبلَها وجوهٌ عدَّةٌ:

أوّلًا: لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ مراحلَ الصّراعِ الّذي كان قائمًا بين الفريقين، وما نتجَ عنه من قتلٍ لبعض المشركين، وأسرٍ لبعضهم، وكيفيَّة التَّعامل مع الأسرى في أخذِ الفديةِ وعدمِها، كان منَ المناسب أن تُختمَ السّورةُ بهذه الآيات الّتي تخطِّطُ حدودَ التّعامل، وترسمُ المواقفَ الّتي يأخذُها المؤمنون منَ الكافرين حتّى يكونوا على بيِّنةٍ من أمرهم فيما يأخذون أو يدعون منَ الجبهة المقاتلة لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[1].

ثانيًا: لمّا كانتِ الآياتُ السّابقةُ تتحدّثُ عن قتالِ المسلمين للكفّار، وما نتج عنه من أسرى، وكيفيّةِ التّعاملِ معهم مع وجودِ قرابةٍ لهم، إلّا أنّهم ضربوا بهذه القرابة عُرضَ الحائط، مُستبدلين بها قرابة الإسلام؛ جاءَت هذه الآياتُ لتتحدّثَ عن رابطة الإسلام، وأنّها أقوى من كلِّ رابطةٍ حتّى ولو كانت رابطةَ النّسبِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ الآية[2].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 3/3683.

(2) حجازي، التّفسير الواضح: 10/26.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: الهَمزَةُ والمِيمُ والنّونُ: تدلُّ على تصديقٍ وسُكونِ قلبٍ[1]، وأصلُ الأَمنِ: طُمأنينَةُ النَّفسِ وزوالُ الخَوفِ[2]، وفِعلُهُ: أَمِنَ، وأمّا الفعلُ (آمَنَ) فإنَّ له وجهَينِ: أحدُهما: أَن يكونَ مُتعدِّيًا، تقولُ: آمَنتُهُ؛ إذا جعلتَ له الأَمنَ والأمانَ، ومِنه - في وَجهٍ[3] - اسمُ اللّهِ: المُؤمِنُ، والآخرُ: أَن يكونَ لازمًا، ومعنى (آمَنَ) على هذا: صارَ ذا أَمنٍ.

والإيمانُ: التَّصديقُ، باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ[4]، ويُطلق في الشَّرعِ إطلاقَينِ[5]: **إطلاقٌ عامٌّ**؛ تَندَرِجُ فيه جميعُ أمورِ الدّينِ العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ، فهو بهذا الاعتبارِ: قولٌ وعملٌ واعتِقادٌ، **وإطلاقٌ خاصٌّ**؛ والمرادُ به التَّصديقُ والإقرارُ بأصولِ الإيمان السِّتَّةِ المشهورةِ.

ويجوزُ أَن يكونَ الإيمانُ الواردُ في قَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُرادًا بِهِ المعنى العامُّ أو الخاصُّ، والأَوَّلُ أَعَمُّ وأشمَلُ؛ لاندراجِ الثَّاني فيهِ.

2) ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: الهاءُ والجيمُ والرّاءُ تدلُّ تصاريفُها على مَعنَيَينِ كُلّيَّينِ؛ أحدُهما: قطعٌ وقطيعةٌ، والآخَرُ: شدُّ شيءٍ وربطُه[6]، والمهاجَرةُ في الأصل مُصارَمةُ الآخرِ وتركه، ومِنهُ الهَجرُ والهِجران؛ وهو مفارقةُ الإنسانِ غيرَه، إمّا بالبَدَنِ أو باللِّسانِ أو بالقَلبِ[7].

و(هاجَرَ) مِنَ المُهاجَرة؛ وهي: تركُ أرضٍ إلى أرضٍ أخرَى[8]، ثُمَّ خُصَّت في الشَّرعِ بالانتقالِ إلى بلدِ الإسلامِ[9].

3) ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: الجيمُ والهاءُ والدّالُ تدلُّ تصريفاتُهُ على المشقَّةِ[10]، ويأتي بمَعنى الطّاقة والوُسعِ[11]. والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرعِ على استِفراغِ الوُسعِ في مدافعةِ العَدوِّ،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).

(2) الرّاغب، المفردات: (أمن).

(3) الزَّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 31 - 32.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أمن)، وهذا الاتِّفاقُ إنَّما هو في الحقيقةِ اللُّغويَّةِ لِلإيمانِ، أمّا معناه في الشَّرعِ فليسَ هو معناه في اللُّغةِ، بل له في الشَّرعِ حقيقةٌ أُخرى أوضَحَتها أدلَّتُهُ.

(5) البرّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 239.

(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هجر).

(7) الرّاغب، المفردات: (هجر).

(8) الجوهريّ، الصّحاح: (هجر).

(9) السَّفّارينيّ، لوائح الأنوار السَّنيَّة: 2/86.

(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).

(11) الرّاغب، المفردات: (جهد).

وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهر، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفسِ[1]، وتدخلُ ثلاثتُها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والمجاهدةُ تكونُ باليدِ واللّسانِ والمالِ، وسُمِّي بذلكَ؛ لِما فيهِ مِن استِفراغِ ما في الوُسعِ والطّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[2]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النّفوس.

4) ﴿ءَاوَواْ﴾: الهَمزَةُ والواوُ والياءُ تَدورُ تصريفاتُها على مَعنَيَين: التَّجمُّع، والإشفاقُ[3]، ومِنَ الأوَّلِ التَّأوّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[4].

المَأوَى: المكانُ الّذي يُنصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[5]، وآوَى فلانٌ فلانًا؛ أي: أَنزَلَهُ في مَأوًى يُقيمُ فيه، وأويتُ له: رَحِمته، وتحقيقه: رجعتُ إليه بقلبي، قال في حقِّ يوسفَ عليه السلام: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ أي: ضمَّه إلى نفسه[6]، ومعنى قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾؛ أي: أَنزَلوا المُهاجِرينَ في دُورِهِم[7].

5) ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾: تَدورُ مادَّةُ النّونِ والصّادِ والرّاءِ حول معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائه بما فيهِ زيادةٌ مناسِبةٌ وقوّةٌ. ولازِمُهُ: دَفعُ الضُّرِّ[8]. والنَّصرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخَصمِ عليه في حَربٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النّاصر وغَلَبَتِه[9]، وهو المُرادُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، و﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾ الوارِدَةُ بعدُ، معناها: طلبوا مِنكُم النُّصرَةَ.

6) ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ - ﴿وَلَٰيَتِهِم﴾: الواوُ واللّامُ والياءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى القُربِ، ومنه: الوَلْيُ وهو القُربُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعدَ وَلْيٍ؛ أي: بَعدَ قُربٍ، وجلسَ ممّا يَليني؛ أي: يُقارِبُني. ومِنه المَولَى، وهوَ يُطلَقُ على معانٍ، مِنها: الحليفُ، والنَّاصرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعنَى القُربِ كما هو بيِّنٌ[10].

(1) الرّاغب، المفردات: (جهد).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (جهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(4) الخليل، العين: (أوى).
(5) الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 266.
(6) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(7) الخضيريّ، السّراج في بيان غريب القرآن، ص: 74.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نصر).
(9) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.

ومِن أسماءِ اللّهِ سُبحانَهُ: (الوَليُّ)، ومَعناهُ النَّاصِرُ، أو هو المتوَلّي لأمورِ الخلائقِ، القائمُ بها[1]. و﴿أَوْلِيَآءُ﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ بمعنى: أنصارٍ، والمرادُ: أولئكَ بعضُهُم أَنصارُ بَعضٍ وأَعوانٌ على مَن سِواهُم مِنَ المُشرِكينَ[2]، والوَلايَةُ في الآية معناها: النُّصرَةُ.

7) ﴿مِّيثَٰقٌۗ﴾: الواو والثّاءُ والقافُ تدلُّ تصاريفُها على العَقدِ والإحكام[3]، وأصلُه: الاطمِئنانُ بالشَّيءِ والسُّكونُ إليهِ والاعتمادُ عليه[4]؛ إذ لا يُطمَأَنُّ إلّا بالأمر الشَّديدِ الإحكامِ، ويُقال: أخذتُ الأَمرَ بالأَوثَقِ؛ أَي: الشَّديدِ المُحكَمِ[5].

والميثاقُ: عقدٌ مُؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، والمرادُ بالميثاقِ في الآية: العَهدُ الّذي وَثَّق بهِ بَعضُكُم على بَعضٍ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المهاجرون والأنصار يدٌ واحدةٌ على مَن سواهم، وهم أولياء بعضهم في الإيمان والمصير

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّ الّذينَ صَدَّقوا اللّهَ ﷻ ورسولَهُ ﷺ، وهَجَروا قَومَهُم وعَشيرَتَهُم ودُورَهُم، وبالَغوا في إِتعابِ نُفوسِهم وإنصابِها في حَربِ أعداءِ اللّهِ سُبحانَهُ مِنَ الكُفّارِ من أَجلِ إعلاءِ كلمَةِ اللّهِ سُبحانَهُ، وصفَهم اللّهُ تعالى بالمهاجرين، والّذينَ جَعَلوا لِرَسولِ اللّهِ ﷺ والمُهاجرينَ معه مَأوًى يأوونَ إليه، وجعلوا لهم مِن مَنازِلِهم مَساكنَ؛ إذ أَخرَجَهُم قَومُهُم من مَنازِلِهم، ونَصَروهُم على أَعدائِهم وأعداءِ اللّهِ تعالى مِنَ المُشركينَ، همُ الأنصارُ، - وهُمُ المهاجِرونَ والأَنصارُ - بعضُهم أنصارُ بَعضٍ، وأعوانٌ على مَن

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/78 - 79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وثق).
(4) الرّاغب، المفردات: (وثق)، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وثق).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (وثق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/82.

سِواهُم مِنَ المُشرِكِينَ، وأَيدِيهِم واحِدَةٌ على مَن كَفَر باللّهِ تعالى، وبَعضُهُم إِخوانٌ لِبَعضٍ، دونَ أَقرِبائِهِم الكُفّار.

والّذينَ صَدَّقوا بِاللّهِ سُبحانَهُ ورَسولِهِ ﷺ، ولَم يُفارِقوا دارَ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، ليسَ لَكُم - أيُّها المُؤمِنونَ المُهاجِرونَ - مِن نُصرَتِهِم وميراثِهِم، حتَّى يُفارِقوا قومَهم ودورَهم مِن دارِ الحَربِ إلى دارِ الإِسلامِ، وإِنِ استَنصَرَكُم هؤلاءِ الّذينَ آمنوا ولَم يُهاجِروا - بأَنَّهُم مِن أَهلِ دِينِكُم - على أَعدائِكُم وأعدائِهِم مِنَ المُشرِكينَ، فَيَجِبُ عليكُم - أيُّها المؤمِنونَ مِنَ المهاجِرينَ والأَنصارِ - أَن تَنصُروهُم، إلّا أَن يَستَنصِروكُم على قومٍ بَينَكُم وبَينَهُم عَهدٌ قد وَثَّق بِهِ بَعضُكُم على بَعضٍ ألّا يُحارِبَهُ، واللّهُ ﷻ لا يَخفَى عليه شيءٌ مِمّا تَعمَلونَهُ فيما أَمَرَكُم ونَهاكُم مِن وِلايَةِ بَعضِكُم بعضًا، وتركِ وِلايَةِ مَن آمَنَ ولَم يُهاجِرْ، ونُصرَتِكُم إيّاهُم عِندَ استِنصارِكُم في الدّين، وغيرِ ذلك مِن فَرائضِهِ الّتي فَرَضَها عليكم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصلِ للجملة المؤكَّدة عَمّا قبلَها:

بَيـانُ أَحكـامِ موالاةِ المُسلِمينَ بَعضِهِم بَعضًا

فُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ عَمّا قَبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا ابتدائيًّا، وهو وارِدٌ للإعلامِ بأحكامِ موالاةِ المسلِمينَ لأهلِ الإسلامِ، مِنَ الّذين هاجَروا، والّذين لم يُهاجروا، وعدَمِ جوازِ موالاةِ الكُفّارِ[2].

نُكتَةُ تأكيدِ الجُملَةِ الخبريّة المؤكّدة بإنَّ:

بَيـانُ أَهـمّـيّـةِ رابِـطَـةِ الأُخـوَّةِ الدّينيَّةِ والموالاةِ في اللهِ سُبحانَهُ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ - وهو جملَةٌ خبريَّةٌ - بـ (إِنَّ) تقويةً لِنُصرَةِ المؤمنينَ بعضِهِم بعضًا، تَمتينًا لِرابِطَةِ الأُخوَّةِ الدّينيَّةِ، واهتمامًا بشَأنِ الموالاةِ في اللّهِ تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/77 - 82، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيسّر، ص: 186.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالموصوليَّةِ:

التَّرغيبُ في تَحقيقِ أوصافِ وِلايَةِ أَهلِ الإيمانِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالمَوصوليَّة في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾؛ إيماءً إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ به على المسنَدِ إليه؛ وأنَّه مِن التَّكريمِ والرِّفعَة، وذلكَ أنَّ وجوبَ موالاةِ أهلِ الإيمانِ بعضِهم بعضًا من أَعظَمِ وجوهِ التَّكريمِ بسَبَبِ إيمانِهم، وفيه إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذه الرِّفعَة في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، وأنَّ هذه المَكرُمَةَ مُسَبَّبَةٌ عَن إيمانِهم وهِجرَتِهم وجهادِهم، وفي هذا تَرغيبٌ في التَّلبُّسِ بالإيمانِ، وما ذُكِرَ مَعَهُ مِنَ الأوصافِ؛ ليَندرِجَ العبدُ في سِلكِ المُكرَمينَ بولايَة أهلِ الإيمانِ.

عِلَّةُ ذِكرِ المَوصولِ الدالِّ على الجمعِ:

كَثرَةُ المُؤمِنينَ المُتَّصِفينَ بالأَوصافِ الحَسَنَةِ

إيرادُ الاسمِ الموصول جَمعًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ فيه إشعارٌ بِكَثرَةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا بينَ هذه الأعمالِ الجليلَةِ؛ مِنَ الهِجرَةِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ سُبحانَهُ، وغيرِها مِنَ المذكوراتِ في الآيةِ الكريمةِ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحقُّقُ وَصفِ الإيمانِ والهجرَةِ والجِهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى

جيءَ بِصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ و(هاجَروا) (وَجاهَدوا) مِن قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ الحقِّ فيهم.

وللدّلالة أيضًا على رسوخ هذه الأوصاف فيهم لدرجة أنّها تمكَّنَت في قلوبهم تمكُّنَ الصّفة في الموصوف؛ فلا تنفكُّ عنهم هذه الأوصاف، يؤكّدُ هذا أنّه بعد فتحِ مكّةَ انقطع وصفُ الهجرة بمَن آمنَ من أهلِ مكّةَ بعد ذلك، ولو ذهبَ إلى المدينة المنوّرة، وبقي وصفُ المهاجرين للطّبقة الأُولى الّتي هاجرت من مكّةَ إلى المدينة، ولو عادَت إلى مكّةَ.

نُكتَةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُستَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤمنينَ، وهُم مُقِرّونَ بجميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، وهو المُؤمَنُ به، وفي ذلك مَسلَكانِ:

أحدُها: ظُهورُ أفرادِ المُؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ لِلإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، من غَيرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِه.

والآخرُ: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُمومِ، والمَعنَى: آمَنوا بجميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا.

بلاغَةُ عَطفِ الهجرَةِ والجهادِ على الإيمانِ:

بَيانُ شَرَفِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى

في عَطفِ الهجرَةِ والجهادِ على الإيمانِ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ إطنابٌ بعطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ وذلك لأنَّ حقيقةَ الإيمانِ شَرعًا: قولٌ وعمَلٌ واعتقادٌ، والهجرَةُ والجهادُ من جُملَةِ الأعمالِ الصّالحَةِ المندَرِجَةِ تحتَ مُسَمَّى الإيمانِ، ومِن شَأنِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ: بيانُ الاهتمامِ بشأنِ الفردِ الخاصِّ بذِكرِهِ مرَّتينِ؛ أولاهُما بذِكره مُندرِجًا تحتَ لَفظِ العامِّ، والأُخرَى: بذِكرِه على سَبيلِ الاستِقلالِ والانفرادِ.

ولَمّا كان الإيمانُ هو الأصلَ عَطفَ عليه الهجرةَ والجهادَ؛ لأنّهما فرعانِ عنه، وإن كانا مشروطينِ في الواقعِ بالإيمان، فَفي الآيَةِ إيماءٌ إلى فضيلَةٍ خاصَّةٍ في الهِجرَةِ والجهادِ في سبيلِ اللّهِ سُبحانَهُ.

بلاغةُ ترتيبِ الصِّفاتِ: الإيمانِ والهِجرةِ والجهادِ:

التَّرَقّي في تَعدادِ الأَعمالِ الصّالِحاتِ، منهجٌ في التَّزكيَةِ مكين

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، رتّبَ الذِّكرُ الحكيمُ الأوصافَ المذكورةَ في الآيةِ مراعاةً لترتيبِها حسبَ الوقائعِ والواقعِ؛ لأنّ الإيمانَ أوّلُها، ثمّ الهجرةَ، ثمّ الجهادَ في سبيلِ اللّه، ولا سبيلَ إلى الهجرةِ إلّا بعد تحقُّقِ الإيمانِ، ولا يمكن للمسلمِ أن يجاهدَ في سبيلِ اللّهِ إلّا بعد تحقُّقِ الهجرةِ بمعناها

العامّ من هجر الشَّهواتِ والمعاصي عمومًا، وقبل ذلك الهجرة إلى المدينة خصوصًا، وأيضًا جاء التَّرتيبُ في الآية من باب التَّرقّي في ذِكرِ بَعضِ أفرادِ الإيمانِ؛ وذلكَ لأنَّ جملةَ الصِّلَةِ قد صُدِّرت بالإيمانِ، وهو شاملٌ لجميعِ الدِّين؛ لكونِهِ جامعًا للأقوالِ والأفعالِ والاعتِقادات، ثُمَّ فُرِّعَ عَنه عَمَلانِ جليلانِ يندرِجانِ تَحتَهُ، وهما: الهِجرَةُ والجهادُ، وبُدِئَ بالهِجرَةِ لِما فيها مِن مفارقَةِ الأوطانِ، وذلك ممّا يشقُّ على النَّفسِ، وثُنِّيَ بالجهادِ لِما فيه مِن بذلِ المُهَجِ في سبيلِ اللّهِ تعالى، وذلِك أشقُّ على النُّفوسِ مِن مجرَّدِ مفارقَةِ الأوطانِ، وإنْ كانَ اللّهُ ﷻ قد قرَنَ بينَهُما في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ [النّساء: 66]، فإنَّ ذلك دالٌّ على شدَّةِ مفارقةِ الأوطانِ، وليسَ دليلًا على تساويهِما مِن كُلِّ وَجهٍ؛ إذ الاقترانُ في النَّظمِ لا يستَلزِمُ التَّساويَ في الرُّتبَةِ من كُلِّ الوجوه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة المُفاعلةِ في الهجرةِ والجهادِ:

الهجرةُ والجهادُ في القرآن الكريم يحملان طابعًا تقابُليًّا مع النَّفس في ترك رغباتها

قوله تعالى: ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالمفاعلة لما تحملُه من معنًى زائدٍ على الفعل (هجر) و(جهد)؛ لأنَّ المهاجَرةَ تحملُ معنى التَّنازعِ النَّفسيِّ بين حبِّه لوطنه الّذي أقامَ فيه ومَسقط رأسِه، وبين حبِّه للّه ولرسوله رغبةً في الثَّواب؛ لذلك كانَت كلُّ تعبيراتِ القرآن الكريم في هذا الباب على وزن فاعَل (هاجَر).

وأيضًا للتّفريق بين (هجر) بمعنى التّرك كما في قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾، وقوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾؛ فالمعنى هنا يختلفُ عنِ المهاجَرة؛ لأنّ هجْرَ المضاجعِ وهجْرَ المنازعةِ قد يكون شرعيًّا، وقد يكون على غير ذلك، لكنّ المهاجَرةَ مصطلحٌ قرآنيٌّ شرعيٌّ تميّزَ به القرآنُ في معناه.

وأمّا عنِ المُفاعلة في باب المُجاهدة؛ فأمرُها ظاهرٌ؛ لأنّها تقعُ بين

طرفين في المعركة؛ فكلٌّ منهما يحاولُ أن يُجهِدَ الطّرفَ الآخرَ في نفسه وفي ماله؛ لذلك كانتِ المفاعلةُ ظاهرةً.

وإن حُمِلَت على مجاهدة النَّفسِ؛ فالمفاعلةُ واقعةٌ بين رغبةٍ وشهوةٍ تتملَّكُ الإنسانَ للوقوع في الخطأ وبين داعي الإيمانِ الّذي يمنعُه من ذلك، وهذه المنازعة يُطلَقُ عليها المجاهدة.

نُكتةُ تقديمِ المالِ على النَّفسِ:

الجهادُ بالمالِ أكثرُ وُقوعًا، وأتمُّ دفعًا للحاجَةِ

قُدِّمَ المالُ على النَّفسِ عِندَ بيانِ نَوعَيِ الجِهادِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لنُكتَتَيْنِ:

أوَّلًا: لكونِ الجهادِ بالمالِ أكثَرَ وقوعًا، وأتَمَّ دَفعًا لِلحاجَةِ، بحيث لا يُمكِنُ تصوُّرُ الجِهادِ بالنَّفسِ دونَ الجهادِ بالمالِ[1].

ثانيًا: لكونِ المالِ سببَ قيامِ النَّفسِ، وقَد كانَ المالُ أوَّلَ الأَمرِ في غايَةِ العِزَّة[2]؛ وذلك لأنّ المهاجرين بذلوا أموالَهم الّتي كسبوها بكَدِّهم بعدَ الهجرة، بعد أن فقدوا أموالَهم الّتي كانت مِن كسبهم قبلَ الهجرةِ؛ فالمالُ الّذي أنفقوه على تجهيز الجيوشِ في سبيلِ اللّهِ له مزيّةٌ؛ لأنّه جاء بعدَ كدٍّ وعناءٍ في تكوينه بعد أن تركوا أموالَهم في مكّةَ قهرًا من كفّار قريش.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

الجهادُ بالمال لا يقتصرُ على نوعٍ معيَّنٍ منه

عبَّرَ بالجمع مراعاةً للفظ الجمع في الآية، وأيضًا للدّلالة على أنّهم جاهدوا بكلِّ ما يمتلكون منَ المالِ سواءٌ كان عينًا أو عرضًا؛ لأنّ المالَ كلُّ ما يُتموَّلُ به، ويصدقُ ذلك على الذّهبِ والفضَّةِ، وعلى الخيلِ والإبلِ؛ فكان التَّعبيرُ بالجمع لوصف حبِّهم للّه ولرسوله؛ فلا يبخلون بما يمتلكون.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/37.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

دلالةُ (الباء) في ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

استعانوا بالمال في الجهاد، وبذلوه على حُبِّهم له

جاءَ التَّعبيرُ بالباء ليفيدَ معاني عدَّة؛ منها: الإلصاقُ والاستعانةُ، وكلُّها محتملةٌ في هذا السّياق؛ بمعنى: (وجاهَدوا مُستعينين بأموالهم)؛ لأنّها تُقوّي ظهورَهم على القتال، أو (جاهَدوا بأموالهم المختصّة بهم)؛ وهذا دليلٌ على حبِّ الإنسانِ للمال، لكنّهم مع ذلك قدّموها في سبيل اللّه.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ (الأنفُس):

المجاهدون بأنفسهم في سبيل الله عددُهم قليلٌ

قوله: ﴿وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عبّرَ بالأنفس دون النّفوس؛ لأنّ الأنفسَ جمعُ قلَّةٍ، بخلاف النّفوس فهي جمعُ كثرة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾، أمّا الأنفسُ - وهي جمعُ القلّةِ - فكان التّعبيرُ بها مناسبًا؛ لأنّ الّذين يجاهدون في سبيل اللّه قلَّةٌ مقارنةً بكثرة المسلمين.

سِرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّة:

تمكّنُ حبِّ الجهاد في سبيل الله في أنفسهم

الظّرفيّةُ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على السَّببيَّةِ، والمَعنَى: جاهَدوا بسَبَبِه، فلم يَصُدَّهم عنه صادٌّ، وظَهَرَت لَهُم محاسِنُ الجهاد، فسَهُلَ عليهم سُلوكُه.

والتَّعبيرُ بـ(في) مُشعِرٌ أيضًا بتمكُّنِهم مِنَ السَّبيلِ تمكُّنَ المظروفِ مِنَ الظَّرفِ، فيكون الدِّينُ غالبًا عليه، لا يَخرُجُ عنه بحالٍ مِنَ الأحوالِ[1].

سِرُّ الإضافَةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سُلوكُ سَبيلِ اللّهِ تعالى مُوصِلٌ لِرَحمَتِهِ

إضافةُ السَّبيل إلى اسم الجلالةِ (اللّه) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُراد بها تعظيمُ السَّبيلِ، والإشعارُ بأنَّ مَن سلكَهُ وصلَ إلى رَحمَةِ اللّهِ تعالى، ومِن لازمِ ذلك: تعظيمُ المجاهدينَ ورفعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

وفيه إشارةٌ إلى تيسير اللّهِ لأسباب الجهاد خصوصًا، ولمنفعة المسلمين عمومًا؛ لأنّ السّبيلَ كلُّ ما يُتوصّلُ به إلى فعل الخير غالبًا، وممّا يُذكَرُ أيضًا في سرِّ الإضافةِ إخراجُ ما كان في سبيل الهوى والعصبيَّة.

فائِدَةُ تقييد ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

من أسباب الولايةِ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تعالى

تَقييدُ المُجاهَدَةِ بكونِها ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به مدحُهُم بذلك، وفيه الإشعارُ بعلَّةِ استحقاقِهم عُلوَّ المنزلة، مع ما فيه من حُسنِ مَوضِعِ ﴿سَبِيلِ﴾ مع ذِكرِ الجِهادِ؛ وذلكَ أنَّ السَّبيلَ من شأنِه أن يكونَ مَسلوكًا، ففيه حركَةٌ تناسبُ الحرَكَةَ المستفادَةَ من لَفظِ الجِهادِ.

تَوجيهُ المتَشابِهِ اللَّفظيّ في هذه الآية قيد التفسير:

دِقَّةُ النَّظمِ القُرآنيِّ في تَقديمِ الألفاظِ وتَأخيرِها

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 20]، فقُدِّمَ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذِكرِ الأموال والأنفُسِ في سورةِ التَّوبة، وعُكسَ ذلكَ في سورةِ الأنفالِ، ووجهُ المغايَرةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأنفالِ يُرادُ بها مَعَ المَدحِ تعظيمُ ما صدرَ منهُم مِنَ الإيمانِ والهِجرَةِ والجهادِ بالأموالِ والأنفُسِ، فقُدِّمَ ذِكرُ الأموالِ والأنفُسِ تنبيهًا مُعرِّفًا بمكانَةِ ذلكَ مِنَ النُّفوسِ، وأنَّهم بادَروا ببذلِها على حُبِّهِم لها، وشُحِّ الطِّباعِ في الأصلِ بها، فكانَ في هذا التَّقديم تَغبيطٌ لَهُم وإعظامٌ لصنيعِهِم.

بخلافِ آيةِ التَّوبَة؛ فإنَّها مبنيَّةٌ على ذِكرِ المفاضَلَةِ بينَ سقايَةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجِدِ الحرام، وبينَ مَن آمنَ وهاجرَ وجاهدَ بالمال والنَّفس، وفيها ردٌّ علَى مَن توهَّمَ أنَّ السِّقايةَ وعمارةَ المسجدِ الحرام أفضَلُ، فنُصَّ على أنَّ الإيمانَ وما ذُكِرَ مَعَهُ أعظَمُ عِندَ اللّهِ تعالى؛ فلَم يُعرِضْ هَهُنا موجبٌ لتقديمِ ما قُدِّمَ في سورةِ الأنفالِ[1].

(1) ابن الزُّبير الغَرناطيّ، مِلاك التّأويل: 1/225.

وممّا يُذكَرُ في سرِّ توجيهِ المتشابهِ أنَّ آيةَ الأنفالِ جاءَت عَقيبَ ما أنكره اللّهُ تعالى على مَن قال لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وذلك بأخذ الفداءِ منَ الأسرى، وحذَّرَهم القرآنُ على ما أخذوا بقوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، أي: منَ الفداء، وكلُّ ذلك يُدلِّلُ على سَبْق الحديث عنِ المال بأشكاله؛ فناسبَ تقديمَ المالِ في سورة الأنفال، وفي هذا مدحٌ لِمَن أنفقَ أموالَه في سبيل اللّه؛ لا مَن يجاهد طلبًا للنّفع العاجل، وأمّا في سورة براءة؛ فتقدَّمَ ذِكرُ الجهاد في قوله تعالى: ﴿كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لذلك قدّمَ الجهادَ من باب التّناسب(1).

دلالةُ (الواو) في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الاشتراكُ في صفات الفضلِ تميُّزٌ وتكريمٌ

دلَّتِ الواو على عطف الأنصارِ على المهاجرين، ومدحَتهم بإيوائهم، ونُصرتِهم من كلِّ ما يُكدِّرُ أمنَهم واستقرارَهم، وفي هذا دلالةٌ على الجمع بينهم في صفاتِ الفضلِ.

سرُّ عدمِ ذكرِ الإيمانِ مع الإيواء والنُّصرة:

الّذين آووا الرّسولَ ﷺ قد تمكّنَ الإيمانُ فيهم

لم يذكرِ الإيمانَ مع الأنصار في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ كما ذكرهُ مع المهاجرين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإيمانَ تمكَّنَ منهم تمكُّنًا ظهرَ أثرُه على أفعالِهم وأقوالِهم وحركاتِهم؛ فكلُّها تنطقُ بالإيمان؛ لذلك عبَّر بلوازم الإيمانِ منَ الإيواء والنُّصرة.

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليه بالموصوليَّةِ:

الحَثُّ على التَّخلُّقِ بالأوصافِ المُقتَضيَةِ ولايَةَ أهلِ الإيمانِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بالمَوصوليَّة في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ بهِ على المُسنَدِ إليهِ؛ وأنَّه من جنسِ التَّكريمِ والرِّفعَةِ؛ وذلكَ أنَّ وجوبَ موالاةِ أهلِ الإيمانِ

(1) الشِّثري، المُتشابه اللّفظيُّ في القرآن الكريم وأسراره البلاغيَّة، ص: 444.

بعضِهم بعضًا من أعظَمِ وجوهِ التَّكريمِ بسَببِ إيمانِهم، وفيه إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذِه الرِّفعَةَ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، وأنَّ هذه المَكرُمَةَ مُسَبَّبَةٌ عَن إيوائِهِم أهلَ الإيمانِ ونُصرتِهم لهم.

وفي هذا تَرغيبٌ في التَّلبُّسِ بالإيواءِ والنُّصرَةِ؛ ليَندَرِجَ العبدُ في عُمومِ المُكرَمينَ بوِلايَةِ أهلِ الإيمانِ.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ الدالِّ على الجمعِ:

كَثرَةُ المُؤمِنينَ المُتَّصِفينَ بالأوصافِ الحَسَنَةِ، مؤشِّرٌ إيجابيّ

إيرادُ الاسمِ الموصولِ جَمعًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ فيهِ إشعارٌ بكَثرَةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا بينَ هذهِ الأعمالِ الجليلَةِ؛ مِنَ الإيواءِ والنُّصرَةِ، وفي هذا مدحٌ وتشريفٌ للأنصارِ، وتوبيخٌ وتبكيتٌ للمنافقين في المدينة.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحقُّقُ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ في أهلِ الإيمانِ الحَقِّ

جيءَ بصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَاوَواْ﴾ و﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ مِن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ فيهِم، ورسوخِ هاتينِ الصّفتينِ في قلوبِهم حبًّا للّه ولرسولِه؛ يؤكِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

نُكتَةُ حَذفِ متعلِّقِ الإيواءِ والنُّصرة:

عَظيمُ صَنيعِ الأنصارِ في إيوائِهِم المُهاجِرينَ مِنَ المُؤمنِينَ

حُذِفَ متعلِّقُ الفعلِ ﴿ءَاوَواْ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفي ذلكَ ثلاثةُ مسالكَ:

أحدُها: ظُهورُ الأفرادِ الّذينَ وقَعَ عليهِم فعلُ الإيواءِ؛ وهُمُ المؤمِنونَ الّذينَ هاجَروا مِن مكَّةَ المكرَّمَةِ إلى المدينَةِ النَّبويَّةِ.

ثانيها: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلكَ لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُمومِ، والمَعنَى: آوَوا جميعَ مَنِ احتاجَ إلى الإيواءِ مِن أهلِ الإيمانِ، وهُمُ المؤمنونَ مِن أهلِ مكَّةَ.

وفيه إشارةٌ إلى كرم الأنصارِ في عدمِ ذكرِ مَن آوَوْهُم حتّى لا يكون فيه شبهةٌ منَ المنِّ على المؤمنين المهاجرين؛ لأنّ اللّه مدحَهم بسلامة القلبِ وطيب النَّفسِ في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثالثُها: أن يكونَ فِعلُ الإيواءِ قد نُزِّلَ منزلةَ الفعلِ اللّازِم، فلا يَفتَقِرُ إلى تَقديرِ مفعولٍ بِهِ أصلًا، ونُكتَةُ ذلكَ: الإشارةُ إلى عظيمِ صنيعِهِم، حتَّى كأنَّهُ لا إيواءَ في الوجودِ إلّا ما فعَلوهُ[1].

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالإيواء:

ظهورُ معاني الرّحمةِ والأمانِ، من مظاهر اللّطف والإنعام

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفيه آثرَ التّعبيرَ بالإيواء دون غيره؛ لأنّه يدلُّ على معنيين: الضَّمُّ، والانتهاء، وكأنّ الأنصارَ ضمّوا المهاجرين إليهم انضمامَ الجزءِ إلى الكلّ، وانضمامَ الأخِ إلى أخيه، كما قال تعالى في حقِّ يوسفَ عليه السلام: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾، وفي هذا دلالةٌ على الرّحمةِ الموجودةِ في قلوب الأنصارِ.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ المهاجرين وصلوا إلى غايتهم منَ الأمان؛ لأنَّ (آوى) بمعنى: انتهى، قال تعالى: ﴿إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾؛ أي: انتهينا إليها.

ولأنّ الإيواءَ صفةٌ ممدوحةٌ، فقد امتنَّ اللّهُ بها على المؤمنين المهاجرين في قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾، وفي هذا مدحٌ للأنصار[2].

سرُّ تقديمِ الإيواءِ على النُّصرة:

مراعاةُ التَّرتيب الزّمانيِّ والمكانيِّ

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ قدَّمَ الإيواءَ على النُّصرةِ بيانًا للواقع الّذي فعله الأنصارُ مع المهاجرين عندما وصلوا إلى المدينة المنوَّرةِ ؛ فآووهم إلى مساكنهم، فالإيواءُ هو المرحلةُ الأولى الّتي ذكرها القرآنُ مراعاةً للواقع المُعاش؛ ثمّ جاءتِ النّصرةُ مرحلةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338.
(2) الرّاغب، المفردات: (أوى).

تاليةً عند وقوعِ القتالِ مع المشركين، وفيه إشارةٌ إلى تقديم العامِّ على الخاصِّ؛ لأنّ النُّصرةَ جزءٌ منَ الإيواء.

التَّنويهُ بِشَأنِ المُهاجِرينَ والأنصارِ

دلالَةُ الإشارَةِ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ إظهارٌ للاهتمام بهم، وذلك بتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ[1].

والإشارَةُ إليهم باعتبارِ اتِّصافِهم بالصِّفاتِ الفاضِلَةِ المذكورَةِ قَبلُ، وفي ذلكَ تنويهٌ بشأنِهم، وحثٌّ لغَيرِهِم على التَّخلُّقِ بهذهِ النُّعوتِ الكريمَةِ.

الإيماءُ إلى عُلوِّ مَكانَةِ المُهاجِرين والأَنصارِ

دلالَةُ التَّعبيرِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أُشيرَ إلى المذكورينَ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ تعظيمًا لَهُم، وإشعارًا بعُلوِّ طبقَتِهم وبُعْدِ مكانَتِهم في الفضائِلِ[2].

المؤمنون ينصرون بعضَهم بعضًا

سرُّ التّعبيرِ بالولاية من بَعْضهِم لبَعْض:

آثَرَ التّعبيرَ بالولاية دون غيرها؛ لأنّها تحملُ معاني عديدة؛ منها: المحبّةُ والنّصرةُ والمودّةُ، وقدِ اجتمعَت كلُّ هذه الصّفات في ولاية المهاجرين مع الأنصار؛ فظهر التّوادُّ والتّحابُّ والتّناصرُ بينهم، حيث جاهدوا جميعًا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه، وفيها دلالةٌ على أنّهم كانوا يقتسمون الغنيمةَ بينهم بالسّويّة على النّظام الّذي قرّره اللّهُ تعالى في الغنائم؛ فلا فرقَ بين الأنصار والمهاجرين.

واستدلّ البعضُ بالتّعبير بالولاية في قوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ على الميراث بين المهاجرين والأنصار في أوّلِ أمرِ الهجرة؛ لأنّ هذا الأمرَ نُسِخَ فيما بعد بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/85.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3202.

دلالةُ التّعبيرِ بحرف (الواو):

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ آثرَ التّعبيرَ بالواو الّتي تفيدُ العطفَ؛ لأنّها عطفَت هذا القسمَ منَ المؤمنين على ما سبق ذِكْرُه منَ المهاجرين ومنَ الأنصار؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ عندما هاجر من مكّةَ إلى المدينة صار المؤمنون على قسمين؛ منهم مَن وافقَه في تلك الهجرة، وهاجر معه، ومنهم مَن بقي في مكّةَ دون أن يهاجر؛ فهؤلاء هم الّذين قال اللّهُ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ فكان العطفُ بالواو الّتي تدلُّ على الجمع؛ لإفادة اشتراكهم في صفةِ الإيمان[1].

الاشـــتراكُ في صـفـةِ الإيـمـان أسـاسٌ في أقسام المؤمنين الأربـعـة في الزّمان النّبويّ

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إِلَيهِ بِالمَوصوليَّة:

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ (الَّذينَ) بالمَوصوليَّة في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكوم به على المسنَدِ إليه، وبيانِ عِلَّةِ استِحقاقِهم الحُكمَ، وأنَّ الوِلايَةَ التّامَّةَ إنَّما تكونُ باجتِماعِ الإيمانِ والهِجرَةِ معًا.

تَـمـامُ الـوِلايَـةِ تَحصُلُ باجتِماعِ الإيمانِ والهِجرَةِ

وفي هذا حثٌّ على الهِجرَةِ والتَّنفيرِ مِن تَركِها؛ لتحصيلِ الوِلايةِ التّامَّةِ لأَهلِ الإيمانِ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فعلًا ماضيًا مع الإيمان:

جيءَ بِصلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ مِن قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ للإشعارِ بِتحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ فيهم، بخلافِ فِعلِ الهِجرَةِ، فقد جيءَ به مضارِعًا منفيًّا بـ (لَم)؛ للدِّلالَةِ على أنَّ الهِجرَةَ لَم تَقَع منهُم قبلُ، بقَطعِ النَّظَرِ عَن تحقُّقِها فيهم بَعدُ؛ حثًّا لهم على اكتِسابِها.

الـتَّـفـريـقُ بين تحقُّقِ الإيـمـانِ ووقوعِ الهجرةِ

سِرُّ النَّفي بـ ﴿وَلَمۡ﴾ دون (لن):

آثرَ القرآن النّفيَ في قوله: ﴿وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ بـ ﴿وَلَمۡ﴾ دون (لن) لوجود فرقٍ بينهما، وإن اشتركا في النّفي؛ إلّا أنّ النّفيَ بـ (لن) يحملُ

تبقى الفرصةُ قائمةً لمَن لم يهاجِر ليلتحقَ بِرَكْبِ المهاجرين

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/190.

معنى التّأبيد على رأي كثيرٍ منَ العلماء في الغالب، والقرآنُ يشيرُ إلى أنَّهم لم يهاجروا حتّى الآن، ولكن يمكنُ أن يهاجروا فيما بعد، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾.

سرُّ تكرارِ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

تعدُّدُ أصنافِ المؤمنين في زمانه ﷺ

كرّرَ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾؛ لأنّه في كلِّ موضعٍ يشيرُ إلى طائفةٍ منَ المؤمنين في زمانه ﷺ؛ فالموضعُ الأوَّلُ يشيرُ إلى المهاجرين، والموضعُ الثّاني يشيرُ إلى الأنصار، والموضعُ الثّالث يشيرُ إلى الّذين آمنوا، ولم يهاجروا إلى المدينة، وفي هذا دليلٌ على تعدُّد أصنافِ المؤمنين واختلافِ أوصافِهم زيادةً ونقصًا.

نُكتَةُ حَذفِ متعَلِّقِ الإيمانِ مِن الآية:

حَقيقةُ الإيمانِ مُستَقِرَّةٌ في نُفوسِ المُؤمنِين

حُذِفَ متعلِّقُ الفعلِ (آمَنوا) من قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ وهو المُؤمَنُ به، وفي ذلك مَسلَكانِ:

أحدُها: ظُهورُ أفرادِ المُؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ للإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، مِن غَيرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيصِ على متعلِّقه.

والآخرُ: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُموم، والمَعنَى: آمَنوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا، وفي هذا تعظيمٌ لشَأنِ الهِجرَةِ؛ حيثُ إنَّهم آمَنوا بجميعِ ما يجبُ الإيمانُ بهِ شَرعًا، ومع ذلك لم يَكُن لهم كمالُ الولايَةِ بسببِ تَركِهِمُ الهجرَةَ.

سرُّ الإتيان بنفي الولاية:

التّفريقُ بين الّذين آمنوا ولم يهاجروا وبين مَن آمن وهاجر

جاء قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لبيان حكم الّذين آمنوا ولم يهاجروا، وذلك بنفي الولايةِ عنهم للتّفريق بينهم وبين السّابق عليهم.

دلالةُ نفي الولاية:

دلَّ نفيُ الولايةِ في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ على حكم

شحذُ هممِهم للهجرة إلى المدينة

التَّعاملِ مع هذا الصّنفِ منَ المؤمنين؛ بأنّهم لا يتساوون مع الصّنفين السّابقين المهاجرين والأنصار في ولاية بعضهم لبعض منَ النُّصرة والإرثِ، والصّحيحُ قصرُ نفي الولايةِ هنا على الإرث دون النّصرة؛ لأنّ اللّه قال بعدها: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾.

دلالةُ تعدُّدِ القراءات في قوله: ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾:

تعدُّدُ القراءاتِ ثراءٌ للمعنى

في قوله تعالى: ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ قراءتان؛ الأولى: بكسر الواو لحمزة، والثّانية: بفتح الواو لباقي القرّاء؛ فمَن قرأ بفتح الواو جعلها بمعنى: النّصرة والتّأييد، ومَن قرأ بالكسر تكون الولايةُ بمعنى: الإمارة، وذلك للفصل بين المعنيين، وقد يجوزُ كسرُ الولاية؛ لأنّ في تولّي بعض القوم بعضًا جنسًا منَ الصّناعة كالقِصَارة والخِيَاطة فهي مكسورة[1]، وعلى هذا فالقراءتان تؤدّيان إلى نفي نُصرتِهم، وتولّي أمورِهم إلّا في حالةِ استنصارِهم للمسلمين بدليل قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾.

سرُّ التّعبير بالولاية المنفيّة:

ولايـةُ الإرثِ مغايرةٌ لولاية النَّصرِ

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾: آثرَ فيه التّعبيرَ بالولاية دونَ النُّصرة؛ لأنّ الولايةَ المنفيّةَ هنا هي الإرثُ دون ولايةِ النُّصرة؛ لأنّ اللّه قال بعد ذلك: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾؛ فالملاحظُ أنّه عطفَ هذه الآيةَ على ما سبق في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾، والمعطوفُ مغايرٌ للمعطوف عليه؛ فوجب أن يكونَ المرادُ بالولاية المذكورة أمرًا مغايرًا لمعنى النّصرة[2].

وذهب البعضُ إلى أنّ الولايةَ المنفيّةَ هي نعمةُ الجهادِ المشتركِ بين المهاجرين والأنصار ونعمةُ المؤاخاة، وبذلك يكون هذا الصّنفُ حُرِمَ من ولاية قسمةِ الغنيمةِ ومن ولاية المؤاخاة[3].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/193.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/193.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3203.

دِلالةُ (مِن) في ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾:

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في بيانِ دقائِقِ المعاني القُرآنيَّةِ

(مِنْ) في ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ - من قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ - صِلَةٌ يُرادُ بها تَوكيدُ النَّفيِ؛ فقَد نُفيَت عَنهُم الوِلايَةُ، ثُمَّ أُغرِقَ في هذا النَّفيِ، فجاء ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ لتَعُمَّ أيَّ نوعٍ مِن أنواعِ الوِلايَةِ، سواءٌ أكانَت في التَّوارُثِ أم في غَيرِهِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾:

دعوتهم إلى الانضمام للمؤمنين في المدينة

دلَّ هذا التّعبيرُ على دفعِ توهُّمٍ يَرِدُ في الخاطرِ بأنّ هذا الصِّنفَ مِنَ المؤمنين لمّا لم يهاجروا مع رسول اللّه ﷺ سقطَت ولايتُهم مُطلقًا؛ فأزالَ اللّهُ تعالى هذا الوهمَ بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾؛ يعني: أنّهم لو هاجروا لعادَت تلك الولاية وحصلَت، ودلَّ أيضًا على دعوتهم إلى الهجرة إلى المدينة وترغيبهم فيها؛ لأنّ المسلمَ متى سمع أنّ اللّه منعَهم مِنَ الولاية حتّى يهاجروا، لا شكّ أنّه سيسرعُ الخُطا إلى الهجرة رغبةً لِمَا فيها مِنَ النَّفعِ الدّنيويّ والفوزِ الأخرويّ.

نُكتَةُ تَقديمِ المُهاجِرينَ على الأَنصارِ:

تَفاضُلُ أَهلِ الإِيمانِ في تَحصيلِ أَفرادِ العَمَلِ الصَّالِحِ

بُدِئَ بالمهاجِرينَ قَبلَ الأنصارِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ لكونِ المهاجِرينَ أصلَ الإسلامِ، وأوَّلَ مَنِ استجابَ للّه تعالى، فتركوا أوطانَهُم صيانةً لدينِهم، وكانوا قُدوةً لغيرِهم في الإيمانِ، وسببًا في تقويَةِ الدّين وثباته؛ فبحصولهم على هذه الصّفات كانوا قدوةً لِمَن بعدهم، وأصبحوا سادةً للمسلمين إلى يوم القيامة، وثُنّيَ بالأنصارِ؛ لأنَّهم آووا المُهاجِرين، وبذلوا النّفسَ والمالَ في خدمةِ رسولِ اللّه ﷺ وإصلاحِ مهمّاتِ أصحابه، ومع ذلك فحالُ المهاجرين أعلى من حال الأنصار؛ لأنّهم السّابقون بالإيمان، ولأنّهم تحمّلوا العناءَ من قريشٍ زمنًا مديدًا، وتحمّلوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/342.

مفارقةَ الأوطانِ والأهلِ والجيرانِ، وكلُّ ذلك لم يحصُلْ للأنصار؛ لذلك قدّمَ القرآنُ ذِكْرَ المهاجرين على الأنصار.

دلالَةُ الخَبَرِ في الآيَةِ الكريمة:

الـتَّرغـيـبُ في الهِجرَةِ والتَّنفيرُ مِن تَركِها

قَولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، جاريَةٌ على أصلِها في إعلامِ أهلِ الإيمانِ بحكمٍ شرعيٍّ جديدٍ، ويدلُّ الخَبَرُ أيضًا على التَّرغيبِ في الهِجرَةِ[1] والتَّنفيرِ مِن تَركِها؛ لئلّا تَفوتَهُم بِتَركِها ولايَةُ أهلِ الإيمانِ، فهي بهذا الاعتبار مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ.

دلالةُ الواو في جملة الاستنصار في الدّين:

عطف الجُمَل لـلاشـتراك في الحُكْم الواحد

دلَّتِ الواو في قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ على عطف هذه الجملة على ما قبلها في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾، وذلك من باب عطفِ حُكمٍ على حُكمٍ؛ حيث ذُكِرَ في الجملة السَّابقةِ نفيُ الولايةِ لهم حتّى يهاجروا، وهنا ذكرَتِ الحكمَ الثّاني، وهو: إنِ استنصروكم فانصروهم، ولا تخذلوهم، فجامعُ العطفِ بينهما هو الاشتراكُ في الحكم.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَإِنِ﴾:

طلبُ النُّصرة يجوزُ وقوعُه مِنَ المؤمنين بأحوالٍ خاصَّةٍ

قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾، آثرَ التّعبيرَ فيه بـ ﴿وَإِنِ﴾ الّتي تفيدُ الشَّكَّ في الوقوع أو ندرة الوقوع؛ لأنّ طلبَ النُّصرةِ من هذا الصّنف مِنَ المؤمنين أمرٌ محتَملٌ نظرًا لبقائهم في موطن الأمانِ بين أقوامِهم وعدم تعرُّضِهم لمواقفَ تستدعي طلبَ النُّصرة.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإسلامَ يحترمُ المؤمنين مع اختلاف أحوالهم، وأنّ القليلَ منه يأخذُ حكمَ الكثير في النّصرة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/342.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾:

الاستنصارُ شاملٌ لكلِّ أنواع العَوْن

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾: آثرَ التّعبيرَ بالنَّصر؛ لأنّ معناه العونُ بكلّ أشكالِه سواءٌ كان العونُ ماديًّا أم معنويًّا، وفي هذا دليلٌ على أنّ هؤلاء المؤمنين في موطن الضَّعفِ من غيرهم، والإسلامُ يحرصُ على العزّةِ للمؤمنين في كلِّ مكانٍ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

دلالَةُ الحرف (في) ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾:

مَناطُ النُّصرَة الشَّرعيَّةِ الأُمورُ الدِّينيَّةُ

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿فِي﴾ الّتي تدلُّ على الظَّرفيَّة، والمعنى: أنَّهم مُتمكِّنونَ مِنَ الدّين تمكُّنَ المَظروفِ مِن ظرفِه، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ، تَؤولُ إلى معنى التَّعليل(1)، ويجوزُ أن تكونَ ﴿فِي﴾ بمعنى السّببيّةِ، ويكون المرادُ إن طلبوا نُصرَتَكُم بسَبَبِ أمرٍ مِن أُمورِ الدّين فانصروهم، إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق.

سرُّ تقييدِ النَّصرِ بكونه في ﴿ٱلدِّينِ﴾:

لا نصرةَ في قَبَليَّةٍ أو عَصَبيَّةٍ أو عَرَضٍ دُنيويٍّ زائلٍ

قيّدَ طلبَ النُّصرةِ بكونه في الدّين لإخراج النُّصرةِ من أجل العصبيَّةِ والقبليَّةِ ؛ فذلك أمرٌ مذمومٌ، وأيضًا لأنّ لفظَ الدّين لفظٌ عامٌّ، فتندرجُ تحتَه معانٍ كثيرةٌ ينبغي الحفاظُ عليها؛ فإذا تعرّضَ أمرٌ من أمور الدّين أو شعيرةٌ من شعائره للاستهزاء وللسّخرية ونحو ذلك، وجب على المسلمين نصرةُ هؤلاء المؤمنين الّذين لم يُهاجروا حتّى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيلٌ.

دلالَةُ (عَلَى) وأثرها في السِّياق:

وُجوبُ نُصرَةِ أهلِ الإيمانِ بَعضِهِم بَعضًا

آثرَ التّعبيرَ بـ(عَلَى) في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾؛ لأنّها للاستعلاءِ، والمُرادُ ههنا الدّلالَةُ على الوجوبِ والإلزامِ؛ لأنَّ مَعنَى الاستِعلاءِ مُتضَمَّنٌ فيه؛ أي: واجبٌ علَيكُم نَصرُهُم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/343، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.

نُكتةُ تَقديمِ الخَبَرِ ﴿فَعَلَيۡكُمُ﴾:

تقديمُ الخبرِ للاهتمام به

قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾، قُدِّمَ الخبَرُ ﴿فَعَلَيۡكُمُ﴾ لإرادَةِ الاهتِمامِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ المؤمنَ يحتمي بولاية المؤمنين مهما تباعدتِ الدِّيارُ، وتناءتِ الأقطارُ؛ فالمؤمنُ إذا استنصرَ بجماعة الإيمانِ وجبَت نُصرتُه.

دلالَةُ (ألْ) في ﴿ٱلنَّصۡرُ﴾:

أثَرُ مَعاني الحُروفِ في فَهمِ المعاني القُرآنيَّةِ

اللّامُ في لفظ ﴿ٱلنَّصۡرُ﴾ من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ لِلعَهدِ الذِّكريِّ، والنَّصرُ مذكورٌ في قولِهِ قبلُ: ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾؛ فإنَّهُ دالٌّ على طلَبِ نصرٍ، فلمّا ذُكِرَ النَّصرُ بَعدُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ كان راجِعًا إلى النَّصرِ الّذي طلبوهُ، والمَعنى: فعلَيكُم نَصرُهُم[2].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾:

النَّصرُ من أجلِ الدّينِ، وليس من أجلِ العصبيَّةِ

عبّرَ بالنَّصر مُعرَّفًا بـ(أل) دون إضافته إلى الضّمير (نصرهم)؛ للدّلالة على أنّ نصرَهم يكون من أجل الدّين، وليس من أجل الأشخاص؛ لأنّ البعضَ قد يُنصَرُ من أجل قرابةٍ أو منفعةٍ، لكنّ القرآنَ يريدُ أن يكونَ النَّصرُ من أجل الدّين؛ لذلك جاءَ التّعبيرُ مُعرَّفًا بـ(أل) دون التّعريف بالضّمير.

سِرُّ تقديمِ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ على ﴿وَبَيۡنَهُم﴾:

احترامُ الإسلامِ للمواثيق والعهود

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾ قدّمَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ للدّلالة على أنّ المسلمين في موضعِ القوَّةِ، حيث قدّمَهم في الذّكرِ ووجّهَ الخطابَ إليهم، وأمّا الفريقُ الآخرُ؛ فأخّرَهم في الذّكر، وعبّرَ عنهم بضمير الغيبة، وفي هذا دليلٌ على ضعفِهم وعدمِ ظهورِ قوتِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.

تعظيمُ الميثاقِ وَتَغليظُهُ، من أصول المعاملة في الإسلام

نُكتَةُ تنكيرِ ﴿مِّيثَٰقٌۗ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿مِّيثَٰقٌۗ﴾ من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ لإرادَةِ تعظيمِ هذا الميثاقِ وتَغليظِهِ.

دلالَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ (الله) بالعلميَّةِ:

ترهيبُ المُخاطَبينَ مِن مُخالَفَةِ أوامِرِ اللهِ تعالى بالتَّركِ، أو نَواهيهِ بالارتكابِ

عُرِّفَ المُسنَدُ إليهِ (الله) بالعَلَميَّةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ لإظهارِ المَهابَةِ بالتَّصريحِ بالاسمِ الأَحسَنِ الجامِعِ لِصِفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ، وفيهِ أَيضًا تَرهيبُ المخاطَبينَ مِن مخالفَةِ أوامِرِ اللّهِ تعالى بالتَّركِ أو نَواهيهِ بالارتكابِ.

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميعِ أَحوالِ الخَلقِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تأكيدًا لِعِلمِ اللّهِ سُبحانَهُ بالخفايا؛ وذلك أنَّ السّياقَ لَمّا كانَ في بيانِ المصالحِ الَّتي تُنَظِّمُ الدِّينَ، وكانَ للنُّفوسِ أحوالٌ متبايِنَةٌ؛ اقتضَى ذلكَ تأكيدَ عِلمِ اللّهِ ﷻ[1].

وفي تقديمِ الجارِّ والمجرورِ اهتمامٌ بالمقدَّمِ، وذلكَ أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ عالِمٌ بما يَعمَلُ المخاطبونَ وعالِمٌ بجميعِ أحوالِ الخلقِ، فكانَ التَّقديمُ مُفيدًا الاهتمامَ بالمقدَّمِ لكونِ السّياقِ في أعمالِهِم، لا دالًّا على الحَصرِ.

بلاغَةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيَةِ الكريمةِ:

التَّنويهُ بِشَأنِ الوَفاءِ بالعَهدِ، وأهميتِهِ في الإسلامِ

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ وجُملَةُ التَّذييلِ وارِدَةٌ على جِهَةِ التَّحذيرِ للمسلمينَ؛ لئلّا يحمِلَهُم العَطفُ على إخوانِهِم المسلمينَ على أن يُقاتِلوا قومًا عقدوا معَهُم ميثاقًا، ولازِمُ هذا التَّحذيرِ التَّنويهُ بشأنِ الوفاءِ بالعَهدِ[2].

وفي جملةِ التَّذييلِ أيضًا تَرغيبٌ وتَرهيبٌ: ترغيبٌ في العَمَلِ بما جاءَ الحثُّ عليهِ مِنَ الإيمانِ والهِجرَةِ وتوابِعِهِما، وترهيبٌ مِنَ العمَلِ بِضِدِّ ذلكَ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿بَصِيرٌ﴾:

الأحداث المُشاهَدَةُ قُوبِلَت بالصِّفةِ الدّالَّةِ عليها

آثرَ التّعبيرَ بلفظ ﴿بَصِيرٌ﴾ دون (عليم) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لأنّ السِّياقَ هنا يتعلَّقُ بأحداثٍ مُشاهدَةٍ، ناسَبَها التّعبيرُ بالبصير؛ فأمرُ الإيواءِ والنُّصرةِ والهجرةِ والجهادِ كلُّها أمورٌ مُشاهدَةٌ تقعُ تحتَ بصرِ اللّهِ ﷻ، وفي ذلك تقويةٌ لمضمون الكلام عند المؤمنين وتقريرُه في نفوسهم، أمّا العلمُ فيتعلَّقُ بأمر النّيّات والخفايا، وما ذُكِرَ هنا ليس من هذا الباب.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الميثاقُ والعهدُ:

الميثاقُ عهدٌ مؤكَّدٌ بيَمِينٍ

آثرَ التّعبيرَ بالميثاق دون العهد؛ لأنّه أبلغُ، فالميثاقُ عهدٌ مؤكَّدٌ بيمين، ولذلك يستخدمُه القرآنُ الكريمُ في الأمور المغلظة، مثل: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النساء: 154]، ومثل الحديث على ميثاق النّبيّين، وفي الحديث عنِ المعاهدات الّتي تُعقَدُ بين المسلمين وغير المسلمين، سمّاها القرآنُ ميثاقًا كما في هذه الآية.

وأيضًا لأنّ الميثاقَ أخصُّ منَ العهد؛ فكلُّ ميثاقٍ عهدٌ، وليس كلُّ عهدٍ ميثاقًا، ويدُلُّ الاشتقاقُ اللُّغويُّ على هذا الفارقِ؛ فإنَّ الميثاقَ مِن قولِهم: أوثقتُ الشَّيءَ؛ أي: أحكمتُه[1].

وذكرَ الشَّوكانيُّ فرقًا آخرَ بينَهما[2] لا يَرجِعُ إلى أَصلِ اللُّغة: وهو أنَّ العهدَ جميعُ ما عَهِدَ اللّهُ تعالى على العبادِ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي، والميثاقَ ما أخذَه اللّهُ سُبحانَهُ على عبادِه حين أخرجَهُم من صُلبِ آدمَ في عالم الذَّرِّ؛ وهو الواردُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: 172].

---

(1) ابن القطّاع، كتاب الأفعال: 3/304.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/94.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال: 73]

ربط شروط موالاة المؤمنين بمفهوم موالاة الكافرين الذّين هم بالكفر ملّةٌ واحدةٌ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بيَّنَ اللّهُ ﷻ في الآية السّابقة شرطَ موالاةِ المُسلمينَ لأهلِ الإسلام بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾؛ بَيَّنَ هنا موالاةَ الكافِرينَ بعضِهم بعضًا، وأنَّهُ لا شَرطَ فيها إلّا مُطلَقُ الكُفرِ، فهو وإنِ اختَلَفَت أنواعُهُ، وتعدَّدَت ضُروبُهُ، يَجمَعُهُ عداوَةُ اللّه سُبحانَهُ وولايَةُ الشَّيطانِ وحزبِهِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: أصل الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهب النَّارَ لتظهرَ جودتُه من رداءته، ولذلك تذكرُ بعضُ كتبِ اللّغةِ أنّ الفاءَ والتّاءَ والنّونَ تدورُ تصريفاتُها على إذابةِ مادَّةِ باطنِ الشَّيءِ وتحويلِها؛ بإدخالها نارًا حارَّةً، ومنه إذابةُ الذّهب والفضَّة[2].

والفتنةُ تُستعمَلُ في إدخال الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وتُطلَقُ على العذاب، قال تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾؛ أي: عذابَكم، وتارةً يُسمُّون ما يحصلُ عنه العذاب، فيُستعمَلُ فيه نحو قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾، وتارةً في الاختبار نحو: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾. والفتنةُ منَ الأفعال الّتي تكون منَ اللّه تعالى ومنَ العبد؛ كالبليّةِ والمُصيبةِ والقتلِ والعذابِ وغيرِ ذلك منَ الأفعال الكريهةِ، ومتى كان من اللّه يكون على وجه الحكمةِ، ومتى كان من الإنسان بغير أمرِ اللّهِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).

يكون بضدّ ذلك، ولهذا يذمُّ اللّهُ الإنسانَ بأنواع الفتنةِ في كلّ مكانٍ نحو: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

والفِتنَةُ في الأرضِ: قوَّة الكُفر[2]، وَوجهُ التَّحويلِ في هذا المَعنَى ظاهِرٌ؛ وذلِكَ أنَّ الأصلَ في الأرضِ أنَّ اللّه سُبحانَهُ جعلَها على الإيمانِ والتَّوحيدِ، فَفُشوُّ الكُفرِ فيها وقوَّتُهُ تحويلٌ للأرضِ عمّا ينبغي أن تَكونَ عليهِ.

2) ﴿وَفَسَادٌ﴾: الفَسادُ: خروجُ الشّيء عنِ الاعتدال قليلًا كان أو كثيرًا، وضدُّه الصَّلاح؛ وهو البُطلانُ والاضمِحلال، ويأتي بمَعنَى التَّغيُّر[3]، ويُستعمَلُ ذلك في النَّفسِ والبدنِ والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامة[4].

والمعنى الجامِعُ له أنَّهُ خُروجُ الشَّيءِ عَنِ الاعتِدال والاستِقامة[5]، فيكون في الأرضِ بتَهييجِ الحُروبِ والفِتَنِ، وانتفاءِ الاعتِدالِ والاستقامَةِ عَن أحوالِ النَّاسِ وزَرعِهم وسائِرِ منافِعِهم، وتولّي المؤمِنِ الكافِرَ دونَ المؤمِنِ[6].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مــوالاةُ الـكـافـرِ فـتـنـةٌ كـبـيـرةٌ، والولاء العقديُّ لُحمة ورِباط

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنّ الّذينَ كفَروا باللّهِ تعالَى ورسولِهِ ﷺ بَعضُهُم أعوانُ بَعضٍ، وليس لكم أن توادّوهم أو تتّخذوهم أصدقاءَ مهما كانوا منَ القرابةِ والصّلة، وإن لَم تَفعَلوا - أيُّها المؤمِنونَ - ما أُمِرتُم بِهِ تكُنْ في الأَرضِ فِتنَةٌ للمُؤمِنينَ عَن دينِ اللّهِ سُبحانَهُ، وفسادٌ عريضٌ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللّهِ تعالى وتَقويةِ دعائِمِ الكُفرِ[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(2) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/282.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فسد).
(4) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(5) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/87، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 14/84 - 87، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في الجملة المبدوءة بالموصول:

مِن طَرائقِ القُرآنِ الكريمِ ذِكرُ الأَشياءِ المتَناظِرَةِ المتَقابِلَةِ

الواوُ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ عاطِفَةٌ، وصَلَت هذهِ الجُملَةَ بما قبلَها؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين؛ فإنَّ كُلًّا مِن هذهِ الجملَةِ وما عُطِفَت عليهِ مِن قولِ اللّٰهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ خبريَّةٌ، وبينَهُما جامِعٌ وهو التَّضادُّ؛ فإنَّ اللّٰه تعالَى لَمّا ذَكَرَ وِلايةَ أهلِ الإيمانِ ذَكَرَ ولايةَ أهلِ الكُفرِ، وبينَ الجُملَتَينِ تناسبٌ من جِهَةِ الاتِّفاقِ في لفظِ المُسنَدِ إليه (الّذين)، وإنِ اختلفَ متعلِّقُهما، واتَّحدا في اسميَّةِ الجُملَةِ، ويَجوزُ أن تَكونَ الواوُ للتَّقسيم؛ وذلك لأنَّ الآيَةَ في بيانِ حُكمِ القِسمِ المقابِلِ لقولِه تعالى قَبلُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾[1]. ولا تعارُضَ بينَ دِلالةِ الواوِ على التَّقسيمِ وبينَ كَونِها عاطِفَةً.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالمَوصوليَّةِ:

أَهلُ الباطِلِ يُوالي بَعضُهُم بَعضًا على باطِلِهِم

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ (الَّذينَ) بالموصوليَّةِ في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الحُكمِ المذكورِ في الخَبَرِ، وأنَّ تَوَلِّي بعضِهِم بعضًا إنَّما كانَ بسبَبِ اجتماعِهِم على الكُفرِ.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ جَمعًا:

كَثرَةُ أهلِ الكُفرِ مَعَ اختِلافِ مَشارِبِ كُفرِهِم

إيرادُ الاسمِ الموصولِ جَمعًا في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾؛ فيهِ إشعارٌ بكَثرَةِ أهلِ الكُفرِ؛ وذلِكَ لأنَّ الكُفرَ أنواعٌ متعدِّدَةٌ، كُلُّ نوعٍ من أنواعِهِ يندرِجُ تحتَه أفرادٌ كثيرونَ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحقُّقُ وَصفِ الكُفرِ مُوجِبُ الموالاةِ عليه

جيءَ بِصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿كَفَرُواْ﴾ من قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.

الكُفرِ فيهِم، وأنّهم همُ الّذين حرصوا على رسوخ الكفرِ في قلوبِهم، حتّى فقدوا الاستعدادَ للإيمان، وفيه إشارةٌ إلى التّنفير من وصف الكُفرِ وتقبيحه، حتّى ولو كان في كُفر النّعمةِ.

نُكتَةُ حَذفِ متعلّقِ الكُفرِ:

إغراقُ أَهلِ الكُفرِ في الباطِلِ، بِتَكذيبِهِم جميعَ ما أَوجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ بِهِ

حُذِفَ متعلّقُ الفعلِ (كَفَروا) مِن قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ وهو المَكفورُ بِه؛ لإرادَةِ العُمومِ، وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُؤذِنٌ بذلك، والمَعنَى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤمِنوا بِهِ شَرعًا.

وأيضًا للدّلالة على أنّ كُفرَهم لا يقتصرُ على الكفر باللّه ورسله إلى آخر ما يجبُ الإيمانُ به، بل يتعدّى كفرُهم إلى جحودِ كلِّ نعمةٍ وخيرٍ.

دلالَةُ التّعبيرِ بالجملة الخَبَرِيّة:

تَحريمُ مُوالاةِ المُسلِمينَ للكافِرينَ

قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ خَبَرٌ، وهوَ مُستَعمَلٌ في مَعناهُ الكِنائيِّ؛ وهو النَّهيُ عن موالاةِ المسلمينَ لأهلِ الكُفرِ عمومًا، سواءٌ أكانت هذه الموالاة في الميراث؛ فلا يرثُ المسلمُ الكافرَ، والنَّصُّ النَّبويُّ في هذا صريحٌ: «لا يرثُ المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ»[1]، أم بمعنى المؤازرةِ والمناصرةِ، وعلى ذلك فالآيةُ تدلُّ بمفهومها على نفي الوراثة بين الكفّار والمؤمنين، وأيضًا نفي المؤازرة، وتدلُّ على إيجابِ المباعدةِ والمصارمةِ بين المسلمين والكافرين، وإن كانوا أقاربَ[2].

والقَرينَةُ على هذهِ الدِّلالَةِ أنَّ الإخبارَ المحضَ عَن ولايةِ الكُفّار بعضِهم بعضًا ليسَت ممّا يَهُمُّ أهلَ الإسلامِ لولا إرادَةُ النَّهيِ عَن موالاةِ المسلمينَ إيَّاهم[3].

---

(1) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6764)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1614).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/38.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾:

الكفّارُ كلُّهم يدٌ واحدةٌ على المسلم، وهم يتكاتفون ضدَّه

دلَّ هذا التّعبيرُ على أنّ الكفّارَ يُوالي بعضُهم بعضًا لاجتماعهم على الكفر، وإنِ اختلفَت مللُهم، كما حصلَ بين اليهود ومشركي مكّةَ؛ فكلُّ فريقٍ منهم يُوالي الآخرَ من أجل القضاءِ على المسلمين، يؤكّدُ ذلك التّعبيرُ بالبعضيّة الّذي يشيرُ إلى أنّهم، وإنِ اختلفَت مذاهبُهم ومِللُهم، بمنزلة الجزءِ منَ الكلِّ، والعُضو منَ الجسد في حربهم على الإسلام والمسلمين.

سرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾:

صيغةُ (فعل) أعمُّ من (عمل)

آثرَ التّعبيرَ بالفعل دون العمل مثلًا؛ لأنّ الفعلَ أعمُّ منَ العمل، والمرادُ هنا العموم في ولاية المؤمنين بنُصرتهم ومؤازرتهم وقطع ولاية الكافرين بكلِّ أصنافها، ولو دعَتِ الأسبابُ إلى ذلك من قَرابةٍ ونحوها.

دلالةُ واو الجماعة في قوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾:

الأمةُ جمعاء مطالبةٌ بموالاة المؤمن دون الكافر

دلَّ التّعبيرُ بواو الجماعة على أنّ الأمةَ في كلِّ أفرادها مجتمعةً مطالبةٌ بقطع ولاية الكافرين وموالاة المؤمنين لبعضهم البعض بالمؤازرة والمناصرة؛ للحفاظ على بَيْضتها ولُحمتها، ومَن وقفَ على تاريخ الدُّولِ الإسلاميَّةِ الّتي سقطَت وبادَت يجدُ أنَّ السّببَ الأعظمَ في سقوطِها وإبادتِها مخالفتها أمرَ اللّه في ترك ولايةِ الكافرين، واستُبدلَت ولايةُ المؤمنين بعضَهم بعضًا بولاية الكافرين.

تَعَدُّدُ مَرجِعِ الضَّميرِ في سياق الآية:

تَعَدُّدُ المعاني القُرآنيَّةِ بتَعَدُّدِ أوجُهِ مَرجِعِ الضَّميرِ

الضَّميرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ يجوزُ أن يعودَ على الميثاقِ، والمرادُ: حِفظُهُ، أو على النَّصرِ، أو على التَّوارُثِ، وجائزٌ أن يعودَ على مجموعِ ذلك كُلِّهِ[1]، فيكونُ الضَّميرُ بمنزلَةِ اسم الإشارَةِ الّذي يُشارُ بهِ إلى كلِّ ما تقدَّمَ[2]. والأظهَرُ أنَّ الضَّميرَ راجِعٌ إلى قولِهِ سُبحانَهُ:

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/359.

(2) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/158.

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾، على معنى: إنْ لَم تفعلوا مِثلَهُ مِن موالاةِ المسلِمينَ، ومعاداةِ الكافرين[1]، ولذا قال الزَّمخشريُّ في تفسير هذه الآية: "إلّا تَفعَلوا ما أمَرتُكم بِهِ مِن تَواصُلِ المُسلِمين، وتَوَلّي بَعضِهِم بَعضًا..."[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿تَكُن﴾:

الفتنةُ كائنةٌ بمخالفة سُنَن الله

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يدلُّ التّعبيرُ بقوله: ﴿تَكُن﴾ على أنّه من سُنَنِ اللّه الكونيّة، أنّ ترْكَ ما أمرَ اللّهُ به عمومًا، وفي النّهي عن موالاة الكافرين خصوصًا، يؤدي إلى العواقبِ الوخيمةِ والأضرارِ الجسيمةِ على مستوى الفرد والأمَّةِ، ويؤكِّدُ الواقع ما أصاب الأمةَ من خَسارةٍ فادحةٍ لمّا اتّخذَتِ الكفّارَ أولياءَ، ولم يكن ذلك أمرًا عفويًّا، بل هو نتيجةٌ لمخالفة سنن اللّه.

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفتنة:

الفتنةُ وقعُها شديدٌ، حذّرَ القرآنُ منها أشدَّ التحذيرِ

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالفتنة؛ لأنّها تُطلَقُ على معانٍ عديدة منَ الابتلاءِ والاختبارِ والعذابِ والشِّدَّةِ، وكلُّ ذلك قد حدثَ للمسلمين في مبدأ الدّعوة، فحاول الكفّارُ أن يفتنوهم عن دين اللّه، فأمرَ الرّسولُ ﷺ بعضَ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، وبعدَ بيعةِ العقبة اشتدَّ إيذاءُ مشركي مكّةَ للمؤمنين، فأصابَهم جهدٌ شديدٌ، وما المقاطعةُ الاقتصاديّةُ الّتي فعلَتها قريشٌ إلّا دليلٌ على شدّة هذه الفتنة وعِظمها.

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿فِتۡنَةٞ﴾:

ضَعفُ أهلِ الإيمانِ وقوَّةُ أهلِ الكُفرِ

دلَّ تنكيرُ ﴿فِتۡنَةٞ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾على الخطر العظيمِ[3] النّاتجِ عن هذه الفتنة في واقعِ الأمَّةِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/345.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/346، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/233.

والمعنى: إلّا تفعَلوه تَحصُلُ فِتنَةٌ عظيمَةٌ في الأرضِ؛ بضعفِ أهلِ الإيمانِ وقوَّةِ أهل الكُفر.

سِرُّ عدمِ وصفِ الفتنةِ بالكِبَر:

قليلٌ مِنَ الفتنة كـافٍ للتّحذير منه

لم يصفِ القرآنُ الكريمُ الفتنةَ بالكِبَر بأن يقولَ: (فتنةٌ كبيرةٌ)؛ لأنّ القليلَ مِنَ الفتنة خطرُه عظيمٌ؛ فما احتاجَت أن تُوصَفَ بالكبيرة؛ فكيف لو وصفَها بالكبيرة؛ بخلاف الفسادِ فمنه الصّغيرُ والكبيرُ، لذلك وصفه فيما بعدُ بالكبير؛ ليُفرِّقَ بين فسادٍ يتعلَّقُ بالأمّة ودينِها وفسادٍ يتعلَّقُ بأمرٍ دنيويٍّ أو شخصيٍّ.

دلالَةُ اللّامِ في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مَن أحدَثَ فِتنَةً في بُقعَةٍ مِنَ الأَرضِ؛ كانَت بِمَنزِلَةِ الفِتنَةِ في الأَرضِ كُلِّها

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البِقاعِ المندرجةِ تَحتَ لَفظِها، وهذه الدِّلالَةُ تقتضي شناعَةَ مَن ألحَقَ الفِتنَةَ في أيِّ بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ؛ لأنَّ مَن فَعَلَ ذلك؛ فقد ألحقَ فسادًا في تِلكَ البُقعَةِ بالفِعلِ، وفي جَميعِ البِقاعِ الأُخرَى بالقوَّةِ.

وممّا يُذكَرُ في دلالة (أل) في الأرض أنّ ما يحدثُ في أيّ بقعةٍ من بقاعها شرقًا أو غربًا صار معلومًا لكلِّ أهلِ الأرضِ في الغالب؛ فهي وإن كانت قديمًا متباعدةً فهي الآن متقاربةٌ كالقرية الواحدة.

سِرُّ التَّنصيصِ على مَحَلِّ الفِتنَةِ:

الإخـلالُ بالمكانِ الّذي يَعيشُ فيهِ المَرءُ مِن أعظَمِ القَبائِحِ

التَّنصيصُ على محلِّ الفِتنَةِ - وهيَ الأرضُ - في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه المبالغَةُ في حَملِهم على الامتثالِ لما أُمِروا بِهِ؛ تجنُّبًا لظهورِ الفِتنَةِ في الأرضِ، وهي المحلُّ الّذي خُلِقوا منه، وعلى ظَهرِهِ يعيشونَ، وإليه يَرجِعونَ، فقَمِنٌ ألّا تَقَعَ فيه فِتنَةٌ.

سِرُّ الجمعِ بين الفتنةِ والفسادِ:

قوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، جمعَ

الفتنةُ خاصَّةٌ، والفسادُ عامٌّ، وكلاهما واقعٌ بمخالفة أمر الله

القرآنُ الكريمُ بينهما للمبالغة في التّحذير في عدمِ فعلِ ما شرعه اللّهُ للمؤمنين من ولايةِ بعضهم لبعض وتناصُرِهم وتعاونِهم تجاه ولاية الكفّار؛ وذلك لأنّ الأثرَ المُترتِّبَ على ذلك أثرٌ خاصٌّ وأثرٌ عامٌّ ؛ فالفتنةُ أثرٌ يختصُّ باضطهادِ المسلمين وصدِّهم عن دينهم، وهذا واضحٌ في هذه السّورة، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، وتعني الفتنةُ أيضًا: التباسَ الأمرِ وعدمَ وضوحِ الحقيقةِ عند بعض المسلمين؛ أمّا الفسادُ؛ فأثرُه عامٌّ على كيان الأمّة، ومظهرُه استضعافُ دولةِ الإسلامِ وفرضُ الشُّروطِ عليهم والتَّحكّمُ في شعائرهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالفساد:

كلُّ ضررٍ بالمؤمن في دينه ودنياه هو فساد

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، آثرَ التّعبيرَ بالفساد دون غيره؛ لأنّه لفظٌ عامٌّ تندرجُ تحتَه كلُّ أنواعِ الخروجِ عن حدِّ الاعتدالِ كُفرًا وشِركًا، ويشملُ ما يقعُ في النّفس والبدن والأشياء، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ولايةَ المؤمنين للمؤمنين صلاحٌ، وأنّ ولايةَ الكافرين للمؤمنين فسادٌ.

دلالَةُ تَنكيرِ لفظ (فَسادٌ):

تَـركُ موالاةِ أهلِ الإسلامِ بَعضِهم بَعضًا مِنَ الفَسادِ العَظيمِ في الأرضِ

نُكِّرَ لَفظُ (فَساد) مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيمِ؛ أي: تَحدثُ في الأَرضِ فتنَةٌ عظيمَةٌ وفسادٌ عظيمٌ وكبيرٌ.

ويجوزُ أَن يكونَ التَّنكيرُ لإرادَةِ النَّوعِ؛ أي: يَحصُلُ نوعٌ مِنَ الفسادِ مُبايِنٌ لِما عُهِدَ مِنه، وهذه الدِّلالَةُ تؤولُ إلى ما قبلَها؛ لأنَّ هذا الفسادَ إنّما بايَنَ سائرَ أنواعِ الفسادِ؛ لعِظَمِه وشدَّةِ شناعَتِه.

دلالَةُ وَصفِ الفَسادِ بالكِبَر:

اجتِماعُ الكِبَرِ المادّيِّ والمعنويِّ في الفَسادِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، وُصفَ الفَسادُ بِالكِبَرِ مبالغَةً في تعظيمه وإظهارِ خُطورَتِه، فاجتَمَعَ فيه نوعان: فسادٌ مادّيٌّ وفسادٌ معنويٌّ، وبيانُ ذلك من وجهين:

أوّلًا: أنّ المسلمين لو اختلطوا بالكفّار في زمانِ ضعفِ المسلمين وقلّةِ عددهم وزمانِ قوّة الكفّار وكثرةِ عددهم؛ فربما صارَت تلك المخالطةُ سببًا لالتحاق المسلم بالكُفّار.

ثانيًا: أنّ المسلمين لو كانوا متفرِّقين لم يظهرْ منهم جمعٌ عظيمٌ؛ فيصير ذلك سببًا لجرأة الكفّار عليهم، وهذا فسادٌ كبيرٌ[1].

بَراعَةُ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

إبـرازُ الفَسادِ في صـورَةِ المَحسوساتِ مُبالَغَةٌ في بَيانِ شَناعَتِهِ

وَصْفُ الكِبَرِ في الأصلِ يُطلَقُ حقيقةً على عِظَمِ الأجسام، ووصفُ الفسادِ بالكِبَرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ مُستعارٌ للفسادِ الشَّديدِ القَويِّ[2]، على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والنُّكتَةُ في ذلكَ: إبرازُ الفسادِ، وهوَ معنويٌّ في صورةِ المحسوسِ مبالغَةً في تَشنيعِهِ.

سرُّ وَصْفِ الفسادِ بالكبيرِ:

الفسادُ الكبيرُ هو ما عَمَّ وطَمَّ حتّى أهلكَ الحرثَ والنّسلَ

آثَرَ الوصفَ بالكبير دون العظيم؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالعَظيمُ قد يكونُ مِن قِبَلِ الكَثرَةِ ومن غيرِها[3]، فتقولُ: جاءَ خَلقٌ عظيمٌ، تُريدُ مِن جِهَةِ كَثرَةِ عَدَدِهِم، وتقولُ: هذا ذنبٌ عظيمٌ، مِن جِهَةِ مِقدارِهِ لا مِن حيثُ كَثرَتُهُ؛ إذ هو ذنبٌ واحدٌ، أمّا الكَبيرُ فهو بحسَبِ الشَّأنِ والمِقدارِ فحَسبُ، ولا مَدخَلَ للقِلَّةِ والكَثرَةِ فيه؛ لذلك كان التّعبيرُ في وصفِ الفسادِ بالكبيرِ.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/88.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 183.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾

[الأنفال: 74]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أهلُ الفضل والإيمان درجاتٌ، والله يُجازي كُلًّا بما قدَّمت يداه

لَمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ فيما سبق أصنافَ أهلِ الإيمانِ؛ وهُمُ المهاجِرونَ، والنّاصرونَ، والقاعِدونَ عنِ الهِجرَةِ، وفصَّلَ أحكامَ موالاتِهم؛ بيَّنَ في هذه الآيَةِ تفاوُتَهُم في الفَضلِ وتمايُزَهُم في الشَّرَفِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[1].

وممّا يُذكَرُ في وجه المناسَبَة أنّه لمّا قسَّمَ المؤمنين في زمان النّبيّ ﷺ فيما سبق إلى ثلاثة أقسام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ الآية، بيّن في هذه الآية أنّ الكاملين في الإيمان منهم هم الّذين حقَّقوا إيمانَهم بتحصيل مُقتضاه منَ الهجرةِ والجهادِ وبذلِ المالِ ونُصرةِ الحقِّ ؛ فكان لهم مِنَ اللّه الوعدُ الكريمُ بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّغْفِرَةٞ﴾: الغَينُ والفاءُ والرّاء تدلُّ أكثرُ تصاريفِها على مَعنى السَّترِ، ومِنهُ: الغفرُ؛ وهو السَّتر[3]، وقال الرّاغب: "الغَفرُ: إلباسُ ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/347.
(2) القونوي، حاشية القونويّ: 9/139.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).

يَصونُه عَنِ الدَّنسِ"[1]، وهو راجعٌ إلى مَعنَى السَّترِ، والمغفرةُ شرعًا: سَترُ الذَّنْبِ والتَّجاوزُ عنه[2].

2) ﴿وَرِزۡقٌ﴾: الرّاءُ والزّايُ والقافُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على العطاءِ[3]، فالرِّزقُ: العطاءُ، أو هو ما يُنتَفَعُ به[4]، والمَصدَر: الرَّزق بفتح الرَّاءِ، والرِّزقُ هو الاسمُ، وقد يُستعمَلُ بمعنى المَصدَرِ[5].

والمُرادُ بالرِّزقِ في قولِه تعالى: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ العطاءُ الّذي يُعطَونَهُ في الجنَّةِ[6]، ويجوزُ أن يُرادَ بها رزقُ الدُّنيا والآخِرَةِ[7]، وهو أنسبُ لجزيلِ عطاءِ اللّهِ تعالى وجليلِ إحسانِهِ سُبحانَهُ على عبادِهِ المؤمنينَ.

ويُطلَقُ الرِّزقُ إطلاقاتٍ متعدِّدةً[8]: أَوَّلُها: العطاءُ الجاري، ومنه قولُهُم: رَزَقَ السُّلطانُ جُندَه، ثانيها: النَّصيب، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ﴾ [النَّحل: 75]، ثالثُها: ما يَصِل إلى الجَوف ويُتَغذَّى به، ومنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَو أَنَّكُم تَوكَّلتُم على اللّهِ حَقَّ تَوكُّلِه؛ لَرَزَقَكُم كما يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا»[9]، رابِعُها: كُلُّ خيرٍ وَصَلَ إلى صاحبِه، ومنه قَولُهُم: رَزَقَ اللّهُ فلانًا عِلمًا.

المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ فضلِ المؤمنين والمجاهدين والمناصرين عند الله ربّ العالمين

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ أنّ الّذينَ آمَنوا باللّهِ ﷻ ورَسولِهِ

(1) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(2) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/85.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رزق).
(4) الجوهريّ، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة: (رزق).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/82.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 2/557.
(7) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3209.
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (رزق)، وابن الجوزيّ، نزهة الأَعيُن النّواظِر، ص: 324.
(9) رواه التِّرمذي في سننه: (2344)، وابن ماجَه في سننه: (4164)، وصحّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة، رقم: (310).

ﷺ، وفارَقوا ديارهُم قاصِدينَ دارَ الإسلامِ، أو بلَدًا يَتمَكَّنون فيه مِن عِبادَةِ رَبِّهم سُبحانَهُ، وجاهَدوا لإعلاءِ كلمةِ اللّهِ تعالى، والّذينَ آوَوا رَسولَ اللّهِ ﷺ والمُهاجِرينَ مَعَهُ، ونَصَروهُم، وواسَوهُم بالمالِ والتَّأييد، ونَصَروا دينَ اللّهِ تعالى، أولَئِكَ هُم أهلُ الإيمانِ باللّهِ ورَسولِه حقًّا، لهم مَغفِرَةٌ لِذُنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ واسِعٌ في جَنّاتِ النَّعيم(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصلِ الجملة بما قبلَها في السِّياق:

مِـن طَـرائِـقِ القُـرآنِ الكَـريمِ ذِكـرُ الأَشـيـاءِ المتُقابِلَةِ؛ زيادَةً في البَيانِ

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ بما قَبلَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين؛ وذلك أنَّ كلتا الجملَتينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما جامعٌ وهميٌّ؛ وهو التَّضادُّ بين الإيمانِ والكُفرِ، وبينَ الجُملَتَينِ تناسبٌ؛ إذ قد اتَّفقَتا في لفظِ المُسنَدِ إليه (الّذين)، وإن اختلفَتا في مُتعلَّقِه، واتَّحدتِ الجُملَتانِ أيضًا في الاسميَّةِ.

بلاغةُ الاعتراضِ في الآيةِ الكريمة:

التَّنويهُ بِشَأنِ المُـهـاجِـريـنَ والأَنـصارِ وبَيانُ عَظيمِ جَزائِهِم

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جُملَةٌ مُعترِضَةٌ بينَ قَولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾، فالواوُ على هذا الوَجهِ اعتراضيَّةٌ، ونُكتَةُ الاعتراضِ هَهُنا: التَّنويهُ بشأنِ المهاجرينَ والأَنصارِ، وبيانُ جزيلِ ثوابِهِم بعدَ بيانِ أحكامِ ولايَةِ بعضِهِم بعضًا(2).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/88، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.

نُكتةُ تَعريفِ المُسنَدِ إِلَيهِ بالمَوصوليَّةِ:

حثُّ المُخاطَبينَ على استِكمالِ مَراتِبِ الإيمانِ الحَقِّ

جيءَ بالمسنَدِ إِلَيهِ (الَّذينَ) اسمًا موصولًا في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ به على المسنَدِ إليهِ؛ وأنَّه من جنسِ التَّكريمِ والتَّشريفِ، وفيه إشعارٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذهِ الرِّفعَةَ الإيمانيَّةَ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، وأنَّ هذِهِ المَنقَبَةَ - وهيَ الحُكمُ بكمالِهم في الإيمانِ - مُسَبَّبٌ عن إيمانِهم وهِجرَتِهم وجهادِهم بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ اللّهِ.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

كَثرةُ المُؤمِنينَ الجامِعينَ الصِّفاتِ الجَليلةَ

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ باسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الّذي يدلُّ على الجمعِ في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾؛ للإشعارِ بكَثرَةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جَمَعوا هذه الأوصافَ الجليلَةَ؛ مِنَ الهجرَةِ والجِهادِ، وما نتَج عنهما من أعمالٍ صالحةٍ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحقُّقُ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ فيهم

جاءَت صِلةُ المَوصولِ فِعلًا ماضيًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ فيهِم، ورسوخِ هذه المعاني في قلوبِهم.

دلالةُ عطفِ الهِجرةِ والجِهادِ على الإيمانِ:

رِفعَةُ مَكانَةِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى

في عَطفِ الهِجرَةِ والجِهادِ على الإيمانِ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ مزيدُ عنايةٍ واهتمامٍ، وذلك من بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ ونُكتَته مِن حيثُ الجُملَةُ: بيانُ الاهتمامِ بشَأنِ الفردِ الخاصِّ بذِكرِهِ مرَّتينِ؛ أُولاهُما بِذِكرِه مُندَرِجًا تحتَ لَفظِ العامِّ، والأُخرى: بذِكرِه على سَبيلِ الانفرادِ، وفي هذا إيماءٌ إلى شَرَفِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سبيلِ اللّهِ سُبحانَهُ.

بلاغةُ التَّرقّي في ذكرِ الإيمانِ والهجرةِ والجهادِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

أُسلوبُ تَرقٍّ في إيرادِ بَعضِ أفرادِ الإيمانِ؛ وذلكَ أنَّه صدَّرَ جملَةَ الصِّلَةِ بالإيمانِ وهو شامِلٌ لجميعِ الدِّينِ؛ لكونِ حقيقَتِه جامِعَةً للأقوالِ والأعمالِ والاعتِقاداتِ، ثُمَّ ذُكِرَ عَمَلانِ جليلانِ يَندَرِجانِ تَحتَهُ، وهما: الهِجرَةُ والجهادُ، وبُدِئَ بالهِجرَةِ لِما فيها مِن مفارقَةِ الأوطانِ، وذلك شاقٌّ على النَّفسِ، وذُكِرَ بعدَها الجِهادُ؛ لِما فيه مِن بذلِ النُّفوسِ في سَبيلِ اللهِ تعالى، وهو أشقُّ على النُّفوسِ مِن مُطلَقِ مُفارقَةِ الأوطانِ.

الـتَّرَقِّـي في تَعدادِ الأعمالِ الصّالِحاتِ

دلالَةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّةِ:

شِـدَّةُ تَمَكُّنِ أهلِ الإيمانِ في سَيْرِهِم على طَريقِ الحَقِّ

في التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ (في) إيذانٌ بقوَّةِ تمكُّنِهم مِن هذا السَّبيلِ كَتمكُّنِ المظروفِ مِن ظَرفِه(1)، ويؤكِّدُ هذا أنّ حرف الجر (في) مِن قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على السَّبَبيَّةِ، والمعنى: جاهَدوا بسَبَبِه، فلم يَمنَعهُم عنه مانِعٌ.

دلالةُ إضافَةِ السَّبيلِ إلى (الله):

سُلوكُ سَبيلِ اللهِ تعالى مُوصِّلٌ إلى رحمته

إضافةُ السَّبيلِ إلى اسمِ الجلالة (الله) في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على تَعظيمِ السَّبيلِ وتَفخيمِه، والإعلامُ بأنَّ مَن سلكَهُ؛ فقَد وَصَلَ إلى رَحمَةِ اللهِ سُبحانَهُ، ولازِمُ ذلك: تعظيمُ المُجاهِدينَ السّالكينَ هذا السَّبيلَ، وبيانُ رِفعَةِ شأنِهم.

نُكتَةُ تقييدِ المُجاهَدَةِ بكَونِها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

مِن أسبابِ استحقاقِ عُلُوِّ المنزِلَةِ عِندَ اللهِ تعالى: الجِهادُ في سَبيلِه

تقييدُ الجِهادِ بكَونِه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به مدحُ المُجاهِدينَ بذلك، وفيه إعلامٌ بعلَّةِ استحقاقِهم عُلُوَّ المكانَةِ ورفعَةَ المنزِلَةِ، مع ما فيهِ مِن حُسنِ مَوضِع ﴿سَبِيلِ﴾ مقرونًا بذِكرِ الجهادِ؛ إذ إنَّ السَّبيلَ من شأنِه أن يَكونَ مَسلوكًا، فَفيهِ حركَةٌ وتنقُّلٌ تُناسِبُ الحرَكَةَ والتَّنقُّلَ المستفادَيْنِ مِن لَفظِ الجِهادِ، ولم يُقيِّدِ الهجرةَ في هذه الآيَةِ بكونها في سبيل

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

اللّه، مع ورود ذلك في مواضعَ أخرى منَ القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ المقامَ هنا في هذه السّورة هو مقامُ الحديثِ عن غزوة بدرٍ، وأمرُ الجهاد فيها هو الأساس؛ فراعى القرآنُ مُقتَضى الحال لحثِّ المؤمنين على فضيلة شرفِ الجهادِ، وأيضًا لأنَّ أمرَ الجهادِ مُتكرِّرٌ، بخلاف أمرِ الهجرةِ فهو غيرُ متكرِّرٍ.

سرُّ حَذفِ ذِكرِ المالِ والنَّفسِ:

مِنْ مَسالِكِ القُرآنِ الكَريمِ تَنويعُ الكلامِ تَفَنُّنًا

لَم يُنصَّ على كَونِ الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اكتفاءً بِذِكرِه قَبلُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فاختُصِرَ ذلك، وطُوِيَ ذِكرُهُ في هذه الآيَةِ لتقرُّرِهِ في أذهانِ المخاطَبينَ بما سَبَقَ التَّنصيصُ عليه، وللتَّفنُّنِ في التَّعبيرِ بذِكرِ المَعنَى مُطوَّلًا تارةً، ومُختصرًا تارةً أُخرَى.

وممّا يُذكَرُ في ذلك أنّ سياقَ هذه الآية مَسوقٌ للثّناء عليهم والشّهادة لهم بفوزهم بالقَدَحِ المُعَلَّى منَ الإيمان، ولا تتأتّى هذه الشّهادةُ إلّا ببذلهم لكلِّ ما يمتلكون؛ لذلك كان عدمُ ذكرِ المالِ والنَّفْسِ من باب المبالغةِ في تمكُّنِ الجهاد منهم وتمكُّنِهم منَ الجهاد.

دلالةُ الواو في عطف جملة الإيواء والنُّصْرة:

فصلُ الجملةِ بالواو للاشتراك في الصّفات

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾: دلَّتِ الواو على عطف هذه الجملة على ما قبلها لوجود اشتراكٍ بينهما في التّحلّي بمكارم الأخلاقِ؛ فمع تعدُّدِ الأصنافِ يوجدُ بينهم جمعٌ في الصّفات الإيمانيّة.

سرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالمَوصوليّةِ:

إيواءُ أهلِ الحَقِّ وَنُصرَتُهُم مِن أَسبابِ تحصيلِ كَمالِ الإيمانِ

جيءَ بالمسنَدِ إليهِ (الَّذينَ) معرَّفًا بالاسم الموصولِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ به على المُسنَدِ إليهِ؛ وأنَّه من جنسِ الرِّفعَةِ والتَّكريم، وذلكَ أنَّ الحُكمَ بكَمالِ الإيمانِ وتحقُّقِهِ فيهم مِن أعظَمِ وُجوهِ التَّشريفِ، وفيهِ إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذه الرِّفعَةَ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، وأنَّ هَذه المنقَبَةَ مُسَبَّبةٌ عَن إيوائِهم أهلَ الإيمانِ ونُصرَتِهم لَهُم، وممّا يُذكَرُ في هذا أنّ التّعبيرَ بالموصول كأنّه يشيرُ إلى طائفةٍ مخصوصةٍ لا يعرفُ التّاريخُ لها نظيرًا؛ لذلك كانَت صفةُ الإيواءِ الموجودةُ في جملة الصّلةِ ﴿ءَاوَواْ﴾ من باب التّأكيدِ على ذلك التَّخصيصِ المفهومِ من سياق الآيات.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ مَجموعًا:

كَـثرَةُ المُؤمِنينَ المُـتَّـصِـفـينَ بـالأوصـافِ الحَسَنَةِ

إيرادُ الاسمِ المَوصولِ مجموعًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ فيهِ إشعارٌ بِكثرةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا بينَ هذهِ الأعمالِ الجليلَةِ مِنَ الإيواءِ والنُّصرَةِ.

سِرُّ إيرادِ جُملَةِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحـقُّـقُ وَصـفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ في أهلِ الإيمانِ الحَقِّ

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾: جيءَ بِصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَاوَواْ﴾ و(نَصروا) مِن قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للدّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ فيهِم.

نُكتَةُ حَذفِ مُتعلّقِ الإيواءِ:

التّنويهُ بجَليلِ صَنيعِ الأنصارِ في إيوائِهِم أهلَ الإيمانِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَاوَواْ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفي ذلك ثلاثَةُ أوجُه:

أحدُها: ظُهورُ الأفرادِ الّذينَ وقعَ عليهِم فعلُ الإيواءِ؛ وهُم المؤمنونَ الّذينَ هاجَروا مِن مكَّةَ المكرَّمَةِ إلى المدينَةِ النَّبويَّةِ.

ثانيها: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُمومِ، والمَعنَى: آوَوا جَميعَ مَن احتاجَ إلى الإيواءِ مِن أهلِ الإيمانِ.

ثالثُها: أن يكونَ فِعلُ الإيواءِ قَد نُزِّلَ منزلَةَ الفعلِ اللّازِمِ، فلا يَفتَقِرُ إلى تَقديرِ مفعولٍ بِهِ أصلًا، ونُكتَةُ ذلكَ: الإشارَةُ إلى عظيمِ صنيعِهِم، حتَّى كأنَّهُ لا إيواءَ في الوجودِ إلّا ما فعَلوهُ[1].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338.

الإشادةُ بالأنصارِ في نُصرتِهم لأهلِ الحقِّ

سرُّ حذفِ المفعولِ في ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾:

حُذِفَ مفعولُ (نَصَروا) مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفي ذلك ثلاثةُ مسالِكَ:

أحدُها: ظُهورُ الأفرادِ الّذينَ وقعَ عليهم فعلُ النُّصرَةِ؛ وهُم مسلِمو مكَّةَ الّذينَ هاجَروا إلى مدينَةِ الرَّسولِ ﷺ.

ثانيها: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المتعلَّقِ مُؤذِنٌ بذلك، والمَعنَى: نصَروا كُلَّ محتاجٍ إلى النُّصرَةِ مِن أَهلِ الإسلامِ.

ثالثُها: أن يكونَ فِعلُ النُّصرَةِ - وهو متعدٍّ - قد نُزِّلَ مَنزِلَةَ الفِعلِ اللَّازِمِ، فلَم يُحتَجْ معه إلى تَقديرِ مفعولٍ بِهِ، والنُّكتَةُ في ذلك: التَّنويهُ بِعَظيمِ نُصرَتِهِم، حتَّى كأنَّهُ لا نُصرَةَ في الواقِعِ إلّا نُصرَتُهُم.

تشابُهُ الآياتِ في اللّفظِ لا يَستَلزِمُ اتِّفاقَها في مَقاصِدِها

نفيُ التَّكرارِ بين الآياتِ قيد التفسير:

بين قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وبين قَولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ لا يجد النّاظرُ في الآيةِ الأولى تَكرارًا بينها، وبين هذه الآيةِ الأخرى السَّابقةِ عليها، وإن تشابهَت ألفاظُهما؛ وذلك لأنَّ الآيةَ السّابقةَ في سياقِ بيانِ ولايَةِ المؤمنينَ بعضِهم لبعضٍ، وأمّا هذه الآيةُ فَوارِدَةٌ لقصدِ الثَّناءِ عليهم، والشَّهادَةِ لهُم بصدقِ الإيمانِ ووَعدِهم بالجزاءِ الحسَنِ[1].

وأيضًا لأنّ الآيةَ السّابقةَ كانَت في ذِكرِ أَقسامِ أَصحابِ النَّبيِّ ﷺ في زمانِه، حيث قسَّمَتْهُم إلى أربعَةِ أقسامٍ بعدَ اشتراكِهم جميعًا في الإيمانِ: قسمٌ جمعَ بين الهجرَةِ والجهادِ، وقِسمٌ آوَى ونصَرَ، وقِسمٌ لَم يُهاجِر، وقِسمٌ رابعٌ - مذكورٌ بَعدُ - هاجَرَ مِن بَعدُ[2]، فذُكِرَ ذلك

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/519، والخازن، لباب التّأويل: 2/330، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/336.

كُلُّه مقرونًا بحُكمِه، وأيضًا لأنّ السِّياقَ بينهما مختلفٌ، فسياقُ الآيةِ الأولى لبيان أنّ رابطةَ الإسلام أقوى من رابطة النَّسبِ، وأمّا الثّانية فهي في بيان مكانتِهم وعُلوّ شأنِهم.

وممّا يُذكَرُ في هذا السّياق أنّ المهاجرين كانوا على طبقاتٍ، فبعضُهم من أهل الهجرة الأولى، وهم الّذين هاجروا قبلَ الحُديبيّة، وبعضُهم من أهل الهجرة الثّانية، وهم الّذين هاجروا بعد صلح الحديبيّة، وكان بعضُهم يُلقَّبُ بصاحب الهجرتين: الحبشة والمدينة؛ فلعلّ المرادَ منَ الآية الأولى الهجرةُ الأولى إلى المدينة، ومنَ الآية الثّانية الهجرةُ الثّانيةُ[1].

سِرُّ التّعبير بالإشارَةِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الـحَـثُّ على الـتَّـخَـلُّـقِ بـالأوصـافِ الجَليلَةِ مِنَ الإيمانِ والهِجرَةِ والنُّصرَةِ ونَحوِها

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ إظهارٌ للاهتمامِ بهم؛ وذلك بتَمييزِهم أكمَلَ تمييزٍ.

والإشارَةُ إليهم باعتبارِ اتِّصافِهم بالصِّفاتِ الفاضِلَةِ المذكورَةِ قَبلُ، وفي ذلكَ تنويهٌ بشأنِهم وحثٌّ لغيرِهم على التَّخلُّقِ بهذهِ النُّعوتِ الكريمَةِ.

نُكتَةُ اسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عُـلُـوُّ طَـبَـقَـةِ الأنـصـارِ وبُـعـدُ مَـكـانَـتِـهِـم في الفَضائِلِ

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾: أُشيرَ إلى المذكورينَ باسمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ تعظيمًا لَهُم، وإشعارًا بعُلوِّ طبقَتِهم وبُعدِ مكانَتِهم في الفضائِلِ[2].

بلاغةُ القَصرِ في الآيةِ الكريمة:

الـثَّـنـاءُ على أصحابِ رسولِ الـلـهِ بـكـمـالِ إيمانِهم

في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ قَصرُ صِفَةٍ على مَوصوفٍ، وذلك بِسبَبِ تَعريفِ طَرَفَي الجملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ففيهِ قصرُ الإيمانِ الحقِّ على أولَئِكَ المَذكورينَ؛

---

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/581.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37.

لأنَّ المقصورَ بِتَعريفِ طرفَيِ الإِسنادِ هوَ المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مُقدَّمًا أم مُؤخَّرًا.

وقَصرُ الإيمانِ عليهم دونَ غَيرِهم ممَّن لَم يُهاجِرْ مُقيَّدٌ بالحالِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَقًّاۚ﴾، "والمَعنى: أنّهم حاقّونَ، أي: مُحَقِّقون لإيمانِهم بِأَن عَضَّدوهُ بالهِجرَةِ مِن دارِ الكُفرِ، وليسَ الحَقُّ هُنا بمعنى المُقابِلِ للباطِلِ، حتَّى يكونَ إيمانُ غَيرِهِم ممَّن لَم يُهاجِروا باطِلًا؛ لأنَّ قرينَةَ قَولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ مانِعَةٌ مِن ذَلِكَ؛ إِذ قَد أَثبَتَ لَهُمُ الإيمانَ، ونفَى عَنهُمُ استِحقاقَ وِلايَةِ المُؤمنينَ"[1].ففي الآيَةِ مَدحٌ جليلٌ لهؤلاءِ ومَن كانَ على صِفَتِهِم؛ إِذ عِندَهُم من قوَّة الإيمانِ ما لَيسَ عِندَ غَيرِهِم.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِضَميرِ الفَصلِ (هُم):

بلوغُ الصَّحابَةِ المرتبةَ العليا في الإيمانِ

ضميرُ الفصلِ (هُم) مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ لا يُرادُ بِهِ دِلالتُهُ على القصرِ، وإنَّما المرادُ به تَأكيدُ القَصرِ وتقويَتُهُ؛ إِذِ القَصرُ مُستَفادٌ من تَعريفِ طَرَفَيِ الإِسنادِ.

وقد أُكِّدَتِ الجُملةُ أيضًا بإيرادِها اسميَّةً؛ وذلكَ لأنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ آكَدُ مِنَ الفعليَّةِ، وأدلُّ على الثُّبوتِ واللُّزومِ، ففيه إيماءٌ إلى لزومِ هؤلاءِ للإيمانِ الكاملِ، ولدفعِ توهُّمِ أنّ الأنصارَ ليسوا في درجةِ الّذين آمنوا وهاجروا، كما يَتصوّرُ بعضهم؛ فبعضُ الأنصارِ قدّمَ للإسلامِ مالم يقدّمْه بعضُ المهاجرين.

دِلالَةُ اللَّامِ في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

الإشادَةُ بمكانَةِ أصحابِ رسولِ اللهِ وكَمالِ إيمانِهِم ورُسوخِهِم فيه

اللَّامُ في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مِن قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ دالَّةٌ على الكَمالِ، والمعنى: أولئكَ هُمُ الكامِلونَ في الإيمانِ، الرّاسِخونَ فيهِ، المتحقِّقونَ بِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.

دلالةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿حَقّٗاۚ﴾:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿حَقّٗاۚ﴾؛ لأنّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لغيره، والعاملُ فيه أحَقَّ ذلك حقًّا، وعلى هذا يكونُ التَّعبيرُ به من باب تأكيد ما تضمَّنته الجملةُ منَ الإسناد الخبريّ، وأنّه لا مجازَ في ذلك الإسناد، ويجوزُ أن يكونَ صفةً لمصدر محذوفٍ؛ أي: أولئك هم المؤمنون إيمانًا حقًّا[1].

مَن لَم يَكُن مُحِقًّا في دينِهِ؛ لا يَتَحَمَّلُ مُفارَقَةَ الوَطَنِ، وبَذْلَ النَّفسِ والمالِ

وفيه إشارةٌ إلى رفع الغبارِ الّذي وقعَ بين الصّحابة رضوان الله عليهم من آثار الغنائم وفداء الأسرى، وأنّ هذا لم يؤثِّرْ على الصّفحة البيضاءِ النّاصعةِ لهؤلاء الأصحاب في إيمانهم؛ فلم تَشُبهُ شائبةٌ تُكدِّرُ صفوَه أو خاطرةٌ من شكٍّ تُضعِفُ قيمتَه، بل هو الإيمانُ الخالصُ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ هذا الوصفَ هو ما ينبغي أن يكونَ عليه أهلُ الإيمان في جميع الأحوال والأزمان.

وممّا يُذكَرُ في سرِّ التَّعبيرِ بـ ﴿حَقّٗاۚ﴾ من قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ الإشارةُ إلى قوّةِ اتِّصافِهِم بكونِهم مُحقّين مُحَقِّقين في طريقِ الدّين، وفيهِ مبالَغَةٌ في مَدحِهِم، وهُم أهلٌ لِهذا المَدحِ؛ حيثُ إنَّ الّذي لَم يكُنْ مُحِقًّا في دينِه لَم يتحمَّلْ تَرْكَ الأديانِ السَّابقةِ، ولَم يُفارِق أهلَهُ ووطَنَهُ، ولَم يَبذُلْ نفسَهُ ومالَهُ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الخبريّةِ:

الشَّهادَةُ لِلمُهاجِرينَ والأَنصارِ بالمَنزِلَةِ الرَّفيعَةِ والجَزاءِ الحَسَنِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ جملةٌ خَبَرِيَّةٌ، يُرادُ بها معَ الإعلامِ بمضمونِها: تعظيمُ المهاجرين والأنصارِ، والثّناءُ عليهم، والشَّهادَةُ لَهُم بالمنزِلَةِ الرَّفيعَةِ والجزاءِ الحسَنِ[3].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/458.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/519، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/169.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/359، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.

دِلالَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾:

كَمالُ العِنايَةِ والاهتِمامِ بالكُمَّلِ مِن أَهلِ الإيمانِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَّهُم﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ اهتمامًا بالكُمَّلِ مِن أهلِ الإيمانِ، وتخصيصًا للمغفِرَةِ بِهِم دونَ غيرِهِم، وهو قصرٌ غيرُ حقيقيٍّ؛ إذِ المغفِرَةُ تَنالُ ناقِصي الإيمانِ أيضًا.

ثُمَّ إنَّ تقديمَ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّهُم﴾ على ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ واجبٌ بحسَبِ الصِّناعَةِ النَّحويَّةِ؛ لكونِ ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ نكرةً ليسَ لها مُسَوِّغٌ، وذلك لا يُنافي إفادَتَها الاهتمامَ والقصرَ؛ إذ تقرَّر في القواعِدِ: أنَّ كونَ أمرٍ ما لازمًا بِحَسَبِ القواعِدِ النَّحْوِيَّةِ لا يُنافي قَصدَ إفادةِ ما يَقتَضيهِ المقامُ[1].

سِرُّ تَنكيرِ ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾:

التَّجاوُزُ عَن جَميعِ الذُّنوبِ والتَّبِعاتِ

نُكِّرَ لَفظُ ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ للدِّلالَةِ على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ؛ أي: لَهُم مغفرةٌ عظيمةٌ تامَّةٌ كاملةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ والتَّبِعاتِ، وهي مغفِرَةٌ لا يُقادَرُ قَدرُها[2].

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿وَرِزۡقٞ﴾:

الرِّزقُ الَّذي يَنالُ أَهلَ الإيمانِ يَعُمُّ الرِّزقَ الحَسَنَ في الدُّنيا والآخِرَةِ

نُكِّرَت كلمةُ ﴿وَرِزۡقٞ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾؛ للإشعارِ بعَظَمَتِه وفخامَتِه؛ أَي: لهم رزقٌ عظيمٌ، مِنَ المغانِمِ وغيرِها، في الدُّنيا والآخِرَةِ[3].

دِلالَةُ وَصفِ الرِّزقِ بِكَونِهِ كَريمًا:

الرِّزقُ العَظيمُ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ لا كَدَرَ فيهِ بِوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ

في وصفِ الرِّزقِ بالكَرَمِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ زيادَةٌ في تعظيمِه، إذ مَعنَى الكَرَمِ في الرِّزقِ: كونُهُ لا كَدَرَ فيه بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ لا في انقطاعِهِ، ولا نُقْصانِه، ولا في أيِّ شيءٍ من حالِهِ[4].

---

(1) الشِّهابُ الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/229.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/519، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/233، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/169.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/348.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/348.

سرُّ تقديمِ المغفرةِ على الرِّزق الكريمِ:

قوله: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، قُدِّمَ الوعدُ بالمغفرة على الرّزقِ الكريمِ، وذلك من باب تقديم التّخليةِ قبلَ التّحليةِ لِمَا هو معلومٌ من طبع الإنسان منَ التَّقصير في أداء ما طلبه اللّهُ منه، سواء أكان ذلك قليلًا أم كثيرًا؛ فأراد اللّهُ ﷻ أن يُطمئنَ الإنسانَ بإسقاط ما عليه منَ التّبعاتِ، لا سيّما أنّ الآياتِ في سياق الجهادِ والغنائمِ، ولا يخلو الأمرُ فيهما من وجود تقصيرٍ.

المغفرةُ سببُ الرِّزق وحلولِ البركة

سرُّ اختلافِ فاصلةِ هذه الآية عن سابقتها:

النّاظرُ في ختام هذه الآية في خواتيمِ سورةِ الأنفالِ يجدُ أنّها ذكرَتِ الجزاءَ المعدَّ للمؤمنين في الآخرة بقوله: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، في حين أنّ الآية الأولى في صدرِ سورةِ الأنفالِ، ذكرَتِ الجزاءَ المعدَّ لهم بقوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، والسّرُّ في ذلك أنّ الآيةَ الّتي في صدرِ سورةِ الأنفال جاءَت تعقيبًا على صفات المؤمنين الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾؛ فلمّا كانَت صفاتُ المؤمنين مُتعدِّدةً ودرجاتُهم فيها مختلفةً من ناحية الكمال والتّمام كان منَ المناسب ذِكْرُ الدّرجات.

تعدُّدُ الصّفاتِ قُوبِلَ بتعدُّد الدَّرجات

وأمّا الآيةُ الأخرى في خواتيم سورة الأنفالِ؛ وهي محلُّ الدّراسة معنا؛ فلم يُذكَرْ فيها ما يتعلّقُ باختلاف الدّرجات، حيث تحدثَت عنِ الهجرة والجهاد في سبيلِ اللهِ والإيواءِ والنُّصرةِ، والأمرُ في ذلك ظاهرٌ لا يحتاج إلى ذِكر الدّرجاتِ؛ لأنّهم تمكَّنوا في أدائها، وتحقَّقت فيهم على المستوى الكامل.

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بقوله: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾:

النَّاظرُ في هذه الآيات يجدُ أنّها وردَت جزاءً للّذين آمنوا وعملوا

ذِكـرُ الأرزاقِ مُشاكِلٌ لِذِكْرِ الغنائمِ والفداءِ

الصّالحات في مواضعَ عديدةٍ في القرآن الكريم، فالموضعُ الأوّلُ في سورة الأنفال، والثّاني في سورة المائدة، والثّالث في سورة فاطر.

ومنَ الملاحَظ أنّ الجزاءَ المُعدَّ للّذين آمنوا مناسبٌ لهم في كلِّ موضع؛ فآيةُ سورة الأنفال جاءَت في سياقِ الحديثِ عن تعقيباتِ القرآنِ عن آياتِ القتالِ في غزوة بدرٍ، وما نتجَ عن ذلك منَ الغنائم، وأخذِ الفداءِ منَ الأسرى؛ فكلُّ ذلك يشيرُ إلى أنّ السِّياقَ في مقام الحديثِ عنِ الأرزاق؛ فجاءَ ختامُ الآيةِ ليُشيرَ إلى أنّ أفضلَ الرّزقِ ما كان كثيرَ الخير ودائمَ النّفع، ولا يتأتّى ذلك إلّا في رزق الجنّة؛ لذلك قال: ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

أمّا آيةُ سورةِ المائدةِ فجاءَت عقب تشريعاتٍ وأحكامٍ ذُكرَت في الآياتِ قبلَها، وكان ختامُ ذلك إقامةَ العدلِ الّذي هو رأسُ الأعمالِ الصّالحة؛ فكان الوعدُ منَ اللّه لمَن وفّى بهذه الأعمالِ الصّالحةِ بالمغفرة والأجر العظيم، وجعل ذلك وعدًا منه سبحانه في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ [المائدة: 9]، وكان سِنادُ الوعدِ إلى اللّه يقتضي أن يُوصَفَ بالعَظَمة في قوله: ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أمّا آيةُ سورة فاطر فقد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾ [فاطر: 7]؛ فالنّاظر في الآية يجدُ وصفَ العذابِ المعدِّ للّذين كفروا بالشَّديد، وهذا يدلُّ على صلابته وقوّته؛ فكان من رحمة اللّهِ تعالى أن ذكرَ الجزاءَ المُعدَّ للّذين آمنوا وعملوا الصّالحات بالأجر الكبير من باب إبرازِ اللُّطفِ للمؤمنين والتَّبكيتِ للكافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الولايةُ مضمونةٌ حتَّى لمَن تأخَّرَ إيمانُهم وجهادُهم

لَمّا بيّنَ اللّهُ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ الجزاءَ المُعدَّ للمؤمنين حقَّ الإيمانِ المُتَّصفين بهذه الصِّفات، بيّنَ في هذه الآية أنَّ مَن ترَكَ ما هو عليه مِنَ البقاءِ في دارِ الكُفرِ والقُعودِ عنِ الجِهادِ؛ بأَن هاجَرَ وجاهَدَ، لَحِقَ بالمؤمنينَ الكُمَّلِ في مُطلَقِ دَرَجَتِهم، وإن كانوا فيها أَعلَى منه درجَةً لسَبقِهم إلى المعالي والمكارِم، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾[1].

وممّا يُذكَرُ في المناسبة أنّه لَمّا منعَ اللّهُ في الآياتِ السّابقة قبلَ ذلك ولايةَ المؤمنين للّذين آمنوا ولم يهاجروا بالصّراحة ابتداءً، ونفى عنِ الّذين لم يهاجروا تحقيقَ الإيمان، وكان ذلك مثيرًا في نفوسِ السّامعين أن يتساءلوا: هل لأولئك تمكُّنٌ من تداركِ أمرهم برأْبِ هذه الثُّلمة؛ فجاءَت هذه الآيةُ لتفتحَ لهم بابَ التَّداركِ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: الرّاءُ والحاءُ والميمُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفَةِ، ومنه: الرَّحِمُ؛ وهي صِلَةُ القرابَةِ، ثُمَّ سُمِّيَ رحِمُ المرأَةِ رَحِمًا؛ لأنَّ مِنها ما يكونُ ما يُرحَمُ ويُرقُّ لَهُ مِنَ الوَلَدِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).

والأرحامُ جمعُ رَحِم؛ والرَّحِمُ: القرابَةُ تَجمَعُ بينَ بَني أبٍ وبينَهُما رَحِمٌ؛ أي: قَرابَةٌ قريبَةٌ[1]، وأولو الأرحام: الأقاربُ، ويَصدقُ هذا الاسمُ على كلِّ مَن يَجمَعُ بينَهُم نسبٌ[2].

2) ﴿كِتَٰبِ﴾: على وَزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصلُهُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[3].

ويُطلَقُ الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قال اللّهُ تعالى عن عيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[4] [المائدة: 110].

ويُطلَقُ مرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَولِهم: فِراشٌ بمعنى: مفروشٍ، وغِراسٌ بمعنى: مَغروسٍ، ولِباسٌ بمعنى: مَلبوسٍ، ثمّ أُطلِقَ على الصَّحيفة مع ما كُتِبَ فيها[5].

ويأتي (الكِتابُ) في القُرآنِ الكريم على أحَدَ عشَرَ وَجهًا[6]، والمُرادُ بِهِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ يجوزُ أن يُرادَ بِهِ قضاءُ اللّهِ تعالى وشرعُهُ، أو القرآنُ الكريمُ، أو اللَّوحُ المحفوظُ[7].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

حُكمُ ولايةِ مَن تأخّرَ إيمانُهم وجهادُهم، والقرابةُ أَوْلَى بالإرث

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنّ الّذينَ آمَنوا به سبحانه وبرَسولِه صلى الله عليه وسلم مِن بَعدَ بَيانِه وِلايَةَ المُهاجِرينَ والأَنصارِ بَعضِهِم بَعضًا، وانقِطاع وِلايَتِهِم مِمَّن آمَنَ ولَم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِروا، وانتقلوا مِنَ المقام مع المشركين في مكّةَ إلى المقام مع المؤمنين في المدينة المنوَّرةِ، وشارَكوكُم

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رحم).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (رحم).
(3) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (كتب).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهورينيّ، المطالع النَّصريَّة، ص: 41.
(5) نصر الهورينيّ، المطالع النّصريّة، ص: 41.
(6) ابن الجوزيّ، نُزهة الأعين، ص: 526 - 527.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المَسِير: 2/229.

الجِهادَ، فأولَئِكَ منكُم في الوِلايَةِ؛ فلهم من حقوق النُّصرَةِ في الدّين مثلُ الّذي يَجِبُ لبعضكم على بعضٍ، وبيّنَ أنّ أولي القَرابةِ بَعضُهم أَولَى بِبَعضٍ في الميراثِ في حُكمِ اللّهِ تعالى مِن عُمومِ المُسلمينَ؛ إنَّ اللّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلكَ عِلمُهُ سُبحانَهُ بِما يُصلِحُ عِبادَهُ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وَصلِ السِّياقِ بِما قَبلَهُ:

إتمامُ الكلامِ عَن أَصنافِ أَهلِ الإيمانِ

وُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾ بِما قَبلَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَينِ؛ وذلكَ أنَّ كلتا الجُملتَيْنِ خبريَّةٌ، وبينَهُما جامعٌ وهو الكلامُ عن أَصنافِ أهلِ الإيمانِ، وبين الجُملَتَينِ تناسبٌ؛ إذْ قَد اتَّفقَتا في لفظِ المُسنَدِ إليهِ (الّذينَ) وصِلَتِهِ (آمَنوا)، وقَدِ اتَّحدتِ الجُملَتانِ كذلكَ في الاسميَّةِ، وفي مقامِ التَّقسيمِ الّذي استوعبَتهُ هذه الآياتُ.

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالمَوصوليَّةِ:

مشاركةُ اللّاحقِ للسّابقِ في الأجرِ

عُرِّفَ المُسنَدُ إليه (الَّذينَ) بالموصوليَّةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكوم به على المسنَدِ إليهِ؛ وأَنَّه مِن جنسِ الرِّفعَةِ والتَّكريم، وفيهِ إشعارٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذهِ الرِّفعَةَ في قولِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾، وأنَّ هذِهِ المكرُمَةَ - وهي اندراجُهُم مع أهلِ الإيمانِ الحقِّ - مُسَبَّبٌ عَن إيمانِهِم الحاصِلِ بَعدُ وهِجرَتِهِم وجهادِهِم مع المؤمنينَ.

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ المَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

كَثرَةُ مَنِ التَحقَ بِرَكْبِ أَهلِ الإيمانِ

وَرَدَ الاسمُ المَوصولُ جَمعًا في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للإشعارِ بِكَثرَةِ مَنِ التحقَ بأهلِ الإيمانِ الحقِّ؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/89، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.

مِمَّنِ اقتَدَى بِهِم في الإيمانِ، وإِنْ تأخَّر إسلامُهُ عنهم، وهاجَروا، وشاركوا المُؤمنينَ في جهادِهِمُ الكُفّارَ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحقُّقُ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ

جيءَ بصِلَةِ المَوصولِ فِعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَهَاجَرُواْ﴾ ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ فيهِم - ويكون ذكرُه هنا من باب التّمهيد؛ لأنّ الكلامَ على تأخُّرِ الهجرةِ وليس على الإيمان؛ لأنّهم كانوا مؤمنين، أمّا أمرُ الهجرة فهو محلُّ الذّكر؛ لأنّهم هاجروا بعد هجرتكم، وجاهدوا معكم في بعض غزواتكم.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾:

رتبةُ مَن تأخّرَ إسلامُهم وجهادُهم

ذكرَ القرآنُ الكريمُ قولَه: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾؛ للإشارة إلى أنّ أمرَ الهجرةِ والجهادِ لهم لم يكن حاصلًا في وقتِ نزولِ الآياتِ، وفي هذا دلالةٌ على أنّ أصحابَ هذه الصِّلة قسمٌ مغايرٌ للأقسام السَّابقة؛ فليس المعنى أنّهم آمنوا من بعدِ نزولِ هذه الآية؛ لأنَّ الّذين لم يكونوا مؤمنين، ثمّ يُؤمنون من بعدُ لا حاجةَ إلى بيان حُكم الاعتدادِ بإيمانهم؛ لأنّه منَ المعلوم أنّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبله، وإنّما المقصودُ بيانُ أنّهم إنْ تداركوا أمرَهم بالهجرة قُبِلوا، وصاروا منَ المؤمنين المهاجرين.

سِرُّ عَطفِ الهجرةِ والجهادِ على الإيمانِ:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ

في عَطفِ الهجرَةِ والجهادِ على الإيمانِ في قَولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾: إطنابٌ، وصورَتُهُ: عَطفُ الخاصِّ على العامِّ؛ وذلك أَنَّ حقيقةَ الإيمانِ في الشَّرعِ: قولٌ وعمَلٌ واعتقادٌ، والهِجرَةُ والجِهادُ مِن جُملَةِ الأعمالِ المندَرِجَةِ تَحتَ حقيقةِ الإيمانِ الشَّرعيَّةِ، والشَّأنُ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ إبرازُ الاهتِمامِ بشَأنِ الفردِ الخاصِّ بذِكرِهِ مرَّتين؛ أُولاهُما بِذِكرِه مُندَرِجًا تَحتَ لَفظِ العامِّ، والأُخرَى: بذِكرِه على سَبيلِ الانفرادِ، ففي قولِهِ

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ الآيَةِ إيماءُ شَرَفِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سبيلِ اللهِ سُبحانَهُ.

بلاغةُ التَّرقّي في السِّياق:

التَّرَقّي في تَعدادِ الأعمالِ الصَّالِحاتِ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ أُسلوبُ تَرقٍّ في إيرادِ بَعضِ أفرادِ الإيمانِ؛ وذلك أنَّهُ قد صُدِّرَت جملَةُ الصِّلَةِ بالإيمانِ، وهو شامِلٌ لجميعِ الدّينِ؛ لكونِ حقيقَتِهِ جامِعَةً للأقوالِ والأعمالِ والاعتِقاداتِ، ثُمَّ ذُكِرَ عملانِ جليلانِ يَندَرِجانِ تَحتَهُ وهما: الهِجرَةُ والجِهادُ، وبُدِئَ بالهِجرَةِ لِما فيها مِن مفارقَةِ الأوطانِ، وذلك شاقٌّ على النَّفسِ، وذُكِرَ بعدَها الجِهادُ؛ لِما فيهِ مِن بذلِ النُّفوسِ في سَبيلِ اللّهِ تعالى، وهو أشقُّ على النُّفوسِ من مُطلَقِ مُفارقَةِ الأوطانِ.

دلالَةُ ﴿مَعَكُمۡ﴾:

أهلُ الإيمانِ دَرَجاتٌ وَمَراتِبُ

المعيَّةُ في ﴿مَعَكُمۡ﴾ مِن قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ مؤذِنَةٌ بأنَّ الصِّنفَ المذكورَ في هذه الآيةِ دونَ الصِّنفِ الأَوَّلِ الّذي لم يستقرَّ في مكّةَ بعد أن هاجر منها المؤمنون، ولأنّهم لم ينالوا شرفَ الجهادِ مدَّةً منَ الزَّمانِ مع المؤمنين، وعلى هذا فالمعيّةُ دلَّت على كونِهم تَبَعًا لهم لا صدرًا[1].

دلالَةُ الفاءِ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَن تَأَخَّرَ إيمانُهُ وَهِجرَتُهُ لَحِقَ بِالمُؤمِنينَ السَّابِقينَ في أصلِ الإيمانِ

الفاءُ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ داخِلَةٌ على الخَبَرِ لتضمُّنِ الاسمِ الموصولِ مَعنى الشَّرطِ، مِن جِهَةِ وُرودِهِ بِمَنزلَةِ الجوابِ عَن سُؤالٍ، فكأنَّه قيلَ: وأمّا الّذينَ آمَنوا من بعدُ، وهاجروا، وجاهدوا معكُم فأولئِكَ مِنكُم، و(أمّا) تدلُّ على الشَّرطِ؛ إذ هيَ بمعنى: مهما يكُنْ مِن شيءٍ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.

تمييزُ مَراتِبِ أَهلِ الإيمانِ

نُكتَةُ الإشارَةِ في ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

اسمُ الإشارَةِ (أولَئِكَ) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ راجِعٌ إلى المذكورينَ باعتبارِ الأوصافِ؛ لأنَّ الصِّفاتِ هي مدارُ الأحكامِ.

والإشارَةُ إليهم باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ يُرادُ بِه الاعتِناءُ بالخَبَرِ، وتَمييزُ الموصوفينَ بذلك الحُكم[1].

أَهلُ الإيمانِ - مهما اختَلَفَت مَراتِبُهُم فيه - ولايَتُهُم للمُسلِمينَ

دلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِنكُمۡۚ﴾:

(مِنْ) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ يُرادُ بها التَّبعيضُ، والضَّمير المجرورُ بـ (مِنْ) راجِعٌ إلى جماعَةِ المهاجِرينَ الأَوَّلينَ، والمعنى: أنَّ هذا الصِّنفَ مِن أهلِ الإيمانِ الّذين تأخَّر إسلامُهُم مِن جماعةِ المهاجِرين الأَوَّلينَ؛ أي: مُندَرِجونَ فيهم مُلحقونَ بِهِم، فتكون ولايتُهُم للمُسلِمينَ[2]، ويكون المعنى ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾؛ أي: من جُملتِكم أيُّها المهاجرون والأنصار، وهمُ الّذين جاؤوا من بعدهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فألحقهم اللّهُ تعالى بالسّابقين، وجعلهم منهم تفضُّلًا منه وترغيبًا في الإيمان والهجرة[3].

أهلُ الإيمانِ درجاتُهم متفاوتةٌ، والفضلُ للسّابق

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾:

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿مِنكُمۡۚ﴾، ولم يقُل: (مثلكم)؛ لأنّ المِثليةَ تقتضي الاتّفاقَ في الذّات والصّفة، والمقصودُ هنا الاتّفاقُ في الإيمانِ والهجرةِ والواقعِ، يقول: إنَّهم هاجروا بعد المهاجرين السّابقين؛ فكان التّعبيرُ بـ(منكم) هو الأوفق ليُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه؛ فيُعطي للسَّابقين حقَّهم في الأوَّليّة المُطلقة، وليَدُلَّ على أنّ مرتبةَ هؤلاء دونهم؛ لأنّهم أُلحقوا بهم، والمُلحَقُ به أصلٌ، وهؤلاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.

فرعٌ، والأصلُ مقدَّمٌ على الفرع، وفي جَعْلهم منهم هنا في مَوضِع التّكريم والتّشريف تفضُّلٌ منَ الله عليهم.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

أسلوبُ الالتفاتِ فيه تشريفٌ

وجّهَ اللّهُ ﷻ الخطابَ إليهم بطريق الالتفات لتشريفهم ورفعِ مكانتِهم، حيث كان أسلوبُ الغيبةِ في أوّلِها، ثمّ انتقل إلى أسلوب الخطاب(1).

سِرُّ التّعبيرِ بالواو في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾:

ولايةُ أولي القُربى قائمةٌ بنفسها

آثرَ التّعبيرَ بالواو دون غيرها؛ لأنّها عاطفةٌ؛ فعُطِفَت هذه الجملةُ على ما قبلها، ولا يلزمُ من ذلك العطف الاتّحادُ بين المعطوف والمعطوف عليه، ولكنَّ وقوعَ هذه الآية إثرَ التّقاسيم السَّابقةِ للمؤمنين في زمنِ النّبيِّ ﷺ يُؤذِنُ بأنَّ لها حظًّا في إتمام هذه التَّقاسيم، وعلى هذا جامعُ العطفِ بينهما هو أمرُ الولايةِ الّتي تعدَّدَت أشكالُها بين ولاية النُّصرةِ وولاية الإرثِ وولاية الأرحام؛ فكان عطفُ هذه الآية على ما قبلَها للدّلالة على أنّ ولايةَ الأرحامِ قائمةٌ، وأنّها مُرجِّحةٌ لغيرها منَ الولايات(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بكَوْن أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض:

ميراثُ ذوي الأرحام، ممَّا قرَّرته الشَّريعة

التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ يدلُّ على ثبوت الولاية، ولذلك تمسّكَ أصحابُ أبي حنيفةَ بهذه الآية على توريث ذَوي الأرحام، وإن كان ذلك ليس محلَّ اتّفاق؛ لأنّ البعضَ يرى أنّ هذا الحكمَ قد نُسِخَ بآياتِ أحكامِ الميراث.

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغة التَّفضيل ﴿أَوۡلَىٰ﴾:

تفاضلُ ذوي الأرحام قُربًا وبُعدًا

آثرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿أَوۡلَىٰ﴾ للدّلالة على أنّ الولايةَ لذوي الأرحام لا تُعتبَرُ إلّا بالنِّسبة لمَحَلِّ الولايةِ الشّرعيّةِ؛ فأولو الأرحام أولى بالولاية

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/91.

ممّن ثبتَت لهم ولايةٌ تامَّةٌ كالمهاجرين والأنصار، أو ناقصةٌ كالّذين آمنوا ولم يُهاجروا في ولاية النَّصرِ في الدّين، إذا لم يكن دونَها مانعٌ من كُفرٍ أو تَركِ هجرةٍ. فالمؤمنون بعضُهم لبعض أولياءُ ولايةَ إيمانٍ، وأولو الأرحامِ منهم بعضُهم لبعض أولياءُ ولايةَ النَّسبِ(1).

المجازُ في تركيب ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾:

فَطَرَ اللهُ تعالى العِبادَ على المَيلِ إلى أقاربِهِم

كتابُ اللّهِ تعالى في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ قضاءُ اللّهِ وشَرعُهُ، والكِتابُ مَصدَرٌ، يَجوزُ أن يكونَ باقيًا على أصلِ دلالَتِهِ المصدريَّةِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنَى اسمِ المَفعولِ؛ أي: المكتوب، وهو على هذا مَجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ.

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾:

الكِتابةُ أشدُّ المواثيق، وأثبتُها حجةً، وأقواها دليلًا

آثرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿كِتَٰبِ﴾ على قضاء اللّه وشرعه للدّلالة على ثبوتها وعدم تغييرها؛ لأنّ العربَ إذا أرادوا توكيدَ عهدٍ كتبوه للتّوثيق، وهذا ما استعملَه القرآنُ الكريمُ في كثيرٍ منَ الأحكام مثل: أمر الصّيام؛ فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وفي أمر القِصاص؛ قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ ونحو ذلك منَ الأحكام.

سِرُّ تقييد أولويّةِ أُولي الأرحامِ في كتاب الله:

تعظيمُ المنصوصِ عليه في كتاب الله

قُيِّدَت أولَيَّةُ أولي الأرحام بأنّها في كتاب اللّه؛ للدّلالة على أنّ ذلك حكمٌ فطريٌّ، قدَّرَه اللّهُ، وأثبَتَهُ بما وضعَ في النَّاسِ مِنَ المَيلِ إلى قراباتِهِم... "فلمّا كانَت ولايَةُ الأرحام أمرًا مُقرَّرًا في الفِطرَةِ، ولم تَكُنْ ولايَةُ الدِّين معروفةً في الجاهليَّةِ بيَّنَ اللّهُ أنَّ ولايَةَ الدِّين لا تُبطِلُ ولايةَ الرَّحِمِ إلّا إذا تعارَضَتا؛ لأنَّ أواصِرَ العقيدَةِ أقوَى من أواصِرِ الجسَدِ"(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.

تفخيمُ شأنِ أواصِرِ الرَّحِمِ

دلالةُ الإضافةِ في ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾:

إضافةُ الكِتابِ إلى الاسمِ الأَحسَنِ (اللّه) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ يُقصَدُ بها تَعظيمُ الكِتابِ وتَفخيمُهُ، ولازِمُ ذلكَ تفخيمُ شأنِ هذا الحُكمِ المَكتوبِ.

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنيِّ في الإجمالِ والتَّفصيلِ بحَسَبِ مُقتَضياتِ الحالِ

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظيِّ في الآيةِ قيدِ التفسيرِ:

قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: 6]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾، ووجهُ الفَرقِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأحزابِ خُصَّت بقولِه: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ دونَ سورةِ الأَنفالِ؛ وذلكَ لأنَّ آيةَ الأنفالِ صُدِّرت بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾، فلمّا كانَ الخطابُ للمهاجِرينَ والأنصارِ الّذين سبقَ ذِكرُهُم قبلُ ناسَبَهُ الاكتفاءُ بقولِه تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ دونَ التَّنصيصِ على كونِهم مؤمِنينَ ومهاجِرين، أمّا آيةُ الأحزابِ، فقد صُدِّرت بقولِه ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾، فلمّا ذُكِرَ المؤمِنونَ على سبيلِ الإجمالِ، وأُريدَ تقسيمُهم إلى مهاجِرينَ وأنصارٍ، ناسبَهُ التَّفصيلُ في موضعِ سورةِ الأنفالِ هنا.

عِظَمُ أَوصافِ اللهِ تعالى وأفعالِه

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليه (الله):

جاءَ المسندُ إليهِ (اللّه) معرَّفًا بالعلميَّةِ في قولِهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾؛ للإيماءِ إلى عظَمَةِ عِلمِ اللّهِ تعالى المُحيطِ بكلِّ شيءٍ؛ وذلكَ لأنَّ الاسمَ الأحسَنَ (اللّه) جامعٌ لِصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وذلك مُشعِرٌ بعظمَةِ أوصافِه وأفعالِه.

وأُكِّدَ ذلكَ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُملَةِ زيادةً في توثيقِ هذا المَعنَى وتقويَتِه.

سرُّ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ إظهارٌ في مقامِ

المُبالغةُ في بَيانِ إحاطَةِ علمِ اللهِ تعالى بكُلِّ مَعلومٍ

الإضمارِ، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسمِ الأحسَنِ (اللّهِ) في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، ونكتَةُ الإظهارِ زيادَةُ المهابَةِ بالتَّصريحِ بالاسمِ الأَحسَنِ الجامِعِ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وفيه أيضًا المبالغَةُ في بيانِ إحاطَةِ عِلمِ اللّهِ تعالى.

وفي التَّصريحِ بالاسمِ الأحسَنِ أيضًا إخراجُ الجملَةِ مخرجَ التَّذييلِ الجاري مجرَى المثَلِ؛ إذ لو أُضمِرَ - كما هو مُقتَضى الظَّاهِرِ - بأن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ) لكانَ ذلكَ مِن قَبيلِ التَّذييلِ غيرِ الجاري مَجرَى المثَلِ.

بَراعَةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيَةِ:

تَقريرُ أَولَويَّةِ ذَوي الأَرحامِ بَعضِهم بِبَعضٍ فيما يُعتَدُّ فيهِ بِالولايَةِ

قولُ اللّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ، وعدمِ احتياجِهِ إلى ما قَبلَهُ في فَهمِ تمامِ المرادِ منه.

وهذا التَّذييلُ مُؤذِنٌ بالتَّعليلِ؛ ولذا فُصِلَتِ الجُملَةُ عمّا قبلَها، والمقصودُ من جملةِ التَّذييلِ: تقريرُ أولويَّةِ ذوي الأرحامِ بعضِهم ببعضٍ فيما يُعتَدُّ فيه بالولايَةِ، ما لم يَمنَع من ذلك مانعٌ مُعتبَرٌ شَرعًا[1].

مُناسبةُ الفاصِلَةِ لِمَضمونِ الآيَةِ:

مِن بَلاغةِ القُرآنِ الكَريمِ مُلاءَمَةُ مَقاطِعِ الآيِ لِمَطالِعِها

خُتِمَت هذه الآيَةُ باسمِ اللّهِ تعالى: العَليم، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾، وذلكَ لكونِ صِفَةِ العِلمِ ملائِمَةً لنفوذِ هذهِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ[2].

بَراعةُ خَتمِ السُّورَةِ:

خُتِمَت سورَةُ الأنفالِ بقولِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾، وذلك في غايَةِ البراعَةِ؛ وذلك لكونِ السُّورَةِ اشتمَلَت على أحكامٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 2/557.

كثيرةٍ في الولايةِ العامَّةِ والخاصَّةِ والعهودِ وصلةِ الأرحام، وما قبلَهما ممّا سبق من أحكام القتالِ والغنائمِ وقواعدِ التَّشريعِ ونحو ذلك من أصول الحكم المُتعلِّقةِ بالأنفس ومكارمِ الأخلاق، كلُّ ذلك عن علمٍ واسعٍ محيطٍ بكلِّ شيءٍ؛ لذلك كان الخَتمُ بصفة العِلمِ مِن أنسبِ ما يكون؛ لكونِ صفةِ العلمِ جامعةً ذلك كُلَّهُ ومحيطةً بمبادئِه وغاياته[1].

من دقائق الإعجازِ القُرآنيِّ براعةُ ختمِ سُوَرِه

التَّناسُبُ في سورَةِ الأنفالِ:

في تناسُبِ مطلَعِ السّورَةِ ومقطَعِها وَجهانِ[2]:

تناسُبُ مَقاطِعِ سوَرِ القُرآنِ الكَريمِ مع مَطالِعِها

أحدُهُما: أنَّ السُّورَةَ صُدِّرَت بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، ثُمَّ ذُكِرت معركَةُ بَدرٍ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾، ثُمَّ خُتِمَتِ السّورةُ بذكرِ معركَةِ بدرٍ، وما ترتَّب عليها مِنَ الغنائمِ والأسرَى، في قولِه جلَّ وعلا: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، ويندرجُ في ذلكَ الجهادُ، وهو ما خُتِمَت به السُّورَةُ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾.

والآخَرُ: أنَّ اللّه ذكرَ في أوَّلِ السُّورةِ المؤمنينَ حقًّا، وذكرَ جُملةً من أوصافِهم، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، ثُمَّ قال فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، وذكَرَ في آخرِ السُّورةِ أهلَ الإيمانِ مِنَ المهاجرينَ والمجاهِدينَ والّذين آووا ونصروا، وقال فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

وبناءً على ذلك فالتَّناسُبُ واضحٌ بين مَطلعِ السُّورةِ وخاتمتِها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/360، ورضا، تفسير المنار: 10/103.

(2) فاضل السّامرّائيّ، التّناسب بين السّور في المفتتح والخواتيم، ص: 18 - 19.

وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ القرآنَ مُعجِزٌ في ترتيبِ آياتِه وتناسُبِ معانيه؛ فأوّلُ السُّورةِ مربوطٌ بخيوط الإعجازِ في آخر السُّورةِ، ولو انقطعَ ذلك الخيطُ لانفصلَت لُحمةُ التَّعبيرِ؛ فسبحانَ مَن وصلَ أوصالَ السُّورةِ مشتملةً على بِنْيتِها اللُّغويَّة الّتي تشابكَت معانيها مع تعدّد أحكامِها، وتنوّع أصنافِ النَّاس فيها، وتعدُّدِ زمنِ النُّزولِ؛ فالسّورةُ لم تنزلْ دفعةً واحدةً، ومع ذلك فمعانيها متلازمةٌ، يخرجُ معنى الآية الأخيرةِ من رَحِم معنى الآيةِ الأولى.

سُورَةُ التَّوبَةِ

سُورَةُ التَّوۡبَةِ

تعريف عام بسورة التوبة

حكايةُ الإجماعِ على مدنيَّةِ السُّورة

سورةُ التَّوبةِ مدنيَّةٌ باتِّفاق، نزلتْ في غزوةِ تبوك سنةَ تِسْع، وابتُدِئَ نزولها عقِبَ فتحِ مكَّة في سنةَ تسع عامَ حجِّ أبي بكرٍ ﵁، وقد حكَى الإجماعَ على مَدَنيَّتِها غيرُ واحد[1].

وآياتُها مئةٌ وتِسعٌ وعشرون آية في الكوفي، وفي عدِّ أهلِ المدينةِ ومكَّةَ والشَّام والبصرة: مئةٌ وثلاثون آية، واختِلافُ العدِّ في ثلاثِ آيات، هي: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، عدَّها البصريُّ، ولم يَعدَّها الباقون، و﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، عدَّها الشَّاميُّ، ولم يعدَّها الباقون، و﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾، عدَّها المدنيَّان والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون[2].

وهي السُّورةُ التاسعة في ترتيب المصحفِ بعد سورةِ الأنفالِ وقبل سورةِ يونس[3]، وفي ترتيب النُّزول المئة وثلاث عشرة، وترتيبُها في النُّزولِ بعد سورةِ المائدة وقبل سورةِ النَّصر[4].

أسماؤها المذكورة، وسبب تسميتها:

ليس في السُّوَر ما كَثُرَتْ أسماؤهُ مثل التَّوبة والفاتحة

الاسم الأوّل: **التَّوبةُ**: وهو اسمها الثَّابتُ رِوايةً وشُهرةً، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: «التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ»[5]، وقد كُتِبَتْ في المصاحفِ بهذا الاسم، وفي كتبِ

(1) النَّحاس، النّاسخ والمنسوخ، ص: 477، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/273، وابن حجر، فتح الباري: 8/316، والبقاعي، مصاعد النّظر 2/151، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/342، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/97.

(2) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 160.

(3) السّيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 93.

(4) الزّركشي، البرهان: 1/209، وابن حجر، فتح الباري: 8/734، ودروزة، التّفسير الحديث: 1/16.

(5) متفق عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب التّفسير، الحديث رقم: (4882): 6/147، ومسلم، كتاب التّفسير، باب سورة براءة والأنفال والحشر، الحديث رقم: (3031): 4/2322.

التَّفسير والسُّنَّة ومرويَّات الصحابة ﷺ، وجعَلَ الترمذيُّ في جامِعِه ترجمةً بهذا الاسم، والحاكمُ في مُستدركه[1].

ومناسبة التَّسميةِ بهذا الاسم هي نزولُ السُّورةِ بعهْدِ التَّوبةِ لجميعِ الفئاتِ الوارِدَةِ فيها من المشركين والمنافقين والمؤمنين، فكثُرَ ذِكْرُ التوبةِ فيها من أوَّلها إلى آخرها ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: 3]، ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [التوبة: 5]، ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 11]، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: 15]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: 27]، ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: 74]، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 102]، ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾ [التوبة: 104]، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 106]، ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: 112]، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: 117]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 117]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: 118]، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [التوبة: 126]. وفي تسميتها بالتَّوبةِ مع نزولِها بالبراءَةِ نُكتةٌ لطيفة، وهي أنَّ البراءةَ المذكورة لا تزولُ عنهم إلَّا بالتوبة، فالتوبةُ عهدٌ مع اللهِ جديد يَهدِمُ ما كانَ قبلَهُ من نكْثِ العهود والعقوباتِ التي استحقُّوها.

الاسم الثَّاني: **سورة بَراءة**: كُتِبَتْ به في بعضِ المصاحف[2]، ووردَ في بعضِ المرويَّاتِ الثابتة، وفي إطلاقاتِ الصحابة ﷺ، ففي الصحيحِ عن البراءِ بن عازبٍ ﷺ، قال: «آخر سورةٍ نزلتْ براءةٌ»[3]، وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «تعلَّموا سورةَ براءة»[4].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: نزولها بالبراءةِ من عهودِ المشركين والبراءةِ من جميعِ من تشبَّهَ بهم، وشايعَهُم في الوصْفِ أو في الموالاة.

الاسم الثالث: **القَرِينَة**: (القَرِينتان: الأنفال والتّوبة): فعن عثمان بن عفان ﷺ قال:

(1) الترمذي، الجامع الكبير، تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبةس: 5/123، والحاكم، المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة: 2/360.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/95.

(3) أخرجه البخاري، كتاب التفسير وكتاب المغازي، باب ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، وباب حجّ أبي بكر بالناس سنة تسع، الحديث رقم: (4605)، ورقم: (4364): 6/50، 5/167.

(4) أخرجه البيهقيّ في شعب الإيمان: 4/90.

«كانت الأنفال وبراءة تُدْعَيان في زمن رسول الله ﷺ القَرِيْنَتَيْن، فلذلك قَرَنْتُ بينهما، ولم أكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم»[1].

الاسم الرابع: **سورة المُبَعثِرة**: وهي تسميةٌ منسوبةٌ لابن عباس رضي الله عنهما[2]، وعَن مُحَمَّد بن إِسحاق قَالَ: "كَانَت بَرَاءَة تسمَّى فِي زمَان النَّبِي ﷺ المبَعثِرة، لِما كشَفَتْ من سرائر النَّاس"[3]. وعن ثابت بن الحارث الأنصاري أنَّه قال: «ما كانوا يدعون سورةَ التوبة إلا المُبَعْثِرَة، فإنَّها تُبعثِرُ أخبارَ المنافقين»[4].

أسماء أخرى لسورةِ التَّوبة:

كثيرٌ من أسماء سـورةِ التَّـوبة مُتَّحِدٌ في تقرير المعنى نفسه

سورةُ الفاضِحة: فعَنْ سعيد بن جبير، قال: قلتُ لابن عباس: سُورَةُ التَّوْبَة، قَالَ: (التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا)[5].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: لأنَّها فضَحتْ دَواخِلَ المنافقين بنحوِ قوله فيها: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ **[التوبة: 64]**.

سورةُ العذاب: فعن حذيفةَ رضي الله عنه، قال: «إِنَّكُمْ تُسَمُّونَهَا سُورَةَ التَّوْبَةِ، وَهِيَ سُورَةُ العَذَابِ»[6]. ومناسبةُ التَّسميةِ بهذا الاسم: لمجيءِ الوعيدِ بالعذابِ فيها في نحوِ ستةَ عشَرَ موضعًا من السُّورة[7].

سورةُ المُقَشْقِشَة: فعن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: «وَهل فعل بِالنَّاسِ

(1) أخرجه النَّحَّاس، الناسخ والمنسوخ: 3/208.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/228.
(3) ذكره السيوطي في الدر: 4/121 وعزاه لابن المنذر، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية: 2/554.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 2/244.
(5) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، الحديث رقم: (4882)، 6/147.
(6) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، ص: 130، والحاكم في المستدرك: 2/331، والطبراني في الأوسط، الحديث رقم: (1330)، وابن أبي شيبة في مصنفه، الحديث رقم: (30898)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد، الحديث رقم: (11035): "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات".
(7) في الآيات من سورة التَّوبة: [3]، [14]، [26]، [34]، [39]، [52]، [55]، [61]، [66]، [68]، [74]، [79]، [85]، [90]، [101]، [106].

الأفاعيل إلَّا هِيَ، مَا كُنَّا ندعوها إلَّا المَقَشقِشة»[1]، يَقصد سورةَ التوبة. وأورد هذا الاسمَ بعضُ المفسِّرين: كابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، والشوكاني[2].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: فمن قولهم: "قَشَّ من مرضِه: بَرَأ"[3]، وهذه التسميةَ من معاني البراءِة، فهي مُبرِّئَةٌ من الشِّركِ والنِّفاق؛ لِمَنْ تبرَّأ من صفاتِ المشركين والمنافقين الواردةِ فيها[4].

سورة المُنَقِّرَة: عن عبد الله بن عبيدِ بن عميرٍ رضي الله عنه قال: "كَانَت بَرَاءَة تسمَّى المنقِّرةَ نَقَّرَتْ عَمَّا فِي قُلُوب المشركين"[5]. وذكرَ هذه التِّسمية بعضُ المفسرين: كالبيضاوي، وأبي السعود، والشوكاني[6].

ومناسبةُ التَّسميةِ بهذا الاسم: أنَّ السُّورة قرعَتْ قلوبَ الكافرين والمنافقين، فنقَّبَتْ، وبَحَثَتْ فيها؛ لِتُخرِجَ ما كتَمُوهُ من العداوةِ والأضغان، وذلك ظاهر في نحو قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64]، والنقْرُ هو قرعُ الشَّيءِ واختراقُه للبَحثِ والتنقيبِ فيه[7]، وتسميتها بذلك كنايةٌ عن الفضيحةِ التامَّةِ لهم بهتْكِ خفاياهم وكشْفِ أستارِهم.

سورةُ البَعُوث (بفتحِ الباء وضمّها): فعن المقداد بن الأسود قال: «أَتَتْ عَلَيْنَا البَعُوثُ يَعْنِي سُورَةَ التَّوْبَةِ»[8].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: على وجهِ الفتح، فهي صيغةُ مبالغة بمعنى اسم الفاعل، باعتبار أنَّ السُّورة بَعثَتْ ما في قلوبِ المنافقين، وأخرجَتْه للعَلَنِ بعد الكِتمانِ.

وعلى وجه الضمِّ فالبُعوثُ هي الجيوش التي تجهَّزَتْ للغزو، وهذا ملائِمٌ أيضًا مع

(1) أورده السيوطي في الدرّ المنثور: 4/121، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم رضي الله عنه.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/3، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/389، والرازي، مفاتيح الغيب: 15/223، والخازن، لباب التأويل: 2/237، والشوكاني، فتح القدير: 2/476.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قشش - قشقش).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/235.
(5) أورده السيوطي في الدرّ المنثور، وعزاه لأبي الشيخ: 4/121.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/39، والشوكاني، فتح القدير: 2/476.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقر)، والراغب، المفردات: (نقر).
(8) أخرجه الحاكم في المستدرك، الحديث رقم: (3282): 2/363.

مضمون السُّورة، وقد وردتْ مادَّة هذه التسميةِ في قولهِ في السُّورة: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة: 46]، أي: خروجَهم مع بُعوثِ الجهادِ.

سورة البَحوث: (بفتْحِ الباءِ وضمِّها) فعن المقداد بن الأسود قال: «ائْتِ عَلَى سُورَةِ البحوثِ: قَالَ اللَّه ﷻ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41]»[1]، وهي صيغةُ مبالغةٍ من البَحْث بمعنى اسم الفاعل[2].

وهذه التَّسميةُ في نفْسِ معنى تسميتِها بالمنقِّرة والبَعوث، فهي بحثَتْ، وبَعَثَتْ، ونقَّرتْ عمَّا في القلوبِ وكشَفَتْه.

سورة الحافِرة: ذكَرَها بهذا الاسم غيرُ واحدٍ من المفسِّرين، كالزَّمخشري، وابن الجوزي، والرازي[3]، ذلك أنَّها تَحفِرُ قلوبَ أَهلِ النِّفاق، فتُخرِجُ ما فيهم من رُكامِ الرِّجْسِ ورَمَادِه، بمثل قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [التوبة: 110]، ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: 77][4].

سورة المُثِيرَة: فعن قَتادةَ قال: (كانت هذه السُّورة تسمَّى الفاضحة - فاضحة المنافقين - وكان يقال لها: المثيرة - أنبأت بمثالِبهم وعوراتِهم)[5].

سورة المُنَكِّلَة: أي: المُعاقِبةُ التي جاءتْ بالنَّكالِ والعِبْرَةِ الرَّادِعة، ووقعتْ هذه التَّسمية عند عددٍ من المفسِّرين غير منسوبةٍ لمصدرٍ أو قائِل[6].

سورة المشرِّدة: سمِّيتْ بذلك؛ "لأنَّها شرَّدتْ جموعَ المنافقين وفرَّقتهم"[7]، ويكأنَّها تطبيقٌ لقولِه تعالى في سورةِ الأنفال: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال: 57].

(1) أخرجه ابن المبارك في الجهاد، حديث رقم: (103، 104)، والحاكم في المستدرك: 2/118، 333، 3/349، والشيباني في الآحاد والمثاني، حديث رقم: (290)، وابن أبي شيبة في المصنَّف، حديث رقم: (19758)، والبيهقي في السنن الكبرى: 9/21، وصحَّح الحاكم، ووافقه الذهبي.
(2) الألوسي، روح المعاني: 5/235.
(3) الكشاف: 3/5، وزاد المسير: 3/389، ومفاتيح الغيب: 15/223.
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/227.
(5) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، الحديث رقم: (10045): 6/1829.
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/136، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/172، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/114، والسخاوي، جمال القراء: 1/36، والسيوطي، الإتقان: 1/173.
(7) الخازن، لباب التأويل: 2/332.

سورة المُخزِيَة: سمِّيتْ بذلك لافتتاحها بخزي الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ [التوبة: 2][1].

سورة المُدمدِمَة: نُسِبَتْ هذه التَّسمية لسفيان بن عُيَيْنَة[2]، ووجْهُ تسميتها بذلك أنَّها جاءتْ بالوعيدِ المُطبِقِ عليهم المُهلِكِ لهم، من دَمْدَمْت الشَّيءَ: ألزقته بالأرض، أي: سوَّيته بها أو فوقها بضغط شديد، كما قال الله تعالى: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ [الشمس: 14]، أي: فهُدِّمَت مساكنهم عليهم، ودُفِنُوا تحتها، أو ابتلعهم الأرض، واندَمَّتْ عليهم، وهكذا حال هذه السُّورة كشفتْ خبايا المنافقين، وهتكت نيَّاتِهم ودواخلهم، فهدَّمت ما يخطِّطون، ويرجون.

ووردت هذه التَّسمية عند كثيرٍ من المفسِّرين: كالزّمخشري، والرّازيّ، والبيضاويّ، والنّسفيّ[3].

المقاصدُ الكبرى للسُّورة:

أوّلاً: الكلامُ على أحكام العهود الَّتي بين النَّبيِّ ﷺ وبين المشركين، وما يتبع ذلك من حالة حربٍ وأمنٍ، وبيان أحكام الوفاء والنَّكث، وتقرير البراءة من المشركين، ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم.

ثانيًا: إعلانُ مواجهة أهل الكتاب المحاربين حتى يعطوا الجزيةَ، وذمُّ ما أدخله الأحبار والرُّهبان في دينهم من العقائد الباطلة، وبيانُ تكالبهم على الأموال، وأنَّهم ليسوا بعيدين عن أهل الشِّرك.

ثالثًا: بيانُ حرْمَةِ الأشهرِ الحُرُم، وإبطالُ ما كان يفعلُه العرب في الجاهلية من تقديم بعض الأشهر أو تأخيرها حَسَب رغباتهم.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/136، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/172، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/114، والسخاوي، جمال القراء: 1/36، والسيوطي، الإتقان: 1/173.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/235.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/5، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/223، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 2/274، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/101.

رابعًا: حثُّ المسلمين على نصرة النبي ﷺ في العسر واليسر، وأنَّهم إنْ لم ينصروه؛ فاللهُ ناصرُه، وتذكيرُهم بنصر الله لرسوله ﷺ عندما أنجاه من كيد المشركين في حادثة الهجرة، وبنصره له يوم حُنَين، وبيانُ جملةٍ من حقوق النَّبيِّ ﷺ على المؤمنين؛ كوجوب محبَّتِه، والتزامِ هديه، وتحريمِ إيذائه والقعود عن الخروج معه في الجهاد.

خامسًا: التَّنويهُ بغزوة تبوك والإشارة إلى التجهُّز لها، وذمُّ المنافقين المتثاقلين، والمعتذرين والمستأذنين في التخلُّف بلا عذرٍ، والمخذِّلين عن الخروج للغزو، والتَّنويهُ بالغزوة وجيشها، وذكرُ الذين تاب الله عليهم من المتخلِّفين عنها.

سادسًا: فضْحُ أساليب المنافقين وتخذيلهم للمؤمنين؛ حيث ذُكِرت صفاتُهم الواحدة تِلْوَ الأخرى؛ فذكرت السُّورةُ أذاهم لرسول الله ﷺ، وأَيمانَهم الكاذبةَ، وأمْرَهم بالمنكرِ ونَهْيَهم عن المعروف، وكَذِبَهم في عهودهم، وسُخْرِيَتهم بضعفاء المؤمنين، فلم تَدَعْ لهم سِترًا إلَّا هتكَتْهُ، وفي ضمن ذلك جاءَ أمرُ النَّبيِّ ﷺ بجهادهم، ونهيُه عن الاستغفار لهم والصلاةِ على موتاهم.

سابعًا: مقابلةُ صفات أهل الكفر والنِّفاق وجزائهم بأضدادها من صفات المؤمنين وجزائهم، والتنبيهُ على فضل أبي بكرٍ رضي الله عنه وفضل المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، والإشارةُ إلى فضل مسجدِ قباء ومسجدِ الرسول ﷺ.

ثامنًا: الحثُّ على الصَّدَقةِ، والتَّوبةِ إلى الله، والعملِ الصالح، والأمرُ بالفقه في الدين ونشرِ الإسلام.

تاسعًا: امتنانُ الله على المسلمين بأن أرسلَ فيهم رسولًا منهم اتَّصف بصفات فيها كلُّ خير لهم كالرَّحمة والشفقة؛ حثًّا لهم على متابعته والتخلُّق بأخلاقه ﷺ[1].

بيانُ مناسبةِ السُّورةِ للسّورة قبلها:

سورةُ الأنفالِ نزلتْ في غزوةِ بدر، وسورة التوبة نزلتْ في غزوةِ تبوك، فكانت الأنفال في أوَّلِ غزوةٍ للرَّسول ﷺ في رمضان في السَّنةِ الثَّانيةِ من الهجرة، وكانت التَّوبة في

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/100، وعبد الله شحاته، أهداف كلّ سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ص: 109.

الأنفالُ تُعبِّر عن ضعفِ شوكة المسلمين، والتّوبةُ تعبِّر عن القوَّةِ والتَّمكين

غرضُ السُّورة: ضبطُ العلاقاتِ من الولاياتِ والعَدَاوات، بين المؤمنين وغيرهم

آخرِ غزوةٍ له ﷺ في رجب في السَّنة التَّاسعة من الهجرة، فاجتمعتِ السُّورتان على تقريرِ الهدفِ نفسه، وهو ذكر أحكام القتالِ في زمانينِ متباينينِ، فسورةُ الأنفالِ في المبدأ وسورة التوبةِ في المنتهى[1].

بيانُ محورِ سورة التّوبة والموضوعات التي تأتلفُ وتلتفُّ حوله:

تدورُ موضوعاتُ السُّورةِ حولَ غايةٍ مركزيَّةٍ تُحلِّقُ حولها، وتلتئمُ عليها، وهي ضَبْطُ العلاقةِ من الولاياتِ والعَدَاوات بين المسلمينَ والمشركين، وضبْطُ علاقتِهم مع غيرهم من الطَّوائفِ المنحرفة في أهلِ الكتاب والمنافقين.

ولكون سورةِ التَّوبةِ مِن آخِرِ ما نزل مِنَ القرآنِ الكريم، فهي سورةٌ تتناولُ العديد من الموضوعات والمقاصد التي تهمُّ المجتمع المسلم في علاقاتهِ مع الآخرين، فبيّنت السورة المنهاج الذي يجب أن يسلكَهُ المؤمنون في مواجهة الشِّرك والكفرِ والنِّفاق، وفي تحقيق العزَّةِ والتَّمكين للدِّين الحقِّ، والسُّورة إذْ تَنعقد لهذا الغرض، فهي تبني هذا الضبْطَ على أساس الموالاة المتجرِّدة للّه ورسولهِ فقط، وهي تُحاكِمُ على هذا المعيارِ دون تساهلٍ في الميزانِ به ودون اعتبار غيرِه من الموازين.

وموضوعاتها تبدأ بحسم العلاقاتِ مع المشركين في كافَّةِ معاهداتِهم على تباين أحوالِهم في النَّكثِ أو الوفاء، أو الخضوع بالإسلام أو البقاء على الكفر، وفصَّل ذلك، ولم يُغفِل فيه شيئًا.

وفاصَل بين المؤمنين والكافرين في ولايةِ المسجد الحرام والقيام عليه، وجعَلَ المؤمنين أحقَّ وأولى به، وفاصَلَ بين المؤمنين والكافرين في الولايةِ والانحيازِ، وحرَّمَ أن يكونَ الكافرُ من ذوي القربى أو أيُّ شيءٍ من عرَضِ الدُّنيا في المنافع والتِّجارات أحبَّ وأولى في التقديم

(1) رضا، تفسير المنار: 10/133، وطنطاوي، الوسيط: 6/184.

والاعتبار من أحكامِ اللّه ورسولهِ وإعلائهما فوقَ كلِّ اعتبارٍ، فهي مُفاصَلةٌ حاسِمَةٌ ضابِطةٌ مع الخصومِ المُجاهرين ومع الأقاربِ المشركين، ومع الأشياء النفعيَّةِ مِنَ الأعراض والأغراض.

ثمَّ يأتي حسْمُ العلاقةِ وضبطُها مع الذين لايؤمنون باللّه ولا باليوم الآخرِ من أهلِ الكتاب والتَّحذير من مسلكِهم في الاعتقادِ، وإعلاء يدِ المؤمنين عليهم بفرضِ الجزيةِ عليهم أن يدفعوها، وهم خَجِلون وجِلون من انحرافِهم وفسادِ مَسْلَكِهم.

ثمَّ تتفرَّغ السُّورةُ بعدئذٍ لفضْحِ المنافقين المندسِّين مُستخْفِي النِّيَّات والطَّويَّات فتفضحُهم بالبرهانِ؛ لتؤسِّسَ لِمعاملةٍ جديدةٍ معهم من الحزم والرَّدع والمجاهرة بالعداوة، وفي نفْس الوقتْ تحذِّرُ المؤمنين الصَّادقين أن يحذروا مسلكهم في الحرص والجُبنِ والشُّحِّ والتخلُّفِ عن الجهاد وإخلافِ العهود مع اللّه في النَّفقةِ وإخراجِ حقِّ المالِ.

ثمَّ بعد تجليةِ كافَّة المواقِف وكشْفِ حقيقةِ الأشخاصِ والفئاتِ، تتفرَّغُ السُّورة لضبطِ علاقاتِ المؤمنين بعضِهم مع بعض، وأنَّ الأصل فيها الولايةُ على طاعة اللّه ورسوله وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، فإذا حصلَ إخلالٌ أو تقصير من أحدهم؛ فالحكمُ في ذلك للّه ورسوله، وهم في تفاعلِهم مع إخلالهِ وتقصيرهِ تَبَعٌ للّه ورسوله؛ ولذا حدَّدَتِ السُّورةُ كيفيَّةَ التَّعامل مع أولئك المقصِّرين، وبيَّنَتْ فئاتِهم، كالثَّلاثة الذين خُلِّفوا، والآخَرِين المُرجَوْنَ لأمرِ اللّه، والذين اعترفوا بذنوبهم، وبيَّنَتْ من هم أصحابُ الأعذار في القعود عن الجهاد على جهةِ الحقيقة، ومن هم أصحابُ الأعذار على جهةِ الزَّيفِ والادِّعاء، وحكمَ كُلٍّ وعاقبتَهُ، هذه السُّورةُ حدَّدتْ جميعَ الأصناف والفئات؛ لتُقِيمَ من ذلك تحديدَ العلاقاتِ مع كلِّ صنفٍ بما يناسبُهُ: إمَّا بالبراءة الكاملةِ منه، وإمَّا بالتماسِ العذرِ له، وإمَّا بتصفيةِ صفوفِهم منه وانتزاعه من الانتسابِ إليهم كالمنافقين بتحريم الاستغفار لهم أحياءً، والصلاةِ عليهم أمواتًا، وكتحريم الاستغفارِ للمشركين، ولو كانوا أولي قربى من بعدِ ما تبيَّن لهم أنَّهم أصحابُ الجحيم[1].

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 187، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/503.

الفرائد اللفظية في السّورة:

﴿كَسَادَهَا﴾ [24]، ﴿مَوَاطِنَ﴾ [25]، ﴿نَجَسٌ﴾ [28]، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ [30]، ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ [35]، ﴿جِبَاهُهُمْ﴾ [35]، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ [46]، ﴿يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ [57]، ﴿جُرُفٍ﴾ [109]، ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾ [109].

تلك عشَرَةٌ كاملةٌ من الكلمات انفردتْ بها السُّورةُ عن غيرها.

وهذه التراكيب المُفردَة والمتفرِّدَة، تعبِّرُ في شِدَّتِها الدلاليَّةِ عن حالةِ الطوارئِ الَّتي تَسْرِي بها حركةُ السُّورةِ وإيقاعُها، وذلك على النحو التالي:

الكلمة الأولى: ﴿كَسَادَهَا﴾ [24]، في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، فوصْفُ التِّجارة بالكسادِ، وهو الشَّيءُ الدُّونُ الرَّديءُ الَّذي لا يشتمِل على منفعةٍ[1]، تعريضٌ بأنَّ اللّه ورسولَه في مقامٍ عظيم، فلا يَنبغِي أن يُؤثَر شيءٌ في الحُبِّ على هذا المقام، فيصير هذا المقامُ في رُتْبَةِ الدُّوْنِ والزَّهادة، بإيثارِ التِّجاراتِ عليه خشيةً من كسادها، فيرضَونَ للّه ورسولِه من الزَّهادةِ والدُّوْن ما لا يرتضونه لتجاراتِهم، والسُّورةُ كلُّها مبنيَّةٌ على تمحيضِ أحكامِ اللّه ورسوله للاعتبارِ الخالصِ والاعتدادِ التامِّ.

الكلمة الثانية: ﴿مَوَاطِنَ﴾ [25]: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾، فالمواطِنُ هنا هي مقاماتُ الحربِ ومواقِفُها[2] وغزواتُها، وهي كلمةٌ معبِّرةٌ عن حركةِ السُّورةِ العامَّةِ في الغزوِ والجِهادِ وامتِحانِ النَّاسِ بنَدْبِهم للقتالِ وعدمِ التَّخلُّفِ والتَّخاذُل.

الكلمة الثالثة: ﴿نَجَسٌ﴾ [28]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ وهي صِفةٌ مشبَّهةٌ[3] بجعلِ النَّجاسةِ المعنويَّةِ وصفًا ملازِمًا لهم، والتَّعبيرُ بتلك الكلمةِ خيرُ شاهدٍ على معنى البراءةِ من المشركين، فنجاستُهم الشِّركيَّةُ أحدُ عِلَلِ البراءةِ منهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسد).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/672.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/159.

الكلمة الرابعة: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ [30]، في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، فكلمة ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ تعبِّرُ عن شدَّةِ مُشابهةِ اليهودِ والنَّصارى بالمشركين التي أتتِ السُّورةُ بالبراءةِ منهم، فكأنَّه قيل: إنَّ الكفرَ كلَّه مِلَّةٌ واحدة، والمشركون واليهود والنصارى والمنافقون جميعهم في سَلَّةٍ واحدةٍ، وهم أخلاطٌ متشابهون، ولذا جاءتِ السُّورةُ تضبطُ العلاقاتِ معهم جميعًا بالميزانِ والحُكْمِ نفْسِه.

الكلمة الخامسة والسادسة: ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ [35]، ﴿جِبَاهُهُمۡ﴾ [35]، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾، فـ"الكيُّ أن يُوضَع على الجِلْد جمْرٌ أو شيءٌ مُشتَعِل، والجِبَاه جمع جبهةٍ، وهي أعلى الوجْهِ مما يَلِي الرَّأسَ"(1)، وهما لفظانِ يعبِّرانِ عن مدى النِّقمَةِ عليهم لَمَّا خانوا عهْدَ اللهِ في أموالِهم، فكنزوها، وبَخِلوا بها، فاللَّفظانِ واردانِ في سياقِ العهْدِ، كما السُّورةُ كلُّها واردةٌ في العهودِ والعقوبةِ على الإخلالِ بها.

الكلمة السابعة: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [46]، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾أي: "فَكَسَّلَهُمْ، وضَعَّفَ رَغْبَتَهم في الانبعاثِ"(2)، وهي كلمةٌ تعبِّرُ عن المبالغةِ في رفضِهم ونبْذِهم والتبرُّؤ من أفعالهم لَمّا نبذوا عهودَهم مع اللهِ بالكذبِ والنِّفاق، فالكلمةُ واردةٌ في معنى النَّبْذِ والبراءة الَّتي انْبَنَتْ عليها السُّورةُ.

الكلمةُ الثامنة: ﴿يَجۡمَحُونَ ۝٥٧﴾ [57]، ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ واختيارُ لفظةِ الجُموحِ لتصويرِ "شِدَّةِ حِرصهم على الفرارِ والاختباءِ دون أيِّ تراخٍ"(3)، وهو وصْفٌ للدَّافِعِ النفْسيِّ مِنْ حاجزِ النُّفورِ بينهم وبين أحكام اللهِ وعهودِه إليهم، بما حملَهم على التَّخلُّفِ عن الغزوِ وعلى خيانةِ اللهِ ورسولِه وهو مدارُ السُّورةِ وموضوعُها.

الكلمةُ التاسعة والعاشرة: ﴿جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ﴾ [109] في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 10/179.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/683.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/334.

نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا التركيبُ من الفَرائِدِ، تقريرٌ لأعمالِ هؤلاءِ جميعًا أنَّها قائمة على غيرِ أساسٍ صحيح، بتمثيلِها بمن يؤسِّسُ بِناءً على طرَفِ حُفْرةٍ آيلَةٍ للسُّقوط، فمتى وضَع البناءَ انجرفتْ به، وانهارتْ، وسقطَ معها بناؤه وهَوَى، وهو تمثيلٌ يومِئُ بِشِدَّةٍ إلى أنَّ أعمالهم لا تَصِحُّ إلا بتجديدِ العهدِ مع اللّه بالتَّوبةِ إليهِ والبراءةِ ممَّا سواه، وهو العملُ بحاصِل عُنوانِ السُّورةِ ومضامينِها.

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١﴾

[التّوبة: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عِلْمُ اللهِ بكلِّ شيءٍ هو محلُّ الرَّبْطِ بين آخرِ الأنفالِ وأوَّلِ التَّوبةِ

مطلَعُ سورةِ ﴿بَرَآءَةٞ﴾ ظاهِرُ المناسبةِ مع آخرِ سورةِ الأنفال، سواءٌ آخرها العامُّ، وآخِرها الخاصُّ، أمَّا آخِرها العامُّ: فقد ختَمَتْ سورةُ الأنفالِ بتَرسيم الحدودِ الفاصلةِ بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون بعضُهم أولياءُ بعضٍ، والكافِرون بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وفي سورةِ التَّوبةِ تطبيقٌ لتلك المُفاصَلةِ، وتنفيذٌ لهذا العزْلِ التَّامِّ بين المؤمنين والكافرين بإعلانِ البراءةِ من المشركين ومن العهودِ المعقودةِ معهم. وأمَّا عن المناسبةِ مع آخرِها الخاصِّ؛ فقد خَتَمَتِ الأنفالُ بتقرير حقِّ الموالاةِ بين المؤمنين، وجعلتْ هذا الحقَّ آكَدَ وأوْلَى بين أولي الأرحام والقراباتِ، ثمَّ ذيَّلَتْ هذا التقريرَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: 75]، وهذا التَّذييلُ هو محلُّ الرَّبْطِ بين آخرِ الأنفالِ وأوَّلِ التَّوبة، أي: إنَّ تقريرَ الولاياتِ في آخرِ الأنفالِ كلّه حِكْمةٌ وصوابٌ وصلاحٌ؛ لأنَّه مِنْ لَدن العليم بدقائقِ الأحوالِ والتَّفاصيل، كذلك تقريرُ العداواتِ ونزْعُ المعاهداتِ في أوَّلِ سورة براءة ناجمٌ عن تلك العِلَّةِ الكامِلةِ في العِلْمِ والإحاطةِ التي ذُيِّلَتْ بها سورةُ الأنفال، فالختْمُ والافتتاحُ مَردُّهُمَا لِقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرَآءَةٞ﴾: البراءةُ مصدرُ (بَرِئَ) كـ(تَعِبَ)، وأصله: التَّباعُدُ مِنَ الشَّيءِ ومُزَايَلَتُه، كَبَرِئَ من المرضِ: إذا انفصلَ عنهُ، وسَلِمَ منه،

(1) الرازيّ، مفاتيح الغيب: 15/520، والخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/694.

وخَلَصَ مِنْ أذاه، والمرادُ بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾، أي: هذه براءةٌ، بمعنى تبرُّؤٍ وتباعدٍ وتخلُّص من مُعاهدةِ المشركين[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إعلانُ نهايةِ العهودِ مع المشركين في جزيرة العربِ

هَذِهِ براءةٌ وتَباعُدٌ وتَخَلُّصٌ وإعلانُ انفصالٍ تامٍّ - مِنَ اللهِ ورسولِه - عنِ المُعاهَداتِ الَّتي كانتْ قائمةً بين المسلمين والمشركين النَّاكثين للعهود في جزيرةِ العربِ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ

موقعُ جملةِ الافتتاح ﴿بَرَآءَةٌ﴾ وأثرُه في المعنى:

إعرابُ البراءةِ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ أمْكَنُ بلاغةً، لِحداثَتِها عند المُخاطَبين

جملة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ في محلِّ رفْعِ خبر عن مبتدأ محذوف، والتقديرُ: هذه الآياتُ براءةٌ صادرةٌ أو مُبتدَأةٌ مِن اللهِ، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بنفْس ﴿بَرَآءَةٌ﴾؛ لأنَّها مصدرٌ، وهذه المادَّةُ تتعدَّى بـ(مِنْ)، ويجوز أنْ تكون ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأً، والجارُّ والمجرور متعلِّقانِ بمحذوفٍ نعتٍ لـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾، وهو المسوِّغُ للابتداء بالنَّكرة لتخصيصها به، والتَّقديرُ: براءةٌ حاصلةٌ واصِلةٌ من اللهِ، وكونُ البراءةِ خبرًا لمبتدأ محذوف أمْكَنُ بلاغةً؛ لأنَّ هذه البراءةَ أمرٌ حادثٌ لم يُعهد عن المخاطَبين، فلا بدَّ من جعلِها خبرًا حتى تكونَ معلومةً عند المخاطَب أوَّلًا، لتحقيقِ النِّسبةِ التقيُّديَّة بين الخبرِ والمبتدأ أوَّلًا، لِيَتِمَّ بِناءُ الوصفِ بعد ذلك على تلك النِّسبةِ المعلومة، فحَقُّ الصِّفاتِ قبلَ عِلمِ المخاطَب بثبوتِها لموصوفاتِها أن تكونَ أخبارًا، وحقُّ الأخبارِ بعد العِلم بثبوتِها لما هي له أن تكونَ صفاتٍ[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ)، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/336.

(2) حجازي، التّفسير الواضح: 1/854، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1656، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/187، جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/187.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40، والفرّاء، معاني القرآن: 1/420، والزّجاج، معاني القرآن: 2/428، والنّحاس، إعراب القرآن: 2/108، ومكّي، مشكل الإعراب، ص: 307، والعكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/634، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 6/5، والشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/296.

دلالةُ الافتتاحِ بالجملة الاسميَّة:

الافتتاح بالاسميَّةِ تضمَّنَ الخبرَ والإنشاءَ، وثبوتَ الحدثِ واستمرارَهُ

قولُه: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ افتتاحٌ بالاسميَّةِ، فلم يقل: (قد تبرَّأَ اللّهُ)، للدَّلالةِ على أنَّ البراءةَ ثابتةٌ أزلًا في عِلْمِ اللّهِ، فهو قضاءٌ ثابتٌ عنده، ولذا عبَّر بالاسميَّةِ الدَّالَّة على ثبوتِ المعنى وانقضائِه، وإنَّما هو مُتجَدِّدٌ وحادِثٌ باعتبارين، الأوَّل: إخبار المخاطَبين به وكشْفُه لهم، وهذا سِرُّ مجيءِ الجملةِ خبريَّةً.

الثَّاني: باعتبارِ إنشاء الأمْر، فالمخاطَبون مأمورون بالبراءةِ، ولذا فالجملةُ إنشائيَّةٌ في معناها وإن أتتْ بلفظِ الخَبر.

ولو قال: (قد تبرَّأَ اللّه) على الفعليَّةِ لم تتضمَّن تلك المعاني الثَّلاثةَ جميعًا معًا[1].

براعةُ الاستهلالِ بالمصدرِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾:

التَّعبيرُ بالمصدرِ حشْدٌ معنويٌّ، لجميعِ الدِّلالاتِ المجرَّدةِ لِلَّفظ

الاستهلالُ بالمصدرِ يدلُّ على تهويل الوعيدِ الذي تضمَّنه المقامُ، ففي افتتاح الوعيد بالمصدر حشْدٌ معنويٌّ لجميع دلالات اللفظِ المجرَّدةِ في إفادةِ الحدَثِ مع إفادةِ ثبوتِه وعراقَتِه، أي: براءةٌ كاملةٌ ثابتةٌ بكلِّ ما تحتَمِلُه من معاني الانفكاكِ وانعدامِ الصِّلة وقطع الأعذار ورفضِ الشَّفاعات بين المتَبَرِّئ والمُتبَرَّأ منهُ، وهذا الاستهلال في كلِّ سورةٍ من سورِ القرآن الكريم، ولاسيَّما الطُّول والمئين مفتتح من الآي يكون استهلالًا بديعًا مشيرًا إلى جوهر المعنى الكليِّ الذي يقوم في السُّورة، وهذا من أجلِّ مظاهر براعة القرآن وإعجازه، فإنَّ المستهلَّ يُعدُّ أوَّلَ ما يطرق أذنَ المستمعِ، وأوَّلَ ما يحظى به من انتباهٍ، فإذا كان مستهلًّا بديعًا مشيرًا إلى موضوع السُّورةِ أو مقصدِها أو جزءًا من ذلك، فإنَّ ذلك يجذبُ انتباهَ المستمعِ، ويثيرُ اهتمامَهُ، ويجعلُه يتابع باقي السُّورةِ بشغفٍ وحرصٍ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40، والشهاب، عناية القاضي وكفاية الرَّاضي: 4/296، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/346.

(2) محمود توفيق، الإمام البقاعيّ ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن، ص: 224.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿بَرَآءَةٞ﴾:

التَّنكيرُ في لفظةِ الوعيد ﴿بَرَآءَةٞ﴾ يدلُّ على شُيوعِها المُطلَقِ وعدمِ تَعيُّنِها وانحصارِها في معانٍ مُحدَّدةٍ أو مقاصدَ مُقيَّدةٍ يُريدها المتكلِّمُ لتخفيفِ جُرعةِ اللفظِ في حِدَّتِه وصولتِه، فكأنَّ المتكلِّم يقول حينئذٍ: هي براءةٌ لا لِجامَ لها ولا قَيْدَ، فهي جارية بمعناها المطلَقِ المُطبِقِ بجميعِ أجزائهِ على مَنْ سيقَ الوعيدُ في حقِّهم براءةٌ خاليةٌ عن الرَّحمة جافيةٌ عن الإمهال، وهذا معنى قولهم: إنَّ التَّنكيرَ للتَّعظيم والتهويل والمبالغةِ في سوءِ الإيعاد والإرعاد[1].

التَّنكيرُ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ والمبالغةِ في سوءِ الإيعادِ والإرعادِ

بلاغةُ الجملةِ الخبريَّةِ:

مِن براعة أساليبِ القرآنِ الكريم أنَّه يستخدمُ الجملةَ الخبريَّةَ في مواضعَ تحتاج إلى الإنشاءِ، لكنَّه يفيدُ بها معانيَ إنشائيَّةً بطريقة أكثر تأثيرًا وإقناعًا، فقوله: ﴿بَرَآءَةٞ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ معناها الإنشاء، وبلاغةُ هذا التَّركيب في أنَّ معنى الخبريَّةِ مقصودٌ أصالةً من اللَّفظ، ومعنى الإنشاء مقصود تبعًا من قرينة السِّياق، ويفيد مجيئُها على جهة الإخبار لا الأمر الصَّريح، لإفهامِ السَّامع أنَّ أصلَ الحكم حاصلٌ ومتقرِّر قبلَ طلبِ إنشائه من المُخاطَب، فمعنى وجوده غير مفتقرٍ لامتثالِ المأمور به.

جملةُ الخَبَرِ الّتي معناها الإنشاء، أفادتْ أن أصلَ الحكمِ حاصلٌ قبل طلبِ إنشائه

نكتةُ إسنادِ التَّبرِّي:

أسندَ البراءةَ إلى اللّه ورسوله، والعهدَ إليهم؛ لأنَّ البراءةَ إخبارٌ عن مطلوبٍ لم يُحدِثوه بعدُ، فكيف تُنسَبُ إليهم إذًا؟ واللّهُ هو الذي حكَمَ بِه، وأنشأَهُ، فلذلك نُسِبَ إليه، وأمَّا المعاهدةُ؛ فهم الّذين حصَّلوها، وأنجزوها، ولذا نسِبتْ إلى ضميرهم.

وأيضًا: رِعايةً لِحُسْنِ الأدبِ، وتنزيهًا لجنابِ اللّه، فإنَّ المعاهدةَ،

بلاغةُ العدولِ بالالتفاتِ من الغيبةِ للخطاب، ومن ضمير التَّثنيةِ إلى ضمير الجمع الخِطابيّ

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/361، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/39، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/238، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/103.

وإنْ جَرَتْ بإذنِ اللّه، إلا أنَّ المقامَ مقامُ نكْثٍ للعهد، فلم يقل: (إلى الذين عاهدًا) على ضميرِ اللّه ورسوله، لئلَّا يُقحَمَ اسمُ اللّه في مقامٍ منقوضٍ منكوث، ولذا أُسنِدَ إلى البراءةِ دون المعاهدة؛ ليكون في جانِبِ الغَلَبَةِ والعِزَّة والقهْر بالعقوبة، وهو (البراءة).

وأيضًا: في نِسبةِ البراءةِ إلى اللّه ونسبة المعاهدة إليهم، إيذانٌ بأنَّ البراءة حكمٌ ناجِز محتوم لا يتوقَّف على رأي المخاطَبين، ولا دخْل لهم في إتْمامِه، بل لا دخْل لهم فيه إلَّا بالامتثال والإذعان، وأمَّا المعاهدةُ؛ فهي عقدٌ تكليفيٌّ شرعيٌّ صدرَ عنِ اللّهِ إذْنًا، وعن المتعاقِدين مُباشرةً وإجراءً، والبراءةُ متعلِّقةٌ بالعقد من حيث تحصيلُه لا من حيثُ الإذنُ فيه، فنُسِب لمن حصَّلوه(1).

دلالةُ تعديةِ المصدر بالحرفِ:

التَّركيبُ المتضمِّنُ لمعنيينِ أولى في الاستعمالِ من التَّركيب الَّذي يتضمَّن معنًى واحِدًا

قال سبحانه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ولم يقل: "براءةُ اللّهِ ورسولِه"؛ للتَّنصيص على معنى الابتداء، كما يُعهَدُ في الأحكام التي تصدرُ مُقترِنةً بجهةِ ابتدائها، وليَحسُنَ مقابلتُه بحرف الانتهاء في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ تنبيهًا على أوَّل الغايةِ وآخرها، ولِدلالة التَّنوينِ في ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مع ﴿مِّنَ﴾ على الإضافةِ والابتداءِ معًا، والتَّركيبُ المتضمِّنُ لمعنيينِ أولى في الاستعمالِ من التَّركيب الذي يتضمَّن معنًى واحِدًا؛ لوجازتِه في التَّعبير عن أكثرَ من مقصودٍ بعبارةٍ واحدة، فيُصانُ الكلامُ عن التَّكرارِ، وكيفيَّةُ ذلك: أنَّه " لمّا نَوَّنَ أدخَلَ ﴿مِّنَ﴾ كما تقول: هذا فضلُ اللّهِ، ورحمةُ اللّهِ، ثم يُنَوِّنُ فتدخِلُ (مِنْ)، فتقول: (فضلٌ من اللّهِ ورحمةٌ منه)"(2)، ولو عبَّر بالإضافةِ دونَ التَّعديةِ، فيقال: (براءة اللّه)؛ لأفاد تعريفَ النَّكرةِ فقط دون إفادةِ ما سبق.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40، والشّهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 4/296، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/238، ورضا، تفسير المنار: 10/135.

(2) الواحديّ، البسيط: 10/280.

وجهُ اصطفاءِ لفظ ﴿بَرَآءَةٌ﴾:

إيذانٌ بمعنى الفسْخِ القهريِّ للمعاهدةِ، وخِزيِ المشركين وهوانِهم

اصطفاءُ لفظ البراءة أمكَنُ بلاغةً من جهتين الأولى: للدِّلالة على معنى الإلزام السابق الذي أوجبَتِ البراءةُ الانفكاك منه؛ لأنَّ البراءةَ خلوُّ الذِّمَّةِ ممَّا كان يَشغلُها الالتزامُ به. الثانية: للدَّلالة على معنى الفسْخِ القهريِّ للمعاهدة، وليس الانقضاءَ الاختياريَّ ببلوغِ الاتِّفاقِ أجلَه، وفيه إيذانٌ بِخزيِهِم وإذلالِهم ومعاجَلَتِهم بالإهانةِ والخِذلان(1).

نكتةُ إضافةِ البراءةِ إلى اسمِ الألوهيَّةِ:

تعليقُ البراءةِ بالاسم الجليل (الله) إشعارٌ بعِلِّيَّةِ الحكمِ بها

إسنادُ البراءةِ لاسم الألوهيَّةِ دون غيرِهِ من الأسماء؛ لإفادة كمالِ العلمِ بمن يستحقُّ البراءة ومن لا يستحقُّها، وكمال القدرةِ على غَلَبَتِهم وإنفاذِ حكمِه فيهم، وكمال حِكمتِه في ترتيبِ المصالح على ذلك للمؤمنين ووقايتهم من المضارِّ التي تنالهم لو كانوا استمرُّوا في معاهدةِ المشركين، فلاقتضائه مجموعَ تلك الكمالات؛ ناسَبَ التَّعبيرَ بالاسمِ الجامع لها المُستغرِقِ لأفرادها، وفي تعليق البراءةِ بهذا الاسم الجليل إشعارٌ بعِلّيَّةِ الحكمِ بها، أي: لِكوْنِه اللّه الكامل تبرَّأ منهم(2).

معنى العطفِ بين الله ورسوله:

العطفُ يدلُّ على اشتراكِ المتعاطِفَين، في تقريرِ الحكم والمغايرةِ بينهما في كيفيَّةِ التقريرِ

العطفُ بين اللّه والرسول، ليدلَّ على الجمع بينهما في صدورِ البراءة عنهما، على معنى المغايرةِ بين ما للّه فيها وما للرَّسول، فالبراءةُ من اللّه بمعنى تقريرِها والإذنِ بها، ومن الرَّسول بمعنى إبلاغِ ذلك عن اللّهِ ومُباشرته لإجرائها.

إيثارُ إضافةِ الرَّسولِ لضمير الجلالةِ:

إنَّما قال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ بإضافةِ الرَّسول إلى ضمير الجلالة، ولم يقل: (براءة من اللّه والرَّسول)؛ لإفادةِ أنَّ الرَّسولَ

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 121، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 10/103، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4858.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 8/361.

إضافةُ الرّسولِ إلى ضمير الجلالةِ لإفادةِ أنَّ الرَّسولَ تبعٌ لله فيه

غيرُ مقصودٍ بِفعل البراءةِ أصالةً واستقلالًا، بل هو تبَعٌ للّه فيه، غيرُ منفصلٍ عنهُ في تقريرِ هذا الحكم، كما تقول في غلام زيدٍ: جاء زيدٌ وغلامُه، وتقول: جاء زيدٌ والغلامُ، ففي التَّركيب الأوَّل: لم تقصِد الغلام بفعل المجيءِ أصالةً بل قصْده بالمجيءِ مشمولٌ في قصدِك لزيدٍ، وفي الثَّاني: قصدتَ الغلامَ بالفعلِ، كما قصدتَ زيدًا تمامًا.

وتدلُّ الإضافة كذلك على أنَّ الرسول - ﷺ - هو الوكيلُ عن اللّه في تبليغ رسالته وتنفيذِ حكمه، وأنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يخالفَه أو يعارضَه، وأنَّ من أطاع الرَّسولَ؛ فقد أطاعَ اللّه، ومن عصاه؛ فقد عصى اللّه.

دلالةُ عدم تكرار (من) مع الرّسول:

الرسول ﷺ لم يبتدِئ حكْمَ البراءةِ، بل تَلَقَّاه من الله، وأجْراهُ عن الله

لم يكرِّرْ حرفَ الابتداءِ في جانبِ الرَّسولِ، فيقول: (براءةٌ من اللّهِ ومن الرسولِ)؛ لأنَّ ابتداءَ البراءةِ كان من اللّه، ولم يكنْ مِنَ الرَّسول، فالرَّسولُ ﷺ لم يبتدِئ حكمًا، بل تلقَّى الحكمَ، وأجْراهُ عن اللّه، ولو قال: (براءةٌ من اللّه ومِنْ رسوله) لتُوهِّم أنَّهما براءتان، والحقُّ أنَّها براءةٌ واحدةٌ، وأنَّ براءةَ الرَّسول ﷺ للمعاهَدين من المشركين من جنس براءة اللّهِ وتبعٌ لها[1].

نُكتةُ حذف متعلّق البراءة:

حيثما كان المقصودُ واضحًا، كان الإيجازُ كافيًا

حذَفَ في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ متعلِّقَ البراءةِ، فلم يقل: (براءةٌ من اللّه من معاهدةِ كذا أو اتِّفاق كذا أو عقد كذا أو من هؤلاء)؛ لدلالة ما في حيِّز حرفِ الانتهاء من الغايةِ عليه، وهي الموصول وصِلته، في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: البراءة واصلةٌ من اللّه إلى الذين عاهدتم، أي: بريءٌ من المعاهدة أو من المشركين أصحابِها، فحذفَ ذلك اكتفاءً بدلالةِ الغايةِ عليه،

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4859.

وللاحتراز عن تكرار (من)، وحيثما كان المقصودُ واضحًا؛ كان الإيجازُ كافيًا، والإيجازُ حينئذٍ أبلغُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

أطرافُ التَّعاقُدِ مُحدَّدون ومعروفون، لا يعتريهم إبهامٌ ولا احتمال

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون أن يقولَ: (مَنْ عاهدتم)؛ لتخصيص المُعاهَدين وتعيينهم؛ لأنَّ طبيعة العقود أن يكون أطرافُها محدَّدين ومعروفين لا يعتريهم إبهامٌ ولا احتمال، ولذا عبَّر بالموصول الخاصِّ، وأمَّا (مَنْ) فموصولٌ احتماليٌّ مشترك يعتريه الإبهام، ولا يتمحَّض لِمعنًى واحدٍ، فلِوثوقيَّةِ العقد لم يعبَّر به[2].

حكمةُ التَّعبيرِ بـ(إلى):

القصدُ لتحديدِ الغايةِ بحرفِ الانتهاء أوجَبَتْهُ ضرورةُ المَقام

التَّعبيرُ بحرف الانتهاءِ غرضُه النصُّ على غايةِ البراءة، أي: مُنْتَهاها إلى أولئك، ولو قال: (للّذين عاهدتم) لم يُفِد ذلك؛ لأنَّ اللَّامَ حرفُ اختصاصٍ تتعلَّق به معانٍ شتَّى ليس منها إفادةُ الغاية[3]. والقصدُ لتحديد الغايةِ هنا ليس اعتباطًا، بحيث تنوبُ اللَّام عن (إلى) بلا تأثير، فتحديدُ الغاية هنا يقتضيه مقامُ اعتبار المعاهدة كعقْدٍ؛ إذ لا بدَّ من إعلام الطرف المقابل بزوالِ جميع الإلزمات الَّتي يؤدِّيها إليه الطَّرف الآخر بموجب العهد، ولذا كانت البراءةُ مُحدَّدةَ الابتداء والانتهاء، لِتخلو من الاحتمال والتأويل، وتتمحَّض للقطعيَّةِ والوضوح.

ويحتملُ أنَّ حرف الانتهاء (إلى) هنا يفيد التَّحدِّيَ والتَّحذير، فكأنَّ اللّه ورسوله يقولان للمشركين: إلى أيِّ حدٍّ تظنُّون أنَّكم تستطيعون مخالفةَ حقِّ اللّه وشرعه؟ إلى أيِّ حدٍّ تظنُّون أنَّكم تستطيعون خداع المسلمين بعهودِكم الزَّائفة؟ إلى أيِّ حدٍّ تظنُّون أنَّكم تستطيعون الفرار من عذاب اللّه وغضبه؟

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/39.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/137.

(3) ولا يُقال: إنَّ اللام تأتي بمعنى: (إلى) أحيانًا فتفيد الغاية؛ لأنّ: (إلى) تفيد الغاية حقيقةً، وليس تجوُّزًا بالتضمين.

دلالةُ إسنادِ فعل المعاهدةِ في ﴿عَـٰهَدتُّم﴾:

أسندَ فعلَ المعاهدةِ لضمير خطاب المؤمنين ﴿عَـٰهَدتُّم﴾، ولم يقل: (إلى الذين عاهدوكم من المشركين)؛ إعلاءً لجانِبِ أهل الإيمان بأنَّهم هم الذين عاهدوا من قبلُ، وهم الذين يتبرَّؤون الآن، وتهوينًا من فعل المشركين في المعاهدات أن يكونَ له قيمةٌ أو وزن إلَّا بحبلٍ من اللّه وحبْلٍ من عباده، ولولا ذلك؛ فلا اعتداد لعهدهم، فالاعتدادُ والاعتبارُ حاصلٌ من جِهةِ المؤمنين لا من جهتِهم، وأنَّ إسناد فعل المعاهدة إلى ضمير خطابِهم يفيدُ التَّحقير للمشركين، فكأنَّ اللّه ورسوله يقولان لهم: أنتم الذين عاهدتم، وأنتم الذين نَقضتم، وأنتم الذين ستخسَرون، فضلًا عن أنَّ البراءةَ لمّا كانت من المؤمنين إليهم؛ أسندَ الفعل إليهم دونهم؛ ليدلَّ على أنَّ التكاليف الشَّرعيَّة إنَّما يُخاطب بها أهلها الملتزمون بأدائها، وأمَّا المشركون؛ فليسوا أهلًا ولا محلًّا لذلك.

التَّـكـالـيـفُ الشَّرعيَّةُ تُسْنَدُ لأهلِها الملتزمين بـأدائِـهـا، ويُخاطَبون بها

نكتةُ التَّعبير بالماضي في ﴿عَـٰهَدتُّم﴾:

التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿عَـٰهَدتُّم﴾ للدّلالة على استيفاءِ المؤمنينَ لِفعلِ المعاهدةِ وتحقُّقهم مِنْهُ، إتمامًا ووفاءً، وهذا تعريضٌ بأنَّ النَّقضَ والإخلال حصل من جهة المشركين، وأنَّ البراءة المذكورة كانت بعد تحقُّقِ فعل المعاهدة من المؤمنين لا من المشركين، ولذا عبَّر بصيغة الماضي مع إسنادِهِ الفِعلَ لضميرهم.

التَّعبيرُ بالماضي دلَّ على استيفاءِ المؤمنينَ لِفعلِ المـعـاهـدةِ وتحقُّقِهم مِنْهُ

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾:

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لتبيينِ فِئَةِ المعاهَدين في قولِه: ﴿عَـٰهَدتُّم﴾؛ لأنَّ هناك عبدةَ الأوثان، وهناك أهل الكتاب، فأخبر أنَّهم المشركون الأصليُّون[1].

إزالـةُ الإبْـهـامِ قبْلَها

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 430، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/366، ورضا، تفسير المنار: 10/134.

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البراءة والتَّخَلُّص:

البراءةُ تكونُ مِمَّا يُتعِبُ ويُؤذي، والخلاصُ لا يَلزمُ أن يكون مِمَّا يَضرُّ

البراءةُ أو التَّبرُّؤ أصلٌ في التَّباعدِ من الشَّيءِ والسَّلامةِ والخَلاصِ منه، والتَّخَلُّص أو الخَلاص أصلٌ في التفصِّي من الشَّيءِ بالزَّوالِ عنه وعدم الشَّركةِ فيه، فكلا اللفظين مؤذِنٌ بالتباعدِ والإقصاء عن شيءٍ ما، إلا أنَّ البراءةَ أخصُّ من التخلُّص، فالبراءةُ تكونُ مِمَّا يُتعِبُ ويُؤذي، والخلاصُ لا يَلزمُ أن يكون مِمَّا يَضرُّ، بل قد يكونُ مُجرَّدَ تَنْقِية شيءٍ عن شيءٍ، بتخليصِ الشَّيءِ مِمَّا يشوبُهُ مِمَّا ليس من جِنْسِه، فالتخلُّص أعمُّ، ولذا يُقولون: أبْرأكَ اللّٰهُ من مَرضِك، ولا يقولون: خلَّصك اللّٰه منه، لكون البراءةِ فيما يضرُّ، وشواهد القرآن تُعينُ على هذا العموم والخصوص بين اللَّفظين، فاللّٰهُ ﷻ يقول في البراءة: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 1]، ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: 112]، ﴿بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾ [هود: 54]، ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ [الأحزاب: 69]، فذلك كلُّه فيما يُتعِب، ويؤذي، ويَعيبُ، وما هو عبءٌ وضَرَر، وأمَّا مادَّةُ الخلاص؛ فيقول اللّٰه تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف: 80]، أي: انفصلوا عنهم لِلمُناجاةِ وليسَ تبرِّيًا منهم، وقوله: ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ [يوسف: 54]، أي: أختَصُّه بالقُربِ والمنزلة، وقوله: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام: 139]، فالخلاصُ في هذه المواضعِ مُطلَقُ فصلِ شيءٍ عن شيءٍ، وقوله: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦﴾ [النحل: 66]، فالخلاصُ هنا انفصالٌ عمَّا يَضرُّ؛ لأنَّه كانَ بجوارِ فرْثٍ ودم، وقوله: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر: 11]، فالخلاصُ أيضًا عمَّا يَضرُّ؛ لأنَّه تَبرُّؤٌ عن الشِّرْك وتنقيةٌ للباطنِ منه، وعليه: فمادَّةُ الخلاصِ عامَّةٌ، ومادَّةُ البراءةِ خاصَّةٌ(1).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (برأ، خلص)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلص)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برأ، خلص)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/103.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ [التّوبة: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفريعُ بداءةِ البراءةِ، بعد انقضاء الأجل

لمَّا قرَّرَتِ الآياتُ براءةَ اللّهِ ورسولِه من معاهدةِ المشركين الناقضين لعهودِهم، فرَّعتْ على ذلك تفصيلَ المُهلَةِ والأجَلِ المُسمَّى الذي تبدأ البراءةُ بعد انقضائِه؛ ليكونوا في فُسْحةٍ مِن أمرهم حتى يتأهَّبوا لِتَبِعاتِ البراءةِ وعواقِبِها، أو يَختاروا سبيلَ الرُّشدِ والعِصمةِ والأمْنِ بإسلامِهم واهتدائِهم.

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَسِيحُوا۟﴾: مِنَ السَّيْحِ: وهو السَّيْرُ عَلى مَهَلٍ، وأصلُه: الماءُ الجاري، والتَّركيبُ يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ شَيْءٍ وَذَهَابِهِ وسَيَبَانِه، وتقييدُه بالأرضِ معناهُ الذَّهابُ فيها والسَّيْرُ، والمراد بالآية: فسيروا في الأرض كيف شئتُم[1].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

المهلةُ المقرَّرةُ للمشركين، بما فيها مِنَ التَّسامُح بعد نهاية وقتها

بعد إعلانِ البراءةِ من المشركين، يُخاطِبُهُمُ اللّهُ فيقول لهم: اذهبوا، وسيروا في الأرضِ حيثُ شئتُم آمنينَ على أنفسِكم - وهو تأجيلٌ لحكم المشركين، وتسامُحٌ معهم - مُدَّةَ أربعةِ أشهرٍ تَتَمَكَّنُونَ فيها من إعادةِ النَّظَرِ للتفكيرِ والتدبُّر في دين الإسلام، والرُّجوع إلى أنفسِكُم؛ لِتختاروا على بصيرةٍ إمَّا الاستعدادَ لأحكامِ البراءةِ، وما يترتَّبُ عليها من زوالِ عهدِ الأمان، وإمَّا الدُّخولَ في الإسلام، وما يستَتْبِعُهُ من عِصمةِ دمائِكم واستحقاقِكُمُ الأمْنَ، ولِتعلموا في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سيب - سيح)، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/662.

كلِّ الأحوالِ أنَّكم تحتَ قدرةِ اللّهِ وسلطانه لن تَفلتُوا منه بحيلةٍ أو مكيدةٍ أو اعتِصامٍ بِسواه، إذِ اللّهُ مُذِلُّ الكافرينَ ومُهِينُهُم في الدُّنيا والآخِرة، فلا تَبْقَوا على سبيلِهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة جملة ﴿فَسِيحُواْ﴾:

جملةُ (فَسيحوا) تـفـريـعٌ عـلى معنى البراءة

الفاءُ عاطفةٌ لربط السَّبب بالمسبِّب، وهي الفصيحة؛ لتفصيل ما يكون بعد البراءةِ من العهد، وجملة: ﴿فَسِيحُواْ﴾ تفريعٌ على معنى البراءة، أي: إذا كان ذلك كذلك من ثبوتِ البراءةِ المذكورةِ، فسيحوا في الأرض إذًا[1].

اصطفاءُ لفظ ﴿فَسِيحُواْ﴾:

التَّعبيرُ بلفظ (فسيحوا) يفيدُ ثلاثَ دلالات

الدَّلالة على كمالِ التَّوسعةِ والتَّرفيهِ وسهولة السَّعي، ممَّا ليس في سيروا ونظائرهِ؛ لأنَّ السياحة تفيد الاتِّساع في السَّير مع البطءِ والتريُّثِ فيه، تقول: (ساح الشيء) و(سال الشيء)، فعند ما تقول: (سال الماء)، أي: تدفَّقَ وسال، وأنت تشاهده سائلًا، وإن قلتَ: (ساح السَّمْن) أي: سار ببطءٍ لا يُدرك حتى صارَ سائلًا، والتَّعبير به يفيدُ ثلاثَ دلالات: الأولى: تمكينُهم مِنَ النَّظر في أمر أنفسِهم حتى يختاروا ما فيه مصلحتُهم من إيثارِ الإسلام أو الخضوع لحكمِهِ فيهم إن بَقَوا على الشِّرك، كما ينظر السَّائح برفْقٍ وتُؤَدَةٍ فيما يطوف عليه من معالمَ ومَشاهد. الثانية: الدَّلالة على أنَّهم بعد البراءة في إمهالٍ وفُسْحةٍ مؤقَّتة يسيرون فيها آمنين مطمئنِّين لا يتعرَّض لهم أحد، فالتَّعبير بهذا اللفظ ينفي المُباغتَةَ بالمؤاخذة، ويُقرِّرُ إنفاذَ البراءةِ على التَّراخي. الثالثة: تنزيهُ المسلمين عن الغدرِ ونبْذِ العهد دون إعلامٍ أو إنذار[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/105، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3223، وصافي، الجدول: 10/278، والدرويش، إعراب القرآن: 4/51.

(2) الواحدي، البسيط: 10/282، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/40، والشّعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4861، وطنطاوي، الوسيط: 6/198.

التَّعبيرُ بالأمرِ أفادَ كمالَ القوَّةِ والغَلَبَةِ

دلالةُ الجملة الطلبيَّةِ في ﴿فَسِيحُواْ﴾:

قوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾ صيغةُ إنشاءٍ طلبيَّةٍ، وقد أجراها بفعل الأمر مع أنَّ الأمرَ للإباحة والإيذانِ بالرُّخصة، وليس للوجوب، فضلًا عن أنَّ نسقَ السِّياق واردٌ على الإخبار في تقريرِ البراءة، فلو انتظم السِّياق؛ لقال: (فَلَكُم أنْ تسيحوا) على الإخبار كذلك، ولكنه عبَّر بالأمر، لإظهارِ كمالِ القوَّة والغلَبَة، وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم، فأهمل إخبارهم، وساقَه مساقَ الأمرِ الموجَّهِ لهم، لِجعلِهم في موقعِ المأمورِ المُستعلَى عليه[1].

توجيهُ الإنذارِ المباشِرِ للمخاطَبِ والمبالغة في إعلامِهِ بالمطلوب

نكتةُ الالتفاتِ في: ﴿فَسِيحُواْ﴾:

قولُه: ﴿فَسِيحُواْ﴾ فيه التفاتٌ من الغيبةِ، وهو قوله: ﴿عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، إلى الخطاب بفعلِ الأمر، ولو انتظم السِّياقُ؛ لقيل: (فليسيحوا)، ونكتةُ الالتفات وتغيير الأسلوب: توجيهُ الإنذارِ إليهم بالخطاب المباشر؛ مبالغةً في إعلامهم بالإمهال بعد البراءة، دفْعًا لإمكانِ غفلتهم وسهوهِم عن المقصود، وتفويتًا عليهم أنْ يَدَّعوا عدم استعدادهم لتَبِعاتِ البراءة احتيالًا منهم[2].

جوازُ إجراءِ الاستعارةِ التَّبَعِيَّةِ في (فسيحوا) إذا أُهْمِلَ القيدُ المكاني في (في الأرض)

وجهُ المجاز في ﴿فَسِيحُواْ﴾:

يجوز في قوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾ أن تكون استعارةً تَبَعِيَّةً، على اعتبار أنَّ أصلَ السِّياحةِ جريانُ الماءِ وانبساطُه، ثمّ استُعمِلَتْ للسَّيْرِ تشبيهًا له في حركتِه بحالِ الماء، وهو يَسيحُ، ويجري[3].

دلالةُ التَّقييد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

فائدة القيدِ بالظرفيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لعدَّة وجوه: لزيادة التَّعميم في الأمن والضمان الحاصل لهم وقت الإمهالِ، أي: سيحوا في كلِّ الأقطارِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/105.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/145.

في أيِّ جهةٍ آمِنينَ حيثُما شِئتُم من الأرضِ. الأوَّل: لقَصْدِ التَّعميم لأقطارِ الأرضِ من دارِ الإسلامِ وغيرِها. الثاني: لَمَّا كانت السِّياحةُ تُطلَقُ على غَيرِ السَّيرِ؛ قيَّد عموم إطلاقها بِقَولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

القَيْدُ المكاني للتَّعميم، وتقييد دلالةِ متعلِّقه (فسيحوا)

فائدةُ التَّقييد بالظَّرف ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾:

قولُه: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ بعد قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، إتْباعٌ للقيْدِ المكاني بالقيْدِ الزَّماني؛ لاستيفاءِ مُحدِّداتِ المُهلةِ بعد البراءة، كما تُحدَّدُ النِّسَبُ والقيودُ في صيغِ العقودِ وما يجري مجراها، فبلاغةُ قولِه: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ هي في تَجليةِ الموقفِ على الوجْهِ الأتمِّ للخصوم، وعدم تغفيلهم أو التَّعمِيَةِ عليهم في شيء من التّفاصيل، كما يَفعل ذلك غالبًا ذوو القدرةِ والنُّفوذ في الخصوماتِ من تهوين الخصمِ والاحتيال عليه.

إتْباعُ القيْدِ المكاني بالقيْدِ الزَّمانيّ، لاستيفاءِ مُحدِّداتِ المُهلةِ بعد البراءة

دلالةُ الوصلِ والصِّيغة في: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

جملةُ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ معطوفةٌ على ﴿فَسِيحُواْ﴾، داخلةٌ معها في حكم التَّفريع على معنى البراءة، للاحتراس من توهُّم عدم القدرةِ عليهم وقتَ إمهالهم؛ لئلَّا يغترُّوا، ويكيدوا، ولتسريعِ أنْ يَحتاطوا لأنفسِهم بعد انتهاء مُهلةِ الأمان بالتلبُّس بأسباب عِصمَتِهم من المُقاتلة والحرب، فالجملة مشتملةٌ على التهديدِ والوعظِ معًا، وتصديرها بِفعل اليقين: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لتقريعِ أسماعهم وإيقاظ قلوبهم لِما سيُتْلَى بعده لتنبِيههم على كونِه أمرًا مُهمًّا يَلزمهم مزيد الاعتناء به[2].

الأمرُ بالعلمِ يتضمَّنُ إيقاظَ قلوبهم بالتَّهديدِ والوعظِ معًا

دلالةُ المصدر المؤوَّل ﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ﴾:

البِنيةُ الإفراديَّةُ للمصدر الصَّريح لا تكفي هنا في التَّعبير عن المعنى المقصود هنا، فجيءَ بالمصدر المؤوَّلِ بتركيبٍ إسناديٍّ تامٍّ مع تعبيرِهِ عن مواقع الكلمات المفردة الَّتي يفيدها المصدر الصَّريح،

يؤتى بالمصدرِ المؤوَّل أحيانًا، لقصورِ المصدر الصَّريح عن الوفاءِ بالمعنى المراد

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/371، والآلوسي، روح المعاني: 5/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/106.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/372، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/106.

وعبَّر بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾، فالجملةُ من أنَّ واسمها وخبرها في تأويل مصدر سدَّ مسدَّ مفعولي (اعلموا)، ولم يعبِّر بالمصدر الصَّريح، فلم يقل: (واعلموا عدمَ كونِكم معجزين)، أو (كونَكم غيرَ معجزين)؛ لأنَّ المصدرَ المؤوَّل ينتظِم فيه معنيان في سِلْكٍ واحد، فهو يدلُّ على الصَّريح وزيادة، والصّريح لا يفي بمعنيين بل بمعنى، فالمؤوَّل أبلغ، واستعماله هنا دلَّ على أمرين: الأوَّل: تأكيدُ النِّسبة القيديَّةِ بين المسند والمسند إليه بالحرف المصدري المشدَّد. الثَّاني: الدَّلالة على تقريرِ الوقوع وقصديَّةِ الإخبار بعلم أنَّهم غير معجزي اللّهِ، فدلالةُ ذلك لا تحصل بالمصدر الصَّريح[1].

دلالةُ ﴿غَيۡرُ﴾:

التَّعبيرُ بالغيريَّةِ يفيد الإبهامَ، في مقدارِ المفهوم الّذي دلَّتْ عليه

وذلك في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ فإنّ ﴿غَيۡرُ﴾ اسمٌ يقع على خلافِ ما أضيف إليه، أي: والمراد: خلافُ مفهوم الإعجاز، ولإبهام لفظ (غير) وعدم تَعرُّفه أو تخصُّصِه بالإضافة، فإنَّ استعمالها هنا له نكتةٌ في دلالته: وهي عدمُ تَعيُّن المفهوم المقابل، لـ ﴿مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾، فهو ثابتٌ على إبهامه، لتذهب العقول كلَّ مذهَبٍ في مستوياتِ القدرةِ وغلبةِ الربِّ لهم على كلّ حالٍ من أحوالهم في التمكُّن والاحتيال[2].

اصطفاءُ لفظ ﴿مُعۡجِزِي﴾:

فواتُ الأشياءِ الضئيلةِ من حيِّز القدرة العظيمة، عجزٌ عند صاحب السُّلطان القاهرِ

اصطفاءُ اللَّفظ من مادة العجْز، بتركيبٍ يدلُّ على التَّعجيزِ والإعجازِ للمفعول، دون ما هو أدنى منه كالضعفِ وغيره (مُضعِفينَ)، أو بما يضادُّه من الغلبة، فلم يقل: (غالِبين)، لثلاثِ نِكاتٍ: الأولى: لدلالتهِ على ضدِّه من غلبةِ اللّه لهم؛ لأنَّ العجز ضدُّ القدرة، ففي التَّعبيرِ به تقريرٌ لتمامِ ضدِّه.

(1) عبد القاهر، المقتصد: 1/478، والجندي، المصدر المؤوّل، ص: 92.

(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/205.

الثانية: أنَّه لم يُعبِّر بنفي المعاني الموجَبَةِ عنهم كالغلبةِ والقدرة، لِنفي الإرادةِ عنهم من كلِّ وجْهٍ إزاءَ إرادةِ اللّه وقدرته؛ إذ لا حولَ لهم ولا قوَّةَ إلَّا به.

الثَّالثة: عبَّر بالعجز الذي هو انتفاءُ القدرةِ بالكلِّيَّة، دون ما هو أدنى منه كالضَّعف؛ لأنَّ فوات الأشياء الضيئلةِ من حيِّز القدرة العظيمة عجزٌ عند صاحبِ السُّلطان القاهرِ بالنسبة لجلال مقامه، ولأنَّ الضَّعفَ هو عدمُ تعلُّقِ القدرةِ بالشَّيءِ أو بجزءٍ منهُ، وعدمُ التعلُّقِ في هذا الجزء عجزٌ عنه، فثبتَ أنَّ مَآلَ البدائلِ التعبيريَّةِ إلى العجز[1].

فضلًا عن أنَّ المشركين لا يقدرون على إحباط قدرة اللّه، أو تخطِّي حدوده، أو نقض عزَّته، بل هم تحت قهرِهِ وقدرته وحكمتهِ.

دلالةُ جمعِ المذكَّرِ السَّالم (معجزين):

لِيقعَ نفيُ الإعجازِ عنهم من جميعِ الوجوه

التَّعبير بجمع المذكر السَّالم بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على الثُّبوت، مع إفادة الحال والاستقبال، مع إرادة الفعليَّة لجريان الجمع السَّالم مجرى علامةِ الجمع في الفعل، فـ "معجزون" قائمٌ مقامَ يُعجِزون؛ ليقع نفيُ الإعجاز عنهم من جميعِ الوجوه[2].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾:

تنزيهُ المقامِ مِن إسنادِ إعجازِهم للفظِ الجلالةِ بطريقِ التَّحقيق

أضافَ اسم الفاعل إلى لفظ الجلالة، ولم ينصبْهُ به لسببين: الأوَّل: تنزيهًا للّه ﷻ من تسليطِ إعجازهم له بطريق التَّحقيق؛ إذ النَّصبُ مؤذِنٌ بذلك، وأمَّا الإضافةُ فحاصِلةٌ بأدنى مُلابسة، فنفَى عنهم إعجازَهم له، ولو بأدنى سبب.

الثاني: دلالةُ ذلك على أنَّ الإعجازَ المذكور هو تنزُّلٌ بحسب تصوُّرهم لا بحسب وجوده واقعًا، فنفيُه متوجِّهٌ لذلك[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجز).
(2) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 41، 126.
(3) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/122.

المصدرُ المؤوَّل هو عبارةٌ عن معنيين منظومين في سلك واحدٍ

بلاغةُ المصدرِ المؤوّل في ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي﴾:

جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي﴾ مصدرٌ مؤوَّل من أنَّ واسمها وخبرها، معطوفةٌ على المصدرِ المؤوَّل في قوله: ﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾، فهو داخِلٌ في حيِّز الأمرِ بالعِلم في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، وإيثارُ التَّعبيرِ به لتوكيدِ المعنى مبالغةً في تقويته وتثبيتِ مضمونه[1].

مراعاةُ النَّظيرِ في إيرادِ اللَّفظِ على نفْسِ صيغةِ ما قبلَهُ في السِّياق

إيثارُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

قولهُ: ﴿مُخۡزِي﴾ اسمُ فاعل من الرباعيِّ (أخزَى)، والتَّعبيرُ به دون الفعل (يُخزي)؛ ليدلَّ على تحقُّق الخزي المذكور في الماضي والحال والاستقبال مع إفادة الاستمرار والثُّبوت، وليَحسُن مقابلتُه مع ما قبله من لفظ ﴿مُعۡجِزِي﴾ في تواردِهما معًا على نفسِ الصِّيغة[2].

التَّهويلُ وقصدُ التَّعميم، والتَّسجيل على المخاطَب بوصفٍ ظاهرٍ

بلاغةُ الإظهارِ في مقام الإضمارِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾:

قولهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي﴾، فيه إظهارُ اسم الفاعل ﴿مُخۡزِي﴾ دونَ الضَّمير المتَّصل "ه"، ولو اطَّرد السياقُ لَأضمَر، فقال: (وأنه مخزي)، وهو من أساليب البلاغة القرآنيَّة التي تدلُّ على إعجاز القرآن وثراء معانيه، ويحقِّق أغراضًا منها:

الأوّل: في إظهارِ الاسم الجليل زيادةٌ في التَّرهيب، ولإجراء الوصف المذكور عليه تهويلًا لأمْر الإخزاءِ.

الثاني: تشريفُ اسم الفاعل ﴿مُخۡزِي﴾ وتفخيمُه والتَّلذُّذ بذكرِه، فهو صفةٌ من صفات اللّٰه تعالى التي تدلُّ على قدرتهِ وحكمتهِ، وعدلهِ في إخزاء الكافرين.

الثّالث: تقريرُ المعنى وبيان استقلال الجملةِ، فالإظهار يدلُّ على أنَّ هذا الصِّفة لا تقتصر على حال معيَّنٍ أو زمان محدَّد، بل هي صفةٌ دائمة للّٰه تعالى في كل حال وزمان.

---

(1) الجندي، المصدر المؤوّل، ص: 91.

(2) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/279.

الرّابع: التَّسجيلُ على المخاطَب بوصف ظاهرٍ، فالإظهار يجعلُ المخاطَبَ يتأمَّل في هذه الصِّفةِ، ويشعر بأثرها في نفسه، ويخشى من عقابِ اللّه تعالى إذا كان من الكافرين.

الخامس: التَّهويلُ وقصدُ التَّعميم، فالإظهارُ يزيد من رهبة المخاطَب، ويجعلُه يدرك أنَّ اللّه تعالى مخزٍ لجميع الكافرين، بلا استثناءٍ أو رحمة[1].

دلالةُ العدول عن الإضمارِ للإظهار:

الإيماءُ إلى سببِ الفعل، والتَّعريضُ بالمُظْهَر بإجراء الوصفِ الكَريهِ عليه

لم يقل: مخزيكم، بل: ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ إيثارًا للإظهار على الإضمارِ لثلاثةِ أغراض، الأوَّل: الإيماءُ إلى سببِ الإخزاءِ، وهو الاتِّصاف بالكفر، فلولا الوصفُ بهِ؛ ما حصلَ الخزيُ. الثاني: التَّعريضُ بهم بإجراء وصف الكفر عليهم بعدَ وصفِهم بالإشراك زيادةً في ذمِّهم. الثالث: التَّقبيحُ منهم بذكرِ جريمتهم[2].

التَّعبير بوصف الكفرِ ومجيئه مفعولًا للإخزاء:

معنى الكمالِ في الصِّفة

في قوله: ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ التَّعبيرُ بوصف الكافرين دون غيرهِ من باب إتباعِ الخاصِّ بذكر العام، لمناسبة المقام، فوصَفَهم بالشِّركِ أوَّلًا، وهو وصفٌ خاصٌّ بعد تقريرِ البراءةِ، لتمييزِ فئتِهم، ثمَّ لمّا تمَّ لهم الإمهالُ، وحصلتْ لهم الضمانةُ إلى الأجل المسمَّى؛ عمَّمَ في الوصفِ زيادةً في وصفِهم بحسَبِ ما زادَ من عِلمِهم في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، فزيادةُ الوصفِ ناسبتْ زيادةَ العِلم، أو خروجًا من المقام الخاصِّ للمقام العام إغراقًا في التَّحذير وتعميمًا في البيان، فالوعيدُ صادِقٌ فيهم إن استمرُّوا، وفي كلِّ كافرٍ يتشبَّه بهم؛ ليكونَ الرَّدع شاملًا لهم، ولمن سواهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/372، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/41.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/107.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/372، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/41، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/241.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(فسيحوا) و(فَسِيروا):

السِّياحةُ تقالُ لغرضٍ عميقٍ خفيٍّ في السَّيرِ، والسَّيرِ يتعلَّقُ بالتَّنقُّلِ الظَّاهرِ

السِّياحةُ أصلُها (سيح) الدالُّ على جريان الشَّيء باتِّساع واطِّراد، ومن شكل الجريانِ باتِّساع واطِّراد؛ قالوا: ساحَ الشَّيءُ إذا خرجَ عن الحيِّزِ الذي فيه، وامتدَّ عنه، كقولهم: ساح السَّمْنُ؛ إذا سالَ ببُطْءٍ، فجَرى خارجَ وعائِه، ومن ذلك: السِّياحةُ في الأرض: الاتِّساعُ في السَّيْرِ والبُعْدِ عَنِ المُدُنِ والعِمارَةِ، وهو تسيُّبٌ وتجاوزٌ للمساكن باطِّرادٍ، أي: بلا تقيُّدٍ بسَيْرِ حياةِ المُقيم، وأمَّا السَّيْرُ؛ فهو جريٌ مُمْتَدٌّ من نُقطةٍ إلى نقطةٍ، فهو انتقالٌ من موضع إلى موضع، والسَّيْرُ في الأرض: الذَّهابُ في مواضِعها امتدادًا وانتشارًا، فالسِّياحةُ سيرٌ مخصوصٌ لاقتضائِها الخروجَ عن الحيِّز والتَّوسُّع في المَسِير، وأمَّا السَّيرُ؛ فهو عامٌّ بلا قيد، ولذا فالسِّياحةُ تقالُ لغرضٍ عميقٍ خفيٍّ في السَّير، والسَّير يتعلَّقُ بالتنقُّلِ الظَّاهرِ، ولذا قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾، فرتَّبَ عليه النَّظَر، والنَّظرُ يتعلَّقُ بالظَّواهر، ولذا قالوا: السَّائحون: هم الَّذين يتحرَّون ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾، فالسَّائح يتحرَّى ما وراء السَّيْرِ من الإبصار والاعتبار، فهو سائرٌ مُعتبِر، فكلُّ سائحٍ سائرٌ، وليس العكس، ولذا قال لهم هنا: ﴿فَسِيحُواْ﴾ ليدلَّ على إرادة التوسُّع في المَسير كيفما شاؤوا، والتّوسُّع في التَّفكير، كيفما استطاعوا[1].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سيب، سيح)، والراغب، المفردات: (ساح، سار)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سير، سيح).

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التّوبة: 3]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانـتـقـالُ إلى إخــبـار جميع النَّاس بالبراءة من المشركين

بعد أن أخبرَ اللّهُ ﷻ ببَراءتِه من المشركين النَّاكثين للعهد، وضرَبَ لهم أجلًا من الإمهالِ والفُسْحة؛ ليَستدركوا ما فاتهم من إخلال العهودِ بالوفاء والاستقامة، ولِيَتحوَّلوا عن انحرافِ الشِّرك إلى جادَّةِ الإيمان، عطَفَ على ذلك الإخبارَ بالإعلام العامِّ والبيان التَّامِّ منه ومن رسولِه ﷺ - والذي يُذَاع، ويُشاعُ جهْرًا على جميع النَّاس يوم الحجِّ الأكبر بأنَّ اللّه بريءٌ من المشركين، ورسوله بريءٌ منهم؛ وذلك لِينتقلَ من إخبارهم بالبراءة منهم في المعاهدات، إلى إخبار النَّاس جميعًا بالبراءة منهم في جميع مَسْلَكِهم، فترقَّى من البراءةِ ذاتِ المتعلَّق الخاصّ إلى البراءةِ العامَّة، ومن إخبارِ أصحابِ البراءةِ إلى إخبارِ النَّاس جميعًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَذَٰنٞ﴾: الأذانُ: الإعلامُ، وأصله: أذِنَ، أي: عَلِم الشَّيءَ سَمَاعًا بِأُذُنه، وأذَّنَ تأذينًا؛ إذا أكثَر من إعلام غيره، وآذَنَه إيذانًا: أعلَمَه، فالتَّركيبُ دائرٌ حول العِلم بالشَّيء والإعلام به(1).

2) ﴿مُعۡجِزِي﴾: مِنَ العجْز، وأصله يدلُّ على الضَّعفِ وعلى تأخُّر الشَّيء، وأعجزه الشَّيءُ: فاته وعجزَ عنه، وكل (يُعْجِز) واسم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن)، والرّاغب، المفردات: (أذن)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أذن)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أذن).

الفاعل (مُعجِز) في القرآن واقعان دائمًا في سياق النَّفي؛ لأنَّهما إزاءَ سلطان اللّه ﷻ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 2](1).

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الإعـــلانُ في جمهرة النَّاس مسلمهم وكافرِهم، من جميعِ جزيرة العربِ بالبراءةِ من المشركين

بعد أن أخبرَ اللّهُ ﷻ ببَراءتِه من المشركين النَّاكثين للعهد، وضرَبَ لهم أجلًا من الإمهالِ والفُسْحة، أخبَرَ هنا أنَّه في بيانٍ عامٍّ وإعلامٍ مُعلَنٍ للنَّاسِ جميعًا وقتَ اجتماعِهم في موسم الحجِّ أنَّه بريءٌ من المشركين، ورسولُه بريءٌ منهم، ثم توجَّهَ اللّهُ بالخطاب للمشركين مبشِّرًا لهم: إنْ تُبتُم من الشِّركِ؛ فهو خيرٌ لكم، وإنْ أعرضتُم عنِ الوفاء والاستقامةِ؛ فاعلموا أنَّكم غيرُ فائتين ولا فالِتينَ من قبْضةِ اللّه وقُدرته، وأنذِر - أيُّها الرَّسول - الذين كفروا في كلِّ مكانٍ وزمانٍ بعذابٍ أليمٍ في الدُّنيا والآخرة.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ الجملة ممَّا قبلَها ودلالةُ الوصل بالواو:

الـخَبَرُ بثبوتِ الأذانِ، معطوفٌ على الخَبَرِ بثبوتِ البراءة

قوله: ﴿وَأَذَٰنٞ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿بَرَآءَةٞ﴾ من بابِ عطفِ الجملةِ على الجملة، وليس عطف المفرد على المفرد؛ لأنَّ (أذان) ليس مُخبَرًا عنه بخبرِ البراءة، وهو قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فلا يُسوَّغُ أن يكون عطفًا للمفرداتِ، بل للجُمَل(2).

دلالة صيغة فَعَال (أذان):

لفظُ (أذان) في معنى (الإيذان)، وهو إيقاعُ المأذونِ به في (الأُذُن) بإبلاغِه

صيغةُ (اسم المصدر) في قوله: ﴿وَأَذَٰنٞ﴾، والإتيانُ بها دون صيغةِ المصدرِ (فِعْل)، فلم يقل: (وإِذْنٌ) - كما في القراءةِ الشَّاذَّة - للدَّلالةِ على معنى الرُّخْصَةِ والإعلانِ بالرُّخصة، فـ(فَعَال) أكملُ، لدلالتها على الحدثِ وعلى الاسمِ منه - وهو (البلاغ) - وعلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عجز).
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/244، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/368، والشّوكاني، فتح القدير: 1/857.

الفاعِلِ، وهي تدلُّ على الفاعِل بلازم اللَّفظِ لا بذاتِه؛ إذْ معنى الأذان (الإيذان)، كما العطاء بمعنى (الإعطاء)، فهمزةُ التَّعديةِ (الإفْعال) دالَّةٌ على الفاعل، وزيادة المبنى تفيد زيادةَ المعنى، فالأذانُ إعلامٌ كامِلٌ بمأذونيَّةِ الشيءِ وإباحتِه، والإذنُ لا يلزمُ منه معنى الإشهارِ والإعلام، فلا يدلُّ على الفاعِل[1].

بلاغةُ التَّعبير بالاسميَّة دون الفعلِ:

التَّـعـبـيرُ بالاسميَّةِ أوسعُ في المـعـنـى، وأجـمـعُ في الدَّلالة

قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ خبريَّة تضمَّنَتْ معنى الطَّلب، أي: (أَذِّنُوا)[2]، ولم يفتتحِ الجملةَ بالفعليَّة؛ لدلالةِ المصدرِ بلفظِه على معنى الثُّبوتِ والاستقرارِ والدَّيمومةِ، أي: هذا خَبَرٌ ثابِتٌ غيرُ طارئٍ، ودلالتِه بمعناه على الإنشاءِ والأمرِ، وهي الفِعليَّة والاستمرار، فكان التَّعبير بالاسميَّةِ أوسعَ في المعنى، وأجمَعَ في الدلالة.

سرُّ التَّقييدِ بـ ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾:

البـراءةُ خاصَّةٌ بـالـنَّـاكـثـين، والأذانُ لعمومِ المـؤمـنـين والكافرين

تعليقُ الأذانِ بالجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾، دلَّ على عموم الأذانِ في جِهَتِه التي تَعقِلُه، وتتلقَّاهُ، وهم عمومُ النَّاسِ دون تخصيصٍ بمؤمنٍ أو مُشرك، فهو لجميعِ مَنْ يَصلحُ أن يُخاطَبَ به، دون تحديدِ المخاطَبين، فلا يُستثنى منهم أحدٌ، سواء كان مسلمًا أم كافرًا، مؤمنًا أم مشركًا، حاضرًا أم غائبًا، فهذا الإعلانُ عامٌّ لكلِّ مَن سَمِعَهُ أو بلغه.

دلالةُ التَّعديةِ بحرف الانتهاءِ:

تناسقُ اصطفاءِ حرفِ التَّعديةِ فـيـه تـقـريـرُ الحجَّةِ بأكملِ أسلوب

تعديةُ الأذانِ للنَّاسِ بحرفِ انتهاء الغايةِ (إلى)، دونَ تعديتِه بحرف الاختصاصِ(اللام)، لتضمينه معنى المَراسيم القاطعة التي تُوَصَّلُ من جِهَةٍ إلى جِهة، كما يقال: هذا نَبَأٌ صادِرٌ مِنْ جهةِ

(1) ابن القطّاع، أبنية الأسماء والأفعال والمصادر، ص: 275، وابن خالويه، مختصر في الشّواذ، ص: 56، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/367، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 6/18، والمظهري، التّفسير المظهري: 4/133، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/166.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/108.

كذا إلى جِهةِ كذا، فلِغَرَضِ التَّنصيصِ على مبدأ الجِهةِ ومنتهاها عبَّر بـ(إلى) إزاءَ (مِنْ)، ولم يقل: (للناس) لإخلائِهِ من معنى الاختصاصِ، لكونِ النَّاسِ أخلاطًا من المؤمنين والكافرين، وفيهم من لا يستأهِلُ للاختصاصِ، ولا يُعبَأُ معهُ بغيرِ قرعِهِ بالبلاغِ وتوصيله إليه، وإتيان النَّظمِ على هذا التركيب لا شكَّ أنَّه أنسبُ بمعنى الجِديَّةِ في إقامة الحجَّةِ وتقريرها.

نُكتةُ الإسنادِ في (الأذان):

رسولُ اللهِ هو المُبَلِّغُ الأصيلُ عن اللهِ، فلا يُذْكَرُ أحدٌ بإزائِهِ

أسنَدَ الأذان إلى اللّه ورسوله دون غيرهما، لِكونِ الأذانِ حُكمًا بتشريعٍ، وهذا لا يكون إلَّا للّه على لسانِ رسوله ﷺ، ولدفْعِ إيهام أنْ يكون الأذانُ صادرًا من عِنْدِ المسلمين من تلقاءِ أنفسِهم، فنصَّ على مصدرِه، ولكونِ المسلمينَ من جمْلَةِ المُبَلَّغينَ بالأذان، فلا يجتَمِع أن يكونوا مأمورين وآمرين والرَّسول ﷺ حيٌّ بينهم؛ إذْ هو المُبَلِّغُ الأصيل عن ربِّه، فلا يُذْكَرُ أحدٌ بإزائه[1].

دلالةُ إسنادِ الأذانِ لله ورسوله:

وصْفُ الرِّسالة تُعتبرُ فيه الإضافةُ إلى اللهِ، ووصْفُ النُّبوَّةِ تُعتبر فيه الإضافةُ إلى الخَلْقِ

أُسنِدَ الأذانُ لاسم الألوهيَّةِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ إيماءً إلى كوْنِ الأذانِ صادرًا من جهةِ كمالٍ واستحقاق، فهو حُكْمٌ من حكيم كاملٍ، فلا مدخَلَ فيه لِنقصٍ أو قصورٍ، وهو حُكْمٌ من مُستَحِقٍّ؛ لأنْ يَحكمَ؛ لأنَّه الله الجليل، وأسندهُ لوصفِ الرِّسالة دون النبوَّة؛ لأنَّهُ واردٌ في حيِّزِ ابتداءِ الحكم وصدوره، لا في حيِّزِ انتهائهِ إلى جهةِ بَلاغه، فلمَّا كان الابتداءُ المفهوم أقربَ إلى حيِّزِ التلقِّي عن اللّه جعلَهُ بوصف الرّسالة؛ لأنَّه يَتلقَّى عن اللّه بالرِّسالة، ويُبلِّغ بالنُّبوَّة[2].

حكمةُ الوصف في ﴿ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾:

وصَفَ الحجَّ بالأكبر، لِمُقابَلَتِه بالحجِّ الأصغرِ الذي هو (العُمْرة)؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/108.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/75، ورضا، تفسير المنار: 10/137.

إذْ هي حجٌّ وقَصدٌ للبيتِ أيضًا، وعلى هذا التخريجِ يُطلَقُ اليوم على الأيَّام؛ لأنَّه جنس، تسميةً للأيامِ المُشترَكةِ بِحكْمٍ وعِلَّةٍ واحدةٍ بيومِ كذا، أداءً للحدثِ الواحدِ بظرفِه الملائِم، أو لدلالتِه على الجزءِ الأكبَر في الحجِّ، وهو يوم النَّحر؛ لأنَّه يشتملُ على أكثرِ مناسك الحجِّ، ولأنَّ أكثرَ أعمالِ الحجِّ تكون قد أُدِّيَتْ فيه، فسائِرُ أيام الحجِّ دونه أو أصغرُ منه، ولأنَّه يكون كالخاتمةِ للحج، ويكون فيه أكبرُ جمْعٍ من المسلمين في مكان واحد، فَسَمَّى مُعظَمَ الشيءِ باسم كُلِّه على طريقة المجاز المرسَل، و"لأنَّه الحجُّ الوحيد الذي اجتمع فيه الكفّارُ والمؤمنون، وبعد ذلك لم يَعد هناك حجٌّ للكفَّار أو المشركين"[1].

أداءُ الحدثِ الواحدِ بظرفِه الملائِم الّذي بهِ تمامُ الحجِّ وفيه أكبرُ أعمالِه

وجهُ إسنادِ الأذانِ للقيد العامّ:

التَّعبيرُ بلفظ الأذان أفاد إيصالَ البلاغِ جَهْرًا وصراحةً، وإسناده إلى الناس أفاد عموميَّته، والتَّعليقُ بالظَّرفِ أفاد تعيينَ الوقتِ والمكان الذي يُؤَدَّى فيه الأذان، وفائدة التعيين، تسهيلُ التَّعميم في قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الظَّرفَ المذكور هو مَظِنَّةُ حصول اجتماعِهم على تلك الحالةِ العامَّة الكاملة[2].

تقريرُ البراءةِ من المشركين في أوسعِ الأماكن على أكثرِ الأعداد بأجْهَرِ الوسائِل

دلالةُ العطف في ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾:

العطفُ في قوله: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، يفيدُ الاشتراكَ في تقريرِ إنشاءِ الأذانِ المذكور، مع المُغايرةِ بين اللّهِ ورسولِه في كيفيَّةِ هذا الإنشاء، فإنشاءُ اللّهِ للأذانِ مُطْلَقٌ حقيقيٌّ، وإنشاءُ الرَّسول له نِسْبيٌّ بالإضافةِ إلى النَّاس، أي: هو الذي أنشأ لهم مَعرفتَه وإيجابه، وأمَّا بالإضافةِ إلى اللّه؛ فهو غيرُ مُنْشِئٍ له بل ناقِل، فإنشاءُ اللّهِ للأحكامِ إنشاء موجِد، وإنشاء الرَّسول لها إنشاءُ مُبلِّغ.

إنشاءُ اللهِ للأحكامِ مُطْلَقٌ حقيقيٌّ، وإنشاءُ الرَّسولِ لها نِسْبِيٌّ عُرفِيٌّ

(1) النَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 7/270، والبيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/71، والطَّيبي، فتوح الغيب: 7/172، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3226، والشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 8/4867.

(2) رضا، تفسير المنار: 10/137.

نكتةُ عدمِ تكرارِ حرف الابتداءِ:

عدمُ تكرارِ حرفِ الابتداءِ مع المعطوفِ، يفيدُ عدمَ اختصاصِه بابتداءِ الشَّيءِ وإصدارِه

لم يقل في الآية الكريمة: (وأذانٌ من اللّه ومن رسولِه) بتكرير حرفِ الابتداءِ؛ لئلَّا يُوهِمَ استقلالَ الرسول ﷺ بإضافةِ شيءٍ في الحكم المذكور بإزاءِ اللّهِ ﷻ؛ لإفادةِ أنَّه حكْمٌ خالِصٌ لله، والرَّسولُ معه فيه بإنفاذِه وامتِثاله.

سِرُّ عدم إسناد الحجِّ لضميرِ النَّاس:

إيقاعُ النِّسبة الإضافيَّة موقعَها من الحقيقة

لم يقل في السِّياق: (يوم حجِّهم) لِتقعَ النِّسبة الإضافيَّة موقعَها من الحقيقة، والحقيقةُ أنَّ النَّاسَ مناطُ تبليغ الأذان ليسوا جميعَهم حاجِّين في هذا اليوم، فمنهم الحاجُّ ومن ليس كذلك، ولو أضاف الحجَّ إليهم؛ فقد يُظنُّ بالإضافةِ أنَّ جميعَهم حجيجٌ يومئذٍ.

موقعُ جملةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ﴾ ممَّا قبلَها:

تقريرُ معنى توكيد البراءةِ مِن غير إلحاقاتٍ يَسوغُ الاستغناءُ عنها

جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ﴾ واقعةٌ في حيِّز الأذان المتقدِّم، على تقدير حذف حرفِ التَّعدية، أي: (أذانٌ بأنَّ اللّه بريء)، وعِلَّةُ الحذف دلالةُ الكلام عليه، وتسريعٌ بوعيد البراءةِ بعد الأذان، وإفساحٌ لحرفِ التَّوكيد أن يتصدَّرَ من غير جارٍّ، ليتفرَّغَ النَّظمُ لتقرير معنى توكيد البراءة، من غير إلحاقاتٍ يَسوغ الاستغناءُ عنها، ويصحُّ أن تقع جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ﴾ موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ ممَّا قبلَها "كَأَنَّهُ قِيلَ: ما هَذا الإعلامُ؟ قالَ مُفَسِّرًا لَهُ مُصَرِّحًا بِما هو المَقصُودُ لِئَلَّا يَقَعَ فِيهِ نَوْعُ لَبْسٍ حاذِفًا الصِّلَةَ[1] إعلامًا بِأنَّ هَذا مُستَأْنَفٌ عَلى تَقدِيرِ سُؤالٍ سائِلٍ، لا مَعمُولٍ لِأذانٍ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾"[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ﴾:

تقويةُ مضمون المعنى وتوكيد تقريره مبالغةٌ في تحقيقِ البراءةِ

التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ﴾ لِتقوية مضمون المعنى وتوكيد تقريره، مُبالغةً في تحقيقِ البراءةِ وتثبيتِ حُكمِها،

---

(1) باء التَّعدية المقدَّرة (بأنَّ الله).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/109، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3225.

فاللّه تعالى يبرِّئ نفسَهُ من المشركين ومن كلِّ ما يشركون به من دونه، ويبرِّئ رسولَه منهم أيضًا، فلا علاقةَ لهم بهم في أحكام الدِّين ومتعلَّقاته، ولا يقبل منهم شيئًا إلَّا التَّوحيد والإسلام.

دلالةُ التَّعبير باسم الفاعل دون الفعل:

اقترانُ وصفِ البراءةِ باللّه، وتضمَّنَ اسم الفاعل لمعنى الاسميَّةِ والفعليَّةِ

التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿بَرِيٓءٌ﴾ دون الفِعل، فلم يقل: (قد تبَرّأ)؛ للدَّلالة على الذَّاتِ العليَّة باقترانِ وصفِ البراءةِ بها، وفيه زيادةُ تهويلٍ للبراءةِ، وأنَّها صادرةٌ عن عقوبةٍ وانتقام، لِتعلُّقِها بحضرةِ المقام الإلهيِّ رأسًا، فضلًا عن تضمُّنِ اسم الفاعل لمعنى الاسميَّة والفعليَّة معًا، فيفيدُ ثبوت الوصف في الماضي والحال واستمراره في المستقبل، فالتَّعبيرُ باسم الفاعل يدلُّ على أنَّ هذه البراءة ليست حادثةً أو مؤقَّتة، بل هي صفةٌ دائمة وخالدة للّه تعالى، فدلَّتِ الصِّيغةُ على الذَّات والحدَثِ والزَّمن.

حكمةُ التَّكرارِ في صيغة (البراءة):

الشِّرْكُ موجِبٌ لبراءةِ اللهِ مِن العبد

التَّكرار في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ تكرارٌ في الظاهرِ فقط، لكونِ الموضع الأول تقريرًا لأصل البراءة وتحديدًا لجهتها المُستحقَّة، ولذا قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وفي الموضع الثاني إذاعةٌ لِما تقرَّر، وإعلامٌ به ليكون حكمًا معلومًا للعامَّة ومُشتَهِرًا بينهم، ذلك كمن يُقرِّر أمرًا، ويَعلَمُه أهلُه المعنيُّون به خاصَّةً، ثم يُصدِر تعميمًا إعلاميًّا بالخبر ليكونَ مشهودًا وشائعًا، لأهمِّيَّتِه وخطَرِ آثارِه التي يَلزَمُ النَّاسَ معرفتُها لِلزوم تفاعلِهم معه بما يتحتَّم عليهم، "وأيضًا المراد بالأوَّل البراءة من العهد، وبالثَّاني البراءةُ التي هي نقيضُ الموالاة، ولهذا لم يصِف المشركين ثانيًا بوصفٍ مُعيَّن كالمعاهدة، تنبيهًا على أنَّ الموجب لهذه البراءةِ هو كفرُهم وشركهم، ولهذا أتبعه قوله: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾، أي: عن الشِّرك"[1].

(1) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/431، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3227.

الفرق بين ﴿مِّنَ﴾ في موضعين في الآية:

إعرابُ الحروفِ كاشِفٌ عن مواقِعها في التَّراكيب

(مِنْ) في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، الأولى في موضع الصِّفةِ، أي: براءةٌ موصوفةٌ بكونِها مِنَ اللّه. والثَّانية في موضع المفعول، كما يُقال: بَرِئتُ منك، أي: أوقعتُ براءتي عليك(1).

موقعُ جملة ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ ممَّا قبلَه:

تَبايُنُ مدلولِ واوِ الوصل بتبايِنِ الأعاريب على مدخولِها

قوله: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوفٌ على جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾، والتَّقدير: (وأنَّ رسوله بريء)، فالرَّفعُ للعطف على محلِّ اسم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾، أو(بريءٌ هو ورسولُه)، بالعطف على الضَّمير المُستكِنِّ في بريء، أو (ورسوله بريءٌ منهم) بالرَّفع على الابتداء والخبَر، والواو للاستئناف النَّحوي، وليس للعطف، لِصحَّة الابتداءِ بالمبتدأ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾، والوقفِ على ما قبله: ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(2).

عِلَّةُ تأخيرِ لفظ الرَّسول:

جعلُ البراءةِ في النَّظمِ الكريم كائنةً في جِهتين بإدراجِها في جملتين

لم يقل: (أن اللّه ورسوله بريء)، كما قال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، فتأخيرُ لفظ الرَّسول عن لفظ الجلالة، لوجهين: الأوَّل: لِجعْلِ البراءة كائنةً في جِهتين بإدراجها في جملتين؛ لأنَّ المعنى (اللّه بريء منهم والرسول بريء منهم)، وهذا يُناسِبُ عمومَ جهةِ الإعلام؛ إذ هو أذانٌ في النَّاسِ كلِّهم، فحبَّر لهم الخبرَ بالبراءة، وأطنَبَ فيه بذكره مرَّتين لِتقع البراءةُ منهم موقعَ التّهويلِ وفصلِ الخطاب.

الثاني: أنَّ هذه الآيةَ ليستْ، كقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، إذْ لم يقل هناك: (براءة من اللّه وبراءة من رسوله)؛ لئلَّا يُوهِم أنَّ حكمَ البراءةِ مُتعدِّدٌ لا واحد، وأمَّا هنا؛ فلا يدلُّ قوله: (أن اللّه بريء من المشركين ورسوله بريء منهم) على تعدُّدِ البراءة، بل يدلُّ على تعدُّدِ الذَّوات؛ لأنَّه عبَّرَ باسم الفاعل (بريء)، فدلَّ ذلك على

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/370، وابن عادل، اللّباب: 10/12.
(2) الأشموني، منار الهدى، ص: 240.

أنَّ ذات اللّه بريئةٌ منهم، وذات رسولهِ بريئةٌ منهم، فهذه ذاتٌ وهذه ذات، لكنَّ البراءة واحدةٌ غيرُ متعدِّدةٍ، ويندفع بهذا التَّقرير التباسُ مَنْ يَتوهَّم أنَّ آية ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تفيد اتِّحاد البراءة، وآية ﴿ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ تفيد تعدُّدَها.

نكتةُ التَّصريحِ بفعل البراءة مرَّةً ثانية:

الإطنابُ لاستقصاء البلاغ وقطعِ المعاذير في عدم استيضاحهِ

صرَّح بفعلِ البراءةِ مع تَقَدُّم ذِكْره، فلم يختصر أو يضمر بأن يقال: وأذانٌ إلى النَّاس بذلك، أو بها، أو بالبراءة؛ مُراعاةً للمقامِ ومقتضى الحال، فالمقامُ مقامُ بيانٍ، فيَحتاجُ للإطناب، وحالُ السَّامعين متفاوتةٌ في الفهمِ والملاحظة، فصرَّح لاستقصاء البلاغ ولقطع المعاذير في عدم استيضاحهِ[1].

موقعُ جملةِ ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ ممَّا قبلَها ودلالةُ الفاء:

العطفُ بالفاءِ له اختصاصُ ترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها

قولهُ: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ الفاءُ عاطفةٌ، تفريعًا على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فيترتَّبُ على الإيذان بالبراءة حالتان: حالةُ التَّوبة، أو حالةُ التَّولِّي، والعطف بالفاء خاصَّةً لأجل ترتيبِه على ما قبله، فالجملة شرطيَّةٌ مقترنةٌ بجملة جوابيَّة، تدلُّ على رغبةِ اللّه في توبة المشركين وإسلامهم، وأنَّ ذلك خيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه لا يجبرهم على ذلك، بل يتركُ لهم الخيار، أو أنَّ الجملةَ استئنافيَّةٌ بغرضِ تعميم حكم التَّوبةِ في حقِّهم، فلا يقتصر على ارتباطهِ بسياقِ البراءة.

دلالةُ ﴿تُبْتُمْ﴾:

التَّوبة المطلوبةُ هي التوبة الخالصة، والالتفاتُ فيه التحريض على إتباع البراءةِ بالتَّوبة

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في ﴿تُبْتُمْ﴾ للإشعار بأنَّ التوبة المطلوبة هي التوبة الخالصةُ التي وقعتْ موقعَ التَّحقيق والتَّمكُّن، وفي ﴿تُبْتُمْ﴾ التفاتٌ من الغَيبة للخطاب، وغرضُ الالتفات: التَّهديدُ والتَّحذير والتَّحريض ليَستَتْبِعوا البراءةَ بالتَّوبة، كمن يقولُ: رسَبْتَ فاحذَر ألَّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/109.

تَدارَك، وهذا التَّوجيهُ على معنى العطف، وعلى معنى الاستئنافِ، فالالتفاتُ انتقالٌ من براءتِهِ منهم إلى فتْح بابِ التَّوبة لهم، فواجَهَهُم بما يُرجِّيهم، ويَقطعُ يَأسَهم بسببِ البراءة(1).

معنى الشَّرطِ وتصديرُه بـ ﴿فَإِن﴾:

حيِّزُ الشَّرطِ غيرُ مضمونٍ حصولُه

تصدير الشَّرط بإنْ، ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ للدلالةِ على أنَّ ما في حيِّز الشَّرطِ غيرُ مضمونٍ حصولُه، فتوبتُهم أمرٌ ممكنٌ، وتولِّيهم أمرٌ ممكِن، وليس في كليهما شيءٌ مقطوع به(2).

دلالةُ جملةِ جوابِ الشَّرط:

الرَّبطُ بالفاء في تركيب الشَّرط يدلُّ على السببيَّةِ بين الشَّرطِ وجوابِه

جملةُ جوابِ الشَّرطِ ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، أفادتِ العِلِّيَّةَ بينَ الشَّرط وجوابِه، فالخير مُسَبَّبٌ عن التَّوبة، والرَّبط بالفاء نصٌّ في ذلك، وأفادتْ تعظيمَ سببِ الجزاءِ، وزيادةَ تعيينِه بإعادةِ ضميره في الجواب ﴿فَهُوَ﴾، أيْ: أمْرُ التَّوبة، ولو قال: (فخير لكم) لم يدلَّ على ذلك، وأفادتْ عمومَ الجواب بتنكير ﴿خَيۡرٞ﴾، وإطلاقِ متعلِّقِه بعدم ذِكْره، فلم يُحدِّد: (خيرٌ في أيِّ شيء)؛ ليَعمَّ جميعَ الأحوال والأوقات، والجار والمجرور (لكم)، لتخصيص الخيرِ بهم، فلا ينتفِع اللّهُ بتوبتِهم في شيءٍ، كما لا يَضُرُّه عدمُها.

إيثارُ اصطفاءِ ﴿خَيۡرٞ﴾:

جامعيَّةُ لفظ الخير في مدلوله على كافَّةِ الرَّغائبِ

اصطفاءُ لفظ ﴿خَيۡرٞ﴾ في موقع الجزاءِ على التَّوبة إيْذانٌ بدَفْعِ ضِدِّه، وهو الشَّرُّ، وتحقيقٌ لدلالتهِ على كلِّ مرغوبٍ نافعٍ من كلِّ أحدٍ، وفي هذا اللَّفظ - وما ينطوي عليه من الخير الشَّامل المُطبِق- من أساليب البلاغةِ القرآنيَّة التي تدلُّ على إعجاز القرآن وثراء معانيه ما يلي:

أوّلاً: تحفيزُ المشركين على التَّوبة والإسلام، فاللّه تعالى يخبرهم

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3227.

(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/169.

بأنَّ ذلك خيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه يرحم من تاب منهم وأسلم، ويغفر لهم ما مضى من ذنوبهم.

ثانيًا: تحذيرُ المشركين من الإصرارِ على الكفر والشِّرك، فاللّهُ تعالى ينذرهم بأنَّ ذلك شرٌّ لهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه يعذِّب من تولَّى منهم، وكفر، ولا يقبل منه شيئًا إلَّا التَّوحيد والإسلام.

ثالثًا: تجميلُ الكلام وتزيينُه بالتَّقديم والتأخير، فاللّه تعالى يقول: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ قبل أن يقول: ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾؛ ليجعلَ الخير مقدَّمًا على الشَّرِّ، والتَّوبة مقدَّمة على التَّولِّي، والإسلام مقدَّمًا على الكفر.

رابعًا: توضيحُ المقصودِ وتقصير الكلام، فاللّه تعالى يقول: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، دون أن يذكرَ ما هو ذلك الخيرُ؛ لأنَّ المشركين يعلمون أنَّ الخيرَ هو الإسلامُ والإيمان، وأنَّ ذلك يورثُهم رضا اللّهِ وجنَّةَ الخلدِ[1].

دلالةُ الوصلِ بالواو وموقعِ الجملة ممَّا قبلَها:

معنى التَّوبةِ يُقابِلُ معنى التولِّي

الواو في قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ لِعطفِ شرطٍ على شرطٍ، عطفًا للشَّيء على مُقابِلِه؛ لأنَّ معنى التَّوبةِ يُقابِلُ معنى التَّولِّي، والشَّرطان المعطوفان تفريعٌ على البراءةِ الَّتي هي مضمونُ الأذان السابق، وفي جعلِ جملةِ التَّولية هي المعطوفةَ على جملة التَّوبة دون العكس، تأخيرٌ لداعي المَضرَّةِ والتَّشاؤم عن داعي المَسرَّةِ والتَّفاؤلِ، وفيه إحسانُ الظَّنِّ بالمدعوِّ ولو كان كافرًا، وتقديمُ ما يُرجِّيه على ما يُرهِّبُه؛ دفعًا لقنوطِهِ وأمَلًا في تحفيزه على ما يُسعِدُه.

بلاغةُ التَّعبيرِ في ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾:

المؤاخذةُ لا تكون بمجرَّدِ ملابسةِ السَّبب بل بتحقيقِهِ

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ للدَّلالة أنَّ مؤاخذتَهم لا تكون عن تحقُّقِ سببِها من التولِّي وانقضائهم منه، وفيه أنَّ الجزاء

(1) الرَّاغب، المفردات: (خير)، وابن جرير، جامع البيان: 14/131، والرَّازي، مفاتيح الغيب 15/527، والشربيني، السِّراج المنير: 1/589.

بعده في قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، جزاءٌ مُستحَقٌّ على مُتحقِّقٍ، فالمؤاخذةُ لا تكونُ بمجرَّدِ ملابسةِ السَّببِ بل بتحقيقِه.

دلالةُ تكرارِ نفي إعجازِهم والفرقُ بينه وبين السَّابق قبلَهُ:

اختلافُ المقامِ مؤذِنٌ باختلافِ المعنى

نفيُ إعجازِهم لله في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾، ليس تكرارًا في معنى مطابِق، بل تكرارٌ لتقرير معنى زائد، فالأوَّل لتقرير أنَّهم تحتَ قدرةِ اللّه مهما كان إمهالهم طال أم قَصُر، وهو وارد في حيِّزِ إمهالهم بالأربعة أشهر بعد إيذانهم بالبراءة من المُعاهدة، فهو واردٌ في حيِّزٍ مُقيَّد، ومعطوفٌ غير مُسبَّبٍ عما قبله، وأمَّا الموضعُ الثاني، فمُسبَّبٌ عمَّا قبلَه، ووارِدٌ في حيِّزٍ عام ليس مخصوصًا بالبراءة من عهدِهم، بل بالبراءة من شركِهم، وهذا أعمُّ، واختلاف المقام مؤذِنٌ باختلاف المعنى، وسِرِّ إعادته بلفظِه، ليكون ما قرَّره للمشركين في عهدهم متَّفِقًا مع ما قرَّره لعموم النَّاس في يوم حجِّهم، فكما قرَّر البراءة في الموضعين، قرَّر فيهما كذلك أنَّهم لا يُعجِزونه؛ ليكون ما قيلَ لهم قد قيل للنَّاس لا يختلف عنه.

موقعُ واو الوصلِ ممَّا قبلَها:

عطفُ المعنى العامِّ على المعنى الخاصِّ

الواو في قوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ للعطف على جملتي الشَّرط قبله، وهو من عطفِ المعنى العام على المعنى الخاصِّ، فكأنَّه قيل: (أبشِّرُ التَّائبين منكم بالخير، وأعِدُ المُعرضِين منكم بالشَّرِّ، وأبشِّر الكافرين كافَّةً بالعذاب)، وهو عطفُ إنشاءٍ على إنشاءٍ[1].

دلالةُ الاسم الموصول:

الدّلالةُ على الذَّات والفِعل بطريق المنطوق المتعدِّد

قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عبَّر فيه بالاسم الموصول؛ ليدلَّ عليهم بذواتِهم، فيُجري وصفَ الكفرِ عليها، وفيه إشعارٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/379.

بِعلَّةِ تعذيبِهم، وهو أنَّهم ذواتٌ كافِرةٌ، والتَّعبيرُ بتركيب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أبلغُ من اسم الفاعلين (الكافرين)؛ لدلالتِه على الذَّات والفِعلِ بطريق المنطوقِ المتعدِّدِ لا الصِّيغة الأُحاديَّة مُراعاةً لاقتضاء المقام للإطناب[1].

بلاغةُ الالتفاتِ إلى الرَّسول:

الحكمُ بالعذاب على معيَّنٍ من أعمالِ الغَيْب

في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ التفاتٌ من خطابِهم لخطاب رسول الله ﷺ، إذ لم يقل: (إن تبتم فهو كذا وإن توليتم فهو كذا ولكم أو أبشركم بكذا)؛ لأنَّ الحكمَ بالعذاب من أعمالِ الغيْب، فلا يُباشِرُهُ النَّاسُ إلَّا بوحي، وليس في النَّاس غيرُ الرسولِ يُوحَى إليه[2].

دلالةُ الحقيقةِ والمجازِ في البشارةِ المذكورةِ:

استعمالُ البُشرى في جانبِ العذابِ قد يجري على معنى الحقيقة

التَّعبيرُ بالبِشارة في جانب العذاب، استعارةٌ تهكُّميَّةٌ للتَّنبيهِ على أنَّ أَسَرَّ وأفْرَحَ ما يَسمعونَه من الأخبار الخبرُ بما يَنالهم من العذاب، فشبَّه انتشارَ الحَزَن والغمِّ على بَشَرَةِ المُخبَر بالعذابِ انقباضًا، بانتشار الفرح والسرور على بَشَرَةِ المتفائل بالخبر السعيد انبساطًا، بجامع الظهور والتَّغيُّرِ في البشَرَةِ عند كليهما. ووجْه التهكُّم: استعمالُ البِشارةِ في ضدِّ حقيقتها؛ إذ استعمالها فيما يُفرِح، والإخبار بالعذاب ضِدُّ ذلك، وتشبيهُ الضِّدِّ بضدِّه لا يَروج في عقلِ أحدٍ إلَّا على معنى التهكُّم، وغرض التهكُّم مِن جعْلِ عذابِهم محلًّا للبشرى: الزِّيادةُ في تعذيبهم وإذلالهم بابتداء الخبر بما يُطمِعُهم ويرجِّيهم بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾، فإذا انتبهوا للبِشارة وتوقَّعوها، انتهى بهم إلى اليأسِ والقنوط بجعْلِ العذاب مضمونَ البشرى، على غرار قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾ بأيِّ شيء؟ ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾، فيجمع عليهم عذابَين: عذابًا عند إخبارهم بالعذاب،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3228.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/42.

وعذابًا عند ملابستِهم له، واستعمال البُشْرى في جانب العذابِ قد يجري على معنى الحقيقة لا المجاز باعتبار أمرين: الأوَّل: أنَّ الأصل في البُشْرى كلُّ ما يؤثِّر في البَشَرة من القبْض أو البسْط، وهذا في الخير والشَّرِّ، واستعمالُهُ في الخير على سبيل التَّغليب فقط. الثاني: مُلاحظةُ القيدِ، فمتى أُطْلِقَتِ البشارة؛ كانت في الخير، ومتى قُيِّدتْ بما يسوء؛ كانتْ على حقيقتِها للاحتراز بالقيْد عن الإلباس الذي يقضي بقول المجاز فيها[1].

بلاغةُ الختمِ بقولهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تأكيدُ زجرهم عن الإعراضِ عن الحقِّ واستمرارُ عقابهم في الدَّارين

الختْمُ بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تذييلٌ يتأكَّدُ به زجرَهم عن التولِّي والإعراضِ عن الحقِّ، ويندفع به اقتصارُ العذاب على حال الدُّنيا فقط، ويتقرَّر به استمراره وحصوله في الآخرة[2].

سرُّ حذفِ متعلِّق البشارة:

فيه الاختصارُ وتحقيقُ الإيجاز وتعميمُ الوعيد وشموله

لم يقل في السِّياق الكريم: (وبشِّرهم بالعذاب في أيِّ مكانٍ أو زمن)، فحذفَ متعلِّقَ البشارة للاختصار وتَحقيق الإيجاز، فاللّه تعالى يختصر كلامه بأدنى حدٍّ من الألفاظ، ويشير إلى ما يعلمه الكافرون من أحوالهم وأقدارهم، ويجعلهم يتدبَّرون في هذا الإنذار، ويتفكَّرون في معانيه، مع ما تضمَّنته الآيةُ من تعميم الوعيد وشموله لكلِّ شرٍّ في الدُّنيا والآخرة، فاللّه تعالى يتوعَّد الذين كفروا بعذاب أليم دون أن يذكر ما هو ذلك العذاب؛ لأنَّ الكافرين يعلمون أنَّ العذابَ هو النَّار والخزي والنَّدامة وغير ذلك من الأمور التي يخافونها، ويهربونَ منها، فيشمَلُ أحوالَ الدّنيا والآخرة جميعًا.

(1) الرَّاغب، المفردات: (بشر)، ورضا، تفسير المنار: 10/137، والشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 8/4868، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/207.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/527، وطنطاوي، الوسيط: 6/203.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأذان والإعلام:

الأذانُ هو الإعلامُ بالشَّيء بإسْماعِ الآذانِ به، والإعلامُ هو إبلاغُ العِلمِ بالشَّيء للآخر، فالأذانُ أخصُّ من الإعلام؛ لأنَّ الأوَّلَ مَلحوظٌ فيه قصدُ الآذانِ بالإسماع، والثَّاني عامٌّ في وسائل إيصال العِلم فربَّما يحصل سماعًا أو كتابةً أو إشارةً أو غير ذلك، والأذان طريقُه الجهْر وعلوُّ الصَّوت؛ لأنَّ مجموعَ الآذانِ لا يتحقَّقُ سماعُها إلَّا بالجهْر، وأمَّا الإعلامُ؛ فيقع بغير الجهْر، كما يقع بالجهْرِ[1].

الأذانُ طريقُهُ الجهْرُ، والإعلام يقع بغير الجهْرِ كما يقع بالجهْر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن)، والرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أذن، علم)، وابن منظور، لسان العرب: (أذن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أذن، علم).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التّوبة: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أمـرُ الإسـلامِ بـالوفاء ونهيهُ عن الخيانة

لمّا أعلَمَ اللهُ ببراءتِه مِنَ المشركين النَّاكثين، ونزع منهم العهدَ والأمان، وأمهلهم مُدَّةً معلومةً، يُستباحون بعدها غيرَ معصومي الدِّماء، استثنى الله في هذه الآية فئةً من المشركين لهم عهدٌ سارٍ في مُدَّته، ولم يخونوا، ويغدِروا في شيءٍ أبدًا، فأمَر المسلمين بالوفاء لهم جزاءً على وفائهم وحفْظِ عهدِهم[1].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾: أصلُه مِنَ النَّقْص وهو الخُسرانُ في الحظِّ، خِلافُ الزِّيادة، وينْقِصوكم من الإنقاص، وهو الأخذُ من الشَّيء حتى يَقِلَّ، ويَختَلَّ، والمراد هنا: لم يُخْسِروكم شيئًا في أمْرِ معاهدتهم معكم[2].

2) ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾: أصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّة وبُروزٍ، ولذلك سمِّي وقتُ الظُّهر والظَّهيرة؛ إذ هو أظهرُ أوقاتِ النَّهار وأضوؤها، والأصل في ذلك كلِّه ظَهْرُ الإنسان، وهو خلاف بَطْنه، وهو يجمعُ البروز والقوةَ، والظَّهيرُ: العَوْنُ والمعينُ، والمعنى: لم يُعاوِنوا، ويُعِينوا أحدًا عليكم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/379.

(2) ابن فارس، المقاييس مقاييس اللغة: (نقص، خسر)، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نقص).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات، (ظهر)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/110.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الاستثناء من البراءة التَّامَّةِ، أوفياء العهود

يُستثنى من حكمِ البراءةِ السَّابق أولئك المشركون الذين دخلوا معكم في عهدٍ محدَّدٍ بمُدَّةٍ، ولم يخونوا العهدَ، ولم يُعاونوا عليكم أحدًا من الأعداء، ولم يُهيجُوا أقوامًا آخَرينَ، ويَنصُروهم، ويُرَغِّبوهم في الحَربِ، فأكمِلوا لهم عهدَهم إلى نهايتِه المعلومة؛ لأنَّ اللّه يحبُّ المّتقين الذين اتقوا الشّرك والخيانةَ، وغيرَ ذلك من المعاصي، فكما اتَّقَوا خيانتَكم، فاتَّقُوا خيانتَهم جزاءً بجزاء[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ جملة الاستثناء ممَّا قبلَها:

الفاصلُ في قوَّةِ المستثنَى؛ لأنَّه تفريع على معناهُ

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ متَّصلٌ من قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فكأنَّه قال: (براءة إلى الذين عاهدتم من المشركين إلا أهل الوفاء منهم)، واتِّصال الاستثناء مع طولِ الفصلِ غير مؤثِّرٍ؛ لأنَّ الفاصلَ في قوَّة المستثنَى؛ لأنَّه تفريعٌ على معناه، ويصحُّ أن يكون الاستثناءُ منقطعًا بمعنى الاستدراك ممَّا قبله، أي: (أنَّ اللّه بريء من المشركين ورسولُه، وبشِّر الذين كفروا بعذاب أليم لكنَّ الذين عاهدتم من المشركين، ثم لم ينقصوكم شيئًا، فحكمهم غير ذلك)، أو الاستثناء من مدةِ الأجلِ المضروب في قوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لمن له عهدٌ مطلق ليس بمؤقَّت، والتقدير: (إلَّا الذين عاهدتم من المشركين، فلا يتناولهم الحكم بالأربعة أشهر)[2].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تحديدُ المقصودين بالصِّلة وتجسيدُ الخطاب وتحقير المخاطَبين

الاسمُ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾، دلَّ على تمييزهم

---

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 187.

(2) النسفي، التيسير في التّفسير: 270/7، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/71، وأبو حيان، البحر المحيط 5/370، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/42، ورضا، تفسير المنار: 10/138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/122.

أكملَ تمييز، وأفاد أنَّهم معروفون بتحقُّقِهم بمضمون الصِّلة، فلا يَختلطون بالنَّاكثين المستوجبين للبراءة، ولا يلتبِسون بهم، ففيه تحديدُ المخاطَبين والمقصودين، فالاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دلَّ على أنَّ المشركين المعنيِّين بهذا الإعلان هم فقط الذين عاهدتموهم من قبل، وأخذتم منهم موادعةً وصلحًا، وليس كلُّ المشركين عمومًا، وفيه كذلك تجسيدُ الخطاب وتحقير المخاطبين، فالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يجعلُ المشركين كأجسام بلا أرواح، وكأشخاص بلا أسماء، وكأفرادٍ بلا شخصيَّةٍ، فلا يستحقُّونَ ذكرَ أسمائهم، أو نسبهم، أو صفاتهم، بل يكفي ذكرُ حالتهم الضَّعيفة حين قبلوا بالمعاهدة معكم.

معنى حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

يُعرَفُ وفاءُ العهدِ بِطولِ الاختبار

التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ أفاد ثباتَهم على عهدِهم مع تمادي المدَّةِ، للدَّلالة على دوام وفائِهم، وأنَّهم مع كونهم عرضةً للنَّكث والنَّقص كإخوانهم المشركين ضبطَوا أنفسهم، ولم ينكُثوا في عهدهم، ولم ينقصوا المسلمين - مع بغضهم لأهلِ الإيمان - شيئًا من شروط العهد، بل وفَّوا به حقَّ الوفاء[1].

دلالةُ مفهومِ الوصفِ بنفي النَّقص عنهم:

الوصف متحتّم على النَّاكثين من المشركين

قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ دلَّ بمفهومِه على أنَّ الموسومين بالبراءة إليهم في قوله: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ليسوا مطلقَ المُعاهَدين من المشركين، بل النَّاكثين العهدَ النَّاقِضين له.

نكتةُ التَّعبيرِ بالنَّقص:

النَّقصُ أعمُّ مِنَ النَّقض، فيشملُ كلَّ ضررٍ، ولو كان خارج العهد

عبَّر بالنَّقص دونَ النَّقضِ، مع أنَّ وصفَ النَّقضِ ألصقُ بالعهدِ من غيرهِ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالنَّقص قوبِلَ بالتَّمام في قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/42، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3228.

فلِحُسْنِ المُقابلةِ أوثِرَ على غيره، والتَّعبير بالنَّقص أبلغُ؛ لأنَّ النَّقص يشمَلُ كلَّ إخلالٍ يؤثِّر في أصل العقد أو كمالِ العقد، والنَّقضُ يتعلَّق بما لا وجود للعقد إلَّا به كالأركان وشرائط الصحَّة، فالنَّقص أمكنُ وأشدُّ، والنَّقص أعمُّ، فيشمَلُ كلَّ ضررٍ، ولو كان خارج العهد، والنَّقضُ للعهد فقط، ولذا كان المعنى: (لم ينقصوكم شيئًا من شرط العهد أو شيئًا من النقصان أيًّا كان بابُه)، فلم يقتلوا منكم أحدًا، ولم يضرُّوكم قطُّ[1].

دلالةُ النفي بِـ ﴿لَمۡ﴾:

ورودُ الاستثناءِ في الحاضر على ما كان منهم من وفاءِ العهود في الماضي

استعملَ ﴿لَمۡ﴾ في قوله: ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾: لإرادةِ نفي الفِعل في الزَّمن الماضي؛ إذ هي حرف نفيٍ وجزْمٍ وقلْبٍ؛ ليكون الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ واردًا في الحاضر على ما كان منهم في الماضي، وأمَّا نفي المضارع ﴿يَنقُصُوكُمۡ﴾ بـ(ما) فيدلُّ على الزمن الحاضر حسبُ، ونفيه بـ(لا) يدلُّ على المستقبل، والنَّفي بهما منفكٌّ عن مرادِ الآية[2].

إيثارُ كلمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وتنكيرِها:

عمومُ نفي الانتقاص في المعاملةِ من هؤلاء المعاهَدين

لفظ (شيء) من الأجناسِ المتوغِّلة في العموم، وجاء نكرةً في سياق النَّفي، فيعمُّ، فاجتمع عمومُ اللَّفظ مع عموم التَّركيب، ليدلَّ على أنَّ النَّقصَ المذكور يتناول أدنى إخلالٍ بالمعاهدة ولو شيئًا قليلًا يسيرًا، ولذا لم يُعيِّن المفعولَ، فلم يقل: (شيئًا في كذا)؛ لإرادةِ كلِّ ما يَصِحُّ وصفُهُ أنَّه نقصٌ في المعاملة من هؤلاء المعاهَدين[3].

دلالةُ اشتقاق ﴿يُظَٰهِرُواْ﴾:

المظاهَرَةُ اشتقاقُها من الظَّهْر أو مِن الظُّهور وتصويرُ مشاركة المتعاونين

﴿يُظَٰهِرُواْ﴾ من المُظاهرَةِ على صيغة المفاعلة، وهي المُعاوَنةُ، واشتقاقها إمَّا مِن الظَّهر؛ لأنَّه موضِع الأحمالِ، ومحلُّ القوَّة،

(1) السّمين، الدّر المصون: 6/10، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 3/431.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/222، والمبرّد، المقتضب: 1/41.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/113.

فصيغةُ المُفاعَلَة لِتصوِّرَ أنَّ كلًّا من المتعاونَين يُشارِكُ أحدهما ظهرَ الآخَرِ، ويُعيره إيَّاه، وإمَّا من الظُّهورِ؛ لأنَّ الإعانةَ تُظْهِرُ حال الإنسانِ على غيره بالغلَبةِ ونحوها بعد ما كان خفيًّا لا يؤبَهُ بوجودِه، فصيغةُ المفاعلةِ جاريةٌ على أنَّ المُتعاونين يُظْهِرُ أحدهما الآخر، فالمُعِين يُظهِرُ المُعانَ بإحراز النَّصر، والمُعانُ يُظهِرُ المُعينَ بِبَسْطِ شوكتِه ورواجِ ذِكْرِه وسُمْعَتِه وإحرازِ الولاءِ له[1].

وجهُ التَّعديةِ بحرفِ الاستعلاءِ:

المُظاهَرَةُ تجعلُ الظَّهيرَ مُستعليًا بِمن أعانَهُ فوق الخصوم

التَّعديةُ بحرف (على) في قوله: ﴿يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ للاستعلاءِ المجازي، وكأنَّ المُظاهَرَةَ تجعلُ الظَّهيرَ (الفاعِل) مُستعليًا بمن أعانه فوقَ الخصوم، وتجعل الظَّهير (المفعول) مُلَقًّى به فوق أكتافِ الخصوم الظَّاهِر عليهم[2].

دلالةُ المفعولِ بقوله: ﴿أَحَدٗا﴾:

إفادةُ لفظِ (أحد) لعموم الجنس

قولُه: ﴿أَحَدٗا﴾ نكرةٌ عامَّةٌ في سياق النَّفي، وتفيدُ استغراقَ جنس النَّاطقين، قِلَّةً أو كَثْرة، مجتمعين أو متفرِّقين، والمعنى: أيُّ أحدٍ ممَّا يصحُّ استخدامُه في المُظاهرة، على جهة الإطلاقِ والشيوع، ولذا لم يُعيِّن ﴿أَحَدٗا﴾ مِمَّن؟ أو من أيِّ جهة؟ لتقرير أنَّ معاونة الأعداء بأيِّ وسيلةٍ مهما قلَّتْ، تبيح نبذ العهد؛ لأنَّ الخيانةَ الصَّغيرة مِهادُ الخيانةِ الكبيرة وبريدُها[3].

دلالة الفاء وموقع ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾:

عراقةُ فاءِ الرَّبط في دلالتِها على السببيَّةِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾ هي فاءُ التَّسبيب، أو الفصيحة، فهي عاطفةٌ لِمقدَّرٍ قبلَها، والمعنى: إنْ كانوا فعلوا ذلك؛ فأتمُّوا إليهم، والعطف بها إيذانٌ بأنَّ مضمونَ الاستثناء في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/113.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/113.
(3) الرَّاغب، المفردات: (أحد)، وطنطاوي، الوسيط: 6/204، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أحد).

﴿يَنقُصُوكُمۡ﴾ سببٌ وعِلَّةٌ لدخولِ الفاء ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾، وما بعد الفاء تفريعٌ عليه ومترتِّبٌ عنه[1].

دلالةُ حرف الانتهاءِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

تضمينُ الإتمام معنى أنَّ العهودَ أماناتٌ تُؤدَّى وتُدفَع إلى أهلها

التَّعبيرُ بحرف الانتهاءِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾؛ لإفادةِ معنى الإيصالِ والبلوغ، ولتضمينِ الإتمام معنى الأداء والدَّفْع، أي: أدُّوه إليهم، لتقرير أنَّ العهودَ أماناتٌ تُؤدَّى، وتُدفَع إلى أهلِها، ويجبُ إدخالها في حيازة الجِهةِ الَّتي هي غايةُ استحقاقِها[2].

اصطفاءُ التَّعبيرِ بالمدَّة:

الدّلالةُ على أوَّلِ وقتِ المعاهدة وآخرِه

التَّعبيرُ في قولهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ بالمدَّةِ دون الأجل أو الوقت؛ للدَّلالةِ على أوَّلِ الوقتِ وآخرِه، فإنَّ المُدَّة هي مَدٌّ ما بين النُّقطتين أوَّلِ الزَّمن وآخِرِه، وأمَّا الأجلُ؛ فغايةُ الوقت ونقطةُ النِّهايةِ التي ينقضي عندها، والتَّعبير بالمدَّة لتصوير معنى الإمهال والفُسْحة مع الاستيفاء الكاملِ لوقتِهم المشروطِ في المعاهدة دونَ إنقاصِ شيءٍ منه[3].

دلالةُ الإضافةِ إلى الضمير:

انتفاعُ المضافِ إليهِ بالمضافِ

الإضافةُ إلى الضَّميرِ لتعريفِ المضاف، وهما: (العهد والمدَّة) وجاءتِ الإضافةُ لضمير المشركين دون المسلمين، مع أنَّ العهدَ والمدَّةَ كائنان في الجانبين معًا؛ لأنَّ المشركين أكثرُ انتفاعًا بها من المسلمين، بكونِ أيديهم هي السُّفلى في هذا العهدِ بغلبةِ المسلمين وبَسْطَتِهم يومئذٍ[4].

وجهُ العطفِ بقوله: ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾:

النَّقصُ يقع في الذَّوات بإيذائها، ويقع في مُمتلكاتِها بسلْبِها

قوله: ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ عامٌّ في استغراقِه لكلِّ ألوانِ النَّقص

(1) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/282.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/8.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مدد).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/113، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3229.

والإخلال في المعاهدة، فيشملُ النَّقصَ في الذَّواتِ بمباشرة قتْلِها أو التَّسبُّب في قتلِها، والنَّقص في تابع الذَّوات ومتعلّقاتها كمصادرة التِّجارةِ وسرقة السِّلاح وسائرِ المملوكاتِ، وقولُه: ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ خاصٌّ بعد عامٍّ، وهو داخل فيما قبلَهُ؛ لأنَّه عبارةٌ عن التسبُّبِ في الضَّرر، لا مُباشرته، إلا أنَّه ذكرَهُ لكونهِ حيلةَ مَن لا يستطيع مباشرةَ الأذى بمن يعاهدُهُ، إمَّا خوفًا أو عدم تمكُّن، فيحتال بالتسبُّبِ اتِّقاء التورُّط في المُباشَرة، فذكَره استيفاءً لِنَمَطي النقص، المباشِر وغير المباشر، والصَّريح جهرةً، والخفيِّ احتيالًا[1].

لَمْحُ المقابلةِ في الآيةِ الكريمة:

التَّخصيصُ والتَّفصيل؛ إذ النَّقص إقلالٌ في الوفاء، والمُظاهرة إكثارٌ في الأعداء

في قولهِ: ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾ فيهِ إيماءٌ إلى أنَّ إخلافَ العهود فيه إقلالٌ من الحقِّ بنقصِ الوفاء به، وإكثارٌ من الباطل بالمُظَاهَرةِ؛ لأنَّ النَّقص إقلالٌ في الوفاء، والمُظاهرة إكثارٌ في الخصوم والأعداء، ففي هذا التَّقابلِ توضيحُ الحكم وتفصيل الشَّرط، فاللّٰه تعالى يخبر المسلمين بأنَّهم لا يحاربون هؤلاءِ المشركين الذين عاهدوهم من قبلُ، إلّا إذا نقضوا عهدَهم بأحدِ الأمرين: إمَّا بالإخلال بشروط العهدِ، وإمَّا بالتَّحالف مع أعداء المسلمين ضدَّهم، فالمقابلةُ بين ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ و﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ تفيدُ التَّخصيص والتفصيلَ لشرط السَّلامة من القتال، فلا يكفي ألَّا يَنْقُصوا المسلمين شيئًا من شروط العهد، بل يجب ألَّا يعاونوا عليهم أحدًا مِن أعدائهم[2].

نكتةُ تصديرِ جملة الختْم بالتَّوكيد:

إجراءُ التَّركيب مجرى القانون، وتأكيدُ الجُمَلِ لانعطافها بعد سياقٍ مؤكَّدٍ في معناه

الافتتاحُ بـ ﴿إِنَّ﴾ لمحضِ الاهتمامِ والعناية بتقريرِ الجملة، وكأنَّ الغرضَ بالافتتاح المؤكِّد إجراءُ التَّركيب مجرى القانون المحدَّدِ والمثل

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4870.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/71.

السَّائر المحكم، وقرينةُ خلوِّ المخاطَبين عن التَّردُّدِ في هذا الخبر، تجعلُه مسوقًا لأجل تأكيد انتفاعِهم به، لا لإثباتِ أصلِه، فيكون خبرًا بمعنى الإنشاء، أي: أكِّدوا انتفاعَكم بمقتضى ذلك بدوامكم على الاستقامة وعدم التَّجاوز، أو لأجل أن يَسوقوه إلى غيرِهم بهذا المساقِ المؤكَّد للتَّرهيب والترغيب، فإنَّ المؤمن مُبَلِّغٌ عن ربِّه.

وأكَّدَ التَّذييلَ بحرفِ التَّوكيد؛ لأنَّه واقِعٌ بعد مقامِ رعايةِ العهود المؤكَّدةِ، فكذلك ما يَتبعها من الرَّغائبِ فيها والبواعثِ عليها يكون مؤكَّدًا كذلك.

بلاغةُ التَّذييل في آخر الآية:

علاقةُ الجزائيَّةِ بين الفاصلةِ ومفتَتَحِ الآية

جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ جاءت تذييلًا لما قبلَها لتقرير كونِ الجزاء من جنسِ العمل، كأنَّهُ قال لهم: منِ اتَّقى خيانةَ عهدكم إليه، فاتَّقوا خيانةَ عهدِه معكم لأجل ذلك، ومن لم يُظاهِر أحدًا عليكم؛ فلا تُظاهِروا عليه بنقضِ عهدِكم معه لأجْلِ أمانته.

علَّةُ الفصلِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

إغناءُ (إنَّ) المؤكِّدة عن العاطفِ في الرَّبط والتَّعليل

أفادت جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ التَّفريعَ والتَّعليلَ لما قبلَها: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾، فجاءت كالوعد والمكافأةِ بعدَها، وانفصلت عنها بالتَّجرُّد من العاطف، واستهلَّتْ بـ ﴿إِنَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّوكيد، اهتمامًا بالخبر، "ومن شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التَّعليلَ، وربْطَ مضمونِ جملتها بمضمون الجملة التي قبلَها، فتغني عن فاء التَّفريع، ولذلك فُصِلَتِ الجملةُ عن الَّتي قبلَها، فَلم تُعطَف لإغناءِ (إن) عن العاطف"[1].

بلاغةُ كمالِ الانقطاع:

تأكيد الجملة بالاستئناف عمَّا قبلها وبافتتاحها بإنّ المؤكّدة

وخبريَّةُ هذهِ الجملة بعد الإنشاءِ قبلَها، وتضمُّنها معنى الإنشاء وإن وقعت بلفظِ الخبر، وتأكيدها بالاستئناف عمَّا قبلها وبافتتاحها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/8.

بـ(إن)، وتضمُّنها معنى التَّرغيب بلفظها ومعنى التَّرهيب بمفهومِها، أي: احذروا كراهيةَ اللّهِ للفاجرين، وإفادة (إنَّ) في افتتاحها التَّعليل والرَّبط لما قبلَها، كأنَّها تقوم مقامَ الفاء، فذلك من وجوهِ بلاغةِ الفصل في هذا الموضعِ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ينقُصوك) و(ينقُضوكم):

النَّـقـصُ قد يـؤول للنَّقضِ، والنَّقضُ لا يكون نـقـصًا؛ إذْ هو أعظمُ منه

النَّقص - بالصاد المهملة - معناه الإقلالُ من الشَّيءِ والأخْذُ منه حتى يَقِلَّ بالنِّسبةِ لِما كان عليه، قليلًا كان ذلك أم كثيرًا، والنَّقصُ في أصلِ مدلولِه لا يَزولُ معه أصلُ الشَّيء؛ إذْ هو خِلافُ الزِّيادة، ولكنَّه إذا بولِغَ فيه انتقض معه الشَّيءُ وفَنِيَ. والنَّقض - بالضَّاد المعجمةِ - هو تفكُّكُ أجزاء الشَّيء وتداعيها حتى تفسُدَ، وتصيرَ غيرَ صالحة، ومنه التَّناقُض بين الأشياء لعدم صلاحيَّة اجتماعها معًا، فنقضُ الشَّيء هو أن يصير بحالةٍ غيرِ صالحةٍ في ذاتِه وأصله، فكأنَّهُ لَمَّا تفكَّكتْ أجزاؤهُ، وانفرطتْ مَعاقِدُه؛ تناقضتْ في ائتلافِها مرّةً أخرى، ففسدَتْ، وعليه فالنَّقضُ يحمل معانيَ لا يحملُها النَّقص، من فساد الشَّيء وعدم صلاحيَّتِه وزوالِ أصولِه، وأمَّا النَّقصُ؛ فلا يؤوَّل لتلك المعاني إلا بالاطِّراد والمبالغةِ فيه، فالنَّقص قد يؤول للنَّقض، والنقضُ لا يكون نقصًا، ولذا عبَّر هنا في الآية بـ﴿يَنقُصُوكُمْ﴾ في جانب العهد ليدلَّ على أنَّهم مؤاخَذون على أدنى إخلالٍ[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/172.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نقص، نقض).

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

[التّوبة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حكم الله بما يُصنَعُ في شأن البراءةِ مِن المُشركينَ النّاقضين للعهد بعد تحديد الأجَلِ

لمّا أزال اللّه الوُصلةَ بينه وبين المشركين النَّاقضين للعهد بالبراءةِ، وأعطاهم مهلةً مؤقَّتةً، أخبر هنا بحكمِه فيهم بعد انقضاءِ الأجل المحدَّد، فقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنسَلَخَ﴾: مِنَ الانسلاخِ، يقال: سَلَخَ فانْسَلَخ، وأصل السَّلْخ: نزْع جِلْدِ الحيوانِ، واستُعمِل في انقضاءِ الشَّهْر وانصِرامِه كأنَّه نُزِعَ عن النَّاس ونُزِعَ مِن موضعِه في مُحيطِ الزَّمن[1].

2) ﴿ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾: الحُرُم جمعُ حرام، وأصلُه: المَنْع، فالشَّيءُ الحرامُ هو الممنوعُ عن تناولِه، والمرادُ بالأشهر الحرم هنا: مُهْلَةُ الأربعةِ أشهرٍ التي حُرِّمَ، ومُنِعَ فيها قتالُ المشركين أثناءَها[2].

3) ﴿مَرۡصَدٖ﴾: مِنَ الرَّصَد، وهو الاستعدادُ لترقُّبِ الشَّيء، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التَّهيُّؤ لمُراقَبةِ شَيءٍ على مَسلَكِه، والمرصَد المكان الَّذي يَرقُبُ منه الرَّاصِد أو المكان المرصود، ويصحُّ أن يكون مصدرًا ميميًّا كذلك، والمراد به هنا: أماكن المشركين التي يُرصَدون فيها كالطُّرقاتِ والممرَّات ونحوها[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سلخ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رصد).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

حكمُ اللهِ في قتالِ المشركين المعاهدين بعد تمامِ المدَّةِ المضروبةِ لهم

فإذا انتهتِ الأشهر الحُرُم التي أمَّنْتُم فيها أعداءكم، فاقتلوا المشركين حيث لقيتموهم، وحاصروهم في مَعاقِلِهم، وضيِّقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسَّعون في بلادِ اللّه، وترصَّدوا لهم طرقهم، فإن تابوا إلى اللّه من الشِّرك، وأقاموا الصَّلاة، وأعطوا زكاةَ أموالهم، فقد أصبحوا إخوانَكم في الإسلام، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، فاتركوا قتالَهم، إنَّ اللّه غفور لمن تاب من عباده، رحيم به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة موقع ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾:

بعدَ الإمهالِ يَحصلُ الوعيد، واللهُ تعالى يمهل ولا يهمل

قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، وهو تفريعٌ على غايةِ القيدِ الزمنيِّ فيه، أي: لهم مُهلةُ أربعةِ أشهر، فإذا انسلختْ عنهم؛ فعاملوهم معاملة المُحارِبِ، واقتلوهم[2].

دلالةُ تصديرِ الشَّرط بـ(إذا) دون (إنْ):

انسلاخُ الأشهرِ وضعٌ زمنيٌّ واجِبُ التحقُّق

تُستعمَلُ (إذا) فيما هو متَحقِّقُ الوقوع، أو كثير الوقوع، وفيما كان سببُهُ قويًّا؛ فلا بدَّ من حصولِ جوابِه، ولذا استعمَلَ ﴿فَإِذَا﴾ هنا؛ لأنَّ انسلاخَ الأشهر وضعٌ زمنيٌّ واجِبُ التحقُّق، وهو سببٌ أكيدٌ لاقتضاءِ جوابِه، وهو قوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وأمَّا (إنْ) فالأصلُ استعمالُها فيما هو مُحتَمَلُ الوقوع، والمشكوكُ فيه، بل وفي المعاني الافتراضيَّةِ التي تقتصِر على الإمكان الذِّهنيِّ فقط، ولذا لم يَحسُنْ - هنا - تصديرُ الشَّرطِ بها[3].

---

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسَّر، ص: 187.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/114.
(3) ابن يعيش، شرح المفصل: 113/5، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/173.

اصطفاءُ لفظ ﴿ٱنسَلَخَ﴾:

مادَّة (سلخ) تدور حول نزْعِ شيءٍ ملتصِقٍ بشيءٍ، كسَلْخِ الجلْدِ عنِ اللَّحم[1]، ولفظ الانسلاخِ هنا يُعَبِّرُ عن انقضاءِ الزَّمنِ المذكور في جملةِ الشَّرط، ونكتةُ استعماله دون الانقضاءِ ونحوِه، لِموافقةِ المقام في الانتقالِ من حالَيْنِ مُتضادَّتَيْنِ بِفِعْلِ القوَّةِ وانتزاعِ شيءٍ من شيء، فكأنَّ اللَّفظَ ناطِقٌ بحالِهم، أي: إذا انقضى زمنُ المُهلَةِ؛ فانزَعوا عنهم ما التصقَ بهم من عهدِ الأمان حتى يكونوا في مَفْرِقٍ عنه، فحالُهم في انسلاخِهم عن مواقِعِ الأمْنِ والإمهال كحالِ انسلاخِ الأشهرِ عن مواقِعها في الزَّمن، فالتَّعبير بالانسلاخ من موافقاتِ الألفاظ للمقام وجريانِها مع حَرَكَةِ السِّياق.

التَّعبيرُ بالانسلاخ من موافقاتِ الألفاظ للمقام، وجريانِها مع حَرَكَةِ السِّياق

المجازُ في قولِه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾:

﴿ٱنسَلَخَ﴾ مُطاوِع (سَلَخ)، تقول: (سَلَخَ فانْسَلَخ)، وحقيقته: في سلخِ الجِلْد من الحيوان، واستعمالُه في الأشهر بمعنى انقضائِها وتمامِها استعارةٌ، حيث شَبَّه انقضاء الأشهر بأسمائها وأحكامها في حركةِ الزَّمن بانفصال لحمِ الحيوانِ عن جِلْدِه، على معنى (انسلَخَ مِنْه)، ويجوز إجراءُ الاستعارة على أنَّ الأشهرَ الحُرُمَ هي زمان، والزَّمان ظرفٌ، والنَّاسُ مظروفونَ فيه، فكأنَّ الأشهرَ الحرمَ حرزٌ لهم من قِتالِ المسلمين، كما أنَّ جِلْدَ الحيوانِ حرزٌ لِجسدِه ولَحمِه، على معنى(انسَلَخَ عنه)، وفيه تعريضٌ وتلويحٌ أنَّ زوالَ الأشهر الحُرُمِ يُزيلُ الوقايةَ عنهم بعد أنْ كانتْ ملتصِقةً بهم[2].

زوالُ الأشهر الحُرُم يُزيلُ الوقايةَ عنهم، بعد أنْ كانت ملتصِقةً بهم

نكتةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

لم يقل في السِّياق الكريم: (انسلختْ)؛ إذ وضعَ المُظْهَرَ موضعَ

ذِكْرُ أشهرِ المُهْلةِ بوصفِ الحرمةِ، تعظيمٌ لها بإنزالِها منزلةَ الأشهرِ الحُرُم

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4874.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/8، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/432، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/114، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4874.

المضمرِ لإجراءِ وصْفِ الحرمةِ على الأشهر؛ تأكيدًا لِمضمونِ الإذْنِ بالسِّياحةِ من حرمةِ التعرُّض لهم، مع ما في التّصريح من مزيدِ الاعتناءِ بشأنِ هذه الأشهر(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بجمْعِ القِلَّة ﴿ٱلۡأَشۡهُرُ﴾:

إعجاز القرآن في دقَّة استعمال العدد قلَّةً وكثرة، بحسب مجرى السّياق

التَّعبيرُ بجمع القِلَّةِ أَفْعُل؛ لكونِ الأشهرِ المذكورة في عددٍ قليل لم يتجاوزِ العشرةَ، وهي الواردةُ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾، ولذا لمَّا تجاوزتِ العشْرَةَ؛ عبَّر بوزْنِ الكثرة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ [التّوبة: 36].

وجهُ التَّقييدِ بوصف ﴿ٱلۡحُرُمُ﴾:

تأكيدُ وجوبِ الإمهالِ في القيدِ الزّمنيِّ، بوصْفِ المُهلَةِ بِما يُنبئ عن تحريمِ ضِدِّه

التَّقييدُ بوصْفِ الحُرُمِ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لإفادة أنَّ المُهلَةَ الواردةَ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ واجبةٌ في العملِ والامتثال بالنِّسبةِ للمسلمين، دفْعًا لِتوهُّم أنَّ الأمرَ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾ لمّا كان على سبيل الإباحةِ بالنّسبةِ للمشركين، فكذلك ما في حيِّزه من المُهلَة، فجاء هنا بوصف ﴿ٱلۡحُرُمُ﴾ لبيانِ أنَّ الإباحةَ بالنِّسبةِ للمشركين فقط أو الإباحة في السِّياحةِ دون المُهْلَةِ المحدَّدة، مع كونِ الالتزام به من المسلمين واجبًا، لِكونها مُحرَّمةً في قتالهم أو مُحرَّمًا عليهم مُخالفةُ حكمِها في الإمهالِ والأمان، فأكَّدَ وجوبَ الإمهالِ في القيدِ الزمنيِّ بوصْفِ المُهلَةِ بما يُنبِئ عن تحريم ضِدِّه.

معنى (ال) في الآية الكريمة:

إفادةُ العهدِ الذِّكْري وعوْدِ العهدِ على مذكورٍ أولى مِنْ عوْدٍ على مُقدَّر

(الـ) في ﴿ٱلۡأَشۡهُرُ﴾ للعهد الذّكري، كقوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾، فالأشهرُ الحرمُ هي المذكورةُ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾، وسمِّيت حُرُمًا لتحريم القتال فيها في ذلك العام، ولا يُراد بها الأشهرُ الحُرُمُ في قوله:

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/352.

﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾؛ لأنَّ عوْدَ العهدِ على مذكورٍ أولى مِنْ مُقدَّرٍ، ثم إنَّ الأشهر الأربعة المحرَّمة بيانُ حكمِها لاحِقٌ في آيةٍ تاليةٍ، وسياقٍ متأخِّرٍ عن ذلك[1].

العطفُ بالفاء ودلالتهُ في ﴿فَٱقۡتُلُواْ﴾:

الأمـرُ بالقتل مـترتِّـبٌ على انسلاخ الأشهر ونتيجةٌ عنه

جملةُ ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ جوابُ قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾، و(الفاء) رابطةٌ لجواب الشَّرط، لإفادةِ السّببيَّة والتَّعليلِ بين الشَّرطِ والجزاء، فالقتلُ مترتِّبٌ على انسلاخِ الأشهر ونتيجةٌ عنه.

دلالةُ اصطفاء ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

اصطفاءُ لفظ المشركين هنا لِمُراعاةِ نظيرِه السَّابقِ، ولدفعِ إيهامِ أنَّهم صِنْفٌ آخر

التعبيرُ بالمشركين لاستبعادِ مفهومه من أهلِ الكتابِ والأديان خارج جزيرةِ العرب، وقَصْرِه على الوثَنيِّين؛ إذْ ليسَ يُقالُ لغيرهِم هذا الاسم إلا على سبيل التَّقييد، وفائدةُ تمييز الفئة واستبعاد غيرها العِلمُ بأنَّ ما عدا ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ له حكمٌ آخر وغير داخِلٍ في حكمِهم، وأيضًا اصطفاءُ لفظ المشركين هنا لِمُراعاة نظيره السَّابق في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولو غايَر الوصفَ؛ لأوهمَ أنَّهم صِنْفٌ آخر غيرُ النَّظير المذكور.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿حَيۡثُ﴾:

(حيث) تدلُّ على المكانيَّةِ باتِّفاق، وقد تدلُّ على الزّمان

التَّعبيرُ بـ ﴿حَيۡثُ﴾ في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ يدلُّ على استفراغِ الوُسْعِ في قتالهم على كلِّ حالٍ ووضعٍ، بناءً على إفادةِ (حيث) للمكانيَّة المُبْهَمَة، فتركيب ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ أفادَ العمومَ بدلالةِ حيثُ، ودلالةِ حذفِ متعلَّق (وجَدَ)، فلم يقل: "وجدتموهم في مكان كذا"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/380، وطنطاوي، الوسيط: 6/206.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/8، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 9/668.

نكتةُ عدم إدخال (مِنْ) على ﴿حَيۡثُ﴾:

إزالةُ (مِنْ) أفاد إمكانَ الفُسْحةِ بينَ القتْلِ والإمساك

لم يقل: (مِنْ حيثُ)، لِإفادة استغراقِ الظَّرف لِلمكانِ الذي يُوجَدونَ فيه، من غير إرادةٍ لتحديدِ موضعٍ فيه لِبدءِ الفِعل المذكور في حيِّز الحيثيَّة (اقتلوهم - وجدتموهم)، ولو قال: (مِنْ حيثُ وجدتموهم)؛ لكان معناه: اقتلوهم في الموضع الذي ابتدأْتُم إمساكَهم فيه، فإزالةُ (مِنْ) أفاد إمكانَ الفُسْحةِ بين القتلِ والإمساك، فيجوز أنْ يقتلوهم في عموم المكان لا في موضِعٍ خاصٍّ منه، ويجوز أنْ يجدوهم في مكانٍ، ويقتلوهم في مكانٍ آخرَ يسوقونَهم إليه؛ لأنَّ القتْلَ مُسَبَّبٌ عن الفِعل ﴿وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾، أي: عن تحقُّقِه في الزَّمن، ولذا جاء بالماضي، وغايةُ تحقُّقِه قد تكونُ في مكانٍ غير المكانِ الذي ابتُدِئَ فيه الفعل أثناءَ الملاحقةِ والمُطاردةِ لهم[1].

معنى العطْفِ بالواو:

الجمعُ بين المأموراتِ في الإذنِ بها، لا الجمع بينها في الإجراء

قوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ﴾، وفيها توالي المعطوفاتِ بالواو في (فاقتلوا وخذوا واحصروا واقعدوا)؛ للدَّلالة على الجمعِ بينها في الإذنِ بها، أي: هذه المأموراتُ مأذونٌ بها جميعًا، وليس الجمع بينها في الإجراء؛ لأنَّ إجراءَها يكونُ بحسبِ الإمكانِ والقدرة ومراعاة المصلحة، فإجراءُ أحدِها قد يكفي عن الآخر، وقد يُستطاعُ القتلُ، ولا يُستطاع الأسرُ والحصار، والعكس، فما أفادتْهُ الواو من التَّشريك في الحكم راجِعٌ إلى الإذنِ بها جميعًا[2].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾:

التَّوبةُ لا تكون إلَّا على قدْرٍ من الموعظةِ والتَّمهُّل بالمُذْنِب

التَّعبيرُ بالأخْذ كنايةٌ عن الأَسْرِ، وكانت العربُ تعبِّرُ عن الأسير بالأخيذ، ونكتةُ عدمِ التَّعبير بلفظ الأَسْر؛ لِدفْعِ توهُّمِ استرقاقِهم،

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجر، ص: 345.

(2) رضا، تفسير المنار: 10/149، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/115، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4877.

كما يُستَرَقُّ الأسير، فإنَّ مشركي العرب لا يُستَرَقُّون، ولأَنَّ الأَسْرَ لا يكونُ إلا بالقهر؛ لأنَّه الربْطُ والشَّدُّ بالقيْد، وأمَّا الأخْذ فعامٌّ، فقد يقع بالتَّناول والاختيار، وقد يقع بالقهر، فعبَّر به لإمكانِ أنْ يوجدَ في أفراد المشركين مَنْ يؤخذُ إلى حيازةِ المسلمين طوعًا لا كَرهًا من غير أن يُقيَّدَ، أو يُساقَ كالأسير[1]، وفي التَّعبير به إشارةٌ للمسلمين على جوازِ أنْ تشتمِلَ مُعاملتهم للمشركين المأخوذين على شيءٍ من الرِّفْقِ، ويساعدُ على ذلك قولُه بعده: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ لأنَّ التوبةَ لا تكون إلا على قدْرٍ من الموعظةِ والتمهُّل بهم.

نكتةُ التَّعبير بلفْظ القعود:

العطفُ بقوله: ﴿وَٱقۡعُدُواْ﴾، ولم يقل: (وارصدوهم)؛ لإفادة المُبالغةِ في الرَّصدِ؛ لأنَّ القعودَ لِفعلِ الشَّيء دالٌّ على التفرُّغ له، وتصويرِ المرابطة في كلِّ موضعٍ يترقَّب خروجهم منه، وبذلِ غاية الجهدِ في ذلك، وتركِ شؤونِ الحياة، والترصُّدِ لهؤلاء المشركين حتى يتوبوا من شركهم.

القعودُ لِفعلِ الشَّيء دالٌّ على المرابطة، وبذلِ غاية الجهد في ذلك

وجهُ المجازِ في ﴿وَٱقۡعُدُواْ﴾:

حقيقةُ القعود الثُّبوتُ والرُّسوخ في المكان وهو ضِدُّ القيام، واستعير هنا للملازمةِ والمرابطةِ على المُراقبةِ والتتبُّع للمشركين كما يُلازِمُ القاعِدُ هيئةَ لزومِهِ المكانَ، فلا يتحوَّل عنه[2].

استعارةٌ للملازمةِ والمرابطةِ على المُراقبةِ والتتبُّع للمشركين

دلالةُ الجار والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

دلَّ الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ على اختصاصهم بالقتل والأَسْر؛ لتصوير أنَّ القعودَ لأجل التسلُّط على ذواتِهم بالاضطهادِ والإرصاد.

القعودُ مُسلَّطٌ على ذواتِهم بالاضطهادِ والإرصاد

دلالةُ لفظ ﴿كُلَّ﴾:

لفظُ (كلّ) أفادَ استغراق جميع المراصد والمواضع والسُّبُل

(1) الشّهاب، حاشيته على تفسير البيضاوي: 4/300، وطنطاوي، الوسيط: 6/207.
(2) الآلوسيّ، روح المعانيّ: 5/246، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/115.

الاستغراقُ عُرفيٌّ بحسبِ الطَّاقةِ وغلبةِ الظَّنِّ على استقصاء المواضع

والممرَّات التي هي مَظِنَّة اجتيازهم بمراقبتِها موضعًا موضِعًا، فلا يُهمَلُ منها مكان بليلٍ أو نهار، وفيه من المبالغة في الحرص على الإحاطةِ بهم والاحتياطِ منهم ما فيه، والاستغراق هنا عُرفيٌّ بحسبِ الطاقةِ وغلبةِ الظنِّ على استقصاء المواضع، كما دلَّتْ صيغةُ العموم على الاستقصاء المكاني والزَّماني والفِعلي، أي: اقعدوا لهم في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ وقتٍ، وارصدوا كلامَهم وحركاتهم وأفعالهم، فهم لا يخرجون عنِ الرَّقابةِ في عمومِ أحوالهم(1).

معنى صيغة ﴿مَرۡصَدٖ﴾:

صيغةُ (مَفْعَل) تصلح هنا أن تكونَ للمكان والزَّمان والمصدر

صيغة ﴿مَرۡصَدٖ﴾، (مَفْعَل) وهي صيغةٌ تصلح مصدرًا ميميًّا، فتدلُّ على الحدثِ المجرَّد مع دلالتها على الذَّاتِ، فإنَّ المرصَد يحمِل معه ذاتًا تُرصَد، ودلالتها على تمام الحدثِ وغايتِه، فالمرصَد يدلُّ على تمام الرَّصدِ ونهايتِه، وهذه نكتةُ إيثار التَّعبير بالمصدر الميمي دون غيره من المصادر كالرَّصَدِ والإرصادِ التي تدلُّ على الحدث مجرَّدًا من غير اقترانِ معنًى إضافيٍّ به، وصيغة (مَفْعَل) هنا تصلح أيضًا أن تكونَ للمكان والزمان، فتدلُّ على مكان الرَّصد وزمانِه؛ ليقع رصدُهم للمشركين عامًّا في كلِّ وقتٍ ومكان(2).

نكتةُ التَّعبير بلفظ (المرصد):

لفظُ (مَرصَد) مُبْهَمٌ، ولفظ(الطريق) مُحَدَّدٌ

جاء التَّعبيرُ بالمرصد دون الطَّريق ونحوه لإفادة العموم والشُّيوع؛ ليتناولَ كلَّ موضعٍ يصحُّ للرَّصد؛ لأنَّ لفظ ﴿مَرۡصَدٖ﴾ مُبْهَمٌ، فهو مُطلَقٌ في كلِّ موضعٍ أو حالٍ تُرقَب، وأمَّا الطريقُ؛ فلفظٌ محدودٌ يصدقُ على مكانِ السَّيْرِ الذي يُطرَقُ بالأرجُل، فهو خاصٌّ بحالٍ معيَّنةٍ للسّائر فيه وحالٍ معيَّنةٍ في هيئتِه الأرضيَّة المحدودة(3).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/115، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4877.
(2) السّمين، الدّر المصون: 6/13، وفاضل السامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 32، 36.
(3) الرَّاغب، المفردات: (طرق).

وجهُ إيصالِ الفعلِ للظَّرفِ بنفسِه:

(كُلّ) ليس ظرفًا، لكنْ له حكمُ ما يُضافُ إليه؛ لأنَّه عبارةٌ عنه

في قوله: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ عُدِّيَ الفعل للظَّرف بنفسه من غير حرفِ جرٍّ، فلم يقل: (واقعدوا لهم في كلِّ مرصد أو على كلِّ مرصد)، مع كونه سائغًا لغةً؛ ليستغرِقَ الترصُّد كلَّ جزءٍ من أجزاءِ كلِّ مرصدٍ متى أمْكَنَهم ذلك، بخلاف ما لو قال: (في)؛ فإنَّه يدلُّ على شُغْلِ كلِّ مرصدٍ في موضعٍ واحدٍ منه في أيِّ جزءٍ أو موضعٍ كان[1].

موقعُ جملة ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ ممَّا قبلها:

تواردُ العطفِ والاستئنافِ على الموضع الواحد بحسَبِ تكييف المعنى

جملةُ ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ معطوفةٌ على ما قبلها ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تفريعًا علَى الأفعالِ المُتَقَدِّمَةِ في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ﴾، أو استئنافيَّةٌ لانتقاله من أفعال المسلمين إلى أفعالهم، فالأفعالُ (اقتلوهم وخذوهم واحصروهم وارصدوهم) من عمل المسلمين ومُخاطَبين بها، والأفعال في قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ من أفعال المشركين مقصودين بها[2].

نكتةُ تعيينِ الصَّلاة والزَّكاة بعد التَّوبة:

إتْباعُ التَّوبةِ بالصلاةِ والزكاة كإتباعِ القضيَّةِ ببرهانِها

ضَمَّ الصلاةَ والزَّكاةَ لجانبِ التوبة، كما يُضَمُّ إلى القضيَّةِ برهانُها، فحقيقةُ التوبةِ باطنيٌّ يحتاجُ إلى تأييدِ البرهانِ الظاهريِّ عليه من الصلاة والزَّكاة، فلا يُتوسَّلُ لمعرفة الباطن إلَّا بالأمارات الدَّالَّة، وغرض ذلك في المقام: التَّحقُّقُ من دخولهم في جماعة المسلمين بالفعل لا بمجرَّد القولِ والادِّعاء، فالتَّعبيرُ عن التوبة بالنطق بالشَّهادتين إن كان كافيًا في موقف القتالِ للكفِّ عنهم، لكنَّه لا يكفي بعد ذلك لمعاملةِ من ينطق بهما معاملةَ المسلمين في عامَّةِ الأوقات[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/381.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/116، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/58.
(3) رضا، تفسير المنار: 10/154.

نكتةُ التَّعبير بالإقامة للصّلاة والإيتاء للزّكاة:

لو قيل: صلَّوا وزكَّوا لَغاب معنى الإتقانِ عن لفظِ الطَّلَبِ

لو جرى السِّياقُ على نَمَط الفِعل الواحد؛ لقيل: (صَلَّوا وزَكَّوا)، كما قال: ﴿تَابُواْ﴾، والنُّكتة في إجراء ذلك على التّوبة دون الصَّلاة والزَّكاة؛ لأنَّ التّوبةَ عملٌ قلبيٌّ غير ملحوظ، فلا يلحظُ أداؤه متفاوتًا كتفاوتِ الأعمال الظَّاهرة في تجويدها وإتقانها، فيُطلَبُ فِعلُهُ من لفظِ اسمه (التوبة، تابوا، توبوا) لإيقاعه بمعناه المجرَّد الخالص، وأمَّا الصَّلاةُ والزَّكاة؛ فلظهورهِما في العمل والإجراء؛ طُلِبَ فِعلُهما على وجْهِ الإتقانِ والإحسان، فأمرَ بهما من غير لفظِ اسمَيهما، من: (أقيموا وآتوا)، ولو قال: صلُّوا وزكُّوا؛ لغاب معنى الإتقان عن لفظ الطلب.

موقعُ جملة ﴿فَخَلُّواْ﴾ ممّا قبلَه:

جوابُ الشَّرط مقترنة بالفاء لترتُّب الجواب عن الشَّرط ترتُّب النَّتيجة عن المقدِّمة

جملة ﴿فَخَلُّواْ﴾ جوابُ الشرط السابق عليه، وقُرِنَتْ بالفاء لترتُّب الجواب على الشَّرط ترتُّبَ النَّتيجةِ على المقدِّمة، فالعلاقة سببيَّةٌ بين الشَّرط وجزائه.

اصطفاءُ لفظ ﴿سَبِيلَهُمۡۚ﴾:

إيثارُ لفظ (السَّبيل) يُحقِّق معنى التَّخلِية في قوله: (فَخَلُّوا)

إيثارُ التَّعبير بلفظِ (السَّبيل) لتحقيقِ معنى التَّخلِية في قوله: ﴿فَخَلُّواْ﴾ في موقعِ التَّيسير والوُسْع؛ ليتحقَّقَ لهم تمامَ الانتفاع بمضمون الفِعل؛ لأنَّ السَّبيلَ هو الطريق السهل الممتدُّ، فيدلُّ على بُعدِه ويُسْرِه، فكأنَّه قيل: اتركوا لهم الطُّرُقَ على ما هي عليه من الأمانِ والسَّلامة، واضمنوا لهم ذلك في عرضِها وطولِها[1].

وجهُ إضافةِ السَّبيل لضميرِهم:

إضافةُ (السَّبيل) لضميرهم مكافأةٌ لهم إزاءَ مكافأةِ جملة الجواب

لم يقل في السِّياق الكريم: (فخلوا السَّبيلَ لهم)، بل أضاف السَّبيل لضميرهم؛ لتعريف السَّبيل بالضَّمير، والدَّلالة على استحقاقهم له، فكأنَّهم أحرزوه لصالحِهم بعد توبتهم حتى صار

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سبل).

منسوبًا إليهم، وفي إضافة السَّبيل لضميرهم إشعارٌ بأنَّ تخلية المسلمين لهم السبيلَ بعد توبتهم عن استحقاقهم له، لا عن تفضُّل المسلمين عليهم، فكأنَّ الإضافة مكافأةٌ ضمن مكافأة جملةِ الجواب.

كنايةٌ تجري مجرى الأمثال في الدَّلالة على متاركتِهم وعدم التَّعرُّض لهم

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾:

قوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ كنايةٌ عن إطلاقِ سراحهم بعد أخذهم أو حصارهم ﴿وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾، أو كنايةٌ عن عدم التعرُّض لهم بأدنى أذًى أو مُضايقة أو ضرر بعد توبتهم، وعبارة ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ جاريةٌ مجرى الأمثال، في الدَّلالة على المُتارَكَةِ والإخلاءِ التامِّ، كمن يقول لغيره: (خَلِّ سبيلي)، أي: دعني وشأني، وعليه فالجملةُ من التَّمثيل أيضًا[1].

التَّفصيلُ والبيانُ لشرط القتال والسَّلامة منه

بلاغةُ المقابلة في قوله: ﴿فَخَلُّواْ﴾ ﴿وَٱقۡعُدُواْ﴾:

قوله: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ تمثيلٌ في المرابطةِ ضِدَّهم والتربُّص بهم، وقوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ تمثيلٌ في رفْعِ عينِ المراقبةِ عنهم وإعفائهم من الرَّصد والتَّتبع، فهذا في مقابلةِ هذا[2].

فالمقابلة بين ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ و﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ تفيدُ التَّفصيلَ والبيان لشرط السلامة من القتال، فلا يكفي أن يتوبوا، ويسلموا، بل يجب أن يؤدُّوا حقوقَ اللّٰه عليهم من إقام الصَّلاة على صفتها وإيتاء الزَّكاة لمستحقِّيها، فاللّٰهُ تعالى يأمرُ المسلمين بقتال المشركين وحصارهم ورصدهم، إلَّا إذا تابوا، وأقاموا الصَّلاة، وآتوا الزكاة، فإن كانوا كذلك؛ فلا يحاربوهم.

التَّلويحُ بأنَّ الإذنَ في تخلية سبيلِهم من لوازمِ مغفرة اللّٰه لهم إذا تابوا

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ممَّا قبله:

جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليليَّةٌ لما قبلها من الأمر بتخليةِ سبيلِهم، أي: أمرَكم بتخلية سبيلِهم؛ لأنَّ اللّٰه غفورٌ رحيم لمن تاب إليه،

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/116.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/116.

وفيه تلويحٌ بأنَّ الإذنَ في ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ من لوازم مغفرة اللّه لهم إذا تابوا، إذْ لو لم يُرِد المغفرةَ لهم ما أمَر المؤمنين أن يخلُّوا سبيلَهم(1).

عِلَّةُ الفصل في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

افتتاحُ الجملةِ بحرف التَّأكيدِ الّذي أغنى عن حرف العطف

سببُ فصل جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عمَّا قبلَها، وعدمِ وصلِها بالفاء العاطفة التي تدلُّ على ترتُّبها عمَّا قبلها، لافتتاح الجملةِ بحرفِ التَّأكيد الَّذي أغنى عن حرف العطفِ، وقام مقامَه في إفادة العِلَّة وربْطِ مضمون جملتِه بمعنى الجملةِ قبلَهُ.

بلاغةُ استهلالِ الجملة بحرف التَّأكيد:

التَّأكيدُ يُغني عن تكرار الأخبار

استهلالُ الجملة بحرف التأكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مع أنَّه لا حاجةَ لتأكيد نِسبةِ ذلك الوصف إلى اللّهِ جلَّ وعلا؛ لرسوخ معرفته في قلوب المؤمنين، فسيقَ التَّأكيدُ رغم ذلك، للاهتمام بالخبَرِ عن اللّه جل وعلا، ولأنَّ تأكيد صفات اللّهِ يؤكِّد الإيمان في القلوب ويهيِّجُها على تأكيدِ العملِ بمقتضاها، وفي التَّأكيد مراعاة لحال الإنسان الذي ينسى، فيحتاج إلى تكرار، والتَّأكيد يُغني عن تكرار الأخبار، والتَّأكيد أيضًا لتأليف قلوب المشركين وتحريضِهم على التَّوبةِ وهم أحوج إلى التأكيد لترسيخ الاعتقاد الصّحيح عن اللّه في عقولِهم التي خَلَتْ عنه.

تضمُّنُ الجملةِ الخبريَّةِ لمعنى الإنشاء:

جملةُ الفاصلةِ الخبريَّةِ في معنى الإنشاء والحضِّ للمسلمين بتخليةِ سبيلهم

التَّذييلُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بعد الأمر في قوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾، وكونُ جملة الختْم في محلِّ السَّببِ لما قبلها، يُسوِّغُ أن تكون جملة الختْم الخبرية في معنى الإنشاء والأمر للمسلمين، أي: فخلُّوا سبيلَهم، واغفروا لهم، وارحموهم، فأولى بكم أن تتخلَّقوا بصفات اللّه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/44، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/284.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(انسلخ) و(انتزَع):

انسلخَ من سَلَخَ، وانتزَع من نَزَع، والسَّلْخُ: إخراجُ الشَّيء عن جِلْدِه، فهو يستعمَل في نَزْعِ شيءٍ عن شيءٍ مُلتَصِقٍ به، والنَّزْع: قلْعُ الشَّيءِ من مقرِّه وإخراجه عن موضِعه، والفرق بينهما أنَّ السَّلخَ فيه كَشْطٌ وإزالةُ آثارِ الشَّيءِ من الشَّيء، ففيه تسليكٌ وتخليصٌ يفصِلُ الشَّيء عن لصيقِه حتى ينكشِفَ عنه، ولذا كان أصلُ استعماله في كشْطِ جِلدِ الحيوانِ عن لحمِه، ففيه تُؤدَةٌ ودقَّةٌ وعناية حتى يتخلَّصا، وأمَّا النَّزْعُ؛ فهو قلْعُ شيءٍ من شيء بقوَّةٍ وشدَّةٍ، وغالبًا ما يكون دُفعةً واحدةً، فليس فيه رُوَيْدٌ ولا تُؤدةٌ، ولا يتضمَّن معنى الكشْطِ ولا يلزمُ منه قصدُ كشْفِ الشَّيءِ عن الشَّيء[1].

السَّلْخُ: فيه كَشْطٌ وإزالةُ آثارِ الشَّيءِ من الشَّيء، والنَّزْعُ: لا يَلْزَمُ فيه الكشطُ

(الأخْذُ) و(الأسْرُ):

الأخْذُ أعمُّ مِنَ الأسْر، فهو مطلقُ تناولِ الشَّيءِ وتحصيلِه، سواءٌ وقع ذلك بقهْرٍ أو من غير قهر، وإنَّما يُعبَّرُ عن الأسير بالأَخيذ والمأخوذ لاعتبار جانِبِ القهرِ في الأخْذِ، وأمَّا الأسْرُ؛ فهو أخصُّ؛ إذْ فيه قهرٌ وقيْدٌ، فهو مستعملٌ في الشَّدِّ بالقيْد، ومأخوذٌ من الإسار، وهو السَّيْرُ الذي يُقتطَعُ من جِلْدٍ غير مدبوغ لِتُقَيَّدَ وتُشَدَّ به الأغراضُ، ولا دلالةَ في لفظ الأخْذِ على القيْدِ أبدًا[2].

لا دلالةَ في لفظِ الأخْذِ على القيْدِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلخ، كشط، نزع).

(2) الرّاغب، المفردات (أخذ، أسر)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أسر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ، أسر).

﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [التوبة: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استثناءُ لفيف من المشركين المستجيرين، وأحكام المستجير وغير المستجير منهم

لمّا تقرَّر في الآيةِ السَّابقة حُكمُ اللّه في المشركين الذين لا عهد لهم بعد انتهاء مهلةِ الأربعة أشهر، وكان أمْرُه للمسلمين أنْ يقتلوهم، ويأسروهم، ويحاصروهم، ويرصدوهم إلّا من تاب منهم، وأقام الصَّلاة، وآتى الزكاة، عطَفَ هنا في هذه الآية ما هو مُستثنًى أيضًا من الوعيد والأذى، وهو المشركُ الذي يأتي مستجيرًا يطلبُ عهدَ الأمان، فاستثنى المستجيرين منهم، كما استثنى التَّائبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾: من الجِوَارِ، وهو الكوْنُ بالقرْب، وأصله المَيْل، وأُخِذَ منه الجارُ؛ لأنَّه يَميل على جارِه بالحقِّ والفضل بسبب القُرب، أو لِتقاربهما، مالَ أحدُهما عن الآخرِ، أو مال عليه، وهنا: السِّين والتَّاء للطَّلب، أي: طلَبَ الجِوارَ لأجْلِ الحمايةِ والأمانِ، فهو هنا مُستعارٌ في الاستغاثةِ والالتجاءِ[1].

2) ﴿أَبۡلِغۡهُ﴾: من البُلُوغ والبَلَاغ، وهو: الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى، والمراد هنا: أوصِلْهُ إلى جهتِه ومَقرِّه الذي يأمنُ فيه[2].

3) ﴿مَأۡمَنَهُۥ﴾: من الأمْن، وهو الحالُ التي تثْبُتُ بها الطُّمأنينة، ويزول معها الخوف، والمأمَن اسم مكان، وهو الموضع الذي يتحقَّق فيه الأمْن، ولا يُنالُ فيه المرءُ بأذًى وشَرٍّ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جور)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118.

(2) الرَّاغب، المفردات: (بلغ)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/113.

(3) الرَّاغب، المفردات: (أمن).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وإنْ طلبَ أحدٌ من المشركين - الذين استُبيحتْ دماؤهم وأموالهُم - الدُّخولَ في جوارك - أيُّها الرسول - وطلبَ العهدَ بالأمان، فأجِبْه إلى طلبِه حتى يسمع القرآنَ الكريم، ويطَّلِعَ على هدايته، ثمَّ أوصِلْه إلى مكانٍ يأمنُ فيه؛ وذلك لإقامةِ الحُجَّةِ عليه، ذلك بسبب أنَّ الكفَّار قومٌ جاهلون بحقائقِ الإسلام، فربَّما اختاروه إذا زالَ الجهلُ عنهم[1].

مشروعيَّةُ تأمين الحربيِّ؛ إذا طلب الأمانَ من المسلمين، مستجيرًا به

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ﴾ ممَّا قبلَهُ:

جملة ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ﴾ معطوفةٌ على ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ لاستتمامِ التَّفصيل والأقسام، كأنَّه قيل: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم إلَّا التَّائب منهم أو المُستجير)، أو معطوفةٌ على ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لتخصيص عمومِه، أي: (اقتلوا المشركين ممن لا عهد لهم إلّا المستجير بك)[2].

تفريعُ العطفِ على معنى الاستثناءِ السَّابقِ عليه

دلالةُ مجيءِ التَّركيب بصيغة الشَّرط:

مجيءُ قولِه: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بصيغة الشَّرط ليطَّرِد مع ما انعطف عليه في قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾، فقد جاء مشروطًا كذلك، وصِيغَ الكلامُ بذلك لتأكيدِ الحكمِ المذكورِ بطريقِ الجزاء؛ لأنَّ أسلوبَ الشَّرط تحفيزيٌّ بما تضمَّنه من ربْط النُّفوس بجزاءٍ يُرتَجَى من الفعل، والدَّلالةِ على علاقة السَّببيَّة بين فِعل المُجير والمستجير بأنسبِ صيغةٍ وأجمعها[3].

تركيبُ الشَّرط يؤكِّد الحكمَ المذكورَ بطريقِ الجزاء

وجهُ الإتيانِ بـ(إنْ) في صدر الشَّرطِ:

تصديرُ الشَّرط بـ(إنْ) في ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ﴾؛ لكونِ مدخولها احتماليًّا فرَضِيًّا في وقوعه، وليس محقَّقًا أو كثير الوقوع، وفيه تنبيهٌ على

التَّنبيهُ على ندرةِ وقوعِ فعل الشَّرط وكونِه احتماليًّا فرَضِيًّا

---

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 187.

(2) الواحديّ، البسيط: 10/298، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/117.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/117.

ندرةِ وقوع فعل الشَّرط، فحرف (إنْ) يشير إلى أنَّه لا يتوقَّع أن يستجير أحدٌ من المشركين بالمسلمين؛ لأنَّهم في حالة حرب وعداوة، ولأنَّهم متكبِّرون على دخول الإسلام، فإذا وقع ذلك؛ فهو شأنٌ فرديٌّ وخاصٌّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَحَدٌ﴾:

بلاغةُ سياقِهِ في دلالته على الذَّاتِ والصِّفة، وعلى من لا عهد له خصوصًا

قال في السِّياق الكريم: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾، ولم يقل: (وإن مشرك) مع أنَّ كليهما يفيدُ العموم - لكونهما نكرتَين في سياق الشَّرط - لثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّل: لإرادة تخصيص النَّكرة بالوصفِ العهدي بعده، وهو ﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ ليقيِّد إطلاق النَّكرة في سياق الشَّرط بالمشركين المعهودين بالذِّكر في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، أي: المشركين الذين لا عهد لهم، وحتى يُجري هذا التَّقييد لا بد أن يأتي بأحدٍ دون المشرك؛ لأنَّه حينئذٍ سيقولُ: (وإنْ مُشركٌ استجارك)، فيكونُ اللَّفظ عامًّا في كلِّ مشركٍ، سواء له عهد أم ليس له عهدٌ، فيفوتُ المقصود، ولو قال: (وإن مشركٌ من المشركين استجارك)؛ لكان تكرارًا مُخِلًّا بإضافة الشَّيء لنفسِهِ، ولا يُقال: إنَّ العمومَ في (وإن مشركٌ استجاركَ) سيدخل فيه جميعُ المشركين النَّاكث وغير النَّاكث ولا بأس، فهذا خطأٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ تُجدِّدُ عهدًا بالأمان لمن لا عهد لهم، وأمَّا المشركُ الذي له عهدٌ؛ فهو غير مرادٍ هنا؛ لأنَّه مُجَارٌ بعهدِه بالفعل وآمِنٌ؛ فلا حاجةَ لإدخالِه في الآية.

الثاني: أنَّ تركيب: ﴿أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أبلغُ في سياقه هنا من تركيب (وإن مشركٌ)؛ لأنَّ الأوَّل يدلُّ على الذَّاتِ والصِّفة على جهة الاستقلال فيهما، فـ(أحد من المشركين) فيه تنصيصٌ أوَّلًا على الذَّاتِ المستجيرة اعتبارًا لها، ومبالغةٌ في الدِّلالةِ على حضورها الذَّاتيِّ؛ لِتُفْرَدَ بالنَّظَرِ والعناية، ثم يأتي وصفُها استقلالًا أيضًا

﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، أمَّا (مُشْرِك)؛ فهي تدلُّ على الذَّاتِ والصِّفة معًا من غيرِ إفرادِ كلٍّ باستقلالِه عن الآخر، فيخلو من النُّكتةِ المذكورة.

الثَّالث: أنَّ لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ فضلًا عن إفادته لعموم الجنسِ، فله خصوصيَّةٌ في دلالته على الجمعيَّةِ كدلالتِه على الفرديَّة، فيتناولُ في معناه "مَنْ يصلح للخطابِ واحِدًا كان أو مُثَنًّى أو مجموعًا، فإنَّ المُستأمَنَ قد يكون جماعةً من المشركين"، فأورَدَهُ ليتناولَ حال الاجتماع والافتراق والوحدة في المُستجيرين(1).

سرُّ تقديمِ المسندِ إليه ﴿أَحَدٌ﴾:

كمالُ الحرصِ على ذاتِ الشَّخص المُستجيرِ مِظنَّةٌ لهدايته

تقديمُ ﴿أَحَدٌ﴾ على الفعل ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾ مع أنَّ تقديم الفعل كان سيغني عن تقديرِ العامِل في ﴿أَحَدٌ﴾، (إن استجارك أحدٌ من المشركين استجارك) ومع ذلك قدَّم المسندَ إليه لتوفُّر العناية عليه، واتِّجاه القصد إليه، كأنَّه قيلَ: ليس المقصودُ طلبَ الإجارةِ، وإنَّما المقصود الطَّالِبُ لها، لا مِنْ حيثُ كونُه مُستجيرًا، إنَّما لكونِ استجارتِه ذريعةً ومِظنّةً لسماعِه كلامَ اللّه، ففي التَّقديم كمالُ الحرص على ذاتِ الشَّخص المُستجير في تلبيتِه بإجارتِه وفي إسماعه القرآنَ لهدايته(2).

المجازُ في قوله: ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾:

حالُ طالبِ الأمانِ تُشبهُ حالَ طالِبِ الجوار، في قصدِ كليهما لمعنى الأمْنِ

الاستجارةُ هي طلبُ الجِوار، فالسِّين والتاء للطَّلب، واستُعمِلَتْ مجازًا في طلبِ الأمان، لِكون الإنسان - غالبًا - لا يُجاوِرُ إلَّا مواضعَ الأمنِ له(3).

دلالةُ أسلوبِ الخطابِ في قوله: ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾:

أسلوبُ الخطابِ للنَّبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾، وقوله:

(1) القُونَويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/157.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3232.
(3) القُونَويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/157، وعاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118.

الخطابُ فيه تخصيصٌ للنَّبيِّ بمباشَرةِ مُهِمَّاتِ القضاءِ والحُكم

﴿فَأَجِرۡهُ﴾ مع قوله: ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ دليلٌ على أنَّ السُّلطان أو الإمام هو من يجوز له إعطاءُ الأمان للمحاربِ المنبوذ، ويدلُّ قوله: ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ أنَّه على الإمام إذا أعطى عهدًا لُمحاربٍ بالأمان أن يحفظَهُ، ويمنعَ النَّاسَ منه أن يتناولوهُ بشرٍّ أو أذًى[1].

نكتةُ السُّكوتِ عن سببِ الاستجارةِ:

لا يستجيرُ العاقلُ إلَّا لغرضٍ صحيح

لم يقل: (استجارك لكذا)، وسكتَ عن سبب الاستجارةِ؛ لتفاوت أغراضِ المستجيرين، فكلٌّ يستجيرُ بحسب حاجتِهِ، وفي السُّكوتِ عن السَّبب اعتبارٌ لمقاصدِ العقلاء منهم؛ إذ لا يستجيرُ العاقل إلَّا لغرضٍ صحيحٍ[2].

دلالةُ الفاءِ و(حتّى):

اعتبارُ استجارة المشركِ سببًا كافيًا في إغاثَتِه إلى حين ما يدعو لهدايتِهِ

قوله: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ﴾، الفاءُ في قوله: ﴿فَأَجِرۡهُ﴾ رابطةُ الجوابَ بالشَّرط، ومعناها: لِتَكُن استجارةُ المُشركِ بك سببًا كافيًا في إغاثته، و(حتى) حرفُ غايةٍ أو تعليل متعلِّقٍ بـ(أجِرْه)، ومعنى الغايةِ: أجِره إلى أن يسمعَ، ومعنى التَّعليل: أجِرْهُ كي يسمعَ أو لأجل أنْ يسمعَ[3].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في سماعِ المستجيرِ:

تأليفُ قلبِ الكافرِ بإغاثتِه وتأمينِهِ رجاءَ أنْ يهتدِيَ

قولهُ: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، فيه إيجازٌ بديعٌ لكلام محذوفٍ بين جواب الشَّرط ﴿فَأَجِرۡهُ﴾، وغايته ﴿حَتَّىٰ﴾، " وهو ما تشتمل عليه إقامةُ المستجير من تفاوضٍ في مهمٍّ، أو طلبِ الدُّخولِ في الإسلام، أو عرْض الإسلام عليه، فإذا سمعَ كلامَ اللهِ؛ فقد تمَّت أغراضُ إقامتِهِ؛ لأنَّ بعضَها من مَقصِدِ المستجيرِ، وهو حريصٌ على أن يبدأَ بِها، وبعضها من مقصدِ النبيِّ ﷺ وهو لا يتركهُ يعود حتى

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 4/273، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/375.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/374، والصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/286.

يُعيدَ إرشادَهُ، ويكونَ آخرُ ما يدورُ معه في آخرِ أزمانِ إقامته إسماعَهُ كلامَ اللّهِ تعالى"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم المصدرِ ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾:

الـدَّلالـةُ على الاسـمِ المفهومِ مـن حـدث التَّكليم، وهو القرآنُ العظيم

وردَ التَّعبير هنا بـ (الكلام) الذي هو اسمُ مصدرٍ، دون المصدر (التكليم)، ودونَ الجمع السَّالم (كلمات)، واسمُ المصدرِ نصٌّ في الاسميَّة المجرَّدةِ عن الزَّمن، فهو لا يفيد الفِعليَّةَ، فصيغتُه مَقصودٌ منها استحضارُ المعنى الثَّابتِ للشَّيء، وتتأكَّدُ تلك الدَّلالة - هنا - بإفادة لفظ (الكلام) لمعنى الجنسيَّةِ الدالِّ على الماهِيَّةِ والحقيقة؛ إذْ هو اسمُ جنسٍ يقعُ على القليلِ والكثير، و(الكلمات) جمعٌ سالم، والجمع السَّالمُ يدلُّ على الحدَث؛ فهو يُقرِّبُ الصِّفةَ من الفعليَّةِ، والجمعُ السَّالم مقصودٌ منه استحضارُ صورةِ الحدوثِ في اللَّفظ، والحدوثُ الزَّمنيُّ يدلُّ على التَّبايُن، والتَّجدُّد، والتَّعدُّد، وهذا كلُّه ليس مقصودًا هنا، فلم يعبِّر هنا بالجمعِ السَّالم (كلمات اللّه)، وقال: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، لإرادةِ الاسميَّةِ المجرَّدة، وهو (القرآن)، وعبَّر باسم المصدرِ (الكلام) دون (التكليم)؛ لأنَّ اسم المصدرِ يدلُّ على الاسم المفهوم من الحدث، والمصدر يدلُّ على الحدثِ، فالكلامُ هو اسمُ الشَّيءِ الحاصلِ من حدَثِ التَّكليم وهو القرآنُ، فاسم المصدر يدلُّ بموجبِه على اسم الشَّيءِ وعلى الذَّاتِ الَّتي تعلَّق بها[2].

دلالةُ إضافة الكلام إلى الاسم الجليل:

تجريدُ العقلِ المُشـرِك عن خرافاتِ الافتراءِ علـى الـقـرآنِ بزعمِ بَشَرِيَّتِه، وتـهـيـئـتُـهـم لسماعه

إضافةُ الكلام للفظ الجلالة من باب إضافةِ الصِّفة للموصوف[3]، أي: الكلام الَّذي تكلَّم بِه اللّهُ، واتَّصف بِه، ففي الإضافةِ دليلٌ على أنَّ الرَّسول ﷺ ليس إلَّا مُبلِّغًا له مأمورًا به، وفي هذا تجريدٌ للعقليَّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: 5/2023، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/423، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/87، فاضل، معاني النَّحو: 3/164.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/375.

المُشرِكة عن خرافاتِ الافتراء على القرآن التي علِقَتْ بأذهانِهم، وحجبتهم عن الاستماعِ له، فكأنَّ الإضافة هَيَّأَتْهُم لسماع القرآن على نحوٍ خالصٍ من الشُّبهات الَّتي ألِفوها.

معنى (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾:

فُسْحةُ النَّظَرِ بـعـد سـمـاعِ المشركِ للقرآنِ، واستمرارُ إجارتِهِ في أرضِ الإسلام

العطفُ بحرفِ التَّراخي قبل الأمرِ دونَ غيرِهِ، يدلُّ على أمرين: الأوَّل: الفُسْحة في الحوارِ والنِّقاش والتفاوض بعد سماعِ المشرك للقرآن، فهو ليس سماعًا عابرًا بل سماعًا متبوعًا بإفهامٍ ومراجعةٍ ومُساءَلَةٍ، فإذا انقضتْ تلك المُهلَةُ التي دلَّتْ عليها (ثُمّ)، كان إبلاغُه مأمنَه أجاب المشركُ أم لم يُجِب، الثَّاني: "وجوبُ استمرارِ إجارتهِ في أرضِ الإسلامِ إلى أن يبلغَ المكان الَّذي يأمنُ فيه، ولو بلغَهُ بعد مدَّةٍ طويلةٍ، فحرف (ثم) هنا للتَّراخي الرُّتَبي اهتمامًا بإبلاغه مأمنَه"(1).

إيثارُ الفعلِ ﴿يَسۡمَعَ﴾:

المشركُ في مقامِ الـتَّـعـرُّف على الـقـرآنِ، ولـم يطلب سماعَهُ

إنَّما قال: ﴿يَسۡمَعَ﴾ بصيغة المضارع؛ ليدلَّ على أنَّ إسماعه ربَّما تكرَّرَ، ولم يكن عن مرَّةٍ واحدة، فما زال حاضرًا بين يدي النَّبيِّ، فالنَّبيُّ يُسْمِعُه، فيسمعُ منه، وقال: ﴿يَسۡمَعَ﴾، ولم يقل: (يستمِع) لأربعة أوجهٍ: الأوَّل: أنَّ إسماعَه القرآنَ هو من جهةِ النَّبيِّ ﷺ، والمشركُ ليس حريصًا على السَّماعِ، ولم يأتِ لطلبهِ، بل أتى للاستجارة، فهو مُبادَأٌ بهِ من النَّبيِّ ﷺ رجاءَ أن يسمعَ، فلمَّا كان ذلك كذلك؛ كان سماعًا لا استِماعًا.

الثاني: أنَّ المُشرِك المستجيرَ هو خالي الذِّهن من العِلْم بالقرآنِ وفهمِه، ولذلكَ وصفَهم بأنَّهم قومٌ لا يعلمونَ، فهو في مقامِ مَن يتعرَّفُ على الشَّيء، فيحتاجُ أنْ يسمعَه أوَّلًا، ثم إنْ عَقِلَهُ؛ استمع له.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/119.

الثَّالث: أنَّ المشرِكَ لا يستمِعُ للقرآنِ بل يسمعُهُ؛ لأنَّ الَّذي يستمعُ له حقَّ الاستماع هو المؤمن المقرُّ به، أو غير المؤمن الذي تكوَّنتْ فيه الجاهزيَّةُ لقبولِه، وكلاهما غيرُ حاصِلٍ في هذا المقام.

الرابع: أنَّ السَّماع أعمُّ من الاستماع، والأعمُّ يتضمَّنُ الأخصَّ، فلا مانع أنْ يكون حاصلًا هنا كذلك.

صيغة ﴿مَأۡمَنَهُۥ﴾ ودلالتها:

تقريرُ مسؤوليَّةِ وليِّ الأمـرِ في تأمينِ المشرك المستجير

﴿مَأۡمَنَهُۥ﴾ مصدرٌ ميميٌّ أو اسم مكان، والمعنى على الأوَّل: أبلِغْهُ موضعَ أمانِه، وعلى الثَّاني: أبلِغْهُ أمانَه[1]، وباعتبار الصِّيغتَين يدلُّ معنى اللَّفظِ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ مسؤولٌ عن تأمينِهِ من الوقتِ الذي يُعطيهِ فيه العهدَ بالإجارةِ إلى الوقتِ الذي يَصِلُ فيه لِمكانهِ آمِنًا، وما بينهما في سفَرِه ورحيلِه.

دلالةُ إضافةِ المأمنِ لضميرِ المشركِ:

بَلَدُ الإجارة أمانُها بالعهدِ الخاصِّ المؤقَّت، والبَلَدُ الأصليَّة أمانُها بالاستحقاقِ الدَّائم

أضافَ المأمنَ لضمير المشركِ إيذانًا بأنَّ المكانَ مكانُ أَمْنِهِ الخاصِّ الَّذي لا يقدر أحدٌ فيه أن ينالَه بسوءٍ كدارِ قومِهِ ونحوِه، وللتَّفريق بين دارِ الإجارةِ التي يكون فيها آمِنًا بالعهد العارض، وداره الأصليَّة التي يكون فيها آمِنًا بالاستحقاقِ الدَّائم[2].

وجهُ جعْلِ سماعِ كلامِ اللهِ غايةً للإجارة:

أغراضُ الدُّنيا يُتوسَّلُ بها لغايةِ إسماعِ كلامِ اللهِ والتَّعريفِ به

جعلُ سماعِ القرآنِ غايةً لإجارةِ المُشرك تسجيلٌ للحجَّة على المشركين؛ إذ جعل تجديدَ الأمانِ لهم ذريعةً لإبلاغهم مع استغناءِ الرَّسول والمؤمنين عنهم وقدرتهم عليهم، وفيه تحريضٌ للمؤمنين أن يؤلِّفوا قلوبَ الكافرين بما يتمكَّنون به من إبلاغِهم الوحي وتعريفهم بهِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أغراضَ الدُّنيا مطلوبةٌ لأجلِ تلك الغاية وهي سماعُ القرآنِ والتَّحقُّقُ به.

(1) السّمين، الدّر المصون: 6/14.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/120.

استئناف التماس العذر للمشركين، وتعليلُ اللُّطف في الإجارة وإسماع القرآن

دلالةُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾، وعِلَّةُ الفصلِ:

قولهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾، استئنافٌ لالتماس العذرِ لهم وهي تعليليَّةٌ لما قبلَها ولذلك فُصِلَتْ، فـ(ذلك) إشارةٌ إلى مضمونِ ما قبلَهُ من اللُّطف والمطاوعة، كأنَّه قال: هذا اللُّطفُ في الإجارة والإسماعِ وتبليغ المأمن بسببِ عَدَمِ عِلمهم، فنَعْذُرُهم[1].

الجهلُ حجابٌ يدعو لاعتذارِ الجاهلِ من جهلِه وإعذار العالِمِ للجاهِلِ لحين تعلُّمِهِ

معنى دخولِ الباءِ على مدخولِ الإشارة ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ للنَّصِّ على السببيَّةِ، أي: ذلك السَّابق من الإجارةِ وتبليغ القرآنِ والمأمن بسببِ أنَّهم قومٌ لا يعلمون، وفائدة النَّصِّ على السببيَّةِ بالباء إعذارُهُم من الله، والتماسُ العذر لهم من النَّاس، إذ الجهلُ حجابٌ يدعو لاعتذارِ الجاهلِ منه وإعذار العالم له حتى يتعلَّم[2].

تأكيدُ جهلِ المشركين، وهو منقولٌ بالوراثَةِ أو بالتَّقليد

دلالةُ إقحامِ لفظِ القوم، في السّياق:

لم يقل: (ذلك بأنَّهم لا يعلمون)؛ لتأكيد أنَّ جهلَهم ضاربٌ في أقوامِهم، فكأنَّهم يتناقلون الجهلَ بينهم إمَّا بالعَدوَى، وإمَّا بالتَّوارث، وهذا أبلغُ في تأكيد عدم عِلمِهم وأدعى لتقريرِ معنى إعذارِهم السَّابق.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(استَجَارَكَ) و(استأمَنَكَ):

المُستجيرُ يطلبُ الأمانَ مع القُربِ من المُجير، والمستأمِنُ لا يَلزمُ جِوَارَه ممَّن يؤمِّنُهُ

﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾ معناهُ: طَلَبَ جِوارَك، من الجِوَار وهو مُجاوَرةُ الشَّيء للشَّيء، وأصلُ التَّركيب يدورُ حولَ المَيْل، ويكأنَّ الجارَ لِتقاربه الشَّديد لجارِهِ يكونُ كلاهُما مائلًا إلى صاحبِه، وتُستعملُ الاستجارةُ كنايةً عن طلَبِ الأمان، للزومِ الأمانِ والسَّكينة عن حالةِ المجاورةِ غالبًا، وحالُ طالبِ الأمان تُشبِه حالَ طالِبِ الجِوار في قصدِ كليهما

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/120.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/665.

لمعنى الأَمْنِ وعدم الخوفِ، إلَّا أنَّ لفظَ (المستأمِن)، وهو طالبُ الأمان، لا يفيد معنى القُربِ والميْل الَّذي يفيدُه لفظ (المُستجير)، فلفظُ المُستجيرِ أمكنُ في دلالتِهِ على طلبِ الأمانِ مع القُربِ من المُجير، وأمَّا (استأمَنَك)؛ فهي مجرَّدةٌ في طلبِ الأَمْنِ سواءٌ بقربٍ ومُجاورة أو من غيرهما، فلفظُ استجارَكَ أخصُّ وأبلغُ من لفظِ استأمنكَ، ولذا عبَّرَ بهِ في الآية(1).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين: (أمن، جور)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جور).

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾ [التّوبة: 7]

مناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُناسبةُ بينَ إجارةِ المُستجيرِ والمُعاهِدِ، والبراءةُ ممّن سبقَ غدرُهُم بالمؤمنين

لمّا كانَتِ العهودُ مُعظَّمَةً عندَ العربِ وغيرِهم، وكانَ قد سبقَ الكلامُ في البراءةِ من عهودِ المُشركين أثارَ ذلك سؤالًا في نفوسِ السّامعينَ من المُسلمينَ وغيرِهم عن سببِها، وكيف أُنهيَتِ العُهودُ، وأُعلنَتِ الحربُ؟! فإنَّ هذا ممّا يُتعجَّبُ منه، فشرعَ في تحقيقِ حقِّيَّةِ ما سبقَ مِنَ البراءةِ وبيانِ سببِها، وأنَّهُ أمران: بُعْدُ ما بينَ العقائدِ، وسبقُ الغدرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَهۡدٌ﴾: العَهدُ: الأمانُ، واليمينُ، والمَوثِقُ، والذِّمّةُ، والحِفاظُ، والوصيّةُ، وقد عَهِدتُ إليه؛ أي: أَوصيتُه. ومنه اشتُقَّ العَهدُ الّذي يُكتَبُ لِلوُلاةِ. وتقولُ: عليَّ عَهْدُ اللّهِ لأفعلَنَّ كذا. وفي الأمرِ عُهْدَةٌ بالضّمِّ؛ أي: لم يُحكَمْ بعدُ[2]. قَالَ الخليلُ: أَصلُهُ الاحتِفاظُ بالشَّيءِ وإِحدَاثُ العَهدِ بِه. والّذي ذَكَرَهُ مِنَ الاحتفاظِ هُو المَعنَى الَّذي يَرجِعُ إِلَيهِ فُرُوعُ البَابِ. فَمِنْ ذَلِكَ قَولُهُم: عَهِدَ الرَّجُلُ يَعهَدُ عَهدًا، وهوَ مِنَ الوَصِيَّةِ... وأَهلُ العَهدِ هُمُ المُعَاهَدُونَ، والمَصدَرُ المُعَاهَدَةُ؛ أَي: إِنَّهُم يُعاهَدُونَ على ما عَليهِم مِن جزيَةٍ، والقِياسُ واحِدٌ، كأَنَّهُ أَمرٌ يُحتَفَظُ بِهِ لَهُم، فإِذَا أَسلَمُوا ذَهَبَ عَنهُمُ اسمُ المُعاهَدَةِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/383، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/121، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/44.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (عهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عهد).

2) ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: يدورُ لفظُ (قوم) على مَعنى جماعةٍ مِنَ النّاسِ، وعلى معنى انتصابِ الشّيءِ إلى أعلى ثابتًا، ومنه: قامَ قيامًا؛ إذا انتصبَ، والإِقَامَةُ في المكانِ: الثّباتُ، وإِقَامَةُ الشّيءِ: توفيةُ حقّهِ وإدامتُهُ، والاستِقَامَةُ يُقالُ في الطّريقِ الّذي يكونُ على خطٍّ مُستوٍ، فالاستقامةُ في الشّيءِ بمعنى الاعتدالِ والاستواءِ فيه، وعدم الحيودِ عن جادّتِهِ، ويكونُ واضحًا بيّنًا، ومعنى (استقامُوا) هنا: لَزِمُوا توفيةَ حقِّ العهدِ، وثبتُوا عليه بُوضوحٍ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الوفاءُ بالعهدِ خُلقٌ يحبّهُ اللهُ، ويرضاه لعبادِهِ المُؤمنينَ

أنّى يكونُ أيُّها المؤمنونَ باللهِ ورسولِهِ لِلمشركينَ بربِّهم عهدٌ وذِمَّةٌ عندَ اللهِ وعندَ رسولِهِ، يُوفّى لَهُم بهِ، ويُتركون من أجلِهِ آمنينَ يَتصرَّفونَ في البلادِ؟ والمعنى: لا عهدَ لَهُم، وأنَّ الواجبَ على المؤمنين قتلُهُم حيثُ وَجدُوهُم، إلَّا الّذين أُعطوا العهدَ عندَ المسجدِ الحرامِ منهُم، فإذا استقامُوا لكُم على العهدِ فاستقيمُوا لَهُم في وفائِهِ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ مَنِ اتَّقاهُ، وامتنعَ عن نقضِ العهودِ والغدرِ بها، لِمَنْ عاهدَهُ، فالوفاءُ بالعهدِ مِن أخلاقِ المُتَّقينَ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

بيانُ أن لا بقاءَ لعهدِ المُشركينَ بعدَ نكثِهِم لِلعهدِ، وانسلاخِهِم منهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ جاءَ الاستفهامُ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ على طريقِ الاستنكارِ والاستبعادِ والتّعجيبِ لأنْ يكونَ لِلمُشركينَ عهدٌ ولا ينكثوهُ؛ لِما هُمْ عليهِ مِنَ الشّركِ، والمعنى على إنكارِ وقوعِ العهدِ ونفيِهِ بالكلّيّةِ لأنْ يكونَ لِلمُشركينَ عهدٌ في جميعِ الأحوالِ؛ لِيُفيدَ استحالةَ أنْ يثبتَ لهؤلاءِ عهدٌ، أو أنْ يكونَ الاستنكارُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/141.

والاستبعادُ لأنْ يَفِيَ اللّه ورسوله بالعهدِ، وهُم قد نَكثُوهُ، وفي الوجهينِ معنى التَّعجُّبِ مِن أنْ يكونَ لهم عهدٌ، أو أنْ يبقى العهدُ بينَهُم وبينَ المُؤمنينَ بعدَ نَكْثِهم العهدَ، وفيه كذلك تعجيبٌ مِن حالِ مَن يدَّعي أنَّ المُشركينَ مع إهدارِهم العهودَ والمواثيقَ ونقضِها يكونُ لهم عهدٌ واجبُ الرِّعايةِ على كلِّ حالٍ، فقد أغربَ مَن هذا حالُه، ودعا إلى التَّعجُّبِ مِن حالِه، وفي الاستفهامِ الإنكاريِّ توبيخٌ لِمَنْ تُحدّثُهُ نفسُهُ بأنْ يُثبِتَ لهم عهدًا؛ لقطعِ الطّمعِ في ذلك[1]، وقيل: هذا الاستِفهَامُ مَعنَاهُ النَّفيُ، ومنه في قِراءَةِ عبد اللّه: (كَيفَ يكونُ لِلمُشرِكينَ عهدٌ عِندَ اللّهِ ولا ذِمَّةٌ)؛ أَي: لَيسَ لِلمُشرِكينَ[2].

دلالةُ ﴿كَيۡفَ﴾ على العُمومِ في سياقِ الآيةِ:

إنكارُ بقاءِ العهدِ لِلمُشرِكينَ يَنتظِمُ جميعَ أحوالِ المؤمنينَ

لمّا كانَ اسمُ الاستفهامِ ﴿كَيۡفَ﴾ لِلسّؤالِ عنِ الحالِ دلَّ على أنَّ الإنكارَ يَنتَظِمُ الأحوالَ كلَّها لعمومِ الاسمِ، ففيهِ مِنَ المُبالَغةِ ما لا يَخفى؛ لإفادتِهِ الإنكارَ على وجودِ عهدٍ مِنَ المُشركينَ عندَ اللّهِ ورسولِهِ في جميعِ الأحوالِ المُستغرِقةِ لجميعِ الأزمنةِ والأمكنةِ إلَّا فيما استُثنِيَ.

دلالةُ ﴿كَيۡفَ﴾ على الحالِ في سياقِ التَّخصيصِ:

عجبٌ مِن المشركين الذين لا وازِعَ لهُم يمنعُهُم مِن نقضِ العهودِ

الأداةُ (كيف) يُسألُ بها عنِ الحالِ، والحالُ قد يكونُ عامًّا، وقد يكونُ خاصًّا، فإنْ أُطلِقَتْ تكونُ عامّةً، وإنْ خُصِّصَت تكونُ خاصّةً، ولكنّها قد لا يُرادُ بها الاستفهامُ، بل يُرادُ بها التَّعجُّبُ، كأنْ يُقالَ لكَ: (كيف سبَّ فلانٌ أباهُ؟!)، هنا تَعَجُّبٌ مِنَ القُبحِ؛ لأنّ مَا حَدَثَ مُستَهجَنٌ، ولا يصحُّ وقوعُهُ ولا يُتصوَّرُ، والتَّعجُّبُ مِنَ القُبحِ يكونُ تعجُّبَ إنكارٍ، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ يقولُ تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ [التّوبة: 7]، وهذا تعجُّبٌ مِن أن يكونَ لِلمُشرِكينَ شيءٌ

---

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1347، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/249، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/531، ورضا، تفسير المنار: 10/164.

(2) البغداديّ، خزانة الأدب: 5/14.

مِنَ العهدِ؛ لأنّ الأصلَ أنّهُ لا عَهدَ لَهُم؛ لأنّهُم لا يَعرفون إلّا نقضَ العَهدِ، ولا يَتمسَّكونَ بالعهودِ ولا يحترمُونَها، لِذلكَ سِيقَ الاستفهامُ عَن ذلكَ لا بغرضِ الاستفهامِ، ولكن بغرضِ التَّعجُّبِ مِن أن يكونَ لهم عهدٌ، بينما هُم في الحقيقةِ لا عهدَ لَهُم ولا ذِمَّةَ(1).

مُناسبةُ توجيهِ الإنكارِ في ﴿كَيۡفَ يَكُونُ﴾:

انتفاءُ وجودِ أيِّ حالٍ يَستحِقُّ أنْ يُراعَى فيه عَهدُ المُشرِكينَ

توجَّهَ الإنكارُ إلى كيفيَّةِ ثبوتِ العهدِ ووقوعِه، دونَ أن يتوجَّهَ إلى ثبوتِ العهدِ، فلمْ يقُلْ: (كيفَ تعاهدونَ المُشرِكينَ)؛ لأنَّ في توجيهِ الإنكارِ إلى كيفيَّةِ ثبوتِ العهدِ مِنَ المبالَغةِ ما ليسَ في توجيهِهِ إلى ثبوتِهِ؛ لأنَّ الحالَ لمّا كانَ مُلازِمًا غيرَ مُفارِقٍ لِكُلِّ مَوجودٍ، فإذا انتَفى جميعُ أحوالِ وجودِهِ فَقَدِ انتفى وجودُهُ على الطّريقِ البُرهانيِّ؛ والمعنى: على أيِّ حالٍ أو في أيِّ حالٍ، يوجدُ لهم عَهدٌ مُعتَدٌّ به ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾، يستحِقُّ أنْ تراعَىُ حقوقُهُ، ويُحافَظَ عليهِ إلى إتمامِ المُدَّةِ، ولا يُتعرَّضَ لَهُم بِحَسَبِه قَتلًا ولا أَخْذًا(2).

الفعلُ ﴿يَكُونُ﴾ بينَ التَّمامِ أو النَّقصِ:

تعظيمُ وفاءِ المُشرِكينَ بعهدِهِم لِلمُؤمنينَ، واحترامُهُم له

يَحتمِلُ الفعلُ أن يكونَ مِنَ الكونِ التّامِّ، بمعنى: إنكارِ وقوعِ العهدِ واستبعادِهِ، ويكونُ اسمُ الاستفهامِ على التّشبيهِ بالحالِ، وتقديرُ الكلامِ: كيفَ يوجدُ عَهدٌ لِلمُشرِكينَ عندَ اللّهِ؟! واستظهرَ السَّمينُ الحلبيُّ وأبو السُّعود هذا الوجهَ؛ لإفادته أنَّ الأصلَ ألّا يوجدَ عَهدٌ لِلمُشرِكينَ عندَ اللهِ وعندَ رسولِه إلَّا الّذينَ عاهدُوا المؤمنينَ واحترمُوا العهودَ(3). وذهَبَ جمهورُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿يَكُونُ﴾ منَ الكونِ النّاقصِ، فيكونُ فِعلًا ناقصًا، واختلفُوا في الخبرِ، ونذكرُهُ لتنوُّعِ المعنى بتنوُّعِ التّوجيهِ، فأكثرُهُم على أنَّ الخبرَ اسمُ الاستفهامِ المُقدَّمِ، والمعنى: إنكارُ أن يكونَ عهدٌ في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4898.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/14، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/44.

لِلمُشرِكينَ عندَ اللّهِ، وأجازُوا أن يكونَ ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ هو الخبرَ، فيكونُ مَحطُّ فائدةِ الخبرِ كونَ العهدِ لِلمُشرِكينَ، أو يكون ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ والمعنى: إنكارُ أن يكونَ عهدٌ عندَ اللّهِ لِلمُشرِكينَ تَعظِيمًا للأمرِ وتَفخِيمًا له[1]. وعلى جميعِ هذه الأوجهِ الإعرابيّةِ يكونُ الإنكارُ على عهدٍ واقعٍ، ولمّا كانَ عهدُ الأمانِ لم يقعْ بعدُ أفادَ التّعبيرُ المبالغةَ في الإنكارِ بتنزيلِ مَا هو بالإمكانِ العُرفيِّ مَنزِلةَ الواقعِ، وعلى كلا الوَجهين؛ فالفعلُ ﴿يَكُونُ﴾ مُستعمَلٌ في مَعنى الدَّوامِ، مثل قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النّساء: 136]؛ بمعنى استمرارِ الإنكارِ على وُقوعِ العَهدِ أو على عَهدٍ وَاقعٍ، إلَّا الّذين عاهدُوا المُؤمنينَ واحترمُوا عهودَهُم.

فائدةُ تقديمِ المُسندِ على المُسندِ إليه:

الإنــكــارُ على عهدِ المُشركينَ النّاكِثينَ، وليسَ على مُطلَقِ العهدِ

أصلُ الكلامِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾: كيفَ يكونُ عهدٌ لِلمُشرِكينَ؟! فقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ؛ للاهتمامِ وللتّخصيصِ، فأمّا وجهُ الاهتمامِ فإنّ الأولى في إنكارِ وقوعِ العهدِ واستبعادِهِ في حالِ كونِهِ لِلمُشرِكينَ النّاكِثين قبلَ غيرِهم؛ لِشركِهِم باللّهِ تعالى، وأمّا وَجهُ التّخصيصِ فهو أنَّ المقصودَ بالإنكارِ هو عهدُ المُشركِينَ لا مُطلقِ العهدِ[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

لا عــهــدَ لِلمُشرِكينَ معَ إضمارِهِم الغدرَ والنَّكثَ

لمّا كانَ المرادُ بالمُشرِكينَ النَّاكِثينَ؛ لأنَّ البراءةَ إنَّما هي في شأنِهم، وكانَ لفظُ (المُشْرِكِينَ) وصفًا مُشتقًّا نبَّهَ على أنَّ عِلَّةَ انتفاءِ العَهدِ بالوَصفِ الَّذي قامَ بِهِم هُو الإشرَاكُ؛ فإنَّ تعليقَ الحُكمِ بالمُشتقِّ يُؤذِنُ بعلّيَّةِ المأخذِ؛ أي: ما منهُ الاشتقاقُ؛ أي: إنّ سببَ الإنكارِ والاستبعادِ والتّعجيبِ مِن أنْ يكونَ لهم عهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/376.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/6.

رسولِه.. هُو ما هُم عليهِ مِن شركِهِم باللّهِ، فهُم أضدادُ المُؤمنينَ، وَغِرَةٌ صدورُهم عليهم، فأفادَ الاسمُ المُشتقُّ وجهَ الإنكارِ والاستبعادِ؛ إشعارًا بأنَّ المُشركينَ يُضمِرونَ الغدرَ لِلمُؤمنينَ؛ لِمَا في صدورِهِم مِنَ الغيظِ والبغضاءِ والحَسدِ لِلمُؤمنينَ بعدَ الحروبِ والعَداواتِ؛ والمعنى: كيفَ يكونُ لِلمُشركينَ عهدٌ، مع إضمارِ الغدرِ والنَّكثِ، بسببِ شركِهِم باللّه ﷻ؟!

سرُّ الوصفِ المُشتقِّ في قولِهِ: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

أقبحُ الأخلاقِ عندَ العربِ وأشنعُها نَكثُ العهدِ

لم يقُلْ: (كيف يكونُ للّذين أشركوا عهدٌ)، بل جاءَ بالوصفِ المُشتقِّ، ونكتتُهُ: الإيذانُ بعراقتِهِم في الشِّركِ، فتوجِبُ عراقتُهُم فيه ومحبَّتُهم لظهورِهِ نَكثَ العهدِ الّذي لا أقبحَ منه عندَ العربِ ولا أشنعَ[1]، ومزاولةُ الشّركِ باعتبارِهِ طبعًا وعادةً تقتضي أن يُصبحَ وصفًا مُشتقًّا، يكون غلّابًا في الطّبعِ، ومُتصرِّفًا في أهواءِ صاحبِهِ وميولِهِ، فتراهُ يَهوي في مَزالِقِ الضّلالةِ، ويتيهُ في مَجاهيلِ العصيانِ، وهو لا ينفكُّ مَزهوًّا بفعلِهِ، مُنتشيًا بنكثِهِ ونقضِهِ، وهو في مَفاسدِهِ تلك، لا يدري أنّهُ ضلَّ سعيُهُ في الحياةِ الدّنيا، وهو يَحسبُ أنَّهُ يُحسِنُ صُنعًا.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿عَهۡدٌ﴾:

الوفاءُ بالعهدِ في الحربِ والسّلمِ، وفي كلِّ حالةٍ واجبٌ لا محالةَ

أفادَ مجيءُ النّكرةِ في سياقِ الاستفهامِ - في قولِهِ تعالى: ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ - العمومَ، بمعنى: إنكارِ وقوعِ أيِّ عهدٍ لِلمُشركينَ عندَ اللّهِ ورسولِهِ، واستبعادِ وقوعِهِ، فلا يختصُّ الأمرُ بالعهدِ في الحروبِ، بل يشملُ كلَّ ما يُطلَقُ عليه عهدٌ، ومع تطوّرِ الحياةِ يحتاجُ الإنسانُ في كلِّ العُصورِ إلى أنواعٍ مِنَ المُعاملاتِ والتَّصرُّفاتِ، يضطرُّ معَها إلى إزجاءِ العُقودِ، وما يَترتَّبُ عليها مِن عُهودٍ هُوَ مُلزَمٌ بها ديانةً؛ لكونِ

---

(1) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/373، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/531، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/375، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/386.

القرآن أوصى بها، وأنّ اللّه في كلامِهِ المُحكَم قد نوّهَ بها، فتبوَّأت مَكانةً خاصّةً، وشنَّعَ على المُشركينَ الّذين لا يَجدُونَ حَرجًا في نَكثِها، والتّهاونِ بحُرمتِها.

دلالةُ ﴿عِندَ﴾ في قوله ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾:

لا عهدَ لِمُشرِكٍ لم يُراعِ عهدَ اللهِ الأزليَّ في الإقرارِ بالوحدانيّةِ

لمّا كانَ الظَّرفُ ﴿عِندَ﴾ - في قولِهِ: ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ - نعتًا للفظ (عَهۡدٌ)؛ دلَّ على أنَّ الإنكارَ إنَّما هو على عهدٍ مخصوصٍ بوصفِهِ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ؛ تعظيمًا لإنكارِ أن يكونَ لِلمُشركينَ النّاكثِينَ مثلُ هذا العهدِ، فالمُشرِكُ باللّهِ لا يكونُ له عهدٌ عندَ اللّهِ الواحدِ الأحدِ، "إذ هُم مِن غايةِ انهماكِهِم في كفرِهِم وضلالِهِم لا يَلتفتونَ إلى اللّهِ ولا إلى رسولِهِ، لذلك لا يُقبلُ منهُم العهدُ والميثاق، بل أمرُهُم؛ إمّا السّيفُ، وإمّا الإسلامُ"[1].

نكتةُ ذكرِ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

دلالـةُ تعظيمِ الاسمِ الجليلِ (اللهِ) الجامِعِ لصفاتِ الكمالِ

عَبَّرَ بالاسمِ الجليلِ في قولِهِ تعالى: ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ للإيذانِ بأنَّه سبحانَهُ المُستَجمِعُ لصفاتِ الكمالِ، فهو لا يُحِبُّ نقضَ عهدِهِ مع أوليائِهِ، فكيفَ بِهِ مع أعدائِهِ[2]، "فليسَ مِنَ المعقولِ أن يُوفي اللّهُ تعالى لَهُم بعهدٍ؛ لأنّ العهودَ تُوجِبُ حقوقًا وواجباتٍ مُتبادلةً، فمَن توقَّعَ عدمَ الوفاءِ وتأكَّدَ له النَّكثُ في العهدِ فليسَ عليه وفاءٌ، وقد نفى اللّهُ بهذا أن يكونَ عندَ المُشركينَ وفاءٌ بعهدِ اللّه"[3]، وقدِ اندرجَ اسمُ الجلالةِ في هذا السّياقِ، فكانَ ذكرُهُ ها هنا.

نكتةُ ذكرِ ﴿رَسُولِهِۦٓ﴾ في سياقِ الآيةِ:

رسولُ اللهِ الخاتَمُ أوفى النّاسِ للعهودِ، وأرعاهُم لِلمَواثيقِ

اقترنَ ذكرُ لفظِ ﴿رَسُولِهِۦٓ﴾ مع ذكرِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ للإيذانِ بكمالِ صفاتِ خُلُقِ رسولِ اللّهِ ﷺ،

---

(1) نعمة الله بن محمود الشّيخ علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/298.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/386.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/386.

وأنَّه أكملُ الخَلقِ وأوفاهُم لِلعهودِ، وأحفَظُهم وأرعاهُم لَها[1]، وأنّه حقيقٌ بأن يُرعَى عهدُهُ، وأنّه لا يَنكثُ عهودَهُ؛ إذْ ما ينكرُهُ رسولُ اللّهِ هو عينُ ما ينكرُهُ اللّهُ. ولمّا كانَ العطفُ على معنى التّشريكِ بينَ المعطوفين والجمع بينهُما.. أفادَ السّياقُ أنّهُ لا عهدَ لِلمُشرِكينَ عندَ اللّهِ، وبالتّالي فإنّه لا عهدَ لَهُم عندَ رسولِه، وأنَّ ما ينكرُهُ الرّسولُ هو ذاتُهُ ما ينكرُهُ مَن أرسلَهُ، وفي هذا تكريمٌ لرسولِه الأبرِّ، وتأكيدٌ على أنّه الضّامنُ لتطبيقِ الأحكام، وأنّ ما يقرُّهُ الرّسولُ أو يرفضُهُ إنّما هو وحيٌ يُوحَى، وأنّ ما أحلّهُ أو حرّمَهُ رسولُ اللّه كالّذي أحلَّهُ أو حرّمَهُ اللّهُ جلَّ في عُلاه.

دلالةُ تكرارِ الظَّرفِ ﴿عِندَ﴾:

لا اعتدادَ عندَ اللهِ ورسولِهِ بعهدِ لمُشركينَ دأبُهُم الخيانةُ والغدرُ

أفادَ تكرارُ الظّرفِ في قولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ تقريرَ إنكارِ أن يكونَ لِلمُشرِكينَ عهدٌ عندَ اللّهِ، ولا عندَ رسولِه؛ للإيذانِ بعدمِ الاعتدادِ بهِ عندَ كُلٍّ منهُما على حِدَةٍ؛ مُبالَغةً في الإنكارِ والاستبعادِ[2]، "وهو إنكارٌ للوقوعِ لا لِلواقعِ؛ أي: تحذيرٌ لِلمُؤمنينَ من أن يقعَ منهُم ذلكَ في المُستقبَل، والمُرادُ بالمُشرِكينَ أولئكَ الّذينَ نقضُوا عهودَهُم؛ لأنّ البراءةَ إنّما هي في شأنِهم، وتكريرُ كلمةِ (عِندَ) للإيذانِ بعدمِ الاعتدادِ بعهودِهِم عندَ كلٍّ مِنَ اللّهِ تعالى ورسولِه ﷺ على حِدَةٍ"[3].

توجيهُ آيةِ نبذِ المُؤمنينَ عهدَ المُشركينَ:

مَن أوفى بعهدِهِ فازَ، ومَن نكثَ العهدَ فلا مَفازَ

هذا الاستفهامُ الإنكاريُّ بقولِه: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ وهو نفيٌ مفهومٌ مِنَ الاستفهامِ المُتبادَرِ شمولُهُ لجميعِ المعاهَدِينَ مِنَ المُشرِكينَ النّابذِينَ لِعهودِهِم، باستثناءِ مَنِ استثناهُمُ النَّصُّ، ممّنِ التزمُوا بالعهدِ، لا يُناقضُ روحَ الإسلامِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/386.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/213.

وأحكامَهُ في تعظيمِ شأنِ العهودِ وأحكامِها؛ لقولِهِ تعالى في وصفِ المؤمنين: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة: 177]، وقولِهِ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، وأنّ هذا لا علاقةَ له بنسخِ ذاك، وليسَ هذا بمُلغٍ لذلك، وقد راعى التّشريعُ الحكيمُ مُقتضى الحالِ في مُراعاةِ المُعاملاتِ بينَ المؤمنينَ ومُخالِفيهم، فقالَ في نتائجِ الحُكم: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾؛ بمعنى: "فاستقيموا لهم مدّةَ استقامتِهم لَكُم"[1]، وهو حالٌ يَقتضي مِنَ الطّرفِ المُؤمنِ أن يلبسَ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها، وأن يُراعيَ حالَ مَنِ التزمَ بعهدِهِ إلى مُدّتِهِ، ويتعاملَ بحزمٍ مع مَن نبذَ العهدَ، ولم يلتزِمْ بالمَواثيق.

براعةُ الاستدراكِ بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾:

التّنويهُ بنخوةِ بعضِ المُشركينَ في الوفاءِ بالعهودِ رَغْمَ شركِهِم

لمّا كانَ الإنكارُ على معنى نفيِ عمومِ وقوعِ العهدِ للمُشرِكينَ يقتضي فيه ظاهرُ الكلامِ أن يكونَ المستثنى هو العهدَ؛ بأنْ يُقالَ: (إلَّا عهدَ الّذين عاهدتُم)، فلمّا قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ بطريقِ الاستدراكِ، بمعنى: (لكنّ الّذين عاهدتُم)، فنوَّهَ بذواتِهم مُبالَغةً في جميلِ وفائِهم بما عاهدُوا عليه، أو يُقال: لمّا كانَ نفيُ عمومِ العهدِ لِلمُشرِكينَ يقتضي شمولَ جميعِ المُعاهَدينَ كانَ الاستثناءُ مِنَ المُعاهَدينَ، وليسَ من عمومِ العهدِ، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾، فيكون الاستثناءُ متّصلًا، فالاستثناءُ هنا بينَ الانقطاعِ والاتّصالِ، وكلٌّ لهُ وجهٌ في المعنى[2].

مناسبةُ الموصولِ وصلتِهِ في ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾:

رعايةُ ذمّةِ المُوفينَ بعهدِهِم مراعاةٌ للقيمِ الإنسانيّةِ العامّةِ

عُبِّرَ بالموصولِ وصلتِهِ بذكرِ المُعاهَدينَ عندَ المسجدِ الحرام في قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾؛ لِزيادةِ بيانِ

(1) أبو السّعود إرشاد العقل السّليم: 6/213.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/249، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/72، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/376، وابن عادل، اللّباب: 10/22.

أصحابِها بجملةِ الصِّلةِ المعلومَةِ الانتساب إلى ناسٍ مُعيَّنين، ولِلإشعارِ بأنَّ تأكيدَ الوفاءِ بهذا العهدِ لِما صاحَبَهُ مِن حالِ كونِه عندَ المسجدِ الحرام، وعنِ ابن عبّاسٍ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾؛ يعني: أهلَ مكّةَ.

دلالةُ مجيءِ الحالِ ﴿عِندَ﴾:

تعظيمُ المُعاهدةِ عندَ المَسجدِ الحرامِ مُراعاةٌ لشرفِ المكانِ وهيبتِهِ

لمّا كانَ ﴿عِندَ﴾ حالًا مِن فاعل ﴿عَٰهَدتُّمۡ﴾، وكانَ قد أنكرَ أن يكونَ لِلمُشركينَ عهدٌ في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.. دلَّ على تعظيمِ المُعاهدةِ في حالِ كونِها عندَ المسجدِ الحرام، وأنَّ سببَ توكيدِها هو كونُها كانَت في الحالِ المذكورةِ، ممّا يقتضي تأكيدَ الوفاءِ بذلك العهدِ بشروطِه[1].

دلالةُ التركيب الوصفي في ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾:

المعاهدةُ عندَ المسجدِ الحرامِ أوثقُ وأعظمُ حُرمةً

ذَكَرَ الموصوفَ والصّفةَ إيذانًا بأنَّ العهدَ عندَهُ أبعدُ عن مَظنَّةِ النَّكثِ؛ لِما تدُلُّ عليهِ الصّفةُ من مَعنى الحُرمةِ والتّعظيم؛ لأنَّ المعاهدةَ عندَهُ أوقعُ في نفوسِ المُشركينَ مِنَ الحِلفِ المُجرَّدِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ [التّوبة: 12]، ففيه حثٌّ وترغيبٌ لِلمُؤمنينَ في الوفاءِ بهذا العهدِ الّذي جرى قُربَ المَسجدِ الحرام، وليسَ المُرادُ كلَّ مَنْ عاهدَ عندَ المَسجدِ الحرام، كما قد يَتوهَّمُهُ المُتوهِّمُ؛ لأنَّ النّبيَّ ﷺ لم يكُنْ مَأذونًا بأن يُعاهِدَ فريقًا آخرَ مِنهم[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾:

العهدُ مُوجِبٌ للاستقامةِ عليه مِنَ الطّرفين

تفيدُ الفاءُ هنا التّفريعَ، وابتناءَ ما بعدَها على ما قبلَها؛ بمعنى: أنَّ سببَ الأمرِ بالاستقامةِ لهم مدّةَ استقامتِهم لكُم هو ما كانَ مِنَ العهدِ بينَكُم وبينَهُم عندَ المسجدِ الحرامِ؛ أي: فتربَّصُوا أمرَهُم ولا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45، ورضا، تفسير المنار: 10/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/122.

تُقاتلُوهُم، فما استقامُوا لكُم على العهدِ فاستقيمُوا لَهُم على مثلِه[1]، وهؤلاءِ هُم "قبائلُ بني بكرٍ وبني ضَمرَةَ الّذين لم ينقضُوا عهودَهُم المعقودةَ معَهُم يومَ الحديبيّةِ، فهؤلاءِ حُكمُهُم أنّهم ما استقامُوا لكم فاستقيمُوا لَهم؛ أي: حافظُوا على عهدِهم ما دامُوا مُحافِظينَ عليه، قائِمينَ على الوفاءِ بهِ"[2].

(ما) بينَ المصدريَّةِ والشَّرطيَّةِ في ﴿فَمَا﴾[3]:

المـؤمـنـون لا يـخـونـونَ عـهـودَهُـم، ولا يُـبـادِرونَ إلى نقضِها

تحتملُ (مَا) في قولِه: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ﴾ أن تكونَ مَصدريّةً ظرفيّةً، وأنْ تكونَ شرطيَّةً[4]، فإذا كانَت مصدريَّةً فالكلامُ بتقديرِ: فاستقيمُوا لَهُم على العهدِ مدّةَ استقامتِهم لَكُم، والغرضُ مِن مَجيءِ (مَا) المصدريّةِ الظّرفيّةِ التّصريحُ بتأقيتِ الاستقامةِ على العهدِ إلى مُدَّةٍ مُعيَّنةٍ، وفائدةُ تقديم (مَا) هنا - فلم يقُلْ: (فاستقيمُوا لَهُم ما استقامُوا لَكُم) - الإشعارُ بأنَّ الأمرَ بالاستقامةِ لهم مُرتَبِطٌ برؤيتِكُم لاستقامتِهم لَكُم، وعلمِكُم بها؛ للإيذانِ بأنَّ المُشركينَ قد يَخونونَ العهدَ، وأنَّ المؤمنينَ لا يَخونونَ ولا يَلتوونَ في عهودِهم، وإنْ كانَت (مَا) شرطيّةً فالتّقديرُ: أيُّ زمانٍ استقامُوا لَكُم فيه على العهدِ فاستقيمُوا لَهُم فيه، وأيًّا ما كانَ فحكمُ الأمرِ بالاستقامةِ ينتهي بانتهاءِ مُدّةِ العهدِ؛ لأنّ استقامتَهُم، الّتي وُقِّتَ بوقتِها الاستقامةُ المأمورُ بها عبارةٌ عن مُراعاةِ حقوقِ العهدِ، وبعدَ انقضاءِ مُدّتِه لا عهد ولا استقامة، فصارَ عينَ الأمرِ الواردِ فيما سَلَفَ، حيثُ قالَ تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾ [التّوبة: 4]، خلا أنَّه قد صرَّحَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/249، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72.
(2) الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 1/834.
(3) تكون (ما) شرطيّةً زمانيّةً، كقولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾؛ قالَ ابنُ فارس: "(ما) إذا كانَت شرطًا وجزاءً، فكقولِ المُتكلّم: ما تفعل أفعل، قالَ علماؤُنا: مَوضِعُها منَ الإعرابِ حسب العاملِ، فإن كان الشّرطُ فعلًا لا يتعدّى إلى مَفعولٍ فمَوضِعُ (ما) رفعٌ، يقولُ البصريّونَ: هو رفعٌ بالابتداءِ، ويكونُ رفعًا عندنا بالغايةِ، وإن كانَ الفعلُ مُتعدّيًا كانت (ما) مَنصوبةً، وإنْ دخلَ عليهِ حرفُ خفضٍ أو أُضيفَ إليه اسمٌ، فهو في مَوضِعِ خفضٍ". يُنظر: الزَّبيديّ، تاج العروس: 40/497.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

ههنا بتقييدِ المُدّةِ، وأطلقَ في الآيةِ، مع كونِه مُعتبرًا قَطعًا؛ أي: تقييدُ الإتمامِ المأمورِ بِهِ ببقائِهِم على ما كانُوا عليهِ مِنَ الوفاءِ، فأشعرَ الكلامُ على الوجهينِ أنَّ استقامةَ المُسلِمينَ لِلعهدِ مُرتَبِطةٌ باستقامةِ المُشرِكينَ لِعهدِهِم ووفائِهم لهُ. ولابدَّ مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ (مَا) هنا لا تَكونُ نافِيةً؛ لأنَّ المَعنَى: يَفسُدُ؛ إذ يَصِيرُ المَعنَى استَقِيمُوا لهُم؛ لأَنَّهُم لَم يَستَقِيمُوا لَكُم[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في أمرِ الاستقامة:

الاستقامةُ في العهود بمعنى عدمِ الانحرافِ عنها أو الميلِ فيها

في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ و﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ﴾ شبَّهَ الثَّباتَ على العهدِ، ولزومَ توفيةِ حقِّهِ بلزومِ الطّريقِ المُستقيمِ الّذي لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ، فشبَّهَ المعنويَّ بالحسّيِّ؛ للإيضاحِ والبيانِ في الدَّعوى على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ[2]؛ لتأكيدِ عدمِ الحيودِ عن جادَّتِها أو الميلِ فيها إلى رغبةٍ أو حاجةٍ.

سرُّ استعمالِ اللامِ في ﴿لَكُمۡ﴾:

حروفُ المعاني بينَ القربِ والبُعدِ تجلّي دقّةَ اختيارِ الحرفِ

وردَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ﴾، وهو استقامةٌ للأمرِ، ويعني: أنّه كانَ قريبًا منه، أمّا قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦﴾ [فُصّلت: 6] فيعني: أنّهم كانوا بَعيدِينَ مِنَ اللّهِ، وهو يدعوهُم للاقترابِ منهُ، ومَن أشركَ حَبطَ عملُهُ، وبَعُدَ عنِ اللّهِ، وهو تعالى أغنى الأغنياءِ عنِ الشّركِ، ولذلك كانَ مَلمَحُ القُربِ مَتبوعًا بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وكانَ مَلمَحُ البعدِ مَتبوعًا بقولِهِ: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فاستعمالُ اللّامِ هاهنا أولى وآثرُ في بيانِ السّياقِ.

دلالةُ شبه الجملة في ﴿لَكُمۡ﴾ و﴿لَهُمۡۚ﴾:

التَّقييدُ بالجارِّ والمجرورِ للتَّخصيصِ؛ للإشعارِ بأنَّ الاستقامة

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/636، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/376، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

مُخصَّصةٌ بما قُيِّدَت بِه، وأنَّها ليسَت مُطلَقةً مُستمِرَّةً، وقولُه: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾؛ "أي: فما دامُوا مُستَقِيمِينَ على عهدِهِم، مُراعِينَ لِحقوقِكُم فاستقيمُوا لَهُم على عهدِهِم"(1).

المعاملةُ معَ المُشركِينَ على سبيلِ مُقابلةِ العهدِ بالوفاءِ بِه

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ﴾:

الحثُّ على الاستقامةِ في المُعاملةِ مُطلَقًا، وليسَ في العهودِ فقط

لَمّا كانَ تقديرُ الكلامِ: فمَا استقامُوا لَكُم على العهدِ، أو على الوفاءِ بالعهدِ، فاستقيمُوا لَهُم(2) دلَّ على أنَّ المُتعلَّقَ حُذِفَ للإيجازِ، وفائدتُه حثُّهُم على الاستقامةِ مُطلَقًا؛ أي: في كلِّ عملٍ يَقتضي الاستقامةَ، وليسَ على العهدِ فقط.

بديعُ المقابلةِ في قولِه: ﴿لَكُمۡ﴾ و﴿لَهُمۡۚ﴾:

استقامةُ المُؤمنِينَ لِمَن استقامَ لهم حصرًا

أفادَ مجيءُ الجارِّ والمجرورِ على سبيلِ المقابلةِ تأكيدَ أنَّ استقامتَكُم لَهُم مُرتبطةٌ باستقامتِهِم لَكُم، مع وضوحِ استقامتِهِم لَكُم وتأكُّدِها، وأنَّهم إنِ استقامُوا لَكُم فاستقامتُكُم تكونُ لهؤلاءِ الّذين استقامُوا لَكُم حصرًا؛ حذرًا مِن خداعِ المُشركِينَ وغدرِهِم.

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ﴾:

تربُّصُ المؤمنِينَ بالمُشركِينَ المُعاهَدِينَ لمعرفةِ ثباتِهِم على العهدِ

تفيدُ الفاءُ التّرتيبَ والتّعقيبَ؛ بمعنى: ترتّب استقامتكم لَهُم على استقامتِهِم لَكُم، وأن تكونَ عقبَها، على معنى الاقترانِ بالتَّعاقُبِ؛ لِما تفيدُهُ الفاءُ هنا مِن أنّ ما بعدَها على مَعنى جوابِ الشّرطِ، سواء أكانَت (مَا) مَصدريَّةً أم شرطيَّةً؛ والمعنى: فتَرَبَّصُوا أمرَهُم، فإنِ استقامُوا على العهدِ فاستقيمُوا على الوفاءِ؛ أي: إنَّ استقامةَ المُؤمنِينَ مُتعلِّقةٌ باستقامةِ المُشرِكِينَ على العهدِ(3)، والفاءُ الواقعةُ في قولِه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ فاءُ جوابِ الشّرطِ، وأصلُ ذلك: أنّ الظَّرفَ والمَجرورَ إذا قُدِّمَ على مُتعلَّقِهِ قد يُشرَبُ معنى الشّرطِ، فتَدخُلُ الفاءُ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/357.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/531، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/78.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72.

في جوابِهِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطفّفين: 26]؛ لِوجوبِ جَعلِ الفاءِ غيرَ تَفريعيَّةٍ؛ لأنّهُ قد سَبَقَها العطفُ بالواو، وقَولُ النّبيِّ ﷺ: (كَمَا تكونُوا يُولَّ عَليكُم)، بِجزم الفِعلَين، وقَولُهُ لِمَن سألَهُ أن يُجاهِدَ، وسَألَهُ الرّسولُ: (أَلَكَ أَبَوانِ؟)، قالَ: نَعمْ، قالَ: (ففيهِما فَجاهِد). والاستقامةُ: حقيقتُها عَدمُ الاعوجاجِ، وهي دلالةٌ على حُسنِ المُعاملةِ وتَركِ القِتالِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾:

الاستقامةُ على الوفاءِ مَشروطٌ بالاستقامةِ على العهدِ

للإشعارِ أنَّ الاستقامةَ الثّانيةَ غيرُ الأولى؛ والمعنى: فما استقامُوا على العهدِ فاستَقيمُوا على الوفاءِ[2]، وقدِ استقامَ المُسلمونَ على الوفاءِ، ولكنّ المُشركينَ لم يَستقيموا، بل نكصُوا على أعقابِهِم، "ونقضُوا العهدَ، وأعانُوا بني بكرٍ على خُزاعةَ، فَضربَ لهم رسولُ اللّهِ ﷺ بعدَ الفتحِ بأربعةِ أشهرٍ يختارونَ مِن أمرِهِم؛ إمّا أن يُسلِموا، وإمّا أن يَلحقوا بأيِّ بلادٍ شاؤوا، فأسلَمُوا قبلَ الأربعةِ أشهرٍ"[3].

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

مَراتِبُ التَّقوى تتفاوتُ بالأولويَّةِ على مُقتَضى المَقامِ

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مَضمونِ الجملةِ؛ لتقريرِ المعنى في نفوسِ المُخاطَبينَ، كما أنّها قامَت مَقامَ تعليلِ الأمرِ بالاستقامةِ، وتقريرِهِ بطريقِ الإيجازِ، فكأنَّ الأمرَ بالاستقامةِ أمرٌ بالتّقوى؛ لدخولِ الاستقامةِ في التّقوى دخولًا أوَّليًّا في هذا المقامِ؛ لأنَّ التّقوى تعمُّ الوفاءَ وغيرَهُ من أداءِ الواجباتِ والاجتنابِ عنِ المناهي، فَأنبأَ التّعليلُ أنَّ الاستقامةَ مِنَ التَّقوى، وإلّا لم تكُنْ مُناسبةً للإخبارِ بأنّ اللّهَ يُحبُّ المتَّقينَ عَقِبَ الأمرِ بالاستقامةِ لهم، ولأنَّ في الاستقامةِ لَهُم حِفظًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/123.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72.

(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/14.

لِلعهدِ الّذي هُوَ مِن قَبيلِ اليَمينِ[1]، وأشعرَ الكلامُ أنَّ مَراتِبَ التّقوى تتفاوتُ بالأولويَّةِ على حسبِ المَقام.

بلاغةُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

لَمّا جاءَت جملةُ التّذييلِ بعدَ الإنكارِ على أن يكونَ لِلمُشركينَ عَهدٌ عندَ اللهِ وعندَ رسولِه، وبعدَ أمرِ المُؤمنينَ بالاستقامةِ لِمَن استقامَ لَهُم في عهدِه.. دلَّ على أنّها تضمَّنَت مَعنيين؛ أحدُهما: إفادةُ أنَّ التَّربُّصَ بالمُشركينَ وقطعَ الطّمعِ في معاهدتِهم مِن أعمالِ المتَّقين[2].

الثّاني: أنَّ الوفاءَ بالعهدِ، والقيامَ بموجَبِه، والاستقامةَ عليه مِن صفاتِ المتَّقين، فلذلكَ جاءَ بلفظٍ مُستغرِقٍ الوفاءَ بالعهدِ، مُتضمِّنٍ الإيمانَ؛ ليفيدَ أنَّ مَن اتَّقى اللّه يُوَفِّي بعهدِه لِمَن عاهدَ[3].

مِن صفاتِ المتَّقينَ الحذرُ مِنَ المُشركينَ، والوفاءُ للمُوفينَ

فائدةُ مَجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

أفادَ مجيءُ جملةِ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ - في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ - خبرًا تقويةَ الحُكمِ وتقريرَهُ دونَ تخصيصِه؛ بمعنى تحقيقِ حبِّ اللهِ للمُتَّقينَ وتأكيدِه؛ إظهارًا لِشرفِ التّقوى وأهميَّتِها في هذا المَقامِ، وليسَ المرادُ تخصيصَ حبِّ اللهِ لِلمُتَّقينَ دونَ المُحسنينَ أو المُؤمنينَ مَثلًا، فليسَ المَقامُ مَقامَ إحسانٍ ولا إظهارٍ لإيمانٍ[4]، كما أنّ قولَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ "تعليلٌ لِلأمرِ بالاستقامةِ، وإشعارٌ بأنّ القيامَ بمُوجَبِ العَهدِ مِن أحكامِ التَّقوى"[5].

مقامُ إظهارِ التّقوى غيرُ مَقامِ إظهارِ الإحسانِ أو الإيمانِ

الدلالة السياقية للمضارعِ ﴿يُحِبُّ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿يُحِبُّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 2/24/ - 3/72، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/123.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/249.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/531، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

(4) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

للإشعارِ بأنَّ الّذين يَستقيمونَ على العهدِ، ويُوفونَ بهِ يحبُّهُم اللّهُ؛ لأنّهم صاروا بفعلِهم هذا مِنَ المتّقينَ، والتّقوى هي السّببُ المُفضي إلى محبّةِ اللّهِ، وعلى قدرِ التّقوى يكونُ الارتقاءُ في مَقاماتِ المحبّةِ، وهي مَلمَحٌ لنيلِ مَرضاةِ اللّهِ والأنسِ به، وتقديرِه حقَّ قدرِه، وكلُّ ما أمَرَ بهِ مِنَ الأمرِ بالطّاعاتِ، والنّهيِ عنِ المَعاصي هو سبيلٌ لِلمحبّةِ وتَجلٍّ للتّقوى الّتي هي جِماعُ الأمرِ كلّه، وبها تكونُ النّجاةُ في الدّنيا، والتّرقياتُ في الآخرةِ. وقد أفادَ التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ استمرارَ حبِّ اللّهِ لِلمُتّقينَ، ويدخل فيهم دخولًا أوّليًّا، وهُمُ الّذين يَستقيمونَ على الوفاءِ بعهودِهم، كما يفيدُ أنَّ آثارَ حبِّهِ تعالى لهم تتجدَّدُ وقتًا فَوَقتًا.

الوفاءُ بالعهدِ مِـن أعـمـالِ المـتّـقينَ الّـذيـن يـحـبُّـهُـم الـلـهُ تعالى

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العهد والميثاق:

الميثاقُ: توكيدُ العهدِ، مِن قولِكَ: أوثقتُ الشّيءَ؛ إذا أحكمتَ شدَّهُ، وقالَ بعضُهُم: العهدُ يكونُ حالًا مِنَ المُتعاهِدينَ، والميثاقُ يكونُ مِن أحدِهِم[1]، قالَ ابنُ حومد: "والميثاقُ هو العهدُ الشَّديدُ المؤكَّدُ"[2]، وبينَ العهدِ والميثاقِ من حيث اللّغة فروقٌ، منها: "أنّ العهدَ إلزامٌ والتزامٌ، سواء كانت فيه يمينٌ أو لم تكنْ، نحو: (عهدُ اللّهِ لأفعلنَّ)، و(عَليَّ عهدُ اللّهِ)، فهو مُلتزِمٌ بهذا العهدِ، والميثاقُ هو العهدُ المؤكَّدُ باليَمينِ"[3]، والميثاقُ مُركَّبٌ مِنَ العهدِ واليمينِ معًا[4]، والظّاهرُ: أنّ العهدَ والميثاقَ مُترادفانِ لا فرقَ بينَهُما من حيث المعنى، ولكنّ العهدَ أعمُّ مِنَ الميثاقِ في مَعناه، والميثاقُ داخلٌ في العهدِ، ولكنّهُ مُؤكَّدٌ باليمينِ، ويجبُ الوفاءُ به، وكذلك العهدُ الواجِبُ، وهو ما أوصاهُ المُعاهِدُ به، وأخذَ عليه المَوثقَ"[5].

الـمـيـثـاقُ عـهـدٌ شـديـدٌ مُـوثَّـقٌ بـالـيـمـيـنِ، والـعـهـدُ إلـزامٌ والتزامٌ باليَمينِ وبدونِهِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 4/45.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 1/90.
(3) مجلّة البحوث الإسلاميّة، إدارة البحوث العلميّة والإفتاء، السّعوديّة: 3/396.
(4) القرافيّ، أنوار البروق: 3/37.
(5) هود أبو راس، الخطاب القرآنيّ لأهل الكتاب وموقفهم منه قديمًا وحديثًا، ص: 278.

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾

[التّوبة: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ كونِهِ لا عهدَ لِلمُشركينَ بما في صدورِهِم مِن ضغينةٍ وحقدٍ على المؤمنين

لَمّا أنكرَ سبحانَهُ أن يكونَ لِلمُشركينَ غيرِ المُستَثنَينَ عهدٌ واستبعدَهُ أكّدَ الإنكارَ والاستبعادَ تمهيدًا لبيانِ العلَّةِ المُوجبةِ للإنكارِ، بالإخبارِ عَن دخائلِهِم وما يبطنونَهُ[1]، فهُم "يخدعونَكُم بكلامِهِم المَعسولِ، وقلوبُهُم مُنطويَةٌ على كراهيتِكُم، وأكثرُهُم خارجونَ عن الحقِّ ناقضونَ لِلعهدِ"[2]، لا يَرقُبونَ في المؤمنينَ إلًّا يُراعى، ولا ذِمَّةً تُحفَظُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَظۡهَرُواْ﴾: الظَّهرُ: الجارحَةُ، وجمعُهُ: ظُهُورٌ، ويُستعارُ الظّهرُ لِمَن يُتقوَّى بِه، وظَهَرَ الشّيءُ أصلُهُ: أن يَحصُلَ شيءٌ على ظَهرِ الأرضِ، فَلا يَخفَى، ثمّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ بعدَ خَفاءٍ مُبصَرٍ بالبصرِ والبَصيرَةِ. ومنهُ: الظّهورُ بمعنى الظّفَرِ بالشّيءِ؛ لِبُروزِهِ. وظَهَرَ عليهِ: غَلَبَهُ. وظاهرَهُ: عاونَه. وظهرتُ على فُلانٍ: عَلَوْتُهُ وغلبتُهُ. وظهرتُ على السَّطحِ إذا صرتَ فوقَهُ. و﴿يَظۡهَرُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: يغلبُوكم أو يَظفَروا بكُم[3].

2) ﴿يَرۡقُبُواْ﴾: يدورُ معنى رَقَبَ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شيءٍ، ومِن ذلكَ الرّقيبُ، وهو الحافِظُ، ورَقَبَ الشّيءَ يرقُبُه: انتظرَهُ ورَصَدَهُ،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، ونظم الدّرر: 8/384، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 259.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظهر)، وابن جرير، جامع البيان: 14/145، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/219.

وحرسَهُ وحفظَهُ، وهوَ مِن لازمِ العلوِّ والإشرافِ على الأماكنِ؛ لأنّ المُشرِفَ مُطَّلِعٌ على ما دونَهُ، ثمّ إنّهم كانُوا يَفعلون ذلك؛ أي: يَصعدُونَ على الأماكنِ المُرتفعةِ للاطّلاعِ، ويُسمُّونَها مَراقبَ. ورقبَ الإنسانَ يرقبُهُ هو أن ينتظرَهُ، ثمّ قِيلَ لكلِّ مَن حافظَ على شيءٍ وراعاهُ: راقبَهُ وارتقبَهُ، و﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: لا يَحفَظُوا ولا يُرَاعُوا[1].

3) ﴿إِلًّا﴾: الإلُّ: كلُّ حالةٍ ظاهرةٍ مِن عهدٍ أو حِلفٍ لا يُمكنُ إنكارُهُ، وأصلُهُ مِنَ اللَّمَعَانِ، فأُطلِقَ الإلُّ على الحِلفِ والعَهدِ؛ لأنَّ المُتحالِفينَ يُظهِرون حلفَهم ويُشيعونَهُ، فلا يُمكنُ إنكارُهُ، فهو بمَنزلةِ اللَّمَعَانِ في الظُّهورِ وعدمِ الخفاءِ، كما أطلقَ الإلَّ على القَرابةِ وعلى الجارِ؛ لِتنزيلِهما مَنزلةَ العهدِ في رعايتِهما والقيامِ بحقوقِهما، وذَهَبَ بعضُ اللُّغويّينَ إلى أنَّ حقيقةَ الإلِّ - على ما تُوجِبُهُ اللُّغةُ - تحديدُ الشَّيءِ، فَمِن ذَلكَ الأَلَّةُ الحَربةُ لأنّها مُحَدَّدَةٌ، فالإلُّ يَخرُجُ في جَميعِ ما فُسِّرَ مِنَ العَهدِ والقَرابَةِ والجوارِ على هذا، إذا قُلتَ في العَهدِ: بَينَهُما الإلُّ، فتأْويلُهُ أَنّهما قَد حَدَّدَا في أَخذِ العَهدِ، وإذا قُلتَ في الجِوَارِ: بينَهُما إلٌّ، فتأْويلُهُ جِوَارٌ يُحَادُّ الإنسانَ، وإذا قُلتَهُ في القَرابَةِ فتأْويلُهُ القَرابَةُ الّتي تُحادُّ الإنسانَ، وتفسيرُ الإلِّ بأنَّهُ مِن أسماءِ اللّهِ غيرُ صحيحٍ، كما صرَّحَ بِهِ الرَّاغبُ وغيرُهُ، و﴿إِلًّا﴾ هنا: بمعنى: العهدِ[2].

4) ﴿ذِمَّةً﴾: الذِّمَّةُ: كلُّ ما يَجبُ في المروءةِ أن يُحفظَ ويُحمَى مِنَ الأواصرِ؛ مِن صُحبةٍ وخُلُقٍ، وحُرمةٍ وخلَّةٍ، وجوارٍ وحِلفٍ، وأمانٍ وضمانٍ، فأُطلقَتِ الذِّمَّةُ على كلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ؛ لأنّهُ يكونُ عَقدًا في الضّميرِ، ومِن ذَلِكَ أهلُ الذِّمَّةِ؛ أي: أهلُ العهدِ والأمانِ، ويُقالُ: في ذمَّتي كذا؛ أي: ألتزمُ بهِ وأحفظُهُ، والذِّمَامُ: ما يُذَمُّ الرّجلُ على إضاعتِهِ ممّا يجبُ الالتزامُ بِهِ وحفظُهُ ومُراعاتُهُ[3].

5) ﴿وَتَأۡبَىٰ﴾: الإباءُ: "مَصدرُ قولِكَ: أبى يَأبى بالفتحِ فيهما، مع خُلوِّهِ مِن حروفِ الحلقِ، وهو شاذٌّ؛ أي: امتنعَ، فهو (آبٍ) و(أبِيٌّ) و(أَبيانٌ) بفتحِ الباءِ، و(تأبّى) عليه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رقب)، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/319، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ألل).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذمم)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

امتنعَ، وقولُهُم في تحيّةِ المُلوكِ في الجاهليّةِ: أبيتَ اللّعنَ؛ أي: أبيتَ أن تأتيَ مِنَ الأمورِ مَا تُلعَنُ عَليهِ"[1]، ويدورُ معنى كلمةِ (أبى) على الامتناعِ عنِ الشَّيءِ امتناعًا تامًّا كراهةً له، أو إحساسًا بالاستغناءِ عنهُ، وعدمِ الحاجةِ إليهِ، وأبى القلبُ: اشتدَّ امتناعُهُ، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ مِن غيرِ عكسٍ، والإباءُ: أن تعرضَ شيئًا مَطلوبًا، فيأبَى الّذي عُرِضَ عليه الشَّيءُ قبولَهُ، وتأبى قلوبُهُم؛ بمعنى: اشتدَّ امتناعُها عن الإذعانِ لمَا يبدو بألسنتِهِم كُرهًا لهُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليِّ:

كيفَ يكونُ لهؤلاءِ المُشركينَ الّذينَ نقضُوا عهدَهُم، أو لمَنْ لا عهدَ له منهُم منكُم، عهدٌ وذِمَّةٌ؟ وهُم إنْ يغلبُوكُم أو يشعروا بالقوَّةِ عليكُم، لا يَحفظُوا فيكم عَهدًا ولا حُرمةً، يرضونَكُم بألسنتِهِم بالكلامِ الحلوِ، بأنَّهم يُوفونَ العهدَ ويَحفظونَهُ، ولكنَّ قلوبَهُم تأبَى الوفاءَ بما يَقولونَ، وتصديقَ ما يُبدونَهُ لكُم بألسنتِهِم، وأكثرُهُم مُتمرِّدونَ ناقضونَ للعهدِ[3].

ما تَـنـطِـقُ بـهِ ألسنةُ الغادرينَ مِـن ودادٍ، غيرُ ما تنطوي عليهِ صـدورُهُـم مِـن أحقادٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ تكرارِ اسمِ الاستفهامِ ﴿كَيۡفَ﴾:

في مَجيءِ اسمِ الاستفهامِ ﴿كَيۡفَ﴾ - في قولِهِ: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ - تَكرارٌ لاستبعادِ ثباتِ المُشركينَ على العهدِ، والسِّرُّ في إعادةِ اسمِ الاستفهامِ لهُ وجهانِ؛ أحدُهُما: أنَّه لمَّا ذكرَهُ أوّلًا لاستبعادِ ثباتِ عهدِهِم عندَ اللّهِ، ولم يذكرْ إذ ذاكَ سببَ البعدِ؛ لاقتضاءِ المقامِ ذِكرَ الغايةِ باستثناءِ الباقينَ على العهدِ، وطالَ الكلامُ.. أُعيدَت ﴿كَيۡفَ﴾

إنـكـارُ دوامِ الـعـهـدِ مع المُشرِكينَ الّذين يُـبـطِـنُـونَ نيّةَ الغدرِ لِلمُؤمنينَ

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 12.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبى)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10.
(3) ابن جرير، جامع البيان، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/306، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.

تطريَةً لِلذّكر، ولتكونَ تمهيدًا لِذكرِ علّةِ الإنكارِ والاستبعادِ، وليأخذَ بعضُ الكلام بُحَجزة بعضٍ، فأفادَ التَّكرارُ تأكيدَ الإنكارِ والاستبعادِ والتّعجيبِ، معَ بيانِ العلّةِ والسّببِ في انتظام للكلام، مع حُسنِ تأليفٍ بليغ[1]. والثّاني: الإشعارُ بأنَّ جملةَ الحالِ لها مَزيدُ تَعلُّقٍ بتَوَجُّهِ الإنكارِ على دوام العهدِ لِلمُشركينَ، حتّى كأنَّها مُستَقلَّةٌ بالإنكارِ، لا مُجرَّدُ قيدٍ للأمرِ الّذي توجَّهَ إليه الإنكارُ ابتداءً، فيَؤُولُ المعنى الحاصِلُ من هذا النَّظمِ إلى إنكارِ دوامِ العهدِ مع المُشرِكينَ في ذاتِهِ ابتِداءً؛ لأنَّهم ليسُوا أهلًا لِذلكَ، وإلى إنكارِ دوامِه بالخُصُوصِ في هذه الحالةِ، وهي حالَةُ ما يُبطِنُونَهُ من نيَّةِ الغدرِ إنْ ظَهرُوا على المُسلمينَ، مِمَّا قامَت عليه القَرائنُ والأَمَاراتُ، كما فعلَت هَوازِنُ عَقِبَ فَتحِ مكَّةَ[2].

براعةُ الإيجازِ بالحذفِ[3]:

ذِكْــرُ القبيحِ على قدرِ حاجةِ المتلقّي لـهُ في الكلامِ

حُذِفَ المُستفهَمُ عنه في قولِه: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لكونِهِ مَعلومًا ممّا تقدَّمَ في السِّياقِ، فالإيجازُ بحذفِه أليقُ، ولفائدةٍ أخرى؛ هي الإيذانُ بأنَّ النَّفسَ مُستَحضِرَةٌ له مُتَرَقِّبَةٌ لِورودِ ما يُوجِبُ استنكارَهُ مِنَ العللِ المُوجِبةِ لعدمِ ثباتِهم على العهدِ واستبعادِهِ، وأصلُ الكلامِ: (كيفَ يكونُ لهُم عهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ؟!)، وفي هذا الحذفِ مِنَ الفخامةِ ما لا توجدُ لو ذُكِرَ المحذوفُ[4]، ومن أسرارِ هذا الحذفِ ضيقُ المقامِ مِنَ المُشرِكينَ وخياناتِهم؛ تقبيحًا لهُم، وصَونًا لِلكلامِ عن تَكرارِ ذكرِهم.

---

(1) السّكندريّ، الانتصاف لما تضمّنه الكشّاف: 2/249.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/123.

(3) "يشيعُ الأسلوبُ المرفوضُ بينَ المُعاصرين، وهو ما ظاهرُهُ خروجُ أداةِ الاستفهامِ عن صدارتِها. وقد أجازَ مَجمَعُ اللّغةِ المصريّ - في دورته الحاديةِ والخمسين - هذا الاستعمال، على أنّ اسمَ الاستفهام وقعَ صدرًا في جملتِهِ الّتي حُذِفَ ركنها، أو حُذِفت برمَّتها، وقد وردَ لهذا الاستعمال نظائرُ، منها قولُهُ تعالى: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ [التّوبة: 8]". يُنظر: أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: 1/95.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/433، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

ثباتُ المُشركِينَ على حالةٍ تُنافي الوفاءَ بالعهدِ

دلالةُ الواوِ على الحالِ في ﴿وَإِن﴾:

في قولِهِ: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ أفادَتِ الواوُ الحاليَّةَ، بمعنى: إنكارِ أن يكونَ لهم عهدٌ واستبعادِهِ، والحالُ أنَّهم إنْ يَظهروا عليكُم لا يَرقُبوا فيكم إلًّا ولا ذِمَّةً؛ أي: وهُم على حالةٍ تُنافي الوفاءَ بالعهدِ[1]، فدلَّتِ الحالُ على أنَّ سببَ الإنكارِ والاستبعادِ، هو أنَّهم إنْ يَظهروا عليكُم لا يَرقَبُوا فيكُم عهدًا ولا ذِمَّةً، ونكتةُ بيانِ العلَّةِ والسّببِ بأسلوبِ الحالِ الإشعارُ بثباتِ حالِهِم هذا، وعدمِ اقترانه بوقتِ إعطاءِ العهدِ.

نُدْرةُ غلبةِ المُشركِينَ على المؤمنين، إنْ كانوا على وصفِ الإيمانِ

مناسبةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾:

لمّا كانَت أداةُ الشّرطِ (إنْ) تفيدُ عدمَ الجزمِ بوقوعِ الشّرطِ، وكانَ الحكمُ النّادرُ الوقوعِ مَوقعًا لـ(إنْ) آذنَ الكلامُ - في قولِهِ: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ - بندرةِ غلبةِ المُشركينَ على المؤمنينَ، إنْ كانوا على وصفِ الإيمانِ، ولهذا كانَ الأقضى لحقِّ البلاغةِ هنا أن يكونَ الفعلُ ﴿يَظۡهَرُواْ﴾ بلفظِ المضارعِ؛ لأنّهُ غيرُ مُتحقّقٍ في الواقعِ[2].

المُشركونَ لا عهدَ لهم، ومَن لا عهدَ لهُ لا أمانَ لهُ

دلالةُ الفعلِ المُقدَّرِ بعدَ ﴿كَيۡفَ﴾:

بَعدَ أداةِ الاستفهامِ الحاليّةِ ﴿كَيۡفَ﴾ - في قولِهِ تعالى: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ - فعلٌ مُقدَّرٌ، تقديره: (كيفَ يكونُ لهم عهدٌ، وإنْ يَظهَرُوا عَلَيكُم لا يَرقُبُوا)، والمعنى الإعرابيُّ والدّلاليُّ يحدّدُهما الفعلُ المقدَّرُ بعدَ كيفَ، وفي ﴿كَيۡفَ﴾ هنا تأكيدٌ للاستبعادِ الّذي في الأولَى[3]، ومدارُ المعنى على أنّ احتمالَ ظهورِهِم بمعنى انتصارِهِم وتمكُّنِهِم سوف يكونُ وَبالًا على المُسلمينَ، ومردُّ ذلك إلى أنّهم لا عهدَ لَهُم، ولا أمانَ لمواثيقِهِم،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/250، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/377، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/17.

(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9.

فَهُم لا يَزْجُونها إلّا في حالةِ ضعفِهم، فإذا مالَت لهم الكفّةُ نسُوا عهدَهُم، وانقلبُوا يفتكونَ بالمُسلمينَ، فيصبحونَ وحوشًا كاسرةً، لا يَرقبونَ في مُؤمنٍ إلًّا ولا ذِمَّةً.

دلالةُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿يَظۡهَرُواْ﴾:

التّعبيرُ بالضّميرِ للإيذانِ بأنَّ المرادَ الذّواتُ مع أحوالِهم الّتي ذُكِرَت

لمّا كانَ الضّميرُ في ﴿يَظۡهَرُواْ﴾ عائدًا إلى ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ في الآيةِ المُتقدِّمةِ دلَّ على أنَّ الكلامَ يجري فيهم، وإنّما جاءَ بصيغةِ الضّميرِ، ولم يذكرِ الاسمَ الظّاهرَ؛ للإيذانِ بأنَّ المذكورينَ هُم أنفسُهُم الّذين وَقَعَ الإنكارُ على أن يكونَ لهم عهدٌ عندَ اللهِ وعندَ رسولِه، فجاءَ الضّميرُ إيجازًا في الكلامِ؛ لبيانِ أنَّ المُرادَ هُمُ المُشركونَ بأوصافِهم وأحوالِهم الّتي ذُكِرَت.

بلاغةُ قولِه: ﴿يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾:

الغالبُ ظاهرٌ مُستقوٍ، والمغلوبُ يُخفي نفسَهُ ونقصانَهُ

يحتملُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿يَظۡهَرُواْ﴾ استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً؛ إذ شُبِّهَتِ الغلبةُ بالظّهر؛ لأنّه ممّا يُتقوّى به؛ ليفيدَ أنَّ غلبتَهُم على مَعنى التَّقوِّي والاقتدارِ، أو يُقالُ: شُبِّه فيها الاستعلاءُ المعنويُّ بالاستعلاءِ الحسّيِّ، بجامعِ السّيطرةِ والقهرِ في كلٍّ منهُما مع مُراعاةِ جوابِ الشّرطِ، كما يُحتملُ أن يكونَ كنايةً، وبيانُهُ: أنَّ مَن غَلَبَ غيرَهُ حَصَلَت له صِفةُ كَمالٍ، ومَن كانَ كذلك أظهرَ نفسَهُ، ومنهُ صارَ المغلوبُ كالنَّاقصِ، والنَّاقصُ لا يُظهِرُ نفسَهُ، ويُخفي نقصانَهُ، فَصَارَ الظُّهُورُ كنايةً للغلَبةِ؛ لِكونِهِ مِن لوازمِها، أو يُقالُ: مِن شأنِ الغالبِ الاستعلاءُ على المغلوبِ، ومَن عَلَا شيئًا مَلَكَهُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بشبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

شرطُ الظّهورِ على المؤمنينَ مَدعاةٌ للتّنكيلِ بهم في كلِّ حين

أفادَ حرفُ الجرِّ في قولِه: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنَّ المرادَ: إنْ تمكَّنوا تمكُّنَ ظهورٍ وغلبةٍ، بحيث تكونُ الغلبةُ مُستوعبةً جميعَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/532، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/435، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

المُسلمينَ، ومعنى: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾: يغلبوا عليكُم ويَظفروا بكُم، ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾؛ يعني: لا يحفظوا فيكُم قرابةً ولا عهدًا. وقوْلُه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ هنا تفيدُ دورانَ الدّولابِ؛ لتكونَ الغلبةُ لهؤلاءِ الغلاظِ الشّدادِ، الّذين لا يَحفظونَ عهدًا، ولا يُراعونَ قَرابةً ولا إحسانًا ولا ميثاقًا.

نكتةُ مجيءِ الجزاءِ بلفظِ: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾:

تعظيمُ أمرِ المحافظةِ على (الإلِّ والذِّمَّةِ)؛ لعلوِّ شأنِهما وارتفاعِ مَنزلتِهما

لمّا كانَ الظّهورُ بمعنى الظّفرِ بالشّيءِ وعلوِّه عليه، على وجهِ الغلبةِ - ومنه قولُهُم: ظهرتُ على السّطحِ إذا صرتَ فوقَهُ - وكان ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ في سياقِ الشّرطِ، ناسبَهُ أن يأتيَ بلفظِ ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾ في قولِهِ: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾؛ لِما يُلازمُ لفظَ الرّقوبِ من مَعنى العلوِّ والإشرافِ بارتفاعٍ؛ لِيُفيدَ أنّ المُشركينَ في حالِ ظهورِهم وعُلوِّهم لا يُراعون إلًّا ولا ذِمَّةً، وفي التّعبيرِ إشعارٌ بتعظيمِ أمرِ المحافظةِ على الإلِّ والذِّمَّةِ؛ لعلوِّ شأنِهما وارتفاعِ مَنزلتِهما عندَ جميعِ النّاسِ؛ لاقترانِ التّعبيرِ عنهما بلفظِ الظُّهورِ والرّقوبِ.

فائدةُ التّقديمِ في قولِهِ: ﴿فِيكُمۡ﴾:

الكلامُ بصيغةِ الخطابِ له مِنَ التّأثيرِ في المتلقّي ما ليسَ في الغَيْبةِ

لمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيكُمۡ﴾ على المفعولِ بهِ ﴿إِلّٗا﴾ دلَّ على حصرِ نفيِ رقابتِهم في المؤمنينَ، وأنَّهُم هُمُ المعنيّونَ بالأمرِ دونَ غيرِهم؛ إشعارًا بعظيمِ ضغينتِهم وعداوتِهم لَهُم، وفي مَجيءِ ضميرِ المُخاطبةِ العائدِ إلى المؤمنينَ تنبيهٌ لِشدَّةِ عَداوةِ المُشركينَ النّاكثينَ لهم، فإنَّ الكلامَ على سبيلِ المُخاطبةِ لهُ مِنَ التّأثيرِ في المتلقّي ما ليسَ في الغَيْبةِ.

دلالةُ مجيءِ ﴿إِلّٗا﴾ و﴿ذِمَّةٗۚ﴾ نَكرتين:

لمّا جاءَ اللّفظانِ نَكرتينِ في سياقِ النّفيِ أفادَ المعنى عمومَ نفيِ مُراقبتِهم الإلَّ والذِّمّةَ؛ أي: سواءٌ كانَ كلُّ واحدٍ منهما كبيرًا أو

صغيرًا[1]، واعتبارُ مُراعاةِ الإلِّ والذِّمّةِ "يعني: أنّ وُجُوبَ مُراعاةِ حقوقِ العهدِ على كُلٍّ مِنَ المُتعاهِدَينِ مَشروطٌ بمُراعاةِ الآخَرِ لها، فإذا لم يُراعِها المُشركونَ فكيف يُطلَبُ من المؤمنين أن يُراعوها؟! على مِنوالِ قولِ مَن قالَ:

عَلَامَ تُقبَلُ مِنهُم فِديَةٌ وَهُمُ *** لَا فِضَّةً قَبِلُوا مِنّا ولا ذَهَبَا"[2].

تقبيحُ حالِ المُشرِكينَ الّذين لا يُراعونَ أيَّ عهدٍ أو ذِمَّةٍ

دلالةُ العطفِ وتكرارِ ﴿لَا﴾:

لمّا كانَ العطفُ - في قولِه: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ - مُفيدًا التّشريكَ في الحُكمِ، وكانَتِ الواوُ على معنى الجمعِ بينَ المعطوفين مع تكرارِ ﴿لَا﴾ كانَ الكلامُ على تقديرِ تكرارِ الفعلِ؛ أي: لا يرقبوا فيكُم إلًّا، ولا يرقبوا فيكم ذِمَّةً؛ ليفيدَ العطفُ مع تكرارِ (لَا) نفيَ رقابتِهِم الإلَّ والذِّمّةَ، سواءً كانا مُجتمِعَين أو مُنفردَين مع تأكيدِ نفيِ رقابتِهِم وتقريرِها.

نفيُ مُراعاةِ المُشرِكينَ الحِلفَ والعهدَ سواء كانا مُجتمِعَين أو مُنفردَين

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾:

لمّا أفادَت جملةُ الحالِ - في قولِه: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ - أنّهم إنْ يَظفروا بكُم لا يُراعوا فيكم حِلفًا ولا عهدًا، كانَ لازِمُهُ أنَّ مَن حالُهُم هذهِ لا يَثبتونَ على عهدٍ، وهذا هو السَّببُ المُوجِبُ للإنكارِ والاستبعادِ والتَّعجيبِ[3]، وذِكرُ السَّببِ بطريقِ الكنايةِ فيهِ معنى الاستدلالِ، وإقامةِ الحُجّةِ، فيكونُ أدعى لامتثالِ المُؤمنينَ واقتناعِهِم.

مَن لا يُراعِ حِلفًا ولا عهدًا لا يثبتُ على عهدٍ، ولا يُؤمَنُ له جانبٌ

اختلافُ العلماءِ في معنى (الإلّ):

جاءَ الكلامُ آخذًا بعضُه بحُجْزة بعضٍ، وقد تساءلَ السّياقُ عن بيانِ حالِ المُشركينَ، وما تَتلظّى بِهِ قلوبُهُم، وما يُنبِئُ به الحالُ عمّا

اللّفظُ القرآنيُّ لا تنفكُّ عنهُ الدّلالةُ في البيانِ المُعجِزِ الأخّاذِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/384.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/163.

يُخالِفُ المقال، وقد بَسَطَ العلماءُ القولَ في معنى (الإلّ)، والإلُّ هذا: القرابةُ، وهو قولُ ابنِ عبّاسٍ، ومنهُ: العهدُ، ومنهُ: الأنينُ في الدُّعاءِ مع البُكاءِ، وخَريرِ الماءِ، والطَّعنُ، ومنهُ قولُ أبي بكر رضي الله عنه: إنّ هذا - أي: كلامَ مُسَيلِمةَ - مَا يَخرُجُ مِن إلّ؛ أي: مِن إلهٍ، وفي إلِّ اللّهِ؛ أي: قُدرتِهِ وإلَهيَّتِه[1]، وقالَ آخرون: إنّ الإلَّ هو الجؤارُ، وهو رفعُ الصّوتِ عندَ التّحالفِ، وذلك أنّهُم كانُوا إذا تحالَفُوا جَأَرُوا بذلك جُؤارًا. وقالَ الزّجّاج: الإلُّ عندي على ما تُوجِبُهُ اللّغةُ يدورُ على معنى الحِدّةِ، ومنهُ: الألّةُ لِلحربة، ومنه: أُذُنٌ مُؤَلَّلةٌ؛ أي: مُحدَّدةٌ[2]، وفي المعنى" استبعادٌ لأن يَبقى المُشركون على عهدٍ بينَهُم وبينَ المُسلمينَ، وإنْ كانَت بينَهم وبينَ المُشركين قرابةُ نسبٍ أو عهودٌ مُوثَّقةٌ، والمُستفهَمُ عنه هنا مَحذوفٌ؛ لدلالةِ الحالِ عليه، وهو: كيفَ يحفظونَ لكم عهدًا، وهُم عداوةٌ تمتلئُ بها صدورُهُم بغضةً وشنآنًا لَكُم، حيثُ لا يَجدونَ شِفاءً لِمَا في صدورِهِم مِن هذا الدّاءِ إلّا أن يَأخذوكُم بالبأساءِ والضّرّاءِ؟"[3].

براعةُ الاستئنافِ البيانيّ في ﴿يُرۡضُونَكُم﴾:

إثارةُ السُّؤالِ أدعى إلى تثبيتِ المعنى والإقرارِ بِهِ

لّما كانَ ذلك مَظنّةً لأن يُقالَ: قد أكّدُوا لنا الأيمانَ، وأوثقوا العهودَ، فلمَ لا نُعطيهم العهدَ؟ قال مُعلِّلًا ببيانِ حالِهم المنافيةِ لثباتِهم على العهدِ، المؤدِّيةِ إلى عدمِ مُراقبتِهم عندَ الظَّفرِ، ومُجيبًا لِمَن استبعدَهُ: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾، فجاءَ الاستئنافُ لبيانِ حالةِ الخداعِ الّذي هُم عليهِ.

بلاغةُ الكنايةِ:

تنبيهُ المؤمنينَ إلى أساليبِ خداعِ الكافرينَ

في الاستئنافِ - في قولِهِ تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ - كنايةٌ بذكرِ المَلزومِ وإرادةِ اللّازمِ، وهو تحذيرُ المؤمنينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/59.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/708.

وتنبيهُهُم إلى ألّا يُصدِّقُوا الصُّورةَ التي يرونَها أمامَهُم مِنَ المُشركينَ؛ لأنّهم يُحاولونَ خِداعَ المُؤمنينَ بالقولِ الحَسنِ، والوَجهِ البشوشِ، والألفاظِ الحلوةِ النّاعمةِ، لكنَّ قلوبَهُم تأبَى هذا العملَ بما أبدَتهُ ألسنتُهُم وتنكِرُهُ(1).

فائدةُ التَّعبيرِ بالاستئنافِ في: ﴿يُرۡضُونَكُم﴾:

لمّا كانَ تَعليقُ عدمِ رعايةِ المُشركينَ العهدَ بالظَّفرِ مُوهِمًا للرِّعايةِ عندَ عَدَمِه كَشَفَ عن حقيقةِ شؤونِهم الجليَّةِ والخفيَّةِ بطريقِ الاستئنافِ في قوله تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾، وبيَّنَ أنَّهُم في حالةِ العَجزِ أيضًا ليسُوا مِنَ الوفاءِ في شيءٍ، وأنَّ مَا يُظهرونَهُ مُداهَنَةٌ لا مُهادَنَةٌ، فإذا كانُوا في حالِ العَجزِ عن غلبةِ المُسلمينَ مُخادِعينَ فحالُهم عندَ ظهورِهم على المسلمينَ أدعى لِلخِداعِ والغدرِ، فيلزمُ منه استبعادُ ثباتِهم على العهدِ(2).

إذا كانَ الكفّارُ في حالِ الانكسارِ مُخادِعينَ فحالُ ظهورِهِم أدعى لِلخديعةِ

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

جاءَ الكلامُ على طريقِ المجازِ المُرسَلِ في قولِه: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بذكرِ السَّببِ وهو الفمُ، وإرادةِ المُسبَّبِ وهو القولُ الخارجُ منهُ، ويحتملُ أنْ يكونَ مِن ذكرِ المَحلِّ وإرادةِ الحالِّ، ونكتةُ التّعبيرِ بالمجازِ المُرسَلِ: أنَّ التّعبيرَ بالأفواهِ يدُلُّ على عِظَمِ الفمِ وسَعَتِه، ففيه إشارةٌ إلى كثرةِ ثرثرتِهم بالكلامِ مع تفخيمِهِ وتضخيمِه، فكأنَّهُم يتكلَّمُونَ بملءِ أفواهِهم؛ لتزويقِ الكلامِ وتنميقِهِ وتحسينِه وتزيينِه؛ ليُرضُوا المؤمنينَ بحلاوتِه، فيخدعوهم.

مِن أساليبِ الخداعِ الماكرةِ تزويقُ الكلامِ بالعباراتِ الآسرةِ

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يُرۡضُونَكُم﴾:

لمّا كانَ الرّضا خلافَ السُّخطِ، وكانَ بمعنى تشبُّعِ النَّفسِ

إرضاءُ الكافرينَ الغادرينَ لِلمُؤمنينَ لكي لا يَنتبهوا إلى خداعِهِم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/150، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4904.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

وامتلائِها بَلالًا ورِقَّةً، نحو الّذي يُرضَى عنهُ[1] عُبِّرَ بـ ﴿يُرۡضُونَكُم﴾؛ للإشعارِ بأنَّهم يَجعلونَ المُؤمنينَ لا يَسخطونَ عليهم، ولا يَحذرونَ منهُم، ولا يَنتبهُونَ لِمَكرِهم وخداعِهم؛ والمعنى: يرضُونَكُم عنهُم وعن أفعالِهم وأحوالِهم، فيلزمُ منهُ عدمُ التَّحرُّزِ مِنهُم.

فائدةُ حذفِ مُتعلِّقِ الفعلِ في ﴿يُرۡضُونَكُم﴾:

محاولةُ الكافرينَ الغادرينَ إرضاءَ المؤمنينَ في كلِّ شيءٍ، مع إبايةِ قلوبِهم له

في قولِهِ تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يحتملُ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿يُرۡضُونَكُم﴾ أن يكونَ بتقديرِ: يُرضونَكُم بأفواهِهم في الوفاءِ، فيكون مقابلُهُ: وتأبَى قلوبُهُم الوفاءَ، ومفهومُهُ: تأبَى قلوبُهُم إلّا الغدرَ، أو: يُرضُونَكُم بأفواهِهم في الطّاعةِ، وتأبَى قلوبُهُم الطّاعةَ، ومفهومُهُ: تأبَى إلّا المعصيَةَ، أو: يُرضُونَكُم بأفواهِهم في الوعدِ بالإيمانِ، وتأبَى قلوبُهُم الوعدَ، ومفهومُهُ: تأبَى إلّا الشِّركَ[2]، فلمّا حُذِفَ المُتعلِّقُ أفادَ عمومَ المعنى؛ ليشملَ المذكورَ وغيرَه ممّا هو في معناه.

مناسبةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾:

تناقضُ الكافرينَ بينَ إرضاءِ المؤمنينَ بكلامِهم، وإبايتِهِ بقلوبِهم

العطفُ - في قولِهِ: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ - على معنى الجمعِ بينَ المُتعاطِفينِ على سبيلِ ذكرِ الشَّيءِ ونقيضِهِ، فهُم يَجمعونَ بينَ الفعلِ المحسوسِ المَرئيِّ - وهو إرضاءُ المؤمنينَ بحلوِ الكلامِ - والفعلِ القلبيِّ غيرِ المرئيِّ على سبيلِ المناقضةِ؛ إيذانًا بطريقةِ خداعِهم ومَكرِهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾:

يأبى الكافرون، وتأبى قلوبُهُم إرضاءَ المؤمنينَ

إسنادُ الإبايةِ إلى القلوبِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، فقلوبُهم لَمَّا نَوَتِ الغدرَ شُبِّهَتْ بمَن يُطلَبُ منه شيءٌ فَيَأبَى[3]، ويحتملُ أن يكونَ مَجازًا عقليًّا، علاقتُهُ المكانيّةُ، والتّقديرُ: يأبونَ بقلوبِهم؛ ليكونَ

---

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رضي).

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/343، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

نظيرَ ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، والسِّرُّ البلاغيُّ في إسنادِ الإبايةِ إلى قلوبِهِم دونَ ذواتِهِم هو الإشعارُ بالغلِّ والحقدِ والأضغانِ الّتي في قلوبِهِم على المُؤمنينَ، وللإشارةِ إلى أنَّ قلوبَهُم امتلأَتْ حِقدًا، حتَّى كأنّها صارَت لفرطِ ما فيها مِن مَكرٍ عدوًّا آخرَ لِلمؤمنينَ يتربَّصُ بهم الدَّوائرَ، كما أنَّه جارٍ على أسلوبِ القرآنِ في مُقابلةِ الأفواهِ بالقلوبِ(1).

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

الجمعُ بينَ بلاغةِ الإيجازِ ودقَّةِ المعنى

تقديرُ الكلامِ في قولِهِ: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: يُرضُونكم بقولٍ مِن أفواهِهِم، فحُذِفَ القولُ وحرفُ الجرِّ، وفائدةُ الحذفِ الإيجازُ، والإشعارُ بأنَّ قولَهُم كانَ بأفواهِهِم كلِّها؛ حرصًا منهُم على خداعِ المؤمنينَ وإرضائِهِم بحلوِ الكلامِ النّاعمِ المنمَّقِ المزيَّنِ.

براعةُ تعليقِ الإرضاءِ بقولِهِ: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

تعليقُ حُكمِ القولِ بالفَمِ إشارةٌ إلى الكذبِ؛ لأنّ الاعتقادَ لا يطابقُهُ

لم يَقُلْ: (يُرضُونَكُم بقولِهِم أو بكلامِهِم) مثلًا، بل نسبَ الإرضاءَ إلى الأفواهِ؛ للإيذانِ بأنّ كلامَهُم مُجرَّدُ ألفاظٍ يَتفوَّهُونَ بها مِن غيرِ أن يكونَ لها مِصداقٌ في قلوبِهِم، وكلُّ مَوضعٍ علّقَ اللّهُ تعالى فيه حُكمَ القولِ بالفَمِ هو إشارةٌ إلى الكذبِ والتَّكبُّرِ عنِ الحقِّ، وتنبيهٌ أنّ الاعتقادَ لا يطابقُهُ، ولهذا قالَ اللّهُ تعالى عن يومِ القيامةِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [يس: 65]، فلمّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ دلَّ على أنَّ ما في قلوبِهِم يخالِفُهُ، ولمّا قالَ: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ كانَ بمَنزلةِ التّصريحِ بما عَلِمَ ضمنًا، فيكون تأكيدًا وتقريرًا لِلمعنى، وإظهارًا لِمَا يَحرصونَ عليهِ من إخفاءِ ما في قلوبِهِم؛ ليكونَ التَّصريحُ بإباءِ قلوبِهِم ومُخالفَتِها لِمَا يقولونَهُ بأفواهِهِم زيادةً في توبيخِهِم وفضحِهِم(2).

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

(2) الرّاغب، المفردات: (فوه)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَتَأۡبَىٰ﴾:

إبايةُ الكافرين بقلوبِهم هو باختيارِهم، مع وجودِ الدَّاعي إلى الامتثالِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿وَتَأۡبَىٰ﴾ في قولِه: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ للإشعارِ بشدّةِ امتناعِ قلوبِهم عن قَبولِ ما يَقولُونَه بأفواهِهم أَنَفَةً وكراهةً له، وللإشعارِ بأنَّ امتناعَهُم كانَ باختيارِهم معَ وجودِ القُدرةِ على الامتثالِ والدّاعي إليه، فيكونُ تأكيدًا لِمَا دلَّ عليه السِّياقُ من أنَّ ما يَقولونَهُ بأفواهِهم كَذِبٌ وخِداعٌ لِلمُؤمنين[1].

بلاغةُ الحذفِ في قولِه: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾:

مِن جمالِ البيانِ القرآنيِّ حذفُ بعضِ عناصرِ السّياقِ لغرضٍ

حُذِفَ المفعولُ في قولِه: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ لإفادةِ العُمومِ، والمعنى: تأبَى قلوبُهُم ما تتفوَّهُ به أفواهُهُم ممّا يُرضون به المؤمنينَ، وتأبَى قلوبُهم الاعتقادَ بما تَفوَّهوا به، والإذعانَ له والعملَ به، وتأبَى قلوبُهُم الإيمانَ والطّاعةَ، ويجري في تقديرِ المحذوفِ كلُّ ما هو في هذا المعنى، فكانَ الحذفُ أولى؛ لعمومِ المعنى وللإيجازِ[2].

دلالةُ المضارعِ في قولِه: ﴿يُرۡضُونَكُم﴾ ﴿وَتَأۡبَىٰ﴾:

الإيذانُ باستمرارِ الغادرينَ بالخِداعِ، وأنَّ غدرَهُم قد يحصُلُ في أيِّ لحظةٍ

عبّر بصيغةِ المضارعِ للإيذانِ باستمرارِهم على الجمعِ بينَ إرضاءِ المؤمنين باللّسانِ الحلوِ المنمَّقِ، وبين إباءِ قلوبِهم لِمَا يَقولونَهُ، وأنَّ هذا الأمرَ يتجدَّدُ عندَهم حالًا فحالًا، وفيه تصويرٌ للحالةِ أيضًا؛ إشعارًا ببشاعةِ فعلِهم، وبأنَّ غدرَهُم قد يحصُلُ في أيِّ لحظةٍ.

بديعُ المُقابلةِ بينَ ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ و﴿قُلُوبُهُمۡ﴾:

الاكتفاءُ باللِّسانِ للتّعبيرِ عمّا في القلبِ، فإذا تخالَفَا جُمِعَ بينَهُما

لمّا كانَ اللّسانُ مُعبِّرًا عمّا في القلبِ استُغني بالقولِ عن ذكرِ ما في القلبِ، فإذا تخالَفَا جمعَ بينَهُما على سبيلِ المُقابلةِ، فيكون القولُ مُختصًّا بالأفواهِ، من غيرِ أن يكونَ له مِصداقٌ في القلبِ، فهُم " ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ أي: يقولونَ بألسنتِهم ما فيه مُجامَلَةٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبى).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وابن عادل، اللّباب: 10/29، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

ومُحاسَنَةٌ لَكُم، طَلَبًا لِمَرضاتِكُم، وتَطييب قلوبكُم، و﴿قُلُوبُهُمْ﴾ تأبَى ذلكَ وتُخالِفُهُ، وتَوَدُّ مَا فيهِ مَساءَتُكم ومَضَرَّتُكم، كَما يَفعَلُهُ أهلُ النّفاقِ وذَوُو الوَجهَين"(1).

دلالةُ الواو على الحاليّةِ في ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾:

دقّةُ القرآنِ في توصيفِ نوازعِ النّفوس، ودواخلِ الفِسقِ والهَوى

لَمّا كانَتِ الواو حاليَّةً أفادَت جملةُ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ﴾ أنَّها في مَوضِعِ الحالِ مِن واو الجماعةِ في ﴿يُرْضُونَكُم﴾، والمقصودُ المبالغةُ في الذَّمِّ بأنَّ أكثَرَهم مَوصوفٌ بالفِسقِ في حالِ إرضائِكُم بأفواهِهِم(2)، وقد "حَكَمَ عَلَيهِم بالفِسقِ، وهو التَّمرُّدُ والتَّجَرِّي، والخُرُوجُ عنِ الحقِّ؛ لِنقضِهِم العُهودَ، وعَدمِ مُراعاتِهِم لِلعُقُودِ"(3).

سببُ إيثارِ وصفِ الكفّارِ بالفِسقِ:

الفِسقُ أقبحُ ما يُوصَفُ بهِ المُتمرِّدونَ عن مَنهجِ اللهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ﴾ إنْ قيلَ: الموصوفونَ بهذهِ الصِّفةِ كُفّارٌ، والكفرُ أقبَحُ وأخبَثُ مِنَ الفِسقِ، فكيفَ يحسُنُ وصفُهُم بالفِسقِ في مَعرِضِ المُبالَغةِ في الذَّمِّ؟! فالجوابُ: أنَّ الكافرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِهِ، وقد يكونُ فَاسِقًا خبيثَ النَّفسِ في دينِهِ، فالمُرادُ ها هنا أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ الّذينَ مِن عادتِهِم نَقضُ العُهُودِ أكثَرُهُم فاسقونَ في دينِهِم وعندَ أقوامِهِم، وذلكَ يُوجِبُ المُبالَغةَ في الذَّمِّ(4).

سببُ الحُكمِ بالفِسقِ على الأكثريّةِ:

الفاسِقونَ جمعُوا المَذمَّةَ الدّينيَّةَ والعُرفيَّةَ

في قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ﴾ إنْ قِيلَ: هَذا الكلامُ في المُشرِكِينَ وهُم كُلُّهُم فاسِقُونَ، فَكَيفَ قالَ: وأَكثَرُهُم فاسِقُونَ؟! قِيلَ: لمّا كانَ السّياقُ في بيانِ الوفاءِ بالعهدِ ونقضِهِ أَرَادَ بالفِسقِ هاهنا نَقضَ العهدِ، فقد كَانَ في المُشرِكِينَ مَن وَفَّى بِعهدِهِ، وأكثَرُهُم نَقَضُوا،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/388.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/388.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533.

فلهَذا قالَ: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ نقضِ العهدِ، فيكون التّعبيرُ باللّفظِ المُشتقِّ إيذانًا بأنَّ نقضَ العهدِ صارَ سجيَّةً لهم، أو يُقالُ: قد يكونُ الكافرُ مُحترِزًا عنِ الكذبِ، ونقضِ العهدِ والمكرِ والخديعةِ، وقد يكونُ مَوصوفًا بذلك، ومثلُ هذا الشَّخصِ يكونُ مَذمومًا عندَ جميعِ النَّاسِ وفي جميعِ الأديانِ، فالمرادُ أنَّ أكثرَهُم مَوصوفونَ بهذهِ الصِّفاتِ المَذمومةِ لا جميعَهم، فإنَّ بعضَهُم يَتفادَى الغدرَ، ويتعفَّفُ عمّا يجرُّ إلى أُحدوثةِ السُّوءِ، فالفِسقُ هنا الخروجُ عنِ الكمالِ العُرفيِّ بينَ النَّاسِ، وليسَ المرادُ به الخُرُوجَ عَن مَهيَعِ الدِّينِ؛ لأنَّ الخُرُوجَ عَنِ الدّينِ وصفٌ لجميعِهم لا لأكثرِهم، ولأنَّهُ قد عُرِفَ من وصفِهم بالكفرِ، فَجمعُوا المَذمَّةَ الدِّينيَّةَ والمَذمَّةَ العُرفيَّةَ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿فَٰسِقُونَ﴾:

الفِسقُ تمرُّدٌ سببُهُ اتّباعُ الشّهواتِ والرّكونُ إلى مُطلَقِ المَلذّاتِ

لمّا كانَ الفِسقُ هوَ الخروجَ عنِ الطّاعةِ لأجلِ اتّباعِ الشّهواتِ، وكانَ فيه معنى التَّمرُّدِ كانَ الإخبارُ بهذا الوصفِ - في قولِه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ - أنسبَ للسّياقِ، فهُم فاسِقُون خارجُونَ عنِ الطَّاعةِ؛ لأنَّ مُراعاةَ حقوقِ العهدِ من بابِ الطَّاعةِ، وهُم مُتمرِّدونَ ليسَت لَهُم مُرُوءَةٌ رادِعَةٌ، ولا عَقيدَةٌ وَازِعَةٌ، ولا يَتَستَّرُونَ في الغَدرِ، وعدمِ مُراعاةِ العهدِ، كما يَتعاطَاهُ بعضُهم ممَّن يَتَفادَى الغدرَ، ويَتَعَفَّفُ عمّا يَجُرُّ أُحدُوثَةَ السُّوءِ، كما أنَّ التّعبيرَ باللّفظِ المُشتَقِّ يُؤذِنُ بلُصُوقِ الوصفِ بِهِم، وأنَّهُ صارَ سجيَّةً لَهُم كما تقدَّمَ[2].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإلّ والذِّمَّة والعهد والميثاق واليَمين:

لمّا كانَ العطفُ على معنى المغايرةِ دَلَّ على أنَّ الإلَّ غيرُ الذِّمَّةِ،

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/320، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

لـلإلِّ والـذِّمَّـةِ مَعانٍ عديدةٌ، ولكنَّهُما أقربُ الألفاظِ لدلالةِ الـسّـيـاقِ على المُرادِ

والفرقُ بينَهُما: أنَّ الإلَّ هو كلُّ حالةٍ ظاهرةٍ مِن عهدٍ أو حِلفٍ، لا يمكنُ إنكارُهُ، ويكونُ مُلزِمًا، وظاهرُ استعمالِهِ في القرآنِ الكريمِ، أنّه لا يكونُ إلّا فيما يَتعلَّقُ بِهِ العهدُ مع اللّهِ، أو يكونُ حلفًا باللّهِ تعالى، وبهذا يكونُ أخصَّ من العهدِ، الّذي يكونُ مع اللّهِ أو مع النّاسِ، في أمورِ الحياةِ وشؤونِها، وذَهَبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ الإلَّ يُطلَقُ على الحِلفِ والعهدِ، ويُطلَقُ كذلكَ على النَّسبِ والقَرابةِ، وقد كانَت بينَ المُشركينِ وبينَ المُسلمينَ أنسابٌ وقَراباتٌ، فَيَصِحُّ أَنْ يُرادَ في الآيةِ كِلا مَعنَيَيه. وأمّا الذِّمَّةُ فهي مِنَ الذَّمِّ؛ لأنَّ صاحبَهُ يُذَمُّ على إضاعتِهِ، والذِّمَّةُ كلُّ ما يَجِبُ في المروءةِ أَنْ يُحفَظَ ويُحمَى مِنَ الأواصرِ، مِن صُحبةٍ وخُلُقٍ، وحُرمةٍ وخُلَّةٍ، وجِوارٍ وحلفٍ، وأمانٍ وضمانٍ، فأُطلِقَتِ الذِّمّةُ على كلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ؛ لأنّه يكونُ عقدًا في الضّميرِ، وَمِن ذَلِكَ أهلُ الذِّمَّة؛ أي: أهلُ العهدِ والأمانِ، ويُقالُ: في ذِمَّتي كذا؛ أي: ألتزِمُ به وأحفَظُهُ، فالعهدُ مَا يَتَّفِقُ رجلان أو فريقان مِنَ النّاسِ على التزامِهِ بينَهُما لِمصلحتِهِما المُشتركةِ، فإنْ أكَّدَاهُ ووثَّقاهُ بما يَقتضي زيادةَ العنايةِ بحفظِهِ، والوفاء به سُمِّيَ ميثاقًا؛ وهو مُشتَقٌّ مِنَ الوَثاقِ، وهو الحبلُ والقيدُ، فالميثاقُ عقدٌ مُؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، وإنْ أكّداه باليمين خاصَّةً سُمِّيَ يَمينًا، وقد يُسمَّى بذلك لوضعِ كلٍّ مِنَ المُتعاقِدين يمينَهُ في يمينِ الآخرِ عندَ عقدِهِ، واليمينُ في الأصلِ اليدُ المقابلةُ لِلشِّمالِ، وذَهَبَ بعضُ اللّغويينَ إلى أنَّ الفرقَ بينَ العهدِ والميثاقِ أنَّ العهدَ يكونُ حالًا مِنَ المتعاهدَيْنِ، والميثاقَ يكونُ مِن أحدِهما[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57، والرّاغب، المفردات: (الإل، ذم)، ورضا، تفسير المنار: 10/167، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩﴾ [التّوبة: 9]

تنوُّعُ الأدلّةِ على كُفرِ المُشركين لإظهارِ الحُجّةِ عليهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا كَشَفَ اللّهُ سَرائِرَهُم، وبيَّنَ خِداعَهُم شَرَعَ يُقيمُ لهم دليلًا آخرَ على فِسقِهِم بتمسُّكِهِم بكفرِهِم، فقَالَ مُعبِّرًا بما يُفيدُ أنّهُم تَمَكَّنُوا مِنَ الكُفرِ تَمَكُّنًا صارُوا بِهِ كأنَّهُ في حَوزَتِهِم: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ الآيةَ[1]، لقد " أعرَضوا عن آياتِ اللّهِ، واستبدلُوا بِها عَرَضًا قليلًا مِن أعراضِ الدّنيا، ومنعُوا النّاسَ عنِ الدُّخولِ في دينِ اللّهِ، إنّ هؤلاء قَبُحَ ما كانُوا يَعمَلُونَ"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَصَدُّواْ﴾: يدورُ معنى الصّدِّ حولَ الاعتراضِ بقويٍّ أو كثيفٍ، يَرُدُّ المقبلَ أو يمنعُهُ، كالجبلِ بالنّسبةِ لِلسّائرِ باتّجاهِ، يُقالُ: صددتُ فلانًا عنِ الأمرِ؛ إذا عدلتَهُ عنهُ ومنعتَهُ وصرفتَهُ، وقد يكونُ انصرافًا عنِ الشّيءِ وإعراضًا عنهُ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا للغيرِ بحيث يحولُ عنهُ، و﴿فَصَدُّواْ﴾: بمعنى: مَنعُوا[3]، "يُقالُ: صدَّ فلانًا عن كذا صدًّا؛ إذا منعَهُ وصَرَفَهُ عنهُ، قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [النّمل: 43]؛ أي: صدَّها كونُها من قومٍ كافرينَ عنِ الإيمانِ. وفي التّنزيلِ: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]، كأصَدَّهُ إصدادًا، وصَدَّدَهُ، وأنشدَ الفرّاءُ لذي الرُّمَّةِ:

أُناسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بالسَّيفِ عَنهُمُ *** صُدُودَ السَّوَاقِي عَن أُنُوفِ الحَوائِمِ"[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385 - 386.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 259.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدد)، وابن جرير، جامع البيان: 14/151.

(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (صدد).

2) ﴿سَآءَ﴾: يُقالُ: ساءَ ما فَعَلَ فلانٌ صنيعًا يَسوءُ؛ أي: قَبُحَ صنيعُهُ صنيعًا، والسُّوءُ: الفُجُورُ والمُنكَرُ، ويُقالُ: فُلانٌ سيِّئُ الاختيارِ، وقد يُخفَّفُ، مِثلُ: هَيِّن وهَيْن، ولَيِّن ولَيْن. قالَ الطُّهَوِيُّ:

وَلَا يَجزُونَ مِن حُسْنٍ بسَيْءٍ *** ولَا يَجزُونَ مِن غِلَظٍ بِلَيْنِ[1].

والسَّيِّئُ خلافُ الحَسَنِ، وهو اسمُ فاعلٍ مِن ساءَ يَسوءُ، إذا قَبُحَ، وهو أسوأُ القوم، وهي السَّوأى أي: أقبحُهم، والنَّاسُ يقولونَ: أسوأُ الأحوالِ، ويريدونَ الأقلَّ أو الأضعفَ، والمُساءَةُ نقيضُ المَسرَّةِ. وبدَت مَساويه؛ أي: نقائصُهُ ومعايبُهُ[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانُ عراقةِ المُشركينَ في القبائحِ، وأنَّها راسخةٌ في جبلَّتِهم

استبدَلُوا بآياتِ اللّهِ قليلًا مِن عَرَضِ الدّنيا التَّافه، وهُو اتِّباعُ الشَّهَواتِ والأهواءِ، فأعرضُوا عنِ الحقِّ، ومنعُوا الرّاغبينَ في الإسلامِ مِن الدُّخولِ فيه، لقد قَبُحَ عملُهُم مِن اشترائِهم الكفرَ بالإيمانِ، وصدِّهِم عن سبيلِ اللّهِ مَن آمنَ باللّهِ ورسولِه، أو مَن أرادَ أن يُؤمِنَ[3]، إنّهُم بهذا العملِ الخسيسِ الّذي انصرفُوا فيه عنِ الحقِّ وسطوعِه قد ساءَ فعلُهُم، وقَبُحَ صنيعُهُم الّذي ما فتئَ يتجدَّدُ آنًا بعدَ آنٍ، ويستمرُّ إلى عصرِنا هذا، ثمّ إلى أن يَرِثَ اللّهُ الأرضَ ومَن علَيها[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾:

خسارةُ الكافرينَ وخيبتُهُم ببيعِهم آياتِ اللهِ مُقابلَ منافعَ قليلةٍ

لَمّا تَرَكَ المشركونَ دِينَ اللّهِ وآياتِه، وَآثَروا الكُفرَ وما كانوا عليهِ كَانَ ذَلِك بِمَنزلَةِ الاستبدالِ، فصارَ كالشِّراءِ والبَيعِ، فجاءَ الكلامُ في قولِهِ: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ على طريقِ الاستعارةِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/298.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/150، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3238.

التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُهُ: أنَّه شبَّهَ آياتِ اللّهِ القريبةَ منهم الثّابتةَ عندَهُم بمالٍ بأيديهم، بذلُوهُ وفرَّطُوا فيهِ لأجلِ اقتناءِ مَنافعَ قليلةٍ، فلمّا تركُوا ما قد مُكّنوا منه وأخذُوا ما يمكنُ نبذُهُ مثَّلَ حالَهُم بحالِ مَنِ اشترى شيئًا بشيءٍ؛ إيذانًا بخيبةِ مُعاملتِهِم وخسارتِهِم الكبيرةِ بهذا الشّراءِ[1].

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

العوضُ يقتضي المُعاوضةَ بينَ شيئين

الباءُ لِلعوضِ، وشأنُها أنْ تدخلَ على ما هو عِوَضٌ يبذلُهُ مالِكُهُ، لأخذِ مُعوَّضٍ يملكُهُ غيرُهُ، وتفيدُ هنا أنَّ المَبذولَ هو آياتُ اللّهِ، والمأخوذَ هو الثَّمنُ القليلُ، وكونُهُم (اشتَرَوا بآياتِ اللّه ثَمَنًا قَليلًا)؛ "أي: باعُوها بثمنٍ هو عرضٌ مِن أعراضِ الدّنيا، وهو قليلٌ بجوارِ الحقائقِ الخالدةِ الّتي فيها الصّلاحُ في الدّنيا والآخرةِ"[2].

دلالةُ تركيبِ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

أعظمُ دلائلِ الإسلامِ هي القرآنُ؛ لظهورِ حُجّتِهِ

المُرادُ بـ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدَّلائلُ، فيكون المعنى على العُمومِ، وهي دلائلُ الدّعوةِ إلى الإسلامِ، وأعظمُها القُرآنُ؛ لِمَا اشتمَلَ عليهِ مِنَ البراهينِ والحِجاجِ، ومِن جُملتِهِ ما فيهِ الأَمرُ بالوَفاءِ بالعُهودِ والاستقامةِ، فيدخل فيها دخولًا أوّليًّا[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

التّعجيبُ ممّن يَزهَدُ بآياتِ اللهِ، ويحرِصُ على اتّباعِ الهوى

جاءَ قولُهُ: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ؛ إذ شُبِّهَ أهواءُ المُشركينَ ومنافعُهُم بالثّمنِ القليلِ الّذي مِن شأنِهِ أن يُبذَلَ ولا يُقتَنَى؛ ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشبَّهِ بهِ في هذا التّشبيهِ؛ إيذانًا بأنّهُم قَلبُوا الأمرَ؛ لأنَّ الثّمنَ يكونُ مَدفوعًا لا مَأخوذًا؛ إذ كانَت آياتُ اللّهِ هي المدفوعةَ في مُقابلِ تحصيلِ الثّمنِ القليلِ، والنُّكتةُ في هذا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3238.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.

القلبِ التّنبيهُ على عجيبِ فعلِهم وتقبيحِهِ؛ إذ زهدُوا بآياتِ اللّهِ، وحَرصُوا على اتِّباعِ أهوائِهم؛ إشارةً إلى أنّهم فعلُوا عكسَ ما كانَ يجبُ أن يفعلُوهُ(1).

سرُّ الوصفِ بـ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾:

لا عُذرَ لِمُشرِكٍ بعدَ ظهورِ الإسلامِ وانتشارِهِ ومَكِنتِهِ

لم يَصفِ القرآنُ المشركينَ بمثلِ ما وصفَ به أهلَ الكتاب في سورةِ البقرةِ؛ منَ الاشتراءِ بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلًا إلّا في هذهِ الآيةِ، ثمَّ لم يُوصَفُوا بمثلِ هذا في آيةٍ أخرى نزلَتْ بعدَها؛ لأنَّ نزولَها كانَ في آخرِ عهدِ المُشركينَ بالشِّركِ، إذْ لم تَطُلْ مُدَّةٌ حتَّى دَخَلُوا في دينِ اللّهِ أَفواجًا، سَنَةَ الوفودِ وما بعدَها، وفيها دلالةٌ على ظهورِ أمرِ الإسلامِ وصحّتِهِ، ونُهُوضِ حُجّتِهِ، فآذنَتِ الآيةُ أنَّهُ ليسَ لَهُم سببٌ في بقائِهم على الشّركِ؛ هؤلاءِ الّذين بقَوا على الشِّركِ منَ العربِ بَعدَ فتحِ مَكَّةَ وظهورِ الإسلامِ سوى مَنافعَ يَجتنُونَها من عوائدِ قومِهم؛ من غاراتٍ يشنُّها بعضُهُم على بعضٍ، ومَحَبَّةِ الأحوالِ الجاهليَّةِ من خَمرٍ ومَيسرٍ وزنًى وغيرِ ذلكَ منَ المَذمَّاتِ واللَّذّاتِ الفائتةِ، وذلكَ شَيءٌ قليلٌ(2).

سببُ وصفِ الثّمنِ بالقليلِ:

كلُّ عرَضِ الدّنيا زائلٌ، وآياتُ الله ثوابٌ خالدٌ

لَمَّا كانَ ما حصَّلوُهُ بدلًا منَ الآياتِ، كانَ في سببِ وصفِهِ بالقليلِ - في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ - وجهان؛ أحدُهما: أنَّ أهواءَهُم وأغراضَهُم من عَرَضِ الدّنيا الّذي بقاؤُهُ قليلٌ غيرُ دائمٍ، فهو مَذمومٌ، وفيه كنايةٌ عن أنَّ الحرصَ على آياتِ اللّهِ والالتزامَ بها فيه الثّوابُ الدّائمُ المَحمودُ. والثّاني: أنّه حرامٌ، والحرامُ قليلٌ(3)، وفيه كنايةٌ عنِ التّعجيبِ من حالِهم، باشترائِهِمُ القليلَ الزّائلَ، بالكثيرِ الدّائمِ.

---

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/529، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون 2/244، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/239.

الوصفُ بالقليلِ يجعلُ الثّمنَ دونَ قيمةِ المثمَّنِ

علّةُ التَّعبيرِ بالثَّمنِ (القليلِ):

قولُه: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾؛ في هذه الآيةِ استعملَ السّياقُ لفظَ (ثمنًا)، ووصفَهُ بقولِه: (قليلًا)، وقد استعملَ لفظَ (ثمنًا) إحدى عشرةَ مرّةً في القرآنِ، ووصفَهُ في إحداها مرّةً واحدةً بأنّهُ (بخس)، وفي البواقي بأنّه (قليل)، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]، وعليه فكلُّ ما كانَ حقًّا للّه فثمنُهُ قليلٌ؛ لأنّ حقوقَ اللّهِ لا كفاءَ لها، وعطاءَه لا نهايةَ لهُ، ولا يمكنُ الحصرُ للثّمنِ، ولا مقاربتُهُ إلّا أن يُوصَفَ بأنّه قليلٌ، وليسَ معنى ذلك أنّ الثّمنَ الكثيرَ يكافئُها أو يُساويها. ووَصفُ الثّمنِ بالقليلِ وَرَدَ تحقيرًا لشأنِ الثّمنِ، وتهوينًا من قيمتِه، وهو في غايةِ الإفصاحِ والبيانِ، وأمّا حقوقُ العبادِ فقد وُصِفَت بلفظِ (بخس)؛ أي: ناقِصٍ دُونَ ثَمنِه، وباعَهُ بثمنٍ بَخسٍ؛ أي: مَبخوس.

مَنْ ضلَّ عن الحقِّ وأضلَّ غيرَهُ فقد جمعَ السُّوءَ كلَّهُ

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَصَدُّواْ﴾:

أفادتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ؛ بمعنى: أنَّ اشتراءَهُمُ الثَّمنَ القليلَ مِنَ المنافعِ والأهواءِ، وإيثارَهم البقاءَ على الكفرِ تسبَّبَ عليهِ أنْ يَصُدُّوا النَّاسَ عن سبيلِ اللّهِ، واتّباعِ دينِه، وأنَّ الصَّدَّ جاءَ عَقِبَ الاشتراءِ(1)، ولمّا كانَتِ الفاءُ حرفَ عطفٍ يفيدُ الجمعَ، دلَّ على أنّهُم جمعُوا السُّوءَ كلَّهُ، بضلالِ أنفسِهم وإضلالِ النّاسِ.

سبيلُ اللهِ وحدَها المُوصلةُ إلى المقصدِ الأسنى، وهو رضا اللهِ

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿فَصَدُّواْ﴾:

عُبِّرَ بـ ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ ليكونَ استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً، إذ مثَّلَ حالَ المشركينَ الّذين يمنعونَ النّاسَ عن اتّباعِ دينِ اللّهِ بحالِ مَن يصدُّ النَّاسَ بقوّةٍ عنِ السّيرِ في طريقٍ تُبلِّغُ إلى المَقصُودِ، ويَحُولُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/12.

بينَهُم وبينَها[1]، وفيهِ إيذانٌ بأنَّ سبيلَ اللّهِ هي المُوصلةُ إلى المَقصدِ الأسنى، وهو رضا اللّهِ ومحبّتُهُ وجنّتُهُ.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿فَصَدُّواْ﴾:

الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ يشملُ منعَ المؤمنينَ والرّاغبينَ في الإيمانِ

لّما كانَ الصَّدُّ بمعنى: الإعراضِ، وبمعنى: المنعِ والصَّرفِ، وكانَ المفعولُ مَحذوفًا دلَّ على أنّ المُرادَ: عدلُوا عن سبيلِهِ، وصَدُّوا كلَّ قاصدٍ عنهُ؛ لِيشملَ المُؤمنينَ السَّائرينَ في سبيلِهِ، والرّاغبينَ في السَّيرِ في سبيلِهِ؛ أي: مَن آمنَ، ومَن أرادَ أن يُؤمِنَ، فيكون الحذفُ أقضى لحقِّ البلاغةِ نَظمًا ومعنًى؛ لِلإشعارِ بظلمِهِم وبشدَّةِ قبحِ أعمالِهِم[2].

فائدةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿سَبِيلِهِۦٓ﴾:

رغبةُ الكافرينَ في الصَّدِّ عن كلِّ ما يُوصِلُ إلى رضا اللهِ

للإيذانِ بأنّهم صَدُّوا المؤمنينَ والرّاغبينَ في الإيمانِ عن كُلِّ ما يُوصِلُ إلى اللّهِ، ولو قالَ: (فصدُّوا عن سبيلِها)، بأنْ يعودَ الضَّميرُ إلى الآياتِ لكانَ المعنى: عنِ الوصولِ إليها، فلمّا قال: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾كانَ الذَّمُّ أعمَّ؛ لِصدِّهِم عَن كلِّ مَا يُوصِلُ إلى اللّهِ، وكانَ أقبحَ لتعليقِ الصَّدِّ باللّهِ تعالى، فالإضافةُ لتشريفِ السّبيلِ وتعظيمِهِ[3].

دلالةُ ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ يشملُ الصّدَّ عن زيارةِ بيتِهِ المُعظَّمِ

يحتملُ أن يكونَ المعنى: فصدُّوا عن دينِهِ المُوَصِّلِ إليهِ، فيكون التّعبيرُ بالسّبيلِ على طريقِ المجازِ، أو أن يكونَ المعنى: فصدُّوا عن سبيلِ بيتِهِ بحصرِ الحُجّاجِ والعُمّارِ، فيكونُ منَ الحقيقةِ، والأوّلُ أعمُّ وأظهرُ وأشنعُ مِن كلِّ شنيعٍ[4]؛ لأنَّ صدَّ الحُجّاجِ والعُمّارِ عنِ الوصولِ إلى بيتِهِ، يَدخلُ في الصَّدِّ عن دينِهِ الموصِّلِ إليه ﷻ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/151، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/167.

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على مُقتضَى الظّاهرِ:

لم يقُلْ: (فصَدُّوا عن سبيلِ اللّهِ)، بل جاءَ بالضّميرِ فقالَ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ لِقُربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ؛ ليكونَ على مُقتضى الظّاهرِ للإيجازِ، وليكونَ المرادُ مِنَ الضّميرِ عينَ المذكورِ أوّلًا؛ إيذانًا بأنَّ آياتِ اللّهِ الّتي استبدلُوهَا هي مِن سبيلِه المُوصِّلِ إليه ﷻ.

آيـــاتُ الـلـهِ الّتي يزهَدُ بها الـكـافـرونَ هي مِـنَ الـسَّـبـيـلِ الموصِّلِ إلى اللهِ تعالى

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالجملةِ الابتدائيّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بطريقِ الاستئنافِ الابتدائيِّ، ففُصِلَتْ عَنِ الّتي قبلَها؛ لِيظهَرَ استِقلالُها بالإخبارِ بذمِّهم، وذمِّ عملِهم، فتفيدُ ثبوتَ المعنى واستقرارَه فيهم، فكانَ لا ينبغي أنْ تُعطَفَ في الكلامِ، إذِ العطفُ يَجعَلُ الجُملةَ المعطوفةَ بِمَنزِلةِ التَّكمِلَةِ للمَعطوفَةِ عليها، وافتُتِحَت بحرفِ التّأكيدِ لتأكيدِ ذمِّهِم[1].

اسـتـئـنـافُ الـكـلامِ لِيظهرَ ذمُّ الـكـافـريـنَ، ويـسـتـقـلَّ في الكلامِ

دلالةُ (إنَّ) والضمير المتصل بها في ﴿إِنَّهُمۡ﴾:

تفيدُ (إنَّ) تأكيدَ مَضمونِ الجملةِ؛ إيذانًا بأهمّيَّةِ الخبرِ، ولتقريرِهِ في نفوسِ المُخاطَبين. ويَعودُ الضّميرُ إلى المُشركينَ مع الأوصافِ الّتي وُصِفُوا بها، ويدخلُ فيها دخولًا أوّليًّا اشتراؤُهم بآياتِ اللّهِ ثمنًا قليلًا؛ ليكونَ الخبرُ في قولِه: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ شاملًا كلَّ ما ذكرَ؛ لِيُفيدَ الخبرُ ذمَّ ذواتِهم على اتِّصافِهم بهذهِ الأعمالِ؛ لِوقوعِ الجملةِ خبرًا عنِ الضّميرِ، ولِيُفيدَ ذمَّ عملِهم بدلالةِ المُطابقةِ على ذمِّ عملِهم، فيكون تأكيدًا وتقريرًا.

ذمُّ ذواتِ المُشركينَ لاتِّـصـافِـهـم بـالـشّـركِ، وذمُّ عملِهمِ الـصّـادرِ عنِ الشِّركِ

دلالةُ الفعلِ ﴿سَآءَ﴾:

يحتملُ الفعلُ ﴿سَآءَ﴾ في قولِه: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنْ يكونَ مِن أفعالِ الذَّمِّ، مِن بابِ بِئسَ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، وتقديرُ الكلامِ: (ساءَ العملُ ما كانُوا يعملونَ) أو (ساءَ ما كانُوا يعملُون

اشـتـراءُ الأهـواءِ بآياتِ اللهِ عملٌ سيئٌ، ويَـسُـوءُ صاحبَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

عملُهُم)، ويحتملُ أن يكونَ على بابِه: فإمَّا أن يكونَ فعلًا لازمًا؛ بمعنى: قَبُحَ مُضمَّنًا معنى بئس؛ لتكثيرِ المعنى، ولهذا اقتُصِرَ على الفاعلِ؛ والمعنى: ساءَ ما كانوا يَعملُونَ، وبئسَ ما كانوا يَعملونَ، فيفيد تقبيحَ ما يَعملونَ وذمَّهُ، وإمّا أنْ يكونَ فعلًا مُتعدِّيًا جامدًا حُذِفَ مفعولُهُ، كقولِهم: (ساءَني كذا)، والتَّقديرُ: إنّهُم ساءَهُم ما كانوا يَعملونَ، ونكتةُ حذفِ المفعولِ بيانُ أنَّ السُّوءَ قد صارَ وَصفًا لازمًا لكلِّ ما كانُوا يَعملونَ[1].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

اشتراءُ الأهواءِ بآياتِ الله سببٌ في سوءِ سائرِ الأعمالِ

عُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ولم يقل: (ساءَ الّذي كانُوا يَعملُونَ)؛ إشعارًا بسوءِ جميعِ عملِهِم، ويدخلُ فيه دخولًا أوّليًّا أعمالُهُم المذكورة في هذه الآياتِ، فكأنَّهم ليسَ لهم عملٌ سوى ما ذُكِرَ؛ تَعظيمًا لسُوءِ عملِهِم، وتقبيحًا له، وأيضًا لمّا كانَ هذا العملُ أقبحَ عملٍ وأفظعَهُ بعدَ الشِّركِ باللهِ كانَ سببًا في سوءِ سائرِ أعمالِهِم.

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

سوءُ العملِ وقبحُه دأبُ الكافرينَ في كلِّ وقتٍ

لم يقُلْ: (إنَّهم ساءَ عملُهم)، بل عبَّر عن عملِهم بصيغةِ (كانَ يفعل) الدّالَّةِ على الدّوامِ والاستمرارِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَا ذُكِرَ من عملِهِم المتقدِّمِ - أي: نقضِهِمُ العهودَ، وانتفاءِ مُراقبتِهِم الإلَّ والذِّمَّةَ للمؤمنينَ، واشترائِهِم بآياتِ اللّهِ الثّمنَ القليلَ، وصَدِّهم عن سبيلِ اللّهِ - كلُّ هذا مُستمرٌّ، وأنَّه دَأبٌ لَهُم، ومُتَكرِّرٌ منهُم، فهُم يُجدِّدُونَ عملَهُ في كلِّ وقتٍ، كما أنَّ في التّعبيرِ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مُراعاةٌ للفاصلةِ[2].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/167.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/389، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 530، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

دلالةُ صلةِ الموصولِ في ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

لمّا كانَت صلةُ الموصولِ مَعلومةَ الانتسابِ عندَ المُخاطَبين دلَّ على أنّ المُشرِكينَ كانوا يَعلمونَ سوءَ عملِهم مع إصرارِهم عليه؛ لأنّهُم في فعلتِهم تلك ساءَ ما كانُوا يعملونَ، فَهُم "لا عقيدةَ تَزَعُهُم، ولا مروءةَ تردعُهُم، خارجونَ مِن أصولِ الدّينِ والمروءةِ والأخلاقِ، مُتجاوزونَ حدودَ الصِّدقِ والوفاءِ، مُتحلِّلونَ مِن قيودِ العهدِ والميثاقِ".

مَن لا عقيدةَ تَزَعُهُ، ولا مُروءةَ تردعُهُ سيُودي به عملُهُ

فائدةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

أفادَ حذفُ المفعولِ أنَّ عملَهُم الموصوفَ بالسُّوءِ، لا يقتصرُ على الكفرِ باللّهِ، بل يشملُ عملَهُم مع أنفسِهِم ومعَ النّاسِ، ويُحتملُ أن يكونَ المُرادُ لزومَ السُّوءِ في أيِّ عملٍ يَعملونَهُ إنْ أُريدَ بالفعلِ اللّزومُ، فيفيد سوءَ عملِهِم مع اللّهِ ومع النّاسِ أيضًا، فالمآلُ واحدٌ.

سوءُ عملِ الكُفَّارِ لا يقتَصِرُ على الكفرِ بالله، بل يشملُ كلَّ أعمالِهم

فائدةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

أفادَ مجيءُ خبرِ (إنَّ) جملةً فعليَّةً في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تَقوِّي الحُكمَ بنفسِ التّركيبِ، والمُرادُ تحقيقُ سُوءِ عملِهِم دونَ تخصيصِ سُوءِ العملِ بهِم[1]، وعملُهُم المذكورُ في لفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ يشملُ مَا كانُوا يعملونَ مِن اشتراءِ الكُفرِ بالإيمانِ، والضّلالةِ بالهدى، والصُّدودِ والصَّدِّ عن دينِ اللّهِ، وما جاءَ بِهِ رسولُهُ مِنَ البيِّناتِ والحقِّ[2].

الجزاءُ مِن جنسِ العملِ، ولا يُظلَمُ أحدٌ شيئًا

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الثّمنُ القليلُ والثّمنُ البَخسُ:

الثّمنُ القليلُ جاءَ في القرآنِ للتّعبيرِ عن آياتِ اللّهِ، وعن عهدِ اللّهِ سبحانَهُ؛ وذلك لأنّ مُقابلَ العدوانِ على حقِّ اللّهِ، مهما بَلَغَ فهو ثمنٌ قليلٌ، وفي ذلك يقولُ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، فلا ثمنَ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

(2) رضا، تفسير المنار: 10/168.

الثّمنُ القليلُ: ما كانَ دونَ قيمةِ المثمَّنِ حقيقةً، والبخسُ: نقصُ الشّيءِ ظُلمًا

يُناسِبُ آياتِ اللّهِ ﷻ، ومهما كانَ الثّمنُ فهو قليلٌ؛ لأنّ عظمةَ آياتِ اللّهِ لا تُقدَّرُ بثمنٍ محدودٍ، ولا بِعوضٍ مَعدودٍ، وفي القرآنِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77]؛ ويعني الثّمنُ القليلُ هنا: "حطامُ الدّنيا الزّائلُ الفاني"[1]، وأمّا قولُهُ: (ثمن بخس) فمعناهُ: قليلٌ، وقد وَرَدَ في قولِهِ تعالى في قِصّةِ يُوسفَ: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]، وعلى الأقوالِ كُلِّها: "فالبَخسُ في اللّغةِ: هو نقصُ الشّيءِ على سبيلِ الظّلمِ. والبخسُ والباخسُ الشّيءُ الطّفيفُ، وقولُهُ: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ فيه إشارةٌ إلى قلَّةِ تلك الدّراهمِ"[2].

(1) الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 69.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/519.

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾

[التّوبة: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ اللّهُ تعالى بعراقتِهم في الفِسقِ، وأنَّهم اشترَوا بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلًا دلَّ على أنَّ خيانتَهُم للّه وللمؤمنينَ، وعدمَ مُراعاتِهم حقَّ الحِلفِ والعهدِ خلقٌ مُتأصِّلٌ فيهم، سواء؛ أكانوا أقوياءَ أم مُستضعفِينَ، وأنَّ خيانتَهُم ليسَت خاصَّةً بالمُخاطَبينَ، بل عامّةٌ لكلِّ مَنِ اتَّصفَ بصفةِ الإيمانِ(1).

مَن شَرَى بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلًا لـم يَـرقُـبْ في المؤمنينَ إلًّا ولا ذِمَّةً

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على حولَ تَجَاوزٍ في الشَّيءِ وتَقدُّمٍ لِمَا يَنبغِي أن يُقتَصَرَ عليهِ. والعَادِي: الّذي يَعدُو على النّاسِ ظُلمًا. والاعتداءُ مُشتَقٌّ مِنَ العُدوانِ، وهو مُجاوزةُ الحقِّ؛ أي: تَجَاوزُ ما يَنبغي أن يُقتصَرَ عليه ظلمًا صُراحًا. والاعتداءُ يكونُ على سبيلِ الابتداءِ، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: 190]، وعلى سبيلِ المُجازاةِ، كقولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194]، ومِنَ البابِ العَدُوُّ، و﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ بمعنى المُتجاوزينَ الغايةَ في الظُّلمِ والشَّرِّ(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يراعي المُشركونَ في مُؤمنٍ قَرابةً ولا عهدًا في أيِّ حالٍ، وأولئكَ الجامِعونَ لِلصِّفاتِ الذَّميمةِ شأنُهُم العدوانُ والظُّلم(3)، وهُم حربٌ

ذمُّ قطيعةِ الرَّحِمِ ونقضِ الذِّمَّةِ؛ لأنّها نقصٌ في المروءةِ، وثلمٌ في الدِّينِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدو)، وابن جرير، جامع البيان: 14/151، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/250.

(3) مجمَع البحوث الإسلاميّة بالأزهر، التّفسير الوسيط: 3/1664.

على الإيمانِ وأهلِه، فلا يُقيمونَ وزنًا لِقَرابةِ المُؤمنِ، ولا قيمةً لِعهدِه، بل شأنُهُم العدوانُ المُبيحُ، لكلِّ سَطْوٍ قبيحٍ، وما يَنجرُّ عن ذلكَ مِنَ الظّلمِ الصّريحِ، الّذي طالما أهلَكَ الحرثَ والنَّسلَ، وأظهرَ في الأرضِ الفَسادَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مُناسبةُ مَجيءِ الآيةِ بطريقِ الفصلِ دونَ الوصلِ:

ذمُّ الكافرينَ بسببِ أعمالِهم وقبائحِ أفعالِهم

جاءَتِ الآيةُ بطريقِ الفصلِ، إمّا لأنَّها بدلُ اشتمالٍ مِن قولِه في الآيةِ السّابقةِ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، أو مِنَ المَخصوصِ بالذَّمِّ المحذوفِ، الّذي هو بتقديرِ: (عملُهم)؛ لِيُظهِرَ بمَجموعِ المُبدلِ منهُ والبدلِ مَزيدَ الاعتناءِ بالشَّأنِ[2]، فتكون الآيةُ تفسيرًا لِلمَخصوصِ بالذَّمِّ، ولِلإيذانِ بأنَّ ذمَّهُم كانَ لأعمالٍ ارتكبُوها، ومن أهمِّ ما اشتملَت عليه: أنّهم كانوا ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾، وإمّا استئنافًا بيانيًّا؛ لِتكونَ جوابًا لِسؤالٍ تقديرُهُ: هل كانَت خيانتُهُم لإحَنٍ وضَغائنَ بينَ الفريقينِ، أو لأنَّها تقعُ في وقتِ ظهورِهِم وقوّتِهم على المؤمنينَ؟ فجاءَتِ الآيةُ لِتفيدَ أنَّ خيانتَهُم بسببِ وصفِ الإيمانِ خاصَّةً، كما أنَّ الآيةَ أفادَت معنًى أعمَّ وأوسعَ ممَّا أفادَهُ قولُهُ: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ [التوبة: 8]؛ لأنَّ إطلاقَ الحكمِ عنِ التَّقييدِ بشرطِ ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ يفيدُ أنَّ عدمَ مُراعاتِهم حقَّ الحلفِ والعهدِ خُلُقٌ مُتأصِّلٌ فيهم، سواءٌ كانوا أقوياءَ أم مُستضعفينَ، وأنَّ ذلكَ لِسُوءِ طويَّتِهم لِلمُؤمنينَ لأجلِ إيمانِهم، وعلى كلا التّوجيهين لا تكريرَ في الآيةِ، فعلى الوجهِ الأوّلِ تكونُ تفسيرًا وبيانًا لِما تقدَّمَها، وعلى الثّاني تكونُ جوابًا لِسؤالٍ اقتضاهُ المَقامُ[3].

---

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.

(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 253.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/666، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/167، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

فائدةُ التّقديمِ في قولِهِ: ﴿فِي مُؤۡمِنٍ﴾:

عدمُ مُراعاةِ الكافرينَ العهدَ والذِّمَّةَ مخصوصٌ بالمؤمنينِ

لمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي مُؤۡمِنٍ﴾على المفعولِ به ﴿إِلّٗا﴾ دلَّ على حصرِ نفي رقابتِهم بالمؤمنِ، واهتمامِهم به، إشعارًا بعظيمِ ضغينتِهم وعداوتِهم له، وتقريرًا لَمَا تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ مِن تقديمِ ﴿فِيكُمۡ﴾، وهُم لا يَرقُبونَ في المُؤمنينَ - على الخصوص - الإلَّ ولا الذِّمَّةَ، ويَعتبرون الإساءةَ لِلمُؤمنينَ جائزةً، بينما تعامُلُهُم مع بعضِهم مِن ملَّتِهم لا يكونُ على نفسِ الشّاكلةِ، وهو شبيهٌ بما كانَتِ اليهودُ تفعلُهُ مع العربِ والمُسلمينَ، ممّا ذكرَهُ اللّهُ في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران: 75].

بلاغةُ التَّغليبِ للذَّكرِ على الأنثى:

مِن شأنِ المُقاتَلةِ أن تكونَ بينَ الرِّجالِ عادةً

عُبِّرَ بالمُؤمنِ في قولِهِ: ﴿فِي مُؤۡمِنٍ﴾ على سبيلِ التّغليبِ؛ لأنَّ المرادَ المؤمنُ والمؤمنةُ، ونكتةُ التّغليبِ أنَّ نقضَ العُهودِ غالبًا ما يكونُ في الحروبِ، ومِن شأنِ الحروبِ والمُقاتلةِ أن تكونَ بينَ الرِّجالِ، فعُبِّرَ بالمُؤمنِ تغليبًا.

بلاغةُ الإطنابِ في ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ﴾:

الإطنابُ البليغُ في الإفصاحِ، كالإيجازِ المُبينِ في الجملِ الفِصاحِ

قولُ اللّهِ تعالى: "﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ﴾، جاءَتِ العبارةُ لمزيدِ التّشنيعِ والتّقبيحِ عليهم؛ لأنّ مَقامَ الذَّمِّ كمَقامِ المدحِ؛ البلاغةُ فيه الإطنابُ[1]، وهو بابٌ مِنَ البلاغةِ أثيرٌ، إذا كانَ مُتلائِمًا مع السّياقِ، وخادمًا للمعنى، ومُفصِحًا ببيانٍ عنِ المُرادِ، دونما مُبالغةٍ فيه، كما كانَتِ الطّبقةُ الفصيحةُ من أربابِ البيانِ يَتوخَّونَهُ ويَشترِطونَ في فصيحِ الكلامِ أنْ يَنأى عَنِ الإيجازِ المُخلِّ، وأن يَتنزَّهَ عَنِ الإطنابِ المُملِّ.

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 11/156.

الوصفُ المُوجِبُ لعداوةِ الكافرينَ لِلمُؤمنينَ هو الإيمانُ باللهِ وبرسولِهِ

سرُّ صيغةِ المُشتقِّ في قولِه: ﴿فِي مُؤۡمِنٍ﴾:

لمّا علَّقَ النّفيَ بالاسم المُشتقِّ ﴿مُؤۡمِنٍ﴾ دلَّ على عِلّيّةِ المأخذِ ومَنزعِ الاشتقاقِ، فهو إعلامٌ بأنَّ الوصفَ المُوجِبَ لِلعَداوةِ هو الإيمانُ فقط؛ أي: إنَّ ذنبَ المؤمنِ في هذا عندَهُم هو كونُهُ مُؤمنًا، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: 8]، وسببُ مَجيءِ الاسمِ المُشتقِّ: أنَّه لمّا قالَ أوّلًا: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ﴾ كانَ يُحتمَلُ أن يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ ذلِكَ لِلإحَنِ الّتي وقعَت، فَزالَ هذا الاحتمالُ، ونبَّهَ على العلَّةِ في ذلك بقولِه: ﴿فِي مُؤۡمِنٍ﴾[1].

المؤمنُ كيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ، لا يَغفلُ عن خيانةِ الأعداءِ وغدرِهم

فائدةُ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿مُؤۡمِنٍ﴾:

لمّا جاءَ الاسمُ النّكرةُ في سياقِ النّفيِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ﴾؛ أفادَ العُمومَ؛ بمعنى: لا يَرقُبونَ في أيِّ مُؤمنٍ إلَّا ولا ذِمَّةً، فيشمل كلَّ مُؤمنٍ منَ المُخاطَبين وغيرِهم، من حيثُ إنَّهُ مُؤمنٌ[2]، ففيه حثٌّ لكلِّ مُؤمنٍ على أن يتنبَّهَ للكُفَّارِ، ويحذرَ من خيانتِهم وغدرِهم.

اقترانُ اعتداءِ الكافرينَ بوقتِ عدمِ مُراعاتِهم عهدَ المُؤمنينَ وذِمّتَهُم

دلالةُ الواوِ في لفظِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تحتملُ (الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ أن تكونَ حاليّةً؛ بمعنى: أنّ كونَهم مُعتدين مُقترنٌ بوقتِ عدم رقابتِهم في مُؤمنٍ إلَّا ولا ذِمَّةً، غيرُ مُنفكٍّ عنهُم، ولمّا اجاءَتِ الجملةُ الحاليّةُ اسميَّةً، دلَّ على ثبوتِ هذا الوصفِ لَهُم، وحصرِهِ بِهِم كما سيأتي، وتَحتملُ أن تكونَ عاطفةً؛ لِتكونَ الجملةُ الاسميّةُ مَعطوفةً على الجملةِ الفعليّةِ في قولِه: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾؛ لِمُناسبةِ أنَّ إثباتَ الاعتداءِ العظيمِ لَهُم نشأَ عنِ الحقدِ، فالضَّغينةِ الّتي أضمرُوها لِلمُؤمنينَ، لا لشيءٍ إلّا لأنَّهُم

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/168.

مُؤمنونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: 8][1].

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة:

التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ إلى الصّنفِ الّذي اجتمعَت فيهم الأوصافُ الذّميمةُ

اسمُ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ لا يُقصَدُ به هنا - في قولِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ - الإشارةُ إلى ذواتٍ مُعيَّنةٍ، ولكن إلى صنفٍ اجتمعَت فيهم تلك الأوصافُ الذَّميمةُ، فلمّا انكشفَت أحوالُهُم حتَّى صاروا كالحَاضِرينَ تجاهَ السَّامعِ، بحيثُ يُشارُ إليهم عُبِّرَ عنهم باسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ والمعنى: (الجَامِعُونَ لِتلكَ الأَوصَافِ الذَّميمَةِ)[2].

دلالةُ الجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾:

عادةُ الكافرينَ المبالغةُ في تعدّي حدودِ اللهِ؛ لانتفاءِ الوازعِ الدِّينيِّ عندَهُم

لمّا كانتِ الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على الثُّبوتِ أفادَ الكلامُ أنّهم كما خانُوا ولم يراعُوا العهودَ فيما مَضى، فإنَّهم كذلك يَفعلونَ فيما يأتي، والمعنى: عادتُهُمُ المُبالَغَةُ في حَملِ أنفسِهم على أنْ يتعدَّوا الحدودَ؛ لعدمِ ما يَرُدُّهم عَن ذَلِكَ مِن وازعٍ إلهيٍّ ورادعٍ شَرعيٍّ[3].

دلالةُ القصرِ بضميرِ الفصلِ في ﴿هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾:

التَّطوُّعُ لِلعدوانِ دليلٌ على أصالةِ الشَّرِّ في نفوسِهِم اللّئيمةِ

لمّا ضمَّ المُشركونَ إلى كفرِهِم الخيانةَ، وعدمَ الحميَّةِ صحَّ قصرُ الاعتداءِ عليهم بضميرِ الفصلِ ﴿هُمُ﴾، وقَوَّى هذا القصرُ مَجيءَ خبرِ المبتدأ مُعرَّفًا بـ(أل)، والقصرُ هنا إمَّا أن يكُونَ لِلمُبالَغةِ في اعتدائِهم، فكأنَّهُ ليسَ هناكَ قومٌ مُعتدونَ سِواهم؛ لِمَا تفيدُهُ (أل) الجنسيّة في ﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ مِن استغراقِ كلِّ معاني الاعتداءِ؛ لأنَّهُ اعتداءٌ عظيمٌ مخفيٌّ على قومٍ حالَفُوهُم وعاهَدُوهُم، ولم يُلحِقُوا بهم ضُرًّا مع تمكُّنِهِم منهُ، ولأنّهُم دونَ أن يُعتدَى عليهم تطوَّعوا بالعدوانِ على دينِ اللّهِ، وعلى رسولِهِ ﷺ وعلى المُؤمنينَ، بسببِ وصفِ الإيمانِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/389، ورضا، تفسير المنار: 10/169.

كما أنّهُم قامُوا بالعدوانِ على أنفسِهم، في اشترائِهِمُ الثّمنَ القليلَ بآياتِ اللّهِ، وإمّا أنْ يكونَ قصرَ قَلبٍ؛ بمعنى: هُمُ المُعتدونَ لا أنتُم؛ لأنَّهُم هُم بَدَؤُوكُم بنَقضِ العهدِ[1].

سببُ إيثارِ الإخبارِ عنهُم بلفظِ ﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾:

نهايةُ الذَّمِّ الوصفُ بالاعتداءِ؛ لأنّ بواعثَها الكراهيّةُ والكفرُ والطّغيانُ

لمّا كانَ الاعتداءُ يأتي على سبيلِ الابتداءِ، وعلى سبيلِ المُجازاةِ وصفَهُم اللّهُ تعالى في قولِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ بابتداءِ الاعتداءِ، ونقضِ العهودِ، والتَّعَمُّقِ في الباطلِ[2]؛ إيذانًا بظلمِهِم وقبيحِ عملِهِم؛ ليكونَ الوصفُ على نهايةِ الذّمِّ، "ذلك أنّ سمةَ العدوانِ أصليّةٌ فيهم، فمن شأنِهم عدمُ التّقيُّدِ بالعُهودِ، بحكم عنادِهِم وكفرِهِم وكراهيتِهِم للإيمانِ، ولا علاجَ لهؤلاء أبدًا إلّا الإجبار على الرّجوعِ عنِ الكفرِ، والاعتصامِ بالإيمانِ"[3].

دلالةُ صيغةِ ﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾:

تكلُّفُ الكافرينَ ثقلَ الاعتداءِ على المُؤمنينَ، حتَّى صارَ وَصفًا ثابتًا لَهُم

لمّا كانَت صيغةُ ﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ مُشتقٍّ مِنَ الفعلِ (يَعتدي) على وزن (يَفتعل) دلَّ على تكلُّفِهِم في الاعتداءِ على حدودِ اللّهِ، وحملِ أنفسِهِم عليه، بحيث اتّخذُوهُ وَصفًا لَهُم، كما تفيدُ الصِّيغةُ المُبالَغةَ في الاجتهادِ في تعدِّيهم حتّى صارَ التَّعدِّي وَصفًا ثابتًا لهم، لا يتغيَّرُ[4].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الذِّمَّةُ والعهدُ:

هُنالك فرقٌ بينَ العهدِ والذِّمَّة، فالعهدُ عامٌّ في كلِّ أحدٍ من أهلِ الكتابِ أو غيرِ أهلِ الكتابِ، ويرجعُ العهدُ لوليِّ الأمرِ إن رأى المَصلحة

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4910.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/122.

(4) الرّضي، شرح شافية ابن الحاجب: 1/110، والحملاويّ، شذا العرف، ص: 33.

مثلًا في الصُّلحِ بينَه وبينَ أهلِ الكفرِ لِلانتفاعِ بِهِم، فهذهِ المَصالحُ تَرجعُ إلى تقريرِ وليِّ الأمرِ، والعهدُ مُصطلَحٌ قرآنيٌّ، قالَ تعالى في مُحكَمِ التّنزيلِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 4]، وأمّا الذِّمَّةُ فهي عَقدٌ والتزامٌ مع غيرِ المُسلمِ، فالذِّمّيُّ: هو مَن نزلَ وانضوى تحتَ رايةِ الإسلامِ، وتحتَ حُكمِهِ بشروطِ الإسلامِ وشروطِ وليِّ الأمرِ مُقابلَ الجزيةِ السَّنويَّةِ[1].

وبالتّالي فالذِّمَّةُ: عهدٌ يُعطى لغيرِ المُسلمينَ، مِنَ المُقيمينَ في دولةِ الإسلامِ، بالحفاظِ على أرواحِهِم وأموالِهِم وعدمِ المَساسِ بعقائدِهِم، بحيثُ تَكفلُ لهم الحريّةَ الدّينيّةَ، شريطةَ احترامِها، واحترامِ الأُطُرِ العامّةِ لِلمُجتمعِ المُسلمِ، وعدمِ التَّدخُّلِ في خصوصيّاتِهِ.

(1) محمّد حسن عبد الغفّار، شرح مختصر الصّارم المسلول: 4/7.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ [التّوبة: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّوبةُ وإقامةُ الشّعائرِ سبيلُ الأخوّةِ والحسبانِ في حوزةِ المُسلمين

لَمَّا بيَّنَ اللّهُ تعالى حالَ مَنْ لا يرقُبُ في المؤمنينَ إلًّا ولا ذِمَّةً، ويَنقُضُ العهدَ، ويَنطَوي على الخيانةِ، ويَتعدَّى ما حُدَّ لَهُ بيَّنَ من بَعدُ أنَّهُم إنْ أقاموا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ كَيفَ حُكمُهُم[1]، وأيضًا: لَمَّا بيَّنَ ما أوجبَ بُعدَ المشركينَ مِنَ المؤمنينَ ومُعاداتِهم لَهُم بيَّنَ ما يَصيرُونَ به أهلًا، فجاءَت هذه الآيةُ[2]، وأيضًا: لمّا حَكَمَ على المُشركينَ بسُوءِ العملِ، وبأنّهُم مُعتدونَ في غايةِ العَداوةِ أعقبَهُ بهذهِ الآيةِ؛ ليكونَ مِن تعقيبِ الشِّدَّةِ باللِّينِ، إنْ هُم أقلَعُوا عن عداوةِ المُسلمينَ بأنْ دَخَلُوا في الإسلامِ؛ لِقصدِ مَحوِ أثرِ الحَنقِ عَليهِم إذا هُم أسلَمُوا؛ تنبيهًا لَهُم على أنَّ تدارُكَهُم أمرَهُم هَيِّنٌ عَليهِم، فيصيروا بعدَ توبتِهِم إخوانًا بعدَ أن كانُوا مُعتدِينَ، ففي الآيةِ ترغيبٌ بعدَ التّرهيبِ الواردِ في الآياتِ السّابقةِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾: أصلُ الكلمةِ (أَخَوٌ)، والمعنى مِنَ العُرْوَةِ أو نحوِها يُشَدُّ فيها الشّيءُ؛ أي: يُرْبَطُ كما تُرْبَطُ الدَّابّةُ في عروةِ الآخيةِ، ومِن هذا الأَخُ والأُختُ مِنَ النّسبِ، فالأخوانِ مُرتبطانِ بخروجِ كلٍّ منهُما مِن نفسِ الصُّلبِ أو البطنِ الّتي خَرَجَ منها الآخرُ، أو منهُما معًا، ففي الكلمةِ مَلحَظُ الارتباطِ، ولهذا سمّيَ المشاركُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/390.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127.

آخَرَ في الوِلادةِ مِنَ الطَّرفَين، أو مِن أحدِهما، أو مِنَ الرَّضاعِ أخًا، ولِلمَلحظِ ذاتِه استُعير في كلِّ ارتباطٍ لغيرِهِ في قبيلةٍ، أو في دينٍ، أو في صَنعَةٍ، أو في مُعامَلَةٍ، أو في مَودَّةٍ، أو في صَداقةٍ، أو تَلازمٍ في حالٍ، وفي غيرِ ذلكَ مِنَ المُناسباتِ، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ هوَ مِن الأخوّةِ المذكورةِ، حقيقةً كانت أو بمعنى الاقترانِ والارتباطِ أو المُجانسةِ المُلازمةِ(1)، والأخوّةُ هنا بالمعنى المجازيِّ؛ أي: أخوَّةُ المَودَّةِ والاقترانِ بسببِ الدّينِ.

2) ﴿وَنُفَصِّلُ﴾: "مِن (فصل)، الفاءُ والصّادُ واللّامُ كلمةٌ صحيحةٌ، تدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشّيءِ، وإبَانتِه عنهُ، يُقالُ: فَصَلتُ الشّيءَ فَصلًا، والفَيصَلُ: الحَاكِمُ. والفَصيلُ: وَلَدُ النَّاقةِ إذا افتُصِلَ عن أمِّه"(2)، الفصلُ يدُلُّ على تمييزِ الشّيءِ مِنَ الشّيءِ وإبانتِه عنهُ؛ أي: إبانةُ أحدِ الشّيئَين مِنَ الآخرِ، حتّى يكونَ بينهما فُرْجةٌ، ومنهُ قِيلَ: المَفَاصِلُ، الواحدُ مَفْصِلٌ، وتفصيلُ الشّيءِ: تبيينُهُ؛ أي: جعْلُه فصولًا مُتمايزةً، فيلزمُ منه إيضاحُهُ وانتفاءُ إشكالِه، و﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ في الآيةِ؛ بمعنى: نوضِّحُها ونبيِّنُها(3).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيانُ عظيمِ كرمِ اللهِ بقبولِ توبةِ الكافرِ، وإنْ كانَ مُعتدِيًا

فإنْ تابَ المُشركونَ مِن كفرِهم ورجعُوا إلى الإيمانِ باللّهِ، وأدَّوُا الصَّلاةَ المفروضةَ، وأعطَوُا الزّكاةَ الواجبةَ لِمُستحقِّيها، فهُم إخوانُكُم - أيُّها المُسلمونَ - في الإسلامِ، وفي الآيةِ إظهارُ عظيمِ كرمِ اللّهِ تعالى وجُودِهِ؛ إذِ القومُ قد افترَوا على اللّهِ كذبًا، وكذّبُوا رسولَ اللّهِ، وهمُّوا بقتلِهِ وإخراجِهِ مِن بينِ أظهرِهِم، وطعنُوا في دينِهِم، وعملُوا كلَّ بليّةٍ مِن نصبِ الحروبِ والقتالِ فيما بينَهُم، ثمَّ

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخو).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/152، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11.

إنَّه وعدَهُمُ التَّوبةَ والمَغفرةَ والتَّجاوزَ عمَّا كانَ منهُم إنْ تابوا، وجعلَ فيما بينَهُم الأُخوَّةَ والمودَّةَ بقولِه: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾:

تنبيهٌ إلى أنّ مِنَ الكافرينَ مَنْ يتوبُ ويكونُ صالحًا

تَحتملُ الفاءُ أن تكونَ سببيّةً؛ للإيذانِ بأنَّ توبيخَ المُشركينَ على شركِهِم وعملِ السُّوءِ، يكونُ سببًا لكونِهم فرقتين: فريقٌ منهُم تائبونَ وفريقٌ منهم نَاكِثونَ، كما تحتملُ أن تكونَ تَفصيلًا لحالِهم بعدَ بيانِ شناعتِهِم وشدَّةِ شكيمتِهم، تنبيهًا لِلمُؤمنينَ أن لا يَعدَموا خيرًا مِنَ الكافرينَ، فمنهُم مَن قد يتوبُ، ويكونُ صالحًا[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بأداةِ الشّرطِ ﴿فَإِن﴾:

قربُ التّوبةِ وسهولتُها والحثُّ عليها، ما دامَت قريبةَ التّحصيلِ

الأصلُ في أداةِ الشّرطِ (إنْ) أنّها تفيدُ الخلوَّ عنِ الجزمِ في الشّرطِ وندرةَ حصولِه، ولمّا اقترنَ بها الفعلُ الماضي ﴿تَابُواْ﴾ في قولِه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ دلَّت على الجزمِ؛ لِمَا يُؤذِنُ به الفعلُ الماضي مِنَ التَّحقُّقِ، فيكون الكلامُ جاريًا على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، ونكتتُهُ تنزيلُ المُخاطَبينَ مِنَ المُشركينَ مَنزِلةَ مَن هو من أهلِ الجهالةِ لعدمِ جريِه على مُوجِبِ العلمِ، بأن كانَ عليهم أن يُؤمنوا ويَعملُوا الصّالحاتِ بدلَ الإشراكِ باللّهِ وسُوءِ العملِ، ولِلإشعارِ بقربِ التّوبةِ منهُم وسهولتِها، وللحثِّ عليها ما دامَت قريبةَ التَّحصيلِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّوبةِ في قولِه: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾:

التّوبةُ مِنَ الكُفرِ مُضمَّنةٌ الرُّجوعَ إلى الإيمانِ

لمّا كانَتِ التّوبةُ بمعنى الرُّجوعِ عنِ الشّيءِ دلَّ على سُوءِ حالِهِم الّذي هُم عليه قبلَ التّوبةِ، ولمّا حَذَفَ متعلّقَ الفعلِ ﴿تَابُواْ﴾ دلَّ على أنَّ المُرادَ عمومُ التّوبةِ؛ لِتشملَ التّوبةَ مِنَ الكفرِ، فتكون مُضمَّنةً الرّجوعَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/307.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/168.
(3) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240.

إلى الإيمانِ؛ للإشعارِ بأنَّ الأصلَ هو الإيمانُ، ولتشملَ كذلك التّوبةَ مِن سُوءِ أعمالِهم، فبدأَ بها لأنّها الأصلُ، ثمَّ قَرَنَ بها إقامَةَ الصّلاةِ وإيتاءَ الزّكاةِ تنبيهًا على مَكانةِ الصّلاةِ والزّكاةِ عندَ اللّهِ تعالى[1].

سببُ اقترانِ إقامَةِ الصّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ بالتّوبةِ:

الأُخوَّةُ في الدّينِ مُسبَّبةٌ عَنِ التّوبةِ والصّلاةِ والزّكاةِ، وكمالُ الأُخوَّةِ بكمالِها

لمّا كانَتِ التّوبةُ عنِ الشِّركِ مُضمَّنةً الإيمانَ باللّهِ قرنَ به حقَّ اللّهِ بإقامةِ الصَّلاةِ، وحقَّ النّاسِ بإيتائِهم الزّكاةَ تعظيمًا لشأنِهما، فقد قرنَ اللّهُ الصّلاةَ بالزّكاةِ، ولمْ يرضَ بإحداهما دونَ الأخرى، وجعلَ الأُخوَّةَ مُسبَّبَةً عن هذه الشّروطِ الثّلاثةِ، فكمالُ الأُخوَّةَ بكمالِها[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾:

متى لم تُوجدِ الشّروطُ الثّلاثةُ لا تحصُلُ الأخوَّةُ في الدِّينِ

أفادَتِ الفاءُ ترتُّبَ الأُخوّةِ على حصولِ مَجموعِ المَعاطيفِ في جملةِ الشّرطِ، بمعنى حصولِ توبتِهم وإقامتِهمُ الصَّلاةَ وإيتائِهمُ الزّكاةَ؛ أي: متى لم توجدْ هذهِ الثّلاثةُ لا تحصُلُ الأخوَّةُ في الدِّينِ، وذَهَبَ الرّازيُّ رحمَهُ اللّهُ إلى أنَّ المُعلَّقَ على الشَّيءِ بأداةِ الشّرطِ (إنْ) لا يَلزَمُ من عَدَمِهِ عَدَمُ ذلك الشّيءِ، فلا تعدمُ الأخوّةُ إنْ كانَ لا يُؤتِي الزّكاةَ بأن كانَ فقيرًا لا مالَ له؛ لأنَّ المَرادَ التّنبيهُ على ما هوَ بالأحرى، وذهَبَ بعضُهُم إلى أنَّ المُعلَّقَ على الشَّيءِ بأداةِ الشّرطِ (إنْ) عَدَمٌ عندَ عدمِ ذلك الشّيءِ، فتكونُ المُؤاخَاةُ بالإسلامِ بينَ المُسلمينَ مَوقُوفةً على فعلِ الصّلاةِ والزّكاةِ جميعًا، فإنَّ حصولَ مَجموعِ المَعاطيفِ شرطٌ لِتَحقُّقِ الجزاءِ، ومَن لم يكنْ أهلًا لِوجوبِ الزّكاةِ عليهِ بأنْ كانَ فقيرًا وَجَبَ عليهِ أنْ يُقِرَّ بِحُكمِها، فإذا أقرَّ بهذا الحُكمِ دَخَلَ في الشّرطِ الّذي به تَجبُ الأُخُوَّةُ[3].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/534.

سرُّ الجملةِ الاسميّةِ في قولِه: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

الإيمانُ يقتضي ثباتَ الأُخُوَّةِ الدّينيّةِ ودوامَها

لَمّا كانَ جزاءُ الشّرطِ لا يكونُ إلّا جملةً، وكانَ ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾خبرًا لمبتدأ محذوفٍ - والتّقديرُ: فهُمْ إخوانُكم - أفادَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ أنَّ إيمانَهم يَقتضي ثباتَ أُخُوّتِهم للمُؤمنينَ ودوامَها، تنبيهًا على أنَّهم بتوبتِهم وما يتبعُها مِن إقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، يَعُودونَ كالمُؤمنينَ السّابقينَ مِن قَبلُ في أصلِ الأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ(1).

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾:

انتقالُ التّائبينَ مِنَ الكافرينَ إلى إخوانٍ بعدَ تَحقُّقِ الشُّروطِ الثّلاثةِ

أفادَتِ الإضافةُ التّخصيصَ؛ بمعنى: تخصيصِ أُخوّتِهم بكم، بسببِ إيمانِهم وتوبتِهم؛ أي: هُمْ إخوانٌ لَكُم، وليسَ لِمَن كانُوا معهُ على الكفرِ، فتنتقل أخوَّتُهم إليكم، وتكونُ مُختصَّةً بكُم بعدَ توبتِهم وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزّكاةِ، وضميرُ الخطابِ (كُمْ) يَعودُ إلى المؤمنينَ، فالخطابُ لَهُم(2).

فائدةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

مِن حقِّ الأُخوَّةِ ألَّا يُذكَرَ ما كانَ مِنَ المُذنبِ مِنَ المَساوئ

لَمّا جعلَ اللّهُ مِنَ الأُخوّةِ والمَودَّةِ فيما بينَ هؤلاءِ، إذا تابوا عن شركِهم وسُوءِ عملِهم، فقالَ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾؛ والمعنى: عَاملُوهُم مُعاملةَ الإخوانِ؛ أي: لَهُم مَا لَكُم، وعليهِم مَا عَليكُم، ولاتلتفِتوا إلى مَا سَلَفَ منهُم مِنَ المَثالِبِ والطُّغيانِ، وقد كانَ منهُم مَا كانَ؛ مِنَ الصَّدِّ، وزُهدِهِم بآياتِ اللّهِ، وحرصِهم على عرضِ الدّنيا.. دلَّ على أنَّ مَن كانَ له ذنبٌ أو جفاءٌ، ثمَّ رَجعَ عن ذلك وتابَ لَزِمَ أنْ يُتجاوَزَ عنهُ، وألَّا يُذكَرَ بعدَ ذلكَ مَا كانَ منهُ مِنَ الذَّنبِ، فمِن حقِّ الأُخُوَّةِ ألَّا يُذكَرَ مَا كانَ منهُم مِنَ المَساوئِ(3).

---

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/425، وابن جرير، جامع البيان: 14/152، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/168.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/307، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/168.

دلالةُ التقييدِ بـ ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

الأُخُوَّةُ في الدّينِ تَجمَعُ كلَّ مَن يؤمنُ باللهِ، ويُقيمُ الصّلاةَ، ويُؤتي الزّكاةَ

تقييدُ الجملةِ الاسميّةِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾ للتّخصيصِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ الأُخُوَّةَ أنواعٌ، ومِن أهمِّها وأعظمِها الأُخوَّةُ في الدِّينِ، إذ جعلَها جزاءً ومُكافأةً للتّوبةِ وما عَطَفَ عليها، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأُخُوَّةَ في الدّينِ تَجمَعُ كلَّ مَن يُؤمِنُ باللّهِ، ويقيمُ الصّلاةَ، ويُؤتِي الزّكاةَ.

بلاغةُ المجازِ بالظَّرفِ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

التّائبُ المُقيمُ الصّلاةَ المُؤتِي الزّكاةَ مُتمكّنٌ في الإسلامِ

الظَّرفيَّةُ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾ مَجازيَّةٌ، تَشبيهًا لِلمُلابسةِ القَوِيَّةِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظرُوفِ؛ زيادةً في الدَّلالةِ على التَّمكُّنِ مِنَ الإسلامِ، وأنَّهُ يَجُبُّ ما قبلَهُ[1]، "وهذهِ الأُخُوَّةُ أوّلُ مَزيّةٍ دُنيويّةٍ للإسلامِ، فإنّ المُشرِكينَ كانوا مَحرومينَ من هذهِ الأُخُوَّةِ العظيمةِ، بعضُهم حربٌ لبعضٍ في كلِّ وقتٍ إلّا ما يكونُ من عهدٍ أو جوارٍ، قلّما يفي به القَويُّ لِلضّعيفِ دائمًا"[2].

دلالةُ (أل) في قولِهِ: ﴿ٱلدِّينِۗ﴾:

وَحدةُ العقيدةِ والمِلَّةِ لِمَن يُوحّدونَ اللهَ تعالى

(أل) ههنا عهديَّةٌ؛ بمعنى الدِّينِ الّذي أمرَكُم اللّهُ بهِ، وهو الإسلامُ[3]، وإنّما عبَّرَ بالدِّينِ، ولم يقُلْ: إخوانُكُم في الإسلامِ؛ إشعارًا بوحدةِ العقيدةِ والمِلَّةِ لِمَن يُوحِّدُونَ اللّهَ تعالى، ولا يُشرِكونَ بهِ شيئًا، كما أنّ فيه تَنبيهًا على أنَّ الأُخُوّةَ تَقتضي القيامَ بشرائعِ الدّينِ.

سببُ إيثارِ الجزاءِ في قولِه: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

مِن أعظمِ مَزايا الإسلامِ الدُّنيويّةِ الأُخوَّةُ في الدّينِ

لمّا كانَ المُشرِكونَ مَحرومينَ من أُخوَّةِ الدّينِ، بعضُهم حربٌ لبعضٍ في كلِّ وقتٍ إلّا مَا يكونُ مِن عهدٍ أو جوارٍ قلَّما يفي به القَوِيُّ لِلضّعيفِ، وكانَ لِمَن يدخلُ في دينِ الإسلامِ أحكامٌ وحقوقٌ جمعَ ذلكَ كلَّهُ في جزاءِ الشّرطِ في بيانِ مَزايا الإسلامِ الدّنيويّةِ في قولِهِ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/128.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/169.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/152.

﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ جزاءِ الشّرطِ، وفيه مِن استمالةِ المُشركينَ واستِجلابِ قلوبِهم مَا لا مَزيدَ عليه، وأفادَ الجزاءُ تحريمَ دماءِ أهلِ القبلةِ؛ إذ قامَت وشيجةُ الأُخُوَّةِ في الدِّينِ مَقامَ أُخوَّةِ النَّسبِ(1).

مناسبةُ العطفِ في ﴿وَنُفَصِّلُ﴾:

التّوبةُ مِنَ الكُفرِ طريقٌ إلى العلمِ النّافعِ

عَطَفَ جملةَ ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ على جملةِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾؛ لأنَّها بها أَعلَقُ؛ لِمناسبةِ اجتماعِ الجهةِ الجَامعةِ بينَهُما، لأنَّهم إنْ تابُوا فَقَد صاروا إخوانًا لِلمُسلمينَ، فَصاروا من قومٍ يَعلمونَ؛ إذْ سَاوَوا المُسلِمينَ في الاهتداءِ بالآياتِ المُفَصَّلَةِ(2).

مُناسبةُ التَّذييلِ:

عـدمُ الاهـتـداءِ بآياتِ اللهِ ليس لـنـقـصٍ فـيـهـا، فإنَّما يَهتدي بها قومٌ يَعلمون

مُناسبةُ مَوقعِ جملةِ التّذييلِ ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ عَقِبَ قولِه: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [التوبة: 9] أنَّه تضمَّنَ أنَّهُم لم يَهتدُوا بآياتِ اللهِ، ونَبذُوها على عِلمٍ بِصِحّتِها، كقولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: 23]، وباعتبارِ مَا فيه مِن فرضِ توبتِهم وإيمانِهم إذا أقلَعُوا عن إيثارِ الفَسادِ على الصَّلاحِ، فكانَ قولُهُ: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ جَامعًا لِلحَالَينِ، دالًّا على أنَّ الآياتِ المَذكُورةَ آنفًا في قولِه: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [التوبة: 9] آياتٌ واضِحةٌ مُفصَّلَةٌ، وأنَّ عَدَمَ اهتداءِ هؤلاءِ بها ليسَ لِنَقصٍ فيها، ولكنَّها إنّما يَهتدِي بها قومٌ يَعلَمُونَ، فَإنْ آمَنُوا فَقَد كانُوا مِن قومٍ يَعلَمُونَ(3).

بلاغةُ الجمعِ بينَ الاعتراضِ والتَّذييلِ:

مَن تأمَّلَ تفصيلَ آيـاتِ اللـهِ فهو الـعَـالِمُ المُتبصِّرُ الحَصيفُ

أفادَت جملةُ ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ الاعتراضَ عندَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47، ورضا، تفسير المنار: 10/169.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/128.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/128.

بيانِ الصّنفين؛ أي: بينَ قولِه: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ وقولِه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾؛ لِتفيدَ الحثَّ على تأمُّلِ ما فُصِّلَ في الأحكام المُندَرجةِ في تضاعيفِها، والمحافظةِ عليها؛ أي: مِن أحكام المُعاهِدين، وخصالِ التّائبينَ، فكأنَّ مَن تأمَّلَ تفصيلَ الآياتِ فهُوَ العالمُ[1]، كما أنّها جملةٌ تذييليَّةٌ تفيدُ كلّيَّةَ مَضمونِه وعمومَهُ؛ لِتكونَ كالمَثَلِ في جريانِها في الكلامِ، فيمكنُ أن يُتَمثَّلَ بها في كلِّ مَقامٍ مُناسِبٍ لِلمعنى.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

آياتُ اللهِ هي جميعُ آياتِ القرآنِ الكريمِ، وكلُّها مُعجِزٌ بليغٌ

تَحتملُ (أل) في قولِه: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أن تكونَ عهديَّةً، والمعنى: الآياتُ المعهودةُ في الخطابِ، والّتي يعيّنُها المقامُ، وهي الآياتُ المُتعلِّقةُ بأحوالِ المُشركينَ مِنَ النَّاكِثينَ وغيرِهم، وأحكامِهم حالتي الكُفرِ والإيمانِ، كما تَحتملُ أن تكونَ استغراقيَّةً؛ لِتشملَ جميعَ آياتِ القرآنِ الكريمِ، فَيندَرجُ فيها تلكَ الآياتُ اندراجًا أوّليًّا[2]، وهذا الوجهُ أَولى لعمومِ مَعناه، ويقوّيهِ أنَّ الجملةَ تذييليَّةٌ، تفيدُ عمومَ المعنى، وذَهَبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ المُرادَ بالآياتِ الحِججُ والأدلَّةُ على خلقِه[3].

فائدةُ التَّقييدِ بقولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾:

تنزيلُ العلمِ مَنزِلةَ العدمِ؛ لانعدامِ العملِ بهِ

لمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ تقييدًا لتفصيلِ الآياتِ وإيضاحِها فُهِمَ منهَا أنَّهُم إنِ اشترَوا بها ثمنًا قليلًا فَليسُوا مِن قومٍ يَعلمُونَ، فَنُزِّلَ عِلمُهُم حينَئذٍ مَنزلةَ عَدَمِه؛ لانعدامِ أثرِ العِلمِ، وهوَ العملُ بالعِلمِ، وفيه نداءٌ عليهم بِمُساواتِهِم لِغيرِ أهلِ العُقُولِ، كقولِهِ: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43][4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/250، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/530.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/152.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/128.

التَّفكُّرُ في آياتِ اللهِ وتدبُّرُها طريقٌ إلى العلمِ

لفظُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ بينَ الكنايةِ والمَجازِ:

لمّا كانَتِ الجملةُ تحثُّ على تأمُّلِ ما فُصِّل مِنَ الأحكامِ دلَّ على أنَّ المرادَ بالعلمِ صريحُه وكنايتُه؛ أي: العلمُ والتَّأمُّلُ، ويحتملُ أن يكونَ اللَّفظُ مَجازًا بعلاقةِ السَّببيَّةِ، فيكون العلمُ سَببًا لِلتَّأمُّلِ؛ لأنَّ المقصودَ حثُّهم على التَّفكُّرِ في آياتِ اللهِ وتدبُّرِها[1].

مَنْ تأمَّلَ تفصيلَ الآياتِ فهو العالِمُ حقًّا، والأخشى لله

بلاغةُ حذفِ مَفعولِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

حُذِفَ المفعولُ مِن قولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لتنزيلِ الفعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ، بمعنى: صارَ العلمُ سجيَّةً لهم؛ إذ أُريدَ به: لقوم ذوي عِلم وعقلٍ، فيكون المُرادُ: مَن تأمَّلَ تفصيلَها فهو العَالِمُ، ويحتملُ أن يكونَ المفعولُ مُقدَّرًا مِنَ السّياقِ؛ أي: يَعلَمُونَ ما فصَّلْنَاهُ، فيكون المُرادُ بـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَنْ شأنُه العلم، والوجهُ الأوّلُ أولَى لِعمومِه[2].

تجدُّدُ العلمِ بتجدُّدِ التَّفكُّرِ في آياتِ اللهِ

دلالةُ المضارعِ في ﴿وَنُفَصِّلُ﴾ و﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

جاءَ الفعلانِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ تجدُّدِ تفصيلِ الآياتِ وتوضيحِها، واستمرارِ تجدُّدِ علمِ القومِ؛ والمعنى: استمرارُ تفصيلِ الآياتِ ووضوحِها لهم بتجدُّدِ علمِهم؛ "أي: نوضّحُها ونميّزُها ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، فإليهم سياقُ الكلامِ، وبِهم تُعرَفُ الآياتُ والأحكامُ، وبِهم عُرِفَ دينُ الإسلامِ، وشرائعُ الدّينِ"[3].

اختلافُ جزاءِ الشّرطِ لاختلافِ المقامِ، لا لاختلافِ الشّرطِ

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ:

وردَتِ الآيتانِ في هذه السُّورةِ باتّفاقِ الشّرطِ واختلافِ الجزاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [التّوبة: 5]، وقالَ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/531، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/169.

(2) الطّيبيّ، حاشية على تفسير الكشّاف: 7/186، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/530، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/169.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 329.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التّوبة: 11]، ولاتكرارَ في الآيتين، وبيانُهُ: أنَّه لمَّا كانَ المَقامُ هنا لذكرِ اعتدائِهم على المؤمنينَ، ومُعاداتِهم لهم؛ إذْ قالَ قبلَ ورودِ هذه الآيةِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ جُعِلَتْ توبتُهُم سببًا لِلأُخُوَّةِ مع المؤمنينَ؛ ليكونَ الجوابُ حُكمًا بخلافِ المُعاداةِ ألبتَّةَ، بخلافِ مقامِ قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [التّوبة: 5]؛ حيث إنَّ المُعقَّبَ بالتّوبةِ هنالك هو الأمرُ بقتالِهم والتَّرصُّدِ لهم؛ إذْ قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾، فناسبَ أنْ يُفرَّعَ على توبتِهم أمرٌ بخلافِ ذلك، وهو عدمُ التَّعرُّضِ لهم بسُوءٍ؛ أي: بتخليةِ سبيلِهم، فاختلفَ جزاءُ الشّرطِ لاختلافِ المَقامِ لا لاختلافِ الشَّرطِ. وقد حَصَلَ مِن مَجموعِ الآيتين أنَّ توبتَهم تُوجِبُ أمنَهُم وأُخُوَّتَهُم. ومِن لطائفِ الآيتينِ أنْ جُعِلَتِ الأُخُوَّةُ مَذكورةً ثانيًا؛ لأنَّها أخصُّ الفائِدَتَين مِن توبتِهِم، ولأنَّ الأُخُوَّةَ سَببٌ لِلتَّخليةِ، فكانَت هذه الآيةُ مُؤكِّدةً لِأُختِها في أصلِ الحُكمِ[1].

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 133، وزكريّا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ [التّوبة: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا بيَّن السَّببَ المُوجِبَ لمُجازاةِ المُشركينَ من جنسِ عَمَلِهم، وهو البَراءةُ منهُم، وما يَتبعُ ذلكَ إلى أنْ خَتَمَ بتقديرِ تَوبتِهم، رَجَعَ إلى قَسيمِ قولِه: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ فقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ الآيةَ[1]. وأيضًا: لمّا استوفى البيانَ لأصنافِ المُشركينَ الّذين أمرَ اللّهُ بالبَراءةِ من عهدِهم بقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التّوبة: 3] وأطنبَ في الكلامِ لإبطانِهِمُ الغَدرَ، والّذين أمَرَ بإتمامِ عهدِهم إلى مُدَّتِهم مَا استقامُوا على العَهدِ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التّوبة: 4] الآياتِ، والّذينَ يَستَجيبونَ عَطَفَ عَلَى أُولئكَ؛ لِبيانِ الّذين يُجاهِرونَ بنَكثِ العَهدِ، ويُعلِنُونَ بما يُسخِطُ المُسلمينَ من قولِهِم[2].

تنوُّعُ مُناسباتِ الآيـاتِ قـوَّةٌ في إحكامِ بلاغتِها؛ لبيانِ مَصيرِ مَن تابَ ومَن نَكَثَ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾: الأصلُ في النَّكث: أن تُنقَضَ الخيوطُ الخَلِقَةُ الصُّوفِ وغيرِه، بعدَ إبرامِه في الأَكسِيَةِ والغَزلِ؛ لِيُعادَ فتلُهُ ونسجُهُ، فيدورُ المعنى المحوريُّ للكلمةِ على تَشعيثِ الشّيءِ المُلتئِمِ ونَقضِه، كالخيطِ والحبلِ وعُودِ السِّواكِ لمَا تشعَّثَ من رأسِه، فهو بمعنى النَّقضِ بعدَ الإحكامِ، كَمَا تُنكَثُ خيطُ النَّسائجِ بعدَ إبرامِها، واستُعيرَ مجازًا لِنَقضِ الأيمانِ أو العَهدِ والبيعةِ، وكلُّ ما في القرآنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/129.

مِنَ التّركيبِ - عدا نَكث الغزلِ في آيةِ النّحلِ [92] - فهوَ مِن نكثِ الأيمانِ والعُهودِ؛ أي: مِنَ النَّكثِ المجازيِّ(1).

2) ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾: جمعُ يمينٍ، مِنَ اليُمنِ، وأصلُ اليَمينِ هو يمينُ اليدِ؛ أي: الجارحةُ المعروفةُ، واليَمِينُ في الحِلفِ مُستعارٌ مِنَ اليدِ اعتبارًا بما يَفعلُهُ المُعاهِدُ والمُحالِفُ وغيرُهُ؛ لأنّ المُتحالِفِينَ كانُوا يَتماسحونَ بأيمانِهِم فيَتَحالَفونَ، وكلُّ ما جاءَ بلفظِ (أيمان) في القرآنِ فهوَ بمعنى الحِلفِ والأقسامِ(2)، "والجميعُ: الأَيْمان والأَيمُن. والعربُ تقولُ: لَيَمُنُكَ وأَيمُنكَ في الحلِفِ، يريدونَ به اليمينَ، ويُقالُ: بل يُريدونَ بها أيمن. ويُقال: لا أَيْمُنُك، كقولِكَ: لا واللّه"(3)، وَهِي كَقَولِهِم: يَمِينُ اللّهِ، كَانوا يحلفُونَ بهَا، قالَ امرُؤ القَيسِ:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللّهِ أبرَحُ قَاعِداً *** ولَو ضَرَبُوا رَأسِي لَدَيكِ وأوصَالي"(4)

3) ﴿وَطَعَنُواْ﴾: الطّعنُ: هو الضّربُ بالرّمحِ وبالقرنِ، وما يجري مَجرَاهُما، ويدورُ معنى الكلمةِ على نفاذٍ حادٍّ دَقيقٍ، أو نفاذٍ بحدَّةٍ في مادّةٍ قريبةٍ ليّنةٍ: كالرّمحِ في البَدنِ، وهوَ لا يُستعمَلُ إلّا إذا كانَ المَطعُونُ قريبًا، فلا يُقالُ طعنَهُ بالسَّهمِ، واستُعيرَ الطّعنُ لِلوقيعةِ في الشَّيءِ بالذّمِّ والعيبِ، ومِنَ المجازِ: طعنَ فيه بالقولِ إذا عابَهُ، ومنه: الطّعنُ في النَّسبِ، ومَنِ ابتدأَ بِشَيءٍ أو دَخَلَهُ فَقَد طَعَنَ فِيه، ولهذا يُقَالُ: طَعَنَ فلَانٌ في السِنِّ إذا دَخلَ فِيهَا(5).

4) ﴿أَئِمَّةَ﴾: جمعُ إمام، وهو المُؤتَمُّ بهِ، إنسانًا كأن يَقتَدِي بقولِهِ أو فعلِه، أو كتابًا، أو غيرَ ذلك، مُحِقًّا كانَ الإمامُ أو مُبطِلًا، والإمامُ مَا ائتُمَّ بِهِ سواءٌ أكانَ رئيسَ القومِ أم غيرَهُ، و﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾: رؤساءُ الكُفرِ وقادَتُهم الّذينَ ضُعَفاؤُهُم تَبَعٌ لَهُم؛ أي: الّذين بَلَغُوا الغاية في الكُفرِ، بحيث صارُوا قُدوةً لأهلِ الكُفرِ(6).

5) ﴿يَنتَهُونَ﴾: مِنَ النّهيِ، وهو ضدُّ الأمرِ، نَهاهُ يَنهاهُ نَهيًا، فانتهى وتَناهَى، أنشدَ سيبويه:

إِذا مَا انتَهَى عِلمِي تَنَاهَيتُ عِندَهُ *** أَطَالَ فَأملَى أَو تَناهَى فَأَقصَرَا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نكث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يمن).
(3) الخليل، العين: (يمن).
(4) القاسم بن سلّام، غريب الحديث: (يمن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طعن).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).

وتَناهَوا عنِ الشّيءِ: نَهَى بعضُهم بعضًا، وفي التّنزيلِ: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: 79]، وقد يجوزُ أن يكونَ معناه: يَنتهونَ[1]، ويدورُ معنى النّهي على تَحبُّسِ الشّيءِ في مكانِه وتوقُّفِه فيه لا يَتخطّاهُ، ومنهُ: النّهيُ ضدُّ الأمرِ، وهو مِنَ التَّحبُّسِ والتَّوقُّفِ عند حدٍّ في الأصلِ، ومنهُ: قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7]، فالنَّهيُ: طلبُ كفٍّ عن بدءِ أمرٍ أو عن استمرارِه، والانتهاءُ: الانزجارُ عمّا نُهِيَ عنهُ بالتَّوقُّفِ عنهُ[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

توجيهٌ بقتالِ مَن نَكَثَ الأيمانَ وطَعَنَ في الدّينِ حمايةً للنّفسِ والمِلّةِ

إنْ نقضَ هؤلاءِ المشركونَ عهودَهُم مِن بعدِ عهدِهِم معَكُم، وأظهرُوا الطّعنَ في دينِ الإسلامِ، فثلبُوهُ وعابُوهُ فقاتِلُوا رؤساءَ الكفرِ، إنّ زعماءَ الكفرِ لا عهدَ لَهُم، حتَّى يَنتهوا عمّا هُم عليهِ مِنَ الكفرِ؛ ونكثِ العهودِ وعداوتِهِم للإسلامِ[3]، وهذا الأمرُ بالقتالِ داخلٌ في الدّفاعِ المَشروعِ عنِ النّفسِ، وحمايةِ الأمّةِ مِنَ التّآمُرِ والاعتداءِ.

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ بالواو في ﴿وَإِن﴾:

الإيذانُ بأحكامِ القسمِ الآخرِ مِنَ المُشركينَ النّاكِثينَ أو العَازِمينَ عليه

عُطفَتِ الآيةُ في قولِه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ لِتكونَ مُقابلَ قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ لِمَا بينهما مِنَ الجهةِ الجامعةِ؛ للإيذانِ بأحكامِ القسمِ الآخرِ مِنَ المُشركينَ المُخادِعينَ، النّاكِثينَ أو العَازِمينَ على النَّكثِ؛ أي: وإنْ لَم يَفعَلوا ذلكَ - بأنْ نكثُوا عهدَهُم، وأظهَرُوا مَا في ضمائرِهِم مِنَ الشَّرِّ، وأخرجُوهُ مِنَ القولِ إلى الفعلِ، وطَعَنُوا في دينِكُم، وقَدَحُوا فيهِ بتصريحِ التَّكذيبِ، وتَقبيحِ الأحكامِ - ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾[4].

(1) ابن سيده، المحكم: (نهي).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نهي).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/153 - 154، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47، والبروسويّ، روح البيان: 3/390، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/244، ورضا، تفسير المنار: 10/172.

نكثُ العهودِ، والطّعنُ في الدّينِ، ديدنُ الكفرةِ المُراوِغينَ

بلاغةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾:

الأصلُ في أداةِ الشّرطِ (إنْ) أنّها تفيدُ الخلوَّ عنِ الجزم في الشّرطِ، وندرةَ حصولِه، ولمّا اقترنَ بها الفعلُ الماضي ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾؛ دلَّت على الجزم؛ لِمَا يُؤذنُ به الفعلُ الماضي مِنَ التَّحقُّقِ، فيكون الكلامُ جاريًا على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ، ونكتةُ مَجيءِ ﴿وَإِن﴾ تنزيلُ المُخاطَبينَ مِنَ المُشركينَ مَنزلةَ مَن هُوَ مِن أهلِ الجهالة؛ لِعدمِ جريِهِ على مُوجِبِ العلم؛ لِنكثِهم أيمانَهم وطعنِهم في دينِ الإسلام، ولِلإشعارِ أنَّ المُتوقَّعَ منهُم هو النّكثُ والطّعنُ؛ لِيؤذنَ بتحقُّقِ وقوعِهما في المُستقبلِ؛ لِمجيءِ الفعلين بصيغةِ الماضي[1].

فسادُ عملِ النّاكِثينَ العهودَ، وتقبيحُ فعلِهِم المشينِ

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾:

جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ، إذ شُبِّهَ نقضُ الأيمانِ بنكثِ الخيوطِ بعدَ نَسجِها وإبرامِها؛ إيذانًا بفسادِ عملِهم وتَقبيحًا لفعلِهم؛ لأنَّهم نقضُوا العهدَ بعدَ إحكامِه، فإنَّ النَّكثَ إذا وَقعَ وهو بعدُ في حالِ قوّتِهِ؛ أي: من دونِ مُقتَضٍ فهو فَسادٌ مَحضٌ، ويفوتُ به المطلوبُ.

متابعةُ الحِلفِ لِلعهدِ تقويةٌ له وحثٌّ على استدامةِ الوفاءِ به

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾:

عَبَّرَ عن نقضِ العهدِ بنكثِ الأيمانِ تَشنيعًا للنَّكثِ؛ لأنَّ العهدَ كانَ يقارِنُهُ اليمينُ على الوفاءِ، ولذلك سُمِّيَ العهدُ حِلفًا، وفيه إشعارٌ بتعظيمِ شأنِ الحِلفِ منذُ القِدَمِ[2]، وَمِنَ النَّكثِ قيلَ لِمَن يُبَايِعك على شيءٍ، ثمَّ ينقُضُ مَا أَعطَاكَ مِن نَفسِه: ناكث، وعادةً مَا يُستعمَلُ هذا اللّفظُ في نَقضِ الأيمانِ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/129.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النّحل: 91 - 92]، وهو استعمالٌ في غايةِ البلاغةِ، ويُؤيّدُ المعنى بجلاءٍ وقُوّةٍ(1).

دخولُ حرفِ الجرِّ على الظّرفِ في ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ جاءَ ظرفُ الزّمانِ مَجرورًا بـ ﴿مِّنۢ﴾ الّتي تفيدُ ابتداءَ الزّمانِ؛ للإشعارِ بأنَّ نكثَهم الأيمانَ جاءَ بعدَما أحكمُوا عهدَهُم مُباشرةً من غيرِ مُهلةٍ، فلَم يُطيلُوا بقاءَهُم على العهدِ، بل سَارعُوا إلى نقضِه، هذا إنْ كانَ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾، وإذا كانَ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقًا بـ ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾ أفادَ أنَّ الحِلفَ وَقَعَ بعدَ العهدِ مُباشرةً، كما هو الظّاهرُ، إذِ الغالبُ أن يكونَ الحِلفُ بعدَ العهدِ، فيكون التّقييدُ بقولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ زيادةً في تَسجيلِ شَناعَةِ نَكثِهم، بتذكيرِ أنَّه غَدرٌ للعهدِ، وحِنْثٌ باليَمينِ(2).

النَّكثُ غدرٌ للعهدِ، وحِنْثٌ باليَمينِ، وهو خُلُقٌ ذَميمٌ

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿عَهۡدِهِمۡ﴾:

لَمّا كانَ المرادُ مِنَ العهدِ هنا المصدرَ، وكانَتِ الإضافةُ هنا على معنى اللّامِ أفادَ أنَّ المرادَ العهدُ اللّائقُ بهم(3)؛ إشعارًا بأنَّ العهدَ لا يُنقَضُ، وأمّا هُم فقد نقضُوا العهدَ المُختصَّ بهم المنسوبَ إليهم، وحُذِفَ مُتعلِّقُ المصدرِ للإيجازِ؛ إذِ التّقديرُ: (مِن بعدِ عهدِهم معكُم أو مِن بعدِ عهدِهم إليكُم).

العهدُ لا يُنقَضُ في كلِّ المِلَلِ، وعندَ كُلِّ الشُّعوبِ

دلالةُ الواوِ في ﴿وَطَعَنُواْ﴾:

تحتملُ الواوُ - في قوله تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ - أن تكونَ على أصلِ وضعِها؛ لِتفيدَ الجمعَ بينَ المعطوفَينِ في الحُكمِ؛ بمعنى: أنْ يكونَ الجزاءُ - وهو القتلُ - مُعلَّقًا بحصولِ مجموعِ نكثِ الأيمانِ والطّعنِ في الدّينِ، فيكونُ مجرّدُ الطّعنِ في الدّينِ لا يقتضي الجزاءَ

الطّعنُ في الإسلامِ ضربٌ من ضروبِ نكثِ الأيمانِ ونقضِ العهدِ

(1) الدّينوريّ، غريب الحديث: 2/41.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/169، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/129.
(3) البسيليّ، التّقييد الكبير: 1/558.

إلَّا مع وجودِ نكثِ العهدِ، وفي المسألةِ توجيهٌ آخرُ: بأنْ يكونَ العطفُ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، فيكون المعطوفُ بيانًا لِلواقعِ، وإيذانًا بأنَّ الطَّعنَ في الإسلام ضربٌ من ضروبِ نكثِ الأيمانِ، ونقضِ العهدِ، وأشعرَ العطفُ أنَّه من أقبحِه وأشنعِه؛ لخصوصيَّة عطفِ الخاصِّ على العامِّ، وليسَ المرادُ به تقييدَ حلِّ قتالِهم بالجمعِ بينَ النَّكثِ والطّعنِ كما هُوَ في الوجهِ الأوّلِ، كما تَحتملُ أن تكونَ بمعنى (أو)؛ لِيكونَ العطفُ مِن عطفِ القسيمِ على القسيمِ؛ لِيُفيدَ أنَّ أحدَ الأمرينِ كافٍ في قتلِهم؛ أي: إنْ نكثوا عهدَهُم حلَّ قتالُهُم، وإنْ لم يَنكثُوا بل طعنُوا في الدّينِ مع الوفاءِ بالعهدِ حلَّ قِتالُهُم[1].

دلالةُ لفظِ ﴿وَطَعَنُواْ﴾:

الطّعنُ في الدّينِ هو إظهارُ الذَّمِّ أو الفسادِ أو النّقصِ فيه

يُفيدُ لفظُ الطّعنِ - في قولِهِ تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ - كلَّ ما يُشعرُ بالعيبِ، مِن إظهارِ الذَّمِّ أو الفسادِ أو النّقصِ فيه، أو يُقالُ: أنْ يُنسَبَ إلى الدِّينِ ما لا يليقُ به، أو يُعتَرضَ بالاستخفافِ على ما هو منَ الدِّينِ، لِمَا ثَبَتَ مِنَ الدَّليلِ القطعيِّ على صحَّةِ أصولِه واستقامةِ فروعِه، فمِنَ الطّعنِ في الدِّينِ صريحُ التّكذيبِ فيه وتقبيحُ أحكامِه، والطّعنُ في القرآنِ وفي النَّبيِّ ﷺ؛ وإنّما كانَ الأمرُ بالقتلِ مُتعلِّقًا بإظهارِ الطّعنِ والتَّصريحِ فيه ؛ لأنَّ الأصلَ في الطّعنِ أن يكونَ ظاهرًا، كما أنَّ الكافرَ لا يخلو مِنَ الطّعنِ في الدّينِ سواءٌ أكانَ أصليًّا أم مُرتدًّا[2].

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿فِى﴾ في قوله ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾:

الطّعنُ في الدّينِ ضلالٌ مُبينٌ، ولا يفعلُهُ إلّا سفيهٌ مَهينٌ

أفادَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِى دِينِكُمْ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ أنَّ طعنَهُم كانَ في أصولٍ مِنَ الدِّينِ، وأنَّهُم كانوا أحقَّ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/83، ورضا، تفسير المنار: 10/172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/12، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/240، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/82، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/170.

بالجزاءِ المذكورِ، ومَعلومٌ أنّ الطّعنَ في شيءٍ مِن فروعِ الدّينِ أو أصولِهِ مُفْضٍ إلى الكفرِ، وقد أتاحَت لنا كتبُ التّاريخِ والسّيرةِ وكتبُ التّفسيرِ بسطةً مِنَ الوقائعِ الحقيقيّةِ عن مَصائرِ الطّاعِنينَ في الدّينِ، وكيفَ عاقبَتهُم القُدرةُ بالهلاكِ وسُوءِ العاقبةِ.

سرُّ المُخاطَبةِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ في ﴿دِينِكُمۡ﴾:

الانـتـسـابُ إلى الـدّيـنِ تشريفٌ وتكريمٌ في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ

لم يقُلْ: (طعنُوا في دين الإسلام)؛ بل جاءَ بطريقِ الخطابِ؛ للإشعارِ باختصاصِ الدِّينِ بهم؛ تشريفًا لِلمُخاطبِينَ، ولِيعمَّ كلَّ مُخاطَبٍ، وجاءَ الخطابُ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، وبيانُهُ: أنَّ أصلَ الخطابِ وإنْ كانَ لِمُعيَّنٍ لكنَّ القصدَ منهُ هنا غيرُ مُعيَّنٍ، فلا يُرادُ منه أهلُ الخطابِ في وقتِ نزولِ القرآنِ؛ قصدًا إلى أن يحصِّلَ كلُّ مُسلمٍ مُخاطَبٍ باختصاصِ الدّينِ بهِ؛ لِيرُدَّ على النّاكِثينَ العهودَ والطّاعنينَ في الدّينِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾:

حرصُ الطّاعنينَ على تهوينِ أمرِ الـدّيـنِ بثلبِهِ، وإظـهـارِ العيبِ فيهِ

جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ[1]، إذ شُبِّهَ الثّلبُ في الدّينِ، والقدحُ فيه، والاستنقاصُ منهُ، للنّيلِ منهُ وإنهائِهِ بقوّةٍ وحدَّةٍ بالطّعنِ بالرُّمحِ الّذي يكونُ فيه المطعونُ قريبًا؛ إشعارًا بحرصِ الطّاعنِ على إنهاءِ الدّينِ بثلبِهِ، وإظهارِ العيبِ فيه تَنفيرًا لِلمُؤمنينَ منه ولِلرَّاغبينَ في الدّخولِ فيه، أو جاءَ الطّعنُ هنا على سبيلِ الاستعارةِ، بمعنى الثّلبِ والنسبةِ إلى النّقصِ، بتشبيهِ الدّينِ المُلتئِمِ غيرِ المنقوصِ بالجسدِ السّليمِ، فإذا نَقَصَ فيه بالثّلبِ والشّتمِ شُبِّهَ بالجسدِ الّذي أُفسِدَ التحامُهُ[2].

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ:

وَضَعَ ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ في قولِهِ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ مَوضعَ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طعن)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/251.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/129.

الإيـــذانُ بـأنَّ الكافرينَ صارُوا بالنّكثِ والطّعنِ ذوي رياسةٍ وتقدُّمٍ في الكفرِ

الضَّميرِ، فكانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (فقاتلوا أئمّتَهُم)؛ لِيكونَ على نسقِ ما تقدَّمَهُ، ولكنَّه جاءَ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ؛ للإيذانِ بأنَّهم صارُوا بالنّكثِ والطّعنِ ذوي رِياسَةٍ وتَقدُّمٍ في الكُفرِ، فهُم أحِقّاءُ بالقتلِ والقتالِ، إذ لا يَشُقُّ كافرٌ غبارَهُم، فصاروا قدوةً لغيرِهم؛ لأنَّ الّذينَ أَضمَرُوا النَّكثَ يبقَون مُتَرَدِّدينَ بإظهارِهِ، فإذا ابتَدَأ بعضُهم بإظهارِ النَّقضِ اقتدى بِهِم الباقُونَ، فكانَ النّاقِضُون أئِمَّةً للباقِينَ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَئِمَّةَ﴾:

المُتقدِّمُ بالنَّكثِ والطّعنِ أَولى مِن غيرِهِ بالعقابِ

أفادَ لفظُ ﴿أَئِمَّةَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾أنَّ المُتقدِّمينَ في النَّقضِ والطَّعنِ، ومَن صَدَرَ ذلك منهم أوَّلًا أَولى مِنْ غيرِهِم بالقتلِ، وأنَّهم أحِقَّاءُ به لتعليقِ الأمرِ بالقتلِ على كونِهم أئمَّةً في الكفرِ، إذِ الحكمُ على المُشتَقِّ يُؤذِنُ بعِليَّةِ المأخذِ[2]، وعن أئمّةِ الكفرِ " قال قتادةُ وغيرُهُ: أَئمّةُ الكفرِ كأبي جهلٍ، وعُتبةَ، وشيبةَ، وأُميّةَ بن خلَف، وعَدَّدَ رِجالًا.. ورُوِيَ عن عَليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه مثلُه.

والصّحيحُ كما قالَ ابنُ كثيرٍ: أنّ الآيَةَ عامّةٌ، وإنْ كانَ سببُ نُزُولِها مُشركي قُريشٍ، فهي عامّةٌ لَهُم ولِغيرِهِم"[3].

القراءاتُ القرآنيّةُ في لفظِ ﴿أَئِمَّةَ﴾:

الاختلافُ راجعٌ إلى التّخفيفِ الصّوتيِّ، بينَ تسهيلِ الهمزةِ أو تحقيقِها

في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ حَقَّقَ ابنُ عَامرٍ وعَاصِمٌ وحَمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ الهمزتين، وسَهَّلَ الثّانيةَ فيها: نافِعٌ وأَبُو عَمرٍو وابنُ كَثيرٍ وأَبُو جَعفرٍ ورُوَيسٌ، وتسهيلُ الهمزةِ إمّا بجعلِها بَيْنَ بَيْنَ، كَما هِيَ في سَائِرِ بابِ الهمزَتَينِ من كَلِمَةٍ، وبهذا وَرَدَ النَّصُّ عَنِ الأَصبَهَانيِّ عَن أَصحَابِ وَرشٍ، وإمّا بياءٍ خالصةٍ، ومَرجِعُ الاختلافِ في القراءةِ إلى التّخفيفِ الصّوتيِّ، عندَ مَن يرى التّسهيلَ لِثقلِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/170.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/117.

الجمعِ بينَ الهمزتين في النُّطقِ، وإلى تحقيقِ الهمزةِ الثّانيةِ، تكون على الأصلِ عندَ مَن يرى التّحقيق [1].

سرُّ العدولِ في قولِه: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾:

نكثُ العهدِ والطّعنُ في الدِّينِ ضدُّ الفِطرةِ والعقلِ والعُرفِ السّليمِ

كانَ الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (فقاتلوا أئمّةَ الشّركِ)؛ لِتقدُّمِ لفظِ الشّركِ في السِّياقِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ [التّوبة: 7]، فعُدِلَ عنهُ إلى لفظِ الكفرِ؛ إيذانًا بأنَّ نكثَ العهدِ والطّعنَ في الدِّينِ مِن خصالِ الكفرِ؛ لأنّهم غطّوا فطرتَهم عنِ الحقيقةِ الظّاهرةِ عقلًا وعُرفًا بوجوبِ الوفاءِ بالعهدِ، واستقامةِ دينِ الإسلامِ، وأمّا الشّركُ فهو عبادةُ إلهٍ مع اللّهِ تعالى أو مِن دونِه، فدلالةُ الكفرِ هنا أقضى لحقِّ المعنى وسياقِه.

مُناسبةُ الأمرِ بقتلِ أئمّةِ الكُفرِ دونَ غيرِهم:

ذهابُ الكُفرِ بذهابِ رؤوسِه، وانقراضِ عُتاتِهِ

تخصيصُ الأمرِ بمقاتَلةِ الأئمَّةِ، مع أنّهُ عامٌّ لهم ولأسافلِهم؛ إمّا لأنَّ مِن شأنِ الأتباعِ تقليدَ الأئمَّةِ، فيصدُرونَ عن آرائِهم وتدبيرِهم، فإذا قاتلُوهم اضطربَ الأتباعُ، ودانوا لهم طوعًا أو كُرهًا، وإمّا لأنَّهم إذا قَتلُوهُم لم يبقَ لَهُم إمامٌ في الكُفرِ، فيذهب الكفرُ رأسًا [2].

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾:

إسلامُ أئمّةِ الكفرِ سببٌ لإسلامِ أتباعِهم

الظّاهرُ أنَّ الإضافةَ هنا بمعنى (في) [3]؛ أي: أئمّةً في الكفرِ؛ بمعنى: توغُّلِهم فيه حتّى صارَ الكفرُ ظرفًا حاويًا لَهُم، فيكون المعنى: قاتلُوا ذوي التَّقدُّمِ والرِّياسةِ فيه كما تقدَّمَ، وتحتملُ الإضافةُ أن تكونَ لأدنى مُلَابَسةٍ، والمعنى: قاتِلُوا رؤساءَ المشركينَ وصناديدَهُم سواءٌ أكانوا هم النّاقضينَ والطّاعِنِينَ أم غيرَهم؛ والمعنى: قاتِلُوا أئمَّةَ الكفَّارِ، فتخصيصُ قتلِهم؛ إمّا لأنَّ قتلَهُم أهمُّ، وهُم أحقُّ به؛

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 312، وابن الجزريّ، النّشر: 1/379.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/308.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 3/73.

لأنَّهُم هُم الّذين يُحرِّضُونَ الأتباعَ على الأفعالِ الباطلةِ، وإمّا لمنعِ المُسلمينَ مِن مُراعاةِ رؤساءِ المُشركينَ، طمعًا في إسلامِهم؛ فإنَّ إسلامَهُم سببٌ لإسلام أسافلِهم[1].

براعةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾:

لكلِّ جيلٍ أئمّةٌ في الكفرِ، يزهو بوجودِهِم، ويضمحلُّ بانقراضِهم

لمّا كانَ (أئمَّةُ) جمعَ إمام بمعنى الّذي يُقتدَى بهِ ويكونُ مَتبوعًا مِن غيرِه، وكانَت (أل) جنسيّةً؛ بمعنى جنسِ الكفرِ ليدخلَ فيه كلُّ كافرٍ، فالأصوبُ في هذا أن يُقالَ: إنّه لا يُعنَى بها مُعيَّنٌ بذاتِه، وإنَّما وقعَ الأمرُ بقتالِ أئمَّةِ النَّاكِثينَ بالعهودِ مِنَ الكفرةِ إلى يوم القيامةِ دونَ تَعيينٍ، ويدخلُ فيه كفَّارُ العربِ ومُحاربو رسولِ اللّه ﷺ دخولًا أوّليًّا تحتَ اللَّفظةِ، إذِ الّذي يتولَّى قتالَ النَّبيِّ والدَّفعَ في صدرِ شريعتِهِ هو إمامُ كُلِّ مَنْ يكفُرُ بذلكَ الشَّرعِ إلى يومِ القيامةِ، ثمَّ تأتي في كُلِّ جيلٍ مِنَ الكُفَّارِ أئمَّةٌ خاصَّةٌ بذلكَ الجيلِ، فهُم لا يَنقرضونَ يَحيَونَ أبدًا ويُقتَلُونَ[2].

علّةُ مجيءِ (إنَّ) في ﴿إِنَّهُمۡ﴾:

استحقاقُ أئمّةِ الكفرِ القتالَ؛ لاستخفافِهم وغدرِهِم الأثيم

في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ تفيدُ (إنَّ) التّعليلَ وبيانَ السّببِ لمَضمونِ الشّرطِ والجزاءِ معًا، فكأنَّه قِيلَ: ما سببُ تعليقِ قتالِ أئمَّةِ الكفرِ بنكثِهِم بعهدِهِم وطعنِهِم في الدّينِ؟ وهل مِن حقٍّ في قتالِهِم؟ فبيَّنَ الحاملَ على الأمرِ بتصديرِ الكلامِ بـ(إنَّ)؛ تنبيهًا على عدمِ توفيتِهِم بحقِّ الأيمانِ الّتي قطعُوها على أنفسِهم، فتكونُ جملةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ تعليلًا لِقتالِهِم بأنَّهم استحقُّوهُ لأجلِ استخفافِهِم بالأيمانِ الّتي حلفُوها على السَّلمِ فغَدَرُوا، ويحتملُ أن يكونَ التّعليلُ لمضمونِ الشّرطِ، كأنَّه قِيلَ: وإنْ نَكَثُوا وطَعَنُوا كما هو المُتوَقَّعُ مِنهُم؛ إذْ لا أيمانَ لهم حَقيقةً حتّى لا يَنكُثُوها، أو يكونَ لاستمرارِ القتالِ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/170.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/12.

المَأمورِ بِهِ المُستَفادِ مِن سياقِ الكلام، كأنَّهُ قِيلَ: فقاتِلُوهُم إلى أنْ يَنتَهوا؛ إنَّهم لا أيمانَ لَهُم حتّى يُعقدَ معَهُم عهدٌ آخَرُ(1).

فائدةُ مجيءِ الجملةِ الاعتراضيّةِ:

القصدُ مِنَ الأيمانِ تعظيمُه والوفاءُ بِهِ

لمّا جاءَتِ الجملةُ الاعتراضيّةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾(2)على معنى التّعليلِ تضمَّنَت بيانًا لِلمُسلمينَ، وتنبيهًا لهم كيلا يَشرَعُوا في قتالِ أئمّةِ الكُفرِ، وهُم غيرُ مُطَّلِعينَ حكمةَ الأمرِ بِهِ، فيكونَ قِتالُهُم لِمُجرَّدِ الامتثالِ لأمرِ اللّهِ، فَلا يكونَ لَهُم مِنَ الغيظِ عَلى المُشركينَ ما يَشْحَذُ شِدَّتَهم عَلَيهم(3)، كما أفادتِ الجملةُ الاعتراضيَّةُ تأكيدَ نقضِهم العهدَ، وتقريرَه بنفي حقيقةِ أيمانِهم؛ لأنَّ القصدَ مِنَ الأيمانِ تعظيمُهَا والوفاءُ بها، وهُم قد نكثُوا بها.

دلالةُ عودِ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمۡ﴾:

مَوقِفُ الإسلامِ مِن أئمّةِ الفُجرِ والكُفرِ ثابتٌ لا يتغيَّرُ، وباقٍ لا يتحوَّرُ

قولُهُ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ يعودُ الضّميرُ على ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ بما استحقُّوا بِهِ هذا الوصفَ، وهو نكثُهُم أيمانَهُم وطعنُهُم في دينِ الإسلامِ، فكانَ مَجيءُ الضّميرِ فيه على مُقتضَى الظّاهرِ أوفى لحقِّ المعنى وسياقِهِ، وقيلَ: "أصوبُ ما يُقالُ في هذه الآيةِ: أنّه لا يُعْنَى بها مُعيَّنٌ، وإنّما وَقعَ الأمرُ بقتالِ أئمّةِ النّاكثينَ للعهودِ مِنَ الكفَرةِ إلى يومِ القيامةِ، واقتضَت حالُ كفَّارِ العربِ ومُحاربي النّبيِّ ﷺ أَن تكونَ الإشارةُ إليهم أوّلًا، ثمّ كُلُّ مَن دَفَعَ في صدرِ الشّريعةِ إلى يومِ القيامةِ فهُو بمَنزلَتِهم"(4)، وقد أصبحَ الكفرُ عبرَ العصورِ ألوانًا وأشكالًا، وصارَ له أئمّةٌ وروّادٌ، ونخبٌ وزعماءُ يتولّون كبرَهُ، ويتحمّلُونَ وزرَهُ، وعليه فالضّميرُ يحتملُ العودةَ إلى المَعنَيينِ: القريبِ والبعيدِ، ويستوفي الدّلالةَ فيهما معًا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/48، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/667.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/163.

كنايةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾:

الأيمانُ لقطعِ الخُصوماتِ، لا أنّها مُسقِطةٌ لِلحقُوقِ

لمّا نفى تحقُّقَ أيمانِهم دلَّ على أنْ لاعهدَ لَهُم بعدَ نقضِهِمُ العهدَ، ولمّا ربطَ اللّهُ تعالى استقامةَ المُسلمينَ على العهدِ باستقامةِ الكفّارِ لَهُم دلَّ على أنَّ نفيَ تحقُّقِ أيمانِهم يلزمُهُ على سبيلِ الكنايةِ أنْ لا يُوَفُّوا لَهُم العهدَ الّذي كانَ لَهُم إذا نقضُوا، فيكونُ تأكيدًا لِمَا تقدَّمَ، وتقريرًا له[1].

دلالة النفي في ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ لما أثبت:

إقامةُ العالمِ بالشّيءِ مُقامَ الجاهلِ بهِ؛ لعدمِ القيامِ بمُوجبِهِ

(لا) هنا لنفي الجنسِ؛ بمعنى نفي حقيقةِ الأيمانِ لَهُم؛ أي: لا أيمانَ لَهُم على الحقيقةِ، وإلَّا لَمَا طعنُوا ولم ينكثُوا، وقد يُقالُ: كيفَ يُثبتُ لهم الأيمانَ في قولِهِ: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾، ثمّ ينفي أصلَها وحقيقتَها؟ والجوابُ: أنَّه أثبتَهَا لهم باللّسانِ؛ لأنَّ النَّكثَ لا يُسمَّى نكثًا إلَّا بعدَ وقوعِ الأيمانِ والعهدِ، أو يُقالُ: لأنَّه تعالى وَصَفَها بالنَّكثِ، ولو لم تكُنْ مُنعقِدةً لم يُتصوَّرْ نَكثُها، ثمَّ نفاها عنهُم في قولِهِ: ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا لَمْ يَثْبُتُوا عَلَى الأيمانِ، ولم يَقومُوا بحقِّها؛ إذ لم يُوفُّوا بها نَفَاها عنهُم في الحقيقةِ، فعهودُهُم ما هي إلَّا مُخادَعةٌ لِسانيّةٌ لم يقصدوا الوفاءَ بها، فجاءَ الكلامُ لا على مُقتضَى الظّاهِرِ؛ إذ أحلَّ المحيطَ بفائدةِ الجملةِ الخبريّةِ وبلازمِ فائدتِها علمًا محلَّ الخالي الذّهنِ عَن ذلكَ؛ لعدمِ القيامِ بموجَبِهَا، ويحتملُ أن يكونَ النّفيُ مُسلَّطًا على وَصفٍ مَحذوفٍ، فيكون نفيُ الأيمانِ مُقيَّدًا، والتّقديرُ: لا أيمَانَ لَهُم يُوَفُّونَ بها[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾:

تنوُّعُ القراءةِ مَلمَحٌ لفهمِ الآيةِ، وانفتاحِها على مَزيدٍ مِنَ المعاني

قَرأَ الجمهورُ ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ بفتحِ همزةِ ﴿أَيۡمَٰنَ﴾ على أنَّه جمعُ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/308.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 171، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/380، والطّيبيّ، حاشية على تفسير الكشّاف: 7/188، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/436.

يَمينٍ، وقَرَأَهُ ابنُ عامرٍ بكسرِ الهمزةِ، على أنّهُ مَصدرٌ؛ أي: ليسُوا بمؤمنينَ، ولا تَكرارَ في نفي إيمانِهم بعد أنْ وصفَهم بأئِمَّةِ الكُفرِ؛ لأنَّه أرادَ انتفاءَ الوازعِ عندَهُم في الثَّباتِ على العهدِ، أو اجتنابِ الطّعنِ في الدّينِ، والمَقامُ مَقامُ تعليلٍ برهانيٍّ، وتقديرُ الكلام: إنّهُم لا إيمانَ لَهُم، ومَن لا إيمانَ لهُ لا عهدَ لهُ لانتفاءِ الوازعِ، أو لأنَّه أرادَ أنَّ المَانِعَ مِن قتلِهِم أحدُ أمرين: إمَّا العهدُ وقد نَقضُوه، وإمَّا الإيمانُ وقد حُرِمُوهُ(1).

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ (لَعَلَّ):

الكريمُ إذا أطمَعَ فعَلَ، وإذا وَعَدَ أنجَزَ

لَمّا كانَت (لعلَّ) لترجّي ما هو مَحبوبٌ أو دَفْعِ ما هو مَكروهٌ، ولِتوقُّعِهِ في المُستقبلِ أفادَت هنا في قولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ الرّجاءَ لِلمُخاطَبينَ والتّوقُّعَ منهُم لِمَا هو مَحبوبٌ مَرغوبٌ؛ بمعنى: ترجونَ بقتالِ أئمَّةِ الكفرِ انتهاءَهُم عنِ النَّكثِ والطّعنِ، وتتوقَّعُونَ منهُمُ الكفَّ عنهُما، ويحتمل أن يكونَ التّعبيرُ بـ(لعلَّ) على معنى: أنَّ قتالَهُم يجعلُهُم في صورةِ المرجوِّ منهم أن يَنتهُوا ليترجَّحَ قتالُهُم في نفوسِ المؤمنينَ بعدَ الأمرِ بهِ، وقد يكونُ مجيءُ (لعلَّ) هنا على سبيلِ الإطماعِ؛ لأنَّه إطماعٌ مِن كريمٍ رحيمٍ، إذا أطمَعَ فعَلَ ما يُطمَعُ فيهِ لا محالةَ؛ لجَرْيِ إطماعِهِ مَجرَى وعدِهِ المَحتومِ وفاؤُهُ بهِ(2).

سرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾:

الباعثُ على قتالِ أئمّةِ الكُفرِ دفعُ ضررِهِم، وردُّهُم إلى ربِّهِم

لَمّا كانَ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ مُتعلّقًا بفعلِ الأمرِ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ دلَّ على أنَّ الأمرَ بالقتالِ مُستمرٌّ لغايةِ انتهائِهِم عنِ النَّكثِ والطَّعنِ؛ لِيُفيدَ أنَّ الغرضَ مِن قتالِ أئمَّةِ الكفرِ هو دفعُ ضررِهِم وليسَ أذيَّتَهُم؛ أي: ليكُنْ غرضُكم في المُقاتَلةِ بعدَ ما وُجِدَ منهُم مِنَ العَظائمِ أن يَنتهُوا عمَّا هُم عليهِ لا إيصالَ الأذيَّةِ بِهِم، كما هو طريقةُ المُؤذينَ، فالباعثُ

---

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 312، وابن الجزريّ، النّشر: 2/278، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/534، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/92، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/334.

على قتالِهم هو ردُّهُم إلى طاعةِ مَعبودِهِم رحمةً عليهِم، وهَذَا مِن كَرَمِهِ سُبحَانَهُ وفَضلِهِ وعَودِهِ عَلَى المُسِيءِ بالرَّحمَةِ، فهَذَا في حقِّ النّاكِثينَ والطّاعِنينَ في الدّينِ الحاقِدينَ عليهِ، فما ظنُّكَ بالمُحسنينَ الّذين لا يَحملُونَ في قلوبِهِم ضغينةً على الإسلامِ؟[1].

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾:

الحـــربُ في الإســـلامِ لمنعِ الباطلِ، وإرساءِ الحقِّ والفضائلِ

لمّا جعلَ الغايةَ مِن قتالِ أئمّةِ الكفرِ الانتهاءَ ممَّا هُم عليهِ دلَّ بلازمِهِ على سبيلِ الكنايةِ على النَّهيِ عنِ القتالِ اتِّباعًا لِهوَى النَّفسِ أو إرادةَ مَنافعِ الدُّنيا مِن سَلبٍ وكَسبٍ وانتقامٍ مَحضٍ، والمعنى: فلا تقاتِلُوهُم لأمرٍ نَفسانيٍّ، وداعٍ شَهوانيٍّ[2].

فائدةُ مجيءِ خبرِ (لعلّ) جملةً فعليَّةً:

أثـرُ التّعليلِ بـ(لعلّ) في جلاءِ المعنى واتِّساقِهِ

أفادَ مجيءُ ﴿يَنتَهُونَ﴾ في قولِه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ خبرًا للأداةِ (لعلّ) تقويةً لِلحُكم، بمعنى تحقيقِ الانتهاءِ عنِ الكفرِ، ونقضِ العهدِ، والطّعنِ في الدّينِ، وتقريرِهِ بقتالِهِم[3]، وقد جاءَ ذلك في سياقِ التَّرجِّي بلفظِ (لعلّ)، الّذي يفيدُ التعليلَ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾ [البقرة: 53]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: 132]، وهنا يقولُ لِلمُؤمنينَ: "أمّا إذا نَكثوا أيمانَهُم من بعدِ عهدِهِم الّذي قَطعُوهُ على أنفسِهِم لِلمُسلمينَ، وطعنُوا في دينِهِم فعليهِم أن يُقاتِلوا أئمّةَ الكفرِ الّذينَ لا يُقيمونَ وزنًا لأيمانِهِم؛ لعلَّ هذا القتالَ يَضطرُّهُم إلى الانتهاءِ عن مَوقفِهِم الباغي"[4]، وفي آيةِ التّوبةِ نجدُ أنّ التّعليلَ يأتي مِن رجاءِ رجوعِهِم عن باطلِهِم، وما يَقومُونَ بهِ مِن

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/86، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/381، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/436، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/172.

(2) رضا، تفسير المنار: 10/173.

(3) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

(4) دروزة محمّد عزّة، التّفسير الحديث: 9/367.

نكثٍ لِلعهودِ، وطَعنٍ في الدّينِ بما هُو منهُم مَعهودٌ، بحيث إنَّ مَن شملَتْهُ العنايةُ فتابَ خرجَ مِنَ الحُكم العامِّ، ومَن بقيَ على عنادِه، ولم يبرحْ ضلالَهُ وغيَّهُ فهو لم يَنتهِ، ولذلك كانَت علّةُ السّياقِ حضًّا على الانزجارِ، وتنديدًا بما يَفعلُهُ الطّاعِنونَ مِنَ الكُفّارِ.

دلالةُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿يَنتَهُونَ﴾:

لم يأتِ الدّينُ إلا لأجل الصُّلح وقطع طمع المعتدين في القتال

لمّا كانَ القتالُ يُفني كثيرًا مِنَ الكفّارِ أو مِن أئمَّتِهم فالانتهاءُ المَرجوُّ مِنَ المَذكورينَ في ضميرِ الجمعِ هو انتهاءُ البَاقينَ مِنَ الأحياءِ، بعدَ أنْ تَضعَ الحربُ أوزارَها[1]، مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ أئمّةَ الكُفرِ؛ أي: لِيكُنْ غَرضُكم في مُقاتَلتِهم انتهاءَهُم عمّا هُم عليهِ بَعدَ مَا وُجِدَ منهُم مِنَ العظائم، وهذا مِن غايةِ كرمِهِ على المُسيءِ[2].

مُناسبةُ حذفِ مُتعلِّقِ الفعلِ ﴿يَنتَهُونَ﴾:

حذف المتعلِّق لإفادة انتهاء الكُفّار عن جميع غيِّهم ونكثِهم وطعنِهم

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعلِ، والتّقديرُ: لعلَّهُم يَنتهونَ عمّا هُم عليهِ أو عن غيِّهم؛ لِيتناولَ مَا هُم عليهِ مِنَ الكُفرِ والنَّكثِ والطَّعنِ وغيرَهُ ممّا هُو في معناهُ، فحَذَفَ المُتعلِّقَ؛ لإفادةِ العموم، وللإيذانِ بعظيمِ ما وجدَ منهُم، وما أظهَرُوهُ[3]، وذهبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى تخصيصِ المُتعلِّقِ؛ ليكونَ بتقديرِ: يَنتهونَ عن نقضِ العهدِ أو عنِ الطَّعنِ أو عنِ الكُفرِ، والوجهُ الأوّلُ أَولَى وأثرَى في المعنى المُناسِبِ للسّياقِ[4].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(نَكثٌ) و(نَقضٌ):

لمّا كانَ النَّكثُ بمعنى تَشعيثِ الشّيءِ المُلتَئِم ونَقضِه بعدَ إحكامِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/667.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/667، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392.

(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/309، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/322، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/131.

كَمَا تُنكَثُ خيوطُ النَّسَائجِ بعدَ إبرامِها، كان أخفَّ مِنَ النّقضِ الّذي بمعنى: انتِثَارِ العَقدِ مِنَ البِنَاءِ، حتَّى يُسمَعَ له صوتٌ، ومنهُ: نقضُ الحَبلِ والعِقدِ وهُو ضِدُّ الإبرَام، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك كانَ النَّقضُ أشدَّ مِنَ النَّكثِ؛ فلا يقعُ إلَّا بثقلٍ بالغٍ شديدٍ أو نحوه، فاستُعمِلَ النَّكثُ مع الأيمانِ مُطلَقًا، ومع البيعةِ لِلمُؤمنينَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠﴾ [الفتح: 10]، بينما استُعمِلَ النَّقضُ مع الأيمانِ المُؤكَّدة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾، ومع العهدِ بعدَ ميثاقِه، ومعَ الميثاقِ المُغلَّظ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ [النّساء: 154 - 155](1).

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نقض - نكث).

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التّوبة: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ الأمرِ بقتالِ النّاكِثينَ، وبينَ الأسبابِ الدّاعيّةِ إلى ذلك

لمّا أمرَ بقتالِهم حتّى ينتهوا ممّا هُم عليهِ شَرَعَ بذكرِ الأسبابِ الباعثةِ على قتالِهم، بأمورٍ ارتكبُوها، فَذَكَرَ ثلاثةَ أسبابٍ، كُلُّ واحدٍ منها يُوجِبُ مُقاتلتَهُم، ويكونُ باعثًا على الإقدامِ عليهم لَوِ انفردَ، فكيفَ بها حالَ الاجتماعِ؟ كما أنّ الحثَّ على قتالِهِم جاءَ في صورةِ تعجيبٍ ممَّن يَتوانَى فيهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَمُّواْ﴾: يدورُ معنى الهمِّ حولَ ذَوبانِ الشَّيءِ مُتَسَيِّبًا ممّا يجمعُهُ لحرارةٍ أو شدّةٍ، ومنهُ: الانهمامُ الّذي هو الانهضامُ في ذوبانِ الشَّيءِ واسترخائِه، بعدَ جُمودِهِ وصلابَتِه، ويُقالُ: انهَمّ الثّلجُ والشَّحْمُ والبَرَدُ إذا ذابَ، ومن ذلكَ الهَمُّ الحُزْنُ وهَمَّهُ الأمرُ وأهَمَّهُ: أَقْلَقَهُ وحَزَنَهُ، كما قالُوا: همَّهُ السُّقمُ والمَرضُ: أذابَهُ وأذهبَ لحمَهُ، ومنهُ: هَمَّ بالشّيءِ: نواهُ وأرادَهُ وترجّحَ عندَهُ فعلُهُ، كأنّما تحلَّبت إرادتُهُ وهَواهُ، طلبًا لِفعلِه، وَهَمَمتُ بالشَّيءِ هَمًّا؛ إذا أَردتَهُ ولَم تفعَلْهُ[2].

2) ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾: "خَشِيَ الرّجلُ يَخشَى خَشيَةً؛ أي: خافَ، فهوَ خَشيانُ والمرأةُ خَشياءُ. وخاشاني فلان فخَشَيتُهُ أخشِيه بالكسرِ، عن أبي عبيد؛ أي: كنتُ أشدَّ خَشيَةً منهُ. وهذا المكانُ أخشَى مِن ذاك؛ أي: أشدُّ خوفًا. وقولُ الشّاعرِ:

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392، وابن عادل، اللّباب: 10/35.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (همم).

ولَقَد خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الهُدَى *** سَكَنَ الجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

قالوا: مَعناهُ: عَلِمتُ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ [الكهف: 80] قالَ الأخفشُ: معناهُ: كرِهْنا"[1]، قولُهُ: "إلّا مَا كانَ مِن خَشيَةِ اللّهِ تعالى"؛ أي: مِن خوفِهِ، عنِ الجوهريِّ وغيرِهِ، "والخشيةُ: أحدُ مَصادرِ (خَشِيَ)، وهي ستّةٌ نظمَها شيخُنا أبو عبد اللّهِ بن مَالك في بيتٍ، وهو:

خَشِيتُ خَشْيًا وَمَخشَاةً وَمَخشِيَةً *** وخَشيَةً وخَشَاةً ثُمَّ خشْيَانَا"[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

ألا تُقاتلونَ - أيُّها المؤمنونَ - هؤلاءِ المُشركينَ الّذين نقضُوا العهدَ الّذي بينَكم وبينَهُم، وعقدُوا نيّتَهُم على إخراجِ الرَّسولِ مِن بين أظهرِهِم، حين تَشاوروا في أمرِه بدارِ النَّدوةِ؟ وهُم بدؤوكُم أوَّلَ مرَّةٍ بالمُعاداةِ والمُقاتلةِ؟ أتخافونَهم؟ أو: أتخافونَ ملاقاتَهُم في الحربِ؟ فاللّهُ أولى بكُم أن تخشَوهُ، إن كنْتُم مُؤمنينَ حقًّا[3].

مَن صَدَقَ اللهَ واتّقاهُ، كانَت خشيتُهُ لله لا لأحدٍ سواه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التَّحضيضِ في ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾:

تهييجُ المؤمنينَ على المُبالغةِ في قتالِ المَذكورينَ

لمّا كانَت (لا) لنفي المُستقبَلِ دلَّ على أنَّ الفعلَ لم يتحقَّقْ وجودُه بعدُ، فكانَ دخولُ همزةِ الاستفهامِ على الفعلِ المنفيِّ، إنكارًا على عدمِ مُقاتلَتِهم، وتقريرًا لانتفاءِ المُقاتَلَة، وتوبيخًا لَهُم على تركِها؛ ليفيدَ تحضيضَ المؤمنينَ عليها في المستقبلِ، وإغراءًا لهم وتهييجًا على سبيلِ المبالغةِ في الفعلِ؛ أي: في المُقاتَلَة، فإنّه حيث كانَ التَّركُ مُستقبَحًا مُنكَرًا أفادَ بطريقٍ برهانيٍّ أنَّ إيجادَه أمرٌ مَطلوبٌ مَرغوبٌ فيه، فيفيدُ الحثَّ والتَّحريضَ عليه، وتولَّدَ مِنَ الاستفهامِ معنى

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خشي).
(2) شمس الدّين البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 114.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/158، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

العَرضِ الّذي يفيدُ الطّلبَ برفقٍ ولينٍ، ترغيبًا في قتالِ النّاقضينَ العهدَ الموصوفِينَ بما يُوجِبُ قتالَهُم، فكانَ الحثُّ على المُقاتَلة، والتّحضيضُ عليها بهذا الأسلوبِ أبلغَ ممّا لو أُثبِتَ بغيرِه[1].

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُستقبلِ ﴿تُقَٰتِلُونَ﴾:

ما يحضُّ عليه القرآنُ، نصرٌ في العاجلةِ، وفوزٌ في الآجلةِ

لمّا كانَ المُرادُ هو التّحضيضَ على القتالِ، وكانَ التّحضيضُ لا يقعُ إلّا في المُستقبلِ[2] جيءَ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على المُستقبلِ، كما أفادَتِ الصّيغةُ تجدُّدَ التّحضيضِ على قتالِهم، كلّما اتّصفُوا بالأوصافِ المذكورةِ.

فائدةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿قَوۡمٗا﴾:

القومُ هُمُ الّذين يكونون ذوي مَنعةٍ وقوّةٍ عظيمةٍ

عُبِّرَ بالقومِ في قولِه: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾، ولم يُقلْ مثلًا: (ألَا تُقَاتِلُونَ مَن نَكَثُوا أيمَانَهُم)؛ للإشعارِ بأنَّ الّذين تُقاتلُونَهُم هُمُ الّذين أعدُّوا أنفسَهُم لِلحروبِ، وأنَّهم ذوو مَنعةٍ عظيمةٍ، فإنَّ الأصلَ أن يُطلَقَ اللَّفظُ على الرّجالِ، وهُوَ المناسبُ لِمَقامِ القتالِ، وأشعرَ اللَّفظُ كذلكَ أنَّ المَذكورينَ بأوصافِهِم هُمُ القادةُ والقائمونَ بالأمرِ، وأنَّ بعضَهم يقومُ مع بعضٍ في العملِ بالأوصافِ المذكورةِ للقومِ[3].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوۡمٗا﴾:

تنكيرُ القومِ لإفادةِ العُمومِ؛ ليشملَ أيَّ قومٍ يتَّصفُونَ بالأوصافِ المذكورةِ

لمّا جاءَ ﴿قَوۡمٗا﴾ في سياقِ الإنكارِ دلَّ على العمومِ، بمعنى الحضِّ على قتالِ أيِّ قومٍ مَوصوفينَ بالأوصافِ المذكورةِ، فمَنْ كَانَ في مِثلِ هذهِ الصِّفاتِ مِن نَكثِ العُهُودِ وإخرَاجِ الرّسولِ والبَدءِ بالقِتَالِ من

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/309، والزّمخشري، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/172، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/172.

(2) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/423.

(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/280، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392.

غيرِ مُوجِبٍ حَقِيقٌ بأَن لا تُترَكَ مُصادَمَتُه، وأَن يُوَبَّخ مَن فَرَّطَ فِيهَا[1]؛ ليكونَ الكلامُ مُنتقِلًا مِن خصوصيَّةِ قتالِ أئمَّةِ الكُفرِ إلى عُموم قتالِ كُلِّ قومٍ اتَّصفُوا بالصِّفاتِ المذكورة، ولمّا كانَ أئمَّةُ الكفرِ قد نكثُوا أيمانَهم، وطعنُوا في الدّينِ أفادَ دخولَهُم في القومِ الّذين حضَّ على قتالِهم دخولًا أوّليًّا؛ ليكونَ تأكيدًا للأمرِ بقتالِهم، وتقريرًا له.

دلالةُ الجُملِ الثّلاثِ بعدَ الاسمِ النّكرةِ ﴿قَوۡمًا﴾:

توالي المُخالفات يُفضي إلى فسادِ الطّبعِ، وتحجُّرِ المَشاعرِ

لمّا كانَ لفظُ ﴿قَوۡمًا﴾ نكرةً في قولِه تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمًا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ كانَتِ الجملُ الّتي تلته صفاتٍ؛ ليفيدَ اتِّصافَهُم بصفةِ نَكثِ الأيمانِ والهمِّ بإخراجِ الرّسولِ، وكونهم هُم بَدؤوا المُؤمنينَ أوّلَ مرَّةٍ، ولمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ وقولُهُ: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ بصيغةِ الفعلِ المُتحقِّقِ الوقوعِ في الماضي، دلَّ على أنَّ هذا الاتِّصافَ على وجهِ لزومِ المعنى عندَهُم وثباتِهِ في قلوبِهِم؛ بمعنى: أنّها صارَت لهم عادةً وخُلُقًا[2].

سببُ إيثارِ وصفِ القومِ بثلاثِ جملٍ مُتعاطِفةٍ:

مُوجِباتُ القتالِ نشأَت مِن قِبَلِ العدوِّ، لا مِن قِبَلِ المؤمنينَ

وَصفَهُم بثلاثةِ أوصافٍ تُوجِبُ الحَضَّ عَلَى المُقاتَلَةِ؛ للإيذانِ بأنَّ مُوجِباتِ القتالِ نشأَت مِن قِبَلِ العدوِّ لا مِن قِبَلِ المُؤمنينَ، فبَدَأَ بالسَّببِ الأعظمِ والأهمِّ اعتبارًا، والأكثرِ تهييجًا لِلمُؤمنينَ على المُقاتَلَةِ؛ بمعنى: قاتِلوهم؛ لأنّهم اجترؤوا على اللّهِ، فنكثُوا الحِلفَ به في عهدِهِم، ولأنَّهم اجترؤوا على رسولِه ﷺ الّذي هو أعلى الخَلقِ قدرًا، فهمُّوا بإخراجِهِ، ولأنَّهم عادَوا المؤمنينَ، فبدؤوا بمُقاتلتِهِم، وذكرَ ثلاثةَ مُوجِباتٍ؛ لأنَّ تعديدَ المُوجِباتِ القويّةِ وتفصيلَها ممّا يُقوّي داعيةَ المُقاتلةِ[3].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/393.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535.

دلالةُ الصّفةِ على السَّببيَّةِ:

كُـلُّ سببٍ باعِثٌ على القتالِ، فكيف إذا اجتمعَتِ الأسبابُ؟

وَصَفَ القومَ الّذين حضَّ على قتالِهم بثلاثِ جملٍ، وأفادَ الوصفُ معنى السَّببِ الّذي يَبعثُ على مقاتلتِهم كما تقدَّمَ، فجاءَتِ الأوصافُ مَعطوفةً بالواوِ الّتي تفيدُ التّشريكَ في الحُكمِ؛ لِيُفيدَ العطفُ أمرين: أحدُهما: صلوحُ كلِّ سببٍ لو انفردَ بأنْ يكونَ باعثًا على المُقاتلةِ، والثّاني: أنَّ اجتماعَ هذه الأسبابِ الثّلاثةِ يكون أدعى في الحضِّ على قتالِهم؛ أي: إنَّ كلَّ واحدٍ منها على انفرادِهِ كافٍ في الحضِّ على مُقاتلتِهم، فكيفَ بها حالَ الاجتماعِ[1]؟

بلاغةُ الاستعارةِ التّصريحيّةِ:

نكثُ الأيمانِ من أسوأ ما يَقترفُهُ الإنسانُ

قولُه تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، لأنّ النَّكثَ في أصلِهِ هو الرّجوعُ إلى خلفٍ، ثمّ استُعمِلَ في النّقضِ مَجازًا، بجامعِ أنّ كلًّا مُتأخِّرٌ عن مَطلوبِه، وقد عَبَّرَ من خلالِ هذه الاستعارةِ عن بشاعةِ الفعلِ الّذي هو نقضُ الأيمانِ بنَكثِها، ممّا هُو مُستقبَحٌ في العُرفِ، ومُحرَّمٌ في الشَّرعِ[2]، شُبِّهَ نقضُ الأيمانِ بنَكثِ الخيوطِ بعدَ نسجِها وإبرامِها إيذانًا بالفسادِ الحاصلِ؛ لأنَّهم نقضُوا العهدَ بعدَ إحكامِهِ، وقد صرّحَ بالمشبّهِ بهِ - وهو النكثُ - على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ، وتَكرّرَت هذهِ الصّورةُ تِباعًا في هذه الآيةِ وسابقتِها.

مُناسبةُ تكريرِ قولِهِ تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾:

نكثُ الوعودِ فَسادٌ للنّفوسِ، وهلاكٌ في العَواقِبِ

كرّرَ التّركيبَ في قولِه: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ من حيث اللّفظُ؛ لأنّه هنا في مَعرِضِ ذكرِ مُوجِباتِ المُقاتَلةِ والباعثِ عليها، ولم يكرّرِ الطّعنَ في الدّينِ؛ لتعظيمِ شأنِ نكثِ الأيمانِ، ولأنّهُ لمّا كانَ في مَعرِضِ بيانِ أسبابِ المُقاتَلةِ بدأَ بما يتعلّقُ باللّهِ تعالى.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/381.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 5/155.

دلالةُ الفعلِ ﴿وَهَمُّواْ﴾:

إفادةُ الهمِّ معنى النيَّةِ على الفعلِ والرَّغبةِ فيهِ

أُريدَ بالهمِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ نيَّتُهُم إخراجَ الرَّسولِ ورغبتُهم فيهِ في قلوبِهِم مع انتفاءِ حصولِ الإخراجِ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرجَ بنفسِهِ بإذنِ اللهِ له؛ أي: إنَّ مُؤاخذتَهُم في هذهِ الآيةِ على مُجرَّدِ الهمِّ بإخراجِ الرَّسولِ، تدُلُّ على أنَّهم لم يُخرِجُوهُ، وإلّا لكانَ الأجدرُ أنْ يَنعى عليهم الإخراجَ لا الهمَّ بذلك الفعلِ[1].

سببُ إيثارِ ذكرِ الهمِّ بالإخراجِ:

مَن حَمتهُ رعايةُ اللهِ لم يضرّهُ كيدُ البشرِ

لمّا همَّ المُشركونَ بأحدِ أمورٍ ثلاثةٍ؛ قتلِهِ ﷺ وحبسِهِ وإخراجِهِ، وإليه يُشيرُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]، وقالَ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: 67]، وكانَ الهمُّ بالإخراجِ هو الّذي وقعَ أثرُهُ في الخارجِ بحسبِ الظَّاهرِ اقتُصِرَ عليه، فالواقعُ في الخارجِ هو الهمُّ لا الإخراجُ؛ لأنَّه ﷺ خرجَ بنفسِهِ كما تقدَّمَ، ويُحتمَلُ أن يكونَ الاقتصارُ على الهمِّ بالإخراجِ لأنَّهُ أدنى مِنَ القتلِ أو الحبسِ؛ ليُعلَمَ غيرُهُ بطريقِ الأولى، كما يُحتمَلُ أنْ يُقالَ: إنّهم لمّا ائتمروا فيما بينَهُم في دارِ ندوتِهم على قتلِهِ ﷺ بأيدي عُصبةٍ مُؤلَّفةٍ مِن شبّانِ بطونِ قُريشٍ كلِّها؛ ليتفرَّقَ دمُهُ في القبائلِ، فتتعذَّرَ المطالبةُ بِه، وكانَ هذا الائتمارُ هو الحاملَ لهُ على الخروجِ إلى دارِ الهجرةِ اقتصرَ على ذكرِ همِّهم بإخراجِهِ دونَ همِّهم بحبسِهِ، وهمِّهم بقتلِهِ، ويُحتمَلُ أن يكونوا قد همُّوا بإخراجِ الرّسولِ مِنَ المدينةِ أيضًا، بعدَ أن رَجَعَ إليها عَقبَ الفتحِ، بأن يكونوا قد همُّوا بغزوِ المدينةِ، وإخراجِ الرَّسولِ والمسلمينَ منها، وتشتيتِ جامعةِ الإسلامِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/133.

(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/534، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/247، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

(ألْ) هنا في قولِه: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ عهديّةٌ بمعنى الرّسولِ الّذي تعرفونَهُ، وهو سيّدُنا مُحمَّدٌ ﷺ، ومناسبةُ مجيءِ اللّفظِ مُعرَّفًا بـ(أل) دونَ أن يقولَ: وهمُّوا بإخراجِ رسولِ اللّهِ الإيذانُ بأنَّ رسولَ اللّهِ حاضرٌ في قلوبِهم وأذهانِهم، أو لاستحضارِهِ في قلوبِهِم؛ لِيكونَ أدعى إلى تصوُّرِ الهيبةِ، ولِتعظيمِ شأنِ إخراجِهِ ﷺ مِن بيتِهِ وبلدِهِ.

تعظيمُ شأنِ التّعرُّضِ لرسولِ اللهِ ﷺ

براعةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾:

جاءَت هذه الجملةُ اسميَّةً لِتُخالِفَ ما سبقَها مِنَ الجملتينِ اللَّتينِ وردَتا بصيغةِ الجملةِ الفعليّةِ؛ لِتُفيدَ تقويةَ حُكمِ السّببِ المُوجبِ لِلقتالِ عندَ المُخاطَبينَ؛ لزيادةِ التّأكيدِ والتّقريرِ، بسببِ مَجيءِ خبرِها جملةً فعليَّةً، ونكتةُ زيادةِ التّقريرِ في هذه الجملةِ: أنَّ ما سبقَها يتعلَّقُ باللّهِ وبرسولِه، فالسَّببُ المُوجِبُ لمقاتَلةِ المُشرِكينَ أقوى، فلمّا تعرَّضَ لذكرِ السّببِ المُتعلِّقِ بالمؤمنينَ جاءَ بهذهِ الطّريقةِ لتقويةِ المعنى في نفوسِهم.

الظُّلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، والبادئُ بالظُّلمِ أظلمُ

دلالةُ حذفِ المتُعلِّقِ في قولِهِ: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾:

حَذَفَ مُتعلِّقَ ﴿بَدَءُوكُمۡ﴾ لإفادةِ عمومِ المُعاداةِ الّتي بدأَها الكافرونَ؛ لِيفيدَ بداءَتَهُم في النَّكثِ، وفي القتالِ، وفي الشّرِّ؛ لأنَّه عليه السلام بدأَهُم بالدَّعوةِ، وإلزامِ الحُجَّةِ بالكتابِ، والتّحدِّي بهِ، فعَدَلُوا عَن مُعارضتِهِ إلى المُعاداةِ والمُقاتَلة[1].

دعوةُ رسولِ اللهِ حُجَّةٌ وبيانٌ، وديدنُ الكفَّارِ مُقاتَلَةٌ وعدوانٌ

دلالةُ النَّصبِ والإضافةِ في قولِهِ: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ نصبٌ على المصدريَّةِ، والإضافةُ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، والتَّقديرُ: وهُم بَدَؤُوكُم

الرّسولُ لا يبدأُ الأعداءَ بعدوانٍ، ولكن يَصدُّ غوائلَ العدوانِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

مرَّةً أُولى، والمرَّةُ الواحدةُ مِن حدثٍ يحدُثُ، فمعنى ﴿بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: بَدَؤُوكم أوّلَ بَدءٍ بالنَّكثِ؛ أي: بَدءًا أوَّلَ، فالمرَّةُ اسمٌ مُبهَمٌ للوَحدةِ مِن فِعلٍ ما، والأغلبُ أنْ يُفسَّرَ إبهامُهُ بالمَقامِ كما هنا، وقد يُفسِّرُهُ اللَّفظُ، ويُفيدُ المصدرُ هنا توكيدَ الحدثِ وتقريرَهُ(1).

براعةُ الحثِّ على القتالِ في قولِه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾:

تهييجُ المؤمنينَ لإظهارِ شجاعتِهم وقوّتِهم أمامَ أعدائِهم

لمّا كانَ الضَّميرُ في ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ عائدًا على المُشركينَ أفادَ أنَّ المعنى: أتخشونَ المُشركينَ؟ ولمّا كانَ الخطابُ لِلمُؤمنينَ دلَّ على أنَّه يَتكلَّمُ في خصمِهم، فيكون فيه تهييجٌ للمُؤمنينَ؛ لإظهارِ شجاعتِهم وقوّتِهم، فإنَّه إذا قِيلَ للرَّجلِ: أتَخشى خصمَكَ؟ كانَ ذلك تحريكًا منهُ لأنْ يَستنكِفَ أن يُنسَبَ إلى كَونِه خائفًا من خَصمِه(2).

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ في قولِه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾:

توبيخُ المؤمنينَ مِن خشيتِهم الكافرينَ

جاءَ الاستفهامُ على معنى الإنكارِ والإقرارِ، بمعنى الإنكارِ على خشيةِ الكافرينَ، والخوفِ منهُم، وإقرارِ أنَّ تركَ مُقاتَلتِهم بسببِ الخشيةِ منهُم، وذَلكَ لِتوبيخِ المُؤمنينَ والتّعجيبِ مِن خشيتِهم الكافرينَ، وفي طيِّ التّوبيخِ حضٌّ على مُقاتَلتِهم، إذ وصفَهُم بما يُوجِبُ الرّغبةَ فيها، ويُحقِّقُ أنَّ مَنْ كانَ على تلكِ الصّفاتِ السّيّئةِ حقيقٌ بأنْ لا تُترَكَ مُصادمتُهُ، ويُوَبَّخَ مَن فَرَّطَ فيها(3)، والمرادُ: أتخشونَ أنْ ينالَكُم مَكروهٌ منهم، حتَّى تتركُوا قتالَهُم؟ لأنَّ الخشيةَ في المُقاتَلَةِ إنَّما هي مِنَ الإصابةِ بمَكروهٍ، لكنّهُ قالَ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾، ولم يقُلْ: أتَخشونَ الأذى أو المَكروهَ منهُم؛ لِلمُبالغةِ في الكلامِ؛ لأنّهُم إنْ لم يخشَوهُم فلن يخشَوا أذاهُم ولا وقوعَ الضُّرِّ منهُم؛ كما أنَّ فيه تهييجًا لِلمُؤمنينَ، وحثًّا لَهُم على تَركِ الخوفِ مِن قتالِ الكافرينَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/536.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/48، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.

بلاغةُ الكنايةِ في الاستفهامِ المجازيّ:

عُبِّرَ عن تركِ قتالِ المُشركينَ بالخشيةِ مِنهُم؛ أي: ذكرَ المَلزومَ، وأرادَ لازمَهُ على سبيلِ الكنايةِ لِلمُبالَغةِ في المعنى، وليكونَ أوثقَ في تحقيقِ المُدّعَى، فإنَّه يلزمُ مِن خشيتِهم تركُ قتالِهم؛ والمعنى: أتتركُونَ قِتالَهُم خشيةَ أن يَنالَكُم مَكروهٌ مِنهُم[1]؟

مَن يخشَ الأعداءَ لا يقاتلْهم

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾:

أُوثِرَتِ الخشيةُ على الخوفِ هنا؛ لِمناسبةِ المقامِ؛ لأنَّ الخشيةَ خوفٌ مع تعظيمٍ لِلمَخُوفِ منهُ، فلمّا دخلَت همزةُ الاستفهامِ المفيدةُ للإنكارِ دلَّ على أنَّ الإنكارَ على أمرين: الخوفِ مِنهُم، وتعظيمِ شأنِهم أو قوّتِهم وعددِهم[2].

الخشيةُ تجمعُ معنى الخوفِ والتَّعظيمِ

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ﴾:

الفاءُ تفريعيّةٌ - على التّقريرِ في قولِه: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ - ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ ؛ أي: فاللّهُ الّذي أمركُم بقتالِهم أحقُّ أنْ تخشَوهُ إنْ خطرَ في نفوسِكُم خاطرُ عدمِ الامتثالِ لأمرِه، وفي الفاءِ أيضًا نوعٌ مِن تعليلٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ وإنْ كانَ للتّقريرِ لكنَّهُ مُضمَّنٌ مَعنى النَّهي، كأنَّه قِيلَ: لا تخشَوهُم؛ لأنَّ اللّهَ أحقُّ بالخشيةِ وأحرى بالطّاعةِ[3].

النّهيُ عن خشيةِ الكُفّارِ؛ لأنَّ اللهَ أحقُّ بالخشيةِ وأحرى بالطّاعةِ

دلالةُ اسمِ التّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ اسمُ التّفضيلِ ليسَ على بابِه، فهو بمعنى حقيق[4]، فليسَ لغيرِ اللّهِ أحقّيَّةٌ في الخشيةِ منهُ أو تعظيمِه، ونكتةُ مجيءِ اسمِ التّفضيلِ هي نفيُ الاشتراكِ، وتفرُّدُ اللّهِ بالخشيةِ، ولإفادةِ أنَّ خشيتَهُ ينبغي أن تكونَ في أعلى مَا يمكنُ.

ليس لغيرِ اللهِ أحقّيَّةٌ في الخشيةِ منهُ أو تعظيمِه

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/10.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.

إفادةُ الحصرِ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾:

المُؤمِنَ أشجَعُ النَّاسِ، وأعلاهُم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يَخشَى إلَّا اللهَ

لمّا كانتِ الفاءُ للتّفريعِ على الإنكارِ على الخشيةِ مِنَ الكافرينَ، ثمَّ أثبتَ أحقِّيّةَ اللّهِ بالخشيةِ، وعلّقَ السَّببَ على كونِهم مُؤمنينَ دلَّ الكلامُ على معنى الحصرِ؛ بمعنى أنَّ مُقتضَى الإيمانِ أنْ لا يُخشَى إلَّا مِنَ اللّهِ، فالمَقامُ يدُلُّ عليهِ، إذ أنكرَ خشيةَ الغيرِ، ولا يضرُّ انتفاءُ أداةِ الحصرِ، فقد يَقومُ السّياقُ مقامَها، وفيهِ إشعارٌ أنَّ المُؤمِنَ يكونُ أشجَعَ النَّاسِ، وأعلاهُم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يَخشَى إلَّا اللّه ﷻ[1].

تنوُّعُ المعنى لِتنوُّعِ التَّوجيهِ الإعرابيِّ:

في قولِه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾: الاسمُ الجليلُ ﴿فَٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿أَحَقُّ﴾ خبرُهُ، و﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ بدلُ اشتمالٍ من ﴿فَٱللَّهُ﴾؛ والمعنى: خشيةُ اللّهِ تعالى أحقُّ، وهذا التّقديرُ على معنى تكريرِ الحُكمِ لزيادةِ التّقريرِ والإيضاحِ، ويُحتمَلُ أن يكونَ التّقديرُ: (بأن تخشَوهُ)؛ والمعنى: اللّهُ أحقُّ من غيرِهِ بالخشيةِ، ويُحتمَلُ أن يكونَ ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ مبتدأً، خبرُهُ ﴿أَحَقُّ﴾، والجملةُ خبرُ الاسمِ الجليلِ، والمعنى: اللّهُ خشيتُهُ أحقُّ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشّرطِ:

تأكيدُ الجزاءِ بأسلوبِ الشّرطِ، وأثرُهُ في المعنى

في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يُحتمَلُ أن يكونَ أسلوبُ الشّرطِ للتَّهييجِ وللتّحضيضِ على الفعلِ، ولا يُقصَدُ فيه معنى الشّرطِ والجزاءِ، كَمَن يُقالُ له: افعلْ هذا إنْ كنتَ شُجاعًا، وهو أسلوبٌ عربيٌّ فصيحٌ شائعٌ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الكلامُ على معنى الشّرطِ حقيقةً، ويكون الجزاءُ محذوفًا معلومًا مِنَ السّياقِ؛ أي بتقديرِ: إنْ كنتُم مُؤمنينَ وَجبَ عليكُم أنْ تُقدِمُوا على هذه المُقاتَلةِ، ومفهومُهُ: أنَّكم إنْ لم تُقدِمُوا عَليها وَجبَ أن لا تكونوا مُؤمنينَ، أو: إنْ صَحَّ أنَّكم مُؤمنون

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255.

حقًّا فلا تَخشَوا إلا اللّه[1]، وعلى كلا التّقديرينِ يكونُ الشّرطُ على معنى تأكيدِ الجزاءِ؛ لأنَّهُ لمّا ذُكِرَ قبلَ الشَّرطِ صريحًا، ثمَّ نُوِيَ معناهُ بعدَ الشّرطِ تقديرًا أفادَ تكريرَ المعنى وتقريرَهُ.

دلالةُ لفظِ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

لّما كانَ الخطابُ لجميعِ المؤمنينَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وكانَ طلبُ الحاصلِ غيرَ مُتصوَّرٍ دلَّ على أنَّ المُرادَ إنْ كنتُم كاملي الإيمانِ، أو إنْ كنتُم مُؤمنين حقًّا، أو المعنى: مُقتضَى الإيمانِ الصّحيحِ أنْ لا يَخشى المُؤمِنُ إلّا اللّه؛ لأنَّ قدرتَهُ ﷻ أتمُّ، وعقابَهُ أشدُّ، بلْ لا قدرةَ إلّا لَهُ، ولا يكونُ إلّا ما يريدُ، فأفادَ الشّرطُ الحضَّ على القتالِ كَذلِكَ[2].

مُقتضَى الإيمانِ الصّحيحِ أنْ لا خشيةَ إلّا مِنَ اللهِ

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الخشيةُ والخوفُ:

وَرَدَ في هذه الآيةِ معنى الخشيةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، والخشيةُ لونٌ مِن استشعارِ الخوفِ، لكنّهُ مَقرُونٌ بالعِلمِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وأمّا الخوفُ فهوَ مُجرَّدُ ذُعرٍ يحصلُ للإنسانِ ولو بلا عِلمٍ، ولهذا قد يخافُ الإنسانُ من شيءٍ يتوهَّمُهُ، وهوَفي أصلِهِ لا حقيقةَ لهُ، فقد يَرى في اللّيلةِ الظّلماءِ شَبحًا لا وجودَ له، فيخافُ منهُ، فهذا ذُعرٌ مَبنيٌّ على وَهمٍ، لكنّ الخشيةَ تكونُ عن عِلمٍ؛ فقد ذَهَبَ مُوسى عليه السلام، وقالَ لِفرعونَ ما أمرَهُ اللّهُ بهِ: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النّازعات: 18 - 19][3]، والفرقُ بينَ الخوفِ والخشيةِ: أنّ الخوفَ يَتعلّقُ بالمكروهِ، وبتَركِ

الخشيةُ: هي الخوفُ المَقرونُ بالعلمِ، والخوفُ: مُجرَّدُ الذُّعرِ دونَ حاجةٍ لِلعلمِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/536، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.
(3) محمّد بن صالح العثيمين، تفسير جزء عمّ، ص: 46.

المَكروهِ، في قولِكَ: (خِفتُ زيدًا)، وتقولُ: (خِفتُ المرضَ)، كما قالَ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]، والخشيةُ تتعلَّقُ بمُنزِلِ المَكروهِ، ولا يُسمَّى الخوفُ مِن نفسِ المَكروهِ خشيةً، ولهذا قالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21][1]، فالخشيةُ تتعلَّقُ بالمعنويِّ، والخوفُ يتعلَّقُ بالمَحسوسِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 217.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ [التّوبة: 14 - 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبلَهُما:

الانتقالُ من التَّحذيرِ من تركِ القتالِ والتّقاعسِ عنه إلى الأمرِ بهِ، تحفيزٌ للهممِ عليه

لَمَّا وبَّخهمُ اللّهُ على تركِ القتالِ، وتوعَّدَهم عليه معَ ذكرِ موجباتِهِ؛ جرَّد لهم الأمرَ به في تينِ الآيتين، وجعل جزاءَهُ خمسةَ وعودٍ؛ ليثبِّتَ قلوبَهم، وتصحَّ نيَّاتُهم، ولا يخشَوا قتالَهم؛ تشجيعًا لهم وتهييجًا للهِمَم؛ لتنبعثَ الحميَّةُ على قتالِهم[1].

وأيضًا: لَمَّا بكَّتَ في التَّواني عنهم؛ وَعَدَهم بما يُزيل خشيتَهم منهم، بل يوجبُ إقدامَهم عليهم ورغبتَهم فيهم، فإنَّه لَمّا أنكرَ عليهم تركَ قتالِهم الذي تضمَّنَ الأمرَ به صرَّح هنا بالأمرِ؛ لِينتقلَ من التَّحذيرِ من التَّركِ إلى الأمرِ بالفعلِ؛ لتقويةِ الدَّاعي وحثِّ الهِمَمِ لِمَا في القتالِ من الثِّقَلِ والكراهةِ له[2].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾: أصلُ الكلمةِ خَزَوَ، ويدورُ معنى الخزي على الإبعادِ معَ الذُّلِّ والهوانِ والفضيحةِ من حيثُ وقعَ صاحبُه في عارٍ، وخَزِيَ الرجلُ إذا وَقع في بليَّةٍ وشَرٍّ، فَذلَّ بذلك وَهَان، واسْتَحْيَا مِنْ قُبْحِ فِعْلِه فتبَاعَدَ ونأى، ومنه قَوْلُهُمْ: أَخْزَاهُ اللّه؛ أَيْ: أَبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ. والخزيُ في الآيةِ بمعنى الهوانِ والذِّلَّة[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (خزي).

2) ﴿غَيۡظَ﴾: هو الحرارةُ الَّتي يجدُها الإنسانُ من فورانِ دمِ قلبِه، وينتج منها أشدُّ الغضب، أو أشدُّ الحَنَق، ويكون كامنًا في القلبِ، ومنه: تغيَّظتِ الهاجِرةُ؛ إذا اشْتدَّ حَمْيُها، وَلَا يَكُونُ الغَيْظُ إلَّا بِوُصُولِ مَكْرُوهٍ إلى الْمُغْتَاظِ(1).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مجابهةُ عدوِّ اللهِ وعدوِّ رسوله؛ شِفاءٌ لما في صُدورِ المؤمنين، ومن تاب قُبِلَ مع المؤمنين

قاتِلوا - أيُّها المؤمنونَ - هؤلاءِ المشركينَ أعداءَ اللهِ يعذِّبْهم اللهُ بأيديكم، ويذلَّهم بالهزيمةِ والقهرِ، وينصرْكم عليهمْ بالظَّفَرِ والغلبةِ، ويبرئْ داءَ صُدورِ قوم مؤمنينَ باللهِ ورسولِه، مِمَّا كَانُوا يَنالُونَه مِنَ الأذَى مِنْهُم، ويُذْهِبْ عن قلوبِ المؤمنينَ الغيظَ، ومَنْ تابَ مِنْ هؤلاءِ المعاندينَ، فإنَّ اللهَ يتوبُ على من يشاءُ، ويمنُّ اللهُ على مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ الكافرينَ، فيُقْبِلُ بِهِ إلى التَّوبة بتوفيقِه إيَّاه، واللهُ عليمٌ بسرائرِ عبادِه، وبمَا كانَ وما سيكونُ، حكيمٌ في تصريفِ أمورِهم(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الإعجازِ:

إثباتُ صدقِ النَّبيِّ دليلٌ على صحَّةِ نبوَّتِه فيما أخبر

لمّا وفَّى اللهُ بما وعدَ المؤمنينَ به في تينِ الآيتين كانتَا من المعجزاتِ ومن الأدلَّةِ على صدقِ رسولِ اللهِ ﷺ وصحَّةِ نبوَّتِه؛ لأنَّه تعالى أخبرَ عن حصولِ هذه الأحوالِ، وقد وقعت موافقةً لهذه الأخبار، فيكون ذلك إخبارًا عن الغيب، والإخبارُ عن الغيبِ معجزٌ، فيكونُ إثباتًا لصدقِ نبوَّةِ رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ(3).

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/160، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/6، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 189.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/436، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

تجاوزُ التَّحذير عن قتالِهم في حالات خاصَّةٍ إلى الأمر الصَّريح لأغراض عامَّةٍ

فائدةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ وأثرهُ:

قولهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، اسۡتِئۡنَافٌ ابۡتِدَائِيٌّ لِلۡعَوۡدِ مِنۡ غَرَضِ التَّحۡذِيرِ إِلَى صَرِيحِ الۡأَمۡرِ بِقِتَالِهِمُ الَّذِي فِي قَوۡلِهِ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التَّوْبَة: 12] وَشَأۡنُ مِثۡلِ هَذَا الۡعَوۡدِ فِي الۡكَلَامِ أَنۡ يَكُونَ بِاسۡتِئۡنَافٍ كَمَا وَقَعَ هُنَا[1].

التَّرقِّي في الأوامر من طرائق التَّربيةِ القرآنيَّةِ الحصيفة

فائدةُ مجيءِ الأمر:

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، جزمَ الأمرَ بقتالِهم، فجاءَ بصيغةِ الطَّلبِ المباشِرِ بعدَ أنْ كنَّى عنه في الآياتِ السَّابقة؛ ليكونَ الأمرُ على سبيلِ التَّرقِّي من التَّكنِّي إلى التَّصريح؛ لِمَا في القتال من الكُلفةِ والثِّقَل على النَّفس، ولأنَّه مكروهٌ في الطَّبائع، وللإيذانِ بأنَّ الامتثالَ لا يكونُ إلَّا بإنجازِ القتالِ وتحقُّقِه، فلا مجالَ للتَّأويلِ في وجوب قتالِهم.

مواجهةُ الكافرين دليلُ شجاعة المؤمنين، ورسوخ أقدامهم

دلالةُ الأمر بصيغةِ المفاعلة:

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، جاء الأمرُ على صيغةِ المفاعلة، فلم يقلْ: (اقتلوهم)؛ للإيذانِ بقدرتهم على قتالِهم، فالصِّيغةُ مشعرةٌ بالتَّحريض على مقاومتِهم، وإثارةِ روحِ الجهاد في قلوبِهم؛ لنكثِ الكافرين عهودَهم مع المؤمنين، ولما اتَّصفوا به من الصِّفاتِ الموجبةِ لقتالِهم، كما تفيدُ الصِّيغةُ تشارُكَ الفريقين في القتالِ؛ بمعنى: أنَّ أحدَهما يفعل بصاحبِه فعلًا، فيقابله الآخر بمثله، فيُنْسَب للبادئ نسبةُ الفاعليَّةِ، وللمقابلِ نسبةُ المفعوليَّة؛ أي: إنَّ المؤمنين سيلقون من أعدائِهم قتالًا، كما تدلُّ الصِّيغةُ على غلبةِ أحدِهما، ولهذا جاء الجزاءُ بذكرِ غلبةِ المؤمنين ونصرِهم، ولمَّا أمرَ اللهُ تعالى المؤمنين بقتالِ أعداءِ اللهِ وأعدائهم؛ كان كنايةً عن علمِ الله بشجاعتِهم وقدرتِهم على المقاتلةِ والمواجهةِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/135.

(2) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/96، والحملاويّ، شذا العرف، ص: 30 - 31.

الإذنُ بالقتال مُؤذِنٌ بالاستعداد الفعّال، جرّاء نكث العهد والاستفزاز

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بأسلوبِ الأمرِ والجزاءِ:

لم يقلْ: (إن تقاتلوهم) أو (إذا قاتلتموهم)؛ لأنَّ في صيغةِ ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ الإيذانَ بصريح الأمرِ بقتالِهم، بعدَ أنْ كنَّى عنه في الاستفهام الإنكاري، أي: استعِدُّوا لقتالِهم، وإنْ لم يطلبوا هم قتالَكُم؛ إشعارًا بأنَّهم قد اتَّصفوا بأوصافٍ توجبُ مقاتلتَهم، مثل نكثِ العهدِ وغيرِه.

بنصرِ المؤمنين على الكافرين تكثُرُ نِعَمُ الله وتتتابعُ عطاءاته

براعةُ التَّعبير بتتابع الجزاء، ودلالتها على التّأييد الإلهيّ:

ذكرَ الجزاء في قوله: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾، فبدأَ بالأشدِّ والأهمِّ، فجعل جزاءَ القتال تعذيبَهم بأيدي المؤمنين، ثمَّ لمّا كان تعذيبُهم يتسبَّبُ منه خزيُهم وإذلالُهم؛ عطف عليه قوله: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ إشعارًا بأنَّ التَّعذيبَ قد يكونُ بالقتلِ، أي: بقتلِ بعضِهم، فيكون الخزيُ على الباقين، وقد يكونُ بغيرِ القتلِ، فيكون الخزي على جميعِهم، ولمّا كانَ نصرُ المؤمنين وانكسارُهم مسبَّبًا من خزيهم وإذلالِهم؛ قال: ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، فإنَّه لمّا حصل الخزيُ لهم بسببِ كونِهم مقهورينَ؛ حصل النَّصرُ للمسلمين بسببِ كونِهم قاهرين[1]، ولمّا كان يتسبَّبُ من الظَّفر عليهم شفاءُ المؤمنين من داء الأذى الذي أوقعَهُ المشركون بالمؤمنين بكفرِهم باللّه وأذيَّتِهم المؤمنين قال: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾، فإنَّ مَنْ طالَ تأذِّيه من خصمِه، ثمَّ مكَّنه اللّه منه على أحسنِ الوجوه، فإنَّه يعظُمُ سرورُه به، ويصيرُ ذلك سببًا لقوَّةِ النَّفسِ، وثباتِ العزيمةِ، ولمّا كان تعذيبُهم وخزيُهم وشفاءُ صدورِ المؤمنين يتسبَّبُ منه ذهابُ غيظِهم وحَنَقِهم على الكافرين قال تعالى: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾.

"وبُدِئَ أوّلًا فِيها بِما تسبّب عنِ النّصرِ، وهُو تعذِيبُ اللّه الكُفّار

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.

بِأيدي المُؤمِنين وإخزاؤُهم؛ إذ كانتِ البُداءةُ بِما ينالُ الكُفّار مِن الشّرِّ هِي الّتِي يُسرُّ بِها المُؤمِنُون، ثُمّ ذكر السّبب، وهُو نصرُ الله المُؤمِنِين على الكافِرِين، ثُمّ ذكر ما تسبّب أيضًا عنِ النّصرِ مِن شِفاءِ صُدُورِ المُؤمِنِين وإذهابِ غيظِهِم تتميمًا لِلنِّعم، فذكر ما تسبّب عنِ النّصرِ بِالنِّسبةِ لِلكُفّارِ، وذكر ما تسبّب لِلمُسلِمِين مِن الفرحِ والسُّرُورِ بِإدراكِ الثّأرِ"[1].

سببُ عدم ذكْرِ الغنائم في الجزاء:

العربُ قومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأَنَفَةِ والشّجاعة الفطريّة

لم يذكر تعالى في الجزاء وجدانَ الأموال، والفوزَ بالمطاعم والمشارب؛ لأنَّ العربَ قومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأَنَفَةِ، فرغَّبَهم في هذه المعاني، لكونها لائقةً بطباعِهم[2].

سر اختيار لفظ ﴿يُعَذِّبۡهُمُ﴾:

تعذيبُ العدوِّ وإنزالُ الأذى فيهم سببٌ للنَّصرِ عليهم

ذكرَ التَّعذيبَ دون غيره من الألفاظ الدالة على إلحاق الأذى بالغير؛ لأنَّه يشملُ كلَّ ما يطلقُ عليه عذابٌ، فيصدقُ بالقتل وبالأسر وباغتنام الأموال وغير ذلك، كما أنَّ التَّعذيبَ أمرٌ زائدٌ على أسبابه من الطَّعنِ والضَّربِ، فقد يصابُ القومُ بالطَّعنِ والضَّربِ، ويُقتَلُ بعضُهم، ويُجرَحُ بعضٌ، ولا يُسمَّون معذَّبين بذلك وحدَه، فإنَّ الغالبَ والمغلوبَ فيه سواء، فلمَّا قال: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ﴾؛ دلَّ على أنَّه تعالى سيُحدِثُ في أنفُسِ المشركين في هذا القتال أذًى جسديًّا وألمًا نفسيًّا، لعلَّ أظهرَ أسبابِه اليأسُ وسلْبُ البأسِ[3]، وأشعرَ اللَّفظُ أنَّ الذي يؤثِّر في العدوِّ، ويكون من مُوجِباتِ النَّصرِ، هو تعذيبُهم، وإنزالُ الأذى فيهم، وليس منازلتَهم بالقوَّةِ فحسبُ.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغة (يُفَعِّل):

عذاب الله على أعداء الدين واقع، أليم متجدد متتابع، ليس له دافع

في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ﴾، عُبِّرَ بصيغةِ (فعَّل يُفعِّل)؛ لِمَا تفيده

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/177.

من معنى تكثيرِ تعذيبهم بالمقاتلة، كما تدلُّ صيغةُ المضارعةِ على استمرارِ تجدُّدِ تعذيبِهم وآلامِهم بالمقاتلةِ وقتًا عَقِيبَ وقتٍ.

سرُّ تعليقِ العذاب بأيدي المؤمنين:

تشريفُ أيدي المؤمنين بتعذيبِ أعدائهم بها إظهار للغلبة والتّمكين

في قوله: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، لمّا كان لفظُ ﴿يُعَذِّبۡهُمُ﴾ مقيَّدًا بقوله: ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ دلَّ على أنَّ المرادَ تعذيبُهم في الدُّنيا لا في الآخرةِ، إشعارًا بأنَّ عذابَ اللهِ ينالُهم في الدّنيا بتعجيلِه لهم فيها، كما أنَّه واقعٌ ثابتٌ في الآخرة، ولتكون البشارةُ بالتَّعذيبِ على الوجهِ الأتمِّ الذي يترتَّبُ عليه شفاءُ الصُّدورِ ونحوُه على الوجهِ الأكملِ؛ إذْ ثمّة فرقٌ بينَ تعذيبِ العدوِّ بيدِ عدوِّه وتعذيبِه لا بيدِه[1]، وفي ذكرِ أيدي المؤمنينَ تشريفٌ لها، إذ جعلَ تعذيبَ أعدائِه بها، كما أنَّ فيها إِشعارًا بقوَّتِهم وشدَّةِ ما يقعُ على الكافرين؛ لِمَا يدلُّ عليه لفظُ اليدِ من معنى القوَّةِ والشِّدَّةِ، فاختارها اللهُ ليكونَ تعذيبُ الكافرين بها.

بلاغةُ المجازِ العقلي:

لمّا كانَ قتالُ الكافرين ناشئًا بأمر الله تعالى نسبَ تعذيبَهم إليه

في قوله: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، أُسنِدَ التَّعذيبُ إلى اللهِ تعالى، على طريقِ المجازِ العقلي، والظَّاهرُ أنْ يكونَ الإسنادُ إلى المؤمنين، بأنْ يقالَ: تعذِّبوهم بأيديكم[2]، لكنَّه جاء على طريقِ المجازِ، ونكتتُه ظهورُ امتثالِ المؤمنين لأمرِه تعالى لهم بالقتالِ، أي: لمّا كانَ قتالُهم ناشئًا بأمرِه تعالى، مع استجابِ المؤمنين له؛ نسبَ التَّعذيبَ إليه سبحانَه، فكأنَّ اللهَ تعالى يقولُ للمؤمنين: عليكم قتالُهم، وعلينا تعذيبُهم بأيديكم، كما أنَّ في المجازِ إشعارًا بشدَّةِ العذابِ ودوامِ أثرِه، فيكونُ للمبالغةِ، فإنَّه تعذيبُ اللهِ تعالى القويِّ العزيزِ، وإنْ كانَ بأيدي العبادِ[3].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/177.

توجيهُ المتشابهِ القرآنيِّ:

نفى اللّهُ تعالى تعذيبَ الكفَّار في حالِ وجودِ رسولِ اللّه ﷺ بينَهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33]، فكيف قال هاهنا: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾؟ وجوابُه: أنَّ المرادَ من آيةِ الأنفالِ عذابُ الاستئصالِ، والمرادَ من آيةِ التَّوبةِ عذابُ القتلِ والحربِ، والفرقُ بين البابين: أنَّ عذابَ الاستئصالِ قد يتعدَّى إلى غيرِ المذنبِ وإنْ كانَ في حقِّه سببًا لمزيدِ الثَّوابِ، أمَّا عذابُ القتلِ؛ فالظَّاهرُ أنَّه يبقى مقصورًا على مَن يكونُ في القتالِ أو على المذنبِ[1]، وقريبٌ منه أنْ يقالَ في الجوابِ: المرادُ من التَّعذيبِ في آيةِ الأنفالِ النِّقمةُ المحضةُ، وما كانَ ليقعَ على قومِ نبيِّ الرَّحمةِ، وأمَّا هنا؛ فإنَّه انتقامٌ من بعضِهم بما هو رحمةٌ لمجموعِهم، فمآلُه خيرٌ للمؤمنين وللنَّاسِ جميعًا، فهو كقَطْعِ العضوِ المجذومِ من الجسدِ، لأجلِ سلامةِ جملتِه، فلولا ذلك الجهادُ الذي ذاقَ به أولئك القومُ الآلامَ والأوجاعَ؛ لَمَا صارَ الباقون منهم سادةَ البشرِ في الأرضِ[2].

لولا تضحيات السّابقين؛ لَمَا صارَ اللّاحقون رادةَ البشرِ وسادتَهُم

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾:

عُبِّرَ بالخِزْيِ؛ لِما ينزل بهم من الذُّلِّ والهوانِ، حيثُ شاهدوا أنفسَهم بعدَ شموخِهم واستكبارِهم مقهورين ذليلين مَهينين في أيدي خصومهم المؤمنين، وأشعرَ اللَّفظُ أنَّ جزاءَهم بالخزي هو لِما ارتكبوه من الأفعال القبيحة كالكفرِ ونقض العهدِ وغيرِهما، فلمَّا كانت أفعالُهم عارًا؛ عُوقبوا بالخزي[3].

أفعالُ العارِ ليس لها جزاءٌ إلَّا الخزيُ والهوان

سببُ إيثارِ حذف متعلّق: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾:

لمّا كان الخزيُ يحتملُ أنْ يكونَ في الدُّنيا أو في الآخرةِ حُذِفَ الجارُّ والمجرورُ الدَّالُّ على زمانِ الخزيِ؛ لِيفيدَ عمومَ الخزيِ،

خِزيُ الدُّنيا بالذُّلِّ والهوان، وخزيُ الآخرة بالفضيحةِ والعذابِ الشّديد

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/181.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (خزي)، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.

فيتناولَ خزيَهم في الدُّنيا والآخرةِ، والمعنى: ويُخزِهم بالذُّلِّ في الدُّنيا سواءٌ أكانَ بالأسرِ أو بغيرِه، ويخزِهم بالفضيحةِ والعذابِ في الآخرةِ[1].

مناسبةُ الخطابِ في التَّعذيب والنَّصر، والغَيْبة في سواهما:

أعمالُ الإيمانِ قد يقومُ بها بعضُ المؤمنين، ويفرحُ بها جميعُهم

آثَرَ التَّعبيرُ صيغةَ الخطابِ في التَّعذيبِ والنَّصرِ، فقال: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، ثمَّ عدلَ إلى الغَيبةِ في قوله: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾، معَ أنَّ النَّصرَ والشِّفاءَ عامٌّ لكلِّ واحدٍ من المؤمنين؛ لأنَّ تعذيبَ الكافرين ونصْرَ المؤمنين بالنَّظرِ إلى الحاضرين، ولمّا كانَ شفاءُ صدورِ المؤمنين يعمُّ الحاضرينَ القتالَ وغيرَهم عُبِّرَ بصيغة الغَيبةِ، إشعارًا بأنَّ أعمالَ الإيمانِ كمُقاتَلةِ الأعداءِ قد يقومُ بها بعضُ المؤمنين، ويفرحُ بها جميعُهم بسببِ آصرةِ الإيمانِ التي تجمعهم[2].

دلالةُ شفاء صدور المؤمنين:

بيان أنّ في قتالِ الكافرين شفاءَ صدورِ المؤمنين

قولُه: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾، لمّا كانت قلوبُ المؤمنين تتوجَّعُ لكفرِ الكافرين باللّه، وتكذيبهم الرَّسولَ، وتتألَّمُ له؛ وعدَهم شفاءَ صدورهم، وذلك يحتمل وجهين: أحدهما: أنَّهم يُسلِمون، فيصيرونَ إخوانًا، فيدخلُ فيهم السُّرورُ والفرحُ بإزاءِ ما حزنوا وتألَّموا، وذلك شفاءُ صدورِهم، ولهذا أعقبَه بذكرِ التَّوبةِ، والثاني: أنّه يشفي صدورَهم بقتلِ الكافرين وهزيمتِهم؛ لِمَا لَقُوا منهم من الأذى والغمِّ، ففي قتالِ الكافرين شفاءُ صدورِ المؤمنين[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التصريحيّة التبعيّة:

قتالُ الكافرين النَّاكثين العهدَ دواءٌ يُزيلُ الغمَّ عن المؤمنين

قولُه: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾، جاء الكلامُ فيه على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُه: أنَّه شبَّهَ الغمَّ الشَّديدَ، والهمَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/311.

الكبيرَ الحاصلَ بأذيَّةِ الكافرين للمؤمنين بالمرضِ الحاصلِ في الصُّدورِ، فكان قتالُهم بمنزلةِ الدَّواءِ الّذي يُزيلُ هذا الغمَّ، ويشفي الصُّدورَ.

ونكتةُ التَّعبيرِ بالاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة: الإشعارُ بضَرورة قتالِهم، وأنَّه هو الدَّواءُ لإزالةِ ما أصابَ صدورَهم من الهمِّ والغمِّ.

مناسبةُ التَّعبير بلفظ (الصُّدور) دونَ (القلوب):

عقائدُ الكفرِ الفاسدةُ وبالٌ على الكفّار، وهمٌّ وغمٌّ للمؤمنين

لمّا قال تعالى: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ دلَّ على أنَّ الأذى الذي سبَّبَ الهمَّ والغمَّ للمؤمنين إنّما هو بسببِ عقائد أهل الكفر الفاسدةِ، وبسبب الأذى النَّفسي للمؤمنين، ممَّا ينالونَه منهم من عوارضِ الدُّنيا.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿قَوۡمٖ﴾:

إصابةُ بعض المؤمنين بالأذى يوجِبُ لهم النّصرةَ العامّة

عُبِّرَ بصيغةِ الاسم النَّكرة ﴿قَوۡمٖ﴾؛ ليشْمَلَ الْمُخَاطَبِينَ وَكُلَّ مُؤْمِنٍ؛ لِأَنَّ مَا يُصِيبُ أَهْلَ الْكُفْرِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْخِزْيِ بل كلَّ ما يَهدُّهُم، هُوَ شِفَاءٌ لِصَدْرِ كُلِّ مُؤْمِنٍ؛ فإنَّ كفرَ الكافرين همٌّ في صدور المؤمنين، كما يحتمل أنْ يريدَ تخصيصَ قوم من المؤمنين الذين نُقِضَ فيهم العهدُ، ونالتْهم الحربُ، فهؤلاءِ فريقٌ تُغايِرُ حالتُه حالةَ الفريقِ المخاطَبينَ بالتَّحريض على القتالِ والتَّحذير من التَّهاونِ فيه[1]، وفي هذا الوجه إشعارٌ بأنَّ ما يصيبُ قومًا معيَّنين من المؤمنين يوجِبُ على الجميعِ نصرتَهم وإعانتَهم.

براعةُ الالتفات:

امتثالُ أوامرِ اللهِ دلالةٌ على الرُّسوخِ في الإيمانِ

قوله: ﴿قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ لم يأتِ الكلامُ على نسقِ ما سبق، بأنْ يقالَ: (ويشفِ صدورَكم)؛ فأقامَ الظَّاهرَ مُقامَ المضمر؛ ليكونَ من باب الالتفاتِ، وفائدتُه: الشَّهادةُ للمخاطَبينَ برسوخِهم في الإيمانِ لامتثالِهم أمرَ اللّه تعالى، كما أنَّ في التَّعبير بلفظِ ﴿قَوۡمٖ﴾ إظهارًا لقوَّةِ هؤلاء القوم ومَنَعتِهم[2].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/27، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/39.

الـتَّرقّـي يجعلُ شفـاءَ الـصُّدور مسرَّةً، وذهابَ المكارِهِ لذَّةً

مناسبةُ العطفِ:

في قوله: ﴿وَيَشۡفِ﴾ و﴿وَيُذۡهِبۡ﴾، قد يقالُ: ما الفرقُ بينَ شفاءِ الصُّدورِ وإذهابِ غيظِ القلوبِ، فإنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ؟ وجوابُه: أنَّه قد يكفي في الاختلافِ بينهما اختلافُ المفهومينِ والحالينِ، فيكونُ ذهابُ غيظِ القلوب مساويًا لشفاء الصُّدور، فيحصل تأكيدُ الجملة الأُولى بالجملة الثَّانية؛ فيكونُ شِفَاءُ الصَّدْرِ مِنْ آلَةِ الغَيْظِ هُوَ إِذْهَابَ الْغَيْظِ، وفائدةُ التَّأكيدِ المبالغةُ في جعلهم مسرورين بما يمنُّ اللّٰه تعالى عليهم من تعذيبِه أعداءَهم وإخزائِهم، ومِن نصرتِه سبحانَه لهم عليهم(1).

والظَّاهر: أنَّ بينهما مغايرةً في المعنى، ويُؤذِنُ به مجيءُ ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ بداية آيةٍ، وبيانُه: أنَّ القلبَ أخصُّ من الصَّدر، ولمّا كان الغيظُ الذي يقعُ بالمكارِه والمكابدِ هو الحرارةَ الشَّديدةَ في القلبِ، وينتجُ منه الغضبُ الذي هو من آثارِ الغيظِ، كانت إزالةُ الغيظِ بإذهابِه، فيثبتُ بالإذهابِ لذَّةُ ذهابِ المكارِه، وهو غيرُ الشَّفاء، فالغيظُ ليس داءً يصيبُ القلبَ، وإلَّا ما كانَ كظمُ الغيظِ يَجري في مقامِ المدحِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: 134]، ولهذا قال اللّٰه تعالى: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾، ولم يقلْ: (ويشفِ قلوبَهم من الغيظ)، وأمَّا الهمُّ الذي يصيبُ الصُّدورَ، فإزالتُه بالدَّواءِ، وقد جعلَ دواءَهُ قتالَهم المسبِّبَ لتعذيبِهم ونصرِ المؤمنين الموجبِ فرحتَهم وسرورَهم، وبهما يكون شفاءُ الصُّدورِ، ففيه إشعارٌ بأنَّ الفرحَ نوعٌ من الدَّواءِ، وبه يقعُ الشَّفاءُ، فشفاءُ صدورِ المؤمنين بنصرِ اللّٰهِ هو غيرُ ذهابِ الغيظِ مِن قلوبِهم والحقدِ على مَنْ غدرَهم وظلمَهم، ويحتملُ أنْ يقالَ: لَمَّا كانَ الشِّفاءُ قد لا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/383، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

يُراد به الكمالُ؛ أتبعه تحقيقًا لكماله قولَه: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾، أي: يُثبتِ بها من اللّذةِ ضدَّ ما لَقُوه منهم من المكروه، وينفي عنها ألمَ ما كابَدوه من المساوئِ والمكارهِ التي أوجبت الغيظَ، أو يقالُ: لمّا كانَ إذهابُ الغيظِ من القلبِ أبلغَ من شفاءِ الصُّدور؛ كان العطفُ من بابِ التَّرقّي في الفوائدِ، وهو حَسَنٌ ولطيفٌ، كما يحتملُ أنْ يكونَ الاختلافُ بـ(الماصدق) مع اختلافِ المفهوم، فيكون المرادُ بشفاءِ الصُّدورِ ما يحصلُ من المسرَّةِ والانشراحِ بالنَّصرِ، والمرادُ بذهابِ الغيظِ استراحتُهم من تعبِ الغيظِ، وتحرُّقِ الحقدِ(1).

دلالةُ عَوْدِ الضَّمير في قولِه: ﴿قُلُوبِهِمۡۗ﴾:

بيانُ حبِّ الصَّحابةِ للإسلامِ، وحميّتهم لإعلاءِ الدّينِ ونصرته

لمّا عاد الضَّميرُ في قوله: ﴿قُلُوبِهِمۡۗ﴾ إلى الموصوفِ وصفته ﴿قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ دلَّ على أنَّ الصحابةَ مؤمنون في علم اللّه تعالى إيمانًا حقيقيًّا؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ قلوبَهم كانت مملوءةً من الغضب، ومن الحميَّةِ لأجل الدِّين، ومن الرَّغبةِ الشَّديدةِ في علوِّ دين الإسلام، وهذه الأحوالُ لا تحصلُ إلَّا في قلوبِ المؤمنين.

بلاغةُ الاستئناف الابتدائيِّ:

الإمهالُ في التَّوبةِ رحمةٌ من اللهِ لعبادِه، وإعذارٌ لهم

في قولِه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، نلاحظ أنّه لمّا كان الجزاءُ في قولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ قد يُشعرُ أنَّ المرادَ تعذيبُ جميعِ الكافرين، وكان المؤمنونَ حريصينَ على إيمانِهم؛ جاءت الجملة استئنافيَّةً؛ للإيذانِ بأنَّ الخزيَ والتَّعذيبَ الّذي سينزلُه بهم لا يعمُّهم، بل هو خاصٌّ بمن استحوذَ عليهم الكفرُ، فلم يبقَ فيهم استعدادٌ للإيمان، وأمَّا غيرُهم من المشركينَ الذين خانُوا، وغدَروا، ولم يَقتلوا، بل أسلموا مِنْ قبلِ هذا الأمرِ أو بعدَه؛ فيتوبُ اللّهُ على مَنْ يوفِّقُه للإيمانِ، ويتقبَّلُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/177، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

توبتَهم منهم، وفي هذا إعذارٌ وإمهالٌ لمن تأخَّر فضلًا من الله تعالى ورحمةً بهم[1].

مناسبةُ مجيءِ قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾، بالوصلِ دونَ الفصلِ:

بابُ التَّوبةِ مفتوحٌ لمن قاتلَ المؤمنين ومَنْ لم يقاتلْهم، إذا صدق وأناب

لَمَّا كانت الجملُ الَّتي سبقتْ هذه الجملةَ جزاءً للطَّلبِ، وكانت هذه الجملةُ ليست مسبَّبةً عن القتال على الصَّحيح - ويؤيِّده قراءة الجمهور لقولِه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ﴾ بالرَّفعِ - كان الظَّاهر أنْ تُفصلَ عمّا قبلَها، فلمَّا جاءتْ بطريقِ الوصلِ بواو العطفِ؛ دلَّ على التَّشريكِ بين معناها، ومعنى ما تقدَّمها؛ إشارةً إلى أنَّ مضمونَها يتعلَّق ببقيَّة أحوالِ المشركين الذين لم يقاتلوا، أو قاتلوا ولم يُقتلوا، فكأنَّه قيلَ: فما حالُ من لم يقاتلوا، أو قاتلوا ولم يُقتلوا؟ فقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، فناسب انتظامُها مع ما قبلها[2].

توجيهُ قراءتَي الرَّفع والنَّصب في قوله: ﴿وَيَتُوبُ﴾:

الرَّفعُ: فيه حثُّ الكفَّار على التَّوبةِ، والنَّصبُ: هو أن تكون الواو للمعيَّةِ

قرأَ الجمهورُ ﴿وَيَتُوبُ﴾ برفعِ الباء، وقرأ رُوَيسٌ عن يعقوبَ ويونسُ عن أبي عمرٍو بنصبِ الباء، أي: (وَيَتُوبَ)[3]، ووجهُ قراءةِ الرَّفع أنَّ ﴿وَيَتُوبُ﴾ ليس من جنسِ ما يكون جزاءً للقتال؛ لأنَّ التَّوبةَ لا يكون القتالُ سببًا لَها؛ إذ قد توجدُ بغير قتال، لِمَنْ شاءَ اللهُ أنْ يتوبَ عليه في كلِّ حال؛ أي: إنَّ القتالَ غيرُ موجِبٍ لهم التوبةَ من الله، وهو مُوجِبٌ لهم العذابَ من الله، والخزيَ، وشفاءَ صدور المؤمنين، وذهابَ غيظ قلوبهم، فجزم ذلك شرطًا وجزاءً على القتال، فابتُدِئَ الخبرُ به ورُفع، ووجهُ الرَّفع حثُّ الباقين من الكفَّارِ بعدَ القتالِ على التَّوبةِ[4]، ووجهُ قراءة النَّصب هو أن تكونَ الواو للمعيَّةِ، والفعلُ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/137.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/278.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/162، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وابن جنيّ، المحتسب: 1/285.

بإضمارِ (أنْ)؛ أي: بتقدير: (وأنْ يَتُوبَ)، بأنْ يرادَ بالتَّوبةِ توبةُ المؤمنين؛ فإنَّ قتْلَ الكافرين والجهادَ في سبيلِ اللّه هو توبةٌ للمؤمنين وكمالٌ لإيمانِهم، فتدخلُ التَّوبةُ على هذا في شرطِ القتالِ؛ بمعنى: أنَّ اللّه تعالى يجمعُ عليهم بالقتالِ التَّوبةَ إلى ما ذكره من الجزاءِ، ويحتملُ أنْ يرادَ توبةُ الكافرينَ، وهو الظَّاهر، ويؤيِّده السِّياقُ، بأنْ يقالَ: لمّا كانت مقاتلتُهم سببًا لتوهين أمرِهم وفلِّ شوكتِهم، فتقِلَّ بذلك نخوتُهم وحميَّتُهم كانَ ذلك سببًا لاستكانتِهم وخضوعِهم، فيتدبَّروا، ويتأمَّلوا أمْرَ رسولِ اللّهِ ﷺ، وأنَّه على الحقِّ المبين، وأنَّهم على الباطلِ والزَّيغ، فيرجعوا عن كفرِهم إلى الإسلام، أو يقالَ: إنَّ القتالَ كما تسبَّبَ بتعذيبِ قومٍ، تسبَّبَ بتوبةِ قومٍ آخرين، فيرجعون إلى اللّهِ لمّا رأوا الموتَ بأعينِهم، أو يقالَ: إنَّ قِتَالَ الْكُفَّارِ وَغَلَبَةَ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ قَدْ يَنْشَأُ عَنْهَا إِسْلَامُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي الإِسْلَامِ، وَلَا دَاعِيَةٌ قَبْلَ القِتَالِ[1].

مناسبةُ الإظهارِ في مقام الإضمار:

تكرارُ الاسم الجليل (الله) تربيةٌ للمهابةِ في نفوسِ المخاطَبين

لمّا كان الاسمُ الجليلُ قد ذُكِر في قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾؛ كان مقتضى الظَّاهر أن يأتيَ بالضَّمير، فيقولَ: (وهو عليمٌ حكيمٌ)، لكنَّ الكلامَ جاء على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فأوثرَ إظهارُ لفظِ الجلالةِ على الإضمارِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوسِ المخاطَبين[2]، ولأنَّ الإخبارَ عن الاسم الجليلِ الجامعِ لصفاتِ الكمالِ والجلالِ بهذين الوصفين الجليلَين مشعرٌ بِخُصوصيَّتِهما في هذا المقامِ ومناسبةِ معانيهما لمضمونِ السِّياقِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/14، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/384، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/195.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾:

شمولُ رحمتِهِ، وبالِغُ حكمتِهِ، يَطُول جميعَ خَلْقِهِ

عبَّرَ بالاسم الموصولِ ﴿مَن﴾ دونَ (الذي) بأن يقول: (ويتوبُ اللّهُ على الذي يشاءُ)؛ لأنَّ (مَنْ) أكثرُ عمومًا واستغراقًا للأفرادِ؛ تنبيهًا على إمكانِ استغراقِ توبتِهِ تعالى لعمومِ خَلقِه.

ولمّا كان لفظُ ﴿مَن﴾ أعمَّ مِن (الذي) - إذ أنَّه يشمَلُ المفرد وغيره، والمذكَّر والمؤنث - أشعرَ بإطلاق قدرة اللّه تعالى على عبادِه؛ فلا يحولُ بينه وبين توبتِهِ أحدٌ من خلقِهِ، فقد يتوبُ على من كان في صفوف المقاتِلين، فيهديهِ اللّه للإسلام إن كان كافرًا، أو يشرحُ صدره إن كان منافقًا، أو يثبِّتهُ، ويعينهُ إن كان مؤمنًا مقاتِلًا.

بلاغةُ الحذفِ:

الإيجازُ، والتَّنبيهُ على أنّ وقوعَ مشيئة اللهِ لا يتوقَّف على أسباب

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَشَآءُۗ﴾ للإيجازِ، ولو قيل: (ويتوبُ اللّهُ على مَنْ يشاءُ أنْ يتوبَ عليه) لصِرْنا إلى كلامٍ غَثٍّ، وإلى شيءٍ يَمجُّهُ السَّمْعُ، وتَعافُه النَّفْسُ؛ لعلمِ السَّامع أنَّ المشيئةَ تعلَّقت في المعنى بشيءٍ عُرِفَ من السِّياقِ، فالواجبُ في حُكْم البلاغةِ ألَّا يُنْطَقَ بالمحذوفِ هنا، ولا يَظْهَرَ إلى اللَّفظِ[1].

فحذْفُ المفعولِ دلالةٌ على طلاقةِ القدرة، وعظيم العفو، فهو غيرُ مرتبطٍ بأسبابٍ تُوَصِلُ إلى نتائج، بل فضلُ إنعام، وآيةُ فضل، وعلامةُ إكرام من ذي الفضل والمنَّةِ ذي الجلال والإكرام.

بلاغةُ التَّذييلِ:

اللهُ تعالى يعاملُ النَّاس بنيَّاتِهم، في حكمة وعلم، بما يصلح لهم

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، هي جملةُ التَّذييل، وقد تضمّنت الإخبارَ عن لفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ بالوصفين الجليلين؛ لإفادة أنَّ اللّه يعامل النَّاس بما يعلم من نيَّاتِهم، وأنَّه حكيمٌ لا يأمرُ إلَّا بما فيه تحقيقُ الحكمةِ، فوجبَ على النَّاس امتثالُ أوامرِه، وأنَّه

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 164.

يقبلُ توبةَ مَنْ تابَ إليه تكثيرًا للصَّلاحِ، فأفادتِ الجملةُ التَّذييليَّةُ معنًى عامًّا كلِّيًّا؛ لِتجريَ مَجْرى المَثَلِ في الكلامِ[1].

مـجـيءُ جمـلِ التَّذييل على ما يناسبُ الآيـةَ، ويلائم معناها وسياقَها

توجيهُ المتشابهِ اللفظي:

قال الله تعالى هنا: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ثمَّ قال فيما بعدُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التوبة: 27]، فاستوتِ الآيتانِ في إعلامه تعالى نبيَّهُ والمؤمنين أنَّه يتوبُ على مَنْ يشاءُ، وفي ختْمِ كلِّ آيةٍ بصفتين من صفاته سبحانه - فقيل في الأُولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفي الثانية ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التوبة: 27] - مناسبةٌ حسنةٌ، ووجهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأولى أعقبَ بها ما تقدَّمها مُتَّصِلًا بها من الآيِ في كفَّار مكَّةَ وفعلِهم مع رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِه من التَّضييقِ والإحراجِ وبدئِهم بالقتال يومَ بدرٍ ونقضِهم العهدَ، فأمر اللهُ تعالى بقتالِهم؛ ليكونَ القتالُ سببًا لتعذيب اللهِ لهم، ولِخزيهم والنَّصرِ عليهم، ولِشفاءِ صدورِ قوم مؤمنين، وإذهابِ غيظِ قلوبِهم، ثمَّ أخبرَ بتوبته على مَنْ يشاءُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بما في الأمر بالقتال، وفي طيِّ ما يجري فيه وتوابعِه ممَّا سيكونُ، وأنَّ ذلك كلَّهُ بتقديره السَّابق أوَّلًا؛ إذْ لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنِه وتقدُّمِ علمِه أوَّلًا، وحكيمٌ في أفعالِه وأوامرِه، ومنها: أنَّه تعالى أمركم بقتالِهم، فهذا وجهُ النَّظمِ، والتَّناسُبُ فيه واضحٌ.

وأمَّا الآيةُ الثَّانية؛ فسببُها ما جرى يومَ حُنينٍ من تولِّي النَّاس مدبرين حين ابتُلوا بإعجابِهم بكثرتهم، فلم تغنِ عنهم شيئًا، ولم يثبتْ معَ رسولِ اللهِ ﷺ في ذلك اليوم إلَّا بعض أصحابه؛ إذ لم يبرحْ ﷺ من مكانِه، فنادى العبَّاسُ رضي الله عنه بآلِ الأنصار، فاستجابَ ناسٌ، وأنزلَ اللهُ سكينتَه على رسولِه وعلى المؤمنين، ومكَّن نبيَّه والمسلمين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/137.

من أعدائِهم، فخُتِمتْ هذه الآيُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٧﴾ [التوبة: 27]؛ لمناسبةِ سياقِ التَّوبةِ؛ تأنيسًا لمَنْ فرَّ من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارةً لهم بتوبةِ اللّهِ عليهم، وأنَّ ما وقعَ منهم من الفرارِ مغفورٌ لهم؛ رحمةً من اللّهِ سبحانَه، فجاء كلٌّ هذا على ما يناسِبُ، ولا يلائِمُ خلافُه[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغيظُ والغضبُ:

الإغاظةُ: تكونُ مِن نفسِ الإنسانِ ومن غيرِه، والغضبُ: لا يكونُ إلَّا مِنْ آخرَ

الفرقُ بينهما: هو أنَّ الغيظَ كما تقدَّمَ في شرح المفردةِ هو الحرارةُ الكامنةُ في القلبِ، بحيثُ يمتلئَ القلبُ بها، ويكون كامنًا من هذه الحرارةِ الغضبُ، كما أنَّ الغيظَ يلازمُه إرادةُ انتقامِ صاحبِه ممَّن أوصلَ إليه المكروهَ، فيكون أخصَّ من الغضب، كما أنَّ الفرقَ بينهما له وجهٌ آخر؛ هو: أنَّ الإغاظةَ تكون من نفسِ الإنسانِ ومن غيرِه، وأمَّا الغضبُ؛ فلا يكونُ إلَّا مِنْ آخرَ، فالإنسانُ يجوزُ أنْ يغتاظَ من نفسِه، ولا يجوزُ أنْ يغضبَ عليها، وذلك أنَّ الغضبَ إرادةُ الضَّررِ للمغضوب عليه، ولا يجوزُ أنْ يريدَ الإنسانُ الضَّررَ لنفسه، والغيظُ يقربُ من بابِ الغمِّ، فيكون كامنًا في النَّفسِ، ويُظهرُه الغضبُ[2].

---

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/227.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 130، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقة الأمر بالدّفاع على النّفس بالابتلاءِ لتمحيص المؤمنين حقًّا

لمّا وبَّخ اللّٰه المؤمنين على تراخيهم في الجهاد في الآياتِ السَّابقة؛ أعقبَهُ هنا - على سبيلِ التَّرقّي - توبيخَهم على ظنِّهم أن يُتركوا دونَ أَن يبلوَهم اللّٰهُ بجهادِ المشركين؛ ليتبيَّنَ المخلِصُ في إيمانِه وجهادِه من غيرِه، فانتقلَ من ترغيبٍ إلى مزيدٍ فيه.

وأيضًا: لَمَّا كان التَّقديرُ - لما أرشد إليه تقاعدُهم عن القتال وإدخالِ ﴿أَمۡ﴾ المرشدِ إلى أنَّ مدخولَه وسطُ الكلام، فإنّ الابتداء له الألف وحدَها - وهل حسبتم أنَّه تعالى لا يعلمُ ذلك، أو لا يقدِرُ على نصرِكم؟ بنى عليه قولَه موبِّخًا لِمَنْ تثاقَلَ عن ذلك بنوعِ تثاقُلٍ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيجَةٗۚ﴾: يدورُ معنى الولوج على الدُّخول في مضيقٍ أو فجوة كثيفة الإحاطة تُخْفِي وتَستُر، بحيث يكونُ ملجأً لصاحبه، كالكهف، وكلُّ شيءٍ أدخلْتَه في شيءٍ ليس منه فهو وليجةٌ، ووَلِيجَةٌ يَكُونُ لِلْوَاحِدِ وَالاثْنَيْنِ وَالجَمْعِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ[2]، ومعنى ﴿وَلِيجَةٗۚ﴾ في الآية: بطانةٌ ودُخلاءُ من المُشركين يخالطونهم ويودُّونهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/398.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).
(3) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 480.

اختبارُ المؤمنين سنَّةٌ إلهيَّةٌ؛ ليَميزَ اللهُ الصّادقَ من الكاذب

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

لا تظنُّوا - يا معشرَ المؤمنين - أنْ يترككُم اللهُ على ما أنتم عليهِ بغيرِ اختبارٍ يختبرُكم به، ليعلمَ اللهُ علمًا ظاهرًا للخلقِ الذين أَخلصوا في جهادِهم، ولمْ يتَّخذوا غيرَ اللهِ ورسولِه والمؤمنين بطانةً وأولياءَ، واللهُ خبيرٌ بجميعِ أعمالِكم ومجازيكم بها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرف ﴿أَمۡ﴾ في مطلع الآية:

توبيخُ من يظنُّ سَفَهًا أنْ يتركَهُ اللهُ، من غيرِ اختبارٍ في هذه الدُّنيا

(أم) هذه هي المنقطعة، ولمّا كانت بمعنى (بل) التي للإضرابِ الانتقالي، وكانت الهمزة فيها للإنكار المضمَّنِ معنى النَّهي، والمفيدِ غرضَ التَّوبيخِ؛ كان مجيئُها في الكلامِ للانتقال بها من غرضِ التَّوبيخِ على تركِ القتالِ إلى غرضٍ آخرَ: هو الإنكارُ على حسبانِهم أنَّهم يُتركون، ولايُختبرون في إخلاصِهم، وتوبيخُهم عليه، وهذا التَّوبيخ له علاقةٌ بما قبلَه؛ لأنَّهما في موضوعٍ واحدٍ، لما تفيده (أم) من معنى التوسُّط في الكلامِ، فهو استفهامٌ معترضٌ في وسطِ الكلامِ، ولهذا قال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾، ولم يقل: (أحسبتم)؛ ليفرَّق بينه وبين الاستفهامِ المبتدأ الذي يكون بهمزة الاستفهامِ أو بـ(هل)، ولِما أفادته [أَمۡ] من الإضرابِ الانتقالي[1].

بلاغةُ الحذفِ:

تقبيحُ تركِ الجهادِ واتِّخاذِ الوليجةِ من دونِ الله

لمّا قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دلَّ على وجودِ المقابل، وحُذِفَ من الكلامِ للعلمِ به، وتقديرُه: مِنَ الذين لم يجاهدوا منكم، واتَّخذوا وليجةً من دون اللهِ، ونكتةُ حذفِه استهجانُ التَّصريحِ به بعدَ العلمِ به من السِّياقِ.

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 11/426، وابن جرير، جامع البيان: 14/165، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/14، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

دلالةُ الخطابِ في قوله: ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾:

لمّا كان الضَّمير بصيغة الجمع؛ دلَّ على أنَّ الخطابَ لجميع المؤمنين لمّا كرِهَ بعضُهم القتالَ، فدلَّ على أنَّ المقصودَ بالإنكار والتَّوبيخِ هو مَنْ كرِهَ القتالَ، وظنَّ الظَّنَّ المذكور دونَ غيرِه، ونكتةُ خطابِ الجميعِ الإشعارُ أنَّ كراهةَ بعضهم للقتال يؤثِّر في الجميع، وهذه الكراهة طبيعيَّةٌ، وليست ذمًّا للمؤمنين، لِما فيه من الشِّدَّةِ وعِظَمِ المشقَّةِ؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 216].

كـراهـةُ بـعـضِ المؤمنين للجهادِ في سبيل الله، يـؤثِّـر سـلـبًـا في الأمّة

مناسبةُ مجيءِ الفعل بصيغة المبني للمفعول:

قال: ﴿تُتۡرَكُواْ﴾، فلم يذكر الفاعل؛ لأنَّ الغرضَ تعلُّقُ التَّرك بالمخاطَبِين، وليس الغرضُ معرفةَ الذي يتركهم على ما هم عليه من غير اختبار، كما أنَّ التَّركَ مشعرٌ بمعنى التَّخلِّي عن الشَّيء أو تخليتِه أو رفضِه، ولا يناسبُ هنا أن يذكر الفاعلُ؛ لإشعارِه بتخلِّي اللّٰه عن المؤمنين، أو يكون الحذفُ للعلمِ بالفاعلِ؛ لظهورِه بدلالةِ السِّياق عليه[1]، ومعنى ﴿تُتۡرَكُواْ﴾: بقاؤكم على الحالةِ التي أنتم عليها دونَ المساسِ بها[2].

تـنـوُّعُ أسـبـابِ حـذْفِ الفاعل، تـــوسُّـــعٌ في نِـكـاتِ البلاغةِ ومقاصدِها

دلالةُ مجيءِ مفعول ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾:

جاءَ مفعول ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾ مصدرًا مؤوّلًا: ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾، ليسدَّ مسدَّ مفعولي (حسبَ)، وذلك أنَّ المصدرَ قد يكون فيما مضى، وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلُّ عليه، فجاؤوا بلفظ الفعل المشتقِّ منه مع (أن)؛ ليجتمعَ لهم الإخبارُ عن الحدث مع الدِّلالة على الزَّمان[3]. ولمّا كانت (أن) مصدريَّةً تدلُّ على الزَّمانِ المستقبل؛ دلَّ على أنَّهم حسبوا

التَّعبير بالمصدر المؤوّل، تحصينٌ مـن الإشـكـالِ، وتـخـلـيـصٌ من شوائب الإجمال

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصلّ: (ترك).

(3) ابن القيم، بدائعُ الفَوائِد: 1/92.

أن يكونَ تركُهم في المستقبل مع الاستمرار على التَّرك، ولمّا كان المصدر المؤوَّل دالًّا على مجرَّدِ معنى الحدث دونَ احتمالِ وصفٍ زائدٍ عليه؛ أفادَ أنَّهم كانوا يريدونَ مطلقَ التَّرك على ما هم عليه، ففي التَّعبير بـ ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾ تحصينٌ من الإشكالِ، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال؛ ليؤذِنَ الكلامُ بركونِ بعضِهم إلى مطلقِ التَّرك من غيرِ أيِّ وصفٍ مقيِّدٍ له، فيشعرُ الكلامُ برغبتِهم في الدَّعة والاستراحة[1].

بلاغةُ حذف متعلَّق ﴿تُتۡرَكُواْ﴾:

مواجهة المعتدين أمرٌ لا ينفكُّ عن الإيمانِ والدّين

لمّا كان لا بدَّ لفعلِ التَّرك من تعليقه بمتعلَّق: من حال أو مجرور، يدلُّ على الحالة التي يفارق فيها التَّاركُ متروكَهُ حذف متعلَّق الفعلِ في الآية؛ لإفادةِ العموم، بمعنى: أنْ تُتركوا على الحالِ التي أنتم عليها؛ إشعارًا بأنَّ الجهادَ أمرٌ لا ينفكُّ عن الإيمانِ، ويحتمل أنَّه حذفَ لدلالة السِّياق عليه، أي: أن تتركوا دون جهاد، أو أن تتركوا في دعةٍ، وذلك بعد فتح مكَّة[2].

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾:

المؤمنون يبادرون إلى العملِ الصَّالحِ، ولا يَخلدونَ إلى الدَّعةِ والرَّاحةِ

الواوُ للحالِ، وجملة ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾ في موضع الحالِ من ضمير ﴿تُتۡرَكُواْ﴾، والمعنى: لا تظنُّوا أن تتركوا في حالِ عدمِ تعلُّقِ علمِ اللهِ بوقوعِ ابتدار المجاهدين للجهاد، وحصول تثاقلِ مَنْ تثاقلوا، وحصولِ تركِ الجهادِ من التَّاركينَ، فإنَّه تعالى يعلمُ أنَّكم ستجاهدون، وتخلصون في أعمالِكم[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجزم ﴿وَلَمَّا﴾:

ما تُيقّن في علم الله تعالى حصولُه، فهو واقع لا محالة

﴿وَلَمَّا﴾ حرفٌ يفيدُ نفيَ وقوعِ الفعلِ إلى زمنِ التكلُّم، مع توقُّع

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/192، والسّامرائيّ، معاني النحو: 3/148.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.

وقوعِه في المستقبل، وقد دلَّ هنا على أنَّ تبيُّنَ ذلك للمؤمنين وإيضاحَه لهم سيكون قريبًا، والمرادُ أَنَّه إلى الآن لم يتحقَّقْ وقوعُ الجهادِ منكم، لعدمِ حصولِه إلى وقتِ نزولِ الآية، ولكنَّه يُنتظر وقوعُه وَفْقَ ما في علمِ اللّه[1].

بلاغةُ الكناية:

نـفـيُ وقـوعِ الـشَّيءِ نـفـيٌ لعلمِ اللهِ تعالى بوقوعِه

قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾، نلحظ فيه، أنّه لمّا كانت الأداة (لمّا) تُفيد نفيَ وقوعِ ما تدخلُ عليه إلى وقتِ التكلُّم، وكان المتكلِّم هو اللّه تعالى عالمَ الغيب والشهادة؛ دلَّ على أنَّ الكلامَ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، وبيانُه: أنَّه لمَّا كانَ وجودُ الشَّيءِ يلزمُه أنْ يكون معلومَ الوجودِ عند اللّه؛ كانَ علمُ اللّهِ تعالى بوجوده كنايةً عن تحقُّقِ وجوده، للمبالغة في تحقُّقِ الأمرِ؛ إذ جاء المعنى بطريقِ إقامةِ الحجَّةِ والبرهان عليه، من حيثُ إنَّ تعلُّقَ العلم به مستلزمٌ لوقوعه، فلمَّا نفى اللّهُ تعالى علمَه بجهادِهم وما عطفَ عليه؛ لَزِمَ نفيُ وقوعِ الجهادِ منهم على سبيلِ الاختبارِ، معَ توقُّعِ حصولِه قريبًا؛ ليكونَ الكلامُ على طريقِ الكناية من ذكرِ اللّازم وإرادة الملزوم، وهو طريقٌ من طرائق الكناية، أو يقالُ: لو وُجدَ الجهادُ؛ لتعلَّقَ علمُ اللّه به، فلمَّا لم يتعلَّق لقوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾؛ دلَّ على انتفاءِ جهادِ المؤمنين إلى زمنِ نزولِ الآيةِ، فتكون الكنايةُ على الطَّريقة المشهورة بذكر الملزوم وإرادةِ اللّازم، والمعنى: أم حسبتُمْ أنْ تُتركوا، والحالُ أنَّه لم يَتبيَّن الخُلَّصُ مِنَ المجاهدينَ منكم من غيرِهم، وعلى كلا التَّوجيهين يكون المرادُ من نفي علمِه تعالى نفيَ وقوعِ الجهادِ من المخاطَبين ليُجازَوا عليه[2].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/1668، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 403، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/41، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.

مناسبةُ مجيءِ (لَمَّا) في الكلامِ المبادرةُ إلى تحصيلِ ما بعدَها والعملِ به

دلالةُ العلم في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾:

يحتمل أنْ يكون المرادُ من العلم ظهورَ المعلوم للخلق، كما تقدَّمَ في بيان بلاغةِ الكناية، ويحتمل أنْ يكونَ المرادُ هو اللَّازمَ الثَّانيَ لعلمِ الله تعالى، ليكون على الكناية بإرادةِ اللَّازم الثَّاني، وبيانُه: أنَّ علمَه تعالى بجهادِهم يَلْزَم منه وقوعُه وظهورُه، ويلزمُ من وقوعِ جهادِهم وضوحُهُ وتبيُّنُه عندهم، ويقتضي هذا حذفُ المقابل للعلم به؛ ليكون التَّقديرُ: ولمَّا يتبيَّنْ لكم الذين جاهدوا منكم من غيرِ المجاهدين، والمعنى: ولمّا يتبيَّن لكم المؤمنونَ من المنافقين؛ لدلالةِ السِّياق على المعنى، وفائدةُ التَّعبيرِ عنْ عدمِ التَّبيُّن بعدم علم اللّهِ تعالى به أنَّ المقصودَ هو التَّبيُّنُ من حيثُ كونُه متعلَّقًا للعلم ومدارًا للثَّوابِ، فيكون المرادُ تحصيلَ الجهادِ والإخلاصِ؛ ليُجازى المؤمنونَ بالثَّوابِ عليهما(1).

أهمُّ مقصدٍ في القتالِ الامتثالُ لأوامرِ الله تعالى وصدقُ النِّيَّة

فائدةُ مجيءِ صلتين للاسم الموصول:

قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، بتقدير: (الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ يَتَّخِذُوا)، فأفادَ مجيءُ صلةِ الموصولِ جملتين أنْ ليسَ الغرضُ من إيجابِ القتالِ نفسَ قتالِ الأعداءِ فقط، بل الغرضُ أن يؤتَى به انقيادًا لأمرِ الله ﷻ، فيجمع المجاهدُ بينَ القتالِ وسلامةِ الإيمانِ؛ ليظهرَ بِهِ بذلُ النَّفسِ والمالِ في طلبِ رضوانِ اللّهِ تعالى، فحينئذٍ يحصلُ به الانتفاعُ، وأمَّا الإقدامُ على القتالِ لسائرِ الأغراضِ الأخرى فذاك ممَّا لا يفيد أصلًا(2).

مناسبةُ العطفِ في قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾:

تحتمل الواوُ أنْ تكونَ عاطفةً؛ لتكونَ جملةُ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/8.

لا ينفكُّ الجهادُ عن انتفاءِ اتِّخاذِ البطانةِ من المنافقين

معطوفةً على ﴿جَٰهَدُواْ﴾، فتفيدُ الواوُ حينئذٍ التَّشريكَ في الحكم، وتكون جملةُ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾ داخلةً في حيِّز الصِّلة[1]، ولم يقل: (ولمّا يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم والذين لم يتَّخذوا)؛ لأنَّ الكلامَ في جماعةٍ معيَّنةٍ هم المؤمنون، لتكونَ جملتا الصِّلةِ معًا قد أزالتا الإبهام الذي في الاسم الموصولِ، أي: لمّا يعلمِ اللّهُ الذين جمعُوا بين وصفَيِ الجهادِ وانتفاءِ اتِّخاذِ البطانةِ من المنافقين، فيكون من قبيل الجمعِ بينَ صفةٍ معنويَّةٍ وصفةٍ سلبيَّةٍ، للإشعارِ بانتفاءِ انفكاكِهما عند المخاطَبين المؤمنين، فإنَّ المجاهدَ قد يقاتلُ، ولا يكون مخلصًا بل يكون منافقًا، باطنُه خلافُ ظاهرِه، وهو الذي يتَّخذُ الوليجةَ من دونِ اللّهِ ورسولِه والمؤمنين، وهذا يقعُ عندَ ضعافِ النُّفوسِ في وقتِ الجهادِ، فبيَّن تعالى أنَّه لا يتركُهم إلَّا إذا أتَوا بالجهادِ مع الإخلاص خاليًا عن النِّفاقِ والرِّياءِ والتودُّدِ إلى الكفَّارِ وإبطالِ ما يخالفُ طريقةَ الدِّينِ[2]، وهذا الوجه يفيدُ المغايرة بين المعطوفين، ويحتمل أن يكون العطف على معنى التَّفصيلِ، فإنَّه لمّا قال: ﴿جَٰهَدُواْ﴾ أراد: جاهَدوا مخلصين؛ لأنَّ الأصلَ في الجهادِ ألَّا يكون إلَّا بإخلاص، فعطف قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾ للبيانِ والإيضاحِ[3]، وتحتمل الواو أن تكون حاليَّةً[4]، والتَّقدير: الذين جاهدوا حالَ كونهم غيرَ متَّخذين وليجَةً، فيكون للاسم الموصول جملةُ صلةٍ واحدةٌ مقترنةٌ بجملةِ الحال؛ ليفيد المعنى أنَّ نفي الاتِّخاذ مقترنٌ بوقوعِ الجهاد، فيؤذنَ أنَّ الجهاد لا يسمَّى جهادًا إن لم يكن في حالِ نفي اتِّخاذ وليجةٍ من دون اللّه، فإنَّ اللّه لا يرضى أنْ يكونَ الباطنُ خلافَ الظَّاهرِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/8، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/385.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/385.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399.

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/41، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50.

فائدةُ تقديم الحال على المفعول به:

تقدَّم الحال في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على المفعول به ﴿وَلِيجَةً﴾ مع أنَّه في موضعِ البيان للوليجةِ؛ للاهتمامِ بِهِ ولتعظيم شأنِه، ولإفادة التَّخصيصِ، بمعنى: لا ينبغي أن يتَّخِذَ المؤمنون وليجةً إلَّا اللّه ورسولَه والمؤمنين.

بيان أن لا ينبغي أن يتَّخِذَ المؤمنون وليجةً إلَّا اللهَ ورسولَه والمؤمنين

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ ابتدائيَّةٌ؛ للإشعارِ بأنَّ الوليجةَ التي تُتَّخذُ من دون اللّه ورسولِه والمؤمنين بعيدةٌ عن مبدئها، وهو اللّه ورسولُه والمؤمنون[1].

ابتعادُ من يتَّخِذ المنافقين وليجةً عن الله ورسوله والمؤمنين

إيثارُ التَّعبير بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾:

يأتي لفظ ﴿دُونِ﴾ بمعنى (غير) كما هو في الآية هنا، والتقدير: (من غيرِ اللّه)، ولم يقلِ: (من غيرِ اللّه)؛ لإفادة لفظِ ﴿دُونِ﴾ معنى القربِ، أي: الأقربُ لكم الذي تتَّخذونه وليجةً هو اللّه ورسولُهُ والمؤمنون، فيفيد الحثَّ على الأمرِ لقربه، كما يشعرُ لفظ ﴿دُونِ﴾ بمعنى التَّجاوز، أي: لم يتجاوزوا اتِّخاذَ الوليجةِ دون اللّه ورسولِه والمؤمنين، ففيه إشعار بأنّ مَن يتَّخذ الوليجةَ من دون اللّه؛ فقد تجاوزَ أمرَ اللّه تعالى، وارتكبَ الخطيئةَ.

وليجةُ السُّوءِ تعترضُ المؤمنين عندَ جهادِهم

أو يقال: لمّا كان (دون) بمعنى (قُدَّام)، ودخلها معنى (غير)؛ صارَ كأنَّه قال: إذا وصلوا إلى غيرِ اللّه ورسولِه والمؤمنين لم يكتفوا به، ولم يتَّخذوه وليجةً، وطلبوا اللّه سبحانَه، ليشعرَ باعتراضِ وليجةِ السُّوءِ للمؤمنين عندَ جهادِهم في سبيل اللّه[2].

دلالةُ التَّرتيبِ بين لفظ الجلالة وما بعده من معطوفات:

رفعةُ مقام الرَّسول ﷺ والمؤمنين بما انتسبوا به إلى الله تعالى

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، دلَّ ذكرُ الاسمِ الجليلِ أوَّلًا على تراخي الرُّتَبِ عن مكانتِه سبحانه؛ لأنَّه المنفردُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.

(2) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/24، والسّامرائي، معاني النّحو: 2/212.

بالكمال[1]، ثمَ لمَّا ذكر ﴿رَسُولِهِۦ﴾ ثانيًا؛ دلَّ على رفعةِ مقامِه ﷺ، ولمّا أضيف إلى الضَّميرِ العائدِ إلى الاسم الجليلِ؛ دلَّ على أنَّ اتِّخاذَهُ وليجةً هو لكونِهِ رسولًا منه ﷺ، ثمَّ ذكر المؤمنين تشريفًا لهم وتكريمًا؛ إذ جعل وليجتَهم من وليجتِهِ سبحانه؛ لأنَّ التَّقديرَ: (المؤمنين باللّه ورسولِه).

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَسُولِهِۦ﴾ دون (نبيّه):

النبوّةُ ذاتيّةٌ خاصّةٌ، والرّسالة متعدِّية لنفع المرسل إليهم

عُبِّرَ بلفظ ﴿رَسُولِهِۦ﴾ دونَ أن يقولَ: (من دون اللّه ولا نبيِّه) للتَّوسُّل إلى ذكر المؤمنين؛ لأنَّهم صاروا مؤمنين بمقتضى رسالتِه إليهم.

دلالةُ لفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

المؤمنُ مؤتمَنٌ على الأسرارِ وخفايا الأمور، ومعتمَد عليه في ذلك

أفاد التَّعبيرُ بالاسم المشتقِّ رسوخَ إيمانِهم، وعراقتَهُ فيهم، وحُذِفَ متعلَّقُ الاسم المشتَقِّ؛ للعلمِ به بما دلَّ عليه السِّياقُ، والتَّقديرُ: والمؤمنين باللّه ورسولِه، ولمّا كان المعنى على طلبِ أن يكونَ المؤمنون وليجةً؛ دلَّ على أنَّ المؤمن مؤتمَنٌ على الأسرارِ وخفايا الأمور، ويُعتمَد عليه.

مناسبةُ تكرارِ ﴿وَلَا﴾ في الآية:

تكرار الحرف تأكيد للمعنى المراد في الجملة السّياقية

تكرَّرت ﴿وَلَا﴾؛ لإفادة تأكيد النَّفي، وللإيذان بأنَّ الوليجةَ تكونُ للّه ولرسولِه وللمؤمنين، بمعنى أنَّه لا بدَّ من اجتماعِها، وأنَّ لكلِّ نوعٍ خُصوصيتَّهُ في الوليجةِ.

بلاغةُ التَّعريض:

سيُظهِرُ اللهُ تعالى سريرة المنافقين ويفضحُهم بين النَّاس

قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾، في هذه الجملةِ تعريضٌ وطعنٌ بالمنافقين الَّذينَ اتَّخَذُوا الوَلَائِجَ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ فَرْضِ القِتَالِ[2]، وتُشعر الصِّيغةُ بأنَّهم تمسَّكوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/384.

بوشيجتِهم، وأنَّهم غيرُ تاركِين لها على اجتهادٍ منهم في طلبِها وتكلُّفٍ في تحصيلِها[1]، وفي الكلامِ إشعارٌ بتوبيخِ كلِّ من يفعل هذا الفعلَ، وأنَّ الله تعالى سيُظهِر سريرتَه، ويفضحه بين النَّاس.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿وَلِيجَةً﴾:

الـولـيـجـةُ المذمومة، إغراءُ العدوِّ بالمسلمين والإفـضـاءُ إليه بسرِّ المسلمين

شُبِّه المنافقُ المخادع الذي يكون في القومِ مخالطًا لهم بكثرةٍ، بحيث يكون مُعتمَدًا عليه، وهو ليس منهم، بالذي يدخل في مكمَنٍ، وهو لا يظهر على سبيلِ الاسْتِسْرَارِ، بجامعِ الاعتمادِ عليهِ، ومعرفةِ خفايا الأمورِ، ومباطنةِ الأسرارِ، ولمّا جاء لفظ ﴿وَلِيجَةً﴾ نكرةً في سياقِ النَّفي؛ دلَّ على عمومِ أفرادِه، ليشمل الخديعة وإغراء العدوِّ بالمسلمين، وليشمل اتِّخاذ أولياءَ من أعداء الإسلام يُخلَصُ إليهم، ويُفضَى إليهم بسرِّ المسلمين[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملة التَّذييل:

علمُ اللهِ محيطٌ بجميعِ أعمالِنا وأغـراضِـنـا، وسيـجـازينـا عـلـيـهـا يـومَ القيامةِ

جملةُ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تذييلٌ لإنكارِ ذلكَ الحسبانِ، وتعجيبٌ من ظنِّهم، أي: لا تحسبوا ذلك مع علمكم بأنَّ الله خبيرٌ بكلِّ ما تعملون، وكيفَ تحسبونَه، والله خبيرٌ بما تعملونَ؟ كما أفادتْ إزاحةَ ما يُتوَهَّم من ظاهرِ قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾ من عدمِ علمِه تعالى بخفايا الأمورِ وبواطنِها، فتكون الجملةُ إطنابًا في الكلامِ، ولمّا كان المقامُ مقامَ التَّرغيبِ في الإخلاص والزَّجرِ عن خلافِه؛ شمَلَ العلمُ المفادُ من قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ﴾ علمَ العملِ وعلمَ الغرضِ منه، فيكون المعنى: واللّهُ يعلمُ جهادَكم وجميعَ أعمالِكم، ويعلم غرضَكم من الجهادِ ومن غيرِه من الأعمالِ، كما تفيدُ جملةُ التَّذييلِ الوعيدَ لمن يتركُ الجهادَ والمجازاةَ على تركِه، فإذا كانَ الله خبيرًا بما تعملون؛ فإنَّه سيجازيكم على أعمالِكم يومَ القيامةِ[3]. وقد جاءتِ

---

(1) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/109 - 110.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/315، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/139.

الجملةُ على معنى العموم بما يدلُّ عليه لفظُ ﴿بِمَا﴾ الموصولة، وحذفُ العائدِ من الفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، فأفادت الجملةُ كلِّيَّةَ المعنى؛ لأنَّ المعنى: واللّه خبيرٌ بكلِّ ما تعملونه، لتكونَ الجملةُ كالمَثَلِ الذي يجري في الكلامِ.

أعمالُ جميعِ النَّاس في علمِ الله تعالى، وإنْ أخفَوها

مجيءُ الخطابِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر:

عَبَّرَ بصيغة الخطاب في قوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ وهو لا يريد مخاطَبًا معيَّنًا؛ ليعمَّ الخطابُ كلَّ مخاطبٍ على سبيلِ البدلِ، قصدًا إلى ظهورِ عملِهم عندَ اللّه تعالى، وأنَّه قد بلغَ النِّهاية في الانكشاف، بحيث إنَّ ظهورَ العملِ من جميعِ النَّاسِ في علم اللّه تعالى مثلُ ظهورِه في حالِ الخطابِ، ويدخلُ فيه المخاطَبون بالآية دخولًا أوَّليًّا[1].

القراءة بالغيبة استدرارٌ لأسماعِ المخاطَبين، وتنبيه إلى إحاطةِ علمِ اللهِ بأعمالِهم

توجيهُ قراءة الغيبة والخطاب في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

قَرَأَ الْجمهورُ بِالتَّاءِ عَلَى الخطَابِ فِي ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مناسَبَةً لقَولِهِ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾، ليجري الكلامُ كلُّه على نسقِ الخطاب، وَقَرَأَ الحسنُ، ويعقوبُ في روايةِ رُوَيسٍ وَسَلَّام بالياءِ (يَعْمَلُونَ) عَلَى الغَيبَةِ؛ ليكون التفاتًا يرادُ به استدرارُ أسماعِ المخاطَبين مزيدًا في إصغائِهم، ولِتنبيههم إلى إحاطةِ علمِ اللّهِ بجميعِ أعمالِهم[2].

تقديمُ الوصفِ (خبير) وتأخيرُه على وَفْقِ مناسبةِ سياقِ الآيةِ وسباقِها

توجيهُ المتشابهِ القرآنيّ:

جاء في مواضعَ من القرآن قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: 234، 271/ آل عمران: 182]، بتقديم متعلّق الخبر الجارِّ والمجرور ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على خبرِ المبتدأ، وجاء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، بتأخير المتعلِّق، ومرجعيَّةُ الاختلاف في التقديم والتَّأخير إلى مناسبةِ السِّياقِ، وبيانه: أنَّه إذا كان السِّياق في بيان أعمالِ الخَلقِ من الذهابِ والمجيءِ، أو في طلبِ الامتثالِ لأوامرِ اللّهِ ونواهيه

(1) التّفتازانيّ، المُطَوّل، ص: 214 - 215.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/385.

وغيرها، أو في بيانِ المجازاةِ على الأعمالِ والوعدِ والوعيدِ عليها؛ قُدِّمَ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على خبرِ المبتدأ؛ لِيفيدَ الرِّعايةَ والاهتمامَ بالأعمالِ، وأنَّها محطُّ الحكم في الآيةِ، وإذا كان السِّياق في بيان أوصافِ اللّهِ تعالى والتَّعريفِ به سبحانَه؛ قُدِّمَ الوصفُ ﴿خَبِيرٌ﴾ على الجارِّ والمجرورِ، كما أنَّ رعايةَ الفاصلةِ له مدخلٌ في التَّقديم والتَّأخير، ولمّا بدأتِ الآية هنا بالحسبانِ الذي هو أمرٌ قلبيٌّ، ثم بيَّنَ إحاطةَ علمِ اللّه بمَنْ يجاهدُ، ومَنْ لا يجاهدُ، ومَنْ غرضُه في جهادِه الامتثالُ للّه تعالى والإخلاصُ في جهادِه، ومن ليس كذلك؛ قُدِّمَ الوصفُ، فبيَّنَ أنَّه سبحانه يعلم خفايا بواطنِهم، كما يعلمُ ظواهرَهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وأفاد التَّقديمُ رعاية الفاصلةِ كذلك، والمعنى: لا تحسبوا ذلك مع علمِكم بأنَّ اللّه خبيرٌ بكلِّ ما تعملونه.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

البطانةُ والوليجةُ:

البِطانةُ فيها معنى الانبساطِ، والوليجةُ فيها معنى الدُّخول

لمّا كان لفظُ البِطَانةِ مستعارًا من بطانةِ الثَّوب الذي يكون أقربَ شيءٍ إلى الجسد، ومن شَأْنِ النَّاس إخفاؤه، صار يطلقُ على الدُّخلاء الَّذين يقرِّبون، ويُنبسَط إِلَيْهِم، ويوثَقُ بمودَّتِهم، ويسكنُ إليهم ويُستبطَنون، فيختصُّون بالاطِّلاع على باطن الأمر، ولهذا يُقَال: فُلَانٌ بِطانةٌ لفُلَان، أَي: مُداخِلٌ لَهُ مؤانس، فالبِطانةُ أخصُّ من الوليجة التي تطلقُ على مَن تُطلِعُه على سرِّك وخفايا أَمرِك لمخالطته لك لمصلحةٍ ترجوها منه، وقد لا تنبسطُ له، ولا تثقُ بمودَّته؛ لأنَّ الوليجةَ من الولوج، وهو الدُّخول، وجاء على صيغة المبالغةِ (فعيلة) للإشعارِ بكثرة دخولِه[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بطن، ولج)، والكفويّ، الكلّيات، ص: 251.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين عدم اتخاذ الوليجة من دون الله، وكون الإيمانِ أساس القبول والقرب

لَمَّا حذَّر اللّه تعالى المؤمنين من اتِّخاذِ وليجةٍ من دونِه؛ شرعَ يبيِّنُ أنَّ الوليجةَ الَّتي يتَّخذُها بعضُهم لا تصلحُ للعاطفةِ، بما اتَّصفت به مِن محاسنِ الأعمالِ ما لمْ توضَعْ تلكَ المحاسنُ على الأساسِ الذي هو الإيمانُ المبيَّنُ بدلائله، فكأنَّ قائلًا قال مستفهِمًا: إنَّ فيهم مِن أفعالِ الخيرِ ما يدعو إلى الكفِّ عنهم مِنْ عمارةِ المسجدِ الحرامِ وخدمتِه وتعظيمِه، فقال في الجواب: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وأيضًا: لمّا بدأ اللّهُ تعالى السُّورةَ بذكر البراءةِ عن الكفَّارِ، وبالغَ في إيجابِ ذلك، وذكر من أنواعِ فضائحِهم وقبائحِهم ما يوجبُ تلك البراءةَ؛ ردَّ عليهم في هذهِ الآيةِ وما بعدها ما احتجُّوا به من الشُّبَهِ في أنَّ هذهِ البراءةَ غيرُ جائزةٍ، وأنَّه يجبُ أنْ تكونَ المخالطةُ والمناصرةُ حاصلةً، وذلك أنَّهم موصوفونَ بصفاتٍ حميدةٍ وخصالٍ مرضيَّةٍ، وهي توجبُ مخالطتَهم ومعاونتَهم ومناصرتَهم، ومن جملةِ تلكَ الصِّفاتِ كونُهم عامرين للمسجدِ الحرامِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعْمُرُوا﴾: العِمَارَةُ: نقيضُ الخراب، يقال: عَمَرَ أرضَهُ يَعْمُرُهَا عِمَارَةً، وعمارة المكان تكون: إمَّا بالبناء فيه، وإمَّا بزيارتِه، أي: من العُمْرَةِ الَّتي هي الزِّيارةُ، وإمَّا بالإقامةِ فيه، من قولهم:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/400.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/8.

عَمَرْتُ بمكان كذا، أي: أقمتُ به، ومنه: عَمَرَ المنزلَ: سكنَهُ، وعمرَ بيتَه: لَزِمه، ويقال أيضًا عَمَرَ الدَّارَ: بناها، ومعنى (يعمر مساجد اللّه): يدخلُ المساجدَ، ويمكث فيها، أو يرفعُ بناءها، ويصلحُ ما تهدَّم منها، أو يتعبَّدُ فيها بالطَّواف والصَّلاة بها[1].

2) ﴿حَبِطَتْ﴾: يدور معنى الحبطِ على الإبطال والألم، فأمَّا الإبطالُ؛ فمنهُ قولهم: حبِطَ عملُه، وذلك إذا عَمِل الرجلُ عملًا، ثمَّ أفسدهُ، وأمَّا الألمُ؛ فمنه: حبَطُ البعيرِ، وهو الوجعُ الذي يأخذه لكثرة الأكل حتى ينتفخَ بطنُه، والظَّاهر: أنَّ حَبْطَ العَمَلِ وبُطْلانَه مأخوذٌ من حَبَطِ البَطْنِ بمعنى الألم الَّذي يؤول إلى الهلاك؛ لأَنَّ صَاحب الحَبَطِ يَهْلِكُ، وَكَذَلِكَ عَمَلُ المُنَافق والمُشْرِك يَحْبَط، والفرقُ بينهما في اللفظ: أنَّ باء المصدر في حبْطِ العملِ ساكنةٌ، فيقال: حَبِطَ عملُه حبْطًا، وفي الحبَطِ الذي بمعنى الوجع متحرِّكَةٌ، فيقال: حَبِطَ البعيرُ بطنُهُ يَحْبَطُ حَبَطًا[2]، ومعنى ﴿حَبِطَتْ﴾: بطَلَت[3].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

المشركون لا يعمرون مساجِدَ اللهِ، بل إنّ أعمالهم باطلة؛ والمساجدُ تُعمَرُ بالإيمان لا بالكفران

ما صحَّ للمشركين أنْ يعمروا مساجِدَ اللّهِ، وهم شاهدون على أنفسِهم بالكفرِ، وما ينبغي لهم ذلك، أولئك المشركون الذين شهدوا على أنفسِهم بالكفرِ بطلتْ أعمالُهم التي يظنُّونها خيرًا، وذهبت أجورُها، وفي النَّار هم ماكثون أبدًا، لا أحياءً ولا أمواتًا، فالمساجد إنَّما تعمَرُ لعبادةِ اللّه فيها، لا للكفر به، فمن كان باللّه كافرًا، فليس من شأنِه أن يَعمُرَ مساجدَ اللّهِ[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمر)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حبط).
(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 186، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 106.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/165.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ التَّعبير بـ ﴿مَا كَانَ﴾:

أعمالُ البِرِّ للمشركين كالعدمِ عندَ اللهِ؛ لكفرِهم به ﷻ

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، لمّا كان لفظُ (ما) يأتي ردًّا على قول، أو ما نُزِّلَ هذه المنزلة، أو تصحيحًا لظنٍّ[1]؛ جاء التَّعبيرُ بـ ﴿مَا كَانَ﴾ ردًّا على ما قاله المشركون من أنَّهم عمَروا المسجدَ الحرامَ بناءً وسقايةً للحجيج، أو ما كانوا يظنُّونَهُ من أنَّهم عمَروا المسجدَ الحرامَ، فأفادَ أنَّ فعلَهم كالعدمِ لكفرِهم باللّه تعالى.

دلالةُ ﴿مَا كَانَ﴾ في الآية:

إعمارُ المشركين مساجدَ اللهِ بمثابةِ العدمِ؛ لأنَّه لا يعتدُّ بِهِ

الأصلُ في دلالة تركيب (ما كان) أنَّه يفيد نفيَ الوجود، ولمّا كان العَمَارُ حاصلًا وواقعًا، كما يدلُّ عليه قوله تعالى الآتي: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ - دلَّ على أنَّ المرادَ لازِمُه، ليطابقَ الواقعَ، والمعنى: ما صحَّ أو ما استقامَ، ويمكن الحمل على نفي اللِّياقة، أي: ما يليق للمشركين أن يعمروا مساجدَ اللّه، وليسوا أهلًا له، مثل قولِ القائل: (ما ينبغي)[2]، ويمكن اجتماعُ هذه المعاني في هذا المقام، فيكون المعنى: ما صحَّ للمشركين أن يعمروا مساجدَ اللّه، وما استقامَ لهم ذلك في دينِ اللّه وشرعِه، وما كان يليق بهم أن يعمروها، ونُكتَةُ التَّعبير بـ ﴿مَا كَانَ﴾ دون أن يقول: (ما صحَّ مثلًا؛ هو الإشعارُ أنَّ إعمارَ المشركين مساجدَ اللّه بمنزلةِ العدمِ، فيؤولُ المعنى إلى عدمِ الاعتدادِ به.

أو عَبَّرَ بهذا الأسلوب في النَّفي دون أن يقولَ: (ما صحَّ للمشركين أن يعمروا مساجد اللّه) مثلًا؛ لأنَّ النَّفي في مثل هذا التَّعبير يسمَّى

---

(1) السّامرائيّ، معاني النحو: 1/366.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، والشّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/538، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/177، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/251.

نفي الشَّأن، وهو أبلغُ من نفي الفعل طبعًا أو شرعًا؛ لأنَّه نفيٌ له بالدَّليل، أي: بسببِ إشراكهم باللّه وكفرِهم به ﷻ[1].

دلالةُ التَّعريض في الآية:

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، تعريضٌ بأنَّه كان على المشركين توحيدُ اللّه قبل عمارة بيوتِه؛ إذ إنَّ المصدر المؤوَّل ﴿أَن يَعْمُرُواْ﴾ اسم لـ(كان) و﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ خبرٌ لها؛ فلمَّا جاء الخبرُ بصيغة المشتقِّ؛ دلَّ ذلكَ على عليِّيَّةِ المأخذِ وسببِ الحكمِ بنفي الصِّحَّةِ أو الاعتدادِ، والمعنى: سببُ نفيِ صحَّة عمارتِهم مساجدَ اللّه والاعتدادِ بها هو إشراكُهم باللّه.

على المشركين توحيدُ الله قبل البدءِ بعمارةِ بيوتِه

سببُ إيثارِ التَّعبير بصيغة المشتقّ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾:

عُبِّرَ بالوصف دون الفعل؛ لأنَّ جماعةً ممَّن أشركَ أسلمَ بعد ذلكَ، فصارَ أهلًا لِمَا نفيَ عنهم؛ ليفيدَ أنَّ المرادَ: من اتَّصفوا بالشِّرك، وثبتوا عليه، فيخرجَ من الحكمِ من أشركَ، ثمَّ أسلمَ[2].

من أشركَ ثمَّ أسلمَ طابَ عملُه، وصحَّ إعمارُه مساجدَ الله تعالى

مناسبةُ التَّعبيرِ بلفظ(المشركين):

قال اللّه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: (ما كان للكافرين)؛ لأنَّ الكلامَ في عِمارةِ مساجد اللّه الَّتي هي موضعُ عبادة اللّه وتوحيده وتنزيهه، فذكرَ لفظَ الشِّرك المنافي لعمارتهم مساجد اللّه.

الإشراكُ ينافي عِمارةَ مساجدِ الله تعالى؛ لأنَّها موضعُ عبادتِه وتوحيدِه

بلاغةُ تقديمِ المسند على المسند إليه:

قدِّمَ المسندُ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ على المسندِ إليه ﴿أَن يَعْمُرُواْ﴾ لإفادةِ التَّخصيصِ والاهتمام، بمعنى: نفيُ صحَّةِ عمارة مساجد اللّه والاعتداد بها مختصٌّ بالمشركين، وفي هذا الحصرِ كنايةٌ، وبيانُه: أنَّه لمَّا كانت القسمةُ ثنائيَّةً، - أي: إنَّ قسيمَ المشركين هم المسلمون -

إعمارُ المسلمين مساجدَ الله صحيحٌ ومعتدٌّ به عندَ الله

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/186.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/400.

دلَّ على أنَّ للمسلمين أن يعمروا مساجدَ اللّه، بمعنى صحَّةِ إعمارهم والاعتداد به عندَ اللّهِ، وأنَّه سبحانَه سيَجزيهم عليه جزاءً حسنًا.

دلالةُ لفظِ ﴿يَعۡمُرُواْ﴾:

عمارةُ المساجدِ ببنائِها، والمكثِ فيها للعبادةِ والذِّكرِ

ذهبُ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ من اللَّفظِ بناءُ المساجدِ وإقامةُ جدرانِها، أي: تعميرُها، وذهب آخرونَ إلى أنَّ المرادَ الحضورُ في المساجدِ والعبادة فيها؛ لأنَّها إنَّما وضعت للعبادة، فإعمارها بمَنْ يحلُّ فيها من المتعبِّدين، ويؤيِّده مجيءُ قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ويمكن الجمعُ بينهما: بأنْ يكون المرادُ البناءَ والحضورَ فيها بالعبادةِ، أي: على سبيلِ الجمع بين العمارة الحسية والمعنوية، فكلُّ ذلك مرادٌ هنا؛ لأنَّ اللَّفظَ يدلُّ عليه والمقامَ يقتضيه، كما يمكن أن يكونَ على سبيل البدلِ، والمعنى: نفيُ صحَّةِ بنائهم مساجدَ اللّه والعبادة فيها بسببِ كفرِهم، ونفي صحَّةِ عملِ كلِّ واحدٍ منهما على الانفراد من قبلِ المشركين بسبب كفرِهم كذلك[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الجمع في لفظ: ﴿مَسَٰجِدَ﴾:

المسجدُ الحرامُ قِبلةُ المساجدِ وإمامُها، وعامِرُه كأنَّما عَمَرَ مساجدَ الله كلَّها

لمّا كان المرادُ هو المسجدَ الحرامَ - إذْ هو الذي عَمَرَهُ المشركون قبل نزولِ القرآنِ - كان مجيءُ صيغةِ الجمع على خلاف مقتضى الحال، والنُّكتةُ فيه: أنَّه لمّا كانَ قِبلةَ المساجد وإمامَها، فعامرُه كأنَّه قد عمرَ مساجدَ اللّه كلَّها، أو يقالُ: جاء اللَّفظُ بصيغةِ الجمعِ؛ لأنَّ كلَّ ناحيةٍ من نواحيه المختلفةِ الجهاتِ مسجدٌ على حيالِه، بخلاف سائرِ المساجدِ، إذْ ليسَ في نواحيها اختلافُ الجهةِ، ويؤيِّدُه القراءةُ بالإفراد، كما سيأتي، أو يقالُ: لمّا كان الجمعُ المضافُ في سياقِ النَّفي دخلَ فيه المسجدُ الحرامُ دخولًا أوّليًّا، وهو آكدُ من أنْ يصرِّحَ بالمسجد الحرامِ؛ إذْ نفيُ الجمعِ يدلُّ على النَّفي عن كلِّ فرد، فيلزم

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/323، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/385، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/140.

نفيُه عن الفردِ المعيَّنِ بطريق الكنايةِ، كما لو قلت: فلانٌ لا يقرأُ كتابَ اللّه، كنت أَنْفَى لقراءتِه القرآنَ من تصريحِك بذلك، وأيضًا لمّا كان المعنى: ما كان للمشركين أنْ يعمروا شيئًا من مساجدِ اللّه، كان الأَولى ألَّا يُمَكَّنوا من عمارةِ المسجدِ الحرامِ الذي هو أشرفُ المساجدِ وأعظمُها(1).

دلالةُ الإضافة:

التَّعجيبُ مِنْ حالِ من يعمرُ مساجدَ الله الأحد، وهو المشرك الألَدّ

في قوله تعالى: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، جاءتِ الإضافةُ على معنى اللّام؛ لِيفيدَ تخصيصَ المساجدِ باللّه تعالى، كما أنَّ في ذكر الاسم الجليلِ تشريفًا للمساجد بإضافتِها إليه سبحانه، وفي الإضافةِ إلى الاسم الجليلِ (اللّه) إيذانٌ بأنَّه المنزَّهُ عن الشَّريك، المتَّصفُ بصفاتِ الكمالِ، ففيه تعجيبٌ من حالِ المشركين، إذ يعمرون مساجد اللّه الواحدِ الأحدِ، وهم مشركون به سبحانه.

توجيهُ قراءتَي ﴿مَسَٰجِدَ﴾ و﴿مَسْجِدَ﴾:

الإفرادُ على أنَّه المسجدُ الحرامُ، أو الجنس، والجمع على تعدُّدِ جهاته

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ويعقوبُ: ﴿أَن يَعْمُرُواْ مَسْجِدَ ٱللَّهِ﴾ بتوحيد ﴿مَسَٰجِدَ﴾، أي: بإفراده، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْجَمْعِ، أي: ﴿مَسَٰجِدَ﴾(2)، وتقدَّم نكتةُ التَّعبير بلفظِ الجمعِ، وأمَّا وجهُ الإفرادِ؛ فهو أنْ يكونَ المرادُ المسجدَ الحرامَ، وعليه الجمهورُ، وهو الأولى بأنْ يتَّصِفَ بأنَّه مسجدُ اللّهِ، والأحقُّ به، ويؤيِّد قراءةَ الإفرادِ قولُه تعالى في السِّياقِ نفسِه: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 19]، ويحتمل أنْ يرادَ بالإفراد الجنسُ، فيعمَّ المساجدَ كلَّها، فيكون موافقًا لقراءة الجمع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/385، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 3/442، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/362.

(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/448، وابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 313، وابن الجزريّ، النّشر: 2/278.

في المعنى، ولا يمنعُ من إرادةِ الجنسِ إضافتُه، فيدخلُ تحت الجنسِ المسجدُ الحرامُ دخولًا أوَّليًّا، إذْ هُوَ صَدْرُ ذَلِكَ الجِنْسِ ومُقَدِّمَتُهُ[1].

دلالةُ الحالِ في جملة الشّهادة على أنفسهم بالكفر:

الكفرُ مبطلٌ للأعمالِ إذا اقترن بها، وبه تحبط القربات

قوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾، فيه أنّه لما كان قولُهُ: ﴿شَٰهِدِينَ﴾ حالًا من الضَّمير في ﴿يَعْمُرُواْ﴾ وكان الحالُ على معنى الاقترانِ بصاحبه؛ دلَّ على أنَّهم كانوا شاهدين على أنفسِهم بالكفر في حالِ إعمارهم مساجدَ اللّهِ، ليكونَ تقريرًا لما تقدَّم من أنَّ التَّعبير بالمشركين هو بيانٌ لسبب الحكم بنفي الصِّحة والاعتدادِ وتأكيدًا له، وفائدةُ مجيءِ الحالِ هو الإيذانُ بعظم كفرِهم، وبيانُه: أنَّه لمّا كان الكفرُ مبطلًا للأعمالِ الثَّابتةِ الصَّحيحة؛ إذا تعقَّبها كان اقترانُ الكفر بها أكثر إبطالًا وأشدَّ، فدَلَّ الحالُ على أنّهُم قارِنُون بين العِمارةِ والشّهادةِ بِالكُفرِ على أنفُسِهِم في حال واحِدة، وذلك مُحالٌ غيرُ مُستقيم[2].

بلاغةُ الاستعارة:

الشَّهادةُ بالكفرِ العمليِّ، أصرحُ منها بالقولِ اللّفظيّ

قوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾، ليس المرادُ أنَّهم شهدوا على أنفسِهم بالمقال بكونِهم كافرين، ولكنَّه جاء بطريق الاستعارة؛ ليكونَ الكلام مقترنًا بالحجَّةِ والدَّليلِ على كفرِهم، فقد شُبِّهوا حالَ إظهارِهم آثارَ الشِّركِ من نصبِ الأوثان حول البيتِ والعبادةِ لها بمن يشهدُ على نفسِه بالقولِ بالكفرِ، على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ فإنَّ من أظهرَ فعلًا؛ فكأنَّه شهدَ به على نفسِه، وإن أبَوا أن يقولوا: نحن كفَّارٌ، بل هذا أقوى من الشّهادةِ بالقولِ، فنكتةُ تقييد الحال بالكفرِ بيانُ أنَّه كفرٌ صريحٌ معترفٌ به لا يمكن المكابرةُ فيه[3].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/385، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 6/29.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/386.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/178، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/188.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿شَٰهِدِينَ﴾:

شهادةُ الشَّاهدِ على نفسِه، أعلى مراتبِ الإقرارِ

لمّا كانتِ الشَّهادةُ بمعنى الإقرارِ عُبِّرَ بها، فإذا كانتِ الشَّهادةُ على النَّفسِ؛ كانت أعلى مرتبةً من مراتب الإقرار، والمعنى: شاهدين على أنفسِهم بإظهار آثارِ الشِّركِ من نصب الأوثان حول البيتِ والعبادةِ لها، فإنَّ ذلك شهادةٌ صريحةٌ على أنفسِهم بالكفرِ، وإن أبَوا أن يقولوا: نحن كفَّارٌ.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

المبالغةُ في بيان شدَّةِ كفرِ الكافرين ولصوقِهِ بهم

لمّا كان أصلُ معنى الباء هو الإلصاقَ والاختلاطَ[1]؛ دلَّ على أنَّ المعنى: (شاهدين على أنفسهم بالتصاقِ الكفرِ واختلاطه بهم)؛ ليكونَ الالتصاقُ على المعنى المجازي للباءِ، تشبيهًا لكفرهم بالشَّيء الذي يُلْزَقُ، ويلصقُ، إشعارًا بشدَّةِ كفرهم وتوغُّلِه فيهم، وعدم انفكاكِه منهم وقتَ عمارتهم المسجدَ الحرامَ، ليكونَ من أظهرِ الشَّهاداتِ وأصرحِها.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

أشدُّ الكفرِ قبحًا، الجمعُ بين الإشراكِ بالله تعالى والكفرِ به

لمّا قال الله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ آذنَ أنَّهم جمعوا بين إشراكِهم بالله وكفرهم به، وهو أشدُّ الكفرِ وأقبحُه، كما أنَّه لمّا جعل شهادتهم على أنفسهم؛ ناسَبَ أن يأتي بلفظ (الكفر) للإشعار بأنَّهم غطَّوا فطرتهم الَّتي في أنفسِهم عن الإيمانِ بالله.

دلالةُ اسم الإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تمييزُ الكافرين بأوضحِ أوصافِهم، ليتجنَّبَها المؤمنون

عُبِّرَ باسم الإشارة، لتميُّزهم بوصفِ الشَّهادةِ على أنفسِهم بالكفرِ أكملَ تمييز، وللإيذانِ بأنَّ المشارَ إليهم هم المشركون الذين يدَّعون عمارةَ المسجدِ وما يضاهيها من أعمال البِّرِ مع ما بهم من الكفر، ليكون اسمُ الإشارةِ بمنزلةِ بيانِ السَّببِ للإخبار عنهم بحبْطِ

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/217.

عملِهم، أي: شركُهم وكفرُهم أبطلَ أعمالَهم وأذهبَ ثوابَها[1]، ولمّا كان اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للبعيد؛ دلَّ على بُعدِهم عن الخير وعن قَبولِ العمل والإثابةِ عليه.

بلاغةُ الاستعارة:

بطلانُ أعمالِ الكافرين ناشئٌ من ذاتِها؛ لأنَّ أساسَها قائمٌ على الكفر بالله

في قوله تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، عبَّرَ عن بطلانِ أعمالهم وعدم إنتاج ثمرتها بالحبْطِ على طريق المجاز؛ ليكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، فشبَّه حالَ من عمل أعمالَ البِرِّ، فلم يجد لها أثرًا نافعًا بالماشية الَّتي تأكل الخَضِرَ شهوة للشَّبع، فيؤول عليها بالهلاكِ لما يصيبها من الحبَطِ، وهو وجع البطنِ؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا يتلذَّذون بأعمالِهم، ويفتخرون بها كما يتلَذَّذ الحيوانُ بالأكلِ، وهو غيرُ نافعٍ، والحبوطُ يفيدُ البطلانَ الذي يكون ناشئًا من ذات العمل، فبطلانُ أعمالهم ناشِئٌ من ذاتها؛ لأنَّ أساسَها قائمٌ على الكفر بالله[2].

بلاغةُ الكنايةِ في الاستعارة:

حبطُ الأعمال بمعنى عدم الانتفاعِ بآثارها في الدُّنيا وبالثَّواب في الآخرة

في استعارة لفظ ﴿حَبِطَتۡ﴾ كنايةٌ عن عدم الانتفاع بأعمالِهم، وبيانُه: أنَّه لمّا كانت أعمالهم قد وَقَعت ووُجِدت مثل إعمار المسجدِ الحرام والسِّقاية وغيرهما؛ دلَّ على أنَّ المرادَ من حبْطِ أعمالِهم لازمُهُ، وهو زوالُ آثارها المجعولة المرتَّبة عليها شرعًا وعدم انتفاعهم بها، فيشمَلُ عدمَ انتفاعهم بآثارِها في الدُّنيا وبالثَّواب في الآخرة، والمعنى: أذهبَ الشركُ ثوابَ أعمالهم[3].

سببُ إيثار صيغة الجمعِ في قولِه: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

عبَّرَ بصيغة الجمعِ للإشعار بعمومِ جميعِ ما صدر عنهم من

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3251.

(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حبط)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/410، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/332، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3251.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/332.

الكفرُ مُحبِطٌ لجميعِ الأعمالِ، ومفسد لمختلف القربات

أعمال البِرِّ، مثل: إكرام الوالدين، وبناء الرِّباطات، وإطعام الجائع، وإكرام الضَّيف، فكلُّ ذلك باطلٌ؛ لأنَّ عقابَ كفرِهم زائدٌ على ثواب هذه الأشياء، فلا يبقى لشيءٍ منها أثرٌ في استحقاق الثَّواب والتَّعظيم مع الكفر، كما يفيدُ جمعُ الأعمال أنَّهم كانوا يعظِّمونَها[1].

سببُ حذفِ صفة ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

الكفَّارُ يستندون على أعمالِ البِرِّ رجاءَ الثَّواب وهي عندَ الله باطلة

تقديرُ الكلام: حَبِطَت أعمالُهم التي يفتخرون بها[2]؛ لأنَّ الإحباط يكون لأعمالِ البِرِّ التي يُرجى ثوابُها في الدُّنيا والآخرةِ لا للأعمالِ القبيحةِ المنكرة، فحذفت الصِّفةُ للإيجاز، وللإشعارِ بأنَّهم كانوا يستندون على هذه الأعمال في رجاء الثَّواب، فكأنَّ غيرَها ليست بأعمالٍ.

بلاغةُ حذف المتعلَّق في قولِهِ: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

بطلانُ جميعِ أعمالِ الكافرين في الدُّنيا والآخرة، وعدم انتفاعهم بها

لمّا حُذِفَ متعلَّقُ الفعل ﴿حَبِطَتۡ﴾؛ دلَّ على عموم الزَّمانِ والمكانِ، ليكون التَّقديرُ: حَبِطت أعمالهم في الدُّنيا والآخرة وفي جميع الأماكنِ؛ ليتناولَ حَبْطَ آثارِها في القبرِ وما بعدَه، وأمَّا حبْطُ أعمالِهم في الآخرة؛ فقد دلَّ عليه قوله: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾، وأمَّا حبطُها في الدُّنيا؛ فقد أشعرَ به الأمرُ بمقاتلتهم وما يلاقونَه من التَّعذيب والخزي والذُّلِّ ونصر المؤمنين عليهم؛ ليدلَّ على أنَّ عمارتهم المسجد الحرام وما صدرَ منهم من أعمالِ البِرِّ ما كانت لتغنيَ عنهم.

دلالةُ الواو في قوله ﴿وَفِي ٱلنَّارِ﴾:

الكفرُ سببُ كلِّ الآفاتِ، ومَعقِد كلّ المخالفات

قوله: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾، الواوُ فيه عاطفةٌ؛ لتفيدَ جمعهم بين حبْطِ العملِ وخلودهم في النَّار، كما أفادتِ الواوُ التَّرتُّب، بمعنى ترتُّبِ خلودهم في النَّار على حبْطِ أعمالِهم، فيكون المعنى في الآية:

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/10، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

ترتَّبَ حبطُ أعمالِهم على إشراكِهم وكفرِهم، ثمَّ كان حبْطُ العمل المترتِّبُ على إشراكِهم وكفرِهم سببًا لخلودِهم في النَّار، وعليه فقد أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ المعطوفة بالواو تحقيقَ ثبوت خلودِهم في النَّار والمبالغةَ فيه.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

اختصاصُ خلودِ الكافرين في النَّار، دليل على أنْ لا مفرّ لهم منها

قُدِّمَ متعلَّقُ الخبر ﴿وَفِي ٱلنَّارِ﴾ على المبتدأ؛ للاهتمام به؛ إذْ إنَّ فيه تعجيلَ المساءةِ للكفَّار إذا سمعوه، ولإفادة الاختصاص، بمعنى: في النَّار هم خالدون، وليس في غيرها، وأفاد التَّقديمُ تأكيدَ مضمونِ الجملة وتقريرَها، كما أنَّ في التَّقديم رعايةً للفاصلةِ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالضّمير ﴿هُمۡ﴾:

الكافرون مقيمون في النَّار، إقامة خلودٍ وبقاء

لمّا كان الضَّمير عائدًا على المشركين الموصوفين بشهادتهم على أنفسهم بالكفر؛ دلَّ على تقرير سبب خلودِهم في النَّار وتأكيدِه، أي: هم مقيمون في دار العذابِ - التي تسمَّى النَّار دون غيرِها - إقامةَ خلود وبقاء، لكفرِهم المحبط لأعمالهم الحسنة[2].

مناسبةُ مجيءِ الجملتين على الاستئناف:

الجمعُ بين نفي استتباعِ الثَّوابِ، ونفي استدفاع العذابِ للكافرين

جاءتِ الجملتان مستأنِفتَين لتقريرِ النَّفي السَّابق، فأفادتِ الجملة الأولى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ تقريرَ نفي صحَّة عمارةِ المشركين مساجدَ اللهِ من جهة نفي استتباعِ الثواب لحبطِ العمل، وأفادت الجملة الثانيةُ ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ نفيَ الصِّحَّةِ من جهة نفي استدفاع العذاب[3].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 6/30، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/141، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/393.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/189.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التّوبة: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين نفي تعمير المساجد بالكفر، وبين أحقِّية المؤمنين بعمارتها

لمّا نفى اللّه تعالى عن الكافرين أهليَّةَ عمارةِ مساجدِ اللّه بيَّن من يصلحُ أن يعمرَها، فذكر صفاتِ عُمَّار مساجدِ اللّه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، لبيانِ ضرورة عمارة مساجدِ اللّه[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: الهدى ضدُّ الضَّلال، والهدايةُ هنا بمعنى توفيق اللّه الذي يختصُّ به من اهتدى، وهو المعنيُّ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: 17]، وقولِه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: 76]، وكلُّ هداية ذكرَ اللّه ﷻ أنَّه منع مِنها الظَّالمين والكافرين؛ فهي هدايةُ التَّوفيق الذي يختصُّ به المهتدون، ولفظ المهتدي يفيد أنَّه حصَلَ البذلُ مِنَ الهَادِي في الهدايةِ، وحصَلَ القبولُ المفيدُ من المحلِّ، ولهذا يقال: هداهم اللّهُ، فاهتدَوا، والاهْتِدَاءُ هنا: هو تحرِّي الهداية وقبولُها والعملُ بها حتَّى تصيرَ وصفًا ثابتًا لمن يتحرَّاها[2].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

عُـمَّـارُ مساجدِ اللـه، هم أهل الإيمان بالله، والإخلاص له دون سواه

إنَّما يعمُرُ مساجد اللّه، ويُعتدُّ بعمارتِه، ويثابُ عليها، مَن آمنَ باللّه وحده وآمن باليوم الآخر موعدًا ومصيرًا، وحسابًا وجزاءً، وأَدَّى الصَّلاةَ على وجهِها المشروعِ في مواقيتِها، وأعطى الزَّكاةَ بأَنواعِها ومقاديرِها لمستحقِّيها، وَفْقًا لِمَا جاءَ به الرَّسولُ ﷺ وامتثالًا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/518، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/401.
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هدى).

لأَمرِه وإِيمانًا به، ولم يخَفْ في الحقِّ غيرَ اللّهِ تعالى، فأولئك خليقٌ بهم أن يكونوا هم المهتدين إلى الحقِّ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيِّ:

لا بدَّ من إعمارِ مساجدِ اللهِ بالبناءِ وإقامةِ العباداتِ فيها

لمّا نفى اللّهُ تعالى عن الكافرينَ صحَّةَ عمارتِهم مساجدَ اللّه، وبيَّنَ عدمَ أهليَّتهم للأمر؛ اقتضى سؤالًا في نفوسِ السَّامعينَ، مفادُه: إذا كان الكفَّارُ لا يعمرونَ مساجدَ اللّهِ، وكان لا بدَّ من عمارتهم، فمن يعمرُها؟ إشعارًا بأنَّه لابدَّ من إعمارِ مساجدِ اللّه سواءٌ كان بالبناء أم بالعبادة والقيامِ عليها، فكان قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مفيدًا الجوابَ على السُّؤال المقدَّر.

دلالةُ القصرِ بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾:

قصرُ عُمَّارِ مساجدِ اللهِ على المؤمنين، فيه مزيدُ تكريمٍ لهم

عبَّرَ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لإفادة تأكيد المعنى وتقريرِه، والتقدير: ما يعمرُ مساجدَ اللّه إلَّا من آمن باللّه واليوم والآخر، وللدَّلالة على تقريرِ معنى تحقُّقِ العمار ووجودِه، أي: إنَّما يَعْمُرُها بِالحقِّ والواجِبِ، ويَسْتَقيمُ وقوعُها، ويصحُّ فيمَنِ اتَّصَفَ بهذه الأوصاف، فالمراد من القصرِ ههنا أنَّ عمارةَ مساجدِ اللّه مقصورةٌ على المذكورين بالفعلِ والتَّحَقُّقِ لا بمجرَّد الجوازِ والاستحقاق واللِّياقة، وهو الَّذي يقتضيه مقامُ الإيجابِ المخالفُ لمقام السَّلب في الآية السَّابقةِ(2).

بلاغةُ أسلوب القصرِ بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾:

عِمارةُ المؤمنين مساجدَ اللهِ دونَ غيرِهم أمرٌ واضحٌ

لمّا كان التَّعبيرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ يسلك مع مخاطَبٍ لا يصرُّ على خطئِه، أو يجب عليه ألَّا يصرَّ على خطئِه لوضوح الحكم وجلائه، وأنَّه معلومٌ للجميعِ، ولا يحتاج إلى دليلٍ؛ دلَّ على وضوح قصرِ الصِّفةِ - وهي عمارة مساجد اللّه - على المؤمنين، أي: لا يعمرُها إلَّا مَن آمن باللّه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/167، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1671.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/189.

واليوم الآخر، وأنَّ الأمرَ من الجلاء بحيثُ إنَّ المخاطب الذي ظنَّ خلافَهُ إذا سمع هذا الخطابَ لايدفعُ صحَّتَه، وتلقَّاه بالقبولِ، ورجعَ إلى الصَّواب، ولمَّا كان هذا الأسلوبُ لردِّ المخاطَب عن خطأٍ وقع فيه ظنًّا أو عملًا؛ أفادَ تأكيدَ عدمِ صحَّةِ أن يعمرَ المشركون مساجدَ اللّه، فأفادَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ تقريرَ معنى الآيةِ السَّابقة، وإفادةَ قصرِ وصفِ الإعمار على المؤمنين، وأنَّ هذا الخبرَ يعلمُه المخاطبون، ويقرُّون به، ولا ينكرونه بحالٍ، ولمّا أفادَ القصرُ نفيَ صحَّةِ عمارةِ المشركين مساجدَ اللّه، وأبطلَ أهليَّتَهم، وأثبتَها للمؤمنين؛ دلَّ على أنَّ عمارة مساجدِ اللّه أمرٌ لا بدَّ من حصولِه ووقوعِه[1].

فائدةُ التَّعبير بصيغة المضارعِ ﴿يَعۡمُرُ﴾:

الحثُّ على استمرارِ عمارة مساجدِ اللهِ، ببنائِها والقيامِ بحقِّها

عُبِّرَ بصيغة المضارع لإفادة تجدُّد الحدث واستمراره حالًا فحالًا، ففيه حثٌّ على استمرارِ عمارة مساجدِ اللّه ببنائها والعبادة فيها.

دلالةُ جملة عمران مساجد الله تعالى:

عمارةُ المساجدِ ببنائها وإصلاحِها والقيامِ بحقِّها

دلّ قولُه: ﴿يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ عمارةَ المساجد تتناول رمَّ ما استرمَّ منها، وقمَّها وتنظيفَها، وتزيينَها بالفُرُش وتنويرَها بالمصابيحِ، وتعظيمَها، واعتيادَها للعبادةِ والذِّكر، ومن الذِّكرِ درسُ العلمِ، بل هو أجلُّه وأعظمُه، ومن عمارتِها صيانتُها عمَّا لَمۡ تُبۡنَ لَهُ من حديثِ الدُّنيا ممَّا لا علاقةَ له بأمورِ الدِّين[2].

بلاغةُ إقامةِ الظَّاهر مُقامَ الضَّميرِ:

كفرُ الكافرِ باللهِ يتنافى مع إعمارِه مساجدَ اللهِ

لم يقل: (إنَّما يعمرها) معَ قربِ ذكر ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ في الآية السَّابقة، فأعادَ الاسمَ الظَّاهرَ في مقام وضعِ الضَّمير؛ ليكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ ليفيدَ الحكمُ عمومَ المعنى، لئلَّا يُتَوهَّمَ أنَّه مختصٌّ بعمارة المسجد الحرام، فيكونَ اللَّفظ شاملًا

---

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 331، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 291 - 295، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

لجميعِ المساجدِ، ويكونَ من بابِ ذكرِ العامِّ بعدَ الخاصِّ، فاقتضى إعادةَ ذكره، كما أنَّه لمّا جاء بأداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾ وكان في سياق بيانِ وضوحِ الخبر وجلائهِ كرَّر ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ إعمارَ مساجدِ اللّه إنَّما يكونُ إعمارًا لها إذا كان الذي يعمُرُها هو المؤمنَ، فأمَّا الكافرُ؛ فإنَّ كفرَهُ باللّه يتنافى مع إعمار مساجدِ اللّه التي تكون لعبادتِه وتوحيده.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّةِ على الطَّلبِ:

المــؤمــنــونَ يتسابقون إلى عمارة المساجدِ، والقيامِ بحقِّها، تـقـرُّبًا إلى الله تعالى

جاء قوله: ﴿يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بصيغة الجملة الخبريَّة، للإخبار عمَّن يعمرُ مساجدَ اللّهِ، وتضمَّنت أمرَ المؤمنين بعمارةِ المساجدِ، فأفادت أنَّ على المسلمين عمارةَ المساجدِ، كما أفادت أنَّ عمارةَ المساجدِ تكون بهم لا بغيرهم، وهم من ينبغي أن يعمروها[1]، ولمّا تضمَّن الخبرُ هنا معنى الطَّلب، ولم يقل مثلًا: (اعمروا مساجدَ اللّه)؛ كان الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، وفائدتُه هو قصدُ التَّفاؤل بوقوعِ عمارِها، وإظهارُ الرَّغبةِ في وقوعِها والرِّضا عنه، للإخبارِ عن حصولِه في الحالِ وفي المستقبلِ، وفيه حملُ المؤمنين على عمارتها بأبلغِ عبارةٍ وألطفِها، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّهم يتسابقونَ إلى عمارتها، ويعمُرونها قبل الأمرِ بها، فيكون مدحًا لهم[2].

سببُ عدمِ ذكر الإيمانِ بالرَّسول في الآية:

الإيـمـانُ بالله يقتضي الإيمانَ برسولِه ﷺ

قد يقالُ: هلَّا ذَكَرَ الإيمانَ برسولِ اللّه ﷺ، فإنَّه أهمُّ من إقامةِ الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة؟! وجوابُه: أنَّه لمَّا عُلِمَ، وشُهِرَ أنَّ الإيمانَ برسولِ اللّه ﷺ مقترنٌ بالإيمانِ باللّه تعالى؛ لاشتمال كلمة الشَّهادة والأذانِ والإقامةِ وغيرِها عليهما مقترنين مزدوجَين؛ كأنَّهما شيءٌ واحدٌ غيرُ منفكٍّ أحدُهما عن صاحبِه، انطوى تحت ذِكْر الإيمان

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/317، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 324 - 325.

بالله تعالى الإيمانُ بالرسول ﷺ، كما أنَّ ذِكرَ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يتضمَّن الإيمانَ بالرَّسولِ؛ إذْ لا يُتَلَقَّى ذلك إلَّا منه ﷺ، وأيضًا ذكرُ إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة دليلٌ على ذِكر الرَّسول؛ لأنَّه قامَ ببيانِهما وتحديدِهما، وإقامةُ الصَّلاةِ تستلزمُ ذكرَه بوصفِ الرِّسالة أيضًا[1].

وأيضًا لمّا كان المشركون يقولون: إنَّ محمَّدًا ﷺ إنَّما ادَّعى الرِّسالةَ طلبًا للرِّئاسة ناسبَ أنْ يذكر ههنا الإيمان باللّهِ واليوم الآخر، ويُترك ذكرُ النُّبوة، لِما يفيدُه عُمَّارُ مساجد اللّه من معنى الشَّرفِ والرِّئاسةِ، فكأنَّه يقولُ: ليس مطلوبي من تبليغ الرِّسالة إلَّا الإيمانَ بالمبدأ والمعادِ، فذكرَ المقصود الأصليَّ، وحذفَ ذكرَ النُّبوَّةِ؛ تنبيهًا للكفَّارِ على أنَّه لا مطلوبَ له ﷺ من الرِّسالةِ إلَّا هذا القدر[2].

أو يقال في بيانِ السَّببِ: إنَّه لمّا كان الكلامُ في عمارةِ مساجدِ اللّهِ ناسبَ التَّصريحَ بما يُحتاجُ إليه من الأحكام العلميَّة والعمليَّة في عمارتها، ولاسيَّما أنَّ المقامَ مقامُ إيجازٍ، فذكرَ الإيمانَ باللّه؛ لأنَّه الأصلُ، وعطفَ عليه اليومَ الآخر لبيانِ أنَّ المؤمنين إنَّما يعمرونها رجاءَ الثَّواب عندَ اللّه يومَ القيامةِ لا للتَّفاخر بها في الدُّنيا؛ ليكونَ ردًّا على ما فعلَه الكافرون عندَ عمارةِ المسجدِ الحرام، ولهذا لم يَذكرِ الإيمانَ بالملائكة ولا بالكتابِ، كما لم يَذكرِ الإيمانَ بالرَّسولِ، فالكلامُ لا تعلُّقَ له بالإيمانِ برسالةِ الرَّسول ﷺ، وإن كانَ مضمَّنًا فيما ذكر، فلا يصحُّ أصلُ الإيمانِ إلَّا بالإيمانِ به وبرسالته ﷺ، كما أنَّه ذكرَ إقامةَ الصَّلاة وإيتاء الزَّكاةِ لبيانِ أهمِّ الأحكامِ العمليَّة التي يفعلها عُمَّار مساجدِ اللّه، فعمارة المساجد ليست مقصودةً لذاتها، بل للدلالة على رسوخ الإيمان، فناسبَ ذكرُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ؛ لأنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَعِمَارَتِهَا هُوَ كَوْنُهَا مُجْتَمَعًا لِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ فِيهَا وَالتَّعَبُّدَاتِ مِنَ الذِّكْرِ وَالِاعْتِكَافِ وَغَيْرِهِمَا، وَنَاسَبَ ذِكْرُ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ مَعَ عِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ أَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ مَجْمَعًا لِلنَّاسِ بَانَ فِيهَا أَمْرُ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، وَعُرِفَتْ أَحْوَالُ مَنْ يُؤَدِّي الزَّكَاةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّهَا[3]، فلم يذكر في الكلامِ إلَّا ما يوفي به المعنى المرادُ، فلكلِّ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/438، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255.

(2) ابن عادل، اللّباب في علومِ الكتاب: 10/46، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/443.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/387، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/402.

سياقٍ خَصوصيَّتُه في المعاني والألفاظ التي يحتاج إليها المخاطب للإقرارِ والإذعان.

سببُ إيثار التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَنۡ﴾:

عمارةُ مساجدِ الله من علاماتِ الإيمان العميق بالله

عُبِّرَ بـ ﴿مَنۡ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّه أعمُّ معنى وأكثرُ استغراقًا، والتَّقديرُ: إنَّما يعمرُ مساجدَ الله كلُّ مَنْ آمنَ باللّهِ واليوم الآخرِ، فقد يكون مفردًا أو جمعًا، وقد يكون ذكرًا أو أنثى.

كما أنَّ لفظ "مَن" وما فيه من إبهام وعموم ينسجم مع عمارة القلوبِ بالإيمان؛ حيث إنَّه لا يطَّلع على ما فيها إلّا اللّهُ تعالى، ولكنَّ عمارتَها بقلوب المؤمنين وقوالبهم، علامةٌ على ذلك الإيمان.

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عنِ النَّبي ﷺ أنَّه قال: «إذا رأيتم الرَّجل يعتاد المسجدَ، فاشهدوا له بالإيمان، فإنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾»[1].

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ بطريقِ ذكر الموصول وصلتِه:

وضوحُ أوصافِ مــن يـعـمـرُ مساجدَ الله، وسـهـولـةُ الاتِّصافِ بها

عُبِّرَ بأسلوب الموصولِ وصلتِه في قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ جملة الصِّلة - وهي الجمل الفعليَّة الأربع - معلومةُ الانتساب إلى معيَّنين يعرفهم المخاطَبون بحكم اتِّصافهم بما ذكر في جملةِ الصِّلة؛ لظهورِ هذه الأوصافِ فيهم، ففيه تنبيهٌ إلى وضوح هذه الأوصافِ وسهولةِ الاتِّصافِ بها، كما أنَّ جملةَ الصِّلَةِ أومأت إلى سببِ أن يكونَ المذكورون هم الذين يعمرون مساجد اللّه دونَ غيرِهم، فالسَّببُ هو اتِّصافُهم بالأوصافِ المذكورة، وفي الصِّلة تعريضٌ بتفخيم شأنِ عمارةِ مساجدِ اللّه وتعظيم شأنِ الإيمان باللّه، كما أنَّ تخصيصَ

(1) أخرجه الترمذي في سننه، برقم: (3093)، وقال: حديث حسن غريب، وأحمد في المسند: 3/68، برقم: (11651)، والدارمي في مسنده، برقم: (1259)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم: (1502)، وابن حبان في صحيحه، برقم: (1721).

الصَّلاة والزَّكاة بالذِّكر تفخيمٌ لشأنِهما وحثٌّ على التَّنبُّهِ لهما، كما أفادت الصِّلةُ أنَّ خشية اللّه وحده هي طريق المهتدين.

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعل الماضي، والمضارع المنقلب إلى الماضي بالجزم:

مدحُ من يعمرُ مساجدَ الله بالإقبالِ وتحقُّقِ الامتثالِ

قوله: ﴿ءَامَنَ﴾، ﴿وَأَقَامَ﴾، ﴿وَءَاتَى﴾، ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ﴾، عبِّرَ بصيغة الماضي في أفعال جملة الصِّلة؛ للإيذانِ بتحقُّقِ إيمانِهم وإقامتهم الصَّلاةَ وإيتائهم الزَّكاةَ، وكونِهم لم يخشوا إلَّا اللّه على جهة الجزمِ؛ ليكونَ في سلكِ المقطوعِ بوقوعِه، مدحًا لهم وإشعارًا بالإقبالِ والمبالغةِ في الامتثال، وعبَّر في الفعل ﴿يَخۡشَ﴾ بصيغة المضارع المنفي بـ ﴿وَلَمۡ﴾ لِخصوصيَّة إفادةِ الحصرِ، كما سيأتي.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾:

الإيمانُ أصلُ الأوصافِ النَّبيلةِ، وبه قيامُها وتحقُّقها

عُطِفَ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ على الاسم الجليل بالواو؛ لإفادةِ التَّشريك في حكم الإيمانِ، ولم يقل: (من آمن باللّه وآمن باليوم الآخر) فلم يكرِّرِ الفعلُ؛ للإشعارِ بأنَّ المعطوفَ والمعطوفَ عليه أَمرٌ واحدٌ في مقتضى الإيمانِ، فكلاهما تصديقٌ قلبيٌّ، فجاء على الأصلِ في العطفِ، كما أنَّ الكلامَ جاء على طريقِ الإيجاز، وقدِّمَ الإيمانُ باللّه على سائر الأوصافِ؛ لأنَّه أصلُها، وبهِ قيامُها وتحقُّقها.

مناسبةُ العطفِ في جملة: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ﴾:

من بنى المسجدَ رياءً وسمعةً لم يكن عامرًا له

لمّا جاءتِ الجملةُ في سياق الرَّدِّ على المشركين الذين كانوا يتفاخرونَ ببناء المسجدِ الحرام وسقايتِهم الحجَّاج وغيرِها من أعمالِ البرِّ، دلَّ التَّعبير على عموم المعنى، أي: من يعمرُ مساجدَ اللّه لا يخشى إلا اللّه، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا من يبني المسجدَ للّه، لا لأجل رياء ولا سمعة، ولكن يبنيه لمجرَّد طلَبِ رضوان اللّه، ففيه كنايةٌ أنَّ من بنى مسجدًا رياءً وسمعة، لم يكن عامرًا له، وفيه نكتةٌ لطيفة أخرى، وهي: أنَّه لمّا كانَت الخشيةُ تُرجَّح في حال الصِّحَّة والقوَّة، والرجاء يُرجَّح في حال المرض والضَّعف؛ ناسب أن يذكر الخشية

لِما يصاحبُ عمارةَ المساجدِ من القوَّة غالبًا، وأيضًا لمّا كان السِّياق السَّابق في الحثِّ على مقاتلةِ المشركين النَّاكثين عهودَهم اندرج فيه عدمُ الخشيةِ عند القتال ونحوُ ذلك، كما أنَّ قولَه: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ يشيرُ إلى أنَّه لا يكفي في الإيمان مجرَّد الإقرار باللِّسان، بل لا بدَّ في ذلك من إيجادِ التَّصديقِ - حقيقةً - المثمرِ لخشية اللّه[1].

دلالةُ الحصرِ:

المؤمنُ لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ

قد يقالُ: المؤمن يخشى المحاذيرَ، ولا يتمالكُ ألَّا يخشاها، والخشيةُ أمرٌ طبعيٌّ لا يمكن دفعه عن النَّفس، فما وجهُ الحصرِ في قولِهِ: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؟ وجوابُه: أنَّ الحصرَ إضافيٌّ، وليس حقيقيًّا، فالمرادُ بالخشية الخشيةُ في أبواب الدِّين وليس الخشيَةَ الغريزيَّة، كخشية أسباب الضَّرر الحقيقيَّة، فإنَّ هذا لا ينافي خشية اللّه، فليس المرادُ من الخشيةِ أنَّهم لا يخافونَ شيئًا غيرَ اللّه، فإنَّهم قد يخافون الأسدَ، ويخافون العدوَّ، ولكن معناه: إذا تردَّد الحال بين خشيتهم اللّه، وخشيتهم غيرَه؛ قدَّموا خشيةَ اللّهِ على خشيةِ غيرِه، وألَّا يختار على رضا اللّه رضا غيره لتوقُّع مخوفٍ[2].

بلاغةُ التَّعريض:

ترغيبُ المؤمنين في ترجيحِ الخشيةِ على الرَّجاءِ، عندَ مقامِ الرَّدِّ على المتفاخرين

وفي هذا الكلام تعريضٌ بالمؤمنين ولطفٌ بهم وترغيبٌ لهم في ترجيح الخشيةِ على الرَّجاء ورفْضِ الاغترار باللّه تعالى، لمناسبةِ المقامِ مقامَ الخشية من اللّه ألَّا يُقبلَ عملُهم، ليكونَ ردًّا على المتفاخرين بأعمالِ البرِّ[3].

توجيهُ متشابهِ القرآن:

قال اللّه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾

(1) ابن عادل، اللّباب في علومِ الكتاب: 10/46، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/443، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/402، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/260.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51.

لكلِّ آيةٍ مقامُها وسياقُها، فيختلفُ نظمُها لفظًا ومعنًى

[التّوبة: 13] وقال هنا: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾، ولكلِّ آيةٍ مقامُها ومعناها، وبيانه: أنَّه في الآية الأولى جاء الكلامُ بطريق الإثباتِ، أي: إثباتِ أنَّ اللهِ أحقُّ أنْ يُخشَى؛ لأنَّه لمّا أنكر عليهم خشيتَهم من الكافرين في قوله: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾، دلَّ على ثبوتِ الخشيةِ عندهم، فعرَّفهم بأحقِّيَّةِ موضعِ الخشية، وأين ينبغي أن تصرفَ، فقال: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، فجاء على طريقِ الإثباتِ، وإنْ تضمَّن الكلامُ معنى الحصرِ، وأمّا في هذه الآية؛ فإنَّه جاء بطريق النَّفي والإثبات، وهو أبلغ؛ لكونه نفى نفسَ الخشيةِ على العموم، ثمَّ أثبتَها للهِ تعالى، للإيذانِ بأنَّ المشركين الذين كانوا يعمرون المسجد الحرامَ متباهين متفاخرين لم يخشوا اللهَ وحده، وأنَّهم كانوا مصرِّين على خطَئِهم هذا، فناسب أن يقول هنا: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ ليكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ لِمَا فيه من التَّعريض بالمشركين[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

الاتِّصافُ بأوصافِ من يعمُرُ مساجدَ اللهِ سببٌ إلى الاهتداء

تفيدُ الفاءُ معنى السببيَّةِ، بمعنى ترتُّب توقُّع الَّذين يعمرون مساجدَ اللهِ اهتداءَهم على اتِّصافِهم بالنُّعوت المذكورة، للإيذانِ بالمبادرة إلى الاتِّصاف بهذه الأوصاف الجميلة؛ لأنَّه سببٌ في رجائهم المذكور.

دلالةُ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

المشركون بعيدونَ عن الاهتداءِ بالكفران، والمؤمنون يرجون الفوزَ به بالإيمان

أفادتْ (عسى) التّبعيدَ للمشركين عن مواقف الاهتداءِ، وحَسْمَ أطماعهم مِنَ الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها، وافتخروا بها، وأمَّلُوا عاقبتَها، كما أفادت (عسى) الرَّجاءَ الراجعَ للعبادِ، فكأَنَّ المعنى: إنَّ الذين يأتون بهذه الطَّاعات إنَّما يأتون بها على رجاء الفوز بالاهتداءِ لقولهِ تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: 16]، وذهب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/403.

بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ هنا بمعنى الحصولِ والوقوع؛ لأنَّها من اللّه واجبةٌ، وإنَّما عبَّرَ بصيغة الرَّجاء والتَّوقُّع ردًّا على المشركين، وقطعًا لأطماعهم في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخًا لهم بالقطع بأنَّهم مهتدون، فإذا كانَ الذين جَمَعوا هَذِهِ الخِصَالَ الأَرْبَعَةَ جُعِلَ اهتداؤهم دائرًا بين عسى ولعلَّ، فحالهم مرجوَّة، فما ظنُّك بأضدادهم المشركين الذين يقطعون أنَّهم مهتدون ونائلون عند اللّه الحسنى، وليس لهم حظٌّ من هذه الأوصافِ؟ وفي التَّعبير بـ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ منعٌ للمؤمنين أنْ يغترُّوا بأحوالهم، ويتَّكِلوا عليها، وأيضًا: لَمَّا كانت حقيقةُ الرجاء ظنَّ حصولِ أمرٍ وقعت أسبابُه، واتُّخِذَتْ وسائلُه من مبتغيه، ولم يبقَ لحصوله إلَّا أن تكون وقعت على وجهها المؤدِّي إلى الغاية، وألَّا تعارضَها الموانعُ التي تكون راجحةً على المقتضى، أفادَ أنَّ مَنِ اتَّصف بهذه النُّعوتِ حقيقٌ بأن يكونَ من المهتدين، ولكن لا يمكن أن يجزم بذلك لمعرفتِه باللّه وخشيتِه له، فناسبَ ذلك التعبيرُ بلفظٍ يفيد طمعَهم في حصول الاتِّصاف بوصفِ المهتدين ورجاءَه بعدَ الأخذِ بأسبابِه[1].

دلالةُ اسم الإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

علوُّ مكانةِ من يَعمُرُ مساجدَ اللهِ ورفعةُ أوصافِهِ

عُبِّرَ باسم الإشارة لتمييز المنعوتين بتلك النُّعوت الجميلة أكملَ تمييز، وللإشعارِ بأنَّها من أكمل النُّعوتِ، ولبيانِ أنَّها نعوتٌ واضحةٌ سهلةُ التَّحصيلِ، وللتَّنبيه على أنَّهم استحقُّوا هذا التَّوقُّع فيهم بسبب تلك الأعمال التي عُدَّتْ لهم، وعلى أنَّ المطلوب تحصيلُها على جهة اجتماعِها فيهم، وجاء باسم الإشارة الَّذي للبعيد للإشعارِ بعلوِّ مكانتِهم ورفعتِهم بما اتَّصفوا به[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/11، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378، ومحمد رضا، تفسير المنار: 5/362.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/260، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.

دلالةُ ﴿أَن﴾ المصدريّة:

أفادَ التَّعبيرُ بـ﴿أَن﴾ المصدريّة أنَّ كونَهم مهتدين هو فيما يُستقبل من الزَّمان، ليناسبَ (عسى) التي وضعت لمقارنة المستقبل[1]، أي: لتفيدَ توقُّعَ الحصولِ وقربَهُ في المستقبل.

ملازمةُ من يعمرُ مساجدَ الله، تفيد قربَ التمكُّن من الاهتداء

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، تفيد (مِن) التَّبعيض، ولم يقل: (فعسى أولئك أَنْ يَكُونُوا مُهْتَدِينَ)، بَلْ جُعِلُوا بَعْضًا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، وَكَوْنُهُمْ مِنْهُمْ أَقَلُّ فِي التَّعْظِيمِ مِنْ أَنْ يُجَرَّدَ لَهُمُ الْحُكْمُ بِالْهِدَايَةِ، وسببُ مجيءِ الوصف على التَّبعيض هو أنَّهم لَمَّا أتَوا بالنُّعوت الَّتي تؤهِّلهم للاهتداء؛ قويَ الأملُ في أَنْ يستقرُّوا على وصفِ الاهتداء، ويصيرَ خُلُقًا لهم، فيكونوا من أهله، ففيه حثٌّ على الاستزادةِ من هذا الاهتداءِ، وتحذيرٌ من الغرورِ والاعتمادِ على بعض العملِ الصالحِ باعتقادِ أنَّ بعضَ الأعمالِ يُغني عن بقيَّتها، وفيه إشعارٌ بأنَّ الاهتداء يكونُ بأعمالٍ أخرى من العباداتِ والطَّاعات[2].

التَّحذيرُ من الغرورِ بالاعتمادِ على بعض العملِ الصّالحِ والاكتفاء به

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾:

عُبِّرَ بصيغة (افتعل) للإشعارِ بأنَّهم مجتهدون في الاهتداء، وطالبون له، كما أنَّ في الصِّيغة معنى المبالغة في طلبِ الاهتداء، ولمّا كانَ (اهْتَدَى) مُطَاوِعَ (هدى)، ومطاوعُ الشَّيْءِ لَا يكون مُخَالفًا لَهُ فِي أصل الْمَعْنى، أي: هديتُه، فاهتدى؛ دلَّ على أنَّ الهداية قُدِّمت لهم، فهم على طمعِ حصولِ الاهتداء واتِّصافِهم به قريبًا، وفي التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ مدحٌ لهم[3].

المؤمنُ مجتهدٌ في الاهتداء، وطالبٌ له في السّراء والضّراء

---

(1) الأنباريّ، أسرار العربيّة، ص: 109.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/387، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.

(3) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/110، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 952.

سرُّ تعليق اهتداءِ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر، بلفظ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

المهتدي مَن ثبتَ له وصفُ الاهتداء وتمكَّنَ منه

قد يقالُ: إنَّ الذي اتَّصفَ بالأوصافِ المذكورة قد هديَ، ولولا أنَّه قد هُدي لَمَا آمن بالله واليومِ الآخر، وأقامَ الصَّلاة وآتى الزَّكاةَ، فكيف يعلَّقُ اهتداؤه على رجاء الوقوعِ والطَّمع فيه؟ وجوابُه: أنَّه لَمّا عُبِّرَ بصيغة اسم الفاعل المشتقِّ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ آذنَ بأنَّ المرادَ ليس أصلَ الاهتداء - أي: الهدايةَ - بل ثبوتُ وصفِ الاهتداء عندهم، وتمكُّنُه فيهم، وهو يأتي بعدَ هدايتِه للإيمانِ بالله وما عطِفَ عليه، فيكون المهتدي أرقى مقامًا وأرفعَ درجةً، "فحالُ هؤلاء المؤمنين حال مرجوَّةٌ؛ لأن يكونوا من المهتدين"[1]، وهذه الحالُ هي حالُ الاتِّصاف بصفة التَّوفيق من الله تعالى، وهي أعلى مراتبِ الاهتداء في الدُّنيا[2]، ويشعرُ الكلامُ بأنَّ استمرارَهم في هذه الأعمال الشَّريفة وتجدُّدَها منهم سبيلٌ إلى أنْ يكونوا من المهتدين.

بلاغةُ حذفِ متعلَّق ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾:

فائدةُ حذفِ المتعلَّق دائرةٌ بين ثبوتِ الوصفِ وإفادةِ العموم

لَمّا كان الأصلُ أن يقالَ: اهتدى إلى كذا؛ دلَّ على أنَّ المحذوفَ هو الغاية التي يطلبُها المهتدي، فحُذفَ المتعلَّقُ؛ للإشعار بأنَّ المرادَ ثبوتُ وصفِ الاهتداء لهم وتمكُّنُه فيهم، بحيث يكون الاهتداءُ سجيَّةً لهم، وهو الظَّاهر، كما تقدَّم، ويحتملُ أن يكون المحذوف مقدَّرًا من السِّياق، والمعنى: فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى الله وإلى مُوجباتِ رحمتِه وإلى مَباغِيهم من الجنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ فنونِ المطالبِ العليَّةِ، فيكون الحذفُ لإفادة العموم[3].

سرُّ إيثار مجيء ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ فعلًا ناقصًا:

تقريرُ قربِ اهتداءِ المتَّصفينَ بالأوصافِ المذكورة، والمبالغة في مدحهم

عُبِّرَ بطريقة الفعل النَّاقص الذي يقتضي اسمًا وخبرًا، فكان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمًا لـ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾، والمصدرُ المؤوَّلُ خبرُها، ولم يقل:

---

(1) ابن المُنَيِّر الإسكندريّ، الانتصاف من الكشّاف: 2/255، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/362.

(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51.

(فعسى أنْ يكون أولئك من المهتدين)، والسَّببُ هو: أنَّه لما اقترنَ بالكلامِ الإنكارُ على عُمَّار المشركين، وحَصَرَهُ بالمتَّصفين بالأوصاف المذكورةِ؛ ناسبَه تقوِّي الحكم بنفس الإسناد فيما يترتَّب على الاتِّصاف المذكور، فجاء الخبرُ مصدرًا مؤوَّلًا، كما أنَّ في الإخبار بالمصدر المؤوَّل مزيدَ مبالغةٍ؛ لأنَّه أخبر بالحدثِ عن الذَّاتِ، أي: عن ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، فيكونُ من باب (زيدٌ عدْلٌ)[1]؛ فكأنَّ كلَّ الاهتداء فيه؛ ليفيدَ مدحهم، والمرادُ تحقيق رجاء فوزِهم بالاهتداء عندَ السَّامعين، وذهب البقاعيُّ: إلى أنَّ السَّببَ هو أنَّه عندما يقوى المعنى الذي سَيُقَتّ له من طمعٍ أو إشفاق، يُجعَلُ خبرُها اسمًا؛ تنبيهًا على أنَّها الآن بمنزلةِ (كان) لِمَا اشتدَّ من شبهِها لَها بذلك[2].

(1) خالد الأزهريّ، التّصريح على التّوضيح: 1/282.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/413.

﴿۞أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين عمارة المؤمنين للمساجد، وبين جعل السّقاية والعمارة مع الكفر، كالإيمان والجهاد

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى مَن يَصلُحُ لعمارةِ المسجدِ الحرام من غيرِه؛ أنكرَ على مَنْ لمْ يُفرِّقْ بين الصِّنفينِ، فأخبر اللّه بالتَّفاوت بينهما في هذه الآية(1).

وأيضًا: لَمَّا وقع الكلامُ على أنَّ المؤمنين همُ الأحقَّاءُ بعمارةِ المسجدِ الحرامِ من المشركينَ؛ دلَّ ذلكَ الكلامُ على أنَّ المسجدَ الحرامَ لا يحِقُّ لغيرِ المسلم أنْ يباشرَ فيه عملًا مِنَ الأعمالِ الخاصَّةِ به، فكان ذلك مثارَ ظنٍّ بأنَّ القيامَ بشعائرِ المسجدِ الحرامِ مساوٍ للقيامِ بأفضلِ أعمالِ الإسلامِ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِقَايَةَ﴾: مصدرٌ من (سقى) مثل: الرِّعاية والحماية، ويحتمل: أن يكون اللَّفظ اسمًا للحرفة والصِّناعة، أي: السَّقي من ماء زمزم، ولذلك أضيفت السِّقايةُ إلى الحاجِّ، كما تطلقُ على الموضع الَّذي يُتَّخذ فِيهِ الشَّراب في موسم الحجِّ وَغيره، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشَّيءِ الماءَ وما أشبهَه، وسقاية الحاج بمعنى: سَقْي الحجيج الماءَ وما أشبهه(3).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/416.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/143.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سقي)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

2) ﴿وَعِمَارَةَ﴾: إمَّا أن يكونَ اللَّفظ مصدرًا للفعل (عمر) بمعنى تعمير شيء بالإصلاح والمعاهدة والقيام بما يبقي عمارَهُ على امتدادِ الزَّمن، فالعِمارةُ: نَقيضُ الخَرابِ، وأَصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زمانٍ، وإمَّا أن يكون اسمًا لِلحرفة والصِّناعة[1].

3) ﴿يَهْدِى﴾: الهداية دلالةٌ بلطفٍ، والمراد بالهداية هنا: الدِّلالةُ الموصِلَةُ إلى اللّه، أو خلْقُ التَّوفيق الذي يختصُّ به من اهتدى إلى الحقِّ، وكلُّ هدايةٍ ذَكَرَ اللّهُ ﷻ أنَّه منع الظالمين والكافرين منها؛ فهي بهذا المعنى[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الإيمـانُ بالله واليـوم الآخر والجـهاد في سبيله، هي أعلى الأعمال وأرقاها عند الله

أَجَعَلْتم - أيُّها القوم - ما تقومون به من سقي الحجيج وعِمارة المسجد الحرام، كإيمانِ مَن آمن باللّه واليوم الآخر، وجاهد في سبيل اللّه؟ لا تتساوى حالُ المؤمنين وحالُ الكافرين عند اللّه؛ لأنَّ اللّه لا يقبلُ عملًا بغير الإيمانِ، واللّهُ سبحانه لا يوفِّقُ لأعمالِ الخير القومَ الظَّالمين لأنفسِهم بالكفر، فأعلمهم جلَّ ثناؤه أنَّ الفخرَ في الإيمانِ باللّه واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السِّقاية والعمارة[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾:

الاعتقادُ الفاسد مُورثٌ لآثارٍ سيِّئة في القولِ والعمل

عبَّرَ بالجعل عن الاعتقاد[4]؛ لأنَّ اعتقادهم كان له آثارٌ في القولِ أو في الفعلِ، ونكتةُ التَّعبيرِ بالجعل: هو الإيذانُ بأنَّهم هم الذين أوجدوا هذا الجعلَ، وهو في الواقع غيرُ صحيح، ثمَّ اعتقدوه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عمر)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.
(2) الرّاغب، المفردات: (هدى)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 954.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/169، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 189.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/182.

وحكمُوا بصيرورةِ سقايتهم الحاجَّ وعمارةِ البيتِ مثلَ من آمن باللّه واليومِ الآخر مع بطلانِ هذا الاعتقادِ.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازي:

بطلانُ التَّسوية في الاعتقاد، بين عمارةِ الكفّار المسجدَ الحرام، والإيمانِ بالملك العلّام

في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ﴾، همزةُ الاستفهام للإنكار المفيد معنى التَّوبيخ، والمعنى: إنكارُ اعتقادكم وحكمكم بتشبيهِ سقايةِ الحاج وعمارة المسجد الحرام بمن آمنَ باللّه واليوم الآخر، وجاهدَ في سبيل اللّه، ولمّا تضمَّن الإنكارُ هنا معنى النَّهي؛ دلَّ على أنَّ المعنى: لا تعتقدوا هذا التَّشبيه لبطلانه وعدمِ صحَّته، فدلَّ الإنكارُ على لازمه كذلك، وهو بطلانُ التَّسويةِ بينهما في الواقعِ[1].

دلالةُ الخطاب بين الالتفات أو الدّلالة على مقتضى الظَّاهر:

توبيخُ المشركين، وبيانُ مكانة المؤمنين المجاهدين عند الله تعالى

الخطابُ إمَّا أن يكونَ للمشركين؛ ليكونَ على طريقةِ الالتفات، بعدَ أن خاطبَهم على طريقِ الغَيْبة في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 17]، وهو المتبادر؛ فإنَّه لمّا ذكر الإيمانَ باللّه واليومِ الآخر في جانب المشبَّه به؛ دلَّ على أنَّ المشبَّه مفتقدٌ له، فيكون المرادُ المشركين، وفائدةُ الالتفاتِ: توبيخُ المشركين وتقبيحُ جعلِهم المذكور؛ ليكونَ على طريقِ الخطابِ الذي يكون أكثرَ تأثيرًا في نفوسِ المخاطَبين، ومدارُ الكلامِ على إنكار تشبيهِ المشركين أنفسَهم وما اتَّصفوا به من سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام بالمؤمنين وما اتَّصفوا به من الإيمان والجهاد، وإما أنْ يكونَ الخطابُ لبعضِ المؤمنين المؤثِرين للسِّقايةِ والعِمارةِ ونحوهما على الهجرةِ والجهادِ ونظائرهما، فيكون على مقتضى الظَّاهر، وهو المناسبُ؛ للاكتفاء في الرَّدِّ عليهم ببيان عدمِ مساواتِهم عند اللّه للفريق الثاني، وبيانِ أعظميَّةِ درجتِهم عند اللّه تعالى على وجه يُشعِرُ بعدم حِرمانِ الأوَّلين بالكليَّة[2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/670.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/52.

سببُ إيثارِ ذكر ﴿سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾:

الحاجةُ إلى سقايةِ الحاجِّ، أعمُّ من سائر الضِّيافةِ وأهمُّ منها

ذكرَ سقايةَ الحاجِّ دون غيرِها كالضِّيافة مثلًا؛ لأنَّ الحاجةَ إلى السِّقاية عامَّةٌ، فيظهر فضلُها وبرُّها؛ إذ مِن المعلوم أنَّ الحجَّاج كانوا وما زالوا أحوجَ إلى الماء في الحرم من الزَّاد؛ لأنَّ كلَّ حاجٍّ كان يمكنه أنْ يحمل من الزَّادِ ما يكفيه مدَّةَ سفرِه إلى الحَرَم، وعودتِه بعد أداءِ المناسكِ، ولا سيَّما العربيُّ القنوع القليل الأكلِ، ولكن لا يمكنه أنْ يحملَ من الماءِ ما يكفيه كلَّ هذه المدَّةِ ولا نصفَها[1].

دلالة (ألْ) في لفظ ﴿ٱلۡحَآجِّ﴾:

الحاجّ من أدّى الشّعيرة، وطَهُرَتْ منه السّريرة

(أل) هنا جنسيَّةٌ، لتفيد العمومَ، قصدًا إلى أنَّهم كانوا يستكثرون عملَهم.

براعةُ التَّشبيهِ:

مجيئه على طريقِ الاحتباك، لتكثير المعنى

براعةُ التَّشبيه في الآية جاءت من تشبيه المَصدَرين (السقايةِ والعِمارةِ) بالأعيانِ في قوله: ﴿كَمَنۡ ءَامَنَ﴾، والحالُ أنَّه لا يُتصوَّرُ تشبيهُ الحدثِ بالأعيان؛ لِعَدمِ اتِّحادِ المشبَّهِ والمشبَّهِ به والمسندِ والمسندِ إليه، فذهب جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّه لا بُدَّ من تقدير مضافٍ في أحد الجانبين، فإمَّا أن يقدَّر مضافٌ بمعنى الذَّاتِ في جانب المشبَّهِ ليوافقَ المشبَّهَ به، فيكونَ من تشبيهِ الذَّاتِ بالذَّاتِ، والتقديرُ: أجعلتم أهلَ سقاية الحاجِّ وأهلَ عمارة المسجد الحرام كمن آمن باللَّه، وإمَّا أن يقدَّر مضافٌ في جانب المشبَّهِ به بمعنى الحدثِ ليوافق المشبَّهَ، فيكونَ من تشبيهِ الحدثِ بالحدثِ، والتَّقدير: أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارةَ المسجد الحرام كفعلِ من آمن باللَّه[2]، وعلى كلا التَّقديرين في التَّشبيه فإنَّ كلًّا منهما يستلزم الآخر؛ لأنَّ

---

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/197.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/256، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/16، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/52.

إنكارَ تشبيه المشركين يستلزم إنكارَ تشبيهِ أعمالِهم المحبطةِ؛ إذ الأعمالُ بفضيلتِها هي وجه الشَّبهِ، وإنكارُ تشبيه الأعمالِ يستلزمُ إنكارَ تشبيه الذَّواتِ لتعلُّق الأعمالِ بهم واتِّصافِهم بها(1).

والأولى أن يكون التَّشبيهُ على معنى الاحتباك(2)؛ ليكونَ من بابِ تكثير المعنى بتقليلِ اللَّفظ، ومثلُ هذا النَّوع من التَّشبيهِ من ضروب الإيجاز المعهودة في بلاغةِ القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 177]، ومعنى الاحتباك في التَّشبيه هنا: أنَّه حذفَ العمل من المشبَّه به لدلالة المشبَّهِ عليه، وحذف الذَّاتَ من المشبَّه لدلالة المشبَّه به عليه، وتقدير الكلام: أجعلتم سقايةَ الحاج وعمارةَ المسجدِ الحرام، كالإيمان باللّٰه واليوم الآخر والجهاد في سبيل اللّٰه، وجعلتُم سُقاةَ الحاجِّ وعُمَّار المسجد كالمؤمنين والمجاهدين في سبيل اللّٰه، والمعنى: إنكارُ أنْ يُشبَّه المشركون وأعمالُهم المحبَطَةُ بالمؤمنين وأعمالِهم المثبتةِ، ونكتةُ مجيء التَّشبيه على الاحتباك: بيانُ أنَّ هذا الفعل ليس كالفعل الآخر، وأنَّ الفاعل لكلٍّ منهما ليس كالآخر، بل بينهما من التَّفاوت والدَّرجات، فلا يساوي الفريق الأوَّلُ الفريقَ الثاني في صفته، ولا في عمله في حكم اللّٰه، ولا في مثوبته وجزائه عنده في الدُّنيا ولا في الآخرة، فضلًا عن أن يَفضُلَه، كما توهَّم بعضُ المسلمين، وكما يزعُم كُبَراءُ مشركي قريش الذين كانوا يتبجَّحون بخدمة البيت، ويتفاخرون على النَّاس به(3).

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿كَمَنۡ﴾:

ملمح العمومِ واتصالِ العمل بصاحبه قلْبًا وقالَبًا

عبَّرَ بالاسم الموصول ﴿كَمَنۡ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّه أعمُّ وأكثرُ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/182.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/416، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/146.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/176.

شمولًا ولإفادة أنَّ من آمن باللّه واليومِ الآخر هو أمَّة، وإن كان وحده، ففيه حضٌّ على الإيمان المقترنِ بالعمل؛ كي يُقتدى به.

فائدةُ مجيءِ الاسم الموصول وصلته، مقابلَ السّقايةِ والعمارة:

الحثُّ على الاتِّصاف بالإيمان والجهادِ في سبيلِ الله

نلحظ أنَّ القرآن قد أنكر عليهم تسويتَهم بين سقاية الحاجِّ وعمارة المسجدِ الحرام (وهي أعمال)، وبين ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (وهم أناسٌ قاموا بهذه الأعمال)؛ للإيذانِ بأنَّ هذه الأوصافَ معلومةُ الانتسابِ إلى قوم معيَّنين، فيكون مدحًا لهم، وللإشعارِ بأنَّ إنكارَ الجعْلِ هو بسبب اتِّصافِ المشبَّه به بالإيمانِ باللّه واليوم الآخر وجهادهم في سبيل اللّه، وفيه تعريضٌ بتعظيم هذه الأوصاف؛ حثًّا على الاتِّصافِ بها.

مناسبةُ ذكرِ الجهادِ لردّ العدوان، دون غيره من الأعمال:

المؤمنُ لا يتنصَّل من مأمور الله، وإن كانَ مشغولًا بأمورِ العبادةِ

ذُكِرَ الجهادُ في سبيل اللّه هنا دونَ غيرِه من أعمالِ البِرِّ؛ للإيذانِ بأهميَّته وليَدلَّ على أنَّه لا يجوز للمؤمنِ التَّنصُّلُ منه، وإنْ كان مشتغلًا بأمرٍ عظيم من أمورِ العبادة ونفعِ النَّاس، مثلِ سقايةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجدِ الحرام، وأيضًا فيه إيماءٌ إلى أنَّه لولا الجهادُ لما كان أهلُ السِّقايةِ وعمارةِ المسجدِ الحرام مؤمنين، فإنَّ إيمانَهم كانَ من آثارِ غزوةِ فتحِ مكَّةَ وجيشِ الفتح؛ إذْ آمنَ العبَّاسُ بنُ عبدِ المطَّلبِ، وهو صاحبُ السِّقايةِ، وآمنَ عثمانُ بنُ طلحةَ، وهو صاحبُ عمارةِ المسجدِ الحرام[1].

دلالةُ جملة ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ بين الاستئنافِ والحال:

أعمالُ الكفَّار من البِرِّ، لا تساوي أعمالَ المسلمين، فلا تكون فاضلةً عليها

تحتملُ الجملةُ أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا، لتكونَ بتقدير جواب لسؤالٍ مُفادُه: لمَ لا يُشبَّهُ أحدُ الفريقين بالآخر؟ فجاء الجوابُ: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لِتقرير الإنكارِ في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾، وتأكيده، ولمّا كانت دعوى المفتخِرين بالسِّقاية والعمارةِ من المشركين والمؤمنين؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/145.

إنَّما هي في الأفضليَّةِ دون التَّساوي والتَّشابهِ كان نفيُ التَّساوي والإنكارُ فيما سلفَ للمبالغة في الرَّدِّ عليهم؛ فإنَّ نفيَ التَّساوي والتَّشابهِ نفيٌ للأفضليَّة بالطريق الأَولى، أي: إذا لم تبلغ أعمالُ الكفَّارِ إلى أن تكونَ مساويةً لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون؟ ويحتمل أن تكون الجملة حالًا من مفعولي الجَعْل، والرَّابطُ هو الضَّميرُ كأنَّه قيل: أسوَّيتم بينهم حال كونِهم متفاوتين عنده تعالى؟ فيفيد الحالُ تقويةَ الإنكارِ وتقريرَه ببيانِ الحجَّة والدَّليل[1].

بلاغةُ مجيء تساوي الأعمال عند الله تعالى:

في نفيِ التَّسوية تقريرٌ للإنكار على ما اعتقده المشركون

لمّا كان نفيُ التَّسوية بين الكافر والمؤمن لا يصحُّ، فلا يُجمع بين الكافر والمؤمن فيقالَ: لا يستويان عند الله؛ لأنَّه إنَّما يقابلُ الشَّيءُ بالشَّيءِ؛ إذا قرُبَ بعضُه من بعض، وأمَّا عند البعدِ منه؛ فلا يقالُ ولا يقابَلُ، فلا مقاربةَ بين الكافرِ والمؤمن أصلًا، وإن أتى الكافرُ بمحاسنِ الأفعال[2]، فلمَّا كان الأمرُ كذلك؛ دلَّ على أنَّه إنَّما نفى التَّسوية فيما اعتقدوه؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون قربَهم وقربَ أعمالِهم من المؤمنين وأعمالِهم، فشبَّهوا أنفسَهم بالمؤمنين، ففي نفيِ التَّسوية تقريرٌ للإنكار على ما اعتقدوه؛ لأنَّ الواقعَ لا يحتملُ تقاربَهما، فكيف بالتَّشبيه بينهما؟

فائدةُ تقييد ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ﴾ بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾:

ميزان الله في التّقييم أعدل من موازين البشر الجائرة

لمّا قُيِّدَ نفي التَّسوية بين الفريقين بقولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾؛ دلَّ على أنهما لا يستويان عندَ الله في الدُّنيا ولا في الآخرة، وأفاد التَّقييدُ أنَّ المعتبرَ في التَّساوي أو عدمِه ليس ما في اعتقادكُم، وإنَّما ما يكونُ عندَ الله تعالى.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/32، والنّيسابوريّ، غريب القرآن: 3/444، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/416، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/52، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/256.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/318.

بلاغةُ التَّذييل:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لمّا حُكمَ على المشركين في هذه الجملةِ بأنَّهم مع ظلمهم بالإشراك ومعاداةِ الرَّسول ﷺ غيرُ مهتدين، ولمّا كانَ الظُّلم عبارةً عن وضعِ الشَّيءِ في غير موضعِه، دلَّ على أنَّ تسويتَهم ظلمٌ بعدَ ظلمهم بالكفر، وأنَّهم بتشبيههم وتسويتِهم لا يهتدون إلى الحقِّ وإلى تمييزِ الرَّاجح من المرجوح، وأنَّ وضعَ السِّقاية والعمارة في موضعِ الإيمانِ باللّه واليوم الآخر والجهاد في سبيل اللّه ظلمٌ وضلالةٌ، ففي جملة التَّذييل زيادةُ تقريرٍ لعدمِ التَّساوي بينهم، وفيها بيانٌ له بالحجَّةِ كذلك بما تضمَّنته من معنى التَّعليل لنفي المساواة بين الفريقين؛ فكيف يتساوى الكافرون الظَّالمون مع المؤمنين؟ فإذا انتفت المساواة؛ انتفت الأفضليَّةُ من بابِ الأولى(1).

انتفاء المساواة بين الكافرين والمؤمنين؛ ينفي أفضليَّة الكافرين من بابِ أولى

دلالةُ نفيِ الهدايةِ على عدمِ وصولِهم إلى المطلوبِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أفاد نفيُ الهدايةِ عدمَ وصولِهم إلى المطلوبِ، فهمْ لم يهتدوا إلى اللّه، كما أنَّ فيه كنايةً عن نفيِ حصولِ الغرضِ من سقاية الحاجِ وعمارةِ المسجد الحرام، والمعنى: واللّه لا يقبل من القوم المشركين أعمالهم، ولا يوصلُهم إليه بسبب ظلمِهم(2).

الظَّالمون لا يصلون إلى الاهتداء، بسبب ظلمِهم الغشوم

فائدةُ مجيءِ الخبرِ جملة فعليَّةً:

أفادتِ الجملة الفعلية ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التي وقعت خبرًا للمبتدأ تقويةَ الحكم وتقريرَه، أي: تحقيقَ أنَّ اللّه لا يهدي القومَ الظَّالمين.

تقويةُ المعنى وتحقيقُه بمجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/256، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، وابن عادل، اللّباب: 10/51، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/52.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/147.

اسـتـمـرارُ نـفـي هـدايـة الـلـه لـلظَّالمين بـاسـتـمـرارِ ظلمِهم

القومُ المتعاونونَ عـلى الـظُّـلـمِ، أشـدُّ إسرافًا في الـظُّـلـمِ من الأفرادِ

دلالةُ ﴿لَا يَهۡدِى﴾:

تفيدُ ﴿لَا﴾ هنا استمرارَ النَّفي، بمعنى: استمرارِ نفي هداية اللّه للقوم الظَّالمين بسبب شركهم باللّه وظلمهم، وأفادَ التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ استمرارَ الحدثِ المنفيِّ وتجدُّدَه باستمرارِ الظُّلم وتجدُّدِه.

مناسبةُ التَّعبير بوصف القَوْمِ بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

عَبَّرَ بالمنعوت ونعتِه، ولم يقل: (واللّه لا يهدي الظَّالمين)؛ ليفيد بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ تعاونَهم على الظُّلم مراعاتَهُم له، وقيام بعضهم مع بعضٍ فيه، كما تعاونوا في السِّقاية والعمارة والإشراكِ باللّه، فالقوم الظالمون أشدُّ إسرافًا في الظُّلم من الأفرادِ، وأبعدُ عن الهدى بغرورِهم بقوَّتِهم وتناصرِهم، كما أنَّ مجيءَ النَّعتِ بصيغة المشتقِّ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يفيد عراقتهم في الظُّلم، وثباتَه فيهم، فقد ظلموا أنفسَهم بشركِهم، وظلموا المسجدَ الحرام أيضًا، فإنَّه تعالى خلقَهُ ليكون موضعًا لعبادةِ اللّه تعالى، فجعلوه موضعًا لعبادة الأوثان، فكان هذا ظلمًا(1).

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/49، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/197.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

[التّوبة: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّصريحُ بعدَ التَّلميحِ أثبتُ للمعنى في نفوسِ المخاطَبين

لمَّا نفى عنهم المساواةَ من غير تصريحٍ بأهلِ التَّرجيحِ؛ ليشتدَّ التَّشوُّفُ إلى التَّصريحِ، فيكونَ أثبتَ في النَّفسِ وأوقرَ في القلب، كانَ كأنَّه قيل: فمَنِ الرَّاجحُ؟ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[1].

وأيضًا: لمّا ذكر ترجيحَ الإيمان والجهاد على السِّقاية وعمارة المسجد الحرام، على طريق الرَّمز بنفي التَّساوي بين الطَّرفين، وذكَرَ الطَّرفَ المرجوحَ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أتبعَهُ بذكر الطَّرفِ الرَّاجحِ على سبيل التَّصريح؛ ليُظْهِرَ للنَّاس أوصافَهم، وليُعلَمَ سببُ رجحانِهم على غيرِهم، فجاءت هذه الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: الهجرُ: ضدُّ الوصلِ، والمُهاجَرَةُ: مصارمةُ الآخرِ ومتاركتُه بحدَّةٍ ومغاضبةٍ، والهَجْرُ والهِجْرَان: مفارقة الإنسان غيره، إمَّا بالبدن، أو باللِّسان، أو بالقلب، ومنه الهاجرةُ: نِصفُ النَّهار عند اشتداد الحر، وسمِّيت هاجرةً؛ لأنَّ النَّاس يستكنُّون في بيوتهم، كأنَّهم قد تهاجروا، وسُمِّيَ الإفحاشُ في القولِ هُجْرًا؛ لأنَّه من المهجور الذي لا خيرَ فيه، وأُطلقتِ الهِجرةُ على ترك الموطن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13.

والحلول ببلد آخر، ومعنى ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: تركوا مكَّةَ إلى المدينة خوفًا على دينهم، وأَمنًا على أَنفسِهم من أذى المشركين(1).

2) ﴿دَرَجَةً﴾: يدور معنى الدَّرج على ضمٍّ أو احتواءٍ في مَضَمٍّ للنَّقل أو معه، برفق، أي: شيئًا بعد شيء، ففي اللَّفظ معنى الانتقال ببطءٍ ومهلٍ، يقال: درجَ الصَّبيُّ، إذا ابتدأ في المشي، ومنه دَرَجُ البناء مراتبُ بعضها فوق بعض، ودَرَجُ السُّلَّم التي يرتقى بها إلى غرفةٍ أو سطحٍ شيئًا فشيئًا، ومن المعنويِّ الدَّرَجَة نحو المنزلة، لكن يقال للمنزلة: دَرَجَة إذا اعتُبرت بالصُّعود دون الامتداد على البسيطة، كدَرَجة السَّطح والسُّلَّم، ويُعبَّر بها عن المنزلة الرفيعة عند اللّه، ويقال: فلان يتدرَّج في كذا، أي: يتصعَّد فيه درجة درجة(2).

3) ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾: الفوزُ هو الظَّفرُ بالخير مع حصول السَّلامةِ، كما يطلقُ على النَّجاة من الهلاكِ وإن لم يظفر بشيءٍ، يقال: فاز يفوز، وهو فائزٌ؛ إذا نجا من عبور الصَّحراء، وخلصَ منها، ومنه قالوا: الفوز النَّجاةُ، وفاز بالأمر؛ إذا ذهب به وخلص، وما جاء في القرآن الكريم من لفظ الفوز ومشتقَّاتِه هو الفوز بمعنى النَّجاة وما يلزمها من التنعُّم بنعمِ الجنَّة(3).

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

التَّفاوتُ في الأوصافِ يوجبُ التّمايز في الدّرجاتِ في الدُّنيا والآخرة

الذين آمنوا باللّه، وصدَّقوا بتوحيدِه، وهاجروا دُورَ قومهم، وجاهدوا المشركين في دينِ اللّه بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً عند اللّه، وأرفعُ منزلةً عندَه، مِنْ سُقَاةِ الحاجِّ وعُمَّارِ المسجدِ الحرام، وأولئكَ الذين وصفْنا صفتهم، أنَّهم آمنوا، وهاجروا، وجاهدوا هم الفائزونَ بالجنَّة، النَّاجونَ من النَّارِ(4).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هجر).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (درج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/173.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

تكريمُ المؤمنين ببيانِ مقامِهم عندَ اللهِ

جاءتِ الآيةُ على طريق الفصل؛ وبيانُ مناسبتِهِ: أنَّه لمّا بيَّن عدمَ استوائهم مع الكافرين وذكر الفريق المرجوحَ، وبيَّن أنَّ اللّٰه لا يهدي القومَ الظَّالمين، وأنَّ اتِّصافَهم بالظُّلم هو سببُ عدم اهتدائهم، فكأنَّ سائلًا سألَ: هذا ما أعدَّ اللّٰه للذين ظلموا أنفسَهم بالكفرِ، وظلموا غيرَهم بالصَّدِّ عن سبيلِه، فماذا أعدَّ اللّٰه للفريق الآخر؟ فبيَّنَ اللّٰه تعالى ما أعدَّه للمؤمنين بذكرِ درجتِهم عندَه سبحانه؛ للإعلام بفضلِ مرتبَتِهم ودرجتِهم(1).

دلالةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول وصلتهِ:

تفضيلُ خصالِ المؤمنين وتعظيمُ شأنِ الدَّرجة عندَ الله

عُبِّرَ بالاسم الموصول وصلته في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ للإيذانِ بأنَّ جملةَ الصِّلةِ معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبين، وللإيماء إلى أنَّ الخبرَ المبنيَّ عليه من جنسِ المدحِ والثَّواب، كما أفاد ذكرُ الصِّلة بيانَ سببِ بناء الخبر على المبتدأ، أي: هم بسببِ اتِّصافِهم بهذه الأوصافِ الجميلة أعظم درجةً عند اللّٰه، فالمقصود تفضيلُ خصالِهم، وفي التَّعبيرِ تعريضٌ بتعظيمِ الأوصاف الجليلة وتعظيم شأنِ الخبرِ، بالإيماء إلى أنَّ الخبر المذكور ممَّا لا يكونُ لأيِّ أحدٍ، بل هو لقومٍ مخصوصين(2).

مناسبةُ ترتيبِ الأوصاف، في جملة الصِّلة:

أصلُ الأعمالِ وأساسُها، هو الإيمانُ بالله تعالى

جاءتِ الأوصافُ مرتَّبةً على وَفْقِ ترتيبِها في الوقوع، فإنَّ الإيمانَ هو الأصل، ثمَّ إنَّ المؤمنين وقتَ نزول القرآن هاجروا، ثم جاهدوا في سبيلِ اللّٰه بأموالِهم وأنفسهم، وزيادةُ الهجرة وتفصيل نوعَي الجهاد على ما ذكِرَ في الآية السابقةِ للإيذان بأنَّ ذلك من لوازم الجهاد(3).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53.
(2) السكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182، والتّفتازانيّ، المطوّل، ص: 220.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/53، والآلوسي، روح المعاني: 5/262.

نكتةُ مجيءِ الفعل بصيغة الماضي:

جاءت الأفعالُ ﴿ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ بصيغة الماضي؛ للإشعار بأنَّهم أوقعوا هذه الأفعالَ، وتحقّقوا بها.

دلالةُ صيغةِ المفاعلة:

المشاركةُ وبيانُ المشقَّةِ وبذل الجهد

واشتقَّ لها صيغةَ المفاعلة (هاجَرُوا)؛ لبيان شدَّةِ المفارقة والمجاذبة؛ لاختصاصها بالهجر القويِّ، وهو هجر الوطن.

فائدةُ حذْفِ متعلَّق الفعلين ﴿ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾:

لا إيمانَ غيرُ الإيمانِ بالله وحده المعروفِ المعهود في الأذهانِ

لم يقل: (آمنوا بالله)، فحذف المتعلَّق؛ لدلالةِ السِّياقِ عليه، وليفيدَ أنَّه لا إيمان غيرُ الإيمانِ بالله وحده المعروف المعهود في الأذهانِ؛ لما تدلُّ عليه جملة الصِّلة من كونِها معلومة الانتساب عند المخاطَبين، وأنَّه إنْ وُجِدَ غيرُ هذا الإيمان المعهودِ فهو عدمٌ بالنِّسبة إليه[1]، كما أفادَ الحذفُ العمومَ، والمعنى: آمَنُوا باللهِ ومَلائِكَته وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وصدَّقوا بجميع ما أخبرَ به الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ وبجميعِ ما دعا إليه[2]، ومثلُه ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ فقد أفادَ عمومَ ما يُهجَرُ في سبيلِ الله، أي: هجروا جميع ما تحبُّه أنفسُهم وتهواه، وتميلُ إليه القلوبُ، ويدخل فيه هجرةُ الأوطانِ وتركُ الأقاربِ دخولًا أوَّليًّا.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ:

مناسبةُ كلِّ آيةٍ نظمَها وسياقَها في التَّقديم والتَّأخير

جاء في سورة الأنفال تقديمُ آلات الجهاد على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 72]، وقال هنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، فقدَّم بيانَ السَّبب ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذِكر آلاتِ الجهادِ، وبيانُه: أنَّه لمّا كان الكلامُ في سورة الأنفال على النَّفل والفيءِ، وجاء فيها إنكارُ الله تعالى على من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/319.

يريد عرضَ الدُّنيا من المالِ والدَّعة والرَّاحة على الآخرة؛ ناسب تقدُّمَ الأموال والأنفس في آية الأنفال، بخلاف سورة التَّوبة التي أبطلَ اللّه فيها ما أتى به المشرِكون من عِمارةِ المسجدِ الحرام، وسِقايةِ الحاجِّ من المقامِ على الكُفْر، فإنَّ سقايتَهم الحاجَّ وعمارتهم المسجدَ الحرامَ كانت للتَّفاخر، وليست في سبيل اللّه، فكان المندوبُ إليه في آية التَّوبة بعدَ الإيمان باللّهِ الجهادَ في سَبيلِ اللّه، ثم ذكرَ تفصيلَ الأمر بذكر آلاتِ الجهاد، فقال سبحانه بَعْده مادحًا لِمَن تلقَّى بالطاعةِ أَمْرَه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، فناسبَ كلَّ آيةٍ ما ذُكِر، ولم يُناسِب العَكْس[1].

ويقالُ أيضًا: الأصل أن يُقدَّم ذِكرُ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذكرِ آلاتِ الجهادِ، فالإخلاصُ شرطٌ في القبول، ولمّا كان المقصودُ في سُورةِ الأنفالِ مع المِدْحةِ تعظيمَ الواقعِ منهم من الإيمانِ والهجرةِ، والجِهادِ بالأموالِ والأنفسِ، وتَغبيطَهم بما مَنَّ اللّهُ عليهم به مِن ذلك، وتفخيمَ فِعْلِهم المُوجِبِ لموالاةِ بعضِهم بعضًا؛ قُدِّم ذِكْرُ الأموالِ والأَنفُسِ؛ للاهتمامِ بها والعنايةِ بشأنِها؛ فإنَّهم بادَروا بها على حُبِّها، وشُحِّ الطِّباعِ بها، وليس تأخيرُ هذا المجرورِ كتقديمِه؛ لأنَّه إنَّما يُقدَّمُ حيثُ يُقصَدُ اعتناءٌ وتخصيصٌ وتنبيهٌ على مَوقعِه؛ فإنَّما قُدِّمَ هذا تغبيطًا لهم، وإعظامًا لفِعلهم، أمَّا آيةُ سُورةِ التَّوبةِ؛ فقد جاء على الأصلِ؛ لأنَّه تعريفٌ بأمرٍ قدْ وقَع، مبنيٌّ على التَّعريفِ بالمُفاضَلةِ بين سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المسجدِ الحرام، وبَين مَن آمَن، وهاجَرَ، وجاهَدَ في سبيلِ اللّه بمالِه ونَفْسه؛ بقَصْد رَدِّ مَن ظنَّ أنَّ السِّقايةَ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ أفضلُ، وعَرَف أنَّ الإيمانَ، وما ذُكِر معه أعظمُ درجةً عند اللّه، فلم يَعرِضْ في آيةِ التَّوبة داعٍ إلى تَقديم ما قُدِّم في آيةِ الأنفال، فوَجَب بمقتضى اللِّسانِ أنْ يُقدَّم في آيةِ الأنفال قولُه: بِـ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 72]، ويُؤخَّرَ في سورة التَّوبةِ؛ ليناسبَ ما ذُكِر، وبذلك ظَهَر وجهُ تَخصيصِ ما وَقَع في كلٍّ من السُّورتَين بموضعه[2].

وقيلَ: لمّا كانت آيةُ الأنفال أوائلَ الأمر بعد وقعةِ بدر في السَّنة الثَّانية من الهجرة، وكان الحالُ إذ ذاك شديدًا جدًّا، والأموالُ في غاية القلَّة، والأعداء لا يُحصَون، ناسبَ تقديمُ المالِ والنَّفس للاهتمامِ بشأنِهما ترغيبًا في بذلهما، وأمَّا سورةُ التَّوبة؛ فنزلت في

---

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/696 - 698.

(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/225.

غزوة تبوك في أواخر سنة تسع، فكان المال قد اتَّسع، والدِّينُ قد عزَّ وضخم وقوي وعظم، وأسلم غالبُ الناس، فبعدت مواضع الجهاد، فعظمت المشقَّة، وتواكلَ النَّاس بعضهم على بعض، ورغبوا في الإقبال على إصلاح الأموال، فناسب بداءةُ في آية التَّوبةِ بالسَّبيل(1).

دلالةُ ﴿فِي﴾ بين السّببيّة والظرفيّة:

الجهادُ لا يكونُ مقبولًا إلَّا إذا كـانَ في سبيلِ الله

قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿فِي﴾ سببيَّة؛ لبيانِ سببِ جهادِهم، والمعنى: جاهدوا من أجلِ سبيلِ الله حتَّى لا يصدَّ عنه صادٌّ، فتظهرَ محاسنُه، ويسهلَ المرور فيه من غيرِ قاطع، ولعلَّه عَبّر بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة إعلامًا بأنَّه ينبغي أن يكون المجاهدُ متمكِّنًا مِنَ السَّبيل تمكُّنَ المظروفِ من ظرفه، حتَّى يكونَ الدِّينُ غالبًا عليه، لا يخرجُ عنه بوجهٍ من الوجوه(2).

دلالةُ الإضافةِ:

كـلّ ما يضاف إلى الجليل فهو جليل

في قولهِ تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الإضافةُ على معنى اللَّام؛ لتفيدَ تخصيصَ السَّبيلِ، أي: هو سبيلٌ لله لا لغيرِه، وفيه تشريفٌ للسَّبيلِ وتعظيمٌ له بإضافتِه إلى الاسم الجليل.

مناسبةُ تقديمِ الأموال على الأنفس:

الجهادُ بالمالِ أخفُّ على النُّفوسِ مِنَ الجهادِ بالنَّفسِ، والمالُ أوَّلُ آلاتِ الجهادِ

في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، قَدَّمَ ذكرَ الأموال على الأنفسِ في كلِّ المواضع التي ورد فيها ذكرُ الجهادِ بالأموالِ والأنفس لأسبابٍ، منها: أنَّ الأموالَ كانت في غايةِ العزَّةِ في أوَّلِ الأمرِ، وأنَّ الجهادَ بالمالِ أخفُّ على النُّفوسِ مِن الجهادِ بالنَّفس، فسلَك في ذلك مسلكَ الترقِّي مِن الأدنَى إلى الأعلَى، وأنَّ من بذلَ مالَه في سبيل اللهِ كلَّه؛ لم يبخَلْ بنفسِه؛ لأنَّ المالَ قِوامُها، كما أنَّ الأموالَ هي التي يُبدأُ بها في الإنفاقِ، والتجهُّزِ إلى الجهادِ، فرتَّب الأمرَ كما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337 - 338.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

هو نفسُه، وأيضًا ضرورةُ الجهادِ بالمالِ أكثرُ مِن ضرورتِها بالنَّفسِ، حتى إنَّ الذي يجاهدُ بنفسِه محتاجٌ إلى المالِ، فما الذي يُوصلهُ إلى ميدانِ القتالِ إلَّا الأموالُ[1]؟

تعظيمُ الدَّرجةِ يدلُّ على علوِّ الرُّتبةِ وفخامتِها، وكثرةِ ثوابِها عندَ الله

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَعۡظَمُ﴾:

وصفُ الأعظم يكون من جهاتٍ متنوِّعةٍ، منها: أنَّ درجتَهم أعلى رتبةً وارتفاعًا، وأنَّها أوفى فخامةً وأكثر كرامةً ممَّن لم يتَّصف بها كائنًا مَنْ كان، وإن حاز جميعَ ما عداها من الكمالات التي من جملتها السِّقايةُ والعمارة[2].

ارتقاءُ الدَّرجاتِ عندَ اللهِ، بمحاسنِ الأعمالِ وصلاحِها

بلاغةُ الاستعارة:

قوله: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، لمّا كانت حقيقةُ الدَّرجةِ أنَّها جزءٌ من مكانٍ يكون أعلى من جزءٍ آخرَ متَّصلٍ به، بحيثُ تتخطَّى القدمُ إليه بارتقاءٍ من المكان الذي كانت عليه بصعودٍ؛ كان التَّعبيرُ بلفظِ ﴿دَرَجَةً﴾ عن الرِّفعةِ والمكانةِ العالية على سبيل الاستعارة المكنيَّة؛ إذ شبَّه المزيَّة في علوِّ الفضلِ ووفرةِ الثَّواب بدرجة السُّلَّم المرتفعة الثَّابتة والتي تكون لأهلِ الشَّأن؛ ونكتةُ التَّعبير بالاستعارة هنا الإشعار بأنَّهم ارتقوا في درجتهم، وصعدوا إليها بما قدَّموه في سَيْرِهم من المحاسن والأعمالِ الفاضلةِ[3].

دلالةُ تنكيرِ ﴿دَرَجَةً﴾:

أفادَ التَّنكيرُ هنا تعظيمَ الدَّرجة وتفخيمها فالدّرجة عند الله مقام ورفعة.

فائدةُ وضعِ الظَّاهر موضع المضمر:

كان الظَّاهر أن يقول: (وجاهدوا في سبيل الله بأموالِهم

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/153، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/327، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/319، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/264.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/401.

وأنفسهم أعظم درجة عنده)، لكنَّه كرَّر الاسمَ الجليل مع قربِ ذكرِه، فقال: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾؛ ليكون على خلافِ مقتضى الظَّاهر، لِما يفيدُه تكرير الاسمِ الجليل من مزيدِ ترغيبٍ في تحصيلِ هذه الصِّفاتِ لخطر المقام وصعوبة المرام، ولِمزيدِ مهابةٍ في تعظيم الدَّرجةِ[1].

تعظيمُ الدَّرجة بتعليقِها بالاسم الجليل، زيادةً في المهابةِ

سببُ عدمِ ذِكْرِ الطَّرف المرجوح، في آية أعظميّة الدّرجة:

لم يقلِ اللّه تعالى: (أولئك أعظم درجةً من المشتغلين بالسِّقاية والعمارة) مثلًا؛ لأنَّه لو خصَّصَ المتعلَّق فعيَّن ذكرهم؛ لأوهَمَ أنَّ فضيلتَهم إنَّما حصلت بالنِّسبة إلى الطَّرفِ الآخر، فكانت الفضيلةُ مخصوصةً، ولمَّا ترك ذِكْرَ المرجوح، دلَّ ذلك على عموم المتعلَّق، فأفادَ أنَّهم أفضلُ من كلٍّ من سواهم على الإطلاق، لأنَّه لا يعقل حصولُ سعادةٍ وفضيلةٍ للإنسان أعلى وأكملَ من هذا الصِّفاتِ[2]، كما أنَّه ليس للكافرين درجة عند اللّه حتى يقالَ: المؤمنُ أعظم درجةً من الكافر عندَ اللّه، فيكون ذِكْرُ الدَّرجة على طريق أنَّهم أوهموا أنفسَهم بأنَّ لهم درجةً بالعمارةِ والسَّقي، فخاطبهم على ما قدَّروه في أنفسهم، ليكونَ الكلامُ أوقعَ حجَّةً على الكافرين وأروحَ لنفوسِ المؤمنين، ويحتمل أن يكون التَّفضيل بين المؤمنين أنفسِهم، ويكُونُ التَّقديرُ: أولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يُهَاجِرُوا، وَلَمْ يُجَاهِدُوا، ويحتمل كذلك أن تكونَ صيغةُ ﴿أَعۡظَمُ﴾ ليست على بابها من التَّفضيل، فكأنَّه قال: عظيمو الدَّرَجَةِ[3]، ويكون نكتةُ التَّعبير بصيغة أفعل التَّفضيل هي بيانَ أنَّ هذه الدَّرجَةَ لا مرتبةَ فوقَها ولا مزيَّةَ بعدها.

أعظمُ سعادةٍ للإنسانِ، الاتِّصاف بالإيمانِ والهجرةِ والجهادِ في سبيل الله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/418.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/14.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/389.

فائدةُ الظَّرف في المركّب الإضافي:

قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، لمّا كان (عندَ) ظرفًا للقربِ؛ أفادَ أنَّ الدَّرجة العظيمة الرفيعة في مكانتِها هي درجةُ قربٍ من اللّه، كما أفادت إضافة الظَّرف إلى الاسم الجليل رفعةَ هذه الدَّرجة القريبةِ، وأنَّها عند اللّه بمقامِ الرِّضا والتَّشريف بسبب الإضافة التي تفيد التَّخصيص أيضًا(1).

الـدَّرجـة العظيمة هي درجة قربٍ عندَ اللـه، وهـي في مـقـامِ الـرِّضا والتَّشريفِ

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

أفادَ اسم الإشارةِ أنَّهم استحقُّوا الفوزَ لأجل تلك الأوصافِ التي ميَّزتهم أكملَ تمييزٍ، وهي الإيمانُ والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس، كما نبَّه مجيءُ اسمِ الإشارةِ الَّذي للبعيدِ على بُعدِ منزلتِهم في الرِّفعةِ والمكانةِ وعلوِّها بما اتَّصفوا به مِنَ الخِصالِ الجميلةِ(2).

علوُّ مكانةِ المتَّصفين بالأوصاف النَّبيلةِ

دلالةُ ضميرِ الفصل ﴿هُمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أفادَ ضميرُ الفصلِ تأكيدَ معنى المسندِ إليه وتقريرَه، وليفيدَ كذلك تأكيدَ قصرِ المسندِ على المسندِ إليه كما تقدَّم.

تأكيد الفوز بضمير الفصل، ضمان ممّن بيده الفصل

بلاغةُ الحصرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، لمّا جاء المسندُ والمسند إليه معرفتين وتوسَّطهما ضميرُ الفصلِ؛ كان الكلامُ على أسلوبِ الحصرِ، لِتقرير المعنى وتمكينِه في الذِّهن، وأفاد الأسلوبُ قصرَ وصفِ ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وتخصيصَه بـ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفين بالإيمان والهجرة والجهادِ في سبيل اللّه، وفي هذا القصرِ وجهان: أحدُهما أن يكونَ بالنَّظر إلى المؤمنين، فيكونَ المرادُ كمالَ الفوز، فإنَّه لمّا كان بعضُ المؤمنين لم يتسنَّ لهم الهجرةُ والجهاد؛ دلَّ على أنَّ القصر

إنَّما الفوزُ للمؤمنين ولا فوزَ للمشركين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/148.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/149.

هنا من قصرِ الكمال، والمعنى: أولئك هم الكاملون في الفوز، وهو على هذا الوجه قصرُ إفرادٍ؛ بمعنى: يزيل شِرْكةَ فريقِ المؤمنين الذين لم يهاجروا، ولم يجاهدوا في سبيل اللّه من كمالِ الفوز، والوجه الثاني: أن يكون بالقياسِ إلى المشركين، بأنْ تكونَ المفاضلةُ وقعت بين من لم يُؤمن باللّه وبين من آمن باللّه، فيكونَ قصرًا إضافيًّا، والمعنى: أولئك هم الفائزون دونَ المشركين، والقصر على هذا الوجه إمَّا أن يكون قصرَ قلبٍ؛ ليفيدَ قلبَ ما توهَّمه المشركون من أنَّهم هم الفائزون دونَ غيرِهم لما قاموا به من سقاية الحاجِّ وعمارة المسجدِ الحرام، فيكون المعنى: أولئك هم الفائزون لا أنتم، وإمَّا أن يكون قصرَ إفرادٍ إنْ كان المشركون يظنُّون أنَّهم شاركوا المؤمنين في أعمالِ البِرِّ، وأنَّهم فائزون أيضًا بهذا العمل، فيكون معنى القصر: أولئك هم الفائزون دونكم أيُّها المشركون، والمراد من الفوز على هذا الوجهِ مطلقُه، ويحتمل أن يكون القصر ادِّعائيًّا للمبالغة في عظم فوزهم، حتى إنَّ فوزَ غيرهم بالنِّسبةِ إلى فوزهم يُعدُّ كالمعدومِ، وعلى جميعِ وجوهِ القصرِ لا فوز للمشركينَ أصلًا[1].

دلالةُ صيغة اسم الفاعل في لفظ: ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بصيغةِ اسم الفاعل أنَّهم متَّصفون بالفوز، حتَّى صارَ سجيَّةً لهم، كما دلَّت الصِّيغةُ على دوامِ اتِّصافِهم به؛ ليفيدَ دوامَ مدحهم والثَّناء عليهم.

من وصفه الله بالفوز، صار له سجيّةً، واتّصل به وصفُه

نكتةُ حذفِ متعلَّق اسم الفاعل:

لمّا كان الأصلُ أنْ يكونَ لفظُ الفوزِ له متعلَّقٌ يبيِّن المحصَّلَ بالفوز، وكانَ محذوفًا هنا؛ دلَّ على عمومِ المتعلَّق بمعنى عموم فوزِهم، ويؤيِّده مجيءُ (أل) الاستغراقيَّة التي تفيدُ نيلَهم كلَّ ما يرغبون

الـفـائـزونَ هـمُ الظَّافرونَ بنعيمِ اللهِ، والنَّاجونَ مـن عـذابِـهِ في الدُّنيا والآخرة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/256، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/670، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/183، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/148.

فيه ونجاتَهم من كلِّ مهلكةٍ يتوقَّعونها، أي: هم الظَّافرون بنعيم اللّه وكرامته، والناجون من عذاب اللّه ونقمته، كما يفيد اللَّفظُ عمومَ الزَّمانِ كذلك، أي: هم الفائزون بالخيرِ في الدُّنيا والآخرة[1].

سببُ اختيار لفظ ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ خبرًا:

طلبُ الفوزِ عندَ الله أهمُّ عند المؤمنين من طلبِ راحةِ النَّفس وكثرةِ المالِ

لَمَّا كانتِ النَّفسُ والمالُ محبوبَ الإنسان، والإنسانُ لا يُعرِضُ عن محبوبِه إلَّا لنيلِ ما هو أفضلُ وأعظمُ؛ دلَّ على أنَّ طلبَ الفوزِ أتمُّ عندهم من النَّفس والمالِ، وأنَّهم عالمون بموضعِ الفوزِ عارفونَ به[2].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/320، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/17، والبقاعي، نظم الدّرر: 8/418.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13.

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ [التوبة: 21 - 22]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقة بينَ العدل في الجزاء، والبشارة بالرَّحمة والرِّضوان، وعظيمِ العطاء

لـمَّا بَيَّنَ اللّهُ ﷻ جزاءَ أهلِ الإيمانِ المهاجِرينَ المجاهدينَ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [التوبة: 20]؛ فَسَّر تعالى فَوْزَهُمْ وأوضحَهُ بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[1]، فهو سوف يشملهم برحمته، ويخصُّهم برضوانه، ويُدخلهم جنَّاته، خالدين فيها على الأبد، لأنَّ اللّه عنده الأجر العظيم، الذي لا نهاية لمداه[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبَشِّرُهُمۡ﴾: (الباءُ والشِّين والرَّاء): تدور اشتقاقاتُها على مَعْنَى ظُهورِ الشَّيءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمال[3]، والفِعْلُ ﴿يُبَشِّرُهُمۡ﴾: فِعْلٌ مضارِعٌ، مِنَ البِشارةِ - بكَسْرِ الباء -، وهي: كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغيَّر بَشرةُ الوجهِ به، وبِناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُستعْمَلُ في الخَيْرِ والشَّرِّ، إلَّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ البِشارةَ هي الخَبَرُ السَّارُّ وحدَهُ، واستعمالُه في غيرِه هو ضربٌ مِن ضُروبِ التَّهكُّم[4]، والبِشارَةُ في قوله ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾، مُسْتَعْمَلَةٌ في الخَيْرِ قَطْعًا؛ بِقَرينَةِ السِّياقِ واللَّحاقِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/418.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/418، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 261 (بتصرّف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).
(4) الشَّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 78.

2) ﴿وَرِضۡوَٰنٍ﴾: (الرَّاءُ والضَّادُ والحرفُ المعتلُّ): تدلُّ تصاريفُهُ على ضِدِّ السُّخْطِ[1]، ومنه الرِّضا: خلافُ السُّخْطِ، والرِّضا مِنَ اللّهِ سبحانَه صفةٌ فعليَّةٌ حقيقيَّةٌ، تتعلَّقُ بمشيئَتِهُ تعالى، والثَّوابُ دليلٌ على ثُبوتِ الرِّضا، وليس هو عَيْنَهُ[2]، و"يقال في لغة: رجلٌ مرضوٌّ عنه؛ لأنَّ الرِّضا في الأصل مِن بنات الواو، وشاهدُه الرِّضوان، وهو اسم موضوع مِنَ الرِّضا، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: 27]"[3]، والرِّضْوانُ - بكسر الرَّاءِ وضَمِّها - هو الرِّضا الكَثيرُ، وهو المرادُ في قول اللّه تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾، ولـمَّا كانَ أَعْظَمُ الرِّضا رِضا اللّهِ ﷻ؛ خُصَّ الرِّضْوانُ في القُرْآنِ الكريمِ بما كان منه سبحانَه[4].

3) ﴿نَعِيمٌ﴾: (النُّون والعَيْنُ والميمُ): تَدورُ تصريفاتُها على ترفُّهٍ وطِيْبِ عَيْشٍ وصلاحٍ[5]، ومنه النَّعْمَةُ: وهو ما يترفَّهُ به الإنْسان مِن مأكلٍ أو مَشْرَبٍ أو مَلْبَسٍ[6]، والنِّعْمَة: اليد والصَّنيعة والمنَّة، وما أُنْعِمَ به عليك[7]، "يقال: فلان واسع النِّعْمَة، أي: واسع المال، كما في الصّحاح. قال الرَّازيُّ: النِّعْمَة: المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير"[8]، والنَّعيمُ: الخَفْضُ والدَّعَةُ[9]، ويُرادُ به: النِّعْمَةُ الكَثيرَةُ[10]، وهو المرادُ في قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾.

4) ﴿مُّقِيمٌ﴾: (القافُ والواوُ والميمُ): تدلُّ اشتقاقاتُها علَى انْتِصابِ شَيْءٍ إلى أَعْلَى على وجْهِ الثُّبوتِ، ومنه: قامَةُ الإِنسانِ وقيامُهُ[11]، ويُطْلَقُ الـمُقيمُ على الأَمْرِ الدَّائِمِ الـمُسْتَمِرِّ[12]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رضي).
(2) حصَّة بنتُ عبد العزيز الصَّغير، إفراد أحاديث أسماء الله وصفاته: 3/282.
(3) الخليل، العين: 7/57.
(4) الرَّاغب، المفردات: (رضي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نعم).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نعم).
(7) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نعم).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (نعم).
(9) الخليل، العين: (نعم).
(10) الرَّاغب، المفردات: (نعم).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قوم).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/150.

ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾؛ فإنَّ معناهُ: الدَّائمُ الذي لا يزولُ ولا يَبْرَحُ[1]، قال الشَّاعر في جبلٍ يُسَمَّى عَسيبًا، وفيه كناية عنِ الثُّبوت والانتصاب، وعدمِ التَّحوُّل:

أَجارَتَنا إِنَّ الخُطُوبَ تَنُوبُ *** وإنِّي مُقِيمٌ ما أَقَامَ عَسِيبُ[2]

5) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: (الخاءُ واللَّامُ والدَّالُ): تدلُّ تَصريفاتُها على الثَّبات والمُلازَمَةِ[3]، ومنه الخُلْدُ والخلودُ، وهو البَقاء والدَّوام، وهو في الأَصْلِ: المُكْثُ الطَّويل، ولا يَلزَمُ منه الدَّوامُ، ولذا يُقيَّدُ في مواضِعَ بِالتَّأبيدِ، مِن بابِ التَّمييز لا التَّأْكيد[4]، كالوارد في قوله سبحانَه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [النّساء: 57]، والخُلْد: مِن أسماء الجِنان، والخُلود: البقاء فيها، وهم فيها خالدون ومخَلَّدون[5]، ودارُ الخُلْد: دار الإقامة، وقد خَلَدَ يَخْلُد خُلْدًا وخُلودًا، فهو خالدٌ: إذا أقام فلم يَبْرَحْ[6]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ [الواقعة: 17]، معناه: باقون، دائِمٌ شبابُهم، لا يَتغيَّرون عن تلك السِّنِّ[7].

6) ﴿أَجۡرٌ﴾: (الهَمْزَةُ والجيم والرَّاءُ): تدورُ تَصاريفُها على معنى: الكِراء على العَمَل، وجَبْرِ العَظْم الكَسيرِ، وبينَ هذَين المَعْنَيَيْن نِظامٌ يَجْمَعُهما؛ وذلكَ أنَّ الأُجرةَ بمنزلة الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُ العاملِ، مقابِلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهْدٍ في عَمَلِه[8]، والأَجْرُ: ما يعود مِن ثواب العملِ دُنيَويًّا كان أو أُخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلَّا في النَّفْعِ دونَ الضُّرِّ[9]، والأَجْرُ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، هو ثَوابُ العملِ الأُخرويُّ.

المَعْنى الإجماليُّ:

يُبَشِّرُ اللّهُ تعالى هؤلاءِ الذينَ آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سَبيلِه، أنَّهُ قَدْ رَحِمَهُمْ رحمةً

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/340.
(2) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللُّغة: (عسب)، والبيت لامرئ القيس بن حجر، وقد ورد هذا البيت مع بيتٍ ثانٍ لامرئ القيس، ينظر: ديوان امرئ القيس، ص: 357، والأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/175.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلِّيَّات، ص: 434، وابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 257، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/265.
(5) الخليل، العين: (خلد).
(6) كُرَاع النَّمل، المُنَجَّد في اللُّغة، ص: 78.
(7) الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 2/83.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(9) الرَّاغب، المفردات: (أجر).

واسعةً، وأنَّه قد رَضيَ عَنْهُمْ رِضوانًا لا سخطَ بعْدَهُ، بسببِ طاعَتِهم إيَّاهُ، ويُبشِّرُهُمْ - أيضًا - بجنَّاتٍ فيها نعيمٌ عظيمٌ لا يَزولُ ولا يَبيدُ، وهُمْ ماكِثونَ في هذه الجِنانِ مُكوثًا دائمًا لا نهايةَ لَهُ، إنَّ اللهَ سبحانَه عِنْدَهُ لهؤلاءِ المؤمنينَ ثَوابٌ جزيلٌ عظيمٌ في الآخِرَةِ(1).

مَنْ قدَّم مرضاةَ اللهِ في دنياه، نـالَ البُـشرى بالنَّعيمِ الخالدِ في أُخراه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ عمَّا قبلَه:

عظيمُ عِنايَةِ اللهِ سبحانَه بعبادِهِ المؤمنينَ، تُحيطُ بهم في كلِّ حين

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه بيانًا لَهُ، وذلك أنَّ اللهَ تعالى لـمَّا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [التّوبة: 20]؛ بيَّنَ في الآيةِ بعدَها تلك الدَّرجةَ العظيمَةَ، وهي عنايَتُهُ سبحانَه بعبادِه، بإدخالِ السُّرورِ عليهم، وتحقيقِ فوزِهم، وإحلالِه رَحْمَتَهُ بِهِم، ورِضْوانَهُ عَلَيْهِم، وما أعدَّ لَهُمْ مِنَ النَّعيمِ الذي لا انقطاعَ فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، وعلى هذا يكون بينَ الجُمْلَتينِ كمالُ الاتِّصالِ؛ ولوقوعِ هذه الجملة بيانًا للجملةِ التي قبلَها(2).

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفعل المضارِع:

تَجَدُّدُ الخَيْراتِ وتعاقُبُ المَسَرَّاتِ على أهْلِ الإيمانِ في الآخِرَةِ

وقعَ التَّعبيرُ عنِ التَّبشيرِ ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بصيغَةِ المضارِعِ، مِن قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ، وذلك مشْعِرٌ بتجدُّدِ الخَيْراتِ وتعاقُبِ المسرَّاتِ عليهم؛ إذْ إنَّ تجدُّدَ البشارَةِ دالٌّ على أنَّ ما يُبشَّرونَ بِه أمرٌ لَمْ يكُنْ معلومًا لهُمْ، وإلَّا لكانَ الإخبارُ به من بابِ تحصيلِ الحاصلِ(3)، وهو تعالى "يخبرهم بالنِّهايةِ السَّارَّةِ التي سوف يصلون إليها، ليتحمَّلوا مَشَقَّةَ التَّكاليف

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/174 - 175، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/149.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/149.

التي يأمرهم بها المنهجُ"[1]، وهذه المسألة تُعَجِّل بها البشارةُ وتتجدَّد؛ لتطمَئِنَّ قلوبُ المؤمنين على مصائرهم، فتتوالى لهم البُشْرى في الحياة الدُّنيا ويومَ يقوم الأشهاد، وهذا لطفٌ مِنَ اللّه، وكَرَمٌ منه على عباده الصَّالحين.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالبِشارَةِ:

البِشارَةُ مِنَ الله عطاءٌ لا ينتهي، وجزاءٌ لا ينقضي

التَّعْبيرُ بالبِشارَةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾ دونَ الإخبارِ بعينها وتحديدِ معالمها، معَ أنَّ ما وُعِدُوهُ قد عَرَفوه في الدُّنيا مِنَ القُرْآنِ الكريم، وممَّا أخبرَهُمْ به رسولُ اللّهِ ﷺ؛ لِكَوْنِ البِشاراتِ التي عَلِموها كانت على جِهَةِ الإجمالِ، وما كان منها مُفَصَّلًا لَمْ يكُنْ مُسْتَوعِبًا لجميعِ ما يُعْطَوْنَهُ في الجنَّةِ، فقد قال النَّبيُّ ﷺ فيما يرْويه عن ربِّه ﷻ: «أَعْدَدْتُ لِعِبادي الصَّالِحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ»[2]، فيكونُ التَّبشيرُ الوارِدُ في الآيةِ، إنَّما هو الإخبارُ بحصولِ مرتبَةٍ مِن مراتبِ السَّعاداتِ التي لَمْ يَعرِفوها قَبْلُ، والبِشارَةُ عَن أُمورٍ لا تَصِلُ العقولُ إلى وصفِها، وفي هذا: إشعارٌ بعظيمِ جزائِهِم عند اللّهِ تعالى[3].

توجيه قراءة: (يَبْشُرُهُم)، وأثرُها في المعنى:

خِفَّةُ البِشارَةِ وفَجأَتُها، مُتلائِمٌ مع وَقْعِها في النُّفوس

قرأ حمزةُ: (يَبْشُرُهُم) بفتح الياء، وضَمِّ الشِّين[4]، من بَشَر يَبْشُر، أي: أخبرهم بما يَسُرُّهم، وفاجأَهُم بما أَعَدَّه لهم، ممَّا لم يخطُر لهم على بال؛ وتخفيفُ الفعلِ هنا - وإن كان لغةً من لُغات العرب - يُشير إلى اختصاصهم بتلك البِشارَة، المشتملة على المفاجأة، والتَّضْعيفُ في (يُبَشِّر) مِنَ التَّضْعيفِ الدَّالِّ على التَّكْثير، فيما قال بعضُهم، ولا يَتَأَتَّى التَّكْثيرُ فيه إلَّا بالنِّسْبَةِ إلى المفاعِيلِ؛ لأنَّ البِشارَةَ أَوَّلُ خَبَرٍ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/4972.
(2) رواه البخاريُّ في صحيحه، برقم: 3244، ومسلم في صحيحه، برقم: 2824.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/16.
(4) ابن مجاهد، السَّبعة: ص 205، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/239.

يَسُرُّ أو يُحْزِنُ على المختارِ، ولا يَتَأَتَّى التَّكْثِيرُ فيه بالنِّسْبَةِ إلى المفعولِ الوَاحِدِ؛ فبالنِّسْبَةِ إليهِ يكُونُ فِعْلٌ فيه مُغْنِيًا عن فِعْلٍ؛ لأنَّ الذي يَنْطِقُ به مُشَدَّدًا غيرُ العربِ الذينَ يَنْطِقُونَ به مُخففًا[1].

دلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الرُّبوبيَّة:

عِنايَةُ اللهِ تعالى ورِعايَتُهُ لِأَهْلِ الإيمانِ، تربيةً لهم وإنعام

جاءَ التَّعبيرُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ باسم الرَّبِّ؛ وفيه مِنَ اللَّطافَةِ شَيءٌ عظيمٌ، وذلك أنَّ اسْمَ الرَّبِّ مُشتقٌّ مِنَ التَّربيَةِ، ومعناها يرجِعُ إلى تدبيرِ المربوبِ والرِّفْقِ به واللُّطْفِ، فكأنَّهُ قال: إنَّ الذي اعْتَنَى بكُمْ، وربَّاكُم في الدُّنيا بالنِّعَمِ التي لا حدَّ لها ولا حصْرَ؛ يُبشِّرُكم بخيراتٍ عظيمةٍ، وسعاداتٍ غيرِ متناهيةٍ[2].

دِلالَةُ الإضافَةِ في لفظ ﴿رَبُّهُم﴾:

تَشْريفُ اللهِ تعالى لِأَهْلِ الإيمانِ، بما حباهم مِن رحمة ورضوان

أُضِيفَ اسْمُ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى المؤمنين، في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾؛ لإرادَةِ تشريفِهِمْ وتكريمِهِم، ففي الإضافة تشريفٌ للمضاف إليه، وهو يقول في هذا المضمار، مُذَكِّرًا بما أنعم عليهم: "وهؤلاءِ يبشِّرهم اللّهُ تعالى برحمته الواسعة التي تشملهم، ويخصُّهم برضاه، وهو أكبر جزاء، وسيدخلهم يوم القيامة جنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ قائمٌ ثابتٌ دائم"[3].

نُكْتَةُ تقديمِ ذِكْرِ المؤمنينَ على ذِكْرِ اللهِ تعالى:

إظهارُ كَرامَةِ أهلِ الإيمانِ، وبيانُ مكانتِهم المرموقة عند الرَّحمن

نُظِمَتِ الآيَةُ الكريمةُ على وجْهٍ قُدِّمَ فيها ذِكْرُ المؤمنينَ على ذِكْرِ اللّهِ تعالى، فقال سبحانَه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾، دونَ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ربُّهُم يُبَشِّرُهُم)، وفي ذلك مزيدُ إظهارِ كرامَةِ أهلِ الإيمانِ عند اللّهِ ﷻ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/180.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/16، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/263، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/149.

(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيَّة: 10/13.

(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/16.

إيثار التَّعبير بلفظ (رحمة)، ومناسبتُه للسِّياق:

أُوثِرَ التَّعبير بالرَّحمة في قوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾، للدّلالة على طمأنَة قلوبِهم بأعظمِ نعمةٍ، وأنسبِ مكافأةٍ، فيها سكنُهُم وإصلاحُ بالهم، جزاءَ إيمانهم وهِجْرتهم وجهادهم في سبيل اللّه، ورحْمَتُه بعبده: أَن يزيلَ عن قَلْبِهِ الالْتِفاتَ إلى غير هذه الحالة، ويجعلَه راضيًا بِقَضائِه[1]؛ لأنَّ الرَّحمة ضِدُّ الشَّقاء، وهي وحدَها نعمةٌ؛ لأنَّ الخروج مِنَ الضَّلال إلى الهدى، والشّعورَ بالحقِّ، وأنَّه اهتَدَى إليه وخرجَ مِنَ الضَّلال إلى نُور الهداية، هو وحدَه رحمةٌ ونعمةٌ، فأوَّلُ جزاءٍ للمؤمن ما يأخذه مِنَ الإيمان نفسِه، فيَشعرُ باستقرارٍ لَا اضطرابَ فيه[2].

البُشرى بالرَّحمة كَقَطْر النَّدى على الزَّهْرة الظَّمأى

سِرُّ تَنْكيرِ لفظ (رَحْمَةٍ):

نُكِّرَ لَفْظُ (رَحْمَة) مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾؛ لإظْهارِ عَظَمَتِها[3]، والمَعْنَى: يُبشِّرُهُمْ ربُّهُمْ برحمةٍ لا يبلُغُها وصفُ واصفٍ، وزادَها تعظيمًا بيانُ مصدَرِها، وأنَّها رحمَةٌ من عِنْدِه[4]، فقال سبحانَه: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾، وناهيكَ برحْمَةٍ صادِرَةٍ مِن ربِّ العِزَّةِ والجَلالِ!.

عَظَمَةُ الرَّبِّ ﷻ وعَظَمَةُ أوْصافِهِ، دلائلُ على هَيْمَنَتِه وكمالِه

و"هؤلاءِ الذين جمعوا الصّفاتِ الحميدةَ، يبشِّرهم اللّهُ تعالى برحمته الواسعة التي تشملهم، ورضوانٍ كامل مِن لدنْه، وهو أكبر جزاءٍ، وسيُدخلهم يومَ القيامة جنَّاتٍ، لهم فيها نعيمٌ ثابتٌ دائم"[5].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ (رِضْوانٍ):

نُكِّرَ (رِضْوان) مِن قول اللّه ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾، للدّلالَةِ على تَفْخيمِه وتعظيمِه، فهو رضْوانٌ عظيمٌ،

رِضْوانُ اللهِ تَعالَى الأسمى، أعْظَمُ مِن كُلِّ ثَوابٍ مادِّيٍّ وأرْضَى

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/16.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3259.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/390.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/418.
(5) إبراهيم القطَّان، تيسير التَّفسير: 2/125.

لا يُدرَكُ كُنْهُهُ، ولا مُنْتَهى لحُسْنِهِ، وذلك لأنَّ الرِّضْوانَ مِنَ اللّهِ سبحانَه أعظمُ مِن كلِّ جزاءٍ مادِّيٍّ، ولذا قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التّوبة: 72](1).

عَظَمَةُ الرِّضا الحاصلِ لأَهْلِ الإيمانِ مِنَ الله في الآخِرَة

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالرِّضْوانِ:

في التَّعبير بالرِّضْوانِ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾ دونَ الرِّضا، دلالَةٌ على عظيم الرِّضا الذي يقَعُ عليهِمْ؛ وذلك أنَّ الرِّضْوانَ: هو الرِّضا الشَّديدُ الكامِلُ، كما تُشْعِرُ بذلك الصِّيغةُ التي بُنِيَت عليها الكَلِمَةُ، فإنَّها تدلُّ على المبالغَةِ، مِثْلُ: العِصْيانِ، وكذا الشُّكْران والغُفْران(2)؛ إذْ في الرِّضْوانِ لغتانِ: كَسْرُ الرَّاءِ (قرأ بها الجمهورُ)، وضَمُّها (قرأ بها شُعبةُ عن عاصمٍ)(3).

الرِّضْوانُ وَصْفٌ خاصٌّ حاصِلٌ لِلْكُمَّلِ مِنَ المُؤْمِنينَ، والرَّحمةُ عامَّةٌ لهم

سِرُّ تقديمِ الرَّحْمَةِ على الرِّضْوانِ:

بُدِئَ بالرَّحْمَةِ قَبْلَ الرِّضْوانِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾؛ لكَوْنِ الرَّحْمةِ الوصفَ الأعَمَّ الحاصِلَ لأهلِ الإيمانِ، والرِّضوانِ الوصفَ الأخَصَّ الحاصِلَ لِلْكُمَّلِ مِنْهُمْ، فكان في ذِكْرِ الرِّضْوانِ بَعْدَ الرَّحْمَةِ تَرَقٍّ بهذا الاعتبارِ.

الجَزاءُ الصَّادِرُ مِنَ اللهِ تعالى بالِغٌ في الفَخامَةِ والعَظَمَةِ مَبْلَغًا لا يُقادَرُ قَدْرُهُ

دلالَةُ تَنْكيرِ (جَنَّاتٍ):

نُكِّرَتْ كلِمَةُ (جنَّاتٍ) مِن قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾؛ لوقوع المبشر به وراء صفةِ الواصف، وتعريفِ المعرِّف(4)، ولإرادَةِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، وذلكَ لقرائنَ ثلاثٍ(5): أوَّلُها: سياقُ الآيةِ الدَّالُّ على عظيمِ المِنَّةِ بالمذكوراتِ. وثانيها: قولُهُ سبحانَه: ﴿مِّنۡهُ﴾؛ فإنَّه مُصرَّحٌ بِهِ مع الرَّحْمَةِ، ومقدَّرٌ مع الرِّضْوانِ والجنَّاتِ، والتَّقديرُ: برحمةٍ منْهُ،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3259.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/149.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/238.
(4) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 1/671.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.

ورضوانٍ منْهُ، وجنَّاتٍ منْهُ، وحسْبُكَ بالجزاءِ الصَّادِرِ منَ اللّهِ ﷻ.
وثالثُها: كَوْنُ الجنَّاتِ مذكورةً في سياقِ الأشياءِ المبشَّرِ بها. فهذه القرائنُ الثَّلاثُ تقتضي أن يكونَ تنكيرُ (جَنّاتٍ) دالًّا على التَّفخيمِ والتَّعظيم.

سِرُّ جَمْعِ (جَنّاتٍ):

تَفاوُتُ الجزاءِ بحسَبِ تَفاوُتِ الأَعْمالِ، يَنمُّ عن سعة عطاء ذي الجلال

جُمِعَتِ الجنَّاتُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾؛ إشعارًا بِكَثْرَتِها وتعدُّدِها؛ فإنَّ في الآخِرةِ جنَّاتٍ متنوِّعَةً بحسبِ أعمالِ العامِلينَ ودَرَجاتِهِم، والجنَّاتُ الموصوفةُ باحتوائها على النَّعيم المقيم، تحوي "مِن كلِّ ما اشتهَتْهُ الأنفسُ، وتَلَذُّ الأعينُ، ممَّا لا يعلم وَصْفَه ومقداره إلَّا اللّهُ تعالى"(1).

دلالَةُ تقديمِ ما حقّه التأخير:

كُلُّ نَعيمٍ آيلٌ إلى الفَناءِ إلَّا نَعيمَ الجَنَّةِ، فَإِنَّهُ باقٍ لا يزول

في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ تقديمُ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ مِن وجهين؛ أحدهما: ﴿لَّهُمۡ﴾، والآخَرُ: ﴿فِيهَا﴾، وذلك أنَّ أصلَ التَّركيبِ: (نعيمٌ مقيمٌ فيها لَهُمْ)، فأمَّا تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُمۡ﴾؛ فَلإرادةِ الحَصرِ والقَصرِ، أي: أنَّ الجنَّاتِ المشْتَمِلَةَ على النَّعيمِ المقيم، خاصَّةٌ بأهلِ الإيمانِ المهاجرين المجاهِدينَ في سبيلِ اللّهِ تعالى، وهذا قصرٌ غيرُ حقيقيٍّ؛ لأنَّ مَن لم يهاجِرْ ويجاهِدْ مِن أهلِ الإيمانِ موعودٌ - أيضًا - بالجنَّة، إلَّا أنَّ درجتَهُ أَدْنَى من درجَةِ المهاجرِ المجاهِد، فكان القصرُ في قولِ اللّهِ جلَّ وعلَا: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ قَصْرًا غيرَ حقيقيٍّ، وصِيغَ جزاؤُهم وثوابُهُمْ بطريقَةِ الحصْرِ؛ للإيماءِ إلى عظيم هذا الثَّواب، واختصاصِهِمْ بأعلاهُ، وأمَّا تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾؛ فَلِقَصْدِ القَصْرِ أيضًا، مِنْ جِهَةِ أنَّ النَّعيمَ الدَّائمَ لا يكونُ إلَّا في الجنَّة، وأمَّا نعيمُ الدُّنيا فآيِلٌ إلى الزَّوالِ، كما قال اللّهُ ﷻ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرَّحمن: 26]، وكما قال لَبِيدُ بنُ ربيعةَ العامريُّ رضي الله عنه:

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللّه باطِلُ *** وكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ[1]

أي: مِنْ نعيمِ الدُّنيا.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿نَعِيمٌ﴾:

خُلوصُ نَعيمِ الجَنَّةِ عن كُلِّ ما يُكَدِّرُ صَفْوَهُ

نُكِّرَ لَفْظُ ﴿نَعِيمٌ﴾، مِن قول اللهِ تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، والمرادُ: لهُمْ في الجنَّةِ نعيمٌ عظيمٌ، فَخْمٌ خالِصٌ عَنْ كُلِّ ما يُكَدِّره[2]، "وهنا يريد الحقُّ ﷻ، أن يلفتنا إلى أنَّ جنَّةَ الآخِرة، ليس فيها مُنغِّصاتُ الدُّنيا، بل هي صفاءٌ واستمتاع، يعطي فيها الحقُّ ﷻ لعبده ما تشتهيه نفسُه، ويُبْعِد عنه جميعَ المنغِّصات، وقد يخاف الإنسانُ ألَّا يدوم مثلُ هذا النَّعيم؛ لذلك يُطَمْئِن الحقُّ العبدَ المؤمن أنَّه ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾"[3].

دلالَةُ وَصْفِ النَّعيمِ بِكَوْنِهِ مُقيمًا:

بِشارَةُ اللهِ تعالى لِأَهْلِ الإيمانِ، بِالنَّعيمِ العَظيمِ الدَّائمِ الامتنان

وُصِفَ النَّعيمُ بِكَوْنِهِ مُقيمًا في قول اللهِ ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، تَطْمينًا لقلوبِ عبادِهِ المؤمنينَ، فإنَّ ما عرفوهُ مِنَ النَّعيمِ الدُّنيَويِّ، صائِرٌ إلى الزَّوالِ، فقَدْ يقَعُ في الوَهْمِ أنَّ نعيمَ الجنَّةِ كذلكَ؛ فدُفِعَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿مُّقِيمٌ﴾؛ للدّلالةِ على دوامِهِ، وعَدَمِ انقطاعِهِ عَنْهُمْ. وقد عُبِّرَ عن دوامِ النَّعيمِ بثلاثِ عباراتٍ: أوَّلُها: ﴿مُّقِيمٌ﴾؛ فإنَّ معناهُ هنا: الدَّائمُ المستمرُّ الذي لا انقطاعَ لَهُ. وثانيها: وصفُ أهلِ الإيمانِ بالخلودِ في الجَنَّةِ، بقولِهِ سبحانَه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وذلكَ يقتضي خلودَهُم في النَّعيم؛ إذِ النَّعيمُ ملازِمٌ لِلجنَّةِ. وثالثُها: التَّنصيصُ على الأبديَّةِ في قولِهِ: ﴿أَبَدًا﴾. فكان مجموعُ ذلك مقتضيًا أنَّ اللهَ ﷻ يبشِّرُ هؤلاءِ المؤمنينَ المهاجرينَ المجاهدين في سَبيلِهِ، بالنِّعَمِ الخالِصَةِ الدَّائمَةِ، المقرونَةِ بالتَّفخيمِ والتَّعظيمِ[4].

(1) لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: 132.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/419.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/4976.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/15.

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ:

إبرازُ المَعنويِّ في صورةِ المَحسوسِ أقربُ إلى الفَهمِ وأعلقُ بالنُّفوسِ

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ استعارَةٌ؛ وذلك أنَّ الإقامة: هي جَعْلُ الشَّيءِ قائمًا، والقيامُ في الأصلِ: انتصابُ شيءٍ إلى أعْلَى، على وجْهِ الثُّبوتِ(1)، ثُمَّ استُعيرَ ذلكَ للأَمْرِ المسْتَمِرِّ(2)؛ تصويرًا للدَّوام - وهو معنويٌّ - في صورة الأمْرِ المنتَصِبِ - وهو حسِّيٌّ - وذلك أعلَقُ بالذِّهْنِ والنَّفس، وأقربُ إلى الفهْمِ والإدْراكِ.

بَلاغَةُ أُسْلوبِ التَّدَلِّي مِنَ الأعلى إلى الأدنى:

حيازة الرَّحمة والرِّضوان، أعْلَى مَسَرَّاتِ أهْلِ الجنان

اشتَمَلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾، علَى ضُروبٍ مِنَ الدَّرجاتِ العاليَةِ، رُتِّبَتْ بَدْءًا مِنَ الأَعْلَى فما بَعْدَهُ في الرُّتْبَةِ، وهي على النَّحْوِ الآتي: أوَّلُها: كون تلكَ البِشارةِ حاصلةً مِنَ اللّهِ تعالى بالرَّحْمَةِ والرِّضْوانِ(3)، وهذا تعظيمٌ وإجلالٌ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ. وثانيها: ذِكْرُ كَوْنِ الجنَّاتِ لَهُمْ؛ فيه إيماءٌ إلى حصولِ المنافِعِ العظيمَةِ لَهُمْ. وثالثُها: التَّنصيصُ على ما فيها مِنَ النَّعيمِ إشارَةٌ إلى كَوْنِ المنافِعِ خالصةً عَنْ أيِّ مُكدِّرٍ(4)، وفي البَدْءِ بأعْلَى الجزاءِ تعجيلٌ لأعْلَى المسَرّاتِ لَهُمْ، وهوَ ملائمٌ لسياقِ البِشارَةِ.

بلاغة أسلوب اللَّفِّ والنَّشْرِ:

الجَزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ، ويتنوَّع الجزاءُ بتنوُّع الأعمال

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾، لَفٌّ ونشْرٌ غيرُ مُرتَّبٍ؛ وذلك لأنَّ اللّه سبحانَه، وصفَ المؤمنينَ بثلاثِ صفاتٍ في قوله جلَّ وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، وهذه الصِّفاتُ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قوم).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.

(3) أسلوب التَّدلّي في الآيَةِ هو بالنَّظر إلى أنَّ الرَّحمةَ والرِّضوانَ مرتبةٌ واحدةٌ مِن مراتبِ البِشاراتِ، أمَّا إذا نُظِرَ إلى الرَّحمةِ والرِّضْوانِ علَى أنَّهما أمرانِ متبايِنانِ مبَشَّرٌ بهما؛ فبينَهُما ترَقٍّ - كما تقدَّمَ.

(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/15.

هي: الإيمانُ، والهِجْرَةُ، والجهادُ في سبيلِ اللّهِ تعالَى بالمالِ والنَّفْسِ، وقَدْ قوبِلَت هذه الأوصافُ الجليلَةُ بالثَّوابِ الجليل، فبُدِئَ بالرَّحْمَةِ في مقابلَةِ الإيمانِ؛ لتوقُّفِها عليه، ولكونِها أعمَّ النِّعَمِ وأَسْبَقَها، كما أنَّ الإيمانَ هو السَّابقُ، وثُنِّيَ بالرِّضْوانِ في مقابلة الجهادِ الذي فيه بَذْلُ المالِ والنَّفْسِ، وثُلِّثَ بالجنَّاتِ في مقابَلَةِ الهِجْرَةِ، وذلكَ أنَّهم لمَّا تركوا أوطانَهُمْ، أبْدَلَهُمُ اللّهُ تعالى بدارِ الكُفْرِ جنَّاتٍ مشتملةً على نعيمٍ مقيمٍ[1]، يهنأ به أهلُه دونَ انقطاعٍ مُفسِد، ولا تنغيصٍ مُقْلِق، فكان ما تقدَّم لفًّا ونشْرًا غيرَ مرتَّبٍ[2]؛ لأنَّ النَّشْرَ لَمْ يَرِدْ على ترتيبِ اللَّفِّ، ولَمْ يقَعِ التَّعيينُ؛ ثِقَةً بأنَّ السَّامع يُمَيِّزُ ما لِكُلِّ واحدٍ منْها، فيَرُدُّه إلَى ما هوَ لَهُ[3].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالخلودِ:

عُبِّرَ بالخلودِ في قوله سبحانَه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، بعدَ التَّعبيرِ عن النَّعيمِ بكونِه مقيمًا، في قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾، وذلك دالٌّ على الدَّوامِ أيضًا؛ ليكونَ التَّصريحُ بلَفْظِ الخُلودِ أَقَرَّ للنَّفْسِ[4]، و"الخلودُ نعمةٌ فوق نعمة الجنَّة ذاتِها، فإنَّ الإحساس بدوام النِّعمة نعمةٌ، وليس في مقابل الدُّنيا الفانية"[5].

التَّصْريحُ بما فيه طَمْأَنَةُ أَهْلِ الإيمانِ، مِن لطفِ اللهِ ذي الإحسانِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بلفظ ﴿أَبَدًاۚ﴾:

في التَّنصيص على التَّأبيدِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾، تأكيدٌ للخُلودِ؛ زيادةً في توضيحِ المرادِ منْهُ، ودَفْعًا لما قَدْ يُتوَهَّمُ من

الإحساسُ بدَوامِ النِّعْمَةِ نِعْمَةٌ في قِمَّةِ النِّعمة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.

(2) قال أبو حيَّان: "لما كانت الأوصاف التي تحلَّوا بها وصاروا بها عَبيدَه حقيقةً هي ثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، قوبلوا في التبشير بثلاثة: الرّحمة، والرضوان، والجنّات. فبدأ بالرحمة لأنّها الوصف الأعمُّ الناشئ عنها تيسير الإيمان لهم، وثنّى بالرضوان لأنه الغاية من إحسان الرّبّ لِعَبده، وهو مقابل الجهاد، إذ هو بذل النفس والمال، وقُدِّم على الجنّاتِ لأنّ رضا الله عن العبد أفضلُ من إسكانهم الجَنَّةَ". ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 5/389 - 390.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/306 - 307.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/419.

(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3259.

أنَّ لفظَ الخلودِ يُقصَدُ بِهِ المُكْثُ الطَّويلُ(1)، فكانَ ذِكْرُ التَّأْبيدِ بمنزِلَةِ الاحتراسِ، والمبالَغةُ في إثباتِ الدَّوامِ لنعيمِ الجنَّةِ إنْعامٌ آخَرُ؛ وذلكَ لأنَّ الإحساسَ بدوامِ النِّعْمَةِ نِعْمَةٌ(2)، وذِكْرُ التَّأبيد بعد الخلود، يتَّفق وعِظَمَ البُشرى مِنَ اللهِ تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾، فذِكْرُ التَّأبيدِ زيادةُ تكريم؛ ولأنَّه ذَكَر لهم أعمالًا عظيمة؛ كالإيمان والهجرة والجهاد، كما أنَّ في ذِكْرِ التَّأبيد تعريضًا بالمنافقين المُتعلِّقين بحبال الدُّنيا الزَّائلة، ففيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى خُسران هؤلاء المنافقين؛ إذ إنَّهم آثَروا الحياة الدُّنيا على الآخرة.

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

جَزاءُ اللهِ تَعالى لِأَهْلِ الإيمانِ وتَكْرِيمُهُ لَهُمْ لا مُنْتَهَى لَهُ

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا، إيذانًا مِنَ اللهِ تعالى بمزيد كَرمِهِ وجزيلِ جزائهِ لأهلِ الإيمانِ، وجمْلَةُ الاستئنافِ واقعَةٌ أيضًا تعليلًا لما تقدَّمَها(3)، ومعناه: "لا قَدْرَ عندَه لأُجورِ الدُّنيا، أو للأعمال التي في مقابلته"(4).

سِرُّ تَعْرِيفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَمِيَّةِ:

عِظَمُ الجَزاءِ والثَّوابِ عند اللهِ تعالى، ممَّا تقَرُّ به أعينُ المؤمنين

جاءَ المسنَدُ إليهِ (الله) معرَّفًا بالعلميَّةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ للإشْعارِ بجليل الثَّوابِ والجزاءِ عند اللهِ تعالى، وذلك لأنَّ الاسْمَ الأحْسَنَ (الله) جامعٌ لصِفات الجلال والجمال والكمال، وذلك مُشْعِرٌ بعظمَةِ ما يُضافُ إليه سبحانَه، وأُكِّدَ ذلك بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلَةِ؛ زيادَةً في تَقْوِيَةِ هذا المعنى وتوثيقِهِ، و"لا تُستَغربُ كثرتُهُ على فضل الله، ولا يُتعَجَّبُ من عِظَمِهِ وحُسْنِه، على مَن يقول للشَّيء: (كُنْ فيكون)"(5).

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/53، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3259.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/419، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/53.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/53.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.

دلالَةُ تَقْديم ﴿عِندَهُۥٓ﴾ في الآية:

اختِصاصُ اللهِ ﷻ بالأجْرِ العَظيمِ؛ لعدم إمكانيَّة ذلك مِن سواه

قُدِّمَ الظَّرْفُ ﴿عِندَهُۥٓ﴾ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ والاختصاص، فالأَجْرُ العظيمُ عند اللّهِ تعالى لا عند غَيْرِه، وما يُعَظِّمُهُ النَّاسُ مِنَ الأجور الدُّنيويَّة عند الخَلْق، إنَّما هو مِنْهُم تعظيمٌ لِغَيْرِ عظيمٍ، والأَجْرُ العظيمُ على الحقيقَةِ عِنْدَ اللّهِ سبحانَه لا غير.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿أَجۡرٌ﴾:

الأُجور عند اللهِ تعالى بقدر عَظَمَة المعطي، لا بقدر حاجة الطَّالب

نُكِّرَتْ كَلِمَةُ ﴿أَجۡرٌ﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، للدّلالَةِ على تفخيمه وتعظيمه، فهو أَجْرٌ عظيمٌ لا تُدْرَكُ حقيقتُه، ولا تُحيطُ به عقولُ أهل الدُّنيا، ولا قَدْرَ عِنْدَهُ لِلْأُجورِ الدُّنيويَّةِ أوِ الأعمالِ التي في مقابَلَتِه[1].

سِرُّ وصْفِ الأَجْرِ بالعَظَمَةِ:

اجْتماعُ العِظَمِ الذَّاتيِّ والعِظَمِ الإضافيِّ في الأَجْرِ الموعود

وُصِفَ الأجرُ بِالعَظَمةِ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ مُبالَغَةً في تعظيم هذا الأَجْرِ وتفخيمِه، وحَسْبُكَ بما يصِفُهُ العظيمُ ﷻ بالعِظَم[2]، فاجتَمَعَ في هذا الأَجْرِ العِظَمُ الذَّاتيُّ المستفادُ مِن تنكيرِ الكلِمَة، والعِظَمُ الإضافيُّ المستفادُ مِن وصْفِهِ بالعظَمَةِ، فَيَكونُ وَصْفُ الأجْرِ بالعظَمَةِ بِمَنْزِلَةِ التَّوكيدِ المَعْنَويِّ له.

بلاغة التَّذْييلِ:

الحَثُّ على الازْدِيادِ مِنَ الأَعْمالِ المرضِيَّةِ؛ لِتَحْصيلِ الدَّرَجاتِ العليّة

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، تذييلٌ جارٍ مجْرَى المثَلِ؛ لاستقلالِه بالإفادَة، وعدم افتقارِه إلى ما قَبْلَهُ، في إدْراك تمامِ المرادِ منه، والمرادُ بالتَّذْييل: التَّنويهُ بشَأْنِ المؤمنينَ المهاجرينَ المجاهِدينَ؛ وذلك لأنَّ مضمونَ هذه الجُمْلَةِ يَعُمُّ مضمونَ ما قَبْلَها وغيرَهُ، وفيه الإشْعارُ بأنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الجزاءِ، هو بعضُ ما عند اللّهِ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/53، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3260.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/419.

سبحانَه، فيكونُ ذلك داعيًا إلى الازْديادِ مِنَ الأعمال الصَّالحة، لتحصيلِ الدَّرجاتِ العاليَةِ عند اللّهِ ﷻ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَجْر، والثَّواب، والجَزاء:

الجَزاءُ: لمقابلةِ الخَيْرِ والشَّرِّ، والأجرُ: لمُقابَلَةِ الخيرِ دائمًا، والثَّوابُ: لمُقابَلَته غالبًا

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ (الهمزةُ والجيمُ والرَّاء) على مَعْنَيَيْنِ؛ وهُما: الكِراءُ على العمل، وجَبْرُ العَظْمِ الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما: بأنَّ أُجرة العاملِ بمنزلة الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُهُ، فيما أصابَهُ مِن كَدٍّ في عملِهِ[2]، وأمَّا الثَّواب: فدالٌّ على العَودِ والرُّجوعِ، والمرادُ به: ما يعود على الإِنْسانِ مِن جَزاء عملِهِ[3]، وأمَّا الجزاءُ: فأصله الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[4].

والفَرْقُ بينَها[5]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ. وأمَّا الجزاءُ: فهو المقابلة على الخَيْرِ بالثَّواب، وعلى الشَّرِّ بالعقاب. وأمَّا الأجرُ: فلا يُستعمل إلَّا في النَّفع دون الضُّرِّ، ويتضمَّن معنى المعاوضةِ، فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء، فَهُما أعمُّ؛ لجريانهما في الخير والشَّرِّ، والثَّوابُ أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء، مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادِّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأَجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقعانِ على المنافع الدُّنيَويَّة، والمنافع الأُخْرَويَّة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(3) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(4) الرَّاغب، المفردات: (جزا).
(5) محمَّد داود، معجم الفُروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمَّد ياس الدُّوريّ، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيّ، ص: 164 - 166.

المحتويات

الجزء التاسع 7

سورة الأنفال 9

- [الأنفال: 27] 10
- [الأنفال: 28] 22
- [الأنفال: 29] 30
- [الأنفال: 30] 40
- [الأنفال: 31] 53
- [الأنفال: 32] 66
- [الأنفال: 33] 78
- [الأنفال: 34] 88
- [الأنفال: 35] 102
- [الأنفال: 36 - 37] 112
- [الأنفال: 38] 136
- [الأنفال: 39 - 40] 149

الجزء العاشر 167

- [الأنفال: 41] 168
- [الأنفال: 42] 193
- [الأنفال: 43 - 44] 207
- [الأنفال: 45] 226
- [الأنفال: 46 - 47] 234
- [الأنفال: 48] 257
- [الأنفال: 49] 274
- [الأنفال: 50 - 51] 286
- [الأنفال: 52] 302
- [الأنفال: 53] 312
- [الأنفال: 54] 321
- [الأنفال: 55] 335
- [الأنفال: 56] 343
- [الأنفال: 57] 351
- [الأنفال: 58] 358
- [الأنفال: 59] 367
- [الأنفال: 60] 372
- [الأنفال: 61] 385
- [الأنفال: 62 - 63] 396
- [الأنفال: 64 - 66] 414
- [الأنفال: 67 - 69] 439
- [الأنفال: 70] 458
- [الأنفال: 71] 477
- [الأنفال: 72] 488
- [الأنفال: 73] 512
- [الأنفال: 74] 521
- [الأنفال: 75] 535

سورة التّوبة 547

- [التّوبة: 1] 560
- [التّوبة: 2] 570
- [التّوبة: 3] 579
- [التّوبة: 4] 594
- [التّوبة: 5] 603
- [التّوبة: 6] 616
- [التّوبة: 7] 626
- [التّوبة: 8] 642
- [التّوبة: 9] 658
- [التّوبة: 10] 668
- [التّوبة: 11] 675
- [التّوبة: 12] 685
- [التّوبة: 13] 701
- [التّوبة: 14 - 15] 713
- [التوبة: 16] 729
- [التوبة: 17] 741
- [التّوبة: 18] 752
- [التوبة: 19] 765
- [التّوبة: 20] 774
- [التوبة: 21 - 22] 785